المستطرف

في كل فن مستظرف

للإمام العلامة

شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي

حققه وعلق عليه وقدم له

محمد إبراهيم سليم

مكتبة ابن سينا

الأبشيهي، محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي ١٣٨٨- ١٤٤٨.
المستطرف في كل فن مستظرف / لشهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي؛ حققه وعلق عليه وقدم له محمد إبراهيم سليم.
ط١- القاهرة: مكتبة ابن سينا، ٢٠١١
٥٩٢ ص؛ ٢٧ سم
تدمك ٨ ١١ ٥٠٨٤ ٩٧٧ ٩٧٨
١- الأدب العربي- مجموعات.
أ- سليم، محمد إبراهيم (محقق ومعلق ومقدم)
ب- العنوان. ٨١٠.٨
رقم الإيداع: ٢٠١١/١٤٠١٨
الترقيم الدولي: 978-977-5084-11-8

تصميم الغلاف: إبراهيم محمد إبراهيم

تطلب جميع مطبوعاتنا من وكيلنا الوحيد بالمملكة العربية السعودية
مكتبة الساعي للنشر والتوزيع
ص.ب ٥٠٦٤٩ الرياض ١١٥٣٣ ـ هاتف: ٤٣٥٣٧٦٨ ـ ٤٣٥١٩٦٦ ـ ٤٣٥٩٠٦٦
فاكس: ٤٣٥٥٩٤٥ جوال: ٠٥٥٠٦٧١٩٦٧
جدة: هاتف/ فاكس: ٦٢٩٤٣٦٧ جوال: ٠٥٥٠٦٧١٩٧٦
E-mail: alsaay99@hotmail.com

مطابع العبور الحديثة - القاهرة
تليفون: ٤٦٦٥١٠١٣ فاكس: ٤٦٦٥١٥٩٩

مكتبة ابن سينا
للنشر والتوزيع والتصدير

نافذتك على الفكر العربي والعالمي من خلال ما تقدمه لك من روائع الفكر العالمي والكتب العلمية والأدبية والطبية ونوادر التراث واللغات الحية. شعارنا: قدم الجديد..
وبسعر أرخص

يشرف عليها ويديرها
مهندس
مصطفى عاشور

٧٦ شارع محمد فريد - النزهة - مصر الجديدة - القاهرة
تليفون: ٠٢٦٢٧٩٨٦٣ ٢٦٢٨٩٣٧٢ فاكس: ٢٦٢٨٠٤٨٢
Web site: www.ibnsina-eg.com
E-mail : info@ibnsina-eg.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

لا يجوز طبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل أو اقتباس أي جزء من الكتاب أو تخزينه بأية وسيلة ميكانيكية أو إليكترونية بدون إذن كتابي سابق من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

ها هو ذا كتاب « المستطرف ... فى كل فن مستظرف » فى حُلّته الجديدة ، بعد أن مضت عليه سنوات وسنوات دون أن يجد من العناية ما يستحقه فى مختلف الطبعات ! وإذا كان الكتاب يقرأ من عُنوانه ؛ فإن كتابنا هذا يوحى عُنوانُه إلينا بمحتواه ؛ حيث اشتمل على كل فن ظريف ، وحوى لطائف ، وطرائف عديدة ، من منتخبات الكتب النفيسة ، إلى جانب ما أودعه مؤلفه من آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية ، وأمثال شعرية ، وألفاظ لغوية ، وحكايات جَدّية ، ونوادر هَزلية ، وغيرها من غرائب ، ولطائف ، وعجائب ينشرح لها الصدر ، وتَقَرُّ بها العين .

وكيف لا ، وقد ضمنه صاحبه - كما يقول : كل لطيفة ونظمه بكل طريفة ، وقرن الأصول فيه بالفروع ، وجعل أبوابه « الأربعة والثمانين » مُقَدَّمة ، وفصَّلها فى مواضعها مرتبة منظَّمة !

الحقَّ أقول : إن كتابًا يضم أربعة وثمانين بابًا ، وفى كل باب فصول تحيط بشتى النواحى ، وتُلِمّ ببعض الجوانب ، فلا تترك شاردة ولا آبدة إلا ضمتها ، وأحسنت عرضها واحتوتها - مثل هذا الكتاب جدير به أن يكون « كتاب الكتب » ، ومرجع التراث ، وخزانة الأدب !

إنه ليس فقط كتاب سمر ، وإنما هو كتاب علم ونظر !

ولقد صدق عليه المثل القائل : « كل الصيد فى جوف الفَرَا » .

إنه بأبوابه « الأربعة والثمانين » يغنينا عن غيره ولا يغنى غيرُه عنه . . إنه موسوعة كبرى تجلى فيها سعة العلم ، وحضور الذهن ، وحسن الاختيار بما اشتملت عليه من فنون النثر والشعر . وحسب الإبشيهى فخرًا - وقد عاش عصر الانحطاط- أن يقدم لنا هذه الموسوعة الكبرى بعد أن رأى جماعة من ذوى الهمم جمعوا أشياء كثيرة من الآداب ، والمواعظ ، والحكم ، وبسطوا مجلدات فى التواريخ والنَّوادر ، والأخبار ، والحكايات ، واللطائف ، ورقائق الأشعار ، وألَّفوا فى ذلك كتبًا كثيرة ، تفرّد كل منها بفرائد ، وفوائد ، لم تكن فى غيره من الكتب محصورة ، فاستخار الله ، وجمع من مجموعها « مُستَطْرَفَه هذا » ليكون مشتملًا على كل فن ظريف ، وخبر لطيف ! وكان له ما أراد ، وها هو ذا بين يديك فى ثوبه الجديد . .

* الإبشيهى وعصره *

المؤلف وعصره وكتابه:

أما المؤلف فقد قال عنه صاحب المنجد ، وكذلك صاحب معجم المؤلفين: هو بهاء الدين محمد بن أحمد الإبشيهى [٧٩٠- ٨٥٢هـ] ، [١٣٨٨- ١٤٤٨م] ، ولد فى أبشويه (مصر) . أديب واعظ : « له المستطرف فى كل فن مستظرف » فى الأدب ، والحكم ، وأخبار العرب .

بينما تذكر الطبعة الأولى على غلافها اسم « شهاب الدين أحمد الإبشيهى » . وهو غلط كما جاء فى الخزانة التيمورية : « نسبة كتاب المستطرف فى النسخ التى بالأيدى لأبيه أحمد غلط » . ويذكر الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة فى موسوعته « قصة الأدب فى مصر- الجزء الثانى » أن اسمه . « محمد بن أحمد الإبشيهى » .

وأنه توفى سنة ٨٤٧هـ . ليلة الجمعة الحادى عشر من شهر ذى الحجة . ويجعل صاحب الأعلام تاريخ وفاته سنة ٨٥٢هـ . ويذكر صاحب معجم المؤلفين أن تاريخ الوفاة هو ٨٥٠هـ . وعلى كل فهو شهاب الدين ، وهو بهاء الدين لقب بهما معًا . وجاء فى معجم المؤلفين : هو محمد بن أحمد بن منصور بن أحمد بن عيسى الإبشيهى المحلّى ، الشافعى (بهاء الدين أبو الفتح) وشأن المؤرخين أن يختلفوا فى تاريخ الميلاد ، والوفاة ، والذى نختاره أنه عاش ثمانية وخمسين عامًا، حيث نشأ فى القرية التى ولد فيها وهى « أَبْشُويه » بمحافظة الغربية التى عاصمتها طنطا بلد العلم والعلماء . وكانت إقامته فى المحلة الكبرى .

ولقد أتيح له أن يمارس الإمامة والخطابة فى بلدته ، وأن يتردد على القاهرة للتزود بنصيب وافر ممن عُرفوا بالتُّقى والورع ، بعد أن أدى فريضة الحج ، وزار مدينة الرسول ﷺ . وكان ممن تلقى العلم على أيديهم « جلال الدين البلقينى » الذى حضر دروسه . ولقد عاصر « ابن خلدون » واطّلع على مقدمته ، ونقل عنها ، وفتح عينيه على علماء عصره من أصحاب الموسوعات ، فلم لا يكون مثلهم ؟ !

ولم لا يقوم بعمل فريد ينفرد به ، ويشهد له يكون شاهدًا على العصر ، ويبرز الدور الذى كانت تقوم به مصر فى حفظ العلوم والفنون أمام الزحف التترى والمغولى ، بل أمام تلك الموجات العدوانية الشرسة التى هبت على وطننا العربى ! لقد أثبت للدنيا أن مصر كانت بحق حامية الثقافة الإسلامية ، وملاذ اللغة العربية والأدب بفنونه وألوانه بعد أن خرب التتار بلاد المسلمين ، ودور العلم والمكتبات فيها !

لقد تطلع العلماء والأدباء والشعراء شرقًا وغربًا فلم يجدوا - آنذاك - غير مصر خصوصًا بعد أن أصبحت موطن الخلافة ، ومقر الإسلام ، فرحلوا إليها من جميع الأقطار ، فكنت ترى القاهرة ، ومراكز العلم الأخرى بالديار المصرية ، تموج بهم موجًا ، وكنت ترى بينهم العراقى ، والشامى ، والفارسى ، والأندلسى ، والإفريقى ، والحجازى . وكان لهؤلاء وأولئك أثرهم فجددوا شباب النهضة العلمية فى العالم الإسلامى ! ومن أولئك العلماء والأدباء على سبيل المثال لا الحصر :

* ابن عقيل المصرى المتوفّى عام ٧٦٩هـ .
* والفيروز أبادى « صاحب القاموس المحيط » المتوفى سنة ٨١٧هـ .
* والقلقشندى صاحب « صبح الأعشى » المتوفى عام ٨٢١هـ .
* والنويرى صاحب « نهاية الأرب » المتوفى عام ٧٣٢هـ.
* وابن فضل الله العمرى صاحب « مسالك الأبصار » المتوفى عام ٧٤٨هـ .
* وتقى الدين حجة الحموى صاحب « خزانة الأدب » المتوفى عام ٨٣٧هـ .
* والدميرى صاحب « حياة الحيوان » المتوفى عام ٨٠٨ هـ .
* والمقريزى صاحب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » المتوفى سنة ٨٤٥هـ.

هؤلاء جميعًا وغيرهم من عمالقة المؤلفين كان له معهم لقاء ، فراح يُدلى بدلوه بين الدلاء ! .

لقد تملكهم جميعًا شعور دينى دفعهم إلى العمل على إعادة ذلك التراث الذى عبثت به كوارث الغزو يوم خرَّت بغداد صريعة تحت أقدام المخربين من التتار عام ٦٥٦ هـ حيث أحرقوا كثيرًا من الكتب ، ودمروا دور العلم والحضارة والثقافة تدميرًا ! لقد آلى العلماء على أنفسهم أن يجددوا ذلك المجد الإسلامى الذى بنى فى دهور ، وانهار فى لحظات ! فأخذوا يبذلون الجهد فى التأليف والتصنيف لإصلاح ما أفسدته الأيام ، وإنشاء كتب جديدة فى اللغة ، والدين ،

والأدب ، وراحوا يتنافسون فى هذا المجال ، ويبدعون. ومن عجب أن هذا العصر الذى يسمى « عصر الانحطاط » - الذى شهده الإبشيهى ، وعاشه - هو بعينه عصر الموسوعات حيث ألف العلماء والأدباء موسوعات أدبية وثقافية عامة ، تعد من أهم مصادر الأدب فى هذا العصر ، وتمتاز بالضخامة والغزارة فيما تضمنته من المادة العلمية والثقافية لقد قرأ الإبشيهى الكثير والكثير ، واطلع على مؤلفات أولئك العمالقة ، وكان كالإسفنجة التى امتصت الآراء والأفكار من كل نبع ! لقد ذكر لنا من تلك المصادر العقد الفريد لابن عبد ربه ، وربيع الأبرار للزمخشرى ، وما خفى كان أعظم وأكثر !

حسبه أنه جمع . . وحسبه أنه حفظ لنا تراثًا غاليًا ، ولا عليه إن كان قد نقل فيما نقل ما لا يصدق العقل ، أو لا يلائم ثقافة العصر ، أو يخدش الحياء ! فلم يكن « المستطرف » إلا مرآة يرى فيها اللاحقون كيف كان السابقون يفكرون ؟! وماذا كان لديهم من فنون ؟! لقد جمع التراث ، وكتب فى كل فن وعلم مما يدل على اطلاعه ، وفقهه ، وتمكُّنه !

ولولا أن ثورة العلم والتكنولوجيا مست بعصاها السحرية كل بلاد العالم ، وأصبح العالم أمامها كأنه قرية صغيرة - لكنَّا ما نزال نجتر بعض تلك المعلومات التى تبدو لنا اليوم أشبه بالخرافات ! جزى الله الإبشيهى عما جمعه وألفه خيرًا ، ونفع بمؤلَّفه الإسلام والمسلمين آمين .

❁ هذه الطبعة وما سبقها من طبعات !

كان لابد أن نرجع إلى الكتاب فى طبعته الأولى لنعرف من مُصححه تاريخ صدورها ، ومَنْ أصدرها ؟

ويقول مصحح الكتاب - فى نهاية الجزء الثانى - السيد « حماد الفيومى العجماوى » : تم طبع هذا الكتاب الجليل ، على ذمة الهمام الأكرم الشيخ شرف موسى بمطبعة حضرته السنية التى مركزها فى مصر خان أبى طاقية فى أوائل شهر الله رجب الحرام من عام ألف وثلثمائة واثنين من هجرة سيد الأنام ﷺ .

وتوالت طبعات الكتاب بطيئة متثاقلة ، ومع أنه ترجم إلى اللغة التركية والفرنسية إلا أن طبعته العربية ظلت تفتقر إلى تحقيق دقيق يعالج ما تضمنته الطبعات من أخطاء ، ويسلط الضوء على بعض المفردات والعبارات التى يتوقف الفهم عليها ، ولقد خلت طبعته المحقَّقة من تخريج ما ساقه المؤلف من أحاديث ، مع إغفال لضبط الشعر ، وإهمال لعزو بعض الآيات إلى سورها ، مما دعانى إلى إعادة النظر فى تحقيقه من جديد ليبدو فى صورة لائقة بقرائه من الباحثين والمثقفين ، وليظل مرجعهم فى كل فن !

وحسبى الله ونعم الوكيل . . . .

محمد إبراهيم سليم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الملك العظيم ، العليِّ الكبير ، الغنيِّ الحميد ، اللطيف الخبير ، المنفردِ بالعزّ والبقاء ، والإرادة والتدابير ، الحَىّ العليم الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير . أحْمَدُه حمدَ عبدٍ معترفٍ بالعجز والتقصير ، وأشكره على ما أعان عليه من قصد ويَسّر من عَسير .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا مشير ، ولا ظَهيرَ له ولا وزير . وأشهد أنّ سيدنا محمدًا عبده ورسوله البشير النذير ، السراج المنير ، المبعوث إلى كافّة الخلق من غنى وفقير ، ومأمور وأمير - صلى اللّه عليه وسلم وعلى آله وأصحابه - صلاة يفوز قائلها من الله بمغفرة وأجر كبير ، وينجو بها فى الآخرة من عذاب السعير ، وحسبنا الله ونعم الوكيل فنعم المولى ونعم النصير .

❁ **أما بعد:**

فقد رأيتُ جماعة من ذوِى الهِمَم جَمَعوا أشياءَ كثيرة من الآداب والمواعظ والحكم ، وبسطوا مجلدات في التواريخ ، والنوادر ، والأخبار ، والحكايات ، واللطائف ، ورقائق الأشعار ، وألفوا فى ذلك كتبا كثيرة ، وتفرّد كل منها بفرائدَ وفَوائدَ لم تكن فى غيره من الكتب محصورة فاستخرتُ الله تعالى وجمعتُ من مجموعها هذا المجموع اللطيف ، وجعلتهُ مشتملًا على كل فن ظريف ، وسميتهُ المستطرفَ فى كل فن مُسْتَظْرف ، واستدللت فيه بآيات كثيرة من القرآن العظيم ، وأحاديث صحيحة من أحاديث النبىّ الكريم ، وطرّزته بحكايات حسنة عن الصالحين الأخيار ، ونقلت فيه كثيرًا مما أودعه الزمخشرىّ فى كتابه « **ربيع الأبرار** » وكثيرًا مما نقله ابن عبد ربه فى كتابه « **العقد الفريد** » ورجوتُ أن يجدَ مُطالعهُ فيه كل ما يَقْصِدُ ويُريد ، وجمعت فيه لطائف وظرائف عديدة من منتخبات الكتبِ النّفيسة المفيدة وأودعته من الأحاديث النبوية ، والأمثال الشعرية ، والألفاظ اللغوية ، والحكايات الجدّية والنوادر الهزلية ، ومن الغرائب والدقائق والأشعار والرقائق ما تُشَنَّفُ بذكرِه الأسماعُ[1] ، وتَقَرّ برؤيته العيونُ وينشرح بمطالعته كلُّ قلب محزُون :

مِنْ كلّ مَغنى يَكادُ المَيْتُ[2] يَفْهَمُهُ ... حُسْنًا ويَعْشَقُهُ القِرْطَاسُ والقَلَمُ

وجعلته يشتمل على أربعة وثمانين بابا من أحسن الفنون ، متوّجة بألفاظ ، كأنها الدُّرّ المكنون ، كما قال بعضهم شعرا فى المعنى :

فَفِى كُلّ بَابٍ مِنْهُ دُرُّ مُؤَلَّفٍ ... كَنَظْمِ عُقُودٍ زَيَّنَتْهَا الجَوَاهِرُ

فَإِنْ نُظِمَ العِقْدُ الَّذى فِيهِ جَوْهَرٌ ... على غَيرِ تَأْلِيفٍ فَمَا الدُّرُّ فَاخِرُ

وضمنته كل لطيفة ، ونظمته بكل ظريفة ، وقرنت الأصول فيه بالفصول ، ورجوت أن يتيسر لى ما رُمتهُ من الوصول ، وجعلت أبوابه مقدّمة ، وفصلتها فى مواضعها مرتبة منظمة ، ليقصد الطالب إلى كل باب منها عند الاحتياج إليه ؛ ويعرف مكانه بالاستدلال عليه ، فيجدَ كلَّ معنى فى بابه - إن شاء الله تعالى - والله المسئول فى تيسير المطلوب ، وأن يُلهمَ الناظرَ فيه ستر مَا يراه من خَلل وعُيوب . إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، وهذه فهرسة الكتاب ، والله المعوّن للصعاب .

❁ (الباب الأول) : فى مبانى الإسلام ، وفيه خمسة فصول .

---

(١) الرقائق: جمع رقيقة، والرقيقة قصيدة تبعث على الزهد، وتذكر باليوم الآخر. وتشنف الآذان: تمتعها بالكلام المشنّف المزيّن.

(٢) الميْت: مَنْ في حكم الميت وليس به. والقرطاس: الورق.

* (الباب الثانى) : فى العقل والذكاء ، والحمق والذم ، وغير ذلك .
* (الباب الثالث) : فى القرآن العظيم ، وفضله ، وحُرمته ، وما أعدّ الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم ، والأجر الجسيم .
* (الباب الرابع) : فى العلم والأدب ، وفضل العالم والمتعلم .
* (الباب الخامس) : فى الآداب والحكَم وما أشبه ذلك .
* (الباب السادس) : فى الأمثال السائرة وفيه فصول .
* (الباب السابع) : فى البيان والبلاغة والفصاحة ، وذكر الفصحاء من الرجال والنساء ، وفيه فصول .
* (الباب الثامن) : فى الأجوبة المسكتة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك .
* (الباب التاسع) : فى ذكر الخُطَبِ والخُطباءِ والشعراء وسرقاتهم ، وكَبَوات الجياد ، وهفوات الأمجاد .
* (الباب العاشر) : فى التوكل على الله - تعالى - والرضا بما قسم ، والقناعة وذم الحرص والطمع ، وما أشبه ذلك ، وفيه فصول .
* (الباب الحادى عشر) : فى المشورة والنصيحة ، والتجارب ، والنظر فى العواقب .
* (الباب الثانى عشر) : فى الوصايا الحسنة ، والمواعظ المستحسنة ، وما أشبه ذلك .
* (الباب الثالث عشر) : فى الصمت ، وصون اللسان ، والنهى عن الغِيبة ، والسعى بالنميمة ، ومدح العُزلة ، وذم الشهرة ، وفيه فصول .
* (الباب الرابع عشر) : فى الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام ، وما يجب للسلطان على الرعية ، وما يجب لهم عليه .
* (الباب الخامس عشر) : فيما يجب على من صحب السلطان ، والتّحذير من صحبته .
* (الباب السادس عشر) : فى الوزراء وصفاتهم وأحوالهم ، وما أشبه ذلك .
* (الباب السابع عشر) : فى ذكر الحجاب والولاية ، وما فيها من الغَرَر[1] والخَطَر .
* (الباب الثامن عشر) : فيما جاء فى القضاء ، وذكر القضاة ، وقَبُول الرِّشوة والهدية على الحكم ، وما يتعلق بالديون ، وذكر القُصّاص ، والمتصوّفة وفيه فصول .
* (الباب التاسع عشر) : فى العدل والإحسان والإنصاف وغير ذلك .
* (الباب العشرون) : فى الظلم وشؤمه ، وسوء عواقبه ، وذكر الظَّلَمةِ وأحوالِهم ، وغير ذلك .
* (الباب الحادى والعشرون) : فى بيان الشروط التى تؤخذ على العمال ، وسيرة السلطان فى استجباء الخراج ، وأحكام أهل الذمة ، وفيه فصلان .
* (الباب الثانى والعشرون) : فى اصطناع المعروف ، وإغاثة الملهوف ، وقضاء الحوائج للمسلمين وإدخال السرور عليهم .
* (الباب الثالث والعشرون) : فى محاسن الأخلاق ومساويها .
* (الباب الرابع والعشرون) : فى حسن المعاشرة والمودة ، والأخوة ، والزيارة وما أشبه ذلك .
* (الباب الخامس والعشرون) : فى الشفقة على خلق الله تعالى ، والرحمة بهم ، وفضل الشفاعة ، وإصلاح ذات البين ، وفيه فصلان .
* (الباب السادس والعشرون) : فى الحياء ، والتواضع ، ولين الجانب ، وخفض الجناح ، وفيه فصلان .
* (الباب السابع والعشرون) : فى العُجْب والكِبر والخُيَلَاء وما أشبه ذلك .

---

(١) الغَرر : الخطر ، والتعريض للهلكة .

* (الباب الثامن والعشرون) : فى الفخر والمفاخرة ، والتفاضل والتفاوت .
* (الباب التاسع والعشرون) : فى الشرف والسُّؤدُد وعلو الهمة .
* (الباب الثلاثون) : فى الخير والصلاح ، وذكر السادة الصحابة ، وذكر الأولياء والصالحين ﷺ.
* (الباب الحادى والثلاثون) : فى مناقب الصالحين وكرامات الأولياء ﷺ .
* (الباب الثانى والثلاثون) : فى ذكر الأشرار والفُجار وما يرتكبون من الفواحش ، والوقاحة والسفاهة .
* (الباب الثالث والثلاثون) : فى الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق ، واصطناع المعروف وذكر الأمجاد ، وأحاديث الأجواد .
* (الباب الرابع والثلاثون) : فى البخل والشح ، وذكر البخلاء وأخبارهم وما جاء عنهم .
* (الباب الخامس والثلاثون) : فى الطعام وآدابه ، والضيافة وآداب المضيف والضيف ، وأخبار الأكلة ، وما جاء عنهم ، وغير ذلك .
* (الباب السادس والثلاثون) : فى العفو ، والحلم ، والصفح ، وكَظْم الغَيْظ ، والاعتذار وقبول المعذرة والعتاب وما أشبه ذلك .
* (الباب السابع والثلاثون) : فى الوفاء بالوعد ، وحسن العهد ، ورعاية الذمم .
* (الباب الثامن والثلاثون) : فى كتمان السرّ وتحصينه ، وذم إفشائه .
* (الباب التاسع والثلاثون) : فى الغَدْر والخيانة ، والسرقة والعداوة والبغضاء ، والحسد، وفيه فصول .
* (الباب الأربعون) : فى الشجاعة وثمرتها ، والحروب وتدبيرها ، وفضل الجهاد وشدّة البأس ، والتحريض على القتال وفيه فصول .
* (الباب الحادى والأربعون) : فى ذكر أسماء الشجعان ، وذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم ، وذكر الجبناء وأخبارهم ، وذم الجبن .
* (الباب الثانى والأربعون) : فى المدح والثناء ، وشكر النعمة ، والمكافأة ، وفيه فصول .
* (الباب الثالث والأربعون) : فى الهجاء ومقدّماته .
* (الباب الرابع والأربعون) : فى الصدق والكذب ، وفيه فصلان.
* (الباب الخامس والأربعون) : فى بر الوالدين ، وذم العقوق ، وذكر الأولاد ، وما يجب لهم وعليهم ، وصلة الرحم والقربات ، وذكر الأنساب ، وفيه فصول .
* (الباب السادس والأربعون) : فى الخلق وصفاتهم ، وأحوالهم ، وذكر الحُسْن والقبح ، والطول والقصر ، والألوان واللباس ، وما أشبه ذلك .
* (الباب السابع والأربعون) : فى ذكر الحُلِىّ والمصُوغ ، والطِّيب والتَّطَيُّب ، وما جاء فى التختم .
* (الباب الثامن والأربعون) : فى الشباب والشَّيْب ، والصحة والعافية ، وأخبار المعمّرين ، وما أشبه ذلك ، وفيه فصول .
* (الباب التاسع والأربعون) : فى الأسماء والكُنى والألقاب ، وما استحسن منها .
* (الباب الخمسون) : فى الأسفار والاغتراب ، وما قيل فى الوداع والفراق ، والحث على ترك الإقامة بدار الهوان ، وحب الوطن والحنين إلى الأوطان .
* (الباب الحادى والخمسون) : فى ذكر الغِنَى وحب المال ، والافتخار بجمعه .
* (الباب الثانى والخمسون) : فى ذكر الفقر ومدحه .
* (الباب الثالث والخمسون) : فى ذكر التلطف فى السؤال ، وذكر من سُئِلَ فجاد .
* (الباب الرابع والخمسون) : فى ذكر الهدايا والتحف ، وما أشبه ذلك .

* (الباب الخامس والخمسون) : فى العمل والكسب ، والصناعات والحرف ، والعجز والتوانى ، وما أشبه ذلك .
* (الباب السادس والخمسون) : فى شكوى الزمان وانقلابه بأهله والصبر على المكاره والتسلى عن نوائب الدهر ، وفيه ثلاثة فصول .
* (الباب السابع والخمسون) : فيما جاء فى اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدّة والسرور بعد الحزن ونحو ذلك .
* (الباب الثامن والخمسون) : فى ذكر العبيد والإماء والخدم ، وفيه فصلان .
* (الباب التاسع والخمسون) : فى أخبار العرب وذكر غرائب من عوائدهم وعجائب أمرهم .
* (الباب الستون) : فى الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة والنوم والرؤية .
* (الباب الحادى والستون) : فى الحِيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد ، والتيقظ والتبصر ونحو ذلك .
* (الباب الثانى والستون) : فى ذكر الدواب والوحوش ، والطير والهوام والحشرات ، مرتبًا على حروف المعجم .
* (الباب الثالث والستون) : فى ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم .
* (الباب الرابع والستون) : فى خلق الجان وصفاتهم .
* (الباب الخامس والستون) : فى ذكر البحار وما فيها من العجائب ، وذكر الأنهار والآبار ، وفيه فصول .
* (الباب السادس والستون) : فى ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبُلدان ، وغرائب البُنْيان ، وفيه فصول .
* (الباب السابع والستون) : فى ذكر المعادن والأحجار وخواصّها .
* (الباب الثامن والستون) : فى الأصوات والألحان وذكر الغناء واختلاف الناس ومن كرهه واستحسنه .
* (الباب التاسع والستون) : فى ذكر المغنين والمطربين ، وأخبارهم ، ونوادر الجلساء فى مجالس الخلفاء .
* (الباب السبعون) : فى ذكر القَيْنَات والأغانى .
* (الباب الحادى والسبعون) : فى ذكر العشق ، ومن بُلى به ، والافتخار به ، والعفاف ، وأخبار من مات بالعشق ، وما فى معنى ذلك ، وفيه فصول .
* (الباب الثانى والسبعون) : فى ذكر رقائق الشعر والمواليا ، والدوبيت ، وكان وكان ، والموشحات ، والزجل ، والقومة والألغاز ، ومدح الأسماء والصفات . وفيه فصول .
* (الباب الثالث والسبعون) : فى ذكر النساء وصفاتهن ، ونكاحهنّ وطلاقهنّ ، وما يمدح وما يذم من عشرتهنّ ، وفيه فصول .
* (الباب الرابع والسبعون) : فى ذم الخمر وتحريمها ، والنهى عنها .
* (الباب الخامس والسبعون) : فى المزاح والنهى عنه ، وما جاء فى الترخيص فيه ، والبسط والتنعم ، وفيه فصول .
* (الباب السادس والسبعون) : فى النوادر والحكايات ، وفيه فصول .
* (الباب السابع والسبعون) : فى الدعاء وآدابه ، وشروطه ، وفيه فصول .
* (الباب الثامن والسبعون) : فى القضاء والقدر وأحكامهما ، والتوكل على الله .
* (الباب التاسع والسبعون) : فى التوبة ، وشروطها ، والندم والاستغفار .
* (الباب الثمانون) : فى ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء من السنة ، والعيادة ، وثوابها وما أشبه ذلك ، وفيه فصول .
* (الباب الحادى والثمانون) : فى ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله .
* (الباب الثانى والثمانون) : فى الصبر والتأسى والتعازى والمراثى ونحو ذلك وفيه فصول .
* (الباب الثالث والثمانون) : فى ذكر الدنيا وأحوالها ، وتقلبها بأهلها ، والزهد فيها ، ونحو ذلك .
* (الباب الرابع والثمانون) : فى فضل الصلاة على النبىّ ﷺ وهو آخر الأبواب : ختمتها بالصلاة على سيد العباد أرجو بذلك شفاعته يوم المعاد .

الباب الأول

فى مبانى الإسلام ، وفيه خمسة فصول

الفصل الأول : فى الإخلاص لله تعالى والثناء عليه

وهو أن تعلَم أن الله تعالى واحدٌ لا شريك له ، فرد لا مِثل له ، صَمَدٌ لا نِدَّ له ، أَزَلىّ قائم ، أبدىٌّ دائم ، لا أوّل لوجوده ، ولا آخرَ لأبديته ، قَيّومٌ لا يفنيه الأبد ، ولا يُغيره الأمد ، بل هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن ، مُنَزّه عن الجِسميّة، ليس كمثله شيء ، وهو فوق كلّ شيء ، فوقيته لا تزيده بُعدًا عن عباده ، وهوأقرب إلى العبيد من حبل الوريد ، وهو على كل شيء شهيد ، وهو معكم أينما كنتم لا يشابه قربه قرب الأجسام ، كما لا يشابه ذاتُه ذوات الأجرام[١] ، منزه عن أن يَحُدّه زمان ، مقدّس عن أن يُحيطَ به مكان ، تراه أبصار الأبرار[٢] فى دار القرار ، على ما دلت عليه الآيات والأخبار ، حىٌّ قادر ، جبار قاهر ، لا يعتريه عجز ولا قُصور ، ولا تأخذه سِنَة ولا نَوْم ، له الملك والملكوت[٣] ، والعزة والجبروت ، خلق الخلق وأعمالَهم ، وقدّر أرزاقهم وآجالهم ، لا تُحصَىٰ مقدوراتُه ، ولا تتناهى معلوماته ، عالم بجميع المعلومات ، لا يعزُب[٤] عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السمٰوات ، يعلم السر وأخفى ، ويطلع على هواجس الضمائر ، وخفيّات السرائر ، مُريد للكائنات ، مُدبّر للحادثات ، لا يجرى فى مُلْكه قليل ، ولا كثير ولا جليل ، ولا حقير ، خير أو شرّ ، نفع أو ضر إلا بقضائه وقدَره ، وحُكمه وَمشيئته ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فهو المبدئ المعيد ، الفاعل لما يريد ، لا مُعقِّبَ لحكمه ، ولا رَادّ لقضائه ، ولا مَهرَب لعبدٍ عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته ، ولا قوّة له على طاعته إلا بمحبته وإرادته ، لو اجتمع الإنس والجنّ والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرّة أو يُسَكِّنوها دون إرادته لعجزوا ، سميع بصير ، متكلم بكلام لا يُشبه كلامَ خلقه ، وكلُّ ما سواه - سبحانه وتعالَى - فهو حادث ، أَوْجَدَه بقدرته ، وما من حركة وسكون إلا وله فى ذلك حكمة دالة على وحدانيته، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة:١٦٤].

وقال أبو العتاهية[٥] :

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الإِلٰهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُه الجَاحِدُ ؟!
وَفِى كُلِّ شَىْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الوَاحِدُ
وَلِلَّهِ فِى كُلِّ تَحْرِيكَةٍ ... وَتَسْكِينَةٍ فِى الوَرَى شَاهِدُ

وقال غيره :

كُلُّ مَا تَرْتَقِى إِلَيْهِ يُوهِمُ[٦] ... مِنْ جَلالٍ وقُدْرةٍ وسَنَاءِ
فَالَّذِى أَبْدَعَ البَرِيَّةَ أَعْلَى ... مِنْهُ سُبْحَانَ مُبْدِعُ الأَشْيَاءِ !

وقال على ﷺ فى بعض وصَاياه لولده : اعلم يا بنى، إنه لو كان لربك شريكٌ لأتتك رُسله ولرأَيتَ آثارَ مُلْكِه وسلطانه ، ولعرفتَ أفعالَه وصفاتِه ، ولكنه إله واحد لا يُضَادُّه فى مُلْكِه أحد .

وعنه ﷺ « كل ما يُتصوَّر فى الأذهان فالله سبحانه بخلافه »[٧] .

---

(١) الأجْرام: «بفتح الهمزة» جمع جِرم وهو الجَسد.
(٢) الأبرار: واحدها بَرّ وهو الصالح غير الفاجر، وهو بارّ والجمع بَرَرَة. ودار القرار: الجنة.
(٣) الملكوت: السلطان والعز، وملكوت الله: سلطانه وعظمته، وملك الله خاصة. أما المِلْك فهو ما يملك ويتصرف فيه خاصة.
(٤) لا يعزُب: لا يغيب.
(٥) أبو العتاهية: شاعر عباسي آثر النسك والعبادة بعد حياة لاهية.
(٦) الوهم: ما يقع في الذهن من الخاطر.
(٧) حديث «كل ما يتصور في الأذهان».. إلخ. لم أقف على هذا الحديث فيما بين يدي من كتب الحديث والتخريجات.

وقال لَبيد بن ربيعة[١] :

ألا كُلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ ... وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ
وكُلُّ ابنِ أُنثى لو تطاولَ عمرُه ... إلى الغايةِ القصوى فلِلْقبرِ آيلُ
وكُلُّ أناسٍ سوفَ تدخلُ بينهم ... دُوَيْهيةٌ تصفرُ منها الأناملُ
وكلُّ امرئٍ يومًا سيعرفُ سَعْيَه ... إذا حُصِّلَتْ عندَ الإلهِ الحصائلُ

وروى أن النبى ﷺ قال وهو على المنبر : « إنّ أشعر كلمة قالتها العرب : ألا كل شيء ما خلا الله باطل »[٢] . ثم بعد هذا الاعتقاد الإقرار بالشهادة بأن محمدًا رسول الله ﷺ بعثَه برسالته إلى الخلائق كافة ، وجعله خاتَمَ الأنبياءِ ، ونسَخ بشريعته الشرائع ، وجعله سيّد البشر ، والشفيعَ المشفَّع فى المحشر ، وجب على الخَلْقِ تصديقهُ فيما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة فلا يصح إيمانُ عبدٍ حتى يؤمنَ بما أخْبَرَ به بعد الموت من سؤالِ مُنْكَرٍ ونكير وهما ملَكان من ملائكة الله - تعالى - يسألان العبد فى قبره عن التوحيد ، والرسالة ، ويقولان له : مَن رَبك ؟ وما دينك ؟ ومَن نبيك ؟ ويؤمن بعذاب القبر ، وأنه حق ، وأنّ الميزانَ حق ، والصراطَ حق ، والحسابَ حق ، وأنّ الجنة حق ، والنار حق ، وأن الله - تعالى - يُدخل الجنةَ من يَشاء بغير حساب ، وهم المقرّبون ، وأنه يُخرج عُصاةَ الموحدين من النار ، بعد الانتقام ، حتى لا يبقى فى جهنم مَن فى قلبه مثقالُ ذرة من الإيمانِ ، ويؤمن بشفاعة الأنبياء ، ثم بشفاعة العلماء ، ثم بشفاعة الشهداء ، وأن يعتقدَ فضلَ الصحابة ﷺ ويُحْسِنَ الظنَّ بجميعهم على ما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار ؛ فمن اعتقد جميع ذلك مؤمنًا به ، موقنًا فهو مِن أهل الحق والسنة ، مفارق لعصابة الضلال والبدعة ، رزقنا الله الثبات ، على هذه العقيدة ، وجعلنا من أهلها ، ووفقنا للدوام إلى الممات على التمسك والاعتصام بحبلها ، إنه سميع مجيب . فهذه العقيدة قد اشتملت على أحد أركان الإسلام الخمسة . قال رسول الله ﷺ : « **بُنِى الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ، وَحَجِّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا** »[٣] .

الفصل الثانى: فى الصلاة وفضلها

قال الله تعالى - : ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨] وقال - تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:١١٠] وقال - تعالى - : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣].

واختلفوا فى اشتقاق اسم الصلاةِ ممَّ هو ؟ فقيل : هو من الدعاء وتَسْمِيَةُ الصلاة دُعَاءً معروفة فى كلام العرب ، فسميت الصلاة صلاةً لما فيها من الدعاء ، وقيل : سميت بذلك من الرحمة ؛ قال الله - تعالى - : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب:٥٦] فهى من الله رحمة ، ومن الملائكة استغفار ، ومن الناس دعاء .

قال ﷺ : « **اللهم صلّ على آل أبى أوفى** »[٤] أى : ارحمهم . وقيل : سميت بذلك من الاستقامة من قولهم : صَلَيْتُ العودَ على النار إذا قوّمته . والصلاة تقيم العبد على طاعة الله وخدمته ، وتنهاه عن خلافه ؛ قال الله - تعالى - : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥] وقيل : لأنها صلة بين العبد وربه . وعن رسول الله ﷺ قال : « **علم الإيمان الصلاة فمن فرَغ لها قلبه وحافظ عليها بحدودها فهو مؤمن** »[٥] .

وعن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال وهو على المنبر : إن الرجل ليشيب عارضاه[٦] فى الإسلام ، وما أكمل لله - تعالى - صلاة ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لا يُتم ركوعَها وسُجودَها وخُشُوعَها وتواضعه وإقبَاله على الله فيها . وقالت

---

(١) شاعر جاهلي من المعمرين الصادقين في شعرهم . والدُّويهية : الموت .

(٢) حديث : «إن أشعر كلمة قالتها العرب» . . إلخ . صحيح : أخرجه مسلم برقم [٢٢٥٦].

(٣) حديث : «بني الإسلام» . . إلخ . ذكره المنذري في الصلوات الخمس والترغيب في المحافظة عليها وقال : رواه البخاري في الإيمان برقم٨ ومسلم في الإيمان برقم ١٩ وغيرهما .

(٤) حديث : «اللهم صلّ على آل أبي أوفى» أخرجه أحمد [٤/ ٣٥٥، ٣٨١].

(٥) حديث «علم الإيمان الصلاة» . . إلخ . عزاه المتقي الهندي في «كنز العمال» [٤٢٣]، إلى ابن النجار في ذيل تاريخ بغداد عن أبي سعيد الخدري .

(٦) عارضاه : صفحتا خده .

عائشة رضي الله عنها : « كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه »[١] . وقيل للحسن : ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهًا ؟ فقال : لأنهم خَلوا بالرحمن ، فألبسهم نورًا من نوره . وقال بعضُهم : لا تفوت أحدًا صلاةٌ فى جماعة إلا بذنب . وكانت رابعة العدوية تصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة ، وتقول : والله ما أريد بها ثوابًا ، ولكن ليَسُرَّ ذلك رسول الله ﷺ ، ويقولَ للأنبياء عليهم السلام انظروا إلى امرأة من أمتى! هذا عملها فى اليوم والليلة .

وقال بعضهم : صليت خلف ذى النون المصرى[٢] ، فلما أراد أن يكبّر رفع يديه وقال : الله ثم بُهت ، وبقى كأنه جَسَد لا روحَ فيه إعظاما لربه - جَلّ وعلا - ثم قال : الله أكبر فظننت أنّ قلبى انخلع من هيبة تكبيره! وقيل : أوحى الله - تعالى - إلى داود عليه السلام يا داود كذب من ادّعى محبتى ، وإذا جن عليه الليل نام عنى ،أليس كُلّ مُحِبّ يُحبُّ الخلوة بحبيبه[٣] ؟! ولعبد الله بن المبارك رحمه الله :

إذا مـا الـلـيـلُ أظـلـمَ كـابـدُوه ... فـيَـسْـفِـر عـنـهـم وهُـمْ رُكُـوعُ
أطـار الـخـوفُ نـومَـهـم فـقـامـوا ... وأهـل الأمـن فـى الـدنـيـا هُـجُـوعُ

وكان سيدى الشيخ الإمام العلّامة فتح الدين بن أمين الدين الحكم النحريرى - رحمه الله - كثيرا ما يتمثل بهذه الأبيات :

يـأيُـهـا الـراقـدُ كـم تَـرْقُـدُ ... قـمْ يـا حَـبـيـبـى قـدْ دنـا الـمـوعـدُ
وخـذ مـن الـلـيـل ولـو سَـاعَـةً ... تـحـظـى إذا مـا هـجَـعَ الـرّقـدُ
مـن نـامَ حـتّـى يَـنـقـضـى لـيـلـهُ ... لـم يَـبْـلُـغ الـمـنـزل لَـوْ يَـجْـهُـدُ

وكان سيدى أويس[٤] القرنى لا ينام ليلهُ ويقول : ما بالُ الملائكة لا يفتُرون ونحن نَفْتُر؟ وقال حذيفة رضي الله عنه : « كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَه أمرٌ فَزِعَ إلى الصلاة »[٥] وقال هشام بن عروة : كان أبى يُطيل المكتوبة ، ويقول : هى رأس المال .

وقال أبو الطفيل : سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يقول يأيها الناس قوموا إلى نيرانكم فأطفئوها، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الصَّلاةُ إلَى الصَّلاةِ كَفَّارَةٌ لِما بَيْنَهُمَا مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ »[٦].

وجَزّأ محمد بن المنكدر عليه ، وعلى أمه ، وعلى أخته الليل أثلاثا فماتت أخته ، فجزأه عليه وعلى أمه ، فماتت أمه فقام الليل كله . وكان مسلم بن بشار إذا أراد أن يصلىَ فى بيته يقول لأهله : تحدّثوا فلست أسمعُ حديثكم ، وكان إذا دخل البيت سكتَ أهلهُ فلا يُسْمَعُ لهم كلام فإذا قام إلى الصلاة تحدّثوا وضحكوا ، ووقع حريق إلى جنبه وهو فى الصلاة فما شعر به حتى أطفئ ! وكان الحَمَامُ يقعُ على رأس ابن الزبير فى المسجد الحرام يحسبه جذعا[٧] منصوبًا لطول انتصابه فى الصلاة ، وكانت العصافير تقع على ظهر إبراهيم بن شريك وهو ساجد ، كما تقع على الحائط . وختم القرآن فى ركعة واحدة أربعة من الأئمة : عثمان بن عفان ، وتميمٌ الدارىّ ، وسعيد بن جبير ، وأبو حنيفة رضي الله عنهم .

ورأى الأوزاعىّ شابا بين القبر والمِنْبر ، فلما طلع الفجر استلقى ثم قال : عند الصباح يَحْمَدُ القوم السُّرى[٨] فقال يا بن أخى لك ولأصحابك لا للجَمّالين .

وكان خلف بن أيوب لا يطرد الذبابَ عن وجْهِه فى الصلاة ؛ فقيل له : كيف تصبر ؟ فقال : بلغنى أن الفُسّاق

---

(١) حديث عائشة رضي الله عنها «كان الرسول ﷺ يحدثنا ونحدثه» . . إلخ . قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: أخرجه الأزدي في الضعفاء من حديث سويد بن غفلة مرسلاً : «كان النبي ﷺ إذا سمع الأذان كأنه لا يعرف أحدًا من الناس».

(٢) ذو النون المصري: أحد العابدين الزاهدين وترجم له المؤلف في باب التصوف . . وبهُت: اعترته دهشة وحيرة.

(٣) «أوحى الله إلى داود» . . إلخ . لم أهتد إليه، ويبدو أنه من الإسرائيليات.

(٤) أويس القرني: أحد الزهاد العابدين. ترجم له المؤلف في باب التصوف.

(٥) حديث: «كان الرسول ﷺ إذا حزبه» أمر إلخ . . أخرجه أحمد وأبو داود وانظر صحيح الجامع [٤٥٧٩].

(٦) حديث: «الصلاة إلى الصلاة» . . إلخ . قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة [١/ ٢٣٣].

(٧) الجذع: ساق النخلة ونحوها، والجمع أجذاع وجُذوع.

(٨) السُّرى: المشي ليلاً، وهو مثل يضرب في احتمال المشقة، والحث على الصبر حتى تحمد العاقبة.

يتصبرون تحت السياط ليقالَ : فلان صبور ، وأنا بين يدى ربى أفلا أصبر على ذباب يقع على ؟ وقال أبو صفوان بن عوانة : ما من منظر أحسن من رجل عليه ثياب بيض ، وهو قائم يصلى فى القمر ، كأنه يشبه الملائكة !

وقال الحسن : ما كان فى هذه الأمة أعبدُ من فاطمة - عليها السلام - بنت رسول الله ﷺ : كانت تقوم بالأسحار حتى تورمت قدماها ، وقام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه[١] « وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر »[٢] « وكانت دموعه تقع فى مصلاه كوَكف المطر »[٣] ، وكان إبراهيم الخليل عليه السلام يُسْمَع لقلبه خفقانٌ وغَلَيَان ! هذا خوفُ الحبيب والخليل مع ما أعطيا من الإجلال والإكرام وشرف المقام . فالعجب كيف يطمئن قلب من أزعجته الأثام؟! وقال رسول الله ﷺ لرجل قال له : ادع الله أن يجعلنى رفيقك فى الجنة فقال : « أَعِنِّى عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ »[٤] .

وقال حاتم الأصم - رحمه الله تعالى - فاتتنى صلاة الجماعة مرّة فعَزّانى أبو إسحاق البخارى وحده ، ولو مات لى ولد لعزانى أكثر من عشرة آلاف لأن مصيبة الدين عندهم أهونُ من مصيبة الدنيا! وكان السلف رضي الله عنهم يعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى ، وسبعا إذا فاتتهم الجماعة وقال : ابن عباس رضي الله عنهما ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه ! وأنشد بعضهم :

خَسِرَ الذى تَركَ الصلاةَ وخَابا ... وأبَى مَعادًا صالحًا ومآبا
إن كانَ يجحدها فحسْبُك أنه ... أضحى بربك كافرًا مُرْتَابا
أو كان يتركها لنوعِ تكاسلٍ ... غَطّى على وجهِ الصوابِ حِجَابا
فالشافِعِىَ ومالكٌ رأيا له ... إن لمْ يتب حَدَّ الحُسَام عِقَابا
والرأى عندى للإمام عذابُه ... بجميع تأديبٍ يراهُ صَوابا

اللهم أعنا على الصلاة ، وتقبلها منا بكرمك ، ولا تجعلنا من الغافلين برحمتك ، يا أرحم الراحمين ! وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

فضل السواك والأذان

ومما يستحسن إلحاقه بهذا الفصل ذكر شىء من فضل السواك والأذان : أما السواك فقد قال الرسول ﷺ : « لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِى لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ »[٥] قال أيضًا : « صلاة على إثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة على غير سواك »[٦] وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : « كان رسول الله ﷺ إذا قام ليتهجد شاص فاهُ بالسواك »[٧] .

وقال : ﷺ : « السواك مَطْهَرَة للفم مَرْضَاةٌ للرب »[٨] وعنه ﷺ أنه قال : « لو يعلم الناس ما فى السواك لبات مع الرجل فى لحافه »[٩] . وقال أيضا : « أفواهكم طرق لكلام ربكم فنظفوها »[١٠] .

---

(١) حديث قام رسول الله ﷺ يصلي إلخ . . ذكره المنذري في الترغيب في قيام الليل، وهو جزء من حديث رواه البخاري ومسلم والنسائي.

(٢) قوله: «وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» بناء على ما تضمنته الآية الكريمة رقم ٢ من سورة الفتح ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

(٣) يقال: وكف الماء يكف: سال وقطر قليلاً قليلاً ووكفت العين الدمع: أسالته.

(٤) حديث: «أعني على نفسك» . . إلخ. قال المنذري: رواه الطبراني في الكبير من رواية ابن إسحاق، ورواه مسلم وأبو داود ، مختصرًا.

(٥) حديث: «لولا أن أشق . .» إلخ. هذه رواية مسلم، كما قال المنذري في الترغيب في السواك، ورواه البخاري بلفظ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة».

(٦) حديث: «صلاة على إثر سواك» . . إلخ. قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: رواه أبو نعيم في كتاب السواك من حديث ابن عمر بإسنادٍ ضعيف، ورواه أبو داود والحاكم وصححه والبيهقي وضعفه من حديث عائشة، وضعفه بلفظ: «من سبعين صلاة».

(٧) حديث: «كان الرسول ﷺ إذا قام ليتهجد . .» إلخ. أخرجه البخاري [٢/ ٦٤]، ومسلم [١/ ٤٦-٤٧].

(٨) حديث: «السواك مطهرة للفم . .» إلخ. ذكره شهاب الدين القسطلاني فيما زاد على الترغيب والترهيب في حديث طويل عن أنس بن مالك ثم قال: رواه الحاكم أبو عبد الله وقال: متصل الإسناد.

(٩) «لو يعلم الناس ما في السواك . .» إلخ. هذا الحديث موضوع. ولوائح الوضع تفوح منه.

(١٠) «أفواهكم طرق للرب . .» إلخ. ضعيف: أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم [٢١١٩] وفيه غياث بن كلوب الكوفي، مجهول. انظر: «ميزان الاعتدال» [٣/ ٣٣٨].

والاختيار فى السواك أن يكون بعُود الأراك ويُجزى بغيره من العيدان ، بالسّعد والأشنان والخِرقة الخَشِنَة وغير ذلك مما ينظف ، ويستاك عرْضًا مبتدئا بالجانب الأيمن من فيه وينوى به الإتيانَ بالسُّنة . والسواك بعود الزيتون يُزيل الحفر من الأسنان . وقال الأصحاب : يقول عند السواك : اللهم بارك لى فيه يا أرحم الراحمين . ويستاك فى ظاهر الأسنان وباطنها ، ويمرّ السواك على أطراف أسنانه وأضراسه وسقف حلقه إمرارًا لطيفا ، ويستاك بعود متوسط لا شديد اليبوسة ولا شديد اللين فإن اشتد يُبسُه ليّنه بالماء . وقد قيل : إن من فضائل السواك أنه يذكر الشهادة عند الموت ، ويسهل خروج الروح .

وأما الأذان فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « **يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يَفرُغ من أذانه** »(١) قيل : فى قوله - تعالى - : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ نزلت فى المؤذنين . وعن أبى سعيد الخدرى ﷺ عن النبى ﷺ قال : « **يَغْفِرُ اللَّهُ لِلْمُؤَذِّنِ مَدَى صَوْتِهِ ، وَيَشْهَدُ لَهُ مَا سَمِعَهُ مِنْ رَطْبٍ وَيَابِسٍ** »(٢) وعن معاوية ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **الْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ** »(٣) رواه مسلم .

وعن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال : « **إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يُسْمَعُ التَّأْذِينُ** »(٤) رواه البخارى ومسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ جِنٌّ وَلَا إِنْسٌ وَلَا شَىْءٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** » [رواه البخارى] . والأحاديث فى فضله كثيرة مشهورة والله - سبحانه وتعالى - أعلم .

الفصل الثالث : فى الزكاة وفضلها

قرن الله - سبحانه وتعالى - الزكاة بالصلاة فى مواضع شتى من كتابه . قال الله - تعالى - : ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣] وقال - تعالى - : ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور:٣٧] وقال - تعالى - : ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥] وعن بريدة ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال : « **مَا حَبَسَ قَوْمٌ الزَّكَاةَ إِلَّا حَبَسَ اللَّهُ عَنْهُمُ الْقَطْرَ** »(٥) وعن عائشة رضي الله عنها عن النبى ﷺ قال : « **ما خالطت الزكاة مالاً قط إلا أهلكته** »(٦) وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « **من كان عنده ما يُزكّى ولم يزكّ ، ومن كان عنده ما يحج ولم يحج سأل الرجعة** »(٧) يعنى قوله - تعالى - : ﴿ . . . قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠] .

ولنلحق بهذا الفصل ذكر شىء من الصدقة وفضلها ، وما جاء فيها وما أعد الله - تعالى - للمتصدقين من الأجر والثواب ودفع البلاء . قال الله - تعالى - : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف:٨٨] . وقال - تعالى - : ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] الآية . والآيات الكريمة فى ذلك كثيرة ، والأحاديث الصحيحة فيه مشهورة . وروى الترمذى فى جامعه بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **خيرُ الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره** » . وفى صحيح مسلم ، ومُوَطّأ مالك ، وجامع الترمذى عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما نَقَصَ مالٌ من صَدَقَةٍ** » أو قال : « **ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا ، وما تواضع عبد إلا رفعه الله تعالى** » .

---

(١) حديث: «يد الرحمن. .» إلخ. ذكره المنذري في الترغيب والترهيب عن أنس، ورواه الطبراني في الأوسط بلفظ: «يد الرحمن فوق رأس المؤذن وإنه ليغفر له مدى صوته أين بلغ».

(٢) قال المنذري: رواه أحمد بإسناد صحيح.

(٣) حديث: «المؤذنون أطول الناس». . إلخ. قال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه مسلم برقم [٤/٨٩]، ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة. وقيل معناه: أكثر الناس تشوفًا إلى الله.

(٤) حديث: «إذا نودي للصلاة. .» إلخ. ذكره المنذري في الترغيب والترهيب «باب ما ورد في الأذان وفضله، وقال: رواه مالك والبخاري ومسلم برقم [١/ ٢٩١] وأبو داود والنسائي.

(٥) حديث: «ما حبس قوم. .» إلخ. قال المنذري رواه الطبراني في الأوسط ورواته كلهم ثقات، والحاكم والبيهقي إلا أنهما قالا: «ولا منع قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر» وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.

(٦) قال المنذري: روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما خالطت الصدقة» أو قال: «الزكاة مالاً إلا أفسدته» ثم قال: رواه البزار والبيهقي.

(٧) حديث: «من كان عنده. .» إلخ. ضعيف: أخرجه ابن عدي في «الكامل» [٧/ ٢٦٧٠] .

ودخلت امرأة شلّاء على عائشة رضي الله عنها فقالت: كان أبى يُحبّ الصدقةَ وأمّى تبغضُها لم تتصدق فى عمرها إلا بقطعة شحم وخَلقَةٍ ؛ فرأيت فى المنام كأن القيامةَ قد قامت ، وكأنّ أمى قد غطت عورتَها بالخلقة ، وفى يدها الشحمة تلحسها من العطش ، فذهبت إلى أبى وهو على حافة حوض يسقى الناس فطلبت منه قدحًا من ماء فسقيتُ أمى فنُوديتُ من فَوقى ألَا مَنْ سَقَاهَا فشَلّ الله يدَهَا فانتبهت كما ترين . ووقف سائل على امرأة وهى تتعَشى ، فقامت فوضعت لُقْمَةً فى فيه ، ثم بكرت إلى زوجها فى مَزْرَعته فوضعت ولدَها عنده ، وقامت لحاجة تريد قضاءَها ، فاختلسه الذئب ، فوقفت وقالت : يا ربّ ولَدِى ! فأتاها آتٍ فأخذ بعنق الذّئب فاستخرجت ولدها من غير أذى ولا ضرر ، فقال لها: هذه اللقمة بتلك اللقمة التى وضعتها فى فم السائل .

وعشش وَرَشَان[١] فى شجرة فى دار رجل فلما همت أفراخُه بالطيران ، زينت امرأة ذلك الرجل له أخذ أفراخ ذلك الوَرَشَان ، ففعل ذلك مرارًا وكلما فرّخ الورشان أخذوا أفراخه ، فشكا الورشان ذلك إلى سليمانَ عليه السلام وقال: يا رسول الله ، أردتُ أن يكون لى أولاد يذكرون الله - تعالى - من بَعدى ، فأخذها الرجلُ بأمر امرأته ثم أعاد الورشان الشكوى ، فقال سليمان لشيطانين إذا رأيتماه يصعد الشجرة فشقاه نصفين فلما أراد الرجل أن يصعد الشجرة اعترضه سائل ؛ فأطعمه كِسرةً[٢] من خبز شعير ، ثم صعد وأخذ الأفراخ على عادته فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه السلام فقال للشيطانين: ألم تفعلا ما أمرتكما به؟ فقالا : اعترضنا ملكان ؛ فطرحانا فى الخافقين[٣] .

وقال النخعى[٤]: كانوا يرون أن الرجل الظلوم إذا تصدّق بشىء دفع عنه البلاء ، وكان الرجل يضع الصدقة فى يد الفقير ، ويتمثل قائمًا بين يديه ، ويسأله قبولَهَا حتى يكون هو فى صورة السائل . وقال رسول الله ﷺ : « **الصدقة تسد سبعين بابا من الشر** »[٥]، وعنه ﷺ قال : « **ردوا صدقة البلاء ولو بمثل رأس الطائر من طعام** »[٦]. وروى عنه ﷺ أنه قال : « **رُدُّوا مَذَمَّةَ السَّائِلِ وَلَوْ بِظِلْفِ مُحرقٍ** »[٧].

وعنه أيضًا ﷺ « **اتَّقُوا النَّار وَلَوْ بِشِقّ تَمْرَةٍ** »[٨]. وقال عيسى عليه السلام : « **من ردّ سائلًا خائبًا لم تغشَ الملائكة ذلك البيت سبعة أيام** »[٩]. وكان نبينا محمد ﷺ يناول المسكين بيده[١٠]، وعنه ﷺ: « **مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَكْسُو مُسْلِمًا ثَوْبًا إِلَّا كَانَ فِى حِفْظِ اللَّهِ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْهُ رُقْعَةٌ** »[١١].

وقال عبد العزيز بن عُمَيْر : الصلاة تبلغك نصف الطريق ، والصوم يبلغك باب الملك ، والصدقة تدخلك عليه . وعن الربيع بن خيثم أنه خرج فى ليلة شاتية وعليه بُرْنُس خَزّ فرأى سائلًا فأعطاه إياه وتلا قوله - تعالى - : ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **لَا يَرُدّ الْقَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ وَلَا يَزِيدُ فِى الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ ، وَإِنَّ سوءَ الْخُلُقِ شُؤْمٌ ، وَحُسْنَ الْمَلَكَةِ نَمَاءٌ ، وَالصَّدَقَةُ تَدْفَعُ ميتَةَ السُّوءِ** »[١٢].

---

(١) الورشان: نوع من الحمام البري أكدر اللون، فيه بياض فوق ذنبه.
(٢) كسرة: قطعة صغيرة.
(٣) الخافقين: الخافق، هو الأفق، والخافقان، أفق المشرق والمغرب.
(٤) من أكابر التابعين صلاحًا وصدق رواية.
(٥) حديث: «الصدقة..» إلخ. ضعيف: أخرجه الطبراني في «الكبير [ج٤ برقم ٤٤٠٢]»، وفيه حماد بن شعيب، وجبارة بن المغلس، ضعيفان. والحدث عن رافع بن خديج.
(٦) قوله: «ردوا صدقة البلاء..» إلخ. لم أقف عليه بهذا اللفظ ووجدت قريبًا منه في اللفظ عند العقيلي [١/ ١٠٥] من حديث عائشة مرفوعًا بلفظ: «ردوا مذمة السائل ولو بمثل رأس الذباب» وهو موضوع. فيه إسحاق بن نجيح المطلي، كذاب، وانظر: «الضعيفة» برقم [١٩٧٤].
(٧) قوله: «ردوا مذمة السائل..» إلخ. أخرجه الترمذي [٦٦٠]. والنسائي [٥/ ٨١].
(٨) قوله: «اتقوا النار ولو بشق تمرة».. رواه الشيخان وأحمد في مسنده عن عدي بن حاتم.
(٩) قال عيسى: من رد سائلاً خائبًا.. إلخ لم أقف عليه.
(١٠) «وكان نبينا ﷺ يناول المسكين.. إلخ.. أخرجه الطبراني في «الكبير» كما في «المجمع» للهيثمي [٣/ ١١٢] أن رسول الله قال: «مناولة المسكين تقى ميتة السوء»، وقال عقبة: «وفيه من لم أعرفه»، فالحديث ضعيف.
(١١) قوله: «ما من مسلم يكسو مسلمًا إلخ».. أخرجه الترمذي برقم [٢٤٨٣]، عن ابن عباس.
(١٢) قوله: لا يرد القضاء إلا الدعاء إلخ هذا الحديث مكون من أربع فقرات، الأول: لا يرد القضاء إلا الدعاء وهو عند الترمذي بإسناد حسن، انظر الصحيحة رقم [١٥٤]، والثاني: إن سوء الخلق شؤم ضعيف، انظر الضعيفة [٧٩٤-٧٩٧]. والثالث: حسن الملكة نماء، ضعيف. انظر السلسلة الضعيفة [٧٩٦]، والرابع: الصدقة.. ضعيف. الضعيفة [٦٦٤].

وقال يحيى بن معاذ[١]: ما أعرفُ حبة تزن جبالَ الدنيا إلا من الصدقة .

وعن عمر ﷺ إن الأعمال : تباهت ؛ فقالت الصدقة ، أنا أفضلكن . وعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « تداركوا الهمومَ والغُمومَ بالصدقات يدفع الله ضركُم وينصركم على عدوكم »[٢] وعن عبيد بن عمير قال : يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط ، وأعطش ما كانوا قط فمن أطعم لله أشبعه الله ، ومن سقى لله سقاه الله ، ومن كسا لله كساه الله .

وقال الشعبى[٣] من لم يَر نفسهَ إلى ثواب الصدقة أحوجَ من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته وضَرَبَ بِها وجهَه . وكان الحسن بن صالح إذا جاء سائلٌ فإن كَان عنده ذهب أو فِضة أو طعام أعطاه فإن لم يكن عنده من ذلك شىء أعطاه دُهنا أو غيره مما ينتفع به ، فإن لم يكن عند شىء أعطاه كُحلا أو أخرج إبرة وخيطًا فرقع بهما ثوب السائل ، ووجه رجلٌ ابنَه فى تجارةٍ فمضت أشهر ، ولم يقع له على خبر ، فتصدق برغيفين ، وأرخ ذلك اليوم ، فلما كان بعد سنة رجع ابنه سالمًا رابحًا فسأله أبوه هل أصابك فى سفرك بلاء ؟ قال : نعم غرقت السفينة بنا فى وسط البحر ، وغرقت فى جملة الناس وإذا بشابين أخذانى ، فطرحانى على الشط ، وقالا لى : قل لوالدك هذا برغيفين ! فكيف لو تصدقت بأكثر من ذلك !! وقال على ﷺ إذا وجدت من أهلِ الفاقة من يحملُ لك زادَك فيوافيك به حيث تحتاج إليه فاغتنم حمله إياه ؛ ولله در القائل حيث قال :

يَبْكِى على الذَّاهِبِ مِنْ مَالِه ... وإنما يَبْقى الذى يَذْهَبُ

وحكى : أن رجلًا عبدَ الله سبعين سنة فبينما هو فى معبَده ذات ليلة إذ وقفت به امرأة جميلة فسألته أن يفتَح لها وكانت ليلةً شاتية فلم يلتفت إليها ، وأقبل على عبادته ، فولت المرأة فنظر إليها فأعجبته فملكت قلبه ، وسلبت لبه ، فترك العبادة وتبعها ، وقال : إلى أين ؟ فقالت : إلى حيث أريد ! فقال : هيهات ! صار المراد مريدًا ، والأحرار عبيدًا ، ثم جذبها فأدخلها مكانه فأقامت عنده سبعة أيام ، فعند ذلك تفكر ما كان فيه من العبادة وكيف باع عبادة سبعين سنة بمعصية سبعة أيام ، فبكى حتى غُشِىَ عليه ؛ فلما أفاق قالت له : يا هذا ؛ والله أنت ما عصيت الله مع غيرى ، وأنا ما عصيت الله مع غيرك ، وإنى أرى فى وجهك أثر الصلاح فبالله عليك إذا صالحك مولاك فاذكرنى ! قال : فخرج هائمًا على وجهه فآواه الليل إلى خربة فيها عشرة عميان ، وكان بالقرب منهم راهب يبعث إليهم فى كل ليلة بعشرة أرغفة فجاء غلام الراهب على عادته بالخبز ، فمد ذلك الرجل العاصى يده فأخذ رغيفًا فبقى منهم رجل لم يأخذ شيئا فقال : أين رغيفى ؟ فقال الغلام : قد فرقت عليكم العشرة ! فقال : أبيت طاويا . فبكى الرجل العاصى ، وناول الرغيف لصاحبه ، وقال لنفسه : أنا أحق أن أبيت طاويا لأننى عاص ، وهذا مطيع ، فنام ، واشتد به الجوع حتى أشرف على الهلاك ؛ فأمر الله - تعالى - ملك الموت بقبض روحه فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ؛ فقالت ملائكة الرحمة : هذا رجل فرّ من ذنبه وجاء طائعًا ، وقالت ملائكة العذاب بل هو رجل عاصٍ ، فأوحى الله - تعالى - إليهم أن زِنُوا عبادة السبعين سنة بمعصية السبع ليال فوزنوها فرجحت المعصية على عبادة السبعين سنة ، فأوحى الله إليهم أن زنوا معصية السبع ليال بالرغيف الذى آثر به على نفسه فوزنوا ذلك فرجح الرغيف ، فتوفته ملائكة الرحمة ، وقبل الله توبته .

وحكى : أن رجلاً جلس يومًا يأكل هو وزوجته ، وبين أيديهما دجاجة مشوية ، فوقف سائل ببابه ، فخرج وانتهره ، فذهب ، فاتّفق بعد ذلك أن الرجل افتقر ، وزالت نعمته ، وطلق زوجته ، وتزوّجت بعده برجل آخر ، فجلس يأكل معها فى بعض الأيام ، وبين أيديهما دجاجة مشوية ، وإذا بسائل يطرق الباب ، فقال الرجل لزوجته: ادفعى إليه هذه الدجاجة ، فخرجت بها إليه فإذا هو زوجها الأول ، فدفعت إليه الدجاجة ورجعت وهى باكية ، فسألها زوجها عن بكائها فأخبرته أن السائل كان زوجها ، وذكرت له قصتها مع ذلك السائل الذى انتهره زوجها الأوّل ، فقال لها زوجها : أنا والله ذلك السائل .

---

(١) يحيى بن معاذ هو أبو زكريا بن جعفر الرازي الواعظ الزاهد، لم يكن له نظير في وقته من أهل الرّي.

(٢) قوله : «تداركوا الهموم.. إلخ» لم أقف عليه.

(٣) عامر بن شراحيل: حافظ ثقة تابعي مُحدّث أخذ عنه الإمام أبو حنيفة.

وذكر عن مكحول[١] أن رجلا أتى إلى أبى هريرة ﷺ فقال : ادع الله لابنى فقد وقع فى نفسى الخوف من هلاكه ، فقال : له : ألا أدلك على ما هو أنفع من دعائى وأنجع وأسرع إجابة ؟ قال : بلى . قال : تصدق عنه بصدقة تنوى بها نجاة ولدك وسلامةَ ما معه فخرج الرجل من عنده ، وتصدق على سائل بدرهم ، وقال: هذا خلاص ولدى وسلامته ، وما معه ، فنادى فى تلك الساعة مناد فى البحر : ألا إن الفداء مقبول ، وزيد مُغَاثٌ ! فلما قدم سأله أبوه عن حاله فقال : يا أبت لقد رأيت فى البحر عجبًا يوم كذا وكذا فى وقت كذا وكذا ، وهو اليوم الذى تصدق فيه والده عنه بالدرهم ، وذلك أنّا أشرفنا على الهلاك والتلف ، فسمعنا صوتًا من الهواء ألا إنّ الفداء مقبول ، وزيد مغاث ، وجاءنا رجال عليهم ثياب بيض ، فقدموا السفينة إلى جزيرة كانت بالقرب منا ، وسَلمنا وصرْنا بخير أجمعين ! والآثار والحكايات فى ذلك كثيرة وفيما أشرت إليه كفاية لمن وعى ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:٣٩]. والله أعلم .

الفصل الرابع: فى الصوم وفضله وما أعد الله للصائم من الأجر والثواب

قال الله - تعالى - : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]. قيل : الصوم صوم عموم ، وخصوص ، وخصوص الخصوص :

فصوم العموم هو : كف البطن والفرج ، وسائر الجوارح عن قصد الشهوة .

وصوم الخصوص هو : كف السمع ، والبصر ، واللسان ، واليد ، والرجل ،وسائر الجوارح عن الآثام .

وصوم خصوص الخصوص هو : صوم القلب عن الهمم الدنية ، وكفه عما سوى الله بالكلية .

قال رسول الله ﷺ : « **زَكَاةُ الْجَسَدِ الصِّيَامُ** »[٢] وعنه ﷺ أنه قال : « **لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ : فَرْحَةٌ عِنْدَ إِفْطَارِهِ ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ** »[٣] . وقال وكيع فى قوله - تعالى - : ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤] إنها أيام الصوم ؛ تركوا فيها الأكل والشرب ، وعن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال : « **مَنْ أَفْطَرَ يَوْمًا فِى رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ رُخْصَةٍ رَخَّصَهَا اللَّهُ لَهُ لَمْ يَقْضِ عَنْهُ صِيَامُ الدَّهْرِ** »[٤] . وروى فى صحيح النسائى عنه أيضًا ﷺ أنه قال : « **إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ** »[٥] . وَرَوَى الزهرى :« **أن تسبيحة واحدة فى شهر رمضان أفضلُ من ألف تسبيحة فى غيره** »[٦] . ورُوى عن قَتَادة أنه كان يقول : من لم يغفر له فى شهر رمضان فلن يُغْفَرَ له فى غيره .

وقال رسول الله ﷺ : « **لو يعلم الناس ما فى شهر رمضان من الخير لتمنت أمتى أن يكون رمضان السنة كلها ، ولو أذن الله للسمٰوات والأرض أن تتكلما لشهدتا لمن صام رمضان بالجنة** »[٧] . وقال ﷺ : « **ليسَ مِنْ عَبْدٍ يُصلى فى ليلة من شهر رمضان إلا كَتَبَ الله له بكل ركعةٍ ألفًا وخَمْسمِائة حسنة وبنى له بيتًا فى الجنة من ياقوتة حمراء لها سبعون ألف باب لكل باب منها مصراعان من ذهب ، وله بكل سجدة يسجدها شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام** »[٨] . وقال ﷺ : « **إنّ لكل صائم دعوةً فإذا أراد أن تُقْبل فلْيَقُل فى كل ليلة عند فِطْرِه يا واسِعَ المغفرةِ اغفر لى** »[٩] وعن

---

(١) مكحول: مولى رسول الله ﷺ الإصابة [١/٤٥٦].

(٢) حديث: «زكاة الجسد . . إلخ» أخرجه ابن ماجه، والبيهقي والطبراني، واللفظ عن ابن ماجه «لكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصوم، والصيام نصف الصبر» [المنتخب في السنة الجزء الخامس].

(٣) جزء من حديث طويل أخرجه الإمام مالك في الموطأ، وابن ماجه في سننه [المنتخب من السنة المجلد الخامس].

(٤) الحديث أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه، وصححه ابن خزيمة، وذكره البخاري تعليقًا «من أفطر يومًا من رمضان من غير عذر، ولا مرض لم يقضه صيام الدهر. وإن صامه».

(٥) أخرجه البخاري في الصوم برقم ١٨٩٩ ومسلم في الصوم برقم ١ .

(٦) روى الزهري أن تسبيحة إلخ ضعيف، وذلك لأن الزهري من صغار التابعين، والإسناد معضل.

(٧) قوله: «لو يعلم الناس ما في رمضان . . إلخ». ضعيف جدًا: أخرجه ابن خزيمة [١٨٨٦]، والشجري في الأمالي» [١/٢٩١] عن ابن مسعود، وفيه جرير بن أيوب، متروك الحديث. انظر: «الميزان» [١/٣٩١].

(٨) قوله: «ليس مِن عبد. . إلخ» ضعيف جدًا: أخرجه البيهقي في «الشعب» [٣٣٦٢]. عن أبي سعيد، وفيه محمد بن مروان السدي، متروك.

(٩) إن لكل صائم دعوة. . إلخ لم أهتد إليه أخرجه الديلمي في «مسنده» كما في «كنزل العمال» برقم [٢٣٧٣٢]. عن ابن عمر، ولوائح الوضع ظاهرة عليه.

عبد الله بن مسعود ﷺ: « من صام يومًا من رمضان خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه فإذا انسلخ عنه الشهر وهو حيّ لم يكتب عليه خطيئة حتى الحول، ومن عطش نفسه لله في يوم شديد الحرّ من أيام الدنيا كان حقًا على الله أن يرويه يوم القيامة»[١].

وقال بعضهم : الصيام زكاة البدن ، ومَنْ صام الدهر فقد وهب نفسه لله -تعالى - .

وروى في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ والجُمْعَةُ إِلَى الجُمْعَةِ ورَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ »[٢] وعنه ﷺ أنه قال : « صِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ كَصِيَامِ الدَّهْرِ »[٣] وهي الأيام البيض ، وهي : الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر من كل شهر .

وفي صحيح البخاري عن أبي سلمةَ عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا واحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »[٤]. وفضل الصوم غزير لأنه خصه الله - تعالى - بالإضافة إليه كما ثبت في الصحيح من الحديث عن النبي ﷺ أنه قال مخبرًا عن ربه - عز وجل - : « كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي ، وأَنَا أَجْزِي بِهِ »[٥] وقد يكتفى في فضله بهذا الحديث الجليل وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الفصل الخامس: في الحج وفضله

قال الله - تعالى - : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧]. وقال رسول الله ﷺ : « من خرج من بيته حاجا أو معتمرًا فمات أُجْرِيَ الله له أجرَ الحاج والمعتمر إلى يوم القيامة »[٦]. وقال ﷺ : « من استطاع الحج ولم يحج فليمت إن شاء يهوديًا وإن شاء نَصرانيًا »[٧]. وفي الحديث : « إن من الذنوب ذنوبًا لا يُكفرها إلا الوقوفُ بعرفة »[٨].

وفيه : « أعظم الناس ذنبًا من وقف بعرفة فظن أنّ الله لم يغفر له »[٩] وهو أفضل يوم في الدنيا وفي الخبر : « إنَّ الحَجَرَ الأَسْوَدَ يَاقُوتَةٌ مِنْ يَوَاقِيتِ الْجَنَّةِ »[١٠] وأنه يبعثه الله يوم القيامة وله عينان ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحقّ وصدق .

وجاء في الحديث الصحيح أن آدم عليه السلام لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام[١١] وقال مجاهد : إن الحجاج إذا قدموا مكة لحقتهم الملائكة ، فسلموا على ركبان الإبل ، وصافحوا ركبان الحُمُر واعتنقوا المشاة اعتناقًا . وكان من سنة السلف ﷺ أن يُشَيِّعوا الغُزاة ، ويستقبلوا الحجاج ، ويقبلوا بين أعينهم ، ويسألوهم الدعاء لهم ، ويبادروا ذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام .

وعن النبي ﷺ: « إن الله قد وعد هذا البيت أن يحجه كل سنة ستمائة ألف ، فإن نقصوا كملهم الله - تعالى - من الملائكة وإن الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة فكل من حجها يتعلق بأستارها ويسعى حولها حتى تدخل الجنة فيدخل معها »[١٢].

---

(١) لم أهتد إليه.

(٢) وكذلك قال الحافظ المنذري: رواه مسلم.

(٣) «صيام ثلاثة أيام.. »إلخ ذكره المنذري في الترغيب في الصوم وفضله وقال: رواه النسائي بإسناد جيد والبيهقي.

(٤) مما اتفق عليه الشيخان كما قال النووي في رياض الصالحين.

(٥) رواه مسلم في باب فضل الصوم [٣/١٥٨].

(٦) من خرج من بيته حاجًا.. إلخ أورده الهيثمي في مجمع الزوائد [٣/٢٠٨] وعزاه للطبراني في الأوسط.

(٧) من استطاع الحج.. إلخ ذكره الغزالي مطولاً في الإحياء، وقال العراقي: أخرجه البيهقي في الشعب وهو ضعيف.

(٨) إن من الذنوب.. إلخ قال العراقي: لم أجد له أصلاً وقال الغزالي: أسنده جعفر بن محمد إلى رسول الله ﷺ.

(٩) أعظم الناس.. إلخ قال العراقي: أخرجه الخطيب في المتفق والمفترق، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف.

(١٠) إن الحجر.. إلخ قال العراقي: أخرجه الترمذي وصححه النسائي من حديث ابن عباس «الحجر الأسود من الجنة» لفظ النسائي، وباقي الحديث رواه الترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن حبان والحاكم، وصحح إسناده من حديث ابن عباس أيضًا.

(١١) قال العراقي: رواه المفضل الجعدي ومن طريقه ابن الجوزي في العلل. وقال: لا يصح ورواه الأزرقي في تاريخ مكة موقوفًا على ابن عباس.

(١٢) قال العراقي: لم أجد له أصلاً.

وحكى : أن جميلة الموصلية بنت ناصر الدولة أبى محمد بن حمدان حَجَّت سنة ست وثمانين وثلاثمائة فصارت تاريخًا مذكورًا . قيل : إنها سقت أهل الموسم كلهم السويق بالطبرزذ والثلج ، واستصحبت البقول المزروعة فى المراكن[١] على الجمال ، وأعدت خمسمائة راحلة للمنقطعين ، ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار ، ولم تستصبح[٢] فيها وعندها إلا بشموع العَنْبر ، وأعتقت ثلاثمائة عبد ومائتى جارية ، وأغنت الفقراء والمجاورين[٣] . ولما بنى آدم عليه السلام البيت وقال: يارب إن لكل عامل أجرًا، فما أجر عملى ؟ قال : إذا طفت به غفرت لك ذنوبك ، قال: زِدْنى ، قال : جعلته قبلة لك ولأولادك ، قال : يارب زِدْنى قال : أغفر لكل من استغفرنى من الطائفين به من أهل التوحيد من أولادك قال يارب حسبى[٤] .

وفى الحديث : « **الحَجُّ المَبْرُورُ لَيسَ لَهُ جَزاءٌ إلَّا الْجَنَّة** »[٥] . وقيل للحسن : ما الحج المبرور ؟ قال : أن ترجع زاهدًا فى الدنيا راغبًا فى الآخرة . وأوّل من كسا الكعبة الديباج[٦] عبد الله بن الزبير ، وكانت كسوتها المسُوح والأنطاع[٧] وكان يُطيبها حتى يوجد ريحُها من خارج الحرم ، وكان حكيم بن حزام يقيم عشية عرفة مائة بدنة ، ومائة رقبة فيعتق الرقاب عشية عرفة ، وينحر البُدْنَ يوم النحر ، وكان يطوف بالبيت فيقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له نعم الربّ ، ونعم الإلٰه ؛ أحبُّه وأخشاه . رئى الحسن بن على رضى الله عنهما يطوف بالبيت ثم صار إلى المقام فصلى ركعتين ثم وضع خَدّه على المقام ، فجعل يبكى ، ويقول : عُبَيْدُك ببابك ، خَوَيْدمك ببابك ، سائلك ببابك ، مُسَيكنك ببابك ، يردّد ذلك مرارًا ثم انصرف رضى الله عنه فمرّ بمساكين معهم فلق خبز يأكلون فسلم عليهم ، فدعوه إلى الطعام ، فجلس معهم وقال : لولا أنه صدقة لأكلت معكم ثم قال : قوموا بنا إلى منزلى فتوجهوا معه ، فأطعمهم ، وكساهم وأمر لهم بدراهم . وحج عبد الله بن جعفر رضى الله عنه ومعه ثلاثون راحلة وهو يمشى على رجليه ، حتى وقف بعرفات فأعتق ثلاثين مملوكا ، وحملهم على ثلاثين راحلة ، وأمر لهم بثلاثين ألفا ، وقال: أعتقتهم لله - تعالى - لعله يعتقنى من النار .

وقال الحسن بن على رضى الله عنهما إنى لأستحى من ربى أن ألقاه ولم أمش إلى بيته فمشى من المدينة إلى مكة عشرين مرّة . ومن لطيف ما أنشد عمرو بن حبان الضرير حين لم يهد إليه الحجاج شيئا :

كأنَّ الحجيجَ الآن لم يَقْرَبُوا مِنَى ... ولم يَحْمِلُوا منها سواكًا ولا نَعْلاَ
أتونا فما جادوا بعود أراكةٍ ... ولاَ وضعوا فى كفِّ طفلٍ لنا نُقْلا !

وقال غيره :

يحجون بالمال الذى يجمعونه ... حرامًا إلى البيتِ العتيق المحرّم
ويزعمُ كلٌّ منهمُو أن وِزْرَه ... يُحَطّ ولكن فوقه فى جَهنم

وقال آخر :

حَجَّ فى الدهر حَجّةً ... حَجّ فيها وأحْرَمَا
وأتانا من الحِجَا ... زِ كما راحَ مُحْرِمَا
فهو ذو الحجة الذى ... ما توقى مُحَرّمَا

وتخاصم بدوى مع حاج عند مُنصَرَف الناس ، فقيل له : أتخاصم رجلاً من الحجاج ؟ فقال :

يحج لكيما يغفر الله ذنبه ... ويرجع قد حُطّت عليه ذنوب

وقال أبو الشمقمق :[٨]

---

(١) السويق: طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير سمي بذلك لانسياقه في الحلق، وإذا أضيف إليه السكر والثلج كان شرابًا جميلاً. والطبرزذ: السكر الذي نحت من حوافيه [القاموس]. والمراكن: جمع مركن، وهو الوعاء الواسع.

(٢) تستصبح: تستضيء، وكان هناك غاز يسمى غاز الاستصباح يستضاء به.

(٣) من يجاورون البيت الحرام، ويعتمدون في عيشهم على المساعدات.

(٤) لما بني آدم.. إلخ لم أقف عليه.

(٥) قال العراقي: أخرجاه من حديث أبي هريرة ابن ماجة في كتاب المناسك [٢/ ٢٥].

(٦) الديباج: ضرب من الثياب سداه ولحمته حرير «فارسي معرب».

(٧) المسوح: جمع مِسْح، وهو الكساء من شعر، والأنطاع: جمع نِطع، وهو بساط من الجلد. وقد كسى بيت الله بالأنطاع.

(٨) أبو الشمقمق: مروان بن محمد خراساني الأصل، شاعر هجاء خبيث اللسان له نوادر وأخبار مع شعراء عصره مات سنة ٢٠٠هـ [الأعلام ٨: ٩٧].

إذا حججت بمال أصله دنس ... فما حججت ولكن حجت العير
ما يقبل الله إلا كل طيبة ... ما كل من حج بيت الله مبرور

والله - سبحانه وتعالى - أعلم .

الباب الثانى

فى العقل والذكاء ، والحمق وذمه ، وغير ذلك

نصّ الله - سبحانه وتعالى - فى مُحكم كتابه العزيز ، ومنزل خطابه الوجيز ، على شرف العقل ، وقد ضرب الله - سبحانه وتعالى - الأمثال وأوضحها ، وبين بدائع مصنوعاته وشرحها فقال - تعالى - : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ . [النحل:١٢] وروى عن النبى ﷺ: أنه قال : « **أوّل ما خلق الله - تعالى - العقل فقال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، فقال عزّ من قائل : وعزتى وجلالى ما خلقت خلقًا أعز علىّ منك، بك آخذ ، وبك أعطى ، وبك أحاسب ، وبك أعاقب** »[(١)] .

وقال أهل المعرفة والعلم : العقل جوهر مضيء خلقه الله - عز وجل - فى الدماغ ، وجعل نورَه فى القلب يدرك به المعلومات بالوسائط ، والمحسوسات بالمشاهدة . واعلم أن العقل ينقسم إلى قسمين : قسم لا يقبل الزيادة والنقصان ، وقسم يقبلهما .

فأما الأول : فهو العقل الغريزى المشترك بين العقلاء .

وأما الثانى : فهو العقل التجريبى وهو مكتسب وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع ، وباعتبار هذه الحالة يقال : إن الشيخ أكمل عقلاً ، وأتم دراية ، وإن صاحب التجارب أكثر فهمًا وأرجح معرفة ، ولهذا قيل : من بيضت الحوادثُ سواد لمته[(٢)]، وأخلقت التجاربُ لباسَ جِدّته ، وأراه الله - تعالى - لكثرة ممارسته تصاريف أقداره وأقضيته ، كان جديرًا برزانة العقل ، ورجاحة الدراية .

وقد يخص الله - تعالى - بألطافه الخَفِيّة مَنْ يشاء من عباده فيُفيض عليه من خزائن مواهبه رزانةَ عقلٍ ، وزيادةَ معرفةٍ تُخرجه عن حد الاكتساب ، ويَصيرُ بها راجحًا على ذوى التجارب والآداب ، ويدل على ذلك قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام فيما أخبر الله - تعالى - به فى محكم كتابه العزيز حيث يقول : ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:١٢]. فمن سبقت له سابقة من الله - تعالى - فى قَسْم السعادة ، وأدركته عناية أزلية أشرقت على باطنه أنوارٌ ملكوتية ، وهداية ربانية ، فاتصف بالذكاء والفطنة قلبهُ ، وأسفر عن وجه الإصابة ظنُّه ، وإن كان حديثَ السِّن قليلَ التجربة ؛ كما نقل فى قصة سليمان بن داود عليهما السلام وهو صبى حيث رد حكم أبيه داودَ عليه السلام فى أمر الغنم والحرث وشرْحُ ذلك فيما نقله المفسرون[(٣)] أن رجلين دخلا على داودَ عليه السلام أحدُهما صاحبُ غَنَم ، والآخر صاحبُ حَرْث ، فقال أحدهما : إنّ هذا دخلت غنمُه بالليل إلى حَرثى فأهلكته وأكلته ولم تُبق لى فيه شيئًا . فقال داود عليه السلام : الغنم لصاحب الحرث عِوَضًا عن حرثه ؛ فلما خرجا من عنده مرّا على سليمان عليه السلام وكان عمره إذْ ذاك على ما نقله أئمة التفسير إحدى عشرة سنة ! فقال لهما : ما حكَمَ بينكما الملك ؟ فذكرا له ذلك ؛ فقال غيرُ هذا أرفُق بالفريقين ! فعادا إلى داود عليه السلام وقالا له : ما قاله ولده سليمان عليه السلام فدعاه داود عليه السلام وقال له : ما هو الأرفق بالفريقين ؟ فقال: سليمان: تُسَلّم الغنم إلى صاحب الحرث وكان الحرثُ كَرْمًا قد تدلت عناقيدُه فى قول أكثر المفسرين فيأخذ صاحب الكَرْم الأغنامَ يأكلُ لبَنها ، وينتفع بدَرّها

---

(١) ذكره ابن أبي الدنيا في العقل وفضله، حديث رقم ١٤، وإسناده موضوع. وقال العراقي: ذكره الطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة، وأبو نعيم من حديث عائشة بإسنادين ضعيفين. وقال ابن القيم: أحاديث العقل كلها كذب كقوله «لَمَّا خلق الله العقل» «المنار ص ٢٥].

(٢) لِمَّته: اللِّمَّة هي شعر رأس المجاوز شحمة الأذن.

(٣) ارجع إلى ابن كثير، والقرطبي، والطبري، والدر المنثور.

ونَسْلها ، ويُسلِّم الكرَم إلى صاحب الأغنام ليقومَ به فإذا عاد الكرْم إلى هيئته وصورتِه التى كان عليها ليلة دخلت الغنم إليه ، سلم صاحبُ الكرْم الغنَم إلى صاحبها وتسلَّم كرمَه كما كان بعناقيده وصورته ؛ فقال له داود : القضاءُ كما قلت ، وحكم به كما قال سليمان عليهما السلام.

وفى هذه القصة نزل(١) - قوله تعالى - : ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩] فهذه المعرفة والدراية لم تحصل لسليمانَ بكثرة التجربة وطُولِ المدة بل حصلت بعناية ربانية ، وألطافِ إلهيّة ، وإذا قذف الله تعالى شيئًا من أنوار مواهبه فى قلب مَنْ يشاء من خلقه اهتدى إلى مواقع الصواب ، ورجح على ذوى التجارب والاكتساب ، فى كثير من الأسباب ، ويستدل على حصول كمال العقل فى الرجل ، بما يُوجَد منه ، وما يصدر عنه ، فإن العقل معنىً لا يمكن مشاهدته فإن المشاهدة من خصائص الأجسام ، فأقول: يستدل على عقل الرجل بأمور متعددة، منها: مَيْله إلى محاسن الأخلاق ، وإعراضه عن رذائل الأعمال ، ورغبته فى إسداء صنَائع المعروف ، وتجنبه ما يُكْسِبُه عارًا ويورثه سوءَ السُّمعة .

وقد قيل لبعض الحكماء : بم يعرف عقل الرجل ؟ فقال : بقلة سَقَطِه فى الكلام ، وكثرة إصابته فيه فقيل له : فإن كان غائبًا فقال : بإحدى ثلاث : إما برسوله ، وإما بكتابه ، وإما بهديته ؛ فإن رسولَه قائم مقام نفسه ، وكتابه يصف نطق لسانه ، وهديته عُنوانُ هِمته ؛ فبقدر ما يكون فيها من نقص يحكم به على صاحبها .

وقيل : مِن أكبر الأشياء شهادةً على عقل الرجل حُسنُ مداراتِه للناس ، ويكفى أن حُسْن المداراة يشهدُ لصاحِبه بتوفيق الله تعالى - إياه ؛ فإنه روى عن النبى ﷺ أنه قال : « **مَنْ حُرِمَ مداراةَ الناس فقد حُرِمَ التوفيقَ** »(٢)؛ **فمقتضاه أنَّ مَن رُزق المداراةَ لم يُحرَم التوفيق . وقالوا : العاقل الذى يُحسنُ المداراة مع أهلِ زمانِه ، وقال رسول الله ﷺ: « الجنة مائة درجة ، تسعٌ وتسعون منها لأهل العقل ، وواحدة لسائر الناس »**(٣).

وقال علىّ بن عبيدة : العقل مَلِكٌ ، والخِصالُ رعيَّة ؛ فإذا ضَعُفَ عن القيام عليها وصل الخلل إليها ؛ فسمعه أعرابىّ فقال هذا كلام يقطر عسلُه ! وقيل : بأيدى العقول تُمسَكُ أعنةُ النفوس ، وكل شىء إذا كَثر رخُص إلا العقل فإنه كلما كثر غلا . وقيل : لكل شىء غاية وحدٌّ ، والعقل لا غايةَ له ولا حدّ ، ولكنّ الناسَ يتفاوتون فيه تفاوتَ الأزهار فى المروج . واختلف الحكماءُ فى ماهيته ، فقال قوم : هو نور وضعه الله طبعًا وغريزة فى القلب كالنور فى العين ، وهو يزيد وينقص ، ويذهب ويعود ، وكما يدرَكُ بالبصر شواهدُ الأمور كذلك يدرك بنور القلب المحجوب والمستور .

وعمى القلب كعمى البصر ، قال الله تعالى : ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. وقيل : محلُّ العقل الدماغُ ، وهو قول أبى حنيفة - رحمه الله - وذهب جماعة إلى أنه فى القلب كما روى عن الشافعى - رحمه الله - ، واستدلوا بقوله - تعالى - : ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]. وبقوله - تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]. أى عقل .

وقالوا : التجربة مرآة العقل ، ولذلك حُمِدتْ آراءُ المشايخ حتى قالوا: المشايخ أشجار الوَقار لا يطيشُ لهم سهم ، ولا يسقطُ لهم فَهْم ، وعليكم بآراء الشيوخ فإنهم إن عَدِموا ذكاء الطبع ، فقد أفادتهم الأيام حيلة وتجربة. قال الشاعر :

ألم تر أنَّ العقلَ زينٌ لأهله ... ولكنْ تمامُ العقلِ طولُ التجاربِ

وقال آخر :

إذا طال عمرُ المرء فى غير آفة ... أفادت له الأيام فى كرّها عقلا

وقال عامر بن عبد قيس : إذا عقَلَك عقلُك عما لا يعنيك فأنت عاقل ، ويقال : لا شرف إلا شرف العقل ، ولا غنى إلا غنى النفس .

وقيل : يعيش العاقل بعقلِه حيث كان ؛ كما يعيش الأسد بقوّته حيث كان . قال الشاعر :

---

(١) أسباب النزول للسيوطي. والنيسابوري.

(٢) «من حُرم.. إلخ» لم أهتد إليه.

(٣) «الجنة مائة درجة.. إلخ» موضوع: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» [٤/ ١٣٩] عن عمر، وفيه غالب ابن عبيد الله منكر الحديث.

إذا لم يكن للمرء عقلٌ فإنه ... وإن كان ذا بيتٍ على الناس هَينُ
ومن كان ذا عقلٍ أُجِلَّ لعقلِه ... وأفضلُ عقلِ عقلُ مَن يَتَدينُ

وقالوا : العاقل لا تُبْطِره المنزلة السَّنِيَّة كالجبل لا يتزعزع ، وإن اشتدّت عليه الريح ، والجاهل تبطره أدنى منزلة كالحشيش يحركه أدنى ريح ، وقيل لعلى ﷺ : صف لنا العاقل. قال : هو الذى يَضعُ الشيءَ مواضعَه . قيل: فصِف لنا الجاهل قال : قد فعلت ، يعنى الذى لا يضع الشيء مواضعه ، وقال المنصور لولده : خُذْ عنى ثِنْتَين : لا تقل من غير تفكير ، ولا تعمل بغير تدبير . وقال أردشير : أربعة تحتاج إلى أربعة : الحسبُ إلى الأدب ، والسرور إلى الأمن ، والقرابة إلى المودّة ، والعقل إلى التجربة ، وقال كسرى أنوشراون : أربعة تؤدّى إلى أربعة : العقل إلى الرياسة ، والرأى إلى السياسة ، والعلم إلى التصدير ، والحلم إلى التوقير .

وقال القاسم بن محمد : من لم يكن عقله أغلب الخِصال عليه كان حتفُه من أغلب الخصال عليه .

وقيل : أفضل العقل معرفة العاقل بنفسه ، وقيل : ثلاثة هن رأس العقل : مداراة الناس ، والاقتصاد فى المعيشة ، والتحبب إلى الناس . وقيل : من أُعجِبَ برأيِ نفسه بَطَلَ رأيُه ، ومن ترك الاستماع من ذوى العقول مات عقله .

وعن عمرو بن العاص ﷺ أنه قال : أهل مصر أعقل الناس صغارًا ، وأرحمهم كبارًا .

وقيل : العاقلُ المحرومُ خيرٌ من الأحمق المرزوق .

وقيل : لا ينبغى للعاقل أن يمدح امرأة حتى تموت ، ولا طعامًا حتى يستمرئه ، ولا يثق بخليل حتى يستقرضه .

وقيل : طول اللحية أمان من العقل . وسئل بعضُهم: أيُّهما أحمَدُ فى الصِّبا الحياء أم الخوف ؟ قال : الحياء ؛ لأن الحياء يدل على العقل ، والخوف يدل على الجبن .

وقيل : غضب العاقل على فعله ، وغضب الجاهل على قوله وقال أبو الدرداء ﷺ قال لى رسول الله ﷺ : « **يا عُوَيمر ، ازدد عقلاً تزدد من الله تعالى قربًا** » . قلت : بأبى وأمى ، ومن لى بالعقل ؟ قال : « **اجتنب محارمَ الله تعالى ، وأدّ فرائضَ الله تعالى تكن عاقلاً ، ثم تنقل إلى صالح الأعمال تزدد فى الدنيا عقلاً وتزدد من الله قربًا وعزًّا** »[1].

وحكى بعض أهل المعرفة قال : حياة النفس بالروح ، وحياة الروح بالذكر ، وحياة القلب بالعقل ، وحياة العقل بالعلم .

ويروى عن علىّ بن أبى طالب ﷺ أنه كان يُنْشد هذه الأبيات ويترنم بها :

إنّ المكارم أخلاقٌ مطهرةٌ ... فالعقلُ أولُها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها ... والجودُ خامسُها والعُرفُ ساديها
والبر سابعُها والصبرُ ثامنها ... والشكر تاسعها واللين عاشيها
والعينُ تعلمُ من عَينَى مُحَدِّثها ... إن كان من حزبها أو مِنْ أعاديها
والنفس تعلم أنى لا أصَدِّقها ... ولست أرشد إلا حين أعصيها

وقال بعض الحكماء : العاقل منْ عقْلَهِ فى إرشاد ، ورأيه فى إمداد ؛ فقوله سديد ، وفعله حميد. والجاهل مِنْ جَهْلِه فى إغراء ، فقوله سقيم ، وفعله ذميم . ولا يكفى فى الدلالة على عقل الرجل الاغترار بحسن مَلْبَسه ، وملاحة سَمْته ، وتسريح لحيته ، وكثرة صلفته[2]، ونظافة بِزَّتِهِ ، إذ كم من كنيف مبيض وجلد مفضض ، وقد قال الأصمعى : رأيت بالبصرة شيخًا له منظر حسن ، وعليه ثياب فاخرة وحوله حاشية وهرْج[3]، وعنده دخل وخرج ، فأردت أن أختبر عقله ، فسلمت عليه ، وقلت له : ما كُنيةُ سيدنا ؟ فقال: أبو عبد الرحمن الرحيم مالك يوم الدين .

قال الأصمعى : فضحكت منه ، وعلمت قلة عقله ، وكثرة جهله ، ولم يدفع ذلك عنه غزارة خرجه ودخله .

---

(١) حديث أبي الدرداء. موضوع: أخرجه الحارث في «مسنده» برقم [٨٣٧-بغية]، والمتهم به: داود ابن المحبر.

(٢) يقال: صف فلان: لم يحظ عند الناس وأبغضوه.

(٣) الهَرْج: الكثرة في الشيء والاختلاط والفتنة، يقال: أصبح القوم في هرْج: في شدة القتال والفتنة.

وقد يكون الرجل موسوما بالعقل مرموقًا بعين الفضل ، فيصدر منه حالة تكشف عن حقيقة حاله ، وتشهد عليه بقلة عقله واختلاله .

وقيل : إن إياس بن معاوية القاضى كان من أكابر العقلاء ، وكان عقله يهديه إلى سلوك طرق لا يكاد يسلكها من لم يهتد إليها ، فكان من جملة الوقائع التى صدرت منه ، وشهدت له بالعقل الراجح ، والفكر القادح ، أنه كان فى زمانه رجلٌ مشهورٌ بين الناس بالأمانة ، فاتفق أن رجلاً أراد أن يحج فأودع عند ذلك الرجل الأمين كيسًا فيه جملة من الذهب ، ثم حج فلما عاد من حجه جاء إلى ذلك الرجل ، وطلب كيسه منه فأنكره ، وجحده ، فجاء إلى القاضى إياس ، وقص عليه القصة فقال له القاضى هل أخبرت بذلك أحدًا غيرى .

قال : لا . قال : فهل علم الرجل أنك أتيت إلىّ؟ قال : لا . انصرف واكتم أمرك ثم عد إلىّ بعد غد ، فانصرف ، ثم إن القاضى دعا ذلك الرجل المستودع فقال له : قد حصل عندى أموال كثيرة ورأيت أن أودعهَا عندك فاذهب وهيئ لها موضعًا حصينًا ، فمضى ذلك الرجل ، وحضر صاحب الوديعة بعد ذهاب الرجل فقال له القاضى إياس: امض إلى خصمك ، واطلب منه وديعتك فإن جحدك فقل له : امض معى إلى القاضى إياس أتحاكم أنا وأنت عنده ، فلما جاء إليه دفع إليه وديعته ، فجاء إلى القاضى ، وأعلمه بذلك ، ثم إن ذلك الرجل المستودع جاء إلى القاضى طامعًا فى تسليم المال فسبه القاضى وطرده ، وكانت هذه الواقعة مما تدل على عقله ، وصحة فكره . ولما مات بعض الخلفاء ، اختلفت الروم ، واجتمعت ملوكها ، فقالوا : الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض ، فتمكننا الغِرّة منهم ، والوثبة عليهم ، وعقدوا لذلك المشورات ، وتراجعوا فيه بالمناظرات ، وأجمعوا على أنه فرصة الدهر ، وكان رجل منهم من ذوى العقل والمعرفة والرأى غائبًا عنهم ، فقالوا من الحزم عرضُ الرأى عليه ، فلما أخبروه بما أجمعوا عليه قال : لا أرى ذلك صوابًا ، فسألوه عن علة ذلك ؟ فقال : فى غدٍ أخبركم إن شاء الله - تعالى - فلما أصبحوا أتوا إليه وقالوا : قد وعدتنا أن تخبرنا فى هذا اليوم بما عَوّلْنا عليه ، فقال : سمعًا وطاعة ، وأمر بإحضار كلبين عظيمين كان قد أعدّهما ، ثم حرّش بينهما ، وحرّض كل واحد منهما على الآخر ؛ فتواثبا وتهارشا حتى سالت دماؤهما ، فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده ، وأرسل على الكلبين ذئبًا كان قد أعده لذلك فلما أبصراه تَرَكا ما كانا عليه ، وتألفت قلوبهما ، ووثبا جميعًا على الذئب فقتلاه ، فأقبل الرجل على أهل الجمع فقال : مثلكم مع المسلمين مثل هذا الذئب مع الكلاب لا يزال الهرْجُ بين المسلمين ما لم يظهر لهم عدوّ من غيرهم فإذا ظهر تركوا العداوة بينهم وتألفوا على العدوّ .

فاستحسنوا قوله ، واستصوبوا رأيه فهذه صفة العقلاء . وأما ذم الحمق فقد قال ابن الأعرابى: الحماقةُ مأخوذةٌ من حَمُقَتِ السُّوق إذا كسدت ، فكأنه كاسد العقل والرأى ، فلا يُشاوَر ، ولا يُلتَفت إليه فى أمر من الأمور . والحمقُ غريزةٌ لا تنفع فيها الحيلة وهو داء دواؤه الموت .

قال الشاعر :

لكلّ داءٍ دواءٌ يُستَطَبّ به ... إلا الحماقةَ أعيت من يُداويها

والحمقُ مذموم ، قال رسول الله ﷺ: « **الأحمق أبغضُ الخلق إلى الله تعالى إذ حرمه أعز الأشياء عليه ، وهو العقل** »[(١)] . ويستدل على صفة الأحمق من حيث الصورة بطول اللحية[(٢)] ؛ لأن مخرجها من الدماغ فمن أفرط طول لحيته قل دماغه ، ومَنْ قَلَّ دماغه قَلَّ عقله ، ومَنْ قَلَّ عقله فهو أحمق .

وأما صفته من حيث الأفعال فترك نظره فى العواقب ، وثقته بمن لا يعرفه ، والعُجْبُ ، وكثرة الكلام ، وسرعة الجواب ، وكثرة الالتفات ، والخلو من العلم ، والعجلةُ ، والخِفة ، والسّفه ، والظلم ، والغفلة ، والسهو ، والخُيَلاء ، إن استغنى بَطِر ، وإن افتقر قنط ، وإن قال أفحش ، وإن سُئِل بخِل ، وإن سأل ألح ، وإن قال لم

---

(١) «الأحمق . . إلخ» أحاديث العقل كلها موضوعة كما قال ابن القيم في «المنار المنيف» [ص٢٥].

(٢) ليس لهذا القول سند علمي، إنما هو تصور القدامى، ولذا يقول المؤلف بعد ذكره لصفات الأحمق: وإن اعتبرنا هذه الخلال وجدناها في كثير من الناس فلا يكاد يعرف العاقل من الأحمق!

يحسن ، وإن قيل له لم يفقه ، وإن ضحك قهقه ، وإن بكى صرخ ، وإن اعتبرنا هذه الخلال وجدناها فى كثير من الناس فلا يكاد يعرف العاقل من الأحمق .

قال عيسى عليه السلام : عالجت الأبرص والأكمه فأبرأتهما ، وعالجت الأحمق فأعيانى ، والسكوت عن الأحمق جوابه . ونظر بعض الحكماء إلى أحمق على حجر فقال : حجر على حجر .

وحكى: أن أحمقين اصطحبا فى طريق فقال أحدهما للآخر: تعال نتمنّ على الله، فإنّ الطريق تُقْطع بالحديث ، فقال أحدهما : أنا أتمنى قطائعَ غنم أنتفع بلبنها ، ولحمها ، وصوفها . وقال الآخر : أنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها على غنمك حتى لا تترك منها شيئًا . قال : وَيْحك أهذا من حق الصُحبة ، وحرمة العشرة ؟! فتصايحا ، وتخاصما واشتدّت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالأطواق ، ثم تراضيا على أن أوّل من يطلع عليهما يكون حكمًا بينهما فطلع عليهما شيخ بحمار عليه زِقّان[1] من عسل ، فحدّثاه بحديثهما فنزل بالزقّين ، وفتحهما حتى سال العسل على التراب ، ثم قال: صب الله دمى مثل هذا العسل إن لم تكونا أحمقين .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : كان رجل يتعبد فى صومعة فأمطرت السماء ، وأعشبت الأرض ، فرأى حماره يرعى فى ذلك العشب ، فقال : يارب لو كان لك حمار لرعيته مع حمارى هذا ، فبلغ ذلك بعض الأنبياء عليهم السلام فهمَّ أن يدعو عليه ، فأوحى الله إليه لا تَدْعُ عليه فإنى أجازى العباد على قدر عقولهم .

ويقال : « فلان ذو حمق وافر ، وعقل نافر » . ليس معه من العقل إلا ما يوجب حجة الله عليه .

وخطب سهل هندًا بنت عتبة فحمّقته فقال :

وما هَوجى[2] يا هندُ إلّا سَجِيّةٌ ... أجُرُّ لها ذيلى بحُسن الخلائق

ولو شئت خادعت الفتى عن قلوصه ... ولاطَمْتُ[3] فى البطحاء[4] من كلّ طارق

ويقال للأبله السليم القلب : هو من بَقَرِ الجنة ، لا ينطح ولا يرمح . والأحمق المؤذى : هو من بقر سقر ! والله سبحانه وتعالى أعلم - وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم-.

الباب الثالث

فى القرآن وفضله ، وحُرمته ، وما أعدّ الله - تعالى - لقارئه من الثواب العظيم ، والأجر الجسيم

قال الله - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧] . وسَمَّى الله - تعالى - القرآن كريمًا فقال - تعالى - : ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٧] . وسماه حكيمًا فقال - تعالى - : ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس:١،٢] . وسماه مجيدا فقال - تعالى - : ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:١]. أنزله الله - تعالى - على سيد الأنام ، وخاتم الأنبياء الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام ؛ فكان من أعظم معجزاته أن أعجز الله الفصحاء عن معارضته ، وعن الإتيان بآية من مثله قال - تعالى - : ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣] . وقال - تعالى - : ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ . [الإسراء:٨٨] فهو النور المبين ، والحق

---

(١) زِقان: مثنى زِق، وهو وعاء من جلد يجز شعره ولا ينتف يستخدم للبن والعسل ونحوهما.

(٢) هَوجى: هَوج، أي حمُق وطال في حُمْق وطيْش، فهو أهوج.

(٣) لاطَمَه: لطم أحدهما الآخر.

(٤) البطحاء: الأبْطح، هو المكان المتسع، ومنه بطحاء مكة.

المستبين ، لا شيء أسطع من أعلامه ، ولا أصدع من أحكامه ، ولا أفصح من بلاغته ، ولا أرجح من فصاحته ، ولا أكثر من إفادته ، ولا ألذ من تلاوته ، قال رسول الله ﷺ: « **القرآن فيه خبر من قبلكم ، ونبأ من بعدكم ، وحُكم ما بينكم** »[١] . وقال أيضًا ﷺ : « **أصغر البيوت بيت صفر من كتاب الله - تعالى -** »[٢] .

وقال الشعبى : الذى يقرأ القرآن إنما يحدث عن ربه - عز وجلّ - .

ووفد غالب بن صعصعة عَلَى عَلِيّ بن أبى طالب رضي الله عنه ومعه ابنه الفرزدق فقال له: من أنت ؟ قال: غالب بن صعصعة . قال : ذو الإبل الكثيرة ؟ قال : نعم . قال : فما فعلت بإبلك ؟ قال : أذهَبَتْها النوائبُ ، وزعزعتها الحقوق. قال: ذلك خير سُبُلها . ثم قال له : يا أبا الأخطل، من هذا الذى معك ؟ قال : ابنى وهو شاعر. قال عَلِّمه القرآن ؛ فهو خير له من الشّعر فكان ذلك فى نفس الفرزدق حتى قَيّد نفسَه وآلى على نفسه أن لا يحل قيدَه حتى يحفظ القرآن فحفظه فى سنة وفى ذلك قال :

وما صَبّ رجلى فى حديدٍ مُجاشِع مع القيدِ إلا حاجةٌ لى أريدُها

وقال أنس رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « **يا بنىّ، لا تغفل عن قراءة القرآن إذا أصبحت ، وإذا أمسيت ؛ فإن القرآن يُحيى القلبَ الميتَ ، ويَنهى عنِ الفحشاء والمنكر** »[٣] .

وحكى الزمخشرى فى كتابه « ربيع الأبرار » قال : ومن حكايات الحشوية[٤] ما قيل : إن إبراهيم الخوّاص مر بمصروع فأذّن فناداه الشيطان من جَوْفه : دعنى أقتلْه فإنه يقول : القرآن مخلوق[٥] .

وكان سفيان الثورى - رحمه الله - إذا دخل رمضان ترك جميع العباد ، وأقبل على قراءة القرآن .

وكان الإمام مالك بن أنس - رحمه الله تعالى - إذا دخل شهر رمضان ، يفر من مذاكرة الحديث ، ومجالسة أهل العلم ، ويُقبل على القراءة فى المصحف .

وكان أبو حنيفة والشعبى - رحمهما الله تعالى - يختمان فى رمضان ستين ختمة .

وقال علىّ رضي الله عنه : من قرأ القرآن فمات ، فدخل النار ، فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزوًا .

وقال الشعبى : اللسان عدل على الأذن والقلب ، فاقرأ قراءة تسمعها أذنك ، ويفهمها قلبك .

وقال رسول الله ﷺ : « **من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدًا أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظّم الله** »[٦] .

وعنه ﷺ أنه قال : « **إنّ القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد**» . قيل يا رسول الله ، وما جلاؤها ؟ ! قال : « **قراءة القرآن وذكر الموت** »[٧] .

وقال عمر بن ميمون : من نشر مصحفًا حين يصلى الصبح فقرأ مائة آية رفع الله له مثل عمل جميع أهل الدنيا ، وقال علىّ كرم الله وجهَه : من قرأ القرآن وهو قائم فى الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة ، ومن قرأه وهو جالس فى الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة ، ومن قرأه فى غير صلاة وهو على وضوء فخمسة وعشرون حسنة ومن قرأه على غير وضوء فعشر حسنات .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب إلىّ من أن أقرأ القرآن كله هذرمة[٨] .

وقال رسول الله ﷺ : « **اقرءوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا** »[٩] .

---

(١) القرآن فيه نبأ.. إلخ. ضعيف: أخرجه الدارمي [٢/ ٤٣٥]، والبيهقي في «الشعب» [١٧٨٨]، وفيه محمد بن يزيد الرفاعي، ضعيف.

(٢) ذكره المنذري، وقال رواه الحاكم موقوفًا، وقال: رفعه بعضهم.

(٣) «يابني.. إلخ» لم أقف على من خرجه.

(٤) الحشوية- بسكون الشين وبفتحها - نسبة إلى الحشو أو الحشا: طائفة تمسكوا بالظواهر، وذهبوا إلى التجسيم وغيره.

(٥) من قال: القرآن، أو شيء منه مخلوق؛ فهو كافر كفرًا أكبر يخرجه من الإسلام بالكلية، لأن القرآن كلام الله - تعالى، منه بدأ، وإليه يعود، وكلامه صفته.

(٦) «من قرأ القرآن.. إلخ» قال العراقي: أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف.

(٧) «إن القلوب لتصدأ.. إلخ». قال العراقي: أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

(٨) هذرمة: أي مسرعًا في القراءة دون تدبر للمعاني، وهو سلوك غير محمود.

(٩) «اقرءوا القرآن.. إلخ. أورده النووي في كتاب التبيان. وإسناده ضعيف. وأخرجه ابن ماجه [١٣٣٧] في إسناده إسماعيل بن رافع من الضعفاء، وقال العراقي: حديث: «اتلوا القرآن.. إلخ» أخرجه ابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص بإسناد جيد.

وعن صالح المزنى قال : قرأت القرآن على رسول الله ﷺ فى المنام ، فقال لى : « يا صَالِحُ، هٰذِه القِرَاءةُ فَأَيْنَ البُكَاءُ » [(١)]. وكان عثمان ﷺ يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة ، وليلة السبت بالأنعام إلى هود ، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم ، وليلة الإثنين بطه إلى طسم موسى وفرعون ، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى صَ، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن ، ويختم ليلة الخميس . وعن على ﷺ لا خير فى عبادة لا فقه فيها ، ولا خير فى قراءة لا تدبرَ فيها . وكان عكرمة بن أبى جهل ﷺ ولعن أباه إذا نشر المصحف أغمى عليه ويقول : هو كلام ربى !

وأبطأت عائشة رضي الله عنها على رسول الله ﷺ ليلة فقال : « ما حبسَك ؟ » قالت : قراءة رجل ما سمعتُ أحسنَ صوتًا منه ؛ فقام فاستمع إليه طويلاً ثم قال : « هٰذَا سَالِمُ مَوْلَى أَبِى حُذَيْفَةَ . الحَمْدُ للَّهِ الَّذِى جَعَلَ فِى أُمَّتِى مِثْلَهُ » [(٢)]. وقال ابن عيينة رأيت رسول الله ﷺ فى المنام فقلت : يا رسول الله ، قد اختلفت علىّ القراءات فعلى قراءة من تأمرنى ؟ فقال: على قراءة أبى عمرو [(٣)].

وعن أبى عمرو إنى لم أزل أطلب أن أقرأه كما قرأه رسول الله ﷺ ، وكما أنزل عليه فقدمت مكة فلقيت بها عدة من التابعين ممن قرأ على الصحابة ﷺ أجمعين فقرأت عليهم فاشدد بها يدك . فينبغى للإنسان أن يحافظ على تلاوة القرآن ليلاً ونهارًا سفرًا وحضرًا .

وقال الشيخ محيى الدين النووى - رحمه الله - فى كتابه الأذكار : قد كان للسلف ﷺ عادات مختلفة فى القَدْر الذى يختمون فيه ؛ فكانت جماعة منهم يختمون فى كل شهر ختمة ، وآخرون فى كل عشر ليال ختمة ، وآخرون فى كل ثلاث ليال ختمة ، وكان كثيرون فى كل يوم وليلة ختمة ، وختم جماعة فى كل يوم وليلة ختمتين ، وختم بعضهم فى اليوم والليلة ثمان ختمات : أربعًا فى الليل ، وأربعًا فى النهار .

وروى أنّ مجاهدًا - رحمه الله - كان يختم القرآن فى شهر رمضان فيما بين المغرب والعشاء . وأما الذين ختموا القرآن فى ركعة فلا يحصون لكثرتهم فمنهم عثمان بن عفان ، وتميم الدارى ، وسعيد بن جبير ﷺ وروينا فى مسند الإمام المجمع على حفظه وجلالته وإتقانه وبراعته أبى محمد الدارمى - رحمه الله - عن سعد بن أبى وقاص ﷺ قال : إذا وفق ختم القرآن أوّل الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح ، وإذا وافق أوّل النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسى . قال الدارمىّ : هذا حديث حسن عن سعد .

وأفضل القراءة ما كان فى الصلاة ، وأما فى غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل ، والنصف الأخير أفضل من الأول والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة وأما قراءة النهار فأفضلها بعد صلاة الصبح ، ولا كراهة فى وقت من الأوقات ، ولا فى أوقات النهى عن الصلاة .

ويستحب الاجتماع عند الختم لحصول البركة ، وقيل : إنّ الدعاء يستجاب عند ختم القرآن، وإن الرحمة تنزل عند ختمه ، ويستحب الدعاء عقب الختم استحبابًا مؤكدًا تأكيدًا شديدًا . ويجب على القارئ الإخلاص فى قراءته ، وأن يريد بها وجه الله - تعالى - وأن لا يقصد بها توصلاً إلى شىء سوى ذلك ، وأن يتأدب مع القرآن ، ويستحضر فى ذهنه أنه يناجى ربه سبحانه - وتعالى - ويتلو كتابه فيقرأ على حالة من يرى الله - تعالى - فإنه إن لم يكن يراه فإن الله يراه .

وينبغى للقارئ إذا أراد القراءة أن ينظف فمه بالسواك . وأن يكون شأنه الخشوع والتدبر والخضوع فهذا هو المقصود والمطلوب ، وبه تنشرح الصدور ويتيسر المرغوب ، ودلائله أكثر من أن تحصر ، وأشهر من أن تذكر ، وقد كان الواحد من السلف ﷺ يتلو آية واحدة ليلة كاملة يتدبرها ، ويستحب البكاء والتباكى لمن لا يقدر على البكاء فإنّ البكاء عند القراءة صفة العارفين ، وشعار عباد الله الصالحين قال الله - تعالى - : ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩] .

وقال السيد الجليل صاحب الكرامات ، والمعارف ، والمواهب ، واللطائف إبراهيم الخوّاص ﷺ دواء القلب

---

(١) جاء في الحديث المتفق عليه، ورواه ابن ماجه، ورواه أحمد. . «من رآني في المنام فقد رأى الحق». بزيادة عن أبي قتادة «فإن الشيطان لا يتزيا بي».

(٢) قال العراقي: أخرجه أبو داود من حديث عائشة ورجال إسناده ثقات.

(٣) رؤيا منامية، ومن رآه ﷺ في المنام فقد رأى الحق كما سبق. قال النووي: ولا يكره أن يقال: هذه قراءة أبي عمرو أو قراءة نافع، أو حمزة، أو الكسائي.

خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتدبر ، وخلو البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين . وقد جاءت آثار بفضيلة رفع الصوت بالقراءة ، وآثار بفضيلة الإسرار ؛ قال العلماء : إن أراد القارئ بالإسرار بُعد الرياء ، فهو أفضل فى حق من يخاف ذلك ، فإن لم يخف الرياء ، فالجهر أفضل بشرط أن لا يؤذى غيره من مُصَلٍّ أو نائم ، أو غيرهما . والأحاديث فى فضل القراءة وآداب حملة القرآن كثيرة غير محصورة ومن أراد الزيادة فلينظر فى كتاب « التبيان فى آداب حملة القرآن » لشيخ مشايخ الإسلام محيى الدين النووىّ قدس الله روحه ونوّر ضريحه ، وقد جاء فى فضل القرآن أحاديث كثيرة .

وروى فى فضل قراءة سور من القرآن فى اليوم والليلة فضل كبير منها : « يس » . و« تبارك الملك » ، و« الواقعة » ، و« الدخان » ، فعن أبى هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **من قرأ يس فى يوم وليلة ابتغاء وجه الله تعالى غفر له** »(١) . وفى رواية له : « **مَنْ قَرأَ سُورَةَ الدُّخانِ فِى لَيْلَةٍ أَصْبَحَ مَغْفُورًا لَهُ** »(٢) . وفى رواية عن ابن عباس وابن مسعود ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة** »(٣) . وعن جابر ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ لا ينام كل ليلة حتى يقرأ : ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ﴾ ، و ﴿تَبَٰرَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾(٤) .

وعن أبى هريرة ﷺ أنه قال : من قرأ فى ليلة : « ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ كانت له كعِدل نصف القرآن ، ومن قرأ : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَٰفِرُونَ﴾ كانت له كعدل ربع القرآن، ومن قرأ : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ كانت له كعدل الثلث »(٥) . والأحاديث بنحو ما ذكرناه كثيرة ؛ وقد أشرنا إلى المقاصد منها والله - تعالى - أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الرابع

فى العلم والأدب ، وفضل العالم والمتعلم

قال الله - تعالى - : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰٓؤُا﴾ [فاطر:٢٨] . وقال - تعالى - : ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١] . وعن معاذ بن جبل ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **تعلموا العلم فإنّ تعلُّمه لله خشية ، ودراسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وطلبه عبادة ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة** »(٦) لأنه معالم الحلال والحرام ، وبيان سبيل الجنة ، والمؤنس فى الوحشة ، والمحدث فى الخلوة ، والجليس فى الوحدة ، والصاحب فى الغربة ، والدليل على السراء ، والمعين على الضراء ، والزين عند الأخلاء ، والسلاح على الأعداء ، وبالعلم يبلغ العبد منازل الأخيار فى الدرجات العُلَى ، ومجالسة الملوك فى الدنيا ، ومرافقة الأبرار فى الآخرة ، والفكر فى العلم يعدل الصيام ، ومذاكرته تعدل القيام ، وبالعلم تُوصَل الأرحام ، وتفصل الأحكام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وبالعلم يعرف الله ويوحد ، وبالعلم يطاع الله ويعبد .

قيل : العلم درك حقائق الأشياء مسموعًا ومعقولاً . قال النبى ﷺ : « **خير الدنيا والآخرة مع العلم ، وشر الدنيا**

---

(١) ذكره المنذري في الترغيب بلفظ: «من قرأ يسّ في ليلة ابتغاء وجه الله غفر له» رواه مالك وابن السني، وابن حبان في صحيحه.

(٢) «من قرأ سورة الدخان.. إلخ». أخرجه الترمذي [٤/ ٣٠٥٠-٣٠٥١].

(٣) «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة.. إلخ». ضعيف: أخرجه ابن السني برقم [٦٧٨].

(٤) كان رسول الله ﷺ لا ينام كل ليلة حتى يقرأ: ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ﴾ و ﴿تَبَٰرَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾. ضعيف: أخرجه الترمذي [٣٠٥٤]، وفيه ليث بن أبي سليم، مدلس.

(٥) من قرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَٰفِرُونَ﴾.. إلخ. ضعيف: أخرجه البيهقي في «الشعب» [٢٢٨٤]، وفيه إسناد ضعيف.

(٦) حديث معاذ «تعلموا العلم.. إلخ..» عزاه المتقي الهندي في «كنز العمال» برقم [٢٨٨٦٧]، للخطيب في المتفق والمفترق.

والآخرة مع الجهل »[١] . وعنه ﷺ : « يوزن مداد العلماء والشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر ، ولغدوة فى طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة ، ولا يخرج أحد فى طلب العلم إلا وملك موكل به يبشره بالجنة ، ومن مات وميراثه المحابر والأقلام دخل الجنة »[٢] . وقال علىّ رضي الله عنه : « أقلّ الناس قيمة أقلهم علمًا ». وقال أيضًا رضي الله عنه : « العلم نهر ، والحكمة بحر ، والعلماء حول النهر يطوفون ، والحكماء وسط البحر يغوصون ، والعارفون فى سفن النجاة يسيرون » . وقال موسى عليه السلام فى مناجاته : « إلهى من أحب الناس إليك. قال: عالم يطلب علمًا » .

وقال بعض السلف رضي الله عنهم : « العلوم أربعة: الفقه للأديان ، والطب للأبدان ، والنجوم للأزمان ، والنحو للسان » . وقيل : العالم طبيب هذه الأمة والدنيا داؤها فإذا كان الطبيب يطلب الداء فمتى يبرئ غيره . وسئل الشعبى عن مسألة فقال : لا علم لى بها . فقيل له: ألا تستحيى ؟ فقال : ولم أستحيى مما لم تستحى الملائكة منه حين قالت : ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [المائدة:١٠٩] ؟ !وعن النبى ﷺ : « فضلُ العالِم عَلى العابِد كَفَضْلى عَلى أدْناكُمْ »[٣] . وروى : « كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » . وقال علىّ رضي الله عنه : « من نصب نفسه للناس إمامًا فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه » ، وقيل : مؤدب نفسه ومعلمها أحق بالإجلال من مؤدب الناس ومعلمهم. وأنشدوا :

يـأيُـهـا الـرجـلُ الـمـعـلـم غـيـرَه ... هـلا لِـنَـفْـسِـك كـان ذا الـتـعـلـيـمُ
تـصِـفُ الـدواءَ لـذى الـسَّـقـام وذى الـضَّـنـى ... كـيـمـا يـصـحُّ بـه وأنـتَ سَـقِـيـمُ
ونـراك تُـصْـلِـحُ بـالـرشـاد عـقـولَـنـا ... أبـدا وأنـت مـن الـرشـاد عـديـمُ
فـابـدأ بـنـفـسـك فـانـهـهـا عـن غـيّـهـا ... فـإذا انـتـهـت عـنـه فـأنـت حَـكـيـمُ
فـهـنـاك يُـقـبَـل مـا تـقـول ويُـهـتَـدىٰ ... بـالـقـول مـنـك ويـنـفـع الـتـعـلـيـمُ
لا تَـنْـه عـن خُـلُـقٍ وتـأتـى مِـثـلَـه ... عـارٌ عـلـيـك إذا فـعـلـت عـظـيـمُ

وقال بعضهم :

إنـى رأيـت الـنـاس فـى عـصـرنـا ... لا يـطـلـبـون الـعـلـم لـلـعـلـم
إلا مـبـاهـاةً لأصـحـابـه ... وعُـدّة لـلـغـش والـظـلـم

ونظر رجل إلى إمرأته وهى صاعدة فى السلم فقال لها: أنتِ طالق إنْ صعدتِ ، وطالق إنْ نزلتِ ، وطالق إن وقفتِ ، فرمت نفسها إلى الأرض . فقال لها : فداك أبى وأمى ، إن مات الإمام مالك احتاج إليك أهل المدينة فى أحكامهم .

وقال النبى ﷺ : « هلاك أمتى فى شيئين : ترك العلم ، وجمع المال »[٤] وسُئِل رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال فقال : « العلم بالله ، والفقه فى دينه » . وكررها عليه ، فقال : يا رسول الله أسألك عن العمل فتخبرنى عن العِلْم ! ! فقال : « إن العلم ينفعك معه قليلُ العمل ، وإن الجهل لا ينفعك معه كثير العمل »[٥] . وقال عيسى عليه السلام : « مَن عَلِم وعَمِل عدّ فى الملكوت الأعظم عظيمًا » .

وقال الخليل رضي الله عنه : « العلوم أقفال ، والأسئلة مفاتيحها » . وعنه رضي الله عنه : « زلة العالم مضروبٌ بها الطبلُ ، وزلةُ الجاهل يُخفيها الجهل » .

---

(١) حديث «خير الدنيا . . إلخ». موضوع: أخرجه محمد بن علي المذكر كما في اللآلئ المصنوعة [١/ ٢٠٠-٢٠١]، عن عمر، وفيه أحمد بن عبد الله الهروي المعروف بالجوباري، وضاع، وشيخه إسحاق بن نجيح الملطي مثله.

(٢) حديث «يوزن مداد العلماء. إلخ» ذكره السيوطي في الدرر المنتثرة [برقم ٣٦٤]، بلفظ «مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء» وقال: هو من كلام الحسن البصري: وروى مرفوعًا بلفظ : «وزن حبر العلماء بدم الشهداء فرجح عليهم». قال الخطيب: هو موضوع.

(٣) «فضل العالم. .» إلخ. . ذكره صاحب كشف الخفاء [برقم ١٨٢٨] وقال: رواه الترمذي وحسنه عن أبي أمامة مرفوعًا، ونقل النجم عن الترمذي أنه صحيح.

(٤) «هلاك أمتي في شيئين. . إلخ». لم أقف عليه.

(٥) «سئل الرسول ﷺ عن أفضل الأعمال إلخ. .» لم أقف عليه.

قال الحسن : « رأيت أقوامًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : من عمل بغير علم كان ما يُفسده أكثرَ مما يُصلحه ، والعاملُ بغير علم كالسائر على غير طريق ، فاطلبوا العلم طَلبًا لا يضر بالعبادة ، واطلبوا العبادةَ طلبًا لا يضر بالعلم » .

وقال يزيد بن ميسرة : من أراد بعلمه وجهَ الله - تعالى - أقبلَ الله بوجهه ووجوهِ العباد إليه ، ومن أراد بعلمه غيرَ وجهِ الله صرفَ الله وجهَه ووجوهَ العباد عنه .

وعن أنس ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال : « **ألا أخبركم بأجود الأجواد** »[١] . قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « **الله أجودُ الأجواد ، وأنا أجود ولد آدم ، وأجود من بعدى رجلٌ عَلِمَ عِلْمًا فنشرَه يُبعث يومَ القيامةِ أمّةً وحدَه ، ورجل جاد بنفسه فى سبيل الله حتى قُتل** » .

وقال الثورىّ : كان يُقال: العالمُ الفاجرُ فِتْنَةٌ لِكُلِّ مفتون . وعن الفُضَيل[٢] - رَحمه الله تعالَى - أنه قال : لو أن أهلَ العلم أكرموا أنفسهم وأعزّوا هذا العلم ، وصانوه وأنزلوه ، حيث أنزله الله إذًا لخضعت لهم رقابُ الجبابرة ، وانْقَادَ لهم الناسُ ، وكانوا لهم تَبعًا ، ولكنهم أذلوا أنفسَهم ، وبذلوا علمهَم لأبناء الدنيا فهانوا وذلوا فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ؛ فأعظِمْ بها مصيبةً والله أعلم .

وللقاضى العلامة أبى الحسن على بن عبد العزيز الجُرجانى[٣] وقد أحسن كلّ الإحسان كأنما طرّزت فى خِلَعِ حِسانٍ :

ولَم أَقضِ حَقَّ العِلْمِ إن كنتُ كلما ... بدا طمعٌ صَيّرتُه لى سُلَّمَا
ولم أَبْتَذِلْ فى خِدمَةِ العِلْمِ مُهجَتى ... لأخدم من لا قيتُ لكن لأخدَما
أَأَشقَى به غَرْسًا وأَجنيه ذِلّةً ... إذًا فاتّباعُ الجَهلِ قد كان أسلما
فإن قلتُ زند العلم[٤] كابٍ فإنما ... كبا حين لم نحرسْ حِماهُ وأظلَمَا
ولو أنَّ أهلَ العِلْمِ صانُوهُ صانَهُمْ ... ولو عَظّمُوهُ فى النفوسِ لعُظِّمَا
ولكن أهانُوهُ فَهَانُوا ودَنَّسُوا ... مُحَيّاه بالأطماعِ حتى تَجَهَّمَا

وقيل : من لم يتعلّمْ فى صغرِه ، لم يتقدّم فى كبره ، وقال الفُضَيْل: شرّ العلماءِ مَن يجالسُ الأمراء ، وخير الأمراءِ مَنْ يجالسُ العلماءَ .

وقال لقمان : جالس العلماءَ وزاحِمْهُم برُكبتَيْك فإن الله يُحيى القلوبَ بنور الحكمة ، كما يحيى الأرض بماء السماء . وقيل : مَنْ عُرِفَ بالحكمة لاحظته العيونُ بالوَقار . وكان ابن مسعود ﷺ إذا رأى طالبى العلم قال : مرحبًا بكم ينابيعَ الحكمة ، ومصابيح الظلمة ، خلقان الثياب جدد القلوب رياحين كل قبيلة .

وقال على ﷺ : « كفى بالعلم شرفًا أن يدّعيه مَنْ لا يُحْسِنُه ، ويفرح به إذا نسب إليه ، وكفى بالجهل ضَعَةً أن يتبرأ منه من هو فيه ، ويغضب إذا نسب إليه » .

وعن النبى ﷺ : « **ما آتى الله أحدًا عِلْمًا إلا أخذ عليه الميثاقَ أن لا يكتمه أحدا** »[٥] .

ودعا بعضهم لآخر فقال : جعلك الله ممن يطلب العلمَ رِعايةً لا رواية ، وممّنْ يظهر حقيقة ما يعلمه بما يعمله .

وعن عمر ﷺ عن النبى ﷺ قال : « **على باب الجنة شجرةٌ تحملُ ثمارًا كَثُدِىّ النساء ، يخرج من تحتها عينُ ماء**

---

(١) «ألا أخبركم بأجود الأجواد.. إلخ» ضعيف جدًا: أخرجه أبو يعلي [٢٧٩٠]، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» [١/ ١٣٢]، وفيه نوح بن ذكوان ضعيف جدًا.

(٢) هو أبو علي الفضيل بن عياض المتوفى بمكة سنة ٧١٧هـ. وكان تصوفه نقيًا من الشوائب، وهو تصوف العلماء.

(٣) القاضي الجرجاني له ديوان شعر [٣٣٧- ٣٩٢هـ] وتوفي في نيسابور.

(٤) الزند: العود الأعلى الذي تقدح به النار، والأسفل هو الزندة، والجمع زناد وأزناد، وتقول لمن أنجدك: ورت بك زنادي. كاب: خمدت ناره فخلا من النار.

(٥) «ما آتى الله أحدًا علمًا.. إلخ». أورده المتقي الهندي في «كنز العمال [٢٩٠٠٠].

يشرب منها العلماء والمتعلمون مثل اللبن الحليب ، والناس عطاش »[١] . وعن ابن مسعود ﷺ : « من تعلّم بابًا من العلم ليعلمه الناس ابتغاءَ وجهِ الله أعطاه الله أجر سبعين نبيًّا »[٢] .

وعن أنس ﷺ عن رسول الله ﷺ :« ويلٌ لأمتى من علماء السوء يتخذون العلم تجارة يبيعونها لا أربح الله تجارتهم »[٣] :

العلمُ أنفسُ شيءٍ أنتَ داخرُه ... من يدرسِ العلمَ لم تدرُسْ مفاخِرُه
أقْبِلْ على العِلم واستقبلْ مقاصدَه ... فأوّل العلم إقبالٌ وآخرُه

قال الشعبى : دخلت على الحجاج حين قدم العراق فسألنى عن اسمى ، فأخبرته ، ثم قال : يا شعبى ؛ كيف علمك بكتاب الله ؟ قلت : عنى يؤخذ . قال : كيف عِلْمُك بالفرائض ؟ قلت : إلىّ فيها المنتهى . قال : كيف علمك بأنساب الناس ؟ قلت : أنا الفيصل فيها . قال : كيف علمك بالشعر ؟ قلت : أنا ديوانه . قال : لله أبوك وفرض لى أموالاً وسوّدنى على قومى ، فدخلت عليه ، وأنا صعلوك من صعاليك همدان ، وخرجت وأنا سيدهم ، قال البستى :

إذا لم يَزِدْ عِلمُ الفتى قلبَه هُدَى ... وسيرتَه عَدْلاً وأخلاقَه حُسْنَا
فبَشِّرْه أن الله أولاه فِتنَةً ... تُغَشيه حِرْمَانًا وتُوسِعُه حُزْنَا

وقال الهيثم بن جميل : شهدت مالك بن أنس ﷺ سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال : فى ثنتين وثلاثين منها لا أدرى . وقال الأوزاعى : شكت النواويس إلى الله - تعالى - ما تجدُ من نَتْنَ ريح الكُفّار ، فأوحى الله إليها : بطونُ علماء السوء أنتنُ مما أنتم فيه .

وقال على ﷺ : مَنْ أفتى الناسَ بغير علمٍ لعنتْه ملائكةُ السماءِ والأرض .

ولصالح اللخمى :

تعلّم إذا مَا كُنتَ لَستَ بعالم ... فما العلم إلا عندَ أهلِ التَّعلُّم
تعلّم فإن العلم أزينُ للفتَى ... من الحُلّة الحَسْناءِ عِند التكلم

ودخل عبدُ الله بن مُسْلم الهُذَلِى على المهدى فى القرّاء فأخذ عشرة آلاف درهم ، ثم دخل فى الرّماة فأخذ عشرة آلاف درهم ، ثم دخل فى المغنين فأخذ كذلك ، ثم دخل فى القُصّاص ، فأخذ كذلك ! فقال المهدى : لم أرَ كَاليَوم أجمعَ لما يجمع الله فى أحد منك . وملّ جماعةٌ من الحكماء مجالسة رجل فتوارَوْا عنه فى بيت ، فرقى السطحَ ، وجعل يستمع من كوّة حتى وقع عليه الثلج ، فصبر فشكر الله له ذلك ، فجعله إمامَ الحكماء لا يختلفون فى شىء إلا صدروا عن رأيه . وشكا رجل إلى وكيع بن الجرّاح سوء الحِفظِ فقال له : استعن على الحفظ بترك المعاصى ، فأنشأ يقول :

شكوتُ إلى وكيع سُوءَ حِفظِى ... فأرشَدَنِى إلى تركِ المعاصِى
وذلك أنَّ حفظَ العِلْم فضلٌ ... وفضل الله لا يُؤتَى لعاصِى

ووجد فى بعض الآثار عن بعضهم : أنه قال : إذا أردت أن تكون أحفظَ الناسِ فقل عند رفع الكتاب ، أو المصحف ، أو ابتداء القراءة فى كل شىء : أردت باسم الله ، وسبحان الله ولا إلٰه إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم ، عددَ كُل حَرفٍ كُتِبَ ويُكتب أبدَ الأبدين ، ودهر الداهرين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

قيل : وإذا أردت أن لا تنسى حرفًا فقل قبل القراءة : اللٰهم افتح علينا حكمتك ، وانشر علينا رحمتك ، ياذا

---

(١) حديث: «على باب الجنة شجرة.. إلخ». لم أقف عليه.

(٢) حديث: «من تعلم بابًا من العلم.. إلخ». قال المنذري في «الترغيب» [١/ ١٢٦]. «رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس، وفيه نكارة»، وانظر هامش الإحياء [١/ ٢١].

(٣) «ويل لأمتي.. إلخ». عزاه المتقي الهندي في «كنز العمال [٢٩٠٨٤] للحاكم في تاريخه عن أنس.

الجلال والإكرام . وإذا أردت أن تُرْزَقَ الحفظَ فقل خلفَ كُلِّ صلاةٍ مكتوبة : آمنت بالله الواحد الأحد الحق لا شريك له ، وكَفَرْتُ بما سواه .

ومن فوائد سيدى الشيخ الصالح شهاب الدين أحمد بن موسى بن عجيل - رحمه الله تعالى - فى الحفظ يقرأ فى كل يوم عشر مرات ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩] إلى قوله - تعالى - : ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ . يا حىّ يا قيوم يارب موسى وهارون ، ويارب إبراهيم ، ويارب محمد - عليه وعليهم الصلاة والسلام - أَلْزِمْنِى الفَهْمَ ، وارزقنى العلم والحكمة والعقل ، برحمتك يا أرحم الراحمين .

وعن أبى يوسف[1] قال : مات لى ولد فأمرتُ من يتولى دفنَه ولم أدَعْ مجلس أبى حنيفة خوفًا أن يفوتنى منه يوم . وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة : ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بالحديث ، ولا أحفظ له من محمد بن إسماعيل البخارى حتى كان يقال : إن حديثًا لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث . وقال البخارى - رحمه الله تعالى - : أحفظُ مائة ألف حديث صحيح ومائتى ألف حديث غير صحيح . وقال : ما وضعت فى كتابى الصحيح حديثًا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين . وقال أخرجته من ستمائة ألف حديث ، وصنفته فى ست عشرة سنة ، وجعلته حجة فيما بينى وبين الله - تعالى - .

وقال مجاهد: أتينا عمرَ بنَ عبد العزيز لنعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه . وكان يقال : الليث بن سعد - رحمه الله تعالى - ذهب علمه كله بموته ، ولهذا قال الشافعى لمّا قدم مصر بعد موته : والله لأنت أعلم من مالك وإنما أصحابك ضيعوك ! وقال الليث بن سعد ما هلك عالم قط إلا ذهب ثلثا علمه ، ولو حرص الناس ! ويقال : إذا سُئلَ العالِم فلا تُجبْ أنت ، فإن ذلك استخفافٌ بالسائل والمسئول

وقالوا : مَن خَدَمَ المحابر ، خَدمَتْه المنابر :

لا تـدّخـر غـيـرَ الـعـلـو ... م فـإنـهـا نـعـمَ الـذّخـائـر !
فـالـمـرء لـو ربـح الـبـقـا ... ءَ مـع الـجـهـالـة كـان خـاسـر !

وللشافعى رضي الله عنه :

أخِـى لَـنْ تـنـالَ الـعِـلْـم إلا بـسـتـةٍ ... سَـأُنْـبـيـك عـن تـفـصـيـلـهـا بـبـيـان
ذكـاءٌ وحِـرْصٌ واجـتـهـادٌ وبُـلْـغَـةٌ ... وصُـحـبـةُ أسـتـاذٍ وطـولُ زَمـانِ

وقال الزهرى : العلماءُ أربعة : سعيد بن المسيّب بالمدينة ، وعامر الشعبى بالكوفة ، والحسن البصرى بالبصرة ، ومكحول بالشام ، وقال بعضهم : العلماء سُرُجُ الأزمنة كل عالم سِرَاجُ زمانه يستضيء به أهل عصره .

وقيل لإبراهيم بن عُيَيْنة : أى الناس أطولُ ندامةً ؟ قال : أما فى الدنيا فصانع المعروف إلى من لايشكره ! وأما فى الآخرة فعالم مفرّط :

كُـنْ عـالِـمًـا وارضَ بـصَـف الـنـعـال ... ولا تـكـن صـدرًا بـغـيـر الـكـمـال
فـإن تـصـدّرت بـلا آلـة ... صـيـرت ذاك الـصـدرَ صـفَّ الـنـعـال

وقيل : لما اجتمع موسى بالخَضِر عليهما السلام جاء عُصفُور فأخذ بمنقاره من البحر قَطرةً ، ثم حطّ على وَرِكِ الخَضِر ، ثم طار ؛ فنظر الخَضِرُ إلى موسى عليه السلام وقال : يا نبى الله إن هذا العصفور يقول : يا موسى أنت على علم مِن عِلْم الله علّمَكَهُ الله لا يَعْلَمُهُ الخَضِر ، والخَضِر على علْم من علم الله علمه اللّه إياه لا تعلمه أنت ، وأنا على علم من علم الله علّمنيه الله لا تعلمه أنت ، ولا الخضر ، وما علمى وعلمك وعلم الخضر فى علم الله إلا كهذه القطرة من هذا البحر . قال الله - تعالى - : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال - تعالى - : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] . قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما خلق الله - تعالى - أربعين ألف عَالَم : الإنس والجن عالمان ، والبواقى لا يعلمها إلا هو . وقال موسى عليه السلام يارب قد قلت للسمٰوات والأرض :

---

(١) أبو يوسف: صاحب أبي حنيفة، وإمام المذهب بعده، وكان قاضي القضاة في زمن هارون الرشيد وله كتاب الخراج.

﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١] فلَوْ لَمْ تطعك السمٰوات والأرض ماذا كنت فاعلا بهما ؟ قال يا موسى ؛ كنت آمر دابة من دوابى أن تبتلعهما . قال موسى : يارب وأين تلك الدابة ؟ قال فى مَرْجٍ من مروجى . قال موسى : يارب وأين تلك المرج ؟ قال : فى علم من علمى لا يعلمه إلا أنا[١] . وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : خرج رسول الله ﷺ ونحن فى فكرة فقال : « **فيم تفكرون ؟ تفكروا فى خلق الله ، ولا تفكروا فى الله ، فإن الله خلق من جانب الغرب أرضًا يقال لها : البيضاء تقطعها الشمس فى أربعين يوما فيها خَلْقٌ ما عَصَوُا الله طرفة عين** » فقال ابن عمر : يا رسول الله ؛ أين إبليس منهم ؟ قال : « **ما علموا بإبليس خُلِقَ أم لا** » . قال: أمن بنى آدم ؟ قال : « **ما علموا بآدم خلق أم لا ؟ فهذه كلُّها مما أعدّها الله فى علم غيبه** »[٢] . ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٢-٨٣] .

وقال قتادة : لو كان أحدٌ منا مكتفيا من العلم لاكتفى نبيُّ الله موسى عليه السلام إذ قال : ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف:٦٦] وقال الحكماء : أفضلُ العلم وقوفُ العالم عند علمه . وقال بعضهم : ليس العلمُ ما خَزَنته الدفاتر ، وإنما العلم ما خزنته الصدور . وقيل : العلم يؤدى إلى التصدير[٣] ، وقيل : من تواضع للعلم ناله ، ومن لم يتواضع له لم يَنَلْه . **وقيل** : من برق علمه برق وجهه ، ومن لم يستفد بالعلم مالاً اكتسب به جمالا .

العلم نور وهدى ، والجهل غى وردى . قال بعضهم : العالم يعرف الجاهل ، والجاهل لا يعرف العالم ، لأن العالم كان جاهلا ، والجاهل لم يكن عالما . وقيل : أربعة يسّودن العبد : العلم ، والأدب ، والصدق ، والأمانة . وقيل : أهل العراق أطلب الناس للعلم . وقال حماد ابن سلمة: مثل الذى يطلب الحديث ، ولا يعرف النحو كمثل الحمار عليه مخلاة لا شعير فيها . ولإبراهيم بن خلف المهرانى :

النحو يُصلح من لِسَان الألْكَن ... والمرء تكرمُه إذَا لَم يلْحَنِ
وإذا طلبتَ من العلوم أجَلَّهَا ... فأجَلُّها منها مقيمُ الألسن

وقال على بن بشار :

رأيت لِسانَ المرءِ آيةَ عقله ... وعُنوانَه فانظر بماذا تعنون ؟
ولا تَعْدُ إصلاح اللسان فإنه ... يخبر عما عنده ويُبَيِّنُ
ويعجبنى زى الفتى وجَمَالُه ... فيسقط من عينى ساعة يَلْحَنُ

ودخل أعرابى السوق فوجدهم يَلْحنون فقال : سبحانَ الله! يَلحنُونَ ويَرْبَحُون ؟ ! وكلّم أبو موسى بعضَ قوّاده فلحَنَ فقال : لم لا تنظر فى العربية ؟ فقال : بلغنى أن من نظر فيها قل كلامُه ! فقال : ويحك ! لأنْ يقلَّ كلامُك بالصواب خيرٌ لك من أن يكثرَ كلامُك بالخطأ .

وكان يقال : مجالسة الجاهل مرض للعاقل . وقال أبو الأسود الدؤلى : إذا أردت أن تعذب عالما فاقرن به جاهلا ، وقال الشاعر:

جهلْتَ ولم تدرى بأنكَ جاهلٌ ... ومَنْ لى بأن تدرى بأنك لا تدرى

وقال رجل للحسن : أنا أفصح الناس ، قال : لاتقل هذا . قال : فخذ علىّ كلمةً واحدة . قال : هذه واحدة . أبو جهل كناه المسلمون بذلك ، وكانت قريش تكنيه أبا الحكم فقال حسان رضي الله عنه :

الناس كَنّوه أبا حكم ... والله كناه أبا جهل

وأما ما جاء فى الأدب فقد قال بعض الحكماء : العقل يحتاج إلى مادّة من الأدب كما تحتاج الأبدان إلى قُوتها من الطعام ، وقال علىّ رضي الله عنه الأدب كنز عند الحاجة ، عون على المروءة ، صاحب فى المجلس ، وأنيس فى الوحدة

---

(١) حديث : «وقال موسى» . . إلخ لم أقف عليه، وهو من الإسرائيليات.

(٢) «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في فكرة . . إلخ» . قال العجلوني: رواه أحمد مرفوعًا والطبراني وأبو نعيم، ثم قال بعد أن ذكر روايات متعددة: وأسانيدها ضعيفة لكن اجتماعها يكسبه قوة، ومعناه صحيح.

(٣) أي: التصُّدر والتقدُّم.

تعمر به القلوب الواهية ، وتحيا به الألباب الميتة وينال به الطالبون ما حاولوا . وقيل : عقل بلا أدب كشجاع بلا سلاح .

وحكى : أن رجلا تكلم بين يدى المأمون فأحسن فقال : ابن من أنت ؟ قال : ابن الأدب يا أمير المؤمنين . قال : نعم النسبُ انتسبت إليه ! ولهذا قيل : المرء من حيث يثبت ، لا من حيث ينبت ، ومن حيث يوجد لا من حيث يولد . قال الشاعر :

كن ابن من شئتَ واكتسب أدبًا ... يُغنيك محمُوده عن النسبِ
إنّ الفتى من يقول : هأنذا ... ليس الفتى من يقولُ : كان أبى

وقال بعض الحكماء : من كثر أدبُه ، كثر شرفُه ، وإن كان وضيعًا وبَعُد صيتُه وإن كان خاملاً ، وساد وإن كان غريبًا ، وكثرت حوائج الناس إليه وإن كان فقيرا . قال بعض الشعراء :

لكلِّ شيءٍ زينةٌ فى الورَى ... وزينةُ المرءِ تمامُ الأدب
قد يَشْرُف المرءُ بآدابه ... فينا وإن كان وضيعَ النَسَبِ

وقال بعض الأعاجم مفتخرا :

مالى عَقلى وهمتى حَسَبى ... ما أنا مَوْلَى وما أنا عَربى
إذا انتمى مُنْتَم إلى أحد ... فإننى مُنْتَم إلى أدبى

وقيل : الفضلُ بالعقل والأدب ، لا بالأصلِ والحسب . وقيل : المرء بفضيلته ، لا بفصيلته ، وبكماله لا بجماله ، وبآدابه لا بثيابه ، وقيل لرجل : من أدّبك ؟ قال : رأيت جهلَ الجُهَالِ قبيحًا فاجْتَنَبتُه فتأدبت . ومن أدّب ولدَه صغيرا سُر به كبيرًا . مَنْ عرَفَ الأدب اكتسب به المالَ والجَاهَ . خير الخلال الأدب ، وشر المقال الكذبُ . وقيل لبقراط [1] : ما الفرقُ بينَ من له أدب ، ومن لا أدب له ؟ قال : كالفرق بين الحيوانِ الناطقِ والحيوان الذى ليس بناطق . ودخل أبو العالية على ابن عباس رضي الله عنهما فأقعده معه على السرير ، وأقعد رجالا من قريش تحته ، فرأى سوء نظرهم إليه . وحموضة وجوههم [2] ، فقال : ما لكم تنظرون إلىّ نظر الشحيح إلى الغريم المفلس ، هكذا الأدب يشرّف الصغير على الكبير ، ويرفع المملوكَ على المولى ، ويُقعِدُ العبيدَ على الأسرّة ، وقال جالينوس : إن ابن الوضيع إذا كان أديبا كان نقص أبيه زائدًا فى منزلته ، وابن الشريف إذا كان غير أديب كان شرف أبيه زائدًا فى سقوطه .

وقيل : أحسن الأدب أن لا يفتخر المرءُ بأدبه . وسمع معاوية رجلا يقول : أنا غريب . فقال : كَلاّ الغريبُ من لا أدب له ! ويقال : إذا فاتك الأدب فالزم الصمت فهو من أعظم الآداب ولعبد الملك بن صالح :

فى الناس قومٌ أضاعُوا مجدَ أوّلهم ... ما فى المكارم والتّقْوَى لهم أَرَبُ
سوءُ التأدب أرْدَاهُمْ وأرْذَلَهُم ... وقد يَزين صحيحَ المنصب الأدَبُ

وقيل : أربعة تسوّد العبدَ : الأدب ، والعلم ، والصدق ، والأمانةُ . وقال بعضُ الحكماء : خمسةٌ لا تَتِمُّ إلا بخمسة : لا يتم الحسبُ إلا بالأدب ، ولا يتم الجمالُ إلا بالحلاوة ، ولا يتم الغِنَى إلا بالجود ، ولا يتم البطش إلا بالجراءة ، ولا يتم الجهاد إلا بالتوفيق . والله - تعالى - أعلم .

---

(١) بُقراط : طبيب يوناني قديم وُلِد سنة ٤٦٠ ق.م وهو ابن إقليس بن أبقراط، وورث علوم الطب عن أبيه وجدّه.

(٢) فؤاد حِمض، ونفس حمضة: تنفر من الشيء أول ما تسمعه.

الباب الخامس

فى الآداب والحكم وما أشبه ذلك

قال الحكماء : إذا أراد الله بعبد خيرا ألهمه الطاعة ، وألزمه القناعة ، وفقّهه فى الدين ، وعضّده باليقين ، فاكتفى بالكفاف ، واكتسى بالعفاف ، وإذا أراد به شرًّا حَبّب إليه المال ، وبسط منه الآمال وشغله بدنياه ، ووكله إلى هواه فركب الفساد ، وظلم العباد* الثقة بالله أزكى أمل ، والتوكل عليه أوقى عمل * من لم يكن له من دينه واعظ لم تنفعْه المواعظ * من سرّه الفساد ساءه المعَاد * كلّ يحصدُ ما زرع ، ويُجْزَىٰ بما صنع * لا يغرّنّك صحة نفسِك ، وسلامة أمسك ، فمدة العمر قليلة ، وصحة النفس مستحيلة* من أطاع هواه باع دينَه بدُنياه ثمرةُ العلوم العملُ بالمعلوم* من رَضِىَ بقضاءِ الله لم يُسْخِطْه أحَدٌ ، ومن قَنِعَ بعطائه لم يَدْخُلْه حَسَدٌ * أفضل الناس من لم تُفْسِدِ الشهوةُ دينَه * خيرُ الناسِ مَنْ أخرجَ الحِرصَ من قلبه ، وعَصَى هواه فى طاعةِ ربّه * نُصْرَةُ الحق شرف ، ونصرة الباطل سَرَف* البخيل حارسُ نعمته ، وخازنٌ لورثته * من لَزِمَ الطمعَ عُدِمَ الورع * إذا ذهب الحياءُ حَلّ البَلاءُ* علم لا ينفع كدواء لا ينْجَع [١] * من جَهل المرء أن يعصى ربّه فى طاعة هواه ، ويُهينَ نفسَه فى إكرام دُنياه* أيام الدهر ثلاثة : يومٌ مضى لا يعود إليك ، ويوم أنت فيه لا يدومُ عليك ، ويوم مستقبَل لا تدرى ما حالُه ، ولا تعرف مَنْ أهلُه * مَنْ كثر ابتهاجُه بالمواهب [٢] اشتد انزعاجُه للمصائب * لا تَبِتْ على غير وصيّة وإن كنت من جسمك فى صِحّة ، ومن عُمْرِكَ فى فُسْحة [٣] * عِظِ المسىء بحُسْن أفعالِك ، ودلّ على الجميل بجميل خِلالك .

إياكَ وفُضولَ الكلام [٤] فإنه يُظْهرُ من عُيوبك ما بَطَن ، ويُحَرّك من عدوّك ما سكن * لا يجدُ العَجُولُ فرحًا ، ولا الغضوبُ سرورا ، ولا المَلُول صديقا * حسن النية مِنَ العبادة * حُسْن الجلوس من السياسة * من زاد فى خُلُقِه نَقصَ فى حظه * من ائتمن الزمان خانه * أظهرُ الناس محبةً أحسنهُم لقاءً * لا يكملُ للإنسان دينُه حتى يكونَ فيه أربعُ خصال : يقطع رجاءه مما فى أيدى الناس ، ويسمع شتم نفسه ويصبر ، ويحب للناس ما يحب لنفسه ، ويثق بمواعيد الله * إياك والحسد ، فإنه يُفسد الدينَ ، ويُضعف اليقينَ ، ويُذهبُ المروءة * قيل لأفلاطون : ما الشىء الذى لا يحسن أن يقال وإن كان حقا ؟ قال : مدح الإنسان نفسَه * أربعة تؤدى إلى أربعة : الصمت إلى السلامة ، والبر إلى الكرامة ، والجود إلى السيادة ، والشكر إلى الزيادة * مَنْ ساء تدبيرُه أهلكه جده * العرّة [٥] ثمرة الجهل *آفة القوّة استضعاف الخصم * آفة النعم قبح المنّ * آفة الذنب حسن الظن * الحزم أسَدّ الآراء ، والغفلة أضَرّ الأعداء * من قعد عن حيلته أقامته الشدائد ، ومن نام عن عدوّه أيقظته المكايد * من قرّب السّفْلة واطّرح ذوى الأحساب والمروءات استحق الخذلان * من عَفا تفضل * من كظم غيظَه فقد حلم * من حلم فقد صبر ومن صبر فقد ظفر * من مَلَك نفسَه عندَ أربع حرّمه الله على النار : حين يغضب ، وحين يرغب ، وحين يرهب ، وحين يشتهى * من طلب الدنيا بعمل الآخرة فقد خسرهما ، ومن طلب الآخرة بعمل الدنيا فقد ربحهما * كلامُ المرءِ بيانُ فضله ، وتُرْجُمانُ عَقْله ؛ فاقصُرْه على الجميل ، واقتصرْ منه على القليل * كلُّ امرئٍ يُعرَفُ بقوله ، ويوصَفُ بفعله ؛ فقل سَديدًا ، وافعل حميدًا * من عَرِف شانه ، وحفظ لسانه ، وأعرض عَمّا لا يَعْنيه ، وكفّ عن عِرْضِ أخيه دامت سلامته ، وقلت ندامتُه * كُنْ صَمُوتًا وصَدوقًا فالصمتُ حِرز ، والصدق عِز * من أكثَر مقاله سُئم ، ومن أكثر سؤاله حُرِم * من استخفّ بإخوانِه خُذِل ، ومن اجترأ على سلطانه قُتل * ما عَزّ من أذلّ جيرانه ، ولا سَعِدَ من حَرَم إخوانَه * خير النّوال ما وصل قبل السّؤال * أَوْلى الناسِ بالنوال أزهدهم فى السؤال * من حَسنَ صفاؤه ، وجب اصطفاؤه * من غاظك بقبيح الشّتْم منه فغِظْه بحُسن الحِلْم عنه * مَنْ يبخلُ بمالِه على نفسه جادَ به على زَوْجِ عرْسه * إذا اصطنعتَ المعروفَ فاستُره ، وإذا اصْطُنِع إليك

---

[١] لا ينجع : لا يشفي الداء، ولا يستأصل المرض.

[٢] المواهب : جمع موهبة، وهي ما يهبه الله لنا.

[٣] فسحة : امتداد في العمر.

[٤] فضول الكلام : ما زاد على المطلوب، وكان لغوًا.

[٥] العرّة : بفتح العين، هي الشّدة والخَلّة القبيحة.

فانشره * من جاوَر الكرامَ أمِنَ من الإعدام * من طاب أصله زكا فرعُه ، من أنكر الصنيعة ، استوجب القطيعة * من مَنَّ بمعروفه سقط شكرُه ، ومن أعْجبَ بعمله حَبطَ أجرُه * من رضى من نفسه بالإساءة شَهِد على أصله بالرّداءة * من رجَع في هِبَته ، بالغَ في خِسّته * من رَقِي في درجات الهِمم عَظُم في عيون الأمم * من كَبُرت همتُه كثرت قيمتُه * من ساء خُلُقُه ضاق رزقه * من صَدق في مقالِه زاد في جماله * من هان عليه المال توجهت إليه الآمال * من جاد بماله جلّ ، ومن جاد بعِرضه ذل * خير المال ما أُخِذَ من الحلال ، وصُرِف في النّوال ، وشرّ المال ما أُخذ من الحرام ، وصُرِف في الآثام * أفضل المعروف إغاثة الملهوف * من تمام المروءة أن تنسى الحقّ لك ، وتذكر الحقَّ عليك ، وتستكبر الإساءة منك ، وتستصغرها من غيرك * مِنْ أحسن المكارم عفوُ المقتدر * جودُ الرّجُلِ يُحَبِّبُه إلى أصدقائه ، وبخلُهُ يبغضه إلى أودّائِه[١] * لا تُسِئْ إلى من أحسن إليك ، ولا تُعِنْ على من أنعم عليك * من كثر ظُلمه واعتداؤه ، قرب هلاكُه وفَناؤه * من طال تَعَدّيه ، كثرت أعاديه * شرّ الناس مَن ينصرُ الظّلوم ، ويَخْذلُ المظلومَ * من حفر حفيرا لأخيه ، كان حتفه فيه * من سلّ سيف العدوان أُغْمِدَ في رأسه * من لم يرحم العَبرة[٢] سُلِب النعمة ، ومن لم يُقِلِ العَثْرة سُلب القدرة * لا تُحاجّ[٣] من يُذْهِلُك خوفُه ، ويملكك سيفه * صمتٌ تَسْلَم به خيرٌ من نطق تندم عليه * مَنْ قال ما لا ينبغي ، سَمِعَ ما لا يشتهي * جُرْحُ الكلام أصعب من جُرْح الحُسام * مَن سكتَ عن جاهل فقد أوسعه جوابا ، وأوجعه عتابا * من أمات شهوته ، أحيا مروءته * من كثرت عوارفه[٤] ، كثرت معارفه * من لم تقبل توبتُه عظُمَتْ خطيئتُه * إياك والبغي ، فإنه يصرعُ الرجال ، ويَقطع الآجال * الناسُ في الخير أربعة أقسام : منهم من يفعله ابتداء ، ومنهم من يفعله اقتداء ، ومنهم من يتركُه حِرْمانا ، ومنهم من يتركه استحسانا ؛ فمن فعله ابتداء فهو كريم ، ومن فعله اقتداء فهو حكيم ، ومن تركه حرمانا فهو شقيّ ، ومن تركه استحسانا فهو دَنِي * من سالم سَلِمَ ، ومن قدّم الخيرَ غنم * من لَزِمَ الرّقاد عُدِمَ المراد ، ومن دام كَسَلُه خاب أمَلُه * العَجُولُ مُخطىء وإن مَلَك ، والمتأنّي مصيبٌ وإن هلك * من أمارات الخِذلان مُعاداة الإخوان * استفساد[٥] الصديق من عَدِم التوفيق * الرّفقُ مفتاح الرّزق * من نظر في العواقب سَلِم من النوائب ، ومن أسرع في الجواب ، أخطأ في الصواب * من ركب العَجَل أدركه الزّلل * من ضعفت آراؤه قويت أعداؤه * من قلّت فضائله ، ضعُفَتْ وسائله * من فعل ما شاء ، لقي ما ساء * من كثر اعتبارُه ، قل عِثاره * من ركب جدّه غلب ضدّه * القليل مع التدبير أبقى من الكثير مع التبذير * ظن العاقل أصح من يقين الجاهل * قليل تحمد آخرته خير من كثير تُذَمُّ عاقبته * من خاف سطوتك ، تمنى موتَتَك * إذا استشرت الجاهل ، اختار لك الباطل * من أعجبته آراؤه ، غلبتْه أعداؤه * من قصُر عن السياسة صَغُر عن الرياسة * لا تشتك ضعفك إلى عدوّك فإنك تشمته بك وتُطمِعُه فيك * من لم يعمل لنفسه عَمِل للناس ، ومن لم يَصبر على كَدّه صبَرَ على الإفلاس * من أفشى سره ، أفسد أمره * الحازم من حفَظَ ما في يده ، ولم يؤخر شغل يومِه لغَده * من طلب ما لا يكونُ طال تعبه * لا تفتح بابًا يعيبك سَدُّه ، ولا تَرُم سَهمًا يُعجزك ردّه * سوءُ التدبير سَبَبُ التّدْمير * أغْمِدْ سيفَك ما ناب عنك لسانك * ليس العجبُ من جاهلٍ يصحَب جَاهلاً ، ولكن العجبَ من عاقلٍ يصحبه ، لأنّ كُلَّ شيء يفرّ من ضده ، ويميل إلى جنسه * إذا نزل القَدَرُ بَطَل الحذر * رب عَطَبٍ تحت طَلَب ، ومَنِيّةٍ تحت أمنية * لا يخلو المرءُ مِن وَدود يمدح ، وعَدوّ يَقْدح * الجوع خير من الخضوع * الكَذوب مُتّهم وإن صَدَقت لهجته ، ووضَحت حجتُه * من طاوَعه طَرْفُه[٦] ، اشتدّ حَتْفُه * مَن لَم تسرّ حياتُه ، لم تَغُم وفاتُه * من أعظم الذنوب ، تحسينُ العيوب * الشرفُ بالهِمَم العالية ، لا بالرِّمَم البالية * إذا ملك الأراذل ، هلك الأفاضل * من ساءت أخلاقُه ، طاب فراقُه * من حَسُنَتْ خِصاله ، طاب وصَاله * بُعْدٌ يورثُ الصّفاء ، خيرٌ من قُرْبٍ يُوجب الجفاء * اللسانُ سيفٌ قاطعٌ لا يُؤمَن حَدُّه ، والكلام سَهمٌ نافذ لا يمكن ردّه * من اطّلع على جاره انْهَتَكَتْ حُجُبُ أَسْتاره * أجهلُ الناس من قَلّ صوابُه ، وكثر إعجابه * أظْهَرُ الناس نِفَاقًا مَنْ أمر بالطاعة ، ولم

---

(١) أودّائه: جمع ودود وهو المحب والصديق.

(٢) لا تحاج: لا تجادل ولا تخاصم.

(٣) العَبْرة: الدَّمعة، والجمع عِبَر.

(٤) العَوارِف: جمع عارفة، وهي الإحسان.

(٥) استفساد الصديق: الإساءة إليه.

(٦) الطَّرْف: النَّظَر، قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

يأتمرْ بها ، ونَهى عَن المعصية ، ولم ينته عنها * من سَلا عن المسْلوب كمن لم يُسْلَب ، ومن صَبَر على النكبة ، كمن لم يُنْكَب * الفضيلةُ بكثرةِ الآداب لا بفراهة[١] الدوابّ * من زادت شهوتُه نَقَصَتْ مروءتُه * من عُرِفَ بشيء نُسِبَ إليه ، ومن اعتاد شيئا حَرَصَ عليه * عِنَد الجدال يظهرُ فَضْل الرّجال * من أخر الأكل لَذّ طعامه ، ومن أخر النومَ طاب مَنامُه * موت فى دَوْلةِ وعِزّ ، خَيرٌ من حياةٍ فى ذلّة وعَجز * مُقاساةُ الفَقْر هى الموتُ الأحمر ، ومَسْألةُ الناس هى العار الأكبر * حق يَضُرّ ، خير من باطل يَسُرّ * كم من مرغوب فيه يَسوء ، ولاَ يَسُرّ ، ومَرهُوب منه ينفع ولا يضر * عثرة الرجل تُزيل القَدَم ، وعثرة اللسان تزيل النعم * المُزاح يورثُ الضّغائن * من حَلُمَ ساد ، ومن تفهّم ازداد * مُعاشرة ذوى الألباب ، عمارة القلوب * شر ما صَحِبَ المرءُ الحسدَ * ربما أصاب الأعمى رُشْدَهُ ، وأخطأ البصيرُ قصدَه * اليأسُ خير من التضرع إلى الناس * لا تكن ضاحكا فى غير عَجَب ، ولا ماشيا فى غير أرَب[٢] * من سعى بالنميمة حَذِرَه القريبُ ، ومَقَتَه الغريبُ * الاستشارة عينُ الهداية ، وقد خاطر من استبدّ برأيه * أشرفُ الغِنى تركُ المنى * مَنْ ضَاق خُلُقه مَلّه أهلُه * الحسد للصديق مِن سَقَم المودة * كلّ الناس راضٍ عن عقله * دنياك كلُّها وقتك الذى أنت فيه * استُر سوأة أخيك ؛ لما يعلم فيك * خمولُ الذكر أسْنى من الذكر الذميم ، العَجلة أختُ الندامة * من كَرُمَ أصلُه لان قلبه ، ومن قل لُبّه ، زاد عجبُه * ربما أُدرِك بالظن الصوابُ * ليس لمُعْجَب رأىٌ ، ولا لمتكبر صديق * سلْ عن الرفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدار * لا تُعادِينّ أحدًا فإنك لا تخلو من عداوة جاهل أو عاقل ؛ فالحذر من حكمة العاقل ، وجهل الجاهل * ضاحك معترفٌ بذنبه ، خير من باكٍ مُدِلٍّ على ربه * من قلّ سروره كان الموتُ راحتَه * لا تردّنّ على ذى خطأ خطأه فيستفيدَ منك علمًا ، ويتخذك عدوّا * استح مِن ذَمّ مَن لو كان حاضرا لبالغتَ فى مدحِه ، ومدح من لو كان غائبًا لسارعتَ إلى ذمه * وقيلَ : المنفعةُ توجبُ المحبة ، والمضرّة توجب البغضة[٣] والمخالفة توجب العداوة ، والمتابعة توجب الألفة ، والعدل يوجب اجتماع القُلوب ، والجَور يوجبُ الفُرقة ، وحُسن الخلق يُوجب المودّة وسوء الخلق يوجب المباعدة ، والانبساطُ يوجب المؤانسة ، والانقباض يُوجبُ الوَحشة ، والكِبرُ يوجب المقت ، والتواضعُ يوجب الرّفعة ، والجودُ يوجب المدح ، والبخل يوْجب الذّمَ ، والتوانى[٤] يوجب التّضيْيع ، والحزمُ يوجب السرورُ والحذر يوجب السلامة ، وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة ، وبالتأنى تسهلُ المطالَب ، وبِحسْن المعاشرة تدوم المحبة ، وبخفض الجانب تأنس النفوس ، وبسعة خُلُق المرء يطيب عيشُه ، والاستهانة توجب التباعد ، وبكثرة الصمت تكون الهَيْبة ، وبعدل المنطق تُجْلَبُ الجلالة ، وبالنَّصَفَةِ[٥] تكثر المواصلة ، وبالإفضال يعظُم القَدْر ، وبصالح الأخلاق تزكو الأعمال ، وباحتمال المؤنِ يجب السؤدُد ، وبالحلم على السفيه تكثر أنصارُك عليه ، وبالرفق والتودّد تستحقّ اسمَ الكرامة ، وبترك ما لا يعنيك يتم لك الفضل * واعلم أن السياسة تكسو أهلها المحبة * ومن صِغَر الهمة الحَسَدُ للصديق على النعمة * والنظر فى العواقب نجاة * ومن لم يَحْلُم ندم * ومن صَبَر غَنِم * ومن سكت سلم * ومن اعتبر أبصر * ومن أبصر فهم * ومن فهم علم * ومن أطاع هواه ضل * ومع العجلة الندامة * ومع التأنى السلامة * وزارع البِرّ يحصُد السرور * وصاحب العقل مغبوط * وصداقة الجاهل تعب * إذا جَهلْت فاسأل ، وإذا زَلْلت فارجع ، وإذا أسأت فاندم وإذا ندمت فأقْلع * المروءات كلها تبع للعقل * والرأى تبع للتجربة * والعقل أصله التثبت ، وثمرته السلامة ، والأعمالُ كلها تتبع القدر * واختار العلماء أربع كلمات من أربع كتب : فمن التوراة مَنْ قَنِعَ شَبِعَ ، ومن الإنجيل من اعتزل نجا ، ومن الزّبور من سكت سلم ، ومن القرآن ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠١] . واجتمعت حكماء العرب والعجم على أربع كلمات : لا تُحَمّل بطنك ما لا يُطيق ، ولا تعمل عملاً لا ينفعُك ، ولا تغْتر بامرأة ، ولا تثق بمال ولو كثر . والله- تعالى- أعلم.

---

(١) بفراهة الدوابّ: جمالها وحسنها وخفتها ونشاطها.

(٢) الأرَب: الهدف، والأمنية.

(٣) البغضة - بكسر الباء- البغض والكراهية.

(٤) التواني : التراخي والتكاسلُ والإهمال.

(٥) النَّصَفة: الإنصاف.

الباب السادس

في الأمثال السائرة وفيه فصول

الفصل الأول: فيما جاء من ذلك في القرآن العظيم، وأحاديث النبي الكريم

اعلم أنّ الأمثال من أشرف ما وصل به اللبيبُ خطابه ، وحَلّى بجواهره كتابه ، وقد نطق كتاب الله - تعالى - وهو أشرفُ الكتب المنزلة بكثير منها ، ولم يَخْلُ كلامُ سيدنا رسول الله ﷺ عنها ، وهو أفصح العرب لسانًا ، وأكملُهم بيانًا ، فكم في إيراده وإصداره من مَثَلٍ يعجز عن مباراته في البلاغة كلّ بطل . وسنذكر إن شاء الله - تعالى - بعد ذلك نبذة من أمثال العرب والمولّدين[1] والعامة .

فمن أمثال كتاب الله - تعالى - قوله - تعالى - : ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢] ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف:٥١] ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف:٤١] ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود:٨١] ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ [الأعراف:٩٥] ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم:٥٨] ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤] ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ:٥٤] ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام:٦٧] ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء:٨٤] ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩] ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران:١٢٠] ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨] ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام:٤٤] ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة:٩٩] ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩] ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة:٩١] ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر:١٩] ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠] ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤] ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال:٢٣] ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣٢] ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] ﴿لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ [المائدة:١٠٠] ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء:٢١] ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص:٢٤] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٩] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١] ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس:٤٦] ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨] ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٩٨] ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون:٧٥] ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢] ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣] ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف:٣٨] ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٦] ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف:١٨٧] ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم:٣٢] ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩] ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:٥٠] ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٣] ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل:١٠] ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [الجاثية:١٥] ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف:١٥٥] ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر:٢] ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٦] ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك:٣] ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص:٨٨] ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧] ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات:٦١] ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [العنكبوت:٦٧] ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور:١٥].

---

(١) المولدين: الذين جاءوا بعد عصر الرواية عندما اختلط العرب بالعجم.

ومن الأمثال من الحديث النبوي: « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوى »(١) « نية المرء خير من عمله »(٢) « آفة العلم النسيان »(٣) « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ »(٤) « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه »(٥) « أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ »(٦) « اليَدُ العُلْيا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى »(٧) « من مات غريبا مات شهيدا »(٨) « مُطْلُ الغَنِيّ ظُلْمٌ »(٩) « يَدُ اللَّهِ مَعَ الجَمَاعَةِ »(١٠) « الجار قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق »(١١) « مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا »(١٢) « سيد القوم خادمهم »(١٣) « الحَياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ »(١٤) « تخيروا لنطفكم »(١٥) « ابْدَأْ بِنَفْسِكَ ثُمَّ بِمَنْ تَعُولُ »(١٦) « حدث عن البحر ولا حرج »(١٧) « المَجَالِسُ بِالأَمَانَاتِ »(١٨) « كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ »(١٩) « اطلبوا الخير من حسان الوجوه »(٢٠) « إياك وما يعتذر منه »(٢١) « الوَحْدَةُ خير من الجليس السوء »(٢٢) « استعينوا على الحوائج بالكتمان »(٢٣) « الندم توبة »(٢٤) « لَا يَكُونُ المُؤْمِنُ طَعَّانًا وَلَا لَعَّانًا »(٢٥) « دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ »(٢٦) « من كثر سواد قوم فهو

---

(١) حديث: «إنما الأعمال بالنيات.. إلخ» مسلم [٦/٤٨] وقال في كشف الخفاء. رواه الشيخان عن عمر بن الخطاب.

(٢) حديث: «نية المرء خير من عمله» أخرجه البيهقي في الشعب، وهو ضعيف كما قال السيوطي في الدرر المنتثرة.

(٣) حديث: «آفة العلم النسيان» أورده صاحب كشف الخفاء، في مقدمة كتابه، ونقل عن صاحب التمييز قوله: أورده جمع من الحفاظ عن عليّ مرفوعًا بلفظ «آفة الحديث الكذب، وآفة العلم النسيان» وسنده ضعيف، لكنه صحيح المعنى.

(٤) حديث: «من حسن إسلام المرء.. إلخ» قال النووي في الأذكار «باب حفظ اللسان» ص[١٤٧]، وهو حسن انظر الترمذي [٣/ ٢٦٠]، وابن ماجه [٢/ ١٣١٥]، والموطأ [٢/ ٩٠٢]، وصحيح الجامع الصغير [٥/ برقم ٥٧٨٧].

(٥) حديث: «إذا أتاكم كريم قوم.. إلخ» قال السيوطي في الدرر المنتثرة. أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر والبزار من حديث جرير وأبي هريرة. وللحديث طرق كثيرة، ولكنها ضعيفة. وقال السخاوي: وبهذه الطرق يقوى الحديث.

(٦) حديث: «أنزلوا الناس.. إلخ» قال العجلوني: رواه مسلم وأبو داود عن عائشة، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق عن معاذ.

(٧) حديث: «اليد العليا.. إلخ» قال العجلوني: رواه أحمد والنسائي عن ابن عمر.

(٨) حديث: «من مات غريبًا.. إلخ» ضعيف: أخرجه البيهقي في «الشعب» [٩٨٩٥]، وفيه إبراهيم بن محمد، ضعيف، وابن جريج مدلس وقد عنعنه.

(٩) حديث: «مطل الغني.. إلخ» قال العجلوني متفق عليه عن أبي هريرة.

(١٠) «يد الله مع الجماعة.. إلخ أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» [٧/ ٣٨٣]، وابن أبي عاصم في السنة [١/ ٣٩، ٤٠]، والحاكم [١/ ١١٥]، والطبراني في «الكبير» [١٧/ ١٤٤، ١٤٥].

(١١) «حديث الجار قبل الدار.. إلخ» ذكره السيوطي بنحوه في الدرر المنتثرة بلفظ «جار الدار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق، والزاد قبل الرحيل» وقال: أخرجه الخطيب في الجامع من حديث علي ورافع بن خديج بسند ضعيف، وأورده السخاوي بلفظ «التمسوا الرفيق قبل الطريق والجار قبل الدار».

(١٢) حديث: «من غشنا فليس منا» أخرجه مسلم بلفظ «من غش فليس مني» [١/ ٦٩] من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ «مر على صُبرة طعام.. إلخ».

(١٣) حديث «سيد القوم خادمهم» ذكره العجلوني برقم [١٥١٥]، وقال: في سنده ضعف وانقطاع. على أنه قد يقال: إنه حسن لغيره لتعدد طرقه.

(١٤) حديث «الحياء شعبة.. إلخ» أخرجه الشيخان عن ابن عمر، بلفظ «الحياء من الإيمان» وأخرجه الترمذي أيضًا ومسلم والحاكم في المستدرك والبيهقي في شعب الإيمان.

(١٥) حديث «تخيروا لنطفكم.. إلخ» قال العجلوني: رواه ابن ماجه والدارقطني والحاكم والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا.

(١٦) حديث: «ابدأ بنفسك.. إلخ» ذكره العجلوني تحت رقم [٣١١] «ابدأ بمن تعول» رواه الطبراني عن حكيم بن حزام، ورواه مسلم [٣/ ٧٨-٧٩] بلفظ «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك..».

(١٧) حديث «حدث عن البحر.. إلخ» ذكره صاحب كشف الخفاء برقم [١١١٧] وقال: قال النجم: مثل وليس بحديث.

(١٨) حديث «المجالس بالأمانات» أورده السيوطي في الدرر المنتثرة بلفظ «المجالس بالأمانة» وقال: أخرجه أبو داود من حديث جابر بن عبد الله.

(١٩) حديث: «.. كل ميسر لما خلق له..» أخرجه مسلم [٤/ ٢٠٤١].

(٢٠) حديث «اطلبوا الخير من حسان الوجوه» ذكره السيوطي في الدرر المنتثرة وقال: أخرجه الطبراني في الكبير من حديث ابن عباس، والبيهقي من حديث عائشة.

(٢١) حديث « إياك وما يعتذر منه» قال السيوطي في الدرر المنتثرة: أخرجه الحاكم في المستدرك من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعًا، وابن عساكر في تاريخه.

(٢٢) حديث «الوحدة خير.. إلخ» قال السيوطي: أخرجه الحاكم من حديث أبي ذر.

(٢٣) حديث «استعينوا على قضاء حوائكم.. إلخ» أورده السيوطي في الدرر المنتثرة بلفظ «استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود» أخرجه البيهقي في الشعب، والطبراني في الأوسط، ولا بأس به.

(٢٤) حديث «الندم توبة» في الدرر المنتثرة برقم [٤٢٧]. أخرجه أحمد وابن ماجه، وأورده السيوطي في الجامع الصغير وصححه.

(٢٥) حديث «لا يكون المؤمن.. إلخ». الأدب المفرد للبخاري بلفظ «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي».

(٢٦) حديث «دع ما يريبك.. إلخ» قال السيوطي في الدرر المنتثرة أخرجه الترمذي والنسائي. وقال: حسن صحيح.

منهم »[١] « انصر أخاك ظالما أو مظلوما »[٢] (انتظار الفرج عبادة)[٣] « كاد الفقر أن يكون كفرا »[٤] « نعم صومعة الرجل بيته »[٥] « الأعمال بخواتيمها »[٦].

الفصل الثانى : فى أمثال العرب

إنّ من البيان لسحرا[٧]. إنّ الجوادَ قد يعثر * إنّ البلاء مُوَكّل بالمنطق * إنّ أخا الهَيْجاء[٨] من يسعى معك ، ومن يضرّ لينفعك * أنفٌ فى السماء واست[٩] فى الماء ، إنّ الذليل الذى ليست له عضد * أى الرجال المهذب ؟ إنما هو كبرقِ خُلّبْ[١٠] إذا أدبر الدهر عن قوم كفَى عدوَّهم أمرَهم * إياك أعنى فاسمعى ياجارة ، إن لم يكن وفاق ففراق . إنك لا تجنى من الشوك العنب * إذا حان القضاء ضاق الفضاء * إنّ المناكحَ خيرها الأبكار * إذا كنت مناطحا فناطح بذوات القرون * أوى إلى ركن بلا قواعد ، إياك أن تضرب بلسانك عنقك ، أَكْلٌ وحَمْدٌ خيرٌ من أكلٍ وذمّ * آفة المروءَة خُلْف الوعد * إذا قلت لهُ زِنْ طأطأ رأسه وحَزِن * إذا أتاك أحد الخصمين وقد فُقِئَتْ عينُه فلا تقض له حتى يأتيكَ خصمُه فلعله فُقِئَت عيناه * تركُ الذنب أيسرُ من طَلَب التوبة ، اتق شرَّ من تحسن إليه * الناس إخوان وشتى فى الشيم[١١] * بلَغَ السيل الزُّبَى[١٢] * أجِعْ كلبَك يتبعْك * حافظ على الصّديقِ ولو فى الحريق * اشتدّى أزمةٌ تنفرجى ، أتبع السيئة الحسنة تمحها[١٣] * الخيل أعرف بِفُرْسانها .

رمتنى بطرفها وانسلت ، رُبّ رمية من غير رام * الرّباح مع السماح * رُبّ أكلة تمنع أكلات * استراحَ مَنْ لَا عَقْلَ له * رُب أخٍ لم تلده أمك * رُبّ طمع أدّى إلى عطب * ربما كان السكوت جوابًا * رُبّ مَلُوم لا ذنب له * رُبّ عين أَنَمّ مِنْ لسان * رحمَ الله من هدانى إلى عيوبى * رُكُوبُ الخنافس ولا المشى على الطَّنافِس[١٤] ، سبقَ السيفُ العذل[١٥] * زَوْج من عود خير من قَعُود * سَبّك من بَلّغك * السَّبّ سحابة صيفٍ عن قليل تَقْشع * شَرّ أيام الديك يومَ تُغْسَلُ رجلاه * طاعةُ النساء ندامة * اطلب تَظْفر * طرف الفتى يُخْبر عن لسانه * ظاهرُ العتاب خيرٌ من باطن الحقد * عند الصباح يَحْمَد القومُ السُّرى[١٦] * الظلم مرتَعُة وخيم * عِند النطاح يُغلبُ الكبشُ الأَجَمّ[١٧].

الـعـبـدُ يُـقـرَعُ بـالـعـصـا والـحُـرّ تَـكـفـيـهِ الـمـلامَـه

اعقِلْ وتوكل * العتابُ قبل العِقاب * عند الرّهان تُعْرف السوابق * عند الامتحان يُكْرَم المرءُ أو يهان * عند النازلة تَعْرفُ أخاك * فى القمر ضياء ، والشمس أضوأ منه * القولُ ما قالت حذام * لقد أسمعتَ لو ناديت حَيًّا * أقلل طعامَك يُحْمَدُ منامُك كل فتاة بأبيها مُعْجَبة * كل كلب ببابه نباح * كاد العروس أن يكون ملكا * كثرة العتاب توجب البغضاء * أكثر

---

(١) «من كثر سواد قوم.. إلخ» عزاه المتقي في كنز العمال [٢٤٧٣٥] عن ابن مسعود، وانظر: «مسند الفردوس» [٣/ ٥١٩]. ونصب الراية للزيلعي [٤/ ٣٤٦].

(٢) حديث: «انصر أخاك.. إلخ» قال السيوطي في الدرر المنتثرة: أخرجه البخاري عن أنس.

(٣) حديث: «انتظار الفرج.. إلخ» قال السيوطي في الدرر المنتثرة: أخرجه الخليلي في الإرشاد عن أنس وهو عند الترمذي من حديث ابن مسعود في أثناء حديث بسند صحيح.

(٤) حديث: «كاد الفق.. إلخ» قال السيوطي: أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس، وتكملته: «وكاد الحسد أن يغلب القدر».

(٥) حديث: «نعم صومعة الرجل.. إلخ» قال صاحب كشف الخفاء: رواه العسكري عن أبي الدرداء رفعه، والبيهقي موقوفًا، وله شواهد كثيرة.

(٦) حديث: «الأعمال بخواتيمها» أخرجه البخاري [٨/ ١٠٥-١٠٦] بلفظ «إنما الأعمال بالخواتيم».

(٧) «إن من البيان لسحرًا» قال العجلوني: رواه أحمد وأبو داود عن ابن عباس بلفظ «إن من البيان سحرًا» وهو عند مالك وأحمد والبخاري وأبي داود والترمذي عن ابن عمر بلفظ «إن من البيان لسحرًا».

(٨) الهَيْجاء: الحرب.

(٩) الاست: العُجز.

(١٠) الخُلّب: السحاب يومض برقه حتر يُرجى مطره.

(١١) شيَم: جمع شيمة، وهي الخُلُق.

(١٢) الزُّبى: جمع زبية، وهي الرابية لا يعلوها الماء، يضرب للأمر إذا اشتد حتى جاوز الحد.

(١٣) هذا المثل بعض حديث رواه الحاكم وقال: على شرطهما «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» كما ذكر صاحب كشف الخفاء [١/ ٨٣].

(١٤) الطَّنافس: جمع طنفسة، وهي البساط.

(١٥) عذله: أي لامه، وهذا المثل يُضرب لما قد فات ولا يُستدرك، فهو عاذل.

(١٦) السُّرى: السير ليلاً.

(١٧) الأجمّ: الذي هو بغير قرون.

مصارع الرجال تحت بروق المطامع* الكلامُ أُنثى والجوابُ ذكر* كل إناء يرشح بما فيه* كما تزرعُ تحصُد كل امرىءٍ فى بيته صبى* كلبٌ جوّال خيرٌ من أسدٍ رابض* لقد ذل من بالتْ عليه الثعالب* ليس الخبرُ كالعيان لكل صارم نَبْوَة ، ولكل جوادٍ كبوة * لكل قادم دهشة * لعل لها عُذْرًا وأنت تلوم * لكل ساقطة لاقطة * لكل مقام مقال * لك لسان من رُطَب ، ويدان من خَشَب للباطل جولة ثمّ يَضْمَحِلّ ليست النائحةُ الثكلى مثلَ المستأجرة* لكل غدٍ طعام لكل دهر دولة ورجال* لا عطر بعد عَرُوس* لا يُلدغ المؤمن من جُحر مرتين* لا يضرّ السحابَ نباح الكِلاب* لا تقتنِ من كَلْب سوء جَرْوًا* مَقْتَلُ الرجل بين فكيه ماحَكّ جلدك مثلُ ظُفرك من عَتَب على الدهر طالَ عَتْبُه* معاتبة الإخوان خير من فقدهم* النَّفْسُ مولعة بحب العاجل* هذه بتلك والبادى أظلم* يا حبذا الإمارة ولو على الحجارة* يكسو الناس واسْته عارية[1] يدك منك وإن كانت شلاء.

الفصل الثالث : فى أمثال العامة والمولّدين

التَّسلط على المماليك دنَاءة * اجلس حيث يؤخذ بيدك وتُبَر ، ولا تجلس حيث يؤخذ برجلك وتُجَرّ* أجرأ الناس على الأسد أكثرهم له رؤية* الحاجة تفتق الحيلة* الحاوى لا ينجو من الحيات* الحبّة تدور وإلى الرحى ترجع* المؤذى ردى ، كلما جلوته صدى* السلامة إحدى الغنيمتين* الشاة المذبوحة لا يؤلمها السلخ* الطيرُ بالطير يصاد* اطّلَعَ القردُ فى الكنيف فقال هذه المرآة لهذا الوجه الظريف* العادة طبيعة خامسة* الغائب حجتُه معه* الخضوعُ عند الحاجة* رُجُولية الناس أتباع لمن غلب* النكاح يُفْسِدُ الحب* النصح بين الملأ تقريع* الحرّ حر وإن مسه الضر ، والعبد عبد وإن ملك* الدر الثقيل إذا تخفف صار طاعونا* أضيعُ من حُلِيّ على زِنجيّة* العمل للزرنيخ والاسم[2] للنُّورة* البغلُ الهرم لا يُفْزِعه صوتُ الجُلْجُل* بدن وافر وقلب كافر* تزاوَروا ولا تجاوَروا* تعاشروا كالإخوان وتعاملوا كالأجانب* ثمرةُ العَجَلة الندامة* جواهر الأخلاق تفضحها المعاشرة ، حيثما سُقِطَ لُقِط* خُذِ اللصّ قبل أن يأخذك* خُذ القليل من اللئيم وذُمّه* ذَلّ من لا سفيه له* ريق العدوّ سُمٌّ قاتل* رُبّ ساعٍ كقاعد* زكاةُ البدن العلل* زَلِقَ الحمارُ* وكان من سَهْوَة المُكارى[3]* زلّةُ الرِّجْل عظم يُجْبَر ، وزلّة اللسان لا تُبقى ولا تذر* سلطان غَشُوم خَيرٌ من فتنة تدوم* سواءٌ قولُه وبولُه سفير* السُّوء يُفْسِد ذات البين* شهر ليس لك فيه رزق لا تَعُدَّ أيامَه* صديقُ الوالد عَم الولد* ضرب الطبل تحت الكسا* طاعة الولاة بقاء العز* طُفيلى ويقترح* عناية القاضى خيرٌ من شاهِدَىْ عَدْل* دلّت على أهلها براقش (وهو اسم كلبة نبحت فدلت على الجيش فقتلوهم) غشّ القلوب يظهر فى فلتات الألسن ، وصفحات الوجوه غِنَى المرء* فى الغُربة وطن* فرَّ من الموت وفى الموت وَقَع فمٌ يُسَبّح وقَلْب يُذبّح* لأنه كالكعبة يُزارُ ولا يزور* قيل للزمار تهيّأ للزَّمْر قال : المِزْمارُ فى كمى ، والريح فى فمى* كل قليلا تَعِش كثيرا* كلامُه ريحٌ فى قفص كالإبرة تكسو الناس وهى عريانة* كلمة حكمة من جوفِ خَرب كاد المريبُ يقول : خذونى كنتَ سِندانا فصرت مِطْرَقة* كلّ ما فاتك فى الدنيا فهو غنيمة* كلما طار قَصُّوا جناحه* لو كان المُزَاحُ فحلا لم يُنْتِج إلا شَرًّا* لسان الجاهلِ مِفْتَاحُ حَتْفِه* لكل جديد لذة* لو ضاعت صفعة ما وُجِدَت إلا فى قفاه* لو كان فى اليوم خير ما فات الصياد* من اعتمد على شرف آبائه فقد عقّهم* من سعادة المرء أن يكون خصمُه عاقلا* وبالله التوفيق.

الفصل الرابع: فى الأمثال من الشعر المنظوم مُرتبةً على حروف المعجم

❁ حرف الألف:

١- ألا كلُّ شىء ما خلا الله باطلُ ... وكلُّ نعيم لا محالة زائلُ
٢- إذا جَاءَ موسى وألقى العصا ... فقد بَطَل السحر والساحرُ
٣- إذا لم يكُنْ فيكُنْ ظِل ولا خبا ... فأبعدكُن الله من شجرات

(١) الاست: الدُّبُر.
(٢) الزرنيخ: عنصر مركباته سامة أما النورة فهي أخلاط تستخدم في إزالة الشعر.
(٣) المكاري: من يؤجر الحمير للركوب والحمل، ويتولى رعايتها [الحمّار].

٤- إذا كنتَ في فكرى وقلبى ومُقلتى ... فأى مكان من مكانك ألطف ؟ !
٥- إذا أراد كريمٌ منعَ صاحبه ... فليس يَخفَى عليه كيف ينفعه ؟
٦- إذا ما أتيتَ الأمرَ من غير بابه ... ضَلَلتَ وإن تَقصِد إلى الباب تهتَدِ
٧- إذا أنت لم تُنصِف أخاك وجدتَه ... على طَرفِ الهجران إن كانَ يَعقِلُ
٨- إذا لم يكن عندى نوال هجرتَنى ... وإن كان لى مال فأنتَ صديقي
٩- الناس فى طلب المعاش وإنما ... بالجدّ يُرزَقُ منهم من يُرزَقُ
١٠- أيها السائلُ عما قَدْ مَضَى ... هل جَديدٌ مثلُ مَلبوسٍ خَلَق ؟ !
١١- إنما أنفسُنا عاريَةٌ ... والعوارى حُكمُها أن تُستَرد
١٢- إنّ العدوّ وإن أبدى مُسالَمةً ... إذا رأى منك يوما غِرّةً وثبا
١٣- أتمنى على الزمان مُحالاً ... أن ترى مُقلَتَاىَ طلعة حُرّ
١٤- إذا ملكٌ لم يكن ذا هِبَه ... فدعه فدولته ذاهِبَه
١٥- إذا ثارت خطوب الدهر يوماً ... عليك فكن لها ثَبْتَ الجنان
١٦- إذا كنت لا ترضى بما قد ترى ... فدونكَ الحَبْلَ به فاختنق
١٧- إن الأمور إذا بدت لِزَوالِها ... فعلامة الإدبار فيها تَظهَر
١٨- إذا ضاع شيء بين أم وبنتها ... فإحدهما لاشك ذلك آخذه
١٩- إذا كان ربّ البيت بالطبل ضاربا ... فلا تلمُ الصبيان فيه على الرّقص
٢٠- إذا ما أراد الله إهلاك نملة ... سمت بجناحيها إلى الجوّ تَصعَد
٢١- إذا أنت لم تُغرض عن الجهل والخَنى ... أصبت حليما أو أصابك جاهل
٢٢- إذا لم تستطع أمرًا فدعْه ... وجاوزه إلى ما تستطيع
٢٣- إذا صوّت العصفور طار فؤادُه ... ولكنْ حديدُ النّاب عند الشرائد
٢٤- أهن عامرًا تكرمْ عليه فإنما ... أخو عامرٍ من مَسَّه بهَوان
٢٥- إذا محاسنى اللاتى أتيتُ بها ... عُدّتْ ذُنوبا فقل لى كيف أعتذر ؟
٢٦- إخوانُ صدقٍ ما رأوك بغبطة ... فإذا افتقرت فقد هوى بك من هوى
٢٧- إذا اعتاد الفتى خوض المنايا ... فأيسر ما يمرّ به الوحول
٢٨- ألم تر أن المرءَ تدوَى يمينهُ ... فيقطعها عمدًا ليسلم سائرُه ؟ !
٢٩- إذا أنت لم تُغلِمْ طبيبك كلّ ما ... يسوءك أبعدت الدواءَ عن السّقم
٣٠- إذا أنت حَمّلْت الخَتُون أمانةً ... فإنك قد أسندتها شرّ مُسند
٣١- أكلُّ خليل هكذا غيرُ منصفٍ ... وكُلّ زمانٍ بالكرام بخيلُ ؟ !
٣٢- إذا أنت عبتَ المرءَ ثم أتيتَه ... فأنت ومن تُزرى عليه سواء
٣٣- أسأتُ إذْ أحسنتُ ظنى بكم ... والحَزمُ سُوء الظن بالناس !
٣٤- الحادثاتُ إذا ألم خُطوبُها ... فلها مَساوٍ مرةً ومحاسِنُ
٣٥- الخيرُ لا يأتيكَ مُتّصِلاً ... والشرُّ يسبق سيله مطرُه
٣٦- العلمُ ينهَضُ بالخسيس إلى العُلاَ ... والجهل يقعُدُ بالفتى المنسُوب
٣٧- الكفرُ بالنّعمَة يدعو إلى ... زوالها والشكر أبقَى لها
٣٨- أيا دارَهم ما كنتَ أنت بدارِهم ... ولا أنا مُذْ سار الرّكاب بهم أنا !
٣٩- أقلب طرْفى لا أرَى غيرَ صاحبٍ ... يميلُ مع النّعمَاء حيث تميلُ
٤٠- إذا ما قضيتَ الدّينَ بالدّين لم يكن ... قضاءً ولكن ذاك غُرمٌ على غُرم

❁ حرف الباء الموحدة:

١- بِنَا فوقَ ما نشكُو فصَبرًا لعَلّنا ... نرى فَرَجًا يشفى السّقام قريبا
٢- بالمِلْح نُصلِح ما نَخشى تَغيُّره ... فكيف بالمِلْح إن حَلّتْ به الغِير ؟
٣- بنى عمنا إن العَداوةَ شأنُها ... ضَغائِنُ تبقى فى نفُوس الأقارب

❁ حرف التاء المثناة الفوقية:

١- تَحِنّ إليه أفئدة البَرايَا ... وتهواه الخلائقُ للسَّماع
٢- تلومُ عَلى القطيعة مَن أتاها ... وأنت سَنَنْتَها للناس قَبلى ؟ !
٣- تُلْجى الضَرُورَاتُ فى الأمور إلى ... سُلُوك ما لاَ يليقُ بالأدَب
٤- تفَرّقت الظباءُ على خراشٍ ... وما يدرى خَراشٌ ما يَصيد ؟ !
٥- تجتلى الأذْنُ منه أحسَنَ مِمَّا ... تجتلى العينُ من وُجُوه البُدُور !

❁ حرف الجيم:

١- جنّ له الدهرُ فنال الغِنى ... آه لِمَنْ أغفلَه الدهرُ
٢- جَرّبَتْ أهلى وأهليه فما تركت ... لى التجاربُ فى ودّ امرئٍ غَرضا

❁ حرف الحاء المهملة:

١- حَيّاكَ من لم تكن ترجو تحيتَه ... لولا الدراهمُ ما حَيّاك إنسان !

❁ حرف الخاء المعجمة:

١- خفض الجأش واصبرنْ رُوَيدًا ... فالرزايا إذا توالَتْ تَوَلّت
٢- خليلىَّ إنّ الحُبَّ صَعْبٌ مِراسُه ... وإنّ عزيزَ القوم فيه يُهَان !
٣- خاطِر بنفسِك كى تصيبَ غنيمةً ... إنّ الجلوسَ مع العِيالِ قبيحٌ
٤- خيالك فى عينى وذكرك فى فمى ... ومثواك فى قلبى فأين تغيب ؟!
٥- خُنْ من أمنتَ ولا تَرْكَن إلى أحدٍ ... فما نَصَحتُك إلا بَعْد تجربى

❁ حرف الدال المهملة:

١- دَاوُد محمودٌ وأنت مَذمَّم ... عجبًا لذاك وأنتما من عُودِ !
٢- دَعينى أنْهَبِ الأموالَ حَتّى ... أُعِفّ الأكرَمينَ عن اللّئام

❁ حرف الذال المعجمة:

١- ذو العقل يَشقَى فى النعيم بعقلِه ... وأخو الجهالةِ فى الشقاءِ مُنَعَّمُ

❁ حرف الراء:

١- رُبّ مهزولٍ سَمِينٌ عِرضُه ... وسَمينِ الجسم مهزولُ الحَسَب
٢- رُدّوا على صحائفا سوّدْتُها ... فيكم بلاَ حَقٍّ ولا استحقاق
٣- رَضِيتُ ولا أرضى إذا كان مُسْخِطِى ... من الأمر ما فيه رِضا صاحب الأمر
٤- ربّ يومَ بكَيت منه فلما ... صِرتُ فى غيره بكيتُ عليه !

❁ حرف الزاى:

١- زَنيمٌ ليس يعرفُ مَنْ أبوه ... بغى الأم ذُو حسبٍ لئيمِ

❁ حرف السين المهملة:

١- سُروري أنْ تَبْقى بخير ونعمة ... وإني من الدنيا بذلك قانِع
٢- سوءُ حظّي أنالني منك هجْرًا ... فعلى الحظّ لا عليك العتابُ
٣- سَبكْناه ونَحْسَبُه لجينًا ... فأبدى الكِيرُ عن خَبَثِ الحديد
٤- ستذْكُرني إذا جَرّبْتَ غيري ... وتعلم أنني نعم الصديق !

❁ حرف الشين المعجمة:

١- شَفيعي إليك الله لا ربَّ غيرُه ... وليس إلى ردّ الشفيع سبيلُ
٢- شكرْتُك قبل الخير إن كنت واثقًا ... بأني بعدَ الخير لا شك شاكرُ

❁ حرف الصاد المهملة:

١- صَحّحْ لنا والدَه أوّلا ... وأنت في حِلٍّ من الوالدة

❁ حرف الضاد المعجمة:

١- ضاقتْ ولوْ لم تَضِق لما انفرجَتْ ... والعُسْرُ مفتاح كُلّ مَيْسُور

❁ حرف الطاء المهملة:

١- طويلُ عمر المعالى والنَّدى أبدًا ... قصيرُ عمر الأعادى والمواعيد
٢- طُوبَى لأعيُنِ قوم أنتَ بينَهُمُ ... القوم في نزهَةٍ من وجهكَ الحَسَنِ

❁ حرف الظاء المشالة:

١- ظَهَرَتْ خِيانَاتُ الثّقات وغيرهم ... حتى اتهمنا رؤيةَ الأبصار
٢- ظلمتَ امرأ كلفته غير خُلْقه ... وهَلْ كانت الأخلاقُ إلا غرائزا ؟ !

❁ حرف العين المهملة

١- عَلِمَ الله كيفَ أنتَ فأعْطَا ... كَ المحلَّ الجليلَ من سُلْطانه
٢- على المرء أن يسْعَى لما فيه نفعهُ ... وليس عليه أن يساعده الدهرُ
٣- عَسَى فرجٌ يأتي به الله إنه ... له كلّ يوم في خليقته أمرُ
٤- عَتَبْتُ على عمرو فلما تركتُه ... وجرّبت أقوامًا بكَيْتُ على عَمْرو

❁ حرف الغين المعجمة:

١- غنى بلا دين عن الخلق كلهم ... وإن الغنى إلا عن الشيء لا به
٢- غلام أتاه اللؤمُ من شَطْر نَفْسه ... ولم يأتِه من شَطْرِ أمٍّ ولا أبِ

❁ حرف الفاء:

١- فَلَم أرَ كالأيام للمرء واعظًا ... ولا كصُروف الدّهر للمرءِ هاديًا

٢- فنفسُك أكرمها فإنك إنْ تَهُنْ عليك فلن تلْقى لها الدهر مُكْرِمًا
٣- فصبرٌ جَميلٌ إنّ فى اليأس راحةً إذا الغيثُ لم يُمْطِرْ بلادَك ماطِرُه
٤- فما أكثر الأصحاب حين تَعدهم ولكنهمْ فى النائبات قليلُ
٥- فإن كانتِ الأجسامُ منّا تَباعدتْ فإن المدَى بين القلوب قريبُ
٦- فلو كانَ حمْدًا يخلد المرء لم يَمُت ولكنّ حمد المرء غيرُ مخلد
٧- فإن تَفُقِ الأنام وأنت منْهُمْ فإنّ المسكَ بعضُ دَمِ الغزالِ

❁ حرف القاف:

١- قد يَجمعُ المالَ غيرُ آكله ويأكلُ المالَ غيرُ من جَمعَهْ
٢- قد زال مُلكُ سليمانَ فعاوِدْهُ والشَّمسُ تنحطُ فى المجرَى وترتفعُ
٣- قد يدرك المتأنى نُجْحَ حاجته وقد يكونُ مع المستعجل الزَّلَلُ
٤- قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه خلقٌ وجَيْبُ قميصه مَرْقُوعُ

❁ حرف الكاف

١- كُلوا اليومَ من رزق الإله وأبْشروا فإنّ على الخلاق رزقَكُم غدا
٢- كَفى زاجرًا للمرء أيامُ دهره تروح له بالواعظات وتَغْتدى
٣- كنت من كُرْبتى أفِرُّ إليهمُ فَهُمْ كُرْبَتى فأينَ الفِرارُ ؟
٤- كانُوا بَنِى أمِّ ففرق شَمْلَهُم عَدَمُ العقول وخفة الأحلام
٥- كلّ المصائب قد تمرُّ على الفتى فتهونُ غيرَ شماتة الأعداء
٦- كأنك مِن كُلّ النُّفوس مُرَكّبٌ فأنت إلى كلّ الأنام حَبيبُ
٧- كالكلبِ إن جَاع لم يَمْنعْكَ بَصْبَصة وإن يَنل شِبَعًا يَنْبَحْ من الأشَرِ

❁ حرف اللام:

١- لعمرُك ما يدرى الفتى كيفَ يتّقى إذا هُو لم يجعلْ له اللهَ واقيا
٢- لعَمْرِى ما ضاقتْ بلادٌ بأهلها ولكنّ أخلاق الرجال تَضيقُ
٣- للموت فينا سِهَامٌ وهى صَائِبَةٌ مَنْ فاته اليومَ سَهْمٌ لم يَفُتْه غدا
٤- لو أن خِفّةَ عَقْله فى رِجْله سبق الغزال ولم يفُتْه الأرنَبُ
٥- لو كان ما بى فى صَخرٍ لأنْحلهُ فكيف يَحْمِلُه خَلْق من الطّين
٦- لعمرُك ما الأيامُ إلا مُعَارةً فما اسطعت من مَعْروفها فتزوّدِ
٧- لكل امرئ حالانِ بؤسٌ ونِعمةٌ وأعْطَفُهُم فى النائبات أقاربُه

❁ حرف الميم:

١- مَنْ يَحْمَدِ الناسَ يَحْمَدُوهُ والناسُ من عَابهم يُعَابُ
٢- مَن لَم يَعُدْنا إذا مَرِضْنا إن مات لم نشهد الجَنازه
٣- متى يبلغ البنيانُ يومًا تمامه إذا كنت تبنيه وغيرُك يهدمُ ؟!
٤- من كان فوق مَحلّ الشمس رُتْبتُه فليس يرفعُه شىء ولا يَضَعُ
٥- من الناس من يَغْشى الأباعد نفعُه ويَشْقى به حتى الممات أقاربُه
٦- ما كان فى المخدع من أمركم فإنه فى المسجد الجامع

٧- ما قام عمرٌو في الولا ... ية قائما حتى قعد

❁ حرف النون:

١- تسودُ أعلاها وتأبى أصولُها ... وليس إلى ردّ الشباب سبيلُ
٢- نحن بنو الموتى فما بالُنا ... نعافُ ما لابُدّ من شُربه
٣- ندمت ندامة الكُسَعِي لما ... رأت عيناه ما صنعت يداه

❁ حرف الهاء:

١- هناكم الله بالدنيا ومتعكم ... بما نُحِبّ لكم منها ونرضاه
٢- هل بالحوادث والأيام من عَجَبِ ... أم هل إلى ردّ ما قد فات من طَلَب
٣- هَبِ الدنيا تقادُ إليك عفوًا ... أليس مصيرُ ذاك إلى الزوال ؟ !
٤- هنيئًا لِمن لا ذاقَ للدّهر لوعةً ... ولم تأخذِ الأيامُ مِنه نَصيبا
٥- هم يَحسُدونى عَلى مَوْتِى فوا حَزنى ... حتى على الموتِ لا أخْلُو مِنَ الحَسَدِ

❁ حرف الواو:

١- ولم أرَ كالمعروفِ أما مَذاقُه ... فحُلْوٌ وأما وجهُه فجميلُ
٢- وإذا خشيتَ من الأمورِ مقدَّرًا ... وهَرَبْتَ منه فنحوه تتوجَّهُ
٣- والرزقُ يُخطِئُ بابَ عاقلِ قومه ... ويبيتُ بَوّابًا بباب الأَحْمقِ
٤- ولا يَغُرُّك طول الحِلم مِنّى ... فما أبدًا تُصادِفُنى حَليما
٥- ولا خير فيمن لا يُوَطِّن نفسه ... على نائباتِ الدهر حين تَنوبُ
٦- وإذا أتتك مذمتى من ناقصٍ ... فهى الشهادةُ لى بأنى كامل
٧- وما للمرء خيرٌ فى حياةٍ ... إذا ما عُدّ من سَقَطِ المتاع
٨- وما المرءُ إلا كالهلالِ وضَوْئِه ... يُوافِى تَمَامَ الشهر ثُمَّ يغيب
٩- وقد تسلبُ الأيام حالات أهلها ... وتعدو على أسْد الرجال الثعالبُ
١٠- وإذا افتقرتَ إلى الذخائر لم تجدْ ... ذُخْرًا يكون كصالح الأَعْمالِ
١١- ومَنْ يَكُنِ الغرابُ له دليلاً ... يمرُّ به على جيف الكِلابِ
١٢- ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا ... من الزاد يطرح نفسه أى مطرح
١٣- ولرُبّما مَنعَ الكريم وما به ... بخلٌ ولكنْ سوءُ حظِّ الطالبِ
١٤- ولا بات يَسْقينا سِوَى الماء وَحْدَهُ ... وهذا جزا من بات ضيفَ الضفادِعِ
١٥- ومَن عاش فى الدنيا فلابُدّ أن يَرَى ... من العيش ما يصفو وما يَتكدرُ
١٦- ولو دامت الدولاتُ دَامتْ لغيرنا ... رعايا ولكن ما لَهُنّ دَوَامُ
١٧- وأَحْسِنْ فإنَّ المرءَ لابُدَّ مَيّتٌ ... وإنك مَجْزِىٌّ بما كُنتَ سَاعِيَا
١٨- ولا تُرِيَنّ الناسَ إلا تَجَمّلا ... وإن كنتَ صِفرَ الكفِّ والبطنِ طَاوِيَا
١٩- وما لامرئٍ طولُ الخلودِ وإنما ... يخلِّدُه طولُ الثنايا فيُخَلَّد
٢٠- ولَرُبَّ نازلةٍ يضِيقُ بها الفَتَى ... ذَرْعًا وعِندَ الله مِنْهَا المخرَجُ
٢١- وكانَ رجَائى أن أعُودَ مُمتَّعًا ... فصار رجائى أن أعود مسلما
٢٢- وتَجلُدى للشامتين أُرِيهِمُ ... أنى لِرَيْبِ الدهر لا أتضعضعُ
٢٣- ولابُد من شَكْوىٰ إلى ذى مُرُوءةٍ ... يواسيك أو يُسَلّيك أو يتوجَّعُ

٢٤- وهوّن حُزنى عَنْ خَلِيلى أنّنِى ... إذا شئتُ لاقيت الذى ماتَ صاحبُه
٢٥- ويومٌ علينا ويومٌ لنَا ... ويومٌ نُساءُ ويومٌ نُسَرّ

❁ حرف اللام ألف:

١- لا تَنْظُرنَّ إلى الجَهالَة والجِجَى ... وانظر إلى الإقبال والإدبار
٢- لا تسألِ المرء عن خَلائِقه ... فى وجهه شاهدٌ من الخبر
٣- لا يَصْبِرُ الحُرُّ تحتَ ضَيم ... وإنّما يَصْبِرُ الحِمَارْ
٤- لاتنهَ عَنْ خُلُقٍ وتأتى مِثْلَهُ ... عارٌ عَليك إذا فعلْتَ عَظِيمُ
٥- لَا يُبالى الشّتْم عِرْضٌ ... كُلُّه شَتْمٌ وذَمّ
٦- لا تَنْظُرَنَّ إلى امرئٍ ما أضلَهُ ... وانظر إلى أفعَالِه ثُمَّ احكم
٧- لَا يَسْكُن المَرْءُ فِى أرضٍ يُهانُ بِها ... إلّا مِنَ العَجز أو مِن قلّةِ الحِيَل
٨- لا يَقْبلونَ الشّكْرَ ما لَم يُنْعِمُوا ... نِعمًا يكونُ لها الثّناءُ تَبيعَا
٩- لَا أسألُ النّاسَ عَمّا فى ضمائِرِهِمْ ... ما فى ضمِيرى لهُمْ مِنْ ذاكَ يَكْفينى

❁ حرف الياء المثناة التحتية:

١- يَفِرُّ من المنِيَّة كُلُّ حَىّ ... ولا يُنْجِى من القَدَرِ الحِذَار
٢- يُريكَ الرّضا والغِلُّ حشْوُ جُفُونِه ... وقد تنطقُ العينانِ والفمُ ساكتُ
٣- يُهَمْهِمُ للشّعير إذا رآه ... ويَعْبَسُ إن رَأى وجْهَ اللجَام
٤- يُفارِقُنى مَن لا أطِيقُ فراقَه ... ويَصْحبنى فى النّاس مَن لا أُريده
٥- يزيدُ تفضُّلا و أزيد شُكْرًا ... وذلك دأبُهُ أبدًا ودأبى
٦- يُواسِى الغُراب الذّئب فى كُلّ صيده ... وما صارَت الغِربانُ فى سَعَفِ النخْلِ
٧- يهونُ علينا أن تُصابَ جُسُومنا ... وتَسْلم أعراضٌ لنا وعُقُول
٨- يَغُرُّ الفتَى مرّ اللّيالى سليمةً ... وهُنّ به عَمّا قليل غوائرُ
٩- يغيظنى وهو على رِسْلِه ... والمَرْءُ فى غَيْظِ سواهُ حَليمُ
١٠- يُريكَ البَشاشَةَ عِنْدَ اللّقا ... ويَبْريكَ فى السّرّ بَرْىَ القَلَم

الفصل الخامس : فى الأمثال السائرة بين الرجال والنساء

مرتبة على حروف المعجم

❁ حرف الألف:

إن كنت ما تعمل جميل اعمل كما يعمل معك* إذا أبغضك جارك حوّل باب دارك . إذا كان صاحبك عسل لا تلحسه كلّه* المستعجل والبطىء عند المعدّية يلتقى ألف ذقن ولا سلام عليكم ألف ذقن ولا ذقنى إذا غاب عنك أصله كانت دلائلُ نسبته فعله* إذا وصلت وسلم الله بغ بما قسم الله* إذا كنت أعمى وأطروش شمّ رائحة النقوش* إذا كان البقل فول حار ، والعشاء بيسار ، أيش يكون الحال ؟ الفشر والمعْر والعشاء خبيزة* أكل الدقة ، والنوم فى الأزقة ، ولا دجاجة محمرةً يعقبها مشقة* أيش أنت فى الحارة ؟ يا منخل بلا طارة* الرجم بالطوب ولا الهروب* إذا وقعت يا فصيح لا تصيح* أقرع يقول لأقرع : امش بنا نزرع فى بركة القرعان أيش ما يطلع النصف لى والربع لى والثمن لى والثمن الآخر لك ولى* العدوّ ما يبقى حبيب حتى يصير الحمار طبيب* اقعد ياحمار حتى ينبت لك الشعير* أى موضع راح الحزين يلقى جنازة* قال الشاعر :

إنْ دامَ هـذا السَّـيـرُ يـامَـسْـعُـود لَا جَـمـل يـبـقـى ولا قَـعُـودُ [١]

غيره :

إذا لـم تـكُـن لـى والـزَّمـان شُـرمْ بُـرمْ فـلا خـيـرَ فِـيـكَ والـزَّمـانُ تـرلَّـلـى [٢]

غيره :

إذا أقْـبـلـت كـادت تـقـاد بـشـعـرة وإن أدبـرت كـادت تـقـدُّ الـسَّـلاسـل

❁ حرف الباء الموحدة:

بينما يتروّى البخيل قضى الكريم حاجته* بينما يسعد المعتر فرغ[٣] عمره* بينما أصل قبره نسيت همه* بينما يعدل المعتر حاله جا الموت شاله* بينما يقطع الجريد يفعل الله ما يريد* بينما يجيء الدرياق[٤] من العراق يكون الملسوع مات* بين حانه وبانه حلقت لحانه* بدوى مقروح لقى التمر مطروح أين يخلى ويروح* بدال لحمتك وقلقاسك هات لك شدّ على رأسك* بدال اللحمة والباذنجان هات لك قميص يا عريان* بدال لحمتك التلاته هات لك شدّ ياشماته* بقى للكلب سرج وغاشيه وغلمان وحاشيه * بقى لِلْخَرا مَرَا ويحلف بالطلاق* بعد الجوع والقلة بقى لك حمار وبغلة .

❁ حرف التاء المثناة فوق

تموت الحدادى وعينها فى الصيد* تعالوا بنا نقتبح ونرجع غدا نصطلح* تدحرج الخرا لعند البعر قال له : ايش أنت ؟ قال له : بزم قردش* ترك الفضول من حزم العقول * تراب العمل ولا زعفران البطالة * تجارة الأحمق على أهل بيته * تضارب الريح مع الموج جا الهم على النواتية[٥] * تزاوروا ولا تجاوروا * تبات نار تصبح رماد لها رب يدبرها .

❁ حرف الثاء المثلثة:

ثوب العيرة[٦] ما يدفى * ثقيل واسمه صخر بن جبل * ثور علقوه أغمى عليه قال : حتى يطلع شيء يرشوه عليه * ثور عاجز ما يدوّر ساقيه * ثقيل من أولاد الزنا مرّ العنا[٧] * ثوب عليه وثوب على الوتد قال : أنا اليوم أحسن من كل من فى البلد .

❁ حرف الجيم:

جَوْرُ[٨] القط ولاَ عدْل الفار * جمل موضع جمل يبرك * جهل المقل دموعه * جمل بحبه قال : وأين المحبة ؟* جيت اصطاد صادونى * جار له حق ، وجار ما له حق ، وجار لا صحبته عافية * جارك مرآك إن لم ينظهر وجهك نظر قفاك * جا كتاب من عند خاله قال : كل من هو فى حاله ، جاكتاب من عند عمه قال كل من ملهى بهمه * جاءوا ينعلوا خيل الباشا مدت أم قويق رجلها * جوزوها له مالها إلا له * جوزوا مشكاح لريمة ما على الاثنين قيمة .

---

(١) القَعود: ولد الجمل وهو البَكر إلى أن يصير في السادسة، والجمع أقْعِدَةٌ.

(٢) [شُرْمٌ بُرْمْ] كناية عن اضطراب الأحوال ولعل أصلها شرّمبرم. أما [ترلّلي]فيراد بها سعة العيش وكثرة الخير ويقول الدكتور أحمد عيسى في كتابه [المحكم]: «شرم» له من ماله: أعطاه قليلاً من المال لرقة حاله، و[بُرُم] اتباع لشرم. وفي السريانية: شرم بمعنى قطع. خزق وترلّلي: مزعزع لا ثبات له كما يقول.

(٣) المعترّ: الفقير، والمتعرض للمعروف من غير أن يسأل.

(٤) الدرياق: هو الترياق، ويطلق على ما يمنع امتصاص السم في الأمعاء.

(٥) النواتية: الذين يديرون السفن في البحر من الملاحين.

(٦) العيرة: المستعار.

(٧) عَنِى عَنَا: أي تعب الرجل وأصابته مشقة، وعنى الرجل: أي وقع في الأسْرِ، والعِنا بكسر العين: أخلاط القوم من قبائل شتى.

(٨) الجور: الظلم.

❁ حرف الحاء المهملة:

حاجة لا تهمك وَصّى عليها زوج أمك * حول حبيبى ماعُونُه وقدرته مع كانونه * حمار حنكوه بالتوت على باب الغيط يموت * حلينا القلوع وارسينا وأصبحنا على ما أمسينا * حب ووارى واكره وداري * حدثتنى ونصحتنى عايرتنى وفرحتنى * حط فُلَيْسَاتك فى كمك واشتر أبوك وأمك * حبة قرض تخرب أرض *

❁ حرف الخاء المعجمة:

خبثت لى وصلحت لك * خذ ذا الصبى فوق صبيانك تمام لأحزانك * خزينة فى جره وملحه فى صره * خبزه بلا إدام ويعزم على الجيران .

❁ حرف الدال المهملة:

دار الظالم خراب ولو بعد حين * درهم لك ودرهم عليك لا لك ولا عليك * دواء ما لا تشتهى النفوس تعجيل الفراق .

❁ حرف الذال المعجمة:

ذا درب ما يسد ريح * ذى ما هى رمانة إلا قلوب ملانة * ذا لى وذا إيدى عليه * ذى مايدة[1] ما يقعد عليها طفيلى * ذا الخبز ما هو من ذا العجين ، الولد خرا من ظرفه كل من شال رجليه حك أنفه * ذكروا المدن جاءت القرى تحجل[2] .

❁ حرف الراء المهملة:

راح ذاك الزمان بناسه وجا هذا الزمان بفاسه وكل من تكلم بالحق كسروا راسه * رأوا حجار راكب حيط قالوا : إلى أين يا حجار ؟ قال : مسافر قالوا : من كانت هذه المطية مطيته لا يشرّق ولا يغرب * رأوا سكران يقرأ قالوا : غن تشاكل روحك * رأوا شيخا يتهجى قالوا : يختم على الصراط * رأوا وردانه على سنداس قالوا : مَا لِذى الفسقية إلاّ ذى البلطية * رأوا على قبر مكتوب يا سعادة ساكنه قالوا : أبصر من يزاحمه * ركبتك وراى حطيت يدك فى الخرج * راح الجندى ، وخلى خلقه عندى * راسين فى عمامة ما يكون * راحت على جمل وجات على قطة قال : ما لِذِى الشّيلَة إلا ذى الحطة .

راحَ الَّذى كُنَّا نَعيشُ ... بِفَضْلِه بينَ الْوَرى
وبَقِىَ الَّذين حَياتُهُم ... ووجُودُهُم مِثْل الْخرا

❁ حرف الزاى المعجمة:

زقزوق على بركة يضحك وهو ضُحكَة * زاوية بلا عيش بنيت ليش * زوج القصيرة يحسبها صغيرة * زوّجت بنتى أقعد فى درَاهَا جاتنى وأربعة وراها .

قال الشاعر :

زوّجْت بنْتِي تِنْسَتر ... ويِمْتلِى بَيْتي قُماشْ
جا غَزْلُها فِي أكْلِهَا ... ونَيْكُهَا طَلَع بَلاشْ

زنبور زن على حجر مِسَنّ قال له : أيش تريد؟ قال: ألحسك؛ قال: أنا ألحس الفولاذ * زنبور زن على فلس جحش قال له: أيش تطلب؟ قال له: عسل؛ قال له: قصدت معدن يا دندن.

---

(١) مايدة: مائدة كناية عن بُخْل مقدمها، وقلة ما عليها من الطعام وشراب.

(٢) حَجَل: أي مشى على رجل رافعًا الأخرى، ويقال: يحجل في مشيته: إذا تبختر.

❁ حرف السين المهملة:

سل المجرّب ولا تنس الطبيب * سموك مسَحّر قال : فرغ رمضان * سموك حَبْل قال : وطولت * سموك راجح قال : إن شاء الله تجى الحق * سبع وزر ولا استتر .

قال الشاعر :

سَيُغْنِى اللَّهُ عَنْ بِقْراط دن ... ويَأْتى اللَّه بالَّلبَنِ الْحَلِيبِ

وقال آخر :

سَيُغْنِى اللَّهُ عَنْ زَيْدٍ وعَمْرٍو ... ويَأْتِى اللَّهُ بِالْفَرَجِ الْقَرِيبِ

❁ حرف الشين المعجمة:

شَرِهْ ووضيع ، ويغْضَب سريع * شىء مَا نَابُه وتقطعت ثيابه * شعر يحلق وشعر ما يحلق * شرب السموم القاتلة ولا الحاجة إلى السفل * شىء ما يجى على القلب عنايته صعبة * شِرَا العبد ولا تربيته * شَخّتْ بَغْلة عامت زِبْلَه[1] ركْبتْ خُنفسة زمَّر زُنْبور * قال : ماذا الجوق الجليل إلا لمقطعات النيل .

❁ حرف الصاد المهملة:

صام سنة وفِطر على بصَلة * صبرى على الحبيب ولا فقدُه * صاحب يضر عدّو مبين * صباح الفوّال ولا صباح العطار * صباحك يا أعور قال : ذى خناقة بايته * صباح الخير يا جارى أنت فى دارك وأنا فى دارى .

❁ حرف الضاد المعجمة:

ضرب الحبيب كأكل الزبيب * ضربتين فى الراس تعمى * ضرب وبكى ، وسبق يشتكى * ضربة على كيس غيرى كَأنها فى عدل حنا * ضمنوا حدّاية لغراب قال : الكل يطيروا * ضربوا بيّاع الكسبرة خر بياع التوم قال : دى داهية جات على الخُضَرية .

❁ حرف الطاء المهملة:

طارت الطيور بأرزاقها * طُفَيْلى ويجلس فى الصدر * طفيلى ويقترح * طويل الكم خطار قليل الفرح فى الدار * طبق وجارية على صحن بَسَارية[2] * طلبوا جاكم عثمان يَدّ من وَرَا وَيدّ من قدّام * طعامك ما جانى ودخانك أعمانى * طار طيرك وأخذه غيرك * طول ما أعيش يكفينى رعى الحشيش * طوّل الغيبة وجانا بالخيبة .

❁ حرف الظاء المعجمة:

ظهرك عندى نصف الليل .

❁ حرف العين المهملة:

عنقود مدَلّى فى الهوا من لا يصل إليه يقول حامض ولا استوى * عشق بداله لا أباله * عاشق ما يسمع بكا صغير * عاشق ما يسمع كلام مفارق * عاشق مقل شى ما زرع أيش جا يستغل * عزومة حسبت عليك كل وبحلق عينيك * عند المخاضة يبان القَلِيط[3] عند الطعان يبان الفارس من الجبان * عريان التينة وفى حزامه سكينة * عريان وفى كمه ميزان *

---

(١) الزِّبل: السِّرْجين وما أشبهه، ويقال: زبل الزرعَ، أي سمَّده بالزِّبْل.

(٢) بسارية: من أسماك المياه العذبة، من فصيلة الشبابيط، ومنه بمصر عدة أنواع، أشهرها النوع النيلي، ومن أسمائه ليبس وصير، وحجمه صغير جدًا. الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٣٧٠ .

(٣) القليط: يسموع ورم الأنثيين العظيم: [قليطة] ويقال لصاحبها: القيلط: المتفخ الخُصية. والكلمة يونانية الأصل بمعنى ورم.

❁ حرف الغين المعجمة:

غابت السباع ولغبت الضباع . غربة وكربة ما يحمل الحال . غطاس وقلقاس نحسين فى قدره * غالى السوق ولا رخيص البيت .

❁ حرف الفاء:

فرجة بلا كسر تعمى البصر * فقير ونفير وكلامه كثير ويقول : هاتوا عشا من يخنى * فوق الشراطه مَلّخ أودانه* فارس خرا ويسوق فى الوحل * فارس خرا واسمه عنتر * فارس خرا ويسابق الخيل فرد ضربة فى الراس تكفى * فصدوا قرد ضرط قالوا : به دم زايد * فرغت الرعانة يا جانم .

❁ حرف القاف:

قالوا للأعمى : زوّق عصاتك قال : هو أنا محب فيها * قالوا للحمار : اجتر قال : مضغ المحال ما ينطلى * قالوا للقرد : شب . قال : أيادى ملاح وتمسك الماصول * قالوا للجمل : زمّر ؛ قال : لا شفف ملموتة ولا أيادى مفرودة* قالوا : للدبة طرّزي؛ قالت : دى خضت أيادى * قالوا للكلاب احرثوا قالوا ما جرت بهذا عادة * قالوا للغراب : مالك تسرق الصابون ؟ قال : الأذى طَبْعى * قالوا لبقر الديوان : إذا متم يكفنونكم فى حرير ، قالوا : اشتهينا نروح بجلودنا * قالوا : للغزالة : ارحلى حرّكت ذنبها * قالوا للعرب : ارحلوا حملوا المناسف[١] .

❁ حرف الكاف:

كل من عودته بأكلك كلما نظرك جاع . كشكار دائم ولا علامة مقطوعة[٢] . كل كره واشرب كره ولا تعاشر كره . كل هم كاوى عند همى ياوى . كل شىء لا يشبه قانيه حرام[٣] . كل مائة عصفور ما يجوا حدّاية . كل ألف مصة ما يجوا بغصة . كل ألف بوسة ما يجوا بعبوسة . كملت يالحمان بالشعره والصنان . كمل حبيبى كل المعانى : أعرج وقليط ومعجبانى . كمل حبيبى وأكمل : أعرج وقليط وأحول وفيه عاده أخرى لمن يواصل يخرا . كأنه خان للغجر لا يوحشه من غاب ولا يؤانسه من حضر . كأنه من طواحين الكشكار داير على رجل الفار !

❁ حرف اللام:

لولاك ياكمى ما أكلت يا فمى . لولاك يا لسانى ما انسكيت ياقفاى . لولا الغيرة والحسد كانت عجوزة كفت بلد . لولا أختك ماصرت ابن عمتك . لو قليناها بلية ما جات هكذا . لو كان فيها خير ما رماها طير . لك وعليك ما يصعب عليك . لك أسوة بغيرك . لقمة بدقة ولا خروف بزقة . لقمة تحت حيطة ولا خروف بعيطة . لوسلم الكرم من حارسه طابت مغارسه . لوتقطع يده وتدليها من فيه صنعه ما يخليها . لو عمل لى من الذهب وليمة هو عندى بتلك العين القديمة . لو شال راسه إلى السما كان عصيده بما . لو نظر الجمل لصنمه كان كدمه . لولا الكشط والبراية ما كانت أولاد الخرا كتاب .

❁ حرف الميم:

محبه بلا حبه ما تساوى حبه . ما شلتك يا دمعتى إلا لشدتى . من عاشر غير جنسه دق الهم صدره . من قدم النحس تعب فى تأخيره . من عاشر الحداد احترق بناره . من عاشر الزبدانى فاحت عليه روايحه . من ركب فى غير سرجه وغرزه دخل الهوا استه وهزه . من لا يحط يده لزنده ما يعرف حرّه من برده . ما رأيتك يا نور حتى ابيضت العيون . مالى على فراقكم جلد إلا هجاجى من البلد . ما كفانا هم أبونا قام أبونا جاب أبوه قال : خذوا جدكم ربوه .

---

(١) المناسف: جمع منسف، وهو ما ينسف به الحبر كالغربال ونحوه.

(٢) الكشكار: ما كان من دقيق القمح من الشعير وغيره بلا نخل. أما [العلامة] فيراد بها دقيق القمح الخالي من السن بعد نخله.

(٣) قانيه: صاحبه ومقتنيه.

من عدم نابه ونصابه وثيابه وشبابه كان الموت أولى به * من يكلم القبح يروح عرضه وينفضح * ما تنقد وهم كلهم زغليه ما فيهم من يعجب النقاد .

❁ حرف النون:

نواية تسند الجرّة قال وتسند الزير الكبير * نفسك أتلفت أىّ شىء أخلفت * نصف البلا ولا البلا كله * ناقص ونحاس * ناموسة باتت على شجرة أصبحت تقول : خاطرك : قالت لها : وأنت كنت على أى ورقة * نيتك مطيتك * نسيت يا فلاح ما كنت: فيه كعبك المشقق والوحلَ فيه .

❁ حرف الهاء:

هانت الزلابية حتى أكلها بنو وائل * هان المسك وانتشر * هدية تعرّ قومها تخليتها ولا لومها * هدية الأحباب على ورق السداب ! ! ! قال : هو أعمى عن ورق الموز * هو عرس تاكل وتُنَسلّ * أهدوا هدية وأعينهم فيها يقولوا الله يردّها * هاتوا ذا الغزل المخبل لذا القلب المدبل .

❁ حرف الواو:

واحد جائز رأى قرد يجرش ترمس قال : ما لذى الفاكهة البدرية إلا ذى الصورة القمرية * واحد سموه عنبر وصنعته سرباتى[١] قال : الذى كسبه فى الاسم خسره فى الصنعة * وحش ويكش ويقعد فى الوش ويغنى بلينا بكم * وقت أكل الدجاج ما يفتكرونى وفى وقت شيل التراب هات يدك * وأيش قام على تومة بفصل الحكومة * وقت الشوا واليخنى ما قلت يا أخى الحقنى * ووقت ضرب الدرة قلت : اصفعوا واصفعنى .

❁ حرف اللام ألف:

لا تعيرنى ولا أعيرك ، الدهر حيرنى وحيرك * لا أصل شريف ، ولا وجه ظريف * لا أخوك ولا ابن عمك تشق ثوبك على أيش ؟ ! * لا عاش يليق[٢] لا حرّاس ولا درّاس * لا عاش العار ولا بَنى له دار * لا ربح ثوابه ولا خلاه لاصحابه * لا فى الفراق نجد راحة ولا فى الوصل * لا تشكرنّ فتى حتى تجرّبه * لا تفرح لمن يروح حتى تنظر من يجى * لا يضر السحاب نبح الكلاب * لا يغرك تظريفى الأصل فىّ ريقى .

❁ حرف الياء:

يا شب مليح ما أحسن وصفك لا فى يدك ولا فى طرفك * يا ويل من ذاق الغنى بعد جوعه ، يموت وفى قلبه من الهم واجس * يا من ملنا ما كان حلنا لسا مالنا فى العشرة سنة * يهنيكم قدومه قد جاكم بشومة[٣] * يا ليتنا انكسرنا ولا بك انتصرنا * ياويل من كان عشيّه من بيت خيّه * يا طالب الشرّ بلا أصل تعال للصائم بعد العصر .

[أمثال النساء]

❁ حرف الألف:

أحبك يا سِوَارى مثل معصمى * الذى فى قلب أم حنين تحلم به فى الليل * إن كُنتِ حرّة لا تضعى نقابك بره * إن لم تعملى وتفتخرى ، وإلا اقعدى وانعفرى[٤] * إن كانت الداية أحن من الوالدة، قال دى داهية عيارة * الكلام لك يا جاره * ألا أنتى حمارة ؟ ! * أيش تعمل الماشطة فى الوجه المشوم * أيش قام على الحزينة بالنقش والزينة * أيش

(١) سرباتي: يصلح النعال صرمة: جزمة كلمة فارسية لنوع من النعال. أو هو نازح المراحيض.
(٢) من لا يليق أن يكون حارسًا أو دارسًا فلا عاش.
(٣) الشومة: العصا الغليظة.
(٤) انعفر: أي تمرَّغ في العفر، وانعفر الشيء أي تتَرَّب.

ينفع النفخ فى الوجه الأصم * أرملة عدس ومتزوّجة عدس اقعدى بعدسك * اسم الزوج ولا طعم الترمل * العاقلة فينا تزني بيقطينا[١] إذا كان زوجى راضى أيش فضول القاضى[٢]؟ ! * استعارت الرعنة شيء حسبته لها أخذت المقص ودارته لها .

❁ حرف الباء الموحدة:

بعد أن كُنتِ لى وحدى بقيت أسمع أخبارك * بعد سنه وشهرين جابت بنت بشفرين * بعد أن كان زوجها بقى طباخ فى عرسها * بعد مشيك فى الحلفه[٣] بقى لك سلالم وغرفه واسمك ستيته * بعد أمى وأختى الكل جيرانى * بينما تتنقب الحوله انصرف القاضى * بنت الخرا تزف لابن الخرا بدُفّ * باتت ناموسة على جميزة قالت : صبحك الله بالخير ، قالت : مين درى بك قبله ؟ ! * بدال ما تمشى وتهزى كتفك رقعى فردة خفك * بَخْرا وتزاحم بالبوس . بقى لأم سيسى برقع وللضفدعة زمارة * بعد مشيك فى الحلافى لبستى الصافى * بعيد على الحزينة تستعمل الزينة .

❁ حرف التاء:

تضاربت المجنونة والحمقا حسبتها الرعنة من حقا * تأخذوا أبونا وتكابروا * ترتانة وبيبانه ومفاتيح الخزانة * تباهت الرعنة[٤] بشعر بنت أختها * تتغمى بالخرج[٥] ولا تخلى الغنج * تقعد عيوشة فى ديارتها مالا حد حاجة فى زيارتها .

❁ حرف الثاء:

ثوب سيدى ثوب حبيبى * ثوب ستّى ثوب قحبة .

❁ حرف الجيم:

جارة بجارة ، والعداوة خسارة * جانى عذولى ورتالى ما هى محبة إلا شماته لى * جارية وزبدية على باذنجانة مقلية * جاتنا العدوة مكحلة قطران لا غيره وقلبها فرحان * جاب ثيابه يغسلهم بلا صابونة معهم .

❁ حرف الحاء المهملة:

حُولَه وَتتَنقب بنخ[٦] * حزانى ما عندهم دقيق اشتروا لهم منخل رقيق * حزانى ما عندهم خبز اشتروا لهم بعشرة ملوخية * حزينة وواعية * جبلة ومُرضعة ، وعلى كتفها أربعة ، وطلعت الجبل تجيب دوا للحبل * حزينة مالها مملوك سمت زنبورها خوشكلدم * حزينة مالها ملك اكترت لها بواب * حزينة ما لها كاملية طلبت لها خف وشعرية .

❁ حرف الخاء المعجمة:

خطبوها تعززت وكان زمان البوار * خلت زوجها مكروب ، وراحت تشوف المصلوب * خذى قطيفة واكتمى سرى قالت : ما يطوعنى قلبى * خلت ما يعنيها ، واتبعت حك رجليها .

❁ حرف الدال المهملة:

درى زوجك بكتبتك تمى نهارك مع ليلتك * دق من أسفل ولا تطلع ما أنت على القلب .

---

(١) يقطينا: القرع [الكوسة].
(٢) فضول: تدخله بيني وبين زوجي.
(٣) الحلفة: بفتح الحاء وكسر اللام، واحدة الحلف، وهو نبت أطرافه محدَّدة كأطراف سعف النخل ينبت في مغايض الماء.
(٤) رعنته الشمس، أي ضربته في رأسه، فيحصل للرأس تأثير دماغي من هذا الأمر، ويقال: امرأة رَعْناء، ورجل أرْعَن والجمع رُعْنٌ.
(٥) الخرج: بضم الخاء وسكون الراء، وعاء من شعر أو جلد، يوضع على ظهر الدابة لوضع الأمتعة فيه، والجمع خِرَجَة وأخْرَاج. والغنج: بضم العين المعجمة وسكون النون معناها الدَّلال، وملاحة العينين.
(٦) النّخ: نوع من الحصير، وهي كلمة فارسية بمعنى بساط، وسيأتي مثل مماثل في حرف الراء: [رأوا جاموسة منقبة بحصيرة] قالوا: ما لذا الشكل الوضيع إلا ذا القماش الرفيع.

❁ **حرف الذال المعجمة:**

ذكرت العجوز أطلالها .

❁ **حرف الراء:**

رقصتى ما أحسنتى كان قعادك أجمل * رعنا يضحكوا بها وهى تضحك تساعدهم * رأوا جاموسة منقبة بحصيرة قالوا : ما لذا الشكل الوضيع إلا ذا القماش الرفيع * راحت تبيع رُبْعة[١] غابت جمعة * راحت رجال الهيبة وبقيت رجال الخيبة * راحت رجال اللحم والقلقاس وبقيت رجال الخبز بالفسفاس[٢] * رأوا خنفسه على مكنسة قالوا : ما لذى الصيفة إلا ذا الحمار الأزعر .

❁ **حرف الزاى:**

زمر بالزُّمّيرَة تبان لك العاقلة من المجينينة * زوجوا بنت نشادرى لسرباتى قالوا : قليلات الخرا تتدحرج لبعضها .

❁ **حرف السين المهملة:**

سودا وتتنقش بسباخ * سألوها عن أبيها قالت جدى شعيب .

❁ **حرف الشين المعجمة:**

شدّى قرطاسك من عند موسه ، قالوا : دا شى ما فرحتِ به وأنتِ عروسة * شامتة ومعزّية .

❁ **حرف الصاد المهملة:**

صارت القحبة واعظة * صارت القويقة شاعرة .

❁ **حرف الضاد المعجمة:**

ضحك ابن سنة غمى على أمه قالت : ما أخفّ دمه !

❁ **حرف الطاء:**

طلعت ترحم نزلت تتوحم.

❁ **حرف الظاء:**

ظريفة وعفيفة ولها نفس شريفة .

❁ **حرف العين المهملة:**

عميا تحففا[٣] مجنونة ، وتقول : حواجبك سود مقرونة * عاقلة وجابت طفلة وجاتها خطار واشتروا لها قلقاس دكر وحطب أخضر فى نهار مطر وقالوا لها : اطبخى على قدر لَمْحَة تقع الصلحة * عجوزة وجابت غلام ، إذا جنت لا تلام * عجوزة وخرفانة ، دى داهية كمانه .

---

(١) الرُّبْع: جزء من أربعة أجزاء، ويطلق عُرفًا على مكيال يسع أربعة أقداح.

(٢) الفَسْفَاس: نَبْتٌ أخضر خبيث الريح، له زهرة بيضاء، ينبت في مسايل الماء.

(٣) حفَّت المرأة وجهها: أزالت ما عليه من شعر.

❁ **حرف الغين المعجمة:**

غيرك يقوم مقامك عليش قلبى أعذبه ؟ !

❁ **حرف الفاء:**

فرحت حزينة خربت مدينة .

❁ **حرف القاف:**

قالوا للمغانى اتزوّقوا قلبوا عصايبهم .

❁ **حرف الكاف:**

كل من تبعت هواها ، صارت سراويلها رداها * كبرتِ يا برقوقة وبقى لك دبوقة[1] * كانوا مغانى صاروا ملاهى ، لا راحت ولا جات كما هى * كُلِى قَلِية وباتى هنية * كأنها من الباسطية قماش على جريدة * كأنها حزمة فجل أصفر وعرقها أخضر * كأنها من عمايم اليهود صفرا طويلة رفيعة * كأنها من بيت الوالى ما يتحدّث فيها سوى الحاشية * كأنها ضبة جعيدى مخلوعة ولا تاخذ شىء .

❁ **حرف اللام:**

لو كان ما ينقش إلا السمان ، بارت المواشط من زمان * للساعة ما حبلت جابت المسين * لولا المعاير ما كانت الحرايز .

❁ **حرف الميم:**

ماشطه وتمشط بنتها * من افتكرنا بياسمينا ما نسينا .

❁ **حرف النون:**

نواية تسند الجرة قال : وتسند الزير الكبير .

❁ **حرف الهاء:**

هش يا دبانة ، أنا حبلى من مولانا .

❁ **حرف الواو:**

وجه لا يرى ، بالذهب يشترى .

❁ **حرف اللام ألف:**

لا انتِ مليحة ولا تغنى بايش تدلى .

❁ **حرف الياء:**

يعيش المدلل بلا مكلل * يا غزّالة الأقمار أين كُنتِ بالنهار ؟ ! * يا من ملنا ما كان حلنا * ياناظر فى الساعة ما لنا فى العشرة سنة .

(١) الدَّبُّوقة: الشعر المفتول المنسوج، أو المضفور.

الباب السابع

في البيان والبلاغة والفصاحة، وذكر الفصحاء من الرجال والنساء، وفيه فصول

الفصل الأول : في البيان والبلاغة

أما البيان فقد قال الله - تعالى - : ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾. وقال ﷺ: « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » [١]. قال ابن المعتز : البيان : ترجمان القلوب وصيقل العقول . وأما حدُّه[٢] فقد قال الجاحظ : البيان اسم جامع لكل ما كشف لك عن المعنى . وأما البلاغة : فإنها من حيث اللغة هى أن يقال : بلغت المكان إذا أشرفت عليه وإن لم تدخله ، قال الله - تعالى - : ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ . وقال بعض المفسرين فى قوله - تعالى - : ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ﴾. أى : وثيقة كأنها قد بلغت النهاية . وقال اليونانى : البلاغة وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة . وقال الهندى : البلاغة تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام . وقال الكندى : يجب للبليغ أن يكونَ قليل اللفظ ، كثير المعانى . وقيل : إن معاوية سأل عمرو بن العاص : من أبلغ الناس ؟ فقال : أقلهم لفظا ، وأسهلهم معنى ، وأحسنهم بديهة ، ولو لم يكن فى ذلك الفخر الكامل ، لما خَصّ به سيدُ العرب والعجم ﷺ ، وافتخر به حيث يقول : « نُصِرْتُ بالرُّعْبِ وأوتيتُ جوامعَ الكَلِمِ »[٣]، وذلك أنه كان ﷺ يتلفظ باللفظ اليسير ، الدال على المعانى الكثيرة .

وقيل : ثلاثة تدل على عقول أصحابها : الرسول على عقل المرسِل ، والهدية على عقلِ المهدِى ، والكتاب على عقل الكاتب . وقال أبو عبد الله وزير المهدى : البلاغة ما فهمتهُ العامةُ ورَضِيَت به الخاصة . وقال البحترى : خير الكلام ما قلَّ وجَلَّ ، ودلَّ ولم يُملَّ . وقالوا : البلاغةُ مَيْدَانٌ لا يُقْطَع إلا بسوابق الأذهان ، ولا يُسلَكُ إلا ببصائر البيان .

قال الشاعر :

لَكَ البَلاغةُ مَيدانٌ نَشَأْتَ به ... وكُلُّنا بقُصُور عنك نَعْتَرِفُ
مَهِّدْ لِيَ فى نَظْمٍ بعثتُ به ... مَنْ عِنْده الدُّر لا يُهْدَى له الصَّدَفُ

ورُوِى : أن ليلى الأخيلية مدحت الحجاجَ فقال : يا غلام اذهب إلى فلانٍ فقُل له : يقطع لسانَها . قال : فطلب حَجَّاما فقالت : ثكلتك أمك ، إنما أمرَك أن تقطع لسانى بالصلة : فلولا تبصُّرُها بأنحاء الكلام ، ومذاهب العرب ، والتوسعة فى اللفظ ومعانى الخطاب ، لتَمَّ عليها جهل هذا الرجل .

وقال الثعالبى البليغ من يُحول الكلام على حسب الأمالى ، ويخيط الألفاظ على قدر المعانى ، والكلام البليغ ما كان لفظه فحلا ومعناه بكرا . وقال الإمام فخر الدين الرازى[٤] - رحمة الله تعالى عليه - فى حدّ البلاغة : إنها بلوغُ الرجل

---

(١) سبق تخريجه [برقم ١] في الفصل الثاني من أمثال العرب.

(٢) حَدُّه: أي تعريفه.

(٣) حديث: نصرت بالرعب إلخ ذكر العجلوني الشطر الثاني منه [أوتيت جوامع الكلام، واختصر لي الكلام اختصارًا. رواه العسكري، ورواه النسائي وله شواهد في الصحيح. وذكر العجلوني حديثًا آخر رقم [٢/ ٢٨٠٩] [نُصرت بالصبَا، وأُهلِكَتْ عاد بالدَّبور] رواه أحمد والشيخان.

(٤) هو: محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازي، أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل، ولد ٥٤٤هـ وهو قرشي النسب وأصله من طبرستان، رحل إلى خوازم وما وراء النهر، أقبل الناس على كتبه يتدارسونها، وكان يحسن الفارسية، تُوفى في هراة سنة ٦٠٦هـ. (الأعلام للزركلي ٦/ ٣١٣).

بعبارته كُنْهَ ما فى قلبه مع الاحتراز عن الإيجاز المخل والتطويل الممل ؛ ولهذه الأصول شُعَب وفصول لا يحتملُ كشفَها هذا المجموع ، ويحصل الغرض بهذا القدر ، وبالله التوفيق إلى أقوم طريق .

الفصل الثانى : فى الفصاحة

قال الإمام فخر الدين الرازى - رحمة الله تعالى عليه - اعلم أن الفصاحة خُلوصُ الكلام من التعقيد . وأَصْلُها من قولهم : أفصحَ اللبنُ إذا أخذت عنه الرغوة . وأكثرُ البُلَغاء لا يكادون يفرقون بين البلاغة والفصاحة ، بل يستعملونهما استعمال الشيئين المترادفين على معنى واحد ، فى تسوية الحكم بينهما . ويزعم بعضهم أن البلاغة فى المعانى ، والفصاحة فى الألفاظ ، ويستدل بقولهم : معنى بليغ ، ولفظ فصيح .

وقال يحيى بن خالد : ما رأيت رجلا قط إلا هبتُه حتى يتكلم ؛ فإن كان فصيحا عَظُم فى صدرى ، وإن قَصَّرسقط من عينى . وقد اختلف الناس فى الفصاحة فمنهم من قال : إنها راجعة إلى الألفاظ دون المعانى ، ومنهم من قال : إنها لا تخص الألفاظ وحدها ، واحتج من خص الفصاحة بالألفاظ بأن قال : ترى الناس يقولون : هذا لفظ فصيح ، وهذه الألفاظ فصيحة ، ولا ترى قائلا يقول : هذا معنى فصيح ، فدل على أن الفصاحة من صفات الألفاظ دون المعانى ، وإن قلنا : إنها تشمل اللفظ والمعنى لزم من ذلك تَسْمِيةُ المعنى بالفصيح ، وذلك غير مألوف فى كلام الناس . والذى أراه فى ذلك : أن الفصيح هو اللفظ الحسن المألوف فى الاستعمال بشرط أن يكون معناه المفهوم منه صحيحا حسنا . ومن المستحسن فى الألفاظ تباعدُ مخارج الحروف ، فإذا كانت بعيدة المخارج جاءت الحروف متمكنة فى مواضعها غيرَ قَلِقَةٍ ولا مكدودة والمعيب من ذلك كقول القائل :

لَوْ كُنت كنْتَ كتمْتَ الحُبَّ كنْتَ كَما ... كُنَّا وكُنْتَ ولَكِنْ ذاك لَمْ يَكُنِ

وكقول بعضهم أيضا :

ولا الضَّعْفُ حتَّى يبلُغَ الضَّعْفُ ضِعفَهُ ... ولا ضِعْفُ ضِعْفِ الضَّعْفِ بَلْ مِثْلُه ألفُ

وكقول الآخر :

وقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرٍ ... وَلَيْسَ قُرْب قَبْرِ حَرْبٍ قَبْر

قيل : إن هذا البيت لا يمكن إنشاده فى الغالب عشر مرات متوالية إلا ويغلط المنشدُ فيه ، لأن القرب فى المخارج يُحدث ثِقَلاً فى النطق به . وقيل : من عرف بفصاحة اللسان لَحَظَتْه العيون بالوقار ، وبالفصاحة والبيان استولى يوسف الصّديق عليه السلام على مصر ، وملكَ زِمام الأمور ، وأطلعه ملكها على الخفى من أمره والمستور قال الشاعر :

لِسَانُ الفَتَى نِصْفٌ ونِصْفٌ فُؤادُه ... ولَمْ يَبْقَ إلَّا صُورةُ اللَّحْمِ والدَّمِ

وسمع النبى ﷺ من عمه العباس كلامًا فصيحا فقال : « بارك الله لك يا عم فى جمالك »[1] أى فصاحتك . وعرضت على المتوكل جاريةٌ شاعرةٌ فقال أبو العيناء يستجيزها[2] : * أحمد الله كثيرا * فقالت : * حيث أنشاك ضريرا * فقال : يا أمير المؤمنين قد أحسنت فى إساءتها فاشترها . وقال فيلسوف : كما أن الآنية تمتحن بإطنانها[3] فيعرف صحيحُها من مكسورها فكذلك الإنسان يعرف حالُه من منطقه . وقال المبرد : قلت للمجنون أجزنى هذا البيت :

أَرَى اليَوْمَ يَوْمًا قَدْ تَكَاثَفَ غَيْمُه ... وإبْرَاقُهُ فَالْيَوْمَ لا شَكَّ مَاطِرُ

فقال :

وقد حَجَبَتْ فيه السَّحائبُ شَمسَهُ ... كَمَا حَجَبَتْ وردَ الخُدودِ المَحَاجِرُ

وقال عبد الملك لرجل : حَدِّثْنى فقال : يا أمير المؤمنين ، افْتَتِح فإن الحديث يفتح بعضُه بعضًا . وقال الهيثم بن

---

(١) حديث [وسمع النبي ﷺ من عمه العباس إلخ]. لم أقف عليه.

(٢) يستجيزها: يطلب منها أن تُتم بيتًا أتى هو بصدره، وتلك مطارحة لطيفة كانت تدور بين محبي الأدب، وعشاق الشعر.

(٣) إطنان: مصدر أطَنّه، جعله يطن، والطنين : الصوت.

صالح لابنه : يا بُنى إذا أقللت من الكلام أكثرتَ من الصواب . قال : يا أبتِ فإنْ أنا أكثرت ، وأكثرت ، يعنى : كلامًا وصوابًا ؟ . قال : يا بنىّ ما رأيت موعوظًا أحقَّ بأن يكون واعظًا منك .

وقال الشعبى : كنت أحدّث عبد الملك بن مروان وهو يأكل فيحبس اللقمة ، فأقول أجِزْها أصلحك الله فإن الحديث من وراء ذلك ، فيقول : والله لَحديثُك أحبُّ إلىّ منها .

وقال ابن عيينة : الصمت مَنَامُ العلم ، والنطق ، يقظته ، ولا منامَ إلا بتيقظ ، ولا يقظة إلا بمنام . قال ابن المبارك :

وَهَـذا اللِّسَانُ بَرِيدُ الْفُؤادَ ... يَدُلُّ الرِّجَالَ عَلَى عَقْلِهِ

ومر رجل بأبى بكر الصدّيق ﷺ ومعه ثوب ، فقال له أبو بكر : أتبيعه ؟ فقال : لا ، رحمك الله . فقال أبو بكر : لو تستقيمون لقُوِّمت ألستُكم هلَّا قلت : لا ورحمك الله .

ومنه ما حكى أن المأمون سأل يحيى بن أكثم عن شىء فقال: لا ، وأيد الله أمير المؤمنين فقال المأمون : ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها ! وكان الصاحب يقول : هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ ، ويقال : اللسان سَبُعٌ صغير الجِرم عظيم الجُرم ، وقال بعضهم شعرا :

سُحْبَانُ يَقْصُرُ عَنْ بُحُورِ بَيَانِهِ ... عَجْزًا وَيَغْرَقُ مِنْهُ تَحْتَ عُبَابِ

وَكَذاكَ قُسٌّ نَاطِقٌ بِعُكَاظِهِ ... يَغْنِيَا لَدَيْهِ بِحُجَّةٍ وَجَوَابِ[1]

وقيل : إنه حج مع ابن المنكدر شابان . فكانا إذا رأيا امرأة جميلة قالا : قد أبرقنا ، وهما يظنان أن ابن المنكدر لا يفطن ، فرأيا قبة فيها امرأة فقالا بارقة ، وكانت قبيحة فقال ابن المنكدر : بل صاعقة .

وكان أصحاب أبى علىّ الثقفىّ إذا رأوا امرأة جميلة يقولون : حُجة ، فعرضت لهم قبيحة فقالوا : دَاحِضة[2] . وكتب إبراهيم بن المهدى : إياك والتتبعَ لوحشىّ الكلام طمعا فى نَيل البلاغة ، فإن ذلك العناء الأكبر ، وعليك بما سَهُلَ ، مع تجنبك لألفاظ السُّفَّل . ويقال : القول على حسب همة القائل يقع ، والسيف بقدر عضد الضارب يقطع . وقال الأحنف : سمعت كلام أبى بكر حتى مضى ، وكلام عمرَ حتى مضى ، وكلام عثمان حتى مضى ، وكلام على حتى مضى ﷺ ولا والله ما رأيت فيهم أبلغ من عائشة .

وقال معاوية ﷺ : ما رأيت أبلغ من عائشة رضي الله عنها ما أغلقت بابا فأرادت فتحه إلا فتحته ، ولا فتحت بابا فأرادت إغلاقه إلا أغلقته .

ومن غريب الكنايات الواردة على سبيل الرمز ، وهو من الذكاء والفصاحة ما حكى أن رجلا كان أسيرًا فى بنى بكر ابن وائل ، وعزموا على غزو قومه ، فسألهم فى رسول يُرسله إلى قومه ، فقالوا : لا تُرسله إلا بحَضْرَتنا لئلا تنذرهم وتحذرهم ، فجاءوا بعبد أسود ، فقال له : أتعقل ما أقوله لك ؟ قال : نعم إنى لعاقل ؛ فأشار بيده إلى الليل ؛ فقال ما هذا ؟ قال : الليل . قال ما أراك إلا عاقلا . ثم ملأ كفيه من الرمل وقال: كم هذا ؟ قال : لا أدرى ، وإنه لكثير ؛ فقال: أيهما أكثر : النجوم أم النيران ؟ قال كلٌّ كثير . فقال : أبلغ قومى التحية ، وقل لهم : يكرموا فلانًا يعنى أسيرا كان فى أيديهم من بنى بكر بن وائل ؛ فإن قومه لى مكرمون ، وقل لهم : إن العرفج[3] قد دنا ، وشكت النساء ، وأُمُرُهم أن يُعَرّوا ناقتى الحمراء ، فقد أطالوا ركوبها ، وأن يركبوا جملى الأصهب بأمارة ما أكلت معكم حَيْسا[4] ، واسألوا عن خبرى أخى الحارث فلما أدّى العبد الرسالة إليهم قالوا : لقد جنّ الأعور والله ما نعرف له ناقةً حمراء ، ولا جملاً أصهب ، ثم دعوا بأخيه الحارث فقصوا عليه القصة فقال : قد أنذركم ؛ أما قوله : قد دنا العَرْفج ؛ يريد أن الرجالُ قد استلأموا ولبسوا السلاح . وأما قوله شكت النساء ، أى أخذت الشكاء[5] للسفر . وأما قوله أعروا ناقتى الحمراء : أى ارتحلوا عن الدهناء[6] ، واركبوا الجمل الأصهب : أى الجبل . وأما قوله : أكلت معكم حَيْسًا أى أن

---

(١) سحبان وقُسّ: يضرب بهما المثل في الفصاحة.

(٢) داحضة: باطلة.

(٣) العرفج: شجر سُهليّ واحدته عرفجة.

(٤) الحَيْسُ: تمر وأقِط وسمن تخلط وتعجن وتسوى كالثريد.

(٥) الشِّكاء: جمع الشكوة، وهي وعاء صغير للماء واللبن يتخذ من جلد، وقد يستعمل لتبريد الماء.

(٦) الدهناء: بتشديد الدال المفتوحة وإسكان الهاء، أي الفَلاة.

أخلاطا من الناس قد عزموا على غزوكم ، لأن الحيس يجمع التمر والسمن ، والأقِط[١] ، فامتثلوا أمره ، وعرفوا لحن الكلام[٢] وعملوا به ، فنجوا .

وأسرت طيئ غلاما من العرب ، فقدم أبوه ليفديه ، فاشتطوا عليه ، فقال أبوه : والذى جعل الفَرْقَدين[٣] يُمسيَان ويُصبحان على جبل طيىء ، ماعندى غير ما بذلته ، ثم انصرف وقال : لقد أعطيتُه كلاما إن كان فيه خير فهمَه فكأنه قال له : الزم الفرقدين يعنى فى هروبك على جبل طيّئ ؛ ففهم الابن ما أراده أبوه ، وفعل ذلك فنجا .

وكانت عُلَية بنت المهدى تهوى غلاما خادمًا اسمه طَلّ فحلف الرشيد أن لا تكلمه ولا تذكره فى شعرها فاطلع الرشيد يوما عليها وهى تقرأ فى آخر سورة البقرة : ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ﴾ [البقرة:٢٥٦] فالذى نهى عنه أمير المؤمنين . ومن ذلك قولهم : تركت فلانا يأمر وينهى ، وهو على شرف الموت ، أى يأمر بالوصية ، وينهى عن النوح .

ويقال : ما رأيت فلانا : أى ما ضربته فى رئته ، ولا كلمته : أى ما جرحته ، فإنّ الكلوم الجراح ، وما رأيت ربيعًا ، فالربيع حظ الأرض من الماء ، والربيع النهر ، وما رأيت كافرًا ولا فاسقا ، فالكافر السحاب ، والفاسق الذى تجرد من ثيابه . وما رأيت فلانا راكعًا ولا ساجدا ، ولا مصليا فالراكع العاثر الذى كبا لوجهه ، والساجد المدمن النظر ، والمصلّى الذى يجىء[٤] بعد السَّابق . وما أخذت لفلان دجاجة ولا فَرُّوجًا فالدجاجة الكُبة من الغزل ، والفروجة الدُّراعة[٥] وما أخذت لفلان بقرة ولا ثورا ؛ فالبقرة العيال الكثيرة ؛ يقال جاء فلان يسوق بقره أى عياله ، والثور القطعة الكبيرة من الأقط .

وحكى : أن معاوية ﷺ بينما هو جالس فى بعض مجالسه وعنده وجوه الناس فيهم الأحنف بن قيس إذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيبا ، وكان آخر كلامه أن لعن عليا ﷺ ولعن لاعنه فقال الأحنف : يا أمير المؤمنين ، إن هذا القائل لو يعلم أن رضاك فى لعن المرسلين للعنهم ، فاتق الله يا أمير المؤمنين ، ودع عنك عليا ﷺ فلقد لقى ربه ، وأفرد فى قبره ، وخلا بعمله ، وكان - والله - المبرور سيفه الطاهرَ ثَوبه ، العظيمة مصيبته ، فقال معاوية ، يا أحنف لقد تكلمت بما تكلمت، وايم الله لتصعدن على المنبر فتلعنَه طوعا أو كرها فقال له الأحنف : يا أمير المؤمنين ، إن تُعفنى فهو خير لك ، وإن تجبُرنى على ذلك فوالله لا تجرى شفتاى به أبدا ، فقال : قم فاصعد ، قال : أما والله لأنصفنك فى القول ، والفعل . قال : وما أنت قائل إن أنصفتنى ؟ قال : أصعد المنبر فأحمد الله وأثنى عليه ، وأصلى على نبيه محمد ﷺ ثم أقول : أيها الناس ، إن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن ألعن عليا ، ألا إن معاوية وعليا اقتتلا فاختلفا فادعى كل واحد منهما أنه مَبْغِيٌّ عليه ، وعلى فئته ، فإذا دعوتُ فأمّنوا - رحمكم الله - ثم أقول : اللهمّ العن أنت وملائكتُك وأنبياؤكَ وجميعُ خلقك الباغى منهما على صاحبه ، والعن الفئة الباغيةَ ، اللهمّ العنهم لعنًا كثيرا ، أمّنُوا رحمكم الله ، يا معاوية لا أزيد على هذا ، ولا أنقص حرفا ، ولو كان فيه ذهابُ روحى ، فقال معاوية : إذًا نعفيك يا أبا بحر .

وقال معاوية لعقيل بن أبى طالب : إن عليا قد قطعك ، وأنا وصَلتُكَ ، ولا يُرضينى منك إلا أن تلعنه على المنبر . قال : أفعل ؛ فصعد المنبر ثم قال : بعد أن حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ﷺ أيها الناس ، إن معاوية بن أبى سفيان ، قد أمرنى أن ألعن علىّ بن أبى طالب ، فالعنوه فعليه لعنة الله ، ثم نزل فقال له معاوية : إنك لم تُبين من لعنتَ منهما ؛ بيّنه . فقال : والله لا زدتُ حرفًا ، ولا نقصتُ حرفًا والكلام إلى نية المتكلم .

ودخلت امرأة على هارون الرشيد ، وعنده جماعة من وجوه أصحابه ، فقالت : يا أمير المؤمنين ؛ أقرَّ الله عينك ، وفرّحك بما آتاك ، وأتم سعدك ، لقد حكمت ، فقسطت ، فقال لها : من تكونين أيتها المرأة ؟ فقالت : من آل برمك ، ممن قتلت رجالَهم ، وأخذت أموالهم ، وسلبت نوالهم[٦]؛ فقال : أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله ،

---

(١) الأَقِط: لبن محمض يجمد حتى يستحجر ويُطبخ، أو يُطبخ به.

(٢) لحن الكلام: فحواه، وما يفهمه السامع بالتأمل فيه، من وراء لفظه.

(٣) الفرقدين: نجمين في السماء، واشتطوا عليه: أي جاوزوا الحد فيما طلبوه من مال.

(٤) في ترتيب سباق الخيل وجريها.

(٥) الدُّراعة: ثوب من تحته ثوب: وجُبَّة مشقوقة المقدم.

(٦) نوالهم: عطاءهم.

ونفذ فيهم قدره ، وأما المال فمردودٌ إليك ، ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه ، فقال : أتدرون ما قالت هذه المرأة ؟ فقالوا : ما نراها قالت إلّا خيرًا . قال : ما أظنكم فهمتم ذلك ؟ أم قولها : أقر الله عينك أى : أسكنها عن الحركة ، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت . وأما قولها : وفرّحك بما آتاك فأخذته من قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام:٤٤] . وأما قولها : وأتم الله سَعْدَكَ فأخذته من قول الشاعر :

إذا تَمَّ أمْرٌ بدا نقصُهُ تَرَقَّبْ زوالاً إذا قيل : تَمَّ

وأما قولها : لقد حكمت فقسطت فأخذته من قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن:١٥]. فتعجبوا من ذلك .

وحكى : أن بعضهم دخل على عدوّه من النصارى ؛ فقال له : أطال الله بقاءك وأقر عينك وجعل يومى قبل يومك ، والله إنه ليسرنى ما يسرك فأحسن إليه ، وأجازه على دعائه ، وأمر له بصلة وكان ذلك دعاء عليه ، لأن معنى قوله : أطال الله بقاءك حصول منفعة المسلمين به فى أداء الجزية ، وأما قوله : وأقر عينك فمعناه سكن الله حركتها ، أى أعماها ، وأما قوله : وجعل يومى قبل يومك ، أى : جعل الله يومى الذى أدخل فيه الجنة قبل يومك الذى تدخل فيه النار . وأما قوله : إنه ليسرنى ما يسرُّك فإن العافية تسره كما تسر الآخر .

فانظر إلى الاشتراك وفائدته ، ولولا الاشتراك[١] ما تهيأ لمتستر مراد ، ولا سلم له فى التخلص قياد . وكان حمّاد الراوية لا يقرأ القرآن ، فكلفه بعض الخلفاء القراءة فى المصحف ، فصحف فى نيف وعشرين[٢] موضعا من جملتها قوله - تعالى - : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل:٦٨]. بالغين المعجمة والسين المهملة . وقوله : ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة:١١٤] بالباء الموحدة . وقوله : ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]. بالخاء بدلا من الحاء . وقوله : ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ [لقمان:٣٢] بالجيم والباء الموحدة . ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم:٧٤] . بالزاى وترك الهمزة . ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ [الأعراف:١٥٦]. بالسين المهملة . ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة:١٣٨] . بالنون والعين المهملة . ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى﴾ . [القصص:٥٥] بإسقاط التاء . ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ .[ص:٢] بالغين المعجمة والراء المهملة قَرنَ الشقاق بالغِرة ، وهذا لا يقع إلا من الأذكياء .

وحكى : أن المأمون ولّى عاملا على بلاد ، وكان يعرف منه الجور[٣] فى حكمه ، فأرسل إليه رجلا من أرباب دولته ليمتحنه ، فلما قدم عليه أظهر له أنه قدم فى تجارة لنفسه ، ولم يُعلمه أن أمير المؤمنين عنده عِلْم منه فأكرم نُزُلَه ، وأحسن إليه ، وسأله أن يكتب كتابا إلى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده ، ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة ، فكتب كتابا فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين أما بعد : فقد قدمنا على فلان ، فوجدناه آخذا بالعزم ، عاملا بالحزم ، قد عدل بين رعيته ، وساوى فى أقضيته ، أغنى القاصد ، وأرضى الوارد ، وأنزلهم منه منازل الأولاد ، وأذهب ما بينهم من الضغائن والأحقاد ، وعمر منهم المساجد الداثرة[٤] ، وأفرغهم من عمل الدنيا ، وشغلهم بعمل الآخرة ، وهم مع ذلك داعون لأمير المؤمنين يريدون النظر إلى وجهه والسلام . فكان معنى قوله : آخذًا بالعزم أى إذا عزم على ظُلم أو جور فعله فى الحال ، وقوله : قد عدل بين رعيته ، وساوى فى أقضيته أى أخذ كل ما معهم حتى ساوى بين الغنى والفقير ، وقوله : عمر منهم المساجد الداثرة ، وأفرغهم من عمل الدنيا ، وشغلهم بعمل الآخرة يعنى : أن الكل صاروا فقراء لا يملكون شيئًا من الدنيا . ومعنى قوله : يريدون النظر إلى وجه أمير المؤمنين ، أى ليشكوا حالهم ، وما نزل بهم ، فلما جاء الكتاب إلى المأمون عزله عنهم لوقته ، وولى عليهم غيره .

ومن ذلك ما حكى : أن القاضى الفاضل كان له صديق خصيص به ، وكان صديقه هذا قريبا من الملك الناصر صلاح الدين ، وكان فيه فضيلة تامة ، فوقع بينه وبين الملك أمر فغضب عليه ، وهَمَّ بقتله ، فتسحب إلى بلاد التتر

---

(١) يقال: لفظ مشترك: له أكثر من معنى.

(٢) فصحّف: أي: قرأ الكلمة على غير صحتها لاشتباه في الحروف كأن يقرأ الباء ياء، وكما يقع في القراءة يقع في الكتابة أيضًا.

(٣) الجور: الظلم.

(٤) أي الخالية من الزينة والأدهان.

وتوصل إلى أن صار وزيرا عندهم ، وصار يعرف التتر كيف يتوصل إلى الملك الناصر بما يؤذيه ، فلما بلغه ذلك نفر منه وقال للفاضل : اكتب إليه كتابا عرفه فيه أننى أرضى عليه ، وأستعطفه غاية الاستعطاف إلى أن يحضر ، فإذا حضر قتلته ، واسترحت منه ، فتحير الفاضل بين الاثنين ، صديقه يعز عليه ، والملك لا يمكنه مخالفته ، فكتب إليه كتابا ، واستعطفه غاية الاستعطاف ، ووعده بكل خير من الملك ، فلما انتهى الكتاب ختمه بالحمدلَةِ[1] والصلاة والسلام على النبى ﷺ وكتب إن شاء الله - تعالى - ، كما جرت به العادة فى الكتب ، فشدّد « إنَّ » ثم أوقف الملك على الكتاب قبل ختمه فقرأه فى غاية الكمال ، وما فهم إنّ ، وكان قصد الفاضل : ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠]. فلما وصل الكتاب إلى الرجل فهمه ، وكتب جوابه بأنه سيحضر عاجلا ؛ فلما أراد أن يُنهى الكتاب . ويكتب إن شاء الله - تعالى - مد النون وجعل فى آخرها ألفا ، وأراد بذلك : ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَآ﴾ [المائدة: ٢٤] فلما وصل الكتاب إلى الفاضل فهم الإشارة ، ثم أوقف الملك على الجواب بخطه ففرح بذلك .

وحكى : أن بعض الملوك طلع يوما إلى أعلى قصره يتفرج فلاحت منه التفاتة ، فرأى امرأة على سطح دار إلى جانب قصره لم ير الراءون أحسن منها فالتفت إلى بعض جواريه ، فقال لها : لمن هذه ؟ فقالت : يا مولاى هذه زوجةُ غلامِك فيروز قال : فنزل الملك وقد خامره حُبُّها وشغِفَ بها فاستدعى بفيروز ، وقال له : يا فيروز، قال : لبيك يا مولاى . قال : خذ هذا الكتاب وامضِ به إلى البلد الفلانية وائتنى بالجواب فأخذ فيروز الكتاب ، وتوجّه إلى منزله ، فوضع الكتاب تحت رأسه وجهز أمره ، وبات ليلته ، فلما أصبح ودّع أهله ، وسار طالبا لحاجة الملك ، ولم يعلم بما قد دبره الملك ، وأما الملك فإنه لما توجه فيروز قام مسرعا وتوجه مختفيا إلى دار فيروز ، فقرع الباب قرعا خفيفا ، فقالت امرأة فيروز : مَنْ بالباب ؟ قال : أنا الملك سيد زوجك ففتحت له ، فدخل ، وجلس ، فقالت له : أرى مولانا اليوم عندنا ؛ فقال : زائرا ، فقالت : أعوذ بالله من هذه الزيارة ! وما أظن فيها خيرًا ، فقال لها : ويْحَكِ إننى أنا الملك سيد زوْجك وما أظنك عرفتنى ، فقالت : بل عرفتك يا مولاى ، ولقد علمت أنك الملك ولكن سبقتك الأوائل فى قولهم :

سَأَتْرُكُ ماءَكُمْ مِنْ غَيْرِ وِرْدٍ ... وذَاكَ لِكَثْرَةِ الوُرَّادِ فِيهِ
إذَا سَقَطَ الذُّبَابُ عَلَى طَعَامٍ ... رَفَعْتُ يَدِى ونَفْسِى تَشْتَهِيهِ
ويَجْتَنِبُ الأَسُودُ وِرْدَ مَاءٍ ... إذَا كَانَ الكِلَابُ وَلَغْنَ فِيهِ
ويَرْتَجِعُ الكَرِيمُ خَمِيصَ بَطْنٍ[2] ... ولا يَرْضَى مُسَاهَمَةَ السَّفِيهِ

وما أحسن يا مولاى قول الشاعر :

قُلْ لِلَّذِى شَفَّهُ الغَرَامُ بِنَا ... وصَاحِبُ الغَدْرِ غَيْرُ مَصْحُوبِ
واللَّهِ لا قَالَ قَائِلٌ أَبَدًا ... قَدْ أَكَلَ اللَّيْثُ فَضْلَةَ الذِّيبِ

ثم قالت : أيها الملك ، تأتى إلى موضع شُرْبِ كلبك تشربُ منه ؟ قال : فاستحيا الملكُ من كلامِها ، وخرج وتركَها فنسى نعله فى الدار . هذا ما كان من الملك ، وأمَّا مَا كَانَ من فَيْروز : فإنه لما خرج وسار تفقد الكتاب ، فلم يجده معه فى رأسه ، فتذكر أنه نسيه تحت فراشِهِ فرجع إلى داره فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره ، فوجد نعل الملك فى الدار ، فطاش عقله ، وعلم أن الملك لم يرسله فى هذه السفرة إلا لأمر يفعله ، فسكت ولم يُبدِ كلاما وأخذ الكتاب وسار إلى حاجة الملك ، فقضاها ثم عاد إليه فأنعم عليه بمائة دينار ، فمضى فيروز إلى السوق واشترى ما يليق بالنساء ، وهيأ هدية حسنة ، وأتى إلى زوجته فسلم عليها ، وقال لها : قومى إلى زيارة بيت أبيك . قالت : وما ذاك ؟ قال : إن الملك أنعم علينا ، وأريد أن تظهرى لأهلك ذلك . قالت : حبا وكرامة ، ثم قامت من ساعتها وتوجهت إلى بيت أبيها ففرحوا بها ، وبما جاءت به معها فأقامت عند أهلها مدة شهر ، فلم يذكرها زوجها ولا ألمّ بها ، فأتى إليه أخوها ، وقال له : يا فيروز ، إما أن تخبرنا بسبب غضبك ، وإما أن تحاكمنا إلى الملك ، فقال : إن شئتم الحكم ، فافعلوا فما تركت لها علىّ حقا ، فطلبوه إلى الحكم فأتى معهم ، وكان القاضى إذ ذاك عند الملك جالسا إلى جانبه فقال

---

(١) الحَمْدلَة : أن يُقال : الحمدُ للّه .

(٢) خميص البطن : طاويا .

أخو الصبية : أيد الله مولانا قاضى القضاة ، إنى أجّرت هذا الغلام بستانا سالم الحيطان ببئر ماء معين عامرة ، وأشجار مثمرة ، فأكل ثمره ، وهدم حيطانه ، وأخرب بئره فالتفت القاضى إلى فيروز ، وقال له : ما تقول يا غلام ؟ فقال فيروز : أيها القاضى ، قد تسلمت هذا البستان وسلمته إليه أحسن ما كان ، فقال القاضى : هل سلم إليك البستان كما كان ؟ قال : نعم ، ولكن أريد منه السبب لرده ، قال القاضى : ما قولك ؟ قال : والله يا مولاى ما رددت البستان كراهة فيه وإنما جئت يوما من الأيام فوجدت فيه أثر الأسد فخِفت أن يغتالنى ، فحرمت دخول البستان إكراما للأسد . قال وكان الملك متكئا فاستوى جالسا وقال : يا فيروز ، ارجع إلى بستانك آمنا مطمئنا ، فوالله إن الأسد دخل البستان ، ولم يؤثر فيه أثرا ، ولا التمس منه ورقا ولا ثمرا ، ولا شيئا ، ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة ، وخرج من غير بأس ، ووالله ما رأيت مثل بستانك ، ولا أشد احترازا من حيطانه على شجره ، قال : فرجع فيروز إلى داره ، وردّ زوجته ، ولم يعلم القاضى ، ولا غيره بشىء من ذلك . والله أعلم .

وهذا كله مما يأتى به الإنسان من غرائب الكنايات الواردة على سبيل الرمز ، ومنه ما يجده ، المتستر فى أمره من الراحة فى كتمان حاله مع لزوم الصدق ، ورضا الخصم بما وافق مراده ؛ لأنّ فى المعاريض مندوحة عن الكذب كما روى فى غزوة بدر أنّ النبى ﷺ . كان سائرا[1] بأصحابه يقصد بدرا ، فلقيهم رجل من العرب فقال : مِمَّن القوم ؟ فقال له النبىّ ﷺ : « من ماء » فأخذ ذلك الرجل يفكر ويقول : من ماء ، من ماء يردّدها لينظر أىّ العرب يقال لهم : ماء فسار النبى ﷺ بأصحابه لوجهته ، وكان قصده أن يكتم أمره ، وقد صدق رسول الله ﷺ فى قوله : « فإنّ الله - عز وجل - قال : ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ » [الطارق: ٥-٦] وكما روى عن أبى بكر الصديق ﷺ أنه قال للكافر الذى سأله عن رسول الله ﷺ وقت ذهابهما إلى الغار : هو رجل يهدينى السبيل ، وقد صدق فيما قال ﷺ فقد هداه وهدانا السبيل ولا سبيل أوضح ولا أقوم من الإسلام . وكما حكى عن الإمام الشافعى ﷺ أنه لما سأله بعض المعتزلة بحضرة الرشيد ما تقول فى القرآن ؟ فقال الشافعى : إياى تعنى ؟ قال : نعم . قال : مخلوق فرضى خصمه منه بذلك ، ولم يُرِدِ الشافعى إلا نفسه ، وكما حكى عن ابن الجوزى - رحمه الله تعالى - أنه سأل وهو على المنبر ، وتحته جماعة من مماليك الخليفة وخاصته ، وهم فريقان : قوم سُنّية ، وقوم شيعة فقيل له : من أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر أمْ علىّ رضي الله عنهما ؟ فقال : أفضلهما بعده من كانت ابنته تحته ، فأرضى الفريقين ، ولم يرد إلا أبا بكر ﷺ لأن الضمير فى ابنته يعود إلى أبى بكر ﷺ وهى عائشة رضي الله عنها ، وكانت تحت رسول الله ﷺ والشيعة ظنوا أن الضمير فى ابنته يعود إلى رسول الله ﷺ ، وهى فاطمة رضي الله عنها ، وكانت تحت علىّ ﷺ ، فهذه منه جيدة حسنة ، وكلمة باتت جفون الفريقين منها وسنة[2] . والله أعلم .

الفصل الثالث : فى ذكر الفصحاء من الرجال

دخل الحَسنُ بنُ الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم ، فأحب الحسنُ أن يتكلم فزجره وقال : يا صبى ، تتكلم فى هذا المقام ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كنتُ صبيا فلستُ بأصغرَ من هُدْهُد سليمانَ ، ولا أنت بأكبرَ من سليمانَ عليه السلام حين قال : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢] ثم قال : ألم تر أنّ الله فَهَّم الحكم سليمان ، ولو كان الأمر بالكِبر لكانَ داود أولى .

ولما أفضت الخلافة إلى عمر بن العزيز أتته الوفود فإذا فيهم وفد الحجاز فنظر إلى صغير السن ، وقد أراد أن يتكلم فقال : ليتكلم من هو أسنُّ منك[3] ، فإنه أحق بالكلام منك ؛ فقال الصبىّ : يا أمير المؤمنين ، لو كان القول كما تقول لكان فى مجلسك هذا من هو أحق به منك . قال : صدقت ، فتكلّم ، فقال يا أمير المؤمنين ، إنا قَدمنا عليك من بلد نحمد الله الذى منّ علينا بك ، ما قدمنا عليك رغبة منا ، ولا رهبة منك ؛ أما عدم الرغبة فقد أَمِنّا بك فى منازلنا ، وأما عدم الرهبة فقد أمِنّا جورك بعدلك فنحنُ وفدُ الشّكرِ والسلام .

---

(١) ما روي في غزوة بدر أن النبي ﷺ . إلخ . ضعيف : أخرجه ابن إسحاق في السيرة كما في سيرة ابن هشام [١/٤٠٨] وسنده منقطع .

(٢) أي حلّ بها الوسن وهو النوم . والمراد : هدأت واستراحت .

(٣) أسَنُّ : أكبر سنًّا .

فقال له عمر ﷺ عِظْنى يا غلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أناسًا غرّهم حِلمُ الله ، وثناء الناس عليهم ، فلا تكن ممن يَغُرُّهُ حلم الله ، وثناء الناس عليه فتزلّ قدمُك ، وتكون من الذين قال الله فيهم : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾. [الأنفال:٢١] فنظر عمر فى سنّ الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة ، فأنشدهم عمر ﷺ :

تَعَلَّمْ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُولَدُ عَالِمًا ... وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلُ

فَإِنَّ كَبِيرَ الْقَوْمِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ ... صَغِيرٌ إِذَا الْتَفَّتْ عَلَيْهِ الْمَحَافِلُ

وحكى : أن البادية قحطت[١] فى أيام هشام ، فقدمت عليه العرب ، فهابوا أن يكلموه ، وكان فيهم دِرْواس بن حبيب ، وهو ابن ستّ عشرة سنة له ذؤابة[٢] وعليه شملتان[٣] ، فوقعت عليه عينُ هشام ، فقال لحاجبه : ما شاء أحد أن يدخل علىّ إلا دخل حتى الصبيان ، فوثب دِرواس ، حتى وقف بين يديه مطرقا فقال : يا أمير المؤمنين إن للكلام نَشْرًا وطيًّا ، وإنه لا يُعْرَفُ ما فى طيّه إلا بنشره ، فإن أذن لى أمير المؤمنين أن أنشره نشرتُه فأعجبه كلامه ، وقال : انشرهُ لله دَرُّك[٤] فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه أصابتنا سنون ثلاث : سنة أذابت الشحم ، وسنة أكلت اللحم ، وسنة دقت العظم ، وفى أيديكم فضول مال فإن كانت لله ففرقوها على عباده ، وإن كانت لهم فعلام تحبسونها عنهم ؟ وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم ، فإن الله يجزى المتصدقين ، فقال هشام : ما ترك الغلام لنا فى واحدة من الثلاث عذرا فأمر للبوادى بمائة ألف دينار ، وله بمائة ألف درهم ، ثم قال : ألك حاجة قال: ما لى حاجة فى خاصة نفسى دون عامة المسلمين ، فخرج من عنده وهو من أجَلّ القوم .

وقيل : إنّ سعد بن ضمرة الأسدىّ لم يزل يُغير على النعمان بن المنذر يستلب أمواله حتى عيل صبره ، فبعث إليه يقول : إنّ لك عندى ألفَ ناقة على أنك تدخل فى طاعتى ، فوفد عليه ، وكان صغير الجثة ، فاقتحمته عينه ، وتنقصه ، فقال : مَهْلًا أيها الملك ، إن الرجال ليسوا بعظم أجسامهم ، وإنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، إن نَطَقَ نطق ببيان ، وإن صال صال بجنان ، ثم أنشأ يقول :

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَرْجُوُّ نَائِلُهُ ... إِنِّى لِمِنْ مَعْشَرٍ شُمِّ الذُّرَى زُهُرِ

فَلَا تَغُرَّنَّكَ الْأَجْسَامُ إِنَّ لَنَا ... أَحْلَامَ عَادٍ وَإِنْ كُنَّا إِلَى قِصَرِ

فَكَمْ طَوَيْلٍ إِذَا أَبْصَرْتَ جُثَّتَهُ ... تَقُولُ هَذَا غَدَاةَ الرَّوْعِ ذُو ظَفَرِ

فَإِنْ أَلَمَّ بِهِ أَمْرٌ فَأَفْظَعَهُ ... رَأَيْتَهُ خَاذِلًا لِلْأَهْلِ وَالزُّمَرِ

فقال : صدقت ؛ فهل لك علم بالأمور ؟ قال : إنى لأنقض منها المفتول ، وأبرم منها المحلول ، وأجيلها حتى تجول ، ثم أنظر فيها إلى ما تئول ، وليس للدهر بصاحب من لا ينظر فى العواقب . قال : فتعجب النعمان من فصاحته وعقله ، ثم أمر له بألف ناقة ، وقال له : يا سعدُ ، إن أقمت واسيناك ، وإن رحلت وصلناك[٥] ، فقال : قُرْبُ الملكِ أحبُّ إلىّ من الدنيا وما فيها ، فأنعم عليه وأدناه ، وجعله من أخص ندمائه .

وحكى : أن هِرَقل ملك الروم كتب إلى معاوية بن أبى سفيان ﷺ يسأله عن : الشىء ولا شىء ، وعن دين لا يقبل الله غيره ، وعن مفتاح الصلاة ، وعن غَرْس الجنة ، وعن صلاة كل شىء ، وعن أربعة فيهم الروح ولم يركضوا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ، وعن رجل لا أب له ، وعن رجل لا أم له ، وعن قبر جرح بصاحبه ، وعن قوس قُزَح ما هو ؟ وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة واحدة ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها ! وعن ظاعن[٦] ظعن مرة واحدة ولم يظعن قبلها ولا بعدها ، وعن شجرة نبتت من غير ماء ، وعن شىء تنفس ولا روح له ، وعن اليوم وأمس ، وغد وبعد غد ، وعن البرق والرعد وصوته ، وعن المحو الذى فى القمر . فقيل لمعاوية : لست هناك[٧] ، ومتى أخطأت فى شىء من ذلك سَقَطْتَ من عينه ! فاكتب إلى ابن عباس يخبرك عن هذه المسائل فكتب إليه فأجابه :

---

(١) البادية: الصحراء. قحطت: أصيبت بالقحط والجفاف.

(٢) ذؤابة: شعر مقدم الرأس.

(٣) الشملة: كساء من صوف أو شعر يتغطى به ويتلفع.

(٤) لله درّك: أسلوب تعجبي من حسن بيانه.

(٥) وصلناك: أعطيناك صلة وعطية تصلك بنا.

(٦) ظعن ظعنًا: أي سار وارتحل.

(٧) لست هناك: أي لست أهلاً للإجابة عن هذه الأسئلة فإنها تحتاج إلى عالم متخصص كابن عباس.

أما الشيء : فالماء . قال الله - تعالى - : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣١].

وأما لا شيء : فإنها الدنيا تبيد وتفنى . أما دين لا يقبل الله غيره فلا إله إلا الله ، وأما مفتاح الصلاة : فالله أكبر ، وأما غرسُ الجنة : فلا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم ، وأما صلاة كل شيء : فسبحان الله وبحمده .وأما الأربعة الذين فيهم الروح ولم يركضوا فى أصلاب الرجال ، وأرحام النساء : فآدم وحواء ، وناقة صالح ، وكبش إسماعيل . وأما الرجل الذى لا أب له : فالمسيح ، وأما الرجل الذى لا أم له فآدم عليه السلام وأما القبر الذى جرى بصاحبه فحوت يونس عليه السلام سار به فى البحر ، وأما قوس قزح ؛ فأمان من الله لعباده من الغرق ، وأما البقعة التى طلعت عليها الشمس مرة واحدة فبطن البحر حين انفلق لبنى إسرائيل ، وأما الظاعن ، الذى ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها ، فجبل طور سيناء كان بينه وبين الأرض المقدّسة أربع ليال ، فلما عصت بنو إسرائيل أطاره الله - تعالى - بجناحين فنادى مناد : إن قبلتم التوراة كشفته عنكم ، وإلا ألقيته عليكم ، فأخذوا التوراة معذرين فرده الله - تعالى - إلى موضعه ، فذلك قوله - تعالى - : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧١] الآية . وأما الشجرة التى نبتت من غير ماء فشجرة اليقطين التى أنبتها الله - تعالى - على يونس عليه السلام ، وأما الشيء الذى تنفس بلا روح فالصبح . قال الله - تعالى - : ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨] . وأما اليوم فعمل ، وأمس فمثل ، وغد فأجل ، وبعد غد فأمل ، وأما البرق فمخاريق[١] بأيدى الملائكة تضرب بها السحاب ، وأما الرعد فاسم الملك الذى يسوق السحاب ، وصوته زجره ، وأما المحو الذى فى القمر فقول الله - تعالى - : ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٣] لولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار ولا النهار من الليل .

ودعا بعض البلغاء لصديق له فقال : تَمَّمَ الله عليك ما أنت فيه ، وحقَّق ظنَّك فيما ترجوه ، وتفضل عليك بما لم تَحْتَسِبْه .

وحكى : أنّ الحجاج سأل يوما الغضبان بن القَبعثرى عن مسائل يمتحنه فيها ، من جملتها : أن قال له : من أكرم الناس ؟ قال : أفقههم فى الدين ، وأصدقهم لليمين ، وأبذلهم للمسلمين ، وأكرمهم للمهانين ، وأطعمهم للمساكين . قال: فمن ألأمُ الناس ؟ قال : المعطى على الهوان ، المقتر على الإخوان ، الكثير الألوان . قال : فمن شرّ الناس ؟ قال : أطولهم جفوة ، وأدومهم صبَوة[٢] ، وأكثرهم خلوة ، وأشدهم قسوة . قال فمن أشجع الناس ؟ قال : أضربهم بالسيف ، وأقراهم للضيف ، وأتركهم للحَيْف . قال : فمن أجبن الناس ؟ قال : المتأخر عن الصفوف ، المنقبض عن الزُّحوف ، المرتعش عند الوقوف ، المحب ظلال السقوف ، الكاره لضرب السيوف ، قال : فمن أثقل الناس ؟ قال : المتفنن فى الملام ، الضنين بالسلام ، المِهذار[٣] فى الكلام ، المقبّقب على الطعام[٤] قال : فمن خير الناس ؟ قال : أكثرهم إحسانا ، وأقومهم ميزانا ، وأدومهم غفرانا ، وأوسعهم ميدانا ، قال : لله أبوك فكيف يعرف الرجل الغريب ، أحسيب هُوَ أَمْ غير حسيب ؟ قال : أصلح الله الأمير : إنّ الرجلَ الحسيب يَدُلّك أدبه وعقله وشمائلُه وعزة نفسه وكثرة احتماله ، وبشاشته ، وحسن مداراته على أصله ، فالعاقل البصير بالأحساب يعرف شمائله ، والنذل الجاهل يجهله فمثله كمثل الدُّرَّة[٥] إذا وقعت عند من لا يعرفها ازدراها ، وإذا نظر إليها العقلاء عرفوها ، وأكرموها فهى عندهم لمعرفتهم بها حسنة نفيسة . فقال الحجاج لله أبوك ! فما العاقل والجاهل ؟ قال : أصلح الله الأمير العاقل : الذى لا يتكلم هذَرًا ولا ينظر شزَرًا ، ولا يُضمر غدرًا ولا يطلب عذرا . والجاهل هو المهذار فى كلامه ، المنّان بطعامه، الضنين بسلامه ، المتطاول على إمامه ، الفاحش على غلام. قال : لله أبوك ، فما الحازم الكيّس ؟ قال : المقبل على شأنه ، التارك لما لا يعنيه قال : فما العاجز ؟ قال المعجب بآرائه ، الملتفت إلى ورائه . قال : هل عندك من النساء خبر ؟ قال : أصلح الله الأمير إنى بشأنهن خبير إن شاء الله - تعالى - إن النساء من

---

(١) مخاريق: مفردها مِخْراق، وهو السيف، أو مِنديل ونحوه يُلوى فيُضرب به أو يُفزَّع به في لُعبة للصبيان.

(٢) أدومهم صَبْوةً: أي أدومهم لَهْوًا.

(٣) المِهذارُ: المتكلم بما لا ينبغي!

(٤) المُقَبْقِب على الطعام: الذي يجمع اللحم أمامه كالقبة.

(٥) الدُّرَّة: اللؤلؤة العظيمة.

أمهات الأولاد بمنزلة الأضلاع إن عدلتها انكسرت ولهنّ جوهر لا يصلح إلا على المداراة فمن داراهنّ انتفع بهن ، وقرّت عينه ، ومن شاوَرَهُن كدّرن عيشه ، وتكدرت عليه حياته ، وتنغصت لذاتُه فأكرمُهن أعفّهن ، وأفخر أحسابهن العفة ، فإذا زلن عنها فهن أنتن من الجيفة . فقال له الحجاج : يا غضبان ، إني موجهك إلى ابن الأشعث وافدًا فماذا أنت قائل له ؟ قال : أصلح الله الأمير أقول : ما يُرديه ، ويُؤذيه ، ويضنيه ، فقال : إني أظنك لا تقول له ما قلت ، وكأني بصوت جلاجلك تجلجل في قصرى هذا . قال : كلّا، أصلح الله الأميرَ سأحدد له لساني ، وأجريه في ميداني . قال : فعِنْدَ ذلك أمره بالمسير إلى كرمان ، فلما توجّه إلى ابن الأشعث ، وهو على كرمان بعث الحجاج عَيْنا عليه، أي جاسوسًا ، وكان يفعل ذلك مع جميع رسله ، فلما قدم الغضبان على ابن الأشعث[١] قال له : إن الحجاج قد هَمَّ بخلعك وعزلك ، فخذ حذرك وتغدّ به قبل أن يتعشى بك ، فأخذ حذره عند ذلك ثم أمر للغضبان بجائزة سنية[٢] وخِلَع[٣] فاخرة فأخذها وانصرف راجعا فأتى إلى رملة كرمان في شدة الحر والقيظ وهي رملة شديدة الرمضاء فضرب قبته فيها ، وحط عن رواحِلِهِ فبينما هو كذلك إذا بأعرابي من بني بكر بن وائل قد أقبل على بعير قاصدا نحوه ، وقد اشتد الحر ، وحميت الغزالة وقت الظهيرة وقد ظمئ ظمأ شديدا ؛ فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فقال الغضبان : هذه سنة ، وردّها فريضة قد فاز قائلها ، وخسر تاركها ، ما حاجتك يا أعرابي ؟ قال : أصابتني الرمضاء[٤] ، وشدة الحر والظمأ ، فتيممت قُبّتك[٥] أرجو بركتها . قال الغضبان : فهلا تيممت قبةً أكبرَ من هذه وأعظم . قال : أيتهن تعني ؟ قال : قبة الأمير ابن الأشعث . قال : تلك لا يوصل إليها . قال إن هذه أمنع منها . فقال الأعرابي : ما اسمك يا عبدالله ؟ قال : آخذ ؛ فقال : وما تعطى ؟ قال : أكره أن يكون لي اسمان . قال : بالله من أين أنت ؟ قال : من الأرض . قال : فأين تريد ؟ قال : أمشي في مناكبها ، فقال الأعرابي وهو يرفع رِجْلاً ويضع أخرى من شدة الحر : أتقرض الشعر ؟ قال : إنما يقرض الفأر فقال : أفتسجع ؟ قال : إنما تسجع الحمامة . فقال : يا هذا، ائذن لي أن أدخل قبتك . قال : خلفك أوسع لك . فقال : قد أحرقني حر الشمس ! قال : ما لي عليها من سلطان، فقال : الرمضاء أحرقت قدمي . قال : بُلْ عليها تبرد[٦] فقال : إني لا أريد طعامك ولا شرابك . قال : لا تتعرض لما لا تصل إليه ، ولو تلفت روحك فقال الأعرابي : سبحان الله ! قال : نعم من قبل أن تطلع أضراسك . فقال الأعرابي : ما عندك غير هذا ؟ قال : بلى هَراوَة[٧] أضرب بها رأسك فاستغاث الأعرابي يا جار بني كعب ! قال الغضبان بئس الشيخُ أنت ، فوالله ما ظلمك أحد فتستغيث ! فقال الأعرابي : ما رأيت رجلًا أقسى منك ، أتيتك مستغيثًا فحجبتني وطردتني ، هلّا أدخلتني قبتك ، وطارحتني القريض ؟! قال : ما لي بمحادثتك من حاجة . فقال الأعرابي : بالله ما اسمك ؟ ومن أنت ؟ فقال : أنا الغَضْبَان بن القَبْعْثَرى ، فقال: اسمان منكران خُلِقَا من غضب ! قال : قف متوكئا لي باب قبتي برجلك هذه العوجاء ، فقال : قطعها الله إن لم تكن خيرا من رجلك هذه الشنعاء . قال الغضبان: لو كنت حاكما لجُرت في حكومتك ، لأن رجلي في الظل قاعدة ، ورجلك في الرمضاء قائمة ! فقال الأعرابي : إني لأظنك حَرُورِيًّا[٨] . قال : اللهم اجعلني ممن يتحرى الخير ويريده . فقال : إني لأظن عنصرك فاسدا . قال: ما أقدرني على إصلاحه فقال الأعرابي : لا أرضاك الله ولا حَيّاك ثم ولّى ، وهو يقول :

لا بَـارِكَ الـلّـهُ فـي قَـوْمٍ تَـسُـودُهُـمُ ... إنّـي أظُـنُّـكَ والـرَّحْـمَـنِ شَـيْـطَـانـا

أتـيـتُ قُـبَّـتَـه أرْجُـو ضِـيـافـتَـهُ ... فَـأظْـهـرَ الـشـيـخ ذو الـقـرنـيـن حِـرمَـانـا

فلما قدم الغضبان على الحجاجُ ، وقد بلغه الجاسوس ما جرى بينه وبين ابن الأشعث ، وبين الأعرابي قال له

---

(١) ابن الأشعث هو: عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، كانت بينه وبين الحجاج حروب انتهت بقتله سنة ٨٥هـ.

(٢) سنية: أي رفيعة ذات قدْر.

(٣) الخِلَع: جمع خِلعة: ما يخلعه السلطان على الولاة والمقربين لديه من ثياب غالية، وملابس فاخرة!

(٤) شدة الحر والأرض، والرمال الملتهبة في الصيف، ويقال في المثل «كالمستجير من الرمضاء بالنار».

(٥) تيممت قبتك: قصدتها.

(٦) هراوة: عصا غليظة.

(٧) طارحتني: أي حاورتني وناظرتني، والقريض: الشّعر.

(٨) حَرورِيًّا: منسوبًا إلى الحرورية تنسب إلى حروراء بقرب الكوفة اجتمع بها جماعة من الخوارج حين خالفوا عليًّا ﷺ.

الحجاج : يا غضبان كيف وجدت أرض كِرمان قال : أصلح الله الأمير، أرض يابسة الجيش بها ضِعَافٌ ، هُزَلاء ، إن كثروا جاعوا وإن قلوا ضاعوا ؛ فقال له الحجاج : ألست صاحبَ الكلمة التى بلغتنى أنك قلت لابن الأشعث تغدّ بالحجاج قبل أن يتعشى بك ؟ فوالله لأحبِسَنَّك عن الوساد[١] ، ولأنزلنك عن الجياد ، ولأشهرنك فى البلاد . قال : الأمان أيها الأمير فوالله مَا ضرّت من قيلت فيه ، ولا نفعت من قيلت له . فقال له : ألم أقل لك كأنى بصوت جلاجلك تجلجل فى قصرى هذا ؟ اذهبوا به إلى السجن ، فذهبوا به فقيّد وسُجن فمكث ما شاء الله ، ثم إن الحجاج ابتنى الخضراء بواسط ، فأعجب بها فقال لمن حوله : كيف ترون قبتى هذه وبناءها فقالوا : أيها الأمير إنها حصينة مباركة منيعة ، نضِرة بهجة ، قليل عيبُها ، كثير خيرها قال : لِمَ لَمْ تخبرونى بنصح ؟ قالوا : لا يصفها لك إلا الغضبان فبعث إلى الغضبان فأحضره . وقال له : كيف ترى قُبّتى هذه وبناءها ، قال : أصلح الله الأمير بنيتها فى غير بلدك ، لا لك ولا لولدك ، لا تدوم لك ، ولا يسكنها وارثك ولا تبقى لك ، وما أنت لها بباق فقال الحجاج : قد صدق الغضبان ، ردّوه إلى السجن فلما حملوه قال : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ . [الزخرف:١٣] فقال : أنزلوه ، فلما أنزلوه ، قال : ﴿رَبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ . [المؤمنون:٢٩] فقال: اضربوا به الأرض فلما ضربوا به الأرض قال : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ . [طه:٥٥] فقال : جروه، فأقبلوا يجرونه وهو يقول : ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .[هود:٤١] فقال الحجاج : ويلكم اتركوه ! فقد غلبنى دهاء وخبثا ثم عفا عنه ، وأنعم عليه ، وخلّى سبيله .

وحدّث الزبير : قال : دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون وقد كانت ضياعُهم أخذت ! فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، محمد بن عبد الملك بين يديك سليل نعمتك ، وغصن من أغصان دوْحَتِك ! أتأذن له فى الكلام ؟ فقال : تكلم ، فقال : الحمد لله رب العالمين ، ولا إله إلا الله رب العرش العظيم ، وصلى الله والملائكة على محمد خاتم النبيين ، ونستمنع الله لحياطة ديننا ودنيانا ، ورعاية أدنانا وأقصانا ، ببقائك يا أمير المؤمنين ، ونسأل الله أن يمد فى عمرك من أعمارنا ، وأن يقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا ، فإن الحق لا تعفو آثاره ، ولا ينهدم منارُه ، ولا يُنبت حبله ، ولا يزول ، ما دمت بين الله وبين عباده ، والأمين على بلاده ، يا أمير المؤمنين هذا المقام مقامُ العائذ بظِلّكِ ، الهارب إلى كَنَفِك[٢] ، الفقير إلى رحمتك وعدلك مِنْ تَعاوُر النوائب[٣] ، وسهام المصائب ، وكلب الدهر ، وذهاب النعمة ، وفى نظر أمير المؤمنين ما يفرج كربة المكروب ويبرد غليل القلوب ، وقد نَفَذ أمر أمير المؤمنين فى الضِّياع التى أفادناها نعم آبائه الطيبين ، ونوافل أسلافه الطاهرين الراشدين ، وقد قمت مقامى هذا متوسلا إليك بآبائك الطيبين ، وبالرشيد خير الهداة الراشدين ، والمهدى ناصر المسلمين ، والمنصور مُنكل الظالمين ، ومحمد خير المحمدين بعد خاتم النبيين ، مزدلفا[٤] إليك بالطاعة التى أفرغ عليها غصنى ، واحتنكت بها[٥] سنى ، وريش[٦] بها جناحى ، متعوّذا من شماتة الأعداء وحلول البلاء ، ومقارفة[٧] الشدة بعد الرخاء ، يا أمير المؤمنين قد مضى جدك المنصور ، وعمك صالح بن علىّ جدى ، وبينهما من الرضاع والنسب ما علمه أمير المؤمنين وعرفه ، وقد أثبت الله الحق فى نصابه ، وأقره فى داره وأربابه ، يا أمير المؤمنين ، إن الدهر ذو اغتيال ، وقد يقلب حالا بعد حال ، فارحم يا أمير المؤمنين الصِّبْية الصغار ، والعجائز الكبار ، الذين سقاهم الدهر كدرًا بعد صفو ، ومرّا بعد حلو ، وهبنا نعم آبائك اللاتى غذتنا صغارا وكبارا وشبابا وأشياخا وأمشاجا فى الأصلاب ، ونطفا فى الأرحام ، وقَدِّمْنا فى القرابة حيث قَدّمَنا الله منك فى الرحم ، فإن رقابنا قد ذلت لسخطك ، ووجوهنا قد عنت لطاعتك ، فأقلنا

---

(١) الوساد: بكسر الواو وفتح السين هو المُتّكأ وكل ما يوضع تحت الرأس كالمخدّة وغيرها.

(٢) الكنف: بفتح الكاف والنون: جانب الشيء، وكَنَفا الرجُل: أي جِضْناه عن يمينه وشماله.

(٣) تعاور النوائب: تداولها عليه واحدة بعد أخرى.

(٤) مُزدلفًا إليك بالطاعة: أي مُتقرّبًا إليك بها.

(٥) احتنكت بها: يقال احتنك الرجل، أي صار حكيمًا مهذّبًا.

(٦) كناية عن القوة والمعونة وصلاح الحال.

(٧) قارف الشيء: أي قاربه وخالطه.

عثرتنا يا أمير المؤمنين ، إن الله سهل بك الوعور[١] ، وجلا بك الديجور[٢] ، وملأ من خوفك القلوب والصّدور ، بك يُرْدَع الفاسق ويقمع بك المنافق ، فارتبط نعم الله عندك بالعفو والإحسان ، فإن كل راع مسئول عن رعيته ، وإن النعم لا ينقطع المزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها ، يا أمير المؤمنين إنه لا عفو أعظم من عفو إمام قادر عن مذنب عاثر ، وقد قال الله - جل ثناؤه وتعالت قدرته - : ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

أحاط الله أمير المؤمنين بستره الوافى ، ومنعه الكافى ، ثم أنشد يقول :

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَتَاكَ رَكْبٌ ... لَهُمْ قُرْبَى وَلَيْسَ لَهُمْ تِلَادُ[٣]

هُمُ الصَّدْرُ الْمُقَدَّمُ مِنْ قُرَيْشٍ ... وَأَنْتَ الرَّأْسُ تَتْبَعُكَ الْعِبَادُ

لَقَدْ طَابَتْ بِكَ الدُّنْيَا وَلَذَّتْ ... وَأَرْجُو أَنْ يَطِيبَ بِكَ الْمَعَادُ

فَكَيْفَ تَنَالُكُمْ لَحَظَاتُ عَيْنٍ ... وَكَيْفَ يَقِلُّ سُؤْدُدَكَ الْبِلَادُ

قال : فاستحسن المأمون كلامه . وأمر له بالحلل الفاخرة ، والجوائز السنية ، وأمر بردّ ضياعه ، وقرب منزلته ، وأدناه ، ودفع إليه من المال ما أغناه .

❁ ومن حكايات الفصحاء ونوادر البلغاء :

[١] **ما حكى** : أن عبد الملك بن مروان جلس يوما وعنده جماعة من خواصّه ، وأهل مسامرته فقال : أيكم يأتنى بحروف المعجم[٤] فى بدنه وله علىّ ما يتمناه ، فقام إليه سويد بن غفلة ، فقال : أنا لها يا أمير المؤمنين . قال : هاتِ فقال : نعم يا أمير المؤمنين : أنف ، بطن ، ترقوة ، ثغر ، جمجمة ، حَلْق ، خَد ، دماغ ، ذكر ، رقبة ، زند ، ساق ، شفة ، صدر ، ضلع ، طِحال ، ظهر ، عين ، غبب ، فم ، قفا ، كف ، لسان ، منخر ، نغنوغ ، هامة ، وجه ، يد ، وهذه آخر حروف المعجم ، والسلام على أمير المؤمنين . فقام بعض أصحاب عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين أنا أقولها من جسد الإنسان مرتين فضحك عبد الملك ، وقال لسويد: أسمعت ما قال ؟ قال : أصلح الله الأمير أنا أقولها ثلاثا فقال : هاتِ ، ولك ما تتمناه ؛ فابتدأ يقول : أنف ، أسنان ، أذن * بطن ، بنصر ثدية * ترقوة ، تمرة ، تربية * ثغر ، ثنايا ، ثدى * جمجمة ، جنب ، جبهة * حلق ، حنك ، حاجب * خد ، خنصر ، خاصرة * دبر ، دماغ ، دراديرِ * ذقن ، ذكر ، ذراع * رقبة ، رأس ، ركبة * زند ، زلقوم ، زور - فهنالك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه - ساق ، سرة ، سبابة * شفة ، شفر ، شارب * صدر ، صدغ ، صلعة * ضلع ، ضفيرة ، ضرس * طِحال ، طرة ، طرف * ظهر ، ظفر ، ظلم * عين ، عنق ، عاتق * غبب ، غلصمة ، غنة * فم ، فك ، فؤاد * قلب ، قفا ، قدم * كف ، كتف ، كعب * لسان ، لحية ، لوح * منخر ، مِرفق ، منكب * نغنوغ ، ناب ، نن * هامة ، هيئة ، هيف * وجه ، وجنة ، ورك * يمين ، يسار ، يافوخ * ثم نهض مسرعا فقبل الأرض بين يدى أمير المؤمنين ، قال: فعندها ضحك عبد الملك وقال : والله ما تزيدنا عليهم شيئا أعطوه ما يتمناه ثم أجازه ، وأنعم عليه وبالغ فى الإحسان إليه .

وكان الحجاج بن يوسف الثقفى من الفصحاء وكان على عُتُوه وإسرافه جوادًا ، وكان إذا ضحك واستغرق فى الضحك أتبع ذلك بالاستغفار مرات ، وكان يُطعم على ألف خوان[٥] ، وكان يطوف على الموائد ويقول يا أهل الشام مزقوا الخبز لئلا يعود إليكم ثانيا وكان يجلس على كل مائدة عشرة رجال ، وذلك فى كل يوم ، وكان يقول ، أرى الناس يتخلفون عن طعامى ، فقيل له : إنهم يكرهون الحضور قبل أن يُدْعَوْا فقال : قد جعلت رسولى إليهم كل يوم الشمس إذا طلعت ، وعند المساء إذا غربت .

[٢] **وحكى** : عن عبد الملك بن عمير أنه قال لما بَلَغَ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطرابُ أهل العراق ،

---

(١) الوعور: بضم الواو والعين مفردها وَعْر، وهو المكان الصَّلْب والمُخيف.

(٢) الديجور: الظلام.

(٣) التِّلاد: المال الموروث والأصلي القديم.

(٤) المراد بحروف المعجم: حروف الهجاء من الهمزة إلى الياء.

(٥) الخوان: بكسر الخاء وضمها: ما يُؤكل عليه، والجمع اخْوِنة، وخُونٌ، وأخاوين.

جمع أهل بيته وأُولى النجدة من جُنده وقال : أيها الناس ، إن العراق كدر ماؤها ، وكثر غوغاؤها ، واملولح عَذْبُها[١] ، وعظم خطبها ، وظهر ضرامها[٢] ، وعسر إخماد نيرانها ، فهل من ممهد لهم بسيف قاطع ، وذهن جامع ، وقلب ذكيّ ، وأنف حمى فيخمد نيرانها ، ويردع غيلانها ، وينصف مظلومها ، ويداوى الجرح حتى يندمل ، فتصفو البلاد وتأمن العباد ؟ ! فسكت القوم ولم يتكلم أحد ، فقام الحجاج وقال : يا أمير المؤمنين ، أنا للعراق . قال : ومَنْ أنت . لله أبوك . ؟ قال : أنا الليث الضمضام[٣] ، والهزبر الهشام[٤] ، أنا الحجاج بن يوسف . قال : ومِنْ أين ؟ قال : من ثقيف ، كهوف الضيوف ، ومستعملى السيوف . قال : اجلس لا أمّ لك ، فلست هناك ثم قال : ما لى أرى الرءوسَ مُطْرِقَة ، والألسن معتقلة ؟ فلم يجبه أحد ، فقام إليه الحجاج وقال : أنا مُجنِدلُ الفُسّاق . ومُطفىء نار النفاق . قال : ومن أنت ؟ قال : أنا قاصم الظلمة ، ومعدن الحكمة ، الحجاج بن يوسف ، معدن العفو والعقوبة ، وآفة الكفر والريبة . قال: إليك عنى وذاك فلستَ هناك .

ثم قال : من للعراق ؟ فسكت القوم ، وقام الحجاج ، وقال : أنا للعراق ؛ فقال : إذن أظنك صاحبها ، والظافر بغنائمها ، وإن لكل شىء يابن يوسف آية وعلامة ، فما آيتك وما علامتك ؟ قال : العقوبة والعفو ، والاقتدار والبسط والازورار[٥] ، والإدناء والإبعاد ، والجفاء والبرّ ، والتأهب والحزم ، وخوض غمرات الحروب بجنان[٦] غير هَيُوب ، فمن جادلنى قطعته ، ومن نازعنى قصمته ، ومن خالفنى نزعته ، ومن دنا منى أكرمته ، ومن طلب الأمان أعطيته ، ومن سارع إلى الطاعة بَجلته ؛ فهذه آيتى وعلامتى ، وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلوَنى ، فإن كنت للأعناق قَطّاعا ، وللأموال جَمّاعا ، وللأرواح نزّاعا ، ولك فى الأشياء نفّاعا ، وإلا فليستبدل بى أمير المؤمنين فإن الناس كثير ، لكن من يقوم بهذا الأمر قليل ، فقال عبد الملك : أنت لها ، فما الذى تحتاج إليه ؟ قال : قليل من الجند والمال ؛ فدعا عبدُ الملك صاحبَ جنده فقال : هيّئْ له من الجند شهوته ، وألزمهم طاعته ، وحذرهم مخالفته ، ثم دعا الخازن ، فأمره بمثل ذلك ، فخرج الحجاج قاصدا ، نحو العراق ، قال عبد الملك بن عمير : فبينما نحن فى المسجد الجامع بالكوفة ، إذْ أتانا آتٍ ، فقال : هذا الحجاج قدم أميرًا على العراق . فتطاولت الأعناق نحوه ، وأفرجوا له عن صحن المسجد ، فإذا نحن به يمشى وعليه عمامة حمراء متلثّما بها ؛ ثم صعد المنبر . فلم يتكلم كلمة واحدة ، ولا نطق بحرف حتى غُصّ المسجد بأهله ، وأهل الكوفة يومئذ ذَوُو حالة حسنة ، وهيئة جميلة ، فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه وأتباعه عليهم الخز والديباج[٧] ، قال : وكان فى المسجد يومئذ عمير بن صابىء التميمى ، فلما رأى الحجاج على المنبر قال لصاحب له : أسبه لكم . قال : اكفف حتى نسمعَ ما يقول ، فأبى ابن صابىء وقال : لعن الله بنى أمية حيث يولون ويستعملون مثل هذا على العراق ، وضيَّع الله العراق حيث يكون هذا أميرها ، فوالله لو دام هذا أميرا كما هو ما كان بشىء ، والحجاج ساكت ينظر يمينا وشمالا ، فلما رأى المسجد قد غُصّ بأهله قال : هل اجتمعتم فلم يدل عليه أحد شئت فقال: إنى لا أعرف قدر اجتماعكم . هل اجتمعتم ؟ فقال رجل من القوم : قد اجتمعنا أصلح الله الأمير ، فكشف عن لثامه ، ونهض قائما ، فكان أوّل شىء نطق به أن قال : والله إنى لأرى رءُوسا أينعت ، وقد حان قطافها ، وإنى لصاحبها ، وإنى لأرى الدماء ترقرق بين العمائم واللّحى ، والله يَأهْلَ العراق إن أمير المؤمنين نثر كنانته[٨] بين يديه ، فعجم[٩] عيدانها ، فوجدنى أمرّها عودا ، وأصلبها مَكسِرًا ، فرماكم بى لأنكم طالما آثرتم الفتنة ، واضطجعتم فى مراقد الضلال ، والله لأنكِّلَن

---

(١) املولح: صار ملحًا بعد عذوبة.

(٢) ضرامها: الضرام بتشديد الضاد المكسورة: ما تُضرم به النار من الحطب وغيره.

(٣) الضمضام: بتشديد الضاد المفتوحة وإسكان الميم أي الشُّجاع، والجمع ضماضم.

(٤) أي الأسد الكاسر والضخم الصلب.

(٥) الازْورار: الميل والانحراف.

(٦) جنان: الجنان بفتح الجيم والنون، من كل شيء جوفه، وهو القلب، وفي المثل: «إذا قَرِح الجنان بكت العينان».

(٧) الخَزّ: ما ينسج من صوف وإبْرَيْسَم، وما ينسج من إبَرِيْسم خالص، أما الديباج من الثياب فسداه ولحمتُه حرير، وهو فارسي معرب.

(٨) الكنانة: [جعبة الرماح] ويعد الحجاج بن يوسف ثالثَ ثلاثة طبعوا الخطابة الإسلامية بطابع خاص: أولهم: علي بن أبي طالب وثانيهم: زياد، وقد شب الحجاج شجاعًا داهية عنيفًا، وحاكمًا مستبدًا وطّدَ الملك لبني أمية ومات سنة [٩٥هـ].

(٩) عجم عيدانها: يقال عَجَم عُودَه: أي امتحنه واختبرَهُ.

بكم فى البلاد ، ولأجعلنكم مثلا فى كل واد ، ولأضربنكم ضرب غرائب[١] الإبل ، وإنى يا أهل العراق لا أعِدُ إلا وفيت ، ولا أعزم إلا أمضيت ، فإياى وهذه الزَّرافات[٢] والجماعات ، وقيل وقال وكان ويكون ، يا أهل العراق إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأتاها وعيدُ القرى من ربها فاستوثقُوا واستقيموا ، واعملوا ولا تميلوا ، وتابعوا وبايعوا ، واجتمعوا واستمعوا ، فليس منى الإهذار[٣] والإكثار إنما هو هذا السيف ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذل الله لأمير المؤمنين صعبكم ، ويقيمَ له أودَكم[٤] ، ثم إنى وجدت الصدق مع البرّ ، ووجدت البرّ فى الجنة ووجدت الكذب مع الفجور ، ووجدت الفجور فى النار .

وقد وجهنى أمير المؤمنين إليكم وأمرنى أن أنفق فيكم ، وأوجهكم لمحاربة عدوّكم مع المهلب ابن أبى صفرة ، وإنى أقسم بالله لا أجد رجلا يتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه ، يا غلام اقرأ كتاب أمير المؤمنين ؛ فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يرد أحد شيئا . فقال الحجاج : اكفف يا غلام ، ثم أقبل على الناس فقال : أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون شيئا عليه ؟ ! هذا أدبكم الذى تأدبتم به ! أما والله لأؤدبنكم أدبا غير هذا الأدب . اقرأ يا غلام فقرأ حتى بلغ قوله : سلام عليكم ؛ فلم يبق أحد إلا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام ثم نزل بعد ما فرغ من خطبته وقراءته ، ووضع للناس عطاياهم ، فجعلوا يأخذونها حتى أتاه شيخ يرعش فقال : أيها الأمير إنى على الضعف كما ترى ، ولى ابن هو أقوى منى على الأسفار أفتقبله بديلا منى ؟ فقال : نقبله أيها الشيخ ، فلما ولى قال له قائل : أتدرى من هذا أيها الأمير ؟ قال : لا . قال : هذا عمير بن صابىء الذى يقول :

هَمَمْتُ ولَم أفعَلْ وكِدتُ ولَيتَنِى ... تَرَكْتُ على عُثْمانَ تَبْكِى حَلائِلُهْ

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان ﷺ وهو مقتُول فوطئ فى بطنه ، فكسر ضِلْعين من أضلاعه ، فقال الحجاج : ردُّوه ، فلما ردُّوه قال له الحجاج : أنت الفاعل بأمير المؤمنين عثمان ما فعلت يوم قتل الدار ؟ إنَّ فى قتلك أيها الشيخ إصلاحا للمسلمين ! يا سيّاف ؛ اضرب عنقه ! فضرب عنقه ! وكان من أمره بعد ذلك ما عرف وسطر .

ومن حكايات الحجاج ما حكى أنه لما أسرف فى قتل أسرى « دير الجماجم »[٥] وأعطى الأموال بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فشق عليه وكتب إليه أما بعد : فقد بلغنى عنك إسراف فى الدماء ، وتبذير فى العطاء ، وقد حكمت عليك فى الدماء فى الخطأ بالدية ، وفى العمد بالقَود[٦] ، وفى الأموال أن تردها إلى مواضعها ثم تعمل فيها برأيى ، فإنما هو مال الله - تعالى - ، ونحن أمناؤه فإن كنت أردت الناس لى فما أغنانى عنهم ، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم وسيأتيك عنى أمران : لين وشدة فلا يؤمننك إلا الطاعة ، ولا يوحشنك إلا المعصية ، وإذا أعطاك الله - عز وجل - الظفر فلا تقتلن جانحا[٧] ولا أسيرا ، وكتب فى أسفل الكتاب :

إذا أنتَ لَمْ تَتْرك أمورًا كرهتَها ... وتطلُبْ رِضائى بالَّذِى أنا طالبُه
فإنْ تَرْمِنِى غفلةٌ قُرشيَّةٌ ... فيا ربَّما قد غُصَّ بالماءِ شاربُه
وإنْ تَرْمِنِى وثْبَةٌ أمويَّةٌ ... فهذا وهذا كُلّ ذا أنا صَاحبُه
فلا تأمننّى والحوادثُ جمَّةٌ ... فإنَّك تُجزَى بالذى أنت كاسِبُه
فلا تَعْدُ ما يأتيك مِنّى وإن تعد ... يَقُمْنَ به يوما عليك نوادبُه
فلا تمنعنّ الناسَ حقًّا علمتَه ... ولا تُعْطينَّ ما ليس للنَّاسِ واجبه

---

(١) غرائب الإبل: جمع غريبة، وهي التي تبتعد عن موطنها وتشرد عن جماعتها.

(٢) الزَّرافات: واحدتها الزرافة، وهي الجماعوة من الناس.

(٣) الإهذار والإكثار: الإكثار من الهذيان وقالوا: من أكثر أهذر.

(٤) أودكم: بفتح الألف والواو والدال، أي اعوجاجكم.

(٥) دير الجماجم: موضع بالعراق قريب من الكوفة انتصر فيه الحجاج على ابن الأشعث.

(٦) القود: بفتح القاف والواو، أي القِصاص.

(٧) جَانحًا: المراد، أي الرجل المُنقاد.

فَإنَّك إن تُعْطِى الحقُوقَ فإنَّما ... النَّوافِلُ شىءٌ لا يثِيبُك واهِبُه

فلما ورد الكتاب على الحجاج ، كتب إلى أمير المؤمنين أما بعد : فقد ورد كتاب أمير المؤمنين يذكر إسرافى فى الدماء ، وتبذيرى فى الأموال ، ولعمرى ما بالغت فى عقوبة أهل المعصية ، ولا قضيت حقوق أهل الطاعة ، فإن كان قتلى العصاة إسرافا ، وإعطائى المطيعين تبذيرا فليمض لى أمير المؤمنين ما سلف ، ووالله ما أصبت القوم خطأ فأديهم[١] ، ولا ظلمتهم عمدا فأُقادُ بهم[٢] ، ولا قتلت إلا لك ، ولا أعطيت إلا فيك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . وكتب فى أسفل الكتاب :

إذا أنا لا أَبْغِى رِضَاك وأَتَّقِى ... أذاك فليلى لا تُوَارَى كواكبُه

وما لامرئ بَعْد الخليفةِ جُنَّة ... تقيه مِنَ الأمرِ الذى هو راكبُه

إذا قارفَ الحجَّاج فيك خطيئةً ... لقَامتْ عليه بالصِّياح نوادبُه[٣]

إذا أنا لم أُذْنِ الشفيق لنصحه ... وأُقْصِ الذى تسرى إلىّ عقاربه

وأعط المواسى فى البلاء عطية ... لرد الذى ضاقت على مذاهبهُ

فمَنْ يتَّقى بُؤسِى ويرجو مودَّته ... ويَخْشَى غدا والدهر جَمٌّ نوائبهُ

وأمْرِى إليك اليوم ما قلت قلته ... وما لم تقلْهُ لم أقُلْ ما يقاربهُ

ومهما أردت اليوم منى أَردتُه ... وما لم ترده اليوم إنى مُجانبهُ[٤]

وقف بى على حدِّ الرِّضا لا أجوزُه ... مَدَى الدهر حتى يُرجِعَ الدَّرَّ حالبُه

وإلَّا فدَعْنِى والأمورَ فإننى ... شفيقٌ رفيقٌ أحكمتْه تَجاربُه

فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك قال : خاف أبو محمد صولتى ، ولم يعاود لأمر كرهته إن شاء الله - تعالى - ، فمن يلومنى على محبته ؟ ! يا غلام ، واكتب إليه : الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وأنت أعلى عينا بما هناك .

وفى مروج الذهب للمسعودى : أن أم الحجاج ، وهى الفارعة بنت همام ولدته مشوّها لا دبر له فثقب له دبر ، وأبى أن يقبل الثدى ، وأعياهم أمره ، فيقال : إن الشيطان تصوّر لهم فى صورة الحارث بن كلدة حكيم العرب ، فسألهم عن ذلك ، فأخبره مخبر من أهله فقال لهم : اذبحوا له تَيْسًا ، وألعقوه من دمه ، وأولغوه فيه . ثم اطلوا به وجهه ، ففعلوا ذلك فقبلَ الثدى ؛ فلأجل ذلك كان لا يصبر عن سفك الدماء ، وكان يخبر عن نفسه أن أكبر لذاته سفك الدماء ، وارتكاب أمور لا يَقدر غيره عليها ، وكانت أمة متزوجة قبل أبيه الحارث ابن كلدة ، فدخل عليها يوما فى السحر ، فوجدها تخلل أسنانها ، فطلقها ، فسألته لِمَ فعلت ؟ فقال لها : إن كنت باكرت الغداء فأنت شرهة ، وإن كان بقايا طعام بفيك فأنت قذرة ، فقالت : كل ذلك لم يكن ، وإنما تخللت من شظايا السواك ؛ فقال : قُضِىَ الأمر ، فتزوجها بعده يوسف بن عقيل الثقفى فأولدها الحجاج .

وقيل : إن الحجاج تقلد الإمارة ، وهو ابن عشرين سنة ، ومات وله ثلاث وخمسون سنة ، وكان من عنف السياسة ، وثقل الوطأة[٥] ، وظلم الرعية ، والإسراف فى القتل على ما لا يبلغه وصف ، أحصى من قتله الحجاج بأمره سوى من قتله فى حروبه فكانوا مائة ألف وعشرين ألفا ، ووجد فى سجنه ٥٠ ألف رجل ، وثلاثون ألف امرأة لم يجب على أحد منهم قطع ولا قتل ، وكان يحبس الرجال والنساء فى موضع واحد ، ولم يكن لحبسه سقف يستر الناس من الحر والبرد .

وقيل للشعبى : أكان الحجاج مؤمنا ؟ قال : نعم بالطاغوت . وقال : لو جاءت كل أُمَّةٍ بخبيثها وفاسقها ، وجئنا بالحجاج وحده لزدنا عليهم . والله أعلم .

---

(١) فأديهم : أتحمل دياتهم ، وأدفعها لأولياء أمورهم .

(٢) أقاد بهم : القوَد : القصاص . أي : فيقتصّ مني .

(٣) قارف : مارس وارتكب .

(٤) مُجَانِبُه : تاركه .

(٥) الوطأة : بفتح الواو ، والطاء أي السابلة ، والسَّابلة : الطريق المسلوك .

وقد مضى القول فى ذكر الفصحاء من الرجال ، وحكاياتهم ، وما أعان الله - تعالى - عليه ، واستحضرته من أخبارهم وأنا قائل إن شاء الله - تعالى - ما استحضرته من ذكر فصحاء النساء وأخبارهنّ وحكاياتهن . والله المستعان .

ذكر فصحاء النساء وحكاياتهنّ

حكى : عن أبى عبد الله النميرىّ أنه قال : كنت يوما مع المأمون ، وكان بالكوفة فركب للصيد ومعه سرية من العسكر ، فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة[١] فأطلق عنان جواده ، وكان على سابق من الخيل ؛ فأشرف على نهر ماء من الفرات . فإذا هو بجارية عربية خُماسِية[٢] القد ، قاعدة النهد ، كأنها القمر ليلة تمامة ، وبيدها قربة قد ملأتها ماء ، وحملتها على كتفها وصعدت من حافة النهر فانحل وكاؤها[٣] ، فصاحت برفيع صوتها يا أبتِ أدْرِكْ فَاهَا ، قد غلبنى فُوهَا لا طاقةَ لى بفيها ! قال : فعجب المأمون من فصاحتها ، ورمت الجارية القِربة من يدها ، فقال لها المأمون : يا جارية ، من أى العرب أنت ؟ قالت : أنا من بنى كلاب . قال : وما الذى حملك أن تكونى من الكلاب ؟ فقالت : والله لست من الكلاب ، وإنما أنا من قوم كرام غير لئام ، يقرون الضيف ، ويَضربون بالسيف ، ثم قالت : يا فتى، من أى الناس أنت ؟ فقال : أو عندك علم بالأنساب ؟ قالت : نعم . قال لها : أنا من مضر الحمراء . قالت : من أى مضر ؟ قال من أكرمها نسبا وأعظمها حسبا ، وخيرها أما وأبا ، ممن تهابه مضر كلها ، قالت : أظنك من كنانة ، قال : أنا من كنانة . قالت : فمن أى كنانة ؟ قال : من أكرمها مولدا ، وأشرفها محتدا ، وأطولها فى المكرمات يدا ، ممن تهابه كِنانة ، وتخافه . فقالت : إذن أنت من قريش . قال : أنا من قريش . قالت : من أى قريش ؟ قال : من أجملها ذكرا ، وأعظمها فخرا ، ممن تهابه قريش كلها ، وتخشاه . قالت : أنت - والله - من بنى هاشم . قال : أنا من بنى هاشم . قالت : من أى هاشم ؟ قال : من أعلاها منزلة ، وأشرفها قبيلة ، ممن تهابه هاشم وتخافه . قال : فعند ذلك قبّلت الأرض ، وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، وخليفة ربّ العالمين . قال : فعجب المأمون ، وطرب طربا عظيما ، وقال: والله لأتزوّجنّ بهذه الجارية لأنها من أكبر الغنائم ، ووقف حتى تلاحقته العساكرُ فنزل هناك ، وأنفذ خلف أبيها، وخطبها منه ، فزوّجه بها وأخذها وعاد مسرورا وهى والدة ولدِه العباس . والله أعلم .

وحكى : أن هند ابنة النعمان كانت أحسن أهل زمانها فوُصِفَ للحجاج حسنُها فأنفذ إليها يخطبها ، وبذل لها مالًا جزيلًا وتزوّج بها ، وشرط لها عليه بعد الصداق مائتى ألف درهم ، ودخل بها ثم إنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة[٤] وكانت هند فصيحة أديبة ، فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة ، ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق ، فأقامت معه ما شاء الله ، ثم دخل عليها فى بعض الأيام ، وهى تنظر فى المرآة وتقول :

وَمَا هِنْدُ إلا مُهْرَةٌ عربيَّةٌ ... سَلِيلَةُ أَفْراسٍ تَحَلَّلُها بَغْلُ

فَإِنْ وَلَدَتْ فَحْلًا فَلِلَّهِ دَرُّها ... وإنْ وَلَدَتْ بَغْلًا فَجاءَ بِهِ البَغْلُ

فانصرف الحجاجُ راجعًا ولم يدخل عليها ، ولم تكن علمت به ، فأراد الحجاج طلاقَها فأنفذ إليها عبد الله بن طاهر ، وأنفذ لها معه مائتى ألف درهم ، وهى التى كانت لها عليه ، وقال : يا بن طاهر، طلِّقها بكلمتين ولا تزد عليهما فدخل عبد الله بن طاهر عليها فقال لها : يقول لك أبو محمد الحجاج : كنتِ فبنتِ[٥] ، وهذه المائتا ألف درهم التى كانت لك قِبَلَه فقالت : اعلم يابن طاهر أنّا والله كنا فما حَمِدْنا ، وبِنّا فما ندمنا ! وهذه المائتا ألف درهم التى جئت بها بشارة لك بخلاصى من كلب بنى ثقيف . ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ، ووصف له جمالها فأرسل إليها يخطبها فأرسلت إليه كتابا تقول فيه : بعد الثناء عليه، اعلم يا أمير المؤمنين أن الإناء ولغ فيه

---

(١) طريدة: ما طاردته من صيد وغيره.

(٢) الخماسي: من الغلمان والشباب: ما طوله خمسة أشبار.

(٣) المعرة: بلد أبي العلاء المعري وإليها ينسب وهي بالشام. وهي معرة النعمان: مدينة بسورية الآن.

(٤) وكاؤها: يقال واكأ على يديه مواكأة وِكاءً: تحامَل عليهما ورفعهما ومدَّهما في الدعاء.

(٥) كنتِ: أي كنت زوجة، فبنْتِ: فأصبحت مطلقة طلاقًا باتًا.

الكلب ! فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها ، وكتب إليها يقول : إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم فليغسله سبعا إحداهن بالتراب[١]، فاغسلى الإناء يحل الاستعمال ، فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة فكتبت إليه : بعد الثناء عليه، يا أمير المؤمنين والله لا أُحِلّ العقد إلا بشرط ، فإن قلت : ما هو الشرط ؟ قلت : أن يقود الحجاجُ محملى من المعِرة إلى بلدك التى أنت فيها ويكون ماشيا حافيا بحليته التى كان فيها أوّلا ، فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك ضحكا شديدا ، وأنفذ إلى الحجاج ، وأمره بذلك فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب ، وامتثل الأمر ، ولم يخالف ، وأنفذ إلى هند يأمرها بالتجهز ، فتجهزت وسار الحجاج فى موكبه ، حتى وصل المعرة بلد هند ، فركبت هند فى محمل الزفاف ، وركب حولها جواريها وخدمها ، وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها ، فجعلت هند تتواغد عليه[٢]، وتضحك مع الهيفاء دايتها ، ثم إنها قالت للهيفاء : يا داية اكشفى لى سجف[٣] المحمل ، فكشفته فوقع وجهها فى وجه الحجاج ، فضحكت عليه فأنشد يقول :

فَإنْ تَضْحَكى مِنّى فيا طُولَ لَيْلَةٍ ... تَرَكْتُكِ فيهَا كالقِباءِ المفَرَّج

فأجابته هند تقول :

ومَا نُبالِى إذا أرواحُنا سَلِمَتْ ... بما فَقَدْنَاه من مالٍ ومن نَشَب[٤]

فالمالُ مُكْتَسَبٌ والعِزّ مُرْتَجَعٌ ... إذا النُّفُوسُ وقَاها الله من عَطَبِ

ولم تزل كذلك تضحك وتلعب ، إلى أن قربت من بلد الخليفة ، فرمت بدينار على الأرض ، ونادت يا جمال ، وإنه قد سقط منا دِرْهم فارفعه إلينا فنظر الحجاج إلى الأرض ، فلم يجد إلا دينارا فقال : إنما هو دينار ، فقالت : بل هو درهم ، قال : بل دينار ، فقالت : الحمد الله سقط منا دِرْهَم فعوّضنا الله دينارًا . فخجل الحجاجُ وسكت ، ولم يردّ جوابا ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان فتزوّج بها ، وكان من أمرها ما كان . وقد وجدت فى بعض النسخ ما هو أوسع من هذا ولكن اقتصرت على القليل منه إذ فيه الغرض . والله أعلم .

وقيل : إنّ جارية عرضت على الرشيد ليشتريها ، فتأملها ؛ وقال لمولاها : خذ جاريتك فلولا كلف بوجهها[٥] وخنَس بأنفها لاشتريتها ، فلما سمعت الجارية مقالة أمير المؤمنين قالت مُبادرة : يا أمير المؤمنين اسمع منى ما أقول . فقال : قولى ، فأنشدت تقول :

ما سَلِمَ الظَّبْىُ على حُسْنِه ... كلّا ولا البَدْرُ الذى يُوصَفُ

الظَّبْى فيه خَنَسٌ بيّنٌ ... والبَدرُ فيه كَلَفٌ يُعْرَف

قال: فعجب من فصاحتها وأمر بشرائها .

وقيل : عُرضت على المأمون جارية بارعة فى الجمال فائقة فى الكمال ، غير أنها كانت تعرج برجلها ، فقال لمولاها : خذ بيدها ، وارجع فلولا عرج بها لاشتريتها ، فقالت الجارية : يا أمير المؤمنين ، إنه فى وقت حاجتك لا يكون بحيث تراه ، فأعجبه سرعة جوابها ، وأمر بشرائها . ومن ذلك ما حكى أن كريم الملك كان من ظرفاء الكتاب فعبر يوما تحت جوسق[٦] ببستان ، فرأى جارية ذات وجه زاهر ، وكمال باهر ، لا يستطيع أحد وصفها ؛ فلما نظر إليها ذهل عقله ، وطار لُبّه ، فعاد إلى منزله وأرسل إليها هدية نفيسة مع عجوز كانت تخدمه ، وكانت الجارية عزبًا ، وكتب إليها رقعة يعرض إليها بالزيارة فى جَوْسَقِهَا ، فلما قرأت الرقعة قبلت الهدية ، ثم أرسلت إليه مع العجوز عنبرا

---

(١) حديث: «إذا ولغ الكلب . .» إلخ قال العجلوني [١/ ٣٠٢] رواه البزار بإسناد حسن عن أبي هريرة ورواه أحمد والنسائي بلفظ . . «أولاهُنّ».

(٢) تتواغد عليه: تسبه وتشتمه كما يفعل الأوغاد اللئام.

(٣) السجف: بفتح السين المشددة وكسرها وسكون الجيم: أحد السِّتْرين المقرونين بينهما فرجة، والجمع أسجاف، وسجوف.

(٤) المُفَرَّج: مَنْ بان مِرْفقه عن إبطه.

(٥) الكلف: بقع تكون في الوجه، والخنس في الأنف: انحناء.

(٦) الجوسق: القصر الصغير والحسن، والجمع جواسق.

وجعلت فيه زرّ[١] ذهب ، وربطت ذلك على منديل وقالت للعجوز : هذا جواب رقعته ، فلما رأى كريم الملك ذلك لم يفهم معناه ، وتحير فى أمره وكانت له ابنة صغيرة السنّ ، فلما رأت أباها متحيرا فى ذلك قالت له : يا أبت ، أنا علمت معناه . قال : وما لله درك ؟ قالت :

أهْدتْ لكَ العَنْبرَ فى جَوْفه ... زرٌّ من التِّبْر خفىَ اللّحام[٢]
فالزّرُ والعَنْبرُ مَعْناهُما ... زُرْ هكذا مُختفيًا فى الظّلام

قال: فعجب من فطنتها وفصاحتها واستحسن ذلك منها .

وحكى : أنّ شاعرا كان له عدوّ ، فبينما هو سائر ذات يوم فى بعض الطرق إذا هو بعدوّه فعلم الشاعر أن عدوّه قاتله لا محالة ، فقال له : يا هذا، أنا أعلم أن المنية قد حضرت ، ولكن سألتك الله إذا أنت قتلتنى فامضِ إلى دارى ، وقِفْ بالباب ، وقل : * ألا أيها البنتان إنّ أباكما * فقال : سمعا وطاعة ثم إنه قتله . فلما فرغ من قتله أتى إلى داره ووقف بالباب وقال : * ألا أيها البنتان إن أباكما * وكان للشاعر ابنتان فلما سمعتا قول الرجل : * ألا أيها البنتان إن أباكما* أجابتاه بفم واحد * قتيلٌ خُذَا بالثار ممن أتاكما * ثم تعلقتا بالرجل ورفعتاه إلى الحاكم فاستقرره فأقر بقتله فقتله . والله أعلم .

وقيل : بينما كُثَيِّرُ عزة مارًّا بالطريق يوما إذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشى ، فقال لها : تَنَحّى عن الطريق ، فقالت له : ويحك ومَنْ تكون ؟ ! قال : أنا كثير عزة . قالت : قبحك الله ، وهل مثلك يُتَنَحَّى له عن الطريق ؟ ! قال : ولم . قالت : ألست القائل :

وما روضة بالحسن طيبةُ الثَّرى ... يمجُّ النَّدى جثجاثها وعَرارها[٣]
بأطْيبَ من أردان عزَّةَ مُوهنًا ... إذا أوقدت بالمَجْمر اللَّدْن نارها

ويحك يا هذا لو تبخر بالمجمر اللدن مثلى ومثل أمك لطاب ريحُها لم لا قلت مثل سيدك امرئ القيس :

وكُنتُ إذا ما جِئْت بالَّليل طارقًا ... وجدتُ بها طيبًا وإن لَمْ تَطَيَّبِ

فقطعته ولم يَرُدّ جوابا .

وقيل : أتى الحجاج بامرأة من الخوارج فقال لأصحابه : ما تقولون فيها ؟ قالوا : عاجِلْها بالقتل أيها الأمير . فقالت الخارجية : لقد كان وزراء صاحبك خيرا من وزرائك يا حجاجُ . قال : ومن هو صاحبى ؟ قالت : فرعون . استشارهم فى موسى عليه السلام فقالوا : أرجئه وأخاه . وأتى بأخرى من الخوارج فجعل يكلمها وهى لا تنظر إليه ، فقيل لها : الأمير يكلمك وأنت لا تنظرين إليه . فقالت : إنى لأَسْتحيى أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه .

وحكى ابن الجوزىّ فى كتابه المنتظم فى مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لما ولى عمر رضي الله عنه الخلافة بلغه أن أصدقة[٤] أزواج النبى ﷺ خمسمائة درهم ، وأن فاطمة رضي الله عنها كانَ صَداقُها على علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه أربعمائة درهم ، فأدى اجتهاد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أن لا يزيد أحد على صداق البضعة النبوية فاطمة – رضى الله عنها – فصعد المنبر وحمد الله – تعالى – وأثنى عليه وقال : أيها الناس لا تزيدوا فى مهور النساء على أربعمائة درهم فمن زاد ألقيت زيادته فى بيت مال المسلمين ، فهاب الناس أن يكلموه ، فقامت امرأة فى يدها طول فقالت له : كيف يحل لك هذا ، والله – تعالى – يقول : ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٢٠]. فقال عمر رضي الله عنه: امرأة أصابت ورجل أخطأ .

وقيل : جاءت امرأة إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقالت : يا أمير المؤمنين ، إنّ زوجى يصوم النهار ، ويقوم الليل ، فقال لها : نعم الرجل زوجك ! وكان فى مجلسه رجل يسمى كعبا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن هذه المرأة تشكو

---

(١) الزر: بتشديد الزاي المكسورة، شيء كالحبة أو القُرص يُدخل في العروة.
(٢) التبر: فُتات الذهب أو الفضة قبل أن يصاغا.
(٣) الجثجاث والعَرار من نباتات الصحراء ذات الرائحة الجميلة.
(٤) أصْدِقة: جمع صداق [المهر].

زوجها فى أمر مباعدته إياها عن فراشه فقال له : كما فهمت كلامها احكم بينهما، فقال كعب : علىّ بزوجها فأحضر ، فقال له : إن هذه المرأة تشكوك . قال: أفى أمر طعام أم شراب ؟ قال : بل فى أمر مباعدتك إياها عن فراشك ، فأنشأت المرأة تقول :

يـأيُـهـا الـقـاضِـى الـحَـكـيـمُ ، أنـشـدُه ... أَلْـهَـى خَـلـيـلِـى عَـنْ فِـرَاشِـى مَـسْـجِـدُه
نَـهَـارُهُ ولَـيْـلُـهُ لا يـرقُـدُهْ ... فَـلَـسْـتُ فـى أمْـرِ الـنِّـسـاء أحْـمَـدُه

فأنشأ الزوج يقول :

زهَـدَنـى فـى فَـرشِـهَـا وفـى الـحـلـل ... أنَّـى امـرؤٌ أذْهَـلَـنـى مـا قَـدْ نـزلْ
فـى سـورة الـنَّـمْـل وفـى الـسَّـبـع الـطُّـوَل ... وفـى كـتـاب الـلَّـه تـخْـويـفٌ يـجـل

فقال له القاضى :

إنَّ لـهـا عـلَـيـك حـقًّـا لَـمْ يـزَلْ ... فـى أربـعٍ نـصـيـبـهـا لِـمَـنْ عَـقَـلْ
فَـعَـاطِـهَـا ذاك ودَعْ عـنْـك الـعِـلَـلْ

ثم قال : إن الله - تعالى - أحل لك من النساء مثنى ، وثلاث[1] ، ورُباع ، فلك ثلاثة أيام بلياليهن ، ولها يوم وليلة ، فقال عمر رضي الله عنه : لا أدرى من أيكم أعجب ؟ أمن كلامها ، أم من حكمك بينهما ؟ اذهب فقد وليتك البصرة .

حكاية المتكلمة بالقرآن : قال عبد الله بن المبارك - رحمه الله تعالى - خرجت حاجًّا إلى بيت الله الحرام ، وزيارة قبر نبيه ﷺ فبينما أنا فى بعض الطريق إذا أنا بسواد على الطريق ، فتميزت ذاك ، فإذا هى عجوز عليها درع من صوف ، وخِمار من صوف ، فقلت : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فقالت : ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس:٥٨] . قال : فقلت لها : يرحمك الله ما تصنعين فى هذا المكان ؟ قالت : ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ﴾ . [الأعراف:١٨٦] فعلمت أنها ضالة عن الطريق ، فقلت لها : أين تريدين ؟ قالت : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ [الإسراء:١] . فعلمت أنها قد قضت حجها ، وهى تريد بيت المقدس ، فقلت لها : أنت منذ كم فى هذا الموضع وقالت : ﴿ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ [مريم:١٠]. فقلت : ما أرى معك طعاما تأكلين . قالت : ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ . [الشعراء:٧٩] فقلت : فبأى شىء تتوضئين ؟ قالت : ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [المائدة:٦]. فقلت لها : إن معى طعاما فهل لك فى الأكل ؟ قالت : ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ . [البقرة:١٨٧] فقلت : ليس هذا شهر رمضان . قالت : ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:١٥٨] . فقلت : قد أبيح لنا الإفطار فى السفر . قالت : ﴿ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . [البقرة:١٨٤] فقلت : لم لا تكلمينى مثل ما أكلمك ؟ قالت : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨] فقلت : فمن أى الناس أنت ؟ قالت : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦]. فقلت : قد أخطأتُ فاجعلينى فى حلٍّ . قالت : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [يوسف:٩٢] . فقلت : فهل لك أن أحملك على ناقتى هذه فتدركى القافلة ؟ قالت : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة:١٩٧] . قال : فأنخت ناقتى . قالت : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾ [النور:٣٠] . فغضضت بصرى عنها ، وقلت لها : اركبى ، فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة ، فمزقت ثيابها فقالت : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى:٣٠] . فقلت لها : اصبرى حتى أعقلها ، قالت : ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ ﴾ [الأنبياء:٧٩]. فعقلت الناقة ، وقلت لها : اركبى فلما ركبت قالت : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف:١٣-١٤] قال : فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح فقالت : ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ ﴾ [لقمان:١٩] . فجعلت أمشى رويدا رويدا ، وأترنم بالشعر ، فقالت : ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ ﴾ [المزمل:٢٠]. فقلت لها :

---

(١) طبقًا لما جاء بالآية الكريمة رقم [٣] من سورة النساء، وأولها: ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ .

لقد أوتيت خيرا كثيرا ، قالت : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة:٢٦٩] . فلما مشيت بها قليلا قلت : ألك زوج ؟ قالت : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة:١٠١]. فسكت ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة فقلت لها : أهذه القافلة ، فمن لك فيها ؟ فقالت : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف:٤٦] . فعلمت أن لها أولادا فقلت : وما شأنهم فى الحج ؟ قالت : ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ . [النحل:١٦] فعلمت أنهم أدلاء الركب ، فقصدت بها القباب ، والعمارات فقلت : هذه القباب فمن لك فيها ؟ قالت : ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء:١٢٥]. ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٤]. ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم:١٢] . فناديت ياإبراهيم ، ياموسى ، يا يحيى ، فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا فلما استقرّ بهم الجلوس قالت : ﴿ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ [الكهف:١٩] فمضى أحدهم ، فاشترى طعامًا فقدموه بين يدىّ فقالت : ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ . [الحاقة:٢٤] فقلت : الآن طعامكم علىّ حرام حتى تخبرونى بأمرها فقالوا : هذه أمنا لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تَزِل فيسخط عليها الرحمن ، فسبحان القادر على ما يشاء ، فقلت : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ . [الجمعة:٤] والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثامن

فى الأجوبة المسكتة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك

[١] قيل : إن معن بن زائدة[١] دخل على المنصور فقال له : هيه يا معن[٢] تُعطى مروان بن أبى حفصة[٣] مائة ألف على قوله :

مَعْنُ بنُ زَائِدةَ الَّذى زَادتْ بِه ... شَرَفًا على شَرفِ بنُو شَيبان

فقال: كلا يا أمير المؤمنين ، إنما أعطيته على قوله :

ما زِلْت يومَ الهاشِميَّة مُغْلَنًا ... بالسَّيف دون خَليفَةِ الرحمن[٤]

فمنعت حوزته وكنتُ وقاءَه ... مِنْ وَقع كُلِّ مُهنَّدٍ وسِنانِ

فقال: أحسنت والله يا معن ، وأمر له بالجوائز والخلع .

[٢] : ووَفد ابن أبى محجن على معاوية فقام خطيبا فأحسن ، فحسده معاوية وأراد أن يوقعه ، فقال له : أنت الذى أوصاك أبوك بقوله :

إذَا مِتُّ فَادفِنِّى إلى جنب كرمَةٍ ... تروّى عِظَامى بعد مَوتى عُروقَها

ولا تدفنّى فى الفلاة فإنّنِى ... أخافُ إذا ما مِتّ أن لا أذوقَها

قال : بل أنا الذى يقول أبى :

---

(١) معن بن زائدة من أجواد العرب ولّاه أبو جعفر المنصور خراسان بعد أن وقف إلى جانبه، ولكن الخوارج قتلوه [١٥٢هـ-٧٦٩م].

(٢) هيه: كلمة تقال للاستزادة من الكلام.

(٣) مروان بن حفصة من شعراء بغداد.

(٤) الهاشمية: عاصمة العباسيين أيام السفاح، وحوزة الرجل: ما في ملكه. والمنع: الحماية والدفاع. والمهند: السيف الهندي. والسنان: الرمح.

لا تسأل الناس ما مالى وكثرته ؟ وسائل الناس ما جودى وما خُلقى ؟
أعطى الحُسامَ غداةَ الروع حصّته وعاملُ الرمح أرويه من العلقِ
وأطعن الطعنةَ النَّجْلاء عن عرض وأكتمُ السرَّ فيه ضربة العنقِ
ويعلمُ الناسُ أنى من سَراتهم إذا سما بصرُ الرعديد بالفَرقِ (١)

[٣] : فقال معاوية : أحسنت والله يا بن أبى محجن ، وأمر له بصلة وجائزة .

وقيل : أخذ عبد الملك بن مروان بعض أصحاب شبيب الحارثى فقال له : ألست القائل :

ومِنّا شريدٌ والبُطَين وقَعْنَبٌ ومِنّا أمير المؤمنين شبيبُ

فقال : يا أمير المؤمنين إنما قلت : ومنا أمير المؤمنين شبيب وأردت بذلك مناداةً لك فكان ذلك سببا لنجاته .

[٤] : ودخل شُرَيْك بن الأعور على معاوية وكان دميما فقال له معاوية : إنك لدميم ، والجميل خير من الدميم ، وإنك لشريك ، وما لله من شريك ، وإن أباك لأعور ، والصحيح خير من الأعور ، فكيف سُدْت قَومَك ؟ فقال له : إنك معاوية ، وما معاوية إلا كلْبة عوت ، فاستعوت الكلاب ، وإنك لابن صخر ، والسهل خير من الصخر ، وإنك لابن حرب ، والسَّلم خير من الحرب ، وإنك لابن أمَية ، وما أمية إلا أمة صُغّرت ، فكيف صرت أمير المؤمنين ؟ ثم خرج وهو يقول :

أيشتمنى معاويةُ بنُ حَرب وسيفى صارمٌ ومَعِى لِسَانى
وحولى من ذوى يزَنٍ لُيوث ضراغمةٌ تهش إلى الطعان
يعير بالدمامة من سفاه وربّاتُ الحجالِ من الغوانى (٢)

[٥] : ودخل يزيد بن أبى مسلم ، صاحب شرطة الحجاج على سليمان بن عبد الملك بعد موت الحجاج فقال له سليمان : قَبّح الله رجلًا أجرك رسنه(٣)، وأولاك أمانته فقال : يا أمير المؤمنين ، رأيتنى والأمر لك وهو عنى مدبر فلو رأيتنى وهو على مقبل لاستكبرت منى ما استصغرت ، واستعظمت منى ما استحقرت . فقال سليمان : أترى الحجاج استقر فى جهنم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تقل ذلك ، فإنّ الحجاج وطّأ لكم المنابر ، وأذل لكم الجبابرة ، وهو يجىء يوم القيامة عن يمين أبيك ، وشمال أخيك ، فحيثما كانا كان .

[٦] : وقال يهودى لعلىّ بن أبى طالب ﷺ: ما لكم لم تلبثوا بعد نبيكم إلا خمسَ عشرةَ سنة حتى تقاتلتم ؟ فقال علىّ ﷺ ولِم أنتم لم تجف أقدامكم من البلل حتى قلتم : ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨].

[٧] : ووجد الحجاج على منبره مكتوبًا : ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر:٨]. فكتب تحته : ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١١٩].

[٨] : ودخل عقيل(٤) على معاوية وقد كف بصره(٥) فأجلسه معه على سريره ، ثم قال : أنتم معشر بنى هاشم تُصابون فى أبصاركم، فقال عقيل: وأنتم معشر بنى أمية تصابون فى بصائركم.

[٩] **وقيل** : اجتمعت بنو هاشم يوما عند معاوية فأقبل عليهم ، وقال : يا بنى هاشم ، إن خيرى لكم لممنوح ، وإن بابى لكم لمفتوح ، فلا يُقطع خيرى عنكم ، ولا يُردّ بابى دونكم ، ولما نظرت فى أمرى وأمركم رأيت أمرا مختلفا ، إنكم ترون أنكم أحق بما فى يدى منى ، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقوقكم، قلتم : أعطانا دون حقنا ،

---

(١) أبو مِحجن: أحد شعراء الإسلام، وهذا ابنه، والرّعديد: الجبان، والفَرَق: الخوف، والطعنة النجلاء: الغائرة. والعلق: الدم. وغداة الروع: عند اللقاء للحرب.

(٢) صارم: قاطع. ليوث: جمع ليث وهو الأسد. وكذلك الضَّراغمة جمع ضرغام. تهشّ: ينشرح صدرهم سرورًا به، وربّات الحجال: النساء والغواني: من استغنين بجمالهن عن الزينة.

(٣) الرَّسَنُ: ما كان من الأزِمّة على الأنف. والمراد: أعطاك سلطة قيادة. وأجرك رسنُه ترك الحبل على الغارب.

(٤) عقيل بن أبي طالب: أخو علي ﷺ كان خبيرًا بالأنساب، وتوفى سنة ٤٤هـ.

(٥) وشتان ما بين عمى البصر، وعمى البصيرة!

وقصّر بنا عن قدرنا ، فصرتُ كالمسلوب ، والمَسلُوب لا حَمد له . هذا مع إنصاف قائلكم ، وإسعاف سائلكم . قال : فأقبل عليه ابن عباس رضي الله عنهما فقال : والله ما منحتنا شيئًا حتى سألناه ، ولا فتحت لنا بابا حتى قرعْناه ، ولئن قطعت عنا خيرك فخير الله أوسع منك ، ولئن أغلقت دوننا بابا لنكفّن أنفسَنا عنك ، وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما للرجل من المسلمين ، ولولا حقنا فى هذا المال لم يأتك منا زائر يحمله خُفّ ولا حافر[١] . أكفاك أم أزيدك ؟ قال : كفانى يا بن عباس .

[١٠] وقال معاوية يوما : أيها الناس إن الله حبا قريشا بثلاث ؛ فقال لنبيه ﷺ : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:١١٤] ونحن عشيرته الأقربون . وقال - تعالى - : ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤] ونحن قومه . وقال - تعالى - : ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ﴾ [قريش:١-٢] ونحن قريش فأجابه رجل من الأنصار فقال : على رَسْلِكَ يا معاوية ، فإن الله - تعالى - يقول : ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام:٦٦] وأنتم قومه . وقال - تعالى : ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف:٥٧] وأنتم قومه . وقال - تعالى - : ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠] وأنتم قومه ثلاثة بثلاثة ؛ ولو زدتنا لزدناك .

[١١] وقال معاوية أيضا لرجل من اليمن ما كان أجهل قومك حين ملّكوا عليهم امرأة ! فقال : أجهل من قومى قومك الذين قالوا حين دعاهم رسول الله ﷺ : ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢] ولم يقولوا : اللهم إن كان هذا الحق من عندك فاهدنا إليه .

[١٢] وقال يوما لجارية بن قدامة : ما كان أهونكَ على قومك إذ سموك جارية ! فقال : ما كان أهونك على قومك إذ سموك معاوية ! وهى الأنثى من الكلاب . قال : اسكت لا أمَّ لك[٢] . قال : لى أم ولدتنى . أمَا والله إن القلوب التى أبغضناك بها لبين جوانحنا والسيوف التى قاتلناك بها لفى أيدينا ، وإنك لم تهلكنا قسوة ، ولم تملكنا عنوة ، ولكنك أعطيتنا عهدا وميثاقا ، وأعطيناك سمعا وطاعة ، فإن وفيت لنا وفّينا لك ، وإن نزعت إلى غير ذلك فإنا تركنا وراءنا رجالا شدادا ، وأسنة حدادا . فقال معاوية : لا أكثر الله فى الناس مثلَكَ يا جارية ! فقال له : قُلْ معروفا ، فإن شر الدعاء مُحيط بأهله .

[١٣] وخطب معاوية يوما فقال : إن الله - تعالى - يقول : ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:٢١] فعلام تلومونى إذا قصرت فى عطاياكم ؟ فقال له الأحنف : وإنا والله لا نلومك على ما فى خزائن الله ، ولكن على ما أنزله الله لنا من خزائنه ، فجعلته فى خزائنك ، وحلت بيننا وبينه .

[١٤] وقيل : دخل مجنون الطاق يوما إلى الحمام وكان بغير مئزر[٣] فرآه أبو حنيفة رضي الله عنه وكان فى الحمام فغمض عينيه فقال له المجنون : متى أعماك الله ؟ قال : حين هتك سترك .

[١٥] ومن ذلك ما حكى أن الحجاج خرج يوما متنزهًا فلما فرغ من نزهته ، صرف عنه أصحابه ، وانفرد بنفسه ، فإذا هو بشيخ من بنى[٤] عجل ، فقال له : من أين الشيخ ؟ قال : من هذه القرية . قال : كيف تَرَوْنَ عُمالكم[٥] ؟ قال: شر عمال ، يظلمون الناس ، ويستحلون أموالهم . قال : فكيف قولك فى الحجاج ؟ قال : ذاك ما ولى العراق شر منه ، قَبّحه الله ، وقَبّح من استعمله . قال : أتعرف من أنا ؟ قال : لا . قال : أنا الحجاج . قال : جُعلتُ فِداك . أو تَعرفُ من أنا ؟ قال : لا . قال : أنا فلانُ ابنُ فلان مجنون بنى عجل ؛ أُصْرَع فى كل يوم مَرّتين . قال : فضحك الحجاج منه ، وأمر له بصلة .

---

(١) يركب جملاً أو غيره من دواب الانتقال، والمراد: لم يأتك زائر.

(٢) لا أم لك. يقال في الذم والسب، وقد تكون للمدح والتعجب كقولهم: لا أب لك.

(٣) مِئْزَر أو إزار: ما يستر النصف الأسفل.

(٤) بنو عجل: إحدى القبائل العربية التي كانت تقيم في اليمامة والبلاد الواقعة بين الكوفة والبصرة.

(٥) العمال: الولاة جمع عامل.

[١٦] وقال رجل لصاحب منزل : أصْلح خشبَ هذا السّقف فإنه يُفرقِع[(١)] . قال : لا تخف ، فإنه يُسَبح . قال : إنى أخاف أن تدركه رِقّة فيسجد .

[١٧] وقالت عجوز لزوجها: أما تستحى أن تزنى ولك حلال طيب ؟ قال : أما حلال فنعم ، وأمّا طيب فلا .

[١٨] وقال ملك لوزيره ما خيرُ ما يُرزَقُه العبدُ ! قال : عقل يعيش به . قال : فإن عُدِمَه ؟ قال : أدَبٌ يتحلى به . قال : فإن عُدمه . قال : مال يستره . قال : فإن عُدمه . قال: فصاعقة تحرقه ، وتُريح منه العباد والبلاد .

[١٩] وتنبأ رجل[(٢)] فى زمن المنصور ، فقال له المنصور : أنت نبى سفلة. فقال : جعلت فداك، كل بنى يبعث إلى شكله .

[٢٠] ومن الأجوبة المسكتة المستحسنة : ما ذكر أن إبراهيم مغنى الرشيد غنى يوما بين يديه . فقال له : أحسنت أحسن الله إليك ، فقال له : يا أمير المؤمنين إنما يحسن الله إلىّ بك فأمر له بمائة ألف درهم .

[٢١] وقال رجل لبعض العلوية : أنت بُستان ، فقال العلوى : وأنت النهر الذى يسقى منه البستان .

[٢٢] وذبحت عائشة رضي الله عنها شاة وتصدّقت بها ، وأفضلت منها كتفا ، فقال لها النبى ﷺ: « ما عندك منها ؟ » فقالت : ما بقى منها إلا كتف ، فقال : « كُلُّها قَدْ بَقِىَ إلَّا كَتِفها »[(٣)] .

[٢٣] وقال : عبد الله بن يحيى لأبى العيناء : كيف الحال ؟ قال : أنت الحال فانظر كيف أنت لنا ؟ فأمر له بمال جزيل ، وأحسن صلته .

[٢٤] وكان عمرو بن سعد بن سالم فى حرس المأمون ليلة ، فخرج المأمون يتفقد الحرس ، فقال لعمرو : ومن أنت ؟ قال : عمرو ، عمرك الله ابن سعد ، أسعدك الله ، ابن سالم سلمك الله . قال : أنت تكلؤنا الليلة . قال : الله يكلؤك يا أمير المؤمنين ، وهو خير حافظا ، وهو أرحم الراحمين ، فقال المأمون :

إنَّ أخـا الـهَـيْـجَـاء مَـنْ يَـسْـعَـى مَـعَـكَ ... ومـن يَـضُـر نـفـسَـه لـيـنـفـعَـك

ومـن إذا ريـبُ زمـان صـدعَـك ... شـتـت فـيـك شـمـلـه لـيـجـمـعَـك[(٤)]

ادفعوا إليه أربعة آلاف دينار . قال عمرو : وددت لو أن الأبيات طالت .

[٢٥] وقال المعتصم للفتح بن خاقان وهو صبى صغير : أرأيت يا فتحُ أحسنَ من هذا الفص ؟ لفص كان فى يده قال : نعم يا أمير المؤمنين ، اليد التى هو فيها أحسن منه ، فأعجبه جوابه وأمر له بصلة وكسوة .

[٢٦] وقيل: إن رجلا سأل العباس رضي الله عنه أأنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال : رسول الله ﷺ أكبر ، وأنا وُلِدْتُ قبله .

[٢٧] وقال معاوية لسعيد بن مُرة الكندى : أأنت سعيد ؟ قال : أمير المؤمنين السعيد ، وأنا ابن مرة .

[٢٨] وقال المأمون للسيد بن أنس: أأنت السيد ؟ قال : أمير المؤمنين السيد وأنا ابن أنس .

[٢٩] وقال الحجاج للمهلّب وهو يماشيه : أأنا أطول أم أنت ؟ قال : الأمير أطول ، وأنا أبسط قامة أراد الطول ، وهو الفضل . والأجوبة بهذا المعنى كثيرة لو تتبعتها لعجزت عنها ولكنى اقتصرت على هذا وأوجزت وفيما ذكرته من ذلك كفاية ، وأسأل الله - تعالى - العون والعناية .

---

(١) يفرقع - بالفاء - لا - بالقاف - يُسمع له صوت ودويّ، وفرقعة.

(٢) تنبأ: ادعى النبوة. والسِّفْلة: أراذل الناس وغوغاؤهم وكذلك السَّفَلَة.

(٣) حديث: «وذبحت عائشة.. إلخ» أخرجه الترمذي [٢٥٧٨]، وأحمد [٦/ ٥٠].

(٤) تكلؤنا: تحفظنا - والهيجا - ممدودة، ومقصورة - الحرب، وريب الزمان: مصائبه وحوادثه.

الباب التاسع

فى ذكر الخُطَب والخُطباء والشعر والشعراء وسرقاتهم ، وكَبَوات الجياد ، وهفوات الأمجاد

قيل : خطب المأمون فقال : اتقوا الله عبادَ الله وأنتم فى مَهَل ، بادروا الأجَل ، ولا يغرنّكم الأمَل ، فكأنى بالموت قد نزل ، فشغَلَتِ المرءَ شواغلُه ، وتولّت عنه فواصله ، وهُيئت أكفانه ، وبكاه جيرانه ، وصار إلى التراب الخالى ، بجسده البالى ، فهو فى التراب عفير ، وإلى ما قدم فقير .

وقال الشعبى [١] : ما سمعت أحدًا يخطب إلا تمنيت أن يسكت مخافة أن يخطئ ما خلا زيادًا [٢] فإنه لا يزداد إكْثارا إلا ازداد إحسانا . وخطب علىّ ﷺ فقال فى خطبته : عبادَ الله ، الموت الموتَ ، ليس منه فوت ، إن أقمتم أخذكم ، وإن فررتم منه أدرككم ، الموت معقود بنواصيكم ، فالنّجا النّجا ، والوَحَى الوحى [٣] ، فإن وراءكم طالبا حثيثًا وهو القبر ، ألا وإن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة [٤] من حفر النار . ألا وإنه يتكلم فى كل يوم ثلاث كلمات : فيقول : أنا بيت الظلمة . أنا بيت الوحشة . أنا بيت الديدان [٥] ! ألا وإن وراء ذلك اليوم يومًا أشد منه يوما يشيب فيه الصغير ، ويسكر فيه الكبير ، و﴿ يَوْمَ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ٢] [٦] ألا وإنّ وراء ذلك اليوم يوما أشد منه ، فيه نار تتسعر حرّها شديد ، وقعرها بعيد ، وحُلِيّها حديد ، وماؤها صديد ، ليس لله فيها رحمة ! قال: فبكى المسلمون بكاء شديدا ، ثم قال : ألا وإن وراء ذلك اليوم جنة عرضها السموات والأرض أُعدت للمتقين [٧] ، أدخلنا الله وإياكم دار النعيم ، وأجارنا وإياكم من العذاب الأليم .

وخطب الحجاج بن يوسف فقال فى بعض خطبه : إن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن ﷺ خطب بالبصرة فقال : أيها الناس، كل كلام فى غير ذكر فهو لغو ، وكل صمت فى غير فكر فهو سهو ، والدنيا حلم ، والآخرة يقظة ، والموت متوسط بينهما ، ونحن فى أضغاث أحلام [٨] .

قيل : اجتمع الناس عند معاوية ، وقام الخطباء لبيعة يزيد ، وأظهر قوم الكراهة فقام رجل من الخطباء من عُذْرة [٩] يقال له : يزيد بن المقنع ، فاخترط من سيفه [١٠] شبرا ، ثم قال : أمير المؤمنين هذا ، وأشار إلى معاوية . ثم قال : فإن يهلك فهذا وأشار إلى يزيد ، ثم قال : فمن أبى فهذا ، وأشار إلى سيفه ، فقال له معاوية : أنت سيد الخطباء .

فصل فى ذكر الشعر والشعراء وسرقاتهم

قيل : ما استُدْعى شاردُ الشّعر بمثل الماء الجارى ، والشرف العالى ، والمكان الخضِر الخالى [١١] .

---

(١) الشعبي: علامة عصره في الكوفة، وفضله لا ينكر على الأدب والأدباء، تتلمذ عليه الإمام أبو حنيفة النعمان، وكان موضع شورى الخلفاء.

(٢) ما خلا زيادًا: هو ابن أبيه، وكان واحدًا من دهاة العرب الأربعة. انظر إلى كتابنا «دهاة العرب» مكتبة ابن سينا.

(٣) الوَحَى الوَحَى: البِدار البدار، ويقال أيضًا: الوحاك الوحاك [والكاف للخطاب].

(٤) كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي والطبراني عن أبي سعيد «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» وقال العجلوني: ورواه الطبراني أيضًا عن أبي هريرة، وكلاهما به مرفوعًا بسند ضعيف.

(٥) يريد: الديدان التي تسري في أجسام الموتى.

(٦) وتذهل: تنسى وتترك. وتضع: تسقط.

(٧) اقتباس من الآية الكريمة ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

(٨) أضغاث أحلام: ما كان منها ملتبسًا مضطربًا يصعب تأويله. والضِّغث أصله الحُزمة من الحشيش المختلط بعضه ببعض.

(٩) عذرة: قبيلة عربية عرف محبوها بالحب العفيف العذري، وإليها ينسب حبهم!

(١٠) اخترط السيف: استله من غمده. والمراد: استرّ منه جزءًا.

(١١) وقد قال قائلهم: ثلاثة تجلو عن القلب الحزن: الماء والخضرة والوجه الحسن.

وقيل : أُمسِكَ على النابغة[١] الجعدى أربعين يوما فلم ينطق بالشعر ، ثم إن بنى جعدة غزَوْا فظفروا فاستخفَّه الطرَب والفرَح ، فَرامَ الشعر ، فذَلّ له ما استصعب عليه ؛ فقال له قومه : والله لنحن بإطلاق لسان شاعرنا أسرّ منا بالظفر بعدوّنا . وقال أبو نواس : ما قلت الشعر حتى رويتُ لستين امرأة منهن الخنساء ، وليلى ، فما ظنك بالرجال ؟ ! وقال الخليل : الشعراء أمراء الكلام ، يتصرفون فيه كيف شاءوا ، جائز لهم فيه ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده ، ومن تسهيل اللفظ وتعقيده .

وقيل : وفد زياد بن عبد الله على معاوية . فقال له : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم . قال أقرضت القريض[٢] ؟ قال : نعم . قال : أرويت الشعر ؟ قال : لا . فكتب إلى عبد الله : أبا زياد بارك الله لك فى ابنك ، فأرُوه الشعرَ ، فقد وجدته كاملا ، وإنى سمعت عمر بن الخطاب ﷺ يقول : أرووا الشعر فإنه يدل على محاسن الأخلاق ، ويقى مساويها ، وتعلموا الأنساب ، فرُبَّ رحم مجهولة قد وصلت بعرفان النسب ، وتعلموا من النجوم ما يدلكم على سُبُلِكم فى البرّ والبحر ، ولقد هممت بالهرب يوم صِفّين فما ثبتنى إلا قولُ القائل :

أَقُولُ لَهَا : إذا جَشَأَتْ وجَاشَتْ ... مَكَانَكِ تُحْمَدِى أَوْ تَسْتَرِيحِى[٣]

وقيل : لم يُر قطّ أعلم بالشعر والشعراء من خَلَفٍ الأحمر[٤] ، كان يعمل الشعر على ألسنة الفحول من القدماء فلا يتميز عن مقولهم[٥] ، ثم تنسك فكان يختم القرآن كل يوم وليلة ، وبذل له بعض الملوك مالا جزيلا على أن يتكلم فى بيت من الشعر شكوا فيه فأبى . وكان الحسن بن علىّ ﷺ يُعطى الشعراء فقيل له فى ذلك ؛ فقال : خير مالك ما وقيت به عرضك . قال أبو الزناد : ما رأيت أروى للشعر من عروة ، قلت له : ما أَرْوَاك يا أبا عبد الله ! فقال : وما روايتى مع رواية عائشة رضي الله عنها ما كان ينزل بها شىء إلا أنشدت فيه شعرا . وكان رسول الله ﷺ يتمثل بقول القائل : * كفى الإسلام والشيبُ للمرء ناهيا * ولم ينطق به موزونا فقال أبو بكر الصديق ﷺ أشهد أنك رسول الله حقا ، وتلا قوله - تعالى - : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس:٦٩]. ولنذكر نبذة من سرقات الشعراء وسَقَطَاتهم . فمن ذلك قول قيس بن الخطيم وهو شاعر الأوس وشجاعها :

ومَا المَالُ والأخْلاقُ إلا مَعَارَةٌ ... فما اسْطَعْتَ من معروفها فتزوّد[٦]

وكيف يخفى ما أخذه مع اشتهار قصيدة طرفة بن العبد وهى معلقة على الكعبة[٧] يقول فيها :

لَعَمْرُكَ مَا الأيَّامُ إلا مَعَارَةٌ ... فما اسْطَعْتَ من مَعْرُوفها فتزوَّد

ومن ذلك قول عبدة بن الطبيب :

فما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنَّه بُنْيَانُ قومٍ تَهَدَّما

أخذه من قول امرئ القيس :

فلو أنَّها نفسٌ تموتُ شَرِيْتُها ... ولكنها نفس تَسَاقط أنْفُسَا

ويقال : من سرق شيئا واسترقه فقد استحقه ، وهو أن يسرق الشاعر المعنى دون اللفظ ؛ فمن السرقة الفاحشة قول كثير فى عبد الملك بن مَرْوان :

إذا ما أراد الغَزْوَ لم يَثْنِ هَمَّه ... حَصَانٌ عليها عقدُ دُرٍّ يزينها[٨]

---

(١) النابغة الجعدي [ت٦٨٤م]، شاعر مخضرم من الكبار. كان في الجاهلية حنيفيًا، وكان سيد قومه، شهد فتح فارس، وحارب مع علي في صفين. مات معمرًا بأصبهان.

(٢) أقرضتَ القريضَ: قرض القريض، أي قال الشّعر، أو نظمَهُ.

(٣) جشأت: جاشت من الحزن أو الفزع. مَكانك: اسم فعل أمر: معناه: الْزَمي مكانك واثبتي، فإما نصر وإما شهادة.

(٤) خلف الأحمر: من رواة الشعر ونقاده، وأحد الشعراء المحسنين، روى عنه الأصمعي القصائد القديمة.

(٥) أي فكأنما شعره هو شعرهم في الجزالة والقوة مما يدل على براعته. (٦) اسطعت: أصله استطعت، واستطاع الشيء قدر عليه وأطاق.

(٧) قيل في تسمية المعلقات كلام كثير، والذي نميل إليه أنها كانت جديرة بأن تعلق بالذهن، أو لأنها شبه عقود الدر التي تعلق على صدور الحسناوات، وطرَفَة: أحد أصحاب المعلقات.

(٨) الحَصان: المرأة العفيفة والزوجة.

أخذه من قول الحطيئة ، ولم يغير سوى الرويّ[١] :

إذا ما أراد الغزو لم يثنِ همّه ... حصانٌ عليها لؤلؤ وشُنُوفُ[٢]

وجرير على سَعة تبحُّره وقُدرته على غُررَ الشّعر[٣] وابتكار الكلام نقل قوله :

فلو كان الخلودُ بفضل قومٍ ... على قوم لكان لنا الخلودُ

من قول زهير ، وهو شعر مشهور يحفظه الصبيان ، وترويه النِّسوان وهو :

فلو كانَ حمدٌ يخلّدُ المرءَ لم يمت ... ولكنّ حمدَ المرءِ غيرُ مُخلَّد

وقد قال الشَّمّاخ :

وأمرٍ تُرَجّى النفسُ ليس بنافعٍ ... وآخر تخشى ضَيْره لا يَضِيرُها

وهو مأخوذ من قول الآخر :

تُرَجّى النفوسُ الشيء لا تستطيعُه ... وتَخشى من الأشياء ما لا يَضِيرُها

وأبو تمام مَع قوّته وقدرته على الكلام يقول :

وأحْسَنُ من نَوْرٍ تُفَتحه الصَّبا ... بياضُ العطايا في سوادِ المطالبِ

أخذه من قول الأخطل :

رأيتُ بياضًا في سوادٍ كأنّه ... بياض العطايا في سواد المطالب !

ومن سقطات الشعراء ما قيل : إن أبا العتاهية كان مع تقدّمه في الشعر كثير السَّقَط ؛ روى أنه لقي محمد بن مَنادر بمكة فمازحه وضاحكه ، ثم إنه دخل على الرشيد فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا شاعر البصرة ، يقول قصيدة في كل سنة ، وأنا أقول في كل سنة مائتي قصيدة فأدخله الرشيد إليه ، وقال : ما هذا الذي يقول أبو العتاهية ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، لو كنت أقول كما يقول :

ألا يا عتبةُ الساعة ... أموت الساعة الساعة

لقلت كثيرا ولكني أقول :

ابن عبد الحميد يوم تُوفّى ... هَدَّ ركنًا ما كان بالمهدودِ

مادري نعشُه ولا حاملوه ... ما على النعشِ من عَفافٍ وجُودِ

فأعجبَ الرشيدَ قولُه ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، فكاد أبو العتاهية يموت غما وأسفا . وكان بشار بن برد يسمونه أبا المُحدثين ويسلمون إليه في الفضيلة والسبق ، وبعض أهل اللغة يستشهد بشعره ، ومع ذلك قال :

إنما عَظْمُ سُلَيْمى حِبّتي ... قَصَبُ السّكر لا عَظْم الجمل

وإذا أدنيتَ منها بَصَلًا ... غلبَ المسكُ على ريح البَصَل

هذا مع قوله :

إذا قامت لِمشْيتها تَثَنّتْ ... كأنّ عِظامَها من خَيْزُرَان

ومع قوله في الفخر :

كأنّ مُثارَ النقع فوقَ رءوسنا ... وأسيافنا ليلٌ تَهاوَى كواكبُه

ومع قوله أيضا :

---

(١) الرّويّ : الحرف الذي بنيت عليه القصيدة، وإليه تنسب؛ فقصيدة الحُطَيئة هذه فائيّة، وقصيدة كثير نونية.

(٢) الشنوف : جمع شنف وهو القُرط.

(٣) غرر الشعر : أعلاه. والغرر جمع غرة وغرة الشيء : أعلاه.

إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذى [١] ظمئت وأيّ الناس تصفو مشاربه ؟ !

وأبو الطيب المتنبى فى فضله المشهور ، وأخذِه بزمام الكلام ، وقوته على رقائق المعانى ، وعلى ما فى شعره من الحكم والأمثال السائرة يقول :

وضاقت الأرضُ حتى صار هاربُهم إذا رأى غيرَ شيءٍ ظنّه رجُلا

وغير شيء : معناه المعدوم ، والمعدوم لا يُرى فهذا سقط فاحش . ومما يستهجن من قوله وتكاد أن تمجه الأسماع قوله :

تقلقلتْ [٢] بالهمّ الذى قلقل الحشا قلاقِل عيسٍ كُلُّهنّ قلاقل

وقوله وقد جمع بين فج اللفظ وبرودة المعنى :

إن كان مثلك كان أو هو كائن فبرئتُ حينئذ من الإسلام [٣]

ومن معانيه المسروقة قوله :

ونهبُ نفوسِ أهل النّهب أَوْلَى بأهل المجد من نَهبِ القُماشِ

أخذه من قول أبى تمام :

إنّ الأسودَ أسود الغاب همتُها يومَ الكريهة [٤] فى المسلوب لا السَّلَب

قال أبو عبد الله الزبيرى : اجتمع راوية جرير ، وراوية كثير ، ورواية جميل وراوية الأحوص ، وراوية نُصَيْب ، فافتخر كل منهم ، وقال : صاحبى أشعر ، فحكموا السيدة سُكَيْنة بنتَ الحسين بينهم لعقلها ، وتبصرها بالشعر ، فخرجوا حتى استأذنوا عليها ، وذكروا لها أمرهم ، فقالت لراوية جرير : أليس صاحبك الذى يقول :

طرقتْك صائدةُ القلوبِ وليس ذا وقتَ الزّيارة فارجعِى بسَلام

وأىّ ساعة أحلى من الزيارة بالطروق ؟ ! قبح الله صاحبَك ، وقبح شعره فهلّا قال : فادخلى بسلام ! ثم قالت لراوية نُصَيبٌ أليس صاحبك الذى يقول :

أهيم بدعدٍ ما حييتُ فإن أمت فواحزَنى مَن ذَا يَهيمُ بها بعدى ؟ !

فما له همة إلا من يتعشقها بعده قبحه الله ، وقبح شعره ! هلا قال :

أهيمُ بدعْدٍ ما حييتُ فإن أمت فلا صلحت دَعد لذى خَلّةٍ بعدى !

ثم قالت لراوية الأخوص أليس صاحبك الذى يقول :

من عاشقين تواعدا وتراسلا ليلا إذا نجم الثريا حَلّقا

باتا بأنعَم ليلةٍ وألذّها حتى إذا وضَح الصباح تَفرقا

قبحه الله ، وقبح شعره ، هلا قال : تعانقَا فلم تُثْنِ على واحد منهم ، وأحجم رُواتُهم عن جوابها رضي الله عنهم .

ثم قالت لرواية كثير: ليس صاحبُك الذى يقول:

يَقرّ بعينى ما يَقرّ بعينها وأحسنُ شيء ما به العينُ قرّت

وليس شيء أقرّ بعينها من النكاح، أيحب صاحبك أن يُنْكَح ؟! قبح الله صاحبك وقبح شعره ! ثم قالت لرواية جميل : أليس صاحبك الذى يقول :

---

[١] القذى: بفتح القاف والذال جمعُ القذاة وهو ما يتكون في العين من رمَص وغمَص ونحوهما. ويقال: هو يغصي على القذى: إذا سكت على الذُّل والضَّيْم ولم يشكُ.

[٢] تقلقل الشيء: تحرك.

[٣] البراءة من الإسلام لسبب أو لآخر مما لا يليق بالمسلم أن يجريها على لسانه، حتى ولا في المبالغات الشعرية!

[٤] الكريهة: الحرب، أو الشِّدّة في الحرب.

فلو تركتُ عقلى معى ما طلبتُها ولكنْ طلاخم بينها لما فات من عقلى

فما أراه هوى ، وإنما طلب عقله قبح الله صاحبك ، وقبح شعره !

وروى ابن الكلبى قال : لما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد على الخلفاء من قبله ، فأقاموا ببابه أياما لا يؤذن لهم فى الدخول حتى قدم عدى بن أرطاة عليه - وكان منه بمكانه - فتعرض له جرير وقال :

يأيُها الرجل المزجى مَطِيَّتهُ هذا زمانُك إنى قد خَلَا زمنى
أبلغ خليفتنا إن كنتَ لاقِيَه أنى لدى الباب كالمشدود فى قِرَن
لا تنس حاجَتنا لاقَيتَ مغفرة قد طال مُكْثِى عن أهلى وعن وَطَنى

فقال : نعم يا أبا عبد الله ، فلما دخل على عمر بن عبد العزيز ﷺ قال يا أمير المؤمنين ، الشعراء ببابك ، وألسنتهم مسمومة ، وسهامهم صائبة ، فقال عمر ﷺ : ما لى وللشعراء ! فقال : يا أمير المؤمنين ، إن رسول الله ﷺ مُدِحَ فأعطى ، وفيه أسوة لكل مسلم . قال : صدقت فمن بالباب منهم ؟ قال : ابن عمك عمر بن أبى ربيعة القرشى . قال : لا قرّب الله قرابتَه ، ولا حَيّا وجهه ! أليس هو القائل :

ألا ليتنى فى يوم تدنو منيتى شَمِمْتُ الذى ما بين عينيك والفم
وليتَ طهورى كان رِيقَك كلَّه وليتَ حَنُوطى من مُشَاشِك والدَمَ[1]
ويا ليت سلمى فى القبور ضجيعتى هنالك أو فى جنةٍ أو جهنم

فليته عدوّ الله تمنى لقاءَها فى الدنيا ، ثم يعمل عملاً صالحا ، والله لا يدخل علىّ أبدًا فمن بالباب غيره ممن ذكرت ؟ قال : جميل بن معمر العذرى ، قال : أليس هوالقائل :

ألا ليتنا نحيا جميعا فإن نمت يوافى لدَى الموتى ضريحى ضريحُها
فما أنا فى طول الحياة براغب إذا قيل قد سُوّى عليها صفيحُها
أظَل نهارى لا أراها وتلتقى مع الليل رُوحى فى المنام وروحُها

والله لا يدخل على أبدًا فمن بالباب غيره ممن ذكرت ؟ قال : كثير عزة : قال : أليس هو القائل :

رُهبانُ مدين والذين عهدتُهم يبكون من حَذَر العذاب قُعودا
لو يسمعونَ - كما سمعت - حديثها خروا لعزة رُكّعًا وسُجودا

أبعده الله ، فوالله لا يدخل علىّ أبدًا فمن بالباب غيره ممن ذكرت ؟ قال : الأحوص الأنصارى . قال : أبعده الله والله لا دخل على أبدًا ! أليس هو القائل : وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جاريته حتى هرب بها منه :

الله بينى وبين سَيّدها يَفِرّ منى بها وأتبعه

فمن بالباب غيره ممن ذكرت ؟ قال : همام بن غالب الفرزدق . قال : أليس هو القائل يفتخر بالزنا فى قوله :

هما دَلّيانى من ثمانين قامةً كما انقض بازٍ ليّن الريش كاسِرُه
فلما استوت رجلاى فى الأرض قالتا أحى فيرجى أم قتيل نحاذره ؟ !
فقلت ارفعوا الأحراس[2] لا يفطنوا بنا وولّيت فى أعقاب ليل أبادره

والله لا دخل علىّ أبدا ! فمن بالباب غيره ممن ذكرت ؟ قال : الأخطل التغلبىّ . قال : أليس هو القائل :

ولست بصائم رمضانَ عمرى ولست بآكلٍ لحمَ الأضاحى

---

(١) الحنوط : كل ما يُخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم من مِسْك وعنبر وكافور، وغير ذلك.

(٢) الأحراس : الأحرس من الأبنية الأصمّ، والقديم الذي أتى عليه الدَّهْر.

ولست بزاجر عيسا بكورا ... إلى أطلال مكة بالنجاح[١]
ولست بقائم كالعبد يدعو ... قُبَيْل الصُبْح : حَيَّ على الفلاح
ولكنى سأشربها شمولا ... وأسجد عند مُنْبَلَج الصباح[٢]

أبعده الله عَنِّى ، فوالله لا دخل علىّ أبدا ، ولا وطئ لى بِساطا وهو كافر ، فمن بالباب غيره من الشعراء ممن ذكرت ؟ قال : جرير ! قال : أليس هو القائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقتُ الزيارة فارجعى بسلام

فإن كان ولابد فهذا فأذَن له : قال عديّ بن أرطاة فخرجت فقلت : ادخل يا جرير ، فدخل وهو يقول :

إن الذى بعث النبى محمدا ... جعل الخلافة فى الإمام العادل
وسع الخلائق عدله ووقارهُ ... حتى ارعوَوْا وأقام مَيْل المائل
إنى لأرجو منه نفعا عاجلا ... والنفس مولعة بحبّ العاجل
والله أنزل فى الكتاب فريضةً ... لابن السبيل وللفقير العائل

فلما مثل بين يديه قال : يا جرير ، اتق الله ولا تقل إلا حقا فأنشأ يقول :

كم باليمامة من شعثاء أرمَلةٍ ... ومن يتيم ضعيف الصوت والنَّظَر
ممن بِعَذْلِك يُكْفى فقدَ والده ... كالفرخ فى العش لم يَدْرُج ولم يَطِر
أأذكر الجهد والبلوى التى نزلت ... أم قد كفانى ما بلغت من خبرى ؟ !
إنّا لنرجو إذا ما الغيثُ أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر
إنّ الخلافة جاءته على قدر ... كما أتى ربه موسى على قدر
هذى الأرامل قد قضيت حاجَتها ... فمن لحاجة هذا الأرمل الذكرِ ؟ !
الخير ما دمت حَيًّا لا يفارقنا ... بوركت يا عمرَ الخيراتِ من عُمَرِ

فقال : والله يا جرير ، لقد وافيت الأمر ، ولا أملك إلا ثلاثين دينارا ، فعشرة أخذها عبد الله ابنى ، وعشرة أخذتها أم عبد الله ، ثم قال لخادمه : ادفع إليه العشرة الثالثة ، فقال : والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال اكتسبته ، ثم خرج فقال له الشعراء: ما وراءك يا جرير ؟ ! فقال : ورائى ما يسوءكم ؛ خرجت من عند أمير يُعطى الفقراء ، ويمنع الشعراء ، وإننى عنه لراضٍ ثم أنشأ يقول :

رأيت رقى الجنّ لا يستفزه ... وقد كان شيطانى من الجن راقيا

ومما جاء فى كبوات الجياد وهفوات الأمجاد

قال الأحنف : الشريف من عُدّت سقطاته ، وقلّت عثراته ، وقالوا : كل صارم ينبو ، وكل جواد يكبو ، وكان الأحنف بن قيس حليما سيدا يُضرب به المثل ، وقد عُدّت له سقطة وهو أن عَمْرو بن الأهتم دس إليه رجلا يسفهه فقال : يا أبا بحر ، ما كان أبوك فى قومه ؟ قال : كان أوسطَهم ، وسيدَهم ، ولم يتخلف عنهم . فرجع إليه ثانيا ففطن أنه من قِبَل عمرو بن الأهتم فقال : ما كان أبوك ؟ قال : كانت له فتوة ومُروءَة ومكارم أخلاق ولم يكن أهتم سلَّاجا[٣] . قال سعيد بن المسيب ما فاتنى الأذان فى مسجد رسول الله ﷺ منذ أربعين سنة ، ثم قام يريد الصلاة ، فوجد الناس قد خرجوا من المسجد .

وقال قتادة : ما نسيت شيئًا قط ، ثم قال : يا غلام، ناولْنى نَعْلى . قال : النعل فى رجلك . وكان هشام بن عبد الملك من رجال بنى أمية ودُهاتهم ، وقد عدّت له سقطات منها : أن الحادى حدا به يوما فقال :

---

(١) العيسُ: الجمال.
(٢) الشَّمُول: الخمر، ومُنْبَلج الصباح: وقت إنارته وإسفاره.
(٣) السلَّاج: الذي يبتلع الطعام ويلتهمه دون مضغ.

إنّ عـلـيـك أيـهـا الـنّـجـى أكـرمَ مَـن يـمْـشـى بـه الـمَـطِـىَ [١]

فقال هشام : صدقت . وذكر عنده سليمان وأخوه فقال : والله لأشكونه يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبد الملك . ولما ولى الخلافة قال : الحمد لله الذى أنقذنى من النار بهذا المقام . قال النابغة : أى الرجال المهذب ؟ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب العاشر

التوكل على الله - تعالى - والرضا بما قسم ، والقناعة وذم الحرص والطمع ، وما أشبه ذلك ، وفيه فصول

الفصل الأول : فى التوكل على الله - تعالى

قال الله - تعالى - : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]. وقال - تعالى - : ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢]. وقال - تعالى - : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]. وعن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال : « **يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَقْوامٌ أَفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيْرِ** » [٢] . رواه مسلم . قيل : معناه متوكلون وقيل : قلوبهم رقيقة . وعن البراء بن عازب ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال : « **لَوْ توكَّلْتُم على الله حقَّ توكُّله لرزقَكُمْ كما يرزقُ الطَّيرَ تغدُو خِماصًا وتعودُ بطانًا** » [٣] . وأوحى الله - تعالى - إلى داود عليه السلام ، يا داود : من دعانى أجبته ، ومن استغاثنى أغثته ، ومن استنصرنى نصرته ، ومن توكل علىّ كفيته ، فأنا كافى المتوكلين ، وناصر المستنصرين ، وغياث المستغيثين ، ومجيب الداعين [٤] .

وحكى : أنه كان فى زمن هارون الرشيد قد حصل للناس غلاء سِعْرٍ وضيقُ حال ، حتى اشتد الكرب على الناس اشتدادا عظيمًا ، فأمر الخليفة هارون الرشيد الناسَ بكثرة الدعاء والبكاء ، وأمر بكسر آلات الطرب ، ففى بعض الأيام رؤى عبد يصفق ويرقص ويغنى ، فحُمِل إلى الخليفة هارون الرشيد ، فسأله عن فعله ذلك من دون الناس فقال : إن سيدى عنده خزانة بُرّ ، وأنا متوكل عليه أن يطعمنى منها فلهذا أنا إذًا لا أبالى ، فأنا أرقص ، وأفرح فعند ذلك قال الخليفة : إذا كان هذا قد توكل على مخلوق مثله ، فالتوكل على الله أولى ، فسلم للناس أحوالهم ، وأمرهم بالتوكل على الله - تعالى - .

وحكى : أن حاتما الأصم [٥] كان رجلًا كثير العيال ، وكان له أولاد ذكور وإناث ، ولم يكن يملك حبة واحدة ، وكان قدمه التوكل ، فجلس ذات ليلة مع أصحاب يتحدث معهم ، فتعرضوا لذكر الحج فداخل الشوق قلبه ، ثم دخل على أولاده فجلس معهم يحدثهم ، ثم قال لهم : لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربه فى هذا العام حاجًّا ، ويدعو

---

(١) يقال: بعير نجيٌّ: سريع.

(٢) حديث: «يدخل الجنة أقوام.. إلخ» رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري كتاب صفة الجنة. والمراد أنهم يشبهون الطير في الرقة والضعف، أو في الخوف والهيبة، والطير أكثر الحيوانات خوفًا.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند [١/ ٥٢]، قال الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله: إسناده صحيح [١/ ٢٠٦].

(٤) أوحى الله تعالى إلى داود.. إلخ. لم أقف عليه، وهو من الإسرائيليات.

(٥) حاتم الأصم: هو أبو عبد الرحمن حاتم المعروف بالأصم. زاهد من أهل بلخ، كان يقال له: لقمان هذه الأمة توفى سنة [٢٣٧هـ]، [حلية الأولياء ٨/ ٧٢].

لكم ماذا عليكم لو فعلتم ؟ ! فقالت زوجته ، وأولاده : أنت على هذه الحالة لا تملك شيئا ، ونحن على ما ترى من الفاقة ، فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة ؟ ! وكان له ابنة صغيرة فقالت : ماذا عليكم لو أذنتم له ، ولا يهمكم ذلك ، دعوه يذهب حيث شاء ، فإنه مُتَاول للرزق ، وليس برزاق ، فذكرتهم ذلك ، صدقَتْ والله هذه الصغيرة ! يا أبانا، انطلق حيث أحببت ، فقام من وقته وساعته ، وأحرم بالحج ؟ وخرج مسافرًا ، وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يذبحونهم حين أذنوا له بالحج ! وتأسف على فراقه أصحابُه وجيرانه ، فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة ، ويقولون : لو سكتِّ ما تكلمنا فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء ، وقالت : إلهى وسيدى ومولاى ، عودت القوم بفضلك ، وإنك لا تضيعهم ، فلا تخيبهم ، ولا تخجلنى معهم ، فبينما هم على هذه الحالة إذ خرج أمير البلدة متصيدا فانقطع عن عسكره وأصحابه فحصل له عطش شديد فاجتاز ببيت الرجل الصالح حاتم الأصم ، فاستسقى منهم ماء ، وقرع الباب ، فقالوا : من أنت ؟ قال : الأمير ببابكم يستسقيكم ، فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت : إلهى وسيدى سبحانك ، البارحة بِتْنا جياعا واليوم يقف الأمير على بابنا يستسقينا ! ثم إنها أخذت كوزا جديدا وملأته ماء ، وقالت ، للمتناول منها : اعذرونا فأخذ الأمير الكوز وشرب منه فاستطاب الشرب من ذلك الماء ، فقال هذه الدار لأمير ؟ فقالوا: لا والله ، بل لعبد من عباد الله الصالحين ، يعرف بحاتم الأصم ، فقال الأمير : لقد سمعت به ، فقال الوزير : يا سيدى ، لقد سمعت أنه البارحة أحرم بالحج ، وسافر ولم يخلف لعياله شيئا ، وأخبرت أنهم البارحة باتوا جياعا ، فقال الأمير : ونحن أيضا قد ثقلنا عليهم اليوم ، وليس من المروءة أن يثقل مثلنا على مثلهم ، ثم حَلّ الأمير مِنطقِته من وسطه ، ورمى بها فى الدار ، ثم قال لأصحابه : من أحبنى فليلق منطقته فحل جميع أصحابه مناطقهم ، ورموا بها إليهم ، ثم انصرفوا ، فقال الوزير : السلام عليكم أهلَ البيت لآتينكم الساعة بثمن هذه المناطق ، فلما نزل الأمير رجع إليهم الوزير ودفع إليهم ثمن المناطق مالا جزيلا ، واستردها منهم فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاء شديدا ، فقالوا لها : ما هذا البكاء ؟ ! إنما يجب أن تفرحى ؛ فإن الله قد وسع علينا ، فقالت : يا أُمّ، والله إنما بكائى كيف بتنا البارحة جياعا ، فنظر إلينا مخلوق نظرة واحدة فأغنانا بعد فقرنا ، فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفة عين ، اللهم انظر إلى أبينا ، ودبِّره بأحسن التدبير ، هذا ما كان من أمرهم .

وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم فإنه لما خرج مُحْرما ، ولحق بالقوم توجع أمير الركب ، فطلبوا له طبيبا فلم يجدوا ، فقال : هل من عبد صالح ؟ فدُلّ على حاتم ، فلما دخل عليه وكلّمه دعا له ، فعوفى الأمير من وقته ، فأمر له بما يركب ، وما يأكل ، وما يشرب ، فنام تلك الليلة مفكرا فى عياله ، فقيل له فى منامه : يا حاتم ، من أصلح معاملته معنا أصلحنا معاملتنا معه ! ثم أُخبر بما كان من أمر عياله ، فأكثر الثناء على الله – تعالى – ، فلما قضى حجه ، ورجع تلقته أولاده فعانق الصبية الصغيرة وبكى ! ثم قال : صغارُ قوم كبارُ قوم آخرين ، إن الله لا ينظر إلى أَكْبَرِكُم ، ولكن ينظر إلى أعرفكم به ، فعليكم بمعرفته والاتكال عليه ، فإنه من توكل على الله فهو حسبه .

ومن كلام الحكماء : من أيقن أن الرزق الذى قسم له لا يفوتُه تعجل الراحة ، ومن علم أن الذى قضى عليه لم يكن ليخطئه فقد استراح من الجزع ، ومن علم أن مولاه خير له من العباد فقصده كفاه همه ، وجمع شمله .

وفى الحديث عن ابن عباس ﷺ قال : كنت عند النبىّ ﷺ يوما فقال : « **يَا غُلَامُ، إِنِّى أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ تَنْفَعَكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ تَضُرَّكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الصُّحُفُ وَجَفَّتِ الأَقْلَامُ** »[1] . ورفع إلى الرشيد أن بدمشق رجلا من بنى أمية عظيم المال والجاه ، كثير الخيل والجند ، يُخشَى على المملكة منه ، وكان الرشيد يومئذ بالكوفة . قال منارة خادم الرشيد : فاستدعانى الرشيد ، وقال : اركب الساعة إلى دمشق ، وخذ معك مائة غلام ، وائتنى بفلان الأموى ، وهذا كتابى إلى العامل لا توصله له إلا إذا امتنع عليك ، فإذا أجاب فقيده ، وعُدْ به بعد أن تحصى جميع ما تراه ، وما يتكلم به ، واذكر لى حاله وما له وقد أجلتك لذهابك ستا ، ولمجيئك ستا ، ولإقامتك يوما أفهمت ؟ قلت : نعم . قال : فسِر على بركة الله ،

---

(١) حديث ابن عباس ، رواه أحمد فى المسند [رقم ٢٦٦٩م]، وإسناده صحيح كما قال الأستاذ أحمد شاكر .

فخرجت أطوى المنازل ليلا ونهارا ، لا أنزل إلا للصلاة أو لقضاء حاجة ، حتى وصلت ليلة السابع باب دمشق ، فلما فتح الباب دخلت قاصدا نحو دار الأموى ، فإذا هى دار عظيمة هائلة ، ونعمة طائلة ، وخدم وحشم وهيبة ظاهرة ، وحشمة وافرة ومصاطب متسعة ، وغلمان فيها جلوس فهجمت على الدار بغير إذن فبُهتوا ، وسألوا عنى فقيل لهم : إنّ هذا رسول أمير المؤمنين فلما سرت فى وسط الدار رأيت أقواما محتشمين ، فظننت أن المطلوب فيهم ، فسألت عنه فقيل لى : هو فى الحمام ، فأكرمونى ، وأجلسونى ، وأمروا بمن معى ، ومن صحبنى إلى مكان آخر ، وأنا أتفقّد الدار وأتأمل الأحوال حتى أقبل الرجل من الحمام ، ومعه جماعة كثيرة من كهول وشبان وحفدة وغلمان ، فسلم علىّ وسألنى عن أمير المؤمنين فأخبرته أنه بعافية ، فحمد الله - تعالى - ، ثم أحضرت له أطباق الفاكهة فقال : تقدم يا منارة كُلْ معنا ، فتأملت تأملا كثيرا إذ لم يُكَنِّنِى[1] ، فقلت: ما آكل ، فلم يعاودنى ، ورأيت ما لم أره إلا فى دار الخلافة ، ثم قدم الطعام فوالله ما رأيت أحسن ترتيبا ولا أعطر رائحة ، ولا أكثر آنية منه ، فقال : تقدم يا منارة فكُلْ ، قلت : ليست لى به حاجة فلم يعاودنى ، ونظرت إلى أصحابى فلم أجد أحدًا منهم عندى فحرت لكثرة حفدته ، وعدم من عندى فلما غسل يديه أحضر له البَخُور فتبخر ؛ ثم قام فصلى الظهر فأتمّ الركوع والسجود ، وأكثر من الركوع بعدها ، فلما فرغ استقبلنى وقال : ما أقدمك يا منارة ؟ فناولته كتاب أمير المؤمنين فقبله ، ووضعه على رأسه ، ثم فضه وقرأه فلما فرغ من قراءته استدعى جميع بنيه ، وخواص أصحابه وغلمانه ، وسائر عياله فضاقت الدار بهم على سعتها فطار عقلى ، وما شككت أنه يريد القبض علىّ ، فقال: الطلاق يلزمه ، والحج والعتق والصدقة ، وسائر أيمان البيعة لا يجتمع منكم اثنان فى مكان واحد حتى ينكشف أمره ، ثم أوصاهم على الحريم ، ثم استقبلنى وقدم رجليه وقال : هات يا منارة قيودك فدعوت الحداد فقيّده ، وحمل حتى وضع فى المحمل ، وركبت معه فى المحمل وسرنا فلما صرنا فى ظاهر دمشق ابتدأ يحدثنى بانبساط ، ويقول : هذه الضيعة لى تعمل فى كل سنة بكذا وكذا ، وهذا البستان لى وفيه من غرائب الأشجار وطيب الثمار كذا وكذا ، وهذه المزارع يحصل لى منها كل سنة كذا وكذا ، فقلت : يا هذا ألست تعلم أنّ أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أنفذنى خلفك ، وهو بالكوفة ينتظرك ، وأنت ذاهب إليه ما تدرى ما تقدم عليه ، وقد أخرجتك من منزلك ، ومن بين أهلك ونعمتك وحيدًا فريدًا ، وأنت تحدثنى حديثا غير مفيد ، ولا نافع لك ، ولا سألتك عنه ، وكان شغلك بنفسك أولى بك ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، لقد أخطأت فراستى فيك يا منارة ما ظننت أنك عند الخليفة بهذه المكانة ، إلا لوفور عقلك ، فإذا أنت جاهل عامى لا تصلح لمخاطبة الخلفاء ، أما خروجى على ما ذكرت فإنى على ثقة من ربى الذى بيده ناصيتى وناصية أمير المؤمنين ، فهو لا يضر ولا ينفع إلا بمشيئة الله - تعالى -، فإذا كان قد قضى علىّ بأمر فلا حيلة لى بدفعه ، ولا قدرة لى على منعه ، وإن لمْ يكن قد قدر الله على بشىء فلو اجتمع أمير المؤمنين وسائر من على وجه الأرض على أن يضرونى لم يستطيعوا ذلك إلا بإذن الله - تعالى -، وما لى ذنب فأخاف ، وإنما هذا واشٍ ، وشَى عند أمير المؤمنين ببهتان ، وأمير المؤمنين كامل العقل ، فإذا اطلع على براءتى فهو لا يستحل مضَرتى ، وعلىّ عهد الله لا كلمتك بعدها إلا جوابًا ، ثم أعرض عنى ، وأقبل على التلاوة ومازال كذلك حتى وافينا الكوفة بكرة اليوم الثالث عشر ، وإذا النجب[2] قد استقبلتنا من عند أمير المؤمنين تكشف عن أخبارنا ، فلما دخلتُ على الرشيد قبلت الأرض فقال : هات يا منارة أخبرنى من يوم خروجك عنى إلى يوم قدومك على ، فابتدأت أحدثه بأمورى كلها مفصلة . والغضب يظهر فى وجهه ، فلما انتهيت إلى جمعه لأولاده وغلمانه وخواصه وضيق الدار بهم ، وتفقدى لأصحابى ، فلم أجد منهم أحدًا اسود وجهه ، فلما ذكرت يمينه عليهم تلك الأيمان المغلظة تهلل وجهه ، فلما قلت : إنه قدم رجليه أسفر وجهه واستبشر ، فلما أخبرته بحديثى معه فى ضياعه وبساتينه ، وما قلت له ، وما قال لى ، قال : هذا رجل محسود على نعمته ، ومكذوبٌ عليه ، وقد أزعجناه ، وأرعبناه وشوّشنا عليه وعلى أولاده وأهله اخرج إليه وانزع قيوده ، وفكه وأدخله علىّ مكرّمًا ، ففعلت ، فلما دخل قبل الأرض ، فرحب به أمير المؤمنين وأجلسه ، واعتذر إليه ، فتكلم بكلام فصيح ، فقال له أمير المؤمنين : سل حوائجك فقال : سرعة رجوعى إلى بلدى ، وجمع شملى بأهلى وولدى . قال : هذا كائن فسل غيره ، قال : عدل

---

(١) أي لم ينادني بكنيتي قائلاً: يا أبا فلان كما هي عادة العرب في تكريم غيرهم.

(٢) النُّجب: جمع نجيب، وهو الفاضل بالنسبة لمثله، النفيس في نوعه، ويقال: سادة نُجُبُ.

أمير المؤمنين فى عماله ما أحوجنى إلى سؤال . قال : فخلع عليه أمير المؤمنين ثم قال : يا منارة ، اركب الساعة معه حتى ترده إلى المكان الذى أخذته منه ، قم فى حفظ الله ووداعه ورعايته ، ولا تقطع أخبارك عنا وحوائجك .

فانظر إلى حسن توكله على خالقه ، فإنه من توكل عليه كفاه ، ومن دعاه لباه ، ومن سأله أعطاه ما تمناه . وروى أنّ هذه الكلمات وجدها كعب الأحبار مكتوبة فى التوراة فكتبها وهى : يٰابن آدم لا تخافنّ من ذى سلطان ما دام سلطانى باقيا ، وسلطانى لا ينفد أبدًا . يٰابن آدم، لا تخش من ضيق الرزق مادامت خزائنى ملآنة وخزائنى لا تنفد أبدًا، يٰابن آدم، لا تأنس بغيرى وأنا لك فإن طلبتنى وجدتنى ، وإن أنست بغيرى فتك وفاتك الخير كله . يٰابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وقسمت رزقك فلا تتعب ، وفى أكثر منه فلا تطمع ، ومن أقل منه لا تجزع ، فإن أنت رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك وبدنك ، وكنت عندى محمودًا ، وإن لم ترض بما قسمته لك فوعزّتى وجلالى لأسلطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش فى البر ، ولا ينالك منها إلا ما قد قسمته لك ، وكنت عندى مذموما يٰابن آدم، خلقت السموات السبع والأرضين السبع ، ولم أعْى بخلقهنّ ، أيُعيينى رغيف أسوقه لك من غير تعب ؟! يٰابن آدم، أنا لك محب ، فبحقى عليك كن لى محبًّا . يٰابن آدم، لا تطالبنى برزق غد ، كما لا أطالبك بعمل غد ، فإنى لم أنس من عصانى ، فكيف من أطاعنى وأنا على كل شىء قدير وبكل شىء محيط . قال الشاعر :

وما ثَمّ إلا اللهُ فى كل حالة ... فلا تتكلْ يومًا على غير لُطْفِه
فكَمْ حالة تأتى ويكرهُها الفتى ... وخِيرَتُه فيها على رغم أنْفِه

ولمؤلفه - رحمه الله تعالى - :

توكَّلْ على الرحمن فى الأمْر كُلّه ... فما خاب حقًّا مَنْ عليه توكَّلا
وكُنْ واثقًا بالله واصبر لحُكْمِه ... تَفُزْ بالذى ترجوه منه تفضُّلا

الفصل الثانى :فى القناعة والرضا بما قسم الله

جاء فى تفسير قوله - تعالى - : ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] أن المراد بها القناعة[١] . وقال ﷺ : « القَناعَةُ مَالٌ لا يَنْفَدُ »[٢] . وقيل : يا رسول الله ما القناعة ؟ قال : « الإيَاسُ مِمَّا فِى أَيْدِى النَّاسِ ، وإيَّاكُمْ والطَّمَع ، فَإنَّهُ الفَقْرُ الحَاضِرُ »[٣] . وكان سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ من القناعة بالجانب الأوفر ، وإنه كان يشتهى الشىء فيدافعه سنة . قال الكندى : العبد حر ما قنع ، والحر عبد ما طمع . وقال بشر بن الحارث : خرج فتى فى طلب الرزق ، فبينما هو يمشى ، فأعيا فأوى إلى خراب يستريح فيه ، فبينما هو يدير بصره إذ وقعت عيناه على أسطر مكتوبة على حائط فتأملها فإذا هى :

إنّى رأيتُكَ قاعدًا مُستَقبلِى ... فعلمتُ أنّك للهمُوم قَرينُ
هَوّن عليك وكُنْ بربِّك واثقًا ... فأخو التوكُّل شأنُه التهوينُ
طَرحَ الأذى عَنْ نفسِه فى رِزْقِه ... لمَّا تيقَّن أنّه مَضمونُ

قال : فرجع الفتى إلى بيته ، ولزم التوكل وقال : اللهم أدبنا أنت . قال الجاحظ : إنما خالف الله - تعالى - بين طبائع الناس ، ليوفق بينهم فى مصالحهم ، ولولا ذلك لاختاروا كلهم الملك والسياسة والتجارة والفلاحة ، وفى ذلك بطلان المصالح ، وذهاب المعايش ، فكل صنف من الناس مزيّن لهم ما هم فيه ، فالحائك إذا رأى من صاحبه تقصيرًا

---

(١) نقله صاحب كشف الخفاء عن علي.

(٢) رواه الطبراني والعسكري عن جابر وزاد عليه: «وكنز لا يفنى» وإسناده كما قال الذهبي واهٍ، والمشهور: «القناعة كنز لا يفنى» وفي القناعة أحاديث كثيرة كما قال العجلوني.

(٣) حديث: وقيل يا رسول الله، ما القناعة . . إلخ . الشطر الثاني من الحديث أورده السيوطي في الدرر المنتثرة برقم [١٤١]، بلفظ «إياك والطمع» أخرجه الحاكم عن سعد بن أبي وقاص مرفوعًا، وزاد « . . فإنه الفقر الحاضر» وأخرجه العسكري في الأمثال كاملاً متضمنًا الشطرين بلفظ «أن رجلاً قال: يا رسول الله أوصني» قال: «عليك باليأس» . . إلخ، وأخرجه الحاكم في الرقاق وقال: صحيح الإسناد.

أو خلفًا قال : ويلك يا حجام ، والحجّام إذا رأى مثل ذلك من صاحبه قال : ويلك يا حائك فجعل الله - تعالى - الاختلاف سببًا للائتلاف ، فسبحانه مدبر قادر حكيم ، ألا ترى إلى البدوى فى بيت من قطعة خيش معمد بعظام الجيف ، كلبه معه فى بيته ، لباسه شملة من وبر أو شعر ، ودواؤه بعر الإبل ، وطيبه القَطران وبعر الظباء ، وحلى زوجته الودع ، وثماره[١] المقل وصيده اليربوع[٢] ، وهو فى مفازة[٣] لا يسمع فيها إلا صوت بومة ، وعواء ذئب ، وهو قانع بذلك مفتخر به .

وقال سعد بن أبى وقاص ﷺ : يا بنى ؛ إذا طلبت الغنى فاطلبه فى القناعة . فإنها مال لا ينفد ، وإياك والطمع ، فإنه فقر حاضر ، وعليك باليأس فإنك لم تيأس من شىء إلا أغناك الله عنه ، وأصاب داود الطائى فاقة كبيرة ، فجاءه حماد ابن أبى حنيفة ﷺ بأربعمائة درهم من تركة أبيه وقال : هى من مال رجل ما أقدمُ عليه أحدا فى زهده وورعه وطيب كسبه ، فقال : لو كنت أقبل من أحد شيئًا لقبلتها تعظيمًا للميت ، وإكرامًا للحى ، ولكنى أحب أن أعيش فى عز القناعة .

وقال عيسى عليه السلام : اتخذوا البيوت منازل ، والمساجد مساكن ، وكلوا من بقل البَريَّة ، واشربوا من الماء القُراح ، واخرجوا من الدنيا بسلام[٤] . وأنشد المبرد :

إنْ ضَنَّ زيدٌ بما فى بَطْنِ راحَتِه ... فالأرضُ واسعةٌ والرزقُ مبسوطُ
إنَّ الذى قدَّر الأشيا بحكْمَتِه ... لم يَنْسَنى قاعدا والرَّحلُ مَخطُوطُ

قال عبد الواحد بن زيد: ما أحسب أن شيئًا من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا ، ولا أعلم درجة أرفع من الرضا ، وهو رأس المحبة ، قيل له : متى يكون العبد راضيا عن ربه ، قال : إذا سرّته المصيبة كما تسرّه النعمة . وكان عبد الله بن مرزوق من ندماء المهدى ، فسكر يومًا ، ففاتته الصلاة ، فجاءته جارية له بجمرة ، فوضعتها على رجله ، فانتبه مذعورًا فقالت له : إذا لم تصبر على نار الدنيا فكيف تصبر على نار الآخرة ؟! فقام فصلّى الصلوات ، وتصدّق بما يملكه ، وذهب يبيع البقل ، فدخل عليه فضيل وابن عيينة ، فإذا تحت رأسه لبنة ، وما تحت جنبه شىء فقالا له : إنه لم يَدعْ أحد شيئًا لله إلا عوّضه الله منه بديلاً ، فما عوّضك عما تركت له ، قال : الرضا بما أنا فيه .

وقال الثورىّ: ما وضع أحد يده فى قصعة غيره إلا ذُل له . وقال الفضيل : من رضى بما قسم الله له بارك الله له فيه . وكان عيسى عليه السلام يقول : الشمس فى الشتاء جِلالِى[٥] ونور القمر سراجى ، وبقل البرية فاكهتى ، وشَعر الغنم لباسى ، أبيتُ حيث يدركنى الليل ، ليس لى ولد يموت ، ولا بيت يخرب أنا الذى كببت الدنيا على وجهها .

إنَّ القناعةَ مَنْ يَحْلُلْ بساحتِهَا ... لم يَلْقَ فى ظِلِّها هَمًّا يؤرّقُهُ

وقال عيسى عليه السلام : انظروا إلى الطير ، تغدو وتروح ، ليس معها شىء من أرزاقها ، لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها فإن زعمتم أنكم أكبر بطونًا من الطير ، فهذه الوحوش والبقر والحمر لا تحرث ، ولا تحصد ، والله يرزقها[٦] .

وقيل : وفد عروة بن أذينة على هشام بن عبد الملك فشكا إليه خَلته[٧] فقال له : ألست القائل :

لقد علمتُ وما الإسرافُ من خُلُقِى ... أنَّ الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسْعى إليه فيُعيينى تطلبه ... ولو قعدتُ أتانى ليس يُعيينى

وقد جئتَ من الحجاز إلى الشام فى طلب الرزق ؟! فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد وعظت فأبلغت ، وخرج فركب ناقته وكرَّ إلى الحجاز راجعًا ، فلما كان من الليل نام هشام على فراشه ، فذكر عروة ، فقال فى نفسه : رجل من

---

(١) المُقْل: حمل الدّوم، وهو يشبه النخل.
(٢) اليربوع: حيوان صغير على هيئة الجرذ الصغير، وله ذنب طويل ينتهي بخصلة من الشعر وهو قصير اليدين، طويل الرجلين.
(٣) المفازة: الصحراء المهلكة، وسميت مفازة تفاؤلاً.
(٤) قول عيسى عليه السلام : اتخذوا البيوت.. إلخ. أخرجه ابن عديّ في الكامل [١٨/٤].
(٥) الجلالُ من كل شيء غطاؤه.
(٦) أخرجه ابن المبارك في الزهد [٨٤٨].
(٧) خلّته: فقره وفاقته.

قريش . قال : حكمة ، ووفد علىّ فجبهته ورددته خائبا ، فلما أصبح وجه إليه بألفى دينار ، فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة ، وأعطاه المال ، فقال : أبلغ أمير المؤمنين منى السلام ، وقل له : كيف رأيت قولى ؟! سعيت فأكْدَيْت[١] فرجعت فأتانى رزقى فى منزلى ! ولما ولى عبد الله بن عامر العراق قصده صديقان له ، أنصارى ، وثقفى ، فلما سارا تخلف الأنصارى ، وقال : الذى أعطى ابن عامر العراق قادر على أن يعطينى ، فوفد الثقفى ، وقالا : أَحُوز الحظّين ؛ فلما دخل على عبد الله بن عامر قال له : ما فعل زميلك الأنصارى ؟ قال : رجع إلى أهله . فأمر للثقفى بأربعة آلاف دينار ، وبعث إلى الأنصارى بثمانية آلاف دينار ، فخرج الثقفى وهو يقول :

فوالله ما حِرْصُ الحريص بنافع ... فيُغْنى ولا زُهد القَنوع بضائر
خرجْنا جميعًا من مساقطِ رُوسِنا ... على ثقةٍ منا بجود ابن عامر[٢]
فلمَّا أنخنا الناجعات ببابه ... تخلف عنى اليَثْربىّ ابن جابر[٣]
وقال : ستكفينى عطيةُ قادر ... على ما يشاء اليومَ للخلق قاهر
فإن الذى أعطى العراقَ ابن عامر ... لربى الذى أرجو لسَدّ مَفَاقرى
فقلت : خلَالى وجهُه ولعلَّه ... سيجعل لى حظ الفتى المتزاور
فلما رآنى سال عنه صبابةً ... إليه كما حنت ظؤار الأباعر[٤]
فأُبْتُ وقد أيقنت أن ليس نافعًا ... ولا ضائرًا شىء خلاف المقادر

قيل : أوحى الله - تعالى - إلى موسى عليه السلام أتدرى لم رزقت الأحمق ؟ قال : لا يارب . قال : ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاحتيال[٥] . ولبعض العرب :

ولا تَجْزَعْ إذا أعسرتَ يومًا ... فقد أيسرتَ فى الزمن الطويلِ
ولا تظننَّ بربِّك ظنّ سوء ... فإن الله أَوْلى بالجميلِ
وإن العسر يتبعه يَسار ... وقول الله أصدقُ كلّ قيلِ
فلو أن العقول تسوق رِزقًا ... لكان المالُ عند ذوى العقولِ

وأوحى الله - تعالى - إلى يوسف عليه السلام انظر إلى الأرض ، فنظر إليها ، فانفجرت ، فرأى دودةً على صخرة ، ومعها الطعام ، فقال له : أترانى لم أغفل عنها ، وأغفل عنك وأنت نبى[٦] وابن نبى ؟! ودخل علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه المسجد ، وقال لرجل كان واقفًا على باب المسجد : أمْسِكْ علىّ بَغْلتى ، فأخذ الرجل لِجَامها ، ومضى وترك البغلة ، فخرج علىّ وفى يده درهمان ليكافىء بهما الرجل على إمساكه بغلته ، فوجد البغلة واقفة بغير لجام ، فركبها ومضى ودفع لغلامه الدرهمين يشترى بهما لجامًا ، فوجد الغلام اللجام فى السوق قد باعه السارق بدرهمين ، فقال علىّ رضي الله عنه : إن العبد ليحرم نفسَه الرزق الحلال بترك الصبر ، ولا يزداد على ما قدر له .

وقيل لراهب : من أين تأكل ؟ فأشار إلى فيه ، وقال : الذى خلق هذه الرحى يأتيها بالطحين . وقال سليم بن المهاجر الجيلى :

كسوتُ جميلَ الصبر وجهى فصانَه ... به الله عَن غِشْيان كلّ بخيلِ
فما عِشْتُ لم آت البخيلَ ولم أَقُم ... على بابه يومًا مقامَ ذليلِ
وإنَّ قليلا يَسْتُر الوجه أن يُرى ... إلى الناس مبذولًا لغير قليلِ

---

(١) فأكديت: أي فعدت خائب المسعى.
(٢) مساقط روسنا: أماكن ولادتنا، وخففت همزة رءوس فنطقت بدونها.
(٣) أنخنا: حططنا رحالنا ونزلنا. والناجعات: الإبل التي تحمل قُصّادَه، وطلابَ معروفه.
(٤) ظُؤار الأباعر: جمع بعير، ويضرب المثل بالإبل في الحنين، وظؤارُها: عطفها وحنينها على ولد غيرها.
(٥) أوحى الله إلى موسى عليه السلام أتدري إلخ. لم أقف عليه: وهو من الإسرائيليات.
(٦) أوحى الله إلى يوسف عليه السلام .. إلخ لم أقف عليه وهو من الإسرائيليات.

وصلى معروفٌ الكَرْخى خلفَ إمام ، فلما فَرَغ من صلاته ؛ قال الإمام لمعروف : من أين تأكل ؟ قال : اصبر حتى أُعيدَ صلاتى التى صليتُها خلفَك ! قال : ولم؟ قال : لأن من شك فى رزقه شك فى خالقه . وقال أبو حازم : ما لم يُكْتبْ لى لو ركبتُ الريحَ ما أدركتُه . وقال عمر بن أبى عمر اليونانى :

غلا السعرُ في بغدادَ من بعد رِخصه ... وإنّى فى الحالين بالله واثقُ
فلست أخافُ الضيقَ والله واسع ... غِناه ولا الحرمانُ والله رازقُ

وقال القهستانى :

غنًى بلا دنيا عن الخلق كلهم ... وإن الغنى الأعلى عن الشىء لا به

وقال منصور الفقيه :

الموت أسهلُ عندى ... بين القنا والأسنّه
والخيلُ تجرى سِراعًا ... مقطعات الأعِنّه
مِن أن يكونَ لِئَذلٍ ... على فضلٍ ومِنّة

وأنشد أعرابى :

أيا مالك لا تسأل الناسَ والْتَمس ... بَكفَّيكَ فَضلَ اللهِ فاللهُ أَوسعُ
ولو تسأل الناسَ الترابَ لأوشكوا ... إذا قيل هاتوا أن يَمَلّوا ويَمْنَعوا

وقال رجل لرسول الله ﷺ أوصنى، قال: «عَلَيكَ بِالْيَأسِ مِمَّا فِى أَيدِى النَّاسِ، وَإِيَّاكَ والطَّمَعَ، فَإِنَّهُ فَقْرٌ حَاضِرٌ»[1] .

وقيل : إذا وجدت الشىء فى السوق ، فلا تطلبه من صديقك .

وقيل : لأعرابية ، من أين معاشكم ؟ قالت : لو لم نعش إلا مِن حيث نعلم لم نعش .

وقال أعرابى : أحسن الأحوال حال يغبطك بها مَن دونَك ولا يحقّرْك معها مَن فوقَك .

وقال المعرى :

إذا كنت تبغى العيش فابغ توسُّطا ... فعند التناهى يَقْصُرُ المتطاولُ
توقى البدُور النقصَ وَهْىَ أهِلةٌ ... ويدركها النقصانُ وهِى كوامِلُ

وقال آخر :

اقْنَعْ بأيسرِ رزقٍ أنت نائلُه ... واحذرْ ولا تتعرضْ للإرادات
فما صفا البحر إلا وهو منتقصٌ ... ولا تَعَكَّر إلا فى الزيادات

وقال أعرابىّ : استظهرْ على الدهر بخفة الظهر[2] . قال هشام بن إبراهيم البصرى :

وكم مَلِكٍ جانبتُه عن كراهة ... لإغلاق باب أو لتشديد حاجبِ
ولى فى غنى نفسى مرادٌ ومَذْهَبُ ... إذا انصرفت عنى وجوه المذاهبِ

وقيل : ينبغى أن يكون المرء فى دنياه كالمدعوّ إلى الوليمة ، إن أتته صحفة تناولها ، وإن لم تأته لم يرصدها ولم يطلبها . وقال شقيق بن إبراهيم البلخى : قال لى إبراهيم بن أدهم - رحمه الله تعالى - أخبرنى عما أنت عليه . قلت : إن رُزقت أكلت وإن منعت صبرت . قال : هكذا تعمل كلابُ بَلخ ! فقلت : كيف تعمل أنت ؟ قال : إن رُزقت آثرت ، وإن مُنعت شكرت . وقال بعضهم :

هى القناعة فالزمها تعش مَلِك ... لو لم يكن منك إلا راحة البَدَنِ
وانظر لمن مَلَك الدّنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القُطْنِ والكَفَنِ

---

(١) سبق تخريجه برقم [٤]، في هذا الباب.

(٢) استظهر: استعن ، والمراد بخفة الظهر: التخفف والاكتفاء بما يسد الرمق.

وقال آخر :

وإن القناعة كنز الغنى ... فصرت بأذيالها ممتسك
فلا ذا يرانى على بابه ... ولا ذا يرانى له مُنْهَمِك
فصرت غنيا بلا دِرهَم ... أمرّ على الناس شبه الملك

جاء فتح الموصلى إلى أهله بعد العتمة ، فلم يجد عندهم شيئًا للعَشاء ، ووجدهم بغير سراج ، فجلس ليلته يبكى من الفرح ، ويقول : بأىّ يدٍ كانت منى تركتَ مِثلى على هذه الحالة ؟! والله - تعالى - أعلم .

الفصل الثالث : فى ذم الحرص والطمع وطول الأمل

قال الله - تعالى - : ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:١-٢] . وروى أن النبى ﷺ قرأ : ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ قال : « **يقولُ ابنُ آدمَ مالى مالى وهلْ لكَ مِن مالِكَ إلّا ما أكلْتَ فأفنيتَ ، ولَبِسْتَ فأبْليتَ ، وتصدّقْتَ فأمْضيتَ** »[(١)] . وروى عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال : « **يا عائشة ، إن أردت اللُّحوق بى فليكفك من الدنيا كزاد الراكب ، وإياك ومجالسة الأغنياء ، ولا تستخلقى ثوبًا حتى ترقّعيه** »[(٢)] . وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ، وهلاك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل** »[(٣)] .

وقيل : الحرص ينقص من قدر الإنسان ولا يزيد فى رزقه وقيل لحكيم : ما بال الشيخ أحرص على الدنيا من الشاب ؟ قال : لأنه ذاق من طعم الدنيا ما لم يذقه الشاب ، وما أحسن ما قال بعضهم :

إذا طاوعت حرصك كنت عبدًا ... لكل دنيئة تدعى إليها

وقال آخر وأجاد :

قد شاب رأسى ، ورأس الدهر لم يشب ... إن الحريصَ على الدنيا لفى تعب

وقيل للإسكندر : ما سرورُ الدنيا ؟ قال : الرضا بما رزقت منها . قيل : فما غمها ؟ قال : الحرص عليها . وقال الحسن : لو رأيتَ الأجل ومرورَه لنسيت الأمل وغرورَه . وقال أبو سعيد الخدرىّ رضى الله عنه اشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة دينار إلى شهر ، فسمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا تعجبون من أسامة اشترى؟! إلى شهر! إن أسامة لطويل الأمل »[(٤)] . وقال ابن عباس رضى الله عنهما كان نبى الله ﷺ يخرُج فيبول ، ثم يمسح بالتراب فأقول : إن الماء منك قريب ، فيقول : « **ما يدرينى لعلى ما أبلغه** »[(٥)] . وعن أبى هريرة رضى الله عنه يرفعه : « **لَا يزالُ قلْبُ الشّيخِ شابًا فِى اثْنتينِ : حُبّ المالِ ، وطُولِ الأمَلِ** »[(٦)] . وقيل لمحمد بن واسع : كيف تجدك ؟ قال : قصير الأجل ، طويل الأمل ، مسىء العمل .

وقيل : من جرى فى عنان أمله ، كان عاثرًا بأجله ، لو ظهرت الآجال لافتضحت الآمال . ولقد أحسن أبو العباس أحمد بن مروان فى قوله :

وذى حرص تراه يلمّ وفرا ... لوارثه ويدفع عن حماه
ككلب الصّيد يُمسك وهو طاوٍ ... فريستَه ليأكلها سِوَاه

---

(١) حديث: «يقول ابن آدم . . إلخ» رواه مسلم كتاب الزهد والرقائق [٨/ ٢١١]، عن عبد الله بن الشخير.

(٢) حديث يا عائشة إلخ . . ضعيف جدًا: أخرجه الترمذي [١٧٨٠]، والحاكم [٤/ ٣١٢]، وفيه صالح بن حسان الأنصاري متروك الحديث.

(٣) حديث: «صلاح أول هذه الأمة . . إلخ». ضعيف: أخرجه الطبراني في الأوسط [٥٠٥١- مجمع البحرين]، وفي إسناده عصمة بن المتوكل ضعيف.

(٤) حديث: «ألا تعجبون . . إلخ». ضعيف: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» [٦/ ٩١]، والبيهقي في شعب الإيمان [١٠٥٦٤]، وفي إسناده أبو بكر بن أبي مريم، ضعيف الحديث.

(٥) حديث: «كان نبي الله . . إلخ». ضعيف: أخرجه الحارث في «مسنده» برقم [٩٥- بغية]، وانظر تخريجه هناك، بتحقيق الأخ/ مسعد السعدني، ط. مكتبة القرآن.

(٦) عن أبي هريرة: «لا يزال قلب الشيخ شابًا . . إلخ». أخرجه مسلم [١٠٤٦].

ولقد أحسن من قال فى الجناس الحقيقى :

إذا ما نازعتك النفس حرصًا ... فأمسكها عن الشهوات أمسك
ولا تحرص ليوم أنت فيه ... وعدّ فرزق يومك رزق أمسك [١]

ومن كلام الحكماء : إياكم وطولَ الأمل ، فإن من ألهاه أمله ، أخزاه عمله . قال عبد الصمد بن المعدل :

ولى أملٌ قطعتُ به الليالى ... أرانى قد فنيت به ودامًا

وقال الحسن : إياكم وهذه الأمانى ؛ فإنه لم يعط أحد بالأمنية خيرًا قط فى الدنيا ولا فى الآخرة قال قس بن ساعدة :

وما قد تولى فهو لا شك فائت ... فهل ينفعنى ليتنى ولعلنى

وقال آخر :

ولا تتعلل بالأمانى فإنها ... عطايا أحاديث النفوسِ الكواذب

وقال آخر وأجاد :

الله أصدق والآمال كاذبةٌ ... وجُلّ هذى المنى فى الصدر وَسواس

وقال آخر وأجاد :

شطّ المزارُ بسُعدىٰ وانتهى الأمل ... فلا خيالٌ ولا رسمٌ ولا طَللٌ [٢]
إلا رجاء فما ندرى أندركه ... أم يستمر فيأتى دونه الأجل ؟!

وقال أبو العتاهية :

لقد لَعِبْتُ وجَد الموت فى طلبى ... وإنّ فى الموت لى شغلا عن اللعب
لو شمرت فكرتى فيما خلقتُ له ... ما اشتدّ حرصى على الدنيا ولا طلبى

وله أيضًا :

تعالى اللهُ يا سلمَ بن عمرو ... أذلّ الحرصُ أعناق الرجال
هب الدنيا تُقاد إليك عفوا ... أليس مصير ذلك للزوال ؟!

وقد ضمنت البيت[٣] الأخير فقلت :

أيا من عاش فى الدنيا طويلا ... وأفنى العمر فى قيل وقال
وأتعب نفسه فيما سيفنى ... وجمع من حرام أو حلال
هب الدنيا تقاد إليك عفوا ... أليس مصير ذلك للزوال

ومما جاء فى الطمع وذمه

قال على بن أبى طالب ﷺ أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع ، وقال ﷺ : ما الخمر صِرْفا[٤] بأذهبَ لعقول الرجال من الطمع وفى الحديث : « **إيّاكَ والطَّمعَ، فإنه الفقرُ الحاضرُ** » [٥]. وقال فيلسوف : العبيد ثلاثة : عَبدُ رقٍّ ، وعبدُ شهوة ، وعبدُ طمع . وقال بعضهم : من أراد أن يعيش حرًّا أيام حياته فلا يسكن قلبه الطمع . وقيل : اجتمع كعب وعبد الله بن سلام ، فقال له كعب : يا بن سلام ، مَن أربابُ العلم ؟ قال : الذين يعملون به ، قال :

---

(١) الجناس الحقيقي بين «أمسِك» الأولى، و«أمسك» الثانية، فالأولى فعل أمر من الإمساك، والثانية اسم، وهو اليوم الذي قبل يومك، ولا يخفى أن الجناس الحقيقي اختلاف اللفظين في المعنى مع اتفاقهما في عدد الحروف وترتيبها ونطقها.

(٢) شط المزارُ: بعد ونأى.

(٣) ضمنت البيت الأخير، أي: جعلته ضمن شعر لي متفقًا مع شعري في الوزن والقافية حتى ليحسب أنه لي. وهو كالاقتباس من القرآن والحديث في النثر.

(٤) صِرْفًا: غير مشوبة بالماء أو غيره أي : خالصة.

(٥) تكرر هذا الحديث وسبق تخريجه.

فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن عَلِمُوه ؟ قال : الطمع ، وشِرّة النفس ، وطلب الحوائج إلى الناس . واجتمع الفضل وسفيان وابن كريمة اليربوعى فتواصَوْا ثم افترقوا وهم مجمعون على أن أفضل الأعمال : الحلم عند الغضب ، والصبر عند الطمع . وقيل : لما خلق الله آدم عليه السلام عجن بطينته ثلاثة أشياء : الحرص ، والطمع ، والحسد ، فهى تجرى فى أولاده إلى يوم القيامة ، فالعاقل يُخفيها ، والجاهل يبديها . ومعناه أنّ الله - تعالى - خلق شهوتها فيه ، قال إسماعيل بن قطرى القراطيسى :

حَسبى بِعِلْمى إن نفعْ ... ما الذل إلا فى الطمعْ
مَن رَاقبَ اللهَ نزَعْ ... عن سُوءِ ما كانَ صَنَعْ
ما طار طيرٌ وارتفَعْ ... إلا كما طار وقَعْ

وقال سابق البربرى :

يخادعُ ريبُ الدهر عن نفسه الفتى ... سِفاهًا وريبُ الدهر عنها يخادعه
ويطمَعُ فى سَوف ويَهلك دونها ... وكم من حريص أهلكته مطامِعُه

وقيل لأشعب [١] : ما بلغ من طمعك ؟ قال : أرى دُخَانَ جارىَ فأُفتّ خبزى . وقال أيضا : ما رأيت رجلين يتساران فى جنازة إلا قدّرت أنّ الميت أوصى لى بشىء من ماله ، وما زُفت عروس إلا كنست بيتى رجاء أن يغلطوا فيدخلوا بها إلىّ . قال بعضهم :

لا تغضبن على امرئ ... لك مانع ما فى يديه
واغضب على الطمع الذى ... استدعاك تطلب ما لديه

والله أعلم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الحادى عشر

فى المشورة والنصيحة ، والتجارب ، والنظر فى العواقب

قال الله - تعالى - لنبيه ﷺ : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩] . واختلف أهل التأويل [٢] فى أمره بالمشاورة مع ما أمده الله - تعالى - من التوفيق على ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه أمره بها فى الحرب ليستقر له الرأى الصحيح ، فيعمل عليه ، وهذا قول الحسن .

ثانيها : أنه أمره بالمشاورة لما علم فيها من الفضل . وهذا قول الضحّاك .

ثالثها : أنه أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون [٣] ، وإن كان فى غُنية عن مشورتهم . وهذا قول سفيان . وقال ابن عيينة كان رسول الله ﷺ إذا أراد أمرًا شاور فيه الرجال ، وكيف يحتاج إلى مشاورة المخلوقين من الخالقُ مُبدأ أمره ولكنه تعليم منه ليشاورَ الرجلُ الناسَ وإن كان عالما .

وقال ﷺ : « **ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ، ولا افتقر من اقتصد** » [٤] . وقال ﷺ « **من أعجب برأيه**

---

(١) أشعب : أمير الطفيليين في عصره .

(٢) التأويل : قد يراد به التفسير .

(٣) ليَسْتَنَّ المسلمون به : أي ليقتدوا ويعملوا بهذه السنة .

(٤) قوله : «ما خاب من استخار» إلخ قال في الكشف : رواه الطبراني في الصغير ، والقضاعي عن أنس رفعه ، وفي سنده ضعف . انظر صحيح الجامع [٥/ برقم ٥٠٥٨] .

ضل ، ومن استغنى بعقله زل »[١] . وكان يقال : ما استنبط الصواب بمثل المشاورة . وقال حكيم : المشورة موكل بها التوفيق لصواب الرأى . وقال الحسن : الناس ثلاثة : فرجل رجل ، ورجل نصف رجل ، ورجل لا رجل . فأما الرجُلُ الرجُلُ فذو الرأى والمشورة . وأما الرجل الذى هو نصف رجل فالذى له رأى ولا يشاور ، وأما الرجل الذى ليس برجل فالذى ليس له رأى ولا يشاور . وقال المنصور لولده : خذ عنى ثنتين : لا تقل فى غير تفكير ، ولا تعمل بغير تدبير . وقال الفضل : المشورة فيها بركة ، وإنى لأستشير حتى هذه الحبشية الأعجمية .

وقال أعرابى : لا مال أوفر من العقل ، ولا فقر أعظم من الجهل ، ولا ظهر أقوى من المشورة ، وقيل : من بدأ بالاستخارة ، وثنّى بالإشارة ، فحقيق أن لا يخيب رأيُه . وقيل : الرأى السديد أحمى من البطل الشديد .

قال أبو القاسم النَّهْرَوَندى :

وما ألف مطرور السنان مسدّد ... يعارض يوم الروع رأيا مسدّدا[٢]

وقال على ﷺ : خاطر من استغنى برأيه ، وسمع محمد بن داود وزير المأمون قول القائل :

إذا كنت ذا رأى فكُنْ ذا عزيمة ... فإنّ فساد الرأى أن يتردّدا

فأضاف إليه قوله :

وإنْ كُنتَ ذا عزم فأنفذْهُ عاجلًا ... فإنّ فساد العزم أن يتقيَّدا

ولمحمد بن إدريس الطائى :

ذهب الصوابُ برأيه فكأنّما ... آراؤه اشتقّت من التأييد

فإذا دجا خطب تبلّج رأيُه ... صبحا من التوفيق والتسديد[٣]

ولمحمد الوراق :

إنّ اللبيب إذا تفرّق أمرُه ... فتق الأمورَ مُناظرا ومُشاورا

وأخو الجهالة يستبدّ برأيه ... فتراه يعتسف الأمور مخاطرا

وقال الرشيد حين بدا له تقديمُ الأمين على المأمون فى العهد :

لقد بان وجهُ الرأى لى غير أننى ... عدلتُ عن الأمر الذى كان أحزما

فكيف يُرَد الدّر فى الضرع بعدما ... تُوزع حتى صار نهبا مقسما ؟ !

أخاف التواءَ الأمر بعد استوائه ... وأن يُنقَضَ الحبلُ الذى كان أُبرِمَا

وقال آخر :

خليلىّ ليس الرأى فى جنب واحد ... أشيرا علىّ اليوم ما تَرَيَانِ

ووصف رجل عضد الدولة . فقال : له وجه فيه ألف عين ، وفم فيه ألف لسان ، وصدر فيه ألف قلب . وقال أردشير ابن : أربعة تحتاج إلى أربعة : الحسب إلى الأدب ، والسرور إلى الأمن ، والقرابة إلى المودّة ، والعقل إلى التجربة . وقال : لا تستحقر الرأى الجزيل من الرجل الحقير ، فإنّ الدرة لا يستهان بها لِهوان غائصها . وقال جعفر بن محمد لا تكونن أول مشير ، وإياك والرأى الفطير ، وتجنب ارتجال الكلام ، ولا تشيرنّ على مستبدّ برأيه ، ولا على متلوّن ، ولا على لحوح . وقيل : ينبغى أن يكون المستشار صحيح العِلم ، مهذب الرأى ، فليس كل عالم يعرف الرأى الصائب وكم ناقدٍ فى شىء ضعيف فى غيره، قال أبو الأسود الدؤلى :

وما كلّ ذى نُصحٍ بمؤتيك نُصحَه ... وما كل مؤتٍ نُصحَه بلبيب

---

(١) حديث: «من أعجب برأيه.. إلخ» تقدم أن أحاديث العقل كلها موضوعة. وهذا منها.

(٢) مطرور السنان: حادّها، وقريب منه قوله القائل: الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني.

(٣) دَجَا خطب: أظلمت الشدائد، وحلّت الكوارث ، هو الذي أبدى بلا تثبت.

ولكن إذا ما استجمعا عند واحد فحق له من طاعة بنصيب

وكان اليونان والفرس لا يَجمعُون وزراءَهم على أمر يستشيرونهم فيه ، وإنما يستشيرون الواحد منهم من غير أن يعلم الآخر به ، لمعان شتى : منها ؛ لئلا يقع بين المستشارين منافسة فتذهب إصابة الرأى لأن من طباع المشتركين فى الأمر التنافس ، والطعن من بعضهم فى بعض ، وربما سبق أحدهم بالرأى الصواب ، فحسدوه وعارضوه ، وفى اجتماعهم أيضا للمشورة تعريض السر للإذاعة ، فإذا كان كذلك وأُذيع السر لم يقدر الملك على مقابلة من أذاعه للإبهام فإن عاقب الكل عاقبهم بذنب واحد ، وإن عفا عنهم ألحق الجانى بمن لا ذنب له .

وقيل : إذا أشار عليك صاحبك برأى ، ولم تحمد عاقبته ، فلا تجعلن ذلك عليه لوما وعتابا بأن تقول أنت فعلت ، وأنت أمرتنى ، ولولا أنت ، فهذا كله ضجر ولوم وخفة .

وقال أفلاطون : إذا استشارك عدوك فجرد له النصيحة ، لأنه بالاستشارة قد خرج من عداوتك إلى موالاتك . وقيل : من بذل نصحه واجتهاده لمن لا يشكره ، فهو كمن بذر فى السباخ . قال الشاعر يمدح من له رأى وبصيرة:

بصير بأعقاب الأمور كأنما يخاطبه من كل أمر عواقبه

وقال ابن المعتز : المشورة رَاحة لك ، وتعب على غيرك . وقال الأحنف : لا تشاور الجائع حتى يشبع ، ولا العطشان حتى يروى . ولا الأسير حتى يُطلَق ولا المقِلّ حتى يجد .

ولما أراد نوح ابن مريم قاضى مرو أن يزوج ابنته استشار جارًا له مجوسيًّا ؛ فقال : سبحان الله ، الناس يستفتونك وأنت تستفتينى ! قال : لابد أن تشير علىّ . قال : إن رئيس الفرس كسرى كان يختار المال ، ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال ، ورئيس العرب كان يختار الحسب ، ورئيسكم محمد كان يختار الدين ، فانظر لنفسك بمن تقتدى ؟ !

وكان يقال : من أعطى أربعا لم يمنع أربعا من أعطى الشكر لم يمنع المزيد ، ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ، ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ، ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب . وقيل : إذا استخار الرجل ربّه ، واستشار صحبَه ، وأجهد رأيه ، فقد قضى ما عليه ، ويقض الله فى أمره ما يجب .

وقال بعضهم : خمير الرأى خير من فطيره[1]، وتقديمه خير من تأخيره . وقالت الحكماء : لا تشاور معلما ولا راعى غنم ، ولا كثير القعود مع النساء ، ولا صاحب حاجة يريد قضاءَها ولا خائفا ولا حاقنا[2].

وقيل : سبعة لا ينبغى لصاحب لب أن يشاورهم : جاهل ، وعدو ، وحسود ، ومُراءٍ ، وجبان ، وبخيل ، وذو هوى ؛ فإن الجاهل يَضِل ، والعدو يريد الهلاك ، والحسود يتمنى زوال النعمة ، والمرائى واقف مع رضا الناس ، والجبان من رأيه الهرب ، والبخيل حريص على جمع المال فلا رأى له فى غيره ، وذُو الهوى أسير هواه . فلا يقدر على مخالفته .

وحكى : أن رجلا من أهل يثرب يعرف بالأسلمى قال : ركبنى دَيْنٌ أثقل كاهلى ، وطالبنى به مستحقوه ، واشتدت حاجتى إلى ما لابدّ منه ، وضاقت علىّ الأرض ، ولم أهتد إلى ما أصنع فشاورت من أثق به من ذوى المودة والرأى ، فأشار على بقصد المهلب بن أبى صفرة بالعراق ، فقلت له : تمنعنى المشقة وبعد الشقة ، وتيه المهلب . ثم إنى عدلت عن ذلك المشير إلى استشارة غيره ، فلا والله ما زادنى على ما ذكره الصديق الأولُ فرأيت أن قبول المشورة خير من مخالفتها ، فركبت ناقتى ، وصحبت رفقةً فى الطريق وقصدت العراق ، فلما وصلت دخلت على المهلب فسلمت عليه ، وقلت له : أصلح الله الأمير إنى قطعت إليك الدهناء ، وضربت أكباد الإبل[3] من يثرب ، فإنه أشار علىّ بعض ذوى الحجى والرأى بقصدك لقضاء حاجتى ، فقال : هل أتيتنا بوسيلة أو بقرابة وعشيرة ؟ فقلت : لا ، ولكنى رأيتك أهلا لقضاء حاجتى ، فإن قمت بها فأهل لذلك أنت ، وإن يحل دونها حائل لم أذم يومك ولم أيأس من غدك ، فقال المهلب لحاجبه : اذهب به ، وادفع إليه ما فى خزانة مالنا الساعة ، فأخذنى معه ، فوجدت فى خزانته ثمانين ألف

---

(١) خمير الرأي: ما اختمر، وقتل بحثًا، وقلب على وجوهه كما يختمر العجين، والفطير الذي لم ينضج بعد.

(٢) الحاقن: الذي احتبس بوله فتجمع، يقال: لا رأي لحاقن!

(٣) الدهناء: الصحراء. وضربت إليك أكباد الإبل: قطعت إليك المسافات البعيدة أسوق الإبل لتسرع.

درهم ، فدفعها إلىّ ، فلما رأيت ذلك لم أملك نفسى فرحا وسرورا . ثم عاد الحاجب بى إليه مسرعا فقال : هل ما وصلك يقوم بقضاء حاجتك ؟ فقلت : نعم أيها الأمير وزيادة ، فقال : الحمد لله على نُجح سعيك ، واجتنائك جنى[١] مشورتك وتحقق ظنّ من أشار عليك بقصدنا . قال الأسلمى : فلما سمعت كلامه ، وقد أحرزت صلته أنشدته وأنا واقف بين يديه :

يا من على الجُودِ صاغ الله راحته ... فليس يُحْسِنُ غيرَ البذل والجُودِ[٢]
عمَّت عطاياك أهل الأرض قاطبة ... فأنت والجود منحوتان من عود
من استشار فباب النُّجح منفتح ... لديه فيما ابتغاه غير مردود

ثم عدت إلى المدينة فقضيت دَيْنى ووسّعت على أهلى ، وجازيت المشير علىّ ، وعاهدت الله - تعالى - أن لا أترك الاستشارة فى جميع أمورى ما عشت .

وحكى : عن الخليفة المنصور أنه كان صدَرَ من عمه عبد الله بن علىّ بن عبد الله بن العباس أمورٌ مؤلمة لا تحتملها حراسة الخلافة ، ولا تتجاوز عنها سياسة الملك ، فحبسه عنده ، ثم بلغه عن ابن عمه عيسى بن موسى بن على - وكان واليا على الكوفة - ما أفسد عقيدته فيه ، وأوحشه منه ، وصرف وجه ميله إليه عنه ، فتألم المنصور من ذلك ، وساء ظنه ، وتأرق جَفْنُه ، وقل أمنه ، وتزايد خوفه وحزنه فأدّته فكرته إلى أمر دبره ، وكتمه عن جميع حاشيته ، وستره واستحضر ابن عمه عيسى بن موسى ، وأجراه على عادة إكرامه ثم أخرج من كان بحضرته ، وأقبل على عيسى ، وقال له : يا بن العم ، إنى مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله ، ولا أرى سواك مساعدا لى على حمل ثقله ، فهل أنت فى موضع ظنى بك ، وعامل ما فيه بقاء نعمتك التى هى منوطة ببقاء ملكى ؟ ! فقال له عيسى بن موسى : أنا عبد أمير المؤمنين ، ونفسى طوع أمره ونهيه ، فقال : إن عمى وعمك عبد الله قد فسدت بطانته ، واعتمد على ما بعضه يُبيح دمَه ، وفى قتله صلاح ملكنا ، فخذه إليك ، واقتله سرا ثم سلمه إليه وعزم المنصور على الحج ، مضمِرًا أن ابن عمه عيسى إذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص ، وسلمه إلى أعمامه إخوة عبد الله ليقتلوه به قصاصًا فيكون قد استراح من الاثنين : عبد الله ، وعيسى . وقال عيسى : فلما أخذت عمى وأفكرت[٣] فى قتله ، رأيت من الرأى أن أشاور فى قضيته من له رأى ، عسى أن أصيب الصواب فى ذلك ، فأحضرت يونس بن قرة الكاتب ، وكان لى حسن ظن فى رأيه ، وعقيدة صالحة فى معرفته ، فقلت له : إن أمير المؤمنين دفع إلىّ عمه عبد الله ، وأمرنى بقتله ، وإخفاء أمره ، فما رأيك فى ذلك ؟ وما تشير به ؟ فقال لى يونس : أيها الأمير ، احفظ نفسك بحفظ عمك وعم أمير المؤمنين ، فإنى أرى لك أن تدخله فى مكان داخل دارك وتكتم أمره عن كل أحد ممن عندك وتتولى بنفسك حمل طعامه وشرابه إليه ، وتجعل دونه مغالق ، وأبوابا ، وأَظْهِرْ لأمير المؤمنين أنك قتلته ، وأنفذت أمره فيه وانتهيت إلى العمل بطاعته ، فكأنى به إذا تحقق منك أنك فعلت ما أمرك به وقتلت عمه أمرك بإحضاره على رءوس الأشهاد فإن اعترفت أنك قتلته بأمره أنكر أمره لك ، وآخذك بقتله ، وقتلك . قال عيسى بن موسى : فقبلت مشورة يونس ، وعملت بها وأظهرت لأمير المؤمنين أنى أنفذت أمره ، ثم حج المنصور فلما قدم من حجه ، وقد استقر فى نفسه أننى قد قتلت عمه عبد الله ، دس إلى عمومته إخوة عبد الله ، وحثهم على أن يسألوه فى أخيهم ، ويستوهبوه منه فجاءوا إليه - وقد جلس ، والناس بين يديه على مراتبهم - فسألوه فى عبد الله ، فقال : نعم إن حقوقكم تقتضى إسعافكم بحاجتكم ؛ كيف وفيها صلة رحم وإحسان إلى من هو فى مقام الوالد ! ثم أمر بإحضار عيسى بن موسى ، فأحضر لوقته فقال : يا عيسى كنت دفعت إليك قبل خروجى إلى الحج عمى عبد الله ليكون عندك فى منزلك إلى حين رجوعى ، فقال عيسى : قد فعلت يا أمير المؤمنين ، فقال المنصور : قد سألنى فيه عمومتك ، وقد رأيت الصفح عنه ، وقضاء حاجتهم وصلة الرحم بإجابة سؤالهم فيه ، فائتنا به الساعة .

---

(١) الجَنَي: ما يجنى. والمراد: ثمرة مشورتك.
(٢) الراحة: باطن الكف، وقد صاغها الله على الجود، فهي معطاءة.
(٣) أفكرت فيه: أفكر في الأمر: فَكر فيه، أي أعمل العقل فيه ورتّب بعض ما يعلم ليصل به إلى مجهول.

قال عيسى : فقلت يا أمير المؤمنين ، ألم تأمرنى بقتله والمبادرة إلى ذلك ؟ قال : كذبت ، لم آمرك بذلك ، ولو أردت قتله لأسلمته إلى من هو بصدد ذلك ، ثم أظهر الغيظ وقال لعمومته : قد أقر بقتل أخيكم مدّعيا أننى أمرته بقتله ، وقد كذب علىّ . قالوا : يا أمير المؤمنين فادفعه إلينا لنقتله به ، ونقتص منه . فقال : شأنكم به . قال عيسى : فأخذونى إلى الرحبة واجتمع الناس علىّ ، فقام واحد من عمومتى إلىّ وسلّ سيفه ليضربنى به ، فقلت له : يا عم ، أفاعل أنت ؟ قال : إى والله وكيف لا أقتلك وقد قتلت أخى ؟ ! فقال لهم : لا تعجلوا وردّونى إلى أمير المؤمنين ، فردّونى إليه ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنما أردت قتلى بقتله ، والذى دبرته علىّ عصمنى الله - تعالى - من فعله ، وهذا عمك باق حىّ سوىّ ، فإن أمرتنى بدفعه إليهم دفعته إليهم الساعة ، فأطرق المنصور ، وعلم أن ريح فكر صادفت إعصارا ، وإنّ انفراده بتدبيره قارف خسارا[1] ، ثم رفع رأسه ، وقال : ائتنا به فمضى عيسى ، وأحضر عبد الله ، فلما رآه المنصور قال لعمومته : اتركوه عندى ، وانصرفوا حتى أرى فيه رأيا ، قال عيسى : فتركته وانصرفت ، وانصرف إخوته فسَلِمَتْ روحى ، وزالت كربتى ، وكان ذلك ببركة الاستشارة بيونس ، وقبول مشورته ، والعمل بها ثم إنّ المنصور أسكن عبد الله فى بيت أساسه قد بنى على الملح ، ثم أرسل الماء حوله ليلا فذاب الملح وسقط البيت ، فمات عبد الله ودفن بمقابر الشام ، وسلم عيسى من هذه المكيدة ، ومن سهام مراميها البعيدة .

ومما جاء فى النصيحة

اعلموا أن النصيحة للمسلمين ، وللخلائق أجمعين من سنن المرسلين ، قال الله . تعالى - إخبارا عن نوح عليه السلام : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود: ٣٤] وقال شعيب عليه السلام : ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٣]. وقال صالح عليه السلام : ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٩]. وروى عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ ، قَالُوا : لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَلِعَامَّتِهِمْ** »[2] . فالنصح لله هو : وصفه بما هو أهله وتنزيهه عما ليس له بأهل ، والقيام بتعظيمه ، والخضوع له ظاهرا وباطنا ، والرغبة فى محابّه ، والبعد من مساخطه ، وموالاة من أطاعه ، ومعاداة من عصاه ، والجهاد فى ردّ العصاة إلى طاعته قولا وفعلا . والنصيحة لكتابه إقامته فى التلاوة وتحسينه عند القراءة ، وتفهم ما فيه ، والذبّ عنه من تأويل المحرفين ، وطعن الطاعنين ، وتعليم ما فيه للخلائق أجمعين . قال الله - تعالى - : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

والنصيحة للرسول ﷺ : إحياء سنته بالطلب لها ، وإحياء طريقته فى بث الدعوة وتأليف الكلمة ، والتخلق بالأخلاق الطاهرة .

والنصيحة للأئمة : معاونتهم على ما كلفوا القيام به بتنبيههم عند الغفلة ، وإرشادهم عند الهفوة ، وتعليمهم ما جهلوا ، وتحذيرهم ممن يريد بهم السوء ، وإعلامهم بأخلاق عمالهم وسيرتهم فى الرعية ، وسدّ خلتهم عند الحاجة ، ورد القلوب النافرة إليهم .

والنصيحة لعامة المسلمين : الشفقة عليهم ، وتوقير كبيرهم ، والرحمة لصغيرهم ، وتفريج كربهم ، وتوقى ما يشغل خواطرهم ، ويفتح باب الوسواس عليهم .

واعلم أن جرعة النصيحة مُرّة لا يقبلها إلا أولو العزم . وقال ميمون بن مهران : قال لى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : قل : لى فى وجهى ما أكره ، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكره ، وفى منثور الحكم : ودّك من

---

(١) قارف خسارًا: خالطه ووقع فيه.

(٢) قوله: «إن الدين النصيحة» قال صاحب الكشف: رواه أحمد عن ابن عباس وهو ومسلم وأبو داود والنسائي عن تميم الداري، والترمذي والنسائي عن أبي هريرة. والمشهور بإسقاط إن في أوله، وهو ما في صحيح البخاري في كتاب الإيمان معلقًا.

نصَحك ، وقَلاك من مَشَى فى هواك[1] . وقال أبو الدرداء ﷺ : إن شئتم لأنصحن لكم : إن أحبَّ عبادِ الله إلى الله الذين يحببون الله - تعالى - إلى عباده ، ويعملون فى الأرض نصحا . ولورقة بن نوفل :

لقد نصحتُ لأقوام وقلتُ لهم ... إنى النَّذيرُ فلا يغرركُمْ أحدْ
لا شىء مما ترى تبقَى بشاشتُه ... إلا الإلهُ ويَرْدَى المالُ والولدُ
لم تغن عن هُرمز يومًا ذخائرُه ... والخلدَ قد حاولت عادٌ فما خلدُوا

وقال بعض الخلفاء لجرير بن يزيد : إنى قد أعددتك لأمر . قال : يا أمير المؤمنين : إن الله - تعالى - قد أعدّ لك منى قلبًا معقودا بنصيحتك ، ويدًا مبسوطةً لطاعتك ، وسيفا مجردا على عدوك . وأنشد الأصمعى :

النصحُ أرخص ما باع الرجالُ فلا ... تَردُدْ على ناصحٍ نُصحًا ولا تَلُم
إن النصائحَ لا تَخفى مناهلُها ... على الرجال ذوى الألباب والفهم

ولمعاذ بن مسلم :

نصحتك والنصيحة إن تعدت ... هوى المنصوح عَزَّ لَها القبولُ
فخالفت الذى لك فيه حظٌ ... فنالك دون ما أمَّلْتَ غول

وقيل : أشار فيروز بن حُصَين على يزيد بن المهلب أن لا يضع يدَه فى يد الحجاج ، فلم يقبل منه ، وسار إليه فحبسه ، وحبس أهله فقال فيروز :

أمرتك أمرًا حازمًا فعصَيتَنى ... فأصبحت مسلوبَ الإمارة نادما
أمرتك بالحجاج إذ أنت قادر ... فنفسك أولى باللوم إن كنت لائما
فما أنا بالباكى عليك صبابة ... وما أنا بالداعى لترجع سالما

ويقال : من أصفرَّ وجهُه من النصيحة ، اسودّ لونه من الفضيحة ! وقال طرفة :

ولا ترفدنَّ النصحَ من ليس أهله ... وكُنْ حين تَستغنى برأيك غانيا
وإن امرأً يوما تولى برأيه ... فدعه يصيب الرشدَ أو يكُ غاويا

وفى مثله قال بعضهم :

من الناس من إن يستشرك فتجتهد ... له الرأى يستغششك ما لم تتابعه
فلا تمنحن الرأى من ليس أهله ... فلا أنت محمود ولا الرأى نافعه

والله أعلم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثانى عشر

فى الوصايا الحسنة ، والمواعظ المستحسنة ، وما أشبه ذلك

قال الله - تعالى - : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥] . وقال الله - تعالى - : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] . وقال - تعالى - : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

(١) قلاك : كرهك ، عكس : ودَّك .

﴿ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] . وقال - تعالى - : ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [آل عمران: ١١٤] . والآيات فى ذلك كثيرة مشهورة وفوائدها جمة منشورة . وروينا فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ** » . وقال شيخنا محيى الدين النووى - رحمه الله تعالى - فى قوله - تعالى - : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]. إن هذه الآية الكريمة مما يغتر بها أكثر الجاهلين ويحملونها على غير وجهها بل الصواب فى معناها : إنكم إذا فعلتم ما أمرتم به لا يضركم ضلالةُ من ضل ، ومن جملة ما أمروا به الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والآية مرتبة فى المعنى على قوله - تعالى - : ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩].

وقال محمد بن تمام : الموعظة جند من جنود الله - تعالى - ، ومثلُها مثَلُ الطين يضرب به الحائط إن استمسك نفع وإن وقع أثر . ومن كلام على ﷺ : لا تكونَنّ ممن لا تنفعُه الموعظةُ إلا إذا بالغت فى إيلامه ، فإن العاقل يتعظ بالأدب . والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب وأنشد الجاحظ :

ولـيـس يـزجُـركُـم مـا تُـوعـظـون بـه ... والـبُـهـم يـزجُـرُهـا الـراعـى فـتـنـزجـر

وكتب رجل إلى صديق له : أما بعد ، فعِظ الناسَ بفعلك ، ولا تعظهم بقولك ، واستحى من الله بقدر قربه منك ، وخفه بقدر قدرته عليك ، والسلام .

وقيل : من كان له من نفسه واعظ ، كان له من الله حافظ . وقال لقمان : الموعظة تشق على السفيه كما يشق صعود الوعر على الشيخ الكبير . قيل : أوحى الله - تعالى - إلى داود عليه السلام : إنك أن أتيتنى بعبد آبق كتبتك عندى حميدا ، ومن كتبته عندى حميدا لم أعذبه بعدها أبدا . وقال الرشيد لمنصور بن عمار : عِظْنِى وأَوْجِزْ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هل أحد أحب إليك من نفسك ؟ قال : لا . قال : إن أردت أن لا تسىء إلى من تحب فافعل . وقال النبىّ ﷺ فى بعض خطبه : « **أيها الناس الأيام تطوى ، والأعمار تفنى ، والأبدان فى الثرى تبلى ، وإنّ الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد ، ويقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد ، وفى ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ، ورغب فى الباقيات الصالحات** » [(١)] . ولما لقى ميمون بن مهران الحسن البصرى قال له : لقد كنت أحب أن ألقاك فعظنى ، فقرأ الحسن البصرى : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] . ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧] . فقال - عليك السلام - أبا سعيد لقد وعظتنى أحسن موعظة . ولما ضرب ابن ملجم - لعنه الله - عليًا ﷺ دخل منزله فاغترته عشية ، ثم أفاق فدعا الحسن والحسين رضى الله عنهما وقال : أوصيكما بتقوى الله - تعالى - والرغبة فى الآخرة ، والزهد فى الدنيا ، ولا تأسفا على شىء فاتكما منها فإنكما عنها راحلان ، افعلا الخير ، وكونا للظالم خصمًا وللمظلوم عونًا ، ثم دعا محمدا ولده وقال له : أَمَا سمعت ما أوصيت به أخويك ؟ قال : بلى . قال : فإنى أوصيك به ، وعليك ببر أخويك وتوقيرهما ومعرفة فضلهما ، ولا تقطع أمرًا دونهما ، ثم أقبل عليهما وقال : أوصيكما به خيرا فإنه أخوكما وابن أبيكما ، وأنتما تعلمان أن أباه كان يحبه فأحباه . ثم قال : يا بنى أوصيكم بتقوى الله فى الغيب والشهادة ، وكلمة الحق فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، والعدل فى الصديق والعدّو ، والعمل فى النشاط والكسل ، والرضا عن الله فى الشدة والرخاء .

يا بنى ، ما شرّ بعده الجنة بشر ، ولا خير بعده النار بخير ، وكل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية ، يا بَنِىَّ من أبصر عيبَ نفسه اشتغل عن عيب غيره ، ومن رضى بما قسم الله له لم يحزن على ما فاته ، ومن سلّ سيف البغى قُتل به ، ومن حفر لأخيه بئرا وقع فيها ، ومن هتك حجاب أخيه هتكت عورات بنيه ، ومن نسى خطيئته استعظم خطيئة غيره ، ومن أعجب برأيه ضل ، ومن استغنى بعقله زل ، ومن تكبر على الناس ذل ، ومن خالط الأنذال احتقر ، ومن دخل مداخل السوء اتهم ، ومن جالس العلماء وُقر ، ومن مَزَح استُخِفَّ به ، ومن أكثر من شىء عُرِف به ، ومن كثر كلامه كثر خطؤه ، ومن كثر خطؤه قَلَّ حياؤه ، ومن قَلَّ حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه ،

---

(١) قال في بعض خطبه: لم أقف عليه.

ومن مات قلبه دخل النار . يا بنىّ الأدب ميزان الرجل ، وحسن الخلق خير قرين ، يا بنىّ العافية عشرة أجزاء : تسعة منها فى الصمت إلا عن ذكر الله - تعالى - وواحد فى ترك مجالسة السفهاء . يا بنى، زينة الفقر الصبر ، وزينة الغنى الشكر ، يا بنى، لا شرفَ أعلى من الإسلام ، ولا كرم أعز من التقوى ، ولا شفيعَ أنجح من التوبة ، ولا لباس أجمل من العافية . يا بنى، الحرص مفتاح التعب ، ومطية النَّصَبِ . ولما حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة نظر إلى أهله يبكون حوله فقال : أجادلكم هشام بالدنيا وجُدتم له بالبكاء ، وترك لكم جميع ما جمع ، وتركتم عليه ما حمل ! ما أعظمَ مُنْقَلَبَ هشام إن لم يغفر الله له ! وقال الأوزاعى للمنصور فى بعض كلامه : يا أمير المؤمنين ، أما علمت أنه كان بيد رسول الله ﷺ جريدة يابسة يستاك بها ويردع بها المنافقين ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : « **يا محمد ، ما هذه الجريدة التى بيدك ؟ اقذفها لا تملأ قلوبهم رعبا** »[١] . فكيف بمن سفك دماء المسلمين ، وانتهب أموالهم . يا أمير المؤمنين ، إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابيا من غير تعمد[٢] يا أمير المؤمنين لو أن ذَنُوبًا من النار[٣] صب ووضع على الأرض لأحرقها فكيف بمن يتجرعه ؟ ! ولو أن ثوبا من النار وضع على الأرض لأحرقها فكيف بمن يتقمصه ؟ لو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب ! فكيف بمن يتسلسل بها ، ويردّ فضلها على عاتقه ؟ !

وروى زيد بن أسلم عن أبيه قال : قلت لجعفر بن أبى طالب ﷺ وكان والى المدينة : احذر أن يأتى رجل غدا ليس له فى الإسلام نسب ولا أب ولا جد ، فيكون أولى برسول الله ﷺ منك ، كما كانت امرأة فرعون أولى بموسى ، وكما كانت امرأة نوح وامرأة لوط أولى بفرعون ، ومن أبطأ به عمله لم يُسرع به نسبه ، ومن أسرع به عمله لم يبطىء به نسبه . وروى زياد عن مالك بن أنس ﷺ قال: لما بعث أبو جعفر إلى مالك بن أنس وابن طاوس قال : دخلنا عليه وهو جالس على فرش ، وبين يديه أنطاع[٤] قد بسطت ، وجلّادون بأيديهم السيوف يضربون الأعناق ، فأومأ إلينا أن اجلسا فجلسنا ، فأطرق زمانا طويلا ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس ، وقال: حدثنى عن أبيك قال : سمعت أبى يقول : قال رسول الله ﷺ : « **إن أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله - تعالى - فى ملكه فأدخل عليه الجور فى حكمه** »[٥] . فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسودّ ما بيننا وبينه . قال مالك : فضممت ثيابى مخافة أن ينالها شىء من دم ابن طاوس . ثم قال : يا بن طاوس ، ناولنى هذه الدواة ، فأمسك عنه ، فقال: ما يمنعك أن تناولنيها ؟ قال : أخاف أن تكتب بها معصية ، فأكون شريكك فيها ! فلما سمع ذلك قال : قوما عنى ؛ فقال ابن طاوس : ذلك ما كنا نبغى . قال مالك : فما زلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم .

وروى أن عمر بن الخطاب ﷺ قال لكعب الأحبار : يا كعب ، خوّفنا . قال : أو ليس فيكم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؟ ! قال : بلى يا كعب ، ولكن خوّفنا ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، اعمل فإنك لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبيا لازدريت عملهم مما ترى ؛ فنكس عمر ﷺ رأسه وأطرق مَلِيًّا ثُم رفع رأسه وقال : يا كعب خوّفنا ! فقال : يا أمير المؤمنين ، لو فتح من جهنم قدر مِنْخَر ثور بالمشرق ، ورجل بالمغرب لغَلَى دماغه حتى يسيل من حرها ؛ فنكس عمر ، ثم أفاق فقال : يا كعب ، زِدْنا . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة ، فلا يبقى ملك مقرب ، ولا نبى مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول : يا ربّ لا أسألك اليوم إلا نفسى !

وقال سيدى الشيخ أبو بكر الطرطوشى[٦] - رحمة الله تعالى عليه - دخلت على الأفضل ابن أمير الجيوش ، وهو أمير على مصر فقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فردّ السلام على نحو ما سلمت ردّا جميلا ، وأكرمنى إكراما جزيلا ، وأمرنى بدخول مجلسه ، وأمرنى بالجلوس فيه ، فقلت : أيها الملك ، إن الله - تعالى - قد أحلك

---

(١) وقال الأوزاعي. . إلخ لم أقف علي.

(٢) دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة لم أقف عليه.

(٣) ذَنوبا: دَلْوا.

(٤) أنطاع: جمع نَطع «بفتح النون وكسرها» بساط من جلد، كثيرًا ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل.

(٥) قوله: إن أشد الناس عذابًا. . إلخ قريبًا منه ما أخرجه الترمذي [١٣٢٩]، بسندٍ ضعيفٍ، فيه عطية الوفي، وهو عن أبي سعيد.

(٦) الطرطوشي صاحب كتاب «سراج الملوك» وعنه نقل الإبشيهي إلى جانب من نقل عنهم، ولد في الأندلس ونسب إلى طرطوشة التي ولد فيها ومات بالإسكندرية.

محلا عليًا شامخا ، وأنزلك منزلا شريفا باذخا ، وملكك طائفة من ملكه ، وأشركك في حكمه ولم يرض أن يكون أمرُ أحدٍ فوق أمرك فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك ، وليس الشكر باللسان ، وإنما هو بالفعال والإحسان ؛ قال الله - تعالى - : ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾[سبا:١٣] . واعلم أن هذا الذى أصبحتَ فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك ، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك ، فاتق الله فيما خوّلك من هذه الأمة ، فإن الله - تعالى - سائلك عن الفتيل[١] والنقير والقِطمير؛ قال الله - تعالى - : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣] . وقال الله - تعالى - : ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧] . واعلم أيها الملك أن الله - تعالى - قد آتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليهما السلام فسخر له الإنس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم ، وسخر له الريح تجرى بأمره رُخاء حيث أصاب ، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع فقال له : ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص:٣٩] فوالله ما عدها نعمة كما عددتموها ، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها ، بل خاف أن تكون استدراجا من الله - تعالى - ومكرًا به ؛ فقال : ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠] فافتح الباب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم ، وأغث الملهوف ، أعانك الله على نصر المظلوم ، وجعلك كهفا للملهوف ، وأمانا للخائف ، ثم أتممت المجلس بأن قلت : قد رحت البلاد شرقا وغربا ، فما اخترت مملكة وارتحت إليها ، ولذّت لى الإقامة فيها غير هذه المملكة ثم أنشدته :

والناسُ أكيسُ من أن يَحمَدوا رجلًا ... حتى يَروْا عنده آثارَ إحسان

وقال الفضل بن الربيع : حج هارون الرشيد سنة من السنين فبينما أنا نائم ذات ليلة إذ سمعت قرع الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : أجب أمير المؤمنين ، فخرجت مسرعا فقلت : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلىّ أتيتك ، فقال : ويحك قد حاك فى نفسى شىء لا يخرجه إلا عالم ، فانظر لى رجلا أسأله عنه ، فقلت : هٰهنا سفيان بن عيينة ، فقال : امض بنا إليه فأتيناه ، فقرعت عليه الباب ؛ فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين ، فخرج مسرعا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت إلىّ أتيتك ، فقال جِدّ لما جئنا له ، فحادثه ساعة ، ثم قال له : أعليك دين ؟ قال : نعم . فقال : يا أبا العباس ، اقض دينه ، ثم انصرفنا فقال : ما أغنى عنى صاحبك شيئًا . فانظر لى رجلا أسأله ، فقلت : هٰهنا عبد الرزاق بن همام ، فقال : امض بنا إليه ، فأتيناه فقرعت عليه الباب ؛ فقال : من هذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين ، فخرج مسرعا ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت إلىّ أتيتك ؛ فقال : جدّ لما جئنا له ، فحادثه ساعة ثم قال له : أعليك دين ؟ قال : نعم . فقال : يا أبا العباس ، اقض دينه ، ثم انصرفنا ، فقال : ما أغنى عنى صاحبك شيئًا فانظر لى رجلا أسأله ، قلت : هٰهنا الفضيل[٢] بن عياض ، فقال : امض بنا إليه فأتيناه ، فإذا هو قائم يصلى فى غرفته يتلو آية من كتاب الله - تعالى - وهو يرددها ، فقرعت عليه الباب ، فقال: من هذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين ، فقال : ما لى ولأمير المؤمنين ، فقلت : سبحان الله ! أما تجب عليك طاعته ؟ ففتح الباب ، ثم ارتقى إلى أعلى الغرفة ، فأطفأ السراج ، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة ، فجعلنا نجول عليه بأيدينا ، فسبقت كف الرشيد كفى إليه ، فقال : أوّاه من كف ما ألينها إن نجت غدا من عذاب الله - تعالى - ، فقلت فى نفسى : ليكلمنه الليلة بكلام نقى من قلب تقى ، فقال : جدّ لما جئنا له - رحمك الله تعالى - فقال : وفيم جئت ؟ حملت على نفسك وجميع من معك حملوا عليك حتى لو سألتهم ، أن يتحملوا عنك شِقْصًا[٣] من ذنب ، ما فعلوا ولكان أشدهم حُبًّا لك أشدهم هربا منك ، ثم قال : إن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله : ومحمد بن كعب القرظى ، ورجاء بن حيوة فقال لهم : إنى قد

---

(١) الفتيل: الخيط الذي في شق النواة، يقال: ما أغنى عنه فتيلاً: أي شيئًا. والنقير: النكتة في ظهر النواة، أما القطمير فهو القشرة الرقيقة بين النواة والتمرة. يقال: ما أصبت منه قطميرًا: أي شيئًا.

(٢) هو الفضيل بن عياض التميمي: شيخ الحرم ومن أكابر العباد، كان ثقة في الحديث، وعليه تلقى الإمام الشافعي ولد سنة ١٠٥هـ، وتوفى سنة ١٨٧ [شذرات الذهب: ١/٣١٦].

(٣) الشِّقْص: بتشديد الشين المكسورة وإسكان القاف، أي القطعة من الشيء، والنَّصيب. والجمع أشقاص وشِقاص.

ابتليت بهذاء البلاء فأشيروا علىّ ، فعد الخلافة بلاء ، وعددتها أنت وأصحابك نعمة فقال سالم بن عبد الله : إن أردت النجاة غدا من عذاب الله فصُمْ عن الدنيا ، وليكن إفطارك فيها على الموت .

وقال محمد بن كعب : إن أردت النجاة غدا من عذاب الله - تعالى - ، فليكن كبير المسلمين عندك أبا وأوسطهم عنك أخان وأصغرهم عندك ولدًا ، فبد أباك وأرحم أخاك ، وتحسن على ولدك . وقال رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله - تعالى - فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم متى شئت مت ، وإنى لأقول هذا ، وإنى لأخاف عليك أشدّ الخوف يوم تزل الأقدام ، فهل معك - رحمك الله - مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا ؟ فبكى هارون بكاء شديدا حتى غشى عليه ! فقلت له : ارفق بأمير المؤمنين ، فقال : يابن الربيع ، قتلته أنت وأصحابك ، وأرفق به أنا ؟! ثم أفاق هارون الرشيد فقال : زدنى ، فقال : يا أمير المؤمنين ، بلغنى أن عاملا لعمر بن عبد العزيز ﷺ شكا إليه سهرا فكتب له عمر يقول : يا أخى اذكر سهر أهل النار فى النار ، وخلود الأبدان ، فإن ذلك يقربك إلى ربك نائما ويقظان ، وإياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك ، ومنقطع الرجاء منك ، فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه ، فقال له عمر : ما أقدمك ؟ فقال له : لقد خلعت قلبى بكتابك ، لا وُلّيتُ ولايةً أبدا حتى ألقى الله - عز وجل - فبكى هارون بكاء شديدا، ثم قال : زدنى ، قال: يا أمير المؤمنين ، إن العباس عم النبى ﷺ جاء إليه فقال : يا رسول الله أمّرنى إمارة ، فقال له النبى ﷺ : « **يا عباس، نفس تحييها خيرمن إمارة لا تحصيها . إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت أن لا تكون أميرا فافعل** »[(١)]. فبكى هارون الرشيد بكاء شديدا ثم قال : زدنى - يرحمك الله - فقال : يا حسن الوجه ، أنت الذى يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة ، فإن استطعت أن تقى هذا الوجه من النار فافعل ، وإياك أن تصبح وتمسى ، وفى قلبك غش لرعيتك ، فإن النبى ﷺ قال : « **من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة** »[(٢)]. فبكى هارون الرشيد بكاء شديدا ثم قال له : أعليك دَيْن ؟ قال : نعم دَيْن لربى يحاسبنى عليه ، فالويل لى إن ناقشنى ، والويل لى إن سألنى ، والويل لى إن لم يلهمنى حجتى . قال هارون : إنما أعنى دين العباد ، قال : إن ربى لم يأمرنى بهذا ، وإنما أمرنى أن أصدق وعده ، وأطيع أمره ، قال - تعالى - : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[الذاريات:٥٦-٥٨] . فقال له هارون : هذه ألف دينار ، فخذها ، وأنفقها على عيالك ، وتقوّ بها على عبادة ربك ، فقال : سبحان الله أنا دللتك على سبيل الرشاد ، تكافئنى أنت بمثل هذا ! ! سلمك الله ، ووفقك ، ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده ، فقال لى هارون : إذا دللتنى على رجل فدلنى على مثل هذا ، فإن هذا سيد المسلكين اليوم . واعلم أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر له شروط وصفات . قال سليمان الخوّاص : من وعظ أخاه فيما بينه وبينه ، فهى نصيحة ، ومن وعظه على رءوس الأشهاد فإنما بكّته . وقالت أم الدرداء رضي الله عنها : من وعظه أخاه سرًّا فقد سره وزانه ، ومن وعظه علانية فقد ساءه وشانه . ويقال : من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وسره ، ومن وعظه جهرا فقد فضحه وضَرّه .

وعن عبد العزيز بن أبى روّاد قال : كان الرجل إذا رأى من أخيه شيئًا أمره فى ستر ، ونهاه فى ستر فيؤجر فى ستره ، ويؤجر فى أمره ، ويؤجر فى نهيه ، وعن عمر ﷺ إذا رأيتم أخاكم ذا زلة فقوّموه ، وسدّدوه ، وادعوا الله أن يرجع به إلى التوبة فيتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشيطان على أخيكم ، وبالله التوفيق إلى أقوم طريق ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) حديث: يا عباس.. إلخ أخرجه ابن سعد عن الضحاك مرسلاً، انظر جمع الجوامع [١/ ٩٦٥].

(٢) حديث: من أصبح غاشًا.. إلخ أخرجه الطبراني كما في «المجمع [٥/ ٢١١]، وقال الهيثمي: «عن شيخه ثابت بن نعيم الهوجي، ولم أعرفه».

الباب الثالث عشر

فى الصمت ، وصون اللسان ، والنهى عن الغيبة ، والسعى بالنميمة ، ومدح العُزلة ، وذم الشهرة ، وفيه فصول

الفصل الأول :فى الصمت وصون اللسان

قال الله - تعالى - : ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨] . وقال - تعالى - : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١٤] . واعلم أنه ينبغى للعاقل المكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلام تظهرُ المصلحة فيه ، ومتى استوى الكلام وتركه فى المصلحة فالسنة الإمساك عنه لأنه قد يجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه ، بل هذا كثير ، وغالب فى العادة ، والسلامة لا يعادلها شىء .

وروينا فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال : « **مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ** » . قال الشافعى فى الأم : إذا أراد أحدكم الكلام ، فعليه أن يفكر فى كلامه ، فإن ظهرت المصلحة تكلم وإن شك لم يتكلم حتى تظهر . وروينا فى صحيحيهما عن أبى موسى الأشعرىّ ﷺ قال : قلت : يا رسول الله ، أى المسلمين أفضل ؟ قال : « **مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ** » . وروينا فى كتاب الترمذى عن عقبة بن عامر ﷺ قال : قلت يا رسول الله ، ما النجاة ؟ قال : « **أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ** » . قال الترمذىّ حديث حسن . وروينا فى كتاب الترمذىّ وابن ماجه عن أبى هريرة ﷺ عن النبىّ ﷺ قال : « **مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ** » والأحاديث الصحيحة فى ذلك كثيرة وفيما أشرت إليه كفاية لمن وفقه الله - تعالى - . وأما الآثار عن السلف وغيرهم فى هذا الباب فكثيرة لا تحصر لكن ننبه على شىء منها : فما جاء من ذلك ما بلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفى اجتمعا فقال أحدهما لصاحبه : كم وجدت فى ابن آدم من العيوب ؟ فقال : هى أكثر من أن تحصر ، وقد وجدت خصلة إن استعملها الإنسان سترت العيوب كلها ؛ قال : وما هى ؟ قال حفظ اللسان .

وقال الإمام الشافعى ﷺ لصاحبه الربيع : يا ربيع ، لا تتكلم فيما لا يعنيك ، فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها ! وقال بعضهم : مثل اللسان مثل السبع إن لم توثقه عدا عليك ولحقك شره . ومما أنشدوه فى هذا الباب :

احفظ لسانك أيها الإنسان ... لا يلدغنك إنه ثعبانُ
كم فى المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهاب لقاءه الشجعانُ

وقال الفارسى :

لَعَمْرك إن فى ذنبى لشُغْلًا ... لنفسى عن ذنوب بنى أميه
على ربى حسابهم إليه ... تناهى علم ذلك لا إليه

وقال على ﷺ : إذا تم العقل نقص الكلام . وقال أعرابى : رب منطق صدع جمعا ، وسكوت شعَب صدعا[1] . وقال وهب بن الورد : بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء : تسعة منها فى الصمت ، والعاشر فى عزلة الناس .

وقال على بن هشام - رحمة الله تعالى عليه - :

لعَمرُك إن الحلم زين لأهله ... وما الحلم إلّا عادة وتحلّم
إذا لم يكن صمت الفتى عن ندامة ... وعىً فإن الصمت أولى وأسلم

وقال ابن عيينة : من حُرم الخير فليصمت ، فإن حُرِمهما فالموت خير له . وعن رسول الله ﷺ أنه قال

---

(١) الصدع: الشق، والتفريق والشعب: الإصلاح يقال: شعب الصدع: لمّه وأصلحه وهو من الأضداد.

لأبى ذر ﷺ : « عليك بالصّمت إلا من خير فإنه مَطْردةٌ للشيطان ، وعَوْنٌ على أمْر دينك »[١] . ومن كلام الحكماء : من نطق فى غير خير فقد لغا ، ومن نظر فى غير اعتبار فقد سها ، ومن سكت فى غير فكر فقد لها ، وقيل : لو قرأت صحيفتك ، لأغمدت صفيحتك ، ولو رأيت ما فى ميزانك ، لختمت على لسانك .

ولما خرج يونس ﷺ من بطن الحوت طال صمته ، فقيل له : ألا تتكلم ؟ فقال : الكلام صيّرنى فى بطن الحوت . وقال حكيم : إذا أعجبك الكلام فاصمت ، وإذا أعجبك الصمت فتكلم . وكان يقال : من السكوت ما هو أبلغ من الكلام ، لأن السفيه إذا سكت عنه كان فى اغتنام .

وقيل لرجل : بم سادكم الأحنف ؟ فوالله ما كان بأكبركم سنا ، ولا بأكثركم مالا ؟ ! فقال : بقوة سلطانه على لسانه .

وقيل : الكلمة أسيرة فى وثاق الرجل فإذا تكلم بها صار فى وثاقها . وقيل : اجتمع أربعة ملوك ، فتكلموا فقال ملك الفرس : ما ندمت على ما لم أقل مرة ، وندمت على ما قلت مرارا . وقال قيصر : أنا على ردّ ما لم أقل أقدر منى على ردّ ما قلت . وقال ملك الصين : ما لم أتكلم بكلمة ملكتها ، فإذا تكلمت بها ملكتنى . وقال ملك الهند : العجب ممن يتكلم بكلمة ؛ إن رفعت ضرت ، وإن لم ترفع لم تنفع . وكان بهرام جالسا ذات ليلة تحت شجرة ، فسمع منها صوت طائر فرماه فأصابه ، فقال : ما أحسن حفظ اللسان بالطائر والإنسان ! لو حفظ هذا لسانَه ما هلك . وقال علىّ ﷺ : بكثرة الصمت تكون الهيبة . وقال عمرو بن العاص ﷺ : الكلام كالدواء إن أقللت منه نفع ، وإن أكثرت منه قتل . وقال لقمان لولده : يا بنى ، إذا افتخر الناس بحسن كلامهم فافتخر أنت بُحسن صمتك ، يقول اللسان كلّ صباح وكل مساء للجوارح : كيف أنتن ؟ فيقلن : بخير إن تركتنا . قال الشاعر :

احفظ لسانك لا تقولُ فتُبْتَلَى ... إن البلاء موكل بالمنطق

الفصل الثانى : فى تحريم الغيبة

اعلم أن الغيبة من أقبح القبائح . وأكثرها انتشارا فى الناس حتى لا يسلم منها إلا القليل من الناس . وهى ذكرك الإنسان بما يكره ولو بما فيه سواء كان فى دينه أو بدنه ، أو نفسه ، أو خُلُقه ، أو خَلْقه ، أو ماله أو ولده ، أو والده ، أو زوجته ، أو خادمه ، أو عمامته ، أو ثوبه ، أو مشيته ، أو حركته ، أو بشاشته ، أو خلاعته ، أو غير ذلك مما يتعلق به سواء ذكرته بلفظك أو بكتابك ، أو رمزت إليه بعينيك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك .

فأما الدين : فكقولك أعمى ، أو أعرج ، أو أعمش ، أو قصير ، أو طويل ، أو أسود ، أو أصفر . وأما غيرها فكقولك : سارق ، خائن ، ظالم ، متهاون بالصلاة ، متساهل فى النجاسات ، ليس بارًّا بوالديه ، قليل الأدب ، لايضع الزكاة مواضعها ، لا يجتنب الغيبة .

وأما البدن : فكقولك : فلان قليل الأدب ، متهاون بالناس ، لا يرى لأحد عليه حقا ، كثير النوم ، كثير الأكل وما أشبه ذلك ، أو كقولك : فلان أبوه نجار ، أو إسكاف ، أو حداد ، أو حائك ، تريد تنقيصه بذلك ، أو فلان سيئ الخلق متكبر ، مراء معجب ، عجول ، جبار ، ونحو ذلك . أو فلان واسع الكم ، طويل الذيل ، وسخ الثوب ، ونحو ذلك . وقد رويناه فى صحيح مسلم وسنن أبى داود والترمذىّ والنسائى عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : ذكرك أخاك بما يكره » . قيل : وإن كانت فى أخى ما أقول ؟ قال : « إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُول فَقَدِ اغْتَبْتَهُ ، وَإِنْ لَم يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ » . قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

وروينا فى سنن أبى داود والترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت للنبىّ ﷺ حسبك من صفية كذا وكذا . قال بعض الرواة : تعنى « قصيرة » فقال : « لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحرِ لَمَزَجَتْهُ » أى : خالطته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه لكثرة نتنها .

---

(١) عليك بالصمت . . إلخ أخرجه ابن حبان [٣٦٢- إحسان].

وروينا فى سنن أبى داود عن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لما عرج بى إلى السماء مررت بقوم لهم أظفار من نُحاس يخمِشُون بها وجوهَهُم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحومَ الناس ، ويقعون فى أعراضهم » . وروى عن جابر ﷺ عن النبى ﷺ : أنه قال : إياكم والغيبة ، فإن الغيبة أشدّ من الزنا »[(١)] ثم قال رسول الله ﷺ: « إن الرجل ليزنى فيتوب فيتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبها » . وعن أنس ﷺ قال : « من اغتاب المسلمين ، وأكل لحومهم بغير حق ، وسعى بهم إلى السلطان جىء به يوم القيامة مزرقّة عيناه ، ينادى بالويل والثبور ، يعرف أهله ولا يعرفونه »[(٢)] . وقال معاوية بن قرة : أفضل الناس عند الله أسلمهم صدرا وأقلهم غيبة . وقال الأحنف : فىّ خَصلتان : لا أغتاب جليسى إذا غاب عنى ، ولا أدخل فى أمر قوم لا يدخلوننى فيه . وقيل للربيع بن خثيم : ما نراك تعيب أحدًا ؟ فقال : لست عن نفسى راضيا فأتفرغ لذم الناس ، وأنشد :

لِنفسِى أبكِى لستُ أبكِى لغيرِها ... لنفسِى من نَفسى عنِ الناس شاغِلُ

وقال كثير عزة :

وسعى إلىّ بعيب عزةَ نسوةٌ ... جعل الإلهُ خدودَهُنَّ نِعالَها

وقال محمد بن حزم : أوّل من عمل الصابون سليمان ، وأوّل من عمل السويق ذو القرنين ، وأوّل من عمل الحَيْس[(٣)] يوسف ، وأوّل من عمل خبز الجرداق[(٤)] نمرود ، وأوّل من كتب فى القراطيس الحجاج ، وأوّل من اغتاب إبليسُ لعنه الله ؛ اغتاب آدم عليه السلام وأوحى الله - تعالى - إلى موسى عليه السلام : (إن المغتاب إذا تاب فهو آخر من يدخل الجنة ، وإن أصر فهو أوّل من يدخل النار)[(٥)] ويقال : لا تأمن من كذب لك أن يكذب عليك ، ومن اغتاب عندك غيرَك أن يغتابك عند غيرِك . وقيل للحسن البصرى ﷺ : إن فلانًا اغتابك فأهدى إليه طبقا من رطب ، فأتاه الرجل وقال له : اغتبتك فأهديت إلىّ ؟ ! فقال الحسن : أهديت إلىّ حسناتك فأردت أن أكافئَك ! وعن ابن المبارك - رحمه الله تعالى - قال : لو كنت مغتابا أحدًا لاغتبت والدىّ لأنهما أحق بحسناتى . وإذا حاكى إنسان إنسانا بأن يمشى متعارجًا أو متطأطئا أو غير ذلك من الهيئات يريد تنقيصه بذلك فهو حرام . وبعض المتفقهين والمتعبدين يعرضون بالغيبة تعريضا تفهم به كما تفهم بالتصريح فيقال لأحدهم : كيف حال فلان ؟ فيقول : الله يصلحنا ، الله يغفر لنا ، الله يصلحه نسأل الله العافية ، نحمد الله الذى لم يبتلنا بالدخول على الظلمة ، نعوذ بالله من الكبر ، يعافينا الله من قلة الحياء ، الله يتوب علينا ، وما أشبه ذلك مما يفهم تنقيصه ؛ فكل ذلك غيبة محرمة . واعلم أنه كما يحرم على المغتاب ذكر الغيبة ، كذلك يحرم على السامع استماعها ، فيجب على من يسمع إنسانا يبتدئ بغيبة أن ينهاه أن لم يَخَفْ ضرر فإن خافه ، وجب عليه الإنكار بقلبه ، ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقته ، فإن قال بلسانه : اسكت وقلبه يشتهى سماع ذلك ؛ قال بعض العلماء : إن ذلك نفاق . قال الله - تعالى - : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام:٦٨] . ومما أنشدوه فى هذا المعنى :

وسَمعك صُنْ عن سماع القبيح ... كصَونِ اللسان عن النُّطْق بهْ

فإنك عند سماع القبيح ... شريك لقائله فانتبهْ

وكم أزعج الحرصُ من طالبٍ ... فوافى المنية فى مَطْلَبهْ

الفصل الثالث : فى تحريم السعاية بالنميمة

قال الله - تعالى - : ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم:١٠-١١] الآية وحسبك بالنمام خسة

---

(١) وروى عن جابر . . إلخ أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» برقم [١٦٤]، وإسناده ضعيف، فيه عباد ابن كثير، ضعيف.

(٢) من اغتاب المسلمين . . إلخ لم أهتد إلى من أخرجه.

(٣) الحَيْس: تمر وأقط وسمن تخلط وتعجن وتسوى كالثريد.

(٤) الجرداق: الرغيف «فارسية».

(٥) أوحى الله إلى موسى . . إلخ لم أقف عليه، وهو من الإسرائيليات.

ورذيلة سقوطه وضعته ، والهماز : المغتاب الذى يأكل لحوم الناس الطاعن فيهم ، وقال الحسن البصرى : هو الذى يغمز بأخيه فى المجلس ، وهو الهُمَزَةُ اللُمَزة ، وقال على والحسن البصرى رضي الله عنهما العُتل : الفاحش السيئ الخلق ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما العتل : الفاتك الشديد المنافق . وقال عبيد بن عمير : العتل الأكول الشَّرُوب القوى الشديد يوضع فى الميزان فلا يزن شعيرة . وقال الكلبى : هو الشديد فى كفره : وقيل : العتل الشديد الخصومة بالباطل ، والزنيم هو الذى لا يعرف من أبوه . قال الشاعر :

زَنِيمٌ لَيسَ يُعْرَفُ مَنْ أَبُوه بَغِيُّ الأُم ذو حَسَبٍ لَئِيمِ

وروينا فى صحيحى البخارى ومسلم عن حذيفة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ » وروى أن النبى ﷺ مر بقبرين فقال : « إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِى كَبِيرٍ ؛ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِى بِالنَّمِيمَةِ ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِهُ مِنْ بَوْلِهِ » [(١)]. قال الإمام أبو حامد الغزالى - رحمة الله تعالى عليه - : النميمة إنما تطلق فى الغالب على من ينم قول الغير إلى المقول فيه ؛ كقوله : فلان يقول فيك : كذا ؛ فينبغى للإنسان أن يسكت عن كل ما رآه من أحوال الناس ، إلا ما فى حكايته فائدة لمسلم ، أو دفع معصية . وينبغى لمن حملت إليه نميمة ، وقيل له : قال فيك فلان : كذا أن لا يصدق من نم إليه ، لأن النمام فاسق ، وهو مردود الخبر ، وأن ينهاه عن ذلك ، وينصحه ، ويقبح فعله ، ويُبْغِضَه فى الله - تعالى - فإنه بغيض عند الله ، والبغض فى الله واجب ، وأن لا يظن بالمنقول عنه السوء لقول الله - تعالى - : ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات:١٢] وسعى رجل إلى بلال بن أبى بردة برجل وكان أمير البصرة فقال له : انصرف حتى أكشف عنك ؛ فكشف عنه فإذا هو ابن بغى . وروى أن النبى ﷺ قال : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : شِرَارُكُمُ الْمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ ، الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ ، الْبَاغُونَ الْعُيُوبَ » [(٢)]. وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : « ملعون ذو الوجهين ، ملعون كل شغاز ، ملعون كل قتات ، ملعون كل نمام ، ملعون كل منان » [(٣)]. والشغاز : المحرش بين الناس ، يُلقى بينهم العداوة ، والقتات : النمام ، والمنان : الذى يعمل الخير ويمنّ به .

وأما السعاية إلى السلطان وإلى كل ذى قدرة فهى المهلكة والحالقة لأنهار تجمع الخصال الذميمة من الغيبة ، وشؤم النميمة ، والتغرير بالنفوس والأموال فى النوازل والأحوال ، وتسلب العزيز عزه ، وتحط المكين عن مكانته ، والسيد عن مرتبته فكم دم أراقه سعى ساع ، وكم حريم استبيح بنميمة نمام ، وكم من صفيين تباعدا ، وكم من متواصلين تقاطعا ، وكم من محبين افترقا ، وكم من إلفين تهاجرا ، وكم من زوجين تطالقا ، فليتق الله ربه - عز وجل - رجل ساعدته الأيام ، وتراخت عنه الأقدار ، أن يصغى لساع ، أو يستمع لنمام . ووُجد فى حكم القدماء : أبغض الناس عند الله المثلث ؛ قال الأصعمى هو الرجل يسعى بأخيه إلى الإمام فيهلك نفسه ، وأخاه وإمامه . وقال بعض الحكماء : احذروا أعداء العقول ، ولصوص المودّات ، وهم السعاة ، والنمامون إذا سرق اللصوصُ المتاع سرقوا هم المودّات . وفى المثل السائر : من أطاع الواشى ضيع الصديق . وقد تُقْطَعُ الشجرة فتنبت ، ويقطع اللحمَ السيفُ فيندمل ، واللسانُ لا يندمل جُرحُه ، ودفع إنسان رقعة إلى الصاحب بن عباد يحثه فيها على أخذ مال يتيم ، وكان مالا كثيرا ، فكتب إليه على ظهرها النميمة قبيحة - وإن كانت صحيحة - والميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، والساعى لعنه الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وروينا فى كتاب أبى داود والترمذىّ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يُبَلِّغنى أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِى عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا فَإِنِّى أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ » ومن الناس من يتلوّن ألوانا ، ويكون بوجهين ولسانين ، فيأتى هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه ، وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها ؛ قال صالح بن عبد القدوس - رحمه الله تعالى - :

---

(١) حديث: أن النبي ﷺ مر.. إلخ أخرجه البخاري [٢/١١٩]، ومسلم [١/١٦٦]، وأحمد [١/٢٢٥]، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) حديث: ألا أخبركم.. إلخ البخاري. الأدب المفرد من حديث أوله «ألا أخبركم بخياركم» وجاء في النهاية «الباغون البرءاء العنت» بدلاً من «الباغون العيوب».

(٣) حديث: ملعون.. إلخ لم أقف عليه بهذا اللفظ، وكتاب المستطرف مشحون بهذه النوعية من الأحاديث، مثله كمثل إحياء علوم الدين.

قُلْ لِلَّذى لَسْتُ أدْرى من تلُونه ... أناصحٌ أم على غشٍّ يُناجينى
إنى لأكثر مما سُمْتَنى عجبا ... يد تشْجّ وأخرى منك تأسونى
تَغْتابُنى عند أقوام وتمدحُنى ... فى آخرين و كل عَنْك يأتينى
هذان شَيْئانِ قد نافيتَ بينهُمَا ... فاكفُفْ لسانك عن شَتْمى وتزيينى

وقيل: لإلْفٌ لَحوح جموح[1] خير من واحد متلون ، وكان يشبه المتلون بأبى براقش ، وأبى قلمون ، فأبو براقش طائر منقط بألوان النقوش يتلون فى اليوم ألوانا ، وأبو قلمون ضرب من ثياب الحرير ينسج بالروم يتلون ألوانا . ويقال للطائش الذى لا ثبات معه : أبو رياح تشبيها بمثال فارس من نحاس بمدينة حِمْص على عمود حديد فوق قبة بباب الجامع ، يدور مع الريح ، ويمناه ممدودة وأصابعها مضمومة إلا السبابة ، فإذا أشكل عليهم مهبّ الريح عرفوه به ، فإنه يدور بأضعف نسيم يصيبه ، والذى يعمله الصبيان من قرطاس على قصبة يسمى أبا رياح أيضا . ويقال : أخلاق الملوك مثل فى المتلون . قال بعضهم :

ويوم كأخلاق الملوك تَلونَا ... فصحو وتغييم وطَلٌّ ووابلُ
أشبهه إياك يا من صفاته ... دنوّ وإغراضٌ ومَنْعٌ ونائلُ

وكلم معاوية الأحنف فى شىء بلغه عنه ، فأنكره الأحنف ، فقال له معاوية : بلغنى عنك الثقة ، فقال له الأحنف : إن الثقة لا يبلغ مكروها . وكان الفضل بن سهل يبغض السعاية ، وإذا أتاه ساع يقول له : إن صدقتنا أبغضناك ، وإن كذبتنا عاقبناك ، وإن استقلتنا أقلناك . وكتب فى جواب كتاب ساع : نحن نرى أن قبول السّعاية شرٌّ من السعاية لأن السعاية دلالة ، والقبول إجازة ، وليس من دل على شىء وأخبر به ، كمن قبل وأجازه ، فاتقوا الساعى ، فإنه لو كان فى سعايته صادقا ، لكان فى صدقه لئيما ، إذ لم يحفظ الحرمة ، ولم يستر العورة .

وقيل : من سعى بالنميمة حذره الغريب ، ومقته القريب . قال المأمون النميمة لا تقرب مودّة إلا أفسدتها ، ولا عداوة إلا جددتها ، ولا جماعة إلا بددتها ، ثم لابد لمن عُرِفَ بها ونسب إليها أن يجتنب ويخاف من معرفته ، ولا يوثق بمكانه ، وأنشد بعضهم :

مَنْ نمّ فى الناس لم تُؤمَنْ عقاربه ... على الصَّدِيق ولم تؤمن أفاعيهِ
كالسَّيل بالليل لا يدرى به أحد ... من أين جاء ولا من أين يأتيهِ
الوَيْلُ للعهد منه كيف ينقضه ... والويلُ للودّ منه كيف يفنيهِ

وقال آخر :

يسعى عليك كما يسعى إليك فلا ... تَأْمَنْ غوائلَ ذى الوجْهَين كَيّاد

وقال صالح بن عبد القدوس - رحمه الله تعالى - :

مَنْ يخبرك بشَتْم عن أخ ... فهو الشَّاتِم لا من شَتَمكْ
ذاك شىء لم يواجِهْكَ به ... إنَّمَا اللوم على من أعْلَمَكْ

وقال آخر :

إنْ يعلَمُوا الخَير أخفوه ، وإن عَلِمُوا ... شرًّا أذاعُوا ، وإن لَمْ يعلَمُوا كذَبوا

وقال آخر :

إن يسمَعُوا ريبةً طارُوا بها فرحًا ... منى وما سمعوا من صالح دَفَنُوا
صُمٌّ إذا سمعوا خيرا ذُكِرْتُ به ... وإن ذكرتُ بسوء عندهم أذنوا[2]

---

(١) جموح: يقال جمح الرجلُ، أي ركب هواه فلا يمكن ردُّه، فهو جامح وجموح.
(٢) أذنوا: سمعوا.

وقال الحسن ستر ما عاينت ، أحسن من إشاعة ما ظننت . وقال عبد الرحمن بن عوف ﷺ من سمع بفاحشة فأفشاها فهو كالذى أتاها . ومما جاء فى النهى عن اللعن : ما روينا فى صحيحى البخارى ومسلم عن ثابت بن الضحاك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ » وروينا فى صحيح مسلم أيضا عن أبى الدرداء ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعاءَ ولا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وروينا فى سنن أبى داود عن أبى الدرداء ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا ، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا ، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وشِمَالًا ، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إِلَى الَّذِى لُعِنَ إِنْ كَانَ أَهْلًا لِذَلِكَ وإِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا » . ويجوز لعن أصحاب الأوصاف المذمومة على العموم كقوله : لعن الله الظالمين . لعن الله الكافرين . لعن الله اليهود والنصارى . لعن الله الفاسقين . لعن الله المصوّرين . ونحو ذلك .

وثبت فى الأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ قال : « لَعَنَ اللَّهُ الواصِلَةَ والْمُسْتَوْصِلَةَ » [(١)] . وأنه قال : « لَعَنَ اللَّهُ آكِلَ الرِّبَا » [(٢)] وأنه قال : « لَعَنَ اللَّهُ الْمُصَوِّرِينَ » وأنه قال : « لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ » [(٣)] وأنه قال : « لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ » [(٤)] وأنه قال : « لَعَنَ اللَّهُ اليَهُودَ والنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ » [(٥)] وأنه قال : « لَعَنَ اللَّهُ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ والْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ » [(٦)] . وجميع هذه الألفاظ فى البخارى ومسلم . بعضها فيهما وبعضها فى أحدهما . والله أعلم .

ومما جاء فى العزلة ومدح الخمول وذم الشهرة : قال رسول الله ﷺ : « الخمول نعمة وكل يتبرأ ، والظهور نقمة وكل يتمنى » [(٧)] . وقال بعضهم :

تَلَحَّفْ بِالْخُمُولِ تَعِشْ سَلِيمًا ... وجَانِبْ كُلَّ ذِى أَدَبٍ كَرِيمِ

وقال جعفر بن الفراء :

مَنْ أَخْمَلَ النَّفْسَ أَحْيَاهَا ورَوَّحَهَا ... ولَمْ يَبِتْ طَاوِيًا مِنْهَا عَلَى ضَجَرِ

إِنَّ الرِّيَاحَ إِذَا اشْتَدَّتْ عَوَاصِفُهَا ... فَلَيْسَ تَرْمِى سِوَى العَالِى مِنَ الشَّجَرِ

وقال أعرابىّ : رُبَّ وِحْدَةٍ أنفعُ من جليس ، ووحشة أنفع من أنيس . وكان أبو معاوية الضرير يقول : فىّ خصلتان ما يسرنى بهما رَدّ بصرى : قلة الإعجاب بنفسى ، وخلو قلبى من اجتماع الناس إلىّ . وقال عمر ﷺ: خذوا حظكم من العزلة . وصعد حَسّان على أطم [(٨)] من آطام المدينة ونادى بأعلى صوته يا صَبَاحَاه فاجتمعت الخزرج ، فقالوا : ما عندك ؟ قال : قلت : بيت شعر فأحببت أن تسمعوه . قالوا : هات يا حسان فقال :

وإن امرأ أمسى وأصبح سالما ... من الناس إلا ما جَنَى لسعيد

ولما بنى سعد بن أبى وقاص ﷺ منزله بالعقيق قيل له : تركت منازل إخوانك وأسواق الناس ، ونزلت بالعقيق فقال : رأيت أسواقهم لاغية ، ومجالسهم لاهية ، فوجدت الاعتزال فيما هنالك عافية ، وقيل لعروة أخى مرداس : لِمَ لا تحدثنا ببعض ما عندك من العلم ؟ فقال : أكره أن يميل قلبى باجتماعكم إلى حب الرياسة فأخسر الدارين . وقال سفيان بن عيينة : دخلنا على الفضل فى مرضه نعوده ، فقال : ما جاء بكم ؟ والله لو لم تجيئوا لكان أحب إلىّ . ثم قال : نعم الشىء المرض ، لولا العيادة . وقيل للفضل : إن ابنك يقول : وددت لو أنى بالمكان الذى أرى الناس فيه ولا يرونى ، فقال: ويح ابنى لم لا أتمها ؛ فقال : لا أراهم ولا يرونى . وقال علىّ - رضى الله تعالى عنه - : طوبى

---

(١) ثبت في الأحاديث الصحيحة.. إلخ أخرجه البخاري [٥٩٣١]، ومسلم [٢١٢٥/ ١٢٠].

(٢) مسلم [٣/ ١٢١٨]. (٣) مسلم [٣/ ١٩٧٨].

(٤) مسلم [٣/ ١٩٧٨]. (٥) مسلم [١/ ٢١٠٥٣٠]. (٦) البخاري [٧/ ٣٥٦].

(٧) الخمول نعمة.. إلخ . ليس بحديث، بل هو من كلام بعض المشايخ، وانظر: «تمييز الطيب من الخبيث» لابن البديع [ص ١٢٥، ١٢٦ برقم ٥٧٤]، ط مكتبة القرآن.

(٨) حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ والأُطم. والأُطم: الحصن أو البيت المرتفع.

لمن شغله عيبُه عن عيوب الناس ، وطوبى لمن لزم بيته ، وأكل قوته ، واشتغل بطاعته ، وبكى على خطيئته ، فكان من نفسه في شغل ، والناس منه في راحة .

وقال سفيان : الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس .

وقيل لراهب في صومعته : ألا تنزل ؟ فقال : من مشى على وجه الأرض عثر . والكلام في مثل هذا كثير وقد اكتفينا بهذا . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الرابع عشر

في الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام ، وما يجب للسلطان على الرعية ، وما يجب لهم عليه

روى عن الحسن أنه قال للحجاج : سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول : قال رسول الله ﷺ : « **وقّروا السلاطين وبَجّلوهم فإنهم عز الله وظله في الأرض إذا كانوا عدولا** »[(١)] . فقال الحجاج : ألم نكن فيهم إذا كانوا عدولا ؟ قال : قلت : بلى .

وعن عمر رضي الله عنه قال : قلت للنبيّ ﷺ : أخبرني عن السلطان الذي ذلت له الرقاب ، وخضعت له الأجساد ما هو ؟ قال : « **ظلّ الله في الأرض ، فإذا أحسن فله الأجر ، وعليكم الشكر ، وإذا أساء فعليه الإصر ، وعليكم الصبر** »[(٢)] . وعنه ﷺ : « **أيما راعٍ استرعى رعيته ولم يَحطها بالأمانة والنصيحة من ورائها إلا ضاقت عليه رحمة الله - تعالى - التي وسعت كل شيء** »[(٣)] . وقال مالك بن دينار[(٤)] رضي الله عنه وجدت في بعض الكتب يقول الله - تعالى - : « **أنا ملك الملوك رقاب الملوك بيدي ، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة ، لا تشغلوا ألسنتكم بسب الملوك ، ولكن توبوا إلى الله يعطفهم عليكم** » . وقال جعفر بن محمد - رحمة الله تعالى عليه - كفارة عمل السلطان الإحسان إلى الإخوان . وقال كسرى لسيرين : ما أحسن هذا الملك لو دام ! فقال : لو دام لأحد ما انتقل إلينا ، ومر طارق الشرطي بابن شبرمة في موكبه فقال :

أراها - وإنْ كانتْ تُحبّ - فإنّها سحابةُ صَيفٍ عن قليلٍ تَقَشَّعُ

وجلس الإسكندر يوما فما رفع إليه حاجة ، فقال : لا أعد هذا اليوم من أيام ملكي . وقال الجاحظ ليس شيء ألذ ولا أسر من عز الأمر والنهي ، ومن الظفر بالأعداء ، ومن تقليد المنن أعناق الرجال لأن هذه الأمور نصيب الروح ، وحظ الذهن ، وقسمة النفس ، وقيل : الملك خليفة الله في عباده . ولن يستقيم أمر خلافته مع مخالفته . وقال الحجاج : سلطان تخافه الرعية خير من سلطان يخافها . وقال أردشير لابنه : يا بنيّ ، الملك والدين أخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر ، فالدين أس ، والملك حارس ، وما لم يكن له أس فمهدوم ، وما لم يكن له حارس فضائع . وقيل : لما دنت وفاة هرمز وامرأته حامل ، عقد التاج على بطنها ، وأمر الوزراء بتدبير المملكة حتى ولد له ولد فتملك ، وأغار العرب على نواحي فارس في صباه ، فلما أدرك ركب وانتخب من أهل النجدة فرسانا ، وأغار على

---

(١) حديث: «وقروا . . إلخ» . لم أقف عليه.

(٢) حديث: «أخبرني عن هذا السلطان . . إلخ» . موضوع: أخرجه الديلمي في مسنده، وفيه عمرو بن عبد الغفار، متروك، بل متهم بوضع الحديث. وانظر: تخريج أحاديث العادلي، لأبي نعيم، تخريج السخاوي [ص٨٠-٨١].

(٣) حديث: «أيما راع . . إلخ» أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد [١٠/ ١٢٧]، من حديث عبد الرحمن بن سمرة.

(٤) هو أبو يحيى مالك بن دينار رضي الله عنه كان من سادات التابعين وطبقة الأخيار توفي سنة إحدى وثلاثين ومائة.

العرب فانتهكهم بالقتل ، ثم خلع أكتاف سبعين ألفا فقيل له : ذو الأكتاف وأمر العرب حينئذ بإرخاء الشعور ، ولبس المصبغات ، وأن يسكنوا بيوت الشعر ، وأن لا يركبوا الخيل إلّا عراة . وقيل : من أخلاق الملوك حب التفرد كان أردشير إذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد على رأسه قضيب ريحان ، وإذا لبس حلة لم ير على أحد مثلها ، وإذا تختم بخاتم كان حراما على أهل المملكة أن يتختموا بمثله . وكان سعيد بن العاص بمكّة إذا اعتمّ لم يعتم أحد بمثل عمامته ما دامت على رأسه وكان الحجاج إذا وضع على رأسه عمامة لم يجترئ أحد من خلق الله أن يدخل عليه بمثلها . وكان عبد الملك إذا لبس الخف الأصفر لم يلبس أحد مثله حتى ينزعه . وأخبرني من سافر إلى اليمن أنه لا يأكل الإوَزّ بها أحد غير الملك . وقيل : من حق الملك أن يفحص عن أسرار الرعية فحص المرضعة عن ابنها . وكان أردشير متى شاء قال لأرفع أهل مملكته وأوضعهم : كان عندك في هذه الليلة كيت وكيت حتى كان يقال : يأتيه ملك من السماء وما ذاك إلا بتفحصه وتيقظه . وكان علم عمر ﷺ بمن نأى عنه ، كعلمه بمن بات معه على وساد واحد ، ولقد اقتفى معاوية أثره . وتعرف إلى زياد رجل فقال : أتتعرف إليّ وأنا أعرف بك من أبيك وأمك ، وأعرف هذا البُرد الذى عليك ؟ ! ففزع الرجل حتى ارتعد من كلامه . وعن بعض العباسيين قال : كلمت المأمون - رحمه الله تعالى - في امرأة خطبتها وسألته النظر إليها ، فقال : يا أبا فلان من قِصَّتِها وحِلْيَتِها وفعلها وشأنها كيت وكيت ، فوالله ما زال يصفها ، ويصف أحوالها حتى أبهتني ! !

ومما جاء في طاعة ولاة أمور الإسلام : أمر الله - تعالى - بذلك في كتابه العزيز على لسان نبيه الكريم فقال - تعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء:٥٩]. وروينا في صحيح البخارى عن جابر ابن عبد الله الأنصارى رضي الله عنهما قال : « **بَايَعْتُ رسُولَ اللَّه ﷺ عَلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَه إِلَّا اللَّهُ ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، والسَّمْعِ والطَّاعَةِ ، والنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ** » . وسئل كعب الأحبار عن السلطان فقال : ظل الله في أرضه ، من ناصحه اهتدى ، ومن غشه ضل . وعن حذيفة بن اليمان ﷺ : لا تسبوا السلطان ، فإنه ظل الله في الأرض ، به يقوم الحق ، ويظهر الدين ، وبه يدفع الله الظلم ، ويهلك الفاسقين . وقال عمر بن عبد العزيز[1] لمؤدبه : كيف كانت طاعتى لك ؟ قال : الأحسن طاعة ، قال : فأطعنى كما كنت أطيعك . خذ من شاربك حتى تبدو شفتاك ، ومن ثوبك حتى تبدو عِقبَاك .

وعن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال : « **مَنْ أَطَاعَنِى فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، ومَنْ عَصَانِى فَقَدْ عَصَى اللَّهَ ، ومَنْ أَطَاعَ أَمِيرِى فَقَدْ أَطَاعَنِى ، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِى** »[2] . وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن النبى ﷺ أمر بالسمع والطاعة لولى الأمر ، ومناصحته ، ومحبته والدعاء له ، ولو تتبعت ذلك لطال الكلام . لكن اعلم - أرشدنى الله وإياك إلى الاتباع ، وجنبنا الزيغ والابتداع - أن من قواعد الشريعة المطهرة ، والملة الحنيفية المحررة ، أن طاعة الأئمة فرض على كل الرعية وأن طاعة السلطان تؤلف شمل الدين ، وتنظم أمور المسلمين ، وأن عصيان السلطان يهدم أركان الملة وأن أرفع منازل السعادة طاعة السلطان ، وأن طاعته عصمة من كل فتنة ، وبطاعة السلطان تقام الحدود ، وتؤدى الفروض ، وتحقن الدماء ، وتؤمن السبل ، وما أحسن ما قالت العلماء : إن طاعة السلطان هدى لمن استضاء بنورها ، وإن الخارج عن طاعة السلطان منقطع العصمة ، برىء من الذمة ، وإن طاعة السلطان حبل الله المتين ، ودينه القويم ، وإن الخروج منها خروج من أُنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ومن غش السلطان ضلّ وزلّ ، ومن أخلص له المحبة والنصح حل من الدين والدنيا في أرفع محل ، وإن طاعة السلطان واجبة ، أمر الله - تعالى - بها في كتابه العظيم المنزل على نبيه الكريم ، وقد اقتصرنا من ذلك على ما أوردناه ، واكتفينا بما بيناه ، ونسأل الله - تعالى - أن يلهمنا رشدنا ، وأن يعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، وأن يصلح شأننا ، إنه قريب مجيب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(١) هو خامس الراشدين أتته الدنيا وهي راغمة، فتركها وزهد فيها وأخباره مشهورة في الحلية لأبي نعيم، وكانت خلافته سنتين وأربعة عشر يومًا.

(٢) حديث: «من أطاعني.. إلخ» أخرجه البخاري [٢٩٥٧]، ومسلم [١٨٨٤١]، وأبو عوانة [٤/٤٥٧].

الباب الخامس عشر

فيما يجب على من صحب السلطان ، والتّحذير من صحبته

أما صحبة السلطان : فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما قال لى أبى : يا بنى، إنى أرى أميرَ المؤمنين يستخليك[١] ويستشيرك ، ويقدّمك على الأكابر من أصحاب محمد ﷺ ، وإنى أوصيك بخلال ثلاث : لاتُفشَيَنَّ له سرا ، ولا تجربن عليه كذبا ، ولا تغتابن عنده أحدا . قال الشعبى - رحمه الله تعالى - : قلت لابن عباس : كل واحدة منهن خير من ألف ؛ فقال : أى والله ومن عشرة آلاف . وقال بعض الحكماء : إذا زادك السلطان تأنيسا[٢] ، فزده إجلالا ، وإذا جعلك أخا فاجعله أبا ، وإذا زادك إحسانا ، فزده فعل العبد مع سيده ، وإذا ابتليت بالدخول على السلطان مع الناس فأخذوا فى الثناء عليه ، فعليك بالدعاء له ، ولا تكثر فى الدعاء له عند كل كلمة فإن ذلك شبيه بالوحشة والغربة[٣] .

وقال مسلم بن عمر لمن خدم السلطان: لا تغتر بالسلطان إذا أدناك ، ولا تتغير منه إذا أقصاك[٤] . وروى أن بعض الملوك استصحب حكيما فقال له: أصحبك على ثلاث خصال : قال : وما هن ؟ قال : لا تهتك لى سترا ، ولا تشتم لى عرضا، ولا تقبل فىّ قول قائل حتى تستشيرنى . قال : هذا لك ، فماذا لى عليك ؟ قال : لا أفشى لك سرا ، ولا أدخر عنك نصيحة ، ولا أُوثر عليك أحدا ، قال : نِعْم الصاحب للمستصحب أنت . وقال بزرجمهر[٥]: إذا خدمت ملكا من الملوك فلا تطعه فى معصية خالقك ، فإن إحسانه إليك فوق إحسان الملك ، وإيقاعه بك أغلظ من إيقاعه . وقالوا : اصحب الملوك بالهيبة لهم والوقار ، لأنهم إنما احتجبوا عن الناس لقيام الهيبة ، فلا تترك الهيبة وإن طال أنسك بهم تزدد غما . وقالوا : عَلّم السلطان ، وكأنك تتعلم منه ، وأشِر عليه وكأنك تستشيره ، وإذا أحلّك السلطان من نفسه بحيث يسمع منك ، ويثق بك فإياك والدخول بينه وبين بطانته ، فإنك لا تدرى متى يتغير منك ، فيكونون عونا عليك ، وإياك أن تعادى من إذا شاء أن يطرح ثيابَه ، ويدخل مع الملك فى ثيابه فعل . وفى الأمثال القديمة : احذروا زمارة المخدة ، وفيه قيل بيت مفرد :

لـيـس الـشـفـيـعُ الـذى يـأتـيـكَ مـتّـزِرًا ... مـثـلَ الـشـفـيـع الـذى يـأتـيـكَ عُـرْيـانـا

وقال يحيى بن خالد إذا صحبت السلطان فدارِ مداراةَ المرأة العاقلة لصحبة الزوج الأحمق .

وأما ما جاء فى التحذير من صحبة السلطان : فقد اتفقت حكماء العرب والعجم على النهى عن صحبة السلطان ، قال فى كتاب كليلة ودمنة : ثلاثة لا يسلم عليها إلا القليل : صحبة السلطان ، وائتمان النساء على الأسرار ، وشرب السم على التجربة . وكان يقال: قد خاطر بنفسه من ركب البحر ، وأعظم منه خطرا من صحب السلطان . وكان بعض الحكماء يقول : أحق الأمور بالتثبت فيها أمور السلطان ، فإن من صحب السلطان بغير عقل فقد لبس شعار الغرور . وفى حكم الهند ، صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطر .

وقيل للعتابى : لم لا تصحب السلطان على ما فيك من الأدب ؟ قال : لأنى رأيته يُعطى عشرة آلاف فى غير شىء ، ويرمى من السور فى غير شىء ، ولا أدرى أى الرجلين أكون ؟ ! وقال معاوية لرجل من قريش : إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبى ، ويبطش بطش الأسد . وقال ميمون بن مهران قال لى عمر بن عبد العزيز : يا ميمون ، احفظ عنى أربعا : لاتصحبن السلطان وإن أمرته بالمعروف ، ونهيته عن المنكر ، ولا تخلون بامرأة وإن أقرأتها القرآن ، ولا تَصِلْ من قطع رحمه فإنه لك أقطع ، ولا تتكلم بكلام اليوم تعتذر منه غدا . وكم رأينا وبلغنا ممن صحب السلطان من أهل الفضل والعقل والعلم والدين ليصلحه ففسد هُو به فكان كما قيل :

---

(١) يستخليك : يخلو بك .
(٢) تأنيسًا : أنسًا، وأزال ما لديك من الوحشة وعاملك بغير كلفة .
(٣) حيث تصبح أشبه بمن لا يعرفون السلطان!
(٤) أدناك : قربك، وأقصاك : أبعدك .
(٥) بُزُرْجمْهر بن البختكان: الوزير العادل لكسرى أنو شروان، وواضع كتاب برزويه من كليلة ودمنة، اشتهر برجاحة عقله وحكمته [انظر قاموس الأعلام لشمس الدين سامي].

عَدْوَى البليد إلى الجليد سريعةٌ والجمر يوضع فى الرماد فيَخْمدُ [١]

ومثل من صحب السلطان ليصلحه مثل من ذهب ليقيم حائطًا مائلا ، فاعتمد عليه ليقيمه ، فخر الحائط عليه ، فأهلكه ، قال الشاعر :

ومُعاشِرُ السلطان شبهُ سفينة فى البحر ترجُفُ دائما من خوفه
إن أدخلت من مائه فى جوْفها يغتالُها مع أنّها فى جوفه

وفى كتاب كليلة ودمنة : لا يَسعد من ابتُلِيَ بصحبة الملوك ، فإنهم لا عهَد لهم ولا وفاء ولا قريب ولا حميم ولا يرغبون فيك إلا أن يطمعوا فيما عندك ، فيقربوك عند ذلك ، فإذا قضوا حاجتهم منك تركوك ورفضوك ، ولا وُدّ للسلطان ولا إخاء ،والذنب عنده لا يغفر .

وقالت الحكماء : صاحب السلطان كراكب الأسد يخافه الناسُ وهو لمركوبه أخوف . وقال محمد بن واسع : والله لَسَفُّ التراب ولقضم العظم ، خير من الدنوّ من أبواب السلاطين . وقال محمد بن السماك : الذباب على العذرة خير من العابر على أبواب الملوك .

وقيل : من صحب السلطان قبل أن يتأدّب فقد غرر بنفسه . وقال ابن المعتز من شارك السلطان فى عز الدنيا شاركه فى ذل الآخرة . وعنه : إذا زادك السلطان تأنيسا وإكراما فزده تهيبا واحتشاما . وقال أبو على الصغانىّ : إياك والملوك فإن من والاهم أخذوا ماله ، ومن عاداهم أخذوا رأسه ، وقيل : مكتوب على باب قرية من قرى بَلْخ اسمها بهار : أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاثة : عقل ، وصبر ، ومال . وتحته مكتوب كذب عدوّ الله ، من كان له واحد منها لم يقرب باب السلطان . وقال حسان بن ربيع الحميرى : لا تثقن بالملك فإنه ملول ، ولا بالمرأة فإنها خئون ، ولا بالدابة فإنها شَرود ، وقال عبيد بن عمير : ما ازداد رجل من السلطان قربا ، إلا ازداد من الله بعدا ، ولا كثرت أتباعه ، إلا كثرت شياطينه ، ولا كثر ماله إلا كثر حِسَابُه ، وقال ابن المبارك - رحمه الله - :

أرى الملوكَ بأَدْنَى الدّين قد قنَعُوا ولا أراهُمْ رَضُوا فى العَيْش بالدُّون
فَاسْتَغْنَ بالدِّين عن دُنيا المُلوك كمَا استَغْنى المُلوك بدُنْياهُمْ عن الدِّينِ

وقال بعضهم فى وُلاة بنى مروان :

إذا ما قطعتمُ ليلكم بمُدامِكُمْ وأفنيتموا أيّامكُمْ بمنام
فمَنْ ذا الذى يغشاكُم فى مُلمة ؟ ومن ذا الذى يَغْشاكُمْ بسلام ؟
رضيتُمْ من الدُّنيا بأيسر بُلْغةٍ بلَثْم غُلام أو بشُرْب مُدام [٢]
ولمْ تعلموا أنَّ اللّسان موكل بمَدْح كِرَام أو بذَمِّ لئام !

نهت الحكماء عن خدمة الملوك ، فقالوا : إن الملوك يستعظمون فى الثواب ردّ الجواب ، ويستقلون فى العقاب ضرب الرقاب . وقيل : شر الملوك من أمنه الجريء ، وخافه البريء ! والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) البليد : من حرم الذكاء والمضاء في الأمور، أما الجليد فهو من قوى، وصبر على المكروه.
(٢) البُلغة : ما يكفي لسد الحاجة، ولا يفضل عنها، والمدامة : الخمر.

الباب السادس عشر

في ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم ، وما أشبه ذلك

قال الله - تعالى - حاكيًا عن موسى عليه السلام : ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه:٢٩] . فلو كان السلطان يستغنى عن الوزراء ، لكان أحقَّ الناس بذلك كليمُ الله موسى بن عمران عليه السلام ؛ ثم ذكر حكمة الوزارة فقال : ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۝ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه:٣١-٣٢] دلت هذه الآية على أن الوزارة تشد قواعد المملكة وأن يفوض إليه السلطان إذا استكملت فيه الخصال المحمودة ثم قال : ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه:٣٣-٣٤] دلت هذه الآية على أن بصحبة العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة تنتظم أمور الدنيا والآخرة ، وكما يحتاج أشجع الناس إلى السلاح ، وأفره الخيل إلى السوط [١] ، وأحد الشِّفار [٢] إلى المسنّ ، كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم ، وأعلمهم إلى الوزير . وروى أبو سعيد الخُدْرِيّ رضي الله عنه قال : « **مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ : بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ . وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ** » [٣] . وقال وهب بن منبه : قال موسى لفرعون : آمنْ ولك الجنة ، ولك ملكك ، قال : حتى أشاور هامان فشاوره فى ذلك ، فقال له هامان : بينما أنت إلهٌ تُعْبَد إذ صرت تَعبُد ، فأنِفَ واسْتَكْبَرَ ، وكان من أمره ما كان . وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد بن مسلم لا يألوه خبالا ، ولبئس القرناء شر قرين لشر خَدِين [٤] ، وأشرف منازل الآدميين النبوة ، ثم الخلافة ، ثم الوزارة ، وفى الأمثال : نعم الظهير الوزير ، وأوّل ما يظهر نبل السلطان ، وقوة تمييزه ، وجودة عقله فى انتخاب الوزراء ، واستنقاء الجلساء ، ومحادثة العقلاء ، فهذه ثلاث خلال تدل على كماله ، وبهذه الخلال يجمل فى الخلق ذكره ، وترسخ فى النفوس عظمته ، والمرء موسوم بقرينه ، وكان يقال : حِلْيَةُ الملوك وزينتهم وزراؤهم ، وفى كتاب كليلة ودمنة : لا يصلح السلطان إلا بالوزراء والأعوان .

وقال شريح بن عبيد لم يكن فى بنى إسرائيل ملك إلا ومعه رجل حكيم ، إذا رآه غضبان كتب إليه صحائف فى كل صحيفة : ارحم المسكين واخش الموت واذكر الآخرة ، فكلَّما غضب الملك ناوله الحكيم صحيفة حتى يسكن غضبه . ومثل الملك الخير والوزير السوء الذى يمنع الناس خيره ، ولا يمكنهم من الدنو منه ، كالماء الصافى فيه التمساح ، فلا يستطيع المرء دخوله ، وإن كان سابحا وإلى الماء محتاجا ، ومثل السلطان كمثل الطبيب ، ومثل الرعية كمثل المرضى ، ومثل الوزير كمثل السفير بين المرضى والأطباء . فإذا كذب السفير ، بطل التدبير ، وكما أن السفير إذا أراد أن يقتل أحدا من المرضى وصف للطبيب نقيض دائه فإذا سقاه الطبيب على صفة السفير هلك العليل ، كذلك الوزير ينقل إلى الملك ما ليس فى الرجل فيقتله الملك ، فمن هُهنا شرط فى الوزير أن يكون صَدُوقا فى لسانه ، عدلا فى دينه ، مأمونا فى أخلاقه ، بصيرا بأمور الرعية ، وتكون بطانة الوزير أيضا من أهل الأمانة والبصيرة ، وليحذر الملك أن يولى الوزارة لئيما ، فاللئيم إذا ارتفع جفا أقاربه ، وأنكر معارفه ، واستخف بالأشراف ، وتكبر على ذوى الفضل . ودخل بعض الوزراء على بعض الخلفاء ، وكان الوزير من أهل العقل والأدب ، فوجد عنده رجلا ذميا كان الخليفة يميل إليه ويقربه ، فقال الوزير منشدا :

يَا مَلِكًا طَاعَتُهُ لازِمَةْ ... وَحُبُّهُ مُفْتَرَضٌ واجِبُ

إِنَّ الَّذِي شُرِّفْتَ مِنْ أَجْلِهِ ... يَزْعَمُ هَذَا أَنَّهُ كَاذِبُ

وأشار إلى الذمىّ ؛ فاسأله يا أمير المؤمنين عن ذلك ، فسأله فلم يجد بدًّا من أن يقول : هو صادق فاعترف

---

(١) الفراهة : الجمال والحسن، والخفة والنشاط .

(٢) الشِّفار : جمع شفرة، السكين وما أشبهه .

(٣) حديث : «ما بعث الله . . إلخ» أخرجه البخاري [٧١٩٨]، والنسائي [٧/ ١٥٨]، وأحمد [٣/ ٣٩، ٨٨]، والطحاوي في مشكل الآثار [٣/ ٢٢]، والبغوي في شرح السنة برقم [٢٤٨٣].

(٤) خدين : خادنه، أي صادقه، فهو مُخادن، وخدين .

بالإسلام . وكان بعض الملوك قد كتب ثلاث رقاع ، وقال لوزيره : إذا رأيتنى غضبان فادفع إلىّ رقعة بعد رقعة ؛ وكان فى الأولى : إنك لست بإله ، وإنك ستموت وتعود إلى التراب فيأكل بعضك بعضا ، وفى الثانية : ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء ، وفى الثالثة : اقض بين الناس بحكم الله فإنه لا يصلحهم إلا ذلك . ولما كانت أمور المملكة عائدة إلى الوزراء ، وأزِمّة الملوك فى أكف الوزراء سبق فيهم من العقلاء المثل السائر فقالوا : لا تغتر بمودّة الأمير إذا غشك الوزير ، وإذا أحبك الوزير فنم ولا تخش الأمير ، ومثل السلطان كالدار والوزير بابها ، فمن أتى الدار من بابها ولج ، ومن أتاها من غير بابها انزعج . وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرآة من البصر ؛ فكما أن من لم ينظر فى المرآة لا يرى محاسن وجهه وعيوبه ، كذلك السلطان إذا لم يكن له وزير لا يعلم محاسن دولته وعيوبها .

ومن شروط الوزير : أن يكون كثير الرحمة للخلق رءوفًا بهم . واعلم أنه ليس للوزير أن يكتم عن السلطان نصيحة وإن استقلها ، وموضع الوزير من المملكة كموضع العينين من الرأس ، وكما أن المرآة لا تريك وجهك إلا بصفاء جوهرها وجودة صقلها ونقائها من الصدأ كذلك السلطان لا يكمل أمره إلا بجودة عقل الوزير ، وصحة فهمه ونقاء قلبه والله - تعالى - أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .

الباب السابع عشر

فى ذكر الحجاب والولاية ، وما فيها من الغَرَر والخَطَر

أما الحجاب : فقد قيل : لا شىء أضيع للمملكة ، وأهلك للرعية من شدّة الحجاب . وقيل : إذا سهل الحجاب أحجمت الرعية عن الظلم ، وإذا عظم الحجاب هجمت على الظلم . وقال ميمون بن مهران كنت عند عمر بن عبد العزيز ، فقال لحاجبه مَنْ بالباب ؟ فقال : رجل أناخ ناقته الآن يزعم أنه ابن بلال مؤذن رسول الله ﷺ، فأذن له أن يدخل ، فلما دخل قال : حدّثنى أبى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « **مَنْ وَلِىَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ حَجَبَ عَنْهُ ، حَجَبَهُ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** »[1] . فقال عمر لحاجبه: الزم بيتك ، فما رؤى على بابه بعد ذلك حاجب ، وكان خالد ابن عبد الله القسرى يقول لحاجبه : إذا أخذت مجلسى فلا تحجبن عنى أحدا ، فإن الوالى لا يحتجب إلا لثلاث : عيب يكره أن يطلع عليه أحد ، أو ريبة يخاف منها أن تظهر ، أو بخل يكره معه أن يُسأل شيئا . وكانت العجم تقول : لا شىء أضيع للمملكة من شدّة حجاب الملك ، ولا شىء أهيب للرعية وأكفّ لهم عن الظلم من سهولته . وقيل لبعض الحكماء : ما الجرح الذى لا يندمل ؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم ثم يردّه بغير قضائها . قيل : فما الذى هو أشد منه ؟ قال : وقوف الشريف بباب الدنىء ، ثم لا يؤذن له . ووقف عبد الله بن العباس بن الحسن العلوىّ على باب المأمون يومًا فنظر إليه الحاجب ، ثم أطرق فقال عبد الله لقوم معه : إنه لو أذن لنا لدخلنا ، ولو صرفنا لانصرفنا ، ولو اعتذر إلينا لقبلنا ، وأما النظرة بعد النظرة ، والتوقف بعد التعرف ، فلا أفهم معناه ثم تمثل بهذا البيت :

وما عن رضا كان الحِمارُ مطيتى ... ولكنّ من يمشى سيرضى بما ركب

ثم انصرف ؛ فبلغ ذلك المأمون فضرب الحاجب ضربا شديدا وأمر لعبد الله بصلة جزيلة وعشر دواب . قال الشاعر :

رأيتُ أناسًا يسرعُون تبادرًا ... إذا فتح البوَّاب بابَك إصبعَا

ونحنُ جلوسٌ ساكتون رزانة ... وحلمًا إلى أن يفتح الباب أجمعَا

---

(١) حديث: «من ولي . . إلخ» . ورد بلفظ قريب منه عن معاذ، أخرجه أحمد [٥/٢٣٩].

ووقف رجل خراسانى بباب أبى دُلف العِجْلى حينا ، فلم يؤذن له ، فكتب رقعة وتلطف فى وصولها إليه وفيها :

إذا كان الكريمُ له حجاب ... فما فضلُ الكريم على اللئيم ؟ !

فاجابه أبو دلف بقوله :

إذا كان الكريمُ قليلَ مالٍ ... ولم يُعْذَرْ تعلَّلَ بالحجابِ

وأبوابُ الملوك محجبات ... فلا تستنكرن حجابَ بابى

ومن محاسن النظم فى ذم الاحتجاب قول بعضهم :

سأهجركم حتى يلين حجابُكم ... على أنه لابد سوف يلينُ

خذوا حِذركم من صَفْوةِ الدهر إنها ... وإن لم تكنْ خانت فسوف تخونُ

وقال آخر :

ماذا على بواب داركم الذى ... لم يُعطنا إذنا ولا يستأذن

لو ردّنا ردّا جميلا عنكم ... أو كان يدفع بالتى هى أحسن ؟ !

وقال آخر :

أمرت بالتسهيل فى الإذن لى ... ولم ير الحاجب أن يأذنا

فلن ترانى بعدها عائدا ... ولن تراه بعد مستأذنا

وقال آخر :

ولقد رأيتُ ببابِ دارِك جفوةً ... فيها لحسن صنيعك التكديرُ

ما بالُ دارك حين تدخل جنة ... وبباب دارك منكر ونكيرُ ؟ ! !

وقال آخر :

إذا جئتُ ألْقى عند بابك حاجبا ... مُحَيَّاهُ من فَرْط الجهالة حالكُ

ومن عجب مَغْناك جنة قاصد ... وحاجبها من دون رضوانَ مالكُ

وقال آخر :

سأترك بابا أنت تملك إذنه ... ولو كنت أعمى عن جميع المسالكِ

فلو كنت بوّاب الجنان تركتها ... وحولت رجلى مسرعا نحو مالكِ

وقال آخر :

ماذا يفيدُك أن تكون محجّبا ... والعبد بالباب الكريم يلوذُ ؟ !

ما أنت إلا فى الحصار معى فلا ... تتعب فكل محاصر مأخوذ

وقال أبو تمام :

سأتركُ هذا البابَ ما دام إذنُه ... على ما أرى حتى يلينَ قليلا

فما خاب من لم يأته متعمدا ... ولا فاز من قد نال منه وصولا

إذا لم نجد للإذن عندك موضعا ... وجدنا إلى ترك المجىء سبيلا

واستأذن رجل على أمير فقال الحاجب : قل له : إن الكرى[1] قد خطب إلىّ نفسى ، وإنما هى هجعة وأهُبُّ ، فخرج الحاجب فقال له الرجل : ما الذى قال لك ؟ قال : قال كلامًا لا أفهمه ، وهو يريد أن لا يأذن لك . وقال علىّ ابن أبى طالب ﷺ : إنما أمهل فرعون مع دعواه الألوهية ؛ لسهولة إذنه ، وبذل طعامه ، وقال عمرو بن مُرّة الجهنى

(١) الكَرَى : النوم.

لمعاوية : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَا مِنْ أَمِير يغْلقُ بابهُ دُون ذوى الْحَاجةِ والْخلَّةِ والمسْألَةِ إِلَّا أغْلقَ اللَّهُ أبْوَابَ السَّمٰوات دوْن حاجَتِه وخلَّته ومَسْألَته » [(١)] وجاء النامى الشاعر لبعض الأمراء فحجبه فقال :

سأصبرُ إن جفوت فكم صَبَرنا ... لمثلك من أمير أو وزير !
رجَوْناهُم فلمَّا أخلفونا ... تمادت فيهم غِيَرُ الدّهورِ
فبِتْنا بالسلامة وهى غُنْم ... وباتُوا فى المَحَابس والقبور
ولمَّا لم ننلْ منهمْ سرورا ... رأينا فيهم كلّ السرور

وأنشدوا فى ذلك أيضا :

قُلْ للذين تحجَّبوا عن راغبٍ ... بمنازلٍ من دونها الحُجَّابُ
إنْ حالَ عن لُقْياكم بوّابكم ... فاللهُ ليس لبابه بوّابُ

واستأذن سعد بن مالك على معاوية ، فحجبه ، فهتف بالبكاء ، فأتى إليه الناس - وفيهم كعب - فقال : ومايبكيك يا سعد ؟ فقال : وما لى لا أبكى ، وقد ذهب الأعلام من أصحاب رسول الله ﷺ ومعاوية يلعب بهذه الأمة ؟ ! فقال كعب : لاتبك فإن فى الجنة قصرا من ذهب يقال له : عدن أهله الصديقون والشهداء ، وأنا أرجو أن تكون من أهله .

واستأذن بعضهم على خليفة كريم وحاجبه لئيم فحجبه فقال :

فى كل يوم لى ببابك وقفةٌ ... أطْوى إليه سائر الأبواب
وإذا حضرت رغبت عنك فإنه ... ذنبٌ عُقوبته على البواب

وأما ذكر الولايات وما فيها من الخطر العظيم : فقد قال الله - تعالى - لداود عليه السلام : ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦]. جاء فى التفسير أن من اتباع الهوى أن يحضر الخصمان بين يديك ، فتودّ أن يكون الحق للذى فى قلبك حبه خاصة ، وبهذا سُلب سليمانُ بنُ داود مُلكه ؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما كان الذى أصاب سليمان بن داود عليهما السلام أن ناسا من أهل جرادة امرأته ، وكانت من أكرم نسائه عليه تحاكموا إليه مع غيرهم ، فأحب أن يكون الحق لأهل جرادة فيقضى لهم ، فعوقب بسبب ذلك حيث لم يكن هواه فيهم واحدًا . وروى عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **يا عَبْدَ الرَّحْمنِ ، لا تَسْأَل الإمارَةَ ، فإنَّك إنْ أُعْطيتَها مِنْ غَيْرِ مَسْألَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْها وإنْ أُعْطيتَها عَنْ مَسْألَةٍ وُكِلْتَ إلَيْها** » [(٢)]. وقال معقل بن يسار رضي الله عنه : سمعت النبى ﷺ يقول : « **ما مِنْ عَبْدٍ يسْترْعِيهِ اللَّهُ رعِيَّةً فَلَمْ يَحطْها بنصِيحَتِهِ إلَّا لَمْ يَجِدْ رَائحَةَ الْجَنَّة** » [(٣)]. وفى الحديث : « **من ولى من أمور المسلمين شيئًا ثم لم يحطهم بنصيحته كما يحوط أهل بيته ، فليتبوّأ مقعده من النار** » [(٤)]. وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث إلى عاصم يستعمله على الصدقة فأبى ، وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالى ، فيقف على جسر جهنم ، فيأمر الله - تعالى - الجسر فينتفض انتفاضة فيزول كل عضو منه عن مكانه ، ثم يأمر الله - تعالى - بالعظام فترجع إلى أماكنها فإن كان لله مطيعًا أخذ بيده ، وأعطاه كفلين من رحمته ، وإن كان لله عاصيًا انخرق به الجسر فهوى به فى نار جهنم مقدار سبعين خريفًا** » [(٥)] فقال عمر رضي الله عنه سمعت من النبى ﷺ ما لم أسمع ؟ ! قال : نعم . وكان سلمان وأبو ذر حاضرين - فقال سلمان : أى والله يا عمر ومع السبعين سبعون خريفا فى وادٍ يلتهب التهابًا فضرب عمر رضي الله عنه بيده على جبهته وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون مَنْ يأخذها بما فيها ؟ ! فقال سلمان : من أرغم الله أنفه ، وألصق خدّه بالأرض . وروى أبو داود فى السنن قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن أبى عريف على

---

(١) «ما من أمير . . إلخ» أخرجه الترمذي [١٣٤٩].

(٢) حديث: «يا عبد الرحمن . . إلخ» أخرجه البخاري [٧١٤٦]، ومسلم [١٦٥٢].

(٣) حديث: «ما من عبد . . إلخ» أخرجه البخاري [٧١٥٠].

(٤) حديث: «من ولى . . إلخ» أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» [ج٢٠ برقم ٥١٣]، عن معقل بن يسار.

(٥) حديث: «إذا كان يوم القيامة . . إلخ» رواه الطبراني، وفيه من لم أعرفه، هكذا قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» [٥/٢٠٦].

الماء[١] ، وإنى أسألك أن تجعل لى العِرافةَ من بعده ، فقال النبى ﷺ : « العُرَفاء فى النار » وروى أبو سعيد الخدرى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أشد الناس عذابا يوم القيامة الإمام الجائر »[٢] . وقالت عائشة رضى الله عنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالقاضى العدل يوم القيامة ، فيلقى من شدّة الحساب ما يودّ أنه لم يقض بين اثنين فى تمرة »[٣] . وقال الحسن البصرى : إن النبىّ ﷺ دعا عبد الرحمن بن سمرة يستعمله ، فقال : يا رسول الله ، خِر لى ، فقال : « اقعد فى بيتك »[٤] وقال أبو هريرة ﷺ : ما من أمير يؤمر على عشرة إلا جىء به يوم القيامة مغلولا أنجاه عمله أو أهلكه . وقال طاوس لسليمان بن عبد الملك : هل تدرى يا أمير المؤمنين من أشدّ الناس عذابا يوم القيامة ؟ قال سليمان : قل : فقال طاوس : أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله فى ملكه ، فجار فى حكمه ، فاستلقى سليمان على سريره وهو يبكى ، فما زال يبكى حتى قام عنه جلساؤه . وقال ابن سيرين جاء صبيان إلى أبى عبيدة السلمانى يتخيرون إليه فى ألواحهم فلم ينظر إليها ، وقال هذا حكم ؛ لا أتولى حكما أبدا . وقال أبو بكر بن أبى مريم حج قوم ، فمات صاحب لهم بأرض فلاة فلم يجدوا ماء فأتاهم رجل ، فقالوا له : دلنا على الماء . فقال : احلفوا لى ثلاثًا وثلاثين يمينا أنه لم يكن صرافًا ولا مكاسا[٥] ولا عَريفا . ويروى : ولا عرّافا ولا بريدا وأنا أدلكم على الماء فحلفوا له ثلاثا وثلاثين يمينا كما قال ، فدلهم على الماء ، فقالوا له : أعِنَّا على غُسْلِه فقال : لا حتى تحلفوا لى ثلاثا وثلاثين يمينا كما تقدم ، فحلفوا له فأعانهم على غسله ، ثم قالوا له : تقدم فصلِّ عليه ، فقال : لا حتى تحلفوا لى ثلاثا وثلاثين يمينا كما تقدم فحلفوا له فصلى عليه ، ثم التفتوا فلم يجدوا أحدًا فكانوا يرون أنه الخضر عليه السلام . وقال أبو ذر ﷺ قال رسول الله ﷺ : « يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّى أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِى وإِنِّى أَرَاكَ ضَعِيفًا فَلَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَلِيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ »[٦] . ومن غريب ما اتفق ، وعجيب ما سبق ، ما حكى أن ملكا من ملوك الفرس يقال له : أردشير[٧] وكان ذا مملكة متسعة ، وجند كثير وكان ذا بأس شديد ، وقد وصف له بنت ملك بحر الأردن بالجمال البارع ، وأن هذه البنت بكر ذات خِدر فسَيّر أردشير يخطبها من أبيها فامتنع من إجابته ولم يرض بذلك ، فعظم ذلك على أردشير ، وأقسم بالأيمان المغلظة ليغزون الملك أبا البنت وليقتلنه هو وابنته شر قتلة ، وليمثلنّ بهما أخبثُ مثلة ، فسار إليه أردشير فى جيوشه ، فقاتله فقتله أردشير ، وقتل سائر خواصه ، ثم سأل عن ابنته المخطوبة ، فبرزت إليه جارية من القصر من أجمل النساء ، وأكمل البنات حسنا وجمالا ، وقدًّا واعتدالا ، فبهت أردشير من رؤيته إياها فقالت له : أيها الملك إننى ابنة الملك الفلانى ، ملك المدينة الفلانية ، وإن الملك الذى قتلته أنت قد غزا بلدنا ، وقتل أبى وقتل سائر أصحابه قبل أن تقتله أنت ، وإنه أسرنى فى جملة الأسارى وأتى بى فى هذا القصر ، فلما رأتنى ابنته التى أرسلت تخطبها أحبتنى ، وسألت أباها أن يتركنى عندها لتأنس بى فتركنى لها فكنت أنا وهى كأننا روحان فى جسد واحد ، فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك ، فأرسلها إلى بعض الجزائر فى البحر الملح عند بعض أقاربه من الملوك ، فقال أردشير وددت لو أنى ظفرت بها فكنت أقتلها شر قتلة ! ثم أنه تأمل الجارية فرآها فائقة فى الجمال فمالت نفسه إليها ، فأخذها للتسرى وقال : هذه أجنبية من الملك ولا أحنث فى يمينى بأخذها ، ثم إنه واقعها وأزال بكارتها ، فحملت منه ، فلما ظهر عليها الحمل اتفق أنها تحدثت معه يوما وقد رأته منشرح الصدر فقالت له : أنت غلبت أبى ، وأنا غلبتك ؛ فقال لها : ومن أبوك ؟ فقالت له : هو ملك بحر الأردن ، وأنا ابنته التى خطبتها منه ، وإننى سمعت أنك أقسمت لتقتلنى ؛ فتحيلت عليك بما سمعت ، والآن هذا ولدك فى بطنى ، فلا يتهيأ لك قتلى ، فعظم ذلك على أردشير إذ قهرته امرأة ، وتحيلت عليه ، حتى تخلصت من يديه ، فانتهرها وخرج من عندها مغضبا ، وعول على قتلها ، ثم ذكر لوزيره ما اتفق له معها فلما رأى الوزير عزمه قويا على قتلها ، خشى أن تتحدث الملوك عنه بمثل هذا ، وأنه لا يقبل فيها شفاعة

---

(١) العريف : القيّم بأمر القوم وسيدهم .

(٢) حديث : «إن أشد الناس عذابًا . . إلخ» أخرجه الطبراني في الأوسط «كما في مجمع الزوائد» للهيثمي [٥/ ١٩٧]، وفيه عطية العوفي ضعيف .

(٣) حديث : «يؤتى بالقاضي . . إلخ» لم أقف عليه، وقريب منه ما أخرجه البزار [. . ١٣٥١ كشف]، وسنده ضعيف .

(٤) وقال الحسن البصري . . إلخ . ضعيف : وذلك لأنه مرسل، فالحسن لم يدرك تلك القصة .

(٥) المكاسي : الذي يقدر الضريبة ويجبيها من الأسواق والتجار .

(٦) حديث : قال لي رسول الله ﷺ . . إلخ . أخرجه مسلم [١٨٢٦] .

(٧) أردشير بن بابك بن ساسات أول ملوك الفرس الساسانيين، وهو أحد ملوك الطوائف وملك أربع عشرة سنة وستة أشهر [الطبراني : ٣٧٢] .

شافع ؛ فقال : أيها الملك ، إن الرأى هو الذى خطر لك ، والمصلحة هى التى رأيتها أنت ، وقتل هذه الجارية فى هذا الوقت أولى ، وهو عين الصواب ، لأنه أحق من أن يقال : إن امرأة قهرت رأى الملك ، وحنثته فى يمينه لأجل شهوة النفس . ثم قال : أيها الملك ، إن صورتها مرحومة ، وحمل الملك معها وهى أولى بالستر ، ولا أرى فى قتلها أستر ولا أهون عليها من الغرق ، فقال له الملك : نعم ما رأيت ، فخذها غرقها فأخذها الوزير ، ثم خرج بها ليلا إلى بحر الأردن ، ومعه ضوء ورجال وأعوان فتحيل إلى أن طرح شيئا فى البحر أوهم من كان معه أنها الجارية ، ثم إنه أخفاها عنده ، فلما أصبح جاء إلى الملك فأخبره أنه غرقها فشكره على ما فعل ثم إن الوزير ناول الملك حقا مختوما ، وقال : أيها الملك إنى نظرت مولدى فرأيت أجلى قد دنا على ما يقتضيه حساب حكماء الفرس فى النجوم ، وإن لى أولادا ، وعندى مال قد ادّخرته من نعمتك فخذه إذا أنا مُتّ إن رأيت وهذا الحق فيه جوهر ، أسأل الملك أن يقسمه بين أولادى بالسوية فإنه إرْثى قد ورثته من أبى ، وليس عندى شىء اكتسبته منه إلا هذا الجوهر ، فقال له الملك يطوّل الرب فى عمرك ، ومالك لك ولأولادك سواء كنت حيا أو ميتا ، فألح عليه الوزير أن يجعل الحق عنده وديعة ، فأخذه الملك وأودعه عنده فى صندوق ، ثم مضت أشهر الجارية فوضعت ولدا ذكرا جميلا حسن الخِلْقة مثل فلقة القمر ، فلاحظ الوزير جانب الأدب ، فى تسميته فرأى أنه إن اخترع له اسما وسماه به وظهر لوالده بعد ذلك فيكون قد أساء الأدب ، وإن هو تركه بلا اسم لم يتهيأ له ذلك ، فسماه « شاه بور » ومعنى شاه بور بالفارسية ابن الملك ، فإن « شاه » ملك و« بور » ابن ، ولغتهم مبنية على تأخير المتقدم ، وتقديم المتأخر وهذه تسمية ليس فيها مؤاخذة ولم يزل الوزير يلاطف الجارية والولد إلى أن بلغ الولد حد التعليم ، فعلمه كل ما يصلح لأولاد الملوك من الخط والحكمة والفروسية وهو يوهم أنه مملوك له اسمه شاه بور إلى أن راهق البلوغ ، هذا كله وأردشير ليس له ولد ، وقد طعن فى السنّ وأقعده الهرم ، فمرض وأشرف على الموت ، فقال للوزير : أيها الوزير قد هرم جسمى ، وضعفت قوّتى ، وإن أرى أنى ميت لا محالة وهذا الملك يأخذه من بعدى من قضى له به ؛ فقال الوزير : لو شاء الله أن يكون للملك ولد كان قد ولى بعده الملك ، ثم ذكره بأمر بنت ملك بحر الأردن وبحملها ، فقال الملك لقد ندمت على تغريقها ، ولو كنت أبقيتها حتى تضع فلعل حملها يكون ذكرا ؛ فلما شاهد الوزير من الملك الرضا قال : أيها الملك إنها عندى حية ، ولقد وضعت ولدا ذكرا من أحسن الغلمان خَلْقا ، وخُلُقا فقال الملك : أحق ما تقول ؟ فأقسم الوزير أن نعم ، ثم قال : أيها الملك إن فى الولد روحانية تشهد بأبوة الأب ، وفى الوالد رد ما شهد ببنوة الابن لا يكاد ذلك ينخرم أبدًا ، مؤنها أتى بهذا الغلام بين عشرين غلاما فى سنه وهيئته ولباسه وكلهم ذوو آباء معروفين خلا هو ، وإنى أعطى كل واحد منهم صولجانا وكرة ، وآمرهم أن يلعبوا بين يديك فى مجلسك هذا ، ويتأمل الملك صورهم وخلقتهم وشمائلهم ، فكل من مالت إليه نفسه وروحانيته فهو هو ، فقال الملك : نعم التدبير الذى قلت ؛ فأحضرهم الوزير على هذه الصورة ، ولعبوا بين يدى الملك ، فكان الصبى منهم إذا ضرب الكرة ، وقربت من مجلس الملك تمنعه الهيبة أن يتقدم ليأخذها إلا شاه بور فإنه كان إذا ضربها وجاءت عند مرتبة أبيه تقدم فأخذها ، ولا تأخذه الهيبة منه ، فلاحظ أردشير ذلك منه مرارا ؛ فقال له : أيها الغلام ، ما اسمك ؟ قال : شاه بور ، فقال له : صدقت أنت ابنى حقا ، ثم ضمه إليه ، وقبله بين عينيه ، فقال له الوزير : هذا هو ابنك أيها الملك ، ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول ، فأثبت لكل صبى منهم والدًا بحضرة الملك ، فتحقق الصدق فى ذلك ، ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسنها وجمالها ، فقبلت يد الملك ، فرضى عنها ، فقال الوزير : أيها الملك قد دعت الضرورة فى هذا الوقت إلى إحضار الحُقّ المختوم ، فأمر الملك بإحضاره ثم أخذه الوزير وفك ختمه ، وفتحه ، فإذا فيه ذكر الوزير وأنثياه مقطوعة مصانة فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك ، وأحضر عدولا من الحكماء ، وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك فشهدوا عند الملك بأن هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم الجارية بليلة واحدة ، قال : فدهش الملك أردشير وبُهت لما أبداه هذا الوزير من قوة النفس ، فى الخدمة وشدة مناصحته ، فزاد سروره ، وتضاعف فرحه لصيانة الجارية وإثبات نسب الولد ولحوقه به ، ثم إن الملك عوفى من مرضه الذى كان به وصح جسمه ، ولم يزل يتقلب فى نعمه وهو مسرور بابنه إلى أن حضرته الوفاة ورجع الملك إلى ابنه شاه بور بعد موت أبيه ، وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أردشير وشاه بور يحفظ مقامه ، ويرعى منزلته حتى توفاه الله - تعالى - والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

الباب الثامن عشر

فيما جاء فى القضاء ، وذكر القضاة ، وقَبُول الرشوة والهدية على الحكم ، وما يتعلق بالديون ، وذكر القُصّاص ، والمتصوّفة وفيه فصول

الفصل الأول : فيما جاء فى القضاء وذكر القضاة وأحوالهم وما يجب عليهم

وقال الله - تعالى - : ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦] . وقال - تعالى - : ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ [ص:٢٢] وقال - تعالى - : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥] . وقال رسول الله ﷺ : « من حكم بين اثنين تحاكما إليه وارتضياه فلم يقض بينهما بالحق فعليه لعنة الله »[(١)] .

وعن أبى حازم قال : دخل عمر على أبى بكر رضي الله عنهما فسلم عليه ، فلم يرد عليه ، فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف : أخاف أن يكون وَجِدَ علىّ خليفةُ رسول الله ﷺ فكلم عبدُ الرحمن أبا بكر فقال : أتانى وبين يدىّ خصمان قد فرغت لهما قلبى وسمعى وبصرى ، وعلمت أن الله سائلى عنهما ، وعما قالا وقلت . وادّعى رجل على علىّ عند عمر رضي الله عنه وعلىّ جالس ، فالتفت عمر إليه وقال : يا أبا الحسن ، قم فاجلس مع خصمك ، فقام فجلس مع خصمه ، فتناظرا ، وانصرف الرجل ورجع علىّ إلى مجلسه ، فتبين لعمر التغير فى وجه على ، فقال: يا أبا الحسن ، ما لى أراك متغيرًا ؟ أكرهت ما كان ؟ قال : نعم . قال : وما ذاك ؟ قال : كنّيتنى بحضرة خصمى ، هلّا قلت : يا على ، قم فاجلس مع خصمك ، فأخذ عمر برأس علىّ رضي الله عنه فقبله بين عينيه ، ثم قال : بأبى أنتم ! بكم هدانا الله ، وبكم أخرجنا من الظلمات إلى النور .

وعن أبى حنيفة رحمه الله : القاضى كالغريق فى البحر الأخضر إلى متى يسبح وإن كان سابحا ؟ وأراد عمر بن هبيرة أن يولى أبا حنيفة القضاء فأبى فحلف ليضربنه بالسياط ، وليسجننه ، فضربه حتى انتفخ وجه أبى حنيفة ورأسه من الضرب ، فقال : الضرب بالسياط فى الدنيا أهون علىّ من الضرب بمقامع الحديد[(٢)] فى الآخرة . وعن عبد الملك بن عمير عن رجل من أهل اليمن قال : أقبل سيلٌ باليمن فى خلافة أبى بكر الصديق رضي الله عنه فكشف عن باب مغلق ، فظنناه كنزا ، فكتبنا إلى أبى بكر رضي الله عنه فكتب إلينا : لا تحركوه حتى يقدم إليكم كتابى ، ثم فتح فإذا برجل على سرير عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب وفى يده اليمنى لوح مكتوب فيه هذان البيتان :

إذا خان الأمير وكاتباه ... وقاضى الأرض داهن فى القضاءِ
فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ ... لقاضى الأرض من قاضى السماءِ

وإذا عند رأسه سيف أشدّ خضرة من البقلة مكتوب عليه : هذا سيف عاد بن إرم . وعن ابن أبى أوفى عن النبى ﷺ أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْقَاضِى مَا لَمْ يجُرْ ، فَإِذَا جَارَ بَرِئَ اللَّهُ مِنْهُ ولَزِمَهُ الشَّيْطَانُ »[(٣)] . وقال محمد بن حريث : بلغنى أن نصر بن علىّ راودوه على القضاء بالبصرة ، واجتمع الناس إليه فكان لا يجيبهم ، فلما ألحوا عليه دخل بيته ، ونام على ظهره وألقى ملاءة على وجهه ، وقال : اللهم إن كنت تعلم أنى لهذا الأمر كاره ، فاقبضنى إليك ؛ فقبض . وعن

---

(١) قوله: «من حكم بين اثنين.. إلخ» لم أقف عليه.

(٢) المقامع جمع مِقْمَعَة وهي خشبة أو حديدة معوجة الرأس يضرب بها رأس الفيل ونحوه ليذل ويهان، وقد جاء ذكر المقامع في القرآن، في قوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج:٢١].

(٣) حديث: «إن الله مع القاضي.. إلخ». حسن: أخرجه الترمذي [١٣٣٠]، وابن حبان [٥٠٦٢]، والحاكم [٤/٩٣].

أنس ﷺ عن النبى ﷺ : « القضاة جسور للناس يمرون على ظهورهم يوم القيامة »[١] ! وقال حفص بن غياث لرجل كان يسأله عن مسائل القضاء : لعلك تريد أن تكون قاضيا ! لأن يدخل الرجلُ أصبعه فى عينيه فيقلعهما ويرمى بهما خير له من أن يكون قاضيا . وقيل : أوّل من أظهر الجور من القضاة بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرىّ كان أمير البصرة ، وقاضيا فيها وكان يقول : إن الرجلين يتقدّمان إلىّ فأجد أحدهما أخف على قلبى من الآخره ، فأقضى له . وتقدم المأمون بين يدى القاضى يحيى بن أكثم مع رجل ادّعى عليه بثلاثين ألف دينار ، فطرح للمأمون مصلى يجلس عليه ، فقال له يحيى : لا تأخذ على خصمك شرف المجلس ، ولم يكن للرجل بينة فأراد أن يحلف المأمون ، فدفع إليه المأمون ثلاثين ألف دينار ، وقال : والله ما دفعت لك هذا المال إلا خشية أن تقول العامة : إنى تناولتك من جهة القدرة ، ثم أمر ليحيى بمال ، وأجزل عطاءه . وقدم خادم من وجوه خدم المعتضد بالله إلى أبى يوسف بن يعقوب فى حكم فارتفع الخادم على خصمه فى المجلس ، فزجره الحاجب عن ذلك فلم يقبل فقال أبو يوسف : قم. أتؤمر أن تقف بمساواة خصمك فى المجلس فتمتنع ؟ ! يا غلام ائتنى بعمرو بن أبى عمرو النخاس فإنه إن قدم علىّ الساعة أمرته ببيع هذا العبد ، وحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين ، ثم إن الحاجب أخذ بيده حتى أوقفه بمساواة خصمه ، فلما انقضى الحكم رجع الخادم إلى المعتضد ، وبكى بين يديه وأخبره بالقصة فقال له : لو باعك لأجزت بيعه ، ولم أردّك إلى ملكى ، فليست منزلتك عندى تزن رتبة المساواة بين الخصمين فى الحكم ، فإن ذلك عمود السلطان ، وقوام الأديان ، والله - تعالى - أعلم .

وقال الأبرش العلكى يمدح بعض القضاة :

رفضتَ وعطّلتَ الحكومة قبله ... فى آخرين وملّها روّاضها
حتى إذا ما قام ألف بينها ... بالحق حتى جمعت أوفاضها

وفى ضد قول بعضهم :

أبكى وأندب ملة الإسلام ... إذ صرْتَ تقعد مقعد الحكّام
إن الحوادثَ ما علمتُ كثيرة ... وأراك بعض حوادث الأيام

وتقدّمت امرأة إلى قاضٍ فقال لها : جامعك شهودك ؟ فسكتت ! فقال كاتبه : إن القاضى يقول لك جاء شهودك معك ؟ قالت : نعم . هلّا قلت مثلَ ما قال كاتبك ! كبر سنك ، وقلّ عقلك ، وعظمت لحيتُك حتى غطت على لُبّك ! ما رأيت ميتا يقضى بين الأحياء غيرَك ؟ وقيل : المضروب بهم المثل فى الجهل وتحريف الأحكام : قاضى مِنى ، وقاضى كسكر ، وقاضى أيدج ، وهو الذى قال فيه أبو إسحاق الصابى :

يا رُبّ عِلْج أعلج ... مثل البعير الأهوج[٢]
رأيته مطلعا ... من خلف باب مُرتَج
وخلفه عذيبة ... تذهب طورا وتجى
فقلت : من هذا ترى ... فقيل : قاضى أيدج

وقاضى شلبة وهو الذى قال فيه الحسن الجوهرى :

رأيت رأسا كدُبّه ... ولحية كالمذبهْ
فقلت : من أنت قل : لى ... فقال : قاضى شلبه

وتقدّمت امرأة جميلة إلى الشعبى فادّعت عنده : فقضى لها فقال هذيل الأشجعى :

فُتن الشعبى لما ... رفع الطرف إليها
فتنته ببنان ... كيف لو رأى معصميها ؟ !

---

(١) حديث أنس: «القضاة جسورٌ . . إلخ» لم أهتد إلى من خرجه.

(٢) العِلْج: كل جاف شديد من الرجال. ومرتج: مغلق، والعذبة: طرف العمامة.

ومشت مشيا رويدا ثم هزت منكبيها
فقضى جورا على الخصم ولم يقض عليها

فتناشدها الناس وتداولوها حتى بلغت الشعبى ، فضرب الأشجعى ثلاثين سوطا . وحكى ابن أبى ليلى قال : انصرف الشعبى يوما من مجلس القضاء ، ونحن معه فمررنا بخادمة تغسل الثياب ، وهى تقول : فتن الشعبى لما فتن الشعبى لما .. ولم تعرف بقية البيت فلقنها الشعبى ، وقال : رفع الطرف إليها ، ثم قال : أبعده الله ! أما أنا فما قضيت إلا بالحق ، وأنشد بعضهم فى أمين الحكم :

تتماوتَنَّ إذا مشيتَ تخشعا حتى تُصيبَ وديعةً لتيتم

الفصل الثانى :فى الرشوة والهدية على الحكم وما جاء فى الديون

أما الرشوة فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « لَعَنَ اللَّهُ الرَّاشِى والْمُرْتَشِى »[١] . وقال عمر بن الخطاب ﷺ لا تُوَلُّوا اليهود ولا النصارى ؛ فإنهم يقبلون الرشا ، ولا يحل فى دين الله الرشا . قال الشهيدى : وأصحابنا اليوم أقبل للرشا منهم . وفى نوابغ الحكم : أن البراطيل تنصر[٢] الأباطيل . وعن ابن مسعود ﷺ قال : من شفع شفاعة ليردّ بها حقا أو يدفع بها ظلما فأهدى له فقبل : فذلك السحت ! فقيل له : ما كنا نرى السحت إلا الأخذ على الحكم . قال : الأخذ على الحكم كفر وأنشد المبرد - رحمه الله تعالى - :

وكنت إذا خاصمت خصمًا كببته على الوجه حتى خاصمتنى الدراهم
فلما تنازعنا الحكومة غلبت على وقالت : قم فإنك ظالم

وأما الدّيْن وما جاء فيه ، نعوذ بالله من غلبة الدين وقهر الرجال : فقد روى عن أبى أمامة ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال : « **مَنْ تَدايَنَ بدَيْنٍ وفى نفسه وفاؤه ، ثم مات تجاوز الله عنه ، وأرْضى غَرِيمَه بما شاء ، ومَنْ تدايَنَ بدَيْن ، وليس فى نفسه وفاؤه ثم مات ، اقتصَّ الله لغريمه منه يوم القيامة** » رواه الحاكم . وروى عن علىّ بن أبى طالب ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتى له بجنازة لم يسأل عن شىء من عمل الرجل ، ويسأل عن دينه ، فإن قيل : عليه دَيْن كف عن الصلاة عليه ، وإن قيل : ليس عليه دين صلى عليه ، فأتى بجنازة فلما قام ليكبر سأل ﷺ : « **هل على صاحبكم من دين ؟!** » فقالوا : ديناران يا رسول الله ؛ فعدل النبى ﷺ عنه وقال : « **صلوا على صاحبكم** » فقال علىّ ﷺ هما علىّ يا رسول الله ، وهو برىء منهما فتقدّم رسول الله ﷺ ، فصلى عليه ، ثم قال لعلى ﷺ : « **جزاك الله عنه خيرًا فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك ، إنه ليس مِن ميت يموت وعليه دين إلا وهو مرتهن بدينه ، ومن فك رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة** »[٣] .

وقال بعض الحكماء : الدين هَمٌّ بالليل ، وذل بالنهار وهو غل جعله الله فى أرضه ، فإذا أراد الله أن يذل عبدًا جعله طوقًا فى عنقه ، وجاء سعد بن أبى وقاص ﷺ يتقاضى دينا له على رجل فقالوا : خرج إلى الغزو فقال : أشهد أن رسول الله ﷺ قال : « **لو أن رجلا قتل فى سبيل الله ، ثم أحيى ، ثم قتل لم يدخل الجنة حتى يقضى دينه** »[٤] . وعن الزهرى قال : لم يكن رسول الله ﷺ يصلى على أحد عليه دين ، ثم قال بعده : « **أنا أَوْلَى بالمؤمنين مَنْ أنفسهم ، من مات وعليه دَيْنٌ فعلىّ قضاؤه ، ثم صلّى عليهم** »[٥] . وعن جابر لا هم إلا هَم الدين ، ولا وجع إلا وجع العين .

---

(١) حديث: « لعن الله الراشي.. إلخ». قال المنذري: رواه الطبراني بإسناد جيد.
(٢) البراطيل: جمع برطيل وهو الرّشوة.
(٣) حديث على: كان رسول الله ﷺ . إلخ. ضعيف: أخرجه الدارقطني [٣/ ٧٨].
(٤) حديث: «أشهد أن رسول الله ﷺ قال:.. إلخ ضعيف: أخرجه أبو داود [١٤٦٩-١٤٧٠]، وأحمد [١/ ١٧٢/ ١٧٩] والحميدي ٧٦-٧٧ وعبد ابن حميد في «المنتخب من المسند» برقم [١٥٠]، وفي سنده رجل مجهول.
(٥) حديث الزهري: «لم يكن رسول الله ﷺ .. إلخ» انظر: «مسند النسائي» [٤/ ٦٦].

وعن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال : « من تزوج امرأة بصداق ينوى أن لا يؤديه إليها فهو زان ، ومن استدان دينًا ينوى أن لا يؤديه فهو سارق »[١] . وقال حبيب بن ثابت : ما احتجت إلى شىء أستقرضه إلا استقرضته من نفسى ، أراد : أنه يصبر إلى أن تمكن الميسرة ، ونظيره قول القائل :

وإذا غلا شىء على تركته ... فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وقال بعضهم أيضًا :

لقد كان القريضُ سميرَ قلبى ... فألهتنى القروضُ عن القريضِ

وقال غيلان بن مرة التميمى :

وإنى لأقضى الدينَ بالدين بعدما ... يرى طالبى بالدَّينِ أنْ لَسْتُ قاضيا

فأجابه ثعلبة بن عمير :

إذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن ... قضاء ولكن ذاك غرم على غرم !

واستقرض من الأصمعى خليل له فقال : حبًّا وكرامة ، ولكن سكن قلبى برهْن يساوى ضعف ما تطلبه ، فقال : يا أبا سعيد أما تثق بى ؟ قال : بلى وإن خليل الله كان واثقًا بربه ، وقد قال له : ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ . [البقرة:٢٦٠] اللهم أوفِ عنّا دين الدنيا بالميسرة ، ودين الآخرة بالمغفرة ، برحمتك يا أرحم الراحمين .

الفصل الثالث :فى ذكر القُصّاص والمتصوفة وما جاء فى الرياء ونحو ذلك

أما ما جاء فى ذكر القُصاص والمتصوّفة : فقد روى عن خبّاب بن الأرت قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ بنى إسرائيل لما هلكوا قَصُّوا »[٢] . وروى أن كعبا كان يقص ، فلما سمع الحديث ترك القصص ، وقال ابن عمر رضي الله عنهما : لم يقص أحد على عهد رسول الله ﷺ ، ولا عهد أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ رضي الله عنهم ، وإنما كان القصص حين كانت الفتنة . وقال ابن المبارك سألت الثورى : مَن الناس ؟ قال : العلماء . قلت : فمن الأشراف ؟ قال : المتقون . قلت : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد . قلت : فمن الغوغاء ؟ قال : القُصّاص الذين يستأصلون أموالَ الناسِ بالكلام . قلت : فمن السفهاء ؟ قال : الظلمة .

قيل : وهب رجل لقاص خاتمًا بلا فَصّ فقال : وَهَبَ الله لك فى الجنة غرفةً بلا سقف .

وقال قيس بن جبير النهلشى : الصعقة التى عند القُصّاص من الشيطان . وقيل لعائشة رضي الله عنها : إن أقواما إذا سمعوا القرآن صُعِقُوا فقالت : القرآن أكرم وأعظم من أن تذهب منه عقول الرجال ! وسئل ابن سيرين عن أقوام ، يُصعقون عند سماع القرآن ، فقال : ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط فيقرأ عليهم القرآن من أوّله إلى آخره فإن صعقوا فهو كما قالوا . وكان بمرو قاصّ يُبكى بمواعظه فإذا طال مجلسه بالبكاء أخرج من كمه طنبورا[٣] صغيرا فيحركه ويقول : مع هذا الغمّ الطويل يحتاج إلى فرح ساعة .

وقال بعضهم : قلت لصوفىّ بعنى جُبتك ، فقال : إذا باع الصياد شبكته فبأى شىء يصيد ؟ ! وسئل بعض العلماء عن المتصوّفة فقال : أَكَلَةُ رَقصة . وعظ عيسى عليه السلام بنى إسرائيل فأقبلوا يمزقون الثياب ، فقال : ما ذنب الثياب ؟ ! أقبلوا على القلوب فعاتبوها ! !

وأما ما جاء فى الرياء : فقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء:١٤٢] . وعن معاذ بن جبل ﷺ قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا معاذ، احذر أن يرى عليك آثار المحسنين وأنت تخلو من ذلك فتحشر مع

---

(١) حديث أبي هريرة: «من تزوج امرأة .. إلخ». ضعيف: أخرجه البزار [١٤٣٠- كشف]، وانظر: «مجمع الزوائد» [٤/ ١٣١].

(٢) حديث خباب: «إن بني إسرائيل.. إلخ» صحيح: أخرجه الطبراني في «الكبير» [ج٤ برقم ٣٧٠٥]، وأبو نعيم في «الحلية» [٤/ ٣١٢].

(٣) طنبورًا: آلة من آلات اللعب واللهو والطرب ذات عنق وأوتار [وهي كلمة معربة].

المرائين »[١] وقيل : لو أن رجلا عمل عملا من البر فكتمه ، ثم أحب أن يعلم الناس أنه كتمه فهو من أقبح الرياء . وقيل : كل ورع يحب صاحبُه أن يعلمه غيرُ الله فليس من الله فى شىء . وعن شدّاد بن أوس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ أخوف ما أخافُ عليكُمْ الشّرْكُ الأَصْغرْ . قالُوا : مَا الشّرْكُ الأَصْغرْ يا رَسُولَ اللّهِ ؟ قال : الرّياءُ »[٢] . وقيل : بينما عابد يمشى ومعه غمامة على رأسه تُظله ، فجاء رجل يريد أن يستظل معه فمنعه ، وقال : إن أقمت معى لم يعلم الناس أن الغمامة تُظلنى ، فقال له الرجل : قد علم الناس أننى لست ممن تظله الغمامة ، فحوّلها الله - تعالى - إلى ذلك الرجل . وقال عبد الأعلى السلمى يوما : الناس يزعمون أنى مُراءٍ ، وكنت أمْسِى - والله - صائما ، ولا أخبرت بذلك أحدًا . اللهم أصلح فساد قلوبنا واستر فضائحنا برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب التاسع عشر

فى العدل والإحسان والإنصاف وغير ذلك

اعلم أرشدك الله أنّ الله - تعالى - أمر بالعدل ، علم سبحانه - وتعالى - أنه ليس كل النفوس تصلح على العدل ، بل تطلب الإحسان ، وهو فوق العدل فقال - تعالى - : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [النحل: ٩٠]. الآية فلو وَسِعَ الخلائقَ العدلُ ما قرن الله به الإحسان ، والعدل ميزان الله - تعالى - فى الأرض الذى يؤخذ به للضعيف من القوىّ ، والمحق من المبطل ، واعلم أنّ عدل الملك يوجب محبتَه ، وجورَه يوجب الافتراق عنه ، وأفضل الأزمنة أيام العدل ، وروينا من طريق أبى نعيم عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال : « لعمل الإمام العادل فى رعيته يوما واحدا أفضل من عمل العابد فى أهله مائة عام أو خمسين عاما »[٣] . وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « عدل ساعة خير من من عبادة سبعين سنة »[٤] وروينا فى سنن أبى داود من حديث أبى هريرة ﷺ عن النبىّ ﷺ أنه قال : « ثَلاثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ : الإِمامُ العادِلُ ، والصّائِمُ حَتّى يفْطِر ، ودَعْوَةُ المَظْلُوم ، تُحْمَلُ عَلى الغَمامِ[٥] ، وتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السّمَاءِ »[٦]. وعن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال لكعب الأحبار : أخبرنى عن جنة عدن ، قال : يا أمير المؤمنين لا يسكنها إلا نبىّ أو صدّيق أو شهيد أو إمام عادل فقال عمر : والله ما أنا نبىّ ، وقد صدّقت رسول الله ﷺ ، وأما الإمام العادل ، فإنى أرجو أن لا أجور ، وأما الشهادة فأنّى لى بها ؟! قال الحسن : فجعله الله صدّيقا شهيدا ، حكما عدلا . وسأل الإسكندر حكماء أهل بابل : أيما أبلغ عندكم: الشجاعة ، أو العدل ؟ قالوا : إذا استعملنا العدل استغنينا به عن الشجاعة . ويقال : عَدْلُ السلطان أنفع من خِصب الزمان وقيل : إذا رغب السلطان عن العدل رغبت الرعية عن طاعته ، وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز ﷺ يشكو إليه من خراب مدينته ، ويسأله مالًا يرمّها به ، فكتب إليه عمر : قد فهمت كتابك فإذا قرأت كتابى فحصّن مدينتك بالعدل ، ونقّ طرقها من الظلم ، فإنه مرمتها ،

---

(١) حديث معاذ «يا معاذ» .. إلخ . لم أقف عليه.

(٢) حديث شداد: «إن أخوف .. إلخ» حسن: أخرجه أحمد [٥/٤٢٨] والبيهقي في «الشعب» [٤٨٣١]، من حديث محمود بن لبيد. وأخرجه الطبراني في الكبير برقم [٧١٤٤- ٧١٤٥].

(٣) حديث أبي نعيم «لعمل الإمام العادل .. إلخ» ضعيف: أخرجه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» [٥٩٦- بغية]، من طريق زياد بن مخراق، عن رجل عن أبي هريرة وسنده ضعيف لجهالة الرجل.

(٤) «عدل ساعة .. إلخ». ضعيف جدًا: أخرجه المخلدي، والأصبهاني في الترغيب، وابن عساكر في أماليه، وفيه أحمد بن عيسى الخشاب، متروك وانظر تخريج أحاديث العادلين للسخاوي [ص٥٢-٥٣].

(٥) الغمام: السحاب.

(٦) «ثلاثة لا ترد دعوتهم .. إلخ» أخرجه أحمد [٨٠٣٠- ٨٠٣١]، ط. شاكر، والترمذي [٣٥٩٨]، وابن ماجه [١٧٥٢]، والبيهقي في السنن الكبرى [٨/ ١٦٢].

والسلام . ويقال : إن الحاصل من خراج سواد العراق فى زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ كان مائة ألف ألف وسبعة وثلاثين ألف ألف ، فلم يزل يتناقص حتى صار فى زمن الحجاج ثمانية عشر ألف ألف ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز ﷺ ارتفع فى السنة الأولى إلى ثلاثين ألف ألف ، وفى الثانية إلى ستين ألف ألف ، وقيل : أكثر ، وقال : إن عشت لأبلغنه إلى ماكان فى أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ فمات فى تلك السنة . ومن كلام كسرى لاملك إلا بالجند ، ولا جند إلا بالمال ، ولا مال إلا بالبلاد ، ولا بلاد إلا بالرعايا ، ولا رعايا إلا بالعدل .

ولما مات سلمة بن سعيد كان عليه ديون للناس ولأمير المؤمنين المنصور فكتب المنصور لعامله : استوف لأمير المؤمنين حقه ، وفرق ما بقى بين الغرماء ، فلم يلتفت إلى كتابه ، وضرب للمنصور بسهم من المال كما ضرب لأحد الغرماء ثم كتب للمنصور . إنى رأيت أمير المؤمنين كأحد الغرماء فكتب إليه المنصور ملئت الأرض بك عدلا . وكان أحمد بن طولون والى مصر متحليا بالعدل مع تجبره ، وسفكه للدماء ، وكان يجلس للمظالم ، وينصف المظلوم من الظالم .

حكى : أن ولده العباس استدعى بمغنية ، وهو يصطبح يوما فلقيها بعض صالحى مصر ، ومعها غلام يحمل عودها ، فكسره ، فدخل العباس إليه ، وأخبره بذلك فأمر بإحضار ذلك الرجل الصالح ، فلما أحضر إليه قال : أنت الذى كسرت العود ؟ قال : نعم . قال : أفعلمت لمن هو ؟ قال : نعم . هو لابنك العباس . قال : أفما أكرمته لى ؟ فقال : أكرمه لك بمعصية الله - عز وجل - والله - تعالى - يقول : ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]. ورسول الله ﷺ يقول : « لا طاعة لمَخْلُوقٍ فى مَعْصية الْخالِقِ »[(١)]. فأطرق أحمد بن طولون عند ذلك ، ثم قال : كل منكر رأيته فغيره وأنا من ورائك !

ووقف يهودىّ لعبد الملك بن مروان فقال : يا أمير المؤمنين ، إن بعض خاصتك ظلمنى ، فأنصفنى منه ، وأذقنى حلاوة العدل ، فأعرض عنه ، فوقف له ثانيا ، فلم يلتفت إليه ، فوقف له مرة ثالثة وقال : يا أمير المؤمنين إنا نجد فى التوراة المنزلة على كليم الله موسى عليه السلام : أن الإمام لا يكون شريكا فى ظلم أحد حتى يرفع إليه ، فإذا رفع إليه ذلك ولم يُزِلْه فقد شاركه فى الظلم والجور ، فلما سمع عبد الملك كلامه فزع وبعث فى الحال إلى من ظلمه فعزله ، وأخذ لليهودى حقه منه .

وروى أن رجلا من العقلاء غصبه بعض الولاة ضيعة له ، فأتى إلى المنصور فقال له : أصلحك الله يا أمير المؤمنين أأذكر لك حاجتى أم أضرب لك قبلها مثلا ؟ فقال : بل اضرب المثل ، فقال : إن الطفل الصغير إذا نابه أمر يكرهه فإنما يفزع إلى أمه إذ لا يعرف غيرها ، وظنّا منه أن لا ناصر له غيرها ، فإذا ترعرع واشتد كان فراره إلى أبيه ، فإذا زاد عقله شكا إلى السلطان لعلمه أنه أقوى ممن سواه ، فإن لم ينصفه السلطان شكاه إلى الله - تعالى - لعلمه أنه أقوى من السلطان ، وقد نزلت بى نازلة وليس أحد فوقك أقوى منك إلا الله - تعالى - فإن أنصفتنى ، وإلا رفعت أمرى إلى الله - تعالى - فى الموسم ، فإنى متوجه إلى بيته وحرمه فقال المنصور : بل ننصفك وأمر أن يكتب إلى واليه برد ضيعته إليه . وكان الإسكندر يقول : يا عباد الله إنما إلٰهكم الله الذى فى السماء الذى نصر نوحًا بعد حين ، والذى يسقيكم الغيث عند الحاجة ، وإليه مفزعكم عند الكرب ، والله لا يبلغنى ، أن الله - تعالى - أحب شيئًا إلا أحببته واستعملته إلى يوم أجلى ولا أبغض شيئًا إلا أبغضته وهجرته إلى يوم أجلى وقد أنبئت أن الله - تعالى - يحبّ العدل فى عباده ، ويبغض الجور من بعضهم على بعض ، فويل للظالم من سيفى وسوطى ، ومن ظهر منه العدل من عمالى فليتكئ فى مجلسى كيف شاء ، وليتمنّ علىّ ما شاء ، فلن تخطئه أمنيته ، والله - تعالى - المجازى كلا بعمله .

ويقال : إذا لم يعمر الملك ملكه بالإنصاف خرب ملكه بالعصيان .

وقيل : مات بعض الأكاسرة فوجدوا له سفطا[(٢)] ففتح فوجد فيه حبة رمان كأكبر ما يكون من النوى معها رقعة مكتوب فيها . هذه من حب رمان عمل فى خراجه بالعدل .

---

(١) الإمام أحمد في مسنده ١/ ٤٠٩ .

(٢) السفط : بتشديد السين المفتوحة وفتح الفاء، هو : وعاء من قضبان الشجر ونحوها تُوضع فيه الأشياء كالفاكهة ونحوها.

وقيل : تظلّم أهل الكوفة من واليهم فشكوه إلى المأمون ، فقال : ما علمت فى عمالى أعدلَ ولا أقومَ بأمر الرعية ، وأعود بالرفق عليهم منه ، فقال رجل منهم : يا أمير المؤمنين ما أحد أَوْلى بالعدل والإنصاف منك ، فإن كان بهذه الصفة فعلى أمير المؤمنين أن يوليه بلدا بلدا حتى يلحق كل بلد من عَدله مثل الذى لحقنا ، ويأخذ بقسطه منه كما أخذنا ، وإذا فعل ذلك لم يصبنا منه أكثر من ثلاث سنين ، فضحك المأمون من قوله ، وعزله عنهم .

وقدم المنصور البصرة قبل الخلافة فنزل بواصل بن عطاء [١] وقال : بلغنى أبيات عن سليم بن يزيد العدوى فى العدل ، فقم بنا إليه ، فأشرف عليهم من غرفة ، فقال لواصل : من هذا الذى معك ؟ قال عبد الله بن محمد بن علىّ ابن عبد الله بن عباس ﷺ فقال : رحب على رحب ، وقرب على قرب ، فقال : إنه يحب أن يسمع أبياتك فى العدل فقال : سمعا وطاعة، وأنشد يقول :

حتى مَتى لا نَرَى عدلًا نُسَرُّ به ... ولَا نرى لِوُلاة الحق أعوانَا
مستمسكين بحق قائمين به ... إذا تلوَّن أهلُ الجَور ألوانَا
يا للرِّجال لداء لا دواءَ له ... وقائد ذى عمًى يقتاد عميانَا

فقال المنصور : وددت لو أنى رأيت يوم عدل ثم مت . وقيل : لما ولى عمر بن عبد العزيز أخذ فى رد المظالم فابتدأ بأهل بيته ، فاجتمعوا إلى عمة له كان يكرمها وسألوها أن تكلمه فقال لها : إن رسول الله ﷺ سلك طريقا فلما قبض سلك أصحابه ذلك الطريق الذى سلكه رسول الله ﷺ فلما أفضى الأمر إلى معاوية جرّه يمينا وشمالًا ، وايم الله لئن مدَّ فى عمرى لأردّنه إلى ذلك الطريق الذى سلكه رسول الله ﷺ وأصحابه ، فقالت له : يا بن أخى ، إنى أخاف عليك منهم يوما عصيبا ، فقال: كل يوم أخافه دون يوم القيامة ، فلا أمنيه الله . وقال وهب بن منبه : إذا هم الوالى بالجور ، أو عمل به أدخل الله النقص فى أهل مملكته فى الأسواق والزروع ، والضروع ، وكل شىء . وإذا هم بالخير والعدل ، أو عمل به أدخل الله البركة فى أهل مملكته كذلك .

وقال الوليد بن هشام : إن الرعية لتصلح بصلاح الوالى ، وتفسد بفساده . وقال ابن عباس رضي الله عنهما إن ملكا من الملوك خرج يسير فى مملكته متنكرا ، فنزل على رجل له بقرة تحلب قدر ثلاث بقرات ، فتعجب الملك من ذلك وحدّثته نفسه بأخذها ، فلما كان من الغد حلبت له النصف ، مما حلبت بالأمس فقال له الملك : ما بال حلبها نقص ؟ أرعت فى غير مرعاها بالأمس فقال : لا، ولكن أظنّ أن ملكا رآها أو وصله خبرها ، فَهَم بأخذها ، فنقص لبنها ، فإن الملك إذا ظلم أو هم بالظلم ذهبت البركة ، فتاب الملك ، وعاهد ربه فى نفسه أن لا يأخذها ، ولا يحسد أحدا من الرعية فلما كان الغد حلبت عادتها .

ومن المشهور بأرض المغرب أن السلطان بلغه أن امرأة لها حديقة فيها القصب الحلو وأن كل قصبة منها تعصر قدحا ، فعزم الملك على أخذها منها ، ثم أتاها وسألها عن ذلك ، فقالت : نعم . ثم إنها عصرت قصبة ، فلم يخرج منها نصف قدح ، فقال لها : أين الذى كان يقال ؟ فقالت : هو الذى بلغك إلا أن يكون السلطان قد عزم على أخذها منى فارتفعت البركة منها، فتاب الملك ، وأخلص لله النية وعاهد الله أن لا يأخذها منها أبدا ثم أمرها فعصرت قصبة منها فجاءت ملء قدح .

وحكى سيدى أبو بكر الطرطوشى - رحمه الله - فى كتابه « سراج الملوك » قال : حدثنى بعض الشيوخ ممن كان يروى الأخبار بمصر قال : كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب ، ولم يكن فى ذلك الزمان نخلة تحمل نصف ذلك ، فغصبها السلطان ، فلم تحمل شيئًا فى ذلك العام ، ولا تمرة واحدة ! وقال لى شيخ من أشياخ الصعيد: أعرف هذه النخلة ، وقد شاهدتها وهى تحمل عشرة أرادب ستين ويبة [٢] ، وكان صاحبها يبيعها فى سنى الغلاء كل وَيْبة بدينار .

---

(١) واصل بن عطاء [أبو حذيفة]، [ت١٣١ - ٧٤٨م]، رأس متكلمي المعتزلة، وأكبر أركان هذه النحلة، وإليه تنسب «الواصلية» ولد بالمدينة، وانتقل إلى البصرة، حيث اتصل بالحسن البصري،وعمرو بن عبيد.

(٢) الوَيْبة: كيلتان، والأردب ست وَيْبات.

وحكى أيضا - رحمه الله تعالى - قال: شهدت فى الإسكندرية ، الصيد مطلق للرعية ، السمك يطفو على الماء لكثرته وكانت الأطفال تصيده بالخِرَق من جانب البحر ، ثم حجزه الوالى ، ومنع الناس من صيده ، فذهب السمك حتى لا يكاد يوجد إلى يومنا هذا ، وهكذا تتعدى سرائر الملوك ، وعزائمهم ، ومكنون ضمائرهم إلى الرعية إن خيرًا فخير وإن شَرًّا فشرّ . وروى أصحاب التواريخ فى كتبهم ، قالوا : كان الناس إذا أصبحوا فى زمان الحجاج يتساءلون إذا تلاقوا : مَنْ قُتِل البارحة ؟ ومَنْ صُلب ؟ ومن جُلد ؟ ومن قُطع ؟ وما أشبه ذلك . وكان الوليد بن هشام صاحب ضياع ، واتخاذ مصانع [١] فكان الناس يتساءلون فى زمانه : عن البنيان ، والمصانع ، والضياع ، وشق الأنهار ، وغرس الأشجار ، ولما ولى سليمان بن عبد الملك - وكان صاحب طعام ونكاح - كان الناس يتحدّثون ويتساءلون فى الأطعمة الرفيعة ، ويتغالون فى المناكح والسرارى ، ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك ! ولما ولى عمر بن عبد العزيز ﷺ كان الناس يتساءلون: كم تحفظ من القرآن ؟ وكم وِرْدك كل ليلة ؟ وكم يحفظ فلان ؟ وكم يختم ؟ وكم يصوم من الشهر ؟ وما أشبه ذلك ، فينبغى للإمام أن يكون على طريقة الصحابة والسلف ﷺ ويقتدى بهم فى الأقوال والأفعال فمن خالف ذلك ، فهو لا محالة هالك ، وليس فوق السلطان العادل منزلة إلا نبىّ مرسل ، أو مَلك مقرب ، وقد قيل : إن مثله كمثل الرياح التى يرسلها الله - تعالى - نشرًا بين يدى رحمته ، فيسوق بها السحاب ، ويجعلها لقاحا للثمرات ، وروحا للعباد ، ولو تتبعت ما جاء فى العدل والإنصاف ، وفضل الإمام العادل لألفت فى ذلك مجموعا جامعًا لهذا المعنى ، ولكن اقتصرت على ما ذكرته مخافة أن يملَّه الناظر ، ويسأمه السامع ، وبالله التوفيق ، إلى أقوم طريق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب العشرون

فى الظلم وشؤمه ، وسوء عواقبه ، وذكر الظلمة وأحوالهم ، وغير ذلك

قال الله - تعالى - : ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨] وقال - تعالى - : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم:٤٢]. قيل : هذا تسلية للمظلوم ، ووعيد للظالم .

وقال - تعالى - : ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:٢٩] . وقال - تعالى - : ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧] . وقال رسول الله ﷺ : « **من مشى مع ظالم ليعينه ، وهو يعلم أنه ظالم خرج من الإسلام** » [٢] . وقال أيضا ﷺ : « **رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا كَانَ لِأَخِيهِ قِبَلَهُ مَظْلَمَةٌ فِى عِرْضٍ أَوْ مَالٍ فَأَتَاهُ فَتَحَلَّلَهُ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتِىَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَيْسَ مَعَهُ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ** » [٣] . وقال أيضا ﷺ : « **مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ . فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلَوْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا ؟ قَالَ : وَلَوْ كَانَ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ** » [٤] . وعن حذيفة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **أوحى الله - تعالى - إلىّ يا أخا المرسلين ، يا أخا المنذرين ، أَنْذِرْ قومَك فلا يدخلوا بيتا من بيوتى ولأحد من عبادى عند أحد منهم مظلمة ، فإنى ألعنه ما دام قائما يصلى بين يدى حتى يرد تلك الظلامة إلى أهلها فأكون سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويكون من أوليائى وأصفيائى ويكون جارى مع**

---

(١) المصانع: يراد بها المباني من الدور والقصور والحصون والقرى والآبار وغيرها من الأمكنة العظيمة.

(٢) حديث: «من مشى مع ظالم..إلخ». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» [٤/ ٢٠٥]: «رواه الطبراني في الكبير»، وفيه عياش بن مؤنس، ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله وثقوا، وفي بعضهم كلام» ا.هـ والحديث عن أوس بن شرحبيل.

(٣) حديث: «رحم الله عبدًا..» إلخ. أخرجه الترمذي [٢٥٣٤].

(٤) حديث: «من اقتطع..» إلخ. أخرجه مسلم [١٣٧]، وأحمد [٥/ ٢٦٠]، والنسائي [٨/ ٢٤٦].

النبيين والصديقين ، والشهداء ، والصالحين فى الجنة »[١] . وعن علىّ ﷺ عن النبى ﷺ : « إياك ودعوة المظلوم ؛ فإنما يسأل الله - تعالى - حقه »[٢] . وعنه ﷺ أنه قال : « ما من عبد ظُلم فشخص ببصره إلى السماء إلا قال الله - عز وجل - لبيك عبدى حقا لأنصرنك ولو بعد حين »[٣] . وعنه أيضا أنه قال : « ألا إنّ الظلم ثلاثة : فظلم لا يغفر ، وظلم لا يترك ، وظلم مغفور لا يطلب ، فأما الظلم الذى لا يغفر ، فالشرك بالله والعياذ بالله - تعالى - ، قال الله - تعالى - : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:١١٦] وأما الظلم الذى لا يترك ، فظلم العباد بعضهم بعضا ، وأما الظلم المغفور الذى لا يطلب فظلم العبد نفسه »[٤] .

ومر رجل برجل قد صلبه الحجاج فقال : يارب إن حِلْمَك على الظالمين قد أضرّ بالمظلومين ، فنام تلك الليلة ، فرأى فى منامه أن القيامة قد قامت ، وكأنه قد دخل الجنة ، فرأى ذلك المصلوب فى أعلى عليين ، وإذا منادٍ ينادى : حِلْمى على الظالمين ، أحل المظلومين فى أعلى عِلّيين .

وقيل : من سَلَبَ نِعمةَ غيره سَلَب نعمتَه غيرُه . وسمع مسلم بن بشار رجلا يدعو على من ظلمه ، فقال له : كِلِ الظالمَ إلى ظلمه فهو أسرع فيه من دعائك . ويقال : من طال عدوانه ، زال سلطانه . وقال علىّ بن أبى طالب ﷺ : يوم المظلوم على الظالم أشدُّ من يوم الظالم على المظلوم . ورُئى لوح فى أفق السماء مكتوب فيه : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وتحته هذا البيت :

فَلَمْ أرَ مِثْلَ العَدلِ للمرءِ رافِعًا ... ولَم أرَ مِثْلَ الجَوْرِ للمرءِ واضِعًا

وقال الشاعر :

كنتَ الصحيحَ وكُنّا منك فى سَقَمٍ ... فإنْ سقمتَ فإنّا السالمون غدًا

دعت عليك أكفٌّ طالما ظلمتْ ... ولن تردّ يد مظلومة أبدًا

وكان معاوية يقول : إنى لأستحيى أن أظلمَ من لا يجد علىّ ناصرا إلا الله . وقال أبو العيناء : كان لى خصوم ظلمة فشكوتهم إلى أحمد بن أبى دواد ، وقلت : قد تظافروا علىّ ، وصاروا يدا واحدة . فقال : ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الفتح:١٠] فقلت له : إن لهم مكرا فقال : ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ﴾[فاطر:٤٣] قلت : هم فئة كثيرة فقال : ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةَۢ كَثِيرَةُۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩] .

وقال يوسف بن أسباط : من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يُعصى الله فى أرضه . وعن أبى هريرة ﷺ قال : قال أبو القاسم ﷺ : « مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ ، وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ »[٥] وقال مجاهد : يسلط الله على أهل النار الجرب ؛ فيحكون أجسادهم حتى تبدو العظام فيقال لهم : هل يؤذيكم هذا ؟ فيقولون : إى والله ! فيقال لهم : هذا بما كنتم تؤذون المؤمنين .

وقال ابن مسعود ﷺ لمَّا كشف الله العذاب عن قوم يونس عليه السلام ترادّوا المظالم بينهم حتى كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه ، فيرده إلى صاحبه وقال أبو ثور بن يزيد : الحجر فى البنيان من غير حِلّه عربون على خرابه ، وقال غيره : لو أن الجنة وهى دار البقاء أسست على حجر من الظلم لأوشك أن تخرب ، وقال بعض الحكماء : اذكر عند الظلم عدلَ الله فيك ، وعند القدرة قدرة الله عليك ، لا يُعْجِبْكَ رَحْبُ الذراعين سفاكُ الدماء فإن له قاتلا لا يموت . وقال سحنون ابن سعيد : كان يزيد بن حَاتم يقول : ما هِبْتُ شيئًا قطّ هيبتى من رجل ظلمته ، وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله فيقول حسبك الله، الله بينى وبينك . وقال بلال بن مسعود: اتق الله فيمن لا ناصر له إلا الله .

---

(١) حديث حذيفة: «أوحى الله تعالى. . إلخ» عزاه المتقى الهندي في كنزل العمال برقم [٤٣٦٠٠] إلى أبي نعيم في «الحلية» ، وابن عساكر، والديلمي، عن حذيفة.

(٢) حديث علي: إياك ودعوة المظلوم. .» إلخ ضعيف جدًا: أخرجه الخرائطي في «مساوئ الأخلاق برقم [٦٣٩]ط. مكتبة القرآن، وفي سنده صالح ابن حسان، متروك انظر: «التقريب» [١/ ٣٥٨].

(٣) حديث: «ما من عبد. . إلخ» عزاه المتقي الهندي في «كنزه» [٧٦٤٨] للحاكم في تاريخه، والديلمي.

(٤) الحديث: «ألا إن الظلم. . »إلخ حسن: أخرجه الطيالسي [٢٢/ ١٠-٦١]، وأبو نعيم في «الحلية» [٦/ ٣٠٩] من حديث أنس ﷺ

(٥) «قال أبو القاسم. . » إلخ أخرجه مسلم [٢٦١٦].

وبكى علىّ بن الفضل يوما ، فقيل له: ما يبكيك ؟ قال: أبكى على من ظلمنى إذا وقف غدا بين يدى الله - تعالى - ، ولم تكن له حجة . وروى أن النبىّ ﷺ قال : « **يقول الله - تعالى - اشتدّ غضبى على من ظلم من لا يجد له ناصرًا غيرى** »[(١)] . ونادى رجل سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر : يا سليمان ، اذكر يوم الأذان فنزل سليمان من على المنبر ، ودعا بالرجل ، فقال له: ما يوم الأذان ؟ فقال: قال الله - تعالى - : ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤] قال: فما ظلامتك ؟ قال: أرض لى بمكان كذا وكذا أخذها وكيلك ، فكتب إلى وكيله : ادفع إليه أرضه ، وأرضا مع أرضه . وروى أن كسرى أنوشروان كان له معلم حسن التأديب ، يعلمه حتى فاق فى العلوم ، فضربه المعلم يومًا من غير ذنب ، فأوجعه ، فحقد أنوشروان عليه ، فلما ولى الملك قال للمعلم : ما حملك على ضربى يوم كذا وكذا ظلمًا ؟ فقال له : لما رأيتك ترغب فى العلم ، رجوت لك الملك بعد أبيك ، فأحببت أن أذيقك طعم الظلم ، لئلا تظلم ! فقال أنوشروان زِهْ زِهْ[(٢)] .

وقال محمد بن سويد وزير المأمون :

فَلا تَأمَنَنَّ الدهرَ حُرًّا ظلمتَه ... فما ليلُ حُرٍّ إن ظلمتَ بنائمِ

وروى أن بعض الملوك رقم على بساطه :

لا تظلمنَّ إذا ما كنتَ مقتدرًا ... فالظُّلمُ مصدره يُفضى إلى النَّدمِ
تنامُ عيناك والمظلومُ منتبهٌ ... يدعو عليك وعينُ الله لَمْ تنمِ

وما أحسن ما قال الآخر :

أتهزأُ بالدُّعاء وتزدريه ... وما تَدْرى بما صنع الدعاءُ ؟
سِهَامُ الليل نافذةٌ ولكن ... لها أمدٌ وللأمد انْقِضاءُ
فيمسكُها إذا ما شاءَ ربِّى ... ويُرسلها إذا نفذَ القضاءُ

وقال أبو الدرداء : إياك ودمعة اليتيم ، ودعوة المظلوم ، فإنها تسرى بالليل ، والناس نيام . وقال الهيثم بن فراس السامى من بنى سامة بن لؤى فى الفضل بن مروان :

تجبرتَ يا فَضْلُ بن مروانَ فاعتبرْ ... فقبلك كان الفضل والفضلُ
ثلاثةُ أملاك مَضَوْا لسبيلهم ... أبادَهُمُ الموتُ المشتّتُ والقتلُ

يريد الفضل بن الربيع ، والفضل بن يحيى ، والفضل بن سهل . ووجد تحت فراش يحيى بن خالد البرمكى رقعة مكتوب فيها :

وحَقِّ اللهِ إنّ الظلمَ لُؤْمٌ ... وإن الظُّلْمَ مَرْتَعُه وَخيمُ
إلى ديّان يوم الدين نَمْضِى ... وعند الله يجتمع الخصومُ

ووجد القاسم بن عبيد الله ووزير المكتفى فى مُصلاّه رقعةً مكتوبًا فيها :

بَغَى ولِلْبَغْيِ سِهَامٌ تنتظر ... أنفذُ فى الأحشاء من وَخْزِ الإبرِ
سهام أيدى القانتين فى السَّحَرِ

وقال المنصور بن المعتمر لابن هبيرة حين أراد أن يوليه القضاء : ما كنت لأُلِى هذا بعد ما حدثنى إبراهيم ، قال: وما حدثك إبراهيم ؟ قال حدثنى عن علقمة عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ : أين الظلمة ، وأعوان الظلمة وأشياع الظلمة ، حتى من يرى لهم قلمًا ، أو لاق لهم دواة ، فيجمعون فى تابوت**

---

(١) حديث يقول الله تعالى «اشتد غضبي.. إلخ» ضعيف: أخرجه الطبراني في «الصغير». [١/ ٣١]، والأوسط، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد». [٤/ ٢٠٦]: «وفيه مسعر بن الحجاج النهدي، كذا هو في الطبراني، ولم أجد غير مسعر، بن يحيى الهندي، ضعفه الذهبي بخبر ذكره له، والله أعلم».

(٢) زِهْ: كلمة فارسية تقال عند الاستحسان، وقد تقال عند الاستهجان تهكمًا وسخرية.

من حديد ، ثم يرمى بهم فى نار جهنم »[١] . وروى هارون بن محمد بن عبد الملك الزيات قال : جلس أبى للمظالم يومًا ، فلما انقضى المجلس رأى رجلاً جالسًا ، فقال له : ألك حاجة ؟ قال : نعم . أدننى إليك فإنى مظلوم ، وقد أعوزنى العدل والإنصاف : قال : ومن ظلمك ؟ قال : أنت ولست أَصِلُ إليك فأذكر حاجتى ؛ قال : وما يحجبك وقد ترى مجلسى مبذولاً ؟ قال : يحجبنى عنك هيبتك ، وطول لسانك ، وفصاحتك ، قال : ففيم ظلمتك ؟ قال : فى ضيعتى الفلانية أخذها وكيلك غصبًا منى بغير ثمن ، فإذا وجب عليها خراج أدّيته باسمى لئلا يثبت لك اسم فى ملكها ، فيبطل ملكى ، فوكيلك يأخذ غلتها ، وأنا أؤدّى خراجها ، وهذا لم يسمع بمثله فى المظالم ، فقال له محمد : هذا قول تحتاج معه إلى بينة وشهود وأشياء ، فقال له الرجل : أيؤمننى الوزير من غضبه حتى أجيب ؟ قال : نعم قد أمنتك ، قال : البينة هم الشهود ، وإذا شهدوا فليس يحتاج معهم إلى شىء آخر ، فما معنى قولك: بينة وشهود وأشياء ؟ وأىّ شىء هذه الأشياء ؟! إن هى إلا الجور ، وعدولك عن العدل ! فضحك محمد وقال : صدقت والبلاء موكل بالمنطق ، وإنى لأرى فيك مصطنعًا ، ثم وقع له بردّ ضيعته ، وأن يطلق له مائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته ، وصيره من أصحابه ، فكان قبل أن يتوصل إلى الإنصاف ، وإعادة ضيعته له ، يقال له : يا فلان: كيف الناس ؟ فيقول بشرّ بين مظلوم لا يُنْصَر ، وظالم لا ينتصر منه ، فلما صار من أصحاب محمد بن عبد الملك وردّ عليه ضيعته وأنصفه قال له ليلة : كيف الناس الآن ؟ قال : بخير قد اعتمدت معهم الإنصاف ، ورفعت عنهم الإجحاف ، وردت عليهم الغُصوب[٢] ، وكشفت عنهم الكُروب ، وأنا أرجو لهم ببقائك نيل كل مرغوب ، والفوز بكل مطلوب .

ومما نقل فى الآثار الإسرائيلية فى زمان موسى عليه السلام أن رجلاً من ضعفاء بنى إسرائيل ، كان له عائلة ، وكان صيادًا يصطاد السمك ، ويقوّت منه أطفاله وزوجته ، فخرج يومًا للصيد ، فوقع فى شبكته سمكة كبيرة ، ففرح بها، ثم أخذها ومضى إلى السوق ليبيعها ، ويصرف ثمنها فى مصالح عياله ، فلقيه بعض العوانية[٣] ، فرأى السمكة معه فأراد أخذها منه فمنعه الصياد ، فرفع العوانى خشبة كانت بيده ، فضرب بها رأس الصياد ضربة موجعة ، وأخذ السمكة منه غصبا بلا ثمن ، فدعا الصياد عليه وقال : إلهى جعلتنى ضعيفًا ، وجعلته قويًا عنيفًا فخذْ لى بحقى منه عاجلا ، فقد ظلمنى ولا صبر لى إلى الآخرة ، ثم إن ذلك الغاصب الظالم انطلق بالسمكة إلى منزله ، وسلمها إلى زوجته وأمرها أن تشويها ، فلما شوتها قدمتها له ، ووضعتها بين يديه على المائدة ليأكل منها ففتحت السمكة فاها ونكزته[٤] فى أصبع يده نكزة طار بها عقله ، وصار لا يقرّبها قراره ، فقام وشكا إلى الطبيب ألم يده ، وما حلّ به ، فلما رآها قال له: دواؤها أن تقطع الإصبع ، لئلا يسرى الألم إلى بقية الكف ، فقطع أصبعه ، فانتقل الألم والوجع إلى الكف واليد ، وازداد التألم وارتعدت من خوفه فرائصه ، فقال له الطبيب: ينبغى أن تقطع اليد إلى المعصم ، لئلا يسرى الألم إلى الساعد فقطعها ، فانتقل الألم إلى الساعد فما زال هكذا كلما قطع عضوا انتقل الألم إلى العضو الآخر الذى يليه ، فخرج هائمًا على وجهه مستغيثًا إلى ربه ليكشف عنه ما نزل به ، فرأى شجرة فقصدها فأخذه النوم عندها ، فنام فرأى فى منامه قائلاً يقول له : يا مسكين، إلى كم تقطع أعضاءك ؟! امض إلى خصمك الذى ظلمته ، فأرضه ، فانتبه من النوم وفكر فى أمره ، فعلم أن الذى أصابه من جهة الصياد ، فدخل المدينة ، وسأل عن الصياد ، وأتى إليه فوقع بين يديه يتمرّغ على رجليه ، وطلب منه الإقالة[٥] مما جناه ، ودفع إليه شيئًا من ماله ، وتاب من فعله فرضى عنه خصمه الصياد ، فسكن فى الحال ألمه ، وبات تلك الليلة ، فردّ الله - تعالى - عليه يده كما كانت ، ونزل الوحى على موسى عليه السلام يا موسى : وعزتى وجلالى لولا أن ذلك الرجل أرضى خصمه ، لعذبته مهما امتدت به حياته .

ومما تضمنته أخبار الأخيار : ما رواه أنس رضي الله عنه قال : بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاعد إذ جاءه رجل من أهل مصر ، فقال: يا أمير المؤمنين ، هذا مقام العائذ بك ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقد عُذت بمجير ، فما شأنك ؟ فقال : سابقت بفرسى ابنا لعمرو بن العاص - وهو يومئذ أمير على مصر - فجعل يُقَنِّعُنى[٦] بسوطه ،

---

(١) حديث: «إذا كان يوم القيامة..» إلخ لم أقف عليه.

(٢) ما أخذ منهم غصبًا وعدوانًا بالقهر والغلبة بلا ثمن.

(٣) العوانية: الأشداء ممن هم في منتصف العمر.

(٤) نكزت الدابة الشيء: عضته.

(٥) الإقالة: المسامحة والعفو.

(٦) قنعه بالسوط أو السيف أو العصا: علاه به.

ويقول : أنا ابن الأكرمين ، فبلغ ذلك عمرًا أباه فخشى أن آتيك ، فحبسنى فى السجن ، فانفلتّ منه ، فهذا الحين أتيتك ، فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، إذا أتاك كتابى هذا فاشهد الموْسم أنت وولدك فلان ، وقال للمِصرى : أقم حتى يأتيَك ، فأقام حتى قدم عمرو وشهد موسم الحج ، فلما قضى عمر الحج ، وهو قاعد مع الناس ، وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه قام المصرى فرمى إليه عمر ﷺ بالدرة ، قال أنس ﷺ : فلقد ضربه ونحن نشتهى أن يضربه ، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرَمَيْن . قال : ياأمير المؤمنين ، قد استوفيت واشتفيت ، قال : ضعها على ضلع عمرو ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد ضربت الذى ضربنى . قال : أما والله لو فعلت ما منعك أحد ، حتى تكون أنت الذى تنزع ، ثم أقبل على عمرو بن العاص ، وقال : يا عمرو متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا ، فجعل عمرو يعتذر إليه ، ويقول : إنى لم أشعر بهذا .

وقيل : لما ظلم أحمد بن طولون قبل أن يعدل استغاث الناس من ظلمه ، وتوجهوا إلى السيدة نفيسة[١] يشكونه إليها فقالت لهم : متى يركب ؟ قالوا : فى غد ، فكتبت رقعة ، ووقفت بها فى طريقه ، وقالت : يا أحمد يا بن طولون ، فلما رآها عرفها فترجل عن فرسه ، وأخذ منها الرقعة وقرأها فإذا فيها : ملكتم فأسرتم ، وقدرتم فقهرتم ، وخُوّلتم فعسفتم ، وردّت إليكم الأرزاق فقطعتم . هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة ، لا سيما من قلوب أوجعتموها ، وأكباد جوّعتموها ، وأجساد عرّيتموها ، فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم ، اعملوا ما شئتم فإنا صابرون ، وجوروا فإنا بالله مستجيرون ، واظلموا فإنا إلى الله متظلمون ، وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلَب ينقلبون . قال فعدل لوقته .

وحكى : أن الحجاج حبس رجلاً فى حبسه ظلمًا ، فكتب إليه رقعة فيها قد مضى من بؤسنا أيام . ومن نعيمك أيام ، والموعد يوم القيامة ، والسجن جهنم ، والحاكم لا يحتاج إلى بينة ، وكتب فى آخرها :

سَتعلَمُ يا لُؤم إذا التقينا ... غدا عند الإله مَن الظَّلومُ ؟!
أمَا والله إن الظلمَ لُؤمٌ ... وما زال الظلومُ هو الملومُ
سَينقطع التلذُّذ عن أناس ... أداموه وينقطعُ النَّعيمُ
إلى ديَّان يوم الدين نمضى ... وعند الله تَجتمِعُ الخصومُ

وحكى أبو محمد الحسين بن محمد الصالحى ، قال : كنا حول سرير المعتضد بالله ذات يوم ، نصف النهار فنام بعد أن أكل ، فانتبه منزعجًا ، وقال : يا خدم فأسرعنا الجواب ، فقال : ويلكم أعينونى والحقوا بالشط فأوّل ملاح ترونه منحدرًا فى سفينة فارغة فاقبضوا عليه ، وائتونى به ووكّلوا بالسفينة من يحفظها ، فأسرعنا فوجدنا ملاحًا فى سفينة منحدرة ، وهى فارغة فقبضنا عليه ووكلنا بها من يحفظها ، وصعدنا به إلى المعتضد فلما رآه الملاح ، كاد يتلف[٢] فصاح عليه المعتضد صيحة عظيمة كادت روحه تذهب منها ، وقال : أصدقنى يا ملعون عن قضيتك مع المرأة التى قتلتها اليوم ، وإلا ضربت عنقك ، فتلعثم ، وقال : نعم كنت سحرًا فى المشرعة[٣] الفلانية ، فنزلت امرأة لم أر مثلها ، عليها ثياب فاخرة ، وحلى كثير ، وجواهر فطمعت فيها ، واحتلت عليها حتى سددت فمها وغرّقتها ، وأخذت جميع ما كان عليها ، ثم طرحتها فى الماء ، ولم أجسر على حمل سَلَبِها[٤] إلى دارى لئلا يفشو الخبر علىّ ، فعوّلت على الهروب والانحدار إلى واسط[٥] فصبرت إلى أن خلا الشط فى هذه الساعة من الملاحين ، وأخذت فى الانحدار ، فتعلق بى هؤلاء القوم ، فحملونى إليك فقال : وأين الحلى والسلب ؟ قال: فى صدر السفينة تحت البوارى ، قال المعتضد : علىّ به الساعة فحضروا به ، فأمر بتغريق الملاح ، ثم أمر أن ينادى ببغداد: من خرجت له امرأة إلى

---

(١) عابدة زاهدة بنت الحسن بن زيد بن الحسين لها مسجد في القاهرة لقيت ربها سنة [٢٠٩هـ].

(٢) يتلف: يهلك من الخوف.

(٣) المشرعة: شريعة الماء والموضع الذي يستقى منه بلا رشا حيث شط النهر.

(٤) سَلَبها: ملابسها وحليها، وما سلب منه، وكل ما على القتيل فهو «سَلَب».

(٥) واسط: مدينة بين الكوفة والبصرة.

المشرعة الفلانية سحَرًا ، وعليها ثياب فاخرة وحلى ، فليحضر ؛ فحضر فى اليوم الثانى أهلها ، وأعطوا صفتها وصفة ما كان عليها فسلم ذلك إليهم . قال : فقلت : يا مولاى ، من أعلمك أأوحى إليك بهذه الحالة ، وأمر هذه الصبية ؟ فقال : بل رأيت فى منامى رجلاً شيخًا أبيض الرأس واللحية والثياب ، وهو ينادى : يا أحمد ، أوّل ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه ، وقرّره على المرأة التى قتلها اليوم ظلمًا وسلبها ثيابها ، وأقم عليه الحدّ ولا يفُتْك. فكان ما شهدتم .

فيتعين على كل ولى أمر أن يعدل فى الأحكام ، وأن يتبصر فى رعيته ، وعلى كل عاقل أن يكف يده عن الظلم ، ويسلك سنن العدل ، ويعامل بالنصَفَة ، ويراقبَ الله فى السرّ والعلانية ، ويعلم أن الله يجازى على الخير والشر ، ويعاقب الظالم على ظلمه ، وينتصرَ للمظلوم ، ويأخذ له حقه ممن ظلمه ، وإذا أخذ الظالم لم يفلته ، والله - سبحانه وتعالى - أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلىّ العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .

الباب الحادى والعشرون

فى بيان الشروط التى تؤخذ على العمال ، وسيرة السلطان فى استجباء الخراج ، وأحكام أهل الذمة، وفيه فصلان

الفصل الأول :فى سيرة السلطان فى استجباء الخراج[1] والإنفاق من بيت المال وسيرة العمال

قال جعفر بن يحيى : الخَراج عماد الملوك ، وما استعزّوا بمثل العدل ، وما استنذروا بمثل الظلم ، وأسرع الأمور فى خراب البلاد ، تعطيل الأرضين ، وهلاك الرَّعية وانكسار الخراج من الجَوْر ، ومثل السلطان إذا أجحفَ بأهل الخراج حتى يَضعفوا عن عمارة الأرضين مثلُ من يقطع لحمه ، ويأكله من الجوع ، فهو إن شبع من ناحية فقد ضعف من ناحية أخرى ، وما أدخل على نفسه من الضعف والوجع أعظم مما دفع عن نفسه من ألم وجوع ، ومثل من كلف الرعية فوق طاقتهم كالذى يُطَيّن سطحه بتراب أساس بيته ، وإذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الأرضين ؛ فيتركونها فتخرب الأرض ، ويهرب المزارعون ، فتضعف العمارة ، ويضعف الخراج ، وينتج من ذلك ضعف الأجناد ، وإذا ضعف الجند طمع الأعداء فى السلطان .

وروى أن المأمون أرِق ذاتَ ليلة ، فاستدعى سميرًا يحدّثه ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، كان بالموصل بُومة ، وبالبصرة بُومة ، فخطبت بومةُ الموصل بنتَ بومة البصرة لابنها ، فقالت بومة البصرة : لا أجيب خِطبةَ ابنِك حتى تجعلى لى فى صداق ابنتى مائة ضَيْعَةٍ خَربة ، فقالت بومة الموصل : لا أقدر عليها ، ولكن إن دام والينا - سلّمه الله - علينا سنة واحدة فعلت ذلك ! قال : فاستيقظ لها المأمون ، وجلس للمظالم وأنصف الناسَ بعضَهم من بعض ، وتفقد أمور الولاة والعمال والرعية .

وقال أبو الحسن بن على الأسدى : أخبرنى أبى قال : وجدت فى كتاب قبطى ، باللغة الصعيدية ، مما نقل بالعربية أن مبلغ ما كان يستخرج لفرعون فى زمن يوسف الصديق عليه السلام من أموال مصر لخراج سنة واحدة من الذهب العين أربعة وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف دينار ، من ذلك ما ينصرف فى عمارة البلاد ، كحفر الخلجان ، والإنفاق على

(١) استجباء: جباية وتحصيل حق بيت مال المسلمين من غلة الأرض الزراعية وخراجها.

الجسور ، وسدّ الترع ، وتقوية من يحتاج إلى التقوية ، من غير رجوع عليه بها لإقامة العوامل ، والتوسعة فى البلدان ، وغير ذلك من الآلات ، وأجرة من يستعان به لحمل البذر ، وسائر نفقات تطبيق الأرض ثمانمائة ألف دينار ولما ينصرف للأرامل والأيتام ، وإن كانوا غير محتاجين حتى لا يخلو أمثالهم من بر فرعون أربعمائة ألف دينار ، ولما ينصرف لكهنتهم وبيوت صلاتهم مائتا ألف دينار ، ولما ينصرف فى الصدقات مما يصب صبًا ، وينادى عليه : برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة ، ولم يحضر فيحضر لذلك جمع كثير مائتا ألف دينار ، فإذا فرّقت الأموال على أربابها دخل أمناء فرعون إليه وهنأوه بتفرقة الأموال ، ودعوا له بطول البقاء ، ودوام العز والنّعماء والسلامة ، وأنهوا إليه حال الفقراء ، فيأمر بإحضارهم ، وتغيير شعثهم[١] ، ويمدّ لهم السماط ، فيأكلون بين يديه ويشربون ، ويستفهم من كل واحد منهم عن سبب[٢] فاقته ، فإن كان ذلك من آفة الزمان زاد عليه مثل الذى كان له ، ولما ينصرف فى نفقات فرعون الراتبة فى كل سنة مائتا ألف دينار ، ويفضل بعد ذلك مما يتسلمه يوسف الصديق عليه السلام للملك ، ويجعله فى بيت المال لنوائب الزمان أربعة عشر ألف ألف وستمائة ألف دينار . وقال أبو رهم : كانت أرض مصر أرضًا مدبرة[٣] حتى إنّ الماء ليجرى تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه حيث شاءوا ، ويرسلونه حيث شاءوا وذلك قول فرعون : ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف:٥١] . وكان ملك مصر عظيمًا لم يكن فى الأرض أعظم منه ملكًا ، وكانت الجنان بحافتى النيل متصلة ، لا ينقطع منها شىء عن شىء ، والزروع كذلك من أسوان إلى رشيد ، وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعًا لما دبروا[٤] من جسورها وحافاتها ، والزروع ما بين الجبلين من أوّلها إلى آخرها وذلك قوله - تعالى - : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان:٢٥-٢٦] . وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما استعمل فرعون هامان على حفر خليج سردوس فأخذ فى حفره وتدبيره ، فجعل أهل القرى يسألونه أن يُجرى لهم الخليج تحت قُراهم ، ويعطوه مالا فكان يذهب به من قرية إلى قرية من المشرق إلى المغرب ، ومن الشمال إلى القبلة ، ويسوقه كيف أرادوا إلى حيث قصد ، فليس خليج بمصر أكثر عطوفًا منه ، فاجتمع له من ذلك أموال عظيمة جزيلة فحملها إلى فرعون ، وأخبره بالخبر فقال له فرعون : إنه ينبغى للسيد أن يعطف على عبيده ، ويفيض عليهم من خزائنه وذخائره ، ولا يرغب فيما بأيديهم رُدّ على أهل القرى أموالهم ، فرد عليهم ما أخذه منهم ، فإذا كانت هذه سيرة من لا يعرف الله ، ولا يرجو لقاءه ، ولا يخاف عذابه ، ولا يؤمن بيوم الحساب ، فكيف تكون سيرة من يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ويوقن بالحساب والثواب والعقاب ؟!

وقال ابن عباس رضي الله عنهما فى قوله - تعالى - : ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف:٥٥]. قال : هى خزائن مصر . ولما استوثق أمر مصر ليوسف عليه السلام وكمل ، وصارت الأشياء إليه ، وأراد الله - تعالى - أن يعوّضه على صبره لما لم يرتكب محارمه ، وكانت مصر أربعين فرسخًا فى مثلها ، وما أطاع يوسف فرعون ، وهو الريان بن مصعب وناب عنه إلا بعد أن دعاه إلى الإسلام فأسلم ، وكانت السنون التى حصل فيها الغلاء والجوع مات العزيز ، وتملك يوسف وافتقرت زليخا وعمى بصرها ، فجعلت تتكفف الناس فقيل لها : لو تعرضت للملك لعله يرحمك ويعينك ويغنيك ، فطالما كنت تحفظينه وتكرمينه ، ثم قيل لها : لا تفعلى لأنه ربما يتذكر ما كان منك إليه من المراودة والحبس ، فيسىء إليك ، ويكافئك على ما سبق منك إليه فقالت : أنا أعلم بحلمه وكرمه ، فجلست له على رابية فى طريقه يوم خروجه ، وكان يركب فى زهاء مائة ألف من عظماء قومه ، وأهل مملكته ، فلما أحست به قامت ونادت : سبحان من جعل الملوك عبيدًا بمعصيتهم ، والعبيد ملوكًا بطاعتهم ، فقال يوسف عليه السلام : مَنْ أنتِ ؟ فقالت : أنا التى كنت أخدمك بنفسى ، وأرَجِّل شعرك بيدى ، وأكرم مثواك بجهدى ، وكان منى ما كان ، وقد ذقت وبال أمرى ، وذهبت قوّتى ، وتلف مالى ، وعمى بصرى ، وصرت أسأل الناس ، فمنهم من يرحمنى ، ومنهم من لا يرحمنى ، وبعد ما كنت مغبوطة أهل مصر كلها ، صرت مرحومتهم ، بل محرومتهم . وهذا جزاء المفسدين . فبكى يوسف عليه السلام بكاء شديدًا ، وقال لها : هل بقى فى قلبك من حبك إياى شىء ؟ قالت : نعم ، والذى اتخذ إبراهيم خليلا لنظرة إليك

---

(١) تغيير شعثهم: إزالة ما اتسخ من شعرهم وبدنهم استعدادًا لحضور مائدة السلطان وسماطه.

(٢) فاقته: فقره.

(٣) مدبرة: صالحة للزراعة، يعلوها الماء وينحسر عنها.

(٤) دبروا: زرعوا واستصلحوا.

أحب إلىّ من ملء الأرض ذهبًا وفضة ، فمضى يوسف وأرسل إليها يقول : إن كنت أيّمًا تزوّجناك ، وإن كنت ذات بعل أغنيناك ، فقالت لرسول الملك : أنا أعرف أنه يستهزئ بى ، هو لم يردنى فى أيام شبابى وجمالى ، فكيف يقبلنى وأنا عجوز عمياء فقيرة ؟! فأمر بها يوسف عليه السلام فجهزت ، وتزوّج بها ، وأدخلت عليه ، فصف يوسف عليه السلام قدميه ، وقام يصلى ، ودعا الله - تعالى - باسمه العظيم الأعظم ، فردّ الله عليها حسنها وجمالها وشبابها وبصرها كهيئتها يوم راودته ، فواقعها ، فإذا هى بكر ، فولدت له : إفرائيم بن يوسف ، ومنشا بن يوسف ، وطاب فى الإسلام عيشهما ، حتى فرّق الموت بينهما[1] .

فينبغى للقوى أن لا ينسى الضعيف ، وللغنى أن لا ينسى الفقير ، فرب مطلوب يصير طالبًا ، ومرغوب فيه يصير راغبًا ، ومسئول يصير سائلاً ، وراحم يصير مرحومًا ، فنسأل الله - تعالى - أن يرحمنا برحمته ، ويغنينا بفضله . ولما ملك يوسف عليه السلام خزائن الأرض كان يجوع ، ويأكل من خبز الشعير ، فقيل له : أتجوع وبيدك خزائن الأرض ؟! فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع .

ومن حسن سيرة العمال ما روى أن عمر رضي الله عنه استعمل على حِمْص رجلا يقال له : عُمَيْرُ بن سعد ، فلما مضت السَّنَة ، كتب إليه عمر رضي الله عنه أن أقدم علينا ، فلم يشعر عمر إلا وقد قدم عليه ماشيا حافيا عكازته بيده ، وإداوته ومِزْوده[2] وقصعته على ظهره ، فلما نظر إليه عمر قال له : يا عمير ، أأجبتنا أم البلاد بلاد سوء ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، أما نهاك الله أن تجهر بالسوء ، وعن سوء الظن ، وقد جئت إليك بالدنيا أجرّها بقرابها ، فقال له : وما معك من الدنيا ، قال : عكازة أتوكأ عليها ، وأدفع بها عدوا إن لقيته ، ومِزود أحمل فيه طعامى ، وإداوة أحمل فيها ماء لشربى ولطهورى ، وقصعة أتوضأ فيها ، وأغسل فيها رأسى ، وآكل فيها طعامى ، فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد إلا تبع لما معى ، قال : فقام عمر رضي الله عنه من مجلسه إلى قبر رسول الله ﷺ وأبى بكر رضي الله عنه فبكى بكاء شديدًا ، ثم قال : اللهم ألحقنى بصاحبى غير مفتضح ، ولا مبدّل ، ثم عاد إلى مجلسه فقال : ما صنعت فى عملك يا عمير ، فقال : أخذت الإبل من أهل الإبل ، والجزية من أهل الذمة عن يد وهم صاغرون ، ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، فوالله يا أمير المؤمنين لو بقى عندى منها شىء لأتيتك به ! فقال عمر : عُدْ إلى عملك يا عُمَيْر ؛ قال: أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تردّنى إلى أهلى ، فأذن له ، فأتى أهله فبعث عمر رجلاً يقال له : حبيب بمائة دينار ، وقال له : اختبر لى عُميرًا ، وانزل عليه ثلاثة أيام ، حتى ترى حاله ، هل هو فى سعة أم ضيق ؟ فإن كان فى ضيق فادفع إليه المائة دينار ، فأتاه حبيب فنزل به ثلاثًا فلم ير له عيشًا إلا الشعير والزيت ، فلما مضت ثلاثة أيام قال : يا حبيب إن رأيت أن تتحوّل إلى جيراننا فلعلهم أن يكونوا أوسع عيشًا منا فإننا والله ، وتالله لو كان عندنا غير هذا لآثرناك به ، قال : فدفع إليه المائة دينار وقال : قد بعث بها أمير المؤمنين إليك ، فدعا بِفَرْوٍ خَلَقٍ لامرأته فجعل يصر منها الخمسة دنانير والستة والسبعة ويبعث إلى إخوانه من الفقراء إلى أن أنفَدَها فقدم حبيب على عمر ، وقال: جئتك يا أمير المؤمنين من عند أزهد الناس وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير ، فأمر له عمر بِوَسْقين[3] من طعام ، وثوبين فقال : يا أمير المؤمنين أما الثوبان فأقبلهما ، وأما الوسْقان فلا حاجة لى بهما، عند أهلى صاع من بُرّ هو كافيهم حتى أرجع إليهم .

وروى أن عمر رضي الله عنه صر أربعمائة دينار ، وقال للغلام : اذهب إلى أبى عبيدة بن الجراح ثم تربص عنده فى البيت ساعة ، حتى تنظر ما يصنع بها فذهب بها الغلام إليه وقال له : يقول لك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : اجعل هذه فى بعض حوائجك . قال : وصله الله ورحمه ، ثم دعا بجاريته ، وقال لها : اذهبى بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنْفَدَها فرجع الغلام إلى عمر وأخبره فوجده قد عدّ مثلها لمعاذ بن جبل ، فقال له : انطلق بها إلى معاذ بن جبل ، وانظر ما يكون من أمره فمضى إليه ، وقال له : كما قال لأبى عبيدة بن الجراح ففعل معاذ كما فعل أبو عبيدة ، فرجع الغلام ، فأخبره عمر . فقال : إنهم إخوة بعضهم من بعض - رضى الله تعالى عنهم أجمعين - .

---

(١) يكفينا من قصص الأنبياء ما حدثنا عنه القرآن الكريم، وجاءت به السنة المطهرة، أما ما زاد على ذلك فعلمه عند ربي.

(٢) سيأتي تفسير لهذه الأدوات الأربعة في نهاية هذا الحوار.

(٣) الوَسْق: مِكْيلة معلومة، وهى ستون صاعًا، والصاع خمسة أرطال وثلث، وحِمْل البعير أو العربة والسفينة.

الفصل الثانى :فى أحكام أهل الذمة

روى عن عبد الرحمن بن غنم قال : كتبنا لعمر بن الخطاب ﷺ حين صالح نصارى أهل الشام : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من نصارى مدينة كذا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا ، وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا ، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث فى مدائننا ولا فيما حواليها كنيسة ، ولا ديرا ، ولا قلية[١] ، ولا صومعة راهب ، ولا نجدّد ما خرب منها ولا ما كان مختطا منها فى خطط المسلمين فى ليل ولا فى نهار ، وأن نوسع أبوابها للمار وابن السبيل ، وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ولا نؤوى فى كنائسنا ولا فى منازلنا جاسوسا ولا نكتمه عن المسلمين ، ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شرعنا ، ولا ندعو إليه أحدا ، ولا نمنع أحدا من ذوى قراباتنا الدخول فى دين الإسلام إن أراده ، وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ، وأن لا نتشبه بالمسلمين فى شىء من ملابسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ، ولا نتكلم بكلامهم ، ولا نتكنى[٢] بكناهم ، ولا نركب فى السروج ، ولا نتقلد بالسيوف ، ولا نتخذ شيئًا من السلاح ، ولا نحمله معنا ، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ، ولا نبيع الخمر ، وأن نجز مقادم رءوسنا ونلزم زِيَّنا حيثما كنا ، وأن نشدّ الزُّنّار[٣] على أوساطنا ، ولا نظهر صلباننا ولا كتبنا فى شىء من أسواق المسلمين ، وطرقهم ، ولا نضرب بالنواقيس فى كنائسنا إلا ضربًا خفيفًا ، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نظهر النيران فى شىء من طرق المسلمين ، ولا أسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ، ولا نتطلع على منازلهم ، وقد شرطنا ذلك على أنفسنا ، وعلى أهل ملتنا ، وقبلنا عليه الأمان ، فإن نحن خالفنا فى شىء مما شرطناه لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا ، وقد حلّ بنا ما يحلّ بأهل المعاندة والشقاق ، فكتب إليه عمر ﷺ أن أمض ما سألوه ، وألحِق فيه حرفين[٤] واشترطهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم : أن لا يشتروا شيئًا من سبايا المسلمين ، ومن ضرب مسلمًا عمدًا فقد خلع عهده .

وروى أن بنى ثعلبة دخلوا على عمرَ بن عبد العزيز ﷺ فقالوا: يا أمير المؤمنين ، إنا قوم من العرب ، افرض لنا . قال : نصارى ؟ قالوا : نصارى . قال : ادعوا إلى حَجّامًا ففعلوا فجزّ نواصيهم ، وشق من أرديتهم حزمًا يحتزمون بها وأمرهم أن لا يركبوا بالسروج ، وأن يركبوا على الأكف[٥] من شق واحد .

وروى أن أمير المؤمنين الخليفة جعفر المتوكل أقصى اليهود والنصارى ، ولم يستعملهم وأذلهم ، وأبعدهم وخالف بين زيهم وزىّ المسلمين ، وقرّب منه أهل الحق ، وأبعد عنه أهل الباطل فأحيا الله به الحق ، وأمات به الباطل فهو يذكر بذلك ، ويترحم عليه ما دامت الدنيا . وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول : لا تستعملوا اليهود والنصارى ، فإنهم أهل رُشًا فى دينهم ، ولا يحل فى دين الله الرّشا[٦] .

ولما استقدم عمر بن الخطاب ﷺ أبا موسى الأشعرى ﷺ من البصرة وكان عاملاً عليها ، للحساب دخل على عمر ، وهو فى المسجد ، فاستأذن لكاتبه ، وكان نصرانيًا فقال له عمر : قاتلك الله وضرب بيده على فخذه ، ولّيت ذميًّا على المسلمين ، أما سمعت الله - تعالى - يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [المائدة:٥١] الآية . هلَّا اتخذت حنيفيًّا فقال : يا أمير المؤمنين ، لى كتابته ، وله دينه ، فقال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله ، ولا أعزهم إذ أذلهم الله ، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله . وكتب بعض العمال إلى عمر - رضى الله عنه -: إن العدو قد كثر ، وإن الجزية[٧] قد كثرت ، أفنستعين بالأعاجم ؟ فكتب إليه إنهم أعداء الله ، وإنهم لنا غششة فأنزلوهم

---

(١) القَلِيّة: شبه الصومعة [المعجم الوسيط].

(٢) الكُنى جمع كنية وهي ما بدئ بأب أو أم وفيها تعظيم لمن نخاطبه بقولنا: يا أبا فلان، ويا أم فلان.

(٣) الزُّنّار: حزام يشده النصراني على وسطه. والجمع زنانير.

(٤) حرفين: أي كلمتين أو جملتين.

(٥) الأكُف: جمع إكاف والإكاف: البرذعة توضع على الحمار والبغل.

(٦) الرُّشا: جمع رَشوة: وهي ما يعطى لقضاء مصلحة، أو ما يعطى لإحقاق باطل، أو إبطال حق.

(٧) الجزية: خراج الأرض، وما يؤخذ من أهل الذمة.

حيث أنزلهم الله . ولما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر لحقه رجل من المشركين عند الحرّة فقال : إنى أريد أن أتبعك وأصيب معك ، قال : « أَتُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ؟ » قال : لا . قال : « ارْجِعْ فَلَنْ نَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ » . ثم لحقه عند الشجرة ، قال : جئتك لأتبعك ، وأصيب معك ، قال : « أَتُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؟ » قال : لا . قال : « فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ » . ثم لحقه عند ظهر البيداء ، فقال له مثل ذلك ، فأجابه بمثل الأول . فقال : نعم فخرج به ، وفرح به المسلمون ، وكان له قوّة وجلد[١] وهذا أصل عظيم فى أن لا يستعان بكافر . هذا وقد خرج ليقاتل بين يدى النبى ﷺ ويراق دمه ، فكيف استعمالهم على رقاب المسلمين . وكتب عمر بن عبد العزيز ﷺ إلى عُمَّاله : أن لا تولوا على أعمالكم إلا أهل القرآن ، فكتبوا إليه : إنا قد وجدنا فيهم خيانة ، فكتب إليهم : إن لم يكن فى أهل القرآن خير فأَجْدِرْ أن لا يكون فى غيرهم . قال أصحاب الشافعى : ويلزمهم أن يتميزوا فى اللباس عن المسلمين ، وأن يلبسوا قلانس يميزونها عن قلانس[٢] المسلمين بالحمرة ، ويشدّوا الزنانير على أوساطهم ، ويكون فى رقابهم خاتم من نحاس ، أو رصاص ، أو جرس يدخلون به الحمام ، وليس لهم أن يلبسوا العمائم ولا الطيلسانات[٣] ، وأما المرأة فإنها تشدّ الزنار تحت الإزار ، وقيل فوق الإزار وهو الأولى ويكون فى عنقها خاتم تدخل به الحمام ، ويكون أحد خفيها أسود ، والآخر أبيض ، ولا يركبون الخيل ولا البغال ولا الحمير إلا بالأكف عَرْضا ، ولا يركبون بالسروج ، ولا يتصدّرون فى المجالس ، ولا يبدءون بالسلام ، ويلجئون إلى أضيق الطرق ويمنعون أن يتطاولوا على المسلمين فى البناء ، وتجوز المساواة ، وقيل : لا تجوز وإن تملكوا دار عالية أقروا عليها ، ويمنعون من إظهار المنكر كالخمر والخنزير والناقوس ، والجهر بالتوراة والإنجيل ، ويمنعون من المقام فى أرض الحجاز وهى مكة والمدينة واليمامة ، وإن امتنعوا من أداء الجزية والتزام أحكام أهل الملة انتقض عهدهم ، وإن زنى أحد منهم بمسلمة ، أو أصابها بنكاح ، أو آوى عينا[٤] للكفار ، أو دل على عورة المسلمين ، أو فتن مسلمًا عن دينه ، أو قتله ، أو قطع عليه الطريق ، تنتقض ذمته .

وفى تقدير الجزية اختلاف بين العلماء ، فمنهم من قال : إنها مَقْدِرَة الأقل والأكثر على ما كتب به عمر ﷺ إلى عثمان بن حنيف بالكوفة ، فوضع على الغنى ثمانية وأربعين درهمًا ، وعلى من دونه أربعة وعشرين درهمًا ، وعلى من دونه اثنى عشر درهمًا ، وذلك بمحضر من الصحابة ﷺ ولم يخالفه أحد ، وكان الصرف اثنى عشر بدينار ، وهذا مذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل ، وأحد قولى الشافعى . ويجوز للإمام أن يزيد على ما قدره عمر ، ولا يجوز أن ينقص عنه ، ولا جزية على النساء والمماليك والصبيان والمجانين ، وأما الكنائس بأمر عمر بن الخطاب ﷺ أنه تهدم كل كنيسة بعد الإسلام ، ومنع أن تجدّد كنيسة ، وأمر أن لا تظهر عُلّية[٥] خارجة من كنيسة ، ولا يظهر صليب خارج من كنيسة إلا كسر على رأس صاحبه ، وكان عروة بن محمد يهدمها بصنعاء ، وهذا مذهب علماء المسلمين أجمعين ، وشدّد فى ذلك عمر بن عبد العزيز ، وأمر أن لا يترك فى دار الإسلام بيعة ولا كنيسة بحال قديمة ولا حديثة ، والله - تعالى - أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) حديث: لما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر إلخ. أخرجه مسلم [١٨١٧]، وأحمد [٦/٦٨، ١٤٩].

(٢) القلانس: جمع قلنسوة وهي غطاء الرأس، أما الزّنار فقد سبق بيانه.

(٣) الطيلسانات: جمع طيلسان: كساء من لباس العجم مما يلبسه مشايخنا «العمامة والجبة والقفطان والكاكولة».

(٤) عينا للكفار: أي جاسوسًا لهم علينا.

(٥) العُلّية: بضم العين مع تشديد اللام: الغرفة في الطبقة الثانية من الدار وما فوقها.

الباب الثانى والعشرون

فى اصطناع المعروف ، وإغاثة الملهوف ، وقضاء الحوائج للمسلمين وإدخال السرور عليهم

قال الله - تعالى - : ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧] وقال - تعالى - : ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢] وقال رسول الله ﷺ: « من مشى فى عَوْن أخيه ومنفعته فله ثواب المجاهدين فى سبيل الله » (١) وعن أنس ﷺ أن النبىّ ﷺ قال : « الخلق كلهم عيال الله فأحب خلقه إليه أنفعهم لعياله » رواه البزار والطبرانى فى معجمه ومعنى عيال الله : فقراء الله - تعالى - والخلق كلهم فقراء لله - تعالى - وهو يعولهم .

وروينا فى مسند الشهاب عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال : « خيرُ الناس أنفعهم للناس » وعن كثير ابن عبيد بن عمرو بن عوف المزنى عن أبيه عن جده ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « إن لله خلقًا خلقهم لقضاء حوائج الناس ، آلى على نفسه أن لا يعذبهم بالنار ، فإذا كان يوم القيامة وضعت لهم منابر من نور يحدّثون الله - تعالى - والناس فى الحساب » (٢). وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ: « من سعى لأخيه المسلم فى حاجة فقضيت له أو لم تقض ، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وكتب له براءتان : براءة من النار ، وبراءة من النفاق » (٣) وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ: « من قضى لأخيه المسلم حاجة كنت واقفًا عند ميزانه فإن رجح ، وإلا شفعت له » رواه أبو نعيم فى الحلية .

وروينا فى مكارم الأخلاق لأبى بكر الخرائطى عن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « من مشى فى حاجة أخيه المسلم ، كتب الله له بكل خطوة سبعين حسنة ، وكفر عنه سبعين سيئة ، فإن قضيت حاجته على يديه ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فإن مات فى خلال ذلك دخل الجنة بغير حساب » . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ: « من مشى مع أخيه فى حاجة ، فناصحه فيها جعل الله بينه وبين النار سبعة خنادق ما بين الخندق والخندق كما بين السماء والأرض » رواه أبو نعيم وابن أبى الدنيا . وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ: « إن لله عند أقوام نعمًا يقرُّها عندهم ماداموا فى حوائج الناس ما لم يملوا فإذا ملوا نقلها الله إلى غيرهم » رواه الطبرانى . وروينا من طريق الطبرانى بإسناد جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ: « ما من عبد أنعم الله عليه نعمة ، فأسبغها عليه ، ثم جعل حوائج الناس إليه ، فتبرّم فقد عرَّض تلك النعمة للزوال » وعن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « من أغاث ملهوفًا كتب الله له ثلاثًا وسبعين حسنة ، واحدة منها يصلح بها آخرته ودنياه ، والباقى فى الدرجات » (٤). وعن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « أتدرون ما يقول الأسد فى زئيره ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « يقول : اللهم لا تسلطنى على أحد من أهل المعروف » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قيل : يا رسول الله، أى الناس أحب إليك ؟ قال : « أنفع الناس للناس » ، قيل : يا رسول الله ، فأى الأعمال أفضل ؟ قال : « إدخال السرور على المؤمن » . قيل : وما سرور المؤمن ؟ قال : « إشباع جوعته ، وتنفيس كربته ، وقضاء دينه ، ومن مشى مع أخيه فى حاجة كان كصيام شهر واعتكافه ، ومن مشى مع مظلوم يعينه ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام ، ومن كف غضبه ستر الله عورته ، وإن الخلق السيئ يفسد العمل ،

---

(١) حديث: «من مشى». إلخ. عزاه المتقي الهندي في «كنز العمال» [١٦٤٦٦] لابن النجار من رواية عليّ.

(٢) حديث «إن لله خلقًا» . إلخ. موضوع: أخرجه ابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» برقم [٩٤]، وفيه داود بن المحبر، متهم بوضع الحديث، والحديث مرسل من مراسيل الحسن البصري.

(٣) «من سعى لأخيه المسلم» . . إلخ. موضوع: انظر: «الفوائد المجموعة» للشوكاني [ص٨٤].

(٤) «من أغاث ملهوفًا» إلخ. ضعيف: أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» [٣/ ٣٥٠]، وابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» برقم [٢٩، ٩٦]. وانظر: «السلسلة الضعيفة» برقم [٦٢١، ٧٥٠].

كما يفسد الخل العسل »[١] . وعن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من لقى أخاه المسلم بما يحب ليسرّه بذلك ، سَرَّهُ الله يوم القيامة » رواه الطبرانى فى الصغير بإسناد حسن . وروى عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أدخل على أهل بيت من المسلمين سرورًا لم يرض الله له سرورًا دون الجنة » . رواه الطبرانى ، وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أدخل رجل على مؤمن سرورًا إلا خلق الله من ذلك السرور ملكًا يعبد الله - تعالى - ويوحده ، فإذا صار العبد فى قبره أتاه ذلك السرور فيقول له : أما تعرفنى ؟! فيقول له : من أنت ؟ فيقول : أنا السرور الذى أدخلتنى على فلان ، أنا اليوم أؤانس وحشتك ، وأُلقّنك حجتك ، وأثبتك بالقول الثابت ، وأشهد مشاهدك يوم القيامة ، وأشفع لك إلى ربك ، وأريك منزلك فى الجنة » رواه ابن أبى الدنيا .

وعن علىّ بن أبى طالب ﷺ يرفعه : « إذا أراد أحدكم الحاجة فليبكر لها يوم الخميس ، وليقرأ إذا خرج من منزله ، آخر سورة آل عمران ، وآية الكرسى ، وإنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وأم الكتاب ، فإن فيها حوائج الدنيا والآخرة »[٢] . وهو حديث مرفوع . ومن كلام الحكماء : إذا سألت كريمًا حاجة ، فدعه يفكر ، فإنه لا يفكر إلا فى خير ، وإذا سألت لئيمًا حاجة ، فعاجله لئلا يشير عليه طبعه أن لا يفعل . وسأل رجل رجلا حاجة ثم توانى عن طلبها فقال له المسئول : أنمت عن حاجتك ؟ فقال : ما نام عن حاجته من أسهرك لها ، ولا عدل بها عن محجة النجح من قصدك بها ، فعجب من فصاحته ، وقضى حاجته ، وأمر له بمال جزيل . وقال مسلمة لنُصيب : سلنى فقال : كفك بالعطية أبسط من لسانى بالمسألة ، فأمر له بألف دينار . وقال على بن أبى طالب ﷺ : فوتُ الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها ، وعنه أيضًا قال : لا تُكثر على أخيك الحوائج ، فإن العِجْلَ إذا أفرط فى مصّ ثدى أمّه نطحته . وقال ذو الرياستين لثمامة بن أشرس : ما أدرى ما أصنع بكثرة الطلاب ؟! فقال : زُلْ عن موضعك ، وعلىّ أن لا يلقاك منهم أحد ! فقال له : صدقت . وجلس لهم فى قضاء حوائجهم . وحدث أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخى قال : عرضتُ على أبى الحسن على بن محمد بن الفرات رقعةً فى حاجة لى ، فقرأها ووضعها من يده ، ولم يوقع فيها بشىء فأخذتُها ، وقمت وأنا أقول متمثلاً من حيث يسمع هذين البيتين :

وإذا خَطبتَ إلى كريم حاجةً ... وأَبَى فلا تعقد عليه بحاجبِ
فلربَّما منع الكريمُ وما به ... بخلٌ ولكن سوءُ حظِّ الطالبِ

فقال وقد سمع ما قلت : ارجع يا أبا جعفر بغير سوء حظ الطالب ، ولكن إذا سألتمونا الحاجة ؛ فعاودونا فإن القلوب بيد الله - تعالى - فأخذ الرقعة ، ووقع فيها بما أردت . وسأل إسحاق بن ربعى إسحاق بن إبراهيم المصعبى أن يوصل له رقعة إلى المأمون ، فقال لكاتبه ضمها إلى رقعة فلان فقال :

تأنَّ لحاجتى واشْدُدْ عُراها ... فقد أضحت بمنزلة الضّياع
إذا شاركتها بلبان أخرى ... أضرّ بها مشاركة الرضاع

وقال أبو دقاقة البصرى :

أضحتْ حوائجُنا إليك مُناخةً ... معقولةً برحابك الوصال
أطلق - فديتك - بالنجاح عِقالَها ... حتى تثور معا بغير عقال

وقال سَلْم الخاسر :

إذا أذن الله فى حاجة ... أتاك النجاح على رِسله
فلا تسأل الناسَ من فضلهم ... ولكن سَل الله من فضله

ولله در القائل حيث قال :

---

(١) حديث: «قيل يا رسول الله» إلخ. ضعيف: أخرجه ابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» برقم [٣٦]، والأصبهاني في «الترغيب والترهيب» برقم [١١٣٥]، وفي سنده مسكين بن سراج، ضعيف.

(٢) حديث علي : «إذا أراد أحدكم الحاجة» . . إلخ. انظر: «تنزيه الشريعة» لابن عراق [١/٣٠٩].

أيها المادحُ العبادَ ليُعطَى ... إن لله ما بأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم ... وارج فرض المقسم الجوّاد

وعن عبد الله بن الحسن بن الحسين ﷺ قال : أتيت باب عمر بن عبد العزيز فى حاجة فقال : إذا كانت لك حاجة إلىّ فأرسل إلىّ رسولا أو اكتب لى كتابا فإنى لأستحيى من الله أن يراك ببابى . وعن على بن أبى طالب ﷺ قال : والذى وسع سمعُه الأصوات ما من أحد أودع قلبًا سرورًا إلا خلق الله - تعالى - من ذلك السرور لُطفًا فإذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء فى انحداره حتى يطردها عنه كما تُطرَدُ غريبة الإبل . وقال لجابر بن عبد الله الأنصارى رضي الله عنهما يا جابر ، من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائجُ الناس إليه ، فإن قام بما يجب لله فيها عرّضها للدوام والبقاء ، وإن لم يقم فيها بما يجب لله عرّضها للزوال . نعوذ بالله من زوال النعمة ، ونسأله التوفيق والعصمة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا دائمًا أبدًا إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين.

الباب الثالث والعشرون

فى محاسن الأخلاق ومساويها

قال الله - تعالى - لنبيه ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] فخص الله - تعالى - نبيه ﷺ من كريم الطباع ، ومحاسن الأخلاق من الحياء والكرم ، والصفح ، وحسن العهد ، بما لم يؤته غيره ، ثم ما أثنى الله - تعالى - عليه بشىء من فضائله بمثل ما أثنى عليه بحسن الخلق ، فقال - تعالى - : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قالت عائشة رضي الله عنها : « كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ ، يَغْضَبُ لِغَضَبِهِ ، وَيَرْضَى لِرِضَاهُ »[١] . وكان الحسن ﷺ إذا ذكر رسول الله ﷺ قال : أكرم ولد آدم على الله - عز وجل - أعظم الأنبياء عليهم السلام منزلة عند الله ، أتى بمفاتيح الدنيا ، فاختار ما عند الله - تعالى -، وكان يأكل على الأرض ، ويجلس على الأرض ويقول : « **إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد** » ، ولا يأكل متكئا ، ولا على خُوان وكان يأكل خبز الشعير غير منخول ، وكان يأكل القثاء بالرطب ويقول : « **برد هذا يطفئ حر هذا** » **وكان أحب الطعام إليه اللحم** ، ويقول : « هذا يزيد فى السمع ، ولو سألت ربى أن يطعمنيه كل يوم لفعل » ، وكان يحب الدباء[٢] ويقول : « **يا عائشة إذا طبختم قدرًا فأكثروا فيه من الدباء فإنها تشدّ قلب الحزين** » ، وكان يقول : « **إذا طبختم الدباء فأكثروا من مرقها** » ، وكان يكتحل بالإثمد[٣] ، ولا يفارقه فى سفره قارورة الدُّهن ، والكحل ، والمرآة ، والمشط ، والإبرة ، يخيط ثوبه بيده . وكان يضحك من غير قهقهة ويرى اللعب المباح ، ولا ينكره . وكان يسابق أهله. قالت عائشة رضي الله عنها سابقته فسبقته ، فلما كثر لحمى سابقته فسبقنى فضرب بكتفى وقال : « **هذه بتلك** »[٤] وكان له عبيد وإماء لا يرتفع على أحد منهم فى مأكل ولا مشرب ولا ملبس ، وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب ، نشأ فى بلاد الجهل والصحارى يتيمًا لا أب له ولا أم ، فعلمه الله - تعالى - جميع محاسن الأخلاق ، وكان أفصح الناس منطقًا وأحلاهم كلامًا ، وكان يقول : « **أنا أفصحُ العَرب** »[٥] . وقال أنس ﷺ : والذى بعثه بالحق نبيًّا ما

---

(١) حديث عائشة: «كان خلقه القرآن».. إلخ. أخرجه مسلم [٧٤٦/ ١٣٩]، مقتصرًا على قوله: «كان خلق رسول الله ﷺ القرآن» وانظر: «كنز العمال» للهندي [١٨٧١٨].

(٢) الدباء: بتشديد الدال المضمومة، وتشديد الباء المفتوحة، أي القَرْع.

(٣) الإثمد: عنصر معدني بلّوري الشكل، قصديري اللون، يوجد في حالة نقية، وغالبًا متحدًا مع غيره من العناصر، يُكتحل به.

(٤) الوفا بأحوال المصطفى جـ٢ لابن الجوزي الباب الحادي عشر.

(٥) «وكان الحسن» إلخ. ارجع إلى ابن كثير في البداية والنهاية والمواهب اللدنية، وابن هشام، وأبي نعيم في الحلية.

قال لى فى شىء قط كرهه لم فعلته [١]؟ ولا فى شىء لم أفعله لم لا فعلته ؟ ولا لامنى أحد من أهله إلا قال : « **دعوه إنما كان هذا بقضاء وقدر** » وقال بعض مشايخنا رحمهم الله - تعالى - لا مانع من أن النبى ﷺ إذا هضم نفسه ، وتواضع لا يمنع من المرتبة التى هى أعلى مرتبة من العبودية ، فالنبى ﷺ أعطاه الله - تعالى - مرتبة الملك مع كونه عبدًا له متواضعًا ، فحاز المرتبتين : مرتبة العبودية ، ومرتبة الملكية ، ومع ذلك كان يلبس المرقع ، والصوف ويرقع ثوبه ، ويخصف [٢] نعله ، ويركب الحمار بلا إكاف [٣]، ويُردف خلفه ، ويأكل الخشن من الطعام ، وما شبع قط من خبز بر ثلاثة أيام متوالية ، حتى لقى الله - تعالى - من دعاه لباه ، ومن صافحه لم يرفع يده حتى يكون هو الذى يرفعها ، يعود المريض ، ويتبع الجنائز ، ويجالس الفقراء أعظم الناس من الله مخافة ، وأتعبهم لله - عز وجل - بدنًا وأجدّهم فى أمر الله لا تأخذه فى الله لومة لائم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، أما والله ما كانت تغلق من دونه الأبواب ، ولا كان دونه حجاب ﷺ.

وقالت عائشة رضي الله عنها: « **مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ امْرَأَةً قَطّ ، وَلَا خَادِمًا لَهُ ، وَلَا ضَرَبَ بِيَدِهِ شَيْئًا إلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وَلَا خُيِّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا إلَّا أَنْ يَكُونَ إثْمًا أَوْ قَطِيعَةَ رَحِمٍ ، فَيَكُونَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ** » [٤].

وقال إبراهيم بن عباس لو وزنت كلمة رسول الله ﷺ بمحاسن الناس لرجحت وهى قوله ﷺ: « **إنكم لن تَسَعُوا الناس بأموالكم ، فَسَعُوهُمْ بأَخْلَاقِكُمْ** » [٥]. وفى رواية أخرى : « **فسعوهم ببسط الوجه والخلق الحسن** » . وعنه ﷺ: « **حسن الخلق زمام من رحمة الله - تعالى - فى أنف صاحبه ، والزمام بيد الملك ، والملك يجره إلى الخير ، والخير يجره إلى الجنة . وسوء الخلق زمام من عذاب الله تعالى فى أنف صاحبه ، والزمام بيد الشيطان والشيطان يجره إلى الشر ، والشر يجره إلى النار** » [٦]. وقال بعض السلف : الحسن الخلق ذو قرابة عند الأجانب ، والسيئ الخلق أجنبى عند أهله . وقال الفضيل: لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق أحب إلى من أن يصحبنى عابد سيئ الخلق ، لأن الفاجر إذا حسن خلقه خف على الناس ، وأحبوه ، والعابد إذا ساء خلقه مقَتوه :

إذا رام التَّخلُّق جاذبته ... خلائقه إلى الطَّبْع القديم !

قيل : أبى الله لسيىء الخلق التوبة ، لأنه لا يخرج من ذنب إلا دخل فى ذنب آخر لسوء خلقه ! وعن عائشة قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن الرجل شىء لم يقل : ما بال فلان ؟! ولكن يقول : « **مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ حَتَّى لَا يَفْضَحُ أَحَدًا** » [٧] وعنه ﷺ: « **مَا شَيْءٌ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ** » [٨]. وعنه أيضًا ﷺ قال : « **ثلاث من كنّ فيه كنّ له : من صدق لسانه زكا عمله ، ومن حسنت نيته زيد فى رزقه ، ومن حسن بره لأهل بيته زيد له فى عمره** » ، ثم قال : « **وحسن الخلق ، وكف الأذى يزيدان فى الرزق** » [٩]. وقيل : سوء الخلق يُعدى لأنه يدعو إلى أن يقابل بمثله .

وكتب الحسن بن على إلى أخيه الحسين رضي الله عنهما فى إعطائه الشعراء فكتب إليه الحسين أنت أعلم منى بأن خير المال ما وُقى به العرض ، فانظر إلى شرف أدبه وحسن خلقه ، كيف ابتدأ كتابه بأنت أعلم منى . وكان بينه وبين أخيه كلام فقيل له : ادخل على أخيك فهو أكبر منك ، فقال : إنى سمعت جدى رسول الله ﷺ يقول : « **أيما اثنين جرى بينهما كلام**

---

(١) حديث أنس: «والذي بعثه بالحق.. إلخ» قريبًا منه ما أخرجه البخاري [١٩٧٣، ٢٧٦٨]، ومسلم [٢٣٩٠]، وغيرهما من حديثه. أما لفظنا هذا، فأخرجه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ [ص٣٥]، بسند ضعيف.

(٢) خصف نعله: أي خرزها بالمِخْصف.

(٣) الإكاف: البَرْذعة، والجمع أُكُفٌ.

(٤) حديث عائشة رضي الله عنها: «ما ضرب رسول الله ﷺ.. إلخ» هذا الحديث مكون من حديثين، الأول ينتهي عند قوله.. سبيل الله أخرجه مسلم [٢٣٢٨]، وغيره، والثاني، أخرجه البخاري [٣٥٦٠، ٦١٢٦]، ومسلم [٢٣٢٧]، وكلاهما من حديث عائشة.

(٥) حديث: «إنكم لم تسعوا الناس».. إلخ أخرجه الحاكم [١/ ١٢٤]، وأبو نعيم في الحلية [١٠/ ٢٥].

(٦) حديث: «حسن الخلق زمام».. إلخ ضعيف: أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم [٨٠٣٧]، وضعفه، وهو من حديث أبي موسى الأشعري.

(٧) حديث عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا بلغه.. إلخ أخرجه البخاري [٦١٠١]، ومسلم [ج ع برقم ١٢٧-١٢٨] في كتاب الفضائل بنحوه.

(٨) «ما شيء أثقل في الميزان».. إلخ صحيح: أخرجه الترمذي [٢٠٠٢] عن أبي الدرداء، وكذا أبو داود [٤٧٩٩].

(٩) ثلاث من كن فيه كن له: لم أهتد إلى من خرجه.

فطلب أحدهما رضا الآخر كان سابقه إلى الجنة »[١] . وأنا أكره أن أسبق أخى الأكبر إلى الجنة فبلغ ذلك الحسن فجاءه عاجلًا ﷺ وأنشد فى المعنى :

وإنّـى لألـقـى الـمـرْء أعـلـمُ أنّـه ... عـدوّ وفـى أحـشـائـه الـضّـغـن كـامـنْ
فـأمـنـحـه بـشْـرًا فـيـرجـع قـلـبُـه ... سـلـيـمًـا وقـد مـاتـت لـديـه الـضّـغـائـنْ

وسرق بعضُ حاشية جعفر بن سليمان جوهرةً نفيسة ، وباعها بمال جزيل ، فأنفذ إلى الجوهريين بصفتها ، فقالوا : باعها فلان من مدّة ، ثم إنّ ذلك الرجل الذى سرقها قبض عليه ، وأحضر بين يدى جعفر ، فلما رأى ما ظهر عليه قال له : أراك قد تغير لونك ، ألست يوم كذا طلبت منى هذه الجوهرة فوهبتها لك ؟ وأقسم بالله لقد أنسيت هذا ، ثم أمر للجوهرى بثمنها ، وقال للرجل : خذها الآن حلالًا طيبًا ، وبعها بالثمن الذى يطيب خاطرك به لا تبع بيع خائف ! ودخل محمد بن عباد على المأمون فجعل يعممه بيده وجارية على رأسه تتبسم ، فقال لها المأمون: مم تضحكين ؟ فقال ابن عباد ، أنا أخبرك يا أمير المؤمنين ، تتعجب من قبحى ، وإكرامك إياى ، فقال : لا تعجبى فإن تحت هذه العمامة كرمًا ومجدًا. قال الشاعر :

وهـل يـنـفـع الـفـتـيـان حُـسـنُ وُجُـوهـهـم ... إذا كـانـت الأعْـراضُ غـيـرَ حِـسـانِ
فـلا تَـجْـعـلِ الـحـسـن الـدلـيـل عـلـى الـفـتـى ... فـمـا كـلّ مـصـقـول الـحـديـد يـمـانـى

وحكى : أنّ بهرام الملك خرج يومًا للصيد ، فانفرد عن أصحابه ، فرأى صيدا فتبعه طامعًا فى لحاقه ، حتى بعد عن عسكره ، فنظر إلى راعٍ تحت شجرة ، فنزل عن فرسه ليبول ، وقال للراعى : احفظ علىّ فرسى حتى أبول فعمد الراعى إلى العنان ، وكان ملبسًا ذهبًا كثيرًا ، فاستغفل بهرام ، وأخرج سكينًا فقطع أطراف اللجام ، وأخذ الذهب الذى عليه ، فرفع بهرام نظره إليه فرآه فغض بصره ، وأطرق برأسه إلى الأرض ، وأطال الجلوس حتى أخذ الرجل حاجته ، ثم قام بهرام فوضع يده على عينيه ، وقال للراعى : قدّم إلى فرسى ، فإنه قد دخل فى عينى من سافى الريح فلا أقدر على فتحهما ، فقدمه إليه فركب وسار إلى أن وصل إلى عسكره ، فقال لصاحب مراكبه : إن أطراف اللجام قد وهبتها ، فلا تتهمن بها أحدًا .

وذكر أن أنوشِروان : وضع الموائد للناس فى يوم نوروز ، وجلس ودخل وجوه أهل مملكته فى الإيوان ، فلما فرغوا من الطعام جاءوا بالشراب ، وأحضرت الفواكه والمشموم فى آنية الذهب والفضة ، فلما رفعت آنية المجلس أخذ بعض من حضر جَام ذهب[٢] وزنه ألف مثقال ، وخبأه تحت ثيابه ، وأنوشروان يراه ، فلما فقده الشرابى[٣] صاح بصوت عال : لا يخرجن أحد حتى يفتش ، فقال كسرى: ولِمَ ؟ فأخبره بالقضية فقال : وقد أخذه من لا يرده ، ورآه من لا ينم عليه ، فلا تفتش أحدًا ، فأخذ الرجل الجام ومضى فكسره ، وصاغ منه مِنْطقة وحِلية لسيفه ، وجدد له كسوة جميلة ، فلما كان فى مثل ذلك اليوم جلس الملك ، ودخل ذلك الرجل بتلك الحلية فدعاه كسرى ، وقال له : هذا من ذاك فقبل الأرض وقال : نعم أصلحك الله .

وقال عبد الله بن طاهر : كنت عند المأمون يومًا فنادى بالخادم يا غلام ، فلم يجبه أحد ، ثم نادى ثانيا وصاح : يا غلام ، فدخل غلام تركى ، وهو يقول : ما ينبغى للغلام أن يأكل ولا يشرب ، كلما خرجنا من عندك تصيح : يا غلام ، يا غلام إلى كم يا غلام !! فنكس المأمون رأسه طويلا ، فما شككت أنه يأمرنى بضرب عنقه ، ثم نظر إلىّ فقال : يا عبد الله ، إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه ، وإذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه ، وإنا لا نستطيع أن نسىء أخلاقنا لتحسن أخلاق خدمنا . وقال ابن عباس ﷺ : ورد علينا الوليد بن عتبة بن أبى سفيان المدينة واليا ، وكأن وجهه ورقة من ورق المصحف ، فوالله ما ترك فينا فقيرا إلا أغناه ، ولا مديونا إلا أدّى عنه دينه ،

---

(١) «أيما اثنين جرى بينهما» . . إلخ لم أقف عليه.

(٢) الجام: إناء للشراب والطعام من فضة أو نحوها وهي مؤنثة.

(٣) الشرابي: من يقدم الشراب.

وكان ينظر إلينا بعين أرقَّ من الماء ، ويكلمنا بكلام أحلى من الجنى [١] ، ولقد شهدت منه مشهدًا لو كان من معاوية لذكرته ، تغدينا يوما عنده ، فأقبل الفراش بصحفة ، فعثر فى وسادة ، فوقعت الصحفة من يده ، فوالله ما ردها إلا ذقن الوليد ، وانكب جميع ما فيها فى حجره ، فبقى الغلام متمثلا واقفا ما معه من روحه ، إلا ما يقيم رجليه فقام الوليد فدخل فغيَّر ثيابه وأقبل علينا تبرق أسارير جبهته ، فأقبل على الفراش وقال : يا بائس ، ما أرانا إلا روّعناك اذهب فأنت وأولادك أحرار لوجه الله - تعالى - .

ومرض أحمد بن أبى دواد ، فعاده المعتصم ، وقال : نذرت إن عافاك الله - تعالى - أن أتصدق بعشرة آلاف دينار ، فقال له أحمد : يا أمير المؤمنين ، فاجعلها فى أهل الحرمين ، فقد لقوا من غلاء الأسعار شدّة ، فقال: نويت أن أتصدق بها على من ههنا ، وأطلق لأهل الحرمين مثلها ، فقال أحمد : متع الله الإسلام وأهله بك يا أمير المؤمنين ، فإنك كما قال النميرى لأبيك الرشيد - رحمة الله تعالى عليه - :

إنَّ المكارمَ والمعروفَ أوديةٌ ... أحلّك الله منها حيثُ تجتمعُ

من لم يكنْ بأمين الله معتصمًا ... فليس بالصَّلوات الخمس ينتفعُ

وقيل للأحنف بن قيس : ممن تعلمت حسن الخلق ؟ فقال : من قيس بن عاصم ، بينما هو ذات يوم جالس فى داره إذ جاءته خادم له بسَفّود [٢] عليه شِواء حار ، فنزعت السفود من اللحم ، وألقته خلف ظهرها فوقع على ابن له فقتله لوقته ، فدهشت الجارية ، فقال : لا روعَ عليك ! أنت حرة لوجه الله - تعالى - .

وكان ابن عمر ﷺ إذا رأى أحدا من عبيده يُحسن صلاته يَعْتِقهُ ، فعرفوا ذلك من خلقه فكانوا يحسنون الصلاة مراءاة له ؛ فكان يعتقهم فقيل له ذلك : فقال : من خدعنا فى الله انخدعنا له ! وروى أنّ أبا عثمان الزاهد ، اجتاز ببعض الشوارع فى وقت الهاجرة فألقى من فوق سطح طست رماد ، فتغير أصحابه ، وبسطوا ألسنتهم فى الملْقى للرماد ، فقال أبو عثمان : لا تقولوا شيئا ، فإن من استحق أن يُصَبّ عليه النار ، فصولح بالرَّماد لم يجز له أن يغضب .

وقيل لإبراهيم بن أدهم - تغمده الله تعالى برحمته - هل فرحت فى الدنيا قط ؟ قال : نعم مرتين : إحداهما أنى كنت قاعدًا ذات يوم ، فجاء إنسان فبال علىّ ، والثانية كنت جالسا ، فجاء إنسان فصفعنى . وروى أن علىّ ابن أبى طالب ﷺ دعا غلاما له فلم يجبه ، فدعاه ثانيا وثالثا ، فرآه مضطجعا ، فقال : أما تسمع يا غلام ؟! قال : نعم . قال : فما حملك على ترك جوابى ؟ قال : أَمِنْتُ عقوبتَك ، فتكاسلت ، فقال : اذهب فأنت حر لوجه الله - تعالى - .

وحكى : أن أبا عثمان الحيرى دعاه إنسان إلى ضيافة ، فلما وافى باب الدار قال له الرجل : يا أستاذ ليس لى وجه فى دخولك ، فانصرف - رحمك الله - فانصرف أبو عثمان ، فلما وافى منزله عاد الرجل إليه ، وقال : يا أستاذ ندمت ، وأخذ يعتذر له ، وقال : احضر الساعة ، فقام معه ، فلما وافى داره ، قال له مثل ما قال فى الأولى ، ثم فعل به ذلك أربع مرات وأبو عثمان ينصرف ويحضر ، ثم قال له : يا أستاذ إنما أردت بذلك اختبارك ، والوقوف على أخلاقك ثم جعل يعتذر له ويمدحه ، فقال أبو عثمان : لا تمدحنى على خلق تجده فى الكلاب ، فإن الكلب إذا دعى حضر ، وإذا زُجِرَ انزجر .

وقال الحارث بن قُصى : يعجبنى من القرّاء كل فصيح مِضحاك ، فأما الذى تلقاه ببشر ويلقاك بوجه عبوس ، فلا كثَّر الله فى المسلمين مِثْلَه . ومن محاسن الأخلاق ما حكى عن القاضى يحيى بن أكثم قال : كنت نائما ذات ليلة عند المأمون ، فعطش ، فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه ، وأنا نائم فينغص علىّ نومى ، فرأيته ، وقد قام يمشى على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء ، وبينه وبين المكان الذى فيه الكيزان نحو ثلثمائة خطوة ، فأخذ منها كوزا فشرب ، ثم رجع يمشى على أطراف أصابعه ، حتى قرب من الفراش الذى أنا عليه ، فخطا خطوات خائف ، لئلا ينبهنى حتى صار إلى فراشه ، ثم رأيته آخر الليل قام يبول ، وكان يقوم فى أوّل الليل وآخره ، فقعد طويلا يحاول أن أتحرّك فيصيح

---

[١] الجَنى: ما يُجنى من الشجر، والعَسَل.

[٢] سَفّود: عود من حديد يشوى عليه اللحم.

بالغلام ، فلما تحرّكت وثب قائما ، وصاح يا غلام ، وتأهب للصلاة ، ثم جاءنى فقال لى : كيف أصبحت يا أبا محمد ؟ وكيف كان مبيتك ؟ قلت : خير مبيت - جعلنى الله فداك يا أمير المؤمنين - قال : لقد استيقظت للصلاة فكرهتُ أن أصيح بالغلام ، فأُزعجَك ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، قد خصك الله - تعالى - بأخلاق الأنبياء ، وأحبّ لك سيرتهم ، فهنأك الله - تعالى - بهذه النعمة ، وأتمها عليك ، فأمر لى بألف دينار فأخذتها ، وانصرفت . قال : وبت عنده ذات ليلة فانتبه - وقد عرض له السعال - فجعلت أرمقه وهو يحشو فمه بكم قميصه ، يدفع به السعال ، حتى غلبه فسعل ، وأكبّ على الأرض لئلا يعلو صوته ، فأنتبه .

قال يحيى : وكنت معه يوما فى بستان ، ندور فيه ، فجعلنا نمرّ بالريحان فيأخذ منه الطاقة والطاقتين ، ويقول لقيّم البستان : أصلح هذا الحوض ، ولا تغرس فى هذا الحوض شيئا من البقول . قال يحيى : ومشينا فى البستان ، من أوله إلى آخره ، وكنت أنا مما يلى الشمس ، والمأمون مما يلى الظل ، فكان يجذبنى أن أتحول أنا فى الظل ، ويكون هو فى الشمس ، فأمتنع من ذلك ، حتى بلغنا آخر البستان ، فلما رجعنا ، قال : يا يحيى والله لتكونن فى مكانى ، ولأكونن فى مكانك ، حتى آخذ نصيبى من الشمس ، كما أخذت نصيبك وتأخذ نصيبك من الظل كما أخذت نصيبى ، فقلت : والله يا أمير المؤمنين ، لو قدرت أن أقيك يوم الهول بنفسى لفعلت ، فلم يزل بى حتى تحولت إلى الظل ، وتحول هو إلى الشمس ، ووضع يده على عاتقى وقال : بحياتى عليك إلا ما وضعت يدك على عاتقى مثل ما فعلت أنا فإنه لا خير فى صحبة من لا ينصف . فانظر إلى أخلاقهم ﷺ ما أحسنها ! وإلى أفعالهم ما أزينها ! نسأل الله - تعالى - أن يحسن أخلاقنا ، وأن يبارك لنا فى أرزاقنا ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الرابع والعشرون

فى حسن المعاشرة والمودة ، والأخوة ، والزيارة وما أشبه ذلك

اعلم أن المودة والأخوة ، والزيارة سبب التألف ، والتألف سبب القوّة ، والقوة سبب التقوى ، والتقوى حصن منيع ، وركن شديد بها يمنع الضيم ، وتنال الرغائب ، وتنجح المقاصد ، وقد من الله - تعالى - على قوم ، وذكرهم نعمته عليهم بأن جمع قلوبهم على الصفاء ، وردّها بعد الفرقة إلى الألفة والإخاء ، فقال - تعالى - : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران:١٠٣] . ووصف نعيم الجنة ، وما أعد فيها لأوليائه من الكرامة إذ جعلهم إخوانا على سرر متقابلين[(١)] ، وقد سنّ رسول الله ﷺ الإخاء وندب إليه ، وآخى بين الصحابة ﷺ وقد ذكر الله - تعالى - أهل جهنم ، وما يلقون فيها من الألم إذ يقولون : ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠١]. وقال علىّ بن أبى طالب ﷺ : الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين ، وأنشدوا فى ذلك :

وما المرءُ إلا بإخوانه ... كما يقبض الكفُّ بالمِعْصَمِ
ولا خيرَ فى الكفِّ مقطوعةً ... ولا خيرَ فى الساعدِ الأجذمِ[(٢)]

وقال زياد : خير ما اكتسب المرء الإخوان ، فإنهم معونة على حوادث الزمان ، ونوائب الحدثان[(٣)] ، وعون فى السراء والضراء ، ومن كلام علىّ ﷺ:

عليكَ بإخوان الصَّفاء فإنَّهم ... عمادٌ إذا استنجدتهم وظُهورُ

---

(١) كما جاء في الآية رقم [٤٧] من سورة الحجر: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

(٢) الأجذم: المقطوع.

(٣) الحَدَثان: الليل والنهار.

وإنّ قليلا ألفُ خِلٍّ وصاحبٍ وإن عدّوا واحدًا لكثيرِ

وقال الأوزاعى : الصاحب للصاحب كالرقعة فى الثوب إن لم تكن مثله شانته . وقال عبد الله بن طاهر : المال غاد ورائح ، والسلطان ظلّ زائل ، والإخوان كنوز وافرة . وقال المأمون للحسن بن سهل : نظرت فى اللذات ، فوجدتها كلها مملولة سوى سبعة ؛ قال : وما السبعة يا أمير المؤمنين ؟ قال : خبز الحنطة ، ولحم الغنم ، والماء البارد ، والثوب الناعم ، والرائحة الطيبة ، والفراش الوطىء ، والنظر إلى الحَسَن من كل شىء . قال : فأين أنت يا أمير المؤمنين من محادثة الرجال ؟ قال : صدقت وهى أولَاهُن .

وقال سليمان بن عبد الملك : أكلت الطَّيِّبَ ، ولبست اللينَ ، وركبت الفاره ، وافتضضت العذارى ، فلم يبق من لذاتى إلا صديق أطرح معه مؤنة التحفظ . وكذلك قال معاوية ﷺ : نكحت النساء حتى ما أفرق بين امرأة وحائط ، وأكلت الطعام حتى لا أجد ما أستمرئه ، وشربت الأشربة حتى رجعت إلى الماء ، وركبت المطايا حتى اخترت نعلى ، ولبست الثياب حتى البياض ، فما بقى من اللذات ما تتوق إليه نفسى إلا محادثة أخ كريم، وأنشدوا فى معنى ذلك :

ومَا بقيتْ من اللَّذات إلّا مُحادثةُ الرجال ذوى العقولِ
وقَدْ كُنَّا نعدهم قليلا فقَدْ صاروا أقلَّ من القليلِ

وقال لبيد :

ما عاتبَ المرءَ اللبيبَ كنفسه والمرءُ يُصلحه الجليسُ الصالحُ

وقال آخر :

إذا ما أتت من صاحب لك زلّةٌ فكُنْ أنت محتالا لزلته عذرًا

وقيل لابن السماك : أى الإخوان أحق ببقاء المودة ؟ قال : الوافر دينه ، الوافى عقله ، الذى لا يَمَلُّك على القرب ، ولا ينساك على البعد ، إن دنوت منه داناك ، وإن بعدت عنه راعاك ، وإن استعنت به عضدك ، وإن احتجت إليه رفَدك ، وتكون مودّة فعله أكثرَ من مودةِ قوله ، وأنشدوا فى المعنى :

إن أخاك الصّدْق من يسعى معَكْ ومن يضرُّ نفسَه لينفعَكْ
ومَن إذا رَيْبُ الزّمان صدعَك شتت فيك شمله ليجمعَكْ

وقال غيره :

وليس أخى من ودّنى بلسانه ولكن أخى من ودّنى وهو غائبُ
ومَن مالُه إذا كنت مُعدِما ومالى له إن أعوزَتْه النوائبُ

وقال أبو تمام :

من لى بإنسان إذا أغضبتُه وجهلتُ كان الحلمُ رَدّ جوابه
وتراه يصغى للحديث بطرفه وبقلبه ولعله أدرى به

وقيل لخالد بن صفوان: أىّ إخوانك أحب إليك ؟ قال : الذى يسدّ خلّتى[1] ، ويغفر زَلّتى ، ويُقيل عثرتى .

وقيل : من لا يؤاخى إلا من لا عيب فيه ، قلّ صديقه ، ومن لم يرض من صديقه إلا بإيثاره على نفسه دام سخطه ، ومن عاتب على ذنب ضاع عتبه ، وكثر تعبه ، قال الشاعر :

ومن لم يغمضْ عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتبُ

وقال آخر :

إذا كُنتَ فى كلّ الأمور مُعاتبا صديقك لم تلقَ الذى لا تُعاتبه

---

(١) الخلة: بفتح الخاء وتشديد اللام المفتوحة، المقصود بها: الحاجة والفقر، ويقال في الدعاء للميت: «اللهم اسدُدْ خَلَّته».

وإنْ أنتَ لم تشربْ مرارا على القَذَى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه[١] ؟!

وقالوا : إذا رأيت من أخيك أمرًا تكرهه ، أو خَلَّة لا تُحبها ، فلا تقطع حبله ، ولا تصرم وُدّه ، ولكن داو كلمته ، واستر عورته ، وأبقه وابرأ من عمله .

قال الله - تعالى - : ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[الشعراء:٢١٦] . فلم يأمره بقطعهم ، وإنما أمره بالبراءة من عملهم السيىء . قال ﷺ : « الأَرْوَاحُ أَجْنَادٌ مُجَنَّدَةٌ ، فما تعارف منها ائتلف ، وَمَا تناكر منها اختلف »[٢] . وقال ﷺ : « إنّ رُوحَى المؤمنَيْنِ لَيلتقيان من مَسيرة يوْمٍ ، وَمَا رَأى أَحَدُهما صَاحِبَهُ »[٣] . وفى ذلك قال بعضهم :

هويتكُمُ بالسمع قبل لقائكم وسَمْعُ الفتى يهوى لَعَمْرِى كَطَرْفِه
وخبرت عنكم كل جودٍ ورفعةٍ فلما التقينا كنتم فوق وصفه

وقال آخر :

تبسَّم الثَّغْر عن أوصافكم فغدَا من طيب ذكركم نشرًا فأحيانا
فمن هناك عشقناكم ولم نركم والأذنُ تعشق قبل العين أحيانا

ما تحاب اثنان فى الله إلا كان أفضلهما عند الله أشدّهما حبا لصاحبه، ما زار أخٌ أخًا فى الله شوقا إليه، ورغبة فى لقائه، إلا نادته ملائكة من ورائه، طبتَ وطابت لك الجنة. وقالوا: ليس سرور يعدل لقاء الإخوان، ولا غم يعدل فراقهم . وقالوا: شرّ الإخوان الواصل فى الرخاء الخاذل عند الشدّة . وقالوا: إنّ من الوفاء أن تكون لصديق صديقك صديقا، ولعدوّ صديقك عدوّا . وقالوا: أعجب الأشياء ود من يهودىّ، وحفظ من نصرانىّ، ورياضة من دهرىّ[٤]، وكرم من أعجمى، والحذر من الكريم إذا أهنته ، واللئيم إذا أكرمته، والعاقل إذا أحرجته، والأحمق إذا مازحته، والفاجر إذا عاشرته . وقالوا: اصحب من الإخوان من أولاك جمائل كثيرة، فكافأته بجميلة واحدة، فنسى جمائله، وبقى شاكرًا ناشرًا ذاكرا لجميلتك، يوليك عليها الإحسان الكثير الجزيل، ويجعل أنه ما بلغ من مكافأتك القليل.

وقال ابن عائشة : لقاء الخليل شفاء الغليل . وقال بعض الحكماء : إذا وقع بصرك على شخص فكرهته ، فاحذره جهدك . قال عبد الله بن طاهر:

خليلىَّ للبغضاء حالٌ مُبينةٌ وللحب آثار تُرى ومعارفُ
فما تنكر العينان فالقلب منكر وما تعرفُ العينان فالقلب عارفُ

وقال آخر :

وكنت إذا الصديقُ أراد غيظى وشرّقنى على ظمأ بريقى
غفرت ذنوبه وكظمْتُ غيظى مخافة أن أعيش بلا صديقِ

وقال آخر :

وليس فتى الفتيان من جَلّ همُّه صبوح وإن أمسى ففضلُ غَبُوق[٥]
ولكن فتى الفتيان من راح أو غدا لضرّ عدوّ أو لنفع صديق

وأما آداب المعاشرة : فالبشاشة ، والبشر ، وحسن الخلق ، والأدب ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « من أخلاق النبيين والصّدّيقين البشاشة إذا تراءوا والمصافحة إذا تلاقوا »[٦] . وكان القعقاع بن شور الهذلىّ إذا

---

(١) في المطبوعة: على الأذى، والصواب على القذى: جمع القذاة، ما يتكون في العين من رمصٍ وغمصٍ وغيرهما، ويقال: هو يُغضى على القذى: إذا سكت على الذل والضيم ولم يشك.

(٢) «الأرواح» . . إلخ أخرجه الشيخان من حديث ابن مسعود، والخطيب من حديث سليمان. الدرر المنتثرة [١٥].

(٣) إن رُوحَي المؤمنَيْن . . إلخ أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» [٢٦١].

(٤) الدهري: الذي يقول ببقاء الدهر الذي لا يؤمن بالآخرة، فهو ملحد.

(٥) الغَبُوق: ما يُشرب بالعشيّ، وما يُحلب بالعشيّ، والجمع غبائق.

(٦) من أخلاق النبيين . . إلخ . لم أقف عليه.

جالسه رجل يجعل له نصيبا من ماله ، ويُعينه على حوائجه . ودخل يوما على معاوية فأمر له بألف دينار ، وكان هناك رجل قد فَسَحَ له فى المجلس ، فدفعها للذى فسح له فقال :

وكنت جليس قعقاع بن شور ... وما يشقى بقعقاع جليسُ
ضحوك السنّ إن نطقوا بخير ... وعند الشرّ مِطراق عَبوسُ

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لجليسى علىّ ثلاث : أن أرمقه بطرفى إذا أقبل ، وأوسع له إذا جلس ، وأصْغَى له إذا حدّث ، ويقال : لكل شىء محل ، ومحل العقل مجالسة الناس ، ومَثَلُ الجليس الحسن كالعطار إن لم يصبك من عِطره أصابك من رائحته ومثل الجليس السوء مثل الكبريت إن لم يحرق ثوبك بناره ، آذاك بدخانه .

وكانت تحية العرب صَبّحتك الأنعمة ، وطيبُ الأطعمة ، وتقول أيضا : صبحتك الأفالح ، وكل طير صالح . ووصف المأمون ثُمامة بحسن المعاشرة ؛ فقال : إنه يتصرف مع القلوب تصرف السحاب مع الجنوب . وقيل : أول ما يتعين على الجليس الإنصاف فى المجالسة بأن يلحظ بعين الأدب مكانه من مكان جليسه ، فيكون كل منهما فى محله . وقال ﷺ : « **ذو العلم والسلطان أحق بشرف المنزل** »[1] وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : إذا دخلت منزل أخيك فاقبل كرامته كلها ما عدا الجلوس فى الصدر وينبغى للإنسان أن لا يُقبل بحديثه على من لا يُقبل عليه ، فقد قيل : إن نشاط المتكلم بقدر إقبال السامع ، ويتعين عليه أن يحدّث المستمع على قدر عقله ، ولا يبتدع كلاما لا يليق بالمجلس ، فقد قيل : لكل مقام مقال ، وخير القول ما وافق الحال . وأوجبوا على المستمع أنه إذا ورد عليه من المتكلم ما كان مرّ بسمعه أوّلا أن لا يقطع عليه ما يقوله ، بل يسكت إلى أن يستوعب منه القول ، وعدّوا ذلك من باب الأدب ، ولعله إذا صبر وسكت استفاد من ذلك زيادة فائدة لم تكن فى حفظه . وقيل : ثمانية إن أهينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم : الجالس فى مجلس ليس له بأهل ، والمقبل بحديثه على من لايسمعه ، والداخل بين اثنين فى حديثهما ولم يدخلاه فيه ، والمتعرّض لما لا يعنيه ، والمتآمر على رب البيت فى بيته ، والآتى إلى مائدة بلا دعوة ، وطالب الخير من أعدائه ، والمستخف بقدر السلطان . ويتعين على الجليس أن يراعى ألفاظه ويكون على حذر أن يعثر لسانُه خصوصا إذا كان جليسه ذا هيبة ؛ فقد قيل: رب كلمة سلبت نعمة.

وقال أبو العباس السفاح : ما رأيت أغزر من فكر أبى بكر الهذلى ؛ لم يُعِدْ علىّ حديثا قط . وقيل : إن أبا العباس كان يحدثه يومًا إذ عصفت الريحُ فأرمت طَسْتًا من سطح إلى المجلس ، فارتاع من حضر ، ولم يتحرك الهذلى ، ولم تزل عينُه ، مطابقة لعين السفاح ، فقال : ما أعجب شأنك يا هذلى ! فقال: إن الله يقول : ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب:٤] وإنما لى قلب واحد ، فلما غمره النور بمحادثة أمير المؤمنين ، لم يكن فيه لحادث مجال ، فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ، ما أحسست بها ، ولا وجمت لها ، فقال السفاح : لئن بقيت لك ، لأرفعنّ مكانك ، ثم أمر له بمال جزيل ، وصلة كبيرة . وكان ابن خارجة يقول : ما غلبنى أحد قط غلبة رجل يُصغى إلى حديثى ، وفى نوابغ الحكم ، أكرم حديث أخيك بإنصاتك ، وصنه من وصمة التفاتك .

وقيل : من حق الملك إذا تثاءب ، أو ألقى المروحة من يده ، أو مد رجليه ، أو تمطى ، أو اتكأ ، أو فعل ما يدل على كسله ، أن يقوم من بحضرته . وكان أردشير إذا تمطى قام سمارهُ . ومن حق الملك أن لا يُعَادَ عليه حديث وإن طال الدهر . قال رَوْحُ بن زِنباع أقمت مع عبد الملك سبعَ عَشْرَةَ سنةً فما أعدت عليه حديثا إلا مرّة واحدة ، فقال لى : سمعته منك . وعن الشعبى قال : ما حَدّثْتُ بحديث مرّتين ، رجلًا بعينه . وقال عطاء بن أبى رباح : إن الرجل ليحدثنى بالحديث ، فأنصت له ، كأنى لم أسمعه قط ، وقد سمعت به من قبل أن يولد .

وقيل : المودّة طلاقة الوجه ، والتودّد إلى الناس . وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : إن المسلمَين إذا التقيا فضحك كل واحد منهما فى وجه صاحبه ، ثم أخذ بيده تحاتّت[2] ذنوبهما كتحاتّ ورق الشجر . وقيل : البِشْرُ يدل على السخاء ، كما يدل النَّوْرُ على الثمر . وقيل : من السنة إذا حدثت القوم أن لا تُقبلَ على واحد منهم ، ولكن اجعل لكل واحد

---

(١) «ذو العلم» . . إلخ . أورده الديلمي في «مسند الفردوس» برقم ن٣١٥٧].

(٢) حتّ الورق عن الشجر حتًّا، أي سقط.

منهم نصيبا ، وقالوا : إذا أردت حسن المعاشرة فالقَ عدوّك وصديقك بالطلاقة ، ووجه الرضا والبشاشة ، ولا تنظر فى عِطْفَيك [١] ولا تكثر الالتفات ، ولا تقف على الجماعات ، وإذا جلست فلا تتكبر على أحد ، وتحفظ من تشبيك أصابعك ، ومن العبث بلحيتك ، ومن اللعب بخاتمك ، وتخليل أسنانك ، وإدخال إصبعك فى أنفك ، وكثرة بصاقك ، وكثرة التمطى والتثاؤب فى وجوه الناس ، وفى الصلاة ، وليكن مجلسك هادئا ، وحديثك منظوما مرتبا ، واصغ إلى كلام مجالسك ، واسكت عن المضاحك ، ولا تتصنع تصنع المرأة فى التزين ، ولا تُلِح فى الحاجات ، ولا تشجع أحدا على الظلم ، ولا تُهازل أمَتك ولا عَبدك فيسقط وقارُك عندهما ، وإذا خاصمت فأنصف ، وتحفظ من جهلك ، وتجنب عجلتك ، وتفكر فى حجتك ، ولا تكثر الإشارة بيدك ، ولا الالتفات إلى من وراءك ، وأهدئ غضبك وتكلم ، وإذا قربك سلطان فكن منه على حذر واحذر انقلابه عليك ، وكلمه بما يشتهى ولا يحملنك لطفه بك على أن تدخل بينه وبين أهله وحشمه ، وإن كنت لذلك مستحقا عنده ، وإياك وصديق العافية ، فإنه أعدى الأعداء ، ولا تجعل مالك أكرم من عِرضك ، ولا تجالس الملوك ، فإن فعلت فالتزم ترك الغِيبة ، ومجانبة الكذب ، وصيانة السرّ ، وقلة الحوائج ، وتهذيب الألفاظ ، والمذاكرة بأخلاق الملوك ، والحذر منهم ، وإن ظهرت المودّة ، ولا تتجشأ بحضرتهم ، ولا تخلل أسنانك بعد الأكل عندهم . ولا تجالس العامة ، فإن فعلت، فآداب ذلك : ترك الخوض فى حديثهم ، وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم [٢] ، والتغافل عما يجرى من سوء ألفاظهم ، وإياك أن تمازح لبيبا أو سفيها ، فإن اللبيب يَحْقِد عليك ، والسفيه يتجرأ عليك ، ولأن المزاح يحرق الهيبة ويذهب بماء الوجه ، ويُعقب الحقد ، ويذهب بحلاوة الإيمان والوُدّ ، وَيشين فقه الفقيه ، ويُجرِّىء السفيه ، ويُميت القلب ، ويباعد عن الرب - تعالى - ويكسب الغفلة والذلة ، ومن بلى فى مجلس بمزاح أو لغطٍ فليذكر الله عند قيامه ، فقد ورد عن النبىّ ﷺ أنه قال : « مَنْ جَلَسَ فِى مَجْلِسٍ ، فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ ، سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَه إِلَّا أَنْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِى مَجْلِسِهِ ذَلِكَ » [٣] .

وأما آداب المسايرة : فقد روى أن رسول الله ﷺ تعاقب هو وعلى بن أبى طالب رضي الله عنه ورجل آخر من الصحابة ، ﷺ فى سفر على بعير فكان إذا جاءت نوبته فى المشى مشى ، فيعزمان عليه أن لا يمشى ، فيأبى ، ويقول : « ما أنتم بأقْدَرَ منّى على مَشْيِ ، وما أنا بأغْنَى منكم عن أجر » [٤] . وقال ﷺ : « لا تَتَّخِذُوا ظُهُورَ الدَّوابِّ كَرَاسِىَ » [٥] وقيل : لا تتقدم الأصاغر على الأكابر إلا فى ثلاث : إذا ساروا ليلا ، أو خافوا سيلا ، أو واجهوا خيلا .

وقال علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه : لا يكون الصديق صديقا حتى يحفظ أخاه فى ثلاث : فى نكبته ، وغيبته ، ووفاته .

وأما ما جاء فى الإخوان القليلى الموافاة ، العديمى المكافأة الذين ليس عندهم لصديق مصافاة : فقال وهب بن منبه : صحبت الناس خمسين سنة فما وجدت رجلا غفر لى زَلة ، ولا أقالنى عثرة ، ولا ستر لى عورة . وقال علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه : إذا كان الغدر طبعا فالثقة بكل أحد عجز ، وقيل لبعضهم : ما الصديق ؟ قال : اسم وضع على غير مسمى ، وحيوان غير موجود ، قال الشاعر :

سَمِعْنَا بِالصَّدِيقِ ولا نَرَاه ... على التَّحْقِيقِ يُوجَد فى الأنَام
وأَحْسِبُه مُحَالا نَمْقُوه ... على وجه المجاز من الكلام

وقال أبو الدرداء : كان الناس ورقًا لا شوك فيه ، فصاروا شوكا لا ورق فيه . وقال جعفر الصادق [٦] لبعض

---

(١) عِطفيك: العطف: بكسر العين وسكون الطاء، عطف كل شيء: جانبه، وهو من الإنسان من لدُن رأسه إلى وركه.

(٢) أراجيفهم: الإرجاف: الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب، والجمع أراجيف، والأراجيف في السوق التجارية، هي شوائع تُنشر للتأثير في الأسعار.

(٣) حديث: «من جلس في مجلس».. إلخ. حسن: رواه الترمذي [٣٤٣٣]، والنسائي في عمل اليوم [٣٩٧ مكرر]، وابن حبان [٥٩٣ - موارد]، والحاكم [١/ ٥٣٦-٣٥٧] من حديث أبي هريرة.

(٤) روي «أن رسول الله ﷺ تعاقب هو وعلي».. إلخ أخرجه أحمد [١/ ٤١١، ٤٢٤] والمراد: تبادلا ركوب البعير.

(٥) «لا تتخذوا ظهور الدواب.. إلخ» أخرجه أحمد [٤/ ٢٣٤].

(٦) هو أبو عبد الله جعفر الصادق ﷺ ابن محمد الباقر، بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ترجم له الشعراني في طبقاته الكبرى. توفى ﷺ بالمدينة سنة ثمان وأربعين ومائة.

إخوانه : أقلل من معرفة الناس ، وأنكر من عرفت منهم ، وإن كان لك مائة صديق فاطرح تسعة وتسعين ، وكن من الواحد على حذر . وقيل لبعض الولاة : كم لك صديق ؟ فقال : أما فى حال الولاية فكثير ، وأنشد :

النـاسُ إخـوانُ مـن دامـت لـه نِـعَـمُ ... والـويـلُ لـلـمـرء إن زلّـت بـه الـقـدَمُ

ولما نكب علىّ بن عيسى الوزير لم ينظر ببابه أحدًا من أصحابه الذين يألفونه فى ولايته ، فلما ردت إليه الوزارة ، وقف أصحابه ببابه ثانية فقال :

مـا الـنـاسُ إلا مـع الـدنـيـا وصـاحـبـهـا ... فـكُـلّـمـا انـقـلـبـت يـومـا بـه انـقـلـبُـوا

يُـعَـظّـمُـون أخـا الـدنـيـا فـإن وثـبـت ... يـومـا عـلـيـه بـمـا لا يـشـتـهـى وَثَـبُـوا

وقال آخر :

فـمـا أكـثـرَ الأصـحـابَ حـيـن نـعـدّهـم ... ولـكـنـهـم فـى الـنـائـبـاتِ قـلـيـلُ

وقال البُحترى :

إيّـاك تَـغْـتـر أو تـخـدعـك بـارقـة ... مـن ذى خِـداع يُـرى بـشـرا وألْـطـافـا

فـلـو قـلـبـت جـمـيـع الأرض قـاطِـبَـة ... وسِـرْت فـى الأرض أوسَـاطـا وأطـرافـا

لـمْ تـلـقَ فـيـهـا صـديـقًـا صـادقًـا أبـدا ... ولا أخًـا يـبـذل الإنْـصَـاف إنْ صـافـى

وقال بعضهم فى المعنى أيضا :

خـلـيـلـىّ جـرّبـتُ الـزّمـانَ وأهـلَـه ... فـمـا نـالـنـى مـنـهـم سِـوى الـهَـمّ والـعَـنـا

وعـاشَـرْتُ أبـنـاء الـزّمَـان فـلَـمْ أجـد ... خـلـيـلًا يـوفـى بـالـعـهـود ولا أنـا

وقال آخر :

لـمـا رأيـت بـنـى الـزمـان ومـا بـهـم ... خِـلٌ وفـى لـلـشـدائـد أصْـطَـفـى

فـعـلـمـت أن الـمـسـتـحـيـلَ ثـلاثـةٌ ... الـغـولُ والـعـنـقـاءُ والـخِـلّ الـوَفِـىّ

بيت مفرد :

وكـل خـلـيـل لـيـس فـى الـلـه وُدّه ... فـإنـى بـه فـى وُدّه غـيـرُ واثـق

وقال آخر :

إذا مـا كـنـت مـتّـخِـذًا خـلـيـلًا ... فـلا تـأمـنْ خـلـيـلَـك أن يَـخـونـا

فـإنّـك لـم يَـخـنـك أخٌ أمـيـن ... ولـكـن قـلّـمـا تـلـقـى أمـيـنـا !

وقال آخر :

تـحِـبُّ عـدوّى ثـم تـزعـم أنـنـى ... أوَدّك إن الـرَّأْىَ عـنـك لـعـازبُ !

ولـيـسَ أخـى مـن وَدّنـى بـلـسـانـه ... ولـكـن أخـى مـن ودّنـى وهـو غـائـبُ

ومَـن مـالُـه مـالـى إذا كـنـت مُـعْـدمًـا ... ومـالـى لـه إن أغْـوَزَتْـه الـنّـوائـبُ

ولما غضب السلطان على الوزير ابن مقلة ، وأمر بقطع يده لما بلغه أنه زوّر عنه كتابا إلى أعدائه ، وعزله لم يأت إليه أحد ممن كان يصحبه ، ولا توجع له ، ثم إنّ السلطان ظهر له فى بقية يومه أنه برىء مما نسب إليه، فخلع[1] عليه ، ورد إليه وظائفه ، فأنشد يقول هذه الأبيات :

تَـحـالـفَ الـنّـاسُ والـزمـانُ ... فـحـيـثُ كـان الـزمـانُ كـانـوا

عـادانـىَ الـدّهـرُ نـصـفَ يـومٍ ... فـانـكـشـف الـنـاسُ لـى وبـانـوا

---

(١) خلع عليه من ملابسه، ومنحه ثيابًا كما هو تقليد السلاطين إذا ما رضوا. وابن مقلة هو صاحب الخط الذهبي.

يـأيُـهـا الـمُـعـرِضُـون عـنّـا عـودوا فـقـد عـاد لِـى الـزَّمـانُ

ومثله فى المعنى :

أخـوك أخـوك مـن يـدنُـو وتَـرْجُـو مـودّتـه وإن دُعـى اسْـتـجـابـا
إذا حـاربـتَ حـاربَ مَـن تُـعَـادى وزاد سـلاحُـه مـنـك اقْـتِـرابـا

وقال أبو بكر الخالدى :

وأخ رَخُـصْـتُ عـلـيـه حـتـى مَـلَّـنـى والـشـىء مـمـلـولٌ إذا مـا يَـرْخُـصُ
مـا فـى زمـانـك مـن يَـعِـز وجـوده إن رُمْـتَـه إلا صـديـق مُـخْـلِـصُ

فيجب على الإنسان أن لا يصحب إلا من له دين وتقوى ، فإن المحبة فى الله تنفع فى الدنيا والآخرة ، وما أحسن ما قال بعضهم :

وكـلُّ مـحـبَّـة فـى الـلـه تَـبْـقـى عـلـى الـحـالَـيـن مـن فَـرح وضـيـق
وكـل مَـحَـبـة فـيـمـا سِـواه فـكـالـحـلـفـاء فـى لـهـب الـحَـريـقِ

فينبغى للإنسان أن يجتنبَ معاشرة الأشرار ، ويتركَ مصاحبة الفجار ، ويهجر من ساءت خَلّته وقبحت بين الناس سيرته ، قال الله - تعالى - : ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧] . وقال - تعالى - : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨] فأثبت الله المماثلة بيننا وبين البهائم ، وذلك إنما هو فى الأخلاق خاصة فليس أحد من الخلق إلا وفيه خلق من أخلاق البهائم ، ولهذا تجد أخلاق الخلائق مختلفة . فإذا رأيت الرجل جاهلا فى خلائقه ، غليظا فى طبائعه ، قويا فى بدنه ، لا تؤمن ضغائنه ، فألحقه بعالم النّمورة، والعرب تقول : أجهل من نَمِر . وإذا رأيت الرجل هجاما على أعراض الناس ، فقد ماثل عالم الكلاب ، فإن دأب الكلب أن يجفو من لا يجفوه ، ويؤذى من لا يؤذيه ، فعامله بما كنت تعامل به الكلب إذا نبح ؛ ألست تذهب وتتركه . وإذا رأيت إنسانا قد جُبل على الخلاف ؛ إن قلت : نعم قال : لا . وإن قلت : لا . قال : نعم فألحقه بعالم الحمير ، فإن دأب الحمار إن أدنيته بَعُد ، وإن أبعدته قرب ، فلا تنتفع به ولا يمكنك مفارقته . وإن رأيت إنسانا يهجم على الأموال والأرواح فألحقه بعالم الأسود وخذ حذرك منه ، كما تأخذ حذرك من الأسد . وإذا بليت بإنسان خبيث كثير الروغان فألحقه بعالم الثعالب . وإذا رأيت من يمشى بين الناس بالنميمة ، ويفرّق بين الأحبة ، فألحقه بعالم الظِّربان وهى دابة صغيرة ، تقول العرب عند تفرق الجماعة فسا بينهم ظربان فتفرقوا . وإذا رأيت إنسانا لا يسمع الحكمة والعلم وينفر من مجالسة العلماء ، ويألف أخبار أهل الدنيا ، فألحقه بعالم الخنافس ، فإنه يعجبها أكل العذرات ، وملامسة النجاسات ، وتنفر من ريح المسك والورد ، وإذا شمت الرائحة الطيبة ماتت لوقتها . وإذا رأيت الرجل يصنع بنفسه كما تصنع المرأة لبعلها ، يُبَيّض ثيابه ، ويعدّل عمامته ، وينظر فى عِطفيه فألحقه بعالم الطواويس ، وإذا بليت بإنسان حقود لا ينسى الهفوات ، ويجازى بعد المدة الطويلة على السقطات ، فألحقه بعالم الجمال ، والعرب تقول : أحقد من جمل فتجنب قرب الرجل الحقود . وعلى هذا النمط فليحترز العاقل من صحبة الأشرار وأهل الغدر ، ومن لا وفاء لهم ، فإنه إذا فعل ذلك سلم من مكايد الخلق وأراح قلبه وبدنه . والله أعلم .

وأما الزيارة والاستدعاء إليها : فقد قال رسول الله ﷺ : « **يقول الله - تعالى - : (وَجَبَتْ مَحَبَّتِى لِلْمُتَحَابِّينَ فِىَّ ، والْمُتَبَاذِلِينَ فِىَّ ، والْمُتَزَاوِرِينَ فِىَّ ، الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِى ظِلِّى يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّى)** »[(١)] . وقال ﷺ : « **من عاد مريضا أو زار أخا نادى مناد أنْ طبتَ وطاب ممشاك وتبوّأت من الجنة منزلا** »[(٢)] . وقيل : المحبة شجرة أصلها الزيارة ؛ قال الشاعر :

زُرْ مـن تُـحِـبّ وإن شـطَّـتْ بـك الـدّارُ وحـال مـن دونـه حُـجُـب وأسْـتـارُ

---

(١) يقول الله تعالى «وجبت محبتي». إلخ أخرجه مالك [٢/ ٩٥٤]، وأحمد [٢/ ٢٩٢].

(٢) «من عاد مريضًا.. إلخ» ضعيف: أخرجه أحمد [٢/ ٣٢٦]، والترمذي [٢٠٠٨]، وابن ماجه [١٤٤٣]، وابن حبان برقم [٢٩٥٠].

لا يمنعنك بعد من زيارته ... إن المحبَّ لمَن يهواه زوّارُ

ولتكن الزيارة غِبًّا لقوله ﷺ « زُرْ غبا تزدد حبا »[١] . قال الشاعر فى معنى ذلك :

عليك بإغباب الزيارة إنها ... إذا كثُرتْ صارت إلى الهجر مَسْلَكا

ألم تر أن الغيثَ يُسْأم دائما ... ويُسْأل بالأيدى إذا هو أمسكا

ويقال : الإكثار من الزيارة ممل ، والإقلال منها مخل .

وكتب صديق إلى صديقه هذا البيت :

إذا ما تقاطعنا ونحن ببلدة ... فما فَضْلُ قُرب الدار منا على البُعْد ؟!

وقال آخر :

وإنّ مرورى بالديار التى بها ... سُلَيْمَى ولم ألمم بها لجفاء !

وقال آخر :

قد أتانا من آل سُعدَىٰ رسولٌ ... حَبذا ما يقول لى وأقولُ !

وقال آخر :

أزور بيوتا لاصقات ببيتها ... وقلبى فى البيت الذى لا أزورُه

وزار محمد بن يزيد المهلبى المستعين ووهب له مائتى ألف درهم وأقطعه أرضا فقال :

وخصَصْتَنى بزيارة أضْحَى لنا ... مَجْدٌ بها طولَ الزمان مُؤثَّلُ

وقضيت دينى ؛ وهو دين وافر ... لم يقضه - مع جوده - المتوكلُ

وكتب المأمون إلى جاريته الخيزران يستدعيها للزيارة :

نحن فى أفضل السرور ولكن ... ليس إلا بِكُمْ يتم السرورُ

عَيْبُ ما نحنُ فيه يا أهلَ وُدّى ... أنكم غبتم ونحن حضورُ

فأجِدّوا المسيرَ بل إن قدرتم ... أن تطيروا مع الرياح فطيروا

وقيل لفيلسوف : أى الرسلِ أنجح ؟ قال : الذى له جمال وعقل . وقيل : إذا أرسلتم رسولا فى حاجة فاتخذوه حسَنَ الوجه حسَن الاسم . وقال لقمان لابنه : يا بنى، لا تبعث رسولا جاهلا فإن لم تجد حكيما عارفا ، فكن رسولَ نفسك . وقال بعضهم :

إذا أبطأ الرسول فقل نجاح ... ولا تَفرخ إذا عجل الرسولُ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) «زر غبا . إلخ» قال العجلوني: رواه البزار وأبو نعيم والعسكري في الأمثال والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة وقال: سنده طلحة غير قوي، وروى هذا الحديث بأسانيد أمثلها هذا، والغِبّ: يومًا بعد يوم.

الباب الخامس والعشرون

في الشفقة على خلق الله تعالى ، والرحمة بهم ، وفضل الشفاعة ، وإصلاح ذات البين ، وفيه فصلان

الفصل الأول: في الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] ووصف الله سبحانه وتعالى نفسه لعباده فقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥] وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢-٣] قال المفسرون. الرحمن اسم رقيق يدل على العطف، والرقة، واللطف، والكرم، والمِنة، والحلم على الخَلْق، والرحيم مثله. وقيل: يقال رحمٰن الدنيا ورحيم الآخرة.

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **والذى نفسى بيده لا يضع الله الرحمة إلا على رحيم** قلنا: **يا رسول الله ، كُلُّنا رحيم ، قال: ليس الرحيم الذى يرحم نفسه ، وأهله خاصة ولكنَّ الرحيمَ الذى يرحم المسلمين** » .

رواه أبو يعلى والطبرانى .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنّ النبى ﷺ قال: « **مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ ، ومَنْ لا يَغْفِرْ لَا يُغْفَرْ له** »[١] وعنه ﷺ قال: « **ارْحَمُوا تُرْحَمُوا واغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ** »[٢]. وعن أبى بكر الصديق ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **قال الله عز وجل إن كنتم تريدون رحمتى فارحموا خَلْقى** » رواه أبو محمد ابن عدى فى كتاب الكامل . وروينا من طريق الطبرانى عن الشعبى عن النعمان بن بشير ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِى تَرَاحُمِهِمْ وتَوَادِّهِمْ وتَوَاصُلِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ** » قال الطبرانى إنى رأيت رسول الله ﷺ فى المنام فسألته عن هذا الحديث ، فقال النبى ﷺ: وأشار بيده صحيح صحيح صحيح ثلاثا . وعن ابن مسعود ﷺ عن النبى ﷺ قال: « **من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمرّ عليها يده نور يوم القيامة** »[٣]. ودخل عامل لعمر بن الخطاب ﷺ ، فوجده مستلقيا على ظهره ، وصبيانه يلعبون على بطنه فأنكر ذلك عليه فقال له عمر: كيف أنت مع أهلك ؟ قال: إذا دخلت سكت الناطق ، فقال له: اعتزلْ، فإنك لا ترفق بأهلك وولدك فكيف ترفق بأمة محمد ﷺ ؟! وروى عن أبى سعيد الخدرى ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: « **إن أبدال أمتى لن يدخلوا الجنة بالأعمال ولكن يدخلونها برحمة الله ، وسخاوة النفس ، وسلامة الصدر والرحمة لجميع المسلمين** »[٤].

الفصل الثانى: في الشفاعة وإصلاح ذات البين

قال الله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥][٥]. وقال رسول الله ﷺ: « **إن الله تعالى يسأل العبد عن جاهه كما يسأله عن عمره ، فيقول**

---

(١) حديث: «من لا يرحم.. إلخ» رواه البخاري [٦٠١٣]، ومسلم [٢٣١٩]، مقتصرًا على قوله: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله» أما زيادة «ومن لا يغفر لا يغفر له» أخرجها أحمد [٣/ ٤٠] من حديث ابن سعيد، وفيه عطية العوفي، ضعيف.

(٢) حديث: «ارحموا .. إلخ» حسن: أخرجه أحمد [٢/ ١٦٥، ٢١٩].

(٣) حديث: «من مسح على رأس يتيم.. إلخ» ضعيف: أخرجه أحمد [٥/ ٢٥٠]، من حديث أبي أمامة، وفيه علي بن يزيد الألهاني، ضعيف.

(٤) حديث: «إن أبدال أمتي.. إلخ» ضعيف جدًا: أخرجه البيهقي في «الشعب» برقم [١٠٨٩٣]، وفيه صالح المري، متروك الحديث، والحسن مدلس وقد عنعنه، وهو عن أبي سعيد الخدري.

(٥) مُقيتًا: قديرًا وقيل: شهيدًا، وحسيبًا [مختصر تفسير الطبري] وقيل: يُقيت الناس والمخلوقات، ويتكل بأقواتها. يقال: أقاته: أعطاه قُوته، وأقاتَ الشيءَ: أطاقه واقتدر عليه.

له : جعلت لك جاها فهل نصرت به مظلوما ، أو قمعت به ظالما ، أو أغثت به مكروبا » . وقال ﷺ : « أفضل الصدقة أن تعين بجاهك من لاجاه له »[١] وعن أبى بردة عن أبى موسى الأشعرى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا جاءنى طالب حاجة فاشفعوا له لكى تؤجروا ويقضى الله تعالى على لسان نبيه ما شاء »[٢] وعن سمرة بن جندب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصدقة صدقة اللسان ، قيل : يا رسول الله ، وما صدقة اللسان ؟ قال : الشفاعة تفك بها الأسير ، وتحقن بها الدماء ، وتجر بها المعروف والإحسان إلى أخيك ، وتدفع عنه بها كريهة » رواه الطبرانى فى المكارم ، وقال على ﷺ : الشفيع جَناحُ الطالب ، وقال رجل لبعض الولاة : إن الناس يتوسلون إليك بغيرك فينالون معروفك ، ويشكرون غيرك ، وأنا أتوسل إليك بك ليكون شكرى لك لا لغيرك . وقيل : كان المنصور معجبا بمحادثة محمد بن جعفر بن عبد الله بن عباس ﷺ وكان الناس لعظم قدره يفزعون إليه فى الشفاعات ، فثقل ذلك على المنصور ، فحجبه مدّة ثم لم يصبر عنه فأمر الربيع أن يكلمه فى ذلك فكلمه ، وقال : أعْفِ أميرَ المؤمنين لا تثقل عليه فى الشفاعات فقبل ذلك منه ، فلما توجه إلى الباب اعترضه قوم من قريش معهم رقاع[٣] فسألوه إيصالها إلى المنصور فقصَّ عليهم القصة ، فأبوا إلا أن يأخذها ، فقال : اقذفوها فى كمى ثم دخل عليه وهو فى الخضراء مشرف على مدينة السلام وما حولها من البساتين فقال له : أما ترى إلى حسنها يا أبا عبد الله ، فقال له : يا أمير المؤمنين، بارك الله لك فيما آتاك ، وهنأك بإتمام نعمته عليك فيما أعطاك ، فما بنت العرب فى دولة الإسلام ولا العجم فى سالف الأيام أحصن ولا أحسن من مدينتك ، ولكن سمجتها فى عينى خصلتى، قال : وما هى ؟ قال : ليس فيها ضيعة، فتبسَّم ، وقال : قد حسنتها فى عينك بثلاث ضياع قد أقطعتكها ، فقال : أنت والله يا أمير المؤمنين شريف الموارد كريم المصادر ، فجعل الله تعالى باقى عمرك أكثر من ماضيه ، ثم أقام معه يومه ذلك فلما نهض ليقوم بدت الرقاع من كمه ، فجعل يردّهنّ ويقول : ارجعن خائبات خاسرات ، فضحك المنصور وقال : بحقى عليك إلا أخبرتنى وأعلمتنى بخبر هذه الرقاع ، فأعلمه ، وقال : ما أتيت يا بن معلم الخير إلا كريما، وتمثل بقول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر :

لَسْنَا وإنْ أحسابنا كَرُمَتْ ... يوماً على الأحْسَاب نَتَّكِلُ
نبنى كما كانت أوائلُنا ... تَبنى ونَفعلُ مثلَ ما فعلُوا

ثم تصفح الرِّقاع وقضى حوائجَهم عن آخرها . قال محمد : فخرجت من عنده وقد ربحْتُ وأربحت . وقال المبرد : أتانى رجل لأشفع له فى حاجة ، فأنشدنى لنفسه :

إنّى قصدتك لا أُدلى بمعرفةٍ ... ولا بقُرْب ولكن قد فشَتْ نِعَمُكْ
فبتُّ حيرانَ مكروبًا يؤرّقنى ... ذُلُّ الغريب ويغشينى الكرى كرمكْ
مازلتُ أُنكب حتى زُلزلت قَدَمى ... فاخْتَلْ لتثبيتها لا زُلْزِلَتْ قدمُكْ
فلو هممت بغير العرف ما علقت ... به يداك ولا انقادت له شِيَمُكْ

قال : فشفعت له ، وأنلته من الإحسان ما قدرت عليه .

وكتب رجل إلى يحيى بن خالد رقعة فيها هذا البيت :

شفيعى إليك الله لا شىءَ غيره ... وليس إلى ردّ الشفيع سبيلُ

فأمره بلزوم الدهليز فكان يعطيه كل يوم عند الصباح ألف درهم فلما استوفى ثلاثين ألفا ذهب الرجل ، فقال يحيى: والله لو أقام إلى آخر عمره ما قطعتها عنه :

وقد جئتكم بالمصطفى متشفِّعا ... وما خاب مَنْ بالمصْطَفى يتشفَّعُ
إلى باب مولانا رفعتُ ظُلامتى ... عسى الهَمُّ عنى والمصائبُ ترفعُ

وقال آخر :

---

(١) حديث: «إن الله تعالى يسأل العبد عن جاهه.. إلخ» لم أقف عليه.
(٢) «إذا جاءني طالب حاجة.. إلخ» لم أقف عليه.
(٣) رِقاع: جمع رُقعة، وهي الأوراق التي يعرض فيها أصحاب الحاجات مظلمتهم، وما يطلبونه من الخليفة.

تشفَّعْ بالنبى فكل عبدٍ يُجَارُ إذا تشفع بالنبىّ
ولا تَجْزَعْ إذا ضاقتْ أمور فكَمْ لله من لُطف خفىّ

وروى أن جبريل عليه السلام قال : « يا محمد، لو كانت عبادتنا لله تعالى على وجه الأرض لعَمِلْنا ثلاث خصال : سَقْى الماء للمسلمين ، وإعانة أصحاب العيال ، وستر الذنوب على المسلمين إذا أذنبوا »[١] اللهم استر ذنوبنا ؛ واقْضِ عنا تبعاتنا ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب السادس والعشرون

فى الحياء، والتواضع، ولين الجانب، وخفض الجناح، وفيه فصلان

الفصل الأول : فى الحياء

قالت عائشة رضي الله عنها : مكارم الأخلاق عشرة : صدق الحديث ، وصدق اللسان ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، والمكافأة بالصنيع ، وبذل المعروف ، وحفظ الذمام للجار ، وحفظ الزمام للصاحب ، وقِرَى الضيف ، ورأسهنّ الحياء[٢] . وقال رسول الله ﷺ : « **الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ** »[٣] . وقال رسول الله ﷺ « **إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ**[٤] **مَاشِئْتَ** » . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه . من كسا بالحياء ثوبَه لم ير الناسُ عيبَه . وعن زيد بن على عن آبائه يرفعونه « **من لم يستح فهو كافر** »[٥] . وقال أبو موسى الأشعرىّ رضي الله عنه : إنى لأدخل البيت المظلم أغتسل فيه من الجنابة ، فأحنى فيه صُلْبى حياء من ربى . وقال بعضهم : الوجه المصون بالحياء كالجوهر المكنون فى الوعاء . وقال الخوَّاص : إن العباد عملوا على أربع منازل : على الخوف ، والرجاء ، والتعظيم ، والحياء ، فأرفعها منزلة الحياء ، لما أيقنوا أن الله يراهم على كل حال قالوا : سواء علينا رأيناه أو رآنا ، وكان الحاجز لهم عن معاصيه الحياء منه . ويقال : القناعة دليل الأمانة ، والأمانة دليل الشكر ، والشكر دليل الزيادة، والزيادة دليل بقاء النعمة ، والحياء دليل الخير كله .

الفصل الثانى: فى التواضع ، ولين الجانب ، وخفض الجناح

قال الله تعالى : ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:٨٨] . وقال تعالى : ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣] . وقال رسول الله ﷺ : « **أفضل العبادة التواضع** »[٦] وقال ﷺ : « **لا ترفعُونى فوق قَدْرى ، فتقولوا فى ما قالت النصارى فى المسيح ، فإن الله - عز وجل - اتَّخذنى عبدًا قبل أن يتَّخذنى رسولا** »[٧] وأتاه ﷺ رجل فكلمه فأخذته رعدة فقال ﷺ له : « **هَوِّنْ عَلَيْكَ . فَإِنِّى لَسْتُ بِمَلِكٍ . إِنَّمَا أَنَا ابنُ امْرَأَةٍ مِنْ**

---

(١) وروي أن جبريل عليه السلام قال: يا محمد.. إلخ. لم أهتد إلى من خرجه.

(٢) قال عائشة رضي الله عنها : «مكارم الأخلاق» .. إلخ عزاه المتقي الهندي في «كنز العمال» برقم [٥١٢٩] للبيهقي في «شعب الإيمان».

(٣) حديث: «الحياء».. إلخ أخرجه البخاري [٩]، ومسلم [٣٥] من حديث أبي هريرة.

(٤) «إن مما أدرك الناس» .. إلخ البخاري. الأدب المفرد باب «إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

(٥) «من لم يستح فهو كافر» أورده المتقي الهندي في «كنز العمال» [٥٧٩٠]، بلفظ: «قلة الحياء كفر»، وعزاه للحكيم الترمذي، والشيرازي في «الألقاب» عن عقبة بن عامر.

(٦) «أفضل العبادة.. إلخ» إسناده واهٍ: أخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» [٢/ ٣٢٧].

(٧) لا ترفَعُوني.. إلخ. حسن: أخرجه الطبراني في «الكبير» برقم [٢٨٨٩]، عن الحسين بن علي رضي الله عنهما .

قُرَيْشٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ »[١] وكان ﷺ يرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم فى مهنة أهله ، ولم يكن متكبرًا ، ولا متجبرًا ، أشد الناس حياءً ، وأكثرهم تواضعًا ، وكان إذا حدّث بشىء مما آتاه الله تعالى قال : ولا فخر[٢] . وقال ﷺ: « **إن العفو لا يزيد العبد إلا عزًا فاعفوا يعزكم الله ، وإن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة ، فتواضعوا يرفعكم الله ، وإن الصدقة لا تزيد المال إلا نماء ، فتصدقوا يزدكم الله** » فتصدقا[٣] . وقال عدى بن أرطاة لإياس بن معاوية : إنك لسريع المشية ؛ قال : ذلك أبعد من الكِبْر ، وأسرع فى الحاجة . وخرج معاوية على ابن الزبير ، وابن عامر فقام أبى عامر وجلس ابن الزبير ؛ فقال معاوية لابن عامر : اجلس ؛ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ النَّاسُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ** »[٤] . وقيل : التواضع سُلم الشرف . ولبس مطرف بن عبد الله الصوف ، وجلس مع المساكين فقيل له فى ذلك ؛ فقال : إن أبى كان جبارا فأحببت أن أتواضع لربى لعله أن يخفف عن أبى تجبره . وقال مجاهد : إن الله تعالى لما أغرق قوم نوح ؛ شمخت الجبال ، وتواضع الجودى ، فرفعه فوق الجبال ، وجعل قرار السفينة عليه . وقال الله تعالى لموسى عليه السلام هل تعرف لِمَ كلمتك من بين الناس ؟ قال : لا يا رب ؛ قال : لأنى رأيتك تتمرغ بين يدى فى التراب تواضعًا لى[٥] وقيل : من رفع نفسه فوق قدره استجلب مقت الناس . وقال أبو مسلم صاحب الذخيرة : ما تاه إلا وضيع ، ولا فاخر إلا لقيط . وكل من تواضع لله رفعه الله . فسبحان من تواضع كل شىء لعز جبروت عظمته ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب السابع والعشرون

فى العُجب والكِبر والخُيَلاء وما أشبه ذلك

اعلم أن الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل ، ويكسبان الرذائل ، وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصح ؛ وقبول التأديب ، والكبر يُكسب المقت ، ويمنع من التألف . قال رسول الله ﷺ : « **لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ كِبْرٍ** »[٦] . **وقال رسول الله** ﷺ: « **مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيه** »[٧] . وقال الأحنف بن قيس : ماتكبر أحد إلا من ذلة يجدها فى نفسه .

ولم تزل الحكماء تتحامى[٨] الكبر ، وتأنف منه ، ونظر أفلاطون إلى رجل جاهل مُعجَب بنفسه فقال : وددت أنى مثلك فى ظنك ، وأن أعدائى مثلك فى الحقيقة . ورأى رجل رجلا يختال فى مشيه فقال : جعلنى الله مثلك فى نفسك ، ولا جعلنى مثلك فى نفسى . وقال الأحنف : عجبت لمن جرى فى مجرى البول مرتين كيف يتكبر ؟! ومر بعض أولاد المهلب بمالك بن دينار وهو يتبختر فى مشيه ، فقال له مالك : يا بنى لو تركت هذه الخيلاء لكان أجمل بك ! فقال : أو ما تعرفنى ؟ قال : أعرفك معرفة جيدة : أولك نطفة مَذِرة وآخرك جيفة قذرة ، وأنت بين ذلك تحمل العَذِرة فأرخى الفتى رأسه وكف عما كان عليه . وقالوا : لا يدوم الملك مع الكبر ، وحسبك من رذيلة تسلب

---

(١) «هون عليك . . إلخ» صحيح: أخرجه ابن ماجه برقم [٣٣١٢]، عن أبي مسعود.

(٢) «وكان ﷺ يرقع ثوبه . . إلخ» هذا ليس بحديث، وأظن أن المؤلف قاله بالاستقراء من أحوال الرسول ﷺ، وينظر كتب الشمائل، للترمذي وغيره.

(٣) «إن العفو . . إلخ» لم أقف عليه بهذا اللفظ ويغني عنه ما أخرجه مسلم [٤/ ٢٠٠١]، والترمذي [٢٠٢٩]، وغيرهما عن أبي هريرة مرفوعًا بلفظ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عز وجل عبدًا بعفوٍ إلّا عزًّا، وما تواضع عبد لله عز وجل إلّا رفعه الله عز وجل».

(٤) « من أحب . . إلخ » صحيح : أخرجه أبو داود [٥٢٢٩]، والترمذي [٢٧٥٥]، وأحمد [٤/ ٩١]، من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه .

(٥) «قال الله لموسى . . إلخ». لم أقف عليه. وهو من الإسرائيليات.

(٦) «لا يدخل الجنة . . إلخ» قال العجلوني في الكشف [٢/ ٣١١٧]، رواه مسلم عن ابن مسعود.

(٧) حديث: «من جر ثوبه خيلاء . . إلخ». أخرجه البخاري [٥٧٨٤]، ومسلم [٣/ ١٦٥٢].

(٨) تتحامى: أي تتجنَّب.

الرياسة ، والسيادة ، وأعظم من ذلك أن الله تعالى حرم الجنة على المتكبرين ، فقال تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص:٨٣] . فقرن الكبر بالفساد وقال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف:١٤٦] . قال بعض الحكماء : ما رأيت متكبرا إلا تحول ما به بى ، يعنى : أتكبر عليه .

واعلم أن الكبر يوجب المقت ، ومن مقته رجاله لم يستقم حاله . والعربِ تجعل جَذِيمة الأبراش غاية فى الكبر يقال : إنه كان لا ينادم أحدًا لتكبر ، ويقول إنما ينادمنى الفَرقدان[١] . وكان ابن عوانة من أقبح الناس كبرا ! روى أنه قال لغلامه : اسقنى ماء فقال : نعم ، فقال : إنما يقول نعم من يَقْدِرُ أن يقول لا . اصفعوه ؛ فصُفِع . ودعا أكّارًا[٢] فكلمه فلما فرغ ، دعا بماءٍ فتمضمض به استقذارًا لمخاطبته .

ويقال : فلان وضع نفسه فى درجة لو سقط منها لتكسر . قال الجاحظ : المشهورون بالكبر من قريش : بنو مخزوم ، وبنو أمية ، ومن العرب : بنو جعفر بن كلاب ، وبنو زرارة بن عدى ، وأما الأكاسرة : فكانوا لا يعدون الناس إلا عبيدا ، وأنفسهم إلا أربابا . وقيل لرجل من بنى عبد الدار : ألا تأتى الخليفة ؟ فقال : أخاف أن لا يحمل الجسر شرفى . وقيل للحجاج بن أرطاة : ما لك لا تحضر الجماعة ؟ قال: أخشى أن يزاحمنى البقالون . وقيل : أتى وائل بن حجر إلى النبى ﷺ فأقطعه أرضا : وقال لمعاوية : « **اعرض هذه الأرض عليه ، واكتبها له** »[٣] . فخرج معه معاوية فى هاجرة شديدة ، ومشى خلف ناقته ، فأحرقه حر الشمس فقال له : أردفنى خلفك على ناقتك . قال : لست من أرادف الملوك . قال : فأعطنى نعليك . قال : ما بخلٌ يمنعنى يا بن أبى سفيان ، ولكن أكره أن يبلغ أقيال[٤] اليمن أنك لبست نعلى ، ولكن امش فى ظل ناقتى فحسبك بها شرفا . وقيل : إنه لحق زمن معاوية ، ودخل عليه فأقعده معه على السرير ، وحدثه . وقال المسرور بن هند لرجل : أتعرفنى . قال : لا . قال : أنا المسرور بن هند، قال : ما أعرفك . قال : فتعسًا ونكسًا[٥] لمن لم يعرف القمر . قال الشاعر :

قولا لأحمق يلوى التّيه أخدعه ... لَوْ كُنتَ تعلمُ ما فى التّيه لم تته

التيه مفسدةٌ للدين منقصة ... للعقل مهلكة للعرض فانتبه

وقيل : لا يتكبر إلا كل وضيع ، ولا يتواضع إلا كل رفيع ، والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثامن والعشرون

فى الفخر والمفاخرة ، والتفاضل والتفاوت

فمن شواهد المفاخرة قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ [السجدة:١٨] . نزلت فى على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وعقبة بن أبى معيط وكانا تفاخرا ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [فصلت:٤٠] . نزلت فى أبى جهل ، وعمار بن ياسر . والنسب إلى سيدنا رسول الله ﷺ أشرف الأنساب . وقد

---

(١) الفرقدان: يراد بها نجمان: النجم القطبي وبقربه نجم آخر مماثل له وأصغر منه. والنجم القطبي قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريبًا ولذا يهتدى به [المعجم الوسيط].

(٢) الأكّار: الحرّاث. والجمع أكَرَة.

(٣) «أتى وائل بن حجر النبيﷺ .. إلخ» لم أهتد إلى من خرّجه.

(٤) أقْيال: مفردها قَيْل، وهو من ملوك اليمن في الجاهلية دون الملك الأعظم.

(٥) تعسًا ونكسًا: دعاء عليه بالشر.

قال ﷺ : « أنا سيّدُ وُلد آدم ولا فخر » [(١)]. وقد نفى الله تعالى الفخر بالأنساب بقوله تعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. فالفخر فى الإسلام بالتقوى وقال رسول الله ﷺ : « إنَّ نَبِيَّكُمْ واحِدٌ وإنَّ أباكُمْ واحِدٌ ، وإنَّهُ لا فضل لعربىٍّ على أعجمىٍّ ، ولا لأحمر على أسود إلّا بالتقوى ، ألا هل بلّغتُ » [(٢)]. وقال الأصمعى بينما أطوف بالبيت ذات ليلة إذ رأيت شابا متعلقا بأستار الكعبة وهو يقول :

يا من يُجيبُ دُعَا المُضْطر فى الظُّلم ... يا كاشفَ الضُر والبلوى مع السقم
قد نام وفدُك حولَ البيت وانتبهوا ... وأنت يا حىُّ يا قيُّوم لم تَنَم
أدعوك ربى حزينا هائما قلقا ... فارحَمْ بكائى بحقّ البيت والحرم
إنْ كانَ جودُك لا يرجوه ذُو سَفَهٍ ... فمَنْ يجودُ على العاصين بالكرم ؟!

ثم بكى بكاءً شديدًا وأنشد يقول :

ألا أيُّها المقصودُ فى كلّ حاجةٍ ... شكوتُ إليك الضُرّ فارحم شِكَايتى
ألا يا رجائى أنتَ تكشفُ كُرْبتى ... فهَبْ لى ذنوبى كُلّها واقض حاجتى
أتيت بأعمالٍ قباحٍ رديئةٍ ... وما فى الورى عبد جَنى كجنايتى
أتحرقنى بالنار يا غايةَ المنى ... فأين رجائى ، ثم أين مخافتى

ثم سقط على الأرض مغشيا عليه ، فدنوت منه ، فإذا هو زين العابدين على بن الحسين بن على أبى طالب ﷺ ، فرفعت رأسه فى حجرى ، وبكيت فقطرت دمعة من دموعى على خدّه ، ففتح عينيه ، وقال : من هذا الذى يهجم علينا ؟ قلت: عُبَيْدُك الأصمعى . سيدى، ما هذا البكاء والجزع ؟! وأنت من أهل بيت النبوة ، ومعدن الرسالة أليس الله تعالى يقول : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]؟! فقال : هيهات يا أصمعى ! إن الله خلق الجنة لمن أطاعه ، ولو كان عبدا حبشيا ، وخلق النار لمن عصاه ، ولو كان حُرًّا قرشيا ، أليس الله تعالى يقول : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١-١٠٣] .

والفخر وإن نهت عنه الأخبار النبوية ، ومجّته العقول الذكية ، إلا أن العرب كانت تفتخر بما فيها من البيان طبعًا لا تكلفا ، وجبلة لا تعلما ، ولم يكن لهم من ينطق بفضلهم إلا هم ، ولا ينبه على مناقبهم سواهم ؛ وكان كعب بن زهير إذا أنشد شعرا قال لنفسه : أحسنت ، وجاوزت والله الإحسان . فيقال له ، أتحلف على شعرك ؟ فيقول : نعم ، لأنى أبصر به منكم . وكان الكميت إذا قال قصيدة صنع لها خطبة فى الثناء عليها ، ويقول عند إنشادها : أىّ علم بين جنبى ، وأى لسان بين فكى . وقال الجاحظ : لو لم يصف الطبيب مصالح دوائه للمعالجين ما وجد له طالب . ولما أبدع ابن المقفع فى رسالته التى سماها باليتيمة تنزيها لها عن المثل ، سكنت من النفوس موضع إرادته من تعظيمها ، ولو لم ينحلها هذا الاسم لكانت كسائر رسائله .

وسنذكر فى هذا الباب - إن شاء الله تعالى - شيئًا من نظم البلغاء ونثرهم فى الافتخار ، ومن تفاخر منهم بعون الله وفضله وتيسيره :

قال أبو بكر الهذلى : سايرت المنصور ، فعرض لنا رجل على ناقةٍ حمراء تطوى الفلاةَ[(٣)]، وعليه جبة خزّ وعمامة عدنية ، وفى يده سوط يكاد يمس الأرض ، فلما رآه المنصور أمرنى بإحضاره ، فدعوته وسألته عن نسبه

---

(١) مسلم في كتاب الفضائل ٤/ ٢٢٨٧ .

(٢) «إن نبيكم واحد.. إلخ» أخرجه أحمد [٥/ ٤١١]، عن رجل من الصحابة، لكن بدون قوله: «إن نبيكم واحد».

(٣) الفلاة: الصحاري الواسعة.

وبلاده وعن قومه وعشيرته ، وعن ولاة الصدقة فأحسن الجواب ، فأعجبه ما رأى منه ، فقال: أنشدنى شعرًا فأنشده شعرًا لأوس بن حجر ، وغيره من الشعراء من بنى عمرو بن تميم ، وحدّثه حتى أتى على بيت شعر لطريف بن تميم وهو قوله :

إن الأمـــور إذا أوردتـــهـــا صَـــدرتْ ... إن الأمـــور لـــهـــا وردٌ وإصـــدار

فقال : ويحك : ما كان طريف فيكم حيث قال هذا البيت ؟ قال : كان أثقل العرب على عدوّه وطأة ، وأقراهم لضيفه ، وأحوطهم من وراء جاره ، اجتمعت العرب بعكاظ ، فكلهم أقرّوا له بهذه الخلال ، فقال له : والله يا أخا بنى تميم ، لقد أحسنت إذ وصفت صاحبك ، ولكنى أحق ببيته منه .

ومن شعر أبى الطحان :

وإنـى مـن الـقـوم الـذيـن هـم هـم ... إذا مـات مـنـهـم سـيـد قـام صـاحـبـه
نـجـوم سـمـاءٍ كـلـمـا غـاب كـوكـب ... بـدا كـوكـب تـأوى إلـيـه كـواكـبـه
أضَـاءتْ لـهـم أحـسـابـهُـم ووجـوهـهُـم ... دُجَى الـلـيـل حـتـى نـظّـم الـجـزعَ ثـاقـبـه
ومـا زال فـيـهـم حـيـثُ كـان مُـسَـوَّد ... تـسـيـر الـمـنـايـا حـيـث سـارت ركـائـبـه

ولما قدم معاوية المدينة صعد المنبر فخطب ، وقال : مَن ابنُ على ﷺ؟- فقام الحسن فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : إن الله - عز وجل - لم يبعث بعثًا إلا جعل له عدوًا من المجرمين ، فأنا ابن على ، وأنت ابن صخر ، وأمك هند ، وأمى فاطمة ، وجدّتك قيلة ، وجدتى خديجة ، فلعن الله أَلْأمنا حسبا ، وأخملنا ذكرا ، وأعظمنا كفرًا ، وأشدنا نفاقًا ، فصاح أهل المسجد آمين آمين فقطع معاوية خطبته ، ودخل منزله .

وروى أن معاوية خرج حاجًا فمرّ بالمدينة ، ففرّق على أهلها أموالاً ، ولم يحضر الحسن بن على رضي الله عنهما، فلما خرج من المدينة اعترضه الحسن بن علىّ ، فقال له معاوية : مرحبًا برجل تركنا حتى نَفِدَ ما عندنا وتعرض لنا ليبخلنا : فقال له الحسن : ولم ينفد ما عندك وخَراجُ الدنيا يجبى إليك ؟! فقال معاوية : إنى قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة ، وأنا ابن هند . فقال الحسن : قد رددته عليك وأنا ابن فاطمة .

ودخل الحسين يومًا على يزيد بن معاوية ، فجعل يزيد يفتخر ويقول : نحن ونحن ، ولنا من الفخر والشرف كذا وكذا ، والحسين ساكت ، فأذن المؤذن ، فلما قال : أشهد أن محمدًا رسول الله ، قال الحسين : يا يزيدُ، جَدُّ من هذا ؟ فخجل يزيد ولم يردّ جوابًا . وفى ذلك يقول على بن محمد بن جعفر :

لـقـد فـاخـرتـنـا مـن قـريـش عُـصَـابـة ... بـمـط خـدود وامـتـداد أصـابـع
فـلـمَّـا تـنـازعـنـا الـفـخـار قـضـى لـنـا ... عـلـيـهـم بـمـا نـهـوى نـداء الـصـوامـع
تـرانـا سـكـوتًـا والـشـهـيـد بـفـضـلـنـا ... عـلـيـهـم جـهـيـرُ الـصـوت مـن كـل جـامـع

وله أيضًا :

إنـى وقـومـى مـن أنـسـاب قـومـهـم ... كـمـسـجـد الـخَـيْـف[1] مـن بُـحـبـوحـة الـخَـيْـف
مـا عـلـق الـسـيـف مـنـا بـابـن عـاشـرة ... إلا وهـمـتـه أمـضـى مـن الـسـيـف

وتفاخر العباس بن عبد المطلب ، وطلحة بن شيبة ، وعلى بن أبى طالب فقال العباس : أنا صاحب السقاية ، والقائم عليها ، وقال طلحة : أنا خادم البيت ، ومعى مفتاحه ، فقال علىّ : ما أدرى ما تقولان : أنا صليت إلى هذه القبلة قبلكما بستة أشهر ، فنزلت ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩] .

وتفاخر رجلان على عهد موسى عليه السلام فقال أحدهما : أنا فلان ابن فلان حتى عد تسعة آباء مشركين ، فقال الآخر: أنا ابن فلان ولولا أنه مسلم ما ذكرته فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أما الذى عد تسعة آباء مشركين ، فحق على الله

---

(١) الخيف: بفتح الخاء وسكون الياء، هو الناحية، ويقال: هو ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء.

أن يجعل عاشرهم فى النار ، والذى انتسب إلى أب مسلم ، فحق على الله أن يجعله مع أبيه المسلم فى الجنة . قال سلمان الفارسى :

أبـــى الإســـلام لا أبَ لـــى ســـواه إذا افـتـخـروا بـقـيـس أو تـمـيـم

وتفاخر جرير والفرزدق عند سليمان بن عبد الملك ، فقال الفرزدق : أنا ابن مُحْيى الموتى ، فأنكر سليمان قوله . فقال : يا أمير المؤمنين . قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] وجدى فدى الموءودات[١] فاستحياهنّ فقال سليمان : إنك مع شعرك لفقيه .

وكان صعصعة جد الفرزدق أوّل من فدى الموءودات وللعباس بن عبد المطلب :

إن الـقـبـائـل مـن قـريـش كـلـهـا لـيـرون أنـا هـامُ أهـلِ الأبـطـح
وتـرى لـنـا فـضـلا عـلـى ساداتـهـا فـضـل الـمـنـار عـلـى الـطـريـق الأوضح

وكتب الحكم بن عبد الرحمن المروانى من الأندلس إلى صاحب مصر يفتخر :

ألـسـنـا بـنـى مـروان كـيـف تـبـدّلـت بـنـا الـحـالُ أو دارت عـلـيـنـا الـدوائـر
إذا ولـد الـمـولـود مـنـا تـهـلّـلـت لـه الأرضُ واهـتـزت إلـيـه الـمـنـابـر

وكتب إليه كتابًا يهجوه فيه ويسبه ، فكتب إليه صاحب مصر أما بعد ، فإنك عرفتنا ، فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك ، والسلام . وكان أبو العباس السفاح يعجبه السَّمر ، ومنازعة الرجال بعضهم بعضًا ، فحضر عنده ذات ليلة إبراهيم بن مخرمة الكندى ، وخالد بن صفوان ابن الأهتم ، فخاضوا فى الحديث وتذكروا مضر واليمن ، فقال إبراهيم بن مخرمة : يا أمير المؤمنين ، إن أهل اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا ، ولم يزالوا ملوكًا ورثوا الملك كابرًا عن كابر ، وآخرا عن أوّل منهم النعمان والمنذر ، ومنهم عياض صاحب البحرين ، ومنهم من كان يأخذ كُلّ سفينة غصبا ، وليس من شىء له خطر إلّا إليهم ينسب ، إن سئلوا أعطوا ، وإن نزل بهم ضيف قروه ، فهم العرب العاربة ، وغيرهم المتعربة .

فقال أبو العباس : ما أظن التميمى رضى بقولك ، ثم قال : ما تقول أنت يا خالد ؟ قال : إن أذن لى أمير المؤمنين فى الكلام تكلمت ، قال : تكلم ، ولا تهب أحدًا . قال : أخطأ المقتحم بغير علم ، ونطق بغير صواب ، وكيف يكون ذلك لقوم ليس لهم ألسن فصيحة ، ولا لغة صحيحة ، نزل بها كتاب ولا جاءت بها سنة ، يفتخرون علينا بالنعمان والمنذر ، ونفتخر عليهم بخير الأنام وأكرم الكرام ، محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فلله المنة به علينا ، وعليهم فمنا النبى المصطفى ، والخليفة المرتضى ، ولنا البيت المعمور ، وزمزم ، والحطيم[٢] ، والمقام ، والحجابة[٣] ، والبطحاء[٤] ، ولا يحصى من المآثر ، ومنا الصِّدّيق والفاروق ، وذو النورين ، والرضا ، والولى وأسد الله ، وسيد الشهداء ، وبنا عرفوا الدين ، وأتاهم اليقين ، فمن زاحمنا زاحمناه ، ومن عادانا اصطلمناه[٥] ، ثم أقبل خالد على إبراهيم ، فقال : ألك علم بلغة قومك ؟ قال : نعم ، قال : فما اسم العين عندكم ؟ قال : الجمجمة . قال : فما اسم السن ؟ قال : الميدن . قال : فما اسم الأذن ؟ قال : الصنارة .

قال : فما اسم الأصابع ؟ قال : الشناتير . قال : فما اسم الذئب ؟ قال : الكنع . قال : أفعالم أنت بكتاب الله عز وجل ؟ قال : نعم . قال : فإن الله تعالى يقول : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢] وقال تعالى : ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥] وقال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] فنحن العرب ، والقرآن بلساننا

---

(١) الموءودات: وَأد الرجلُ ابنته، أي دفنها حية، فهو وائد وهي وئيد، ووئيدة، وموءودة، وكان ذلك في الجاهلية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩].

(٢) الحطيم: بفتح الحاء وكسر الطاء بِناء قُبالة الميزاب من خارج الكعبة.

(٣) الحِجابة: حرفة الحاجب.

(٤) البَطْحاء: المكان المتَّسع يمر به السيل فيترك فيه الرمل والحصى الصغار، ومنه بطحاء مكة.

(٥) اصطلمناه: اصْطلمه، أي استأصله وأبادَهُ.

أنزل ، ألم تر أن الله تعالى قال : ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ [المائدة:٤٥] ولم يقل : والجمجمة بالجمجمة . وقال تعالى : ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ [المائدة:٤٥] ولم يقل : والميدن بالميدن . وقال تعالى : ﴿وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾ [المائدة:٤٥] ولم يقل : والصنارة بالصنارة . وقال تعالى : ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ [البقرة:١٩] ولم يقل : شناتيرهم فى صناراتهم ، وقال تعالى : ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف:١٧] ولم يقل : فأكله الكنع ، ثم قال لإبراهيم : إنى أسألك عن أربع ، إن أقررت بهن قهرت وإن جحدتهن كفرت قال : وما هن ؟ قال : الرسول منا أو منكم ؟ قال : منكم . قال : فالقرآن أنزل علينا أو عليكم ؟ قال : عليكم . قال : فالمنبر فينا أو فيكم ؟ قال : فيكم . قال : فالبيت لنا أو لكم ؟ قال : لكم . قال : فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم ، بل ما أنتم إلا سائس قرد ، أو دابغ جلد ، أو ناسج بُرد . قال : فضحك أبو العباس وأقرّ لخالد وحياهما جميعًا . وقال بشار بن برد يفتخر :

إذا نحن صُلنا صولة مضرية ... هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة ... ذُرَا منبر صلى علينا وسلما

وقال السَّمَوْءَلُ بن عادياء :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكلُّ رداءٍ يرتديه جميل

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمَها ... فليس إلى حسن الثناء سبيل

تُعَيِّرنا أنَّا قليل عديدُنا ... فقلتُ لها : إن الكرام قليل

وما قلّ مَن كانت بقاياه مثلنا ... شباب تَسَامىٰ للعلا وكهول

وما ضرنا أنا قليل وجارُنا ... عزيز وجارُ الأكثرين ذليل

لنا جبل يحتله من نُجيرُه ... منيع يردّ الطرف وهو كليل

رسا أصله تحت الثرى وسما به ... إلى النجم فرع لا يزال طويل

وإنا أناس لا نرى القتل سُبّةً ... إذا ما رأته عامرٌ وسَلُولُ

يقرّب حبُّ الموتِ آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهُم فتطول

وما مات منا سيدٌ حتفَ أنفِه ... ولا طُلَّ مِنّا حيث كان قتيلُ

تسيلُ على حدّ الظُّباتِ[1] نفوسُنا ... وليستْ على غير الظّبات تسيلُ

ونحن كماء المزن ما فِى نصابنا ... كهامٌ[2] ولا فينا يُعَدّ بخيل

وننكر إن شئنا على الناسِ قولهم ... ولا يُنكرون القولَ حين نقول

إذا سيد منا خلا قامَ سيدٌ ... قَئُول بما قال الكرام فعول

وما خمدت نار لنا دونَ طارقٍ ... ولا ذمّنا فى النازلين نزيلُ

وأيامُنا مشهورةٌ فى عدوّنا ... لها غرر مشهورة وحُجول[3]

وأسيافنا فى كل شرق ومَغرِب ... بها من قراع الدارعين فلول

معوّدة أن لا تسل نصالها ... فتغمد حتى يستباح قتيل

سلى إن جهلت الناسَ عنا وعنهمُ ... فليس سواء عالم وجَهول

فإنا بنى الريان قُطْبٌ لقومهم ... تدور رحاهم حولهم وتجول

---

(١) الظُّبات: مفردها ظُبَة، وهي حدُّ السيف والسِّنان والخنجر، وما أشبهها.

(٢) كَهام: كَهَمَ الرجلُ، أي بطُؤ عن النُّصرة والحرب، فهو كَهامٌ.

(٣) غُرَر: مفردها غُرَّة، وهي من كل شيء أوله، ومن الشهر ليلة استهلال القمر. وحُجول: مفردها حجل بفتح الحاء وكسرها، وهو القَيْد.

ولما قدم وفد تميم على رسول الله ﷺ [١] . ومعهم خطيبهم وشاعرهم ، خطب خطيبهم فافتخر ، فلما سكت أمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس أن يخطب بمعنى ما خطب به خطيبهم ، فخطب ثابت بن قيس ، فأحسن ، ثم قام شاعرهم وهو الزِّبرقان بن بدر فقال :

نحن الملوك فلا حَىَّ يفاخرنا ... فينا العلاء وفينا تُنْصَبُ البيع
ونحن نطعمهم فى القحط ما أكلوا ... من العبيط [٢] إذا لم يؤنس الفزع
وننحر الكوم [٣] عبطا فى أرومتنا [٤] ... للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا
تلك المكارم حزناها مقارعة ... إذا الكرام على أمثالها اقترعوا

ثم جلس ، فقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت : قم ، فقام ، فقال :

إن الذوائب [٥] من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سننا للناس تُتَّبعُ
يرضى بها كلّ من كانت سريرتة ... تقوى الإله وبالأمر الذى شَرَعوا
قوم إذا حاربوا ضَرُّوا عدوّهُمُ ... أو حاولوا النَّفع فى أشياعِهم نفعوا
سجية تلك منهم غيرُ محدثة ... إن الخلائق - فاعْلَمَ - شرّها البدَعُ
لو كان فى الناس سباقون بَعْدَهمُ ... فكلّ سبقٍ لأدنى سبقهم تَبعُ
لا يرفع الناسُ ما أوهت أكفُّهُمُ ... عند الدفاع ولا يوهُون ما رفعوا
ولا يضنون عن جار بفضلهم ... ولا يمسهم فى مطمع طمع
خُذ منهُمُ ما أتوا عفوا إذا عطفوا ... ولا يكن همك الأمر الذى منعوا
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم ... إذا تفرقت الأهواء والشيع

فقال التميميون عند ذلك : وربكم إن خطيب القوم أخطب من خطيبنا وإن شاعرهم أشعر من شاعرنا وما انتصفنا ولا قاربنا ؛ وقال شاعر من بنى تميم :

أيبغى آل شَدّادٍ علينا ... وما يرعَىٰ لشداد فصيلُ
فإن تُغْمَدْ مناصِلُنا تجدها ... غِلاظًا فى أناملِ من يصُولُ

وقال سالم بن أبى وابصة :

عليكَ بالقصدِ فيما أنت فاعلهُ ... إن التَّخلُّق يأتى دونه الخُلقُ
وموقفٍ مثلِ حدّ السيف قمت به ... أحمى الذمار وترمينى به الحدَقُ [٦]
فما زلقت [٧] ولا أبديت فاحشةً ... إذا الرجال على أمثالها زلقوا

❁ وأما التفاضل والتفاوت :

فقد روى أن رسول الله ﷺ كان إذا نظر لخالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبى جهل قال : ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ

---

(١) قوله: ولما قدم وفد إلخ أخرجه ابن مندة، وأبو نعيم كما في «كنز العمال» [٣٠٣١٦]، وفيه المعلي بن عبد الرحمن كذبه الدارقطني، فالإسناد موضوع.

(٢) العبيط: يقال لحم عبيط، أي طريّ غير ناضج.

(٣) الكوم: كوم الشيءُ كَوَمًا، أي عظُم. وغلب استعماله في سنام البعير.

(٤) أُرومتنا: الأُروم، والأرومة: أصل الشجرة، واستُعملت للحسب، يقال: هو طيب الأرومة، أي كريم الأصل.

(٥) الذَّوائب: مفردها ذُؤابة، وهي من كل شيء أعلاه، ويقال: فلان ذؤابة قومه أي شريفهم والمقدّم فيهم.

(٦) الذمار: بتشديد الال المكسورة وفتح الميم، هو ما ينبغي حياطته والذَّوْد عنه كالأهل والعِرْض. والحَدَقُ: يقال هو من رُماة الحدَق، أي حاذق ماهر في النضال.

(٧) زلقت: زلقت القدمُ، أي زلَّتْ ولم تثبت. ويقال: زلق فلان بمكانه، أي ملَّ منه فتنحَّى عنه وتباعد.

﴿ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ [الروم:١٩][1] لأنهما كانا من خيار الصحابة وأبواهما أعدى عدوّ لله ولرسوله - ومن كلام على لمعاوية ﷺ أما قولك إنا بنو عبد مناف ، فكذلك نحن ، ولكن ليس أمية كهاشم ، ولا حرب كعبد المطلب ، ولا أبو سفيان كأبى طالب .

وقال أحمد بن سهل : الرجال ثلاثة : سابق ، ولاحق ، وماحق ، فالسابق الذى سبق بفضله ، واللاحق الذى لحق بأبيه فى شرفه ، والماحق الذى محق شرف آبائه .

وقيل : إن عائشة بنت عثمان كفلت أبا الزناد صاحب الحديث ، وأشعب الطماع وربتهما قال أشعب: فكنت أسفل ، وكان يعلو ، حتى بلغت أنا وهو هاتين الغايتين . وقال أبو العوادل زكريا بن هارون :

على وعبد الله بينهما أب ... وشتان ما بين الطبائع والفعل
ألم تر عبد الله يلحى[2] على الندى ... عليا ويلحاه على على البخل

وحَجّ أبو الأسود الدؤلى بامرأته ، وكانت شابة جميلة ، فعرض لها عمر بن أبى ربيعة ، فغازلها فأخبرت أبا الأسود فأتاه فقال :

وإنى لينهانى عن الجهل والخَنَى[3] ... وعن شتم أقوام خلائق أربع
حياء وإسلام وتقوى وأننى ... كريم ومثلى من يضر وينفع
فشتان ما بينى وبينك إننى ... على كل حال أستقيم وتضلع

وقال ربيعة البرقى :

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى ... يزيد سليم والأغر بن حاتم
يزيدُ سليم سالم المال والفتى ... فتى الأزد للأموال غيرُ مُسالم
فهمُّ الفتى الأزديّ إتلافُ ماله ... وهمُّ الفتى القيسى جمعُ الدراهم
فلا يَحسَبِ القيسىّ أنى هجوته ... ولكننى فضلت أهل المكارم

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فى أخيه الحسين :

يقول أنا الكبير فعظمونى ... ألا ثكلتك أمك من كبير
إذا كان الصغير أعمّ نفعا ... وأجلدَ عند نائبة الأمور
ولم يأت الكبير بيوم خير ... فما فضل الكبير على الصغير ؟!

والله أعلم بالصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) روي . . إلخ لم أقف عليه، وقد صدره الإبشيهي بصيغة التضعيف، والإبشيهي ليس بمحدث كما هو معروف، وشأنه شأن الأدباء يكتب الحديث ولا يعرف مدى صحته.

(٢) يلحى: لَحَا فُلانًا، أي لامَهُ وعَذَله، فهو لاحٍ، وهي لاحية.

(٣) الخَنَى: الفُحش في الكلام. وخنا الدهر: إفاته ونوائبه.

الباب التاسع والعشرون

فى الشرف والسُّؤدُد وعُلوّ الهمَّة

قال رسول الله ﷺ: « من رزقه الله مالاً ، فبذل معروفه ، وكف أذاه فذلك السيد »[(١)]. وقيل لقيس بن عاصم : بم سدت قومك ؟ قال : لم أخاصم أحدًا إلا تركت للصُّلح موضعًا . وقال سعيد بن العاص : ما شاتمت رجلاً مُذْ كنت رجلاً ، لأنى لم أشاتم إلا أحد رجلين : إما كريم فأنا أحق أن أجلّه ، وإما لئيم ، فأنا أولى أن أرفع نفسى عنه . وقالوا : من نعت السيد أن يكون يملأ العينَ جمالا ، والسمع مقالا وقيل : قدم وفد من العرب على معاوية ، وفيهم الأحنف بن قيس ؛ فقال الحاجب : إن أمير المؤمنين يعزم عليكم أن لا يتكلم منكم أحد إلا لنفسه ، فلما وصلوا إليه ، قال الأحنف : لولا عزم أمير المؤمنين لأخبرته أن رادفة ردفت ، ونازلة نزلت ، ونائبة نابت ، والكل بهم حاجة إلى المعروف من أمير المؤمنين ، فقال له معاوية : حسبك يا أبا بحر ، فقد كفيت الشاهد والغائب . وقال رجل للأحنف : بم سُدت قومَك وما أنت بأشرفهم بيتًا ، ولا أصْبَحِهِمْ وجهًا ، ولا أحسنِهم خلقًا ؟ فقال : بخلاف ما فيك . قال : وما ذاك ؟ قال : تركى من أمرك ما لا يعنينى ، كما عناك من أمرى ما لا يعنيك . وقيل : السيد من يكون للأولياء كالغيث الغادى ، وعلى الأعداء كالليث العادى . وكان سبب ارتفاع عرابة الأوسى وسؤدده أنه قدم من سفر ، فجمعه والشماخ بن ضِرار المزنى الطريق ، فتحادثا ؛ فقال له عرابة : ما الذى أقدمك المدينة يا شماخ ؟ قال : قدمتها لأمتار منها[(٢)]، فملأ له عرابة رواحله بُرا ، وتمرًا وأتحفه بتحف غير ذلك فأنشد يقول :

رأيت عَرابة الأوسى يسمُو ... إلى الخيراتِ مُنقَطِعَ القرينِ
إذا ما راية رُفِعتْ بمجد ... تلقّاها عَرابةُ باليمينِ

❁ وأما علو الهمة فهو أصل الرياسة :

فمِمّن علت همتُه ، وشرفت نفسُه عمارة بن حمزة ، قيل : إنه دخل يومًا على المنصور ، وقعد فى مجلسه ، فقام رجل ، وقال : مظلوم يا أمير المؤمنين ! قال : من ظلمك ؟ قال : عمارة بن حمزة غصبنى ضيعتى ، فقال المنصور : يا عمارة، قم فاقعد مع خصمك ، فقال : ما هو لى بخصم ، إن كانت الضيعةُ لهُ فلست أنازعه فيها ، وإن كانت لى فقد وهبتها له ! ولا أقوم من مقام شرفنى به أمير المؤمنين ورفعنى ، وأقعد فى أدنى منه لأجل ضيعة . وتحدث السفاح هو وأم سلمة يومًا فى نزاهة نفس عمارة وكبره فقالت له : ادع به وأنا أهب له سبحتى هذه ، فإن ثمنها خمسون ألف دينار ، فإن هو قبلها علمنا أنه غير نزه النفس ، فوجه إليه فحضر ، فحادثته ساعة ، ثم رمت إليه بالسبحة وقالت : هى من الطُّرف ، وهى لك فجعلها عمارة بين يديه ، ثم قام وتركها ، فقالت : لعله نسيها ، فبعثت بها إليه مع خادم ، فقال للخادم : هى لك ، فرجع الخادم ، فقال : قد وهبها لى فأعطت أم سلمة للخادم ألف دينار ، واستعادتها منه . وأهدى عبيد الله بن السرى إلى عبد الله بن طاهر ، لما ولى مصر مائة وصيف ، مع كل وصيف ألف دينار ، ووجه إليه بذلك ليلاً فرده ، وكتب إليه : لو قبلت هديتك ليلاً لقبلتها نهارًا : ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾[(٣)]. وكان سبب فتح المعتصم عمورية أن امرأة من الثغر سبيت فنادت . وامحمداه ! وامعتصماه ! فبلغه الخبر فركب لوقته ، وتبعه الجيش ، فلما فتحها قال : لبيك أيتها المنادية .

وكان سعيد بن عمرو بن العاص ذا نخوة وهمة قيل له فى مرضه : إن المريض يستريح إلى الأنين ؛ وإلى شرح ما به إلى الطبيب ، فقال : أما الأنين ، فهو جَزَع وعَار واللهِ لا يسمع اللهُ منى أنينًا فأكون عنده جزوعًا ، وأما وصف ما بى إلى الطبيب ، فواللهِ لا يحكم غيرُ الله فى نفسى ، إن شاء أمسكها ، وإن شاء قبضها .

---

(١) «من رزقه . . إلخ» لم أقف عليه.
(٢) أمتار : أحصل على الميرة وهي الطعام.
(٣) تضمين لطيف حيث ضمن كلامه بعض الآية الكريمة رقم [٢٧] من سورة النمل وهي تحكي رد سيدنا سليمان عليه السلام على هدية بلقيس له.

ومن كِبر النفس : ما روى عن قيس بن زهير أنه أصابته الفاقة ، واحتاج فكان يأكل الحنظل ، حتى قتله ، ولم يخبر أحدا بحاجته .

ومن الشرف والرياسة حفظ الجوار ، وحِمَىٰ الذمار ، وكانت العرب ترى ذلك دينًا تدعو إليه ، وحقًّا واجبًا تحافظ عليه ، وكان أبو سفيان بن حرب إذا نزل به جار قال : يا هذا إنك اخترتنى جارًا ، واخترت دارى دارًا ، فجناية يديكَ علىّ دونَك ، وإن جنت عليك يد فاحتكم حكم الصبى على أهله . وكان الفرزدق يجير من عاذ بقبر أبيه غالب بن صعصعة ، فممن استجار بقبر أبيه فأجاره ؛ فأجار امرأة من بنى جعفر بن كلاب ، خافت لما هجا الفرزدق بنى جعفر أن يسميها ، وينسبها فعاذت بقبر أبيه ، فلم يذكر لها اسما ولا نسبا ، ولكن قال :

عَجوزٌ تصلّى الخمسَ عاذت بغالب ... فَلا والّذى عاذتْ به لا أُضِيرُها

وقال مروان بن أبى حفصة :

هم يمنعون الجارَ حتى كأنّما ... لجارهم بين السماكين [1] منزل

وقال ابن نباتة :

ولو يكون سواد الشعر فى ذمم ... ما كان للشيب سلطان على القمم

وقيل : إن الحجاج أخذ يزيد بن المهلب بن أبى صفرة وعذبه ، واستأصل موجوده ، وسجنه فتوصل يزيد بحسن تلطفه ، وأرغب السجان واستماله ، وهرب هو والسجان ، وقصد الشام إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان ، وكان الخليفة فى ذلك الوقت الوليد بن عبد الملك ، فلما وصل يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك ، أكرمه وأحسن إليه ، وأقامه عنده ، فكتب الحجاج إلى الوليد يعلمه أن يزيد هرب من السجن ، وأنه عند سليمان ابن عبد الملك أخى أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين ، وأن أمير المؤمنين أعلى رأيًا فكتب الوليد إلى أخيه سليمان بذلك ، فكتب سليمان إلى أخيه يقول : يا أمير المؤمنين ، إنى ما أجرت يزيد بن المهلب إلا لأنه هو وأبوه وإخوته من صنائعنا قديمًا وحديثًا ، ولم أجرْ عدوًّا لأمير المؤمنين ، وقد كان الحجاج قصده وعَذّبَه وأغرمه أربعة آلاف ألف درهم ظلمًا ، ثم طالبه بعدها بثلاثة آلاف ألف درهم ، وقد صار إلىّ واستجار بى ، فأجرته ، وأنا أغرم عنه هذه الثلاثة آلاف ألف درهم ، فإن رأى أمير المؤمنين أن لا يخزينى فى ضيفى ، فليفعل فإنه أهل الفضل والكرم ، فكتب إليه الوليد إنه لابدّ أن ترسل إلىّ يزيد مغلولا مقيدًا ، فلما ورد ذلك على سليمان أحضر ولده أيوب ، فقيده ، ودعا يزيد بن المهلب فقيده ، ثم شد قيد هذا إلى قيد هذا بسلسلة وغلهما جميعًا بُغلّين وأرسلهما إلى أخيه الوليد ، وكتب إليه : أما بعد يا أمير المؤمنين فقد وجهت إليك يزيد وابن أخيك أيوب بن سليمان ، ولقد هممت أن أكون ثالثهما فإن هَمَمْت يا أمير المؤمنين بقتل يزيد فبالله عليك ابدأ بأيوب من قبله ، ثم اجعل يزيد ثانيًا ، واجعلنى إذا شئت ثالثًا ، والسلام . فلما دخل يزيد بن المهلب ، وأيوب بن سليمان فى سلسلة واحدة أطرق الوليد استحياء ، وقال : لقد أسأنا إلى أبى أيوب ، إذ بلغنا به هذا المبلغ ، فأخذ يزيد ليتكلم ، ويحتج لنفسه ، فقال له الوليد ، ما يحتاج إلى كلام ، فقد قبلنا عذرك ، وعلمنا ظلم الحجاج ، ثم إنه أحضر حدادًا ، وأزال عنهما الحديد ، وأحسن إليهما ، ووصل أيوب ابن أخيه بثلاثين ألف درهم ، ووصل يزيد بن المهلب بعشرين ألف درهم ، وردّهما إلى سليمان ، وكتب كتابًا إلى الحجاج يقول له : لا سبيل لك على يزيد بن المهلب ؛ فإياك أن تعاودنى فيه بعد اليوم ؛ فسار يزيد إلى سليمان بن عبد الملك ، وأقام عنده فى أعلى المراتب وأرفع المنازل .

وحكى أن رجلاً من الشيعة كان يسعى فى فساد الدولة ، فجعل المهدى لمن دل عليه ، أو أتى به مائة ألف درهم ، فأخذه رجل من بغداد ، فأيس من نفسه ، فمر به معن بن زائدة ، فقال له : يا أبا الوليد ، أجرنى أجارك الله ؛ فقال معن للرجل : مالك وماله ؟ فقال : إن أمير المؤمنين طالبه ، قال : خل سبيله ، قال : لا أفعل ، فأمر معن غلمانه

---

(١) السماكان : نجمان نيران : أحدهما في الشمال ، وهو السماك الرامح ، والآخر في الجنوب ، وهو السِّماك الأعزل ، ويضرب بهما المثل في علو الشأن .

فأخذوه غَصبًا ، وأردفه بعضهم خلفه ، ومضى الرجل فأخبر أمير المؤمنين المهدى بالقصة ، فأرسل خلف معن ، فأحضره فلما دخل عليه قال له : يا معن ، أتجير علىَّ ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قتلت فى يوم واحد فى طاعتكم خمسة آلاف رجل هذا مع أيام كثيرة تقدمت فيها طاعتى ، أفما ترونى أهلا أن تجيروا إلى رجلاً واحدا استجار بى ؟ فاستحيا المهدى وأطرق طويلاً ، ثم رفع رأسه وقال : قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد . قال : إن رأى أمير المؤمنين أن يصل من استجار بى ، فيكون قد أجاره وحباه ، قال : قد أمرت له بخمسين ألف درهم فقال معن : يا أمير المؤمنين ينبغى أن تكون صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية ، وإن ذنب الرجل عظيم ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجزل صلته فليفعل ، قال : قد أمرت له بمائة ألف درهم ، فرجع معن إلى منزله ، ودعا بالرجل ، ودفع له المال ، ووعظه ، وقال له : لا تتعرض لمساخط الخلفاء .

وكان جعفر بن أبى طالب يقول لأبيه : يا أبت ، إنى لأستحى أن أَطْعَمَ طعامًا وجيرانى لا يقدرون على مثله ، فكان أبوه يقول : إنِّى لأرجو أن يكون فيك خلف من عبد المطلب .

وسقط الجراد قريبًا من بيت بعض العرب ، فجاء أهل الحى ، فقالوا : نريد جارك ، فقال : أما إذ جعلتموه جارى ، فوالله لا تصلون إليه ، وأجاره حتى طار ، فسمى مجير الجراد ، وقيل : هو أبو حنبل ، والحكايات فى معنى ذلك كثيرة ، والله أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثلاثون

فى الخير والصلاح ، وذكر السادة الصحابة ، وذكر الأولياء والصالحين رضي الله عنهم

اعلم أن أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على رضي الله عنهم . وفضائلهم أكثر من أن تحصر ، وأشهر من أن تذكر ، وإنى - والله - أحبهم ، وأحب من يحبهم ، وأسأل الله أن يميتنى على محبة نبيى محمد ﷺ، ومحبتهم وأن يحشرنا فى زمرتهم ، وتحت ألويتهم إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير :

إنِّى أحِبُّ أبا حفص وشيعته ... كما أحبُّ عتيقًا صاحب الغار
وقد رضيتُ عليا قدوةً علمًا ... وما رضيتُ بقَتْل الشيخ فى الدار (١)
كلُّ الصحابة ساداتى ومُعْتقدى ... فهل علىّ بهذا القول من عار ؟!

وروى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا ؟ » فقال أبو بكر : أنا يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: « فَمَنْ أَطْعَمَ الْيَوْمَ مِنْكُمْ مِسْكِينًا ؟ » فقال أبو بكر : أنا . قال : « فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا ؟ » قال أبو بكر : أنا . فقال رسول الله ﷺ: « مَا اجْتَمَعْنَ فِى أَحَدٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ » (٢) . وقال ﷺ : « لَوْ كَانَ بَعْدِى نَبِىٌّ لَكَانَ عُمَرُ » (٣) . وقال النبى ﷺ: « وَالَّذِى بَعَثَنِى بِالْحَقِّ بَشِيرًا مَا سَلَكْتُ وَادِيًا إِلَّا سَلَكَ الشَّيْطَانُ وَادِيًا غَيْرَهُ » (٤) . ولما أسلم رضي الله عنه قال : يا رسول الله ، ألسنا على الحق قال : « بلى » . قال : والذى بعثك بالحق نبيًا لا نعبد الله سرًّا بعد هذا اليوم (٥) . ولما قدم عمر رضي الله عنه الشام وقف على طور سيناء ، فأرسل البطريق عظيمًا لهم ، وقال :

---

(١) أبو حفص: عمر رضي الله عنه، أما عتيق فهو أبو بكر، والشيخ عثمان رضي الله عنهم .

(٢) حديث: «من أصبح منكم.. إلخ» أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» [ص١٨١]، ومسلم [٢/ ٧١٣، ٤/ ١٨٥٧].

(٣) «لو كان بعدي.. إلخ» أخرجه أحمد [٤/ ١٥٤]، والترمذي [٣٦٨٦] والفسوى في «تاريخه» [٢/ ٥٠٠]، والحاكم [٨٥١٣] من حديث عقبة بن عامر.

(٤) «والذي بعثني بالحق.. إلخ» أخرج قريبًا منه البخاري [٦/ ٣٣٩]، [٧/ ٤١]، [١٠/ ٥٠٣]، ومسلم [٤/ ١٨٦٣].

(٥) حديث قال رسول الله ﷺ إلخ انظر: «فضائل الصحابة» للإمام أحمد [ص٢٧٩-٢٨٠].

انظر إلى ملك العرب ، فرآه على فرس ، وعليه جبة صوف مرقعة مستقبل الشمس بوجهه ، ومخلاته فى قربوس[١] السرج ، وعمر يدخل يده فيها ، ويخرج فلق خبز يابس يمسحها من التبن ، ويلوكها ، فوصفه للبطريق ، فقال : لا نرى بمحاربة هذا طاقة أعطوه ما شاء . وأما أمير المؤمنين عثمان ﷺ ففضائله كثيرة ، ومناقبه شهيرة ، فهو جامع القرآن ، ومن استحيت منه ملائكة الرحمن ﷻ وقال جميع بن عمير : دخلت على عائشة ﷺ فقلت لها : أخبرينى : من كان أحب الناس إلى رسول الله ﷺ؟ قالت : فاطمة . قلت : إنما أسألك عن الرجال ؛ قالت : زوجها ، فوالله لقد كان صوامًا قوامًا ، ولقد سالت نفسُ رسول الله ﷺ فى يده ، فردّها إلى فيه ، قلت : فما حملك على ما كان[٢]؟ فأرسلت خمارها على وجهها ، وبكت وقالت : أمر قضى علىّ . وقال معاوية لضرار بن حمزة الكنانى : صف لى عليًا : فاستعفى ، فألحّ عليه ، فقال : أما إذن فلابدّ أنه والله كان بعيد المدى ، شديد القوى ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غَزِيرَ العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويعاتب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، وكان والله يُجيبنا إذا سألناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن والله مع تقريبه لنا ، وقربه منا لا نكلمه هيبة له ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوىّ فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، فأشهد الله لقد رأيته فى بعض مواقفه ، وقد أرخى الليلُ سدوله ، وغارت نجومُه ، وقد مثل فى محرابه قابضًا على لحيته يتململ تململ الخائف ، ويبكى بكاء الحزين ، فكأنى الآن أسمعه يقول : يا دنيا أإلىّ تَعرّضت ؟ أم إلىّ تشوّقت ؟! هيهات هيهات : غرّى غيرى : لقد أبنتك ثلاثًا لا رجعة إلى فيك ، فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير ، آه من قلة الزاد ، ووحشة الطريق ، قال : فوكفت دموع معاوية ، حتى ما يملكها على لحيته ، وهو يمسحها وقد اختنق القوم بالبكاء ؛ وقال : رحم الله أبا الحسن ؛ كان والله كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزنى عليه والله حزن من ذُبح ولدُها فى حجرها ، فلا ترقأ عَبْرتُهَا[٣] ولا تسكن حيرتُها ثم قام فخرج .

وقيل : أوّل من سلّ سيفًا فى سبيل الله تعالى الزّبير بن العوام ﷺ وذلك أنه صاح على أهل مكة ليلاً صائح ، فقال : قُتل محمد ، فخرج متجرّدًا وسيفه معه صَلْتًا[٤]، فتلقاه رسول الله ﷺ، فقال : « **ما لك يا زبير ؟** » قال : سمعت أنك قُتلت ! قال : « **فماذا أردت أن تصنع ؟** » قال : أردت والله أن أستعرض أهل مكّة ، وروى : أخبط بسيفى من قدرت عليه ؛ فضمه رسول الله ﷺ إليه ، وأعطاه إزارًا له فاستتر به ، وقال له : « **أنت حوارىّ ، ودعا له** »[٥] . قال الأوزاعى : كان للزبير ألف مملوك يؤدّون الضريبة لا يدخل بيت ماله منها درهم بل كان يتصدق بها ، وباع دارًا له بستمائة ألف درهم ، فقيل له : يا أبا عبد الله ، غبنت ، قال : كلا ؛ والله إنى لم أغبن ، أشهدكم أنها فى سبيل الله تعالى . وهبط جبريل ﷺ على رسول الله ﷺ يوم أحد ، فقال : مَنْ حملك على ظهره ؟ وكان حمله على ظهره طلحة حتى استقل على الصخرة ، قال : طلحة ، قال : أقرئه السلام ، وأعلمه أنى لا أراه يوم القيامة فى هول من أهوالها إلا استنقذته منه . من هذا الذى عن يمينك ؟ قال : المقداد بن الأسود . قال : إن الله يحبه ، ويأمرك أن تحبه . من هذا الذى بين يديك يتقى عنك ؟ قال : عمار بن ياسر . قال : بشّرْه بالجنة حرمت النار على عمار[٦] . ومر أبو ذر على النبى ﷺ، ومعه جبريل ﷺ فى صورة دِحية الكلبى ، فلم يسلم ، فقال جبريل : هذا أبو ذر لو سلم لرددنا عليه ، فقال : أتعرفه يا جبريل ؟ قال : والذى بعثك بالحق نبيًا لهو فى ملكوت السموات السبع أشهر منه فى الأرض ، قال : بِمَ نال هذه المنزلة ؟ قال : بزهده فى هذه الحطام الفانية[٧] . وقال ابن عمر ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن ألف بيت من جيرانه البلاء**»[٨] . ثم قرأ : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ

---

(١) قَرْبُوس السّرج: حِنْوُ السرج، وهما قَربوسان، والجمع قرابيس [المعجم الوسيط].

(٢) يقصد موقعة الجمل.

(٣) لا ترقأ عبرتها: لا تجف دموعها [ص٢٥٠].

(٤) صَلْتا: صقيلاً بارزًا ماضيًا.

(٥) وقيل: أول من سلّ سيفًا.. إلخ انظر: «فضائل الصحابة» للإمام أحمد [١٢٦٠].

(٦) وهبط جبريل.. إلخ انظر: «مجمع الزوائد» للهيثمي [٩/ ١٤٩].

(٧) ومرّ أبو ذرّ.. إلخ. لم أقف عليه.

(٨) سمعت رسول الله ﷺ يقول.. إلخ. ضعيف جدًا: أخرجه ابن جرير في «التفسير» [٥/ ٥٧٤ برقم ٥٧٥٣]ط. شاكر، وفي سنده يحيى بن سعيد العطار، منكر الحديث، وانظر: السلسلة الضعيفة» برقم [٨١٥].

بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥١][(١)] . الآية . وقال أبو بكر السفاح لأبى بكر الهذلى : بم بلغ الحسن ما بلغ ؟ قال : جمع كتاب الله تعالى ، وهو ابن اثنتى عشرة سنة ، لم يجاوز سورة إلى غيرها حتى يعرف تأويلها ، ولم يقلب درهمًا قط فى تجارة ، ولم يل عملاً لسلطان ، ولم يأمر بشىء حتى يفعله ، ولم ينه عن شىء حتى يدعه . قال السفاح : بهذا بلغ .

وقال الجاحظ : كان الحسن يُستثنى من كل غاية ، فيقال : فلان أزهد الناس إلا الحسن ، وأفقه الناس إلا الحسن ، وأفصح الناس إلا الحسن ، وأخطب الناس إلا الحسن .

وقال بعضهم : كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس[(٢)] ، لأن عمر ملك الدنيا فزهد فيها وأويس لم يملكها فقيل : لو ملكها لفعل كما فعل عمر ، فقال : ليس من لم يجرّب كمن جرب . وقال أنس فى ثابت البنانى : إن للخير مفاتيح ، وإن ثابتًا من مفاتيح الخير ، وكان حبيب الفارسى من أخيار الناس ، وهو الذى اشترى نفسه من ربه أربع مرات بأربعين ألفًا ، كان يخرج البَدْرة[(٣)] فيقول : يارب اشتريت نفسى منك بهذه ، ثم يتصدق بها ، وكان أيوب السختيانى من أزهد الناس وأورعهم ، ذكر عند أبى حنيفة - رحمه الله تعالى - فقال : رحم الله أيوب لقد شهدت منه مقامًا عند منبر النبى ﷺ لا أذكر ذلك المقام إلا اقشعر جلدى .

وقال سفيان الثورى : جهدت جهدى على أن أكون فى السَنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك فلم أقدر .

وكان الخليل بن أحمد النحوى من أزهد الناس وأعلاهم نفسًا ، وكان الملوك يقصدونه ، ويبذلون له الأموال فلا يقبل منها شيئًا ، وكان يحج سنة ، ويغزو سنة ، حتى مات رحمه الله .

وقال ابن خارجة : جالست ابن عون عشرين سنة ، فما أظن الملكين كتبا عليه شيئًا ، وروى أنه غسّل كرز بن وبرة ، فلم يوجد على جسده مثقال لحم . وعن محمد بن الحسن قال : كان أبو حنيفة واحد زمانه ، لو انشقت عنه الأرض لانشقت عن جبل من الجبال فى العلم والكرم والزهد والورع . وحج وكيع بن الجراح أربعين حجة ورابط فى عَبَادَانَ أربعين ليلة ، وختم بها القرآن أربعين ختمة ، وتصدق بأربعين ألفًا ، وروى أربعة آلاف حديث ، وما رؤى واضعًا جنبه قط . ووقف عمر بن عبد العزيز على عطاء بن أبى رباح وهو أسود مفلفل الشعر ، يفتى الناس فى الحلال والحرام فتمثل يقول : تلك المكارمُ لا قعبان[(٤)] من لبن ! ومن مشايخ الرسالة رضوان الله عليهم أجمعين سيدى أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المغربى أستاذ إبراهيم بن شيبان كان عجيب الشأن لم يأكل مما وصلت إليه أيدى بنى آدم سنين كثيرة ، وكان أكله من أصول العشب شيئًا تعوّد أكله .

ومنهم : « سيدى فتح بن شحرف بن داود » يكنى أبا نصر من الزاهدين الورعين لم يأكل الخبز ثلاثين سنة . قال أحمد بن عبد الجبار : سمعت أبى يقول : صحبت فتح بن شحرف ثلاثين سنة فلم أره رفع رأسه إلى السماء ، ثم رفعها يومًا فقال : طال شوقى إليك فعجل قدومى عليك ، وقال محمد بن جعفر : سمعت إنسانًا يقول : غسّلنا فتح بن شحرف ، فرأينا مكتوبًا على فخذه لا إله إلا الله ، فتوهمناه مكتوبًا ، وإذا هو عرق داخل الجلد ، ومات ببغداد فصلى عليه ثلاثًا وثلاثين مرة أقل قوم كانوا يصلون عليه ، كانوا نحوا من خمسة وعشرين ألفًا إلى ثلاثين ألفا . ومنهم « سيدى فتح بن سعيد الموصلى » ؛ يكنى أبا نصر من أقران بشر الحافى ، وسرىّ السقطى كبير الشأن فى باب الورع والمجاهدات . قال إبراهيم بن نوح الموصلى : رجع فتح الموصلى إلى أهله بعد صلاة العتمة ، وكان صائمًا ، فقال : عشونى ، فقالوا : ما عندنا شىء نعشيك به ، فقال : ما بالكم جلوس فى الظلمة ؟ فقالوا : ما عندنا شىء نسرج به ؟ فجعل يبكى من الفرح ، ويقول : إلهى مثلى يترك بلا عشاء ولا سراج بأىّ يد كانت منى ؟ فما زال يبكى إلى الصباح ! وقال فتح : رأيت بالبادية غلامًا لم يبلغ الحلم وهو يمشى وحده ، ويحرك شفتيه فسلمت عليه ، فردّ على

---

(١) جواب الشرط [لفسدت الأرض]، وقد تكرر الشرط في الآية رقم [٤٠] من سورة الحج واختلف الجواب فجاء [لهدمت صوامع وبيع].

(٢) أويس القُرني ﷺ أول سادات التابعين، كان من أكابر الزهاد قليل المتاع كان إذا أمسى يقول: «اللهم إني أعتذر إليك من كل كبد جائع، فإنه ليس في بيتي من الطعام إلا ما في بطني» وروى الحاكم عن علي ﷺ «خير التابعين أويس».

(٣) البدرة: بفتح الباء وسكون الدال: كيس فيه مقدار من المال يتعامل به، ويُقدَّم في العطايا.

(٤) قعبان: القَعْبُ قدح ضخم غليظ، والجمع قِعاب، وأقْعُب.

السلام ، فقلت : إلى أين ؟ فقال : إلى بيت ربى عز وجل ! فقلت : بماذا تحرّك شفتيك ؟ قال : أتلو كلام ربى ! فقلت : إنه لم يجر عليك قلم التكليف ؟ قال : رأيت الموت يأخذ من هو أصغر سنًّا منى ! فقلت : خُطاك قصيرة ، وطريقك بعيدة ، فقال : إنما علىّ نقل الخطا ، وعليه البلاغ . فقلت : أين الزاد والراحلة ؟ قال : زادى يقينى ، وراحلتى رجلاى ، فقلت : أسألك عن الخبز والماء . قال : يا عماه، أرأيت لو دعاك مخلوق إلى منزله أكان يجمل بك أن تحمل زادك إلى منزله ؟ قلت : لا . فقال : إن سيدى دعا عباده إلى بيته ، وأذن لهم فى زيارته ، فحملهم ضعف يقينهم ، على حمل أزوادهم ، وإنى استقبحت ذلك فحفظت الأدب معه أفتراه يضيعنى ؟ فقلت : حاشا وكلا . ثم غاب عن بصرى فلم أره إلا بمكة ، فلما رآنى قال : أنت أيها الشيخ بعد على ذلك الضعف من اليقين ؟!

ومنهم : « سيدى أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الجبرى » صحب شاه الكرمانى ، ويحيى ابن معاذ الرازى . وكان يقال فى الدنيا ثلاثة لا رابع لهم : أبو عثمان الجبرى بنيسابور والجنيد ببغداد ، وأبو عبد الله الحلاج بالشام ، ومن كلامه : لا يكمل الرجل حتى يستوى فى قلبه أربعة أشياء : المنع ، والعطاء ، والعز ، والذل .

وقال : منذ أربعين سنة ، ما أقامنى الله تعالى فى حال فكرهته ، ولا نقلنى إلى شىء فسخطته .

ومنهم : « سيدى سليمان الخوّاص » يكنى أبا تراب ، كان أحد الزهاد المعروفين ، والعباد الموصوفين ، سكن الشام ، ودخل بيروت ، وكان أكثر مقامه ببيت المقدس . قيل : اجتمع حذيفة المرعشى ، وإبراهيم بن أدهم ، ويوسف بن أسباط ، فتذاكروا الفقر والغنى ، وسليمان ساكت ، فقال بعضهم : الغنى من كان له بيت يسكنه ، وثوب يستره ، وسداد من عيش يكفه عن فضول الدنيا ، وقال بعضهم : الغنى من لم يحتج إلى الناس ، فقيل لسليمان : ما تقول أنت فى ذلك ؟ فبكى وقال : رأيت جوامع الغنى فى التوكل ، ورأيت جوامع الفقر فى القُنوط ، والغنى حَقَّ الغنى من أسكن الله فى قلبه من غناه يقينًا ، ومن معرفته توكلاً ، ومن قسمته رضا ، فذلك الغنى حقّ الغنى ، وإن أمسى طاويًا ، وأصبح معوزًا فبكى القوم من كلامه .

ومنهم : « سيدى أبو سليمان بن عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الدارانى » أحد رجال الطريقة - قدس الله سره - كان من أجل السادات ، وأرباب الجد فى المجاهدات ، ومن كلامه : من أحسن فى نهاره كُفى فى ليله ، ومن أحسن فى ليله ، كُفِى فى نهاره ، ومن صدق فى ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه ، والله تعالى أكرم من أن يعذب قلبًا بشهوة تركت له .

وقال: لكل شىء علامة ، وعلامة الخِذلان ترك البكاء ، وقال : لكل شىء صدأ ، وصدأ نور القلب شبع البطن . وقال أحمد بن أبى الحوارى : شكوت إلى أبى سليمان الوسواس فقال : إذا أردت أن ينقطع عنك فأى وقت أحسست به ، فافرح فإنك إذا فرحت به انقطع عنك لأنه لا شىء أبغض إلى الشيطان من سرور المؤمن ، وإذا اغتممت به زادك .

وقال ذو النون المصرى - رحمه الله تعالى - اجتمعوا ليلاً على أبى سليمان الدارانى فسمعوه يقول : يارب إن طالبتنى بسريرتى طالبتُك بتوحيدِك ، وإن طالبتنى بذنوبى طالبتُك بكرمك ، وإن جعلتنى من أهل النار أخبرت أهل النار بحبى إياك .

وقال على بن الحسين الحدّاد : سألت أبا سليمان : بأى شىء تعرف الأبرار ؟ قال : بكتمان المصائب ، وصيانة الكرامات . وروى عنه أنه قال : نمت ليلة عن وِرْدِى فإذا حوراء تقول لى : أتنام وأنا أُربَّى لك فى الخدور منذ خمسمائة عام !!

ومنهم : سيدى أبو محمد عبد الله بن حنيف من زُهاد المتصوّفة ، كوفى الأصل ، ولكنه سكن أنطاكية ، ومن كلامه : لا تغتم إلا من شىء يضرك غدًا ، ولا تفرح إلا بشىء يسرك غدًا ، وله كرامات ظاهرة ، وبركات متواترة .

ومنهم : « سيدى أبو عبد الله محمد بن يوسف البناء » أصبهانى الأصل ، كتب عن ستمائة شيخ ، ثم غلب عليه الانفراد والخلوة إلى أن خرج إلى مكة بشرط التصوف ، وقطع البادية على التجريد ، وكان فى ابتداء أمره يكسب فى كل

يوم ثلاثة دراهم وثلثا ، فيأخذ من ذلك لنفسه دانقًا[١] ، ويتصدّق بالباقى ، ويختم مع العمل كل يوم ختمة ، فإذا صلى العتمة[٢] فى مسجده ، خرج إلى الجبل إلى قريب الصبح ، ثم يرجع إلى العمل ، وكان يقول فى الجبل : يارب إما أن تهب لى معرفتك أو تأمر الجبل أن ينطبق علىّ ، فإنى لا أريد الحياة بلا معرفتك .

ومنهم : « سيدى يحيى بن معاذ الرازى » - قدس الله سره - يكنى أبا زكريا أحد رجال الطريق ، كان أَوْحَد وقته ، ومن كلامه : لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميراثه ، ويوم حشره ميزانه .

وقال : ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال : إن لم تنفعه فلا تضره ، وإن لم تسره فلا تغمه ، وإن لم تمدحه فلا تذمه .

وقال : الصبر على الخلوة من علامات الإخلاص ، وقال : بئس الصديق صديقًا يحتاج إلى أن يقال له : اذكرنى فى دعائك ، وقال : على قدر حبك يحبك الخلق ، وعلى قدر خوفك من الله تهابك الخلق ، وعلى قدر شغلك بالله تشتغل فى أمرك الخلق . وقال : من كان غناه فى كيسه ، لم يزل فقيرًا ، ومن كان غناه فى قلبه لم يزل غنيًا ، ومن قصد بحوائجه المخلوقين لم يزل محرومًا ، وروى أنه قدم شيراز فجعل يتكلم على الناس فى علم الأسرار فأتته امرأة من نسائها ، فقالت : كم تريد أن تأخذ من هذه البلدة ؟ قال : ثلاثون ألفًا أصرفها فى دَيْن عَلىّ بخراسان ، فقالت : لك علىّ ذلك على أن تأخذها وتخرج من ساعتك ، فرضى بذلك ، فحملت إليه المال ، فخرج من الغد ، فعوتبت تلك المرأة فيما فعلت، فقالت : إنه كان يظهر أسرار أولياء الله تعالى للسوقة والعامة فغرت على ذلك .

ومنهم : « سيدى يوسف بن الحسين الرازى » يكنى أبا يعقوب كان وحيد وقته فى إسقاط التصنع عالمًا أديبًا صحب ذا النون المصرى ، وأبا تراب النخشبى . من كلامه : إذا أردت أن تعلم العاقل من الأحمق فحدثه بالمحال ، فإن قبل فاعلم أنه أحمق . وقال : إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص ، فاعلم أنه لا يجىء منه شىء ، وقال : لأن ألقى الله تعالى بجميع المعاصى أحَبُّ إلىّ من أن ألقاه بذرة من التصنع ، وقال أبو الحسن الدراج : قصدت زيارة ابن الحسين الرازى من بغداد ، فلما دخلت بلده ، سألت عن منزله ، فكل من سألته يقول : أى شىء تريد من هذا الزنديق ؟ فضيقوا صدرى حتى عزمت على الانصراف ، فبت تلك الليلة فى مسجد ، ثم قلت فى نفسى : جئت هذه البلدة فلا أقل من زيارته ، فلم أزل أسأل عنه ، حتى وصلت إلى مسجده ، فوجدته جالسا فى المحراب ، وبين يديه مصحف يقرأ فيه ، فدنوت منه ، وسلمت عليه فردّ علىّ السلام وقال : « من أين ؟ » قلت : من بغداد . فقال : أتحسن من قولهم شيئًا ؟ قلت : نعم ، وأنشدته :

رأيتُك تَبْنى دائمًا فى قطيعتى ولو كنت ذا حَزْم لهدّمت ما تبنى

فأطبق المصحف ، ولم يزل يبكى حتى ابتلت لحيتُه وثوبه ، ورحمتُه من كثرة بكائه ، ثم التفتَ إلىّ وقال : يا بنى ، أتلوم أهل البلد على قولهم : يوسف بن الحسين زنديق ؟! وهأنذا من وقت صلاة الصبح أقرأ القرآن ، ولم تقطر من عينى قطرة ، وقد قامت علىّ القيامة بهذا البيت .

ومنهم : « سيدى حاتم بن علوان الأصم » - قدس الله سره - يكنى « أبا عبد الرحمن » من أكابر مشايخ خراسان ، صحب شقيقًا البلخى ، ومن كلامه : الزم خدمة مولاك تأتك الدنيا راغمة ، والآخرة راغبة . وقال : من ادعى ثلاثًا بغير ثلاث فهو كذاب . من ادعى حُبّ الله تعالى من غير وَرع عن محارمه فهو كذاب ، ومن ادعى محبة النبى ﷺ من غير محبة الفقر فهو كذاب ، ومن ادعى حب الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب . وسأله رجل : علام بنيت أمرك فى التوكل على الله - عز وجل -؟ قال : على أربع خصال : علمت أن رزقى لا يأكله غيرى فاطمأنت به نفسى ، وعلمت أن عملى لا يعمله غيرى ، فأنا مشغول به ؛ وعلمت أن الموت يأتينى بغتة فأنا أبادره ، وعلمت أنى لا أخلو من عين الله - عز وجل - حيث كنت فأنا أستحى منه .

وسبب تسميته بالأصم : ما حكاه أبو على الدقاق أنّ امرأة جاءت تسأله عن مسألة ، فاتفق أنه خرج منها صوت

---

(١) الدَّانق: سُدس الدرهم، والجمع دوانق، ودوانيق.

(٢) المقصود صلاة العِشاء.

ريح ، فخجلت المرأة ، فقال حاتم : ارفعى صوتك ، وأراها أنه أصم ؛ فسرت المرأة بذلك وقالت : إنه لم يسمع الصوت ، فغلب عليه هذا الاسم ، رحمة الله تعالى عليه .

ومنهم : « الحسن بن أحمد الكاتب » من كبار مشايخ المصريين ، صحب أبا بكر المصرى ، وأبا على الروذبارى ، وكان أوحد مشايخ وقته . من كلامه : روائح نسيم المحبة ، تفوح من المحبين ، وإن كتموها ، وتظهر عليهم دلائلُها ، وإن أخفوها ، وتدل عليهم ، وإن ستروها وأنشدوا فى هذا المعنى :

إذا ما أسرت أنفسُ الناسِ ذكره ... تبينه فيهم ، ولم يتكلموا
تطيب به أنفاسُهم فتذيعُها ... وهل سرُّ مِسْكٍ أودعَ الريحَ يكتم ؟

ومن كلامه أيضًا : إذا انقطع العبد إلى الله تعالى بالكلية ، فأوّل ما يفيده الاستغناء به عن الناس . وقال : صحبة الفساق داء ، ودواؤها مفارقتهم . وقال : إذا سكن الخوف فى القلب لا ينطق اللسان بما لا يعنيه .

ومنهم : « سيدى جعفر بن نصر الخلدى » يكنى بأبى محمد ، بغدادى المنشأ والمولد ، صاحب الجُنَيْد وانتمى إليه ، وحج قريبًا من ستين حجة ، روى أنه مرّ بمقبرة الشونيزية وامرأة على قبر تندب وتبكى بكاء بحرقة فقال لها : ما لكِ تبكين ؟ فقالت : ثكلى بولدى ؛ فأنشأ يقول :

يقولون : ثُكْلى ، ومن لم يذق ... فراقَ الأحبَّة لم يَثْكل
لقد جرّعتنى ليالى الفراق ... شرابًا أمرّ من الحَنْظل !

وروى أنه كان له فَصّ فوقع منه يومًا فى الدجلة وكان عنده دعاء مجرب لرد الضالة إذا دعا به عادت فدعا به ، فوجد الفص فى وسط أوراق كان يتصفحها ، وصورة الدعاء أن تقول : « يا جامعَ الناس ليوم لا ريب فيه ، اجمع علىَّ ضالتى » .

وقد روى أنه يقرأ قبله سورة : ﴿وَالضُّحَى﴾ ثلاثًا . وروى الحافظ أبو بكر الخطيب فى تاريخه قال : ودعت فى بعض حجاتى المزين الكبير الصوفى ، فقلت : زوّدنى شيئًا فقال : إن فقدت شيئًا أو أردت أن يجمع الله بينى وبينك أو بينك وبين إنسان فقل : يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بينى وبين كذا ؛ فإنّ الله يجمع بينك وبين ذلك الشىء أو الإنسان .

ومنهم : « سيدى معروف بن فيروز الكرخى » - قدس الله سره - يكنى « أبا محفوظ » من كبار المشايخ مجاب الدعوة ، وهو أستاذ السَّرى ، وكان أبواه نصرانيين فأسلماه إلى مؤدبهم وهو صبى فكان المؤدب يقول له : قل : هو ثالث ثلاثة ، فيقول : بل هو الواحد الصمد ، فضربه المؤدب على ذلك ضربًا موجعًا ، فهرب منه ، فكان أبواه يقولان : ليته يرجع إلينا على أى دين شاء ، فنوافقه عليه ، فرجع إلى أبويه ، فدق الباب ، فقيل : من بالباب ؟ فقال : معروف ، فقيل : على أى دين ؟ فقال : على دين الإسلام ، فأسلم أبواه ، وكان مشهورًا بإجابة الدعوة ، ومن كلامه ﷺ: إذا أراد الله بعبد خيرًا فتح له باب العمل ، وأغلق عليه باب الفترة[1] والكسل ، وكان يعاتب نفسه ، ويقول : يا مسكين ، كم تبكى وتندب ، أخلص تخلص . وقال سرى : سألت معروفًا عن الطائعين ، بأى شىء قدروا على الطاعات لله عز وجل ؟ قال : بخروج حب الدنيا من قلوبهم ، ولو كانت فى قلوبهم لما صحت لهم سجدة ومن إنشاداته :

الماءُ يغسلُ ما بالثَّوْب من دَرنٍ ... وليس يغسِلُ قلبَ المذنبِ الماءُ

وقال إبراهيم الأطروش : كان معروف قاعدًا يومًا على الدّجلَة ببغداد ، فمرّ بنا صبيان فى زورق يضربون بالملاهى ، ويشربون ، فقال له أصحابه : أما ترى هؤلاء يعصون الله تعالى على هذا الماء ؟! فادع عليهم ، فرفع يديه إلى السماء وقال : إلهى وسيدى ، كما فرّحتهم فى الدنيا ، أسألك أن تفرحهم فى الآخرة ! فقال له أصحابه : إنما سألناك أن تدعو عليهم ، ولم نقل لك : ادع لهم ، فقال : إذا فرّحهم فى الآخرة ، تاب عليهم فى الدنيا ، ولم يضركم ذلك .

---

(١) الفترة : بفتح الفاء وسكون التاء : الضعف والانكسار .

وقال سرى : رأيت معروفًا فى المنام كأنه تحت العرش ، والله تعالى يقول لملائكته : مَنْ هذا ؟ فقالوا : أنت أعلم يارب ، قال : هذا معروف الكرخى ، سكر بحبى ، لا يفيق إلا بلقائى . وقيل له فى مرضه : أوص فقال : إذا مت فتصدقوا بقميصى هذا ، فإنى أحب أن أخرج من الدنيا عريان كما دخلتها عريان ! وقال أبو بكر الخياط : رأيت فى المنام كأنى دخلت المقابر ، فإذا أهل القبور جلوس على قبورهم ، وبين أيديهم الريحان ، وإذا أنا بمعروف الكرخى بينهم يذهب ويجىء ، فقلت : يا أبا محفوظ ، ما فعل الله بك ؟ أو ليس قد مِتَّ ؟ قال : بلى . ثم أنشد يقول :

مَوْتُ التُّقىِّ حياةٌ لا نفادَ لها ... قد مات قومٌ وهم فى الناسِ أحياءُ

ومنهم : « قاسم بن عثمان الكرخى » يكنى « أبا عبد الملك » من أجلاء المشايخ صحب « أبا سليمان الدارانى » وغيره ، وكان من أقران السرى ، والحارث المحاسبى ، وكان أبو تراب النخشبى يصحبه ، ومن كلامه : من أصلح فيما بقى من عمره غفر له ما مضى وما بقى ، ومن أفسد فيما بقى مِنْ عمره أخذ بما مضى وما بقى .

وقال : السلامة كلها فى اعتزال الناس ، والفرح كله فى الخلوة بالله عز وجلّ . وسئل عن التوبة فقال : التوبة رد المظالم ، وترك المعاصى ، وطلب الحلال ، وأداء الفرائض . وقال لأصحابه : أوصيكم بخمس : إن ظُلِمتم فلا تَظْلِموا ، وإن مُدحتم فلا تفرحوا ، وإن ذُممتم فلا تحزنوا ، وإن كُذّبتم فلا تغضبوا ، وإن خانوكم فلا تخونوا .

وقال محمد بن الفرج : سمعت قاسم بن عثمان يقول : إنّ لله عبادًا قصدوا الله بهممهم ، فأفردوه بطاعتهم ، واكتفوا به فى توكلهم ، ورضوا به عوضًا عن كل ما خطر على قلوبهم من أمر الدنيا فليس لهم حبيب غيره ، ولا قرّة عين إلا فيما قرّب إليه . وكان يقول : قليل العمل مع المعرفة ، خير من كثير العمل بلا معرفة ، ثم قال : اعرف وضع رأسك ونم ، فما عبد الله الخلق بشىء أفضل من المعرفة ، وروى عنه أنه قال : رأيت فى الطواف حول البيت رجلاً فتقرّبت منه فإذا هو لا يزيد على قوله : اللهم قضيتَ حاجة المحتاجين ، وحاجتى لم تقض ، فقلت له : ما لك لا تزيد على هذا الكلام ؟ فقال : أحدّثك : كنا سبعة رفقاء من بلاد شتى غزونا أرضَ العدوّ فاستأسرونا كلَّنا فاعتزل بنا لتضرب أعناقنا فنظرت إلى السماء فإذا سبعة أبواب مفتحة عليها سبع جوار من الحور العين ، على كل باب جارية ، فقدّم رجل منا فضربت عنقه ، فرأيت جارية فى يدها مِنديل ، قد هبطت إلى الأرض فضربت أعناق الستة ، وبقيت أنا وبقى باب وجارية ، فلما قدمت لتضرب عنقى ، استوهبنى[1] بعض خواص الملك ، فوهبنى له ، فسمعتها تقول : بأى شىء فاتك هذا يا محروم ؟ وأغلقت الباب ، فأنا يا أخى متحسر على ما فاتنى ! قال قاسم بن عثمان : أراه أفضلهم لأنه رأى ما لم يروا ، وترك يعمل على الشوق .

ومنهم : « سيدى أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى » كان جليل القدر ، مالكى المذهب ، عظيم الشأن ، صحب « الجنيد » ومن فى عصره ، وكان يبالغ فى تعظيم الشرع المطهر ، وكان إذا دخل شهر رمضان المعظم جدّ فى الطاعات ، ويقول : هذا الشهر عظمه ربى فأنا أولى بتعظيمه . وسئل عن قول النبى ﷺ : « خير عمل المرء كسب يمينه »[2] . فقال : إذا كان الليل فخدماء ، وتهيأ للصلاة ، وصلّ ما شئت ، ومدّ يديك وسَلِ الله - عز وجل - فذلك كسب يمينك . ولما حج ورأى مكة المشرفة شرفها - الله تعالى - وقع مغشيًّا عليه ، فلما أفاق أنشد يقول :

هذه دارُ هَمٍّ وأنت مُحِبٌّ ... ما بقاء الدموع فى الآماق[3] ؟!

وروى أنه قال : كنت يومًا جالسًا فجرى فى خاطرى أنى بخيل ، فقلت : مهما فتح الله علىّ به اليوم أدفعه إلى أوّل فقير يلقانى ، قال : فبينما أنا متفكر ، إذ دخل علىّ شخص ، ومعه خمسون دينارًا فقال : اجعل هذه فى مصالحك ، فأخذتها ، وخرجت ، وإذا أنا بفقير مكفوف بين يدى مزين يحلق رأسه ، فتقدّمت إليه وناولته الصرة فقال له : ادفعها للمزين ، فقلت له : إنها دنانير ، فقال : إنك لبخيل ! قال : فناولتها للمزين ، فقال المزين : إن من عاداتنا أنّ الفقير إذا جلس بين أيدينا لا نأخذ منه أجرًا قال : فرميتها فى الدجلة ، وقلت : ما أعزكِ أحدٌ إلا أذله الله تعالى .

---

(١) استوهبني: طلب من الملك أن يهبني له.

(٢) خير عمل المرء.. إلخ. لم أقف عليه.

(٣) الآماق: جمع أمق، وأمقُ العين هو طرفها الذي يلي الأنف.

ومنهم : « سيدى زرقان بن محمد » أخو ذى النون المصرى ، صاحب سياحة ، كان بجبل لبنان (حكى) عن يوسف بن الحسين الرازى قال : بينما أنا بجبل لبنان أدور ، إذ أبصرت « زرقان » أخا « ذى النون المصرى » جالسًا على عين ماء ، وقت صلاة العصر ، فسلمت عليه ، وجلست من ورائه ، فالتفت إلىّ وقال : ما حاجتك ؟ فقلت : بيتًا شعرٍ سمعتهما من أخيك ذى النون المصرى أعرضهما عليك ، فقال : قل : فقلت : سمعته يقول :

قد بقينا مذبذبين حيارى ... نطلب الوصلَ ما إليه سبيلُ
فدواعى الهوى تخفّ علينا ... وخلافُ الهوى علينا ثقيل !

فقال زرقان ولكنى أقول :

قد بقينا مذهلين حيارى ... حسبنا ربنا ونعم الوكيل
حيثما الفوز كان ذاك منانا ... وإليه فى كل أمر نميل

فعرضت أقوالهما على طاهر المقدسى ، فقال : رحم الله ذا النون المصرى ، رجع إلى نفسه فقال ما قال : ورجع زرقان إلى ربه فقال ما قال ! وقال أبو عبد الرحمن السلمى : زرقان بن محمد أخو ذى النون المصرى وأظنّ أنه أخوه مؤاخاة لا أخوّة نسب ، وكان من أقرانه ورفقائه .

ومنهم : « سيدى أبو عبد الله النباجى سعيد بن بريد » كان من أقران ذى النون المصرى ، ومن أقران أستاذى أحمد ابن أبى الحوارى له كلام حسن فى المعرفة وغيرها ، روى عنه أنه قال : أصابنى ضيق وشدة فبت وأنا مفكر فى المسير إلى بعض إخوانى ، فسمعت قائلا يقول لى فى النوم : أيجمل بالحر المريد إذا وجد عند الله ما يريد ، أن يميل بقلبه إلى العبيد ؟ فانتبهت ، وأنا من أغنى الناس !

ومنهم : « سيدى بشر بن الحارث الحافى » - قدس الله روحه - يكنى أبا نصر ، أحد رجال الطريقة ، أصله من مرو ، وسكن بغداد ، وكان من كبار الصالحين ، وأعيان الأتقياء المتورعين ، صحب الفضيل بن عياض وروى عن سرى السقطى وغيره ، ومن كلامه : لا تكون كاملا حتى يأمنك عدوّك ، وكيف يكون فيك خير ، وأنت لا يأمنك صديقك ؟! وقال : أوّل عقوبة يعاقبها ابن آدم فى الدنيا مفارقة الأحباب ، وقال : غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه ، وخفاء مكانه عنهم . وقال : التكبر على المتكبر من التواضع . وسُئِل عن الصبر الجميل : فقال : الصبر الجميل هو الذى لا شكوىٰ فيه إلى الناس ! وقيل : إنه لقى رجلا سكران ، فجعل الرجل يقبل يد بشر ، ويقول : يا سيدى يا أبا نصر ، وبشر لا يدفعه عن نفسه ، فلما ولّى الرجلَ تغرغرت عينا بشر ، وجعل يقول : رجل أحبّ رجلاً على خير توهمه ، لعل المحبَّ قد نجا ، والمحبوب لا يدرى ما حاله ؟! وروى أنّ امرأة جاءت إلى أحمد بن حنبل تسأله فقالت : إنى امرأة أغزل بالليل والنهار ، وأبيعه ، ولا أُبَيِّنُ غزلَ الليل مِن غزلِ النهار ، فهل علىَّ فى ذلك شىء ؟ فقال : يجب أن تبينى ! فلما انصرفت ، قال أحمد : لابنه اذهب فانظر أين تدخل ؟ فرجع ، فقال : دخلت دار بشر ، فقال : قد عجبت أن تكون هذه السائلة من غير بيت بشر .

ولما مرض مرضه الذى مات فيه قال له أهله : نرفع ماءك إلى الطبيب ، قال : أنا بعين الطبيب يفعل بى ما يريد ، فألحوا عليه فقال لأخته : ادفعى إليهم الماء فدفعته إليهم فى قارورة ، وكان بالقرب منهم طبيب نصرانى ، فدفعوا إليه القارورة ، فقال : حرّكوا الماء ، فحرّكوه ، فقال : ضعوه ، فوضعوه ، فقالوا له : ما بهذا وصفت لنا ، قال : وبماذا وصفت لكم ؟ قالوا : وصفت بأنك أحذق أهل زمانك فى الطب ، قال : هو كما وصفت لكم ؛ إنّ هذا الماء إن كان ماء نصرانى فهو ماء راهب ، قد فتت الخوف كبده ، وإن كان ماء مسلم فماء بشر الحافى ، لأن ما فى زمانه أخوف منه قالوا : هو ماء بشر ، فقال : أنا أشهد أنّ لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، فلما رجعوا إلى بشر قال لهم : أسلم الطبيب ، قالوا له : ومن أعلمك بهذا ؟ قال لما خرجتم من عندى ، نوديتُ يا بشر ببركة مائك أسلم الطبيب . توفى سنة سبع وعشرين ومائتين .

ومنهم : « سيدى أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى » من أجَلِّ المشايخ كبير الشأن . ومن كلامه : مازلت أسوق إلى الله تعالى نفسى ، وهى تبكى إلى أن سقتها وهى تضحك .

وسئل بأى شىء وجدت هذه المعرفة ؟ فقال : ببطن جائع ، وبدنٍ عار . وقيل له : ما أشدُّ ما لقيت فى سبيل الله تعالى ؟! فقال : لا يمكن وصفُه . فقيل له : ما أهونُ ما لقيته نفسك منك ؟! فقال : أما هذا فنعم : دعوتُها إلى شىء من الطاعات ، فلم تجبنى فمنعتها الماء سنة .

وقال : الناس كلهم يهربون من الحساب ، ويتجافون عنه ، وأنا أسأل - الله تعالى - أن يحاسبنى ، فقيل له : لم ؟ فقال : لعله يقول : فيما بين ذلك يا عبدى ، فأقول : لبيك . فقوله لى : يا عبدى أحب إلى من الدنيا وما فيها ، ثم بعد ذلك يفعل بى ما يشاء . وقال له رجل : دلنى على عمل أتقرب به إلى ربى ، فقال : أَحِبَّ أولياءَ الله ليحبوك ، فإن الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه ، فلعله ينظر إلى اسمك فى قلب ولى فيغفر لك . وسئل عن المحبة فقال : استقلال الكثير من نفسك ، واستكثار القليل من حبيبك ، توفى سنة إحدى وستين ومائتين رحمه الله تعالى .

ومنهم : شيخ الطائفة « سيدى أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريرى » شيخ وقته ، وفريد عصره ، أصله من نَهاوَنْد ، ومولده ، ومنشؤه ببغداد ، صحب جماعة من المشايخ ، وصحب خاله السرى ، والحارث المحاسبى ، ودرس الفقه على أبى ثور ، وكان يُفتى فى مجلسه بحضرته ، وهو ابن عشرين سنة . ومن كلامه ﷺ : علامة إعراض الله تعالى عن العبد أن يشغله بما لا يعنيه . وقال : الأدب أدبان : أدب السر ، وأدب العلانية ، فأدب السر طهارة القلوب ، وأدب العلانية حفظ الجوارح من الذنوب . ورؤى فى يده يوما سبحة فقيل له : أنت مع تمكنك وشرفك تأخذ بيدك سبحة ، فقال : نعم . سبب وصلنا به إلى ما وصلنا لا نتركه أبدا . وقال حسن بن محمد السراج : سمعت الجنيد يقول : رأيت إبليس فى منامى ، وكأنه عريان ، فقلت له : ألا تستحيى من الناس فقال : بالله هؤلاء عندك من الناس ؟! لو كانوا من الناس ما تلاعبتُ بهم ، كما يتلاعب الصِّبيانُ بالكرة ، ولكن الناس عندى ثلاثة نفر ، فقلت : ومن هم ؟ قال : هم فى مسجد الشونيزى قد أضنوا قلبى ، وأنحلوا جسمى ، كلما هممت بهم أشاروا إلى الله - عز وجل - ، فأكاد أن أحرق. قال الجنيد : فانتبهت من نومى ، ولبست ثيابى ، وجئت إلى مسجد الشونيزى بليل ، فلما دخلت المسجد إذا أنا بثلاثة أنفس جلوس ، ورءوسهم فى مرقعاتهم ، فلما أحسوا بى قد دخلت أخرج أحدهم رأسه ، وقال : يا أبا القاسم ، أنت كلما قيل لك شىء تقبل ؟ قيل : إن الثلاثة الذين كانوا فى مسجد الشونيزى : أبو حمزة ، وأبو الحسن الثورى ، وأبو بكر الدقاق ﷺ .

وقال محمد بن القاسم الفارسى : بات الجنيد ليلة العيد فى الموضع الذى كان يعتاده فى البرية ، فإذا هو وقت السَّحَر بشاب ملتف فى عباءة ، وهو يبكى ويقول :

بحُرْمة غُرْبَتى كم ذا الصدود ؟! ... ألا تحنو على ألا تجودُ ؟!
سرورُ العيد قد عمّ النَّواحى ... وحُزنى فى ازدياد لا يبيدُ !!
فإنْ كنت اقترفت خلال سوء ... فعُذْرى فى الهوى أن لا أعودُ

توفى الجنيد - رحمه الله تعالى - سنة سبع وتسعين ومائتين ببغداد ، وصلى عليه نحو ستين ألفا- رضوان الله عليهم أجمعين .

وممن صحبتهُ وانتفعت بصحبته، وفاضت الخيرات على ببركته سيدى الشيخ الإمام العالم العامل أبو المعالى، وأبو الصدق «أبو بكر بن عمر الطرينى» المالكى- قدس الله سره وروحه ونوّر ضريحه- كان أو حد زمانه فى الزهد والورع، قامعا لأهل الضلال والبدع، وله أسرار ظاهرة، وبركات متواترة، قد أطاع أمره الخلائق عجما وعربا، وانتشر ذكره فى البلاد شرقا وغربا، وأتت الملوك إلى بابه، واختاروا أن يكونوا من جملة أصحابه، ما أتاه مكروب إلا فرّج الله كربته، ولا طالبُ حاجة إلا قضى الله حاجته. كان محافظا على النوافل، ملازما للفرض، وكان أكثر أكله من المباح من نبات الأرض، لم يمتع نفسه فى الدنيا بالمآكل والمشارب اللذيذة، بل قيل: إنه غضب على نفسه مرة فمنعها شرب الماء شهورًا عديدة! وكان ﷺ كثير الشفقة والحنوّ على أصحابه، نصوحا لجميع خلق الله من أعدائه وأحبابه، يدخل إليه أعدى عدوّه؛ فيقبل ببشره وبرّه عليه، فيخرج من عنده وهو أحب الناس إليه! كما قال بعضهم:

وإنى لألْقَى المرءَ أعلم أنه ... عَدُوّى وفى أحشائه الضَّغنُ كامنُ

فأمنحه بشرى فيرجعُ قلبهُ سليمًا وقد ماتت لديه الضَّغائنُ

وكانت حملة أهلِ زمانه عليه ، وأحوالهم فى كل أمر راجعة إليه ، وكنت كثيرا ما أسمعه يتمثل بهذا البيت :

وما حملونى الضَّيم الإحملتُه لأنى محبٌّ والمُحِبُّ حمولُ !

وكان ﷺ كثير المصافاة ، عظيم الموافاة ، شأنه الحلم والستر ، لم يهتك حرمة مسلم ، ولا فضحه ، وما استشاره أحد فى أمر إلا أرشده إلى الخير ونصحه، صحبته ﷺ نحو خمس عشرة سنة فكأنها من طيبها كانت سنة ، ما قطع بره يوما واحدا عنى ، حتى كنت أظنّ أن ليس عنده أخص منى ، وكان ذلك فعله مع جميع أصحابه قاطبة بيض الله وجهه فى القيامة وبلغه من فضل ربه مآربه . وكان ﷺ فقيها فى مذهب الإمام مالك وهو إمام كبير ، لم ير له فى زمانه من شبيه ولا نظير ، وله فى علم الحقيقة أقوال ، وكم رأينا له من مكاشفات وأحوال ، ولو تتبعت مناقبه لاتسع الكلام ، ولكنى أقول : كان أوحد عصره والسلام . عاش ﷺ نيفا وستين سنة ، وكان الناس فى زمانه فى عيشة راضية ، وأحوال حسنة ، وكان ﷺ كثير الأمراض والأسقام حصل له فى آخر عمره ضعف شديد ، أقام به نحو سنة ، ثم تزايد مرضه فى العشر الأوّل من ذى الحجة الحرام ، فلما كانت ليلة الحادى عشر ، اشتدّ به الأمر ، واحتُضِر ، ولم يزل فى النزع إلى ثلث الليل الأوّل من الليلة المذكورة ، ثم توفى - رحمه الله تعالى - سعيدا حميدا فى ليلة الجمعة حادى عشر ذى الحجة الحرام ، سنة سبع وعشرين وثمانمائة . ولما أخبر الناس بوفاته عظم مصابه على المسلمين ، ووقع النوح والبكاء والأسف فى أقطار البلدان ، حتى طوائف المخالفين للملة من النصارى وغيرهم ، وصاروا يبكون ويتوجعون ، ويتأسفون ، على فراقه ، وكيف لا وهو إمام العصر ، علامة الدهر ، حق فيه قول القائل :

حَلَفَ الزَّمانُ ليأتينَ بمثلِه حَنثَت يمينُك يا زمانُ فكَفِّر

رضى الله عنه، ورضى عنا به ؛ ونفعنا ببركته فى الدين والدنيا والآخرة - فشرعوا فى تجهيزه وغسله ، فكنت ممن حضر غسله ، ولكن لم يكن ذهنى معى فى تلك الساعة لما جرى علينا من المصيبة بفقده ، كيف لا؟ وقد كان لى والدا شفيقا ، وبارًّا محسنا عشوقًا ، فلما انتهى غسله ﷺ جاء القضاة والنوّاب والكشاف والولاة ، وحملوه على أعناقهم ، ومضوا به إلى جامع الخطبة بالمحلة ، فضاق بهم الجامع على سعته ، وضاقت الشوارع والسكك والطرقات من كثرة الناس ، فلم ير أكثر جمعا ، ولا أغزر دمعا من ذلك اليوم ، وهذا دليل على أنه كان قطب أهل زمانه .

قال الإمام أحمد بن حنبل ﷺ : بيننا وبينهم الجنائز يريد بذلك اجتماع الناس . والله أعلم فارتفع نعشُه على أعناقهم ، وتقدم للصلاة شيخه العارف بالله تعالى : « سيدى سليمان الدواخلى » - نفعنا الله ببركته - ودفن يوم الجمعة بزاويته التى أنشأها بسندفا مع والده الشيخ الإمام العالم العلامة مفتى المسلمين ، سراج الدين ، أبى حفص عمر الطرينى المالكى فى قبر واحد نفعنا الله ببركته ، وجعل الجنة متقلبه ومثواه ، وحشرنا وإياه فى زمرة سيد الأوّلين والآخرين محمد خاتم النبيين ، وأفضل المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، ونسأله التوفيق والإعانة ، وأن يمتع المسلمين بطول بقاء أخيه سيدنا ومولانا الشيخ شمس الدين محمد الطرينى ، أدام الله أيامه للمسلمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الباب الحادى والثلاثون

فى مناقب الصالحين وكرامات الأولياء

اعلم أن كرامات الأولياء لا تنكر ، ومناقبهم أكثر من أن تحصر ، نسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم فى زمرة نبينا محمد ﷺ يوم المحشر ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(حكاية) قال مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - احتُبِسَ عنا المطر بالبصرة فخرجنا نستسقى مرارا فلم نر للإجابة

أثرا ، فخرجت أنا وعطاء السلمى ، وثابت البنانى ، ويحيى البكّاء ، ومحمد بن واسع وأبو محمد السختيانى ، وحبيب الفارسى ، وحسان بن ثابت بن أبى سنان ، وعتبة الغلام ، وصالح المزنى ، حتى إذا صرنا إلى المصلى بالبصرة ، خرج الصبيان من المكاتب ، ثم استسقينا فلم نر للإجابة أثرًا ، حتى انتصف النهار ، وانصرف الناس ، وبقيت أنا وثابت البنانى بالمصلى ، فلما أظلم الليل إذا أنا بعبد أسود مليح ، رقيق الساقين ، عليه جبة صوف ، قوّمت ما عليه بدرهمين ، فجاء بماء فتوضأ ، ثم جاء إلى المحراب ، فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال : إلهى ، وسيدى ، ومولاى ، إلى كم تردّ عبادك فيما لا ينفعك ؟! أنفد ما عندك ؟! أم نقص ما فى خزائنك ؟! أقسمت عليك بحبك لى إلا ما أسقينا غيثك الساعة . قال : فما تم كلامه ، حتى تغيمت السماء وجاءت بمطر كأفواه القرب . قال مالك : فتعرّضت له ، وقلت له : يا أسود، أما تستحيى مما قلت ؟! قال : وما قلت ؟ قلت : قولك بحبك لى ، وما يدريك أنه يحبك ؟ قال : تنح عنى يا من اشتغل عنه بنفسه ، أفتراه بدأنى بذلك إلا لمحبته إياى ، ثم قال : محبته لى على قدره ، ومحبتى له على قدرى ، فقلت له : يرحمك الله ! ارفق قليلا ، فقال : إنى مملوك ، وعلىّ فرضٌ من طاعة مالكى الصغير . قال : فانصرف ، وجعلنا نقفو أثره على البعد ، حتى دخل دار نخاس[1] ، فلما أصبحنا أتينا النخاس فقلت : يرحمك الله ! عندك غلام تبيعه لنا للخدمة؟ قال : نعم عندى مائة غلام للبيع ، فجعل يعرض علينا غلاما بعد غلام ، حتى عرض علينا سبعين غلاما ، فلم ألق حبيبى فيهم ، فقال : عودا إلىّ فى غير هذا الوقت ، فلما أردنا الخروج من عنده دخلنا حجرة خَرِبة خلف داره وإذا بالأسود قائم يصلى ، فقلت : حبيبى ورب الكعبة فجئت إلى النخاس ، فقلت له : بعنى هذا الغلام ، فقال : يا أبا يحيى هذا غلام ليست له همة فى الليل ، إلا البكاء ، وفى النهار إلا الخلوة والوحدة ، فقلت له : لابد من أخذه منك ، ولك الثمن ، وما عليك منه ، فدعاه فجاءه وهو يتناعس ، فقال : خذه بما شئت ، بعد أن تبرئنى من عيوبه كلها فاشتريته منه بعشرين دينارًا وقلت له : ما اسمك ؟ قال: ميمون ، فأخذت بيده أريد المنزل ، فالتفت إلىّ ، وقال : يا مولاى الصغير ، لماذا اشتريتنى وأنا لا أصلح لخدمة المخلوقين ؟! فقلت له : والله يا سيدى إنما اشتريتك لأخدمك بنفسى ، قال : ولم ذلك ؟ فقلت : ألست صاحبنا البارحة بالمصلى ؟! قال : وقد اطلعت على ذلك ؟! قلت : نعم . وأنا الذى عارضتك البارحة فى الكلام بالمصلى . قال : بلى فجعل يمشى حتى أتى إلى مسجد فاستأذننى ، ودخل المسجد ، فصلى فيه ركعتين خفيفتين ، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال : إلهى وسيدى ومولاى سر كان بيني وبينك ، أطلعتَ عليه غيرَك ، فكيف يطيب الآن عيشى ؟! أقسمت عليك بك ، إلا ما قبضتنى إليك الساعة ثم سجد فانتظرته ساعة فلم يرفع رأسه ، فجئت إليه ، وحركته ، فإذا هو قد مات - رحمة الله تعالى عليه - قال : فمددت يديه ورجليه ، فإذا هو ضاحك مستبشر ، وقد غلب البياض على السواد ، وجهه كالقمر ليلة البدر ، وإذا شابٌّ قد دخل من الباب وقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أعظم الله أجورنا وأجوركم فى أخينا ميمون ، هاكم الكفن ، فناولنى ثوبين ما رأيت مثلهما قط ، فغسلناه ، وكفناه فيهما ودفناه .

(وحكى) عن حذيفة المرعشى ﷺ وكان قد خدم إبراهيم الخوّاص ﷺ وصحبه مدة فقيل له : ما أعجبُ ما رأيت منه ؟! فقال : بقينا فى طريق مكة أياما لم نأكل طعاما ، فدخلنا الكوفة ، فأوينا إلى مسجد خَرِب ، فنظر إلىّ إبراهيم وقال : يا حذيفة ، أرى بك أثر الجوع ؛ فقلت هو كما ترى ، فقال: علىّ بدواة وقرطاس فأحضرتهما إليه ، فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، أنت المقصود بكل حال ، والمشار إليه بكل معنى ثم قال :

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر ... أنا جائع أنا ضائع أنا عارى
هى ستة وأنا الضمين لنصفها ... فكُنِ الضَّمين لنصفها يا بارى
مرحى لغيرك لهب نار خضتها ... فأجى عبيدَك من لهيب النار

قال حذيفة : ثم دفع إلىّ الرقعة ، وقال : اخرج بها ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى ، وادفعها إلى أوّل من يلقاك ، قال : فخرجت فأوّل من لقينى رجل على بغلة ، فناولته الرقعة فأخذها فقرأها وبكى ، وقال : ما فعل بصاحب هذه الرقعة ؟ قلت : هو فى المسجد الفلانى ، فدفع إلىّ صرة فيها ستمائة درهم ، فأخذتها ، ومضيت فوجدت رجلا ،

---

(١) النخاس: بتشديد النون والخاء مع فتحهما: بائع الدّواب والرقيق.

فسألته : من هذا الراكب على البغلة ؟ فقال : هو رجل نصرانى ، قال : فجئت إبراهيم ، وأخبرته بالقصة فقال : لا تمس الدراهم ، فإنّ صاحبها يأتى الساعة ، فلما كان بعد ساعة أقبل النصرانى راكبا على بغلته ، فترجل على باب المسجد ، ودخل فأكب على إبراهيم يقبل رأسه ، ويديه ، ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . قال : فبكى إبراهيم الخوّاص فرحا به وسرورًا وقال : الحمد لله الذى هداك للإسلام ، وشريعة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام .

(وحكى) أبو إسحاق الصُّعلوكى قال : خرجت سنة إلى الحج ، فبينما أنا فى البادية تائه ، وقد جُنّ الليل ، وكانت ليلة مقمرة إذ سمعت صوت شخص ضَعيف يقول : يا أبا إسحق، قد انتظرتك من الغداة ، فدنوت منه ، فإذا هو شاب نحيف الجسم ، وقد أشرف على الموت ، وحوله رياحين كثيرة ، منها ما أعرف ، ومنها ما لا أعرف ؛ فقلت له : من أنت ؟ ومن أين أنت ؟ قال : من مدينة شمشاط . كنت فى عزة ورفعة فطالبتنى نفسى بالغربة والعزلة ، فخرجت ، وقد أشرفت الآن على الموت ، فدعوت - الله تعالى - أن يقيض لى وليا من أوليائه ، وأرجو أن تكون أنت هو ، فقلت : ألك حاجة ؟ قال : نعم ، لى والدة وإخوة وأخوات فقلت : هل اشتقت إليهم قط ؟ قال : لا، إلا اليوم اشتقت أن أشم ريحهم ، فهممت أريدهم ، فاحتوشتنى[١] السباع والهوام وبكين معى ، وحملوا إلى هذه الرياحين التى تراها . قال أبو إسحق : فبينما أنا معه ، يرق له قلبى ، وإذا بحية عظيمة فى فمها باقة نرجس كبيرة ، فقالت : دع ولىّ الله تعالى ، فإنّ الله يغار على أوليائه ؛ قال : فغشى عليه ، وغشى علىّ ، فما أفقت إلا وهو قد خرجت روحه - رحمه الله - . قال : فدخلت مدينة شمشاط بعدما حججت ، فاستقبلتنى امرأة بيدها ركوة[٢] ، ما رأيت أشبه بالشاب منها ، فلما رأتنى نادت يا أبا إسحاق ؛ ما شأن الشاب الغريب الذى مات غريبا ، فإنى منتظرتك منذ كذا وكذا ، فذكرت لها القصة إلى أن قلت لها : أشم ريحهم ، فصاحت أوّاه أوّاه ، قد بلغ والله الشم ، ثم شهقت شهقة خرجت روحها ، فخرج إليها بنات أتراب عليهنّ مرقعات ومروط ، فكفلن أمرها ، وتولين دفنها ، وهنّ مستترات رضوان الله على الجميع :

يا نسيما هَبَّ من وادى قبا ... خبّرنى كيف حال الغربا ؟!
كم سألت الدهر أن يجمعنا ... مثل ما كنا عليه فأبى !!

(وحكى) أن رجلا كان يعرف بدينار العيار ، وكان له والدة صالحة تعظه ، وهو لا يتعظ فمرّ فى بعض الأيام بمقبرة فأخذ منها عظما ، فتفتت فى يده ، ففكر فى نفسه وقال : ويحك يا دينار كأنى بك وقد صار عظمك هكذا رفاتا ، والجسم ترابا ، فندم على تفريطه ، وعزم على التوبة ، ورفع رأسه إلى السماء ، وقال : إلهى وسيدى ، ألقيت إليك مقاليد أمرى ، فاقبلنى وارحمنى ، ثم أقبل نحو أمه متغير اللون ، منكسر القلب ، فقال: يا أماه ، ما يُصْنَعُ بالعبد[٣] الآبق إذا أخذه سيده ؟ قالت : يخشن ملبسه ، ومطعمه ، ويغل يديه وقدميه ، فقال : أريد جبة من صوف ، وأقراصًا من شعير ، وغُلّين[٤] ، وافعلى بى كما يُفعل بالعبد الآبق ، لعل مولاى يرى ذُلى فيرحمنى ، ففعلت به ما أراد ، فكان إذا جنّ عليه الليل أخذ فى البكاء والعويل ، ويقول لنفسه : ويحك يا دينار ؛ ألك قوّة على النار ؟! كيف تعرّضت لغضب الجبار ؟! ولا يزال كذلك إلى الصباح ، فقالت له أمه : يا بنى ارفق بنفسك فقال : دعينى أتعب قليلا لعلى أستريح طويلا ، يا أماه، إن لى غدا موقفا طويلا بين يدى رب جليل ، ولا أدرى أيؤمر بى إلى ظل ظليل ، أو إلى شر مقيل ؟! قالت : يا بنى خذ لنفسك راحة قال : لست للراحة أطلب ، كأنك يا أماه غدا بالخلائق يساقون إلى الجنة ، وأنا أساق إلى النار مع أهلها ، فتركته وما هو عليه فأخذ فى البكاء والعبادة ، وقراءة القرآن ، فقرأ فى بعض الليالى : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣] . ففكر فيها ، وجعل يبكى ، حتى غشى عليه ، فجاءت أمه إليه ، فنادته ، فلم يجبها ، فقالت له : يا حبيبى وقرة عينى ، أين الملتقى ؟ فقال بصوت

---

(١) احتوشتني: اختوش الشيء، أي أحاطه.

(٢) ركوة: بكسر الراء وسكون الكاف: إناء صغير من جلد يُشرب فيه الماء، والدَّلْو الصغير.

(٣) الآبق: الهارب.

(٤) غُلّين: مثنى الغُلّ، وهو طوق من حديد يجعل في عنق الأسير أو المجرم أو في أيديهما.

ضعيف : يا أماه إن لم تجديني في عرصات[١] القيامة ، فاسألي مالكا خازن النار عني ، ثم شهق شهقة فمات - رحمه الله تعالى - فغسلته أمه ، وجهزته ، وخرجت تنادي : أيها الناس ، هلموا إلى الصلاة على قتيل النار ، فجاء الناس من كل جانب فلم ير أكثر جمعا ، ولا أغزر دمعًا من ذلك اليوم ؛ فلما دفنوه نام بعض أصدقائه تلك الليلة ، فرآه يتبختر في الجنة ، وعليه حلة خضراء ، وهو يقرأ الآية : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ويقول : وعزته وجلاله سألني ، ورحمني ، وغفر لي ، وتجاوز عني ، ألا أخبروا عني والدتي بذلك .

(وحكى) عن الحسن البصري قال : نزل سائل بمسجد قال : فسأل الناس أن يطعموه كسرة ، فلم يطعموه ، فقال الله - تعالى - لملك الموت : اقبض روحه فإنه جائع ، فقبض روحه ، فلما جاء المؤذن رآه ميتا ، فأخبر الناس بذلك فتعاونوا على دفنه ، فلما دخل المؤذن المسجد ، وجد الكفن في المحراب مكتوبا عليه ، هذا الكفن مردود عليكم ، بئس القوم أنتم استطعمكم فقير ، فلم تُطعموه حتى مات جوعا ، من كان من أحبابنا لا نكله إلى غيرنا .

(وحَكَى) أبو على المصرى قال : كان لى جار شيخ ، يغسل الموتى ؛ فقلت له يوما : حدثنى بأعجب ما رأيت من الموتى ! فقال : جاءنى شاب فى بعض الأيام مليح الوجه ، حسن الثياب ، فقال لى : أتغسل لنا هذا الميت ؟! قلت : نعم . فتبعته حتى أوقفنى على باب ، فدخل هنيهة ، فإذا بجارية هى أشبه الناس بالشاب قد خرجت ، وهى تمسح عينيها ، فقالت : أنت الغاسل ؟ قلت : نعم . قالت : باسم الله ادخل ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، فدخلت الدار . وإذا أنا بالشاب الذى جاءنى يعالج سكرات الموت ، وروحه فى لبته[٢] ، وقد شخص بصره ، وقد وضع كفنه وحنوطه عند رأسه ، فلم أجلس إليه حتى قبض ، فقلت : سبحان الله ! هذا ولى من أولياء الله تعالى ، حيث عرف وقت وفاته ، فأخذت فى غسله : وأنا أرتعد ، فلما أدرجته أتت الجارية وهى أخته فقبلته ، وقالت : أما إنى سألحق بك عن قريب ، فلما أردت الانصراف شكرت لى ، وقالت : أرسل إلىّ زوجتك إن كانت تحسن ما تحسنه أنت ، فارتعدت من كلامها ، وعلمت أنها لاحقة به ، فلما فرغت من دفنه ، جئت أهلى فقصصت عليها القصة وأتيت بها إلى تلك الجارية ، فوقفت بالباب ، واستأذنت فقالت : باسم الله تدخل زوجتك ، فدخلت زوجتى ، وإذا بالجارية مستقبلة القبلة ، وقد ماتت ، فغسلتها زوجتى وأنزلتها على أخيها رحمة الله عليهما :

أأحبابنا بنتم عن الدار فاشتكت ... لبعدكم آصالُها وضُحاها
وفارقتمُ الدارَ الأنيسةَ فاستوت ... رسوم مبانيها وفاح كَلاها
كأنكم يوم الفراق رحلتم ... بنومى فعينى لا تُصيب كَراها
وكنتُ شحيحا من دموعى بقطرة ... فقد صرتُ سمحا بعدكم بدِماها
يرانى بسّاما خليلى يظنّ بى ... سرورا وأحشاىَ السقامُ ملاها
وكم ضحكة فى القلب منها حرارة ... يشب لظاها لو كشفتَ غِطاها
رعى الله أيامًا بطيب حديثكم ... تقضت وحيّاها الحيا وسقاها
فما قلت : إيهًا بعدها لمسامر ... من الناس إلا قال قلبى : آها[٣]

(وحكى) سرى السقطى - رحمه الله تعالى - قال : أرقت ليلة ، ولم أقدر على النوم ، فلما طلع الفجر صليت ، فلما أصبحت دخلت المارستان فإذا أنا بجارية مقيدة مغلولة ، وهى تقول :

تُغلّ يدى إلى عُنُقى ... وما خانت وما سَرَقَتْ !
وبين جوانحى كبد ... أجِسُّ بها قد احترقَتْ !

قال : فقلت للقيم : ما هذه الجارية ؟ قال : هذه جارية اختل عقلها ، فحبست لعلها تصلح فلما سمعت كلامه تبسمت وقالت :

---

(١) عرصات : العَرْصة هي ساحة الدار، أو قرص من الطين المحروق، أو صفيحة من الحديد تثبت في التنور لينضج عليها الخبز وغيرها.
(٢) لبته : اللَّبّة : موضع القلادة من العنق، والقلادة نفسها، والجمع لبّات، ولِبَاب.
(٣) إيهًا : كلمة تعجب، وآهًا : كلمة توجع.

معشر الناس ما جننت ولكن ... أنا سكرانة وقلبى صاحى
لم غللتم يدى ؟ ولم آت ذنبا ... غير هتكى فى حبه وافتضاحى !
أنا مفتونة بحب حبيب ... لست أبغى عن بابه من براح[١]
ما علَى من أحب مولى الموالى ... وارتضاه لنفسه من جناح !

قال : فلما سمعت كلامها ، بكيت بكاء شديدا ، فقالت : يا سرى هذا بكاؤك من الصفة ، فكيف لو عرفته حق المعرفة ؟ قال : فبينما هى تكلمنى ، إذ جاء سيدها ، فلما رآنى عظمنى ، فقلت : والله هى أحق منى بالتعظيم ، فلم فعلت بها هذا ؟ قال : لتقصيرها فى الخدمة ، وكثرة بكائها ، وشدة حنينها ، وأنينها ، كأنها ثكلى لا تنام ، ولا تدعنا ننام ، وقد اشتريتها بعشرين ألف درهم لصناعتها فإنها مطربة ، قلت : فما كان بدء أمرها ؟ قال : كان العود فى حجرها يوما فجعلت تقول :

وحَقِّك لا نقضتُ الدهر عهدًا ... ولا كدّرتُ بعدَ الصَّفْو ودّا
ملأتَ جوانحى والقلبَ وَجْدًا ... فكيف أقرّ ياسكنى وأهدا ؟!
فيا من ليس لى مولًى سواه ... تراك رضيتنى بالباب عبدا !!

فقلت لسيدها : أطلقها ، وعلىّ ثمنها ، فصاح : وافقراه : من أين لك عشرون ألفا يا سرى ؟! فقلت : لا تعجل علىّ ، فقال : تكون فى المارستان[٢] حتى توفينى ثمنها ، فقلت : نعم . قال سرى : فانصرفت ، وعينى تدمع ، وقلبى يخشع ، وأنا والله ما عندى درهم من ثمنها ، فبت طول ليلتى أتضرع إلى الله تعالى ، فإذا بطارق يطرق الباب ، ففتحت ، فدخل على رجل ومعه ستة من الخدم ، ومعهم خمس بِدَر ، فقال : أتعرفنى يا سرى ؟ قلت : لا . قال : أنا أحمد بن المثنى ، كنت نائما فهتف بى هاتف ، وقال لى : يا أحمد ، هل لك فى معاملتنا ؟ فقلت : ومَنْ أَوْلى منى بذلك ؟ فقال : احمل إلى سرى السقطى خمسِ بِدَر من أجل الجارية الفلانية ، فإن لنا بها عناية ، قال سرى : فسجدت لله شكرا ، وجلست أتوقع طلوع الفجر ، فلما طلع صلينا ، وذكرنا وانصرفنا ، نحوها فسمعناها تقول :

قد تصبرت إلى أن ... عِيلَ من حُبِّكَ صَبْرى
ضاق من غُلى وقيدى ... وامتهانى مِنك صَدْرى
ليس يخفى عنك أمرى ... يامُنَى قلبى وذُخرى
أنت قد تعتق رِقى ... وتَفُكّ اليومَ أسرِى !

قال سرى فبينما أنا أسمعها ، وإذا بمولاها قد جاء وهو يبكى ، فقلت : لا بأس عليك ، قد جئناك برأس مالك . وربح عشرة آلاف درهم ! فقال : والله لا فعلت ذلك ! قلت : نزيدك . قال : والله لو أعطيتنى ما بين الخافقين[٣] ما فعلت ، وهى حرّة لوجه الله تعالى ، قال : فتعجبت من ذلك ، وقلت : ما كان هذا كلامك بالأمس ، فقال : حبيبى لا توبخنى ، فالذى وقع لى من التوبيخ كفانى ، وأشهدك أنى قد خرجت من جميع مالى صدقة فى سبيل الله تعالى ، وأنى هاربٌ إلى الله تعالى ، فبالله لا تردّنى عن صحبتك ، فقلت : نعم . ثم التفت فرأيت صاحب المال يبكى ، فقلت : ما يبكيك ؟ قال : يا أستاذى ما قبلنى مولاى لما ندبنى إليه ، وردّ علىّ ما بذلت ، أشهدك أنى قد خرجت من جميع ما أملكه تعالى فى سبيل الله ، وكل عبد أملكه وجارية أحرار لوجه الله تعالى ، قال سرى : فقلت : ما أعظم بركتك يا جارية . قال : فنزعنا الغُل من عنقها ، والقيد من رجلها ، وأخرجناها من المارستان فنزعت ما كان عليها من ناعم الثياب ، ولبست خمارا من صوف ، ومدرعة[٤] من شعر ، وولت ! قال سرى : فتوجهت أنا ومولاها وصاحب المال إلى مكة ، فبينما نحن نطوف إذ سمعنا صوتا فتبعناه فإذا هى امرأة كالخيال ، فلما رأتنى قالت : السلام عليك يا سرىّ ؛ فقلت لها : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، مَنْ أنتِ ؟ فقالت : لا إله إلا الله وقع الشك بعد المعرفة فتأملتها فإذا هى الجارية ، فقلت لها : ما الذى أفادك الحق بعد انفرادك عن الخلق ؟ فقالت: أنسى به ووحشتى من

---

(١) أي من زوال.
(٢) المارستان: المصحّة، أو المستشفى.
(٣) أي ما بين المشرق والمغرب.
(٤) المِدْرعة: الدُّرّاعة، وهي ثوب من صوف.

غيره ، ثم توجهت إلى البيت وقالت : إلهى كم تخلفنى فى دار لا أرى فيها أنيسًا قد طال شوقى إليك ، فعجل قدومى عليك ، ثم شهقت شهقة وخرّت ميتة- رحمة الله تعالى عليها - فلما نظر إليها مولاها بكى وجعل يدعو ، ويضعف كلامه إلى أن خرّ إلى جانبها ميتا رحمة الله عليه ، فدفناهما في قبر واحد :

بحرمة ما قد كان بينى وبينكم ... من الودّ إلا ما رجعتم إلى وُصْلى
ولا تحرمونى نظرة من جمالكم ... فلن تجدوا عبدًا ذليلا لكم مثلى
فوالله ما يَهْوَىٰ فؤادى سواكم ... ولو رشقوه بالأسنة والنَّبْل

(وحكى) أنه كان فى زمن بنى إسرائيل رجل من العباد الموصوفين بالزهد ، وكان قد سَخّرَ الله له سحابة تسير معه حيث يسير ، فاعتراه فتور فى بعض الأيام فأزال الله عنه سحابته ، وحجب إجابته ، فكثر لذلك حزنهُ وشجونُه ، وطال كمده وأنينُه ، وما زال يشتاق إلى زمن الكرامة ، ويبكى ويتأسف ، ويتحسر ، ويتلهف ؛ فقام ليلة من الليالى فصلى ما شاء الله وبكى ، وتضرع ، ودعا الله تعالى ، ونام، فقيل له فى المنام : إذا أردت أن يردّ الله تعالى عليك سحابتك ، فائت الملك الفلانى فى بلد كذا ، واسأله أن يدعوَ الله لك أن يردّ عليك سحابتك ، قال: فسار الرجل يقطع الأرض حتى وصل إلى تلك البلد التى ذكرت له فى المنام ، فدخلها ، وسأل من يرشده إلى قصر الملك ، فجاء إلى القصر ، وإذا عند بابه غلام جالس على كرسى عظيم من الذهب الأحمر ، مرصع بالدر والجوهر ، والناس بين يديه يسألونه حوائجهم . وهو يصرف الناس ، فوقف الرجل الصالح بين يديه وسلم عليه ، فقال له الغلام : من أين أنت ؟ وما حاجتك ؟ فقال : من بلاد بعيدة ، وقصدى الاجتماع بالملك ، فقال له الغلام : لا سبيل لك إليه اليوم : فسَلْ حاجتك أقضها لك إن استطعت ، فقال : إن حاجتى لا يقضيها إلا الملك ، فقال الغلام : إن الملك ليس له إلا يوم واحد فى الجمعة ، يجتمع إليه الناس فيه ، فاذهب حتى يأتى ذلك اليوم ، فانصرف الرجل إلى مسجد داثر ، وأقام لِعبد الله تعالى فيه ، وأنكر على الملك لاحتجابه عن الناس ، فلما كان ذلك اليوم الذى يجلس فيه الملك جاء إلى القصر ، فوجد خلقا كثيرا عند الباب ينتظرون الإذن ، فوقف مع جملة الناس ، فلما خرج الوزير أذن للناس فى الدخول ، فدخل أرباب الحوائج . ودخل صاحب السحابة معهم ، وإذا بالملك جالس ، وبين يديه أرباب دولته على قدر مراتبهم ، فجعل رأس النوبة [١] يقدّم الناس واحدا بعد واحد ، حتى وصلت النوبة لصاحب السحابة ، فلما نظر إليه الملك قال : مرحبا بصاحب السحابة اجلس حتى أفرغ من حوائج الناس ، وأنظر فى أمرك ، قال : فتحير صاحب السحابة فى أمره فلما فرغ الملك من حوائج الناس ، قام من مجلسه فأخذ بيد صاحب السحابة وأدخله معه إلى قصره ، ثم مشى به فى دهليز القصر ، فلم يجد فى طريقه إلا مملوكا واحدا فسار به حتى انتهى إلى باب من جريد ، وإذا به بناء مهدوم وحيطان مائلة ، وبيت خرب فيه برش [٢] ، وليس هناك ما يساوى عشرة دراهم إلا سجادة خلقة ، وقدح للوضوء ، وحصير رثة ، وشىء من الخوص ، فانخلع الملك من ثياب الملك ، ولبس مرقعة من صوف وجعل على رأسه قلنسوة من شعر ، ثم جلس ، وأجلس صاحب السحابة ، ونادى يا فلانة ، قالت : لبيك . قال : أتدرين من هو الليلة ضيفنا ؟ قالت : نعم . هو صاحب السحابة ، فدعا بها لحاجة ، فخرجتْ فإذا هى امرأة كالشن [٣] البالى عليها مِسَحٌ من شعر خشن ، وهى شابة صغيرة ، قال الرجل : فالتفت إلىّ الملك وقال : يا أخى نطلعك على حالنا ، أو نقضى حاجتك وتنصرف ، فقلت : والله لقد شغلنى حالكما عما جئت بسببه ، فقال الملك : الله يعلم أنه كان لى فى هذا الأمر آباء كرام صالحون ، يتوارثون المملكة كابرًا عن كابر ، فلما توفوا إلى رحمة الله تعالى ، ووصل الأمر إلىّ بغض الله إلىّ الدنيا وأهلها ، فأردت أن أسيح فى الأرض ، وأترك الناس ينظرون لهم من يسوس أمرهم ، فُيمَلّكونه عليهم ، فخفت عليهم دخول الفتنة ، وتضييع الدين والشرائع ، وتبديد شمل الدين ، فبايعونى وأنا والله كاره ، فتركت أمورهم على ما كانت عليه ، وجعلت السماط [٤] على عادته ، والحرّاس على حالها والمماليك على دأبها ، ولم أغير شيئًا ، وأقعدتُ

---

(١) النوبة: بتشديد النون المفتوحة وسكون الواو، أي الجماعة من الناس.

(٢) البرش: بضم الباء وسكون الراء: حصير صغير من سعف النخل يُجلس عليه.

(٣) أي العجوز.

(٤) السِّماط: الصَّف، ويقال: هم على سِماط واحد، أي نظم واحد.

المماليك على الأبواب بالسلاح إرهابًا لأهل الشرور ، وردعا عن أهل الخير ، وتركت القصر مزينا على حاله ، وفتحت له بابا ، وهو الذى رأيته يوصلنى إلى هذه الخربة ، فأدخل فيها وأنزع ثياب الملك وألبس هذا ، وأضفر الخوص ، وأبيعه ، وأتقوّت من ثمنه أنا وزوجتى هذه التى رأيتها ، وهى ابنة عمى زهدت فى الدنيا كزهدى ، واجتهدت حتى صارت كالشن البالى ، والناس لا يعلمون ما نحن فيه ، ثم إنى أقمت لى نائبا ينوب عنى طول الجمعة ، وعلمت أنى مسئول فجعلت لى يوما فى الجمعة أبرز للناس فيه ، وأكشف عن مظالمهم كما رأيت وأنا على هذه الحالة مدة فأقم عندنا يرحمك الله ، حتى نبيع خويصاتنا ، نبتاع من ثمنها طعاما ، وتفطر معنا ، وتبيت عندنا الليلة ، ثم تنصرف بحاجتك إن شاء الله تعالى ، فلما كان آخر النهار دخل علينا غلام خماسى العمر ، فأخذ ما عملاه من خوص ، وسار به إلى السوق فباعه ، واشترى من ثمنه خبزا وفولا ، واشترى بباقى ثمنه خوصا ، فلما كان عند الغروب أفطرا ، وأفطرت معهما وبت عندهما قال : فقاما فى نصف الليل يصليان ويبكيان ، فلما كان عند السحر ، قال الملك ، اللهم إن عبدك هذا يطلب منك ردّ سحابته ، وإنك قد دللته علينا ، اللهم اردها عليه ، إنك على كل شىء قدير ، والمرأة تؤمّن على دعائه ، وإذا بالسحابة قد طلعت من قبل السماء ، فقال لى : لك البشارة بقضاء حاجتك ، وتعجيل إجابتك قال : فودّعتهما وانصرفت ، والسحابة معى كما كانت فأنا بعد ذلك لا أسأل الله تعالى بسرهما شيئا إلا أعطانى إياه رحمة الله تعالى عليهما :

استعمل الصّبْرَ تجنى بعده العسلا ... ولازم الْبَابَ حتى تبلُغ الأملا
ومرّغ الخدّ فى أعتابه سحرًا ... واحمل لمرضاته فى الحب كلّ بلا[1]
فما يفوز بوصل يا أخىّ سوى ... صلب لثقل الهوى والوجد قد حملا
هذا الحبيب ينادى فى الدجى سحرًا ... فانهض وكن رجلا بالسعى قد وصلا

(وحكى) عن مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - قال ، خرجت إلى مكة حاجا ، فبينما أنا سائر إذ رأيت شابا ساكتا لا يذكر الله تعالى ، فلما جَنّ الليل رفع وجهه نحو السماء ، وقال : يا من لا تَسُرّه الطاعات ، ولا تضره المعاصى ، هب لى مالا يَسُرّك ، واغفر لى مالا يضرك ، ثم رأيته بذى الحليفة ، وقد لبس إحرامه والناس يلبون ، وهو لا يلبى ، فقلت : هذا جاهل ؟ فدنوت منه ، فقلت له : يا فتى ، قال : لبيك . قلت : لم لا تلبى ، فقال : يا شيخ ، وما تغنى التلبية ؟ وقد بارزته بذنوب سالفات ، وجرائم مكتوبات ، والله إنى لأخشى أن أقول : لبيك ، فيقول : لا لبيك ولا سعديك ، لا أسمع كلامك ، ولا أنظر إليك ، فقلت له ، لا تقل ؛ فإنه حليم إذا غضب رضى ، وإذا رضى لم يغضب ، وإذا وعد وَفّى ومَتَى توعد عفا ، فقال : يا شيخ أتشير علىّ بالتلبية ، قلت : نعم . فبادر إلى الأرض ، واضطجع ووضع خده على التراب ، وأخذ حجرا فوضعه على خده الآخر ، وأسبل دموعه وقال : لبيك اللهم لبيك ، قد خضعت لك ، وهذا مصرعى بين يديك ، فأقام كذلك ساعة ثم مضى فما رأيته إلا بمنى ، وهو يقول : اللهم إن الناس قد ذبحوا ونحروا وتقربوا إليك ، وليس لى شىء أتقرب به إليك سوى نفسى ، فتقبلها منى ، ثم شهق شهقة ، وخر ميتا رحمة الله تعالى عليه .

(وحكى) أنه كان بمدينة بغداد رجل ، يُعرف بأبى عبد الله الأندلسى ، وكان شيخا لكل من بالعراق ، وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ وكان يقرأ القرآن بجميع الروايات ، فخرج فى بعض السنين إلى السياحة ، ومعه جماعة من أصحابه مثل الجنيد والشبلى وغيرهما من مشايخ العراق ، قال الشبلى فلم نزل فى خدمته ، ونحن مكرمون بعناية الله تعالى ، إلى أن وصلنا إلى قرية من قرى الكفار ، فطلبنا ماء نتوضأ به ، فلم نجد فجعلنا ندور بتلك القرية ، وإذا نحن بكنائس وبها شمامسة وقساقسة ، ورهبان ، وهم يعبدون الأصنام والصلبان ، فتعجبنا منهم ، ومن قلة عقلهم ، ثم انصرفنا إلى بئر فى آخر القرية ، وإذا نحن بجوارٍ يستقين الماء على البئر ، وبينهن جارية حسنة الوجه ، ما فيهن أحسن ولا أجمل منها ، وفى عنقها قلائد الذهب ، فلما رآها الشيخ تغير وجهه ، وقال : هذه ابنة من ؟ فقيل له هذه ابنة ملك هذه القرية ، فقال الشيخ فلم لا يدللها أبوها ويكرمها ولا يدعها تستقى الماء ؟! فقيل له : أبوها يفعل

---

(١) كل بلا : كل بلاء .

ذلك بها حتى إذا تزوّجها رجل أكرمته ، وخدمته ، ولا تعجبها نفسها فجلس الشيخ ونكس رأسه ، ثم أقام ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب ، ولا يكلم أحدا غير أنه يؤدّى الفريضة ، والمشايخ واقفون بين يديه ، ولا يدرون ما يصنعون ، قال الشبلى : فتقدّمتُ إليه وقلت له : يا سيدى إن أصحابك ومريديك يتعجبون من سكوتك ثلاثة أيام ! وأنت ساكت لم تكلم أحدًا ؟! قال : فأقبل علينا ، وقال : يا قوم ، اعلموا أن الجارية التى رأيتها بالأمس قد شغفت بها حبًا واشتغل قلبى بها ، وما بقيت أقدر أفارق هذه الأرض . قال الشبلى : فقلت له : يا سيدى أنت شيخ أهل العراق ، ومعروف بالزهد فى سائر الآفاق ، وعدد مريديك اثنا عشر ألفا فلا تفضحنا وإياهم بحرمة الكتاب العزيز ، فقال : يا قوم جرى القلم بما حكم ، ووقعت فى بحار العدم ، وقد انحلت عنى عُرَى الولاية ، وطويت عنى أعلام الهداية ، ثم إنه بكى بكاءً شديدا ، وقال : يا قوم : انصرفوا فقد نفذ القضاء والقدر ، فتعجبنا من أمره ، وسألنا الله تعالى أن يجيرنا من مكره ، ثم بكينا وبكى حتى أروى التراب ، ثم انصرفنا عنه راجعين إلى بغداد ، فخرج الناس إلى لقائه ، ومريدوه فى جملة الناس ، فلم يروه فسألوا عنه ، فعرّفناهم بما جرى ، فمات من مريديه جماعة كثيرة حزنا عليه ، وأسفا ، وجعل الناس يبكون ويتضرعون إلى الله تعالى أن يرده عليهم ، وغلقت الرباطات والزوايا والخوانق[(١)] ، ولحق الناس حزن عظيم فأقمنا سنة كاملة ، وخرجت مع بعض أصحابى لا تكشف خبره ، فأتينا القرية فسألنا عن الشيخ ، فقيل لنا : إنه فى البرية يرعى الخنازير ، قلنا : وما السبب فى ذلك ؟ قالوا : إنه خطب الجارية من أبيها فأبى أن يزوّجها إلا ممن هو على دينها ، ويلبس العباءة ، ويشدّ الزنار[(٢)] ، ويخدم الكنائس ، ويرعى الخنازير ، ففعل ذلك كله وها هو فى البرية يرعى الخنازير ! قال الشبلى : فانصدعت قلوبنا ، وانهملت بالبكاء عيوننا ، وسرنا إليه ، وإذا به قائم قدام الخنازير ، فلما رآنا نكس رأسه ، وإذا عليه قلنسوة النصارى ، وفى وسطه زنار ، وهو متوكئ على العصا التى كان يتوكأ عليها إذا قام إلى المحراب ، فسلمنا عليه فردّ علينا السلام ، فقلنا : يا شيخ ، ماذاك ؟ وماذا ؟ وما هذه الكروب والهموم بعد تلك الأحاديث والعلوم ؟ فقال : يا إخوانى وأحبابى ، ليس لى من الأمر شىء ، سيدى تصرف فى كيف شاء ، وحيث أراد ، أبعدنى عن بابه ، بعد أن كنت من جملة أحبابه ، فالحذرَ الحذرَ يا أهْلَ وداده ! من صده وإبعاده ، والحذر الحذر يأهل المودّة والصفاء من القطيعة والجفاء ! ثم رفع طرفه إلى السماء وقال : يا مولاى ما كان ظنى فيك هذا ! ثم جعل يستغيث ويبكى ، ونادى يا شبلى اتعظ بغيرك ، فنادى الشبلى بأعلى صوته بك المستعان ، وأنت المستغاث ، وعليك التكلان ، اكشف عنا هذه الغمة بحلمك ، فقد دهمنا أمر لا كاشف له غيرك ، قال : فلما سمعت الخنازير بكاءهم وضجيجهم أقبلت إليهم ، وجعلت تمرّغ وجوهها بين أيديهم ، وزعقت زعقة واحدة دويت منها الجبال ! قال الشبلى : فظننت أنّ القيامة قد قامت ، ثم إن الشيخ بكى بكاء شديدا ، قال الشبلى : فقلنا له : هل لك أن ترجع معنا إلى بغداد ؟ فقال : كيف لى بذلك وقد استرعيت الخنازير بعد أن كنت أرعى القلوب ؟! فقلت : يا شيخ كنت تحفظ القرآن وتقرؤه بالسبع ، فهل بقيت تحفظ منه شيئًا ؟! فقال : نسيته كله إلا آيتين ، فقلت ، وما هما ؟ قال : قوله تعالى : ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج:١٨] والثانية قوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة:١٠٨] فقلت : يا شيخ ، كنت تحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ فهل تحفظ منها شيئًا ؟! قال حديثا واحدًا وهو قوله ﷺ « مَنْ بَدَّل دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ »[(٣)] . قال الشبلى فتركناه وانصرفنا ، ونحن متعجبون من أمره ، فسرنا ثلاثة أيام ، وإذا نحن به أمامنا قد تطهر من نهر ، وطلع وهو يشهد شهادة الحق ، ويجدّد إسلامه ، فلما رأيناه لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور فنظر إلينا وقال : يا قوم أعطونى ثوبا طاهرا فأعطيناه ثوبا فلبسه ، ثم صلى وجلس ، فقلنا له : الحمدُ الذى ردّك علينا ، وجمع شملنا بك ، فصف لنا ما جرى لك وكيف كان أمرك ؟ فقال : يا قوم ، لما وليتم من عندى سألته بالوداد القديم ، وقلت له : يا مولاى أنا المذنب الجانى ، فعفا عنى بجوده وبستره غطانى فقلنا له : بالله نسألك هل كان لمحنتك من سبب ؟ قال : نعم لما وردنا القرية ، وجعلتم تدورون حول الكنائس ، قلت فى نفسى : ما قدر هؤلاء عندى وأنا مؤمن موحد ؟! فنوديت فى سرى ليس هذا منك ولو شئت

---

(١) الخوانق: الخانق هو الشِّعْب الضيّق بين جبلين، أو الزُّقاق (لغة يمانية).

(٢) الزنار: بتشديد الزاي المضمومة وتشديد النون المفتوحة هو حزام يشدُّه النصراني على وسطه والجمع زنانير.

(٣) «من بدل دينه.. إلخ» أخرجه أحمد [١/ ٢١٧].

عرّفناك ، ثم أحسست بطائر قد خرج من قلبى ، فكان ذلك الطائر هو الإيمان . قال الشبلى : ففرحنا به فرحا شديدا ، وكان يوم دخولنا يوما عظيما مشهودا ، وفتحت الزوايا ، والرباطات ، والخوانق ، ونزل الخليفة للقاء الشيخ ، وأرسل إليه الهدايا ، وصار يجتمع عنده لسماع علمه أربعون ألفا ، وأقام على ذلك زمانا طويلا ، ورد الله عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث ، وزاده على ذلك ، فبينما نحن جلوس عنده فى بعض الأيام بعد صلاة الصبح ، وإذا نحن بطارق يطرق باب الزاوية ، فنظرت من الباب فإذا شخص ملتف بكساء أسود ، فقلت له : ما الذى تريد ؟ فقال : قل لشيخكم : إنّ الجارية الرومية التى تركها بالقرية الفلانية قد جاءت لخدمتك : قال : فدخلت فعرفت الشيخ ، فاصفرّ لونه ، وارتعد ، ثم أمر بدخولها ، فلما دخلت عليه بكت بكاء شديدا : فقال لها الشيخ : كيف كان مجيئك ؟ ومن أوصلك إلى هٰهنا ؟ قالت : يا سيدى لما وليت من قريتنا ، جاءنى من أخبرنى بك ، فبت ولم يأخذنى قرار ، فرأيت فى منامى شخصا وهو يقول : إن أحببت أن تكونى من المؤمنات ، فاتركى ما أنت عليه من عبادة الأصنام ، واتبعى ذلك الشيخ ، وادخلى فى دينه ، فقلت وما دينه ، قال : دين الإسلام . قلت : وما هو ؟ قال شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمدًا رسول الله ، فقلت : كيف لى بالوصول إليه ؟ قال : أغمضى عينيك وأعطينى يدك ، ففعلت فمشى قليلا ، ثم قال : افتحى عينيك ففتحتهما ، فإذا أنا بشاطئ الدجلة ، فقال : امضى إلى تلك الزاوية ، وأقرئى الشيخ منى السلام ، وقولى له : إنّ أخاك الخَضِر يسلم عليك ، قال : فأدخلها الشيخ إلى جواره ، وقال : تعبدى هاهنا فكانت أعبدَ أهل زمانها ، تصوم النهار ، وتقوم الليل ، حتى نحل جسمها ، وتغير لونها فمرضت مرض الموت ، وأشرفت على الوفاة ، ومع ذلك لم يرها الشيخ ، فقالت . قولوا للشيخ يدخل علىّ قبل الموت ، فلما بلغ الشيخ ذلك دخل عليها ، فلما رأته بكت ، فقال لها : لا تبكى ، فإنّ اجتماعنا غدا فى القيامة ، فى دار الكرامة ، ثم انتقلت إلى رحمة الله تعالى ، فلم يلبث الشيخ بعدها إلا أياما قلائل ، حتى مات - رحمة الله تعالى عليه - قال الشبلى : فرأيته فى المنام ، وقد تزوّج بسبعين حوراء وأوّل ما تزوج بالجارية ، وهما مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثانى والثلاثون

فى ذكر الأشرار والفُجّار وما يرتكبون من الفواحش، والوقاحة والسفاهة

عن النواس بن سمعان ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال : « **قَبْلَ قِيامِ السَّاعَةِ يُرْسِلُ اللّٰهُ رِيحًا بارِدَةً طَيِّبَةً ، فَتَقْبِضُ روحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ ، ويَبْقَى شِرارُ الْخَلْقِ ، يَتَهارَجُونَ تَهارُجَ الْحَمِيرِ ، وَعَلَيْهِم تَقُومُ السَّاعَةُ** » [(١)] .

وقال مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - كفى بالمرء شرّا أن لا يكون صالحا ، ويقع فى الصالحين . وقال لقمان لابنه : يا بُنىَّ كذب من قال : الشرُّ يُطفىء الشرَّ فإن كان صادقًا فليُوقد نارين ، ثم ينظر هل تُطفىء إحداهما الأخرى ؟! وإنما يطفىء الشرَّ الخيرُ كما يطفىء الماءُ النارَ . ووصف بعضهم رجلاً من أهل الشر ، فقال : فلان عُرِّىَ من حُلّةِ التقوى ، ومُحِىَ عنه طابع الهدى لا تثنيه يد المراقبة ، ولا تكفه خيفة المحاسبة ، وهو لدعائم دينه مضيع ، ولدواعى شيطانه مطيع :

كأنه التيس قد أودى به هَرَمُ ... فلا لحمٌ ولا صوفٌ ولا ثَمَرُ

---

(١) «قبل قيام الساعة.. إلخ». أخرجه الإمام أحمد ومسلم والترمذي. يتهارجون: يتقاتلون.

وقيل : من فعل ما شاء لقى ما ساء ، وقيل : زنى رجل بجارية ، فأحبلها ، فقالوا له : يا عدو الله ، هلا إذا ابتليت بفاحشة عزلت ؟ قال : قد بلغنى أنّ العزل مكروه ! قالوا : فما بلغك أنّ الزنا حرام ؟! وقيل لأعرابي كان يتعشق[١] قينة : ما يضرك لو اشتريتها ببعض ما تنفق عليها؟ قال: فمن لي إذا ذاك بلذة الخلسة، ولقاء المسارقة، وانتظار الموعد؟! وقال أبو العيناء : رأيت جارية مع النخاس[٢] ، وهى تحلف أن لا ترجع لمولاها ، فسألتها عن ذلك ، فقالت : يا سيدى إنه يواقعنى من قيام ، ويصلى من قعود ، ويشتمنى بإعراب ، ويلحن فى القرآن ، ويصوم الخميس والاثنين ، ويفطر رمضان ، ويصلى الضحى ، ويترك الفرض ! فقلت : لا أكثر الله فى المسلمين مثله ! وكانت ظُلمة القوّادة ، وهى صغيرة فى المكتب تسرق دوايات الصبيان وأقلامهم ، فلما شبت زنت ، فلما كبرت قادت . وقال صاحب المسالك والممالك : إن عامة ملوك الهند يرون الزنا مباحًا خلا ملك قمار . وقال الزمخشرى - رحمه الله - أقمت بقمار سنين ، فلما أر ملكا أغير منه ، وكان يعاقب على الزنا ، وشرب الخمر بالقتل ، وقمار ينسب إليها العود القمارى ، كما ينسب إلى مندل ، قال مسكين الدارمى :

ولا ذنب للعود القمارىّ أنه ... يحرق إن نَمَّتْ عليه روائحه

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : عهدت الناس وهواهم تبع لأديانهم ، وإن الناس اليوم أديانهم تبع لأهوائهم . وقال رسول الله ﷺ : « بِحَسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ »[٣] .

❁ ما جاء فى الوقاحة والسفاهة وذكر الغوغاء:

قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ »[٤] وفى ذلك قيل :

إذا لم تَصُن عِرضا ولم تَخش خالقا ... وتستح مخلوقا فما شئت فاصنع

وقال ابن سلام : العاقل شجاع القلب ، والأحمق شجاع الوجه . وذم رجل قومًا فقال : وجوههم وأيديهم حديد أى : وقاح بخلاء . ووصف رجل وقحًا فقال : لو دق الحجارة بوجهه لرضها ، ولو خلا بأستار الكعبة لسرقها قال الشاعر :

لو أن لى من جلد وجهك رقعةً ... لجعلت منها حافرًا للأشهب[٥]

وقال آخر :

إذا رزق الفتى وجها وقاحًا ... تقلب فى الأمور كما يشاء

وقال أنو شيروان : أربعة قبائح وهى فى أربعة أقبح : البخل فى الملوك ؛ والكذب فى القضاء ، والحسد فى العلماء ، والوقاحة فى النساء . ويقال من جسر أيسر ، ومن هاب خاب . وقال الشاعر :

لا تكونن فى الأمور هيوبا ... فإلى خيبة يصيرُ الهيوبُ

وقال على رضي الله عنه : إذا هبت أمرا فقع فيه ، فإن شر توقيه أعظم مما تخاف منه . وقال رضي الله عنه : الغوغاء إذا اجتمعوا ضروا وإذا افترقوا نفعوا ؛ فقيل قد علمنا مضرة اجتماعهم ، فما منفعة افتراقهم ؟! قال : يرجع أهل المهن إلى مهنهم ، فينتفع الناس بهم ، كرجوع البنّاء إلى بنائه ، والنساج إلى منسجه ، والخباز إلى مخبزه . وقال بعض السلف : لا تسبوا الغوغاء فإنهم يطفئون الحريق ، ويخرجون الغريق . وقال الأحنف : ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا . وقال حكيم : لا يخرجنّ أحد من بيته إلا وقد أخذ فى حجره قيراطين من جهل ، فإن الجاهل لا يدفعه إلى الجهل إلا إرادة السفه قال الشاعر :

ألا لا يجهلنَّ أحدٌ علينا ... فنجهلَ فوق جَهل الجاهلين

---

(١) قينة: جارية/ مغنية.

(٢) النخاس: بائع الرقيق.

(٣) «بحسب امرئ.. إلخ» أخرجه مسلم [٢٥٦٤]. عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) البخاري في الأدب المفرد. وقد سبق تخريجه.

(٥) المقصود بالأشهب: حيوان خالط بياض شعره سواد.

وقيل : الجاهل من لا جاهل له أى من لا سفيه له يدفع عنه . وقيل : بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ جالس إذ جاء أعرابى فلطمه ، فقام إليه واقد بن عمر ، فجلد به الأرض ، فقال عمر : ليس بعزيز من ليس فى قومه سفيه ، وقال الشاعر :

ولا يلبثُ الجهالُ أن يتهضموا[1] أخا الحلم مالم يستعن بجهول

وقال صالح بن جناح[2]:

إذا كنتَ بين الجهلِ والحلم قاعدا وخيرت أنّى شئتَ فالحلم أفضلُ
ولكن إذا أنصفت من ليس منصفا ولم يرض منك الحلم فالجهل أمثلُ

وقال الأحنف بن قيس :

وذى ضغن أبتَ القول عنه بحلم فاستمر على المقالِ
ومن يحلم وليس له سفيه يلاقى المعضلاتِ من الرجال

وقال آخر :

فإن كنت محتاجا إلى الحلم إننى إلى الجهل فى بعض الأحايين أحوج
ولى فرس للخير بالخير ملجم ولى فرس للشر بالشر مُسْرَج
فمن رام تقويمى فإنى مقوّم ومن رام تعويجى فإنى معوج

وقال آخر :

فإن قيل : حلم قلت : للحلم موضع وحلم الفتى فى غير موضعه جهل !

اللهم إنا نعوذ بك أن نجهل أو يُجهل علينا برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثالث والثلاثون

فى الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق ، واصطناع المعروف وذكر الأمجاد ، وأحاديث الأجواد

اعلم أن الجود بذل المال : وأنفعه ما صرف فى وجه استحقاقه ، وقد ندب الله تعالى إليه فى قوله تعالى : ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢] قيل : إن الجود والسخاء ، والإيثار بمعنى واحد ، وقيل : من أعطى البعض ، وأمسك البعض ، فهو صاحب سخاء ، ومن بذل الأكثر فهو صاحب جود ، ومن آثر غيره بالحاضر ، وبقى هو فى مقاساة الضرر ، فهو صاحب إيثار .

وأصل السخاء هو السماحة ، وقد يكون المعطى بخيلا إذا صعب عليه البذل ، والممسك سخيا إذا كان لا يستصعب العطاء(فمن الإيثار ما حكى) : عن حُذيفة العدوى أنه قال : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى فى القتلى ، ومعى شىء من الماء ، وأنا أقول : إن كان به رمق سقيته ، فإذا أنا به بين القتلى ، فقلت له : أسقيك ، فأشار إلىّ أن نعم ، فإذا برجل يقول ، آه فأشار إلىّ ابن عمى أن انطلق إليه واسقه فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت : أسقيك .

---

(١) يتهضَّموا: يقال هضم فلانًا، أي ظلمه وغصبه. وتهضَّم فلان لفلانٍ، أي انقاد له، وتهضم نفسه له: رضي منه بدون النَّصَفة.

(٢) ارجع إلى كتابنا «المروءة الغائبة» تجد الكثير عنه.

فأشار إلىّ أن نعم ، فسمع آخر يقول : آه ، فأشار إلى أن انطلق إليه فجئته ، فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات فرجعت إلى ابن عمى ، فإذا هو قد مات !! (ومن عجائب ما ذكر فى الإيثار) : ما حكاه أبو محمد الأزدى قال : لما احترق المسجد بمرْو ظن المسلمون أن النصارى أحرقوه ، فأحرقوا خاناتهم ، فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات ، وكتب رقاعا [١] فيها القطْع ، والجلد ، والقتل ونثرها عليهم ، فمن وقع عليه رقعة فعل به ما فيها فوقعت رقعة فيها القتل ، بيد رجل ، فقال : والله ما كنت أبالى لولا أم لى وكان بجنبه بعض الفتيان فقال له : فى رقعتى الجلد ، وليس لى أم ، فخذ أنت رقعتى ، وأعطنى رقعتك ففعل ، فقتل ذلك الفتى ، وتخلص هذا الرجل . وقيل لقيس بن سعد : هل رأيت قط أسخى منك ؟ قال : نعم نزلنا بالبادية على امرأة ، فجاء زوجها ، فقالت له : إنه نزل بنا ضيفان ، فجاء بناقة فنحرها ، وقال : شأنكم ، فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها ، وقال : شأنكم ، فقلنا ، ما أكلنا من التى نحرت البارحة إلا القليل ، فقال : إنى لا أطعم ضيفانى البائت ، فبقينا عنده أياما والسماء تمطر ، وهو يفعل كذلك ، فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا : قفوا أيها الركب اللئام ، أعطيتمونا ثمن قرانا ، ثم إنه لحقنا وقال : خذوها وإلا طعنتكم برمحى هذا ، فأخذناها وانصرفنا . وقال بعض الحكماء : أصل المحاسن كلها الكرم ، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام ، وسخاؤها بما تملك على الخاص والعام ، وجميع خصال الخير من فروعه ، وقال رسول الله ﷺ : « **تجاوزوا عن ذنب السخى ؛ فإن الله آخذ بيده كلما عثر ، وفاتح له كلما افتقر** » [٢] . وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال : « مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ ، فَقَالَ : لَا » [٣] . وعنه ﷺ أنه قال : « **السَّخِىُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ ، وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ ، بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ ، وَالْجَاهِلُ سَخِىٌّ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَابِدٍ بَخِيلٍ** » [٤] . وقال بعض السلف : منع الموجود سوء ظنّ بالمعبود ، وتلا قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩] . وقال الفضيل : ما كانوا يعدّون القرض معروفا ، وقال أكثم بن صيفى : صاحب المعروف لا يقع ، وإن وقع وجد له متكأ . وقيل للحسن بن سهل : لا خير فى السرف ؛ فقال لا سرف فى الخير ، فقلب اللفظ واستوفى المعنى ، وَوُجد مكتوبًا على حجر : انتهز الفرص عند إمكانها ، ولا تحمل نفسك همَّ ما لم يأتك ، واعلم أن تقتيرك على نفسك ، توفير لخزانة غيرك ، فكم من جامع لبعل حليلته ! وقال على ﷺ ما جمعت من المال فوق قوتك ، فإنما أنت فيه خازن لغيرك ، وقال النعمان بن المنذر يوما لجلسائه : من أفضل الناس عيشا ، وأنعمهم بالًا ، وأكرمهم طباعا ، وأجلهم فى النفوس قدرًا ؟! فسكت القوم ، فقام فتى ، فقال : أبيت اللعن أفضلُ الناس من عاش الناس فى فضله ، فقال : صدقت . وكان أسماء بن خارجة يقول : ما أحب أن أردّ أحدا عن حاجة لأنه إن كان كريما أصون عرضه ، أو لئيما أصون عنه عرضى .

وكان مورق العجلى يتلطف فى إدخال السرور والرفق على إخوانه فيضع عند أحدهم البدرة [٥] . يقول له : أمسكها حتى أعود إليك ، ثم يرسل يقول له : أنت منها فى حِلّ [٦] . وقال الحسن ﷺ باع طلحة بن عثمان ﷺ أرضا بسبعمائة ألف درهم ، فلما جاءه المال قال : إن رجلا يبيت هذا عنده لا يدرى ما يطرقه لغرير [٧] بالله تعالى ، ثم قسمه فى المسلمين . ولما دخل المنكدر على عائشة رضي الله عنها قال لها : يا أم المؤمنين ، أصابتنى فاقة [٨] ، فقالت ماعندى شىء ، فلو كان عندى عشرة آلاف درهم لبعثت بها إليك ، فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف درهم من عند خالد بن أسيد ، فأرسلت بها إليه فى أثره ، فأخذها ودخل بها السوق ، فاشترى جارية بألف درهم ، فولدت له ثلاثة أولاد ، فكانوا عُبّاد المدينة وهم : محمد ، وأبو بكر ، وعمر بنو المنكدر ، وأكرم العرب فى الإسلام : طلحة بن

---

(١) رِقَاعًا: جمع رقعة، وهي القطعة من الورق أو ما يكتب فيه؛ والمراد بالقطع: حد السرقة، وهو قطع اليد.

(٢) ضعيف: أخرجه الأصبهاني في الترغيب [١٥٥٢] والبيهقي [١٠٨٦٧- الشعب] من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

(٣) أخرجه البُخاري [٦٠٣٤]، ومسلم [٢٣١١].

(٤) السخي.. إلخ. أخرجه الترمذي [١٩٦١] وانظر كتاب البخلاء للخطيب، تحقيقي.

(٥) البدرة: «بفتح الباء» قدر من المال في صرة.

(٦) أي: هي حلال لك وعليك.

(٧) غرير بالله: يجهله، ويغفل عن كرمه، ويقال: ما غرك بكذا؟! أي: ما جرأك عليه؟!

(٨) فاقة: فقر.

عبيد الله ﷺ جاء إليه رجل فسأله برحم بينه وبينه ، فقال : هذا حائطى بمكان كذا وكذا ، وقد أعطيتُ فيه مائة ألف درهم يراح إلى بالمال العشية ، فإن شئت فالمال ! وإن شئت فالحائط[١] . وقال زياد بن جرير : رأيت طلحة بن عبيد الله فرّق مائة ألف فى مجلس ، وإنه ليخيط إزاره بيده . وذَكر الإمام أبو على القالى فى كتاب الأمالى : أنّ رجلا جاء إلى معاوية ﷺ فقال له : سألتك بالرحم[٢] . التى بينى وبينك إلا ما قضيت حاجتى ، فقال له معاوية أمن قريش أنت ؟ قال : لا . قال : فأى رحم بينى وبينك ؟! قال رحم آدم عليه السلام ! قال : رَحم مجفوّة[٣] ، والله لأكونن أوّل من وصلها ، ثم قضى حاجته ، (وروى) أنّ الأشعث بن قيس أرسل إلى عدى بن حاتم يستعير منه قدورًا[٤] كانت لأبيه حاتم ، فملأها مالا ، وبعث بها إليه ، وقال : إنا لا نعيرها فارغة ، وكان الأستاذ أبو سهل الصُّعلوكى من الأجواد لم يناول أحدا شيئًا ، وإنما كان يطرحه فى الأرض ، فيتناوله الآخذ من الأرض ، وكان يقول : الدنيا أقل خطرا[٥] من أن ترى من أجلها يد فوق أخرى .

وقد قال النبى ﷺ : « **اليدُ العُلْيا خيرٌ منَ اليدِ السُّفلى** »[٦] . وسأل معاوية الحسن بن على ﷺ عن الكرم فقال : هو التبرع بالمعروف قبل السؤال ، والرأفة بالسائل مع البذل . وقدم رجل من قريش من سفر ، فمرّ على رجل من الأعراب على قارعة الطريق ، قد أقعده الدهر ، وأضرّبه المرض فقال له : يا هذا أعنا على الدهر ؟ فقال لغلامه : ما بقى معك من النفقة فادفعه إليه ، فصب فى حجره أربعة آلاف درهم ، فهم ليقوم فلم يقدر من الضعف ، فبكى ، فقال له الرجل . ما يبكيك لعلك استقللت ما دفعناه إليك ؟ فقال : لا والله ، ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك ، فأبكانى . وقال بعضهم : قصد رجل إلى صديق له فدقّ عليه الباب ، فخرج إليه ، وسأله عن حاجته ، فقال : عَلَىَّ دين كذا وكذا ، فدخل الدار ، وأخرج إليه ما كان عليه ، ثم دخل الدار باكيًا فقالت له زوجته : هلا تعللّت[٧] . حيث شَقَّت عليك الإجابة ؟! فقال : إنما أبكى لأنى لم أتفقّد حاله حتى احتاج إلى أن سألنى ! ويروى أنّ عبد الله بن أبى بكر - وكان من أجود الأجواد - عطش يوما فى طريقه ، فاستسقى من منزل امرأة فأخرجت له كوزا ، وقامت خلف الباب ، وقالت تنحوا عن الباب ، وليأخذه بعض غلمانكم فإنى امرأة عَزَب مات زوجى منذ أيام ، فشرب عبد الله الماء ، وقال : يا غلام ، احمل إليها عشرة آلاف درهم ، فقالت : سبحان الله ! أتسخر بى ؟! فقال : يا غلام احمل إليها عشرين ألفا ! فقالت أسأل الله العافية ، فقال : يا غلام احمل إليها ثلاثين ألفا ؛ فما أمسَتْ حتى كثر خطابها !! وكان ﷺ ينفق على أربعين دارا من جيرانه عن يمينه ، وأربعين عن يساره ، وأربعين أمامه ، وأربعين خلفه ، ويبعث إليهم بالأضاحى والكسوة فى الأعياد ، ويعتق فى كل عيد مائة مملوك ﷺ .

ولما مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ إخوانه فى العيادة[٨] ، فسّأل عنهم ، فقيل له . إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين ، فقال : أخزى الله مالا يمنع عنى الإخوان من الزيارة ، ثم أمر مناديا ينادى : من كان لقيس عنده مال فهو منه فى حِلّ ، فكسرت عتبة بابه بالعَشِىّ[٩] . لكثرة العوّاد . وكان عبد الله بن جعفر من الجود بالمكان المشهود ! وله فيه أخبار يكاد سامعها ينكرها لبعدها عن المعهود ، وكان معاوية يعطيه ألف ألف درهم فى كل سنة ، فيفرّقها فى الناس ، ولا يرى إلا وعليه دين . وسمن رجل بهيمة ثم خرج بها ليبيعها ، فمرّ بعبد الله بن جعفر ﷺ فقال : يا صاحب البهيمة ، أتبيعها ؟ قال : لا . ولكنها هى لك هبة ، ثم تركها له وانصرف إلى بيته ، فلم يلبث إلا يسيرا وإذا بالحمالين على بابه عشرين نفرا عشرة منهم يحملون حنطة ، وخمسة لحما وكسوة ، وأربعة يحملون فاكهة ونقلا[١٠] ، وواحد يحمل مالا ، فأعطاه جميع ذلك ، واعتذر إليه ﷺ . ولما مات معاوية ﷺ وفد عبد الله بن جعفر على يزيد ابنه

---

(١) الحائط : البُستان، والجمع حيطان، وحوائط .

(٢) الرحم : صلة القربى .

(٣) مجفوّة : مقطوعة غير موصولة .

(٤) قدورًا : جمع قدر . آنية الطبخ وحفظ الطعام .

(٥) خطرًا : شأنًا، وأهمية .

(٦) مسلم في فضل الصدقة ٢/ ١٠٣٣ .

(٧) تعلّلت : اعتذرتَ بعلة يقبلها السائل .

(٨) العيادة : زيارة المريض .

(٩) العَشِيّ : آخر النهار .

(١٠) النقل : بتشديد النون المضمومة وسكون القاف، هو ما يُتنقّل به على الشراب من فواكه وغيرها، وما يُتفكّه به من جوز ولوز وبندق ونحوها، وأكثر ما يكون ذلك في ليالي رمضان .

فقال : كم كان أمير المؤمنين معاوية يعطيك ؟ فقال : كان - رحمه الله - يعطينى ألف ألف ، فقال يزيد ، قد زدناك لترحمك عليه ألف ألف ، فقال بأبى وأمى أنت فقال : ولهذه ألف ألف ، فقال : أما إنى لا أقولها لأحد بعدك ، فقيل ليزيد : أعطيت هذا المال كله من مال المسلمين لرجل واحد ، فقال والله ما أعطيته إلا لجميع أهل المدينة ، ثم وكل به يزيد من صحبه ، وهو لا يعلم ، لينظر ما يفعل ، فلما وصل المدينة ، فرّق جميع المال ، حتى احتاج بعد شهر إلى الدين ، وخرج ﷺ هو والحسنان ، وأبو دحية الأنصارى ﷺ من مكة إلى المدينة ، فأصابتهم السماء بمطر فلجئوا إلى خباء أعرابى ، فأقاموا عنده ثلاثة أيام ، حتى سكنت السماء ، فذبح لهم الأعرابى شاة ، فلما ارتحلوا ، قال عبد الله للأعرابى : إن قدمت المدينة ، فسل عنا ، فاحتاج الأعرابى بعد سنين ، فقالت له امرأته : لو أتيت المدينة ، فلقيت أولئك الفتيان ، فقال : قد نسيت أسماءهم ، فقالت : سل عن ابن الطيار ، فأتى المدينة فلقى سيدنا الحسن ﷺ فأمر له بمائة ناقة بفحولها ورعاتها ، ثم أتى الحسين ﷺ فقال : كفانا أبو محمد مؤنة الإبل ، فأمر له بألف شاة ، ثم أتى عبد الله بن جعفر ﷺ فقال : كفانى إخوانى الإبل والشياه فأمر له بمائة ألف درهم ، ثم أتى أبا دحية ﷺ فقال : والله ما عندى مثل ما أعطوك ولكن ائتنى بإبلك فأوقرها[١] لك تمرا ؛ فلم يزل اليسار فى عقب الأعرابى من ذلك اليوم .

وقال الحسن والحسين يوما لعبد الله بن جعفر ﷺ إنك قد أسرفت فى بذل المال . فقال : بأبى أنتما إن الله - عز وجل - عوّدنى أن يتفضل علىّ وعوّدته أن أتفضل على عباده ، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عنى المادّة . وامتدحه نُصَيْب ، فأمر له بخيل وأثاث ودنانير ودراهم ، فقال له رجل : مثل هذا الأسود تعطى له هذا المال ؟ فقال : إن كان أسود فإنّ ثناءه أبيض ، ولقد استحق بما قال أكثر مما نال ، وهل أعطيناه إلا ثيابًا تبلى ، ومالاً يفنى ؟! وأعطانا مدحًا يُروى ، وثناءً يبقى .

وخرج عبد الله ﷺ يوما إلى ضيعة له ، فنزل على حائط به نخيل لقوم ، وفيه غلام أسود يقوم عليه ، فأتى بقوته ثلاثة أقراص ، فدخل كلب ، فدنا من الغلام ، فرمى إليه بقرص فأكله ، ثم رمى إليه بالثانى والثالث فأكلهما ، وعبد الله ينظر إليه ، فقال : يا غلام كم قوتك كل يوم ، قال : ما رأيت . قال : فلم آثرت هذا الكلب ؟ قال : أرضنا ما هى بأرض كلاب ، وإنه جاء من مسافة بعيدة جائعًا ، فكرهت أن أردّه . قال : فما أنت صانع اليوم ؟ قال : أطوى يومى هذا ، فقال عبد الله بن جعفر ، ألام على السخاء وإن هذا لأسخى منى ؟! فاشترى الحائط وما فيه من النخيل والآلات ، واشترى الغلام ، ثم أعتقه ، ووهبه الحائط بما فيه من النخيل والآلات ، فقال الغلام : إن كان ذلك لى فهو فى سبيل الله تعالى ، فاستعظم عبد الله ذلك منه . فقال : يجود هذا ، وأبخل أنا لا كان ذلك أبدا ! وكان عبد الله بن عباس ﷺ من الأجواد أتاه رجل - وهو بفناء داره - فقام بين يديه وقال : يا بن عباس ، إن لى عندك يدا ، وقد احتجت إليها فصعد فيه بصرة فلم يعرفه ، فقال : ما يدك ؟ قال : رأيتك واقفا بفناء زمزم ، وغلامك يمتح[٢] لك من مائها ، والشمس قد صهرتك ، فظللتك بفضل كسائى حتى شربت ، فقال : أجل إنى لأذكرك ذلك ، ثم قال لغلامه : ما عندك ؟ قال : مائتا دينار وعشرة آلاف درهم ، فقال : ادفعها إليه ، وما أراها تفى بحق يده . وقدم عبد الله بن عباس ﷺ على معاوية مرة فأهدى إليه من هدايا النُّوروز[٣] حُللًا كثيرة ، ومسكا وآنية من ذهب وفضة ، ووجهها إليه مع حاجبه ، فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب . وهو ينظر إليها فقال له : هل فى نفسك منها شىء ؟ قال : نعم والله إن فى نفسى منها ما كان فى نفس يعقوب من يوسف ﷺ فضحك عبد الله ، وقال : خذها فهى لك ، قال : جعلت فداءك أخاف أن يبلغ ذلك معاوية ، فيحقد على ، قال : فاختمها بخاتمك وسلمها إلى الخازن فإذا كان وقت خروجنا حملناها إليك ليلا ، فقال الحاجب : والله لهذه الحيلة فى الكرم أكثر من الكرم .

وحبس معاوية عن الحسين بن على ﷺ صِلاتِه ، فقيل له : لو وجهت إلى ابن عمك عبد الله بن عباس فإنه قدم بنحو ألف ألف . فقال الحسين : وأنى تقع ألف ألف من عبد الله ؟! فوالله لهو أجود من الريح إذا عصفت ، وأسخى

---

(١) أوْقر فلانٌ الدابّة إيقارًا: حمَّلها حِمْلًا ثقيلًا.

(٢) يمْتح: يقال: متح الدَّلْو، أي جذبَ رِشاءها. ومتح الماءَ: نزعه واستخرجه.

(٣) النوروز: أو النيروز : يوم من أيام السنة الشمسية الإيرانية ويوافق الحادي والعشرين من شهر مارس من السنة الميلادية، وهو أكبر الأعياد عند الفرس.

من البحر إذا زخر ، ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية صِلاتِه عنه ، وضيق حاله ، وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم ، فلما قرأ عبد الله كتابه انهملت عيناه ، وقال : ويلك يا معاوية أصبحت لين المهاد ، رفيع العماد ، والحسين يشكو ضيق الحال ، وكثرة العيال . ثم قال لوكيله : احمل إلى الحسين نصف ما أملكه من ذهب وفضة ودواب وأخبره أنى شاطرته فإن كفاه وإلا احمل إليه النصف الثانى ، فلما أتاه الرسول قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ثقلت والله على ابن عمى ، وما حسبت أنه يسمح لنا بهذا كله ﷺ .

وجاء رجل من الأنصار إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فقال له : يا بن عمّ محمد ﷺ ، إنه ولد لى فى هذه الليلة مولود ، وإنى سميته باسمك تبركًا بك ، وإن أمه ماتت ، فقال له : بارك الله لك فى الهبة ، وآجرك على المصيبة ، ثم دعا بوكيله وقال له : انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضه ، وادفع لأبيه مائتى دينار لينفقها على تربيته ، ثم قال للأنصارى : عد إلينا بعد أيام ، فإنك جئتنا وفى العيش يبس ، وفى المال قلة ، فقال الأنصارى : جُعلتُ فداءك لو سبقت حاتِمًا بيوم ما ذكرته العرب . وقال أبو جهم بن حذيفة يوما لمعاوية : أنت عندنا يا أمير المؤمنين كما قال ابن عبد كلال :

يقينا ما نخاف وإن ظننا ... به خيرا أراناه يقينا
نميل على جوانبه كأنا ... إذا ملنا نميل على أبينا
نقلبه لنخبر حالتيه ... فنخبر منهما كرمًا ولينا

فأمر له بمائة ألف درهم . وأنشده عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما :

بلوتُ الناس قرنا بعد قرن ... فلم أر غير ختال وقالِ[1]
ولم أر فى الخطوب أشدَّ وقعًا ... وأمضى من مُعاداةِ الرجال
وذقت مرارة الأشياء طُرًا[2] ... فما شىء أمرَّ من السؤالِ !

فأعطاه مائة ألف درهم .

ودخل عليه الحسن يوما وهو مضطجع على سريره ، فسلم عليه وأقعده عند رجليه ، وقال له : ألا تعجب من قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تزعم أنى لست للخلافة أهلا ، ولا لها موضعا ؟! فقال الحسن : أو عجبا مما قالت ؟! قال : كل العجب . قال الحسن : وأعجب من هذا كله جلوسى عند رجليك ، فاستحيا معاوية ، واستوى جالسا ، ثم قال : أقسمت عليك يا أبا محمد إلا ما أخبرتنى : كم عليك دينا ؟! قال مائة ألف درهم ، فقال : يا غلام ، أعط أبا محمد ثلاثمائة ألف درهم ، مائة ألف يقضى بها دينه ، ومائة ألف يفرّقها على مواليه ، ومائة ألف يستعين بها على نوائبه وسوّغها إليه الساعة . وكان معن بن زائدة من الأجواد ، وكان عاملا على العراق بالبصرة ، قيل إنه أتى إليه بعض الشعراء ، فأقام ببابه مدّة يريد الدخول عليه فلم يتهيأ له ذلك ، فقال يوما لبعض الخدم ، إذا دخل الأمير البستان فعرّفنى ، فلما دخل أعلمه بذلك فكتب الشاعر بيتا ، ونقشه على خشبة ، وألقاها فى الماء الذى يدخل البستان ، وكان معن جالسا على القناة ، فلما رأى الخشبة أخذها وقرأها فإذا فيها بيت مفرد :

أيا جودَ مَعْنٍ ناج معنًا بحاجتى ... فليس إلى مَعْنٍ سواك شَفِيعُ

فقال : من الرجلُ صاحب هذه ؟ فأتى به إليه ، فقال : كيف قلت ؟ فأنشده البيت ، فأمر له بعشر بِدَر فأخذها وانصرف ، ووضع معن الخشبة تحت بساطه ، فلما كان فى اليوم الثانى أخرجها من تحت البساط ، ونظر فيها وقال : علىّ بالرجل صاحب هذه ، فأتى به ، فقال له : كيف قلت ؟ فأنشده البيت ، فأمر له بعشر بدر ، فأخذها وانصرف ، ووضع معن الخشبة تحت بساطه فلما كان اليوم الثالث أخرجها ونظر فيها وقال علىّ بالرجل صاحب هذه ، فأتى به إليه فقال له : كيف قلت ؟ فأنشده البيت ، فأمر له بعشر بدر فأخذها ، وتفكر فى نفسه ، وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه

---

(١) ختال : مكار خدّاع ، وقال : كاره وجاحد .

(٢) الطُّرُّ : الطَّرَف ، والجانب والناحية ، والجماعة .

فخرج من البلد بما معه ، فلما كان فى اليوم الرابع طلب الرجل فلم يجده فقال معن : لقد ساء والله ظنه ، ولقد هممت أن أعطيه حتى لا يبقى فى بيت مالى درهم ولا دينار وفيه يقول القائل :

يقولون معن لا زكاة لماله ... وكيف يزكى المال من هو باذله
إذا حال حولٌ لم تجد فى دياره ... من المال إلا ذكره وجمائله
تراه إذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذى أنت نائله[1]
تعوّد بسط الكف حتى لو أنه ... أراد انقباضا لم تطعه أنامله
فلو لم يكن فى كفه غير نفسه ... لجاد بها فليتق الله سائله

ومن قول معن :

دعينى أنهب الأموال حتى ... أعف الأكرمين عن اللئام

وكان يزيد بن المهلب من الأجواد الأسخياء ، وله أخبار فى الجود عجيبة ، من ذلك ما حكاه عقيل بن أبى طالب قال : لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلى واسط أتيته فقلت : أيها الأمير ، إن رأيت أن تأذن لى فأصحبك ؟ قال : إذا قدمت واسطا فائتنا - إن شاء الله تعالى - فسافر ، وأقمت فقال لى بعض إخوانى : اذهب إليه فقلت : كان جوابه فيه ضعف . قالوا : أتريد من يزيد جوابا أكثر مما قال ؟ قال فسرت حتى قدمت عليه ، فلما كان فى الليل دعيت إلى السمر فتحدّث القوم حتى ذكروا الجوارى فالتفت إلىّ يزيد وقال : إيه يا عقيل فقلت :

أفاض القوم فى ذكر الجوارى ... فأما الأعزبون فلن يقولوا

قال : إنك لم تبقَ عزبا ، فلما رجعت إلى منزلى إذا أنا بخادم قد أتانى ، ومعه جارية وفرش بيت وبدرة عشرة آلاف درهم ، وفى الليلة الثانية كذلك فمكثت عشر ليال ، وأنا على هذه الحالة ؛ فلما رأيت ذلك دخلت عليه فى اليوم العاشر فقلت : أيها الأمير قد والله أغنيت وأقنيت[2] . فإن رأيت أن تأذن لى فى الرجوع ، فأكبت عدوى[3] ، وأسر صديقى ، فقال : إنما أخيرك بين خلتين : إما أن تقيم فنُوليك أو ترحل فنغنيك ؛ فقلت : أو لم تغننى أيها الأمير ؟! قال : إنما هذا أثاث المنزل ، ومُصلحة القدوم ، فنالنى من فضله مالا أقدر على وصفه .

وحدث أبو اليقظان عن أبيه قال : حَجّ يزيد بن المهلب ، فطلب حلّاقًا يحلق رأسه فجاءوه بحلاق ، فحلق رأسه ، فأمر له بخمسة آلاف درهم ، فتحير الحلاق ودهش ، وقال : آخذ هذه الخمسة الآلاف ، وأمضى إلى أم فلان أخبرها أنى قد استغنيت ، فقال : أعطوه خمسة آلاف أخرى ، فقال : امرأتي طالق إن حلقت رأس أحد بعدك .

وقيل : إن الحجاج حبسه على خراج وجب عليه مقداره مائة ألف درهم ، فجمعت له وهو فى السجن ، فجاءه الفرزدق يزوره ، فقال للحاجب : استأذن لى عليه فقال : إنه فى مكان لا يمكن الدخول عليه فيه ، فقال : الفرزدق : إنما أتيت متوجعا لما هو فيه ، ولم آت ممتدحا فأذن له ، فلما أبصره قال :

أبا خالد ضاقت خراسان بعدكم ... وقال ذوو الحاجات : أين يزيد ؟
فما قطرت بالشرق بعدك قطرة ... ولا اخضرّ بالمروين بعدك عود
وما لسرور بعد عزك بهجة ... وما لجواد بعد جودك جود

فقال يزيد للحاجب : ادفع إليه المائة ألف درهم التى جمعت لنا ، ودع الحجاج ولحمى يفعل فيه ما يشاء . فقال الحاجب للفرزدق : هذا الذى خفت منه لما منعتك من دخولك عليه ، ثم دفعها إليه ، فأخذها وانصرف ، ومرّ يزيد بن المهلب عند خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز ﷺ بعجوز أعرابية فذبحت له عنزا ، فقال لابنه : ما معك من النفقة ؟ قال : مائة دينار قال : ادفعها إليها ، فقال : هذه يرضيها اليسير ، وهى لا تعرفك . قال إن كان يرضيها اليسير ، فأنا لا أرضى إلا بالكثير ،

---

(١) في الرواية المحفوظة «الذي أنت سائله».
(٢) أقنيت: أرضيت.
(٣) كبت فلانٌ فلانًا: أذلّه وأخزاه، وكبت الله العدوّ: ردّه بغيظه، قال تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٧].

وإن كانت لا تعرفنى فأنا أعرف نفسى . وقال مروان بن أبى الحبوب الشاعر أمر لى المتوكل بمائة وعشرين ألف وخمسين ثوبا ، ورواحل كثيرة ، فقلت أبياتا فى شكره ، فلما بلغت قولى :

فأمسك ندى كفيك عنى ولا تزد ... فقد خفت أن أطغى وأن أتجبّرا !

فقال والله لا أمسك ، حتى أغرقك بجودى ، وأمر له بضياع تقوّم بألف ألف .

وقال أبو العيناء تذاكروا السخاء ، فاتفقوا على آل المهلب فى الدولة المروانية ، وعلى البرامكة فى الدولة العباسية ، ثم اتفقوا على أن أحمد بن أبى دُوَاد أسخى منهم جميعا ، وأفضل وسئل إسحاق الموصلى عن سخاء أولاد يحيى بن خالد فقال : أما الفضل فيرضيك فعله ، وأما جعفر فيرضيك قوله ، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد ، وفى يحيى يقول القائل :

سألت الندى هل أنت حر فقال : لا ... ولكننى عبد ليَحْيى بن خالد

فقلت : شراء قال : لابل وراثةً ... توارثنى من والد بعد والد

وفى الفضل يقول القائل :

إذا نزل الفضل بن يحيى ببلدة ... رأيت بها غيث السماحة ينبتُ

فليس بسَعّال إذا سيل حاجة ... ولا بمكب فى ثرى الأرض يَنكُتُ[1]

وفى محمد يقول القائل :

سألت الندى والجود مالى أراكما ... تبدّلتما عزا بذل مؤبد

وما بال ركن المجد أمسى مهدّما ... فقالا : أصبنا بابن يحيى محمد

فقلت : فهلا متما بعد موته ... وقد كنتما عبديه فى كل مشهد

فقال : أقمنا كى نعزى بفقده ... مسافة يوم ثم نتلوه فى غد

وقال على بن أبى طالب ﷺ من كانت له إلى حاجة ، فليرفعها إلىّ فى كتاب لأصون وجهه عن المسألة ، وجاءه أعرابى فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ لى إليك حاجة ، الحياء يمنعنى أن أذكرها ، فقال : خطها فى الأرض فكتب : إنه فقير ، فقال : يا قنبر ، اكسه حُلتى ، فقال الأعرابى :

كسوتنى حلة تبلى محاسِنُها ... فسوف أكسوك من حُسْن الثَّنا حُلَلاَ

إن نلت حسن الثنا قد نلت مكرمة ... وليس تبغى بما قدّمته بدلا

إن الثناء ليُحيى ذكر صاحبه ... كالغيث يحيى نَداهُ السهلَ والجبلا

لا تزهد الدهر فى عرف بدأت به ... كل امرئ سوف يجزى بالذى فعلا

فقال يا قنبر زده مائة دينار ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لو فرقتها فى المسلمين لأصلحت بها من شأنهم ، فقال ﷺ صَهْ يا قنبر فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اشكروا لمن أثنى عليكم ، وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه »[2].

ولعبد الله بن جدعان :

إنى وإن لم ينل مالى مداخلتى ... وهاب ما ملكت كفى من المال

لا أحبس المال إلا حيث أنفقه ... ولا يغيرنى حالٌ إلى حالِ

وقال بعض العرب لولده : يا بنى لا تزهدنّ فى معروف فإنّ الدهر ذو صروف ، فكم راغب كان مرغوبا إليه ، وطالب كان مطلوبا ما لديه ، وكن كما قال القائل :

وعدّ من الرحمن فضلا ونعمة ... عليك إذا ما جاء للخير طالب

---

(١) كان البخلاء يسعلون عندما يسألون حاجة أو يتشاغلون بنكت الأرض بعصا ونحو هذا وذلك دأبهم، أما الممدوح فلا.

(٢) حديث علي: «سمعت رسول الله ﷺ يقول» . . إلخ . الجزء الأول من الحديث لم أقف عليه، والقسم الثاني منه تقدم تخريجه.

ولا تمنعن ذا حاجة جاء راغبا ... فإنك لا تدرى متى أنت راغب ؟!

وقال بعضهم :

أبيت خميصَ البطن عُريان طاويًا ... وأوثر بالزاد الرفيق على نفسى
وأمنحه فرشى وأفترش الثرى ... وأجعل ستر الليل من دونه لبسى
حَذارَ أحاديث المحافل فى غد ... إذا ضمنى يوما إلى صدره رَمْسى [١]

وقال يحيى البرمكى : أعط من الدنيا وهى مقبلة فإنّ ذلك لا ينقصك منها شيئًا ، وأعط منها وهى مدبرة فإن منعك لا يبقى عليك منها شيئًا فكان الحسن بن سهل يتعجب من ذلك ، ويقول : ّ دره . ما أطبعه على الكرم ، وأعلمه بالدنيا ، وقد أمر يحيى من نظمه فقال :

لا تبخلنّ بدنيا وهى مقبلة ... فليس يُنقصها التبذيرُ والسَّرفُ
فإن تولت فأحرى أن تجود بها ... فليس تبقى ولكن شكرها خلف

وقال يحيى لولده جعفر : يا بنى ، ما دام قلمك يرعد ، فأمطر معروفا ، وقال بعضهم :

لا تُكثرى فى الجود لائمتى ... وإذا بخلت فأكثرى لَوْمى
كُفّى فليت بحامل أبدا ... ما عشتُ هم غدٍ إلى يومى

وقال علىّ رضي الله عنه : لا تستحى من عطاء القليل ، فالحرمان أقلّ منه . وسئل إسحاق الموصلى عن المخلوع : فقال : كان أمره كله عجبا ، كان لا يبالى أين يقعد مع جلسائه ، وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر ، كان عند سليمان بن أبى جعفر يومًا فأراد الرجوع إلى أهله ، فقال له : سفر البر أحب إليك أم سفر البحر ؟ قال : البحر ألين علىّ . فقال : أوقروا [٢] . له زورقه ذهبا ، وأمر له بألف ألف درهم . وشكا سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان موسى شهوات إلى سليمان بن عبد الملك وقال : قد هجانى يا أمير المؤمنين ، فاستحضره سليمان وقال : لا أم لك ، أتهجو سعيدا ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أخبرك الخبر ، عشقت جارية مدنية ، وأتيت سعيدا فقلت : إنى أحب هذه الجارية ، وإنّ مولاتها أعطيت فيها مائتى دينار ، وقد أتيتك ، فقال لى : بورك فيك ، فقال سليمان : ليس هذا موضع بورك فيك ، قال : فأتيت يا أمير المؤمنين سعيد بن خالد فذكرت له حالى فقال : يا جارية، هاتى مطرفا [٣] ، فأتته بمطرف خَزٍّ ، فصرّ لى فى كل زاوية مائتى دينار ، فخرجت وأنا أقول :

أبا خالد أغنِى سعيدَ بن خالدٍ ... أخا العرف لا أعنى ابن بنت سعيدِ
ولكننى أعنى ابن عائشة الذى ... أبو أبويه خالد بن أُسيدِ
عقيد الندى ما عاش يرضى به الندى ... فإن مات لم يرض الندى بعقيدِ
ذروه ذروه إنكم قد رقدتمو ... وما هو عن إحسانكم برُقُودِ [٤]

فقال سليمان : قل ما شئت .

وكتب كلثوم بن عمر إلى بعض الكرماء رقعة فيها :

إذا تكرهت أن تعطى القليل ولم ... تقدر على سعة لم يظهر الجود
بث النوال ولا تمنعك قلته ... فكل ماسدّ فقرا فهو محمود

فشاطره ماله حتى بعث إليه بنصف خاتمه ، وفردة نعله .

---

(١) الرمس : القبر .
(٢) أوقروا : املئوا .
(٣) المطرف : بضم الميم وكسرها : رداء ، أو ثوب من خزّ مربّع ذو أعلام .
(٤) يقال : رقد عن الأمر ، أي قعد وتأخّر .

وباع عبد الله بن عتبة بن مسعود أرضا بثمانين ألفا فقيل له : لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخرا . فقال : بل اجعله ذخرا لى . واجعل الله ذخرًا لولدى ، وقسمه بين ذوى الحاجات . وكان ابن مالك القشيرى من الأجواد قيل . إنه أنهب[١] . الناس ماله بعكاظ ثلاث مرات فعاتبه خاله فقال :

يا خالُ ذَرْنى ومَالِى ما فعلت به ... وخذ نصيبَك منه إننى مودى
فلن أطيعَك إلا أن تخلدنى ... فانظر بكيدك هل تستطيع تخليدى ؟!
الحمد لا يُشترى إلا بمكرُمة ... ولن أعيش بمال غير محمود

وقال المهلب : عجبت لمن يشترى المماليك بماله ، كيف لا يشترى الأحرار بفعاله ؟! ونزل بأبى البحترى وهب ابن وهب القرشى ضيفا فسارع عبيده إلى إنزاله ، وخدموه أحسن خدمة ، وفعلوا به كل جميل ، فلما هم بالرحيل لم يقربه أحد منهم وتجنبوه فأنكر ذلك عليهم ، فقالوا : نحن إنما نعين النازل على الإقامة ، ولا نعينه على الرحيل . ووفدت ليلى الأخيلية على الحجاج فقالت فيه :

إذا ورد الحجاج أرضا مريضةً ... تتبَّع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العُضال الذى بها ... غلامٌ إذا هز القناة سقاها

فقال : لا تقولى « غلام » ولكن قولى « هُمامٌ يا غلام » أعطها خمسمائة ، فقالت: أيها الأمير، اجعلها نَعَمًا[٢] فجعلها إبلا إناثا . وقال أبو الفياض الطبرى :

والعز ضيف لا يراه بربْعه[٣] ... مَنْ لا يرَى بذل التِّلادِ تِلادَا[٤]
والجود أغلَى كَعْبَ كعب قبلَنا ... فمضى جوادًا يوم مات جوادا

وقال آخر :

أيقنت أن من السماح شجاعةً ... وعلمت أنّ من السماحة جُودَا

وقال أحمد بن حمدون النديم : علمت أم المستعين بساطا على صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورة كل طائر من ذهب ، وأعينها يواقيت ، وجواهر أنفقت عليه مائة ألف ألف دينار ، وثلاثين ألف دينار ، وسألته أن يقف عليه وينظر إليه فكسل ذلك اليوم عن رؤيته قال أحمد بن حمدون ، فقال لى ، ولأترجة الهاشمى : اذهبا ، فانظرا إليه ، وكان معنا الحاجب ، فمضينا ورأيناه ، فوالله ما رأينا فى الدنيا شيئا أحسن منه ، ولا شيئا حسنا إلا وقد عمل فيه ، فمددت أنا يدى إلى غزال من ذهب عيناه ياقوتتان فوضعته فى كمى ، ثم جئناه فوصفنا له حسن ما رأيناه ، فقال أترجة . يا أمير المؤمنين إنه قد سرق منه شيئا ، وغمزه على كمى ، فأريته الغزال ، فقال : بحياتى عليكما ارجعا فخذا ما أحببتما فمضينا فملأنا أكمامنا ، وأقبلنا نمشى كالحبالى ، فلما رآنا ضحك ، فقال بقية الجلساء : ونحن فما ذنبنا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : قوموا فخذوا ماشئتم ، ثم قام فوقف على الطريق ينظر كيف يحملون ويضحك !! ونظر يزيد المهلبى سطلا من ذهب مملوءًا مسكا فأخذه بيده ، وخرج فقال له المستعين : إلى أين ؟ فقال : إلى الحمام يا أمير المؤمنين ، فضحك من قوله ، وأمر الفرّاشين والخدم أن ينتهبوا الباقى فانتهبوه ، فوجهت إليه أمه تقول : سَرَّ الله أمير المؤمنين ، لقد كنت أحب أن يراه قبل أن يفرّقه ، فإننى أنفقت عليه مائة ألف ألف وثلاثين ألف دينار فقال : يحمل إليها مثل ذلك حتى تعيد مثله . ففعلت ومضى ، حتى رآه وفعل به كفعله بالأوّل . ودخل طلحة بن عبد الله بن عوف السوق يوما ، فوافق فيه الفرزدق فقال : يا أبا فراس اختر عشرا من الإبل ، ففعل ، فقال : ضم إليها مثلها فلم يزل يقول مثل ذلك ، حتى بلغت مائة ، فقال : هى لك فقال :

يا طلح أنت أخو الندى وعقيده ... إنّ الندى ما مات طلحة ماتا !

---

(١) أي جعل نهبًا لهم يأخذون منه ما شاءوا.

(٢) النَّعَم: المال السائم، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل.

(٣) الربع: بتشديد الراء المفتوحة وسكون الباء: الدَّار، وما حول الدار، والمنزل، والحيّ.

(٤) التِّلاد: المال الأصلي القديم.

إنّ الـنـدى ألـقـى إلـيـك رحـالـه فـبـحـيـث بـتّ مـن الـمـنـازل بـاتـا

وقدم زياد الأعجم على عبد الله بن الحشرج بنيسابور ، فأكرمه وأنعم عليه ، وبعث إليه بألف دينار فقال :

إنّ الـسـمـاحـة والـمـروءة والـنـدى فـى قـبـة ضـربـت عـلـى ابـن الـحـشـرج

فقال : زدنى ، فقال : كل شىء وثمنه . ووفد أبو عطاء السدى على نصر بن سيار بخراسان مع رفيقين له فأنزله وأحسن إليه وقال : ما عندك يا أبا عطاء ؟ فقال : وما عسى أن أقول وأنت أشعر العرب ؟ غير أنى قلت : بيتين قال : هات . ما قلت . فقال :

يـا طـالـب الـجـودِ إمّـا كـنـت تـطـلـبـه فـاطـلـب عـلـى بـابـه نـصـرَ بـنَ سـيـار

الـواهـبَ الـخـيـل تـغـدو فـى أعـنـتـهـا مـع الـقـيـان وفـيـهـا ألـف ديـنـار

فأعطاه ألف دينار ، ووصائف[١] ، وكساه كسوة جميلة ، فقسم ذلك بين رفيقيه ، ولم يأخذ منه شيئا فبلغ ذلك نصرا ، فقال : ياله قاتله الله من سيد ! ما أضخم قدره ! ثم أمر له بمثله ، وقال العتبى : أشرف عمرو بن هبيرة يومًا من قصره فإذا هو بأعرابى يرقل[٢] قلوصه ، فقال عمرو لحاجبه : إن أرادنى هذا الأعرابى فأوصله إلىّ ، فلما وصل الأعرابى ، سأله الحاجب ، فقال : أردت الأمير : فدخل به إليه ، فلما مثل بين يديه قال له : ما حاجتك ؟ فأنشد الأعرابى يقول :

أصـلـحـك الـلـه قـلّ مـا بـيـدى ولا أُطـيـقُ الـعـيـالَ إذْ كـثـروا

أنـاخ دهـرى عـلـىّ كـلـكَـلـهُ[٣] فـأرسـلـونـى إلـيـك وانـتـظـروا

فأخذت عمرا الأريحية ، فجعل يهتزّ فى مجلسه ، ثم قال . أرسلوك إلىّ وانتظروا ، إذن والله لا تجلس حتى ترجع إليهم ، ثم أمر له بألف دينار .

وقيل : أراد ابن عامر أن يكتب لرجل بخمسين ألف درهم فجرى القلم بخمسمائة ألف ، فراجعه الخازن فى ذلك فقال : أنفذه فما بقى إلا نفاذه وإن خروج المال أحب إلىّ من الاعتذار ، فاستشرفه الخازن فقال : إذا أراد الله بعبد خيرا صرف القلم عن مجرى إرادة كاتبه ، إلى إرادته ، وأنا أردت شيئًا وأراد الجواد الكريم أن يعطى عبده عشرة أضعافه ، فكانت إرادة الله الغالبة وأمره النافذ .

ووقف أعرابى على ابن عامر فقال : يا قمر البصرة ، وشمس الحجاز ، ويا بن ذِرْوَة العرب ، وابن بطحاء[٤] مكة ، برحت بى الحاجة وأكدت بى الآمال إلا بفنائك فامنحنى بقدر الطاقة لا بقدر المجد والشرف والهمة ، فأمر له بمائتى ألف درهم . وسمع المأمون قول عمارة بن عقيل :

أأتـرك إن قَـلَّـت دراهـم خـالـد زيـارتـه إنـى إذًا لَـلـئـيـمُ

فقال : أو قَلَّت دراهمُ خالد ؟! احملوا إليه مائة ألف درهم ، فبعثها خالد بن يحيى إلى عمارة بن عقيل وقال : هذه قطرة من سبحاتك . ولما عزل عبد الرحمن بن الضحاك عن المدينة بكى ، ثم قال . والله ما بكائى جزعا من العزل ، ولا أسفا على الولاية ، ولكن أخاف على هذه الوجوه أن يلى أمرها من لا يعرف لها حقا .

وأراد الرشيد أن يخرج إلى بعض المتفرّجات[٥] ، فقال يحيى بن خالد لرجاء بن عبد العزيز ، وكان على نفقاته : ما عند وكلائنا من الأموال ؟ قال : سبعمائة ألف درهم ، قال : فاقبضها إليك يا رجاء ، فلما كان من الغد ، ودخل عليه رجاء ، فقبل يده وعنده منصور ابن زياد ، فلما خرج رجاء قال يحيى لمنصور : قد ظننت أنّ رجاء توهم أنا قد وهبنا

---

(١) وصائف: جمع وصيفة، وهي الخادمة.

(٢) يُرقل قلوصة: القَلوص من الإبل: الفتية المجتمعة الخَلْق ويُرقِلُه: يدعوه إلى الإسراع في سيره.

(٣) الكَلْكل، والكَلْكال: الصَّدْر، أو هو ما بين الترقوتين.

(٤) البطحاء: الأبطح: المكان المتسع يمر به السيل، فيترك فيه الرمل والحصى الصغار.

(٥) المتفرّجات: المتنزهات، وأماكن الفرجة.

المال له ، وإنما أمرناه بقبضه من الوكلاء ليحفظه علينا لحاجتنا إليه فى وجهنا هذا . فقال منصور : أنا أستخبر لك هذا ، فقال يحيى : إذن يقول لك : قل له : يقبل يدى ، كما قبلت يده ، فلا تقل له شيئًا فقد تركتها له .

وقيل : إن الرشيد وصل[١] فى يوم واحد بألف ألف وثلاثمائة وخمسين ألفًا ، ووصل المنصور فى يوم واحد لبنى هاشم ووجوه قوّاده بعشرة آلاف ألف دينار على ما ذكر .

وعن الأخفش الصغير قال : كان أسيد بن عنقاء الفزارى من أكبر أهل زمانه قدرا ، وأكثرهم أدبا ، وأفصحهم لسانا ، وأثبتهم جنانا[٢] ، فطال عمره ،ونكبه دهره فخرج عشية ينتفل[٣] لأهله فمر به عميلة الفزارى فسلم عليه ، وقال : ما أصارك[٤] يا عم إلى ما أرى ؟! فقال : بخل مثلك بماله ، وصون وجهى عن مسألة الناس ، فقال : والله لئن بقيت إلى غد لأغيرنّ ما أرى من حالك ، فرجع ابن عنقاء إلى أهله فأخبرها بما قال له عميلة ، فقالت له : لقد غرّك[٥] كلام غلام فى جنح ليل ، قال : فكأنما ألقمت فاه حجرا وبات متململا بين رجاء ويأس ، فلما كان وقت السحر سمع رغاء الإبل ، وصهيل الخيل تحت الأموال فقال : ما هذا ؟ قالوا : عميلة قد قسم ماله شطرين ، وبعث إليك بشطره فأنشأ يقول :

رآنى على ما بى عميلة فاشتكى ... إلى ما له حالى فواسى وما هجر
ولما رأى المجد استعيرت ثيابهُ ... تردّى رداءَ سابغ الذيل واتزر
غلامٌ حباه الله بالحسن يافعا ... له سيمياء[٦] لا تشق على البصر
كأن الثريا علقت فى جبينه ... وفى أنفه الشّعرَىٰ وفى جِيده القمر[٧]

وكان عمر بن عبيد الله بن معمر التميمى من الأجواد ، قيل : إنه كان لرجل جارية يهواها ، فاحتاج إلى بيعها ، فابتاعها منه ابن معمر بمال جزيل ، فلما قبض ثمنها أنشأت تقول :

هنيئا لك المال الذى قد قبضته ... ولم يبق فى كفّى غير التحسر
أبوء بحزن من فراقك موجع ... أناجى به صدرًا طويل التفكر

فأجابها يقول :

ولو لا قعودُ الدهر بى عنكِ لم يكن ... يفرّقنا شىء سوى الموت فاعذرى
عليك سلامٌ لا زيارة بيننا ... ولا وصل إلا أن يشاء ابن مَعْمَر

فقال ابن معمر : قد شئت ، وقد وهبتك الجارية وثمنها فخذها وانصرف .

ووفد أبو الشمقمق إلى مدينة سابور يريد محمد بن عبد السلام فلما دخلها توجه إلى منزله فوجده فى دار الخراج يطالب فدخل عليه يتوجع له فلما رآه محمد قال :

ولقد قدمت على رجال ظالما ... قدم الرجال عليهم فتموّلوا
أخنى[٨] الزمان عليهم فكأنما ... كانوا بأرض أقفرت فتحوّلوا

فقال أبو الشمقمق :

---

(١) وصَلَ: أعطى صلة.

(٢) الجَنان: من كل شيء: جوفه، والقلب، وجَنانُ الناسِ: جماعتهم تستر الداخل فيها.

(٣) ينتفل: يقال نفَّلَ فلانًا: أعطاه زيادة علر نصيبه الواجب له.

(٤) ما أصارك: ما صيرك وحوّلك.

(٥) رُغاء الإبل: أي صوت الإبل.

(٦) سيمياء: أي علامة. قال تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح:٢٩].

(٧) الثريا: مجموعة من النجوم في صورة الثور، وكلمة النجم علم عليها. والشّعرى: كوكب نير، يطلع عند شدة الحر، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم، وهما شعريان: الشعرى العَبُور، والشعرى الغميصاء.

(٨) أخنى الزمان عليهم: أخنى عليه الدهر، أي طال، وأهلكه وأتى عليه.

الجود أفلسهم ، وأذهب مالهم فاليوم إن راموا السماحة يبخلوا

قال فخلع محمد ثوبه وخاتمه ، ودفعهما إليه ؛ فكتب بذلك مستوفى الخراج إلى الخليفة ، فوقّع إلى عامله بإسقاط الخراج عن محمد بن عبد السلام فى تلك السنة ، وإسقاط ما عليه من البقايا ، وأمر له بمائة ألف درهم معونة له على مروءته .

وقال أبو العيناء : حصلت لى ضيقة شديدة ، فكتمتها عن أصدقائى ، فدخلت يوما على يحيى بن أكثم القاضى ، فقال : إنّ أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم ، وأخذ القصاص ، فهل لك فى الحضور ؟! قلت : نعم . فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين ، فلما دخلنا عليه أجلسه ، وأجلسنى ، ثم قال : يا أبا العيناء ، بالألفة والمحبة ما الذى جاء بك فى هذه الساعة ؟ فأنشدته :

لقد رجوتُك دونَ الناسِ كلّهم ولِلرجاء حقوقٌ كلُّها تجب
إن لم يكن لى أسباب أعيش بها ففى العُلا لك أخلاقٌ هى السبب

فقال : يا سلامة ، انظر أى شىء فى بيت مالنا دون مال المسلمين ؟ فقال : بقية من مال ، قال : فادفع له منها مائة ألف درهم ، وابعث له بمثلها فى كل شهر ، فلما كان بعد أحد عشر شهرا مات المأمون ، فبكى عليه أبو العيناء ، حتى تقرّحت أجفانه ، فدخل عليه بعض أولاده ، فقال : يا أبتاه ، بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء ؟ فأنشأ أبو العيناء يقول :

شيئان لو بكت الدماء عليهما عيناى حتى يُؤذِنا بذهابِ
لم يبلغا المِعْشَار من حَقّيهما : فقد الشباب وفرقةُ الأحباب

وكان أحمد بن طولون كثير الصدقة ؛ وكان راتبه منها فى الشهر ألف دينار سوى ما يطرأ عليه من نذر أوصله ، وسوى ما يطبخ فى دار الصدقة ، وكان الموكل بصدقته سليم الخادم ، فقال له سليم يوما : أيها الأمير ، إنى أطوف القبائل ، وأدق الأبواب لصدقاتك ، وإن اليد تمدّ إلى وفيها الحِنّاء ، وربما كان فيها الخاتم الذهب ، والسوار الذهب ، أفأعطى أم أردّ ؟ قال : فأطرق طويلا ، ثم قال : كل يد امتدّت إليك فلا تردّها .

وقال سلمة بن عياش فى جعفر بن سليمان :

وما شم أنفى ريح كف شممتُها من الناسِ إلا ريحَ كفِّك أطيبُ

فأمر له بألف دينار ، ومائة مثقال مسك ، ومائة مثقال عنبر .

وكان عبد العزيز بن عبد الله جوادا مضيافا ، فتغدى عنده أعرابى يوما فلما كان من الغد ، مر على بابه فرأى الناس فى الدخول على هيئتهم بالأمس ، فقال : أو كل يوم يُطعم الأمير الناس ؟ قالوا ؟ نعم . فأنشأ يقول :

كل يوم كأنه عيد أضحى عند عبد العزيز أو عيدُ فِطرِ
وله ألف جَفنة[1] مُترعاتٍ[2] كلّ قِدر يمدها ألف قدرِ

وتعشى الناسُ ليلة عند سعيد بن العاص ، فلما خرجوا بقى فتى من الشام قاعدا ، فقال له سعيد : ألك حاجة ؟ وأطفأ الشمعة كراهة أن يخجل الفتى ، فذكر أن أباه مات ، وخلّف دَينًا ، وعيالاً . وسأله أن يكتب له كتابا إلى أهل دمشق ، ليقوموا ببعض إصلاح حاله ، فدفع له عشرة آلاف دينار ، وقال له : لا أدعك تقاسى الذل على أبوابهم .

ودخل رجل على علىّ بن سليمان الوزير ، فقال له : سألتك بالله العظيم ، ونبيه الكريم ، إلا ما أجرتنى من خصمى ، فقال : ومن خصمك حتى أجيرك منه ؟ فقال : الفقر ، فأطرق الوزير ساعة ، وقال : قد أمرت لك بمائة ألف درهم ، فأخذها وانصرف ، فبينما هو فى الطريق إذا أمر الوزير بردّه إليه ، فلما رجع قال له : سألتك بالله العظيم ، ونبيه الكريم متى أتاك خصمُك مُعتَفًا فارجع إلينا متظلما .

---

(١) الجفنة: بفتح الجيم وسكون الفاء: القصعة، والجمع جِفَان، وجِفَن.
(٢) مترعات: مليئات.

وقال الأعمش : كانت عندى شاة ، فمرضت ، وفقدت الصبيان لبنها ، فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشى ، ويسألنى هل استوفت علفها ، وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها ؟! وكان تحتى لبد[١] أجلس عليه ، فكان إذا خرج يقول : خذ ما تحت اللبد حتى وصل إلىّ من علة الشاة أكثر من ثلاثمائة دينار من برّه ، حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ .

(وحكى) أبو قدامة القشيرى قال : كنا مع يزيد بن مزيد يوما ، فسمع صائحا يقول : يا يزيد بن مزيد فطلبه فأتى به إليه ، فقال : ما حملك على هذا الصياح ؟ قال : فقدت دابتى ، ونفدت نفقتى ، وسمعت قول الشاعر :

إذا قيل : مَنْ للجود والمجد والندى فنادى بصوت : يا يزيدَ بن مزيد

فأمر له بفرس أبلق[٢] ، كان معجبا به ، وبمائة دينار ، وخلعة سنية ، فأخذها وانصرف .

(وحكى) أن قوما من العرب جاءوا إلى قبر بعض أسخيائهم يزورونه ، فباتوا عند قبره ، فرأى رجل منهم صاحب القبر فى المنام وهو يقول له : هل لك أن تبيعنى بعيرك ، بنجيبى ، وكان الميت قد خلف نجيبا[٣] ، وكان للرائى بعير سمين ، فقال : نعم ، وباعه فى النوم بعيره بنجيبه ، فلما وقع بينهما عقد البيع عمد صاحب القبر إلى البعير فنحره فى النوم ، فانتبه الرائى من نومه ، فوجد الدم يسيح من نحر بعيره ، فقام وأتم نحره وقطع لحمه ، وطبخوه ، وأكلوا ثم رحلوا ، وساروا فلما كان اليوم الثانى - وهم فى الطريق سائرون - استقبلهم ركب ، فتقدم منهم شاب ، فنادى : هل فيكم فلان ابن فلان ؟ فقال صاحب البعير : نعم . ها أنا فلان ابن فلان ، فقال : هل بعت من فلان الميت شيئًا ؟ قال : نعم . بعته بعيرى بنجيبه فى النوم ، فقال : هذا نجيبه ، فخذه وأنا ولده ، وقد رأيته فى النوم وهو يقول : إن كنت ولدى ، فادفع نجيبى إلى فلان ، فانظر إلى هذا الرجل الكريم ، كيف أكرم أضيافه بعد موته ؟!

وروى عن الهيثم بن عدى أنه قال : تمارى[٤] ثلاثة نفر فى الأجواد فقال رجل : أسخى الناس فى عصرنا هذا عبد الله بن جعفر ، فقال الآخر : أسخى الناس قيس بن سعد بن عبادة ، فقال الآخر : بل أسخى الناس اليوم عرابة الأوسى ، فتنازعوا بفناء الكعبة ، فقال لهم رجل : لقد أفرطتم فى الكلام ، فليمض كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى ننظر بم يعود ؟ فنحكم على العيان ، فقام صاحب ابن جعفر فوافاه ، وقد وضع رجله فى ركاب راحلته يريد ضيعة له ، فقال الرجل : يا بن عم رسول الله ﷺ ، ابن سبيل ومنقطع به ، قال : فأخرج رجله ، وقال : ضع رجلك ، واستو على الناقة ، وخذ ما فى الحقيبة ، وكان فيها مطارف خزّ وأربعة آلاف دينار .

ومضى صاحب قيس فوجده نائما فقالت له جارية لقيس : ما حاجتك ؟ فقال : ابن سبيل ومنقطع به ، فقالت له الجارية : حاجتك أهون من إيقاظه ، هذا كيس فيه سبعمائة دينار ما فى دار قيس اليوم غيرها ، وامض إلى معاطن الإبل فخذ راحلة من رواحله وما يُصلحها ، وعبدًا وامض لشأنك . قيل : إن قيسا لما انتبه أخبرته الجارية بما صنعت ، فأعتقها ، ولو لم تعلم أن ذلك يرضيه ما جسرت تفعله ، فخلق خدم الرجل مقتبس من خلقه ؛ قال بعض الشعراء :

وإذا ما اختبرتَ وُدّ صديق فاختبر وُدّه من الغِلمان

ومضى صاحب عرابة ، فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة ، فقال : يا عرابة ، ابن سبيل ، ومنقطع به ، وكان معه عبدان فصفق بيده اليمنى على اليسرى ، وقال : أوّاه أوّاه ، والله ما أصبحَ ولا أمسَى الليلة عند عرابة شىء ، ولا تركت له الحقوق مالاً ، ولكن خذ هذين العبدين ، فقال الرجل : والله ما كنت بالذى يسلبك عبديك ، فقال : إن أخذتهما وإلّا فهما حرّان لوجه الله تعالى : فإن شئت فخذ ، وإن شئت فأعتق فأخذ الرجل العبدين ومضى . ثم اجتمعوا وذكروا قصة كل واحد فحكموا لعرابة لأنه أعطى على جهد . وقيل : إن شاعرا قصد خالد بن يزيد ، فأنشده شعرا يقول فيه :

---

(١) اللِّبْد: كل شعر أو صوف متلبِّد، وضَرْب من البُسُط، والجمع ألباد، ولُبود.

(٢) الأبلق: ما كان فيه سواد وبياض.

(٣) النجيب: الفاضل على مثله النفيث في نوعه، ونجائب الإبل: خيارها.

(٤) تمارى: تجادل واختلف.

سألت الندى والجود : حُرّان أنتما ؟ فقالا : يقينا إننا لعبيد
فقلت : ومن مولاكما ؟ فتطاولا إلى وقال : خالد ويزيد

فقال : يا غلام ، أعطه مائة ألف درهم ، وقل له : إن زدتنا زدناك فأنشد يقول :

كريم كريم الأمهات مهذب تدفق يمناه الندى وشمائله
هو البحر من أى الجهات أتيته فلُجته المعروفُ ، والجود ساحله
جواد بسيط الكف حتى لو أنه دعاها لقبض لم تُجبْه أنامله

فقال : يا غلام ، أعطه مائة ألف درهم ، وقل له : إن زدتنا زدناك ، فأنشد يقول :

تبرعت لى بالجود حتى نعشتنى وأعطيتنى حتى حسبتُك تلعبُ
وأنبتّ ريشا فى الجناحين بعدما تساقط منى الريشُ أو كاد يذهبُ
فأنت الندى، وابن الندى، وأخو الندى حَلِيفُ الندى ما للندى عنك مذهبُ !

فقال : يا غلام أعطه مائة ألف درهم ، وقل له : إن زدتنا زدناك ، فقال : حسب الأمير ماسمع ، وحسبى ما أخذت وانصرف . وأما الذين انتهى إليهم الجود فى الجاهلية فهم : حاتم بن عبد الله الطائى ، وهَرِمُ بن سنان ، وخالد ابن عبيد الله ، وكعب بن امامة الإيادى ، وضرب المثل بحاتم وكعب ، وحاتم أشهرهما فأما كعب فجاد بنفسه ، وآثر رفيقه بالماء فى المفازة ، ومات عطشا وليس له خبر مشهور .

وأما خالد بن عبيد الله فإنه جاء إليه بعض الشعراء ، ورجله فى الركاب يريد الغزو ، فقال له : إنى قلت فيك بيتين من الشعر ، فقال: فى مثل هذا الحال ؟ قال : نعم . فقال هاتهما ، فأنشده يقول :

يا واحدَ العرب الذى ما فى الأنام له نظير
لو كان مثلك آخر ما كان فى الدنيا فقير

فقال : يا غلام ، أعطه عشرين ألف دينار ، فأخذها وانصرف .

وأما حاتم فأخباره كثيرة ، وآثاره فى الجود شهيرة ، ويكنى أبا سفانة ، وأبا عدى ، وكان يسير فى قومه بالمرباع ، والمرباع ربع الغنيمة ، وكان ولده عدى يعادى النبى ﷺ ، فبعث النبى ﷺ عليا إلى طيء ، فهرب عدىّ بأهله وولده ، ولحق بالشام ، وخلف أخته سفانة فأسرتها خيل رسول الله ﷺ ، فلما أتى بها إلى النبى ﷺ قالت : يا محمد هلك الوالد ، وغاب الرافد ، فإن رأيت أن تخلى عنى ، ولا تشمت بى أحياء العرب ، فإن أبى كان سيد قومه ، يفك العانى[1] ، ويقتل الجانى ، ويحفظ الجار ، ويحمى الذمار[2] ، ويفرّج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ويحمل الكل[3] ، ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحد فى حاجة فردّه خائبا ، أنا بنت حاتم الطائى ، فقال لها النبى ﷺ : « يَا جَارِيَةُ، هَذِهِ صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا ، لَوْ كَانَ أَبُوكِ مُسْلِمًا لَتَرَحَّمْنَا عَلَيْهِ ، خَلُّوا عَنْهَا فَإِنَّ أَبَاهَا كَانَ يُحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » ، وقال فيها : « ارْحَمُوا عَزِيزًا ذُلَّ ، وَغَنِيًّا افْتَقَرَ ، وَعَالِمًا ضَاعَ بَيْنَ جُهَّالٍ »، فأطلقها ، ومن عليها ، فأستأذنته فى الدعاء له ، فأذن لها ، وقال لأصحابه : « اسمعوا وعوا » ، فقالت : أصاب الله ببرّك مواقعه ، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة من كريم قوم إلا وجعلك سببا فى ردّها عليه . فلما أطلقها ﷺ رجعت إلى قومها فأتت أخاها عديا وهو بدومة الجندل ، فقالت له : يا أخى ائت هذا الرجل قبل أن تعلقك حبائله ، فإنى قد رأيت هَدْيًا ، ورأيا سيغلب أهل الغلبة ، رأيت خصالا تعجبنى ، رأيته يحب الفقير ، ويفك الأسير ، ويرحم الصغير ، ويعرف قدر الكبير ، وما رأيت أجود ولا أكرم منه ﷺ ، وإنى أرى أن تلحق به ، فإن يك نبيا فللسابق فضله ، وإن يك ملكا فلن تذل فى عز اليمن ، فقدم عدى إلى النبى ﷺ ، فألقى له وسادة محشوّة ليفا ، وجلس النبى ﷺ على الأرض

---

(١) العاني: الأسير.
(٢) الذّمار: ما ينبغي حمايته والذّوْد عنه كالأهل والعِرض.
(٣) الكَلُّ: الضعيف.

فأسلم عدى بن حاتم ، وأسلمت أخته سفانة بنت حاتم المتقدم ذكرها [١] ، وكانت من أجود نساء العرب ، وكان أبوها يعطيها الضريبة من إبله فتهبها وتعطيها الناس ، فقال لها أبوها : يا بنية ، إن الكريمين إذا اجتمعا فى المال أتلفاه ، فإما أن أعطى وتُمسكى ، وإما أن أمسك ، وتعطى فإنه لا يبقى على هذا شىء ، فقالت له : منك تعلمت مكارم الأخلاق .

قال ابن الأعرابى . كان حاتم الطائى من شعراء الجاهلية ، وكان جوادًا يشبه جوده شعره ، ويصدّق قوله فعله ، وكان حيثما نزل عرف منزله ، وكان مظفرًا إذا قاتل غلب ، وإذا سئل وهب ، وإذا سابق سبق ، وإذا أسرَ أطلق ، وكان إذا أهل رجب الذى كانت تعظمه مضر فى الجاهلية ، نحر كل يوم عشرًا من الإبل ، وأطعم الناس ، واجتمعوا إليه . وكان قد تزوّج ماوية بنت عفير ، وكانت تلومه على إتلاف المال ، فلا يلتفت لقولها ، وكان لها ابن عم يقال له : مالك ، فقال لها يومًا : ما تصنعين بحاتم ، فوالله لئن وجد مالاً ليتلفنه ، وإن لم يجد ليتكلفنّ ، ولئن مات ليتركنّ أولاده عالة على قومك ؟! فقالت ماوية : صدقت إنه كذلك ، وكانت النساء يطلقن الرجال فى الجاهلية ، وكان طلاقهنّ أن يكنّ فى بيوت من شعر ، فإن كان باب البيت من قبل المشرق حوّلته إلى المغرب ، وإن كان من قبل المغرب حوّلته إلى المشرق ، وإن كان من قبل اليمن حوّلته إلى الشام ، وإن كان من قبل الشام حوّلته إلى اليمن ، فإذا رأى الرجل ذلك علم أنها طلقته فلم يأتها ؛ ثم قال لها ابن عمها : طلقى حاتمًا ، وأنا أتزوّجك ، وأنا خير لك منه ، وأكثر مالاً ، وأنا أمسك عليك ، وعلى ولدك ، فلم يزل بها حتى طلقته ، فأتاها حاتم وقد حوّلت باب الخباء ، فقال حاتم لولده : يا عدى ما ترى ما فعلت أمك ؟! فقال : قد رأيت ذلك ، قال : فأخذ ابنه وهبط بطن واد ، فنزل فيه ، فجاء قوم فنزلوا على باب الخباء ، كما كانوا ينزلون وكانت عدّتهم خمسين فارسًا ، فضاقت بهم ماوية ذرعًا وقالت لجاريتها : اذهبى إلى ابن عمى مالك ، وقولى له : إن أضيافًا لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلاً ، فأرسل إلينا بشىء نقريهم ، ولبن نسقيهم ، وقالت لها : انظرى إلى جبينه وفمه ، فإن شافهك بالمعروف فاقبلى منه ، وإن ضرب بلحيته على زوره ، ولطم رأسه ، فَأَقْبِلى ودعيه ، فلما أتته وجدته متوسدًا وطبًا من لبن ، فأيقظته وأبلغته الرسالة ، وقالت له : إنما هى الليلة حتى يعلم الناس مكان حاتم ، فلطم رأسه بيده وضرب بلحيته ، وقال : أقرئيها السلام ، وقولى لها : هذا الذى أمرتك أن تطلقى حاتمًا لأجله ، وما عندى لبن يكفى أضياف حاتم ، فرجعت الجارية ، فأخبرتها بما رأت ، وبما قال لها ، فقالت لها : اذهبى إلى حاتم وقولى له : إن أضيافك قد نزلوا بنا الليلة ، ولم يعلموا مكانك فأرسل إلينا بناقة نقريهم ، ولبن نسقيهم فأتت الجارية حاتمًا فصاحت به ، فقال : لبيك ، قريبًا دعوتِ فأخبرته بما جاءت بسببه ، فقال لها : حُبًّا وكرامة ، ثم قام إلى الإبل فأطلق اثنتين من عقالهما ، وصاح بهما حتى أتيا الخباء ، ثم ضرب عراقيبهما فطفقت ماوية تصيح : هذا الذى طلقتك بسببه ، تترك أولادنا وليس لهم شىء ! فقال لها : ويحك يا ماوية ! الذى خلقهم ، وخلق الخلق متكفل بأرزاقهم .

وكان إذا اشتدّ البرد ، وغلب الشتاء أمر غلمانه بنار فيوقدونها فى بقاع الأرض لينظر إليها من ضل عن الطريق ليلا فيقصدها ، ولم يكن حاتم يمسك شيئًا ما عدا فرسه وسلاحه فإنه كان لا يجود بهما ، ثم جاد بفرسه فى سنة مجدبة .

(حكى) أنّ ملكان ابن أخى ماوية قال : قلت لها يومًا : يا عمة ، حدثينى ببعض عجائب حاتم ، وبعض مكارم أخلاقه ، فقالت : يا بن أخى أعجب ما رأيت منه أصابت الناسَ سَنَةٌ أذهبت الخف والظلف ، وقد أخذنى وإياه الجوع ، وأسهرنا ، فأخذتْ سفانة وأخذ عديا وجعلنا نعللهما حتى ناما ، فأقبل علىّ يحدثنى ، ويعللنى بالحديث حتى أنام ، فرققت به لما به من الجوع ، فأمسكت عن كلامه لينام ، فقال لى : أنمت ؟ فلم أجبه ، فسكت ، ونظر فى فناء الخباء فإذا شىء قد أقبل ، فرفع رأسه فإذا امرأة ، فقال : ما هذا ؟ فقالت : يا أبا عدى ، أتيتك من عند صبية يتعاوَوْن كالكلاب أو كالذئاب جوعًا ، فقال لها : أحضرى صبيانك فوالله لأشبعنهم ، فقامت سريعة لأولادها فرفعت رأسى ، وقلت له : يا حاتم بماذا تشبع أطفالها ؟ فوالله ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتعليل [٢] ، فقال : والله لأشبعنك ، وأشبعنّ صبيانك وصبيانها ، فلما جاءت المرأة نهض قائمًا وأخذ المدية بيده وعمد إلى فرسه فذبحه ، ثم أجّج نارًا ودفع

---

(١) قصة إسلام عدي بن حاتم وأخته سفانة . . قصة إسلام عدي أخرجه أحمد [٤/ ٢٥٧]، وابن حبان [٢٢٨٠]، والطبراني في الأحاديث الطوال برقم [١-٢]، في الجزء [٢٥].

(٢) التعليل : الإلهاء بشيء حتى يناموا وينسوا جوعهم .

إليها شفرة ، وقال : قطعى واشوى وكُلى ، وأطعمى صبيانك ، فأكلت المرأة وأشبعت صبيانها ، فأيقظت أولادى وأكلت وأطعمتهم ، فقال : والله إنّ هذا لهو اللؤم تأكلون وأهل الحى حالهم مثل حالكم ؟! ثم أتى الحى بيتًا بيتًا يقول لهم : انهضوا عليكم بالنار ، فاجتمعوا حول الفرس وتقنع حاتم بكسائه ، وجلس ناحية فوالله ما أصبحوا وعلى وجه الأرض منها قليل ، ولا كثير إلا العظم والحافر ، ولا والله ماذاقها حاتم ، وإنه لأشدّهم جوعًا . وأخباره كثيرة مشهورة ومن شعره :

أمـــاوىَّ إن الـــمـــال غـــادٍ ورائـــحُ ... ويـبـقـى مـن الـمـالِ الأحـاديـثُ والـذكـرُ
وقـد عـلـم الأقـوامُ لـو أنّ حـاتـمًـا ... أراد ثـراء الـمـال كـان لـه وِقْـر [١]

وأغار قوم على طيئ ، فركب حاتم فرسه ، وأخذ رمحه ، ونادى فى جيشه ، وأهل عشيرته ، ولقى القوم ، فهزمهم وتبعهم ، فقال له كبيرهم : يا حاتم هب لى رمحك . فرمى به إليه ، فقيل لحاتم : عرّضت نفسك للهلاك ، ولو عطف[٢]. عليك لقتلك ، فقال : قد علمت ذلك ، ولكن ما جواب من يقول : هب لى ؟! ولما مات عَظُم على طيئ موتُه ، فادّعى أخوه أنه يخلفه ، فقالت له أمه : هيهات شتان ، والله ما بين خلقتيكما وضعته ، فبقى والله سبعة أيام لا يرضع حتى ألقمت إحدى ثديى طفلاً من الجيران ، وكنت أنت ترضع ثديًا ويدك على الآخر فأنى لك ذلك ؟ قال الشاعر :

يـعـيـش الـنـدى مـا عـاش حـاتـم طـيـئ ... وإن مـات قـامـت لـلـسَّـخـاء مـآتـمُ

وكانت العرب تسمى الكلب : داعى الضمير ، ومتمم النعم ، ومُشيد الذكر ، لما يجلب من الأضياف بنباحه ، والضمير : الغريب . وكانوا إذا اشتد البرد وهبت الرياح ولم تشب النيران فرّقوا الكلاب حوالى الحى وربطوها إلى العُمُد لتستوحش[٣]، فتنبح ، فتهتدى الضُّلاّل ، وتأتى الأضياف على نباحها . والحكايات فى ذكر الأجواد والكرماء والأسخياء ، وأهل المعروف ، وما كانوا عليه من السخاء والكرم أكثر من أن تحصر ، وأشهر من أن تذكر ، ففى مثل هذه المناقب فليتنافس المتنافسون ، ولمثلها فليعمل العاملون ، فإن فيها عز الدنيا وشرف الآخرة ، وحسن الصِّيت ، وخلود جميل الذكر ، فإنا لم نجد شيئًا يبقى على ممر الدهر إلا الذكر حسنًا كان أو قبيحًا وقد قال الشاعر :

ولا شـــىء يـــدومُ فـكُـنْ حـديـثًـا ... جـمـيـلَ الـذكـر فـالـدُّنـيـا حـديـثُ

فانتهز فرصة العمر ، ومساعدة الدنيا ، ونفوذ الأمر ، وقدم لنفسك كما قدموا تذكر بالصالحات كما ذكروا ، وادّخر لنفسك فى القيامة كما ادّخروا ، واعلم أنّ المأكول للبدن ، والموهوب للمعاد ، والمتروك للعدوّ ؛ فاختر أىّ الثلاث شئت . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الرابع والثلاثون

فى البخل والشح ، وذكر البخلاء وأخبارهم وما جاء عنهم

قال الله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء:٣٧] ، الآية وقال رسول الله ﷺ: « إِيَّاكُمْ والشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ »[٤]. وعنه ﷺ أنه قال -: « البخل جامع لمساوئ

---

(١) الوِقْرُ: الحملُ الثقيل.

(٢) عطف عليك: مال وانحنى.

(٣) لتستوحش: لِتُحسَّ بالوحشة والغربة والوحدة.

(٤) حديث: «إياكم والشح . . إلخ» بعض حديث جاء فيه «وإياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح . قال في الترغيب والترهيب رواه أبو داود مختصرًا والحاكم واللفظ له، وقال: صحيح على شرط مسلم.

القلوب ، وهو زمام يقاد به إلى كل سوء »[١] وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : إن البخل لو كان قميصًا ما لبستُه أو كان طريقًا ما سلكته .

وقيل : بخلاء العرب أربعة : الحطيئة ، وحميد الأرقط ، وأبو الأسود الدؤلى ، وخالد بن صفوان .

فأما الحطيئة : فمرّ به إنسان وهو على باب داره ، وبيده عصا فقال : أنا ضيف فأشار إلى العصا وقال : لِكِعاب الضيفان أعددتها .

وأما حميد الأرقط : فكان هجّاء للضيفان ، فحّاشًا عليهم ، نزل به مرّة أضياف فأطعمهم تمرًا ، وهجاهم ، وذكر أنهم أكلوه بنواه .

وأما أبو الأسود : فتصدق على سائل بثمرة ، فقال له : جعل الله نصيبك من الجنة مثلها ، وكان يقول لو أطعنا المساكين فى أموالنا كُنّا أسوأ حالاً منهم .

وأما خالد بن صفوان : فكان يقول للدرهم إذا دخل عليه : يا عيَّار ؛ كم تعير وكم تطوف وتطير؟! ، لأطيلنّ حبسك ، ثم يطرحه فى الصندوق ، ويقفل عليه . وقيل له : لِمَ لا تنفق ومالك عريض ؟ فقال : الدهر أعرض منه ، وأنشد بعضهم :

وهَبْنى جمعتُ المالَ ثم خزنتهُ ... وحانت وفاتى هل أُزاد به عُمرًا ؟!
إذا خزن المالَ البخيلُ فإنه ... سيُورِثُهُ غمًّا ويُعقبه وِزرًا

واستأذن حنظلة على صديق له بخيل ، فقيل : هو محموم ، فقال : كلوا بين يديه حتى يعرق .

وكتب سهل بن هارون كتابًا فى مدح البخل ، وأهداه إلى الحسن بن سهل ، فوقع على ظهره : قد جعلنا ثوابك عليه ما أمرتَ به فيه ، وقال ابن أبى فنن :

ذرينى وإتلافى لمالى فإننى ... أُحِبّ من الأخلاق ما هو أجمل
وإنّ أحق الناس باللوم شاعرٌ ... يلوم على البخل الرجالَ ويبخل

وكان عمر بن يزيد الأُسدى : بخيلاً جدًا أصابه القولنج فى بطنه[٢] ، فحقنه الطبيب بدهن كثير فانحل ما فى بطنه فى الطَّسْت ، فقال لغلامه : اجمع الدهن الذى نزل من الحقنة وأسرج به[٣] . وكان المنصور شديد البخل جدًّا ، مرّ به مسلم الحادى فى طريقه إلى الحج ، فحدا له يومًا بقول الشاعر :

أَغَرُّ بين الحاجبين نورُه ... يزينُه حياؤه وخيرُه
ومنكبٌ يشوبه كافورُه ... إذا تغدى رُفعت ستورُه

فطرب حتى ضرب برجله المحمل ثم قال : يا ربيع ، أعطه نصف درهم ، فقال مسلم : نصف درهم يا أمير المؤمنين ؛ والله لقد حدوتُ[٤] لهشام فأمر لى بثلاثين ألف درهم ، فقال : تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم ؟! يا ربيع ، وكَلِّل به من يستخلص منه هذا المال . قال الربيع : فمازلت أمشى بينهما ، وأروضه حتى شرط مسلم على نفسه أن يحدوَ له فى ذهابه وإيابه بغير مؤنة . وكان أبو العتاهية ، ومروان بن أبى حفصة بخيلين ، يضرب ببخلهما المثل ، قال مروان : ما فرحت بشىء أشد مما فرحت بمائة ألف درهم وهبها لى المهدى ، فوزنتها فرجحت درهمًا ، فاشتريت به لحمًا . واشترى يومًا لحمًا بدرهم فلم وضعه فى القدر دعاه صديقه ، فردّ اللحم على القصاب بنقصان دانقين[٥] ، فجعل القصاب ينادى على اللحم ويقول : هذا لحم مروان . واجتاز يومًا بأعرابية

---

(١) وعنه ﷺ البخل.. إلخ» لم أقف عليه.
(٢) القولَنج: وقد تكسر لامُه: مرض معوي مؤلم يعسر معه خروج الثُّفل والريح.
(٣) أسرج به: أوقد به السراج.
(٤) حدوتُ: حدا فلانًا على كذا: بعثه عليه، وحدا الشيءَ: تبِعه، وتعمَّده وتحرَّاه.
(٥) دانقين: مثنى دانق، وهو سدس الدرهم.

فأضافته ، فقال : إن وهب لى أمير المؤمنين مائة ألف درهم ، وهبت لك درهمًا ؛ فوهبه سبعين ألف درهم ، فوهبها أربعة دوانق .

ومن الموصوفين بالبخل أهل مرو ، يقال : إنّ من عادتهم إذا ترافقوا فى سفر أن يشترى كل واحد منهم قطعة لحم ، ويشكها فى خيط ، ويجمعون اللحم كله فى قدر ويسمك كل واحد منهم طرف خيطه ، فإذا استوى جَرَّ كل منهم خيطه ، وأكل لحمه ، وتقاسموا المرق ، وقيل لبخيل : من أشجع الناس ؟ قال من سمع وقع أضراس الناس على طعامه ، ولم تنشق مرارته .

وقيل لبعضهم : أما يكسوك محمد بن يحيى ؟! فقال : والله لو كان له بيت مملوء إبرًا وجاء يعقوب ومعه الأنبياء شفعاء ، والملائكة ضمناء يستعير منه إبرة ليخط بها قميص يوسف الذى قُدّ من دبر ما أعاره إياها ، فكيف يكسونى ؟! وقد نظم ذلك من قال :

لو أنّ دارك أنبتتْ لك واحتشت ... إبرًا يضيقُ بها فناءُ المنزلِ
وأتاك يوسف يستعيرك إبرةً ... ليخيطَ قدّ قميصِه لم تَفعل !

وكان المتنبى بخيلاً جدًّا مدحه إنسان بقصيدة فقال له : كم أمّلْتَ منا على مدحك ؟ قال : عشرة دنانير . قال له : والله لو ندفت قطن الأرض بقوس السماء ، على جباه الملائكة ، ما دفعت دانقًا . وقال دعبل : كنا عند سهل بن هارون فلم نبرح حتى كاد يموت من الجوع ، فقال : ويلك يا غلام آتنا غداءنا، فأتى بقصعة فيها ديك مطبوخ تحته ثريد قليل ، فتأمل الديك فرآه بغير رأس فقال للغلام : وأين الرأس ؟ فقال : رميته ، فقال : والله إنى لأكره من يرمى برجله فكيف برأسه ؟! ويحك ! أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء ؟ ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه عُرفه الذى يتبرك به ، وعينه التى يضرب بها المثل ، فيقال : شراب كعين الديك ، ودماغه عجيب لوجع الكُلية ، ولم نر عظمًا أهش تحت الأسنان من عظم رأسه ، وهبك ظننت أنى لا آكله ، أما قلت عنده من يأكله ؟! انظر فى أى مكان رَميته فأتنى به فقال : والله لا أدرى أين رميتُه ، فقال : لكنى أنا أعرف أين رميته ؛ رميته فى بطنك ، الله حسبك . وقيل : من الناس من يبخل بالطعام ، ويجود بالمال وبالعكس . قال بعضهم فى أبى دلف :

أبو دلف يُضَيّع ألفَ ألف ... ويضربُ بالحسام على الرغيف
أبو دلف لمطبخه قَتارٌ ... ولكن دونه سَلّ السيوف [1]

واشتكى رجل مروزىّ [2]، صدرَه من سُعال ، فوصفوا له سويق اللوز ، فاستثقل النفقة ، ورأى الصبر على الوجع أخف عليه من الدواء ، فبينما هو يماطل الأيام ، ويدافع الآلام ، إذ أتاه بعض أصدقائه فوصف له ماء النخالة ، وقال : إنه يجلو الصدر فأمر بالنخالة ، فطبخت له ، وشرب من مائها فجلا صدره ، ووجده يعصم ، فلما حضر غداؤه أمر به فرُفع إلى العشاء وقال لامرأته : اطبخى لأهل بيتنا النخالة ، فإنى وجدت ماءها يعصم ، ويجلو الصدر ، فقالت : لقد جمع الله لك بهذه النخالة بين دواء وغذاء فالحمد لله على هذه النعمة . وعن خاقان بن صبح قال : دخلت على رجل من أهل خراسان ليلا فأتانا بمسرجة فيها فتيلة فى غاية الرقة ، وقد علق فيها عودا بخيط ، فقلت له : ما بال هذا العود مربوطًا قال : قد شرب الدهن ، وإذا ضاع ولم نحفظه احتجنا إلى غيره فلا نجد إلا عودًا عطشانًا ، ونخشى أن يشرب الدهن ، قال فبينما أنا أتعجب ، وأسأل الله العافية إذ دخل علينا شيخ من أهل مرو فنظر إلى العود ، فقال للرجل : يا فلان ، لقد فررت من شىء ووقعت فيما هو شر منه ، أما علمت أن الريح والشمس يأخذان من سائر الأشياء ، وينشفان هذا العود ؟! لم لا اتخذت مكان هذا العود إبرة من حديد ، فإن الحديد أملس ، وهو مع ذلك غير نشاف ، والعود أيضًا ربما يتعلق به شعرة من قطن الفتيلة فينقصها ، فقال له الرجل الخراسانى ، أرشدك الله ، ونفع بك ، فلقد كنت فى ذلك من المسرفين .

---

(١) القَتار: الرائحة المنبعثة مع دخان من الطبخ أو الشواء، أو العظم المحروق.

(٢) مروزي: منسوب إلى مَرْو.

وقال الهيثم بن عدى نزل على أبى حفصة الشاعر رجل من اليمامة فأخلى له المنزل ، ثم هرب مخافة أن يلزمه قراه [١] ، فى هذه الليلة ، فخرج الضيف ، واشترى ما احتاج إليه ثم رجع وكتب إليه :

يـأيُـهـا الـخـارجُ مـن بـيـتـه ... وهـاربًـا مـن شـدة الـخـوفِ
ضـيـفُـك قـد جـاء بـزادٍ لـه ... فـارجـع وكُـنْ ضـيـفًـا عـلـى الـضـيـف

واشترى رجل من البخلاء دارًا وانتقل إليها ، فوقف ببابه سائل فقال له : فتح الله عليك ، ثم وقف ثان فقال له : مثل ذلك ، ثم وقف ثالث فقال له مثل ذلك ، ثم التفت إلى ابنته فقال لها : ما أكثر السؤال فى هذا المكان : قالت : يا أبت ما دمت مستمسكًا لهم بهذه الكلمة فما تبالى كثروا أم قلوا .

وألأَمُ اللئام ، وأبخلهم حميد الأرقط الذى يقال له : هَجَّاء الأضياف ، وهو القائل فى ضيف له يصف أكله بهذا البيت من قصيدة له :

مـا بـيـن لـقـمـتـه الأولـى إذا انـحـدرت ... وبـيـن أخـرى تـلـيـهـا قـيـد أُظـفـور [٢]

وقال فيه أيضًا :

تُـجَـهِّـزُ كـفَّـاه ويَـحـدرُ حـلـقُـه ... إلـى الـزور مـا ضُـمَّـت عـلـيـه الأنـامـلُ

وأكل أعرابى مع أبى الأسود رُطَبًا فأكثر ، ومد أبو الأسود يده إلى رطبة ليأخذها فسبقه الأعرابى إليها ، فسقطت منه فى التراب ، فأخذها أبو الأسود وقال : لا أدعها للشيطان يأكلها ، فقال الأعرابى : والله ولا لجبريلَ وميكائيلَ لو نزلا من السماء ما تركتها ! وقال أعرابى لنزيل نزل به : نزلت بواد غير ممطور ، ورجل بك غير مسرور ، فأقم بعدم ، أو ارحل بندم . وللحمدونى :

رأيـت أبـا زرارةَ قـال يـومًـا ... لـحـاجـبـه وفـي يـده الـحُـسـامُ
لـئـن وضـع الـخـوان [٣] ولاح شـخـص ... لأخـتـطـفـنّ رأسـك والـسـلام
فـقـال : سـوَى أبـيـك فـذاك شـيـخ ... بـغـيـضٌ لـيـس يـردعُـه الـكـلام
فـقـام وقـال : مـن حـنـق [٤] إلـيـه ... بـبـيـت لـم يـرد فـيـه الـقـيـام
أبـى وابـنـا أبـى والـكـلـب عـنـدى ... بـمـنـزلـةٍ إذا حـضـر الـطـعـام
وقـال لـه : ابـن لـى يـا بـن كـلـب ... عـلـى خـبـزى أصـادر أو أضـام [٥]
إذا حـضـر الـطـعـام فـلا حـقـوق ... عـلـىّ لـوالـدىّ ولا ذمـام [٦]
فـمـا فـى الأرض أقـبـح مـن خُـوان ... عـلـيـه الـخـبـز يـحـضـره الـزحـام

فأين هذا من القائل :

بـخـيـل يـرى فـى الـجـود عـارًا وإنـمـا ... يـرى الـمـرء عـارًا أن يـضـنّ ويـبـخـلا
إذا الـمـرءُ أثـرى ثـم لـم يـرجُ نـفـعَـه ... صـديـقٌ فـلاقـتـه الـمـنـيـة أوّلاَ

وقال آخر :

وآمـرةٍ بـالـبـخـل قـلـت لـهـا : اقـصـرى ... فـلـيـس إلـيـه مـا حـيـيـتُ سـبـيـلُ
أرى الـنـاس إخـوانَ الـكـريـم ومـا أرى ... بـخـيـلاً لـه فـى الـعـالـمـيـن خـلـيـل

---

(١) القِرى: ما يقدم للضيف.
(٢) قِيدُ أُظفور: القِيد - بكسر القاف- المقدار يقال : بينهما قِيدُ رمح، ويضرب المثل بالأظفور في القلة.
(٣) الخِوان: المائدة. ما يؤكل عليه.
(٤) حنق عليه حنقًا: اشتد غيظه، فهو حنِقٌ، وحنيق.
(٥) أضام: ضامه ضيْمًا، أي ظلمه، وأذلّه. ويقال: ضام فلانًا حقّه: انتقصه وغبنه.
(٦) الذِّمام: العهد، والأمان، والكفالة.

وقالوا : إذا سألت لئيمًا شيئًا فعاجله ولا تدعه يفكر ، فإنه كلما فكر ازداد بعدًا ، وقال ربعى الهمدانى :

جمعت صنوف المال من كل وجهة ... وما نلتها إلا بكف كريم
وإنى لأرجو أن أموت وتنقضى ... حياتى وما عندى يد للئيم

وأنشد الجاحظ لأبى الشمقمق :

ممن تعلمت هذا ... أن لا تجود بشئ
أما مررت بعبد ... لعبد حاتِم طئ

ومما قالته الشعراء فى البخلاء وطعامهم : فمن أهجى ما قيل فيهم بيت جرير فى بنى تغلب :

والتغلبى إذا تنحنح للقِرى ... حك استه وتمثل الأمثالا[1]

وله أيضًا فيهم :

قوم إذا أكلوا أخفُوا كلامهم ... واستوثقوا من رِتاج[2] الباب والدارِ
قوم إذا استنبح الضّيفانُ كلبهم ... قالوا لأمهم : بولى على النارِ
فتمنعُ البول شُحًّا أن تجود به ... وما تبول لهم إلا بمقدارِ
والخبزُ كالعنبر الهندىّ عندهم ... والقمحُ خمسون إردبًا بدينارِ

فأين هؤلاء من الذى قال فيه الشاعر :

أبلجُ[3] بين حاجبيه نورُه ... إذا تغدى رُفِعَتْ سُتُورُه

وقال بعضهم فى بخيل :

أتانا بخيلٌ بخبزٍ له ... كمثل الدراهم فى رقّته
إذا ما تنفَّس حول الخُوان ... تطاير فى البيت من خِفته

وقال آخر :

تراهم خشيةَ الأضياف خُرسًا ... يقيمون الصّلاة بلا أذانِ

وقال آخر وقد بات عند بخيل :

فبِتْنَا كأنّا بينهم أهل مأتم ... على ميت مستودع بطن ملحد
يحدث بعضًا بعضنا بمصابه ... ويأمر بعضًا بعضُنا بالتجلد

وقال آخر :

وجيرة لا نرى فى الناس مثلهم ... إذا يكون لهم عيد وإفطار
إن يوقدوا يوسعونا من دخانهم ... وليس يبلغنا ما تطبخ النار

وقال آخر وأجاد :

فصدق أيمانه إن قال مجتهدًا : ... لا والرغيف فذاك البرّ من قسمه
فإن هممتَ به فاعبث بخبزته ... فإن موقعها من لحمه ودمه
قد كان يعجبنى لو أن غيرته ... على جَرادقه كانت على حُرَمه[4]

وقال آخر :

---

(١) القِرى: ما يقدم للضيف، والاست: حلقة الدبر.
(٢) الرّتاج: الغلب [التربأس].
(٣) أبلج: بليغ الإنسان: بعُد ما بين حاجبيه، فهو أبلج، وهي بلجاء، والجمع بُلْج. وكل واضح أبلج، وفي المثل: «الحق أبلج والباطل لَجلج».
(٤) الجرادق: الأرغفة الغليظة والخبز الجاف.

ذهب الكرامُ فلا كرام ... وبقى العضاريط اللئام[١]
من لا يُقيل ولا يُنيل ... ولا يُشم له طعامُ

وقال آخر :

خليلىّ من كعب أعينا أخاكما ... على دهره إن الكريم مُعين
ولا تبخلا بخل ابن قزعة إنه ... مخافة أن يُرجَى نَداهُ حزين
إذا جئته فى حاجة سدّ بابه ... فلم تلقه إلا وأنت كمين

وقال آخر :

له يومان : يوم ندىً ويوم ... يسل السيف فيه من القِراب[٢]
فأما جوده فعلى قحاب[٣] ... وأما سيفه فعلى الكلاب

وقال آخر :

زففت إلى نبهان من صفو فكرتى ... عروسًا غدا بطن الكتاب لها صدرا
فقبّلها عشرًا ، وهام بحبها ... فلما ذكرت المهر طلقها عشرا

وقال آخر :

لو عبر البحرَ بأمواجه ... فى ليلة مُظلمة بارِدَهْ
وكفّه مملوءة خردلاً ... ما سقطت من كفّه واحده

وقال آخر :

يا قائما فى داره قاعدا ... من غير معنى لا ولا فائدة
قد مات أضيافُك من جوعهم ... فاقرأ عليهم سورة المائدة

وقال آخر :

نوالُك دونه شوكُ القتاد ... وخبزك كالثريا فى البِعَاد[٤]
فلو أبصرت ضيفًا فى منام ... لحرّمتَ الرقادَ إلى المعاد

وقال ابن أبى حازم :

وقالوا : قد مدحت فتى كريمًا ... فقلت : وكيف لى بفتى كريم ؟!
بَلوتُ ومرّ بى خمسون حولاً ... وحسبك بالمجرّب من عليم
فلا أحدٌ يُعِدّ ليوم خير ... ولا أحد يجود على عديم

ومن رؤساء أهل البخل محمد بن الجهم : وهو الذى قال : وددت لو أن عشرة من الفقهاء ، وعشرة من الخطباء وعشرة من الشعراء ، وعشرة من الأدباء تواطئوا على ذمّى ، واستسهلوا شتمى ، حتى ينتشر ذلك فى الآفاق فلا يمتدّ إلىَّ أمل آمل ، ولا يبسط نحوى رجاء راجٍ .

وقال له أصحابه يومًا : إنا نخْشىٰ أن نقعد عندك فوق مقدار شهوتك ، فلو جعلت لنا علامة نعرف بها وقت استثقالك لمجالستنا ، فقال : علامة ذلك أن أقول : يا غلام هات الغداء .

وقال عمر بن ميمون : مررت ببعض طرق الكوفة ، فإذا أنا برجل يخاصم جارًا له ، فقلت : ما بالكما ؟ فقال

---

(١) العضاريط : جمع عِضرك وهو اللئيم الخسيس والصعلوك.
(٢) القِراب : غِمْد السيف، ونحوه. والجمع قُرُب، وأقْربة.
(٣) قِحاب : يقال قحبَ الرجلُ إذا سعل من لؤمه، وقِحاب جمع قَحْب، وهو المُسِن يأخذه السعال.
(٤) النوال : العطاء، والقتاد : نبات صَلْب له شوك كالإبر وفي المثل «من دونه خرط القتاد» يضرب للشيء ولا ينال إلا بمشقة عظيمة.

أحدهما : إن صديقًا لى زارنى ، فاشتهى رأسًا فاشتريته ، وتغدينا ، وأخذت عظامه فوضعتها على باب دارى ، أتجمل بها ، فجاء هذا فأخذها ووضعها على باب داره يوهم الناس أنه هو الذى اشترى الرأس .

وقال رجل من البخلاء لأولاده : اشتروا لى لحمًا ، فاشتروه ، فأمر بطبخه ، فلما استوى أكله جميعه حتى لم يبق فى يده إلا عظمة ، وعيون أولاده ترمقه ، فقال : ما أعطى أحدًا منكم هذه العظمة حتى يحسن وصف أكلها ، فقال ولده الأكبر أمشمشها يا أبت وأمصها حتى لا أدع للذر فيها مقيلا . قال : لست بصاحبها . فقال الأوسط : ألوكها يا أبت ، وألحسها حتى لا يدرى أحد لعام هى أم لعامين ! قال : لست بصاحبها ، فقال الأصغر : يا أبت أمصها ، ثم أدقها وأسفها سفا . قال : أنت صاحبها وهى لك زادك الله معرفة وحزمًا .

ووقف أعرابى على أبى الأسود : وهو يتغدى ، فسلم فرد عليه ثم أقبل على الأكل ولم يعزم عليه ، فقال له الأعرابى : أما إنى قد مررت بأهلك قال : كذلك كان طريقك ، قال : وامرأتك حُبلى ، قال : كذلك كان عهدى بها ، قال : قد ولدت ، قال : كان لابد لها أن تلد . قال : ولدت غلامين ، قال : كذلك كانت أمها . قال : مات أحدهما . قال : ما كانت تقوى على إرضاع اثنين ، قال : ثم مات الآخر . قال : ما كان ليبقى بعد موت أخيه ، قال : وماتت الأم . قال : حزنًا على ولديها . قال : ما أطيب طعامك . قال : لأجل ذلك أكلته وحدى ، ووالله لا ذقته يا أعرابى . **وقيل** : خرج أعرابى قد ولاه الحجاج بعض النواحى ، فأقام بها مدة طويلة ، فلما كان فى بعض الأيام ورد عليه أعرابى من حيه ، فقدم إليه الطعام ، وكان إذ ذاك جائعًا فسأله عن أهله وقال : ما حال ابنى عمير ؟ قال : على ما تحب قد ملأ الأرض والحى رجالاً ونساء . قال : فما فعلت أم عمير ؟ قال : صالحة أيضًا قال : فما حال الدار ؟ قال : عامرة بأهلها . قال : وكلبنا إيقاع ، قال : قد ملأ الحى نبحًا قال : فما حال جملى زريق ؟ قال : على ما يسرك ، قال : فالتفت إلى خادمه . وقال : ارفع الطعام ، فرفعه ولم يشبع الأعرابى . ثم أقبل عليه يسأله . وقال : يا مبارك الناصية أعد على ما ذكرت . قال : سل عما بدا لك ، قال : فما حال كلبى إيقاع ؟ قال : مات . قال : وما الذى أماته ؟ قال : اختنق بعظمة من عظام جملك زُريق فمات ، قال : أَوَ ماتَ جملى زريق ؟ قال : نعم . قال : وما الذى أماته ؟ قال : كثرة نقل الماء إلى قبر أم عمير ، قال : أوماتت أم عمير ؟ قال : نعم . قال : وما الذى أماتها ؟ قال : كثرة بكائها على عمير ! قال : أومات عمير ؟ قال : نعم . قال : وما الذى أماته ؟ قال : سقطت عليه الدار ! قال : أوسقطت الدار ؟ قال : نعم . قال : فقام له بالعصا ضاربًا فولى من بين يديه هاربًا .

(وحكى) بعضهم قال : كنت فى سفر فضللت عن الطريق ، فرأيت بيتًا فى الفلاة ، فأتيته ، فإذا به أعرابية ، فلما رأتنى قالت : من تكون ؟ قلت : ضيف . قالت : أهلاً ومرحبًا بالضيف ، انزل على الرحب والسعة ، قال : فنزلت ، فقدمت لى طعامًا فأكلت ، وماء فشربت ، فبينما أنا على ذلك ، إذ أقبل صاحب البيت . فقال : من هذا ؟ فقالت : ضيف ، فقال : لا أهلا ولا مرحبًا ما لنا وللضيف ، فلما سمعتُ كلامَه ، ركبت من ساعتى وسرت فلما كان من الغد رأيت بيتًا فى الفلاة ، فقصدته فإذا فيه أعرابية ، فلما رأتنى قالت : من تكون ؟ قلت : ضيف ، قالت : لا أهلا ولا مرحبا بالضيف ، مالنا وللضيف ، فبينما هى تكلمنى إذ أقبل صاحب البيت ، فلما رآنى قال : من هذا ؟ قالت : ضيف . قال : مرحبًا وأهلاً بالضيف ، ثم أتى بطعام حسن فأكلت ، وماء فشربت فتذكرت ما مر بى بالأمس فتبمست ، فقال : مِمَ تبسمك ؟ فقصصت عليه ما اتفق لى مع تلك الأعرابية وبعلها ، وما سمعت منه ومن زوجته ، فقال : لا تعجب ، إن تلك الأعرابية التى رأيتها هى أختى ، وإن بعلها أخو امرأتى هذه فغلب على كل طبع أهله ، وحكايات هؤلاء وأمثالهم كثيرة ، وأخبارهم ونوادرهم شهيرة ، وفيما ذكرته كفاية ، وأسأل الله تعالى التوفيق والهداية إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الخامس والثلاثون

في الطعام وآدابه ، والضيافة وآداب المضيف والضيف ، وأخبار الأكلة ، وما جاء عنهم ، وغير ذلك

أمّا إباحة الطيب من المطاعم : فقد قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة:١٧٢] وقال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ [المائدة:٤] وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف:٣٢] وقال رسول الله ﷺ : « **مُحَرِّمُ الْحَلالِ كَمُحَلِّلِ الْحَرَامِ** »(١) . وقال عليه الصلاة والسلام : « **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ فِي مَأْكَلِهِ وَمَشْرَبِهِ** »(٢) . وكان الحسن يقول : ليس في اتخاذ الطعام سرف . وسئل الفضل عمن يترك الطيبات من اللحم والخبيص(٣) للزهد ، فقال : ما للزهد وأكل الخبيص ؟! ليتك تأكل وتتقى الله ، إن الله لا يكره أن تأكل الحلال إذ اتقيت الحرام ، انظر كيف برك بوالديك وصلتك للرحم ؟! وكيف عطفك على الجار ؟ وكيف رحمتك للمسلمين ؟ وكيف كظمك للغيظ ؟ وكيف عفوك عمن ظلمك ؟ وكيف إحسانك إلى من أساء إليك ؟ وكيف صبرك واحتمالك للأذى ، أنت إلى أحكام هذا أحوج من ترك الخبيص .

أما نعوت الأطعمة وما جاء فيها : فقد نقل عن الرشيد أنه سأل أبا الحارث عن الفالوذج(٤) واللوزينج ، أيهما أطيب ؟! فقال : يا أمير المؤمنين ، لا أقضى على غائب ، فأحضرهما إليه ، فجعل يأكل من هذا لقمة ومن هذا لقمة ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، كلما أردت أن أقضى لأحدهما أتى الآخر بحجته ! واختلف الرشيد وأم جعفر في الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب ؟! فحضر أبو يوسف القاضي فسأله الرشيد عن ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين لا يقضى على غائب ، فأحضرهما ، فأكل حتى اكتفى فقال له الرشيد : احكم ، قال : قد اصطلح الخصمان يا أمير المؤمنين ، فضحك الرشيد ، وأمر له بألف دينار . فبلغ ذلك زبيدة فأمرت له بألف دينار إلا دينارًا . وسمع الحسن البصري رجلاً يعيب الفالوذج ، فقال : لُبابُ البرِّ بلعاب النحل ، بخالص السمن . ما أظن عاقلاً يعيبه . وقال الأصمعي : أول من صنع الفالوذج عبد الله بن جدعان ، وأتى أعرابي بفالوذج فأكل منه لقمة ، فقيل له : هل تعرف هذا ؟ فقال : هذا وحياتك الصراط المستقيم ، « وَكَانَ أَحَبُّ الطَّعَامِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اللَّحْمَ »(٥) ، وعن أبي الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « **سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم** »(٦) . وكان ﷺ يقول : « **هو سيد الطعام في الدنيا والآخرة ، وهو يزيد في السمع ، ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل** »(٧) . وكان ﷺ يحب الدباء ويقول : « **يا عائشة إذا طبختم قدرًا فأكثروا فيها من الدباء**(٨) ، فإنها تشد القلب الحزين ، وهو شجرة أخي يونس »(٩) . وعنه ﷺ أنه قال : « **عليكم بالقرع فإنه يشد الفؤاد ، ويزيد في الدماغ ، وعليكم بالعدس فإنه يرق القلب ، ويغزر الدمعة** »(١٠) ، وعن أبي رافع

---

(١) «محرم الحلال كمحلل الحرام». أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» [٦/ ٣٤].

(٢) «إن الله يحب.. إلخ». قال العجلوني: رواه الترمذي وحسنه.

(٣) الخبيص: الحلواء المخبوصة من التمر والسمن.

(٤) الفالوذج واللوزينج: الفالوذ والفالوذج نوع من الحلوى يعمل من الدقيق والعسل. [الألفاظ الفارسية ١٢٠]، أما اللوزينج: من الحلوى شبه القطائف يؤدم بدُهن اللوز. [معربة]، وكما سيأتي [لباب البُر، بلعاب النحل، بخالص السمن].

(٥) وكان أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ .. إلخ. أخرجه مسلم [٣٢٧-٣٢٨/ كتاب الإيمان]، والترمذي [١٨٣٧-٢٤٣٤]، وابن ماجه [٣٣٠٧]، وأحمد [٢/ ٤٣٥].

(٦) سيد الطعام.. إلخ. ضعيف جدًا: أخرجه ابن ماجه [٣٣٠٥]، وانظر: ميزان الاعتدال [٢/ ٢١٥].

(٧) هو سيد الطعام.. إلخ. أورده المتقي الهندي في «كنز العمال» [٤١٠٠١]، وعزاه لأبي نعيم في «الطب» عن علي.

(٨) الدباء: بتشديد الدال المضمومة مع فتح الباء: القَرْع.

(٩) وكان ﷺ يقول: «يا عائشة.. إلخ». ضعيف: أخرجه أبو بكر الشافعي في «الغيلانيات» [٢/ ١٢٨-مخطوط]، وسنده ضعيف، وانظر: «فيض القدير» [١/ ٣٩٧-٣٩٨].

(١٠) «عليكم بالقرع.. إلخ» موضوع: أخرجه الطبراني في «الكبير» عن واثلة بن الأسقع، وفيه: عمرو بن الحصين، متروك، وانظر: «مجمع الزوائد» للهيثمي [٥/ ٤٤]، والسلسلة الضعيفة للألباني [٢/ ٦، ٧].

قال : كان أبو هريرة ﷺ يقول : أكل التمر أمان من القولنج ، وشرب العسل على الريق أمان من الفالج[١] ، وأكل السفرجل يحسن الولد ، وأكل الرمان يصلح الكبد ، والزبيب يشد العصب ، ويذهب بالنصب والوصب[٢] ، والكرفس يقوى المعدة ويطيب النكهة ، وأطيب اللحم الكتف ، وكان يُديم أكل الهريسة ، وكان يأكل على سماط معاوية ، ويصلى خلف على ، ويجلس وحده ، فسئل عن ذلك فقال : طعام معاوية أدسم ، والصلاة خلف على أفضل ، وهو أعلم ، والجلوس وحدى لى أسلم .

وسميت المتوكلية بالمتوكل ، والمأمونية بالمأمون .

وقال الحسن بن سهيل يومًا على مائدة المأمون : الأرز يزيد فى العمر ، فسأله المأمون عن ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن طلب الهند صحيح وهم يقولون : إن الأرز يرى منامات حسنة ، ومن رأى منامًا حسنًا ، كان فى نهارين فاستحسن قوله ، ووصله .

وقال أبو صفوان : الأرز الأبيض بالسمن والسكر ليس من طعام أهل الدنيا وكانت العرب لا تعرف الألوان إنما كان طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح ، حتى كان زمن معاوية ﷺ فاتخذ الألوان ، ويقال للمرقة المسخنة بنت نارين ، وكان بعض المترفهين يقول : جنبوا مائدتى بنت نارين . وقالوا : كل طعام أعيد عليه التسخين مرتين فهو فاسد ، وقيل : إذا ألقى اللحم فى العسل ، ثم أخرج بعد شهر طريًا ، فإنه لا يتغير ، ويقال للسكباج[٣] : سيد المرق ، وشيخ الأطعمة ، وزين الموائد . ويقال : إذا طبخت اللحم بالخل فقد ألقيت عن معدتك ثلث المؤنة . ويقال للخبز ابن حبة قال بعضهم :

فى حبة القلب منى زرعت حُبّ ابن حَبّه

وعن ابن عباس ﷺ رفعه « **أكرموا الخبز** » ، قالوا : وما كرامته يا رسول الله ؟ قال : « **لا ينتظر به الإدام إذا وجدتم الخبز فكلوه حتى تؤتوا بغيره** »[٤] . وفى الحديث : « **من داوم على اللحم أربعين يومًا قسا قلبه ، ومن تركه أربعين يومًا ساء خلقه** »[٥] . وقيل : المائدة التى أنزلت على بنى إسرائيل ، كان عليها كل البقول إلا الكراث ، وسمكة عند رأسها خل ، وعند ذنبها ملح ، وسبعة أرغفة على كل واحد زيتون وحب رمان . ودخل ابن قزعة يومًا على عز الدولة وبين يديه طبق فيه موز فتأخر عن استدعائه ، فقال : ما بال مولانا ليس يدعونى إلى الفوز بأكل الموز ؟ فقال صفه حتى أطعمك منه ، فقال : ما الذى أصف من حسن لونه فيه سبائك ذهبية ، كأنها حشيت زبدًا وعسلاً ، أطيب الثمر كأنه مخ الشحم ، سهل المقشر ، لين المكسر ، عذب المطعم بين الطعوم ، سلس فى الحلقوم ، ثم مدّ يده وأكل .

وسمع رجلاً يذم الزبد ، فقال له : ما الذى ذممت منه ؟! سواد لونه ، أم بشاعة طعمه ، أم صعوبة مدخله ، أم خشونة ملمسه ؟! وقيل له : ما تقول فى الباذنجان ؟ قال : أذناب المحاجم[٦] ، وبطون العقارب ، وبزور الزقوم[٧] . قيل له : إنه يُحشى باللحم ، فيكون طيبًا ، فقال : لو حُشِىَ بالتقوى والمغفرة ما أفلح .

وصنع الحجاج وليمة واحتفل فيها ، ثم قال لزازان : هل عمل كسرى مثلها ؟ فاستعفاه ، فأقسم عليه ، فقال : أولم عبد عند كسرى ، فأقام على رءوس الناس ألف وصيفة[٨] ، فى يد كل واحدة إبريق من ذهب . فقال الحجاج : أفّ والله ما تركت فارس لمن بعدها من الملوك شرفًا .

---

(١) الفَالج : شللٌ يصيب أحد شقَّي الجسم طولًا .

(٢) النَّصَب : التَّعب . والوصب : الوجع والمرض ، والتعب أيضًا .

(٣) السكباج : مرق يعمل من لحم وخَلّ معرب «سكبًا» [الألفاظ الفارسية ٩٨] .

(٤) «أكرموا الخبز . . إلخ» انظر : «مجمع الزوائد» [٥/ ٣٤]، والموضوعات لابن الجوزي [٢/ ٢٩٠-٢٩١]، والضعفاء الكبير للعقيلي [٣/ ٢٨]، وابن عدي في «الكامل» [٧/ ٢٥٠٨]،والخطيب في «التاريخ» [١٢/ ٣٢٣]، والمجروحين لابن جابر [٢/ ١٣٤] .

(٥) «من داوم على اللحم . . إلخ» ليس بحديث، وانظر : «الطب النبوي» لابن القيم [ص٢٨٩]، «زاد المعاد» الجزء الرابع له طبع . مكتبة القرآن .

(٦) المحاجم : مفردها مِحْجم، وهي أداة الحجم، والقارورة التي يُجمع فيها دم الحجامة .

(٧) الزَّقوم : شجرة مرَّة كريهة الرائحة، ثمرها طعام أهل النار .

(٨) وصيفة : خادمة، والجمع وصائف .

وأهدى رجل إلى آخر فالوذجة زَنخة وكتب إليه : إنى اخترت لعملها السكر السوسى ، والعسل الماردانى ، والزعفران الأصبهانى ، فأجابه : والله العظيم ما عُملتْ إلا قبل أن توجد أصبهان ، وقبل أن تفتح السوس .

وقيل : إن أبا جهم بن عطية كان عينًا لأبى مسلم الخولانى على المنصور ، فأحس المنصور بذلك ، فطاوله الحديث يومًا حتى عطش ، فاستسقى ، فدعا له بقدح من سويق اللوز فيه السم ، فناوله إياه فشرب منه ، فما بلغ داره حتى مات فقيل فى ذلك :

تجنب سويقَ اللوز لا تقربنه ... فشُرب سَويق اللَّوز أردى أبَا جهم

وقال أبو طالب المأمونى :

فما حملت كفُّ امرئ مُتطعِّمًا ... ألذَّ وأشهى من أصابع زينب

(وأصابع زينب) ضرب من الحلوى ، يعمل ببغداد يشبه أصابع النساء المنقوشة .

ودخل السائب على علىّ ﷺ فى يوم شاتٍ ، فناوله قدحًا فيه عسل وسمن ولبن ، فأباه ، فقال : أما إنك لو شربته لم تزل دفئًا شبعان سائر يومك .

وعن نافع بن أبى نعيم قال : كان أبو طالب يعطى عليًّا قدحًا من اللبن يصبه على اللات ، فكان على يشرب اللبن ، ويبول على اللاتِ .

(وأما الزهد فى المآكل) ، فقد زهد فيه كثير من الأخيار مع القدرة عليه ، ومنهم من لا يقدر عليه ، قالت عائشة رضى الله عنها : « والذى بعث محمدًا ﷺ بالحق ما كان لنا منخل ، ولا أكل رسول الله - خبزًا منخولاً منذ بعثه الله تعالى إلى أن قبض . قيل : فكيف كنتم تأكلون الشعير ؟ قالت : كنا نقول أف أف »[١] . وعن جابر ﷺ رفعه « **نِعْمَ الأدم الخل وكفى بالمرء سرفًا أن يتسخط ما قرب إليه** »[٢] ، وقال عمر ﷺ : « ما اجتمع عند رسول الله ﷺ أدمان إلا أكل أحدهما ، وتصدّق بالآخر »[٣] . وقالت عائشة ﷺ : « ما كان يجتمع لونان فى لقمة فى فم رسول الله ﷺ إن كان لحمًا لم يكن خبزًا ، وإن كان خبزًا لم يكن لحمًا »[٤] . وعن النبى ﷺ أنه قال : « **يا على ابدأ بالملح ، واختم به فإن فيه شفاء من سبعين داء** »[٥] . وروى أن نبيًّا من الأنبياء عليهم السلام شكا إلى الله الضعف ، فأمره أن يطبخ اللحم باللبن ، فإن القوة فيهما[٦] . وسنذكر فضل الزهد فى المآكل والمشارب فى باب مدح الفقراء إن شاء الله تعالى.

(وأما ما جاء فى آداب الأكل) . فقد قال رسول الله ﷺ : « **من قال عند مطعمه ومشربه باسم الله خير الأسماء باسم الله رب الأرض والسماء ، لم يضره ما أكل وما شرب** »[٧] ، وكان ﷺ إذا وضع بين يديه الطعام قال : « **بِاسْمِ اللَّهِ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيمَا رَزَقْتَنَا ، وَعَلَيْكَ خَلْقُهُ** »[٨] . وقال ﷺ « **مَنْ أَكَلَ طَعَامًا فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَطْعَمَنِى هَذَا وَرَزَقَنِيهِ ، مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّى وَلَا قُوَّةٍ ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ، وَمَنْ لَبِسَ ثَوْبًا فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى كَسَانِى هَذَا الثَّوْبَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّى وَلَا قُوَّةٍ ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ** »[٩] . وقالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله ﷺ : « إذا

---

(١) والذي بعث محمدًا بالحق.. إلخ. لم أقف عليه من حديث عائشة، ووجدته من حديث سهل بن سعد عند البخاري [٥٤١٠، ٥٤١٣]، والترمذي [٢٤٦٩]، وابن ماجه [٣٣٥]، وغيره.

(٢) «نعم الأدم الخل.. إلخ» . لم أجد إلا قوله: «نعم الإدام الخل» من حديث جابر عند مسلم [٢٠٥٢]، وأبو داود، [٣٨٢١]، وغيرهم، أما بقيته، فلم أهتد إليه.

(٣) «ما اجتمع.. إلخ» أورده المتقي الهندي في «الكنز» [٤١٦٨٩]، وعزاه للعسكري.

(٤) «ما كان يجتمع.. إلخ» لم أقف عليه.

(٥) «يا علي.. إلخ» أورده السيوطي في «اللآلئ المصنوعة» [٢/ ١١ت من رواية علي، وسنده موضوع المتهم به عبد الله أحمد بن عامر، أو أبوه، فإنهما كان يرويان نسخة باطلة عن أهل البيت، وهذه منها.

(٦) روي أن نبيًا من الأنبياء إلخ. لم أقف على من خرجه. ما جاء في آداب الأكل ص٢/ ٢ .

(٧) «من قال عند مطعمه.. إلخ» لم أقف عليه.

(٨) «وكان ﷺ إذا وضع.. إلخ» أخرجه أبو داود [٣٧٣٠]، والترمذي [٣٤٥١] وحسنه، وكذا أحمد في «مسنده» [١/ ٢٢٥].

(٩) «من أكل طعامًا.. إلخ». حسن: أخرجه أبو داود [٤٠٢٣] والترمذي. [٣٤٥٨- الشطر الأول]، وكذا ابن ماجه [٣٢٨٥].

أكل أحدكم فليذكر اسم الله ، فإن نسى في أوله فليقل باسم الله أوله وآخره »[١]. وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه ، وإذا شرب فليشرب بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ، ويشرب بشماله »[٢]. وقال ﷺ « الأكل في السوق دناءة »[٣].

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ زجر عن الشرب قائما ، قال : فسألناه عن الأكل قائما ، فقال : « هو شر من الشرب »[٤]. وأوصى رجل من خدم الملوك ابنه فقال : إذا أكلت فضم شفتيك ، ولا تلتفتن يمينا ولا شمالا ، ولا تلقمن بسكين ، ولا تجلس فوق من هو أشرف منك ، وأرفع منزلة ، ولا تبصق في الأماكن النظيفة . ومن هذا ما رواه الزهري[٥] أن النبي ﷺ « نهى عن النفخ في الطعام والشراب » . وقال علي رضي الله عنه « نهى رسول الله ﷺ أن يؤكل الطعام حارا »[٦]. وفي الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : « مَا عَابَ النَّبِيُّ ﷺ طَعَامًا قَطّ إِنِ اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ وإِلَّا تَرَكَهُ »[٧]. وقال عمرو بن هبيرة : عليكم بمباكرة الغداء فإن مباكرته تطيب النكهة . وتعين على المروءة . وقيل : وما إعانته على المروءة ؟ قال : أن لا تتوق نفسُك إلى طعام غيرك . وعن النبي ﷺ قال : « من أكل من سقط المائدة عاش في سعة ، وعوفي في ولده وولد ولده من الحمق »[٨]. وعنه ﷺ : « من لفظ شيئا من الطعام ، فأكله حرم الله جلده من النار »[٩]. وكان الحارث بن كلدة يقول : إذا تغدى أحدكم فلينم على غدائه ، وإذا تعشى فليخطُ أربعين خطوة . وقيل : خير الغداء بواكره ، وخير العشاء سوافره[١٠] . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « نهى رسول الله ﷺ أن يُتْبَعَ الرجل بَصَرَه لقمة أخيه »[١١]. وقال الحجاج لأعرابي يوما على سماطه[١٢]: ارفق بنفسك ، فقال : وأنت يا حجاج اغضض من بصرك . وقال معاوية لرجل على مائدته : خذ الشعرة من لقمتك ، فقال : وإنك تراعيني مراعاة من يرى الشعرة في لقمتي لا أكلت لك طعاما أبدا . ووضع معاوية بين يدي الحسن ابن علي رضي الله عنهما دجاجة ففكها . فقال معاوية : هل بينك وبين أمها عداوة ؟ فقال الحسن : فهل بينك وبين أمها قرابة ؟ أراد معاوية أن الحسن يوقر مجلسه كما توقر مجالس الملوك ، والحسن أعلم منه بالآداب والرسوم المستحسنة رضي الله عنهما وحضر أعرابي على مائدة بعض الخلفاء ، فقدّم جدي مشوي ، فجعل الأعرابيّ يسرع في أكله منه ، فقال له الخليفة : أراك تأكله بحرد[١٣]، كأن أمه نطحتك ، فقال : أراك تشفق عليه ، كأن أمه أرضعتك .

(وأما ما جاء في كثرة الأكل) ، فقد روى عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « من قل طعامه صح بطنه ، وصفا قلبه ، ومن كثر طعامه سقم بطنه ، وقسا قلبه »[١٤]. وعنه ﷺ « لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزرع إذا كثر عليه الماء مات »[١٥]. وقال ﷺ « ما زين الله رجلا بزينة أفضل من عفاف بطنه »[١٦]. وقال عمرو بن عبيد : ما رأيت الحسن ضاحكا إلا مرة واحدة ، قال رجل من جلسائه : ما آذاني طعام قط ، فقال له آخر : أنت لو كانت في

---

(١) «إذا أكل أحدكم.. إلخ». أخرجه أبو داود [٣٧٦٧]، والترمذي [١٨٥٨]، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) حديث ابن عمر : «إذا أكل أحدكم فليأكل.. إلخ». عزاه المتقي الهندي في «كنزه» [٤٠٧٦٦]، للحسن بن سفيان في «مسنده» من حديث أبي هريرة.

(٣) «الأكل في السوق.. إلخ». موضوع: أخرجه العقيلي في «الضعفاء الكبير» في ترجمة عمر بن موسى الوجيهي الكذاب، وانظر: «السلسلة الموضوعة» برقم [٢٦٦٥].

(٤) عن أنس أن النبي ﷺ زجر.. إلخ». أورده المتقي الهندي في «كنز العمال» [٤١٨١٩]، وعزاه لابن جرير الطبري.

(٥) من هذا ما رواه الزهري.. إلخ. ثبت هذا موصولاً عن ابن عباس عند أبي داود [٣٧٢٨]، والترمذي [١٨٨٨].

(٦) حديث: أخرجه البيهقي في «الشعب» برقم [٥٩١٢]، عن صهيب، بسندٍ ضعيف.

(٧) وفي الصحيحين.. إلخ. أخرجه البخاري [٣٥٦٣]، ومسلم [ج٣ كتاب الأشربة برقم ١٨٧].

(٨) «من أكل من سقط المائدة.. إلخ» موضوع: أخرجه ابن عساكر عن أبي هريرة، وفيه إسحاق بن أبي نجيح، كذاب.

(٩) «من لقط شيئًا من الطعام..إلخ». انظر: «كنز العمال» للهندي برقم [٤٠٨٢٥].

(١٠) سوافره: يقال: فرسٌ سافِر اللحم، أي: قليلُه. وخير العَشاء سوافره، أي قليله.

(١١) «نهى أن يُتبع الرجل.. إلخ». أورده المتقي الهندي في «كنزه» [٤٠٨١٦]، وعزاه للحسن بن سفيان، عن أبي عمر مولى عمر.

(١٢) السماط: ما يُمَد ليوضع عليه الطعام في المآدب ونحوها.

(١٣) بحَرَد: بغضب.

(١٤) «من قل طعامه.. إلخ». انظر: «تهذيب تاريخ ابن عساكر» [٢/٢٠٦].

(١٥) «لا تميتوا القلوب.. إلخ». قال العراقي في «تخريج الإحياء» [٣/ ٧٠- هامش الإحياء]، «لم أقف له على أصل».

(١٦) «مازين الله رجلاً.. إلخ». لم أهتد إليه.

معدتك الحجارة . لطحنتها ! وقال على كرم الله وجهه : البِطْنةُ تُذهب الفِطنة . وقال ابن المقفع : كانت ملوك الأعاجم إذا رأت الرجل نَهِمًا شرهًا أخرجوه من طبقة الجد إلى باب الهزل ، ومن باب التعظيم إلى باب الاحتقار ، وتقول العرب : أقلل طعاما ، تجد مناما ، وكانت العرب تعير بعضها بكثرة الأكل وأنشدوا :

لست بأكّالٍ كأكل العبد ولا بنوّام كنوم الفهد

وأنشد الأصمعى لرجل من بنى فهد :

إذا لم أزُرْ إلا لآكلَ أكلةً فلا رفعتْ كفّى إلىّ طعامى
فما أكلة إن نلتُها بغنيمة ولا جوعة إن جُعْتُها بغرام[١]

وقالت عائشة رضي الله عنها : أراد رسول الله ﷺ أن يشتري غلامًا فألقى بين يديه تمرًا، فأكل، فأكثر فقال ﷺ : «إن كثرة الأكل شؤم»[٢] وقالوا : الوحدة خير من الجليس السوء ، والجليس السوء ، خير من الأكيل السوء . وشكا أبو العيناء إلى صديق له سوء الحال فقال : اشكر . فإن الله قد رزقك الإسلام والعافية . قال : أجل ، ولكنْ بينهما جُوع يُقَلْقِل الكبد .

ودعت أبا الحارث حبيبة له فحادثته ساعة ، فجاع فطلب الأكل ، فقالت له : أما فى وجهى ما يشغلك عن الأكل ؟ قال : جُعلتُ فداكِ لو أن جميلا وبثينة قعدا ساعة لا يأكلان لبصق كل منهما فى وجه صاحبه وافترقا .

(وأما أخبار الأَكَلَة) ، فقد قيل : إن وهب بن جرير ، سأل ميسرة البراش ، عن أعجب ما أكل ، فقال : أكلت مائة رغيف[٣] بمكوك بلح . ومر ميسرة المذكور يوما بقوم وهو راكب حمارا فدعوه للضيافة ، فذبحوا له حماره وطبخوه ، وقدموه له ، فأكله كله فلما أصبح طلب حماره ليركبه فقيل له : هو فى بطنك .

وقال المعتمر بن سليمان : قلت لهلال المازنى : ما أكلة بلغتنى عنك ؟ قال : جعت مرة ، ومعى بعير لى فنحرته وشويته وأكلته ، ولم أبق منه إلا شيئا يسيرا حملته على ظهرى ، فلما كان الليل أردت أن أجامع أمة لى فلم أقدر أصل إليها ، فقالت : كيف تصل إلىّ وبيننا جمل ؟! فقلت له : كم تكفيك هذه الأكلة ؟ فقال : أربعة أيام . وقال الأصمعى : إن سليمان بن عبد الملك كان شرهًا نهمًا ، وكان من شرهه أنه إذا أتى بالسَّفود[٤] ، وعليه الدجاج السمين المشوى لا يصبر إلى أن يبرد ، ولا أن يؤتى بمنديل فيأخذ بكمه ، فيأكل واحدة واحدة حتى يأتى عليها . فقال الرشيد : ويحك يا أصمعى ! ما أعلمك بأخبار الناس . إنى عُرِضَتْ علىّ جباب[٥] ، سليمان فرأيت فيها آثار الدهن ، فظننته طيبًا حتى حدّثتنى ، ثم أمر لى بجبة منها فكنت إذا لبستها أقول هذه جبة سليمان بن عبد الملك .

وقال الشمردل وكيل عمرو بن العاص قدم سليمان بن عبد الملك الطائف ، فدخل هو وعمر ابن عبد العزيز إلى وقال : يا شمردل ، ما عندك ما تطعمنى ؟ قلت : عندى جَذىٌ كأعظم ما يكون سِمَنًا ، قال : عجل به ، فأتيته به كأنه عُكّة[٦] سمن ، فجعل يأكل منه ، ولا يدعو عمر حتى إذا لم يبق منه إلا فخذ قال : هلم يا أبا جعفر ، فقال : إنى صائم ، فأكله ، ثم قال : يا شمردل ، ويلك . أما عندك شىء ؟ قلت : ست دجاجات ، كأنهن أفخاذ نعام فأتيته بهن فأتى عليهن ، ثم قال : يا شمردل ، أما عندك شىء ؟ قلت : سويق[٧] كأنه قراضة الذهب ، فأتيته به ، فعبَّه حتى أتى عليه ، ثم قال : يا غلام ، أفرغت من غدائنا ؟ قال : نعم . قال : ما هو ؟ قال : نيف وثلاثون قدرا ، قال : ائتنى بقدر قدر فأتاه بها ومعه الرّقاق ، فأكل من كل قدر ثلثه ، ثم مسح يده ، واستلقى على فراشه ، وأذِن للناس ، فدخلوا وصُفّ الخوان ، فقعد ، وأكل مع الناس . وكان هلال بن الأسعر يضع القمع على فيه ، ويصب اللبن أو النبيذ ، وكان غليظا عُتُلاً . وقال أعرابى لرجل رآه سمينا : أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك .

---

(١) بغرام: بعذاب شديد.
(٢) «إن كثرة الأكل.. إلخ». لم أقف عليه.
(٣) المكوك: مكيال قديم قيل: يسع صاعًا ونصفًا.
(٤) السَّفُود: عود من حديد [سيخ]، ينظم عليه اللحم والدجاج ليشوى.
(٥) الجباب جمع جبة وهي ثوب سابغ واسع الكمين، مشقوق المقدم، يلبس فوق الثياب.
(٦) العُكّة: [بضم العين]، زِق صغير للسمن.
(٧) السويق: طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير، سمى بذلك لانسياقه في الحلق، وقد يُجعل شرابًا مثلجًا فيصير لذيذ الطعم [سوبيا].

وقال أبو المحسر الأعرابى : كانت لى بنت تجلس معى على المائدة فتُبرزُ كفًّا كأنها صدفة[١] ، فى ذراع كأنه جُمارة ، فلا تقع عينها على لقمة نفيسة إلا خصتنى بها ، فكبرت وزوجتها وصرت أجلس على المائدة ، مع ابن لى فيبرز كفا كأنها كُرنافة[٢] ، فوالله لن تسبق عينى إلى لقمة طيبة إلا سبقت يده إليها . وقال مسلم بن قتيبة عددت للحجاج أربعة وثمانين رغيفا مع كل رغيف سمكة . ويقال : فلان يحاكى حوت يونس فى جودة الالتقام ، وعصا موسى فى سرعة الالتهام .

وقيل لأبى مرة : أى الطعام أحب إليك ؟ قال لحم سمين ، وخبز سميذ[٣] . أضرب فيه ضرب ولىّ السوء فى مال اليتيم .

وقال صدقة بن عبيد المازنى أولَم لى أبى لما تزوّجت فعمل عشر جفان ثريد من جَزُور فكان أوّل من جاءنا هلال المازنى فقدمنا له جَفْنَة مترعة[٤] ، فأكلها ، ثم أخرى فأكلها ، حتى أتى على الجميع ، ثم أتى بقربة مملوءة من السويق فوضع طرفها فى شدقه ، وفرغها فى جوفه ، ثم قام فخرج واستأنفنا عمل الطعام . وكان عبيد الله بن زياد يأكل فى كل يوم خمس أكلات ، فخرج يوما يريد الكوفة ، فقال له رجل من بنى شيبان : الغداءَ - أصلح الله الأمير - فنزل فذبح له عشرين طائرا من الإوَزّ فأكلها ، ثم قدم الطعام فأكل ، ثم أتى بزنبيلين : فى أحدهما تين ، وفى الآخر بيض ، فجعل يأكل من هذا تينة ومن هذا بيضة ، حتى أتى على ذلك جميعه ، ثم رجع وهو جائع .

وكان ميسرة البراش يأكل الكبش العظيم ، ومائة رغيف ، فذكر ذلك للمهدى ، فقال : دعوت يوما بالفيل ، وأمرت فألقى إليه رغيف رغيف فأكل تسعة وتسعين ، وألقى إليه تمام المائة ، فلم يأكله .

وحدث الشيخ نبيه الدين الجوهرى : أنه سمع الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام يقول : إن معاويّة بن أبى سفيان كان يأكل فى كل يوم مائة رطل بالدمشقى ولا يشبع .

ونزل رجل بصومعة راهب فقدم إليه الراهب أربعة أرغفة وذهب ليحضر إليه العدس ، فحمله وجاء فوجده قد أكل الخبز فذهب فأتى بخبز فوجده قد أكل العدس ، ففعل معه ذلك عشر مرات ، فسأله الراهب أين مقصده ؟ قال : إلى الأردن . قال : لماذا ؟ قال بلغنى أن بها طبيبا حاذقا ، أسأله عما يصلح معدتى فإنى قليل الشهوة للطعام . فقال له الراهب : إن لى إليك حاجة ، قال : وما هى ؟ قال : إذا ذهبت ، وأصلحت معدتك فلا تجعل رجوعك على .

(وأما المهازلة على الطعام) ، فقد روى عن يحيى بن عبد الرحمن ﷺ قال : قالت عائشة رضي الله عنها : « كان عندى رسول الله ﷺ وسودة ، فصنعت حريرة ، فجئت به فقلت لسودة : كلى ؛ فقالت : لا أحبه ، فقلت : والله لتأكلين أو لألطخن وجهك ، فقالت : ما أنا بذائقته ، فأخذت من الصحفة شيئًا فلطخت به وجهى ، ورسول الله ﷺ جالس بينى وبينها ، فتناولتْ من الصحفة شيئا فلطخت به وجهى وجعل رسول الله ﷺ يضحك »[٥] .

واشترى غنذر يوما سمكا وقال لأهله : أصلحوه ونام فأكل عيالهُ السمك ولطخوا يده فلما انتبه ، قال : قدموا إلى السمك ، قالوا : قد أكلته قال : لا . قالوا : شم يدك ، ففعل ، فقال : صدقتم ولكن ما شبعت .

ودخل الحمدونى على رجل وعنده أقوام بين أيديهم أطباق الحلوى ولا يمدون أيديهم فقال : لقد ذكرتمونى ضيف إبراهيم ، وقول الله تعالى : ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود:٧٠] . ثم قال : كلوا - رحمكم الله - فضحكوا وأكلوا . والحكايات فى ذلك كثيرة .

(وأما الضيافة وإطعام الطعام) فقد قال الله تعالى : ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات:٢٤] . وقال

---

(١) الصدفة : غشاء الدر والجمع أصداف وفي المطبوعة «صلفة» وما اخترناه يناسب كأنها جُمّارة وهي القطعة من قلب النخلة.

(٢) كُرنافة : أصول الكَرب : [الأصل العريض للسعف إذا يبس] حين يبقى في الجذع بعد قطع السعف «كُرناف» والواحدة كرنافة.

(٣) سميذ : ما كان من لُباب الدقيق.

(٤) الجفان جمع جفنة وعاء كبير متسع يقدم فيه الثريد [الفتة]. والجَزُور : الجمل. ومترعة : ملأى.

(٥) قالت عائشة.. إلخ. لم أقف عليه. والحريرة : دقيق يطبخ بلبن أو دسم.

رسول الله ﷺ: « مَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَلَا يُؤْذِ جَارَهُ »[(١)]. وقال ﷺ: « من أكل وذوعينين ينظر إليه ولم يواسه ابتلى بداء لا دواء له »[(٢)]. وقال الحسن: كنا نسمع أن إحدى مواجب الرحمة إطعام الأخ المسلم الجائع. وقيل لإبراهيم الخليل عليه السلام: بم اتخذك الله خليلا ؟ قال: بثلاث: ما خيرت بين شيئين إلا اخترت الذيَ على غيره، ولا اهتممت بما تكفل لى به، ولا تغديت ولا تعشيت إلا مع ضيف. ويقولون: ما خلا مضيف الخليل عليه السلام إلى يومنا هذا ليلة واحدة من ضيف. وكان الزهرى إذا لم يأكل أحد من أصحابه من طعامه حلف لا يحدثه عشرة أيام. وقالوا. المائدة مرزوقة أى من كان مضيافا وسع الله عليه.

وقالوا: أول من سن القِرىٰ إبراهيم الخليل عليه السلام، وأول من ثرد الثريد وهشمه هاشم، وأول من أفطر جيرانه على طعامه فى الإسلام عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وهو أول من وضع موائده على الطريق، وكان إذا خرج من بيته طعام لا يعود منه شيء فإن لم يجد من يأكله تركه على الطريق، وقيل لبعض الكرماء: كيف اكتسبت مكارم الأخلاق، والتأدّب مع الأضياف ؟ فقال: كانت الأسفار تحوجنى إلى أن أفِدَ على الناس، فما اسْتَحْسَنْتُه من أخلاقهم اتبعته، وما استقبحته اجتنبته.

(وأما آداب المضيف)، فهو أن يخدم أضيافه ويظهر لهم الغنى، وبسط الوجه، فقد قيل: البشاشة فى الوجه خير من القرى، قالوا: فكيف بمن يأتى بها وهو ضاحك، وقد ضمن الشيخ شمس الدين البديوى - رحمه الله - هذا الكلام بأبيات فقال:

إذا المرء وافى منزلا منك قاصدا ... قِراكَ أَرَمْتَهُ لديك المسالك
فكن باسمًا فى وجهه مُتَهللا ... وقل: مرحبا أهلا ويوم مبارك
وقدم له ما تستطيع من القِرىٰ ... عجولا ولا تبخل بما هو هالك
فقد قيل: بيت سالف متقدم ... تداوله زيد وعمر ومالك
بشاشة وجه المرء خير من القرى ... فكيف بمن يأتى به وهو ضاحك

وقالت العرب: تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة، وإطالة الحديث عند المؤاكلة، وقال حاتم الطائى:

سلى الطارقَ المعتر يا أمّ مالك ... إذا ما أتانى بين نارى ومَجزرى[(٣)]

وقال آخر فى عبد الله بن جعفر:

إنك يا بن جعفر خيرُ فتى ... وخيرهم لطارق إذا أتى

ولله دَرُّ القائل:

الله يعلم أنه ما سرنى ... شيء كطارقة الضيوف النزل
ما زلت بالترحيب حتى خلتُنى ... ضيفا له والضيف رب المنزل

أخذه من قول الشاعر:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا ... نحن الضيوفُ وأنت ربُّ المنزل

وما أحسن ما قال سيف الدولة بن حمدان:

منزلنا رحبٌ لمن زاره ... نحن سواء فيه والطارق
وكل ما فيه حلال له ... إلا الذى حرمهُ الخالق

وقال الأصمعى: سألت عيينة بن وهب الدارمى عن مكارم الأخلاق فقال: أو ما سمعت قول عاصم بن وائل:

---

(١) «من كان يؤمن.. إلخ» . صحيح أخرجه البخاري [٦٠١٨]، ومسلم [٤٨].

(٢) «من أكل وذو عينين.. إلخ». لم أقف عليه.

(٣) المعتر: الفقير، والضيف الزائر، والمتعرض للمعروف من غير أن يسأل.

وإنا لنُقرى الضيف قبل نزوله ونشبعه بالبشر من وجه ضاحك

وقال بعض الكرام :

أضاحك ضيفى قبل إنزال رحله ويخصب عندى والمحلّ جديب !
وما الخِصْبُ للأضياف أن تكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب

وقال آخر :

عوّدت نفسى إذا ما الضيفُ نبهنى عقر العشار على عسر وإيسار

ومن آداب المضيف : أن يتفقد دابة ضيفهِ ويكرمها قبل إكرام الضيف ، قال الشاعر :

مطيةُ[1] الضيفِ عندى تِلْوَ صاحبها لَنْ يأمَنَ الضيفُ حتى تُكْرِمَ الفرسا

وقال على بن الحسين رضي الله عنه : من تمام المروءة خدمة الرجل ضيفه كما خدمهم أبونا إبراهيم الخليل عليه السلام بنفسه وأهله أما سمعت قول الله عز وجل : ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ ﴾ [هود: ٧١] .

ومن آداب المضيف : أن يحدّث أضيافه بما تميل إليه نفوسُهم ، ولا ينام قبلهم ، ولا يشكو الزمان بحضورهم ، ويبش عند قدومهم ، ويتألم عند وداعهم ، وأن لا يحدث بما يروعُهم به ، كما حكى بعضهم، قال : استدعانى إسحاق ابن إبراهيم الظاهرى إلى أكل هريسة فى بكرة نهار ، فدخلت فأحضرت لنا الهريسة ، فأكلنا فإذا شعرة قد جاءت على لقُمة غَفَل عنها طباخه ، فاستدعى خادمَه فأسَرّ إليه شيئًا لم نعلمه ، فعادَ الخادم ، ومعه صينية مغطاة فكشف عن الصينية ، فإذا يد الطباخ مقطوعة تختلج[2] ، فتكدّر علينا عيشُنا ، وقمنا من عنده ، ونحن لا نعقل فيجب على المضيف أن يراعَى خواطر أضيافه ، كيفما أمكن ، ولا يغضب على أحد بحضورهم ، ولا ينغص عيشهم بما يكرهونه ولا يعبس بوجهه ولا ويظهر نكدا ، ولا ينهر أحدا ولا يشتمه بحضرتهم بل يدخل على قلوبهم السرور بكل ما أمكن .

كما حكى عن بعض الكرام أنه دعا جماعة من أصحابه إلى بستانه ، وعمل لهم سماطا ، وكان له ولد جميل الطلعة ، فكان الولد فى أوّل النهار يخدم القوم ، ويأنسون به ، ففى آخر النهار صعد إلى السطح فسقط فمات لوقته ، فحلف أبوه على أمه بالطلاق الثلاث أن لا تصرخ ولا تبكى ، إلى أن تصبح ، فلما كان الليل سأله أضيافه عن ولده فقال ، هو نائم فلما أصبحوا وأرادوا الخروج قال لهم : إن رأيتم أن تصلوا على ولدى ، فإنه بالأمس سقط من على السطح فمات لساعته ، فقالوا له : لم لا أخبرتنا حين سألناك ؟! فقال : ما ينبغى لعاقل أن ينغص على أضيافه فى التذاذهم ، ولا يكدر عليهم فى عيشهم فتعجبوا من صبره وتجلده ، ومكارم أخلاقه ، ثم صلوا على الغلام ، وحضروا دفنه ، وبكوا عليه وانصرفوا . وعلى المضيف ، أن يأمر غلمانه بحفظ نعال أضيافه ، وتفقد غلمانهم بما يكفيهم ويسهل حجابه وقت الطعام ، ولا يمنع واردا .

وقيل لبعض الأمراء الكرام : لا بأس بالحجاب لئلا يدخل من لا يعرفه الأمير ، ويحترز عن العدوّ ؛ فقال : إن عدوّا يأكل طعامنا ، ولا ينخدع لا يمكنه الله منا .

والأليق بالكريم الرئيس ، أن يمنع حاجبه من الوقوف ببابه عند حضور الطعام ، فإن ذلك أوّل الشناعة عليه ، وعليه أن يسهر مع أضيافه ويؤانسهم بلذيذ المحادثة ، وغريب الحكايات ، وأن يستميل قلوبهم بالبذل لهم من غرائب الطرف ، إن كان من أهل ذلك ، وأن يرى أضيافه مكان الخلاء ؛ فقد قيل عن ملك الهند : إنه قال : إذا ضافك أحد فأره الكنيف ، فإنى ابتليت به مرة فوضعته فى قلنسوتى ، وقالوا : لا بأس أن يدخل الرجل دار أخيه يستطعم[3] ، للصداقة الوكيدة ، وقد قصد النبى ﷺ والشيخان منزل الهيثم بن التيهان ، وأبى أيوب الأنصارى[4] ، وكذلك كانت عادة

---

(١) المَطيّة : من الدوابّ، ما يُمتطَى تُذكَّر وتُؤنث، فالبعير مطيّة والناقة مطيّة.

(٢) تختلج : اختلج الشيء، أي خلج، وخلج خلجًا، أي اشتكى لحمه وعظمه من عمل عمله.

(٣) يستطعم : يطلب الطعام.

(٤) وقد قصد النبي ﷺ . . إلخ . . أخرجه الترمذي بدون ذكر أبي أيوب، وأما قصده لأبي أيوب فعند الطبراني في «الصغير» بسند ضعيف، انظر تخريج العراقي للإحياء [٢/ ١٠].

السلف ﷺ . وكان لعون بن عبد الله المسعودى ثلاثمائة وستون صديقا فكان يدور عليهم فى السنة ، ولا بأس أن يدخل الرجل بيت صديقه فيأكل ، وهو غائب فقد دخل رسول الله ﷺ دار بريرة رضي الله عنها، فأكل طعامها وهى غائبة[١]، وكان الحسن ﷺ يوما عند بقال ، فجعل يأخذ من هذه الجُونَة تينة[٢]، ومن هذه فستقة ، فيأكلها فقال له هشام : ما بدا لك يا أبا سعيد فى الورع ؟! فقال له : يالكع اتل علىّ آية الأكل فتلا ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ . إلى قوله : ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾[٣] . فقال : الصديق من استروَحَت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب . وعلى المضيف الكريم أن لا يتأخر عن أضيافه ولا يمنعه عن ذلك قلة ما فى يده بل يحضر إليهم ما وجد ، فقد جاء عن أنس وغيره من الصحابة ﷺ أنهم كانوا يقدمون الكسرة اليابسة ، وحشف التمر[٤]، ويقولون : ما ندرى أيهما أعظم وزرا : الذى يحتقر ما قدم إليه ، أو الذى يحتقر ما عنده أن يقدمه ؟! وعن أنس ﷺ عن النبى ﷺ قال : « **من لقم أخاه لقمة حُلوة صرف الله عنه مرارة الموقف** »[٥].

(وحكى) عن الإمام الشافعى ﷺ أنه كان نازلا عند الزعفرانى ببغداد ، فكان الزعفرانى يكتب فى كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويدفعها إلى الجارية ، فأخذها الشافعى منها يومًا ، وألحق فيها لونا آخر فعرف الزعفرانى ذلك فأعتق الجارية سرورا بذلك . وكانت سنة السلف ﷺ أن يقدموا جملة الألوان دفعة ليأكل كل شخص ما يشتهى . ومن السنة أن يشيّع المضيف الضيف إلى باب الدار[٦]، وعلى المضيف إذا قدم الطعام إلى أضيافه أن لا ينتظر من يحضر من عشيرته ، فقد قيل : ثلاثة تضنى : سراج لا يضىء ، ورسول بطىء ، ومائدة ينتظر لها من يجىء .

ونزل الإمام الشافعى ﷺ بالإمام مالك ﷺ فصب بنفسه الماء على يديه ، وقال له : لا يرعك ما رأيت منى فخدمة الضيف على المضيف فرض :

اعرض طعامَك وابذُله لمن أكلا ... واحلف على من أبى واشكر لمن فعلا
ولا تكن سابرى العَرض محتشما ... من القليل فلست الدهر محتفلا[٧]

ومن البخلاء من يعزم على الضيف ، فيعتذر له ، فيمسك عنه بمجرد الاعتذار ، كأنه تخلص من ورطة وقيل لبعض البخلاء : ما الفرج بعد الشدة ؟ قال : أن يعتذر الضيف بالصوم .

ومن البخلاء من يعجبه طعامه ، ويصف زباديه ، ويشتهى أن تبقى على حالها . ومنهم من يُحضر طعامه ، فإذا رآه ضيوفه أمر بأن يرفع منها أطيبها وأشهاها إلى النفوس ويعتذر أن فى أصحابه من يحضر بالغداة عنده .

(وحكى) : عن بعض البخلاء أنه استأذن عليه ضيف ، وبين يديه خبز وزبدية فيها عسل نحل ، فرفع الخبز وأراد أن يرفع العسل ، فدخل الضيف من قبل أن يرفعه فظن البخيل أن ضيفه لا يأكل العسل بلا خبز فقال له : ترى أن تأكل عسلا بلا خبز قال : نعم ؛ وجعل يلعق العسل لعقة بعد لعقة ، فقال له البخيل : مهلا يا أخى . والله إنه يحرق القلب قال : نعم صدقت ، ولكنه قلبك .

(وحكى) : عن بعضهم أنه قال : غلب علىّ الجوع مرة فقلت : أمضى إلى دار فلان لأتغدى عنده ، فجئت إلى باب بيته ، فوجدت غلامه ، فقلت له : أين سيدك ؟! فقال : والله لا قلت لك عليه إلا إن أعطيتنى كسرة ، قال : فرجعت هاربا . ومن البخل تقديم الشىء اليسير وتفخيمه .

(حكى) : عن بعض البخلاء أنه حلف يوما على صديقه ، وأحضر له خبزا وجبنا ، وقال له : لا تستقل الجبن

---

(١) فقد دخل الرسول ﷺ دار بريرة . . إلخ . متفق عليه من حديث عائشة، انظر «الإحياء» [٢/ ١٠]، وهامشه للحافظ العراقي.

(٢) الجُونة : سُلَيْلَة مستديرة مغشاة بالجلد.

(٣) إشارة إلى الآية الكريمة رقم [٦١] من سورة النور، وأولها: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ . وقد جاء فيها: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ . . إلخ ﴿.

(٤) الحشَفُ من التمر: أردؤه، وهو الذي يجف ويصلب ويتقبّض قبل نضجه فلا يكون له نوًى ولا لحاء ولا حلاوة ولا لحم.

(٥) وعن أنس: «من لقم. إلخ» منكر: أخرجه الخطيب كما في «اللآلئ المصنوعة» [٢/ ٢٤٥]، وقال الخطيب: «هذا الحديث منكر جدًّا»، وانظر اللآلئ.

(٦) ومن السنة أن يشيع . . إلخ . لم أقف عليه.

(٧) سابرىّ العَرض: بخيلاً كأهل سابور الذين رُموا بالبخل.

فإن الرطل منه بثلاثة دراهم ، فقال له ضيفه : أنا أجعله بدرهم ونصف ، قال : وكيف ذلك؟ قال: آكل لقمة بجبن ، ولقمة بلا جبن ، فأين هؤلاء من الذى يقول :

قالت : أما ترحل تبغى الغنى ... قلت : فمن للطارق المعتم[1] ؟
قالت : فهل عندك شىء له ؟ ... قلت : نعم جهد الفتى المعدم
فكم وحق الله من ليلة ... قد أطعم الضيفُ ولم أُطعَم
إن الغِنَى بالنفس يا هذه ... ليس الغنى بالمال والدراهم

وقال بعض البخلاء :

سرى نحونا يبغى القِرَىٰ طاوى الحشى[2] ... لقد عملت فيه الظنون الكواذبُ
فبات له منا إلى الصبح شاتم ... يعدد تطفيلَ الضيوف وضاربُ

فشتان ما بين القائلين .

(وأما آداب الضيف) : فهو أن يبادر إلى موافقة المضيف فى أمور : منها أكل الطعام ، ولا يعتذر بشبع بل يأكل كيف أمكن . فقد حكى أنه ورد على بعض الأعراب ضيف فدخل به إلى بيته وقدّم له الطعام فقال الضيف ، لست بجائع وإنما أحتاج إلى مكان أبيت فيه ، فقال الأعرابى : إذا كان هذا عزمك فكن ضيف غيرى ، فإنى لا أرى أن تمدحنى فى البلاد وتهجونى فيما بينى وبينك .

(وحكى) : عن بعض التجار قال : استدعانى أبو حفص محمد بن القاسم الكرخى لأعرض عليه قُمَاشًا من تجارتى ، فبينما أنا بين يديه وإذا بأطباق الفاكهة قد حضرت ، فقمت من مجلسه فقال : يا فلان ما هذا الخلق العامى ؟ اجلس ، فجلست وتحققت كرمه ، وجعلت آكل الكمثراة فى لقمة ، والتفاحة فى لقمة ، ثم قدم الطعام وكنت جائعًا فأكلت أكلًا جيدًا ، ثم انصرفت فلم أشعر فى اليوم الثانى إلا وقد جاءنى غلامه ببغلته ، فاستدعانى إليه فقال لى : يا فلان ، إنى قليل الأكل بطىء الهضم ، ولقد طابت لى مؤاكلتك بالأمس فأريد أن لا تنقطع بعدها عنى ، قال : فكنت متى انقطعت حضر غلامه فى طلبى ، فحصل لى بقربى منه مال كثير وجاهٍ عريض .

ومن آداب الضيف أيضًا : أن لا يسأل صاحب المنزل عن شىء من داره سوى القبلة ، وموضع قضاء الحاجة ، وأن لا يتطلع إلى ناحية الحريم ، وأن لا يخالفه إذا أجلسه فى مكان ، وأكرمه به وأن لا يمتنع من غسل يديه ، وإذا رأى صاحب المنزل قد تحرك بحركة فلا يمنعه منها ، فقد نقل فى بعض المجاميع ، أن بعض الكرماء كان عربيدا على أضيافه ، سيئ الخلق بهم ، فبلغ ذلك بعض الأذكياء فقال : الذى يظهر لى من هذا الرجل أنه كريم الأخلاق ، وما أظن سوء أخلاقه إلا لسوء أدب الأضياف . ولابدّ أن أتطفل عليه لأرى حقيقة أمره ، قال : فقصدته ، وسلمت عليه : فقال ، هل لك أن تكون ضيفى ؛ قلت : نعم . فسار بين يدى إلى أن جاء باب داره ، فأذن لى فدخلت فأجلسنى فى صدر مجلسه ، فجلست حيث أجلسنى وأعطانى مسندا فاستندت إليه ، فأخرج لى شِطْرِنْجًا وقال : أتتقن شيئًا ؟ قلت : نعم . فلعبت معه ، فلما حضر الطعام جعل يقدم لى ما استطابه وأنا آكل فلما فرغنا قدم طَسْتًا وإبريقا وأراد أن يسكب الماء على يدى فلم أمنعه من ذلك ، وأراد الخروج بين يدى بعد أن قدم نعلى فلم أردّه عن ذلك ، فلما أراد الرجوع ، قلت : يا سيدى أنشدك الله إلا فرجت عنى كربة ، قال : وما هى ؟ فأخبرته الخبر ، فقال والله ما يحوجنى لذلك إلا سوء أدبهم ، يصل الضيف إلى دارى فأجلسه فى الصدر ، فيأبى ذلك ، ثم أقدم إليه الطعام فلا أتحفه بشىء مستظرف إلا ردّه على ، ثم أريد أن أصب الماء على يديه عند الغسل ، فيحلف بالطلاق الثلاث ما تفعل ، ثم أريد أن أشيعه فلا يمكننى من ذلك ، فأقول فى نفسى ، لا يحكم الإنسان على نفسه حتى فى بيته ، فعند ذلك أشتمه ، وألعنه ، بل وأضربه .

---

(١) يقال: أتانا ضيف عاتم، أي بطيء مُمْسٍ. وقِرًى عاتم: بطيء

(٢) الحَشَى: ما دون الحجاب مما يلي البطن كله من الكبد والطحال والكرش وما تبع ذلك.

وفى معنى ذلك يقول بعضُهم :

لا ينبغى للضيف أن يعترض إن كان ذا حزم وطبع لطيف
فالأمر للإنسان فى بيته إن شاء أن ينصف أو أن يحيف

ومما يعاب على الضيف أمور منها : كثرة الأكل المفرط ، إلا أن يكون بدويا فإنها عادته .

ومنها : أن يتتبع طريق الشرهين كمن يتخذ معه خريطة[١] ، مشمعة يقلب فيها الزبادى ، والأمراق ، والحلوى وغير ذلك .

ومنها : أن يأخذ معه ولده الصغير ، ويعلمه أن يبكى وقت الانصراف من الطعام ، ليعطى على اسم ولده الصغير .

ومنها : قبح المؤاكلة ، وقد عد فيها عيوب كثيرة ، فمنها المتشاوف[٢] ، والعدّاد ، والجراف ، والرشاف ، والنفاض ، والقراض ، والبهات ، واللتات ، والعوّام ، والقسّام ، والمخلل ، والمزبد ، والمرنخ ، والمرشش ، والمفتش ، والمنشف ، والملبب ، والصباب ، والتّفّاخ ، والحامى ، والمجنح ، والشطرنجى ، والمهندس ، والمتمنى ، والفضولى .

فأما المتشاوف : فهو الذى يستحكم جوعه قبل فراغ الطعام : فلا تراه إلا متطلعا لناحية الباب يظن أن كل ما دخل هو الطعام .

وأما العداد : فهو الذى يستغرق فى عد الزبادى ، ويعد على أصابعه ، ويشير إليها ، وينسى نفسه .

والجراف : هو الذى يجعل اللقم فى جانب الزبدية ، ويجرف بها إلى الجانب الآخر .

والرشاف : هو الذى يجعل اللقمة فى فيه ، ويرتشفها ، فيسمع لها حين البلع حِسٌّ لا يخفى على جلسائه وهو يلتذ بذلك .

والنفاض : هو الذى يجعل اللقمة فى فيه ، وينفض أصابعه فى الزبدية .

والقرّاض : هو الذى يقرض اللقمة بأطراف أسنانه حتى يهذبها ،ويضعها فى الطعام بعد ذلك .

والبهات : هو الذى يبهت فى وجوه الآكلين ، حتى يبهتهم[٣] ، ويأخذ اللحم من بين أيديهم .

واللتات : هو الذى يلت اللقمة بأطراف أصابعه قبل وضعها فى الطعام .

والعوّام : هو الذى يُميل ذراعيه ، يمنة ويسرة لأخذ الزبادى .

والقسام : هو الذى يأكل نصف اللقمة ، ويعيد باقيها فى الطعام من فيه .

والمخلل : هو الذى يخلل أسنانه بأظفاره .

والمزبد : هو الذى يحمل معه الطعام .

والمرنخ : هو الذى يرنخ اللقمة فى الأمراق ، فلا يبلع الأولى حتى تلين الثانية .

والمرشش : هو الذى يفسخ الدجاج بغير خبرة ، فيرش على مؤاكليه .

والمفتش : هو الذى يفتش على اللحم بأصابعه .

والمنشف : هو الذى ينشف يديه من الدهن باللقم ثم يأكلها .

والملبب : هو الذى يملأ الطعام لبابا .

والصباب : هو الذى ينقل الطعام من زبدية إلى زبدية ليبرده .

والتفاخ : هو الذى ينفخ فى الطعام .

والحامى : هو الذى يجعل اللحم بين يديه فيحميه عن مؤاكليه .

---

(١) الخريطة : يراد بها هنا وعاء من جلد يشد على ما فيه . (٢) سيقوم المؤلف بشرح هذه الألوان من العيوب عقب سردها مباشرة .
(٣) يبهتهم : ينظر إليهم نظرات تجعلهم يرتبكون ويصابون بالحيرة والبهتة ليخلو له الجو .

والمجنح : هو الذى يزاحم مؤاكليه بجناحيه حتى يفسح له فى المجلس فلا يشق عليه الأكل .

والشطرنجى : هو الذى يرفع زبدية ، ويضع زبدية أخرى مكانها .

والمهندس : هو الذى يقول لمن يضع الزبادى ضع هذه هنا وهذه هاهنا ، حتى يأتى قدامه ما يحب .

والمتمنى : هو الذى يقول : ليتنى لم يكن معى من يأكل .

والفضولى : هو الذى يقول لصاحب المنزل عند فراغ الطعام إن كان قد بقى عندك فى القدور شىء فأطعم الناس فإن فيهم من لم يأكل .

ومن الأضياف من لا يلذّ له حديث إلا وقت غسل يديه ، فيبقى الغلام واقفا ، والإبريق فى يده ، والناس ينتظرونه . ومنهم من يغسل يديه بالأشنان مرة واحدة [١]، فإذا اجتمع الوسخ والزفر تسوك بهما ، ومنهم من يدخل الدار فيبتدئ بالهندسة أولا : فيقول : كان ينبغى أن يكون باب المجلس من هاهنا ، والإيوان [٢]، كان ينبغى أن يكون هاهنا ، وينتقل من الهندسة إلى ترتيب المجلس ، فينقل الفاكهة من موضعها إلى موضع آخر ، وإن كان ما استحكم جوعه استعفى من الطعام ، وذهل عن بقية الأضياف وشدة جوعهم .

ومنهم : من يخرج فيطوف على أصدقاء صاحب الدعوة فيتألم من انقطاعهم ، ويستوحش من غيبتهم ويسلطهم على عرض صاحبهم .

ولقد حكى عن مُغَنّ غير مُجيد أنه لم يبطل ولا ليلة واحدة ، وما ذاك إلا أنه كان إذا سئل أين كنت ؟ قال : كنت عند الناس ، وإذا قيل له أين أكلت؟ قال : أكلت فى بطنى ، وإذا قيل له أين شربت ؟ قال شربت فى فمى .

ومنهم : من يفهم عن صاحب الدعوة أنه يقول لغلامه : اشتر كذا فيقول والله العظيم ، أو الطلاق الثلاث يلزمه ما يشترى شيئًا فأذوقه ، فيعجز صاحب المنزل ، ويخجله إذا لم يكن فى بيته شىء موجود ، وليت شعرى إذا كان لا يأكل فلأى شىء حضر ؟ ومنهم من يرى صاحب البيت قد أسر إلى صديقه شيئًا فيقول : ما الذى قال المولى لصاحبنا ؟ وهو لا يريد أن يعلمه .

ومنهم : من يستعجل صاحب المنزل بالأكل ، ويشكو الجوع ، ويظن أن ذلك بسط ، ومكارم أخلاق وإنما ذلك يكون فى بيته لا فى بيوت الناس .

ومنهم : من يقول لصاحب الدعوة: من يغنى لنا ؟ فيقول : فلان ، فيقول له : غلطت لم لا دعوت فلانا ؟

ومنهم : من يسأل صاحب البيت كيف قوته فى النكاح ؟ فيقول له : أنا رجل كبير قد ضعفت قوّتى وشهوتى ، أو يقول : ما لى قوة طائلة فى ذلك ، فيقول : أنا والله كلما مر علىّ عام تزايدت شهوتى ، وكثر لهذا الفن تشوقى ، ويعلن بذلك حتى تسمعه صاحبة البيت .

ومنهم : من يشكو حاله مع أهل بيته ، ويذكر نفقته عليهن ، وكسوته لهن ، وكثرة إنعامه وإحسانه إليهن ، وما عليه زوجته من سوء الأخلاق ، وكبر النفس ؛ لتستقل زوجة صاحب البيت ما هى فيه مع زوجها ، وربما كان ذلك سببا لفراقها منه .

ومنهم : من تعجبه نفسه ، ويستحسن لباسه ، ويستطيب رائحته ، وإذا سمع الغناء تواجد ، وأظهر الطرب ، وحرّك رأسه ، ويقوم قائما يتمايل ، حتى يرى أهل الرجل أنه لطيف الشكل ، بديع الحركات ، ويظن فى نفسه أنه يُعشَق ، وأن رسول صاحبة البيت لا يُطلع عنه .

ومنهم : من يقال له : العب الشطرنج ، فيأباه ، ويشتغل بالدندنة فيقع فى الفضول .

ومنهم : من يتأمر على غلمان صاحب البيت ، ويهين أولاده ، ويظن أنه يدُلّ عليهم .

---

(١) الأُشنان : [بضم الهمزة وكسرها]، شجر ينبت في الأرض، يستعمل هو أو رماده في غسل الثياب والأيدي مثل الصابون.

(٢) الإيوان : مجلس كبير على هيئة صُفّة واسعة، لها سقف محمول من الأمام على عقد، يجلس فيه كبار القوم.

ومنهم : من يقول له صاحب البيت كل ، فيقول: ما آكل إلا أنا ورفيقى .

ومنهم : من يسمع السائل على باب فيتصدق عليه من مال صاحب البيت بغير إذنه ، أو يقول للسائل : فتح الله عليك .

ومنهم : من يدعو الناس لصاحب الوليمة بغير إذنه ويقلده بذلك المنن . وأكثر الناس واقع فى ذلك ، نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا وأن يعيذنا من شرور أنفسنا بمنه وكرمه إنه جواد كريم رءوف رحيم . ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب السادس والثلاثون

فى العفو ، والحلم ، والصفح ، وكَظْم الغَيْظ ، والاعتذار وقبول المعذرة والعتاب وما أشبه ذلك

قد ندب الله - عز وجل - نبيه ﷺ إلى الصفح والعفو بقوله تعالى : ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[الحجر:٨٥] قيل : هو الرضا بلا عتب ، وقال تعالى : ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾. [الأعراف:١٩٩] وقال تعالى : ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤] وقال تعالى : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[الشورى:٤٣] وعن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **رأيت قصورا مشرفة على الجنة فقلت : يا جبريل لمن هذه ؟ قال : للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس** » (١). وقال معاذ بن جبل ﷺ لما بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن قال : « **ما زال جبريل عليه السلام يوصينى بالعفو ، فلولا علمى بالله لظننت أنه يوصينى بترك الحدود** » (٢).

وقال الحسن بن أبى الحسن : إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من كان له على الله أجر فليُقُمْ فلا يقوم إلا العافون عن الناس . وتلا قوله تعالى : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[الشورى:٤٠] وقال علىّ ﷺ: أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة ، وكان المأمون - رحمه الله تعالى - يحب العفو ، ويؤثره ، ويقول : لقد حُبِّبَ إلىّ العفو حتى إنى أخاف أن لا أثاب عليه . وكان يقول : لو علم أهل الجرائم لذتى فى العفو لارتكبوها ، وقال : لو علم الناس حبى للعفو لما تقربوا إلىّ إلا بالجنايات . وقال على : ﷺ إذا قدرت على عدوّك فاجعل العفو عنه شكرًا للقدرة عليه . وقال ﷺ: أقيلوا ذوى المروءات عثراتهم(٣)، فما يعثر منهم عاثر إلا ويده بيد الله يرفعه . وقال ﷺ إن أوّل عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصار له على الجاهل : وقال المنتصر : لذة العفو يلحقها حمد العاقبة ، ولذة التشفى يلحقها ذم الندم ، وقال ابن المعتز : لا تَشِنْ(٤) وجهَ العفو بالتقريع . وقيل : ما عفا عن الذنب من قرّع(٥) به . وقال رجل لرجل سبه : إياك أعنى فقال له : وعنك أعرض . وكان الأحنف - رحمه الله تعالى - كثير العفو والحلم ، وكان يقول : ما آذانى أحد إلا أخذت فى أمره بإحدى ثلاث : إن كان فوقى عرفت له فضله ، وإن كان مثلى تفضلت عليه . وإن كان دونى أكرمت نفسى عنه ، وكان مشهورا بين الناس بالحلم ، وبذلك ساد عشيرته ، وكان يقول : وجدت الاحتمال أنصر لى من الرجال . وقيل له : ممن تعلمت الحلم ؟ فقال : من قيس بن عاصم ، كنا نختلف(٦).

---

(١) وعن أنس بن مالك.. إلخ. أخرجه الديلمي وابن لال عن أنس كما في «الدر المنثور» [٢/ ٧٦-٧٧].

(٢) وقال معاذ بن جبل.. إلخ لم أقف عليه.

(٣) أقيلوهم عَثَرَاتهم: خذوا بأيديهم، وقفوا إلى جانبهم في الملمات والعثرات.

(٤) شنأه: أي أبغضه وتجنّبه.

(٥) قرّع به: أوجعه باللّوم والعِتاب.

(٦) نختلف إليه: نرجع إليه، ونتردّد عليه.

إليه فى الحلم ، كما يختلف إلى الفقهاء فى الفقه ، ولقد حضرت عنده يوما وقد أتوه بأخ له قد قتل ابنه ، فجاءوا به مكتوفا فقال : ذعرتم أخى ، أطلقوه ، واحملوا إلى أم ولدى ديته ، فإنها ليست من قومنا ، ثم أنشأ يقول :

أقول للنفس تصبيرا وتعزية ... إحدى يدى أصابتنى ولم ترد
كلاهما خلف من فقد صاحبه ... هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى

وقيل : من عادة الكريم إذا قدر غفر وإذا رأى زلة ستر ، وقالوا : ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام . وقيل : من انتقم فقد شفى غيظه ، وأخذ حقه ، فلم يجب شكره ، ولم يحمد فى العالمين ذكره ،والعرب تقول . لا سؤدد مع الانتقام ، والذى يجب على العاقل إذا أمكنه الله تعالى أن لا يجعل العقوبة شيمته ، وإن كان ولابدّ من الانتقام فليرفق فى انتقامه ، إلا أن يكون حدا من حدود الله تعالى .

وقال المنصور لجان عجز عن العذر : ما هذا الوجوم ، وعهدى بك خطيبا لسنًا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، ليس هذا موقف مباهاة ، ولكنه موقف توبة ، والتوبة بالاستكانة ، والخضوع ، فرق له وعفا عنه .

وسعى إلى المنصور برجل من ولد الأشتر النخعى[١] . ذكر له عنه أنه يميل إلى بنى على ، والتعصب لهم ، فأمر بإحضاره ، فلما مثل بين يديه ، قال : يا أمير المؤمنين ذنبى أعظم من نقمتك ، وعفوك أعظم من ذنبى ، ثم قال :

فهبنى مُسيئا كالذى قلتَ ظالما ... فعفوا جميلا كى يكونَ لك الفضلُ
فإن لم أكن للعفو منك لِسُوء ما ... أتيتُ به أهلاً فأنت له أهل

فعفا عنه ، وأمر له بصلة .

وأحضر إلى المأمون رجل قد أذنب ذنبًا فقال له : أنت الذى فعلت كذا وكذا ؟ قال : نعم . يا أمير المؤمنين أنا ذاك الذى أسرف على نفسه ، واتكل على عفوك ، فعفا عنه ، وخلى سبيله ، وأحضر إلى الهادى رجل من أصحاب عبد الله بن مالك فوبخه على ذنب ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن إقرارى يُلزمنى ذنبا لم أفعله ، ويلحق بى جُرمًا لم أقف عليه ، وإنكارى ردّ عليك ومعارضة لك ، ولكنى أقول :

فإن كنت تبغى بالعقاب تَشَفّيا ... فلا تزهَدنْ عند التجاوز فى الأجْرِ

فقال :لله درك من معتذر ، بحق أو باطل ، ما أمضى لسانك ؟ وأثبت جَنانك[٢] ، وعفا عنه ، وخلى سبيله .

وركب يوما عمرو بن العاص ﷺ بغلة له شهباء[٣] ، ومر على قوم فقال بعضهم : من يقوم للأمير ، فيسأله عن أمه وله عشرة آلاف ؟ فقال واحد منهم : أنا. فقام وأخذ بعنان بغلته وقال : أصلح الله الأمير أنت أكرم الناس خيلا فلم ركبت دابة اشهابّ وجهها ؟ فقال : إنى لا أمل دابتى ، حتى تملنى ، ولا أمل رفيقى حتى يملنى ، فقال : أصلح الله الأمير ، أمّا العاص فقد عرفناه ، وعلمنا شرفه ، فمن الأم ؟ قال : على الخبير سقطت ، أمى النابغة بنت حرملة بن عزة ، سبتها[٤] رماح العرب ، فأتى بها سوق عكاظ ، فبيعت فاشتراها عبد الله بن جدعان ، ووهبها للعاص بن وائل ، فولدت وأنجبت فإن كان قد جعل لك جُعْل[٥] ، فارجع وخذه ، وأرسل عنان الدابة .

وكان معاوية ﷺ يعرف بالحلم ، وله فيه أخبار مشهورة ، وآثار مذكورة . وكان يقول : إنى لا آنف أن يكون فى الأرض جهل لا يسعه حلمى ، وذنب لا يسعه عفوى ، وحاجة لا يسعها جودى ، وهذه مروءة عالية المرتبة . وقال له رجل يوما : ما أشبه استك باست أمك !! فقال : ذاك الذى أعجب أبا سفيان منها . وكتب معاوية إلى عقيل بن أبى طالب ﷺ يعتذر إليه من شىء جرى بينهما يقول : من معاوية بن أبى سفيان إلى عقيل بن أبى طالب ، أما بعد : يا بنى عبد المطلب ، فأنتم والله فروع قصىّ ، ولباب عبد مناف ، وصفوة هاشم ، فأين أخلاقكم الراسية[٦] ،

---

(١) الأشتر النخعي: قائد شجاع من أصحاب مصعب بن الزبير. قتل بمكان قرب سامرّاء.
(٢) الجَنان: بفتح الجيم والنون: القلب. (٣) شهباء: بياضها مختلط بالسواد.
(٤) السبت: بفتح السين المشددودة: من الخيل ما كان جوادًا كثير العدْو. وبكسر السين المشدودة: كل جل مبدوغ، ومنه النّعال السّبتية.
(٥) جُعْل: ما جعل على العمل من أجر أو رِشوة.
(٦) أي الراسخة الثابتة.

وعقولكم الكاسية [١]؟ وقد والله أساء أمير المؤمنين ما كان جرى ، ولن يعود لمثله إلى أن يغيب فى الثرى ، فكتب إليه عقيل يقول :

صدقت وقلت حقا غير أنى ... أرى أن لا أراك ولا تراني
ولست أقول سوءا فى صديقى ... ولكنى أصد إذا جفاني

فركب إليه معاوية ﷺ، وناشده فى الصفح عنه ، واستعطفه حتى رجع .

(وحكى) عنه ﷺ أنه [illegible] ، وانتظمت إليه الأمور ، وامتلأت منه الصدور ، وأذعن لأمره الجمهور ، وساعده فى مراده القدر المقدور ، [illegible] ليلة خواصَّ أصحابه ، وذاكرهم وقائع أيام صفين ، ومن كان يتولى كبر الكريهة[٢] من المعروفين ، فانهمكوا فى القول الصحيح والمريض ، وآل حديثهم إلى من كان يجتهد فى إيقاد نار الحرب عليهم بزيادة التحريض ، فقالوا : امرأة من أهل الكوفة تسمى الزرقاء بنت عدى ، كانت تتعمد الوقوف بين الصفوف ، وترفع صوتها صارخة . يا أصحاب على ، تسمعهم كلاما كالصوارم [٣]، مستحثة لهم بقول لو سمعه الجبان لقاتل ، والمدبر لأقبل ، والمسالم لحارب ، والفارّ لكرّ ، والمتزلزل لاستقرّ . فقال لهم معاوية ﷺ: أيكم يحفظ كلامها ؟ فقالوا : كلنا نحفظه . قال : فما تشيرون علىّ فيها ، قالوا : نشير بقتلها فإنها أهل لذلك ، فقال لهم معاوية ﷺ: بئسما أشرتم به ، وقُبحا لما قلتم ، أيحسن أن يشتهر عنى أننى بعدما ظفرت وقدرت قتلت امرأة قد وفت لصاحبها ؟! إنى إذا للئيم . لا والله لا فعلت ذلك أبدا . ثم دعا بكاتبه ، فكتب كتابا إلى واليه بالكوفة أن أنفذ إلىّ الزرقاء بنت عدى ، مع نفر من عشيرتها وفرسان من قومها ، ومهد لها وطاءً لينا ، ومركبا ذلولا ، فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها ، وقرأه عليها ، فقالت بعد قراءة الكتاب : ما أنا بزائغة عن الطاعة ، فحملها فى هودج ، وجعل غشاءه خزًّا مبطنًا ثم أحسن صحبتها ، فلما قدمت على معاوية ، قال لها : مرحبا وأهلا خير مقدم قدمه وافد ، كيف حالك يا خالة ؟ وكيف رأيت سيرك ؟ قالت : خير مسير ، فقال : هل تعلمين لم بعثت إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيب إلا الله - سبحانه وتعالى - . قال : ألست راكبة الجمل الأحمر يوم صِفّين ، وأنت بين الصفوف توقدين نار الحرب ، وتحرضين على القتال ؟ قالت : نعم . قال : فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، إنه قد مات الرأس ، وبُتِر الذنَب ، والدهر ذو غِير ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر ، فقال : صدقت . فهل تعرفين كلامك : وتحفظين ما قلت ؟ قالت : لا والله ؟ قال : لله أبوك . فلقد سمعتك تقولين : أيها الناس ، إن المصباح لا يضىء فى الشمس ، وإن الكواكب لا تضىء مع القمر ، وإن البغل لا يسبق الفرس ، ولا يُقْطَعُ الحديد إلا بالحديد ، ألاَ من استرشدنا أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه ، إن الحق كان يطلب ضالّةً فأصابها ، فصبرا يا معشر المهاجرين والأنصار ، فكأنكم وقد التأم شمل الشتات ، وظهرت كلمة العدل ، وغلب الحق باطله ، فإنه لا يستوى المحق والمبطل ، ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [٤] . فالنزالَ النزالَ ، والصبرَ الصبرَ ألاَ وإن خضاب النساء الحنّاء ، وخضابَ الرجال الدماء ، والصبر خير الأمور عاقبة ، ائتوا الحرب غيرَ ناكصين[٥] فهذا يوم له ما بعده يا زرقاء أليس هذا قولك ، وتحريضك ؟ قالت : لقد كان ذلك ، قال : لقد شاركت عليا فى كلّ دم سفكه ، فقالت : أحسن الله بشارتك ، يا أمير المؤمنين ، وأدام سلامتك مثلك من يبشر بخير ، ويسر جليسه ، فقال معاوية : أوقد سرك ذلك ؟ قالت : نعم . والله لقد سرنى قولك ، وأنى لى بتصديقه . فقال لها معاوية: والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب إلىّ من حبكم له فى حياته ، فاذكرى حوائجك تُقْضَ ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، إنى آليت على نفسى ، أن لا أسأل أحدًا بعد علىّ حاجة ، فقال : قد أشار علىّ بعض من عرفك بقتلك ، فقالت : لؤم من المشير ، ولو أطعته لشاركتَه . قال : كلا ، بل نعفو عنك ، ونحسن إليك ، ونرعاك ، فقالت : يا أمير المؤمنين كرم منك ، ومثلك من قدَرَ فعفا ، وتجاوز عمن

---

(١) أي عقولكم الفطِنة.
(٢) الكريهة: الحرب، أو الشدة في الحرب.
(٣) يقال: سيف صارم، أي قاطع. ورجل صارم، أي جَلْد شجاع ماضٍ في أمره قاطع فيه.
(٤) تضمين جميل من القرآن الكريم، سورة السجدة: الآية [١٨].
(٥) ناكصين: نكص نكْصًا ونكوصًا، أي رجع إلى خلفٍ، ونكص عن الأمر، أي أحْجَم، ويقال: نكص على عقبيه: رجع عمَّا كان قد اعتزمه وأحجم عنه.

أساء ، وأعطى من غير مسألة ، قال : فأعطاها كسوة ودراهم ، وأقطعها ضيعة تُغِلّ لها فى كل سنة عشرة آلاف درهم ، وأعادها إلى وطنها سالمة ، وكتب إلى والى الكوفة بالوصية بها وبعشيرتها .

وقيل : كان لعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أرض ، وكان له فيها عبيد يعملون فيها ، وإلى جانبها أرض لمعاوية ، وفيها أيضا عبيد يعملون فيها فدخل عبيدُ معاوية فى أرض عبد الله بن الزبير ، فكتب عبد الله كتابا إلى معاوية يقول له فيه : أما بعد : يا معاوية إن عبيدك قد دخلوا فى أرضى ، فانههم عن ذلك ، وإلا كان لى ولك شأن والسلام . فلما وقف معاوية على كتابه ، وقرأه دفعه إلى ولده يزيد فلما قرأه ، قال له معاوية : يا بنى، ما ترى ؟ قال : أرى أن تبعث إليه جيشا يكون أوّله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه ، فقال : بل غير ذلك خير منه ، يا بنى ، ثم أخذ ورقة وكتب فيها جواب كتاب عبد الله بن الزبير يقول فيه : أما بعد فقد وقفت على كتاب ولد حوارىّ رسول الله ﷺ وساءنى ما ساءه ، والدنيا بأسرها هينة عندى فى جنب رضاه ، نزلت عن أرضى لك فأضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال، والسلام . فلما وقف عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما على كتاب معاوية رضي الله عنه كتب إليه قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - ولا أعدمه الرأى الذى أحله من قريش هذا المحل ، والسلام . فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله بن الزبير وقرأه رمى به إلى ابنه يزيد ، فلما قرأه تهلل وجهه ، وأسفر ، فقال له أبوه : يا بنى ، من عفا ساد ، ومن حلم عظم ، ومن تجاوز استمال إليه القلوب فإذا ابتليت بشىء من هذه الأدواء[1] . فداوه بمثل هذا الدواء .

ولما دخل الفيل دمشق ، واجتمع الناس لرؤيته ، صعد معاوية فى مكان مرتفع ينظر إليه ، فبينما هو كذلك إذ نظر فى بعض الحجر من قصره رجلا مع بعض حرمه ، فأتى الحجرة ودق الباب ، فلم يكن من فتحه بدّ ، فوقعت عينه على الرجل ، فقال له : يا هذا فى قصرى ، وتحت جناحى تهتك حرمتى ، وأنت فى قبضتى ؟! ما حملك على هذا ؟ قال : فبهت الرجل . وقال : حلمك أوقعنى ، فقال له معاوية : فإن عفوت عنك تسترها علىّ ؟ قال : نعم . فعفا عنه ، وخلى سبيله ، وهذا من الحلم الواسع ، أن يطلب الستر من الجانى ، وهو عروض[2] ، قول الشاعر :

إذا مرضتم أتيناكم نعودكُمْ وتُذنبون فنأتيكُم ونَعتذرُ

(وحكى) عن الربيع مولى الخليفة المنصور قال : ما رأيت رجلا أربط جأشًا وأثبت جنانا من رجل سُعى به إلى المنصور أن عنده ودائع وأموالا لبنى أمية ، فأمرنى بإحضاره ، فأحضرته إليه فقال له المنصور ، قد رفع إلينا خبر الودائع والأموال التى عندك لبنى أمية ، فاخرج لنا منها وأحضرها ، ولا تكتم منها شيئا ، فقال : يا أمير المؤمنين أنت وارث بنى أمية ؟ قال : لا . قال : فوصى لهم فى أموالهم ورباعهم ؟ قال : لا . قال : فما مساءلتك عما فى يدى من ذلك ؟ قال فأطرق المنصور ، وتفكر ساعة ، ثم رفع رأسه وقال : إن بنى أمية ظلموا المسلمين فيها ، وأنا وكيل المسلمين فى حقوقهم ، وأريد أن آخذ ما ظلموا المسلمين فيه ، فأجعله فى بيت أموالهم ، فقال : يا أمير المؤمنين فتحتاج إلى إقامة بينة عادلة أن ما فى يدى لبنى أمية مما خانوه وظلموه ، فإن بنى أمية قد كانت لهم أموال غير أموال المسلمين . قال : فأطرق المنصور ساعة ، ثم رفع رأسه وقال : يا ربيع ، ما أرى الشيخ إلا قد صدق ، وما يجب عليه شىء وما يسعنا إلا أن نعفو عما قيل عنه ، ثم قال : هل لك من حاجة ؟ قال : نعم . حاجتى يا أمير المؤمنين أن تجمع بينى وبين من سعى فىّ إليك ، فوالله الذى لا إله إلا هو ما فى يدى لبنى أمية مال ولا وديعة ، ولكننى لما مثلت بين يديك وسألتنى عما سألتنى عنه قابلت بين هذا القول الذى ذكرته الآن ، وبين ذلك القول الذى ذكرته أوّلا فرأيت ذلك أقرب إلى الخلاص والنجاة فقال : يا ربيع اجمع بينه وبين من سعى به ، فجمعت بينهما فلما رآه قال : هذا غلامى اختلس لى ثلاثة آلاف دينار فى مالى ، وأبق منى[3] ، وخاف من طلبى له ، فسعى بى عند أمير المؤمنين ، قال : فشدد المنصور على الغلام ، وخوّفه فأقر بأنه غلامه ، وأنه أخذ المال الذى ذكره ، وسعى به كذبا عليه ، وخوفا من أن يقع فى يده ، فقال له المنصور : سألتك أيها الشيخ أن تعفو عنه ، فقال : قد عفوت عنه ، وأعتقته ، ووهبته ، الثلاثة

---

(١) الأدواء: جمع داء وهو يشمل الأمراض النفسية والاجتماعية.

(٢) العَرُوض من البيت: آخر شطره الأول. وهو هنا. وتذنبون فنأتيكم ونعتذر.

(٣) أبق: أي هربَ، فهو آبق وأبوق.

آلاف التى أخذها ، وثلاثة آلاف أخرى أدفعها إليه ، فقال له المنصور : ما على ما فعلت من مزيد قال : بلى يا أمير المؤمنين ، إن هذا كله لقليل فى مقابلة كلامك لى ، وعفوك عنى ، ثم انصرف . قال الربيع : فكان المنصور يتعجب منه ، وكلما ذكره يقول : ما رأيت مثل هذا الشيخ يا ربيع . وغضب الرشيد على حميد الطوسى فدعا له بالنطع والسيف ، فبكى فقال له : ما يبكيك ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت لأنه لابدّ منه ، وإنما بكيت أسفا على خروجى من الدنيا ، وأمير المؤمنين ساخط علىّ ، فضحك وعفا عنه ، وقال : إن الكريم إذا خادعته انخدع .

وأمر زياد بضرب عنق رجل ، فقال : أيها الأمير ، إن لى بك حرمة ، قال : وما هى؟ قال : إنى جارك بالبصرة . قال : ومن أبوك ؟ قال : يا مولاى ، إنى نسيت اسم نفسى ، فكيف لا أنسى اسم أبى ، فرد زياد كمه على فمه وضحك وعفا عنه .

وأمر الحجاج بقتل رجل ، فقال : أسألك بالذى أنت غدا بين يديه أذلُّ موقفًا منى بين يديك ، إلا عفوت عنى فعفا عنه . ولما ضرب الحجاج رقابَ أصحاب ابن الأشعث ، أتى رجل من بنى تميم فقال : والله يا حجاج ، لئن كنا أسأنا فى الذنب أحسنت فى العفو ، فقال : الحجاج : أف لهذه الجيف ، أما كان فيهم من يُحسن الكلام مثل هذا وعفا عنه وخلى سبيله .

وكان إبراهيم بن المهدى يقول : والله ما عفا عنى المأمون تقربا إلى الله تعالى ، ولا صلة للرحم . ولكن له سوق فى العفو يكره أن تكسد بقتلى .

وسئِل الفضل عن الفتوّة فقال الصفح عن عثرات الإخوان . وفى بعض الكتب المنزلة إن كثرة العفو زيادة فى العمر ، وأصله قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد:١٧] وقال يزيد بن مزيد: أرسل إلىّ الرشيد ليلا يدعونى ، فأوجست منه خيفة ، فقال لى : أنت القائل أنا ركن الدولة ، والثائر لها ، والضارب أعناق بُغاتها ؟! لا أم لك أى ركن ، وأى ثائر أنت ؟! قلت : يا أمير المؤمنين ، ما قلت هذا ، إنما قلت : أنا عبد الدولة ، والثائر لها ، فأطرق ، وجعل ينحل غضبه عن وجهه ، ثم ضحك فقلت : أحسن من هذا قولى :

خِلافَةُ اللهِ فى هارون ثابتةٌ وفى بَنِيه إلى أن يُنْفَخَ الصُّورُ

فقال : يا فضل ، أعطه مائتى ألف درهم قبل أن يصبح .

وأمر مصعب بن الزبير بقتل رجل ، فقال : ما أقبح بى أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة ، ووجهك هذا الذى يستضاء به ، فأتعلق بأطواقك ، وأقول : أى ربّ سل مُصْعَبًا لم قتلنى ؟ فقال : أطلقوه ، فلما أطلقوه قال : أيها الأمير، اجعل ما وهبت لى من حياتى فى خفض عيش ، قال : قد أمرت لك بمائة ألف درهم فقال :

أنا المذنب الخطّاء والعفوُ واسعٌ ولو لم يكن ذنبٌ لما عُرِف العَفْوُ

وتغيظ عبد الملك بن مروان على رجل فقال : والله لإن أمكنتى الله منه لأفعلن به كذا وكذا ، فلما صار بين يديه قال له رجاء ابن حيوة : يا أمير المؤمنين ، قد صنع الله ما أحْببت ، فاصنع ما أحب الله ، فعفا عنه وأمر له بصلة .

وقال الحسن : إن أفضل رداء تردى به الإنسان الحلم ، وهو والله عليك أحسن من برد الحبر[٢] ، وفيه قال أبو تمام .

رقيق حواشى[٣] الحلم لو أن حلمه بكفيك ما ماريت فى أنه برد

ويقال : الحليم سليم ، والسفيه كليم . وقال محمد بن عجلان : ما شىء أشد على الشيطان من عالم معه حلم ، إن تكلم تكلم بعلم ، وإن سكت سكت بحلم ، يقول الشيطان . سكوته أشد علىّ من كلامه :

---

(١) النطع: بتشديد النون المكسورة، وسكون الطاء وفتحها: بساط من الجلد، كثيرًا ما كان يُقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل.

(٢) الحبر: بفتح الحاء وسكون الباء: العالِم.

(٣) يقال: رجل رقيق الحواشي: لطيف الصُّحْبة، ويقال: عيش رقيق الحواشي: أي ناعم في دِعَة، وكلام رقيق الحواشي أي ليّن.

إذا كنت تبغى شيمة[١] غير شيمة طُبعتَ عليها لم تطعك الضرائبُ

وعن على بن الحسين رضي الله عنه أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب . وفى التوراة اذكرنى إذا غضبت أذكرك إذا غضبت ، فلا أمحقك[٢] فيما أمحق ، وإذا ظُلمت فاصبرْ وارض بنصرتى ، فإن نصرتى لك خير من نصرتك لنفسك .

وكان ابن عون إذا غضب على إنسان ، قال له ، بارك الله فيك ، وكانت له ناقة كريمة ، فضربها الغلام ، فأندر عينها[٣] ، فقالوا : إن غضب ابن عون فإنه يغضب اليوم ، فقال للغلام : غفر الله لك .

وقال رجل لرسول الله ﷺ: أى شىء أشد ؟ قال : غضب الله . قال : فما يباعدنى من غضب الله ؟ قال : «أن لا تغضب »[٤] . ويقال : من أطاع الغضب[٥] ، أضاع الأرب . قال أبو العتاهية :

ولم أر فى الأعداء حين اختبرتُهم عدوًا لعقل المرء أعدى من الغضب

وروى أبو هريرة رضي الله عنه « لَيْسَ الشَّدِيدُ بالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِى يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ »[٦] . وقال ابن مسعود رضي الله عنه: « كفى بالمرء إثما أن يقال له : اتق الله ، فيغضب ، ويقول : عليك نفسك ! »[٧] . وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عامل من عماله : أن لا تعاقب عند غضبك ، وإذا غضبت على رجل فاحبسه ، فإذا سكن غضبك فأخرجه ، فعاقبه على قدر ذنبه ، ولا تجاوز به خمسة عشر سوطا .

وقيل لابن المبارك - رحمه الله تعالى - اجمَعْ لنا حُسنَ الخُلُق فى كلمة واحدة ، قال : ترك الغضب .

وقال المعتمر بن سليمان: كان رجل ممن كان قبلكم يغضب ، ويشتد غضبه فكتب ثلاث صحائف فأعطى كل صحيفة رجلا وقال للأوّل : إذا اشتد غضبى فقم إلىّ بهذه الصحيفة وناولنيها ، وقال للثانى: إذا سكن بعض غضبى فناولنيها ، وقال للثالث : إذا ذهب غضبى فناولنيها ، وكان فى الأولى : أقْصِرْ[٨] فما أنت وهذا الغضب، إنك لست بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضُك بعضًا . وفى الثانية: ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء . وفى الثالثة: احمل عباد الله على كتاب الله، فإنه لا يصلحهم إلا ذاك . روى أنه أنوشروان وكان الشعبى أولع شىء بهذا البيت .

ليست الأحلام فى حال الرضا إنما الأحلام فى حال الغضب

وعن معاذ بن جبل عن أنس رضي الله عنهم عن النبى ﷺ « مَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَه دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ القِيامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِى أَىِّ الحُورِ شَاءَ »[٩] وروى : « ملأه الله أمنا وإيمانا » . وقال ابن السماك : أذنب غلام لامرأة من قريش ، فأخذت السوط ، ومضت خلفه ، حتى إذا قاربته رمت بالسوط وقالت : ما تركت التقوى أحدًا يشفى غيظه .

وقال أبو ذر لغلامه : لم أرسلت الشاة على علف الفرس ؟ قال : أردت أن أغيظك . قال : لأجمعن مع الغيظ أجرا أنت حرّ لوجه الله تعالى .

واستأذن رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فأذن لهم فقالوا : السامُ عليك يا محمد فقالت عائشة رضي الله عنها : بل السام عليكم ، واللعنة ، فقال : « يا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِى الْأَمْرِ كُلِّهِ ، فقالت : أَلَمْ تَسْمَعْ ما قالوا ؟ قال : قَدْ قُلْتِ « وَعَلَيْكُمْ »[١٠] .

---

(١) شيمة: خُلُق، والجمع شِيَم. (٢) أمحق الشيءُ: هلك. (٣) أندر عينها: أخرجها.

(٤) وقال رجل.. إلخ. وقال العراقي في «تخريج الإحياء» [٣/ ١٦٥]: أخرجه الطبراني في [مكارم الأخلاق]، وابن عبد البر في التمهيد «بإسناد حسن».. والحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٥) الأَرَب: الحاجة، والبُغية والأمنية.

(٦) وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «ليس الشديد إلخ». الأدب المفرد للبخاري «باب الغضب» ورواه أبو هريرة.

(٧) وقال ابن مسعود: كفى بالمرء إثمًا إلخ. لم أقف عليه.

(٨) أقْصِرْ: أقْصَرَ عن الشيء أي كفَّ ونزع عنه وهو يقدر عليه.

(٩) وعن معاذ بن جبل إلخ. أخرجه أحمد [٣/ ٤٤٠]، وابن ماجه [٤١٨٦].

(١٠) واستأذن رهط من اليهود.. إلخ. البخاري. الأدب المفرد «إذا قال أهل الكتاب السامُ عليكم».

ورفع إلى عبد الملك بن مروان أعرابى يقال له : حمزة ؛ سرق ، وقامت عليه البينة ، فهم عبد الملك بقطع يده ، فكتب إليه حمزة من السجن يقول :

يدى يا أمير المؤمنين أعيذها ... بعفوك أن تلقى مقامًا يشينها
فلا خير فى الدنيا وكانت خبيثة ... إذا ما شمال فارقتها يمينها

قال فأبى عبد الملك إلا قطعه ، فدخلت عليه أم حمزة وقالت : يا أمير المؤمنين ، بُنَىَّ وكاسبى ، وواحدى ، فقال لها عبد الملك ، بئس الكاسب لك ! هذا حد من حدود الله تعالى ، فقالت يا أمير المؤمنين فاجعله أحد ذنوبك التى تستغفر الله منها ، فقال عبد الملك ادفعوه إليها ، وخلى سبيله .

إذا ما طاش حلمك عن عدوّ ... وهان عليك هجرانُ الصديقِ
فلست إذًا أخا عفو وصفح ... ولا لأخ على عهدٍ وَثيقِ
إذا زل الرفيق وأنت ممن ... بلا رفق بقيتَ بلا رفيقِ
إذا أنت اتخذت أخا جديدا ... لما أنكرت من خلق عتيق
فما تدرى لعلك مستجير ... من الرمضاء[1] فرّ إلى الحريق
فكم من سالك لطريق أمن ... أتاه ما يحاذر فى الطريق

وشتم رجل رجلا ، فقال له : يا هذا ، لا تغرق فى شتمنا ، ودع للصلح موضعا ، فإنى أَبيتُ مشاتمة الرجال صغيرا ، فلن أجيئها كبيرا ، وإنى لا أكافئ من عصى الله فى بأكثر من أن أطيع الله فيه .

(وحكى) عن جعفر الصادق ﷺ أن غلامًا له وقف يصب الماء على يديه ، فوقع الإبريق من يد الغلام فى الطَّسْت، فطار الرشاش فى وجهه، فنظر جعفر إليه نظر مُغْضَب فقال : يا مولاى ، ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤] قال : كظمت غيظى . قال : ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ . قال : قد عفوت عنك ، قال : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ . قال : اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى .

وقيل لما قدم نصر بن منيع بين يدى الخليفة - وكان قد أمر بضرب عنقه - قال : يا أمير المؤمنين ، اسمع منى كلمات أقولها ، قال : قل : فأنشد يقول :

زعموا بأن الصقر صادفَ مَرّة ... عُصفورَ بَرّ ساقَه التقدير
فتكلم العصفورُ تحت جَناحه ... والصقر مُنقضّ عليه يطيرُ
إنى لمثلك لا أتمّمُ لقمة ... ولئن شُويتُ فإننى لحقير
فتهاون الصّقر المدِلّ بصيده ... كرمًا وأفلت ذلك العصفور

قال: فعفا عنه وخلى سبيله ، قال الشاعر :

أقرِرْ بذنبك ثم اطلبْ تجاوزهم ... عنه فإن جحودَ الذنب ذَنْبان

قال بعضهم :

يستوجبُ العفو الفتى إذا اعترف ... وتاب عما قد جناه واقترفْ
لقوله : قل للذين كفروا ... إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف[2]

وقال آخر :

إذا ذكرت أياديك التى سلفت ... مع قبح فعلى وزلاتى ومُجْتَرمى[3]

---

(١) الرمضاء: بتشديد الراء المفتوحة وسكون الميم: شِدة الحرّ.
(٢) ضمن البيت الثاني الآية الكريمة رقم [٣٨] من سورة الأنفال: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ .
(٣) مجترمى: ما أرتكبه من جُرم: جريمتي في حقك وحق الناس. ومجبول: مخلوق ومطبوع.

أكاد أقتل نفسى ثم يدركنى علمى بأنك مجبول على الكرم

وروى أن عمر ﷺ رأى سكران فأراد أن يأخذه ليعزّره ، فشتمه السكران ، فرجع عنه فقيل له : يا أمير المؤمنين ، لما شتمك تركته ، قال : إنما تركته لأنه أغضبنى ، فلو عزرته[١] ، لكنت قد انتصرت لنفسى ، فلا أحب أن أضرب مسلما لحمية نفسى .

وغضب المنصور على رجل من الكتاب فأمر بضرب عنقه ، فأنشد يقول :

وأنا الكاتبون وإن أسأنا فهبنا للكرام الكاتبينا[٢]

فعفا عنه وخلى سبيله وأكرمه .

وقال الرشيد لأعرابى : بم بلغ فيكم هشام بن عروة هذه المنزلة ؟ قال : بحلمه عن سفيهنا ، وعفوه عن مسيئنا ، وحمله عن ضعيفنا لا منان إذا وهب ، ولا حقود إذا غضب ، رحب الجنان[٣] ، سمح البنان[٤] ، ماضى اللسان[٥] ، قال : فأومأ الرشيد إلى كلب صيد ، كان بين يديه وقال : والله لو كانت هذه فى هذا الكلب ، لاستحق بها السؤدُد .

وقيل لمعن بن زائدة : المؤاخذة بالذنب من السؤدد ؟ قال : لا ولكن أحسن ما يكون الصفح عمن عظم جرمه ، وقل شفعاؤه ولم يجد ناصرا . وقال محمود الوراق :

سَأُلزِمُ نفسى الصفح عن كلّ مُذنبٍ وإن عظمت منه علىَّ الجرائمُ
فما الناس إلا واحد من ثلاثة شريف ، ومشروف ، ومِثْلٌ مقاوم
فأما الذى فوقى فأعرف قدره وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فإن قال صنت عن إجابته نفسى وإن لام لائم
وأما الذى مثلى فإن زلّ أو هفا تفضلت ؛ إن الحر بالفضل حاكم

وقال الأحنف بن قيس لابنه : يا بنى ، إذا أردت أن تؤاخى رجلا ، فأغضبه فإن أنصفك ، وإلا فاحذره . قال الشاعر :

إذا كنت مختصا لنفسك صَاحبًا فمن قبل أن تلقاه بالود أغضبه
فإن كان فى حال القطيعة مُنصفا وإلا فقد جربته فتجنبه

ومن أمثال العرب احلم تسد ، قال الشاعر :

إن يبلغِ المجدَ أقوامٌ وإن شرفوا حتى يذلوا - وإن عَزُّوا - لأقوام
ويشتموا فترى الألوان مسفرةً[٦] لا صفح ذلٍ ، ولكن صفح إكرام

وقال آخر :

وجهل رددناه بفضل حلومنا ولو أننا شئنا رددناه بالجهل

وقال الأحنف : إياكم ورأى الأوغاد ، قالوا : وما رأى الأوغاد ، قال : الذين يرون الصفح والعفو عارا . وقال رجل لأبى بكر الصديق ﷺ : لأَسُبَّنك سبًّا يدخل معك قبرك ، فقال : معك والله يدخل لا معى .

وقيل : إن الأحنف سبَّه رجل وهو يماشيه فى الطريق ، فلما قرب من المنزل ، وقف الأحنف وقال له : يا هذا، إن كان قد بقى معك شىء فهات وقله هاهنا، فإنى أخاف أن يسمعك فِتيانُ الحى فيؤذوك ونحن لا نحب الانتصار لأنفسنا . وقال لقمان لابنه : يا بنى، ثلاثة لا يُعرفون إلا عند ثلاثة لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه . ومن أشعر بيت قيل فى الحلم قول كعب بن زهير :

---

(١) التعزير: عقاب أقل من الحد متروك تقديره للإمام.
(٢) الكرام الكاتبين: الملائكة الذين يكتبون ما نقوله وما نفعله.
(٣) رَحْب الجنان: أي واسع الصدر.
(٤) سمْحُ البنان: كناية عن الجوة والسَّخاء.
(٥) أي حادّ اللسان.
(٦) سفَر الشيء: كشفه وأوضحه.

إذا أنت لم تُعرض عن الجهل والخنا[١] أصبت حليما أو أصابك جاهلُ

وقال آخر :

وإذا بغى باغٍ عليك بجهله فاقتله بالمعروف لا بالمُنكرِ

وقال آخر :

قل ما بدا لك من صدق ومن كذب حلمي أصم ، وأذني غير صماء

ويروى فى بعض الأخبار : أن ملكا من الملوك أمر أن يصنع له طعام ، وأحضر قوما من خاصته ، فلما مُد السّماط أقبل الخادم ، وعلى كفه صحن فيه طعام ، فلما قرب من الملك أدركته الهيبة ، فعثر فوقع من مرق الصحن شىء يسير على طرف ثوب الملك ، فأمر بضرب عنقه ، فلما رأى الخادم العزيمة على ذلك عمد بالصحن فصب جميع ما كان فيه على رأس الملك ، فقال له : ويحك . ما هذا ؟ فقال : أيها الملك إنما صنعت هذا شُحّا على عرضك ، وغيرة عليك لئلا يقول الناس إذا سمعوا ذنبى الذى به تقتلنى قتله فى ذنب خفيف لم يضره ، وأخطأ فيه العبد ولم يقصده ، فتنسب إلى الظلم والجور ، فصنعت هذا الذنب العظيم لتعذر فى قتلى ، وترفع عنك الملامة .

قال : فأطرق الملك مَليًّا ثم رفع رأسه إليه ، وقال : يا قبيحَ الفعل ، يا حسن الاعتذار ، قد وهبنا قبيح فعلك ، وعظيم ذنبك لحسن اعتذارك ، اذهب فأنت حرّ لوجه الله تعالى .

(وحكى) عن أمير المؤمنين المأمون - وهو المشهود له بالاتفاق على علمه ، والمشهور فى الآفاق بعفوه وحلمه - أنه لما خرج عمه إبراهيم بن المهدى عليه ، وبايعه العباسيون بالخلافة ببغداد ، وخلعوا المأمون ، وكان المأمون إذ ذاك بخراسان ، فلما بلغه الخبر ، قصد العراق فلما بلغ بغداد اختفى إبراهيم بن المهدى وعاد العباسيون وغيرهم إلى طاعة المأمون ، ولم يزل المأمون متطلبا لإبراهيم حتى أخذه وهو متنقب مع نسوة فحبس ، ثم أحضر حتى وقف بين يدى المأمون فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال المأمون: لا سلّم الله عليك ، ولا قرب دارَك ، استغواك الشيطان حتى حدثتك نفسك بما تنقطع دونه الأوهام ، فقال له إبراهيم: مَهْلاً يا أمير المؤمنين ، فإن ولى الثأر محكَّمٌ فى القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ولك من رسول الله ﷺ شرف القرابة وعدل السياسة ، وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب ، كما جعل كل ذى ذنب دونك ، فإن أخذت فبحقك ، وإن عفوت فبفضلك والفضل أولى بك يا أمير المؤمنين ثم قال هذه الأبيات :

ذنبى إليك عظيم وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أو لا فاصفح بعفوك عنه
لم أكن فى فعالى من الكرام فكنه

فلما سمع المأمون كلامه وشعره ، ظهرت الدموع فى عينيه ، وقال : يا إبراهيم ، الندم توبة ، وعفو الله تعالى أعظم مما تحاول ، وأكثر مما تأمل ، ولقد حبب إلى العفو حتى خفت أن لا أوجر عليه لا تثريب عليك اليوم ، ثم أمر بفك قيوده ، وإدخاله الحمام ، وإزالة شعثه ، وخلع[٢] عليه ، ورد أمواله جميعها إليه فقال فيه مخاطبا :

رددت مالى . ولم تبخل علىّ به وقبل ردك مالى قد حَقَنْتَ دمى
فإن جحدتُك ما أوليت من كرم إنى لَبِاللُّؤم أولى منك بالكرم

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمره أن يبعث إليه برأس عباد بن أسلم البكرى ، فقال له عباد : أيها الأمير ، أنشدك الله ، لا تقتلنى فوالله إنى لأعول أربعا وعشرين امرأة ما لهن كاسب غيرى فرق لهن واستحضرهن ، وإذا واحدة منهن كالبَدرِ فقال لها الحجاج : ما أنت منه ؟ قالت : أنا بنته ، فاسمع يا حجاج منى ما أقول ثم قالت :

أحجاجُ إما أن تَمُنَّ بتركه علينا وإما أن تقتلنا مَعَا

---

(١) الخَنَا: الفُحش في الكلام.

(٢) خلع عليه ثوبه: أعطاه إياه.

أحجاج لا تفجَعْ به إن قتلته ثمانا وعشرا واثنتين وأربعا
أحجاج لا تترك عليه بناته وخالاته يندبنه الدهر أجمعا

فبكى الحجاج ، ورق له ، واستوهبه[١] من أمير المؤمنين عبد الملك وأمر له بصلة .

ولما قدم عيينة بن حصن على ابن أخيه الحرّ بن قيس ، وكان من النفر الذى يدنيهم عمر ﷺ وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولا ، كانوا أو شبانا فقال عيينة لابن أخيه : يا بن أخ ، ى لك وجه عند هذا الأمير ، فاستأذن لى عليه فاستأذن فأذن لهم عمر ، فلما دخل قال : هيه يا بن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل[٢] ، ولا تحكم فينا بالعدل ، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به ، فقال له الحر : يا أمير المؤمنين ، إن الله سبحانه وتعالى قال لنبيه ﷺ ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩] وإن هذا من الجاهلين فوالله ما جاوزها عمر ﷺ حين تلاها عليه ، وكان وقافا عند كتاب الله تعالى .

(وحكى) : أن رجلا زوّر ورقة عن خط الفضل بن الربيع تتضمن أنه أطلق له ألف دينار ، ثم جاء بها إلى وكيل الفضل ، فلما وقف الوكيل عليها لم يشك أنها خط الفضل ، فشرع فى أن يزن له الألف دينار ، وإذا بالفضل قد حضر ليتحدث مع وكيله فى تلك الساعة فى أمر مهم ، فلما جلس أخبره الوكيل بأمر الرجل ، وأوقفه على الورقة ، فنظر الفضل فيها ، ثم نظر فى وجه الرجل فرآه كاد يموت من الوجل والخجل ، فأطرق الفضل بوجهه ، ثم قال للوكيل : أتدرى لم أتيتك فى هذا الوقت ؟ قال : لا . قال : جئت لأستنهضك[٣] . حتى تعجل لهذا الرجل إعطاء المبلغ الذى فى هذه الورقة فأسرع عند ذلك الوكيل فى وزن المال ، وناوله الرجل فقبضه وصار متحيرا فى أمره ، فالتفت إليه الفضل ، وقال له : طب نفسا وامض إلى سبيلك آمنا على نفسك فقبل الرجل يده ، وقال : له سترتنى سترك الله فى الدنيا والآخرة ، ثم أخذ المال ومضى . فيجب على الإنسان أن يتأسى بهذه الأخلاق الجميلة ، والأفعال الجليلة ، ويقتفى سنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، فقد كان أكثر الناس حلما وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم خلقا ، وأكثرهم تجاوزا وصفحا وأبرّهم للمعتر[٤] عليه نجحا . صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمدلله رب العالمين .

وأما ما جاء فى العتاب : فقد قيل : العتاب خير من الحقد ، ولا يكون العتاب إلا على زلة . وقد مدحه قوم فقالوا : العتاب حدائق المتحابين ، ودليل على بقاء المودّة وقد قال أبو الحسن بن منقذ .

أسطو عليه وقلبى لو تمكن من يدى غلّهما غيظا إلى عنقى
وأستعير له من سطوتى حنقا وأين ذل الهوى من عزة الحنق ؟!

وذمه بعضهم : قال إياس بن معاوية : خرجت فى سفر ، ومعى رجل من الأعراب ، فلما كان فى بعض المناهل لقيه ابن عم له ، فتعانقا وتعاتبا ، وإلى جانبهما شيخ من الحى فقال لهما . أَنْعِمَا عيشا ، إن المعاتبة تبعث التجنى والتجنى يبعث المخاصمة ، والمخاصمة تبعث العداوة ، ولا خير فى شىء ثمرته العداوة . قال الشاعر :

فدع ذكر العتاب فرُب شَرٍّ طويل هاج أوّله العتابُ

وقيل : العتاب من حركات الشوق ، وإنما يكون هذا بين المتحابين . قال الشاعر :

علامةُ ما بين المحبين فى الهوى عتابُهم فى كل حقٍّ وباطل

وكتب بعضهم يعاتب صديقه على تغيّر حاله معه . يقول :

عرضنا أنفسنا عزت علينا عليكم فاستخفّ بها الهوانُ
ولو أنا رفعناها لعزت ولكن كلّ معروضٍ مُهانُ

وقال آخر يعاتب صديقه :

وكنتَ إذا ما جئتُ أدنيت مجلسي ووجهك من ماء البشاشة يَقْطُر

---

(١) اسْتَوْهب: استوهب الهبةَ، أي سألها.
(٢) الجزل: الكثير.
(٣) أستنهضك: أطلب منك أن تنهض وتسرع وتعجل.
(٤) المعْتَر: المتعرض للمعروف من غير أن يسأل.

فمن لى بالعين التى كنتَ مرةً ... إلىّ بها فى سالف الدهر تنظر ؟!

وقال أبو الحسن بن منقذ :

أخلاقُكَ الغُرُّ السجايا ما لها ... حملت قذًى[١] الواشين وهى سُلاف[٢] ؟!

ومرآةُ رأيك فى عبيدك ما لها ... صَدِئَتْ وأنت الجوهرُ الشفاف ؟!

وقال آخر يعاتب صديقه على كتاب أرسله إليه وفيه حط عليه :

اقرأ كتابك واعتبره قريبا ... فكفى بنفسك لى عليك حسيبا

أكذا يكون خطاب إخوان الصفا ... إن أرسلوا جعلوا الخطاب خطُوبا[٣]

ما كان عذرى إن أجبت بمثله ... أو كنت بالعتب العنيف مجيبا

لكننى خفت انتقاص مودتى ... فيعد إحسانى إليك ذنوبا

وقال آخر :

أراك إذا ما قلت قولا قبلتُه ... وليس لأقوالى لديك قَبولُ

وما ذاك إلا أن ظنك سيئ ... بأهل الوفا والظنّ فيك جميل

فكن قائلا قول الحماسىّ تائها ... بنفسك عجبا وهو منك قليل

ونُنكر إن شئنا على الناس قولهم ... ولا يُنكرون القول حين نقول

وكان لمحمد بن الحسن بن سهل صديق فنالته إضاقة ، ثم ولى عملا فأثرى ، فقصده محمد مُسلمًا فرأى منه تغيرا فكتب إليه :

لئن كانت الدنيا أنالتك ثروة ... فأصبحت ذا يُسر وقد كنتَ ذا عسر

فقد كشف الإثراء منك خلائقا ... من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

وقال آخر فى المعنى :

دعوتُ الله أن تسمو وتعلو ... علوَّ النجم فى أفق السماء

فلما أن سموت بعدت عنّى ... فكان إذا على نفسى دعائى

وكان ابن عرادة السعدى مع سلم بن زياد بخراسان ، وكان له مكرما ، وابن عرادة يتجنى عليه ، ففارقه وصاحب غيره ، ثم ندم ورجع إليه وقال :

عتبت على سلم فلما فقدتهُ ... وصاحبتُ أقوامًا بكيتُ على سلم

رجعت إليه بعد تجريب غيره ... فكان كبرءٍ بعد طول من السقم[٤]

وقال مسلم بن الوليد :

ويُرجعنى إليك إذا نأت بى ... ديارى عنك تجربةُ الرجال

وقال أبو الحسن القابسى :

إذا أنا عاتبتُ المليل فإنما ... أخط بأقلامى على الماء أحرفا

وهبه[٥] ارعوى بعد العتاب ألم تكن ... مودته طبعا فصارت تكلفا ؟!

وقال أبو الدرداء ﷺ : معاتبة الصديق أهون من فقده ، وما أحسن ما قيل فى العتاب :

---

(١) القَذَى: ما يتكوَّن في العين من رمص وغمص وغيرهما، ويقال: هو يغضي على القذى: إذا سكت عن الذُّل والضيم.

(٢) السُّلَافُ: الخالص الصافي من كل شيء.

(٣) الخطوب: جمع خطب وهو المصيبة.

(٤) سقِم سقمًا: طال مرضُه.

(٥) ارعوى: رجع، وكفّ عما فيه وأثر فيه العتاب.

وفى العتاب حياة بين أقوام ... وهو المحك لدى لُبْسٍ وإبهام

فما ثم شىء أحسن من معاتبة الأحباب ، ولا ألذ من مخاطبة ذوى الألباب ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب السابع والثلاثون

فى الوفاء بالوعد ، وحفظ العهد ، ورعاية الذمم

أرجح دليل يتمسك به الإنسان كتاب الله تعالى الذى من تمسك به هداه ، ومن استدل به أرشده وهداه ، وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة:١] وقال جل ذكره وتقدس اسمه : ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ [الرعد:٢٠] وقال جل وعلا : ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ [النحل:٩١] وقال تعالى : ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء:٣٤] والآيات فى ذلك كثيرة ومن أشدها قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف:٢-٣] .

وروى فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ » . فالوفاء من شيم النفوس الشريفة ، والأخلاق الكريمة ، والخلال الحميدة يعظم صاحبه فى العيون ، وتصدق فيه خطرات الظنون ، ويقال : الوعد وجه ، والإنجاز محاسنه ، والوعد سحابة والإنجاز مطره . وقال عمر بن الخطاب ﷺ لكل شىء رأس ورأس المعروف تعجيله ، وأنشدوا :

إذا قلت فى شىء نعم فأتمه ... فإن نعم دينٌ على الحر واجبُ

وإلا فقل : لا تسترخ وترخ بها ... لئلا يقول الناس : إنك كاذب

وقال آخر :

لا كلّف الله نفسًا فوق طاقتها ... ولا تجود يد إلا بما تجد

فلا تعد عدةً إلا وفيت بها ... واحذر خلاف مقالٍ للذى تَعِدُ

وقال أعرابى : وعد الكريم نقد وتعجيل ، ووعد اللئيم مطل وتعليل ، وقال أعرابى أيضا : العذر الجميل ، خير من المطل الطويل . ومدح بشار خالد بن برمك فأمر له بعشرين ألفا ، فأبطأت عليه فقال لقائده : أقمنى حيث يمر فأقامه ، فمرّ فأخذ بلجام بغلته ، وأنشأ يقول :

أظلت علينا منك يومًا سحابةٌ ... أضاء لها برقٌ وأبطا رَشَاشُها

فلا غيمها يُجلى فييأس طامع ... ولا غيثُها يأتى فتروى عطاشُها

فقال لا تبرح حتى تؤتى بها . وقال صالح اللخمى :

لئن جمع الآفات فالبخل شرّها ... وشرٌّ من البخلِ المواعيدُ والمطل

ولا خيرَ فى وعد إذا كان كاذبا ... ولا خيرَ فى قول إذا لم يكن فعلُ

وقيل : ماتت للهذلى أم ولد ، فأمر المنصور الربيع أن يعزيه ويقول له : إن أمير المؤمنين موجه إليك جارية نفيسة لها أدب وظرف يسليك بها ، وأمر لك معها بفرس وكسوة وصِلة ، فلم يزل الهذلى يتوقع وعد أمير المؤمنين ، ونسيه المنصور ، فحج المنصور ومعه الهذلى ، فقال المنصور ، وهو بالمدينة ، إنى أحب أن أطوف الليلة المدينة ، فاطلب لى من يطوف بى . فقال الهذلى : أنا لها يا أمير المؤمنين فطاف به حتى وصل بيت عاتكة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، وهذا بيت عاتكة الذى يقول فيه الأحوص :

يا بيت عاتكة الذى أتعزّل[١] حذر العِدا وبه الفؤاد موكل
إنى لأمنحك الصُدود وإننى قسما إليك مع الصدود لأميل

فكره المنصور ذكر بيت عاتكة من غير أن يسأله عنه ، فلما رجع المنصور أمرّ القصيدة على قلبه فإذا فيها :

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مذِقُ اللسانِ يقول ما لا يفعلُ

فذكر المنصور الوعد الذى كان وعد به الهذلى ، فأنجزه له ، واعتذر إليه ، وقال الشاعر :

تعجيل وعد المرء أكرومة تنشر عنه أطيب الذكر
والحر لا يمطل معروفه ولا يليق المطل بالحر

وقال آخر :

ولقد وعدتَ وأنت أكرم واعد لا خير فى وعدٍ بغير تمام
أنعم على بما وعدتَ تكرُّمًا فالمطل يُذهبُ بهجةَ الإنعام

وقال آخر :

لعبدك وعد قد تقدم ذكرهُ فأوّله حمدٌ وآخره شكر
وقد جُمعتْ فيك المكارمُ كلها فمالك عن تأخير مكرمة عُذرُ

وقال آخر :

ومبعاد الكريم عليه دين فلا تزدِ الكريمَ على السلام
يُذكّرهُ سلامك ما عليه ويُغنيك السلامُ عن الكلام

وقال آخر :

شكاك لسانى ثم أمسكتُ نصفه فنصفُ لسانى بامتداحك ينطق
فإن لم تُنجزْ ما وعدت تركتنى وباقى لسانى بالمذمة مُطْلَقُ

وقال آخر :

باتت لوعدك عينى غيرَ راقدة والليل حَىَ الدياجى[٢] منبت السحر
هذا وقد بتّ من وعدٍ على ثقةٍ فكيف لو بتّ من هجر على حذر ؟!

وقال آخر :

نذكر بالرقاع إذا نسينا ويأبى الله أن تنسى الكرام

وأما الوفاء بالعهد ، ورعاية الذمم : فقد نقل فيه عجائب الوقائع ، وغرائب البدائع ما يطرب السامع ويشنف[٣] المسامع ، كقضية الطائى ، وشريك نديم النعمان بن المنذر .

وتخليص معناها : أن النعمان كان قد جعل له يومين : يوم بؤس من صادفه فيه قتله وأرداه ، ويوم نعيم من لقيه فيه أحسن إليه وأغناه ، وكان هذا الطائى قد رماه حادث دهره بسهام فاقته وفقره ، فأخرجته الفاقة من محل استقراره ، ليرتاد شيئا لصبيته وصغاره ، فبينما هو كذلك إذ صادفه النعمان فى يوم بؤسه ، فلما رآه الطائى علم أنه مقتول ، وأن دمه مطلول[٤] ، فقال : حيا الله الملك ، إن لى صبية صغارا وأهلا جياعا ، وقد أرقت ماء وجهى فى حصول شىء من البُلْغة لهم[٥] ، وقد أقدمنى منى سوء الحظ على الملك فى هذا اليوم العبوس ، وقد قربت من مقر الصبية ، والأهل وهم

(١) تعزّل : اعتزل ، واعتزل : بعُدَ وتنحّى .
(٢) الدياجي : بتشديد الدال المفتوحة ، أي الظُّلمات .
(٣) يشنف الآذان : يسعدها .
(٤) مطلول : مهدر .
(٥) البُلْغة : ما يكفي لسد الحاجة ، ولا يفضل عنها .

على شفا تلف من الطوى[١] ، ولن يتفاوت الحال فى قتلى بين أول النهار وآخره ، فإن رأى الملك أن يأذن لى فى أن أوصل إليهم هذا القوت ، وأوصى بهم أهل المروءة من الحى لئلا يهلكوا ضياعا ، ثم أعود إلى الملك وأسلم نفسى لنفاذ أمره ، فلما سمع النعمان صورة مقاله ، وفهم حقيقة حاله ، ورأى تلهفه على ضياع أطفاله ، رق له ورثى لحاله ، غير أنه قال له : لا آذن لك حتى يضمنك رجل معنا ، فإن لم ترجع قتلناه ، وكان شريك بن عدى بن شرحبيل نديم النعمان معه ، فالتفت الطائى إلى شريك وقال له :

يا شريك بنَ عَدِىٍّ ... ما من الموت انهزام !
مَن لأطفال ضعافٍ ... عُدِموا طعم الطعام
بين جوع وانتظار ... وافتقار وسقام
يا أخا كل كريم ... وأنت من قوم كرام
يا أخا النعمان جُذ لى ... بضمان والتزام
ولك الله بأنى ... راجع قبل الظلام

فقال شريك بن عدى : أصلح الله الملك علىّ ضمانه ، فمر الطائى مسرعا ، وصار النعمان يقول لشريك : إن صدر النهار قد ولّى ولم يرجع ، وشريك يقول : ليس للملك على سبيل حتى يأتى المساء ، فلما قرب المساء قال النعمان لشريك : قد جاء وقتك ، قم فتأهب للقتل ! فقال شريك : هذا شخص قد لاح مُقبلا ، وأرجو أن يكون الطائى ، فإن لم يكن فأمر الملك ممتثل ، قال : فبينما هم كذلك وإذا بالطائى قد اشتد عدوه في سيره مسرعا ، حتى وصل فقال : خشيت أن ينقضى النهار قبل وصولى ، ثم وقف قائما . وقال أيها الملك : مر بأمرك فأطرق النعمان ، ثم رفع رأسه ، وقال : والله ما رأيت أعجب منكما ! أما أنت يا طائى فما تركت لأحد فى الوفاء مقاما يقوم فيه ، ولا ذكرا يفتخر به ، وأما أنت يا شريك فما تركت لكريم سماحة يذكر بها فى الكرماء ، فلا أكون أنا ألأم الثلاثة ، ألا وإنى قد رفعت يوم بؤسى عن الناس ، ونقضت عادتى كرامة لوفاء الطائى ، وكرم شريك فقال الطائى :

ولقد دعتنى للخلاف عشيرتى ... فعددتُ قولَهمو من الإضلال
إنى امرؤ منّى الوفاءُ سجيّةٌ ... وفِعالُ كلّ مهذب مِفْضالِ

فقال له النعمان : ما حملك على الوفاء ، وفيه إتلاف نفسك ؟ فقال دينى فمن لا وفاء فيه لا دين له ، فأحسن إليه النعمان ، ووصله بما أغناه . وأعاده مكرما إلى أهله وأناله ما تمناه .

ومن ذلك ما حكى أن الخليفة المأمون لما ولى عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر والشام ، وأطلق حكمه ، دخل على المأمون بعض إخوانه يوما ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن عبدَ الله بنَ طاهر يميل إلى ولد أبى طالب ، وهواه مع العلويين ، وكذلك كان أبوه قبله ، فحصل عند المأمون شىء من كلام أخيه من جهة عبد الله بْن طاهر ، فتشوّش فكره وضاق صدره ، فاستحضر شخصًا وجعله فى زى الزهاد والنساك الغزاة ، ودسه إلى عبد الله بن طاهر وقال له : امض إلى مصر ، وخالط أهلها ، وداخل كبراءها ، واستملهم إلى القاسم بن محمد العلوى ، واذكر مناقبه ، ثم بعد ذلك اجتمع ببعض بطانة عبد الله بن طاهر ، ثم اجتمع بعبد الله بن طاهر بعد ذلك ، وادعه إلى القاسم بن محمد العلوى ، واكشف لى باطنه ، وابحث عن دفين نيته ، وائتنى بما تسمع ، ففعل ذلك الرجل ما أمره به المأمون وتوجه إلى مصر ، ودعا جماعة من أهلها ، ثم كتب ورقة لطيفة ، ودفعها إلى عبد الله بن طاهر وقت ركوبه ، فلما نزل من الركوب ، وجلس فى مجلسه ، خرج الحاجب إليه ، وأدخله على عبد الله بن طاهر وهو جالس وحده ، فقال له : لقد فهمت ما قصدته ، فهات ما عندك ، فقال : ولى الأمان ؟ قال : نعم . فأظهر له ما أراده ، ودعاه إلى القاسم بن محمد ، فقال له عبد الله : أوتنصفنى فيما أقوله لك ؟ قال : نعم . قال : فهل يجب شكر الناس بعضهم لبعض عند الإحسان والمنة ؟ قال : نعم . قال : فيجب علىّ وأنا فى هذه الحالة التى تراها من الحكم ، والنعمة ، والولاية ، ولى خاتم فى المشرق ، وخاتم فى المغرب ، وأمرى فيما بينهما مطاع ، وقولى مقبول ، ثم إنى ألتفت يمينا وشمالا فأرى نعمة

(١) الطوى: بتشديد الطاء المفتوحة مع فتح الواو: الجوع.

هذا الرجل غامرة ، وإحسانه فائضا على ، أفتدعونى إلى الكفر بهذه النعمة ، وتقول : اغدر ، وجانب الوفاء ؟! والله لو دعوتنى إلى الجنة عيانًا لما غدرت أو نكثت بيعته ، وتركت الوفاء له فسكت الرجل ، فقال له عبد الله : والله ما أخاف إلا على نفسك ، فارحل من هذا البلد ، فلما يئس الرجل منه ، وكشف باطنه ، وسمع كلامه ، رجع إلى المأمون ، فأخبره بصورة الحال ، فسره ذلك ، وزاد فى إحسانه إليه ، وضاعف إنعامه عليه .

ومما أسفرت عنه وجوه الأوراق ، وأخبرت به الثقات فى الآفاق ، وظهرت روايته بالشام والعراق ، وضرب به الأمثال فى الوفاء بالاتفاق : حديث السموءل بن عاديا ، وتلخيص معناه أن امرأ القيس الكندى ، لما أراد المضى إلى قيصر ملك الروم ، أودع عند السموءل دروعا وسلاحا ، وأمتعة تساوى من المال جملة كثيرة ، فلما مات امرؤ القيس ، أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السموءل فقال السموءل : لا أدفعها إلا لمستحقها ، وأبى أن يدفع إليه منها شيئًا فعاوده فأبى ، وقال : لا أغدر بذمتى ، ولا أخون أمانتى ، ولا أترك الوفاء الواجب على ، فقصده ذلك الملك من كندة بعسكره ، فدخل السموءل فى حصنه ، وامتنع به فحاصره ذلك الملك ، وكان ولد السموءل خارج الحصن ، فظفر به ذلك الملك ، فأخذه أسيرا ، ثم طاف حول الحصن ، وصاح بالسموءل فأشرف عليه من أعلى الحصن ، فلما رآه قال له : إن ولدك قد أسرته ، وها هو معى فإن سلمت إلى الدروع والسلاح التى لامرئ القيس عندك ، رحلت عنك ، وسلمت إليك ولدك ، وإن امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر ، فاختر أيهما شئت ، فقال له السموءل : ما كنت لأخفر ذمامى ، وأبطل وفائى ، فاصنع ما شئت ، فذبح ولده وهو ينظر ، ثم لما عجز عن الحصن ، رجع خائبا ، واحتسب السموءل ذبح ولده ، وصبر محافظة على وفائه ، فلما جاء الموسم ، وحضر ورثة امرئ القيس سلم إليهم الدروع والسلاح ، ورأى حفظ ذمامه ورعاية وفائه أحب إليه من حياة ولده وبقائه ؛ فصارت الأمثال فى الوفاء تضرب بالسموءل ، وإذا مدحوا أهل الوفاء فى الأنام ذكروا السموءل فى الأوّل ، وكم أعلى الوفاء رتبة من اعتلقه بيديه ، وأغلى قيمة من جعله نصب عينيه ، واستنطق الأفواه لفاعله بالثناء عليه ، واستطلق الأيدى المقبوضة عنه بالإحسان إليه .

ومما وضع فى بطون الدفاتر ، واستحسنته عيون البصائر ، ونقلته الأصاغر عن الأكابر ، وتداولته الألسنة من الأوائل والأواخر ما رواه خادم أمير المؤمنين المأمون قال : طلبنى أمير المؤمنين ليلة ، وقد مضى من الليل ثلثه ، فقال لى : خذ معك فلانا ، وفلانا ، وسماهما : أحدهما على بن محمد ، والآخر دينار الخادم واذهب مسرعا لما أقوله لك ، فإنه قد بلغنى أن شيخا يحضر ليلا إلى دور البرامكة ، وينشد شعرا ، ويذكرهم ذكرا كثيرا ، ويندبهم ، ويبكى عليهم ثم ينصرف فامض الآن أنت وعلى ودينار حتى تروا هذه الخرابات ، فاستتروا خلف بعض الجدران ، فإذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد شيئا ، فأتونى به ، قال : فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرابات ، وإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسى حديد ، وإذا شيخ وسيم له جمال وعليه مهابة ووقار قد أقبل ، فجلس على الكرسى ، وجعل يبكى ، وينتحب ، ويقول :

ولما رأيت السيفَ جَنْدَلَ[1] جعفرًا ... ونادى مناد للخليفة فى يَحْيَىٰ

بَكَيتُ على الدنيا وزاد تأسّفى ... عليهم وقلت : الآن لا تنفع الدنيا !

مع أبيات أطالها ، ورددها فلما فرغ قبضنا عليه ، وقلنا له : أجب أمير المؤمنين ، ففزع فزعا شديدا ، وقال : دعونى حتى أوصى وصية فإنى لا أوقن بعدها بحياة ، ثم تقدم :إلى بعض الدكاكين ، فاستفتح ، وأخذ ورقة ، وكتب فيها وصية ، ودفعها إلى غلامه ، ثم سرنا به ، فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين ، زجره وقال له : من أنت ؟ وبماذا استوجبت البرامكة منك ما تفعله فى خرائب دورهم وما تقوله فيها ؟ قال الخادم - ونحن وقوف نسمع - فقال : يا أمير المؤمنين ، إن للبرامكة عندى أياد خطيرة ، أفتأذن لى أن أحدثك حديثى معهم ؟! قال : قل . قال : يا أمير المؤمنين ، أنا المنذر بن المغيرة ، من أولاد الملوك ، وقد زالت عنى نعمتى ، كما تزول عن الرجال ، فلما ركبنى

---

(١) جَنْدل: الجندل في الأصل مكان في مجرى النهر، فيه حجارة يشتد عندها جريان النهر، وفي المثل: «جندلتان اصطكّتا» يُضرب للقرْنين يتصاولان، والجمع جنادل.

الدين ، واحتجت إلى بيع مسقط رأسى ، ورءوس أهلى ، أشاروا على بالخروج إلى البرامكة ، فخرجت من دمشق ومعى نيف وثلاثون امرأة وصبيا وصبية ، وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب ، حتى دخلنا بغداد ونزلنا فى بعض المساجد ، فدعوت بثوبيات لى كنت قد أعددتها لأستمنح[١] بها الناس ، فلبستها وخرجت ، وتركتهم جياعا لا شىء عندهم ، ودخلت شوارع بغداد أسائل عن دور البرامكة ، فإذا أنا بمسجد مزخرف ، وفيه مائة شيخ بأحسن زى وزينة ، وعلى الباب خادمان ، فطمعت فى القوم ، وولجت المسجد ، وجلست بين أيديهم ، وأنا أقدم وأؤخر ، والعرق يسيل منى ، لأنها لم تكن صناعتى ، وإذا بخادم قد أقبل ، فدعا القوم فقاموا ، وأنا معهم فدخلوا دار يحيى بن خالد ، ودخلت معهم ، وإذا بيحيى جالس على دكة له فى وسط بستان ، فسلمنا وهو يعدنا مائة وواحدا ، وبين يديه عشرة من ولده ، وإذا غلام أمرد عذر خداه ، قد أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم ممنطقون ، فى وسط كل خادم منطقة من ذهب ، يقرب وزنها من ألف مثقال ، ومع كل خادم مجمرة[٢] من ذهب فى كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر ، قد قرن بها مثلها من العنبر السلطانى ، فوضعوه بين يدى الغلام ، وجلس الغلام إلى جانب يحيى ، ثم قال يحيى للقاضى . تكلم ، وزوّج بنتى عائشة من ابن عمى هذا ، فخطب القاضى ، وزوّجه ، وشهد أولئك الجماعة ، وأقبلوا علينا بالنثار[٣] ، ببنادق المسك والعنبر ، فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمى ، ونظرت فإذا نحن فى المكان ما بين يحيى والمشايخ ، وولده والغلام مائة واثنا عشر رجلا ، فخرج إلينا مائة واثنا عشر خادما مع كل خادم صينية من فضة عليها ألف دينار ، فوضعوا بين يدى كل رجل منا صينية ، فرأيت القاضى والمشايخ يصبون الدنانير فى أكمامهم ، ويجعلون الصوانى تحت آباطهم ، ويقوم الأوّل فالأوّل حتى بقيت وحدى بين يدى يحيى لا أجسر على أخذ الصينية ، فغمزنى الخادم ، فجسرت وأخذتها ، وجعلت الذهب فى كمى وأخذت الصينية فى يدى ، وقمت وجعلت ألتفت إلى ورائى مخافة أن أمنع من الذهاب بها ، فبينما أنا كذلك فى صحن الدار ، ويحيى يلحظنى إذ قال للخادم ائتنى بذلك الرجل ، فرددت إليه فأمر بصب الدنانير والصينية وما كان فى كمى ، ثم أمرنى بالجلوس ، فجلست فقال لى : ممن الرجل ؟ فقصصت عليه قصتى ، فقال للخادم : ائتنى بولدى موسى ، فأتى به فقال له : يا بنى هذا رجل غريب فخذه إليك ، واحفظه بنفسك ، وبنعمتك فقبض موسى على يدى ، وأدخلنى إلى دار من دوره ، فأكرمنى غاية الإكرام ، وأقمت عنده يومى وليلتى فى ألذ عيش ، وأتم سرور ، فلما أصبح دعا بأخيه العباس ، وقال : إن الوزير قد أمرنى بالعطف على هذا الرجل ، وقد علمت اشتغالى فى دار أمير المؤمنين ، فاقبضه إليك وأكرمه ، ففعل ذلك وأكرمنى غاية الإكرام ، فلما كان من الغد تسلمنى أخوه أحمد ثم لم أزل فى أيدى القوم يتداولونى عشرة أيام ، لا أعرف خبر عيالى وصبيانى أفى الأموات هم أم فى الأحياء ؟! فلما كان اليوم الحادى عشر جاءنى خادم ، ومعه جماعة من الخدم فقالوا لى : قم فاخرج إلى عيالك بسلام ، فقلت : وا ويلاه ! سلبت الدنانير والصينية ، وأخرج إلى عيالى على هذه الحالة ؟! إنا لله وإنا إليه راجعون ! فرفع الستر الأول ، ثم الثانى ، ثم الثالث ، ثم الرابع فلما رفع الخادم الستر الأخير قال لى : مهما كان لك من الحوائج ، فارفعها إلى فإنى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به ، فلما رفع الستر رأيت حجرة كالشمس حسنا ونورا ، واستقبلنى منها رائحة النَّدُّ[٤] والعود ، ونفحات المسك ، وإذا بصبيانى وعيالى يتقلبون فى الحرير والديباج ، وحمل إلى ألف ألف درهم ، وعشرة آلاف دينار ، ومنشورين بضيعتين ، وتلك الصينية التى كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق ، وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاث عشرة سنة ، لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب اصطنعونى ؟! فلما جاءتهم البلية ، ونزل بهم من أمير المؤمنين الرشيد ما نزل ، أجحفنى عمرو بن مسعدة وألزمنى فى هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفى دخلهما به ، فلما تحامل على الدهر كنت فى أواخر الليل أقصد خرابات القوم فأندبهم ، وأذكر حسن صنيعهم إلى ، وأشكرهم على إحسانهم ، فقال المأمون : علىّ بعمرو بن مسعدة ، فلما أتى به قال له : يا عمرو ، أتعرف هذا الرجل ؟ قال : نعم . يا أمير المؤمنين ، هو

---

(١) اسْتمنح : طلب منحة .

(٢) المِجْمَرة : ما يوضع فيه الجمر مع البَخُور .

(٣) النثار : بتشديد النون المفتوحة : ما نُثر في حفلات السرور من حلوى أو نقود .

(٤) النَّدُّ : ضربٌ من النبات يُتبخَّر بعوده .

بعض صنائع البرامكة ، قال : كم ألزمته فى ضيعته ؟ قال : كذا وكذا ، قال : رد له كل ما استأديته منه فى مدته ، ووقّع له بهما ، ليكونا له ولعقبه من بعده ، قال : فعلا نحيب الرجل وبكاؤه ، فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال له : يا هذا قد أحسنا إليك فلم تبكى ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، وهذا أيضا من صنائع البرامكة ، إذ لو لم آت خراباتهم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبرى بأمير المؤمنين ففعل بى ما فعل ، فمن أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين ؟ قال إبراهيم بن ميمون : فلقد رأيت المأمون ، وقد دمعت عيناه ، وظهر عليه حزنه ، وقال : لعمرى هذا من صنائع البرامكة ، فعليهم فابك ، وإياهم فاشكر ، ولهم فأوف ، ولإحسانهم فاذكر .

وقيل : إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ، ودوام عهده ، فانظر إلى حنينه إلى أوطانه ، وتشوقه إلى إخوانه ، وكثرة بكائه على ما مضى من زمانه ؛ قال الشاعر :

سقى الله أطلالَ الوفاء بكفّه ... فقد درست أعلامُه ومنازلُه !

وقال آخر :

اشدُدْ يديك بمن بلوت وفاءه ... إن الوفاء من الرجال عزيزُ !

وقال مالك بن عمارة اللخمى : كنت جالسا فى ظل الكعبة أيام الموسم ، عند عبد الملك بن مروان ، وقبيصة بن ذؤيب وعروة بن الزبير ، وكنا نخوض فى الفقه مرة ، وفى المذاكرة مرة ، وفى أشعار العرب ، وأمثال الناس مرة فكنت لا أجد عند أحد ما أجده عند عبد الملك بن مروان من الاتساع فى المعرفة ، والتصرف فى فنون العلم ، وحسن استماعه إذا حُدث ، وحلاوة لفظه إذا حدّث ، فخلوت معه ليلة فقلت له : والله إنى لمسرور بك لما شهدته من كثرة تصرفك ، وحسن حديثك ، وإقبالك على جليسك ؛ فقال : إن تعش قليلا فسترى العيون طلحة [1] إلىّ ، والأعناق نحوى متطاولة ، فإذا صار الأمر إلىّ فلعلك أن تنقل إلىّ ركابك ، فلأملأن يديك ، فلما أفضت إليه الخلافة ، توجهت إليه فوافيته يوم الجمعة ، وهو يخطب على المنبر ، فلما رآنى أعرض عنى ، فقلت : لعله لم يعرفنى أو أعرفه ، وأظهر لى نكره ، فلما قضيت الصلاة ، ودخل بيته لم ألبث أن خرج الحاجب ، فقال : أين مالك بن عمارة ، فقمت ، فأخذ بيدى وأدخلنى عليه ، فمدّ إلى يده وقال : إنك تراءيت لى فى موضع لا يجوز فيه إلا ما رأيت ، فأما الآن فمرحبا وأهلا ، كيف كنت بعدى ؟ فأخبرته ، فقال لى : أتذكر ما كنت قلت لك ؟! قلت : نعم . فقال : والله ما هو بميراث وَعَيْناه ، ولا أثرٍ رويناه ، ولكنى أخبرك بخصالٍ منى سَمَتْ بها نفسى إلى الموضع الذى ترى : ما خنت ذَا وُدٍّ قط ، ولا شمتّ بمصيبة عدوّ قط ، ولا أعرضت عن محدّث حتى ينتهى حديثه ، ولا قصدت كبيرة من محارم الله تعالى متلذذا بها ، فكنت أؤمل بهذه أن يرفعَ الله تعالى منزلتى وقد فعل ، ثم دعا بغلام فقال له : يا غلام بوّئه منزلا فى الدار ، فأخذ الغلام بيدى ، وأفرد لى منزلا حسنا ، فكنت فى ألذّ حال وأنعم بال ، وكان يسمع كلامى ، وأسمع كلامه ، ثم أدخل عليه فى وقت عشائه وغدائه ، فيرفع منزلتى ويقبل علىّ ، ويحادثنى ، ويسألنى مرة عن العراق ، ومرة عن الحجاز ، حتى مضت لى عشرون ليلة فتغديت يوما عنده ، فلما تفرق الناس نهضت قائما فقال : على رسلك ، فقعدت ، فقال : أىّ الأمرين أحب إليك المقام عندنا مع النصفة [2] لك فى المعاشرة ، أو الرجوع إلى أهلك ولك الكرامة ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، فارقت أهلى وولدى على أنى أزور أمير المؤمنين ، وأعود إليهم ، فإن أمرنى أمير المؤمنين اخترت رؤيته على الأهل والولد ، فقال : لا ، بل أرى لك الرجوع إليهم ، والخيار لك بعد فى زيارتنا ، وقد أمرنا لك بعشرين ألف دينار ، وكسوناك وحملناك ، أترانى قد ملأت يديك ، فلا خير فيمن ينسى إذا وَعَد ، وعُد إذا شئتَ صَحبتْك السلامة .

ومن ذلك ما روى عن أبى بكار الأعمى ، وكان قد انقطع إلى آل برمك ، قال مسرور الكبير : لما أمرنى الرشيد بقتل جعفر بن يحيى ، دخلت عليه فوجدت عنده أبا بكار الأعمى ، يغنيه ، ويقول :

---

(١) طَلْحة : واحدة الطَّلْح ، وهو : شجر عِظام من شجر العِضَاه ترعاه الإبل ، أو ما بقى في الحوض ونحوه من الماء الكدِر ، أو المُعْيي والمهزول .

(٢) النَّصَفة : الإنصاف .

فلا تحزن فكل فتى سيأتى عليه الموت يطرق أو يغادى [1]

فقلت : فى هذا والله قد أتيتك ، ثم أمسكت بيد جعفر ، وأقمته ، وضربت عنقه ، فقال أبو بكار : ناشدتك الله إلا ألحقتنى به ، فقلت له : ما الذى حملك على هذا ؟ فقال : أغنانى عن الناس ، فقلت : حتى أستأمِرَ الرشيد ؛ ثم أحضرت الرأس إلى الرشيد وأخبرته بخبر أبى بكار ، فقال : هذا رجل فيه مصطنع اضممه إليك ، وانظر ما كان يُجرى عليه جعفر ، فادفعه إليه ، وكان يحيى بن خالد إذا أكد فى يمينه قال : لا ، والذى جعل الوفاء أعز ما يرى .

قال أبو فراس بن حمدان الشاعر :

بمن يتَّقى الإنسان فيما ينوبه ومن أين للحر الكريم صحاب ؟!
وقد صار هذا الناسُ إلا أقلّهم ذئابًا على أجسادهن ثياب !!

وسأل المنصور بعض بطانة هشام عن تدبيره فى الحروب ، فقال : كان - رحمه الله - يفعل كذا وكذا ، فقال المنصور : عليك لعنةُ الله تطأ بساطى ، وتترحم على عدوّى . فقال : إن نعمة عدوك لقلادة فى عنقى ، لا ينزعها إلا غاسلى ! فقال له المنصور : ارجع يا شيخ فإنى أشهد أنك لوفىّ حافظ للخير ، ثم أمر له بمال فأخذه ، ثم قال : والله لولا جلالة أمير المؤمنين ، وإمضاء طاعته ، مالبست لأحد بعد هشام نعمة ، فقال له المنصور :لله درك . فلو لم يكن فى قومك غيرك لكنت قد أبقيت لهم مجدا مخلدا !

وخرج سليمان بن عبد الملك ، ومعه يزيد بن المهلب فى بعض جبابين الشام ، فإذا امرأة جالسة على قبر تبكى ، قال سليمان : فرفعَت البرقع عن وجهها ، فحكت شمسا عن متون غمامة ، فوقفنا متحيرين ننظر إليها فقال لها يزيد بن المهلب : يا أمة الله ، هل لك فى أمير المؤمنين بعلا ؟! فنظرت إلينا ، ثم أنشأت تقول :

فإن تسألانى هواى فإنه يجول بهذا القبر يا فتيان
وإنى لأستحييه والترب بيننا كما كنت أستحييه وهو يرانى

ومن ذلك ما روى عن نائلة بنت الفُرَافِصة بن الأخوص الكلبى ، زوج عثمان رضي الله عنه أن عثمان لما قتل أصابتها ضربة على يدها ، وخطبها معاوية فردته ، وقالت : ما يعجب الرجل منى ؟ قالوا : ثناياك ، فكسرت ثناياها ! وبعثت بها إلى معاوية فكان ذلك مما رغب قريشا فى نكاح نساء بنى كلب . ولما أحس مصعب بن الزبير بالقتل دفع إلى مولاه زياد فص ياقوت قيمته ألف ألف ، وقال له: انج بهذا ، فأخذه زياد ، ودقه بين حجرين ، وقال : والله لا ينتفع به أحد بعدك ! ولما قدم هدبة بن الخشرم للقتل بحضرة مروان بن الحكم قالت زوجته : إن لهدبة عندى وديعة ، فأمهله حتى آتيك بها ، فقال : أسرعى فإن الناس قد كثروا . وكان مروان قد جلس لهم بارزا عن داره ، فمضت إلى السوق ، وأتت إلى قصاب فقالت : أعطنى شفرتك ، وخذ هذين الدرهمين ، وأنا أردها عليك فأخذتها ، وقربت من حائط وأرسلت ملحفتها على وجهها ، ثم جدعت أنفها من أصله ، وقطعت شفتيها ، وردت الشفرة إلى القصاب ، ثم أقبلت حتى دخلت بين الناس ، فقالت : أترانى يا هدبة متزوجة بعد ما ترى ؟! فقال : الآن طابت نفسى بالموت . فجزاك الله من حليلة وفية خيرا .

ولنجعل لهذا الباب من القضايا ختاما هو أوجزها كلاما ، وأحسنها نظاما ، وأبينها حكما وإحكاما ، وهى قضية جمعت الأمرين : وفاء وغدرا ، وعرفا ونكرا ، وخيرا وشرا ، ونفعا وضرا ، واشتملت على حال شخصين أحدهما وفى بعهده ففاز ونجا ، وحاز من مقترحات مناه ما أمل ورجا ، وغدر الآخر فلم يجد له من جزاء غدره إلى النجاة فرجا ، ولم يلق له من ضيق الغدر مخرجا ، وهو ما ذكره عبد الله بن عبد الكريم ، وكان مطلعا على أحوال أحمد بن طولون ، عارفا بأموره ، عالما بوروده وصدوره ، فقال ما معناه : إن أحمد بن طولون وجد عند سقايته طفلا مطروحا ، فالتقطه ورباه ، وسماه أحمد ، وشهره باليتيم ، فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاء وفطنة وأحسنهم زيا وصورة ، فصار يرعاه ويعلمه ، حتى تهذب وتمرن ، فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده أبا الحسن

---

(١) يغادي: يبادر.

خمارويه به ، فأخذه إليه ، فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير أبو الجيش إليه وقال له : أنت عندى بمكانة أرعاك بها ، ولكن عادتى أنى آخذ العهد على كل من أصرّفه فى شىء أنه لا يخوننى ، فعاهده ، ثم حكمه فى أمواله ، وقدمه فى أشغاله فصار أحمد اليتيم مستحوذا على المقام ، حاكما على جميع الحاشية الخاص والعام ، والأمير أبو الجيش بن طولون يحسن إليه فلما رأى خدمته متصفة بالنصح ، ومساعيه متسمة بالنجح ، ركن إليه ، واعتمد فى أمور بيوته عليه ، فقال له يوما : يا أحمد ، امض إلى الحجرة الفلانية ، ففى المجلس حيث أجلس سُبحة جوهر ، فائتنى بها فمضى أحمد ، فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير ، وحَظَاياه مع شاب من الفرّاشين ، ممن هو من الأمير بمحل قريب ، فلما رأياه خرج الفتى ، وجاءت الجارية إلى أحمد وعرضت نفسها عليه ، ودعته إلى قضاء وطره ، فقال لها : معاذ الله أن أخون الأمير وقد أحسن إلى ، وأخذ العهد علىّ ، ثم تركها وأخذ السبحة ، وانصرف إلى الأمير وسلمها إليه ، وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد بعد ما أخذ السبحة ، وخرج من الحجرة لئلا يذكر حالها للأمير ، فأقامت أياما لم تجد من الأمير ما غيره عليها ، ثم اتفق أن الأمير اشترى جارية وقدمها على حظاياه ، وغمرها بعطاياه ، واشتغل بها عمن سواها ، وأعرض لشغفه بها عن كل من عنده ، حتى كاد لا يذكر جارية غيرها ، ولا يراها ، وكان أولاً مشغولا بتلك الجارية الخاسرة ، الخائنة ، الخائبة ، الغادرة ، العائبة ، العاهرة ، الفاسقة ، الفاجرة ، فلما أعرض عنها اشتغالا بالجارية الجديدة ، الممجدة ، السعيدة المسعدة ، الحامدة المحمودة ، الوصيفة الموصوفة ، الأليفة المألوفة ، العارفة المعروفة ، وصرف لبهجة محاسنها ، وكثرة آدبها وجهه عن ملاعبة أترابها ، وشغلته بعذوبة رُضَابها[1] ، عن ارتشاف[2] ضرب أضرابها ، وكانت تلك الجارية الأولى لحسنها متأمرة على تأميره ، ولا تخاف من وليه ولا نصيره ، فكَبُر عليها إعراضه عنها ، ونسبت ذلك إلى أحمد اليتيم لاطلاعه على ما كان منها ، فدخلت على الأمير ، وقد ارتدت من الكآبة بجلباب نكرها ، وأعلنت بالبكاء بين يديه لإتمام كيدها ومكرها ، وقالت : إن أحمد اليتيم راودني عن نفسى ، فلما سمع الأمير ذلك استشاط غيظا وغضبا ، وهم فى الحال بقتله ، ثم عاوده حاكم عقله ، فتأبى فى فعله ، واستحضر خادما يعتمد عليه ، وقال له : إذا أرسلت إليك إنسانا ومعه طبق من ذهب وقلت لك على لسانه : املأ هذا الطبق مسكا ، فاقتل ذلك الإنسان ، واجعل رأسه فى الطبق وأحضره مغطى ، ثم إن الأمير أبا الجيش جلس لشربه ، وأحضر عنده ندماءه الخواص ، وأدناهم لمجلس قربه ، وأحمد اليتيم واقف بين يديه آمن فى سربه لم يخطر بخاطره شىء ولا هاجس فى قلبه ، فلما مثل بين يدى الأمير ، وأخذ منه الشراب شرع فى التدبير ، فقال : يا أحمد ، خذ هذا الطبق وامض به إلى فلان الخادم وقل له : يقول لك أمير المؤمنين املأ هذا الطبق مسكا ، فأخذها أحمد اليتيم ، ومضى فاجتاز فى طريقه بالمغنين وبقية الندماء والخواص ، فقاموا إليه وسألوه الجلوس معهم ، فقال : أنا ماض فى حاجة للأمير أمرنى بإحضارها فى هذا الطبق . فقالوا له : أرسل من ينوب عنك فى إحضارها ، وخذها أنت وادخل بها على الأمير فأدار عينيه ، فرأى الفتى الفراش الذى كان مع الجارية ، فأعطاه الطبق وقال له : امض إلى فلان الخادم ، وقال له : يقول لك الأمير املأ هذا الطبق مسكا ، فمضى ذلك الفراش إلى الخادم ، فذكر له ذلك فقتله ، وقطع رأسه ، وغطاه ، وجعله فى الطبق ، وأقبل به فناوله لأحمد اليتيم ، فأخذه ، وليس عنده علم من باطن الأمر ، فلما دخل به على الأمير ، كشفه وتأمله وقال : ما هذا ؟ فقص عليه خبره ، وقعوده مع المغنين ، وبقية الندماء ، وسؤالهم له الجلوس معهم ، وما كان من إنفاذ الطبق ، وإرساله مع الفراش ، وأنه لا علم عنده غير ما ذكره ، قال : أتعرف لهذا الفراش خبرًا يستوجب به ما جرى عليه . فقال : أيها الأمير إن الذى تمّ عليه بما ارتكبه من الخيانة ، وقد كنت رأيت الإعراض عن إعلام الأمير بذلك ، وأخذ أحمد يحدّثه بما شاهده ، وما جرى له من حديث الجارية من أوله إلى آخره ، لما أنفذه لإحضار السُّبحة الجوهر ، فدعا الأمير أبو الجيش بتلك الجارية ، واستقررها فأقرت بصحة ما ذكره أحمد فأعطاه إياها وأمره بقتلها ، ففعل وازدادت مكانة أحمد عنده ، وعلت منزلته لديه ، وضاعف إحسانه إليه ، وجعل أزمة جميع ما يتعلق به بيديه .

---

(١) الرضاب : بتشديد الراء المضمومة وفتح الضاد : الرّيق .

(٢) ارتشاف : ارتشفه ، أي امتصّه .

فانظر رحمك الله إلى آثار الوفاء ، كيف تحمى من المعاطب ، وتنجى من قبضة التلف بعد إمضاء القواضب ، ويفضى بصاحبه إلى ارتقاء غوارب المراتب ، فهذا الغلام لما وفى لمولاه بعهده ، وهو بشر مثله ، وليس فى الحقيقة بعبده ، واطلع الله - عز وجل - على صدق نيته وقصده ، دفع عنه هذه القتلة الشنيعة بلطف من عنده ، فإذا كان العبد مع خالقه ورازقه وافيا فى طاعته بعقده ، كيف لا يفيض عليه من ألطاف مواهب بره ورفده ؟! ويفتح له من أنواع رحمته وأقسام نعمته مالا ممسك له من بعده ؟! وقالوا : ليس شىء أوفى من القُمْرِيّة[1] إذا مات ذكرها لم تقرب آخر بعده ، ولا تزال تنوح عليه إلى أن تموت . والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

الباب الثامن والثلاثون

فى كتمان السرّ وتحصينه ، وذم إفشائه

قال الله تعالى حكاية عن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ ﴾ [يوسف:٥] الآية فلما أفشى يوسف عليه السلام رؤياه بمشهد امرأة يعقوب ، أخبرت إخوته فحلّ به ما حلّ .

ومن شواهد الكتاب العزيز فى السر قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم:١٠] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ [التكوير:٢٤] أى بمتهم .

وفى الحديث : « **استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن ذى كل نعمة محسود** »[2] . وقال على رضى الله عنه : سرك أسيرك ، فإذا تكلمت به صرت أسيره . واعلم أن أمناء الأسرار أقل وجودا من أمناء الأموال ، وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار لأن أحراز الأموال منيعة بالأبواب والأقفال ، وأحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ، ويشيعها كلام سابق ، وحمل الأسرار أثقل من حمل الأموال ، فإن الرجل يستقل بالحمل الثقيل فيحمله ، ويمشى به ، ولا يستطيع كتم السر ، وإن الرجل يكون سره فى قلبه فيلحقه من القلق والكرب مالا يلحقه من حمل الأثقال فإذا أذاعه استراح قلبه ، وسكن خاطره ، وكأنما ألقى عن نفسه حملا ثقيلا . وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : القلوب أوعية ، والشفاه أقفالها ، والألسن مفاتيحها ، فليحفظ كل إنسان مفتاح سره ، ومن عجائب الأمور أن الأموال كلما كثرت خزانها كان أوثق لها ، وأما الأسرار فإنها كلما كثرت خزانها ، كان أضيع لها ، وكم من إظهار سر أراق دم صاحبه ، ومنعه من بلوغ مآربه ، ولو كتمه أمن من سطواته . وقال أنوشروان : من حَصّن سره فله بتحصينه خصلتان : الظفر بحاجته ، والسلامة من السطوات . وقيل : كلما كثرت خزان الأسرار زادت ضياعا . وقيل : انفرد بسرك ؛ لا تودعه حازما فيزل ، ولا جاهلا فيخون .

وقال كعب بن سعد الغنوى :

ولستُ بمبدٍ للرجال سَريرتى ... ولا أنا عن أسرارهم بسئول

وقال أبو مسلم صاحب الدولة :

أدركتُ بالحزم والكتمان ما عجزت ... عنه ملوكُ بنى مروان إذ جَهِدُوا

---

(١) القُمْرية : مؤنث قمرى ، والجمع قماريّ : ضرب من الحمام مطوق حسن الصوت .

(٢) وفي الحديث : استعينوا على . . إلخ . السيوطي في الدرر المنتثرة : أخرجه البيهقي في الشعب ، والطبراني في الأوسط من حديث معاذ بن جبل بلفظ «استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان إلخ» وأخرجه الخلعي في فوائده عن طريق علي رفعه بلفظ «استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان» وأورده السيوطي في جامعه الصغير وضعفه .

ما زلتُ أسعى عليهم فى ديارهم ... والقوم فى غفلة بالشام قد رقدوا
حتى ضربتُهمُ بالسيف فانتبهوا ... من نومة لم ينمها قبلهم أحدُ
ومن رعى غنما فى أرض مسبعة ... ونام عنها تولى رعيها الأسدُ

وأسرّ رجل إلى صديقه حديثا ثم قال له :

أفهمت ؟ قال : بل جهلت . ثم قال له : أحفظت ؟ قال : بل نسيت . وقيل لبعضهم : كيف كتمانك للسر ؟ قال : أجحد المخبر ، وأحلف للمستخبر ، وقال المهلب : أدنى أخلاق الشريف كتمان السر ، وأعلى أخلاقه نسيان ما أسر إليه . ومن أحسن ما قيل فى كتمان السر قول الشاعر :

ولها سرائر فى الضمير طويتها ... نسى الضميرُ بأنها فى طيه

وقد أجازه الشيخ شمس الدين البدوى فقال :

إنى كتمت حديث ليلى لم أبح ... يوما بظاهره ولا بخفيه
وحفظت عهد ودادها متمسكا ... فى حبها برشاده أو غيه
ولها سرائر فى الضمير طويتها ... نسى الضمير بأنها فى طيه

وقيل : كتمان الأسرار يدل على جواهر الرجال ، وكما أنه لا خير فى آنية لا تمسك ما فيها ، فكذلك لا خير فى إنسان لا يمسك سره. قال الشاعر :

ومستودعى سِرًا كتمت مكانه ... عن الحس خوفًا أن ينم به الحسُ
وخفت عليه من هوى النفس شهوة ... فأودعته من حيث لا يبلغ الحس

وقال قيس بن الخطيم :

أجود بمكنون التلاد[1] وإننى ... بسرى عمن سألنى لضنين
وإن ضيع الأقوامُ سرى فإننى ... كتوم لأسرار العشير أمين

وقال جعفر بن عثمان :

ياذا الذى أودعنى سره ... لا ترجُ أن تسمَعه منى
لم أجْرِهِ قطُ على فكرتى ... كأنه لم يجر فى أذنى !

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول : ما أفشيت سرى إلى أحد قط فأفشاه ، فلمتُه ، إذ كان صدرى به أضيق . وقال الأحنف بن قيس : يضيق صدر الرجل بسره ، فإذا حدث به أحدًا قال : اكتمه على . قال الشاعر :

إذا المرء أفشى سرّه بلسانه ... ولام عليه غيرَه فهو أحمق
إذا ضاق صدر المرء عن سرّ نفسه ... فصدر الذى يُسْتَوْدَعُ السر أضيق

وقال آخر :

إذا ما ضاق صدرك عن حديث ... وأفشته الرجال فمن تلوم ؟
وإن عاتبت من أفشى حديثى ... وسرى عنده فأنا الملوم

وقال صالح بن عبد القدوس : لا تُودِعْ سرك إلى طالبه ، فالطالب للسر مُذيع ، ولا تُودع مالك عند من يستدعيه ، فالطالب للوديعة خائن .

وقيل لأعرابى : ما بلغ من حفظك للسر ؟ قال : أفرقه تحت شغاف قلبى ، ثم أجمعه وأنساه ، كأنى لم أسمعه .

---

(١) التلاد: بكسر التاء المشددة وفتح اللام: المال الأصلي القديم.

وكان يقال : أحزم الناس من لا يفشى سره إلى صديقه ، مخافة أن يقع بينهما شر فيفشيه عليه . وقال حكيم : قلوب الأحرار قبور الأسرار . وقيل : الطمأنينة إلى كل أحد قبل الاختبار حمق . وقال بعضهم :

إذا ما غفرت الذنب يوما لصاحب ... فلستُ معيدًا ما حييتُ له ذكرا
ولستُ إذا ما صاحب خان عهدَه ... وعندى له سر مذيعًا له سرًا

وأين هذا من القائل :

ولا تودع الأسرار أذنى فإنما ... تصبنّ ماء فى إناء مثلم

أو القائل :

ولا أكتم الأسرار لكن أذيعُها ... ولا أدع الأسرار تعلو على قلبى
وإن قليل العقل من بات ليلة ... تقلبه الأسرار جنبًا إلى جنب

وقال آخر :

وإنك كلما استُودِعتَ سرًا ... أنمُّ من النسيم على الرياضِ !

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى :

أُناسٌ أَمِنّاهم فنموا حديثَنا ... فلما كتمنا السرّ عنهم تقوّلوا !

ولله در المتنبى حيث قال :

وللسر منى موضع لا يناله ... نديم ولا يُفضى إليه شراب

وقد اقتصرنا من ذلك على هذا القدر اليسير ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين والحمدلله رب العالمين .

الباب التاسع والثلاثون

فى الغَدْر والخيانة ، والسرقة والعداوة والبغضاء ، والحسد وفيه فصول

الفصل الأول : فى الغدر والخيانة

قال رسول الله ﷺ : « أَعْجَلُ الْأَشْيَاءِ عُقُوبَةً الْبَغْيِ »[(١)] . وعن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ « المكر والخديعة والخيانة فى النار »[(٢)] . قال أبو بكر الصديق ﷺ ثلاث من كنّ فيه ، كن عليه : البغى ، والنكث ، والمكر . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ [يونس:٢٣] وقال تعالى : ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ [الفتح:١٠] وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر:٤٣] وكم أوقع الغدر فى المهالك من غادر ، وضاقت عليه من موارد الهلكات ، فسيحات المصادر ، وطوقه غدره طوق خزى فهو على فكه غير قادر ، وأوقعه فى خطة خسف[(٣)] ، وورطة حتف[(٤)] ، فما له من قوة ولا ناصر ، ويشهد لصحة هذه الأسباب ، ما أحاطت به علوم ذوى الألباب من قصة ثعلبة بن

---

(١) أعجل الأشياء عقوبة . . إلخ . أورده البخاري في الأدب المفرد بلفظ «وبابان يعجلان في الدنيا: البغي وقطيعة الرحم» .
(٢) المكر والخديعة . . إلخ . أورده المتقي الهندي في كنزل العمال [٧٨٢٠].
(٣) الخَسْف: الذُّل، والظلم.
(٤) الحَتْف: الهلاك.

حاطب الأنصارى ؛ وتلخيص معناها : أن ثعلبة هذا كان من أنصار النبى ﷺ فجاءه يومًا وقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالاً ، فقال له رسول الله ﷺ: « **ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدّى شكره خير من كثير لا تُطيقه** » . ثم أتاه بعد ذلك مرة أخرى ، فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالا ، فقال رسول الله ﷺ: « **يا ثعلبة ، أمالك فى رسول الله أسوة حسنة ؟! والذى نفسى بيده لو أردت أن تسير الجبال معى ذهبًا وفضة لسارت** » . ثم أتاه بعد ذلك مرة ثالثة فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً والذى بعثك بالحق نبيًا لئن رزقنى الله مالاً لأعطين كل ذى حق حقه ، وعاهد الله تعالى على ذلك ، فقال رسول الله ﷺ: « **اللهم ارزق ثعلبة مالاً** » . قال : فاتخذ ثعلبة غنمًا ، فَنمت كما ينْمو الدودُ ، فضاقت عليه المدينة ، فتنحى عنها ، ونزل واديًا من أوديتها وهى تنمو كما ينمو الدود ، وكان ثعلبة لكثرة ملازمته للمسجد يقال له : حمامة المسجد ، فلما كثرت الغنم ، وتنحى صار يصلى مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر ، ويصلى بقية الصلوات فى غنمه ، فكثرت ونمت حتى بعد عن المدينة ، فصار لا يشهد إلا الجمعة ، ثم كثرت ونمت فتباعد أيضًا عن المدينة حتى صار لا يشهد جمعة ، ولا جماعة ، فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس يسألهم عن الأخبار فذكره رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : « **ما فعل ثعلبة ؟** » . قالوا : يا رسول الله ، اتخذ غنمًا ما يسعها وادٍ فقال رسول الله ﷺ: « **يا ويح ثعلبة** » . فأنزل الله تعالى آية الصدقة[1]، فبعث رسول الله ﷺ رجلين : رجل من بنى سليم ، ورجل من جهينة ، وكتب لهما أنصاب الصدقة . وكيف يأخذانها ؟ وقال لهما : « **مرا بثعلبة بن حاطب ، وبرجل آخر من بنى سليم ، فخذا صدقاتهما** » . فخرجا حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ، فقال : ما هذه إلا جِزْية ، أو ما هذه إلا أخت الجزية ، انطلقا حتى تفرغا ، ثم عودا إلىّ فانطلقا ، وسمع بهما السلمى ، فنظر إلى خيار إبله فعزلها للصدقة ، ثم استقبلهما بها ، فلما رأياه قالا : ما هذا ؟ قال : خذاه فإن نفسى به طيبة ، فمرا على الناس ، وأخذا الصدقات ، ثم رجعا إلى ثعلبة ، فقال : أرونى كتابكما ، فقرأه ثم قال : ما هذه إلا جزية ، أو ما هذه إلا أخت الجزية ، اذهبا حتى أرى رأيًا . قال : فذهبا من عنده ، وأقبلا على رسول الله ﷺ، فلما رآهما قال قبل أن يتكلما : « **يا ويح ثعلبة** ». فأنزل الله تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٨] وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك ، فخرج حتى أتاه فقال : ويحك يا ثعلبة : قد أنزل الله فيك كذا وكذا ، فخرج ثعلبة حتى أتى النبى ﷺ، فسأله أن يقبل صدقته ، فقال : « **إن الله تعالى منعنى أن أقبل منك صدقة** » . فجعل ثعلبة يحثو التراب على رأسه ووجهه ، فقال رسول الله ﷺ: « **هذا عملك قد أمرتك فلم تطعنى** » ، فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته ، رجع إلى منزله ، وقُبض رسول الله ﷺ، ولم يقبل منه شيئًا ، ثم أتى إلى أبى بكر الصديق ﷺ حين استخلف فقال : قد علمت منزلتى من رسول الله ﷺ، وموضعى من الأنصار فاقبل صدقتى ، فقال أبو بكر ﷺ: لم يقبلها رسول الله ﷺ منك ، فلا أقبلها أنا ، فقُبض أبو بكر ﷺ ولم يقبلها ، فلما ولى عمر ﷺ أتاه فقال : يا أمير المؤمنين اقبل صدقتى ، فلم يقبلها منه ، وقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر ﷺ فأنا لا أقبلها ، وقبض عمر ﷺ ولم يقبلها ، ثم ولى عثمان بن عفان ﷺ فسأله أن يقبل صدقته فقال له : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ﷺ فأنا لا أقبلها ، ثم هلك ثعلبة فى خلافة عثمان ﷺ[2].

فانظر إلى سوء عاقبة غدره . كيف أذاقه وبال أمره . ووسمه بسمة عارٍ قضت عليه بخسره ، وأعقبه نفاقًا بخزيه ، يوم فاقته وفقره ، فأى خزى أرجح من ترك الوفاء بالميثاق ؟ وأىّ سوء أقبح من غدر يسوق إلى النفاق ؟! وأى عار أفضح من نقض العهد إذا عدت مساوىء الأخلاق ؟! وكان يقال : لم يغدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء واتضاع قدره عن احتمال المكاره ، فى جنب نيل المكارم قال الشاعر :

غـدرتَ بـأمـر كـنـتَ أنـت جـذبـتـنـا ... إلـيـه وبـئـس الـشـيـمـة الـغـدرُ بـالـعـهـد !

---

(١) التوبة: ١٠٣ وهي: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً . إلخ﴾ .

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره [١٠/ ١٨٩-١٩٠] وابن أبي حاتم بسند ضعيف كما في تفسير ابن كثير [٢/ ٧٢٥] والحسن بن سفيان، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والطبراني، وابن منده وأبو نعيم كما في الدر المنثور [٣/ ٢٦٠-٢٦١].

ولما حلف محمد الأمين للمأمون فى بيت الله الحرام ، وهما وليا عهد ، طالبه جعفر بن يحيى أن يقول خذلنى الله إن خذلته ، فقال : ذلك ثلاث مرات ، فقال الفضل بن الربيع : قال لى الأمين فى ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله ، يا أبا العباس ، أجد فى نفسى أن أمرى لا يتم ، فقلت له : ولم ذلك - أعز الله الأمير -؟ قال : لأنى كنت أحلف وأنا أنوى الغدر ، وكان كذلك لم يتم أمره . وورد فى أخبار العرب أن الضيزن بن معاوية بن قضاعة ، كان ملكا بين دجلة والفرات ، وكان له هناك قصر مشيد يعرف بالجوسق ، وبلغ ملكه الشام ، فأغار على مدينة سابورذى الأكتاف ، فأخذها وأخذ أخت سابور ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، ثم إن سابور جمع جيوشا ، وسار إلى الضيزن ، فأقام على الحصن أربع سنين ، لا يصل منه إلى شىء ، ثم إن النضيرة بنت الضيزن عركت أى : حاضت فخرجت من الربض[١] ، وكانت من أجمل أهل دهرها ، وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم إذا حضن ، وكان سابور من أجمل أهل زمانه فرآها ورأته ، فعشقها وعشقته ، وأرسلت إليه تقول : ما تجعل لى إن دللتك على ما تهدم به هذه المدينة ، وتقتل أبى ؟ فقال : أحكمك ، فقالت : عليك بحمامة مطوقة ورقاء ، فاكتب عليها بحيض جارية ، ثم أطلقها فإنها تقعد على حائط المدينة فتداعى المدينة كلها ، وكان ذلك طلسما لا يهدمها إلا هو ، ففعل ذلك فقالت له : وأنا أسقى الحرس الخمر ، فإذا صرعوا فاقتلهم ، ففعل ذلك فتداعت المدينة ، وفتحها سابور عنوة ، وقتل الضيزن ، واحتمل ابنته النضيرة ، وأعرس بها فلما دخل بها لم تزل ليلتها تتضرر ، وتتململ فى فراشها ، وهو من حرير محشوّ بريش النعام ، فالتمس ما كان يؤذيها ، فإذا هو ورقة آس التصقت بعكنتها[٢]، وأثرت فيها ، وقيل : كان ينظر إلى مخ عظمها من صفاء بشرتها ثم إن سابور بعد ذلك غدر بها ، وقتلها ، قيل : إنه أمر رجلا فركب فرسا جموحا ، وضفر غدائرها بذنبه ، ثم استركضه ، فقطعها قطعا قطعه الله ما أغدره !

وتقول العرب: جزانى جزاء سنمار وهو أن يزدجرد بن سابور ، لما خاف على ولده بهرام ، وكان قبله لا يعيش له ولد ، سأل عن منزل صحيح مرى ، فدل على ظهر الجزيرة ، فدفع ابنه بهرام إلى النعمان - وهو عامله على أرض العرب - وأمره أن يبنى له جوسقا[٣] فامتثل أمره ، وبنى له جوسقا ، كأحسن ما يكون ، وكان الذى بنى الجوسق رجلا يقال له سنمار ، فلما فرغ من بنائه عجبوا من حسنه ، فقال : لو علمت أنكم توفونى أجرته لبنيته بناء يدور مع الشمس حيث دارت ، فقالوا : وإنك لتبنى أحسن من هذا ولم تبنه ، ثم أمر به فطرح من أعلى الجوسق فتقطع ، فكانت العرب تقول : جزانى جزاء سنمار .

وممن غدر عبد الرحمن بن ملجم - لعنه الله - غدر بعلى ﷺ وقتله .

وعمرو بن جرموز غدر بالزبير بن العوّام ﷺ وقتله .

وأبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة - لعنه الله - غدر بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وقتله .

وجعل المنصور العهد إلى عيسى بن موسى ثم غدر به وأخره ، وقدم المهدى عليه فقال عيسى :

أينسى بنو العباس ذَبّى[٤] عنهمُ ... بسيفى ونار الحرب زاد سَعيرها

فتحت لهم شرقَ البلاد وغربَها ... فذل مُعاديها وعَزّ نصيرها

أقطّعُ أرْحامًا على عزيزة ... وأُبدى مكيداتٍ لها وأُثيرها

فلما وضعت الأمر فى مستقَرّه ... ولاحت له شمس تلألأ نورُها

دُفعتُ عن الأمر الذى أستحقه ... وأوسق أوساقا[٥] من الغدر غيرُها

وخرج قوم لصيد فطردوا ضَبُعةً حتى ألجئوها إلى خباء أعرابى فأجارها ، وجعل يُطعمها ويَسقيها ، فبينما هو نائم

---

(١) الرَّبض: الزوجة.

(٢) العُكنة: ما انطوى وتثنى من لحم الطن سِمَنًا.

(٣) الجَوْسق: القصر الصغير.

(٤) ذَبّى عنهم: أي دفاعي عنهم.

(٥) أوسُق، وأوساق: جمع وَسْق، وهو مِكْيلة معلومة، وهي ستون صاعًا.

ذات يوم ، إذ وثبت عليه ، فبقرت بطنه ، وهربت ، فجاء ابن عمه يطلبه ، فوجده مُلْقًى فتبعها حتى قتلها ، وأنشد يقول :

ومَنْ يَصنع المعروفَ مَع غيرِ أهْله ... يُلاقى كما لاقى مُجيرُ أمَّ عامرِ
أعَدْلها لما استجارت ببيته ... أحاليبَ ألبانِ اللقاحِ الدّرائر
وأسْمنها حتى إذا ما تمكنت ... فرته بأنياب لها وأظافر
فقل لذوى المعروف : هذا جزاء من ... يجود بمعروف على غير شاكر

(وحكى بعضهم) : قال دخلت البادية فإذا أنا بعجوز بين يديها شاة مقتولة ، وإلى جانبها جَرْوُذئب فقالت : أتدرى ما هذا ؟ فقلت : لا . قالت : هذا جروذئب أخذناه صغيرا ، وأدخلناه بيتنا ، وربيناه ، فلما كبر فعل بشاتى ما ترى وأنشدَت :

بَقرتَ شُوَيْهتى وفجعتَ قومى ... وأنت لشاتنا ابنُ رَبيبُ
غُذيتَ بدرّها ونشأت معها ... فمن أنباك أن أباك ذيب ؟!
إذا كان الطباعُ طباعَ سوء ... فلا أدب يُفيد ولا أديب !

اللهم إنا نعوذ بك من البغى وأهله ، ومن الغادر وفعله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الفصل الثانى : فى السرقة والسراق

قيل : مر عمر بن عُبَيْد بجماعة وقوف ، فقال : ما هذا ؟ قيل : السلطان يقطع سارقا . فقال : لا إله إلا الله . سارق العلانية ، يقطع سارقَ السر . وأمر الاسكندر بصلب سارق ، فقال : أيها الملك ، إنى فعلت ما فعلت ، وأنا كاره ، فقال : وتصلب أيضا ، وأنت كاره . وسرق مدنى قميصًا فأعطاه لابنه يبيعه ، فسُرِق منه ، فجاء له فقال : بكم بعته ؟ قال : برأس المال . وقال أكتل السلمى - وكان لصًا فاتكا - :

وإنى لأستحيى من الله أن أرى ... أجُرجر حبلى ليس فيه بعير !
وأن أسأل المرء الدنىء بعيره ... وأجْمالُ ربى فى البلاد كثير !

وقال الفرزدق :

وإن أبا الكرشاء[1] ليس بسارق ... ولكن متى ما يسرقُ القومُ يأكلُ

وكان لعمر بن دويرة البجلى أخ ، قد كَلِفَ[2] ببنت عم له ، فتسوّر عليها الدار ذات ليلة ، فأخذه إخوتها وأتوا به خالد بن عبد الله القسرى ، وجعلوه سارقا ، فسأله خالد فصدّقهم ليدفعَ الفضيحة عن الجارية فهم خالد بقطعة ، فقال عمر وأخوه :

أخالد قد والله أوطئت عشوة ... ومَا العاشق المظلوم فينا بسارق
أقر بما لم يأته المرء إنه ... رأى القطع خيرا من فضيحة عاشق

فعفا عنه خالد وزوّجه الجارية :

الفصل الثالث : فيما جاء فى العداوة والبغضاء

قد ذكر الله عز وجل العداوة والبغضاء فى كتابه العزيز فقال تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [المائدة: ٦٤] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف: ٥] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦] وقال

---

(١) الكَرْشاء: القدم التي كثر لحمها واستوى أخْمُصها وقصرت أصابعها.
(٢) كَلِف ببنت عم له: أحبّها وأُولع بها.

تعالى : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن : ١٤] وقال رسول الله ﷺ : « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك »[١] . وقال أبو بكر الصديق ﷺ العداوة تتوارث وقال زياد بن عبد الله :

فلو أنى بليتُ بهاشمىٍّ ... خئولته بنو عبد المدان
صبرتُ على عداوته ولكن ... تعالوا فانظروا بمن ابتلانى ؟!

وبث رجل فى وجه أبى عبيدة مكروها فأنشأ يقول :

فلو أن لحمى إذْ وَهَى لعبت به ... سباع كرام أو ضباع وأذؤب
لهوّن وجدى أو أسلّى مصيبتى ... ولكنما أودى بلحمى أكلب

وقيل لكسرى : أى الناس أحب إليك أن يكون عاقلا ؟! قال : عدوى . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لأنه إذا كان عاقلا كنت منه فى عافية وأمن . وقيل : كونوا من المرء الدغل[٢] أخوف من الكاشح[٣] المعلن ، فإن مداومة أهل العلل الظاهرة أهون من مداومة ما خفى وبطن ، وقالوا : إياك أن تعادى . من إذا شاء طرح ثيابه ، ودخل مع الملك فى لحافه ، وقال أبو العتاهية :

تنحّ عن القبيح ولا تُرِدْه ... ومن أوليته حَسَنًا فزِدْه
ستلقى من عدوك كلّ كيد ... إذا كاد العدوّ ولم تَكِدْه

وكانت جليلة بنت مرة أخت جَسّاس تحت كليب ، فقتل أخوها زوجها وهى حبلى بهجرس بن كليب ، فلما كبر وشبّ ، قال :

أصاب أبى خالى وما أنا بالذى ... أميل وأمرى بين خالى ووالدى
وأورث جساس بن مرة غصةً ... إذا ما اعترتنى حرها غير بارد

ثم قال بعد ذلك :

يا للرجال لقلبٍ ما له جَلَدُ ... كيف العزاءُ وثَارى عندَ جسّاسِ

ثم حمل على خاله فقتله وقال :

ألم ترنى ثأرت أبى كليبا ... وقد يُزجَى المرشح للذّحول
غسلت العار عن جسم ابن بكر ... بجساس بن مرة ذى البتول

وقال الشاعر :

سَنّ العداوةَ آباء لنا سلفوا ... فلن تبيد وللآباء أبناء

ويقال : دار عدوك لأحد أمرين : إما الصداقة تؤمنك ، أو لفرصة تمكنك .

وكتب سويد إلى مصعب :

فبلغ مصعبا عنى رسولى ... وهل تلقى النصيح بكل واد ؟!
تعلم أن أكثر من تناجى ... وإن ضحكوا إليك هم الأعادى !

ويقال : فلان كثير المراق ، مر المذاق . وقال الحجاج لخارجى : والله إنى لأبغضك ! قال : أدخل الله الجنةَ أشدَّنا بغضًا لصاحبه .

ولما أراد أنوشروان أن يقلد ابنه هرمز ولاية العهد استشار عظماء مملكته ، فأنكروا عليه ، وقال بعضهم : إن أمه

---

(١) «أعدى عدوك . . إلخ» رواه البيهقي في الزهد بإسناد ضعيف كما قال العجلوني، وله شواهد من حديث أنس، وهذه الرواية هي المشهورة على الألسنة وقد روى «أعدى أعدائك».

(٢) الدَّغَل: عيب في المرء يفسده.

(٣) الكاشح: العدو المُبغض.

تركية ، وقد علمت فى أخلاقهم ما علمت ، فقال : إن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات ، وكانت أم قباذ تركية ، وقد رأيتم من حسن سيرته ما رأيتم . فقيل : هو قصير ، وذلك يذهب ببهاء الملك ، فقال : إن قصره من رجليه ، ولا يكاد يرى إلا جالسا أو راكبا ، فلا يستبين ذلك فيه ، فقيل : هو بغيض فى الناس فقال : أواه هلك ابنى هرمز فقد قيل : إذا كان فى الإنسان خير واحد ، ولم يكن ذلك الخير المحبة فى الناس ، فلا خير فيه ، وإذا كان فيه عيب واحد ، ولم يكن ذلك العيب البغض فى الناس فلا عيب فيه :

ولست براءٍ عيبَ ذِى الوُدّ كلِّه ... ولا بعضَ ما فيه إذا كنت راضيا
فعينُ الرضا عن كلِّ عيب كليلةٌ ... كما أن عينَ السخط تُبدى المساويا

وفى المعنى قيل :

وعين البُغض تُبرزُ كلَّ عيب ... وعينُ الحب لا تَجدُ العيُوبَا

وعن أبى حيان قال : قال لقمان : نقلت الصخور ، وحملت الحديد ، فلم أر شيئًا أثقل من الدين ، وأكلت الطيبات ، وعانقت الحسان ، فلم أر شيئًا ألذّ من العافية ، وأنا أقول : لو نزحوا البحار ، وكنسوا القفار ، لوجدوها أهون من شماتة الأعداء ، خصوصا إذا كانوا مساهمين فى نسب ، أو مجاورين فى بلد ، اللهم إنا نعوذ بك من تتابع الإثم ، وسوء الفهم ، وشماتة ابن العم . وقيل لأيوب عليه السلام أى شىء كان عليك فى بلائك أشد ؟ قال شماتة الأعداء ، وأنشد الجاحظ :

تقول العاذلات[1] : تَسَلّ عنها ... وداو عليل قَلبكَ بالسلوّ[2]
وكيف ونظرة منها اختلاسا ... ألذ من الشماتةِ بالعدوّ

وقال ابن أبى جهينة المهلبى :

كل المصائب قد تمر على الفتَى ... فتهونُ غيرَ شماتةِ الأعداء

وقال الجاحظ : ما رأيت سِنانًا أنفذ من شماتة الأعداء . وقيل : لما قبض رسول الله ﷺ سمع بموته نساء من كندة وحضرموت ، فخضبن أيديهن ، وضربن بالدفوف ، فقال رجل منهم :

أبلغ أبا بكر إذا ما جئتَه ... أن البغايا من بنى مرّام
أظهرن فى موت النبى شماتةً ... وخضبْن أيديَهن بالعُلّام
فاقطع - هُديتَ أكفَّهُنّ بصارم ... كالبرق أومض فى متون غمام

فكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى المهاجر عامله فأخذهن ، وقطع أيديهن[3] . ويقال : فلان يتربص بك الدوائر ، ويتمنى لك الغوائل ، ولا يؤمل صلاحًا إلا فى فسادك ، ولا رفعة إلا فى سقوط حالك . وقال حكيم : لا تأمن عدوّك وإن كان ضعيفا ، فإن القناة قد تقتل ، وإن عدمت السنان ، قال الشاعر :

فلا تأمن عدوك لو تراه ... أقل إذا نظرت من القراد[4]
فإن الحرب ينشأ من جبان ... وإن النار تضرم من رماد

وقال الشاعر :

فمن لم يكن منكم مسيئا فإنه ... يشد على كف المسىء فيجلب

وقال عبد الله بن سليمان بن وهب :

كفايةُ الله خيرٌ من تَوَقّينا ... وعادةُ الله فى الماضين تكفينا

---

(١) العاذلات : عذله : لامَهُ، فهو عاذل، وهي عاذلة.

(٢) السلوّ : يقال: أسلى فلانًا عن كذا أي جعله يسلو، وأسْلى فلانًا من همّه: كشفه عنه.

(٣) لما قبض رسول الله ﷺ إلخ، لم أهتد إلى من خرجه. والعُلّام: الحِنّاء.

(٤) القُرَاد: دُوَيبة متطفلة ذات أرجل كثيرة اغيش على الدواب والطيور.

كاد الأعادى فلا والله ما تركوا ... قولا وفعلا وتلقينا وتهجينا
ولم نزد نحن فى سر وفى علن ... على مقالتنا : يا ربنا اكفينا
فكان ذاك وردّ الله حاسدنا ... بغيظه لم ينلْ تقديره فينا

الفصل الرابع : فى الحسد

قال الله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٤] وقال رسول الله ﷺ : « **استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ؛ فإن كل ذى نعمة محسود** »(١) . وقال على ﷺ الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له : وقيل : الحسود غضبان على القَدَر ، ويقال : ثلاثة لا يهنأ لصاحبها عيش : الحقد ، والحسد وسوء الخلق .

وقيل : بئس الشعار الحسد ، وقيل لبعضهم : ما بال فلان يبغضك ؟ قال : لأنه شقيقى فى النسب ، وجارى فى البلد ، وشريكى فى الصناعة . فذكر جميع دواعى الحسد . وقال أعرابى : الحسد داء منصف ، يفعل فى الحاسد أكثر من فعله فى المحسود ، وهو مأخوذ من الحديث : « **قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله** »(٢) . وقال الفقيه أبو الليث السمرقندى - رحمه الله تعالى - يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود : **أولاها** : غم لا ينقطع ، **والثانية** : مصيبة لا يؤجر عليها . **الثالثة** : مذمة لا يحمد عليها ، **الرابعة** : سخط الرب . **الخامسة** : يغلق عنه باب التوفيق .

(ومن ذلك ما حكى) : أن رجلا من العرب دخل على المعتصم ، فقربه ، وأدناه ، وجعله نديمه ، وصار يدخل على حريمه ، من غير استئذان ، وكان له وزير حاسد فغار من البدوى ، وحسده وقال فى نفسه : إن لم أحتل على هذا البدوى فى قتله ، أخذ بقلب أمير المؤمنين ، وأبعدنى منه ، فصار يتلطف بالبدوى ، حتى أتى به إلى منزله ، فطبخ له طعاما ، وأكثر فيه من الثوم ، فلما أكل البدوى منه قال له : احذر أن تقرب من أمير المؤمنين ، فيشم منك رائحة الثوم ، فيتأذى من ذلك فإنه يكره رائحته . ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين فخلا به ، وقال : يا أمير المؤمنين ، إن البدوى يقول عنك للناس : إن أمير المؤمنين أبخر ، وهلكت من رائحة فمه ، فلما دخل البدوى على أمير المؤمنين ، جعل كمه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم ، فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكمه قال : إن الذى قاله الوزير عن هذا البدوى صحيح ، فكتب أمير المؤمنين كتابا إلى بعض عماله يقول له فيه ، إذا وصل إليك كتابى هذا ، فاضرب رقبة حامله ، ثم دعا بالبدوى ، ودفع إليه الكتاب ، وقال له : امض به إلى فلان ، وائتنى بالجواب ، فامتثل البدوى ما رسم به أمير المؤمنين ، وأخذ الكتاب وخرج به من عنده ، فبينما هو بالباب ، إذ لقيه الوزير فقال : أين تريد ؟ قال : أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان ، فقال الوزير فى نفسه : إن هذا البدوى يحصل له من هذا التقليد مال جزيل ، فقال له يا بدوى : ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذى يلحقك فى سفرك ، ويعطيك ألفى دينار ؟ فقال : أنت الكبير ، وأنت الحاكم ، ومهما رأيته من الرأى ، افعل . قال : أعطنى الكتاب ، فدفعه إليه فأعطاه الوزير ألفى دينار وسار بالكتاب إلى المكان الذى هو قاصده ، فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير ، فبعد أيام تذكر الخليفة فى أمر البدوى ، وسأل عن الوزير ، فأخبر بأن له أياما ما ظهر ؛ وأن البدوى بالمدينة مقيم ، فتعجب من ذلك ، وأمر بإحضار البدوى فحضر ، فسأله عن حاله فأخبره بالقصة التى اتفقت له مع الوزير من أوّلها إلى آخرها ، فقال له : أنت قلت عنى للناس : إنى أبخر ؟!فقال : معاذ الله يا أمير المؤمنين . أن أتحدث بما ليس لى به علم . وإنما كان ذلك مكرًا منه وحسدًا وأعلمه كيف دخل به إلى بيته ، وأطعمه الثوم ، وما جرى له معه ، فقال أمير المؤمنين : « قاتل الله الحسد ، ما أعدَلَه ! بدأ بصاحبه فقتله » . ثم خلع على البدوى ، واتخذه وزيرا وراح الوزير بحسده . وقال المغيرة شاعر آل المهلب :

---

(١) «استعينوا . . إلخ» قال العجلوني : رواه الطبراني وأبو نعيم بسند ضعيف عن معاذ بن جبل رفعه ، وكذا والبيهقي وابن أبي الدنيا والعسكري بسند فيه سعيد بن سلام كذبه أحمد ثم قال وله طريق أخرى عند الخلعي في فوائده عن علي رفعه «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان لها» .

(٢) «قاتل الله الحسد ما أعد له بدأ بصاحبه فقتله» . لم أقف عليه .

آل المُهلب قومٌ إن مدحتهم ... كانوا الأكارم آباء وأجدادا
إن العرانين[١] تلقاها مُحَسَّدةً ... ولا ترى للئام الناس حُسَّادا

وقال عمر ﷺ: يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقتَ سرورك. وقال مالك ابن دينار: شهادة القراء مقبولة فى كل شىء إلا شهادة بعضهم على بعض، فإنهم أشدّ تحاسدًا من التيوس. وعن أنس ﷺ ورفعه «إنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ»[٢]. وقال منصور الفقيه:

مُنافسة الفتى فيما يزولُ ... على نُقصان همته دليلُ
ومُختار القليلِ أقلّ منه ... وكلّ فوائد الدنيا قليلُ

يقول الله - عز وجل -: «الحاسد عدوّ نعمتى، متسخط لفعلى غير راض بقسمتى، التى قسمت لعبادى»[٣]. قال الشاعر:

أيا حاسدًا لى على نعمتى ... أتدرى على من أسأت الأدب ؟!
أسأت على الله فى حكمه ... لأنك لم ترض لى ماوهب!
فأخزاك ربى بأن زادنى ... وسد عليك وجوهَ الطلب !

وقال الأصمعى: رأيت أعرابيا قد بلغ عمره مائة وعشرين سنة، فقلت له: ما أطول عمرك، فقال: تركت الحسد فبقيت، وقالوا: لا يخلو السيد من ودود يمدح، وحسود يقدح! وقال ابن مسعود ﷺ ألا لا تعادوا نعم الله ؟ قيل: وما ومن يعادى نعم الله ؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله. وقيل: لعبد الله بن عروة: لم لزمت البدو، وتركت قومك ؟ فقال: وهل بقى إلا حاسد على نعمة أو شامت على نكبة ؟! وقال الشاعر:

يا طالبَ العيش فى أمن وفى دعة ... رغدًا بلا قَتْر، صفوًا بلا رنق[٤]
خلص فؤادك من غل ومن حسدِ ... فالغِلُّ فى القلب مثلُ الغُلّ فى العنق !

وقال آخر:

اصبر على حسد الحسو ... دِ فإن صَبرك قاتلُه
كالنار تأكلُ بعضها ... إن لم تجدْ ما تأكله

وفى نوابغ الحكم: الحسد حَسَك[٥]؛ من تعلق به هلك. ولبعضهم:

إنى حُسدت فزاد الله فى حَسَدى ... لا عاش من عاش يومًا غير محسود

وقال نصر بن سيار:

إنى نشأت وحُسَّادى ذوو عدد ... ياذا المعارج لا تُنْقِص لهم عددًا
إن يحسدونى على ما بى لما بهم ... فمثل ما بى مما يجلب الحسدا

وكان عمر ﷺ يقول: نعوذ بالله من كل قدر وافق إرادة حاسد. وقيل لأرسطاطاليس: ما بال الحسود أشد غما ؟ قال: لأنه أخذ بنصيبه من غموم الدنيا، ويضاف إلى ذلك غمه لسرور الناس، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) العرانين: جمع عِرْنين، ويقال: هم شُمّ العَرانين: أعِزّة أُباة، وعرانين القوم: ساداتهم وأشرافهم.
(٢) إن الحسد يأكل الحسنات.. إلخ. قال العجلوني: رواه أبو داود.
(٣) يقول الله عز وجل «الحاسد عدوّ.. إلخ». لم أقف عليه.
(٤) بلا قَتْر: بلا ضيق. بلا رنق: بلا تكدير.
(٥) الحَسَكُ: نبات له ثمرة خشنة تتعلق بأصواف الغنم وأوبار الإبل، ومن الحديد ما يُعمل على مثال الحسَك، كان يُلقى حول العسكر ويُبث في مذاهب الخيل فينشب في حوافرها.

الباب الأربعون

فى الشجاعة وثمرتها ، والحروب وتدبيرها ، وفضل الجهاد وشدّة البأس ، والتحريض على القتال وفيه فصلان

الفصل الأول : فى فضل الجهاد فى سبيل الله وشدة البأس

قد أثنى الله تعالى على الصابرين فى البأساء والضراء[١] . وحين البأس ، ووصف المجاهدين فقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف:٤] وندب إلى جهاد الأعداء ، ووعد عليه أفضل الجزاء ، والرأى فى الحرب أمام الشجاعة . قال رسول الله ﷺ: « **الْحَرْبُ خِدْعَةٌ** »[٢] . وقال ﷺ: « **ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دم فى سبيله أو قطرة دمع فى جوف ليل من خشيته** »[٣] . وسمع رجل عبد الله بن قيس ﷺ يقول : قال رسول الله ﷺ: « **إِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ** »[٤] . فقال يا أبا موسى . أنت سمعت رسول الله ﷺ يقوله ؟ قال : نعم . فرجع إلى أصحابه ، فقال : أقرأ عليكم السلام ، ثم كسر جفن سيفه ، فألقاه ، ثم مشى بسيفه إلى العدوّ ، فضرب به حتى قتل ، وكتب أبو بكر الصديق ﷺ إلى خالد بن الوليد : اعلم أن عليك عيونا من الله ترعاك ، وتراك فإذا لقيت العدوّ فاحرص على الموت توهب لك السلامة ، ولا تغسل الشهداء من دمائهم ، فإن دم الشهيد يكون له نورا يوم القيامة ، وعن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ حين انتهينا إلى خيبر : « **اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ** »[٥] . وعنه رفعه « **لَغَدْوَةٌ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا** »[٦] . وعن ابن مسعود رفعه «**إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِى حَوَاصِلِ طُيُورٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ، ثُمَّ تَأْوِى إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ**»[٧] .

وقيل : إن أنس بن النضر عم أنس بن مالك ﷺ لم يشهد بدرا ، فلم يزل متحسرا يقول : أوّل مشهد شهده رسول الله ﷺ غيبت عنه ، فلما كان يوم أحد قال ، واهًا لريح الجنة دون أُحُدٍ فقاتل ، حتى قتل ، فوُجد فى بدنه بضعٌ وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية فقالت أخته ، الربيع بنت النضر ، فما عرفت أخى إلا ببنانه . وعن فُضالة بن عبيد رفعه « كل ميت يختم على عمله إلا المرابط فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتنة القبر »[٨] ، وعن سهل بن حنيف رفعه « **مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ** »[٩] . فنسأل الله أن يرزقنا الشهادة ، ويجعلنا من الذين أحسنوا فلهم الحسنى وزيادة .

---

(١) في الآية رقم [١٧٧] من سورة البقرة.

(٢) «الحرب خدعة» قال العجلوني: متفق عليه عن أبي هريرة [وخدعة مثلث الخاء والفتح أشهر، والدال ساكنة فيهن، ويجوز مع الضم فتح الدال].

(٣) قال ﷺ: ما من قطرة.. إلخ. انظر: «إتحاف السادة المتقين» للزَّبيدي [٩/ ٢١٤].

(٤) «إن الجنة تحت ظلال.. إلخ» ذكره العجلوني برقم [١٠٨٢] بلفظ «الجنة تحت ظلال السيوف» وقال: رواه الحاكم عن أبي موسى، وفي رواية البخاري «الجنة تحت بارقة السيوف» وفي رواية له عن أبي أوفى مرفوعًا بلفظ «اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». والحديث الذي ذكره المصنف رواه مسلم عن أبي موسى بتمامه.

(٥) وعن أنس.. إلخ. أخرجه البخاري [١/ ١٠٥]، ومسلم [٤/ ١٤٥، ٥/ ١٨٥]، وأحمد [٣/ ١٠٢]، والنسائي [٧/ ٢٠٤]، وغيرهم. وانظر: «إرواء الغليل» [١/ ٣٠١].

(٦) وعنه رفعه إلخ.. أخرجه البخاري [٢٧٩٦]، ومسلم [١٨٨٠]، والترمذي [١٦١٥]، وأحمد [٣/ ١٤١].

(٧) وعن ابن مسعود رفعه «إن أرواح الشهداء.. إلخ» أخرجه مسلم :١٨٨٧/ ١٢١].

(٨) وعن فضالة. إلخ. أخرجه أبو داود [٢٥٠٠]، والترمذي [١٦٢١]، والبخاري في «الأدب المفرد» [٩٩٦، ٩٩٨، ٩٩٩]، وأحمد [٦/ ٢٩]، والحاكم [٢/ ٧٩]، وابن حبان [٤٦٢٤- إحسان].

(٩) وعن سهل بن حنيف رفعه إلخ. أخرجه مسلم [١٩٠٩]، وأبو داود [١٥٢٠]. والترمذي [١٦٥٣]، والنسائي [٦/ ٣٧]، وابن ماجه [٢٧٩٧].

الفصل الثانى : فى الشجاعة وثمرتها ، والحروب وتدبيرها

اعلم أن الشجاعة عماد الفضائل ، ومن فقدها لم تكمل فيه فضيلة ، ويعبر عنها بالصبر وقوّة النفس . قال الحكماء : وأصل الخير كله فى ثبات القلب ، والشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : إذا التقى الجمعان وتزاحف العسكران ، وتكالحت الأحداق[١] بالأحداق برز من النصف إلى وسط المعترك يحمل ويكر ، وينادى : هل من مبارز ؟

والثانى : إذا نشب القوم ، واختلطوا ، ولم يدر أحد منهم من أين يأتيه الموت ؟ يكون رابط الجأش ، ساكن القلب ، حاضر اللب ، لم يخالطه الدهش ، ولا تأخذه الحيرة ، فيتقلب تقلب المالك لأموره ، القائم على نفسه .

والثالث : إذا انهزم أصحابه ، يلزم الساقة[٢] ، ويضرب فى وجوه القوم ، ويحول بينهم وبين عدوهم ، ويقوى قلوب أصحابه ، ويُرجى الضعيف ، ويمدهم بالكلام الجميل ، ويشجع نفوسهم ، فمن وقع أقامه ، ومن وقف حمله ، ومن كبابه فرسه حماه حتى ييأس العدوّ منهم ، وهذا أحمدهم شجاعة ، وعن هذا قالوا : إن المقاتل من وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين ، ومن أكرم الكرم الدفاع عن الحرم .

(وحكى) سيدى أبو بكر الطرطوشى - رحمة الله تعالى عليه - فى كتابه سراج الملوك قال : كان شيوخ الجند يحكون لنا فى بلادنا قالوا : دارت حرب بين المسلمين والكفار ، ثم افترقوا فوجدوا فى المعترك قطعة خوذة قدر الثلث بما حوته الرأس ، فقالوا إنه لم يرقط ضربة أقوى منها ، ولم يسمع بمثلها فى جاهلية ولا إسلام ، فحملتها الروم وعلقتها فى كنيسة لهم ، فكانوا إذا عُيّروا بانهزامهم ، يقولون : لقينا أقواما هذا ضربهم ، فيرحل أبطال الروم . إليها ليروها ، قالوا : ومن الحزم أن لا يحتقر الرجل عدوه وإن كان ذليلا ، ولا يغفل عنه ، وإن كان حقيرا فكم برغوثٍ أسهر فيلا ، ومنع الرقاد ملكا جليلا . قال الشاعر :

فلا تحقرن عدوًّا رماك ... وإن كان فى ساعديه قصر

فإن السيوف تحزّ الرقابَ ... وتعجز عما تنال الإبر !!

واعلموا أن الناس قد وضعوا فى تدبير الحروب كتبًا ، ورتبوا فيها ترتيبًا ولْنَصِفْ منها أشياء نبدأ منها **أولا** : بما ذكره الله تعالى فى القرآن العظيم قال الله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠]. فقوله تعالى : ﴿مَّا اسْتَطَعْتُم﴾ . مشتمل على كل ما هو فى مقدور البشر من العُدة والآلة ، والحيلة وفسر النبى ﷺ : القوة حين مر على أناس يرمون فقال : « **أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْىُ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْىُ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْىُ** »[٣] . وأفضل العُدة أن تقدم بين يدى اللقاء عملا صالحا ، من صدقة ، وصيام ، ورد المظالم ، وصلة الرحم ، ودعاء مخلص ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وأمثال ذلك .

والشأن كل الشأن فى استجادة القواد ، وانتخاب الأمراء ، وأصحاب الألوية ، فقد قالت حكماء العجم : أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد ، فلا ينبغى أن يقدم الجيش إلا الرجل ذو البسالة والنجدة والشجاعة والجراءة ، ثابت الجأش ، صارم القلب ، صادق البأس ، ممن قد توسط الحروب ومارس الرجال ، ومارسوه ، ونازل الأقران ، وقارع الأبطال عارفا بمواضع الفرص ، خبيرا بمواقع القلب والميمنة والميسرة من الحروب ، فإنه إذا كان كذلك وصدر الكل عن رأيه ، كانوا جميعا كأنهم مثله ، فإنه إن رأى لقراع الكتائب وجهًا وإلا رد الغنم إلى الزريبة . واعلم أن الحرب خدعة عند جميع العقلاء . وكان عظماء الترك يقولون : ينبغى للعاقل العظيم القياد أن يكون فيه عدة أخلاق من أخلاق البهائم : شجاعة الديك ، وبحث الدجاجة ، وقلب الأسد ، وحملة الخنزير ، وروغان

---

(١) تكالحت : تبادلت العبوس والمواجهة في عنف وشدة وكراهية وبغضاء.

(٢) السَّاقَةُ : من الجيش : مُؤخّرهُ.

(٣) ألا إن القوة.. إلخ. أخرجه مسلم [١٩١٧/٣١٧]، وأبو داود ن٢٥١٤]، وابن ماجه [٢٨١٣].

الثعلب ، وصبر الكلب على الجراح ، وحراسة الكركى [١] ، وغارة الذئب وسمَن نُغَيْر : وهى دويبة تكون بخراسان تسمن على التعب والشقاء .

وكان يقال : أشد خلق الله تعالى عشرة : الجبالُ ، والحديد ينحت الجبال ، والنار تأكل الحديد ، الماء يطفىء النار ، والسحاب يحمل الماء ، والريح تصرف السحاب ، والإنسان يتقى الريح بجناحيه ، والسكر يصرع الإنسان ، والنوم يذهب السكر ، والهم يمنع النوم . فأشد خلق ربك الهم . اللهم إنا نعوذ بك من الهم والحزن .

ومن الحيل فى الحرب أن يبث جواسيسه فى عسكر عدوّه ، ليستعلم أخبارهم ، ويستميل قلوب رؤسائهم ، وذوى الشجاعة منهم ، فيدس إليهم ، ويعدهم وعدا جميلا ، ويقوى أطماعهم فى نيل ما عنده من الهبات الفخيمة ، والولايات السنية ، وإن رأى وجها عاجلهم بالهدايا ، وسامهم إما الغدر بصاحبهم ، وإما الاعتزال وقت اللقاء ، ويكتب على السهام أخبارا مزوّرة ، ويرمى بها فى جيوشهم ، واعلم : أن الحيلة لا ترد القضاء والقدر ، وأن الدول إذا زالت صارت حياتها وبالاً عليها ، وإذا أذن الله تعالى فى حلول البلاء ، كانت الآفة فى الحيلة . وقال الحكماء : إذا نزل القضاء ، كان العطب فى الحيلة ، ويغلب الضعيف بإقبال دولته ، كما يغلب القوى ببقاء مدته . فمن الحزم المألوف عند سُوّاس [٢] الحروب أن تكون حماة الرجال ، وكُماة الأبطال فى القلب ، فإنه إذا انكسر الجناحان ، كانت العيون ناظرة إلى القلب ، فإذا كانت رايته تخفق ، طبوله تضرب ، كان حصنا للجناحين ، يأوى إليه كل منهزم ، وإذا انكسر القلب تمزق الجناحان ، مثال ذلك : أن الطائر إذا انكسر أحد جناحيه تُرجى عودته ولو بعد حين وإذا انكسر الرأس ذهب الجناحان ، وقَلَّ عسكرٌ انكسر قلبه فأفلح أو تراجع ؛ اللهم إلا أن تكون مكيدة من صاحب الجيش ، فيخلى القلب قصدا وتعمُّدًا ، حتى إذا توسطه العدو واشتغل بنهبه انطبق عليه الجناحان ، فقد فعل ذلك رجل من أهل الحروب . ويقال : حبب إلى عدوك الفرار بأن لا تتبعهم إذا انهزموا ، ويقال : الشجاع محبب حتى إلى عدوه ، والجبان مبغض حتى إلى أمه .

ولما أقبل كسرى بن هرمز إلى محاربة بهرام قال له صاحبه : أما تستعد ؟ قال : عدتى ثبات قلبى ، وإصابة رأيى ، ونصل سيفى ، ونصرة خالقى .

وخرج يزيد بن عبد الملك من بعض مقاصيره ، وعليه درع ، وذلك فى أيام قتال يزيد ابن المهلب فأنشده مسلمة قول الحطيئة :

قــوم إذا حــاربــوا شــدوا مــآزرَهــم دون الــنــســاء ولــو بــاتــت بــأظــهــار !

فقال يزيد : إنما ذاك إذا حاربنا أكفاءنا ، وأما مثل هذا ونظرائه فلا ، فقام إليه مسلمة فقبله بين عينيه .

وقيل : لما مات ملك الفرس ، أرادوا أن يملكوا عليهم رجلا من آل ساسان ، فوفد عليهم بهرام جور فقال : اعمدوا إلى أسدين جائعين ، فاطرحوا بينهما التاج ، فمن أخذه فهو الملك ، ففعلوا ، فدنا منهما فأهْوَيَا نحوه ، فأخذ برأس أحدهما فأدناه من رأس الآخر ، ثم نطمه به ، فقتلهما جميعًا وشدّ على التاج ، فأخذه ووضعه على رأسه وملكته الفرس عليهم .

وقيل : لم يكن فى العجم أرمى من الملك بهرام ؛ خرج يتصيّد يومًا وهو مردف [٣] حظية له كان يعشقها ، فعرضت له ظباء فقال : فى أى موضع تريدين أن أضع هذا السهم ؟ فقالت : أريد أن تشبه ذكرانها بالإناث وإناثها بالذكران ، فرمى ظبيا ذكرا بنشابة ذات شعبتين فاقتلع قرنيه ، ورمى ظَبية بنشابتين أثبتهما فى موضع القرنين ، ثم سألته أن يجمع بين ظلف الظبى وأذنه بنشابة فرمى أصل الأذن ببندقة [٤] ، ثم أهوى الظبى برجله إلى أذنه ليحتك فرماه بنشابة فوصل أذنه بظلفه .

---

(١) الكُرْكيّ: طائر كبير، أغبر اللون، طويل العنق والرِّجْلين، أبتر الذَّنَب، قليل اللحم، والجمع كراكيّ.

(٢) السُّوّاس: جمع سائس وهم الساسة أصحاب الرأي والتدبير، والكُماة: جمع كَمَى وهو البطل المدجج بالسلاح.

(٣) مردف حظية له: الحظية: وهي المرأة التي تفضل على غيره. وأردفها أركبها خلفه.

(٤) البندقة: كرة في حجم البندقة يرمى بها في القتال. والنُّشابة واحدة النشاب وهو النبل.

ويقال : إن من أعظم المكايد فى الحرب « الكمين » ، وذلك أن الفارس لا يزال على حمية فى الدفاع ، وحمى الذمار [١] حتى يلتفت فيرى وراءه بندًا منشورا ويسمع صوت الطبل ، فحينئذ يكون همه خلاص نفسه ، وعليك بانتخاب الفرسان ، واختيار الأبطال ، ولا تنس قول الشاعر :

والـنـاس ألـف مـنـهـم كـواحـد ... وواحـد كـالألـف إن أمْـرٌ عَـنـى

بل قد جُرِّب ذلك فوجد الواحد خيرا من عشرة آلاف ، وسأحكى لك من ذلك ما ترى فيه العجب فمن ذلك لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية بن روميل النصرانى على مدينة وشقة من ثغور بلاد الأندلس ، وكان العسكران كالمتكافئين ، كل واحد منهما يقارب عشرين ألف مقاتل خيل ورجل ، فحدث من حضر الوقعة من الأجناد قال : لما دنا اللقاء قال الطاغية ابْن روميل : لمن يثق بعقله وممارسته للحروب من رجاله : استعلم لى من فى عسكر المسلمين ، من الشجعان الذين نعرفهم كما يعرفوننا ؟ ومن غاب منهم ؟ ومن حضر ؟ فذهب ثم رجع ، فقال : فيهم فلان وفلان فعدّ سبعة رجال ، فقال له : انظر من فى عسكرى من الرجال المعروفين بالشجاعة ، ومن غاب منهم ، فعدّهم فوجدهم ثمانية رجال ، لا يزيدون فقال الطاغية ضاحكا مسرورا وهو يقول : ما أبيضك من يوم ! ثم ثارت الحرب بينهم فلم تزل المضاربة بين الفريقين لم يول أحدهم دُبُرَه ، ولا تزحزح عن مقامه ، حتى فنى أكثر العسكَرِيْن ، ولم يفر واحد منهم ، قال : فلما كان وقت العصر نظروا إلينا ساعة ، ثم حملوا علينا جملة وداخلونا مداخلة ، ففرقوا بيننا ، وصرنا شطرين ، وحالوا بيننا وبين أصحابنا ، فكان ذلك سبب وهننا وضعفنا ، ولم تقم الحرب إلا ساعة ، ونحن فى خسارة معهم ، فأشار مقدم العسكر على السلطان أن ينجوَ بنفسه ، وانكسر عسكر المسلمين ، وتفرق جمعهم ، وملك العدوّ مدينة وشقة ؛ فليعتبر ذو الحزم والبصيرة من جمع ، يحتوى على أربعين ألف مقاتل ، ولم يحضره من الشجعان المعدودين إلا خمسة عشر نفرا ، وليعتبر بضمان العِلْج بالظفر ، واستبشاره بالغنيمة ، لَمّا زاد فى أبطاله رجل واحد .

(وحكى) : سيدى أبو بكر الطرطوشى - رحمة الله تعالى عليه - قال : سمعت أستاذنا القاضى أبا الوليد يحيى قال : بينما المنصور بن أبى عامر فى بعض غزواته إذ وقف على نشز من الأرض مرتفع ، فرأى جيوش المسلمين من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، وقد ملئوا السهل والجبل ، فالتفت إلى مُقَدّم العسكر وهو رجل يعرف بابن المضجعى ، فقال له : كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير ؟ قال : أرى جمعا كثيرا ، وجيشًا واسعًا كبيرًا ، فقال له المنصور : ما ترى ؟ هل يكون فى هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والنجدة والبسالة ؟ فسكت ابن المضجعى ؛ فقال له المنصور : ما سكوتك ؟ أليس فى هذا الجيش ألف مقاتل ؟ قال : لا . فتعجب المنصور ! ثم قال : فهل فيهم خمسمائة مقاتل من الأبطال المعدودين ؟ قال : لا . فحنق المنصور . ثم قال : أفيهم مائة رجل من الأبطال ؟ قال : لا . قال : أفيهم خمسون رجلا من الأبطال ؟ قال : لا . قال : فسبه المنصور ، وأغلظ عليه ، وأمر به فأخرج على أسوأ حال ، فلما توسطوا بلاد الروم ، اجتمعت الروم ، وتصافّ الجمعان فبرز علج [٢] من الروم ، بين الصّفين ، شاكى السلاح ، وجعل يكر ويفر ، ويقول : هل من مبارز ؟ فبرز إليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة ، فقتله العِلْج ، ففرح المشركون ، وصاحوا واضطرب المسلمون لها ، ثم جعل العلج يموج بين الصّفين وينادى : هل من مبارز اثنين لواحد ؟ فبرز إليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العلج ، وجعل يكر ، ويحمل ، وينادى ، ويقول : هل من مبارز ثلاثة : لواحد ؟ فبرز إليه رجل من المسلمين ، فقتله العلج ، فصاح المشركون ، وذلّ المسلمون ، وكادت أن تكون كسرة ، فقيل للمنصور : مالها إلا ابن المضجعى ، فبعث إليه ، فحضر فقال له المنصور : ألا ترى ما يصنع هذا العلج الكلب منذ اليوم ؟! فقال : لقد رأيته فما الذى تريد ؟ قال : أن تكفى المسلمين شره . قال : الآن يُكفى المسلمون شره إن شاء الله تعالى ، ثم قصد إلى رجال يعرفهم فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد تهرّت أوراكها هزالا ، وهو حامل قربة ماء بين يديه على الفرس ، والرجل فى حليته ونفسه غير متصنع ، فقال له ابن المضجعى : ألا ترى ما يصنع هذا العلج منذ اليوم ؟ قال : قد رأيت فما الذى تريد ؟ قال : أريد أن تكفى

---

(١) الذُّمار : العهد، والبند: العلَم الكبير .

(٢) العِلْج: كل جاف شديد من الرجال، وشاكي السلاح: تام السلاح كامل الاستعداد.

المسلمين شرّه ، قال : حُبًا وكرامة ، ثم إنه وضع القربة بالأرض وبرز إليه غير مكترث به ، فتجاولا ساعة فلم ير الناس إلا المسلم خارجا إليهم يركض ولا يدرون ما هناك ، وإذا برأس العلج يلعب بها فى يده ، ثم ألقى الرأس بين يدى المنصور ، فقال له ابن المضجعى : عن هؤلاء الرجال أخبرتك . قال : فردّ ابن المضجعى إلى منزلته ، وأكرمه ، ونصر الله جيوش المسلمين وعساكر الموحدين.

(وحكى) : أنه كان للعرب فارس يقال له : ابن فتحون ، وكان أشجع العرب والعجم فى زمانه ، وكان المستعين يكرمه ، ويعظمه ، ويجرى له فى كل عطية خمسمائة دينار ، وكانت جيوش الكفار تهابه ، وتعرف منه الشجاعة ، وتخشى لقاءه ، فيُحكى أن الرومى كان إذا سقى فرسه ولم يشرب يقول له : ويلك لم لا تشرب . هل رأيت ابن فتحون فى الماء ؟! فحسده نظراؤه على كثرة العطاء ومنزلته من السلطان ، فوشوا به عند المستعين ، فأبعده ومنعه من عطائه ، ثم إن المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم ، فتقابل المسلمون والمشركون صفوفا ، ثم برز علج إلى وسط الميدان ونادى ، وقال : هل من مبارز ؟ فبرز إليه فارس من المسلمين ، فتجاولا ساعة ، فقتله الرومى ، فصاح المشركون سرورا ، وانكسرت نفوس المسلمين ، وجعل الكلب الرومى يجول بين الصفين ، وينادى : هل من اثنين لواحد ، فخرج إليه فارس من المسلمين ، فقتله الرومى ، فصاح الكفار سرورا ، وانكسرت نفوس المسلمين ، وجعل الكلب يجول بين الصفين ، وينادى ويقول : ثلاثة لواحد ، فلم يجترئ أحد من المسلمين أن يخرج إليه ، وبقى الناس فى حيرة ، فقيل للسلطان مالها إلا أبو الوليد بن فتحون ، فدعاه وتلطف به ، وقال له : يا أبا الوليد ، أما ترى ما يصنع هذا العلج ؟ فقال : ها هو بعينى ، قال : فما الحيلة فيه ؟ قال الساعة أكفى المسلمين شره ، فلبس قميص كتان واستوى على سرج فرسه بلا سلاح ، وأخذ بيده سوطا طويلا ، وفى طرفه عقدة معقودة ، ثم برز إليه فتعجب منه النصرانى ، ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه ، فلم تخط طعنة النصرانى سرج ابن فتحون ، وإذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس ، ونزل إلى الأرض لا شىء منه فى السرج ، ثم انقلب فى سرجه ، وحمل على العلج ، وضربه بالسوط فالتوى على عنقه ، فجذبه بيده من السرج ، فاقتلعه وجاء به يجره حتى ألقاه بين يدي المستعين ، فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ فى صنعه مع أبى الوليد بن فتحون ، فاعتذر إليه ، وأكرمه ، وأحسن إليه ، وبالغ فى الإنعام عليه ، وردّه إلى أحسن أحواله ، وكان من أعز الناس إليه .

وينبغى لقائد الجيش أن يخفى العلامة التى هو مشهور بها فإن عدوّه قد يستعلم حليته ، وألوان خيله ورايته ، ولا يلزم خيمته ليلا ولا نهارا وليبدل زيه ، ويغير خيمته كى لا يلتمس عدوّه غرّة منه ، وإذا سكن الحرب ، فلا يمشى فى النفر اليسير من قومه خارج عسكره ، فإن عيون عدّوه متجسسة عليه ، وبهذا الوجه كسر المسلمون جيوش إفريقية عند فتحها ، وذلك أن الحرب سكنت وسط النهار ، فجعل مقدم العدوّ يمشى خارج عسكره ، يتميز عساكر المسلمين ، فجاء الخبر إلى عبد الله بن أبى السرح ، وهو نائم فى قبته ، فخرج فيمن وثق به من رجاله ، وحمل على العدوّ فقتل الملك ، وكان الفتح ، وبمثل هذا قهر إلب أرسلان ملكُ الترك ، ملك الروم وقمعَه ، وقتل رجاله ، وأباد جمعه ، وكانت الروم قد جمعت جيوشًا يقلّ أن يجمع لغيرهم من بعدهم مثلها ، وكان قد بلغ عددهم ستمائة ألف مقاتل ، كتائب متواصلة ، وعساكر مترادفة ، وكراديس[1] يتلو بعضها بعضًا لا يدركهم الطرف ، ولا يحصيهم العدد ، وقد استعدوا من الكراع[2] ، والسلاح والمجانيق والآلات المعدة للحروب ، وفتح الحصون بما لا يحصى ، وكانوا قد قسموا بلاد المسلمين الشام والعراق ومصر وخراسان وديار بكر ، ولم يشكوا أن الدولة قد دارت لهم ، وأن نجوم السعود قد خدمتهم ، ثم استقبلوا بلاد المسلمين ، فتواترت أخبارهم ، إلى بلاد المسلمين ، واضطربت لها ممالك أهل الإسلام ، فاحتشد للقائهم الملك إلب أرسلان ، وهو الذى يسمى الملك العادل ، وجمع جموعه بمدينة أصبهان ، واستعد بما قدر عليه ، ثم خرج يؤمهم ، فلم يزل العسكران يتدانيان إلى أن عادت طلائع المسلمين إلى المسلمين ، وقالوا لإلب أرسلان : غدا يتراءى الجمعان ، فبات المسلمون ليلة الجمعة ، والروم فى عدد لا يحصيهم إلا الله الذى خلقهم ، وما المسلمون فيهم إلا أكلة جائع ، فبقى المسلمون وجلين لما دهمهم ، فلما أصبحوا صباح

---

(١) الكراديس: جمع كردوس القطعة من الجيش.

(٢) الكُراع: الخيل.

يوم الجمعة نظر بعضهم إلى بعض ، فهال المسلمين ما رأوا من كثرة العدوّ ، فأمر إلب أرسلان أن يعدّ المسلمون ، فبلغوا اثنى عشر ألفا ، فكانوا كالشامة البيضاء فى الثور الأسود ، فجمع ذوى الرأى من أهل الحرب والتدبير ، والشفقة على المسلمين ، والنظر فى العواقب ، واستشارهم فى استخلاص أصوب الرأى ، فتشاوروا برهة ، ثم اجتمع رأيهم على اللقاء ، فتوادع القوم ، وتحاللوا ، وناصحوا الإسلام ، وأهله وتأهبوا أهبة اللقاء ، وقالوا لإلب أرسلان : باسم الله نحمل عليهم ، فقال إلب أرسلان : يا معشر أهل الإسلام ، أمهلوا فإن هذا يوم الجمعة ، والمسلمون يخطبون على المنابر ، ويدعون لنا فى شرق البلاد وغربها ، فإذا زالت الشمس وعلمنا أن المسلمين قد صلوا ، ودعوا الله أن ينصر دينه ، حملنا عليهم إذ ذاك ، وكان إلب أرسلان قد عرف خيمة ملك الروم ، وعلامته وزيه ، وزينته ، وفرسه ، ثم قال لرجاله : لا يتخلف أحد منكم أن يفعل كفعلى ، ويتبع أثرى ، ويضرب بسيفه ، ويرمى بسهمه ، حيث أضرب بسيفى ، وأرمى بسهمى ، ثم حمل برجاله حملة رجل واحد إلى خيمة ملك الروم فقتلوا من كان دونها وجعلوا ينادون الروم ، قتل الملك ، قتل الملك ، فسمعت الروم أن ملكهم قد قتل ، فتبدّدوا ، وتمزقوا كل ممزق ، وعمل السيف فيهم أياما ، وأخذ المسلمون أموالهم ، وغنائمهم ، وأتوا بالملك أسيرا بين يدى إلب أرسلان ، والحبل فى عنقه ، فقال له إلب أرسلان : ماذا كنت تصنع بى لو أسرتنى ؟ قال : وهل تشك أننى كنت أقتلك ؟ فقال له : إلب أرسلان أنت أقل فى عينى من أن أقتلك ؟ اذهبوا به فبيعوه لمن يزيد فيه ، فكان يقاد والحبل فى عنقه ، وينادى عليه ، من يشترى ملك الروم ؟ وما زالوا كذلك ، يطوفون به على الخيام ، ومنازل المسلمين ، وينادون عليه بالدراهم ، والفلوس ، فلم يدفع فيه أحد شيئا ، حتى باعوه من إنسان بكلب فأخذه الذى ينادى عليه ، وأخذ الكلب ، وأتى بهما إلى إلب أرسلان ، وقال : قد طفت به جميع العسكر ، وناديت عليه فلم يبذل أحد فيه شيئا سوى رجل واحد دفع فيه هذا الكلب ، فقال : قد أنصفك إن الكلب خير منه ، ثم أمر إلب أرسلان بعد ذلك بإطلاقه ، وذهب إلى القسطنطينية ، فعزلته الروم ، وكحلوه بالنار . فانظر ماذا يأتى على الملوك إذا عرفوا فى الحرب من الحيلة والمكيدة ! اللهم انصر جيوش المسلمين ، وعساكر الموحدين ، وأهلك الكفرة والمشركين ، وانصر المسلمين نصرا عزيزا برحمتك ، يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . والحمد لله رب العالمين .

الباب الحادى والأربعون

فى ذكر أسماء الشجعان ، وذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم ، وذكر الجبناء وأخبارهم ، وذم الجبن

❁ الطبقة الأولى الذين أدركوا الجاهلية والإسلام :

[١] : حمزة بن عبد المطلب ﷺ عم رسول الله ﷺ، أسد الله ، وأسد رسوله ، قتل فى غزوة أُحد ، رماه وحشىّ ، مولى جُبير بن مطعم ، بحربة فقتله . وكان فارس قريش غير مدافع ، وبطلها غير ممانع ، وعظم قتله على النبى ﷺ، ونذر أن يقتل به سبعين رجلا من قريش ، وكبر عليه فى الصلاة [١] سبعين تكبيرة .

[٢] : أمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ ومثبت قواعد الإسلام ومرسيها ، وهو المتقدم على ذوى الشجاعة كلهم بلا مرية ولا خلاف ، روى عنه ﷺ أنه قال : والذى نفسى ابن أبى طالب بيده لألف ضربة بالسيف ، أهون علىّ من موته من على فراش ! وقال بعض العرب : ما لقينا كتيبة فيها على بن أبى طالب ﷺ إلا أوصى بعضنا على بعض .

---

(١) وعظم قتله على النبي ﷺ إلخ . الذي في «تاريخ الطبري» أنه قال : «ولئن أنا أظهرني الله على قريش في موطنٍ من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم» ، ثم وجدته بلفظ السبعين رجلاً عند البزار كما في «تفسير ابن كثير» [٢/ ٥٩٢] عن أبي هريرة بسندٍ ضعيف جدًا ، فيه صالح المري ، متروك الحديث .

وقال ﷺ لمعاوية : قد دعوت الناس إلى الحرب فدع الناس جانبا واخرج إلى ليعلم أينا المران على قلبه ، والمغطى على بصره ، وأنا أبو الحسن قاتل جدّك ، وخالك ، وأخيك شدخًا يوم بدر ، وذلك السيف معى ، وبذلك القلب ألقى عدوّى وقيل له ﷺ : إذا جالت الخيل فأين نطلبك ؟ قال : حيث تركتمونى ، وقيل له : كيف كنت تقتل الأبطال ؟ قال : لأنى كنت ألقى الرجل فاقدّر أنى أقتله ، ويقدر هو أنى قتلته ، فأكون أنا ونفسه عونا عليه . وقال مصعب ابن الزبير : كان على ﷺ حذار فى الحروب ، شديد الروغان ، لا يكاد أحد يتمكن منه ، وكانت درعه صدرا لاظهر لها ، فقيل له : أما تخاف أن تؤتى من قبل ظهرك ؟ فقال : إذا مكنت عدوّى من ظهرى فلا أبقى الله عليه إن أبقى علىّ . قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادى - لعنة الله تعالى عليه - غدره ، وهو فى صلاة الصبح ، وسبب ذلك : أن عبد الرحمن بن ملجم - لعنه الله - تزوج بقطام بنت علقمة ، وكانت خارجية ، فقالت له : لا أقنع إلا بصداق أسمّيه : وهو ثلاثة آلاف درهم ، وعبد ، وأمة ، وأن تقتل على بن أبى طالب ، فقال لها : لك ما سألت إلا على بن أبى طالب . وكيف لى به ؟ قالت : تغتاله ، فإن سلمت ، أرحت الناس من شره ، وأقمت مع أهلك ، وإن أصبت دخلت الجنة فقال :

ثلاثةُ آلاف وعبدٌ وقينةٌ ... وضربٌ علىّ بالحُسَام المخذم[1]

فلا مهر أغلى من علىّ وإن علا ... ولا فتك إلا دون فتك ابنِ مُلْجم !

وقيل : إنه طعنه وهو داخل المسجد فى الغلس[2] ، وذلك فى تاسع عشر رمضان المعظم سنة أربعين . كفن ﷺ فى ثلاثة أثواب ، ودفن فى الرحبة مما يلى باب كندة من أبواب المسجد . قالوا : ولما ضربه ابن ملجم - لعنه الله - ثار الحسن ، والحسين ، وعبد الله بن جعفر ﷺ فاحتضنوه ، وقام المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب ، فأخذه ، فأومأ على ﷺ إلى المغيرة أن صَلّ بالناس ، فصلى بهم الفجر ، وأقبلت همدان فدخلوا على علىّ فقالوا : يا أمير المؤمنين ، لا تقوم لهم قائمة إن شاء الله تعالى ، فقال : لا تفعلوا إنما النفس بالنفس . قال : ثم إن الحسن ﷺ، صلى الفجر وصعد المنبر ، فأراد الكلام فخنقته العبرة ، ثم نطق فقال : الحمد لله على ما أحببنا وكرهنا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ، وإنى أحتسب عند الله - عز وجل - مصابى بأفضل الآباء صِهْر رسول الله القائل ﷺ: « **من أُصيب بمصيبة فليتسلّ بمصيبته فى فإنها أعظم المصائب** »[3]. والله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل على عبده الفرقان ، لقد قبض فى هذه الليلة رجل ماسبقه الأوّلون بعد رسول الله ﷺ، ولا يدركه الآخرون فعند الله نحتسب ما دخل علينا ، وعلى جميع أمة محمد ﷺ، فوالله لا أقول اليوم إلا حقا ، لقد دخلت مصيبته اليوم ، على جميع العباد والبلاد والشجر والدواب ، ولقد قبض فى الليلة التى رفع فيها عيسى بن مريم عليهما السلام إلى السماء ، وقُبض فيها موسى بن عمران ، ويوشع بن نون ، ﷺ وأُنزل فيها القرآن على محمد ﷺ، ولقد كان رسول الله ﷺ يبعثه فى السرية ، ويسير جبريل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، فما يرجع حتى يفتح الله - عز وجل - على يديه ، وما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم ، أراد أن يبتاع بها خادما لأهله . ألا إن أمور الله تعالى تجرى على أحوالها ، فما أحسنها من الله وأسوأها من أنفسكم ، ألا إن قريشًا أعطت أزمتها[4] شياطينها ، فقادتها بأعنتها إلى النار ، فمنهم من قاتل رسول الله ﷺ، حتى أظهره الله تعالى عليه ، ومنهم من أسرّ الضغينة حتى وجد على النفاق أعوانا ، رفع الكتاب ، وجف القلم . وأمور تقضى فى كتاب قد خلا . ثم أطرق الحسن ، فبكى الناس بكاء شديدًا ، ثم نزل فجرد سيفه ، ودعا بابن ملجم ، فأقبل يخطر واضعا شعره على أذنيه ، حتى قام بين يديه فقال : يا حسن ، إنى ما عاهدت الله تعالى على عهد قط إلا وفيت به ، عاهدت الله تعالى على أن أقتل أباك ، وقد قتلته فإن تُخَلِنى أقتل معاوية ، فإن أنا قتلته أضع يدى على يدك ، وإن أُقْتَل فهو الذى تريد ! فقال الحسن : ﷺ أما والله لا سبيل إلى بقائك ثم قام إليه فضربه بالسيف فاتقاه ابن ملجم بيده ، ثم أسرع السيف فيه فقتله .

---

(١) المِخْذم: السيف القاطع، والجمع مخازم.

(٢) الغَلَس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.

(٣) ذكره ابن السني في عمل اليوم والليلة، وأبو نعيم عن بريدة بنحوه. كما جاء في جمع الجوامع [٢٠٨٧-٢٠٤٥٩] بلفظ: «فليذكر مصيبته بي» والطبقات الكبرى لابن سعد.

(٤) الأزِمّة: جمع زمام، يُقال: هو زمام قومه: قائدهم وصاحبُ أمرهم.

[٣] ومن الأبطال خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومى ﷺ سيف الله ، وسيف رسوله ، ﷺ ، بطل مذكور ، وفارس مشهور ، فى الجاهلية والإسلام ، قتل مالك نويرة ، وقتل مسيلمة الكذاب - لعنه الله -، وكان الفتح لخالد يوم اليمامة ، وهو الذى فتح دمشق ، وأكثر بلاد الشام ، وله وقائع عظيمة فى الروم ، أيد الله بها الإسلام ، مات على فراشه ، وكان يقول لقد شهدت كذا وكذا زحفا ، وما فى جسدى موضع شبر ، إلا وفيه أثر من طعنة ، أو ضربة أو رمية ، وها أنا أموت على فراشى ، لا نامت عين الجبان ، وكان يُنشد ، ويرتجز ويقول :

لا تُرعبونا بالسيوف المبرقة ... إن السهام بالرَّدَى[١] مُفوَّقه
والحرب دونها العقال مطلقة ... وخالد من دينه على ثقه

[٤] : الزبير بن العوام ﷺ حَوَارِى[٢]، رسول الله ﷺ ، وابن عمته ، بطل شجاع لا يمارى ، وشهم لا يجارى ، قتله عمرو بن جرموز ، اغتاله وهو فى الصلاة .

[٥] : عمرو بن معد يكرب الزبيدى فارس من فرسان الجاهلية ، وله مواقف مذكورة ، ومواطن مشهورة ، وأسلم ثم ارتد ، ثم عاد إلى الإسلام ، وشهد حروب الفرس ، وكان له فيها أفعال عظيمة ، وأحوال جسيمة ، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ إذا رآه قال : الحمد للهالذى خلقنا وخلق عمرا . وروى عنه ﷺ أنه سأله يوما فقال له : يا عمرو ، أى السلاح أفضل فى الحرب ؟ قال : فعن أيها تسأل ؟ قال : ما تقول فى السهام ؟ قال : منها ما يخطىء ويصيب . قال : فما تقول فى الرمح ؟ قال : أخوك ، وربما خانك ! قال : فما تقول فى التُّرس ؟ قال : هو الدائر . وعليه تدور الدوائر ! قال : فما تقول فى السيف ؟ قال : ذلك العدة عند الشدة ! وقيل : إنه نزل يوم القادسية على النهر ، فقال لأصحابه : إننى عابر على هذا الجسر ، فإن أسرعتم مقدار جزر الجزور ، وجدتمونى وسيفى بيدى أقاتل به تلقاء وجهى ، وقد عرفنى القوم وأنا قائم بينهم ، وإن أبطأتم وجدتمونى قتيلا بينهم ، ثم انغمس فحمل على القوم ، فقال بعضهم لبعض : يا بنى زبيد ، علام تدعون صاحبكم ؟ والله ما نظن أنكم تدركونه حيا ، فحملوا فانتهوا إليه ، وقد صرع عن فرسه . وقد أخذ برجل فرس رجل من العجم ، فأمسكها والفارس يضرب فرسه ، فلم تقدر أن تتحرك ، فلما رآنا أدركناه رمى الرجل نفسه ، وخلى فرسه ، فركبه عمرو ، وقال : أنا أبو ثور ، كدتم والله تفقدوننى ، فقالوا : أين فرسك ؟ فقال : رمى بنشابة ، فغار ، وشب فصرعنى ويُروى أنه حمل[٣] حمل يوم القادسية على رستم وهو الذى كان قدّمه يزدجرد ملك الفرس يوم القادسية على قتال المسلمين ، فاستقبله عمرو ، وكان رستم على فيل ، فضرب عمرو الفيل ، فقطع عرقوبه ، فسقط رستم ، وسقط الفيل عليه مع خرج كان فيه أربعون ألف دينار ، فقتل رستم ، وانهزمت العجم ، وقتل عمرو بنهاوند فى وقعة الفرس ، بعد أن عمر حتى ضعف ، وكان من الشعراء المعدودين ، وفيه يقول العباس بن مرداس :

إذا مات عمرو قلت للخيل : أوطئ ... زبيدًا فقد أودى بنجدتها عمرو

[٦] طلحة الأسدى ﷺ كان من أكبر الشجعان جاهلية وإسلاما ، ثم ارتد وتنبأ ، وجمع جمعا عظيما ، ففل[٤] خالد ابن الوليد جمعه ، وكان يتكهن ، ثم عاد إلى الإسلام ، وشهد حرب القادسية ، وغيرها من الفتوح .

[٧] المقداد بن الأسود ﷺ كان من أشجع الفرسان ، شديد البأس ، قوى الجنان ، رابط الجاش ، وله فى الشجعان اسم مشهور ، ووصف مذكور ، يعجز الواصف عن وصف صفاته ﷺ وأرضاه .

[٨] سعد بن أبى وقاص الزهرى الأنصارى ﷺ كان فارسا بطلا راميا ، وهو أوّل من رمى فى سبيل الله بسهم ولما قتل عثمان بن عفان ﷺ اعتزل ولم يشهد الحرب بعده ، ومات حتف أنفه .

[٩] أبو دجانة الأنصارى ﷺ الذى خرج يتبختر بين الصفين ، فقال : ﷺ إنها لمشية يبغضها الله تعالى إلا فى هذا الموضع[٥] .

---

(١) الرَّدى : الهلاك والزيادة .
(٢) الحواري : الصاحب .
(٣) حَمَل : هجم وكر .
(٤) فَلّ : يقال فلّ السيف ، أي ثلمه وكسره في حدّه .
(٥) إنها لمشية . . إلخ . أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» [٣/ ٢٣٤] .

[١٠] المثنى بن حارثة الشيبانى ﷺ هو أول من فتح حرب الفرس .

[١١] أبو عبيد بن مسعود الثقفى ﷺ قاتل القوم يوم قس الناطف فى حرب القادسية .

[١٢] عمار بن ياسر ﷺ صاحب رسول الله ﷺ الذى قال فيه رسول الله ﷺ: « **الحق يدور مع عمار حيث دار** »[(١)]، وأخبر أنه تقتله الفئة الباغية[(٢)]، فقتل بصفين مع على ﷺ.

[١٣] هاشم بن عتبة ﷺ من أكابر الشجعان ، صاحب راية على ﷺ بصفين .

[١٤] مالك بن الحارث النخعى الأشتر ﷺ مات مسموما فى شربة من عسل ، فقال معاوية : إن لله جنودا منها العسل .

[١٥] القعقاع بن عمرو طاعن الفيل فى عشيّة القادسية ﷺ

❁ **[الطبقة الثانية] :**

[١] عبد الله بن الزبير بن العوام ﷺ قاتل جرجير ملك إفريقية الذى كان يرى أنه أشجع أهل عصره . قال عمر بن عبد العزيز لابن أبى مليكة : صف لى عبد الله ابن الزبير فقال : والله ما رأيت جِلْدًا قط ركّب على لحم ، ولا لحما على عصب ، ولا عصبا على عظم ، مثل جلده ، ولحمه وعصبه ، ولا رأيت نفسا بين جنبين ، مثل نفس ركبت بين جنبيه ، ولقد قام يومًا إلى الصلاة فمر حجر من حجارة المنجنيق بين لحييه وصدره ، فوالله ما خشع له بصره ولا قطع له قراءته ، ولا ركع دون الركوع الذى كان يركع ، قتله الحجاج بعد أن حوصر بمكة ، وأسلمه أصحابه وعشيرته ، وصلبه الحجاج ، ألا إلى الله تصير الأمور .

[٢] أبو هاشم محمد بن على بن أبى طالب ابن الحنفية ﷺ كان أبوه يلقيه فى الوقائع ، ويتقى به العظائم ، وهو شديد البأس ، ثابت الجنان قيل له يوما : ما بال أمير المؤمنين على ﷺ يُقحمك الحروب ، دون الحسن والحسين ﷺ؟ فقال : لأنهما كانا عينيه ، وكنت أنا يديه ، فكان يتقى عينيه بيديه ، وقيل : إن أباه عليا ﷺ اشترى درعا فاستطالها ، فأراد أن يقطع منها ، فقال له محمد : يا أبتِ عَلّم موضع القطع ، فعلم على موضع منها ، فقبض محمد بيده اليمنى على ذيلها ، وبالأخرى على موضع العلامة ، ثم جذبها فقطعها من الموضع الذى حده أبوه ! وكان عبد الله بن الزبير مع تقدمه فى الشجاعة يحسده على قوته ، وإذا حدث بهذا الحديث غضب . مات حتف أنفه بشِعْب رَضْوى .

[٣] عبد الله بن حازم السلمى ﷺ والى خراسان : شجيع مضر وفارسها ، فى عصره . قتله وكيع بن أبى سويد بخراسان فى الفتنة .

[٤] وكيع ابن أبى سويد قاتل عبد الله بن حازم المتقدم ذكره شجاع فاتك أهوج ، والى خراسان قيل : لما قتل عبد الله بن حازم ، ولم يتم أمره لهوجه ، مات حتف أنفه .

[٥] مصعب بن الزبير بن العوّام شجاع بطل جواد جاد بماله وبنفسه ، قتله عبيد الله ابن زياد فى الحروب التى كانت بينه وبين عبد الملك بن مروان .

[٦] عمير بن الحباب السلمى فارس الإسلام قتله بنو تغلب فى الحرب التى كانت بينهم وبين قيس .

[٧] مسلمة بن عبد الملك بن مروان فحل بنى أمية ، وفارسها ، ووالى حروبها . قيل : إنه جلس يوما ليقضى بين الناس بمصر ، فكلمته امرأة فلم يُقبل عليها ، فقالت : ما رأيت أقل حياء من هذا قط ! فكشف عن ساقه فإذا فيها أثر تسع طعنات ، فقال لها : هل ترين أثر هذا الطعن ؟! والله لو أخرت رجلى قيد شبر ما أصابتنى واحدة منهن ، وما منعنى من تأخيرها إلا الحياء ، وأنت تنحلينى قلته .

[٨] المعتصم بطل شجاع فارس صنديد ، لم يكن فى بنى العباس أشجع منه ، ولا أشد قلبا . قال ابن أبى دواد :

---

(١) الحَقُّ يدور مع عمار . . إلخ . انظر: «كنز العمال» للهندي [٣٣٥٢٦، ٣٧٤١٤].

(٢) وأخبر أنه تقتله . . إلخ . قال ابن حجر في الإصابة: وتواترت الأخبار عن النبي ﷺ أن عمارًا تقتله الفئة الباغية.

كان المعتصم يقول لى : يا أبا عبد الله ، عض على ساعدى ، بأكثر قوّتك ، فأقول : والله يا أمير المؤمنين ، ما تطيب نفسى بذلك . فيقول : إنه لا يضرنى ، فأروم ذلك فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة ، فكيف تعمل فيه الأسنان . ويقال : إنه طعنه بعض الخوارج ، وعليه درع ، فأقام المعتصم ظهره ، فقصم الرمح نصفين ، وكان يشد يده على كتابة الدينار فيمحوها ، ويأخذ عمود الحديد فيلويه حتى يصير طوقا فى العنق .

[٩] إبراهيم بن الأشتر النخعى كان من الشجعان المعدودين ، حارب عبيد الله بن زياد وهو فى أربعة آلاف ، وعبيد الله فى سبعين ألفا ، فظفر به وقتله بيده ، وهزم جيشه .

[١٠] عبد الله بن الحر الجعفى شجاع شاعر فاتك ، له وقائع عظيمة هائلة ، وأخبار فى الشجاعة مشهورة .

[١١] جحدر بن ربيعة العكلى ، كان بطلا شجاعًا فاتكًا مغيرًا شاعرًا قهر أهل اليمامة وأبادهم فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف ، فكتب إلى عامله يوبخه بتغلب جحدر عليه ، ويأمره بالتجرد له حتى يقتله ، أو يحمله إليه أسيرا ، فوجه العامل إليه فتية من بنى حنظلة ، وجعل لهم جُعلا عظيما إن هم قتلوا جحدرا أو أتوا به أسيرا ، فتوجه الفتية فى طلبه ، حتى إذا كانوا قريبا منه ، أرسلوا يقولون له : إنهم يريدون الانقطاع إليه ، والارتفاق به ، فوثق بذلك منهم ، وسكن إلى قولهم ، فبينما هو معهم يوما إذ وثبوا عليه ، فشدوه وثاقا ، وقدموا به على العامل ، فوجه به إلى الحجاج معهم ، فلما قدموا به عليه ، ومثل بين يديه ، قال له : أنت جحدر ؟ قال : نعم أصلح الله الأمير . قال : ما جرأك على ما بلغنى عنك ؟! قال : - أصلح الله الأمير - كلب الزمان ، وجفوة السلطان ، وجراءة الجبان ، قال : وما بلغ من أمرك ؟ قال : لو ابتلانى الأمير وجعلنى مع الفرسان لرأى منى ما يعجبه . قال : فتعجب الحجاج من ثبات عقله ومنطقه . ثم قال : يا جحدر ، إنى قاذف بك فى حاجر فيه أسد عظيم ، فإن قتلك كفانا مؤنتك ، وإن قتلته عفونا عنك . قال : أصلح الله الأمير قَرُبَ الفرج إن شاء الله تعالى ، فأمر به فصفدوه بالحديد ثم كتب إلى عامله أن يرتاد له أسدا ، ويحمله إليه فتحيل العامل ، وارتاد له أسدا ، كان كاسرا خبيثا قد أفنى عامة المواشى ، فتحيلوا حتى أخذوه ، وصيروه فى تابوت ، وسحبوه على عجل ، فلما قدموا به على الحجاج أمر به فألقى فى الحاجر ، ولم يطعم شيئًا ثلاثة أيام ، حتى جاع واستكلب ، ثم أمر بجحدر أن ينزلوه إليه ، فأعطوه سيفا ، وأنزلوه إليه مقيدًا ، وأشرف الحجاج ، والناس حوله ، ينظرون إلى الأسد ما هو صانع بجحدر ، فلما نظر الأسد إلى جحدر نهض ووثب ، وتمطى وزعق زعقة دويت منها الجبال ، وارتاعت أهل الأرض فشد عليه جحدر ، وهو ينشد ويقول :

لـيـث ولـيـث فـى مـجـال ضـنـك كـلاهـمـا ذو قـوة وسـفـك

وصـولـة وبـطـشـة وفـتـك

إن يـكـشـف الـلـه قـنـاع الـشـك فـأنـت لـى فـى قـبـضـتـى ومـلـكـى !

ثم دنا منه ، وضربه بسيفه ، ففلق هامته ، فكبر الناس ، وأعجب الحجاج ذلك . وقال : لله درك ما أنجبك ! ثم أمر به فأخرج من الحاجر ، وفك عنه قيوده . وقال له : اختر إمّا أن تقيم معنا ، فنكرمك ، ونقرب منزلتك ، وإما أن نأذن لك فتلحق ببلادك وأهلك ، على أن تضمن لنا أن لا تُحْدِثَ بها حدَثًا ولا تؤذى بها أحدًا . قال : بل أختار صحبتك أيها الأمير فجعله من سماره وخواصه ، ثم لم يلبث أن ولاه على اليمامة ، وكان من أمره ما كان .

[١٢] المهلب بن أبى صفرة كان من الشجعان ، ومن الأبطال المعدودة ، وأولاده كلهم أنجاد أبطال ، إلا أن المغيرة من بينهم ، كان أشد تمكنا ، وكان المهلب يقول : ما شهد معى حربًا إلا رأيت البشرى فى وجهه ، وحمل عليه بعض الشجعان-وفى يده شجرة فلما رآها نكس رأسه على قربوس السرج ، وحمل من تحتها ، فبراها بسيفه ، وكان المهلب يقول : أشجع الناس ثلاثة ابن الكلبية ، وأحمر قريش ، وراكب البغلة ، فابن الكلبية : مصعب بن الزبير ، وأحمر قريش : عمر بن عبيد الله بن معمر ، ما لقى خيلا قط إلا فرقها وراكب البغلة : عباد بن الحصين ، ما كان قط فى كربة إلا فرجها ، وهو من فرسان الإسلام . وكان للمهلب فى الحروب مكايد مشهورة ووقائعه أبادت الخوارج ، بعد أن كانوا قد استولوا على المسلمين ، وكان سيدًا كريمًا ، مات حتف أنفه ، وكذلك ابنة المغيرة وفيه يقول زياد الأعجم :

مات المغيرة بعد طول تعرض للقتل بين أسنة وصفائح

وكان في الخوارج فوارس مشهورة لا تثبت لهم الرجال وذكرهم يطول ، ويخرج عما أردناه .

[١٣] أبو بلال مرداس خرج في أربعين فهزم ألفين .

[١٤] وشبيب الخارجي الذي غرق في الفرات نذرت امرأته « غزالة » أن تصلي في جامع الكوفة ركعتين تقرأ في الأولى البقرة ، وفي الثانية آل عمران ، فعبر بها جسر الفرات وأدخلها الجامع ، ووقف على بابه يحميها حتى وفت بنذرتها والحجاج في الكوفة في خمسين ألفًا .

[١٥] ومنهم قطري بن الفُجاءة كان رأس الخوارج وخاطبوه بأمير المؤمنين ، وعظموه وبجلوه ، وأشعاره في الشجاعة تدل على مكانه منها ، قتل في بعض وقائع الخوارج .

❁ [الطبقة الثالثة] :

[١] معن بن زائدة الشيباني ، قتله الخوارج بسجستان في أيام المهدي .

[٢] الوليد بن طريف الشيباني قتله يزيد بن مزيد .

[٣] عمرو بن حنيف كان من الفرسان المعدودة ، نقل عنه أنه كان يتصيد فتتبع حمار وحش ، وما زال يركض إلى أن حاذاه ، فجمع رجليه ووثب من على فرسه ، وصار على ظهر حمار الوحش ، وصار يحز عنقه بسيف أو سكين ، في يده حتى قتله .

[٤] أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي فارس بطل شاعر نديم ، جامع لما تفرق في غيره ، طعن فارسين رديفين فأنفذ الرمح من ظهريهما ، وحمل برمحه أربعة نفر ، وفيه يقول بكر بن النطاح :

قالوا : وينظم فارسين بطعنةٍ يوم اللقاء ولا يراه جليلا
لا تعجبوا لو كان مدّ قناته ميلا إذا نظم الفوارس ميلا

وسأله يوما رجل شيئًا ، فقال له : أتسأل وجدك القائل :

ومن يفتقر منا يَعِشْ بحُسامِهِ[1] ومن يفتقر من سائر الناس يسأل
وإنا لنلهو بالسيوف كما لهت فتاة بعقد أو سِخابٍ[2] قرنفل

فخرج الرجل ، فجرد سيفه ، فلم يصادفه في طريقه ، إلا وكيل لأبي دلف ، ومعه مال جزيل ، فاستلبه منه ، وقتله ، فبلغ الخبر أبا دلف ، فقال : دعوه فإني علمته على نفسي :

[٥] : بكر بن النطاح بطل شجاع فارس فاتك له أشعار مشهورة وأخبار مذكورة :

(ومما جاء في مدح السيف) : قال رسول الله ﷺ « الخير في السيف ، والخير مع السيف ، والخير بالسيف »[3] . وكان صمصام عمرو أشهر سيوف العرب ، وممن تمثل به نهشل فقال .

أخ ماجد ما خانني يوم مشهد كما سيف عمرو لم تخنه مضاربه

ولما وهبه عمرو لخالد بن سعيد بن العاص ، عامل رسول الله ﷺ على اليمن قال :

خليلي لم أخُنْه ولم يَخُنّي إذا ما صاب أوساط العظام
خليلي لم أهبه من قلاه ولكن المواهب للكرام
حبوت به كريما من قريش فسر به وصين عن اللئام

---

(١) الحسام: السيف.

(٢) السِّخاب: القلادة تُتخذ من قَرنفُل وسكّ ومَخلب، ليس فيها من اللؤلؤ والجوهر شيء، والجمع سُخُب.

(٣) الخير في السيف . . إلخ . لم أقف عليه . هذا وقد روى الحاكم: «الجنة تحت ظلال السيوف» كما ذكره العجلوني برقم [١٠٨٢].

وودعت الصفى صفى نفسى ... على الصمصام[١] أضعاف السلام

ولم يزل فى آل سعيد حتى اشتراه خالد بن عبد الله القسرى ، بمال جزيل لهشام ، وكان قد كتب إليه فيه ، فلم يزل عند بنى مروان ، ثم طلبه السفاح والمنصور والمهدى ، فلم يجدوه فجد الهادى فى طلبه حتى ظفر به ، وكان مكتوبا عليه هذا البيت :

ذكر على ذكر يصول بصارم[٢] ... ذكر يمان فى يمين يمانى

وقال ابن الرومى :

لم أر شيئًا حاضرًا نفعُه ... للمرء كالدرهم والسيف
يقضى له الدرهم حاجاته ... والسيف يحميه من الحيف[٣]

وقال زيد بن على رضي الله عنه:

السيف يعرف عزمى عند هزته ... والرمح بى خير والله لى وَزَر[٤]
إنا لنأمل ما كانت أوائلنا ... من قبل تأمله إن ساعد القدر

وقال عبد الله بن طاهر :

يبيت ضجيعى السيف طورا وتارة ... تعض بهامات الرجال مضاربه
أخو ثقة أرضاه فى الروع صاحبا ... وفوق رضاه أننى أنا صاحبه
وليس أخو العلياء إلا فتى له ... بها كلف ما تستقر ركائبه

وقدم عروة بن الزبير على عبد الملك بن مروان ، بعد قتل أخيه عبد الله فطلب منه سيف الزبير وقال له : رده على فإنه السيف الذى أعطاه رسول الله ﷺ له يوم حنين ، فقال له عبد الملك : أو تعرفه ؟ قال : نعم . قال : بماذا ؟ قال : أعرفه بما لا تعرف به سيف أبيك : أعرفه بقول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وقال الأجدع الهمدانى :

لقد علِمَتْ نِسْوانُ همدان أننى ... لهن غَداة الرَّوْع[٥] غير خَذُول
وأبذل فى الهَيْجَاء[٦] وجهى وإننى ... له فى سوى الهيجاء غيرَ بذُول

وقال آخر :

عشرون ألف فتى مامنهم أحد ... إلا كألف فتى مقدامة بطل
راحت مزاودهم[٧] مملوءة أملا ... ففرغوها وأوكوها من الأجل

(ومن أخبار الشجعان ما حكاه الفضل بن يزيد) : قال : نزل علينا بنو ثعلب فى بعض السنين ، وكنت مشغوفًا بأخبار العرب أن أسمعها وأجمعها ، فبينما أنا أدور فى بعض أحيائهم إذا أنا بامرأة واقفة فى فناء خبائها ، وهى آخذة بيد غلام قَلَّمَا رأيت مثله فى حسنه وجماله ، له ذؤابتان كالسبج المنظوم[٨]، وهو تعاتبه بلسان رطب ، وكلام عذب تحن

---

(١) الصَّمْصام: السيف الصارم لا يثني.
(٢) صارم: سيف قاطع.
(٣) أي الجوْر والظلم.
(٤) وزر: بفتح الواو والزاي، أي الملجأ والمعتصم.
(٥) الرَّوْع: الحرب.
(٦) الهَيْجاء: الحرب.
(٧) مزاودهم: المزاود جمع مِزْود، وهو وعاء الزاد.
(٨) السبج: خرز أسود، والذؤابة: شعر مقدم الرأس وطرف العمامة، وأعلى كل شيء: والمنظوم: كأنه عقد من خرز.

إليه الأسماع ، وترتاح له القلوب ، وأكثر ما أسمع منها ، أنىّ بُنى ، وهو يبتسم فى وجهها ، قد غلب عليه الحياء والخجل ، كأنه جارية بكر لا يرد جوابا ، فاستحسنت ما رأيت ، واستحليت ما سمعت ، فدنوت منه ، وسلمت ، فردّ على السلام ، فوقفت أنظر إليهما فقالت : يا حَضَرىّ ما حاجتك ؟ فقلت : الاستكثار مما أسمع ، والاستمتاع بما أرى من هذا الغلام ، فقالت : ياحضَرى ، إن شئتَ سقت إليك من خبره ما هو أحسن من منظره فقلت : قد شئت - يرحمك الله - فقالت : حملته والرزق عسر ، والعيش نكد حملا خفيفا ، حتى مضت له تسعة أشهر ، وشاء الله - عز وجل - أن أضعه ، فوضعته خلقا سويا ، فوربك ما هو إلا أن صار ثالث أبويه ، حتى أفضل الله - عز وجل - وأعطى وأتى من الرزق بما كفى ، وأغنى ، ثم أرضعته حولين كاملين ، فلما استتم الرضاع نقلته من خِرَق المهد ، إلى فراش أبيه ، فربى كأنه شبل أسد أقيه برد الشتاء ، وحر الهجير[١] ، حتى إذا مضت له خمس سنين أسلمته إلى المؤدب ، فحفظه القرآن ، فتلاه ، وعلمه الشعر ، فرواه ، ورغب فى مفاخر قومه وآبائه وأجداده ، فلما أن بلغ الحلم واشتد عظمه ، وكمل خلقه حملته على عتاق[٢] ، الخليل ، فتفرس ، وتمرّس ، ولبس السلاح ، ومشى بين بويتات الحى الخيلاء ، فأخذ فى قرى الضيف ، وإطعام الطعام ، وأنا عليه وَجِلة[٣] ، أشفق عليه من العيون أن تصيبه ، فاتفق أن نزلنا بمنهل من المناهل بين أحياء العرب ، فخرج فتيان الحى فى طلب ثأر لهم ، وشاء الله تعالى أن أصابته وعكة شغلته عن الخروج ، حتى إذا أمعن القوم ولم يبق فى الحى غيره ، ونحن آمنون وادعون ما هو إلا أن أدبر الليل ، وأسفر الصباح ، حتى طلعت علينا غرر الجياد ، وطلائع العدوّ فما هو إلا هنيهة حتى أحرزوا الأموال دون أهلها ، وهو يسألنى عن الصوت ، وأنا أستر عنه الخبر إشفاقًا عليه ، وضنًا به ، حتى إذا علت الأصوات وبرزت المخدّرات رمى دثاره ، وثار كما يثور الأسد ، وأمر بإسراج فرسه ، ولبس لأَمَة حربه[٤] ، وأخذ رمحه بيده ، ولحق حماة القوم ، فطعن أدناهم منه ، فرمى به ولحق أبعدهم منه ، فقتله فانصرفت وجوه الفرسان ، فرأوه صبيا صغيرًا لا مرد وراءه ، فحملوا عليه فأقبل يؤم البيوت ، ونحن ندعو الله - عز وجل - له بالسلامة ، حتى إذا مدهم وراءه ، وامتدوا فى أثره ، عطف عليهم ففرق شملهم ، وشتت جمعهم ، وقلل كثرتهم ، ومزقهم كل ممزق ، ومرق كما يمرق السهم ، وناداهم : خلوا عن المالَ فوالله لا رجَعْتُ إلا به ، أو لأهلكن دونه ، فانصرفت إليه الأقران ، وتمايلت نحوه الفرسان ، وتميزت له الفتيان ، وحملوا عليه ، وقد رفعوا إليه الأسنة ، وعطفوا[٥] عليه بالأعنة فوثب عليهم ، وهو يهدر كما يهدر الفحل من وراء الإبل ، وجعل لا يحمل على ناحية إلا حطمها ، ولا كتيبة إلا مزقها ، حتى لم يبق من القوم إلا من نجابه فرسه ، ثم ساق المال ، وأقبل به ، فكبر القوم عند رؤيته ، وفرح الناس بسلامته ، فوالله ما رأينا قط يوما كان أسمح صباحا ، وأحسن رواحا ، من ذلك اليوم ولقد سمعته يقول فى وجوه فتيات الحى هذه الأبيات :

تأملْن فعلى هل رأيتُنّ مثلَه ... إذا حشرجت نفسُ الجبانِ من الكَرْبِ
وضاقت عليه الأرض حتى كأنه ... من الخوف مسلوبُ العزيمةِ والقلب
ألم أُغط كلّا حقّهُ ونصيبه ... من السمهرى اللّدْنِ والمرهف[٦] العضب؟!
أنا ابنُ أبى هند بن قيس بن مالك ... سليلُ المَعالى والمكَارمِ والسَّيْب[٧] !
أبَى لى أن أعطى الظلامة مرهف ... وطرف قوى الظهر والجوف والجنب
وعزم صحيح لو ضربت بحده الجبالَ ... الرواسى لا نحططن إلى التراب
وعِرض نقّى أتقى أن أعيبَه ... وبيت شريف فى ذرى ثعلب الغلب
فإن لم أقاتل دونكن وأحتمى ... لكن وأحميكن بالطعن والضرب

---

(١) الهَجير: نصف النهار، في القيظ خاصة.
(٢) عتاق الخيل: كرامها، والأصل منها.
(٣) وجلة: خائفة.
(٤) اللأمة: أداة الحرب كلها من رمح، وبيضة، ومغفر وسيف ودرع.
(٥) عطفوا عليه بأعنة الخيل: مالوا وحاصروه واقتربوا منه.
(٦) السمهري: الرمح: الصليب العود، والمرهف العضب: السيف الرقيق القاطع.
(٧) السَّيْب: العطاء، والمعروف، والمعدن.

فلا صدق اللاتي مشين إلى أبي ... يهنينه بالفارس البطل الندب

وقال الشاعر :

آراؤهم ووجوههم وسيوفهم ... في الحادثات إذا دجون نجوم
منها معالم للهدى ومصابح ... تجلو الدُّجى[١] والأخريات رُجُومُ[٢]

وقال آخر :

فوارس قوّالون للخيل : أقدمي ... وليس على غير الرءوس مجال
بأيديهم سمر العوالي كأنما ... تشب على أطرافهم فهن ذُبال[٣]

وقال آخر :

قوم إذا اقتحموا العَجاجَ[٤] رأيتهم ... شُمسًا وخِلْتَ وجوهَهُم أقمارا
لا يعدلون برِفْدِهم[٥] عن سائل ... عدلَ الزمانُ عليهمُ أو جارَا
وإذا الصريخ دعاهم لملمة ... بذلوا النفوس وفارقوا الأعمارَا

(ذكر الجبن والجبناء وأخبارهم وما جاء عنهم) : قد استعاذ سيدنا رسول الله ﷺ من الجبن فقال : « **اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ والْحَزَنِ ، وأَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ والْكَسَلِ ، وأَعُوذُ بكَ مِنَ الْجُبْنِ والْبُخْلِ ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ ، وَقَهْرِ الرِّجَالِ** »[٦] ، نعوذ بالله مما استعاذ منه سيد الخلق رسول الله ﷺ ، ويكفيك أن يقال فى وصف الجبان : إن أحسن بعصفور طار فؤاده ، وإن طَنَّتْ بعوضة طال سُهاده ، يفزع من صرير الباب ، ويقلق من طنين الذباب ، إن نظرت إليه شزرا ، أغمى عليه شهرا ، يحسب خفوق الرياح قعقعة الرماح ، قال الشاعر :

إذا صَوّتَ العُصفورُ طارَ فؤادُه ... وليثٌ حديدُ الناب عند الثرائد[٧]

وكان حسان بن ثابت ﷺ من الجبناء ، روى عن ابن الزبير أنه قال : كان حسان فى قاع أطم مع النساء يوم الخندق ، فأتاهم فى ذلك اليوم يهودى ، يطوف بالحصن ، فقالت صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها يا حسانُ : إن هذا اليهودى ، كما ترى يطوف بالحصن ، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءه من اليهود ، فأنزل إليه فاقتله ، فقال : يغفر الله لك يا بنت - عبد المطلب - لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ، قال : فاعتجرت[٨] صفية ، ثم أخذت عمودًا ، ونزلت من الحصن ، فضربته بالعمود حتى قتلته ، ورجعت إلى الحصن ، فقالت : يا حسان ، قم إليه فاسلبه[٩] ، فأنه ما منعنى من سلبه إلا أنه رجل ، فقال : مالى بسلبه من حاجة .

وقيل : كان لفتى من قريش جارية مليحة الوجه ، حسنة الأدب ، وكان يحبها حبًا شديدًا فأصابته إضاقة وفاقة ، فاحتاج إلى ثمنها ، فحملها إلى العراق ، وكان ذلك فى زمن الحجاج ابن يوسف ، فابتاعها منه الحجاج ، فوقعت منه بمنزلة ، فقدم عليه فتى من ثقيف من أقاربه ، فأنزله قريبًا منه ، وأحسن إليه ، فدخل على الحجاج ، والجارية تكبسه[١٠] ، وكان الفتى جميلاً فجعلت الجارية تسارقه النظر ، ففطن الحجاج بها فوهبها له ، فأخذها وانصرف ، فباتت

---

(١) الدُّجى : سواد اليل وظلمته .
(٢) رُجوم : مفردها رجْم ، والرَّجْم : ما يُرْجم به من حجارة وغيرها ، ويقال : صار فلان رجْمًا ، أي لا يوقف على حقيقته .
(٣) ذُبال : مفردها ذُبَالة ، وهي الفتيلة التي تُسْرج .
(٤) العَجاج : الغبار والدُّخان ، مفردها عجاجة .
(٥) الرِّفْد : العطاء والصلة .
(٦) اللهم إني أعوذ بك إلخ . . ذكره العجلوني في الكشف الجزء الأول [رقم ٥٧٨] وقال رواه مسلم والترمذي وابن ماجه عن ابن مسعود ﷺ .
(٧) الثرائد : جمع ثريدة ، وهي خبز ومرق مع شيء من التوابل .
(٨) اعتجرت : لبست عمامة على رأسها ، وردت طرفها على وجهها كما يفعل الأبطال في الحرب .
(٩) اسلبه : خذ ما معه من آلة الحرب والمال ، ومن قتل قتيلاً في الحرب المشروعة فله سَلَبُه . والقصة في كتب السيرة . انظر البداية والنهاية والطبقات الكبرى .
(١٠) تكبسه : تلين جسده بيديها .

معه ليلتها ، وهربت بغلس[١] ، فأصبح لا يدرى أين هى ؟! وبلغ الحجاج ذلك ، فأمر مناديا أن ينادى : برئت الذمة ممن رأى وصيفة من صفتها كذا وكذا ولم يحضرها ، فلم يلبث أن أتى له بها ، فقال لها الحجاج ، يا عدوّة الله ، كنت عندى من أحب الناس إلى ، فاخترت لك ابن عمى شابا حسن الوجه ، ورأيتك تسارقينه النظر ، فعلمت أنك شُغِفْت به ، فوهبتك له فهربت من ليلتك فقالت : يا سيدى ، اسمع قصتى ، ثم اصنع بى ما شئت ، قال : هاتى ولا تُخفى شيئًا ، قالت : كنت للفتى القرشى ، فاحتاج إلى ثمنى فحملنى إلى الكوفة ، فلما قربنا منها دنا منى فوقع على ، فسمع زئير الأسد فوثب ، واخترط سيفه[٢] ، وحمل عليه وضربه فقتله ، وأتى برأسه ، ثم أقبل على وما برد ما عنده ، ثم قضى حاجته ، وإن ابن عمك هذا الذى اخترته لى لما أظلم الليل ، قام إلىّ فلما علا بطنى ، وقعت فأرة من السقف ، فضرِط ، ثم غُشِىَ عليه ، فمكث زمانا طويلا ، وأنا أرش عليه الماء ، وهو لا يُفيق ، فخفت أن يموت فتتهمنى به ، فهربت فزعًا منك ، فما ملك الحجاج نفسه من شدة الضحك ، وقال : ويحك اكتمى هذا ، ولا تعلمى به أحدًا ، قالت : علىَ أن لا تردنى إليه . قال لك ذلك . وحدث جار لأبى حنيفة النميرىّ قال : كان لأبى حنيفة سيف ليس بينه وبين العصا فرق ، وكان يسميه « لعابَ المنية » ، فأشرفت عليه ذات ليلة وقد انتضاه وهو واقف على باب بيته ، وقد سمع حِسًّا فى داره وهو يقول : أيها المغترّبنا ، المجترىء علينا ، بئس والله ما اخترت لنفسك خير قليل ، وسيف صقيل ، وهو « لعاب المنية » ، الذى سمعت به ؛ اخرج بالعفو عنك قبل أن أدخل بالعقوبة عليك ، ثم فتح الباب على وجل فإذا كلب قد خرج ، فقال : الحمدلله الذى مسخك كلبا وكفانا حربا .

وخرج المعتصم يوما إلى بعض متصيداته ، فظهر له أسد ، فقال لرجل من أصحابه - أعجبه قوامه وسلاحه ، وتمام خلقه -: أفيك خير يا رجل ؟ قال : لا . فضحك المعتصم ، وقال : قَبَّحَ الله الجبان .

ورأى الإسكندر سميا له لا يزال ينهزم ، فقال له : يا رجل ، إما أن تغير فعلك ، وإما أن تغير اسمك .

ووقع فى بعض العساكر ضجة فوثب خراسانى ، إلى دابته ليلجمها فصير اللجام فى الذنب من الدهش ، وقال يخاطب الفرس : هب جبهتك عَرُضَتْ ، فناصيتك كيف طالت ؟! وخرج أسلم بن زرعة الكلابّى فى ألفين لمحاربة أبى بلال مرداس ، وكان مرداس فى أربعين رجلاً ، فانهزم أسلم منه ، فلاموه على ذلك وذمه ابن أبى زياد ، فقال : لأن يذمنى ابن أبى زياد حيا ، أحب إلى من أن يمد حنى ميتًا ، وكان أسلم بعد ذلك إذا خرج إلى السوق ومر بصبيان صاحوا به : أبو بلال وراءك ، فكَبُر ذلك عليه ، فشكاهم إلى ابن أبى زياد ، فأمر صاحب الشرطة أن يكفهم عنه ، وفى ذلك يقول بعضهم :

يقول جبانُ القوم فى حال سُكْره ... وقد شرب الصَهباءَ[٣] هل من مبارز ؟
وأين الخيول الأعوجيات[٤] فى الوغى ... أنازل منهم كل ليث مناهز
ففى السَكْر قيسٌ وابن معدى وعامر ... وفى الصحو تلقاه كبعض العجائز

وهذا ما انتهى إلينا من هذا الباب ، والحمدلله الكريم الوهاب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله واصحابه الطاهرين ، والحمدلله رب العالمين.

---

(١) الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بصبح.

(٢) اخترط سيفه: استله من غمده.

(٣) الصهباء: الخمر.

(٤) الأعوجيات: ضرب من حياء الخيل تنسب إلى «أعوج»: حصان لبني هلاد.

الباب الثانى والأربعون

فى المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة وفيه فصول

الفصل الأول : فى المدح والثناء

المدح : وصف الممدوح بأخلاق يمدح عليها صاحبها ، ويكون نعتًا حميدًا ، وهذا يصح من المولى فى حق عبده فقد قال الله تعالى فى حق نبيه أيوب عليه السلام : ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤] . وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] . وقال تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١-٢] إلى آخر الآيات فعلى هذا يجوز مدح الإنسان بما فيه من الأخلاق الحميدة ، وأما قوله ﷺ: « **إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَادِحِينَ فَاحْثُوا فِى وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ** »[(١)] . فقد قال العتبىّ : هو المدح الباطل ، والكذب ، وأما مدح الرجل بما فيه ، فلا بأس به ، وقد مدح أبو طالب ، والعباس ، وحسان ، وكعب ، وغيرهم رسول الله ﷺ، ولم يبلغنا أنه حثا فى وجه مادح ترابا ، وقد مدح هو ﷺ المهاجرين والأنصار ﷺ، وفى حثو التراب معنيان : أحدهما التغليظ فى الردّ عليه ، والثانى كأنه يقال له : يكفيك التراب ، وكان أبو بكر الصدّيق ﷺ إذا مُدح قال : اللهم أنت أعلم بى من نفسى ، وأنا أعلم بنفسى منهم ، اللهم اجعلنى خيرًا مما يحسبون ، واغفر لى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون ، ومدح سارية الديلى رسول الله ﷺ، وهو سارية الذى أمّره عمر ﷺ على السرية ، وناداه فى خطبته بقوله : يا سارية الجبل[(٢)] ، فمن مدحه فى رسول الله ﷺ قوله :

فما حملت من ناقةٍ فوقَ ظهرها ... أبَرّ وأوفى ذمةً من محمد

وهو أصدق بيت قالته العرب ، ومن أحسن ما مدحه به حسّان ﷺ قوله :

وأحسنُ منك لم ترقطُ عينى ... وأجملُ منك لم تلد النساء
خلقت مبرّأ من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء

ومن أحسن ما مدحه به عبد الله بن رواحة الأنصارى ﷺ قوله :

لو لم تكن فيه آياتٌ مُبَيِّنَةٌ ... كانت بديهته تُنْبيك بالخبر

ولما حججتُ وزرته ﷺ تطفلتُ على جنابه المعظم ، وامتدحته بأبيات مطولة وأنشدتها بين يديه بالحجرة الشريفة تجاه الصندوق الشريف ، وأنا مكشوف الرأس ، وأبكى من جملتها :

يا سيد السادات جئتُك قاصدًا ... أرجو رضاك وأحتمى بحماكا
والله يا خيرَ الخلائق إنّ لى ... قلبًا مشوقًا لا يرومُ سِواكا
وحق جاهك إننى بك مغرم ... والله يعلم أننى أهواكا
أنت الذى لولاك ما خُلق امرؤ ... كلا ولا خلق الورَى لولاكا
أنت الذى مِن نورك البدرُ اكتسَى ... والشمسُ مُشرقةٌ بنورِ بَهَاكا
أنت الذى لما رُفعت إلى السما ... بك قد سمت وتزينت لسُراكا
أنت الذى ناداك ربّك مرحبا ... ولقد دعاك لقُربه وحَباكا

---

(١) إذا رأيتم المادحين . . إلخ . رواه أحمد والطبراني وقال صاحب فتح القدير قال الهيثمي : رجال أحمد والطبراني رجال الصحيح . ورمز له السيوطي بالصحة في جامعه الصغير ورواه البخاري في الأدب .

(٢) كشف الخفاء : [٢/ ٣١٧٢] قال في اللآلئ : وثق رجال الحديث طريقه عن ابن مردويه ، ورواه حرملة في جمعه لحديث ابن وهب وإسناده كما قال ابن حجر - حسن .

أنت الذى فينا سألت شفاعة ... ناداك ربك لم تكن لسواكا
أنت الذى لما توسل آدم ... من ذنبه بك فاز وهو أباكا
وبك الخليلُ دعا فعادتْ نارُه ... بردًا وقد خمدت بنور سناكا
ودعاك أيوب لضُرٍّ مسَّه ... فأزيل عنه الضُّرُّ حين دعاكا
وبك المسيح أتى بشيرا مُخبرًا ... بصفات حُسْنِكَ مادحًا لعُلاكا
وكذاك موسى لم يزل متوسلا ... بك فى القيامة مرتج لنداكا
والأنبياء وكل خلق فى الورَى ... والرُّسْلُ والأملاك تحت لواكا
لك معجزات أعجزت كلّ الورى ... وفضائل جَلّت فليس تُحَاكَى
نطق الذّراع بسُمّه لك مُغلِنًا ... والضبّ قد لَبّاك حين أتاكا
والذئبُ جاءك ، والغزالة قد أتتْ ... بك تستجير وتحتمى بحماكا
وكذا الوحوش أتت إليك وسلمت ... وشكا البعير إليك حين رآكا
ودعوت أشجارًا أتتك مطيعة ... وسعت إليك مجيبة لنداكا
والماء فاض براحَتَيْك وسَبّحت ... صُمُّ الحصى بالفضل فى يُمناكا
وعليك ظَلّلتِ الغمامة فى الورَى ... والجذع حنّ إلى كريم لِقَاكا
وكذاك لا أثرٌ لمشيك فى الثرى ... والصخر قد غاصت به قدماكا
وشَفَيْت ذا العاهات من أمراضِه ... وملأت كلّ الأرض من جَدْوَاكا
ورَدَدْت عينَ قتادةَ بعد العمى ... وابنَ الحصين شَفَيتَه بشِفاكا
وكذا حبيب ، وابن عفرا عندما ... جرحا شَفَيتَهُمَا بلمسِ يَدَاكا
وعلىّ من رمدٍ به داويته ... فى خيبر فشُفى بطيب لِمَاكَا[1]
وسألت ربّك فى ابن جابر بعدما ... قد مات أحياه ، وقد أرضاكا
ومسست شاةَ لأم معبد بعدما ... نشفت فدرّت من شِفَا رُقياكا
ودعوتَ عامَ المَحْلِ ربك مُغلِنًا ... فانهل قطر السحب عند دُعاكا
ودعوتَ كل الخلق فانقادوا إلى ... دعواك طوعًا سامعين نِدَاكا
وخفضتَ دينَ الكفرِ يا علمَ الهدى ... ورفعت دينك فاستقام هُناكا
أعداك عادوا فى القليب بجهلهم ... صَرعى وقد حُرموا الرّضا بجَفَاكا
فى يوم بدْرٍ قد أتتك ملائِكٌ ... من عند ربك قاتَلَت أعداكا
والفتحُ جاءك يوم فتحك مكة ... والنصر فى الأحزاب قد وافاكا
هودٌ ويونسُ مِن بهاك تجمّلا ... وجمالُ يوسفَ من ضِياء سناكا
قد فقت يا طه جميع الأنبيا ... نورًا فسبحانَ الذى سَوّاكا
والله يا ياسينُ مِثلُك لم يكن ... فى العالمين وحقّ من نَبّاكا
عن وصفك الشعراءُ يا مدّثر ... عجزوا وكَلّوا عن صفات عُلاكا
إنجيل عيسى قد أتى بك مخبرا ... وأتى الكتابُ لنا بمدح حُلاكا
ماذا يقول المادحون ؟ وما عسى ؟ ... أن يجمع الكتاب من معناكا
والله لو أن البحار مدادُهم ... والعشبَ أقلامٌ جُعِلْنَ لذاكا

(١) اللِّماك: بتشديد اللام المضمومة وكسرها: الجلاء يُكحل به العين.

لم تَقْدِرِ الثقلانِ تجمع دُرَّهُ ... أبدا وما استطاعوا له إدراكا
لى فيك قلب مغرم يا سيدى ... وحُشاشةٌ محشوّة بهواكا
فإذا سكتّ ففيك صمتى كلُّه ... وإذا نطقتُ فمادح عَلْيَاكا
وإذا سمعت فعنك قولا طيبا ... وإذا نظرت فلا أرى إلّاكا
يا مالكى كن شافعى من فاقتى ... إنى فقير فى الورى لغناكا
يا أكرمَ الثقلين يا كنزَ الورى ... جُد لى بجودِك وارضنى برضاك
أنا طامع فى الجود منك ولم يكن ... لابنِ الخطيب من الأنام سواكا
فعساك تشفع فيه عند حسابه ... فلقد غدا مستمسكا بعراكا
ولأنت أكرمُ شافع ومشفّع ... ومن التجا لحماك نال وفاكا
فاجعل قِرايَ شفاعةً لى فى غد ... فعسى أرى فى الحَشر تحتَ لواكا
صلى عليك الله يا خيرَ الورى ... ما حنّ مشتاق إلى مثواكا
وعلى صحابتك الكرام جميعهم ... والتابعين وكل من والاكا

وماذا عسى أن يقول المادحون فى وصف من مدحه الله تعالى ،وأثنى عليه ، وقد قال ﷺ: « أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ » [(١)]. والله لو أن البحار مداد ، والأشجار أقلام ، وجميع الخلائق كُتّاب ، لما استطاعوا أن يجمعوا النزر اليسير من بعض صفاته ، ولكلّوا عن الإتيان ببعض بعض وصف معجزاته ﷺ.

ومدح رجل هشام بن عبد الملك فقال له : يا هذا ، إنه قد نهى عن مدح الرجل فى وجهه ؛ فقال : مامدحتك ، ولكن ذكرتك نعم الله عليك لتجدّدَ لها شكرًا ، فقال له هشام : هذا أحسن من المدح ووصله وأكرمه .

وكتب رجل إلى عبد الله بن يحيى بن خاقان : رأيت نفسى فيما أتعاطى من مدحك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر ، والقمر الزاهر ، وأيقنت أنى حيث أنتهى من القول منسوب إلى العجز ، مقصر عن الغاية فانصرفت عن الثناء عليك إلى الدعاء لك ، ووكلت الإخبار عنك إلى علم الناس بك .

وقال الحارث بن ربيعة فى رجل من آل المهلب :

فتىً دهرُه شَطْران فيما ينوبُه : ... ففى بأسه شطر ، وفى جوده شطرُ
فلا من بغاة الخير فى عينه قَذًى ... ولا من زئير الحرب فى أذنه وَقْرُ

وقال أعرابى لرجل :

لا يُذَمُّ بلد أنت تأويه ... ولا يُشتَكَى زمانٌ أنت فيه

وكان الحجاج يستثقل زيادَ بنَ عمرو العكلى ، فلما قدم على عبد الملك بن مروان قال : يا أمير المؤمنين ، إن الحجاج سيفُك الذى لا ينبو [(٢)] ، وسهمُك الذى لا يطيش ، وخادمُك الذى لا تأخذه فيك لومة لائم ، فلم يكن بعد ذلك على قلب الحجاج أخف منه . وقال رجل لآخر : أنت بستان الدنيا ، فقال له : وأنت النهر الذى يسقى منه ذلك البستان ! وقال رجل لأبى عمرو الزاهد - صاحب كتاب الياقوته فى اللغة -: أنت والله عين الدنيا ، فقال له : وأنت والله نور تلك العين . وقال القاسم بن أمية بن أبى الصلت الثقفى:

قوم إذا نزل الغريبُ بدارِهم ... تركوه ربَّ صواهلٍ وقيانِ [(٣)]
وإذا دعوتَهم ليوم كريهةٍ [(٤)] ... سَدُّوا شعاعَ الشمس بالفرسانِ

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) لا ينبو: لا يصيب، ويقال: «لكل سيفٍ نبوةٌ».
(٣) صواهل: جمع صاهل، وهو الفرس. وقيان: جمع قين، وهو العبد.
(٤) يوم كريهة: يوم الحرب.

وقال أوس فى حاتم الطائىّ:

فإن تنكحى ماوية الخير حاتِمًا ... فما مثله فينا ولا فى الأعاجم[١]
فتى لا يزال الدهرَ أكبر همه ... فَكاكُ أسير أو معونةُ غارم

وقال ابن حمدون فى آل المهلب:

آل المهلب معشرٌ أمجادُ ... ورثوا المكارمَ والوفاءَ فسادوا
شاد المهلّبُ ما بَنَى آباؤه ... وأتى بنوه ما بناه فشادوا
وكذاك من طابت مغارس نبته ... وبنى له الآباء والأجداد

وكان الفرزدق هجّاء لعمر بن هبيرة، فلما سجن، ونقب[٢] له السجن، وسار هو وبنوه تحت الأرض قال الفرزدق:

ولما رأيتَ الأرض قد سُدّ ظهرها ... ولم يبق إلا بطنها لك مخرجا
دعوتَ الذى ناداه يونسُ بعدما ... ثوى فى ثلاثٍ مظلماتٍ ففرّجا

فقال ابن هبيرة: ما رأيت أشرف من الفرزدق، هجانى أميرًا، ومدحنى أسيرًا. وقال سرىّ بن عبد الرحمن الرفاء فى خالد بن حاتم:

يا واحدَ العُربِ الذى دانت له ... قحطانُ قاطبةً وساد نزارَا
إنى لأرجو إن لقيتُك سالما ... أن لا أعالجَ بعدك الأسفارا

وقال كعب بن مالك الأنصارى فى آل هاشم:

يا آل هاشم الإله حَباكُم ... ما ليس يبلغه اللسانُ المفصّل
قوم لأصلهم السيادةُ كلها ... قِدْما وفرعهم النبىّ المرسل

وقال الحسين بن دعبل الخزاعى:

ملك الأمور بجوده وحسامه ... شرفًا يقودُ عدوّه بزمامه
فأطاع أمرَ الجود فى أمواله ... وأطاع أمرَ الله فى أحكامه

وقال آخر:

يلقى السيوفَ بصدره وبنحره ... ويقيمُ هامته مقام المِغْفَر[٣]
ويقول للطرف: اصطبر لسنى القَنَا[٤] ... فعقرت ركن المجد إن لم تعقرِ
وإذا تراءى شخصُ ضيفٍ مقبل ... متسربلٍ أثوابَ مَخْلٍ أغبر
أومَى إلى الكوماء هذا طارق ... نَحَرَتْنى الأعداء إن لم تُنْحرى

وقال شاعر بنى تميم:

إذا لَبِسُوا عمائمهم طَوَوها ... على كرم وإن سفروا أناروا
يبيع ويشترى لهمُ سواهم ... ولكن بالطعان هم تجار
إذا ما كنت جار بنى تميم ... فأنت لأكرم الثقلين[٥] جار

وقالت امرأة من بنى نمير - قد حضرتها الوفاة، وأهلها مجتمعون - من ذا الذى يقول:

لعمرى ما رماح بنى نُمير ... بطائشة الصدور ولا قصار

---

(١) ماوية: زوجة حاتم التي كانت كثيرًا ما تلومه على جوده.
(٢) نقب: نقب الجدار ونحوه، أي خرقه.
(٣) المِغْفَر: زرد يُنسج من الدروع على قدر الرأس، يُلبس تحت القلنسوة، والجمع مغافر.
(٤) القَنَا: الرُّمح الأجوف.
(٥) الثَّقلين: الجن والإنس.

قالوا : زياد الأعجم . قالت : أشهدكم أنّ له الثلث من مالى ، وكان مالاً كثيرًا . وأثنى رجل على رجل فقال : هو أفصح أهل زمانه إذا حدّث ، وأحسنهم استماعا إذا حدّث وأمسكهم عن الملاحاة[١] إذا خولف ، يعطى صديقه النافلة ، ولا يسأله الفريضة ، له نفس عن الفحشاء محصورة ، وعلى المعالى مقصورة ، كالذهب الإبريز الذى يعز كل أوان ، والشمس المنيرة التى لا تخفى بكل مكان ، هو النجم المضىء للحيران ، والمنهل البارد العذب للعطشان .

وقال الحسن بن هانئ :

إذا نحن أثنينا عليك بصالح ... فأنت كما نُثنى وفوق الذى نثنى
وإن جرتِ الألفاظُ يوما بمدحةٍ ... لغيرك إنسانا فأنت الذى نعنى

وله فى الفضل بن الربيع :

لقد نزلتْ أبا العباس منزلةً ... ما إن ترى خلفها الأبصار مطرحا
وكلت بالدهر عينا غيرَ غافلة ... بجود كفك تأسو كل ما جرحا

وقال زياد الأعجم فى محمد بن القاسم الثقفى :

إن المنابر أصبحت مختالةً ... بمحمدِ بنِ القاسم بنِ محمدِ
قاد الجيوشَ لسبع عشرة حجة ... يا قربَ سَوْرَةَ[٢] سؤدد من مولد

ومن بدائع مدائح المتنبى قوله :

ليت المدائحَ تستوفى مناقبه ... فما كليبٌ وأهلُ الأعصر الأُول
خذ ما تراه ودع شيئًا سمعت به ... فى طلعة البدر ما يغنيك عن زُحَل
وقد وجدت مكان القول ذا سعة ... فإن وجدت لسانا قائلا فقل

ومدح أبو العتاهية عمرَو بن العَلاء ، فأعطاه سبعين ألفا ، وخلع عليه خلعًا سنية ، حتى إنه لم يستطع أن يقوم ، فغار الشعراء منه ، فجمعهم وقال : يالله العجب ، ما أشدّ حسد بعضكم لبعض . إن أحدكم يأتينا ليمدحنا ، فيتغزل فى قصيدته بخمسين بيتًا ، فما يبلغنا .

ووفد أبو نُواس على الخصيب[٣] بمصر ، فأذن له وعنده الشعراء ، فأنشد الشعراء أشعارهم ، فلما فرغوا قال أبو نواس : أنشد أيها الأمير قصيدة هى كعصا موسى ، تلقف ما صنعوا ، قال : أنشد فأنشده قصيدته التى منها قوله :

إذا لم تزر أرضَ الخصيبِ ركابنا ... فأى فتى بعد الخصيب تزورُ ؟!
فتى يَشترِى حسنَ الثناء بماله ... ويعلم أنّ الدائرات تدور
فما فاته جودٌ ولا ضلّ دونه ... ولكن يسير الجود حيث يسير !

فاهتز الخصيب لها طربا ، وأمر له بألف دينار ووصيف ووصيفة .

(وحكى): أن أبا دُلف سار يوما مع أخيه معقل، فرأيا امرأتين تتماشيان ، فقالت إحداهما للأخرى : هذا أبو دلف ؟ قالت : نعم الذى يقول فيه الشاعر :

إنما الدنيا أبو دلف ... بين باديه ومحتضره
فإذا ولى أبو دلف ... ولت الدنيا على أثره

فبكى أبو دلف ، حتى جَرت دموعه ، فقال له معقل : ما لك يا أخى تبكى ؟ فقال : لأنى لم أقض حق الذى قال هذا . قال : أو لم تعطه مائة ألف درهم ؟ قال : والله ما فى نفسى حسرة إلا لكونى لم أعطه مائة ألف دينار . ويقال : هذه المدحة ، فأين المنحة ؟

---

(١) الملاحاة: المقارعة والمخاصمة.

(٢) السَّوْرة: الوثبة، ويقال: فلان ذو سَوْرة في الحرب: ذو نظر سَديد.

(٣) الخصيب: هو أحمد بن عبيد الله [٣٢٨هـ-٩٤٠م] وزير المقتدر والقاهر، أديب وشاعر. عزل ونكب، وتوفى بالسكتة القلبية.

قال بعضهم :

إذا مـا الـمـدح صـار بـلا نـوالٍ ... مـن الـمـمـدوح كـان هـو الـهـجـاء

وامتدح محمد بن السلطان - المعروف بابن جيوش - محمد بن نصر صاحبَ حلب ، فأجازه بألف دينار ، ثم مات محمد بن نصر ، وقام ولده نصر مقامه ، فقصده محمد بن سلطان بقصيدة مدحه بها، منها :

تـبـاعـدتُ عـنـكـم حـرمـةً لا زهـادةً ... وسـرت إلـيـكـم حـيـنَ مـسّـنـى الـضُّـرّ

فـجـاد أبـو نـصـر بـألـف تـصـرّمـت[1] ... وإنـى عـلـيـم أن سَـيُـخـلـفُـهـا نَـصْـرُ

فلما فرغ من إنشادها قال نصر : والله لو قال : سيضعفها نصر لأضعفتها له ،وأعطاه ألف دينار فى طبق فضة .

ومدح بعض الشعراء - وقيل : هو البديع الهمدانى - إنسانا فقال :

يـكـاد يَـحـكـيـه صـوبُ الـغـيـثِ مُـنـسـكـبًـا ... لـو كـان طـلـق الـمـحـيـا يُـمـطِـرُ الـذهـبـا

والـدهـرُ لـو لـم يـخـن، والـشـمـس لـو نـطـقـت ... والـلـيـث لـو لـم يَـصِـدْ والـبـحـر لـو عَـذُبـا

وقال آخر :

أخـو كَـرَمٍ يـفـضـى الـورى مـن بـسـاطـه ... إلـى روضِ مـجـد بـالـسـمـاح مـجـود

وكـم لـجَـبـاه الـراغـبـيـن لـديـه مـن ... مـجـال سـجـود فـى مـجـالـس جـود

ويقال : فلان رفيق الجود ودخيله ، وزميل الكرم ونزيله ، وغرّة الدهر وتحجيله[2] ، ومواهبه الأنواء ، وصدره الدهناء ، عونه موقوف على اللهيف[3] ، وغوثه مبذول للضعيف ، يطفو جوده على موجوده ، وهمته على قدرته ، ينابيع الجود تتفجر من أنامله ، وربيع السماح يضحك عن فواضله ، إن طلبت كريمًا فى جوده مت قبل وجوده ، أو ماجدا فى أخلاقه مت ولم تلاقه ، باسل تعوّد الإقدام حيث تزل الأقدام ، وشجاع يرى الإحجام عارًا لا تمحوه الأيام ، له خلق لو مازج البحر لنفى ملوحته ،وصفى كدورته ، خلق كنسيم الأسحار على صفحات الأنهار ، أطيب من زمن الورد فى الأيام ، وأبهج من نور البدر فى الظلام ، خلق يجمع الأهواء المتفرقة على محبته ، ويؤلف الآراء المتشتتة فى مودته ، هو ملح الأرض إذا فسدت ، وعمارة الدنيا إذا خربت ، يحلّ دقائق الإشكال ، ويزيل جلائل الأشكال ، البيان أصغر صفاته ، والبلاغة عنوان خطراته ، كأنما أوحى التوفيق إلى صدره ، وحبس الصواب بين طبعه وفكره ، فهو يعبث بالكلام ويقوده بألين زمام ، حتى كأن الألفاظ تتحاسد فى التسابق إلى خواطره ، والمعانى تتغاير فى الامتثال لأوامره ، يوجز فلا يُخِلّ ، ويطنب فلا يمل ، كلامه يشتدّ مرّة حتى تقول : الصخر أو أيبس ، ويلين تارة حتى تقول : الماء أو أسلس ، فهو إذا أنشأ وشى[4] ، وإذا عبر حبر[5] ، وإذا أوجز أعجز ، تاهت به الأيام ، وباهت فى يمينه الأقلام ، له أدب لو تصور شخصًا ، لكان بالقلوب مختصًا. قال الشاعر :

لـه خـلـق عـلـى الأيـام يـصـفـو ... كـمـا تـصـفـو عـلـى الـزمـن الـعـقـار

وقال آخر :

لـو كـان يـحـوى الـروضُ نـاضـرَ خـلـقـه ... مـا كـان يـذبـل نَـوْرُه بـشـتـائـه

وقال آخر :

ووجـهـك بـدر فـى الـغـيـاهـب مـشـرق ... وكـفـك فـى شُـهـب الـسـنـيـن غَـمـام

عـجـيـب لـبـدر لا يـزال أمـامـه ... سـحـابٌ ولا يـغـشـاه مـنـه ظـلام

وأعـجـب مـن هـذا غـمـام إذا سـطـا ... تـلـظـى مـكـان الـبـرق مـنـه حـسـام

---

(١) تصرّمت: صرَّمه، أي قطَّعهُ.

(٢) يقال: يوم أغرّ محجَّل، أي مشهور.

(٣) اللَّهيف: المظلوم المضطر يستغيث ويتحسَّر.

(٤) وشَى: يقال وشى بنو فلان، أي كثُروا، ووشت الماشية، أي فشت وكثرت.

(٥) حبر: حبَّر الشيءَ وحبَره: أي زيَّنه ونمَّقه، يقال: حبَّر الشِّعر والكلام.

وقال الحسين بن مطير الأسدى :

له يوم بؤس فيه للناس أبؤس ... ويوم نعيم فيه للناس أنعم
فيمطر يوم الجود من كفه الندى ... ويمطر يوم البؤس من كفه الدم
فلو أن يوم البؤس خلى عقابه ... على الناس لم يصبح على الأرض مجرم
ولو أن يوم الجود خلى يمينه ... على المال لم يصبح على الأرض معدم

وللشيخ جمال الدين بن نباتة :

والله ما عجبى لقدرك إنه ... قدر - على باغى مداه - بعيدُ
إلا لكونك لست تشكو وحشة ... فى هذه الدنيا وأنت وحيد

ولصفى الدين الحلى :

أثنى فتثنينى صفاتُك مُظهرًا ... عِيًا وكم أعيت صفاتُك خاطبا !!
لو أننى والخلق جَمْعًا ألسن ... نُثنى عليك لما قضينا الواجبا

وللشيخ برهان الدين القيراطى :

أوصافكم تجرى أحاديثُها ... مجرى النجوم الزُّهر فى الأفق
كما أحاديث الندى عنكم ... تسندها الركبان من طرق

وللشيخ جمال الدين بن نباتة :

روت عنك أخبارُ المعالى محاسنًا ... كَفَتْ بلسان الحال عن ألسن الحمدِ
فوجهك عن بشر ، وكفك عن عطا ... وخلقك عن سهل ، ورأيك عن سعد

وقال غيره :

من زار بابك لم تبرح جوارحُه ... تروى أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن قرّة ، والكف عن صلة ... والقلب عن جابر ، والسمع عن حسن

ولأبى فراس بن حمدان :

لئن خلق الأنام لحُبِّ كأسٍ ... ومزمار ، وطُنبور ، وعُود
فلم يخلقْ بنو حمدان إلا ... لمجدٍ ، أو لبأسٍ ، أو لجودِ

وقال آخر :

إن الهبات التى جاد الكرام بها ... مطروقة ، وندى كفيك مبتكر
مازلتَ تسبقُ حتى قال حاسدُكم ... له طريق إلى العلياء مقتصر

ولمحمد بن مناذر في آل برمك :

أتانا بنو الأملاك من آل برمك ... فيا طيبَ أخبارٍ وأحسن منظر
لهم رحلة فى كل عام إلى العدا ... وأخرى إلى البيت العتيق المنوّر
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت ... بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فما خلقت إلا لجود أكفُهم ... وأقدامهم إلا لسعى مظفّر
إذا رام يحيى الأمر ذلت صعابه ... وناهيك من راع له ومُدَبّر

ولما عزل إبراهيم بن المنذر عن صدقات البصرة تلقاه مجنون ، وأنشد :

ليت شعرى أىّ قوم أجْدَبُوا ... فأغيثُوا بك من بعدِ العَجفْ
نظر الله لهُم من بيننا ... وحُرِمْناك بذنبٍ قد سَلَفْ

يـا أبـا اسـحـق سـرْ فـى دعـةٍ ... وامـض مـصـحـوبًـا فـمـا مـنـك خـلـفْ
إنـمـا أنـت ربـيـع بـاكـر ... حـيـثـمـا صـرّفـه الـلـه انـصـرف

وقال آخر :

لـو كـان يـقـعـد فـوق الـشـمـس مـن كـرم ... قـومٌ لـقـيـل : اقـعـدوا يـا آل عَـبّـاس
ثـم ارتقُوا فى شعاع الشمس ، وارتفعوا ... إلـى الـسـمـاء فـأنـتـم سـادةُ الـنـاس !

وقال آخر :

ثـنـاؤك فـى الـدنـيـا مـن الـمـسـك أعـطـرُ ... وحـظّـك فـى الـدنـيـا جـزيـلٌ مـوفـرُ
وكـفـك بـحـرٌ والأنـامـل أنـهـر ... رعـى الـلـه كـفًّـا فـيـه بـحـر وأنـهـر
أعـيـذك بـالـرّحـمـن مـن كـل حـاسـدٍ ... فـلا زالـت الـحـسـادُ تـغـبـى وتـصـقـر
لـسـانـى قـصـيـر فـى مـديـحـك سـيـدى ... لأنـى فـقـيـر والـفـقـيـر مـقـصـر

الفصل الثانى : فى هذا الباب فى شكر النعمة

أما الشكر الواجب على جميع الخلائق فشكر القلب ، وهو أن يعلم العبد أن النعمة من الله - عز وجل- وأن لا نعمة على الخلق من أهل السموات والأرض ، إلا وبدايتها من الله تعالى ، حتى يكون الشكر لله عن نفسك ، وعن غيرك. والدليل على أن الشكر محله القلب وهو المعرفة لقوله تعالى : ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣] ، أى : أيقنوا أنها من الله ، وقيل : الشكر معرفة العجز عن الشكر ، وقد روى أن داود عليه السلام قال : « إلهى كيف أشكرك ، وشكرى لك نعمة من عندك ؟! فأوحى الله تعالى إليه : الآن قد شكرتنى »[(١)] ، وفى هذا يقال : الشكر على الشكر أتم الشكر ، ولمحمود الورّاق :

إذا كـان شـكـرى نـعـمـة الـلـه نـعـمـةً ... عـلـى لـه فـى مـثـلـهـا يـجـب الـشـكـر
فـكـيـف بـلـوغ الـشـكـر إلا بـفـضـلـه ... وإن طـالـت الأيـام واتـصـل الـعـمـرُ ؟!
إذا مـسّ بـالـسـراءِ عَـمَّ سـرورُهـا ... وإن مـس بـالـضـراء أعـقـبـهـا الأجـرُ
فـمـا مـنـهـمـا إلا لـه فـيـه نـعـمـة ... تـضـيـق بـهـا الأوهـام والـسـر والـجـهـر

وفى مناجاة موسى عليه السلام إلهى ، خلقت آدم بيدك، وفعلت وفعلت، فكيف شكرك؟! فقال : علم، أن ذلك منى معرفته بذلك شكره لى[(٢)].

وأما شكر اللسان ، فقد قال الله تعالى فيه ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١] ويروى عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ والتَّحدُّثُ بالنِّعَمِ شُكْرٌ »[(٣)]. وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه تذكروا النعم فإن ذكرها شكر . وأماالشكر الذى على الجوارح فقد قال الله تعالى : ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣] الآية فجعل العمل شكراً. وروى أن النبى ﷺ قام حتى تورّمت قدماه ، فقيل له : يا رسول الله أتفعل هذا بنفسك ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟! قال : «أفلا أكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ؟!»[(٤)] . وقال أبو هارون : دخلت على أبى حازم ، فقلت له : يرحمك الله ، ما شكر العينين ؟ قال : إذا رأيت بهما خيراً ذكرته ، وإذا رأيت بهما شرّا سترته ، قلت : فما شكر الأذنين ؟ قال : إذا سمعت بهما خيرا حفظته ،

---

(١) وقد روى أن داود عليه السلام . . إلخ ضعيف: أخرجه أحمد في الزهد [ص٧٢]، وابن أبي الدنيا في «الشكر» برقم [٥-ط مكتبة القرآن]، والبيهقي في «الشعب» [٤١٠١]، وأبو نعيم في «الحلية» [٦/ ٥٦]، وفي سنده صالح المري. ضعيف الحديث.

(٢) وفي مناجاة موسى. . إلخ. ضعيف جدًّا: أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» [برقم ١٢]، والبيهقي في «الشعب» [٤١١٣]، وفي سنده عمر بن إسماعيل، متروك الحديث.

(٣) وروى عن النعمان بن بشير: من لم يشكر. . إلخ. أخرجه أحمد [٤/ ٢٧٨، ٣٧٥].

(٤) وروي أن النبي ﷺ أخرجه البخاري [٤٨٣٧]، ومسلم [٢٨٢٠]، وأحمد [٦/ ١١٦] عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وإذا سمعت بهما شرّا نسيته . وفى حكمة إدريس عليه السلام لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمه بمثل الإنعام على خلقه ، ليكون صانعا إلى الخلق مثل ما صنع الخالق إليه ، فإذا أردت أن تحرس دوام النعمة من الله تعالى عليك ، فأدم مواساة الفقراء وقد وعد الله تعالى عباده بالزيادة على الشكر فقال تعالى : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧] وقد جعل لعباده علامة يعرف بها الشاكر ، فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا أنه لم يشكر فإذا رأينا الغنىّ يشكر الله تعالى بلسانه ، وماله فى نقصان علمنا أنه قد أخلّ بالشكر إمّا لأنه لايزكى ماله ، أو يزكيه لغير أهله ، أو يؤخره عن وقته ، أو يمنع حقا واجبا عليه من كسوة عريان ، أو إطعام جائع ، أو شبه ذلك ، فيدخل فى قول النبّى ﷺ :« **لو صدق السائل ما أفلح من ردّه**»(١) . قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] . وإذا غيروا ما بهم من الطاعات غير الله ما بهم من الإحسان . وقال بعض الحكماء : من أعطى أربعا لم يمنع من أربع : من أعطى الشكر لم يمنع المزيد ، ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ، ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ، ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب . وقال المغيرة بن شعبة: اشكر من أنعم عليك ، وأنعم على من شكرك ، فإنه لا بقاء للنعم إذا كفرت ، ولا زوال لها إذا شكرت ، وكان الحسن يقول : ابن آدم متى تنفك من شكر النعمة ، وأنت مرتهن بها ، كلما شكرت نعمة تجدّد لك بالشكر أعظم منها عليك ، فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة إلا إلى ما هو أعظم منها . وروى أن عثمان بن عفان رضى الله عنه دُعى إلى أقوام ليأخذهم على ريبة ، فافترقوا قبل أن يأخذهم عثمان، فأعتق رقبة شكراً لله تعالى إذ لم يجر على يديه فضيحة مسلم . ويروى أن نملة قالت لسليمان بن داود عليهما السلام : يا نبىّ الله، أنا على قدرى أشْكَرُ لله منك ؟ وكان راكبا على فرس ذلول فخر عنه ساجداً لله تعالى ، ثم قال : لولا أنى أبجلك لسألتك أن تنزع منى ما أعطيتنى ! وقال صدقة بن يسار : بينما داود عليه السلام فى محرابه إذ مرّت به دودة فتفكر فى خلقها ، وقال : ما يعبأ الله بخلق هذه ، فأنطقها الله تعالى له ، فقالت : يا داود تعجبك نفسُك ، وأنا على قدر ما آتانى الله تعالى أذكَرُ لله ، وأشكر له منك على ما آتاك . وقال علىّ رضى الله عنه: احذروا نفار النعم ، فما كل شارد مردود . وعنه رضى الله عنه إذا وصلت إليكم أطراف النعم ، فلا تنفروا اتصالها بقلة الشكر . وقيل : إذا قصرت يداك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر . وقال حكيم : الشكر ثلاثُ منازل : ضمير القلب ، ونشر اللسان ، ومكافأة اليد ، قال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة ... يدى ، ولسانى ، والضمير المحجبا

وقال ابن عائشة : كان يقال : ما أنعم الله على عبد نعمة فظلم بها إلا كان حقا على الله تعالى أن يزيلَها عنه ، وأنشد أبو العباس بن عمارة فى المعنى :

أعارك مالَه لتقوم فيه ... بواجبه وتقضى بعضَ حقّه
فلم تَقْصد لطاعته ولكن ... قَويتَ على معاصيه برزق

وقال محمد بن حبيب الراوية : إذا قلّ الشكر كثر المنّ . وروى : إذا حجدت الصنيعة خسر الامتنان . وسئل بعض الحكماء ما أضيعُ الأشياء ؟ قال : مطر الجود فى أرض سبخة ، لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها ، وسراج يوقد فى الشمس ، وجارية حسناء تزف إلى أعمى ، وصنيعة تُسْدَى ، إلى من لا يشكرها . وقال عبد الأعلى بن حماد : دخلت على المتوكل فقال : يا أبا يحيى ، قد هممنا أن نصلك بخير فتدافعته الأمور ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، بلغنى عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال : من لم يشكر الهمة لم يشكر النعمة ، وأنشدته :

لأشكرن لك معروفا هممت به ... فإن همك بالمعروف معروفُ
ولا ألومك إن لم يمضه قَدَرٌ ... فالشرّ بالقدَرِ المحتوم مَصْرُوفُ

وقال أبو فراس بن حمدان :

وما نعمةٌ مكفورةٌ قد صنعتُها ... إلى غير ذى شكر تُمانعنى أخرى
سآتى جميلاً ما حييتُ فإننى ... إذا لم أفد شكرا أفدت به أجرا

---

(١) لو صدق السائل.. إلخ أخرجه العقيلي [٣/ ٥٩]، وابن الجوزي في الموضوعات [٢/ ١٥٥].

وقال عمر بن الخطاب ﷺ : من امتطى الشكر ، بلغ به المزيد ، وقيل : من جعل الحمد خاتمة للنعمة جعله الله فاتحة للمزيد . وقال ابن السماك : النعمة من الله على عبده مجهولة ، فإذا فُقِدَتْ عُرِفَت . وقيل : من لم يشكر على النعمة ، فقد استدعى زَوالها . وكان يقال : إذا كانت النعمة وسيمة ، فاجعل الشكر لها تميمة . وقال حكيم : لا تصطنعوا[١] ثلاثة : اللئيم فإنه بمنزلة الأرض السبخة ، والفاحش فإنه يرى أن الذى صنعت إليه إنما هو لمخافة فحشه ، والأحمق فإنه لا يعرف قدر ما أسديت إليه ، وإذا اصطنعت الكريم ، فازرع المعروف ، واحصد الشكر ، ودخل أبو نخيلة على السفاح لينشده فقال : ما عسيت أن تقول بعد قولك لمسلمة :

أمسلمة يا فخرَ كلِّ خليفة ... ويا فارسَ الدنيا ويا جبل الأرض
شكرتُكِ إنّ الشكرَ دَينٌ على الفتى ... وما كل من أوليته نعمةً يقضى
وأحييتَ لى ذِكرى وما كان خاملاً ... ولكنّ بعضَ الذِّكر أنبه من بعض

وسمعه الرشيد فقال : هكذا يكون شعر الأشراف ، مدحَ صاحبَه ولم يَضَعْ نفسَه . وعن نصر بن سيار عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبى ﷺ أنه قال : « **من أنعم على رجل نعمةً فلم يشكر له ، فدعا عليه استجيب له** »[٢] . ثم قال نصر : اللهم إنى أنعمت على بنى سام ، فلم يشكروا اللهم اقتلهم ، فقتلوا كلهم . وعن علىّ بن الحسين رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « **إن المؤمن ليشبع من الطعام ، فيحمد الله تعالى ، فيعطيه من الأجر ما يعطى الصائم القائم ، إن الله شاكر يحب الشاكرين** »[٣] . وعن محمد بن على : ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أنها من الله إلا كتب الله له شكرها قبل أن يحمده عليها ، ولا أذنب عبد ذنبا ، فعلم أن الله قد اطلع عليه إن شاء غفر له ، وإن شاء أخذه قبل أن يستغفره إلا غفر الله له قبل أن يستغفره . وأولى رجل رجلا أعرابيا خيراً فقال : لا أبلاك الله ببلاء يعجز عنه صبرك ، وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك ، وأنشد بعضهم وأجاد :

سأشكُر لا أنى أجازيك مُنعِمًا ... بشكرى ولكن كى يُزاد لكَ الشُّكْرُ
وأذكر أيامًا لدىّ اصطنعتُها ... وآخر ما يبقى على الشاكر الذكر

وقال آخر :

أوليتنى نِعمًا أبوح بشكرها ... وكفيتَنى كلّ الأمور بأسرها
فلأشكرنك ما حييت وإن أمت ... فلتشكرنك أعظمى فى قبرها

وقال آخر :

أيا رب قد أحسنت عوداً وبدأةً ... إلىّ فلم ينهض بإحسانك الشكر
فمن كان ذا عذر لديك وحجةٍ ... فعذرىَ إقرارى بأن ليسَ لى عُذْرُ

وقال محمود الوراق :

إلهى لك الحمد الذى أنت أهلُه ... عَلَى نعم ما كنتُ قطُّ لها أهلا
إن ازددتُ تقصيرا تَزِدنى تفضلا ... كأنى بالتقصير أستوجبُ الفضلا

وقد أحسن نُصَيْب فى وصف الثناء والشكر بقوله :

فعاجوا[٤] وأثنوا بالذى أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب[٥]

وقال رجل من غطفان :

الشكر أفضل ما حاولتُ ملتمسا ... به الزيادة عند الله والناس

---

(١) تصطنعوا: اصطنع فلانًا لنفسه، أي اختاره. قال تعالى في مخاطبة سيدنا موسى: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ [طه: ٤١].

(٢) من أنعم.. إلخ أخرجه العقيلي في الضعفاء [٤/ ٢٩٩]، وابن الجوزي في الموضوعات [٣/ ١٧٢].

(٣) إن المؤمن ليشبع.. إلخ لم أقف عليه.

(٤) عاج عوجًا: أي رجع.

(٥) الحقائب: جمع حقيبة، وهي العَجْز، وما يُجعل فيه المتاع والزاد، وكل ما يُحمل وراء الرَّحْل.

وقيل : اشكُر المنعم عليك وأنعم على الشاكر لك تستوجب من ربك الزيادة ، ومن أخيك المناصحة .

الفصل الثالث : من هذا الباب فى المكافأة

قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَسْدَى إِلَيكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ ، فَإِنْ لَمْ تَقْدِرُوا فَادْعُوا لَه »[١] . ولما قدم وفدُ النجاشى على رسول الله ﷺ قام يخدمهم ﷺ بنفسه ، فقيل له : يا رسول الله ! لو تركتنا كفيناك ، فقال : « كانوا لأصحابى مكرمين»[٢]، وقيل : أتى رجل من الأنصار إلى عمر بن الخطاب ﷺ فقال :

اذكر صنيعى إذا فاجاك ذو سفه ... يوم السقيفة ، والصّديق مشغول

فقال عمر بأعلى صوته : أُذُنُ منى فدنا منه ، فأخذ بذراعه حتى استشرفه الناس ، وقال : ألا إنّ هذا ردّ عنى سفيها من قومه يوم السقيفة ، ثم حمله على نجيب[٣] ، وزاد فى عطائه ، وولاه صدقة قومه ، وقرأ ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن :٦٠] وقال رجل لسعيد بن العاص - وهو أمير الكوفة - يدى عندك بيضاء ، قال : وما هى ؟ قال : كبت بك فرسك ، فتقدّمت إليك قبل غلمانك ، فأخذت بعضدك وأركبتك ، وأسقيتك ماء ، قال : فأين كنت إلى الآن ؟ قال : حجبت عن الوصول إليك ، قال : قد أمرنا لك بمائتى ألف درهم ، وبما يملكه الحاجب إذ حجبك عنا . وقال قطرى بن الفجاءة لخارجى أسره الحجاج ثم منّ عليه فأطلقه : عاود قتال عدوّ الله ، فقال : هيهات شدّ يدًا مطلقها ، وأرق رقبة معتقها ، ثم قال :

أأقاتل الحجاج عن سلطانه ... بيد تقرّ بأنها مولاته ؟!
ماذا أقول إذا وقفت إزاءه ... فى الصف واحتجت له فعلاته ؟
أأقول جارَ علىّ لا إنى إذاً ... لأحق من جارت عليه ولاتُه
وتحدّث الأقوام أن صنائعا ... غرست لدىّ فحنظلت نخلاته

واجتاز الشافعى - رحمه الله تعالى - بمصر فى سوق الحدّادين ، فسقط سوطُه فقام إنسان فأخذه ومسحه وناوله إياه ، فقال لغلامه : كم معك ؟ قال : عشرة دنانير ، قال : ادفعها إليه ، واعتذر له ، واستنشد عبد الملك عامرًا الشعبىّ فأنشده لغير ما شاعر حتى أنشد لحسان :

من سرّه شرفُ الحياةِ فلم يَزلْ ... فى عُصبة من صالحى الأنصار
البائعين نفوسهم لنبيّهم ... بالمَشْرَفىّ وبالقنا الخَطّار[٤]
الناظرين بأعينٍ محمرةٍ ... كالجمر غيرِ كليلة الأبصار

فقام أنصارىّ فقال : يا أمير المؤمنين استوجب عامر الصلة ، علىّ له ستون من الإبل كما أعطينا حسان يوم قالها ، فقال عبد الملك : وله عندى ستون ألفا وستون من الإبل .

وعن علىّ ﷺ أحسنوا فى عقب غيركم تُحفظوا فى عقبكم . وقال المدائنى : رأيت رجلا يطوف بين الصفا والمروة على بغلة ، ثم رأيته ماشيا فى سفر ، فسألته عن ذلك فقال : ركبت حيث يمشى الناس ، فكان حقا على الله أن يرجلنى[٥] حيث يركب الناس !

(ومما جاء فى المكافأة) : ما حكى عن الحسن بن سهل قال : كنت يوما عند يحيى بن خالد البرمكى - وقد خلا فى مجلسه لإحكام أمر من أمور الرشيد - فبينما نحن جلوس ، إذ دخل عليه جماعة من أصحاب الحوائج ،

---

(١) من أسدى . . إلخ قال العجلوني: رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح بلفظ: «من صنع».
(٢) ولما قدم وفد النجاشي إلخ . . لم أهتد إليه.
(٣) النَّجيب: الفاضل على مِثله، النَّفيس في نوعه.
(٤) المَشْرفيّ: سيف يُجلب من المشارف، منسوبٌ إليها والقَنَا: الرُّمح الأجوف، والخَطَّار: الرُّمح.
(٥) يرجلني: يجعلني أمشي على رجلي.

فقضاها لهم ، ثم توجهوا لشأنهم ، فكان آخرهم قياما أحمد بن أبى خالد الأحول ، فنظر يحيى إليه والتفت إلى الفضل ابنه وقال : يا بنىّ، إن لأبيك مع أبى هذا الفتى حديثا ، فإذا فرغت من شغلى هذا فذكرنى أحدّثك به ، فلما فرغ من شغله وطعم: قال له ابنه الفضل : أعزك الله يا أبى ، أمرتنى أن أذكرك حديث أبى خالد الأحول ، قال : نعم . يا بنى ، لما قدم أبوك من العراق أيام المهدى ، كان فقيرا لا يملك شيئا ، فاشتدّ بى الأمر إلى أن قال لى من فى منزلى : إنا قد كتمنا حالنا ، وزاد ضررنا ، ولنا اليوم ثلاثة أيام ، ما عندنا شىء نقتات به ، قال : فبكيت يا بنى لذلك بكاء شديدا ، وبقيت ولهان حيران مطرقا مفكرا ثم تذكرت منديلا كان عندى ، فقلت لهم : ما حال المنديل ؟ فقالوا: هو باق عندنا ، فقلت : ادفعوه إلىّ ، فأخذته ودفعته إلى بعض أصحابى ، وقلت له : بِعْهُ بما تيسر ، فباعه بسبعة عشر درهما ، فدفعتها إلى أهلى ، وقلت : أنفقوها إلى أن يرزق الله غيرها ، ثم بكرت من الغد إلى باب أبى خالد وهو يومئذ وزير المهدى ، فإذا الناس وقوف على داره ينتظرون خروجه ، فخرج عليهم راكبا فلما رآنى سَلّم علىّ وقال : كيف حالك ؟ فقلت: يا أبا خالد ، ما حال رجل يبيع من منزله بالأمس منديلا بسبعة عشر درهما ؟! فنظر إلىّ نظرا شديدا ، وما أجابنى جوابا ، فرجعت إلى أهلى كسير القلب ، وأخبرتهم بما اتفق لى مع أبى خالد ، فقالوا : بئس والله ما فعلت ، توجهت إلى رجل كان يرتضيك لأمر جليل ، فكشفت له سرك ، وأطلعته على مكنون أمرك ، فأزريت عنده بنفسك ، وصغرت عنده منزلتك ، بعد أن كنت عنده جليلا ، فما يراك بعد اليوم إلا بهذه العين . فقلت : قد قضى الأمر الآن بما لا يمكن استدراكه ، فلما كان من الغد ، بكرت إلى باب الخليفة ، فلما بلغت الباب استقبلنى رجل فقال لى : قد ذكرت الساعة بباب أمير المؤمنين ، فلم ألتفت لقوله ، فاستقبلنى آخر فقال لى كمقالة الأوّل ، ثم استقبلنى حاجب أبى خالد فقال لى : أين تكون ؟ قد أمرنى أبو خالد بإجلاسك إلى أن يخرج من عند أمير المؤمنين ، فجلست حتى خرج ، فلما رآنى دعانى وأمر لى بمركوب فركبت ، وسرت معه إلى منزله فلما نزل قال : علّى بفلان وفلان الحناطين فأحضرا ، فقال لهما : ألم تشتريا منى غلات السواد بثمانية عشر ألف ألف درهم ؟! قالا : نعم . قال : ألم أشترط عليكما شركة رجل معكما ؟! قالا : بلى . قال هو هذا الرجل الذى اشترطت شركته لكما ثم قال لى . قم معهما ، فلما خرجنا قالا لى : ادخل معنا بعض المساجد حتى نكلمك فى أمر يكون لك فيه الربح الهنىء ، فدخلنا مسجداً فقالا لى : إنك تحتاج فى هذا الأمر إلى وكلاء ، وأمناء ، وكيالين وأعوان ، ومؤن لم تقدر منها على شىء فهل لك أن تبيعنا شركتك بمال نعجله لك ، فتنتفع به ، ويسقط عنك التعب والكلف ، فقلت لهما : وكم تبذلان لى ؟ فقالا : مائة ألف درهم ، فقلت : لا أفعل ، فما زالا يزيدانى ، وأنا لا أرضى إلى أن قالا لى : ثلاثمائة ألف درهم ولا زيادة عندنا على هذا ، فقلت : حتى أشاور أبا خالد ، قالا ذلك لك فرجعت إليه ، وأخبرته فدعا بهما ، وقال لهما : هل وافقتماه على ما ذكر ؟ قالا : نعم . قال : اذهبا فأقبضاه المال الساعة ، ثم قال لى : أصلح أمرك ، وتهيأ فقد قلدتك العمل ، فأصلحت شأنى وقلدنى ما وعدنى به ، فمازلت فى زيادة حتى صار أمرى ، إلى ما صار ، ثم قال لولده الفضل : يا بنى ، فما تقول فى ابن من فعل بأبيك هذا الفعل ، وما جزاؤه ؟ قال : حق لعمرى وجب عليك له ، فقال : والله يا ولدى ، ما أجد له مكافأة غير أنى أعزل نفسى ، وأوليه ، ففعل ذلك ﷺ وهكذا تكون المكافأة .

(ومن ذلك ما حكى) : عن العباس - صاحب شرطة المأمون - قال : دخلت يوما إلى مجلس أمير المؤمنين ببغداد . وبين يديه رجل مكبل بالحديد - فلما رآنى قال لى : يا عباس ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : خذ هذا إليك فاستوثق منه ، واحتفظ به وبكر به إلىّ فى غد واحترز عليه كل الاحتراز ، قال العباس : فدعوت جماعة فحملوه ، ولم يقدر أن يتحرّك فقلت فى نفسى : مع هذه الوصية التى أوصانى بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معى فى بيتى ، فأمرتهم فتركوه فى مجلس لى فى دارى ، ثم أخذت أسأله عن قضيته ، وعن حاله ، ومن أين هو ؟ فقال : أنا من دمشق ، فقلت : جزى الله دمشق وأهلها خيرا ، فمن أنت من أهلها ؟ قال : وعمن تسأل ؟ قلت : أتعرف فلانا ؟ قال : ومن أين تعرف ذلك الرجل ؟ فقلت وقع لى معه قضية ، فقال : ما كنت بالذى أعرفك خبره حتى تعرفنى قضيتك معه ، فقال : ويحك ! كنت مع بعض الولاة بدمشق ، فبغى أهلها وخرجوا علينا ،

حتى إن الوالى تدلّى فى زنبيل[١] من قصر الحجاج ، وهرب هو وأصحابه ، وهربت فى جملة القوم ، فبينما أنا هارب فى بعض الدروب ، وإذا بجماعة يَعْدُون خلفى ، فمازلت أعدو أمامهم ، حتى فتهم ، فمررت بهذا الرجل الذى ذكرته لك وهو جالس على باب داره ، فقلت : أغثنى أغاثك الله ؛ قال : لا بأس عليك ، ادخل الدار ، فدخلت ، فقالت زوجته : ادخل تلك المقصورة ، فدخلتها ، ووقف الرجل على باب الدار فما شعرت إلا وقد دخل ، والرجال معه يقولون ، هو والله عندك ، فقال : دونكم الدار فتشوها ؛ ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة ، وامرأته فيها ، فقالوا : هو هاهنا فصاحت بهم المرأة ، ونهرتهم ، فانصرفوا ، وخرج الرجل ، وجلس على باب داره ساعة ، وأنا قائم أرجف ما تحملنى رجلاى من شدّة الخوف ، فقالت المرأة : اجلس لا بأس عليك ، فجلست ، فلم ألبث حتى دخل الرجل ، فقال : لا تخف قد صرف الله عنك شرّهم ، وصرتَ إلى الأمن والدعة إن شاء الله تعالى ، فقلت له : جزاك الله خيرا ، فمازال يعاشرنى أحسن معاشرة وأجملها ، وأفرد لى مكانا فى داره ، ولم يحوجنى إلى شىء ، ولم يفتر عن تفقد أحوالى ، فأقمت عنده أربعة أشهر فى أرغد عيش وأهنئه ، إلى أن سكنت الفتنة ، وهدأت ، وزال أثرها ، فقلت له : أتأذن لى فى الخروج حتى أتفقد حال غلمانى ؟! فلعلى أقف منهم على خبر ! فأخذ علىّ المواثيق بالرجوع إليه ، فخرجت وطلبت غلمانى فلم أرَ لهم أثراً فرجعت إليه ، وأعلمته الخبر وهو مع هذا كله لا يعرفنى ، ولا يسألنى ، ولا يعرف اسمى ، ولا يخاطبنى إلا بالكنية ، فقال لى : علام تعزم ؟ فقلت : قد عزمت على التوجه إلى بغداد ، فقال : إن القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج ، وها أنا قد أعلمتك ، فقلت له : إنك قد تفضلت علىّ هذه المدّة ولك علىّ عهد الله أنى لا أنسى لك هذا الفضل ، ولأوفينك مهما استطعت قال : فدعا غلاماً له أسود ، وقال له : أسرج الفرس الفلانى ، ثم جهز آلة السفر ، فقلت فى نفسى : أظن أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة له ، أو ناحية من النواحى ، فأقاموا يومهم ذلك فى كدّ وتعب ، فلما كان يوم خروج القافلة جاءنى فى السحر وقال لى : يا فلان، قم فإن القافلة تخرج الساعة ، وأكره أن تنفرد عنها ، فقلت فى نفسى : كيف أصنع ، وليس معى ما أتزوّد به ، ولا ما أكرى به مركوبا ، ثم قمت فإذا هو وامرأته يحملان بقجة من أفخر الملابس ، وخفين جديدين ، وآلة السفر ، ثم جاءنى بسيف ومِنْطَقة فشدّهما فى وسطى ، ثم قدّم بغلا فحمل عليه صندوقين ، وفوقهما فرش ، ودفع إلىّ نسخة ما فى الصندوقين وفيهما خمسة آلاف درهم ، وقدّم إلىّ الفرس الذى كان جهزه ، وقال : اركب وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك ، وأقبل هو وامرأته يعتذران إلىّ من التقصير فى أمرى ، وركب معى يشيعنى ، وانصرفت إلى بغداد ، وأنا أتوقع خبره لأفى بعهدى له فى مجازاته ومكافأته ، واشتغلت مع أمير المؤمنين ، فلم أتفرّغ أن أرسل إليه من يكشف خبره ، فلهذا أنا أسأل عنه ، فلما سمع الرجل الحديث قال : لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء له ومكافأته على فعله ، ومجازاته على صنيعه بلا كلفة عليك ، ولا مؤنة تلزمك ، فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : أنا ذلك الرجل ، وإنما الضرّ الذى أنا فيه غير عليك حالى ، وما كنت تعرفه منى ، ثم لم يزل يذكر لى تفاصيل الأسباب ، حتى أثبت معرفته ، فما تمالكت أن قمت وقبلت رأسه ، ثم قلت له : فما الذى أصارك إلى ما أرى ؟! فقال : هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التى كانت فى أيامك ، فنُسبت إلىّ وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد ، وأخذت أنا وضُربت إلى أن أشرفت على الموت ، وقيدت ، وبعث بى إلى أمير المؤمنين ، وأمرى عنده عظيم ، وخطبى لديه جسيم ، وهو قاتلى لا محالة ، وقد أخرجت من عند أهلى بلا وصية ، وقد تبعنى من غلمانى من ينصرف إلى أهلى بخبرى ، وهو نازل عند فلان ، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لى أن ترسل من يحضره لى حتى أوصيه بما أريد ، فإن أنت فعلت ذلك ، فقد جاوزت حدّ المكافأة ، وقمت لى بوفاء عهدك : قال العباس : قلت يصنع الله خيرا ، ثم أحضر حدّادا فى الليل ، فك قيوده ، وأزال ما كان فيه من الأنكال . وأدخله حمام داره ، وألبسه من الثياب ما احتاج إليه ، ثم سير من أحضر إليه غلامه ، فلما رآه جعل يبكى ، ويوصيه فاستدعى العباس نائبه ، وقال : علىّ بالفرس الفلانى ، والفرس الفلانى ، والبغل الفلانى ، والبغلة الفلانية ، حتى عدّ عشرة ، ثم عشرة من الصناديق ، ومن الكسوة كذا وكذا ، ومن الطعام كذا وكذا ، قال ذلك الرجل : وأحضر لى بدرة عشرة آلاف درهم ، وكيسا فيه خمسة آلاف دينار ، وقال لنائبه فى الشرطة : خذ هذا الرجل ، وشيعه إلى حدّ الأنبار ، فقلت له : إنّ ذنبى عند أمير المؤمنين عظيم ، وخطبى جسيم ،

---

(١) الزنبيل: بتشديد الدال المكسورة وسكون النون: القُفّة، والجمع زنابيل.

وإن أنت احتججت بأنى هربت ، بعث أمير المؤمنين فى طلبى كل من على بابه ، فأردّ وأُقتل ، فقال لى : انج بنفسك . ودعنى أدبر أمرى ، فقلت : والله لا أبرح من بغداد ، حتى أعلم ما يكون من خبرك ؟ فإن احتجت إلى حضورى حضرت ، فقال لصاحب الشرطة : إن كان الأمر على ما يقول فليكن فى موضع كذا ، فإن أنا سَلِمت فى غداة غد أعلمته ، وإن أنا قُتلت فقد وقيته بنفسى كما وقانى بنفسه ، وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم ، وتجتهد فى إخراجه من بغداد ، قال الرجل : فأخذنى صاحب الشرطة ، وصيرنى فى مكان أثق به ، وتفرّغ العباس لنفسه ، وتحنط وجهز له كفنا قال العباس : فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا ورسل المأمون فى طلبى ، يقولون : يقول لك أمير المؤمنين : هات الرجل معك وقم ، قال : فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين ، فإذا هو جالس ، وعليه ثيابه ، وهو ينتظرنا ، فقال : أين الرجل ؟ فسكت . فقال : ويحك أين الرجل ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، اسمع منى ، فقال : لله علّى عهد لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك ، فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، ما هرب . ولكن اسمع حديثى وحديثه ، ثم شأنك وما تريد أن تفعله فى أمرى ، قال : قل . فقلت : يا أمير المؤمنين ، كان من حديثى معه كيت وكيت ، وقصصت عليه القصة جميعها ، وعرّفته أننى أريد أن أفى له ، وأكافئه على ما فعله معى ، وقلت : أنا وسيدى ومولاى أمير المؤمنين بين أمرين : إمّا أن يصفح عنى ، فأكون قد وفيت وكافأت ، وإمّا أن يقتلنى فأقيه بنفسى ، وقد تحنطت وها كفنى يا أمير المؤمنين ، فلما سمع المأمون الحديث قال : ويلك لا جزاك الله عن نفسك خيرا . إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة ! وتكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا لا غير ؟! هلا عرفتنى خبره ! فكنا نكافئه عنك ، ولا نقصر فى وفائك له ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنه ههنا قد حلف أن لا يبرح حتى يعرفَ سلامتى ، فإن احتجت إلى حضوره ، حضر . فقال المأمون : وهذه منة أعظم من الأولى اذهب الآن إليه فطيب نفسه ، وسكن روعه ، وائتنى به ، حتى أتولى مكافأته . قال العباس : فأتيت إليه ، وقلت : له ليزلْ خوفُك إن أميرَ المؤمنين قال : كيت وكيت ، فقال : الحمد لله الذى لا يحمد على السرّاء والضرّاء سواه ، ثم قام فصلى ركعتين ، ثم ركب ، وجئنا فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه من مجلسه ، وحدّثه حتى حضر الغداء ، وأكل معه وخلع عليه ، وعرض عليه أعمال دمشق ، فاستعفى ، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسُروجها ولجمها ، وعشرة أبغال بآلاتها ، وعشر بِدَرٍ ، وعشرة آلاف دينار ، وعشرة آلاف مماليك بدوابهم ، وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به ، وإطلاق خراجه ، وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق فصارت كتبه تصل إلى المأمون ، وكلما وصلت خريطة البريد ، وفيها كتابه يقول لى : يا عباس هذا كتاب صديقك والله تعالى أعلم .

ومن عجائب هذا الأسلوب وغرائبه ، ما أورده محمد بن القاسم الأنبارىّ - رحمه الله تعالى - أن سوارا صاحب رحبة سوار ، وهو من المشهورين قال : انصرفت يوما من دار الخليفة المهدىّ ، فلما دخلت منزلى دعوت بالطعام ، فلم تقبله نفسى فأمرت به فرفع ، ثم دعوت جاريةً كنت أحبها وأحب حديثها ، وأشتغل بها ، فلم تطب نفسى فدخل وقت القائلة ، فلم يأخذنى النوم ، فنهضت وأمرت ببغلة لى فأُسرجت ، وأحضرت ، فركبتها ، فلما خرجت من المنزل استقبلنى وكيل لى ، ومعه مال فقلت : ما هذا ؟ فقال : ألفا درهم جبيتها من مستغلك الجديد ، قلت : أمسكها معك ، واتبعنى فأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر ، ثم مضيت فى شارع دار الرقيق حتى انتهيت إلى الصحراء ، ثم رجعت إلى باب الأنبار ، وانتهيت إلى باب دار نظيف عليه شجرة ، وعلى الباب خادم ، فعطشت فقلت للخادم : أعندك ماء تسقينه ؟ قال : نعم . ثم دخل ، وأحضر قلة نظيفة طيبة الرائحة عليها منديل ، فناولنى فشربت ، وحضر وقت العصر فدخلت مسجدا على الباب ، فصليت فيه ، فلما قضيت صلاتى إذا أنا بأعمى يلتمس ، فقلت : ما تريد يا هذا ؟ قال : إياك أريد . قلت : فما حاجتك ؟ فجاء حتى جلس إلى جانبى وقال : شممت منك رائحة طيبة ، فظننت أنك من أهل النعيم ، فأردت أن أحدّثك بشىء فقلت : قل . قال : ألا ترى إلى باب هذا القصر ؟! قلت : نعم . قال : هذا قصر كان لأبى فباعه : وخرج إلى خراسان ، وخرجت معه ، فزالت عنا النعم التى كنا فيها ، وعميت فقدمت هذه المدينة ، فأتيت صاحب هذه الدار لأسأله شيئا يصلنى به ، وأتوصل إلى سوار ، فإنه كان صديقا لأبى ، فقلت : ومن أبوك ؟! قال : فلان ابن فلان ، فعرفته فإذا هو كان من أصدق الناس إلىّ ، فقلت له : يا هذا ، إن الله تعالى قد أتاك بسوار ، منعه من الطعام والنوم والقرار ؛ حتى جاء به فأقعده بين يديك ، ثم دعوتُ الوكيلَ

فأخذت الدراهم منه فدفعتها إليه وقلت له : إذا كان الغد فسر إلى منزلى ، ثم مضيت ، وقلت : ما أحدّث أمير المؤمنين بشىء أظرف من هذا فأتيته ، فاستأذنت عليه ، فأذن لى ، فلما دخلت عليه ، حدّثته بما جرى لى ، فأعجبه ذلك ، وأمر لى بألفى دينار ، فأحضرت فقال : ادفعها إلى الأعمى ، فنهضت لأقوم فقال : اجلس فجلست ، فقال : أعليك دين ؟ قلت : نعم . قال : كم دينك ؟ قلت: خمسون ألفا ، فحادثنى ساعة وقال : امض إلى منزلك فمضيت إلى منزلى ، فإذا بخادم معه خمسون ألفا ، وقال : يقول لك أمير المؤمنين ، اقض بها دينك ، قال : فقبضت منه ذلك ، فلما كان من الغد أبطأ علىّ الأعمى ، وأتانى رسول المهدىّ يدعونى فجئته فقال : قد فكرت البارحة فى أمرك فقلت: يقضى دينه ، ثم يحتاج إلى القرض أيضا ، وقد أمرت لك بخمسين ألفا أخرى قال : فقبضتها وانصرفت فجاءنى الأعمى ، فدفعت إليه الألفى دينار ، وقلت له : قد رزقك الله تعالى بكرمه وكافأك على إحسان أبيك ، وكافأنى على إسداء المعروف إليك ، ثم أعطيته شيئا آخر من مالى ، فأخذه وانصرف والله سبحانه وتعالى أعلم .

(ومما هو أوضح حسنا ، وأرجح معنى) : ما حكاه القاضى يحيى بن أكثم - رحمة الله عليه - قال : دخلت يوما على الخليفة هارون الرشيد ولد المهدى ، وهو مطرق مفكر ، فقال لى : أتعرف قائل هذا البيت :

الخير أبقى وإن طال الزمان به ... والشّر أخبث ما أوْعَيت من زاد [1] ؟

فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنّ لهذا البيت شأناً مع عبيد بن الأبرص ، فقال : علىّ بعبيد فلما حضر بين يديه ، قال له : أخبرنى عن قصة هذا البيت ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، كنت فى بعض السنين حاجًّا فلما توسطت البادية فى يوم شديد الحرّ ، سمعت ضجة عظيمة فى القافلة ، ألحقت أوّلها بآخرها ، فسألت عن القصة ، فقال لى رجل من القوم : تقدم تَرَ ما بالناس ؛ فتقدّمت إلى أول القافلة ، فإذا أنا بشجاع أسود فاغرفاه كالجذع وهو يخور كما يخور الثور ، ويرغو كرغاء البعير ، فهالنى أمْرُه ، وبقيت لا أهتدى إلى ما أصنع فى أمره ، فعدَلْنا عن طريقه إلى ناحية أخرى ، فعارضنا ثانيا فعلمت أنه لسبب ، ولم يجسر أحد من القوم أن يقربه ، فقلت : أفدى هذا العالم بنفسى ، وأتقرّب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة ، من هذا فأخذت قربة من الماء ، فتقلدتها ، وسللت سيفى ، وتقدمت ، فلما رآنى قربت منه سكن ، وبقيت متوقعا منه وثبة يبتلعنى فيها ، فلما رأى القربة فتح فاه ، فجعلت فم القربة فى فيه ، وصببت الماء كما يصب فى الإناء فلما فرغت القربة تسبسب فى الرمل ، ومضى فتعجبت من تعرّضه لنا ، وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا منه ، ومضينا لحجنا ، ثم عدنا فى طريقنا ذلك ، وحططنا فى منزلتنا تلك فى ليلة مظلمة مدلهمة ، فأخذت شيئا من الماء ، وعدلت إلى ناحية عن الطريق ، فقضيت حاجتى ، ثم توضأت وصليت ، وجلست أذكر الله تعالى ، فأخذتنى عينى ، فنمت مكانى ، فلما استيقظت من النوم ، لم أجد للقافلة حسا وقد ارتحلوا ، وبقيت منفردا لم أر أحداً ولم أهتد إلى ما أفعله ، وأخذتنى حيرة ، وجعلت أضطرب وإذا بصوت هاتف أسمع صوته ، ولا أرى شخصه يقول :

يأيها الشخصُ المضل مَركبه ... ما عنده من ذى رشاد يصحبه
دونك هذا البكر [2] منا تركبه ... وبكرك الميمون حقا تجنبه
حتى إذا ما الليل زال غيهبه ... عند الصباح فى الفلا تسيبه

فنظرت فإذا أنا ببكر قائم عندى . وبكرى إلى جانبى ، فأنخته ، وركبته ، وجنبت بكرى ، فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لى القافلة ، وانفجر الفجر ، ووقف البكر ، فعلمت أنه قد حان نزولى فتحوّلت إلى بكرى وقلت :

يأيها البكر قد أُنجيت من كرب ... ومن هموم تُضلّ المدلج الهادى
ألا تخبرنى بالله خالقنا ... من ذا الذى جاد بالمعروف فى الوادى؟!
وارجع حميدا فقد أبلغتنا مِننًا ... بوركت من ذى سَنام رائح غَادى

---

(١) ذكر القصة ابن أبي الدنيا في كتابه الهواتف تحت عنوان هواتف الحيات وقد ورد هذا البيت على لسان «الشجاع» من الحيات مع بيتين قبله وآخر بعده، وعبيد شاعر جاهلي قتله المنذر بن ماء السماء ولم يعمر حتى عصر هارون الرشيد فلزم التنويه، ولعل الرشيد طلب من يقص عليه قصة هذا البيت. أو لعل صاحبها غير عبيد حيث يقول فيها «ثم توضأت وصليت».

(٢) البكر: بفتح الباء وسكون الكاف: الفتيّ من الإبل، والجمع أبْكُر، وبِكَار.

فالتفت البكر إلىّ وهو يقول :

أنا الشجاع الذى ألفيتنى رمضا ... والله يكشف ضرّ الحائر الصادى[١]
فجدت بالماء لما ضنّ حاملُه ... تكرّما منك لم تمنن بأنكاد
فالخير أبقى وإن طال الزمان به ... والشر أخبث ما أوعيت من زاد
هذا جزاؤك منى لا أمنّ به ... فاذهب حميدا رعاك الخالق الهادى

فعجب الرشيد من قوله وأمر بالقصة والأبيات فكتبت عنه وقال : لا يضيع المعروف أين وضع ! والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب .

الباب الثالث والأربعون

فى الهجاء ومقدماته

القصد من الهجاء : الوقوف على مُلَحِه ، وما فيه من ألفاظ فصيحة ، ومعانٍ بديعة ، لا التشفى بالأعراض ، والوقوع فيها ، وليس الهجاء دليلاً على إساءة المهجوّ ، ولا صدق الشاعر فيما رماه به ، فما كل مذموم بذميم ، وقد يُهْجَىٰ الإنسان بهتاناً وظلماً أو عبثاً أو إرهاباً . قال المتوكل لأبى العيناء، كم تمدح الناس وتذمهم ؟ قال : ما أحسنوا وأساءوا وقد - رضى الله تعالى - على عبد من عبيده فمدحه فقال : ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[٢] وغضب على آخر فقال : ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾[٣] قيل : الزنيم الملصق بالقوم ، وليس منهم ، وقال : دعبل[٤] فى المأمون : بعد البيعة له وقتل الأمين :

إنى من القوم الذين هُمُوهُمُو ... فقتلوا أخاك وشرفوك بمقعد
شادوا لذكرك بعد طول خُموله ... واستنقذوك من الحضيض الأوهد

فقال المأمون : ما أبهته ليت شعرى متى كنت خاملاً ، وفى حجر الخلافة رُبِّيتُ وبِبرّها غذيت ؟! . ولما قُتل جعفر بن يحيى بكى عليه أبو نواس ، فقيل له : أتبكى على جعفر وأنت هجوته ؟ فقال : كان ذلك لركوب الهوى ، وقد بلغه والله أنى قلت :

ولستُ وإن أطنبتُ فى وصف جعفر ... بأول إنسان خرى فى ثيابه !

فكتب : يدفع إليه عشرة آلاف درهم يغسل بها ثيابه ! . ومن العبث بالهجو ما روى أن الحُطيئة[٥] همّ بهجاء فلم يجد من يستحقه فقال :

أبتْ شفتاىَ اليومَ إلا تكلما ... بسُوء فلا أدرى لمن أنا قائله ؟!
أرى بى وجهَا قبّحَ الله خلقه ... فقبّح من وجهٍ وقبّح حامله

وعبث بأمه فقال :

---

(١) الصَّادي: شديد العطش.

(٢) سورة صَ: [٤٤] . والمراد بالعبد هنا « أيوب » عليه السلام فى الآية رقم [٤١] ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ .

(٣) سورة القلم الآيتان رقم [١٢ ، ١٣]. وجاء فى مبهمات القرآن - بتحقيقى - قال السدى : نزلت فى الأخنس بن شريق ، وقال مجاهد : فى الأسود بن عبد يغوث ، أخرجهما مجاهد . وقيل : فى الوليد بن المغيرة . حكاه . الكرمانى .

(٤) دعبل [٧٦٥ - ٨٦١ م] شاعر أصله من الكوفة . تخرج فى الشعر على مسلم بن الوليد واتصل بالرشيد . وكان يتشيع للعلويين .

(٥) الخطيئة أحد الهجائين ، ولم يرحم أحد من لسانه حتى نفسه وأمه . . انظر إلى كتابنا عنه « اضحك مع الخطيئة » .

تنحّ فاجلسى عنّا بعيدًا ... أراح اللهُ منك العالمينا
أغربالاً إذا استودعتِ سرًّا ... وكانونًا[١] على المتحدثينا
حياتُك ما علِمتُ حياة سُوءٍ ... وموتُك قد يَسُرّ الصالحينا

وقال رجل : ما أبالى أهُجيتُ أو مُدِحْت ، فقال له الأحنف : أرحتَ نفسَك من حيثُ تعبَ الكرام .

وأنا أقول : إنما يخشى من الهجو من يخاف على عرضه ؟ وأما من لا يخاف على عِرضه فقد يستوى عنده المدح والذم ، وبئس الرجل ذاك . وكان الرجل من نُمير إذا قيل له : ممن الرجل ؟ يقول من نمير ، وأمال بها عنقه فلما هجاهم جرير بقوله :

فغُضّ الطرفَ إنك من نُمير ... فلا كعبًا بلغتَ ولا كِلابَا[٢]

صار إذا قيل لأحدهم : ممن الرجل ؟ يقول : من بنى عامر ، وما لقيت قبيلة من العرب يهجو ما لقيت نمير بهجو جرير ، وهجا ابن بسام رجلاً فقال :

يا طلوعَ الرقيب[٣] من غير إلف ... يا غريمًا أتى على ميعاد
يا ركودا فى وقت غيم وصيف ... يا وجوهَ التجار يوم كساد

وقصد : ابن عيينة قبيصة المهلبى ، واستماحه ، فلم يسمح له بشىء فانصرف مغضَبًا فوجه إليه داود بن زيد بن حاتم فترضاه وأحسن إليه فقال فى ذلك :

داود محمود وأنت مذمم ... عجباً لذاك وأنتما من عود
ولرب عود قد يشق لمسجد ... نصفاً وباقيه لحش[٤] يهودى
فالحش أنت له وذاك بمسجد ... كم بين موضع مَسْلَح وسُجود
هذا جزاؤك يا قبيصُ لأنه ... جادت يداه وأنت قُفلُ حديد

وله هجاء فى خالد :

أبوك لنا غيث يُغيث بَوبْله ... وأنت جراد[٥] لستَ تُبقى ولا تَذَر
له أثر فى المكرمات يسرنا ... وأنت تُعفى دائماً ذلك الأثر

وقال المبرد فى حقه : لم يجتمع لأحد من المحدثين فى بيتٍ واحد هجاءُ رجلٍ ، ومدحُ أبيه إلا له .

ولما قعد حماد عجرد لتأديب ولد الأمين قال بشار بن برد :

قل للأمين جزاك الله صالحة ... لا يجمع الله بين السخل والذيب
السخل يعلم أن الذئب آكله ... والذئب يعلم ما بالسخل من طيب[٦]
يا أبا الفضل لا تنم ... وقع الذئب فى الغنم !
إن حماد عجرد ... شيخُ سوء قد اغتلم
بين فخذيه حَرْبة ... فى غلاف من الأدم
إن رأى ثم غفلة ... يجمع الميم بالقلم[٧]

---

(١) الكانُون : الذي يجلس حتى يتبيَّن الأخبار والأحاديث لينقلها .
(٢) كعب وكلاب قبيلتان معدودتان بين القبائل .
(٣) الرَّقيب : مَنْ يلاحظ أمْرًا ما ، أمين أصحاب الميسر يرعى حدود اللعب . (٤) الحش : الكنيف .
(٥) الوَبْل : المطر الشديد الضخم القطر . وهو مدح لأبيه ويأتى ذم ابنه فى أنه كالجراد المنتشر الأبيض ولا يذر فمدح أباه وذم ابنه فى بيت واحد .
(٦) السخْل والسخلة : الذكر والأنثى من ولد الضأن والماعز ساعة يولد .
(٧) اغتلم : أصابته غُلْمة ، وهى شدة الشبق والإنعاظ والشهوة للجماع . وقوله يجمع الميم بالقلم كناية عن الممارسة الجنسية . ارجع إلى كتابنا المحقق للثعالبى عن الكناية .

فشاعت الأبيات فأمر الأمين بإخراج حماد . وقال : رجل لأخيه لأبويه : لأهجونك هجاء يدخل معك فى قبرك ، قال : كيف تهجونى وأبوك أبى وأمك أمى ؟! قال أقول :

بنى أمية هُبّوا طال نومكمو ... إن الخليفة يعقوبُ بنُ داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا ... خليفةَ الله بين الماء والعود

فدخل يعقوب على المهدى ، فأخبره أن بشاراً هجاه ، فاغتاظ المهدى ، وانحدر إلى البصرة لينظر فى أمرهما فسمع أذانا فى ضحى النهار ، فقال : انظروا ما هذا ؟ وإذا به بشار وهو سكران فقال له : يازنديق عجب أن يكون هذا من غيرك ، ثم أمر به فضربه سبعين سوطاً حتى أتلفه بها ، وألقى فى سفينة فقال : عين الشمقمق ترانى حيث يقول :

إن بشارَ بنَ بُردِ ... تيسٌ أعمى فى سفينة

فلما مات ألقيت جثتُه فى الماء ، فحمله الماء فأخرجه إلى الدجلة ، فجاء بعض أهله ، فحملوه إلى البصرة ، وأخرجت جنازته ، فما تبعه أحد ، وتبَاشَر عامةُ الناس بموته ، لما كان يلحقهم من الأذى منه .

وخاصم أبو دُلامةُ رجلاً فارتفعا إلى عافية القاضى ؛ فلما رآه أبو دلامة أنشد يقول :

لقد خاصَمَتْنِى دُهاةُ الرجال ... وخاصمتُها سنة وافيه
فما أدحَضَ اللهُ لى حُجةً ... ولاخيب اللهُ لى قافيه
ومن خفت من جَوْره فى القضا ... ءِ فلستُ أخافك يا عافية

فقال عافية لأشكونك إلى أمير المؤمنين ، ولأعلمنه أنك هجوتنى ، قال له أبو دلامة إذًا والله يعزلك ، قال : ولم ؟ قال : لأنك لا تعرف الهجاء من المدح قال : فبلغ ذلك المنصور ، فضحك ، وأمر له بجائزة .

ودخل أبو دلامة على المهدى ، وعنده إسماعيل بن على ، وعيسى بن موسى ، والعباس ابن محمد ، وجماعة من بنى هاشم ، فقال له المهدى : والله لئن لم تهجُ واحداً ممن فى هذا البيت ، لأقطعن لسانك ، فنظر إلى القوم ، وتحير فى أمره ، وجعل ينظر إلى كل واحد فيغمزه ، بأن عليه رضاه ، قال أبو دلامة فإزددت حيرة فما رأيت أسلم لى من أن أهجو نفسى ، فقلت :

ألا أبلغ لديك أبا دُلامه ... فلست من الكرام ولا كرامه
جمعتَ دمامةً وجمعت لُؤماً ... كذاك اللؤم تتبعه الدّمامة
إذا لبس العمامة قلت : قرداً ... وخِنزيراً إذا نزع العمامة

فضحك القوم ولم يبق منهم أحد إلا أجازه . وقال ابن الأعرابى : إن أهجى بيت قاله المحدثون قول محمد بن وهب فى محمد بن هاشم :

لم تَندَ كفاك من بذلِ النوالِ كما ... لم يندَ سيفُك مُذ قلدته بدَمِ

وهجا بعضهم القمر فقال : يهدم العمر ، ويوجب أجرة المنزل ، ويشحب الألوان ، ويقرض الكتان ، ويضل السارى ، ويعين السارق ، ويفضح العاشق .

ولابن منقذ فى ابن طليب المصرى وقد احترقت داره :

انظر إلى الأيام كيف تسوقنا ... قسرًا إلى الأقدار بالأقدار
ما أوقد ابن طليب قطّ بداره ... ناراً وكان خرابُها بالنار

وكان : للوجيه بن صورة المصرى دلال الكتب دار بمصر موصوفة بالحسن ، فاحترقت فقال فيها ابن المنجم :

أقول وقد عاينت دار ابن صورة ... وللنار فيها وهجةٌ تَتَضَرّمُ
فما هو إلا كافر طال عمره ... فجاءته لما استبطأته جَهَنّمُ

وقد أحسن الأديب كمال الدين على بن محمد بن المبارك الشهير بابن الأعمى فى ذم دارٍ كان يسكنها حيث قال :

دارٌ سكنتُ بها أقاسى صفاتها ... أن تكثر الحشراتُ فى جَنَبَاتِها

الخير عنها نازحٌ متباعدٌ ... والشرّ دان من جميع جهاتها
من بعض ما فيها البعوضُ عُدِمْتُه ... كم أعدم الأجفان طيب سِناتها[١]
وتبيت تُسعدها براغيثٌ متى ... غنّت لها رقصتْ على نغماتها
رقص بتنقيط ولكن قافه ... قد قُدمت فيه على أخواتها
وبها ذبابُ كالضباب يَسُدّ ... عين الشمس ما طربى سوى غناتها
أين الصوارم والقنا من فتكها ... فينا ؟! وأين الأسْدُ من وثباتها ؟!
وبها من الخطاف ما هو معجز ... أبصارَنا عن وصف كيفياتها
وبها خفافيشٌ تطير نهارَها ... مع ليلها ليست على عادتها
وبها من الجُرذان ما قد قصرت ... عنه العِتاق الجُرد فى حملاتها
وبها خنافس كالطنافس[٢] أفرشت فى ... أرضها ، وعلت على جنباتها
لوشمّ أهلُ الحرب مُنْتِنَ فَسْوِها ... أردى الكُماةَ[٣] الصيدَ عن صَهَواتِها
وبنات وِرْدان وأشكال لَها ... مما يفوت العينَ كُنْهُ ذواتها
أبداً تمصّ دماءَنا فكأنها ... حجامة لبدت على كاساتها
وبها من النمل السليمانى ما ... قد قل ذر الشمس عن ذراتها
ماراعنى شيء سوى وزغاتها ... فتعَوّذوا بالله من لدغاتها
سجعت على أوكارها فظننتها ... وُرقَ الحمام سجعن فى شجراتها
وبها زنابير[٤] تظن عقاربًا ... حر السموم أخف من زفراتها
وبها عقاربُ كالأقارب رُتَّع ... فينا حماناً الله لدغَ حُماتها
كيف السبيل إلى النجاة ولا نجاة ... ولا حياة لمن رأى حَيّاتها
منسوجة بالعنكبوت سماؤها ... والأرض قد نُسجت على آفاتها
فضجيجُها كالرعد فى جنباتها ... وترابُها كالرمل فى خشناتها
والبوم عاكفةٌ على أرجائها ... والدود تبحث فى ثرى عَرَصَاتها
والجن تأتيها إذا جَنّ الدُّجى ... تحكى الخيولَ الجردَ فى حملاتها
والنار جزء من تلهّب حَرّها ... وجهنم تُغْزَى إلى لفحاتها
شاهدتُ مكتوبًا على أرجائها ... ورأيت مسطورًا على جنباتها
لا تقربوا منها ، وخافوها ولا ... تُلقوا بأيديكم إلى هَلَكاتها
أبداً يقول الداخلون ببابها ... يارب نج الناسَ من آفاتها
قالوا : إذا ندب الغرابُ منازلاً ... يتفرق السكانُ من ساحاتها
وبدارنا ألفا غرابٍ ناعق ... كذب الرواة فأين صدق رواتها
صبراً لعل الله يعقب راحةً ... للنفس إذ غلبت على شهواتها
دار تبيت الجنّ تحرس نفسها ... فيها وتندب باختلاف لغاتها
كم بت فيها مفردًا والعين من ... شوق الصباح تسح من عَبَراتها

---

(١) السِّنات : جمع سِنة وهى مقدمة النوم أو النوم الخفيف .
(٢) الطَّنافِس: مفردها طَنْفِس: بفتح الفاء وكسرها: البِساط، والنُّمْرقة فوق الرَّحْل.
(٣) الكُماة: كمى إليه، أي تقدَّم، وكمى نَفسَه، أي سترها بالدِّرع والبيضة، فهو كام.
(٤) زنانير: جمع زِنْبار، وهي حشرة أليفة اللسْع من الفصيلة الزنبورية، واحدته زِنْبارة.

وأقول : يارب السموات العُلا ... يا رازقاً للوحش فى فَلَواتها
أسكنتنى بجهنم الدنيا ففى ... أخرى هب لى الخلد فى جنّاتها
واجمع بمن أهواه شملى عاجلا ... يا جامع الأرواح بعد شتاتها

ولبعضهم فى بلان :

أشكو إلى الله بلّانا بليت به ... مست أناملُه ظهرِى فأدمانى
فلا يدلك تدليكاً بمعرفة ... ولا يُسَرّح تسريحًا بإحسان

وللشيخ شمس الدين البدوى فى بلان أيضا :

وبَلّانٍ له ظفر يُباهى ... به حدّ الشفارِ المرهفات
هرى جسمى فألبسه نجيعاً ... على حُلَل الستور السابلات[1]
ورامَ يلين أعضائى برفق ... فأيبسها وكسّر فوقحاتى
ولم أنظر له أبداً جميلاً ... وذلك من عظيم المهلكات
وأعمى مقلتى بصنان إبْط ... يفوحُ به على كل الجهات
فلا تجعل إلهى مثل هذا ... يغسلنى إذا حانت وفاتى !

ولبعضهم فى حمام :

وحمام دخلناه لأمر ... حكى سقَرا وفيها المجرمونا
فيصطرخوا يقولوا أخرجونا ... فإن عُدْنا فإنا ظالمونا[2]

وللشريف أبى يعلى الهاشمى البغدادى فى نظام الملك يهدده بالهجاء يقول :

أيجمُل يانِظَامَ الملك أنى ... أعاود من ذَراك[3] كما قدمت ؟!
وأصدر عن حياضك وهى نهب ... بأفواه السقاة وما وردت ؟!
يدل على فعالك سوءُ حالى ... ويخبر عن نوالك إن كتمت
إذا استخبرت ماذا نلت منه ... وقد عم الورى كرماً سكَتّ

وممن عرض بالهجو فى شعره الخُوارزمى قال فى أبى جعفر :

أبا جعفر لست بالمنصف ... ومثلك إن قال قولاً يفى
فإن أنت أنجزتَ لى ما وعدتَ ... وإلا هجيت وأدخلت فى
وقد علم الناس ما بعد فى ... فغطّ الحديثَ ولا تكشفِ

ومدح السراج الوراق إنساناً فلم يجزه ، فكتب يعرض له بالهجاء ، ويهدده يقول :

أعد مدحى على وخذ سِواه ... فقد أتعبتنى يا مستريحُ
ولاتغضب إذا أنشدتَ يوما ... سواه وقيل لى : هذا صحيحُ

وله أيضاً يقول :

أعد مدحاً كذبت عليك فيه ... وقد عوقبتُ بالحرمان عنه
ولكنى سأصدق فيك قولاً ... فلا يصعب عليك الحق منه

وقال بعضهم فى حُجاج قدموا ولم يهدوا إليه شيئًا :

---

(١) النجيع : الدم المتجلّط .

(٢) ضمن بيته بعض الآية الكريمة ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون : ١٠٧] .

(٣) ذراك : ذرا إليه، أي قصد، وذرا الريح التراب: أطاره وفرّقه.

مضوا ليحجّوا والوجوهُ كأنها ... تكاد لفرط البشر أن توضح السُّبُلا
وعادوا كأن القار فوق وجُوهِهم ... فلا مَرْحباً بالقادمين ولا سَهْلاً
وجاءوا وما جادوا بعود أراكة ... ولا وضعوا في كف طفل لنا نُقْلاً [١]

وقال آخر :

إذا رمتُ هجوا في فلان تَصُدّني ... خلائقُ قبح عنه لا تتزحزح
تجاوز قدرَ الهجو حتى كأنه ... بأقبح ما يُهجَى به المرء يُمدَحُ

وهجا بعضهم امرأة فقال :

لها جسم برغوث وساق بعوضةٍ ... ووجهٌ كوجه القرد بل هو أقبح
تُبَرّق عينيها إذا ما رأيتَها ... وتعبس في وجه الضجيع وتكلح [٢]
لها منظر كالنار تحسب أنها ... إذا ضحكت في أوجه الناس تلفح
إذا عاين الشيطان صورة وجْهها ... تعوذ منها حين يُمسي ويُصبح

ولبعضهم في عظيم أنف :

لك وجه وفيه قطعة أنف ... كجدار قد دعموه ببغله
وهو كالقبر في المثال ولكن ... جعلوا نصفه على غير قبله

أيضاً :

رأينا للزكي جدار أنف ... يضاهي في تشامخه الجبالا
تصدى للهلال لكي يراه ... فلولا عظمه لرأى الهلالا

ولصفي الدين الحلي :

رأى فرسي اصطبل عيسى فقال لي ... قِفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
به لم أذق طعم الشعير كأنني ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل
تقعقع [٣] من برد الشتاء أضالعي ... لما نسجتها من جنوب وشمأل

وله أيضاً :

ليَهْنِكَ أن لي ولداً وعبدا ... سواءً في المقال وفي المقام
فهذا سابق من غير سينٍ ... وهذا عاقل من غير لام [٤]

وله في طبيب يدعى إسحاق :

مباضع إسحٰق الطبيب كأنها ... لها بفناء العالمين كفيل [٥]
مَعَوّدة أن لا تسل نصالها ... فتغمد حتى يستباحَ قتيل

وله في أحمق طويل اللسان :

لو أن قوة وجهه في قلبه ... قنص الأسودَ وجَنْدلَ الأبطالا [٦]
أو كان طولُ لسانه بيمينه ... أفنى الكنوزَ وأنفد الأموالا

وهجا أعرابي رجلا ثم مدحه فقال :

---

(١) القار : الزفت . وعود الأراكة : السواك . والنُّقل : البندق والجوز واللوز وما أشبه .
(٢) الضجيع : الزوج .
(٣) تقعقع الشيءُ: تحرّك واضطرب، وأحدث صوتًا عند التحرُّك.
(٤) سابق من غير سين : آبق وهو الهارب ، وعاقل من غير لام : عاق لأبويه .
(٥) مباضع : جمع مبضع ، آلة الجراح .
(٦) جندل الأبطال : صرعهم وجدلهم .

إنى مدحتك من فساد قريحتى ... وعلمت أن المدح فيك يضيع
لكن رأيتُ المسك عند فساده ... يُدْنَى إلى بيت الخلا فيضوع [١]

وقيل لبعضهم : ما تقول فى فلان وفلان قال : هما الخمر والميسر إثمهما أكبر من نفعهما وقيل لرجل : كيف وجدت فلاناً ؟ قال : طويل اللسان فى اللؤم ، قصير الباع فى الكرم ، وثاباً على الشر ، مناعاً للخير .

وسمع أعرابى قوله تعالى : ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة:٩٧]. فانتفض ، ثم سمع قوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة:٩٩] فقال الله أكبر هجاناً ثم مدحنا وكذلك قال الشاعر :

هجوتُ زهيراً ثم إنى مدحتُه ... وما زالت الأشراف تُهجى وتُمدح

وقال : أبو زيد العبدى :

ولقد قتلتك بالهجاء فلم تمت ... إن الكلاب طويلة الأعمار

وقال المتوكل لأبى العيناء : ما بقى أحد فى المجلس إلاّ هجاك وذمّك غيرى ، فقال :

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى ... فلا زال غضباناً على لئامها

الباب الرابع والأربعون

فى الصدق والكذب وفيه فصلان

الفصل الأول : فى الصدق

قال الله تعالى مبشراً للصادقين : ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة:١١٩] . وقال تعالى : ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] فمدحهم وبين لهم المغفرة والأجر العظيم[٢] وقال : عمر ﷺ عليك بالصدق وإن قتلك . وما أحسن ما قيل فى ذلك :

عليك بالصدق ولو أنه ... أحرقك الصدقُ بنار الوعيد
وابغ رِضا المولى فأغبى الورى ... من أسخط المولى وأرضى العبيد

وقال إسماعيل بن عبيد الله لما حضرت أبى الوفاة جمع بنيه ، فقال لهم : يابنى ، عليكم بتقوى الله ، وعليكم بالقرآن فتعاهدوه ، وعليكم بالصدق ، حتى لو قتل أحدكم قتيلاً ثم سُئل عنه : أقرّ به ، والله ما كذبت كذبة قط منذ قرأت القرآن . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ : بم يعرف المؤمن ؟ قال : « بوقاره ولين كلامه » وصدق حديثه[٣] . وقيل . لكل شىء حِلية وحلية النطق الصدق . وقال محمود الوراق :

الصدق مَنجاة لأربابه ... وقُربةٌ تدنى من الربّ

وقيل : الصدق عمود الدين ، وركن الأدب ، وأصل المروءة فلا تتم هذه الثلاثة إلا به . وقال أرسطوطاليس أحسن الكلام ما صدق فيه قائله ، وانتفع به سامعه .

وقال المهلب بن أبى صفرة : ما السيف الصارم فى يد الشجاع بأعزَّ له من الصدق . وكان يقال على الصدوق : فلان وقف لسانه على الصدق . ويقال : الصدق محمود من كل أحد إلا من الساعى . ويقال : لو صدق عبد فيما بينه

---

(١) بيت الخلا : الكنيف والمرحاض ، ويَضُوع : يفوح .
(٢) إشارة إلى نهاية الآية السابقة ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ .
(٣) لم أهتد إليه.

وبين الله تعالى حقيقة الصدق ، لاطلع على خزائن الغيب ، ولكان أميناً فى السموات والأرض . وقيل : من لزم الصدق وعوّد لسانه به وُفّق .

ويقال : الصدق بالحر أحرى . وقال عُتبة بن أبى سفيان : إذا اجتمع فى قلبك أمران لا تدرى أيهما أصوب ؟ فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه ، فإن الصواب أقرب إلى مخالفة الهوى . وقال أرسطوطاليس : الموت مع الصدق خير من الحياة مع الكذب . وكان نقش خاتم ذى يزن وضَعُ الخَدّ للحق عِزّ . وامتدح ابن ميادة جعفر بن سليمان فأمر له بمائة ناقة فقبل يده وقال : والله ما قبلت يد قرشى غيرك إلا واحداً فقال : أهو المنصور ؟ قال : لا والله ، قال فمن هو ؟ قال الوليد بن يزيد ! قال : فغضب ، وقال : والله ما قبلتها لله تعالى فقال : والله ولا يدك ما قبلتها لله تعالى ! ولكن قبلتها لنفسى ، فقال : والله لا ضرك الصدق عندى ! أعطوه مائة أخرى ! وقال : عامر العدوانى فى وصيته : إنى وجدت صدق الحديث طرفاً من الغيب ، فاصدقوا . يعنى : من لزم الصدق وعوده لسانه وفق ، فلا يكاد ينطق بشىء يظنه إلا جاء على ظنه . وخطب بلال لأخيه امرأة قرشية فقال لأهلها : نحن من قد عرفتم كنا عبدين ، فأعتقنا الله تعالى ، وكنا ضالين فهدانا الله تعالى ، وكنا فقيرين ، فأغنانا الله تعالى ، وأنا أخطب إليكم فلانة لأخى فإن تنكحوها له فالحمد لله تعالى ، وإن تردونا فالله أكبر ، فأقبل بعضهم على بعض فقالوا : بلال ممن عرفتم سابقته ومشاهده ، ومكانه من رسول الله ﷺ فزوجوا أخاه فزوجوه ، فلما انصرفوا قال له أخوه : يغفر الله لك أما كنت تذكر سوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله ﷺ وتترك ما عدا ذلك . فقال : مَهْ[1] ، يا أخى صدقت فأنكحك الصدق . وخطب الحجاج فأطال ، فقام رجل فقال الصلاة فإن الوقت لا ينتظرك والرب لا يعذرك فأمر بحسبه ، فأتاه قومه وزعموا أنه مجنون ، وسألوه أن يخلى سبيله ، فقال : إن أقر بالجنون خليته فقيل له فقال : معاذ الله : لا أزعم أن الله ابتلانى ، وقد عافانى ، فبلغ ذلك الحجاج فعفا عنه لصدقه ! .

الفصل الثانى :من هذا الباب فى الكذب وما جاء فيه

قال الله تعالى فى الكاذبين :﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠] . وقال تعالى :﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر: ٦٠] وقال رسول الله ﷺ : « **إياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، والفجور يهدى إلى النار ، وتحرّوا الصدق فإن الصدق يهدى إلى البر ، والبر يهدى إلى الجنة** »[2] . وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا كذب العبد كذبة تباعد الملكان عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به** »[3] . ويقال : « **راوى الكذب أحد الكذابين** » . ويقال : « **رأس المآثم الكذب ، وعمود الكذب البهتان** » . وقيل « **أمران لا ينفكان من الكذب : كثرة المواعيد ، وشدة الاعتذار** » . وقال الحسن فى قوله تعالى :﴿ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨] . وهى لكل واصف كذب إلى يوم القيامة . قال الأصمعى قلت لكذاب : أصدقت قط ؟ قال : لولا أنى أخاف أصدق فى هذا القلت لك : لا . فتعجب . وقال محمود بن أبى الجنود :

لى حيلة فيمن ينمّ ... وليس فى الكذاب حيله
من كان يخلق ما يقو ... ل فحيلتى فيه قليله

ويقال : فلان أكذب من لمعان السراب ، ومن سحاب تموز . وكان بفارس محتسب يعرف بجـ[illegible]ـب ، وكان يقول : إن منعت الكذب ، انشقت مرارتى وإنى والله لأجد به مع ما يلحقنى من عاره من الـ[illegible]ـر ما لا أجده بالصدق مع ما ينالنى من نفعه ! . وقال فيلسوف : من عرف من نفسه الكذب لم يصدق الصادق فيما يقوله : ولبعضهم :

حسبُ الكذوبِ من البلـ ... ـية بعضُ ما يُحكى عليه

---

(١) مه : اسم فعل بمعنى اسكت ، وكُفّ عن هذا .

(٢) « إياكم والكذب . . » أخرجه البخارى [٦٠٩٤] ، ومسلم [٢/ ٤٣٩] ، وأبو داود [٤٩٦٨] ، والترمذى [١٩٧١] ، وابن ماجه [٤٦] ، أحمد [١/ ٤٣٢] ، من حديث ابن مسعود .

(٣) حديث « إذا كذب العبد . . إلخ » ضعيف جدًا أخرجه الترمذى [١٩٧٢] ، وفيه عبد الرحيم بن هارون ، ضعيف الحديث جدًا .

فمتى سمعت بكذبة من غيره نُسبت إليه

وأضاف صَيْرفى قوماً فأقبل يحدثهم ، فقال بعضهم : نحن كما قال تعالى : ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة:٤٢]. وعن عبد الله بن السدى قال : قلت لابن المبارك : حدثنا حديثاً قال : ارجعوا فلست أحدثكم ، فقيل له : إنك لم تحلف ، فقال : لو حلفت لكفّرت وحدثتكم ، ولكن لست أكذب ، فكان هذا أحب إلينا من الحديث . وقال مجاهد يكتب على ابن آدم كل شىء حتى أنينه فى سقمه . وحتى أن الصبى ليبكى فتقول له أمه : اسكت وأشترى لك كذا ثم لا تفعل ، فتكتب كذبة . وقال الفضيل ما من مضغة أحب إلى الله تعالى من اللسان إذا كان صدوقاً ، ولا مضغة أبغض إلى الله تعالى من اللسان إذا كان كذوباً . وعن ابن مسعودﷺ مرفوعاً : « **أعظم الخطايا اللسان الكذوب** »[1] .

قال الشاعر :

لا يكذب المرءُ إلا من مَهانته أو فعله السوء أو من قلةِ الأدب

لَبَعْض جيفةِ كلبٍ خيرُ رائحة من كذبة المرء فى جِدٍّ وفى لَعِب

ولما نصب معاوية ﷺ ابنه يزيد لولاية العهد ، أقعده فى قبة حمراء ، وجعل الناس يسلمون على معاوية ، ثم يسلمون على يزيد ، حتى جاء رجل ففعل ذلك ، ثم رجع إلى معاوية فقال : ياأمير المؤمنين ، اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها والأحنف ساكت ، فقال معاوية : مالك لا تقول ياأبا بحر ؟! فقال أخاف الله تعالى إن كذبت ، وأخافكم إن صدقت ، فقال جزاك الله خيراً عما تقول ، ثم أمر له بألوف ، فلما خرج الأحنف لقيه ذلك الرجل بالباب ، فقال له : ياأبا بحر إنى لأعلم أن هذا من شرار خلق الله تعالى ، ولكنهم استوثقوا من الأموال بالأبواب والأقفال فلسنا نطمع فى إخراجها إلا بما سمعت ، فقال له الأحنف : ياهذا أمسك ، فإن ذا الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيهاً .

وقيل : إن الكذب يحمد إذا وصل بين المتقاطعين ، أو أصلح بين الزوجين ، ويذم الصدق إذا كان غيبة ، وقد رفع الحرج عن الكاذب فى الحرب ، وعن المصلح بين المرء وزوجه . وكان المهلب فى حرب الخوارج يكذب لأصحابه يقوّى بذلك جأشهم ، فكانوا إذا رأوه مقبلاً إليهم قالوا : جاءنا بكذب . وقال يحيى بن خالد رأينا شارب خمر نزع ، ولصاً أقلع ، وصاحب فواحش رجع ، ولم نر كذاباً صار صادقاً . وكان عمرو بن معديكرب مشهوراً بالكذب وقيل لخلف الأحمر - وكان شديد التعصب لليمن: أكان ابن معد يكرب يكذب ؟ فقال : كان يكذب فى المقال ، ويصدق فى الفعال .

وقيل إن بلالاً لم يكذب مذ أسلم ﷺ والحمدلله وحده .

(١) عن ابن مسعود . . « أعظم الخطايا اللسان الكذوب » أورده المتقى الهندى فى « كنز العمال » برقم [٨٢٠٣] ، وعزاه لابن لال .

الباب الخامس والأربعون

فى بر الوالدين ، وذم العقوق ، وذكر الأولاد ، وما يجب لهم وعليهم وصلة الرحم والقرابات وذكر الأنساب وفيه فصول

الفصل الأول : فى بر الوالدين وذم العقوق

قال الله تعالى : ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ . [النساء:٣٦] وقال تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣] . وقال تعالى : ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان:١٤] وقال تعالى : ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤] . وعن على ﷺ: لو علم الله شيئاً فى العقوق أدنى من أفّ لحرمه ، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل ، فلن يدخل الجنة ، وليعمل البار ما شاء أن يعمل ، فلن يدخل النار . وقيل إن رضا الرب فى رضا الوالدين وسخط الرب فى سخط الوالدين .

وحكى : أبو سهل عن أبى صالح عن أبى نجيح عن ربيعة عن عبد الرحمٰن ، عن عطاء ابن أبى مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « **من حج عن والده بعد وفاته كتب الله لوالده حجة ، وكتب له براءة من النار** »[(١)] . وقال رسول الله ﷺ « **إياكم وعقوق الوالدين فإن ريح الجنة يوجد من مسيرة خمسمائة عام ، ولا يجد ريحها عاق** »[(٢)] . وكان رجل من النساك يقبّل كل يوم قدم أمه فأبطأ يوماً على إخوته ، فسألوه فقال : كنت أتمرغ فى رياض الجنة فقد بلغنا : أن الجنة تحت أقدام الأمهات[(٣)] ، وبلغنا أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام ثلاثة آلاف وخمسمائة كلمة فكان آخر كلامه : يارب أوصنى ، قال : « **أوصيك بأمك حسناً** » . قال له سبع مرّات قال : حسبى ، ثم قال : « **يا موسى ألا إن رضاها رضاى وسخطها سخطى** »[(٤)] . وقال عمر بن عبد العزيز ﷺ لابن مهران : لا تأتِيَنَّ أبواب السلاطين وإن أمرتهم بمعروف ، أو نهيتهم عن منكر ، ولا تخلون بامرأة وإن علمتها سورة من القرآن ، ولا تصحبن عاقًّا فإنه لن يقبلك وقد عق والديه .

وقال فيلسوف : من عق والديه عقه ولده . وقال المأمون لم أر أحداً أبرّ من الفضل ابن يحيى بأبيه ، بلغ من بره له أنه كان لا يتوضأ إلا بماء سُخّن فمنعهم السجان من الوقود فى ليلة باردة فلما أخذ يحيى مضجعه قام الفضل إلى قمقم نحاس فملأه ماء وأدناه من المصباح ، فلم يزل قائماً وهو فى يده إلى الصباح حتى استيقظ يحيى من منامه . وقيل : طلب بعضهم من ولده أن يسقيه ماء فلما أتاه بالشربة نام أبوه ، فما زال الولد واقفاً بالشربة فى يده إلى الصباح ، حتى استيقظ أبوه من منامه .

وقال رجل لعمر بن الخطاب ﷺ إن لى أما بلغ منها الكبر أنها لا تقضى حاجتها إلا وظهرى لها مطية ، فهل أديت حقها ؟ قال : لا لأنها كانت تصنع بك ذلك ، وهى تتمنى بقاءك ، وأنت تصنعه وتتمنى فراقها ، وقال ابن المنكدر : بتّ أكبس رجل أبى ، وبات آخر يصلى ، ولا يَسُرنى ليلتَه بليلتى . وقيل : إن محمد بن سيرين كان يكلم أمه كما يكلم

---

(١) « من حج عن والده بعد وفاته كتب الله لوالده حجة ، وكتب له براءة من النار » . . ضعيف : أخرجه البيهقى فى « الشعب » [٧٩١٢] ، عن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر ، عن أبيه ، عن جده ، وفى إسناده مجهولان .

(٢) إياكم وعقوق الوالدين . . إلخ ضعيف جدا : أخرجه الطبرانى فى الأوسط [٢٨٥٠ ، ٤٢٥٣] مجمع البحرين ، من حديث جابر وفيه : فإن ريح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام وفيه محمد بن كثير ، وجابر الجعفى ، وكلاهما ضعيف جدا .

(٣) بلغنا أن « الجنة تحت أقدام الأمهات » منكر : أخرجه الطيب فى « الجامع لأخلاق الرواة » [٢/ ٢٨٩] ، والدولابى فى « الكنى » [٢/ ١٣٨] ، والقضاعى فى « مسند الشهاب » رقم [١١٩] من حديث أنس ، وفى مسنده منصور بن المهاجر ، وأبو النضر الأبار ، لا يعرفان ، والحديث منكر .

(٤) وبلغنا أن الله تعالى كلم موسى إلخ . لم أقف على من خرّجه .

الأمير الذى لا ينتصف منه . وقيل لعلى بن الحسين ﷺ إنك من أبرّ الناس ، ولا تأكل مع أمك فى صحفة . فقال : أخاف أن تسبق يدى يدها إلى ما تسبق عيناها إليه فأكون قد عققتها .

الفصل الثانى : فى الأولاد وحقوقهم ، وذكر النجباء والأذكياء والبلداء والأشقياء

قال رسول الله ﷺ « الولد ريحانة من الجنة »[(١)] . وقال الفضل : ريح الولد من الجنة وكان يقال : ابنك ريحانتك سبعاً ثم حاجبك سبعاً ، ثم عدو أو صديق . وعن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال : قلت لسيدى رسول الله ﷺ يا رسول الله هل يولد لأهل الجنة ، قال : « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنَّ الرَّجُلَ يَشْتَهِى أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، فَيَكُونَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وَشَبَابُهُ الَّذِى يَنْتَهِى إِلَيْهِ فِى سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ »[(٢)] . وقيل : من حق الولد على والده أن يوسع عليه حاله كيلا يفسق . وقال عمر ﷺ إنى لأكره نفسى على الجماع رجاء أن يخرجَ اللهُ منى نَسَمة تسبحه وتذكره وقال ﷺ : أكثروا من العيال فإنكم لا تدرون بمن ترزقون . وقال شبيب بن شبة : ذهب اللذات إلا من ثلاث : شم الصبيان ، وملاقاة الإخوان ، والخلوّ مع النسوان .

ودخل عمرو بن العاص على معاوية وعنده ابنته عائشة فقال : من هذه ياأمير المؤمنين قال : هذه تفاحة القلب ، فقال : انبذها عنك فإنهن يلدن الأعداء ، ويقرّبن البعداء ، ويورثن الضغائن . قال : لا تقل يا عمرو ذلك فوالله ما مرض المرضى ، ولا ندب الموتى ، ولا أعان على الإخوان إلا هن . فقال عمرو : ياأمير المؤمنين ، إنك حببتهن إلى . وقيل لرجل : أى ولدك أحب إليك ؟ قال : صغيرهم حتى يكبر ، ومريضهم حتى يبرأ وغائبهم حتى يحضر ! وقال ابن عامر لامرأته أمامة بنت الحكم الخزاعية : إن ولدت غلاماً فلك حكمك ، فلما ولدت قالت : حكمى أن تطعم سبعة أيام كل يوم على ألف خوان من فالوذج ، وأن تعقّ بألف شاةٍ ، ففعل لها ذلك . وغضب معاوية على يزيد فهجره ، فقال الأحنف : ياأمير المؤمنين ، أولادنا ثمارُ قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم سماء ظليلة ، وأرض ذليلة ، وبهم نصول على كل جليلة فإن غضبوا فأرضهم ، وإن سألوا فأعطهم وإن لم يسألوا فابتدئهم ، ولا تنظر إليهم شزراً فيملوا حياتك ، ويتمنوا وفاتك . فقال معاوية : يا غلام إذا رأيت يزيد فأقرئه السلام واحمل إليه مائتى ألف درهم ، ومائتى ثوب ، فقال يزيد : مَنْ عند أمير المؤمنين ؟ فقيل له الأحنف : فقال يزيد بن معاوية علىّ به ، فقال : ياأبا بحر كيف كانت القصة فحكاها له ، فشكر صنيعه ، وشاطره الصلة .

وحكى : الكسائى أنه دخل على الرشيد يوماً فأمر بإحضار الأمين والمأمون ولديه قال : فلم يلبث قليلا أن أقبلا ككوكبى أفق ، يزينهما هداهما ووقارهما وقد غضّا أبصارَهما حتى وقفا فى مجلسه ، فسلما عليه بالخلافة ، ودعوا له بأحسن الدعاء ، فاستدْناهما ، وأسند محمداً عن يمينه وعبد الله عن يساره ، ثم أمرنى أن ألقى عليهما أبواباً من النحو ، فما سألتهما شيئاً إلا أحسنا الجواب عنه ، فسره ذلك سروراً عظيماً وقال : كيف تراهما ؟ فقلت شعراً :[(٣)]

أرى قمرى أفق وفرعين شامة ... يزينهما عرق كريم ومحتد
سليلى أمير المؤمنين وحائزى ... مواريث ما أبقى النبى محمدُ
يَسدَّان أنفاق النفاق بشيمة ... يزينهما حزم وسيف مهندُ

ثم قلت ما رأيت - أعز الله أمير المؤمنين - أحداً من أبناء الخلافة ، ومعدن الرسالة ، وأغصان هذه الشجرة الزلالية[(٤)] آدب منهما ألسنا ولا أحسن ألفاظاً ، ولا أشد اقتداراً على الكلام روية وحفظاً منهما ؛ أسأل الله تعالى أن يزيد بهما الإسلام تأييداً وعزاً ، ويدخل بهما على أهل الشرك ذلا وقمعاً . وأمن الرشيد على دعائه ثم ضمهما إليه وجمع عليهما يديه ، فلم يبسطهما حتى رأيت الدموع تتحدر على صدره ، ثم أمرهما بالخروج ، وقال : كأنكم بهما وقد دهم

---

(١) « الولد ريحانة من الجنة » ضعيف : أخرجه الترمذى عن خولة بنت حكيم ، كما فى « تمييز الطيب » لابن البديع [ص ٢٩٢ - ط . مكتبة القرآن]. وهو فى « ضعيف الجامع الصغير » برقم [٦١٧٩] .

(٢) وعن أبى سعيد الخدرى قال : يا رسول الله . . . إلخ . أخرجه أحمد [٣/ ٩] ، والترمذى [٢٦٨٩] ، وابن ماجه [٤٣٣٨] ، وابن أبى الدنيا فى « صِفَةِ الجنة » برقم [٢٧٣ - إصدار مكتبة القرآن] .

(٣) يقال : كأنهم شامة فى « الناس » أى هم ظاهرون .

(٤) الزلالية : الزلال الصافى من كل شىء . والمراد التى سقيت بماء صاف طاهر .

القضاء ، ونزلت مقادير السماء ، وقد تشتت أمرهما ، وافترقت كلمتهما بسفك الدماء وتهتك الستور . وكان يقال بنو أمية دَنّ[١] خل أخرج الله منه زِقّ عسل، يعنى عمر بن عبد العزيز وسب أعرابى ولده ، وذكر له حقه ، فقال : ياأبتاه ، إن عظيم حقك على لا يبطل صغير حقى عليك . قال سيدى عبد العزيز الديرينى - رحمه الله تعالى - :

أحب بنيتى ، وودت أنى ... دفنت بنيتى فى قاع لَحْدِ
وما بى أن تهون على لكن ... مخافة أن تذوق الذل بَعْدِى
فإن زوجتها رجلا فقيرا ... أراها عنده والهم عندى
وإن زوجتُها رجلاً غنيا ... فيلطم خدّها ويسب جَدّى
سألت الله يأخذها قريباً ... ولو كانت أحبَّ الناس عندى !

وقال هارون بن على بن يحيى المنجم :

أرى ابنى تشابه من على ... ومن يحيى وذاك به خليق
وإن يُشبِهْهُمَا خُلُقا وخَلْقَا ... فقد تَسْرى إلى الشبه العروقُ

وقال أبو النصر مولى بنى سليم :

ونفرح بالمولود من آل برمك ... ولاسيما إن كان من ولد الفضل

وقال الحسن بن زيد العلوى :

قالوا : عقيم ولم يُولَد لهُ وَلَدُ ... والمرءُ يخلفُه من بعده الولد
فقلت : من عَلِقَتْ بالحرب همتُه ... عاف النساءَ ولم يكثر له عدد

وكان الزبير بن العوّام يرقص ولده ويقول :

أزهر من آل بنى عتيق ... مبارك من ولد الصدّيق
ألذّه كما ألَذُّ ريقى

وكانت أعرابية ترقص ولدها وتقول :

ياحبذا ريح الولد ... ريح الخُزامى فى البلد
أهكذا كل ولد ... أم لم يلد مثلى أحد[٢]

وكان أعرابى يرقص ولده ويقول :

أحبه حب الشحيح ماله ... قد ذاق طعم الفقر ثم ناله
إذا أراد بَذْلَه بدا له

وكان لأعرابى امرأتان فولدت إحداهما جارية والأخرى غلاماً فرقصته أمه يوماً وقالت معايرة لضرتها ! :

الحمد لله الحميد العالى ... أنقذنى العامَ من الجوالى[٣]
من كل شوهاء كشن بالى ... لا تدفع الضيم عن العِيالِ

فسمعتها ضرتُها فأقبلت ترقص ابنتها وتقول :

وما على أن تكون جاريه ... تغسل رأسى وتكون الغاليه
وترفع الساقط من خماريه ... حتى إذا ما بلغت ثمانيه

---

(١) الدَّن : وعاء ضخم . أما الزّق فهو : وعاء من جلد يجز شعره ولا ينتف للشراب وغيره .

(٢) الدرارى فى الذرارى لابن العديم والخزامى : عشبة طويلة العيدان ، صغيرة الورق ، حمراء الزهر ، طيبة الريح ، لها نور كنوز البنفسج . قال ولم نجد من الزهر زهرة أطيب نفحة من نفحة الخُزامى .

(٣) الجوالى : خلفة البنات .

أزرتها بنقبة يمانية أنكحتها مروان أو معاويه
أصهار صدق ومهور غاليه [١]

قال : فسمعها مروان ، فتزوجها على مائة ألف مثقال ، وقال : إن أمها حقيقة أن لا يكذب ظنها ، ولا يخان عهدها ، فقال معاوية : لولا مروان سبقنا إليها لأضعفنا لها المهر ، ولكن لا تحرم الصلة ، فبعث إليها بمائتى ألف درهم والله أعلم .

❁ ومما جاء فى الأولاد البلداء القليلى التوفيق :

قيل : نظر أعرابى إلى ولد له قبيح المنظر ، فقال له : يا بنى إنك لست من زينة الحياة الدنيا ! وأرسل رجل ولدَه يشترى له رشاء[٢] للبئر طوله عشرون ذراعاً ، فوصل إلى نصف الطريق ، ثم رجع فقال : ياأبت عشرون فى عرض كم ؟ قال فى عرض مصيبتى فيك يابنى ! . وكان لرجل من الأعراب ولد اسمه حمزة فبينما هو يوماً يمشى مع أبيه إذا برجل يصيح بشاب يا عبد الله ، فلم يجبه ذلك الشاب ، فقال : ألا تسمع ؟ فقال : يا عم كلنا عبيد الله ، فأى عبد الله تعنى ؟ فالتفت أبو حمزة إليه وقال : يا حمزة ألا تنظر إلى بلاغة هذا الشابّ ؟ فلما كان من الغد إذا برجل ينادى شابًا ياحمزة ، فقال حمزة ابن الأعرابى : كلنا حماميز الله ، فأى حمزة تعنى ؟ فقال له أبوه : ليس يعنيك يامن أخمد الله به ذكر أبيه . وكان لمحمد بن بشير الشاعر ابن جسيم ، فأرسله فى حاجته ، فأبطأ عليه ثم عاد ولم يقضها ، فنظر إليه ثم قال :

عقله عقل طائر وهو فى خِلْقَةِ الجمل

فأجابه :

مشبه بك ياأبى ليس لى عنك مُنْتَقَل

❁ ومما جاء فى صلة الرحم :

قال رسول الله ﷺ : « **صِلَةُ الرَّحِمِ مَنْجَاةٌ لِلْوَلَدِ مَثْرَاةٌ لِلْمَالِ** »[٣] . وقيل : وجد حجر حين حفر إبراهيم الخليل عليه السلام أساس البيت مكتوب عليه بالعبرانية : (أنا الله ذو بكة خلقت الرحم وشققت لها اسماً من أسمائى ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها بتته)[٤] أى قطعته وقال : رسول الله ﷺ : « **أعجل الخير ثواباً صلة الرحم** »[٥] . وحدثنا أبو سهل عن صالح بن جرير بن عبد الحميد عن منصور عن عطاء بن أبى مروان عن أبيه عن كعب الأحبار أنه قال : والذى فلق البحر لموسى بن عمران إن فى التوراة لمكتوباً يابن آدم اتق ربك ، وبرّ والديك وصل رحمك أزد فى عمرك ، وأيسر لك فى يسيرك ، وأصرف عنك عسيرك . وعن أبى أمامة الباهلى رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « **صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، وصدقة السر تطفئ غضب الرب ، جل وعلا وصلة الرحم ، تزيد فى العمر** » وذكر تمام الحديث[٦] .

الفصل الثالث : من هذا الباب فى ذكر الأنساب والأقارب والعشيرة

قال عمر رضي الله عنه : تعلموا أنسابكم تعرفوا بها أصولكم ، فتصلوا بها أرحامكم . وقيل : لو لم يكن من معرفة الأنساب إلا اعتزازها من صولة الأعداء وتنازع الأكفاء لكان تعلمها من أحزم الرأى ، وأفضل الثواب ، ألا ترى إلى قول قوم شعيب عليه السلام

---

(١) جاءت هذه الأبيات فى محاضرات الأدباء للراغب الأصبهانى ج١ ص ١٧٥ . وقيل : فى رواية « عتبة أو معاوية » « وأختان صدْقٍ » بدلا من أصهار صدق .

(٢) الرشاء : الحبل .

(٣) « صلة الرحم منجاة للولد ، مَثْراة للمال » له شاهد من حديث أبى هريرة عند الترمذى برقم [١٩٧٩] والحاكم [٤/ ١٦١] ، وأحمد [٢/ ٣٧٤] .

(٤) وجد حجر إلخ . ثبت عن النبى أنه قال : « قال الله - عز وجل - : أنا الله ، وأنا الرحم ، خلقت الرحم » ، الحديث كما هنا ، وهو عند الترمذى [١٩٠٧] ، وأبى داود [١٦٩٤] ، وأحمد [١/ ١٩١ ، ١٩٤] من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه .

(٥) أعجل الخير ثوابا إلخ . أخرجه ابن ماجه [٤٢١٢] من حديث عائشة مرفوعا بلفظ : « أسرع الخير . . » ، وسنده ضعيف ، فيه صالح بن موسى، ضعيف الحديث .

(٦) عن أبى أمامة الباهلى عن النبى ﷺ أنه قال : « صنائع المعروف . . إلخ » قال العجلونى : أخرجه القضاعى عن أبى أمامة مرفوعا .

حيث قالوا : ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود: ٩١] . فأبقوا عليه لرهطه . وقال عمر ﷺ: تعلموا العربية فإنها تزيد فى المروءة ، وتعلموا النسب ، فرب رحم مجهولة وقد وصلت بعرفان نسبها . وسئل : عيسى عليه السلام: أى الناس أشرف ؟ فقبض قبضتين من تراب وقال : أى هاتين أشرف ؟ ثم جمعهما ، وطرحهما وقال : الناس كلهم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم[١] . كان أبو كبشة جد رسول الله ﷺ من قبل أمه ، فلما خالف رسول الله ﷺ دين قريش قالوا : نزعه عرق أبى كبشة حيث خالفهم فى عبادة الشعرى ، وقال خالد بن عبد الله القشيرى : سألت واصل بن عطاء عن نسبه فقال : نسبى الإسلام ، من ضيعه فقد ضيع نسبه ، ومن حفظه فقد حفظ نسبه ، فقال خالد : وجه عبد ، وكلام حُرّ . ومن كلام على رضي الله عنه: أكرم عشيرتك فإنهم جناحك الذى به تطير ، فإنك بهم تصول ، وبهم تطول ، وهم العُدّة عند الشّدّة ، أكرم كريمهم ، وعُد سقيمهم ، وأشركهم فى أمورك ، ويَسِّر عن معسرهم ، وكان يقال : إذا كان لك قريب ، فلم تمش إليه برجلك ، ولم تعطه من مالك فقد قطعته . ويقال : حق الأقارب إعظام الأصغر للأكبر وحنوّ الأكبر على الأصغر . قال رسول الله ﷺ : « **حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده** »[٢] . قال بعضهم :

وإذا رُزِقْتَ من النَّوافل ثَرْوةً ... فامنحْ عشيرتَك الأدانى فَضْلَها
واعلَمْ بأنك لا تسوّد فيهم ... حتى تُرى دمْث الخلائق سهلها

الباب السادس والأربعون

فى الخَلق وصفاتهم وأحوالهم ، وذكر الحسن والقبيح ، والطول والقصر ، والألوان والثياب ، وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول : فى الحسن ومحاسن الأخلاق

وإلى سيدنا محمد رسول الله ﷺ ينتهى الحسن[٣] والجمال . كان سيدنا محمد ﷺ ربَعة من القوم لا بائنا[٤] من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر ، أبيض اللون مشرباً بحمرة أدعج العينين[٥] ، مفلج الثنايا[٦] ، دقيق المَسْرُبَة[٧] أزهر الجبين ، واضح[٨] الخد ، أقنى الأنف[٩] كأن عنقه إبريق فضة ظاهر الوضاءة ، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ، شثن[١٠] الكفين ، مسيح القدمين[١١] ، واسع الصدر ، من لبته إلى سرته شعر يجرى كالقضيب[١٢] ، ليس فى بطنه ولا صدره شعر غيره ، أشعر

---

(١) وسئل عيسى عليه السلام .. إلخ . لم أهتد إليه .

(٢) أورده المتقي الهندي في كنز العمال [٤٥٤٧٣] وعزاه للبيهقي في شعب الإيمان لسعيد بن العاص.

(٣) تضمنت كتب الشمائل كثيرا من الأوصاف الخلقية ويقول ابن كثير فى البداية والنهاية ومن أحسن من جمع فى ذلك فأجاد وأفاد الإمام أبو عيسى الترمذى أفرد فى هذا المعنى كتابه المشهور بالشمائل ، وإليك معانى ما يحتاج إلى إيضاح منها .

(٤) رَبعةً من القوم : يفسره ما بعده ، والربعة معتدل القامة بين الطويل والقصير .

(٥) أبيض اللون مشربًا بحمرة : أى مخلوطاً بحمرة . أدعج العينين : شديد سوادهما مع سعة .

(٦) مفلج الثنايا : أى منفرجها وهو خلاف متراص الأسنان . والفلَج : فرجة بين الثنايا والرباعيات .

(٧) دقيق المسْرُبَة : الشعر من وسط الصدر إلى البطن .

(٨) أزهر الجبين واضح الخد : الأزهر الأبيض بياضا نيرا .

(٩) أقنى الأنف : ليس بأفطس ولا أشم ، فالقنى : طول الأنف ، ودقة أرنبته .

(١٠) شثن الكفين : يميلان إلى الغلظ .

(١١) مسيح القدمين : أى أنه أملس القدمين ليس فيهما تكسر ولا تشقق .

(١٢) من لبته إلى سرته شعر يجرى كالقضيب : موصول ما بين اللبة والسرة بشعر كالخط ، واللّبّة : النقرة التى فوق الصدر .

الذراعين والمنكبين ، لم يبلغ شيبه فى رأسه ولحيته عشرين شعرة ، ضخم الكراديس[١] ، أنور المتجرد[٢] ، إذا مشى كأنما ينحط من صبب ، وإذا التفت التفت جميعًا ، بين كتفيه خاتم النبوّة ، كأنه زرحجلة . [٣]أو بيض حمامة ، لونه كلون جسده ، أبلج الوجه[٤] حسن الخلق ، وسيمًا قسيمًا فى جبينه زجج[٥] ، وفى عينيه دعج ، وفى عنقه سطع ، وفى لحيته كثافة إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سما وعلاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد ، وأحسنهم وأكملهم من قريب ، كأنما منطقه خرزات نظم[٦] . يتحدرن . قال أنس ﷺ: ما رأيت من ذى لمة[٧] سوداء ، فى حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ ومدحه ﷺ حسان بن ثابت ﷺ فقال :

وأحسن منك لم تر قطّ عينى ... وأجملُ منك لم تلدِ النساء
خلقت مُبَرّأ من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء

اللهم صل وسلم عليه ، واجعله شفيعاً لمن يصلى عليه وقال ﷺ: « ما حسن الله خُلُقَ عبد وخَلْقه إلا استحيا أن يطعم لحمه النار » [٨] . وقد كان المتوكل - رحمه الله - من أحسن الخلفاء العباسية وجهاً وأبهاهم منظراً ، وكان مصعب بن الزبير من أحسن الناس وجهاً ، حكى : أنه كان جالسًا بفناء داره يوماً بالبصرة إذ جاءت امرأة فوقفت تنظر إليه ، فقال لها : ما وقوفك يرحمك الله ؟ قالت : طُفِئ مصباحُنا فجئنا نقتبس من وجهك مصباحاً .

وقيل لأعرابية ظريفة : ما بال شفتيك مشققة ؟ فقالت : إن التين إذا حلا تشقق ، والورد يتشقق إذا مسه الندى . وكانت لبابة بنت عبد الله بن عباس ﷺ من أجمل الناس وجهاً وكانت عند الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ، فكانت تقول : ما نظرت وجهى فى مرآة مع إنسان إلا رحمته من حسن وجهى ، إلا الوليد فكنت إذا نظرت إلى وجهى مع وجهه رحمت وجهى من حسن وجهه قال الشاعر :

ولو أنها فى عهد يوسفَ قطّعت ... قلوبَ رجالٍ لا أكفَّ نساء

وقال كثير :

لو أن عزة حاكمت شمس الضحى ... فى الحسن عند موفق لقضى لها

ومما جاء فى محاسن الخلق منظوماً على الترتيب من الفرق إلى القدم : ما قيل فى الشعر : كان يقال : من تزوج امرأة أو اتخذ جارية فليستحسن من شعرها فإن الشعر الحسن أحد الوجهين قال بكر بن النطاح :

بيضاءُ تسحبُ من قيام شعرها ... وتغيبُ فيه وهو وجه أَشحَم[٩]
فكأنها فيه نهار ساطع ... وكأنه ليل عليها مظلم

وللمتنبى :

نشرتْ ثلاثَ ذوائبٍ من شعرها ... فى ليلة فأرت ليالى أربعا
واستقبلت قمرَ السماء بوجهها ... فأرتنى القمرين فى وقت معاً

وله أيضاً :

---

(١) ضخم الكراديس : رءوس العظام ، والمراد : أنه ضخم الأعضاء .

(٢) أنور المتجرد : أى مشرق العضو الذى هو موضع التجرد عن الثوب ، « بفتح الراء » أو مشرف العضو العارى عن الثوب « بكسر الراء » .

(٣) كأنه زر حَجَلة : الحَجَلة - عند الجمهور - بيت كالقبة له أزرار وعراو ، وقيل : المراد بالحجلة : الطائر المعروف وزرها : بيضها .

(٤) أبلج الوجه : ينير ، وبلج الإنسان بعد ما بين حاجبيه . والعرب تستملح البلج .

(٥) فى جبينه زجج : ما ورد أنه حل كان واسع الجبين ، أى واضحه ، وهو معنى ما فى رواية صَلْت الجبين ، والجبين ما فوق الصدغ ، ولكل إنسان جبينان ، وبينهما جبهة . وأورد أبو عيسى « أزج الحواجب ، والحاجب الأزج هو المقوس » .

(٦) سبق بيان المعنى فى قوله « أدعج العينين »

(٧) ما رأيت من ذى لمة . . أخرجه الحافظ الترمذى فى كتاب الشمائل ، واللّمة : تطلق عند غير الجمهور على الشعر الواصل للمنكبين .

(٨) حديث « ما حسن الله خُلُق عبد . . إلخ » ضعيف : أخرجه الطبرانى فى « الأوسط » [٢٩٨٤ - مجمع البحرين] من حديث أبى هريرة ، وفيه عبد الله بن يزيد البكرى ، ضعيف جداً .

(٩) وجه أشحم : وجه أسود.

لبسن الوشى [١] لا متجملاتٍ ... ولكن كى يصُنَّ به الجمالا
وضَفرْنَ الغدائرَ لا لحسن ... ولكن خفن فى الشّعر الضّلالا

وقال الصفدى :

لولا شفاعةُ شعرِه فى صبه ... ما كان زار ولا أزال سِقامَا
لكن تنازل فى الشفاعة عنده ... فغدا على أقدامه يتَرامى

وقال ابن الصائغ :

ثنى غصنا ومد عليه فرعاً ... كحظى حين أطلب منه وصلا
وبليله على الأرداف منه ... فلم أر مثل ذاك الفرع أصلا

وقال آخر :

أرخى ثلاثًا يوم حمامه ... ذوائبًا تعبق منها الغوال
فقلت : والقصد ذؤاباته ... وَاسَهَرى فى ذى الليالى الطوال

وقال آخر :

بدت ثريا قرطها وشعرها ... متصل بكعبها كما ترى
ياعجباً لشعرها لما ابتدى ... من الثريا فانتهى إلى الثرى

وقال ابن المعتز :

توارت عن الواشى بليل ذوائب ... لها من محيا واضح تحته فجر
يغطى عليها شعرها بظلامه ... وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

ومما قيل فى الأصداغ : (قال ابن المعتز) :

ريم يتيه بحسن صورته ... عبث النعاس بلحظ مقلته
وكأن عقربَ صدغه وقفت ... لما دنت من ورد وجنته

وقال العادلى :

وعهدى بالعقارب حين تشتو ... يخف لدغها ويقل ضرّا
فما بال الشتاء أتى وهذى ... عقارب صدغها تزداد شرّا

وقال آخر :

وما ضره نار بخديه أُلهبت ... ولكن بها قلب المحب يعذب
عناقيدُ صُدغيه بخديه تلتوى ... وأمواج ردفيه بخصريه تلعب
شربت الهوى صرفاً زلالا وإنما ... لواحظه [٢] تسقى وقلبى يشرب

ومما قيل فى مدح العِذار قال أبو فراس بن حمدان :

يا من يلوم على هواه جهالةً ... انظر إلى تلك السوالف تعذر
حسنت وطاب نسيمها فكأنها ... مسك تساقط فوق خد أحمر

وقال محمد بن وهب :

صدودُك والهوى هَتَكَا استتارى ... وساعدنى البكاء على اشتهارى

---

(١) الوَشى: نَقْش الثوب، ويكون من كل لون.

(٢) لواحظ: لحظه، أي نظر إليه بمؤخر عينه من أحد جانبيه، فهو لاحظ، وهي لاحظة، والجمع لواحظ.

وكم أبصرتْ من حسن ولكن ... عليك لشقوتى وقع اختيارى
ولم أخلع عذاراً فيك إلا ... لما عاينت من خلع العذار[1]

وقال آخر :

ومُعَذِّر رقت حواشى خدّه ... فقلوبنا وجدًا عليه رِقاق
لم يكسُ عارضه السوادُ وإنما ... نفضت عليه سوادها الأحداق

وقال آخر :

ومُهَفْهَفٍ راقت نضارةُ وجهه ... والعينُ تنظر منه أحسنَ منظر
أصلى بنار الخد عنبر خاله ... فبد العذار دُخانَ ذاك العنبر

وقال آخر :

أصبحتِ سلطانَ القلوب ملاحة ... وجمال وجهك للبرية عسكر
طلعت طلائع وجنتيك مُغيرة ... بالنصر يقدمُها اللواء الأخضر

وقال الآخر :

ياذا الذى خطّ العِذارُ بخدّه ... خطين هاجا لوعةً وبلابلا
ما صحّ عندى أن لحظك صارم ... حتى حملتِ بعارضيك حمائلا

وقال آخر :

من لا أرى كعبةَ الحُسن التى حُرست ... بالنمل حيث مقام النحل فى فمه !
فلينظر النملَ أضحى فوق عارضه ... يطوف سبعاً وسبعاً حول مَبْسَمه

وقال بدر الدين الدمامينى :

تحدث ليل عارضه بأنى ... سأسلوه وينصرم المزار
فأشرق صبح غرته ينادى ... حديثُ الليلِ يمحوهُ النهارُ

وقال آخر :

وقالوا : تسلى فقد شانه ... عذار أراحك من صدّه
فقلت : وهمتم ولكننى ... خلعت العذار على خدّه

سيدى أبو الفضل بن أبى الوفا :

على وجنتيه جنة ذات بهجة ... ترى لعيون الناس فيها تزاحماً
حَمَى وردَ خدّيه حُماة عِذاره ... فياحسن ريحان العذار حَما حِمَى

وقال ابن نباتة :

وبمهجتى رشأ[2] يَميسُ قوامُه ... فكأنه نشوانُ من شفتيه
شُغِفَ العِذار بخده ورآه قد ... نعست لواحظه فدب عليه

وقال الموصلى :

لحديثِ نبت العارضين حلاوةٌ ... وطلاوةٌ هامت بها العشاقُ
فإذا نهانى المرءُ قلت : ترفقوا ... فإليكم هذا الحديث يُساقُ

---

(١) عذار الغلام: جانب لحيته، ويقال: فلان خلع عذاره: انهمك في الغيّ ولم يستحِ.
(٢) الرَّشَأ: شجر يسمو فوق القامة.

وقال آخر :

أصبحت مكسوراً بسهم لحاظه ... ومقيداً من صُدغه بلسانه
حتى بدا سيف العذار مجردا ... فخشيت يقتلنى وذا من شانه

ابن نباتة :

وضعت سلاح الصبر عنه فما له ... يغازل بالألحاظ من لا يغازلُه
وسال عذار فوق خديه سائلٌ ... على خدّه فليتق الله سائلُه

ومما قيل فى ذم العذار قال الشاعر :

غدا لما التحى ليلاً بهيما ... وكان كأنه قمر منيرُ
وقد كتب السوادُ بعارضيه ... لمن يَقرا وجاءكم النذير !

آخر فى ذمه :

قلت لأصحابى وقد مر بى ... منتقباً بعد الضيا بالظلم
بالله يا أهلَ وُدّى قفوا ... ثم انظروا كيف زوال النعم ؟!

ومما قيل فى الجبين والحواجب خالد الكاتب :

لها من ظباء الرمل عين مريضة ... ومن ناضر الريحان خُضرةُ حاجب
ومن يانع الأغصان قدّ وقامة ... ومن حالك الحبر اسوداد الذوائب

وقال آخر :

غزانى الهوى فى جيشه وجنوده ... وهب على الجيش من كل جانب
بميسرة أجنادها أعين المها ... وميمنة تقضى بزُجّ الحواجب

وقال آخر :

أيا قمراً تبسم عن أقاح[1] ... ويا غصناً يميلُ مع الرياح
جبينك والمقبل والثنايا ... صباحٌ فى صباحٍ فى صباح

ومما قيل فى العيون : قال الأصمعى ما وصف أحد العيون بمثل ما وصف أحمد بن الرِّقاع فى قوله :

وكأنما دون النساء أعارها ... عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس تلاعبت ... فى جفنه سنة وليس بنائم

وقال ابن المعتز :

عليم بما تحت العيون من الهوى ... سريع بكسر اللحظ والقلب جازع
فيجرح أحشائى بعين مريضة ... كما لان متن السيف والحدّ قاطع

وقال الأخطل :

ولا تلمم بدار بنى كليب ... ولا تقرب لها أبداً رجالاً
ترى فيها بوارقَ[2] مُرهَفاتٍ ... يكَدْن يَكِدْن بالحرق الرجالا

وقال أبو فراس وأحسن :

وبيض بألحاظ العيون كأنما ... هززن سيوفاً واستللْن خناجرا

---

(١) أقاح : مفردها أقحوان، وهو نبت زهره أصفر أو أبيض، ومنه البابونج، وكثُر في الأدب العربي تشبيه الأسنان بالأبيض المؤلّل منه.
(٢) بوارق : أعلام، أو رايات

تصدّين لى يوماً بمنعرج اللّوى ... فغادرن قلبى بالتصبّر غادرا
سَفَرْن بُدُورًا وانتقبن أهلّة ... ومن غصوناً والتفتن جآذراً

وقال آخر :

ومريض جفن ليس يصرف طرفه ... نحو امرئ إلا رَمَاهُ بحتفه
قد قلت : إذ أبصرته متمايلاً ... والردف يجذب خصره من خلفه

وقال أبو هتان :

أخو دنف[1] رمته فأقصدته ... سهامٌ من جُفونك لا تطيش
فواتُك لا يقال سوى احورارى ... بهن ولا سوى الأهداب ريشُ
أصبن فؤاد مهجته فأضحى ... سقيماً لا يموت ولا يعيش
كئيباً إن ترحل عنه جيشٌ ... من البلوى أناخ به جيوش

وقال آخر :

وجاءوا إليه بالتعاويذ والرقى ... فصبوا عليه الماء من شدة النكس
وقالوا به من أعين الجن نظرة ... ولو أنصفوا قالوا به : أعين الإنس

عز الدين الموصلى :

لها عين لها غزو وغزل ... مكحلة ولى عين تباكت
وحاكت فى فعائلها المواضى ... فيالك مقلة غزلت وحاكت

برهان الدّين القيراطى :

شبه السيف والسنان بعينى ... من لقتلى بين الأنام استحلا
فأتى السيف والسنان وقالا ... حدنا دون ذاك حاشى وكلا

وله أيضا :

بأبى أهيف المعاطف لدن ... حسد الأسمر المشقف قده
ذو جفون مذ رمت منها كلاما ... كلمتنى سيوفُهن بحده

جلال الدين بن خطيب داريا :

شهدت جفون معذبى بملالة ... منى وأن ودادَه تكليف
لكننى لم أَنأَ عنه لأنه ... خبر رواه الجَفن وهو ضعيفُ

وقال الشيخ عز الدين الموصلى :

يا مقلةَ الحبِّ مَهلاً ... فقد أخذت بثارِك
وأنت يا وجنتيه ... لا تُحرقينى بنارك

وقال ابن الصائغ :

لمثلى من لواحظها سهام ... لها فى القلب فَتك أى فتكِ
إذا رامت تشك به فؤادا ... يموت المستهام بغير شك

وقال الصلاح الصفدى :

يا عاذلى على عين مُحَجّبَةٍ ... خف سحر ناظرِها فالسحرُ فيه خفى

---

(١) الدَّنَف: المريض الذي لزمه المرض الشديد.

وخذ فؤادى ودعه نُصبَ مُقلتها ... لا تَرْم نفسك بين السهم والهدف

وقال آخر :

بسهم أجفانه رمانى ... فذبت من هجره وبَينه
إن مت مالى سواه خصم ... لأنه قاتلى بعينه

وقال آخر :

سهام الجَفنِ كم قَتلت لنفسٍ ... مبرأة من السلوى زكيه
فما أقوى جفونَك وهى مرضَى ! ... وأقدرها على قتل البريه !

ومما قيل فى الخال للصلاح الصفدى :

بروحى خدّه المحمر أضحى ... عليه شامة شرط المحبة
كأن الحسن يعشقه قديما ... فنقّطه بدينارٍ وحُبّه

لابن الصائغ :

بروحى أفدى خاله فوق خده ... ومن أنا فى الدنيا فأفديه بالمال
تبارك من أخلى من الشعر خده ... وأسكن كل الحسن فى ذلك الخال

وللشيخ جمال الدين بن نباتة :

لله خال على خد الحبيب له ... فى العاشقين كما شاء الهوى عَبَثُ
أورثته حبة القلب القتيل به ... وكان عهدى بأن الخال لا يرث !

وقال آخر :

ياسالباً قمر السماء جماله ... ألبستنى فى الحزن ثوبَ سمائه
أحرقت قلبى فارتمى بشرارةٍ ... علقت بخدك فانطفت فى مائه

وقال ابن أبيك :

فى الجانب الأيمن من خدّها ... نقطةُ مِسكٍ أشتهى شمَّها
حسبته لما بَدَا خالها ... وجدته من حسنها عَمها

وقال الحسين بن الضحاك :

يا صائد الطير كم ذا ... بالحظ تُضْنِي وتَسبى ؟!
نصبت نقطة خال ... فصدت طائر قلبى

ومما قيل فى الخدود : قال ابن المعتز :

صِلْ بخدى خديك تَلْقَ عجيباً ... من معان يحار فيها الضميرُ
فبخديك للربيع رياض ... وبخدّى للدموع غديرُ

ومما قيل فى الثغور : قال يوسف بن مسعود الصواف :

بروحى من ولى فولى بمهجتى ... وولى منامى وهو كالوصل شارد
حمىَ ثغرَه منى بسَيفِ لِحاظِه[1] ... وحتّامَ[2] يحمى ثغرَه وهو باردُ

وقال آخر :

---

(١) اللِّحاظ : مؤخر العين ممّا يلي الصُّدْغ، والجمع لُحُظ.
(٢) حتمَ الأمرَ: أحكَمه، فهو حتم، والجمع حتُوم.

أنفقت كنزَ مدامعى فى ثغرهِ ... وجمعتُ فيه كلَّ معنىً شارد
وطلبت منه جزاء ذلك قبلة ... فمضى وراح تغزلى فى البارد

وقال آخر :

رأى ثغر من أهوى عذولى فقال لى : ... ولم يدر أن اللوم فى خدّه يُغرى
شغلت بهذا وارتبطت بحسنه ... وأحسن ما كان الرباط على ثغرِ

وقال ابن ريان :

لاحتْ على مَبْسَمِه المشتهى ... ثلاثُ شاماتٍ غدتْ فى التئام
لا تعجبوا إن كثرت حولَه ... فالمنهل العذبُ كثيرُ الزحامِ

وغيره :

رشفتُ ريقكِ حُلوًا ... ولم يكن لىَ صبرُ
وسوف أحظى بوصلٍ ... فأولُ الغيثِ قطرُ

وقال آخر :

ثلاثٌ تجمعنَ فى ثَغرها ... مِلاحٌ أدلّتهُا واضِحَة
فإن قيل ما هى ؟ قل لى : أقلْ ... هى : الطعم واللون والرائحة

ومما قيل فى حسن الحديث : قال البحترى :

ولما التقينا والنقا موعد لنا ... تعجب رائى الدّر حسنًا ولاقطُه
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ... ومن لؤلؤ عند الحديث تُساقطه

وقال ابن الرومى :

يُمسى ويُصبح مُعرضاً فكأنه ... ملكٌ عزيز قاهرٌ سلطانه
ليست إساءته بناقصة له ... دُرٌّ يساقطه إلىَ لسانُه

وما أحسن هذه الأبيات وهى من طارف الشعر ووافره وناقده وجيد الكلام وبارع الوصف :

وكل حديث الناس إلا حديثها ... رجيع وفيما حَدّثتْك الطرائفُ
جَرَخنَ بأعناقِ الظباء وأعينِ الـ ... ـجآذر وارتجت بهن الروادف
رجحن بأرداف ثقال وأسوق ... جذال وأعضاء عليها المطارف

ومما قيل فى رقة البشرة : قال ابن المعتز :

نضت عنها القميصَ لصَبِّ ماء ... فوَرّدَ خدّها فرطُ الحياء
وقابلت الهواءَ وقد تعرّت ... بمعتدلٍ أرقّ من الهواء
ومدّت راحة كالماء منها ... إلى ماء عتيد فى إناء
فلما أن قضت وطراً وهمّت ... على عجل إلى أخذ الرداء
رأت شخصَ الرقيب على تدانٍ ... فأسبلت الظلامَ على الضياء
فغاب الصبحُ منها تحت ليل ... وظل الماءُ يقطرُ فوق ماءِ

وقال آخر :

تغير عن مودته وحالا ... وكان مواصلا فطوى الوصالا
وعلمه التدلل كيف هَجرى ... فليت الوصلَ كان له دَلالا

وقال بشار :

وما ظفرت عينى غداة لقيتُها ... بشىء سوى أطرافها والمحاجر[١]
كحوراء من حور الجنان غريرة ... يرى وجهه فى وجهها كلّ ناظِر

ومن أخذ أبو نواس قوله :

نظرت إلى وجهه نظرة ... فأبصرتُ وجهى فى وجهه

وقال آخر :

توهمه قلبى فأصبح خده ... وفيه مكان الوهم مِن نظرى أثرُ
ومرّ بفكرى جسمُه فجرحتُه ... ولم أر جسماً قطّ تجرحه الفكر

وقال آخر :

سقى الله روضًا قد تبدى لناظرِ ... به شادن[٢] كالغصن يلهو ويمرح
وقد نضحتْ خداه من ماء وَرده ... وكل إناء بالذى فيه ينضح

وقال آخر :

وأهيف قده كُسىَ احمراراً ... وحاز الحسنَ فهْوَ بلا شبيه
فلو أخجلته بالقول جهدى ... لحمرة خده ما بان فيه

ومما قيل فى التقبيل : لمظفر الأعمى :

قبلته فتلظى جمرُ وجنته ... وفاح من عارضيه العنبر العبقْ
وجال بينهما ماءٌ ولا عجبٌ ... لا ينطفى ذا ولاذا منه يحترقُ

وقال آخر :

سألته فى ثغره قبلة ... فقال : ثغرى لم يجز لثمُه[٣]
فهاكها فى الخد واقنع بها ... ما قارب الشىء له حكمه

وقال صاحب حماة :

قال الذى تيمنى ... قولوا لمن خبلته
يروم منى قبلة ... لو مات ما قبلته

الشيخ عز الدين الموصلى :

كالزرد المنظوم أصداغه ... وخدّه كالورد لمّا ورد
بالغتُ فى اللثم وقبلته ... فى الخد تقبيلاً يفك الزرد

وقال آخر :

رأيت الهلال على وجهه ... فلم أدر أيهما أنورُ ؟!
سوى أن ذاك بعيد المزار ... وهذا قريب لمن ينظر
وذاك يغيب وذا حاضر ... وما مَنْ يغيبُ كمن يحضرُ
ونفع الهلال قليلٌ لنا ... ونفع الحبيب لنا أكثر

وقال ابن صابر :

---

(١) المحاجر : مفردها مَحْجِر، وهو في العين : ما أحاط به.
(٢) الشادِن : ولد الظبية، والجمع شوادن.
(٣) لَثَمه : لثَمَ فمَ المرأة لثْمًا : قبّله.

قبلت وجنته فألفت جيده ... خجلاً وماس بعطفه المَيّاس[1]
فأنهلّ من خدّيه فوق عذاره ... عَرَقٌ يحاكي الطَّلّ فوق الآس
فكأنني استقطرت ورد خدوده ... متصاعد الزفرات من أنفاسي

وقال آخر :

قبلتُ رجلَ حبيبي ... فازورّ واخمَرّ خدّا
وقال : تلثم رجلي ؟! ... لقد تنازلتَ جدّا
فقلت : ما جئتُ بدعاً ... ولا تجاوزتُ حدّا
رِجلٌ سَعت بك نحوى ... حقوقُها لا تُؤدّى

ومما قيل في الوجه الحسن : ابن نباتة :

إنسيّة في مثال الجن تحسَبُها ... شمسًا بدت بين تشريق وتغميم
شقت لها الشمسُ ثوباً من محاسنها ... فالوجهُ للشمسِ والعينانِ للرّيم[2]

عبد الله بن أبي خبيص :

تصُدّ مِن غير عِلّه ... بالعز أضحت مذلّه
كأنها حين تدنو ... شمسٌ عليها مظلّه
وأن أضاءت بليل ... تفوق نور الأهلّه

وقال آخر :

أقسم بالله وآياته ... ما نظرتْ عيني إلى مثله
ولا بَدَا وجهُه طالعاً ... إلا سألت اللهَ مِن فضله

وقال آخر :

أقيمي مكانَ البدر إن أفَل البدر ... وقومي مقام الشمس قد أمّها الفجر
ففيك من الشمس المنيرة نورُها ... وليس لها منك التبسم والثغر

عمر بن أبي ربيعة :

ذاتُ حسن إن تغب شمسُ الضحى ... فلنا من وجهها عنها خلفْ
أجمع الناسُ على تفضيلها ... وهواهم في سوى هذا اختلف

أخذ أبو تمام هذا المعنى فرده إلى المدح فقال :

لو أن إجماعنا في فضلِ سؤدُدِه ... في الدين لم يختلف في الأمة اثنان

وقال آخر :

يا مفردًا في الحسن والشكل ... مَن دلّ عينيكَ على قتلي
البدرُ من شمس الضحى نورُه ... والشمسُ من نورك تَستَملي

وقال آخر :

ففي أربع مِنّي حلّت منك أربع ... فما أنا أدري أيها هاج لي كربي ؟
أو جهك في عيني أم الريق في فمي ... أم النطق في سمعي أم الحب في قلبي ؟

فلما سمعه إسحاق بن يعقوب الكندي قال : هذا تقسيم فلسفي ، وجعله العلوي خمسة فقال :

---

(١) الميّاس: صيغة مبالغة من ماسَ، أي تبختر واختار.
(٢) الرّيم: الظبي الخالص البياض.

وفى خمسة منى حلت منك خمسة ... فريقك منها فى فمى طيب الرشف
ووجهك فى عينى ، ولمسك فى يدى ... ونطقك فى سمعى وعَرْفُك[١] فى أنفى

ابن نباتة :

أيها العاذل الغبى تأمل ... من غدا فى صفاته القلبُ ذائب
وتعجب لطرة[٢] وجبين ... إن فى الليل والنهار عجائب

محمود المخزومى :

رأيتك فى الشمس المنيرة غدوَة ... فكنت على عينى أبهى من الشمس
لأنك تزهو إن بَدَا الليل بهجةً ... وشمسُ الضحى ليست تُضىء إذا تمسى

وقال آخر :

إذا احتجبتْ لم يكفك البدرُ وجهها ... وتكفيك فقد البدر إن غَرَبَ البَدْرُ

ومما قيل فى البنان المخضب : قال ابن الرومى :

وقفتُ وقفةً بباب الطاق ... ظبية من مخدَّرات العراق
بنتُ سبع وأربع وثلاثٍ ... أسرت قلبَ صَبّها المشتاق
قلتُ : من أنتِ يا غزال ؟ فقالت : ... أنا من لطفِ صنعةِ الخلّاق
لا تَرُمْ وصلَنا فهذا بنان ... قد صبغناه من دم العشاق

وقال الراضى بالله :

قالوا : الرحيل فأنشبت أظفارها ... فى خدها وقد اعتلقت خطابها
فظننت أن بنانها من فِضّة ... قطفت بنَوْر بنفسج عِنَابَها

وقال آخر :

لما اعتنقنا للوداع وأعربت ... عبراتُنا عَنّا بِدَمْعٍ ناطقِ
فرَقن بين محاجر ومعاجر ... وجمعن بين بنفسَج وشقائق

وقال آخر :

ولما تلاقينا رأيت بنانها ... مخضبةً تحكى عُصارة عَنْدَم
فقلت : خضبتِ الكفَّ بعدى أهكذا ... يكون جزاء المستهام المتَيَّم ؟!
فقالت : وأذكت فى الحشى[٣] لاعج الجوى[٤] ... مقالة من بالودّ لم يتبرم
بكيت دما يوم النوى فمسحته ... بكفى فاحمرت بنانى من دمى

وقال آخر :

دنوت عشية التوديع منى ... ولى عينان بالدم يجريان
فلم يمسحن إكراماً جفونى ... ولكن رمن تخضيب البنان

ومما قيل فى النحور : قال دعبل ;

أتاح لك الهوى بيضاً حِساناً ... تباهى بالعيون وبالنحور

---

(١) العَرْف: الرائحة مطلقًا، وأكثر ما يُستعمل في الطيبة منها.
(٢) الطُّرَّة: اسم الشيء المقطوع، وطرف كل شيء وحرفه.
(٣) الحَشَى: الخَصْر.
(٤) اللّاعج: الهوى المُحْرق، ويقال همٌّ لاعج لحُرقة الفؤاد من الحب والجوى: جَوى فلانٌ: أي مرض وضاق صدره.

نظرت إلى النحور فكدت تقضى ... فكيف إذا نظرتَ إلى الخصور ؟!

ومما قيل فى نعت النهود : قال العباس بن الأحنف :

والله لو أن القلوبَ كقلبها ... مارق للولد الضعيف الوالدُ
جال الوشاح على قضيبِ زانه ... تفاحُ صدرٍ ما حوته ناهدُ

وقال آخر :

ومحبوبةٍ عند الوداع رأيتُها ... تنشفُ دمعًا بالرّداء الممسّك
وتبكى حذارَ البين منها بدمعةٍ ... تسيلُ على الخدين فى حُسْن مسْلك
فتحسَبُ مجرى الدمع من وجناتها ... بقية طلّ فوق وردٍ ممعك[1]
وقد سفرت عن غرّة بابليةٍ ... وصدر به نهدٌ بحقّ مفلك

عمر بن كلثوم :

نراك إذا دخلت على خلاءٍ ... قد امتدت عيونُ الكاشحينا
لنهدٍ مثلِ حُقّ العاج حُسْنًا ... حصينًا من أكف اللامسينا

وقال آخر :

صدور فوقهن حقاقُ عاجٍ ... وُدّر زانه حسنُ اتساق
يقول الناظرون إذا رأوه : ... أهذا الحلى من هذى الحقاق ؟
وما تلك الحقاق سوى ثُدِىٍّ ... جُعلن من الحقاق على وفاق

وقال آخر :

لقد فتكت عيونُ الغيد فينا ... ببيض مرهفاتٍ وهى سود
وتطعننا القدودُ إذا التقينا ... بسُمْرٍ من أسنتها النهود

ومما قيل فى الأرداف والخصور : قال ابن الرومى :

وتمايلتْ فضحكتُ من أردافها ... عجباً ! ولكنى بكيتُ لخَصْرِها

قال الطنبغا المحاربى :

رِدْفُه زادَ فى الثقالة حتّى ... أقعد الخصر والقوام السّويّا
نهض الخصر والقوام وقالا : ... فضعيفان يغلبان قوياً

وقال آخر :

ياخصره كم جفاءٍ ... تُبدى وأنت نحيل ؟!
يا ردفه ملتَ عنى ... ما أنت إلا بخيل

القيراطى :

بدت روادفُ بدرى ... تحت الحنين لعينى
فقلت : يا بدر هذا ... حقاً خيال لحَينى[2]

وقال آخر :

أسائلها أين الوشاحُ وقد سَرَتْ ... معطلةً منه معطرةَ النشر

---

(١) معك الآديم ونحوه في التراب: دلكه دلكًا شديدًا.

(٢) الحين: بفتح الحاء الهلاك والمحنة، وبكسرها: الدّهر.

فقالت : وأومت للسوار نحلته إلى معصمى لما تلقلق فى خصرى

وقال آخر :

بيض وسُمْرُ مُقلتاه ، وقدُّه ... بدر وليل ، وجنتاه وشعره
أقسى من الحجر الأصم فؤاده ... وأرق من شكوى المتيّم خصْره

وقال آخر :

رخيماتُ المقال مدللاتٌ ... جواعلُ فى الثرى قُضُباً جذالا[1]
جمعن فخامة وخُلوص جيد ... وقدًّا أبعد ذلك واعتدلا

ومما قيل فى المعاصم : قال عمر بن أبى ربيعة :

حسَرُوا الوجوه بأذرع ومعاصم ... ورنوا بنُجلٍ[2] للقلوب كوالم
حسَرُوا الأكمة عن سواعد فضة ... فكأنما انتصبت متونُ صوارم

ومما قيل فى اعتدال القوام قال صلاح الدين الصفدى :

تقول له الأغصانُ مُذْ هَزَّ عِطفه ... أتزعمُ أن اللينَ عند ما ثوى ؟!
فقم نحتكم للروض عند نسيمه ... ليقضى على من مال منا إلى الهوى

وقيل : ليس لأحد من شعراء العرب فى نعت محاسن النساء من الأوصاف البارعة ، مع جودة السبك ، ورقة اللفظ ما لذى الرّمة حتى كأنه حضرى من أهل المدن ، لا من أهل الوبر .

وقال آخر :

ومحكم عند أعطافه ... فى قتل صَبٍّ ما غوى
فاعجب لعادل قدّه ... فى النفس يحكمُ بالهوى

وقال آخر :

ومُهَفْهَفٍ عنى يميلُ ولم يَمِلْ ... يومًا إلىّ فصِحْتُ من ألم الجوى[3]
لِم لا تميل إلىّ يا غصن النقا ؟ ... فأجاب : كيف ، وأنت من أهل الهوى ؟!

وقال آخر :

جاءت بساقٍ أبيض أملس ... كلؤلؤ يبدو لعشاقها
فافتتنت فيها جميعُ الورى ... وقامت الحربُ على ساقها !

وقال ابن منقذ :

بدرٌ ولكنه قريبُ ... ظبى ولكنه أنيسُ
إن لم يكن قدّه قضيبًا ... فما لأعطافه تميسُ ؟!

ومما قيل فى مشى النساء : قال بعضهم :

يهزُزْن للمشى أطرافاً مخضبةً ... هزّ الشّمال ضُحىً عيدانَ نسرين[4]
أو كاهتزاز رُدَينىّ[5] تداوله ... أيدى الرجال فزاد المتنُ فى اللينِ

---

(١) جِذَال: مفردها جِذْل، وهو أصل الشجرة بعد ذهاب فرعها، ويقال: فلان جِذْل إبل: يحسن رعايتها والقيام بأمرها.

(٢) نُجْل: نَجلَ، أي اتسعت عينه، فهو أنجل والجمع نُجْل.

(٣) الجَوَى: ضيق وألَمٌ في الصدر.

(٤) النّسْرين: ورد أبيض عطريّ، قوي الرائحة، واحدته نسرينة.

(٥) الرُّدَيْنيّ: الرُّمح، نسبة إلى رُدَيْنة، وهي امرأة كانت تقوّم الرماح.

وقال آخر :

يمشين مشى قطا البطاح تأوّدا ... قبّ[1] البطون رواجح الأكفال[2]
فكأنهن إذا أردن زيارة ... يقلعن أرجلهن من أوحال !

ومما قيل فى العناق وطيبه لابن المعتز :

ما أقصرَ الليلَ على الراقدِ ... وأهونَ الشُّقمَ على العائدِ
كأننى عانقت ريحانة ... تَنَفسَتْ فى ليلِها البارِدِ
فلو ترانا فى قميصِ الدّجى ... حسبتَنا فى جَسَد وَاحد

وقال آخر :

ومُوَشّح نازعتُ فضلَ وِشاحه ... وأعرته مِن ساعدىَّ وشاحَا
بات الغَيورُ يشقّ جلدةَ وجهه ... وأمال أعطافاً علىَّ ملاحَا

وقال ابن المعدل :

أقول وجُنحُ الدُّجى مُسبِلُ ... ولِلّيل فى كلّ فَجٍّ يَدُ
أيا غدُ إن كنتَ لى محسنا ... فلا تَدنُ من ليلتى ياغد !
وياليلةَ الوصل لا تَقْصُرى ... كما ليلة الهجر لا تنفد !

وقال آخر :

وليل رقيق الطّرتين تظلمتْ ... كواكبُه من بذرِه المتألقِ
لَهَوْنا بغزلانِ الصريمةِ تحته ... تميت الهوى ما بين صَدر ومرفق

وقال ابن المعتز :

وكم عناقٍ لنا وكم قُبَلٍ ... مُختلساتِ حِذار مرتقِب
نقر العصافير وهىَ خائفةٌ ... من النواطير يانع الرّطَبِ

وقال ديك الجنّ :

ومعدولةٍ مهما أمالت إزارها ... فغُصنٌ وأما قدّها فقضيبُ
لها القمر السارى شقيقٌ وإنها ... لتطلع أحيانا له فيغيبُ
أقول لها : والليلُ مرخٍ سدُوله ... وغصنُ الهوى غضّ النباتِ رَطيبُ
لأنتِ المنَى يا زينَ كُلِّ مليحةٍ ... وأنت الهوى أُدعَى لَهُ فأجيب

وقال آخر :

ولم أنسَ ضَمّى للحبيب على رضا ... ورَشفى رُضابًا كالرحيق المسلسل
ولا قولَه لى عند تقبيلِ خدّه ... تَنقلْ فلذاتُ الهوى فى التنقل !

ومما قيل فى السِّمن : قال الربيع بن سليمان ، سمعت الشافعى ﷺ يقول : ما رأيت سميناً عاقلاً إلا محمد بن الحسن قال الشاعر :

لا أعشق الأبيضَ المنفوخ من سِمَنٍ ... لكننى أعشق السُّمرَ المهازيلاَ
إنى امرؤ أركبُ المهرَ المضمر فى ... يوم الرّهان وغيرى يركب الفيلا

---

(١) قبّ البطون: قبَّ قببًا: دقَّ خصره وضمر بطنه، فهو أقبُّ وهي قبَّاءُ

(٢) الأكفال: مفردها كِفْل، وهو من يلقي نفسه وأثقاله على الناس، والذي لا يثبت على ظهر الفرس.

ومما قيل فى مدح الألوان والثياب : مدح البياض : قال رسول الله ﷺ : « البياض نصف الحسن »[١] وكان ﷺ أبيض أزهر اللون مشرباً بحمرة[٢] قال الشاعر :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شُمّ الأنوف[٣] من الطراز الأول

ومما قيل فى مدح السواد : قيل لبعضهم : ما تقول فى السواد ؟ قال النور فى السواد ! أراد بذلك نور العينين فى سوادهما وقال بعضهم :

قالوا : تعشقتها سوداء قلت لهم : ... لون الغوالى[٤] ، ولون المسك والعُودِ
إنى امرؤ ليس شأن البيض مرتفعاً ... عندى ولو خلتِ الدنيا من السود

وقال الحيقطان :

لئن كنتُ جعدَ الرأسِ واللون فاحم ... فإنى بسيطُ الكفّ والعِرضِ أزهرُ
وإن سواد اللون ليس بضائرى ... إذا كنت يوم الروع بالسيف أخطِرُ

دخل إبراهيم بن المهدى على المأمون : فقال إنك لعم الخليفة الأسود ، فقال إبراهيم : نعم ، فتمثل المأمون ببيت نصيب فقال :

إن كنتُ عبدًا فنفسى حرة كرَمًا ... أو أسود اللون إنى أبيض الخُلُق

ثم قال يا عم أخرجنا الهزل إلى الجد ، فأنشد إبراهيم :

ليس يُزرى السواد بالرجُل الشهـ ... ـم ولا بالفتى الأريب الأديب
إن يكن للسواد فيك نصيبٌ ... فبياضُ الأخلاق منك نصيبى

وقال آخر :

لام العواذلُ فى سوداءَ فاحمة ... كأنها فى سوادِ القلبِ تمثالُ
وهام فى الخالِ أقوامٌ وما علموا ... أنى أهيم بشخص كُلّه خَالُ

وقيل لمدنى :

كيف رغبتم فى السواد؟ فقال : لو وجدنا بيضاء لسوّدناها !

وقال آخر :

يكون الخالُ فى خد قبيحٍ ... فيكسوه الملاحة والجمالا
فكيف يُلام ذو عشق على من ... يراها كلها فى الخد خالا ؟

وقال آخر :

فاستحسَنُوا الخال فى خد فقلت لهم ... إنى عشقت مليحاً كله خال

وكان أبو حاتم المدنى ، ينشد :

ومن يكُ مُعْجَبًا ببناتِ كسرى ... فإنى معجبٌ ببناتِ حَام

وتفاخرت حبشية ورومية فقالت الرومية : أنا حبة كافور ، وأنتِ عِدل فحم ، فقالت الحبشية : أنا حبة مسك ، وأنت عِدل ملح وقد قال الشاعر :

أحب لحبها السودانَ حتى ... أحبّ لحبّها سُودَ الكلابِ

وقال آخر :

---

(١) عزاه صاحب تحفة العروس - بتحقيقى - إلى عائشة رضي الله عنها .

(٢) وصفة على ﷺ بذلك كما جاء فى تحفة العروس .

(٣) شُمّ الأنوف: أي أعِزَّة، أُبَاة.

(٤) الغَوالي: يُقال: تغوَّلت المرأة، أي تشبَّهت بالغُول في تلوُّنها.

أشبهك المسكُ وأشبهته ... قائمة فى لونه قاعده
لا شك إذ لونكما واحد ... أنكما من طينةٍ واحدة

ومما قيل فى الصفرة : قال الشاعر :

أصفراء كان الهجرُ منك مزاحًا ... ليالى كان الود منكِ مُباحًا
كأن نساء الحى ما دمتِ فيهم ... قِباح فلما غبت صِرنَ مِلاحًا

وقال آخر :

قالوا : به صفرة شانت محاسنه ... فقلت ما ذاك من عيب به نَزَلا
عيناه مطلوبة فى ثار من قتلت ! ... فلستَ تلقاه إلا خائفاً وجِلا

❁ ومما جاء فى عظم الخلقة والطول والقصر :

قيل : خرب القهندز ، فبرزت منه جماجم أموات فتصدعت جمجمة فانتثرت أسنانها ، فوزن السن منها فكان وزنها أربعة أرطال ، فأتى بها إلى ابن المبارك ، فجعل يقلبها ، ويتعجب من عظمها ثم قال :

إذا ما تذكرت أجسامهم ... تصاغرت النفسُ حتى تهون

وأراد ملك الروم أن يباهى أهل الإسلام فبعث إلى معاوية رجلين : أحدهما طويل ، والثانى قصير : شديد القوة ، فدعا للطويل بقيس بن سعد بن عبادة فنزع قيس سراويله ، ورمى بها إليه فلبسها الطويل ، فبلغت ثدييه ، فلامُوا قيساً على نزع السراويل فقال :

أردت لكيما يعلم الناسُ أنها ... سراويلُ قيسٍ والوفود شهود
وكى لا يقولوا خان قيس وهذه ... سراويلُ عاد أحرزتها ثمود
وإنى من القوم اليمانين سيد ... وما الناس إلا سيد ومسود

ثم دعا معاوية للرجل الشديد فى قوته ، بمحمد بن الحنفية ؛ فخيره بين أن يقعد فيقيمه ، أو يقوم فيقعده ، فغلبه فى الحالتين ، وانصرفا مغلوبين . وقيل : كان سلمة بن مرة الناموسى أسَر امرأ القيس بن النعمان اللخمى الملك ، وكان الناموسى قصيراً مُقْتَحماً واللخْمِىّ طويلاً جسيماً فقالت بنت امرىء القيس : يا هذا القصير ، أطلق أبى فسمعها سلمة بن مرة فقال :

لقد زعمتْ بنتُ امرئ القيس أننى ... قصير وقد أعيا أباها قصيرُها
ورب طويلٍ قد نزعتُ سلاحَه ... وعانقتهُ والخيل تَدمَى نحورُها

وقالوا : عظم اللحية يدل على البَله ، وعَرضُها على قلة العقل ، وصغرها على لطف الحركة ، وإذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد ، والعين المتوسطة فى حجمها تدل على الفطنة ، وحسن الخلق والمروءة والتى يطول تحديقها تدل على الحمق ،والتى تكسر طرفها تدل على خفة وطيش ، والشعر على الأذن يدل على جودة السمع ، والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان !

ومما قيل فى القبح والدمامة : أراد رجل أن يكتب كتاباً لبعض أصحابه فلم يجد من يرسله معه إلا رجلاً وخش الصورة[1] ، بشع المنظر ، فلم يقدر على تحليته لفرط دمامته . فكتب إلى صاحبه يأتيك بهذا الكتاب آية من آيات الله تعالى وقدره ، فدعه يذهب إلى نار الله وسقره . ومر أبو الأسود الدؤلى بمجلس لبنى بشير ، فقال بعض فتيانهم كأن وجهه وجه عجوز راحت إلى أهلها بطلاقها ؛ وقال الجاحظ ما أخجلنى قط إلا امرأة مرت بى إلى صائغ فقالت له : اعمل مثل هذا فبقيت مبهوتًا ثم سألت الصانع فقال هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان فقلت لا أدرى كيف أصوره ؟ فأتت بك إلىّ لأصوره على صورتك وفى الجاحظ يقول الشاعر :

---

(١) الوخش : الردىء من كل شىء .

لو يُمسخ الخنزير مسخًا ثانيًا ... ما كان إلا دون قُبح الجاحظ
رجل ينوب عن الجحيم بوجهه ... وهو القذى[(١)] في عين كلّ مُلاحظ
ولو أن مرآة جلت تمثاله ... ورآه كان له كأعظم واعظ

وقال الأصمعي : رأيت بدوية من أحسن الناس وجهًا ولها زوج قبيح فقلت : يا هذه أترضين أن تكوني تحت هذا ؟ فقالت : يا هذا لعله أحسن فيما بينه وبين ربه فجعلني ثوابه وأسأت فيما بيني وبين ربي فجعله عذابي أفلا أرضى بما رضي الله به ، وحج مخنث فرأى رجلًا قبيح الوجه يستغفر ، فقال : يا حبيبي ما أراك تبخل بهذا الوجه على جهنم ، وقال بعضهم لرجل طلع لي دمل في أقبح المواضع ، فقال له : كذبت هذا وجهك ليس فيه شئ وخرج رجل قبيح الوجه إلى المتجر فدخل اليمن فلم ير فيها أحسن منه وجهًا فقال :

لم أر وجهًا حسنًا ... مُنذ دخلتُ اليمنا
فيا شقاء بلدة ... أحسن ما فيها أنا

وخطب رجل عظيم الأنف امرأة فقال لها : قد عرفت أني رجل كريم المعاشرة محتمل المكاره ، فقالت : لا شك في احتمالك المكاره مع حملك هذا الأنف أربعين سنة قال الشاعر في رجل كبير الأنف :

لك وجهٌ وفيه قطعة أنف ... كجدارٍ قد أدعموه ببَغْلَة
وهو كالقبر في المثال ولكن ... جعلوا نصبه على غير قبله

وقال آخر :

لك أنف ذُو أنوف ... أنفت منه الأُنوف
أنت في القدس تُصلّى ... وهو في البيت يطوف

ومما جاء في الثقلاء ، قال مطيع بن إياس :

قل لعباس أخينا ... يا ثقيل الثقلاء
أنت في الصيف سَمومٌ[(٢)] ... وجليدٌ في الشتاء
أنت في الأرض ثقيل ... وثقيلٌ في السماء

❁ ومما جاء في الملابس وألوانها والعمائم ونحوها :

قال الله تعالى : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، وقال تعالى : ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٧] وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»[(٣)]، وقال ﷺ: «تعمموا تزدادوا جمالًا»[(٤)] وقال ﷺ : «العمائم تيجان العرب»[(٥)]، وكان الزبير بن العوام يقاتل يوم بدر وعليه عمامة صفراء فنزلت الملائكة وعليهم عمائم صفر قد أرْخَوْها[(٦)]، وبعث رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل فتخلف عن الجيش وأتى إلى رسول الله ﷺ وعليه عمامة سوداء من خَزٍّ فنقضها رسول الله ﷺ وعممه بيده وأسدلها بين كتفيه قدر شبر وقال : هكذا أعتم

---

(١) القَذَى: جمع القذاة، وهو ما يتكوّن في العين من رمَص وغَمَص وغيرهما.
(٢) السَّمُوم: الريح الحارة تهبُّ غالبًا بمصر في شهر مايو، وتكون غالبًا بالنهار.
(٣) قال العجلوني: رواه الترمذي وحسنه عن عمرو بن شعيب عن أبيه مرفوعًا.
(٤) ضعيف جدًا وهو بلفظ «اعتموا تزدادوا حلمًا» أخرجه الخطيب عن أبي الميح، انظر: ضعيف الجامع الصغير [١٠٣١] والأحاديث الضعيفة برقم [٢٨١٩].
(٥) ضعيف جدًا: أخرجه القضاعي في مسند الشهاب برقم [٦٨]، وفيه موسى بن إبراهيم المروزي، متروك. وأخرجه ابن هشام في السيرة [١/ ٤٢١] بسند ضعيف جدًا فيه مجهول.
(٦) أخرجه ابن عساكر كما في منتخب كنز العامل [٤/ ١٠٢] هامش المسند عن عبد الله بن الزبير وأخرجه ابن عساكر أيضًا كما في المنتقف [٤/ ١٠٨] عن أبي جعفر.

يا بن عوف [١] وبعث ملك الروم إلى النبى ﷺ جبة ديباج فلبسها ثم كساها عثمان [٢] ، وكان سعيد بن المسيب يلبس الحلة بألف درهم ، ويدخل المسجد فقيل له فى ذلك : فقال إنى أجالس ربى ، وقيل : المروءة الظاهرة الثياب الطاهرة ، وقيل البس البياض والسواد فإن الدهر هكذا بياض نهار وسواد ليل . ومما قيل فى لبس السواد قول أبى قيس:

رأيتك فى السواد فقلت : بدر ... بدا فى ظلمة الليل البهيم
وألقيت السواد فقلت : شمس ... مَحت بشعاعها ضوء النجوم

وقدم تاجر إلى المدينة يحمل من خُمر العراق ، فباع الجميع إلا السود ، فشكا إلى الدارِمىّ ذلك ، وكان الدارمى قد نسك وتعبد ، فعمل بيتين وأمر من يغنى بهما فى المدينة ، وهما هذا البيتان :

قل للمليحة فى الخمار الأسود ... ماذا فعلت بزاهد متعبد ؟!
قد كان شمَّرَ للصلاةِ إزارَه ... حتى قعدتِ له بباب المسجد

قال فشاع الخبر فى المدينة أن الدارمى رجع عن زهده ، وتعشق صاحبة الخمار الأسود ، فلم يبق فى المدينة مليحة إلا اشترت لها خماراً أسود ، فلما أنفد التاجر ما كان معه ، رجع الدارمى إلى تعبده ، وعمد إلى ثياب نسكه فلبسها [٣] .

وقال آخر فى لابسة الأحمر :

وشمسٍ من قضيب فى كثيب ... تبدت فى لباس جُلّنَارِى
سقتنى ريقَها صِرْفاً وحيت ... بوجنتها فهاجت جُلّ نارى

وقال آخر فى لابسة ثوب خمرى :

فى ثوبها الخمرى قد أقبلت ... بوَجْنَةٍ حمراء كالجمر

وقال الصنوبرى فى لابسة أخضر :

وجارية أدَبْتُها الشطاره ... ترى الشمسَ من حُسنها مستعاره
بدت فى قميصٍ لها أخضر ... كما ستر الورق الجلنَاره
فقلت لها : ما اسم هذا اللباس ؟ ... فأبدت جواباً لطيفَ العبارة
شقِقنا مرائرَ قومٍ به ... فنحنُ نسميه شقّ المراره

وقال حكيم لابنه : إياك أن تلبس ما يديم الملك نظره إليك به ، واعلم أن الوشى [٤] ، لا يلبسه إلا الأحمق أو ملك ، وعليك بالبياض . وقيل : لباس البخلاء الإستبرق ، لطول بقائه ، ولباس المترفين السندس ؛ لقلة بقائه ولباس المقتصدين الديباج لتوسط بقائه . وقال بعض الأمراء لحاجبه أدخل على عاقلاً فأتاه برجل ؛ فقال : بم عرفت عقله ؟ فقال : رأيته يلبس الكتان فى الصيف ، والقطن فى الشتاء ، والملبوس فى الحر ، والجديد فى البرد ، وقيل : كان لأبرويز عمامة طولها خمسون ذراعاً إذا اتسخت ألقاها فى النار ، فيحترق الوسخ ، ولا تحترق ! وكان له رداء حسن يتلون كل ساعة ، وسراويل مجوهر ، وتكة من أنابيب الزمردّ . وقيل : الأقبية لباس الفرس ، والقراطق لباس الهند ، والأزر لباس العرب ، وسئل بعض العرب عن الثياب فقال : الصُّفر أشكل ، والحمر أجمل ، والخضر أقبل ، والسود أهول ، والبيض أفضل ، وقال أفلاطون : الصبغ الشقائقى ، والروائح الزعفرانية ، تسكن الغضب ، والصبغ الياقوتى ، والروائح الوردية تحرك السرور ، وإذا قرب اللون الأحمر إلى اللون الأصفر تحركت القوة العشقية ، وإذا

---

(١) أخرجه أبو داود [٤٠٧٩] عن عبد الرحمن بن عوف، وأخرجه الحاكم [٤/ ٥٤٠] والطبراني في الأوسط [٤٢١٩ - مجمع البحرين] عن عبد الله ابن عمر بإسناد حسن.

(٢) وبعث ملك الروم إلى النبى ﷺ انظر : « أخلاق النبى ﷺ » . لأبى الشيخ [ص ١١٠] .

(٣) نُسُكه : عبادته وزهده والخُمُر جمع خِمار .

(٤) الوشى : تحلية الثوب بخيوط حريرية وتطريزه .

مزجت الحمرة بالصفرة تحركت القوة الغريزية ، وإذا مزجت التفاحية بالحمرة ، تحركت الطبائع كلها . وكان مصعب بن الزبير يقول : لكل شيء راحة ، وراحة البيت كنسه ، وراحة الثوب طيه ، وقال بعض الأعراب : رأيت بالبصرة برودا كأنها نسجت بأنواع الربيع ، ودخل بعض العذريين على معاوية وعليه عباءة فازدراه فقال : ياأمير المؤمنين ، إن العباءة لا تكلمك ، وإنما يكلمك من فيها . ومما قيل فيمن رذل لبسه ، وعرف نفسه : قال الأصمعي : رأيت أعرابياً ، فاستنشدته فأنشدني أبياتاً ، وروى أخباراً فتعجبت من جماله ، وسوء حاله ، فسكت سكتة ثم قال :

أخـــيَ إن الـــحـــادثـــا ... ت عـــركـــنـــنـــي عـــرك الأديـــم[1]
لا تـــنـــكـــرن أن قـــد رأيـــ ... ـت أخـــاك فـــي طِـــمْـــرَيْ[2] عَـــديـــم
إن كـــان أثـــوابـــي رثـــا ... ثٌ فـــإنـــهـــن عـــلـــى كـــريـــم

قال بعضهم : وقيل للشافعي - رحمه الله تعالى - :

عـلـى ثـيـاب لـو تـقـاسُ جـمـيـعُـهـا ... بـفَـلـسٍ لـكـان الـفـلـسُ مـنـهـن أكـثـرا
وفـيـهـن نـفـسٌ لـو يـقـاس بـبـعـضـهـا ... نـفـوسُ الـورى كـانـت أجـلَّ وأكـبـرا
ومـا ضـر نـصـل الـسـيـف إخـلاقُ غِـمـدِه ... إذا كـان عَـضـبـاً حـيـث وجـهـه بـرى

ودخل بعضهم على الرشيد فازدراه فأنشده :

تـرى الـرجـل الـخـفـيـفَ فـتـزدريـه ... وفـي أثـوابـه أسـدٌ هَـصُـورُ
ويـعـجـبـك الـطـريـرُ[3] فـتـبـتـلـيـه ... فـيـخـلـف ظـنّـك الـرجـلُ الـطَّـريـر
لـقـد عـظـمَ الـبـعـيـرُ بـغـيـر لُـبّ ... فـلـم يـسـتـغـن بـالـعِـظَـم الـبـعـيـرُ
يـصَـرّفـه الـصَـبـيّ بـغـيـر وجـه ... ويـحـبـسـه عـلـى الـخـسـف الـجـريـرُ[4]
وتـضـربُـه الـولـيـدة بـالـهـراوى ... فـلا عـارٌ عـلـيـه ولا نـكـيـرُ
فـإن أكُ فـي شـراركـمـو قـلـيـلا ... فـإنـي فـي خـيـاركـمـو كـثـيـر

ويقال : كلْ ما تشتهيه نفسُك ، والبس ما تشتهيه الناسُ ، وقد نظمه من قال :

إن الـعـيـونَ رمـتـك إذ فـاجـأتـهـا ... وعـلـيـك مـن مـهَـنِ الـثـيـابِ لـبـاسُ
أمـا الـطـعـامُ فـكـل لـنـفـسـك مـا اشـتـهـت ... واجـعـل لـبـاسَـكَ مـا اشـتـهـتـه الـنـاسُ

وفي هذا القدر كفاية ، والله أعلم بالصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) الأديم : الجلد ، ويقال : أديم الليل : ظُلمته وهو بريء الأديم : متّهم بما لم يفعل .
(٢) الطِّمْر : الثوب البالي ، والجمع أطمار .
(٣) الطَّرير : ذو المنظر والرّواء والهيئة الحسنة .
(٤) الجَرير : الحبل يُقاد به ، والجمع أجِرَّة .

الباب السابع والأربعون

فى التختم والحلى والمصوغ ، والطيب والتطيب ، وما أشبه ذلك

ما جاء فى التختم : عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يتختم فى يمينه ، وقبض عليه الصلاة والسلام والخاتم فى يمينه [١] ، قال بعض من مدحه ﷺ :

كفّ الرسالةِ ليس يخفى حُسنُها ... وتمامُ حسنِ الكفّ لبس الخاتم

وذكر السلامى : أن رسول الله ﷺ كان يتختم فى يمينه ، والخلفاء بعده ، فنقله معاوية رضي الله عنه إلى اليسار ، وأخذ الأموية بذلك . ثم نقله السفاح إلى اليمين فبقى إلى أيام الرشيد رضي الله عنه فنقله إلى اليسار ، وأخذ الناس بذلك ، وعن على رضي الله عنه عن النبى ﷺ : « **تختموا بخواتيم العقيق ، فإنه لا يصيب أحدكم غمّ ما دام عليه ذلك** » [٢] . وبلغ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن ابنه اشترى فص خاتم بألف دينار ، فكتب إليه عزمت عليك إلا ما بعت خاتمك بألف دينار ، وجعلتها فى بطن جائع ، واستعمل خاتما من وَرِق [٣] ، وانقش عليه رحم الله امرأ عرف نفسه . وكان خاتم على رضي الله عنه من وَرِق ، ونقشه نعم القادر الله ، وكان لأبى نواس خاتمان : أحدهما عقيق مرصع ، وعليه مكتوب :

تعاظمنى ذنبى فلما قرنتُه ... بعفوك ربى كان عفوُك أعظما

والآخر حديد صينى عليه : « **أشهد أن لا إله إلا الله مخلصا** » . وأوصى عند موته أن يغسل الفص ، ويجعل فى فمه ، قال جعفر بن محمد رضي الله عنه ما افتقرت يد تختمت بخاتم فيروز ، وقيل : الخواتم أربعة الياقوت للعطش ، والفيروز للمال ، والعقيق للسنة ، والحديد الصينى لِلْحِرْز ، وقيل : للخوف والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر ما جاء فى الحلى : **قيل** : إن قُرطَىْ مارية بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية كان فيهما درتان كبيض الحمام ، لم ير مثلهما ، ولم يدر قيمتهما . وقال محمد : بعثنى يوسف بن عمر إلى هشام بياقوتة حمراء ، يخرج طرفاها من كفى ، كانت للرائقة جارية خالد بن عبد الله القسرى ، اشترتها بثلاثة وسبعين ألف دينار ، وحبة لؤلؤ أعظم ما يكون من الحب ، فدخلت عليه بهما فقال : اكتب معك بوزنهما فقلت : ياأمير المؤمنين هما أعظم من أن يكتب بوزنهما ، فقال : صدقت . وبعث معاوية إلى عائشة رضي الله عنها طوقاً من ذهب ، فيه جوهرة قوّمت بمائة ألف دينار ، فقسمته بين أزواج النبى ﷺ ، وكان ملك العرب كلما مرت عليه سنة من سنين ملكه زيدت فى تاجه خرزة ، وكان يقال لها خرزات الملك! .

ذكر ما جاء فى الطيب والتطيب : قال رسول الله ﷺ : « **أَطْيَبُ الطِّيبِ الْمِسْكُ** » [٤] وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كأنى أنظر إلى وبيص الطيب فى مفارق رسول الله ﷺ وهو محرم [٥] وعن سهل بن سعد يرفعه : « **إن فى الجنة لمراغًا من مسك مثل مراغ دوابكم هذه** » [٦] . وعن أنس رضي الله عنه قال دخل علينا رسول الله ﷺ ، فنام عندنا فعرق ، فجاءت أمى بقارورة ، فجعلت تسلت العرق فيها ، فاستيقظ ، وقال : « **يا أم سليم ما هذا الذى تصنعين ؟** » فقالت : هذا عرقك

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ « يتختم . . » إلخ . ضعيف جداً : أخرجه البزار كما فى « كشف الأستار » . برقم [٢٩٩١] ، و [١٢٠٥ - مختصر الزوائد] ، وأبو الشيخ فى « أخلاق النبى ﷺ » . [ص ١٣١] ، من حديث عائشة ، وفيه عبيد بن القاسم ، متروك . وانظر : «مجمع الزوائد » . [٥/ ١٥٣] .

(٢) « تختموا بخواتيم العقيق . . » إلخ ، قال العجلونى : فى سنده داود بن سليمان الغازى الجرجانى . كذبه ابن معين ، وقال العقيلى: لا يثبت فى هذا عن النبى ﷺ شىء وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات .

(٣) وَرِق : فضة .

(٤) « أطيب الطيب المسك » . قال العجلونى فى الكشف [١/ ٤٠٣] ، رواه مسلم والنسائى عن أبى سعيد .

(٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كأنى أنظر إلى وبيص الطيب . . » إلخ . أخرجه البخارى ، ومسلم [٣٩/ ١١٩٠] ، والوبيص : البريق واللمعان . والمفرق : وسط الرأس حيث يفرق الشعر .

(٦) « إن فى الجنة لمراغا من مسك . . إلخ » . ضعيف : أخرجه الطبرانى فى « الكبير » . برقم [٥٨٤٥] ، عن سهل بن سعد ، مرفوعا . وفى سنده: عبد الحميد بن سليمان ، ضعيف الحديث .

نجعله فى طيبنا ، وهو من أطيب الطيب[١] وعن عمر ﷺ قال : لو كنت تاجراً ما اخترت على العطر إن فاتنى ربحه ، لم يفتنى ريحُه ! وناول المتوكل فتى فارة المسك ، فقال :

لئن كان هذا طيبنا وهو طيب ... لقد طيبته من يديك الأنامل

وأهدى عبد الله بن جعفر لمعاوية قارورة من الغالية فسأله كم أنفق عليها ؟ فذكر مالاً جزيلاً ، فقال : هذه غالية فسميت بذلك . وشمها مالك بن سليمان بن خارجة من أخته هند بنت أسماء ، فقال : علمينى كيف تصنعين طيبك ؟ فقالت : لا أفعل تريد أن تعلمه جواريَك هو لك منى ، كلما ردته ، ثم قالت : والله إنى ما تعلمته إلا من شعرك حيث تقول :

أطيب الطيب عرف أم أبان ... فار مسك بعنبر مسحوق

قال أبو قلابة : كان ابن مسعود ﷺ إذا خرج من بيته إلى المسجد عرف جيران الطريق أنه مر من طيب ريحه ، وعن الحسن بن زيد الهاشمى ، عن أبيه قال : رأيت ابن عباس ﷺ يطلى جسده ، فإذا مر فى الطريق قال الناس : أمر ابن عباس ؟ أم مرّ المسك ؟! وعنه عن أبيه قال : رأيت ابن عباس ﷺ حين أحرم ، والغالية[٢] على صدغيه كأنها لزقة . وقال أبو الضحى : رأيت على رأس الزبير من المسك ، ما لو كان لى لكان رأس مالى ! وقيل لما بنى عمر بن عبد العزيز ﷺ بفاطمة بنت عبد الملك أسرج فى مسارجه تلك الليلة بالغالية : وقال الشعبى : الرائحة الطيبة تزيد العقل ، وقال على ﷺ تشمموا النرجسَ ولو فى العام مرة فإن فى قلب الإنسان حالة لا يزيلها إلا النرجس . وكان الشعبى يقول : إذا ورد الورد ، صدر البرد . وكانت الصحابة رضي الله عنهم يستحبون إذا قاموا من الليل أن يمسوا لحاهم بالطيب ، وكان من اختلف فى طرقات المدينة وجد عرقًا طيباً ، قيل : ولذلك سميت طيبة ! وأقول : والله ما طابت طيبة إلا بالطيّب الطاهر صلى الله عليه وسلم ، وما أحسن ما قيل :

إذا لم أطب فى طيبة عند طيّب ... به طيبةٌ طابت فأين أطيب ؟!

وقيل إن فارة المسك دويبة شبيهة بالخشب ، تصاد لسرتها ، فإذا صادها الصياد عصب السرة بعصابة شديدة ، فيجتمع فيها دمها ثم يذبحها ، ثم يأخذ السرة فيدفنها فى الشعير حتى يستحيل الدم المجتمع فيها مسكا ذَكيًّا بعد أن كان لا يرام نتناً وقد يوجد جرذان سود يقال لها فأرات المسك ليس عندها إلا رائحة لازمة لها ! وحكى : إن العنبر يأتى على طفاوة الماء ، لا يدرى أحد مَعدنَه ، فلا يأكله شىء إلا مات ، ولا ينقره طائر إلا بقى منقاره فيه ، ولا يقع عليه حيوان إلا نصلت أظفاره فيه ، والتجار والعطارون ربما وجدوا أظفارًا فيه ، وقال الزمخشرى - عفا الله عنه - : سمعت ناساً من أهل مكة يقولون : هو من زبد بحر سرنديب ، وأجود العنبر الأشهب ، ثم الأزرق ، وأدونه الأسود . وفى حديث ابن عباس ﷺ « لَيسَ فِى الْعَنْبَرِ زَكَاةٌ إِنَّمَا هُوَ شَىْءٌ نَثَرَهُ الْبَحْرُ »[٣] . وأما العود فأجوده المندلى ، وهو منسوب إلى مندل قرية من قرى الهند ، وأجوده أصلبه . وامتحان رطبه أن تطبع فيه نقش الخاتم ، فإن انطبع فرطب وإلا فلا . ومن خصائصه أن رائحته تطبع فى الثوب أسبوعاً فلا يقمل ما دامت فيه ، وأما الكافور فهو ماء شجر بجزيرة الكافور يحزونه بالحديد ، فإذا خرج ظاهراً وضربه الهواء ، انعقد كالصموغ الجامدة على الأشجار . وأما النّد فمصنوع ، وهو العود المستقطر ، والعنبر واللبان قال :

لو كنت أحملُ جَمراً حين زرتُكم ... لم ينكر الكلبُ أنى صاحبُ الدار
لكن أتيتُ وريحُ المسك يقدُمنى ... والعنبرُ النّدّ مشبوب على النار

وكانت ملوك الفرس تأمر برفع الطيب أيام الورد ، وكان المتوكل يلبس أيام الورد الثياب الموردة ويفرش الورد فى مجلسه ، ويطيب جميع آلاته بالورد .

وقال الحسن بن سهل : أمهات الرياحين تقوى بأمهات الطيب ، فالنرجس يقوى بالورد ، والورد يقوى بالمسك ،

---

(١) وعن أنس .. قال : « دخل علينا رسول الله ﷺ .. » إلخ . رواه مسلم [ج٧] ، [ص٨١] .

(٢) الغالية : أخلاط من الطيب .

(٣) « ليس فى العنبر زكاة » . أخرجه البخارى [٣/ ٢٦١] ، مرفوعا بلفظ « ليس العنبر بركاز » .

والبنفسج يقوى بالعنبر ، والريحان يقوى بالكافور ، والنسرين يقوى بالعود . وقال جالينوس : المسك يقوى القلب ، والعنبر يقوى الدماغ ، والكافور يقوى الرئة ، والعود يقوى المعدة ، والغالية تحل الزكام ، والصندل يحل الأورام .

وعن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال : « لا تَرُدُّوا الطِّيبَ فَإِنَّهُ طَيِّبُ الرِّيحِ خَفِيفُ الْمَحْمِلِ »[١] . تبخر بعض الأمراء وعنده أعرابى ، ففرطت من الأمير ريح خفيفة ، فأراد أن يعلم هل فطن بها الأعرابى أم لا فقال : ما أطيب هذا المثلث ؟ قال : نعم ولكنك ربعتها . وقال الأحنف : إن شم رائحة المسك يحيى القلب . وقال سلمة لابن عباس وعنده - جعفر بن سليمان - : ما شمت أنفى من ريح مسك شممته من الناس إلا ريح كفك أطيب ، فأمر له بألف دينار ومائة مثقال مسك ، ومائة مثقال عنبر ، والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثامن والأربعون

فى الشباب والصحة والعافية وأخبار المعمرين ، وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول : فى الشباب وفضله

روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ما بعث الله نبياً إلا شاباً ولا أوتى العلم عالم إلا شاباً ثم تلا هذه الآية : ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء:٦٠] . وقد أخبر الله تعالى به ثم آتى يحيى بن زكريا الحكمة قال تعالى : ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:١٢] . وقال تعالى : ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف:١٠] وقال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف:١٣] وقال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف:٦٠] وقال أنس ﷺ : « قبض رسول الله ﷺ وليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء »[٢] . وقد قدّم رسول الله ﷺ أسامة بن زيد على جميع الأنصار وكبار المهاجرين على حداثه سنه ، وعتاب بن أسيد ولاه مكة ، وبها أكابر قريش ، وعبد الله بن عباس على جلالة قدره وحفظه من العلم[٣] . وقال بعض البلغاء : الشباب باكورة الحياة ، وأطيب العيش أوائله ، كما أن أطيبَ الثمار بواكيرُها ، والشباب أبلغ الشفعاء عند النساء ، وأكثر الوسائل لقلوبهن ، ولذلك قال الشاعر :

أحلى الرجال مع النساء مواقعاً ... من كان أشبههم بهن خدوداً

وما بكت العرب على شىء ما بكت على الشباب ، ولو لم يكن هذا الشباب حميداً وزمانه حبيباً لوسامة صورته ، وبهجة منظره ، وجمال خلقته ، واعتدال قامته ، لما جاور الله فى جنات خلده شاب ، كما قال رسول الله ﷺ : « جرداً مُرداً أبناء ثلاثين »[٤] . وقد جاء فى ذلك أشياء كثيرة ليس هذا موضع بسطها .

الفصل الثانى : فى الشيب وفضله

أول من شاب سيدنا إبراهيم الخليل ﷺ وفى الخبر أن الله تعالى يقول : « الشيب نورى وأنا أستحى أن

---

(١) وعن أبى هريرة : « لا تردوا الطيب . . » إلخ . أخرجه بهذا اللفظ مسلم فى « مسنده » . عن عمر بن الحكم كما فى « المطالب العالية » . برقم[٢٦٦٢] ، وسنده ضعيف لأنه مرسل ، ولكن الحديث صحيح : وانظر : صحيح البخارى كتاب اللباس برقم[٥٩٢٩] .

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب الشمائل عن عبد الله بن عمر قال : « إنما كان شيب الرسول ﷺ نحواً من عشرين شعرة بيضاء » .

(٣) انظر البداية والنهاية لابن كثير . والإصابة لابن حجر .

(٤) قوله ﷺ « جرْدًا مُرْدا أبناء ثلاثين » . قال صاحب الترغيب والترهيب . . » . إلخ . رواه أحمد ، وابن أبى الدنيا والبيهقى كلهم من رواية على بن زيد بن جدعان عن ابن المسيب .

أحرقه بنارى » [١] . وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال : جاء رجلان إلى النبى ﷺ شيخ وشاب ، فتكلم الشاب قبل أن يتكلم الشيخ ، فقال ﷺ : « كَبِّرْ كَبِّرْ » [٢] . وبهذه الرواية : « من وقّر كبيراً لكبر سنه آمنه الله من فزع يوم القيامة » [٣] . وعن أنس ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : وعزتى وجلالى وفاقة خلقى إلىّ أنى لأستحى من عبدى وأمتى يشيبان فى الإسلام أن أعذبهما . » ثم بكى ! . فقيل له : ما يبكيك يا رسول الله ؟ قال : « أبكى ممن يستحى الله منه وهو لا يستحى من الله » [٤] . وقال : « من بلغ ثمانين من هذه الأمة حرمه الله على النار » [٥] . وقال : « إذا بلغ المؤمن ثمانين سنة فإنه أسير الله فى الأرض تكتب له الحسنات ، وتُمحَى عنه السيئات » [٦] . وقيل : كان الرجل فيمن كان قبلكم لا يحتلم حتى يبلغ ثمانين سنة ، وقال ابن وهب : إن أصغر من مات من ولد آدم ابن مائتى سنة ، فبكته الإنس والجن لحداثة سنه ، وقال النخعى : كان يقال إذا بلغ الرجل أربعين سنة على خلق لم يتغير عنه حتى يموت ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما رفعه : « من أتى عليه أربعون سنة ثم لم يغلب خيره على شره فليتجهز إلى النار » [٧] وعن أنس ﷺ قال : قال ملك الموت لنوح عليه السلام : ياأطول النبيين عمراً كيف وجدت الدنيا ولذّتها . قال : « كرجل دخل فى بيت له بابان ، فقام وسط البيت ساعة ؛ ثم خرج من الباب الثانى » [٨] . ويقال : أطع أكبر منك ولو بليلة وقال عبد العزيز بن مروان : من لم يتعظ بثلاث ، لم ينته بشىء : الإسلام ، والقرآن ، والشيب قال الشاعر :

يا عامر الدنيا على شَيْبه ... فيك أعاجيب ، لمن يَعْجَبُ

ما عذرُ من يعمر بنيانه ... وعمرُه منهدمٌ يخرب ؟!

وقال الشعبى : الشيب علة لا يعاد منها [٩] ، ومصيبة لا يعزى عليها . وقال الفرزدق :

ويقول : كيف يميل مثلك للظبا ... وعليك من عظم المشيب عذار ؟!

والشيب ينقصُ فى الشباب كأنه ... ليل يصيح بعارضيه نهار

وقال أبو دلف فى بياض اللحية :

تكوننى هم لبيضاء نابتة ... لها بغضة فى مضمر القلب ثابته

ومن عجب إنى إذا رمت قصّها ... قصصتُ سواها وهى تضحك نابته

وقال أيضاً :

أرى شيبَ الرجالِ من الغوانى ... بمبلغ شيبهن من الرجال

وقال ابن المعتز :

فظللتُ أطلبُ وصلها بتذلل ... والشيبُ يغمزُها بأن لا تفعلى

قيل صاح شاب بشيخ أحدب : بكم ابتعت هذا القوسَ ياعماه ؟ فقال : يابنىّ إنى أُعطيتُها بغير ثمن . ومر رجل

---

(١) وفى الخبر أن الله - تعالى - يقول : « الشيب نورى وأنا أستحى . . . » . إلخ ، عزاه المتقى الهندى فى « كنزه » . برقم [٤٢٦٨١]، لأبى الشيخ .

(٢) « عن جعفر بن محمد . . » . إلخ أخرجه ابن ماجه برقم [٣٦٧٧] ، وانظر : « السلسلة الصحيحة » . برقم [١٥٥٥] .

(٣) « من وقر كبيرا لكبر سنه آمنه الله من فزع يوم القيامة » . لم أقف عليه .

(٤) يقول الله : « وعزتى وجلالى . . » إلخ . ضعيف : أخرجه أبو يعلى كما فى « مجمع الزوائد » . [٥/ ١٥٩] ، وقال الهيثمى : «وفيه نوح بن زكوان وغيره من الضعفاء » .

(٥) « من بلغ ثمانين من هذه الأمة » . إلخ موضوع : أخرجه ابن النجار فى « تاريخه » . كما فى « اللآلئ المصنوعة » . [١/ ١٤٧] .

(٦) « إذا بلغ المؤمن ثمانين سنة . . » . إلخ . ضعيف : أخرجه ابن قتيبة فى « غريب الحديث » ، وأبو الشيخ الأصبهانى فى « فوائد الأصبهانيين » . كما فى « اللآلئ » . [١/ ١٤٤ - ١٤٥] ، وفيه عبد الرحمن بن سليمان مجهول .

(٧) عن ابن عباس . يرفعه . « من أتى عليه أربعون . . » . إلخ . موضوع : أخرجه أبو الفتح الأزدى كما فى « اللآلئ » . [١/ ١٣٧] ، وفى سنده جوبير هالك ، ورباح بن أحمد ضعيف جدًا .

(٨) عن أنس قال : « قال ملك الموت لنوح . . » إلخ . ضعيف جدًا : أخرجه ابن أبى الدنيا فى « ذم الدنيا » . برقم [٢٢٩ - إصدار مكتبة القرآن]، وفيه نافع أبو هرمز ، ضعيف الحديث جدًا . انظر : « المجروحين » لابن حبان [٣/ ٥٧] .

(٩) لا يُعادُ منها : أى لا يزار من حلت به كما يزار المريض بإحدى العلل الأخرى .

أشمط [١] بامرأة عجيبة فى الجمال فقال : ياهذه ، إن كان لك زوج فبارك الله لك فيه ، وإلا فأعلمينا فقالت : كأنك تخطبنى ، قال : نعم . فقالت : إن فى عيباً قال : وما هو ؟ قالت : شيب فى رأسى ، فثنى عنان دابته ، فقالت : على رسْلك ، فلا والله ما بلغت عشرين سنة ، ولا رأيت فى رأسى شعرة بيضاء ، ولكننى أحببت أن أعلمك أنى أكره منك مثل ما تكره منى ! فأنشد ويقال : إنه لابن المعتز :

رأين الغوانى الشيب لاح بمفرقى ... فأعرضن عنى بالخدود النواضر !

وقال آخر :

سألتها قُبْلَةً يوماً وقد نظرتْ ... شيبى ، وقد كنت ذا مالٍ وذا نَعَم !
فأعرضت وتولت وهى قائلة ... لا والذى أوجد الأشياء من عدم
ما كان لى فى بياض الشيب من أرَبٍ ... أفى الحياة يكون القطن حَشْوَ فمى

وقال آخر :

قالت أرى مسكة الشعر البهيم غدت ... كافورة قد أحالتها يدُ الزمن
فقلت : طيبٌ بطيبٍ والتنقل فى ... معادن الطيب أمر غير ممتهَنِ
قالت : صدقتَ وما أنكرتُ ذاك بذا ... المسكُ للشمِّ والكافور للكفنِ

وقال آخر :

قالت : أراك خضبتَ الشيب ؛ قلت لها : ... سترتُه عنك ياسَمعى ويابَصَرِى
فقهقهت ، ثم قالت من تعجّبها : ... تكاثر الغِش حتى صار فى الشّعرِ

وقال ابن نباتة :

تبسّم الشيب بوَجه الفتَى ... يُوجبُ سحَّ الدمع من جفنه
وكيف لا يبكى على نفسه ... من ضحك الشيبُ على ذقنه

وقال ابن المعتز :

فما أقبح التفريط فى زمن الصبا ... فكيف به والشيب فى الرأس شامل ؟!

وكان المأمون يتمثل بقول الشاعر :

رأت وضحًا فى الرأسِ منّى فراعَها ... فريقان : مبيضّ به وبَهيمُ
تفاريق شيب فى السواد لوامع ... فيا حسنَ ليلٍ لاح فيه نجومُ

ويقال فى الرجل إذا شاب : ليلهُ عسعس ، وصبحه [٢] تنفس !

إذا نازع الشيبُ الشبابَ فأصلتا ... بسيفيهما فالشيب لاشكّ غالب

وقال آخر :

ألا إن شيبَ العبد من نُقْرةِ القفا ... وشيبَ كرام الناس شيب المفارق

وقال العتبى :

قالت عهدتكَ مجنونًا فقلت لها : ... إن الشباب جنونٌ بُرؤُه الكبَرُ

وقال على بن ربيع :

كبرت ودق العظم منى وعقنى ... بَنىّ وزالت عن فراشى العقائدُ
وأصبحت أعشى أخبط الأرض بالعصا ... يقودننى بين البيوت الولائدُ [٣]

---

(١) الأشمط : المختلط سواد شعره ببياضه .

(٢) عسعس الليل : أقبل بظلامه ، وتنفس الصبح أقبل بضيائه !.

(٣) الولائد: مفردها وليدة، وهي الصبية إلى أن تبلغ.

وقال آخر :

عَريتُ من الشباب وكنتُ غصنًا ... كما يعرى من الورق القضيبُ
ونُحتُ على الشباب بدمع عينى ... فما نفعَ البكاءُ ولا النحيبُ
فياليت الشبابَ يعود يومًا ... فأخبرَه بما فعل المشيبُ

وقال ابن النقيب :

وكم كان من عين على وحافظٍ ... وكم كان من واش لها ورقيبِ
فلما بدا شيبى اطمأنت قلوبُهم ... ولم يحفظونى واكتفوا بمشيبى

وقال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى - : ما شبهت الشباب إلا كشىء كان فى كمى فسقط ! قال الشاعر :

شيئان لو بكت الدماء عليهما ... عيناك حتى يؤذنا بذهابِ
لم يبلغا المعشارَ من حقيهما : ... فقدُ الشباب ، وفرقة الأحباب

وقال الجاحظ :

أترجو أن تكون وأنت شيخ ... كما قد كنتَ فى زمن الشباب ؟!
لقد كذبتْك نفسُك ليس ثوبٌ ... دَريسٌ [١] كالجديد من الثياب

ومما جاء فى الخضاب : قال رسول الله ﷺ : « عَلَيكُمْ بِالْخِضَابِ فَإِنَّهُ أَهْيَبُ لِعَدُوِّكُمْ ، وأَعْجَبُ لِنِسَائِكُمْ »[٢] .

وعن أبى عامر الأنصارى ﷺ رأيت أبابكر الصديق ﷺ يغير بالحناء والكتم[٣] وقيل : خضاب الحنّاء يصفى البصر ، ويذهب بالصداع ، ويزيد فى الباه ! .

تُسَوِّدُ أعلاها وتأبى أصولُها ... وليس إلى ردّ الشباب سبيلُ

وقيل : وفد عبد المطلب بن هاشم على سيف بن ذى يزن فقال له : لو خضبت شعرك ! فلما رجع إلى مكة اختضب فقالت امرأته نبيلة : ما أحسن هذا لو دام ! فقال :

ولو دام لى هذا الخضاب حمدتهُ ... وكان بديلاً من خليلٍ قد انصرم !
تمتعت منه والحياة قصيرة ... ولابد من موت نبيلة أو هرم

وقال آخر :

يا خاضبَ الشيبِ الذى ... فى كل ثالثة يعود
إن الخضاب إذا نضا ... فكأنه شيب جديد
فدع المشيبَ وما يريـ ... ـد فلن يعود كما تريد

وقال محمود الوراق :

فما منك الشبابُ ولستَ منه ... إذا سامتك لحيتُك الخضابا

الفصل الثالث : فى العافية والصحة

عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إليك انتهت الأمانى يا صاحب العافية »[٤] . وعنه ﷺ أنه قال :

---

(١) ثوب دَريس : ثوب خَلَق بالٍ .

(٢) « عليكم بالخضاب . . » . إلخ . حسن : أخرجه بمعناه ابن ماجه برقم [٣٦٢٥] .

(٣) الكَتم : قريبة من الآس ، تنبت فى المناطق الجبلية بإفريقية والبلاد الحارة المعتدلة ، ثمرتها تشبه الفلفل ، بها بذرة واحدة ، وتسمى فلفل القرود ، كانت تستعمل قديما فى الخضاب ، وصنع المداد .

(٤) « إليك انتهت الأمانى . . » . إلخ . ضعيف : أخرجه الطبرانى فى « الأوسط » . « ٥٠٠٨ - مجمع البحرين » ، وفيه رشدين بن سعد ضعيف .

« أوّل ما يُحاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يُقَالَ لَهُ : أَلَمْ أُصِحَّ بَدَنَكَ ، وأَرْوِكَ بالْمَاءِ الْبَارِدِ » [(١)] . وقال على ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨] هو الأمن والصحة ، والعافية ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما يسأل الله العبادَ عن الأبدان ، والأسماع ، والأبصار ، فيم استعملوها ، وهو أعلم بذلك . وقال ابن عيينة : من تمام النعمة طول الحياة فى الصحة ، والأمن والسرور . وقالت عائشة رضي الله عنها لو رأيتُ ليلة القدر ، ما سألت الله إلا العفو والعافية وقال قبيصة بن ذؤيب : كنا نسمع نداء عبد الملك بن مروان من وراء الحجرة فى مرضه ؛ يأهل النعم لا تستقلوا شيئا من النعم مع العافية ، ويقال : البحر لا جوار له ، والملك لا صديق له ، والعافية لا ثمن لها قال ابن الرومى :

إذا ما كساك الدهر سربالَ صحةٍ ... ولم تخلُ من قوتٍ يحل ويقرب

فلا تغبطن أهلَ الكثير فإنما ... على قدر ما يُعطيهم الدهرُ يسلب

ويقال صحة الجسم أوفر القسْم ، وذكر بعضهم العافية فقال : وأى وِطاء وأى غِطاء ! وقال حكيم : إن كان شىء فوق الحياة فالصحة ، وإن كان شىء مثل الحياة فالغنى ، وإن كان شىء فوق الموت فالمرض ، وإن كان شىء مثل الموت فالفقر ، وقال على ﷺ ما المبتلى الذى اشتد به البلاء بأحوج إلى الدعاء من المعافى الذى لا يأمن البلاء . وقيل : إن فأرة البيوت رأت فأرة الصحراء فى شدة ومحنة ، فقالت لها : ما تصنعين هاهنا اذهبى معى إلى البيوت التى فيها أنواع النعيم والخصب ! فذهبت معها ، وإذا صاحب البيت الذى كانت تسكنه قد هيأ لها الرصد لبنة تحتها شحمة فاقتحمت لتأخذ الشحمة ، فوقعت عليها اللبنة فحطمتها ، فهربت الفأرة البرية ، وهزت رأسها متعجبة وقالت : أرى نعمة كثيرة وبلاء شديداً ألا وإن العافية والفقر أحب إلى من غنى يكون فيه الموت ، ثم فرت إلى البرية . وكان عند رومى خنزير ، فربطه إلى أسطوانة ، ووضع العلف بين يديه ليسمنه ، وكان بجنبه أتان لها جحش ، وكان ذلك الجحش يلتقط من العلف ما يتناثر ، فقال لأمه ياأماه ، ما أطيب هذا العلف لو دام ! فقالت له : يابنى لا تقربه فإن وراءه الطامة الكبرى ، فلما أراد الرومى أن يذبح الخنزير ووضع السكين على حلقه جعل يضطرب ، وينفخ فهرب الجحش ، وأتى إلى أمه وأخرج لها أسنانه ، وقال : ويحك ياأماه انظرى هل بقى فى خلال أسنانى شىء من ذلك العلف فاقلعيه ؟! فما أحسن القنع مع السلامة ! والله أعلم بالصواب .

الفصل الرابع : فى أخبار المعمرين فى الجاهلية والإسلام

قال الحسن ﷺ أفضل الناس ثواباً يوم القيامة المؤمن المعمر . وقال رسول الله ﷺ : « أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخِيَارِكُمْ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « أَطْوَلُكُمْ أَعْمَاراً فِى الإِسْلَامِ إِذَا سَدَّدُوا » [(٢)] . وزعموا أن تُبَّعًا الفزارى كان من المعمرين ، وأنه دخل على بعض خلفاء بنى أمية فسأله عن عمره فقال : عشت أربعمائة وعشرين سنة فى فترة عيسى ابن مريم عليه السلام فى الجاهلية وستين فى الإسلام قال له : أخبرنى عما رأيت فى سالف عمرك قال : رأيت الدنيا ليلة فى إثر ليلة ، ويوماً فى إثر يوم ، ورأيت الناس بين جامع مال مفرق ، ومفرق مال مجموع ، وبين قوى يظلم ، وضعيف يُظلم ، وصغير يكبر ، وكبير يهرم ، وحى يموت ، وجنين يولد ، وكلهم بين مسرور بموجود ، ومحزون بمفقود ! وقد قال ابن الجوزى : إن آدم عليه السلام عاش ألف سنة ، وعاش ابنه شيث تسعمائة سنة ، وعاش ابنه مهلاييل ثمانمائة وخمساً وتسعين سنة ، وعاش ابنه إدريس ثلاثمائة وخمساً وتسعين ، وعاش ابنه هود تسعمائة واثنتين وستين سنة ، وعاش ابنه متوشلخ تسعمائة وستين سنة ، وأما ابنه نوح عليه السلام فروى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما إنه قال : عاش نوح عليه السلام ألفاً وأربعمائة وخمسين عاماً ؛ وأما الخضر عليه السلام واسمه خضرون ، فهو أطول بنى آدم عمراً ، وذكر أن لقمان عليه السلام عاش ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة وكانت العرب لا تعد من الأعمار إلا ما بلغ مائة وعشرين سنة فما فوقها ، وعاش أكثم بن صيفى ثلاثمائة وستين وأدرك الإسلام ، وعاش سطيح سبعمائة سنة ، وعاش قس بن ساعدة الإيادى سبعمائة سنة وكان من حكماء العرب ، وعاش لبيد بن ربيعة الشاعر مائة وعشرين سنة ، وأدرك الإسلام وعاش دريد بن الصمة مائة

---

(١) « أول ما يحاسب به العبد .. » . إلخ . صحيح : أخرجه ابن أبى عاصم فى « الأوائل » . برقم [٨٥ ، ١٥٥] ، وانظر تخريجه فيه.

(٢) « ألا أنبئكم بخياركم ... » . إلخ . أخرجه بنحوه ابن حبان برقم [١٩١٩ - موارد] ، بإسنادٍ حسن .

وسبعين سنة حتى سقط حاجباه على عينيه ، وأدرك الإسلام ولم يسلم . ومن المعمرين[١] عدى بن حاتم الطائى وزهير بن جنادة عاشا مائتين وعشرين سنة ومن المعمرين ذو الأصابع العذرى عاش مائتين وعشرين سنة ، وهو أحد حكماء العرب فى الجاهلية . ومن المعمرين : عمرو بن معد يكرب الزبيدى ومن المعمرين عبد المسيح بن نفيلة عاش ثلثمائة وعشرين سنة ، وأدرك الإسلام . وقد رأيت رجلاً من أهل محلة مسير بالغربية ، وذكر أنه بلغ من العمر مائة وأربعين سنة ، وأن امرأته بلغت من العمر كذلك ، ولقد رأيت منه ما لم أر من بعض شبان هذا العصر فى القوة وشدة البأس ، ورأيت له ولداً شيخاً ، هو أشد قوة من ولده ، وذلك فى صفر سنة تسع وعشرين وثمانمائة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

الباب التاسع والأربعون

فى الأسماء والكُنى والألقاب وما استحسن منها

فأشرف الأسماء وأعظمها بسم الله الرحمٰن الرحيم قال الله تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥] وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ : « **من رفع قرطاساً من الأرض مكتوباً عليه بسم الله الرحمٰن الرحيم إجلالا له ولاسمه عن أن يداس كان عند الله من الصديقين ، وخفف عنه ، وعن والديه العذاب ، وإن كانا مشركين** »[٢] . وعن ابن عباس رضي الله عنهما لم يرن إبليس - لعنه الله - قط إلا ثلاث رنات : رنة حين لعن ، وأخرج من ملكوت السمٰوات والأرض ، ورنة حين ولد محمد ﷺ ، ورنة حين أنزلت سورة الحمد وفى أوّلها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وعن رسول الله ﷺ : « **لا يردّ دعاء أوله : بسم الله الرحمٰن الرحيم وإن أمتى يأتون يوم القيامة يقولون : بسم الله الرحمٰن الرحيم ، فتثقل حسناتهم فى الميزان ، فتقول الأمم : ما أثقل موازين أمة محمد ! فتقول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : ابتداء كلامهم ثلاثة أسماء من أسماء الله تعالى ، لو وضعت فى كفة الميزان ، ووضعت سيئات الخلق فى كفة لرجحت كفة الأسماء** »[٣] . وأما الأسماء والكنى : ففى صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **أَحَبُّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَبْدُ اللَّهِ ، وعَبْدُ الرَّحْمٰنِ وأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وهَمَّامٌ ، وأَقْبَحُهَا حَرْبٌ ومُرَّةٌ** » . وينبغى أن تنادى من لا تعرف اسمه بعبارة لطيفة ، لا يتأذى بها ، ولا يكون فيها كذب كقولك : يافقيه ، يا أخى ، ياسيدى ، ياصاحب الثوب الفلانى ، أو/ البغل الفلانى ، أو الفرس الفلانى ، أو السيف الفلانى ، وما أشبه ذلك . ودخل عبادة على المتوكل وبين يديه جام من ذهب[٤] ، فيه ألف مثقال ، فقال له : أسألك عن شىء إن أجبتنى عنه ابتداء من غير أن تفكر فلك الجام بما فيه ، فقال سل ياأمير المؤمنين . قال : أسألك عن شىء له اسم ، ولا كنية له ، وعن شىء له كنية ، ولا اسم له ، قال المنارة وأبو رياح ! فعجب المتوكل ، وأعطاه الجام بما فيه ، وقيل لعثمان : ذو النورين رضي الله عنه لأنه هو ورقية كانا أحسن زوجين فى الإسلام وقيل : لأنه تزوج برقية ثم بأم كلثوم ابنتى رسول الله ﷺ ، ولم يوجد من تزوج بابنتى نبى غيره ، وكان قتادة بن النعمان الأنصارى رضي الله عنه أصيب فى عينه يوم أحد فسقطت على خده ، فردها رسول الله ﷺ ، فكانت أحسن وأصحّ من الأخرى ، فكانت تعتل : (أى ترمد) عينه الباقية ، ولا تعتل عينه

---

(١) ارجع إلى كتاب المعمرين للسجستاني بتحقيقى تجد فيه مزيدًا من أخبارهم .

(٢) عن ابن عباس .. « من رفع قرطاساً .. » . إلخ . موضوع : أخرجه ابن عدى « ١/ ٢٠٢ - ٢٠٣ » ، وإسناده موضوع . وانظر : « اللآلئ المصنوعة » . للسيوطى [١/ ٢٠٢] .

(٣) وعن رسول الله ﷺ « لا يرد دعاء أوله بسم الله الرحمن الرحيم .. » . إلخ . لم أقف عليه .

(٤) الجام : إناء للشرب والطعام من فضة ونحوها وهى مؤنثة .

المردودة ، فقيل له : ذو العينين[١] . وقال أبو هريرة ﷺ كنيت بهرّة صغيرة كنت أحملها فى حجرى ، فألعب بها ، وكان رسول الله ﷺ يقول ياأبا هريرة ، واختلف فى اسمه فقيل : عبد الرحمٰن ، وقيل عبد شمس ، وقيل : عمير ، وقيل : سليمان . وقال الشعبى ﷺ : كنية الدجال أبو يوسف . ذو الشهرة[٢] أبو دجانة الأنصارى ﷺ كان له شهرة يلبسها بين الصفين . ذو الرياستين الفضل بن سهل لأنه دبر أمر السيف والقلم ، وولى رياسة الجيوش والدواوين ودخل عليه شاعر يوم المهرجان ، وبين يديه الهدايا فقال :

اليومَ يومُ المهرجان ... هديتى فيه اللسان
لك دولتان حديثة ... وقديمة وريستان
لك فى الورى من هاشم ... نبت ، وبيت خسروان
علم الخليفة كيف أنـ ... ـت فصرت فى هذا المكان

فأمر له بجميع الهدايا . المطيّبون : بنو عبد مناف ، وبنو أسد بن عبد العزى ، وزهرة ابن كلاب ، ونعيم بن مرة ، والحارث بن فهر غمسوا أيديهم فى خَلوق ثم تحالفوا . شيبة الحمد عبد المطلب لقب بشيبة كانت فى رأسه حين ولد . قال حذيفة :

بنو شيبة الحمد الذى كان وجهه ... يضىء ظلام الليل كالقمر البدر

وقيل له عبد المطلب : لأن عمه المطلب مرّ به فى سوق مكة مردوفاً له فجعلوا يقولون : من هذا الذى وراءك فيقول : عبد لى . سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ اسمه عبد الله ، ولقباه : العتيق والصّدّيق ، لجماله وتصديقه بخبر الإسراء، أو لأنه أوّل من صدق رسول الله ﷺ. سيدنا عمر ﷺ لقب بالفاروق ؛ لأنه قال يوم أَسْلَم : لا يعبد الله اليوم سراً ، فظهر به الإسلام ، وفرق بين الحق والباطل . الكامل سعد بن عبادة ﷺ لأنه كان يكتب ، ويحسن الرمى والعوم . طلحة بن عبيد الله ﷺ كان يقال له : طلحة الخير ، وطلحة الفياض ، وطلحة الطلحات ؛ لسخائه . رشحُ الحجر ، وأبو ذباب ، عبد الملك بن مروان ، لقب بذلك لبخله وبخره . عكة العسل سعيد بن العاص ﷺ الحبر عبد الله بن عباس ﷺ لقب بذلك لعلمه كان يقال له : مرة الحبر ، ومرة البحر . الأشدق عمرو بن سعيد لأنه كان مائل الشدق . الفياض عكرمة بن ربعى لقب بذلك لسخائه . المصطلق خزيمة بن سعد الخزاعى قيل له : المصطلق لحسن صوته وشدته ، وكان أول من غنى من خزاعة . راح يكذب لقب به المهلب لأنه كان يضع الحديث أيام الخوارج ، فيحدث به فإذا رأوه قالوا : راح يكذب . وَاصِلُ الغزّال كَان يكثر الجلوس فى سوق الغزالين ، وكان يتبع العجائز ، فيتصدق عليهم ، ولم يكن غزّالاً . سليمان التميمى كان داره ومسجده فى بنى تميم ، ولم يكن منهم وهو شيبانى . أبو عمرو الشيبانى لم يكن من بنى شيبان ، وإنما كان يعلم يزيد بن مزيد الشيبانى . اليزيدى كان يعلم يزيد بن منصور الحميرى فنسب إليه . ذو القروح امرؤ القيس ، كان ملك الروم كساه الحلة المسمومة ، فقرحته ، وقالوا : لم تكن الكنى لأحد من الأمم إلا للعرب ، وهى مفاخرهم[٣] ، وقال بعضهم :

أكنيه حين أناديه لأكرمه ... ولا ألقبه والسوءة اللقب

وقيل : فى قوله تعالى : ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾[طه:٤٤] أى كَنّياهُ ، ولما ضرب موسى عليه السلام البحر ، ولم ينفلق أوحى الله تعالى إليه أن كنه فقال : انفلق أبا خالد ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم[٤] .

وأما الألقاب : فقد قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ﴾[الحجرات:١١] سماه الله –

---

(١)رد عين قتادة . . قال ابن حجر فى الإصابة : هو قتادة بن النعمان وأخرج الدارقطنى وابن شاهين أن الإصابة كانت يوم أحد فوقعت على وجنته ، فردها النبى ﷺ فكانت أصح عينيه . وساقها ابن إسحاق عن عاصم بن قتادة مطولة مرسلة .

(٢)ما جاء فى القاموس المحيط هو « المشْهَرة » . فرس مهلهل بن ربيعة ، « وذو المشْهَرة » . أبو دجانة سماك ابن أوس كانت له مُشْهَرَة إذا خرج بها يختال بين الصفين لم يبق ولم يذر . ولعل « المشهرة » . ثوب مُمَيّز يعرف به .

(٣)ارجع إلى كتابنا إصدار ابن سينا ، اسمك ومعناه . . ولقبك ومعناه ، وأسماء البنات للاستزادة من المعرفة . وكذا نسبك ومعناه .

(٤)ولما ضرب موسى البحر . . إلخ . انظر تفسير ابن كثير [٣/ ٣٣٦] .

تعالى - فسوقاً ، واتفق العلماء ﷺ على جواز ذلك ، على وجه التعريف ، لمن لا يعرف إلا بذلك كالأعمش ، والأعمى ، والأعرج ، والأحول ، والأفطس ، والأقرع ونحو ذلك . وقلّ من المشاهير فى الجاهلية والإسلام من ليس له لقب ، ولم يزل فى الأمم كلها يجرى فى المخاطبات والمكاتبات ، من غير نكير غير أنها كانت تُطلق على حسب الموسومين ، وأما ما استحسن من تلقيب السِّفلة بالألقاب العَليّة حتى زال الفضل ، وذهب التفاوت ، وانقلب النقص والشرف شرعاً واحداً فمنكر ؛ وهَبْ أن العذر مبسوط فى ذلك ، فما العذر فى تلقيب من ليس من الدين فى دبير[(١)] ولا قبيل ، ولا له فيه ناقة ولا فصيل ، بل هو محتو على ما يضاد الدين ، وينافى كمال الدين ، وشرف الإسلام ، وهى لعمر الله الغُصة التى لا تساغ ، والغبن الذى يعجز الصبر دونه فلا يستطاع ، نسأل الله تعالى إعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، وأن يصلح فسادنا ، ويوقظ غافلنا . الرجل يكنى باسم ولده ، والمرأة كذلك ، وإذا كنوا من لم يكن له ولد ، فعلى جهة التفاؤل ، وبناء الأمر على رجاء أن يعيش ، فيولد له ، وقد يكنون بما يلائم المكنى ، من غير الأولاد كقول رسول الله ﷺ فى على ﷺ أبو تراب ، وذلك أنه نام فى غزوة ذى العشيرة ، فذهب به النوم ، فجاء رسول الله ﷺ وهو متمرّغ فى التراب ، فقال له : اجلس أباتراب[(٢)] وكان أحب أسمائه إليه ، وكقولهم أبو لهب لحمرة خديه ولونه . وقال الزمخشرى : - رحمه الله تعالى - وسمعتهم يكنون الكبير الرأس والعمامة بأبى الرأس ، وأبى العمامة. وسمعت العرب ينادون الطويل اللحية ياأبا الطويلة ، وسمعت عرب البُحَيْرة يكنون بأسماء بناتهم كأبى زهو ، وأبى سلطانة ، وأبى ليلى ، ونحو ذلك ، ولا حرج فى ذلك . وقد تكنى جماعة من أفاضل الصحابة بأبى فلانة ، منهم سيدنا عثمان بن عفان ﷺ كان له ثلاث كُنَى : أبو عمرو ، وأبو عبد الله ، وأبو ليلى . ومنهم أبو أمامة وأبو رقية تميم الدارى ، وأبو كريمة المقداد بن معد يكرب ، وكثير من الصحابة ومن التابعين - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين - أبو عائشة مسروق بن الأجدع ، وكان لأنس أخ صغير وله نُغَيْر يلعب به فمات فدخل رسول الله ﷺ فرآه حزيناً فقال : « ما شأنه ؟ » فقالوا : مات نغيره : فقال : « يا أبا عُمَيْر، مَا فعلَ النُّغَيْرُ »[(٣)] . ونظر المأمون إلى غلام حسن فى الموكب فسأله عن اسمه فقال لا أدرى فقال :

تسميتَ لا أدرى فإنك لا تدرى ... بما فعل الحبّ المبرّح فى صدرى !

وعن[(٤)] على ﷺ عن النبى ﷺ : « إذا سميتم الولد محمداً فأكرموه ، ووسعوا له فى المجلس ، ولا تقبحوا له وجهاً» وعنه « ما من قوم كان بينهم مشورة فحضر معهم من كان اسمه محمداً أو أحمد ، فأدخلوه فى مشورتهم إلا كان خيراً لهم ، وما من مائدة وضعت ، فحضر عليها من اسمه محمد أو أحمد إلا قدس الله ذلك المنزل فى كل يوم مرتين كل ذلك ببركة هذا الاسم الشريف » . ومما جاء فى مدح الأسماء منظوماً : قال بعضهم فى مليح اسمه إبراهيم :

رأيت حبيبى فى المنام معانقى ... وذلك للمهجور مرتبةٌ عليا
وقد رق لى من بعد هجر وقسوة ... وما ضرّ إبراهيم لو صدق الرؤيا

وفيه أيضاً :

لا زال بابك كعبة محجوجة ... وترابها فوق الجباه وسيم
حتى يُنادى فى البقاع بأسرها ... هذا المقام ، وأنت إبراهيم

---

(١) الدّبير : ما أدبرت به فى الفتل إلى ركبتيك ، ضد القبيل ، وهو ما أقبلت به إلى حَقوك ، ويقال : هو لا يعرف قبيلا من دبير أى لا يدرى شيئا ، ولا يعرف قبيله من دبيره ، لا يعرف طاعةً من معصية . ومثلها فى المعنى : ولا له فيها ناقة ولا فصيل ، والفصيل الذى فصل عن أمه وترك الرضاع .

(٢) « اجلس أبا تراب . . » . إلخ . رواه مسلم من حديث طويل عن سهل ابن سعد بلفظ « قم أبا تراب . قم أبا تراب » . وذلك فى فضائل على [٧/ ١٢٣ - ١٢٤] .

(٣) « يا أبا عمير ما فعل النّغير » ؟ رواه البخارى ومسلم . . إلخ . النغير : تصغير نغر . طائر صغير كالعصفور . البخارى : الأدب : باب الانبساط إلى الناس ، رقم « ٥٧٧٨ » ، مسلم : الأدب رقم [٢١٥٠] .

(٤) وعن على . . عن النبى ﷺ «إذا سميتم الولد محمدا . . » . إلخ . موضوع : أخرجه ابن بكير فى « فضائل التسمية بأحمد ومحمد». برقم [٢٨- الاستدراك] ، وقال السيوطى فى « اللآلئ » . [١/١٠٣] ، « الطائى [وهو أحمد بن عامر بن سليمان] ، له عن أهل البيت نسخة باطلة » .

وفيه أيضاً :

يا سمىَ الخليل إن فؤادى ... فيه من لوعة الغرام جحيم
وعجيب يا قاتلى أن قلبى ... فيه نار وأنت فيه مقيم !

ولبعضهم فى مليح اسمه عمر :

ياأعدل الناس اسمًا كم تجورُ على ... فؤادِ مُضناك بالهجران والبين !
أظنهم سرقوك القافَ من قمر ... وأبدلوها بعين خيفة العين

وفيه أيضاً :

ما عليهم فى الهوى لو نظروا ... حين سموك فقالوا : عمر
أبدلوا قافك عينا غلطا ... أخطئوا ما أنت إلّا قمر

ولبعضهم : فى مليح حامل شمعة موقودة اسمه عثمان :

وافى إلى بشمعة وضياؤها ... وضياؤه حكيا لنا القمرين
ناديتُه ما الاسم يا كل المنى ؟ ... فأجابنى : عثمان ذو النورين

ولبعضهم فى مليح اسمه يوسف :

يا من سبى الشعراءَ نمل عذارِه ... النجم يشهد لى بأنى مدنَفُ [1]
صيرت قلبى من صدودك فاطرا ... فامنن على بزَوْرَةِ [2] يايوسف

للصفى الحلى فيمن اسمه داود :

وثقت بأن قلبى من حديد ... وفيه على الهوى بأس شديد
فَلان على هواك ولا عجيب ... إذا داود لان له الحديد

وله فيمن اسمه موسى :

أتى موسى بآية خال خده ... حوته صوارم الحدق المراض
فآية ذا بياض فى سواد ... وآية ذا سواد فى بياض
فجاء بضدّ ما قد جاء موسى ... كليم الله فى الحِقَبِ المواضى

وللقيراطى فى مليح اسمه بدر :

سموه بدراً وذاك لما ... أن فاق فى حسنه وتَمَّا
وأجمع الناس إذا رأوه ... بأنه اسم على مسمى

ولمؤلفه : رحمه الله تعالى فى قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى :

وعظ الأنامَ إمامنا الحَبرُ الذى ... سكب العلوم كبحر فضلٍ طافح
فشفى القلوبَ بعلمه وبوعظه ... والعلم يشفى إن يكن من صالح

وتوجهت مرة إلى بلتاج لأجتمع بالحاج خليل بن منصور فى ضرورة فلم أجده ، ولم يقم أحد من إخوته بقضاء ما توجهت بسببه فقلت :

خِصالُ خليلٍ كلهن حميدة ... وأوصافه تُزرى بكل جميلِ
فلا خير فى بلتاج إن لم يكن بها ... ولا خير فى الدنيا بغير خليلِ

وقال آخر فى مقبل :

---

(١) مُدْنَف : أدنف المريض : اشتد مرضه .
(٢) الزَّوْرة : قوة العزيمة .

يامن تحجب عن محب صادق ... ما زال عنه كل يوم يسأل
من لى بيوم فيه تسمح بالّلقا ... ويقال لى : هذا حبيبك مقبل

ولبعضهم فى مليح اسمه محسن :

وأهيف يعلو عُشاقه ... برتبة من الجمال نالها
واسمه وهو العجيب محسِنٌ ... وكم دموعٍ فى الهوى أسالها

صفى الدين الحلى فى اسم حسين :

حبيبى وافر والشوق منى ... طويل والهوى عندى مديد
وأعجب أننى أهوى حسيناً ... وشوقى فى محبته يزيد

ومما قيل فى أسماء النساء فى فاطمة :

عجبت من فاتنة لم تزل ... لمرتجى الوصل لها فاطمه
تنكر ما ألقاه من وَجْدها[1] ... وهى بشوقى والجوى[2] عالمه

ابن مكانس فى اسم عائشة :

يادهر خبرنى بحقك واشفنى ... فسهامُ فكرى فى أمورك طائشه
أيحل أنّى فى المحبة ميت ... وحبيبتى من بعد موتى عائشه ؟!

شمس الدين البديرى فى اسم حليمة :

ولما رأتنى فى هواها متيماً ... أكابد من حر الغرام أليمه
فجادت بطيب الوصل منها ولم تَجُزْ ... ومن أين تدرى الجور وهى حليمه

ولبعضهم فى اسم بركة دوبيت :

لما نصب الهوى لقلبى شركه ... ناديت وقلبى تارك من تركه
ياقلب أفق ولا تمل للشركه ... تغنيك سنين ساعةٌ من بركه

مردوفاً أيضاً :

لما نصب الهوى لقلبى شركه ... فى كل طريقْ
ناديت وقلبى تارك من تركه ... لو كان يفيق
ياقلب أفق ولا تمل للشركه ... ما الشرك يليق
تغنيك سنين ساعة من بركه ... عن كل صديق

ولو تتبعت هذا المعنى لاحتجت إلى مجلدات ، ولكن فيما ذكرته كفاية ، والله الموفق وأسأله العناية وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) وجَد وَجْدًا: حزن.

(٢) الجَوى: ضيق وألم في الصدر.

الباب الخمسون

فيما جاء فى الأسفار والاغتراب ، وما قيل فى الوداع والفراق والحث على ترك الإقامة بدار الهوان وحب الوطن والحنين إليه

أما ما جاء فى الأسفار والحث على ترك الإقامة بدار الهوان : فقد قال الله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [الملك:١٥] الآية . وفى الأثر : « **سافروا تغنموا** »(١) . وعن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **لو يعلم الناس رحمة الله للمسافر لأصبح الناس على ظهر سفر وهو ميزان الأخلاق، إن الله بالمسافر رحيم** »(٢) . ويقال : الحركة ولود ، والسكون عاقر وقال حكيم : السفر يُسفر عن أخلاق الرجال ، وكان بعضهم يريد السفر فيمنعه والده إشفاقاً عليه ، فقال يوماً :

ألا خَلِّنى أمضى لشأنى ولا أكن ... على الأهل كَلاً(٣) إن ذا لشديدُ
تهيبنى ريب المنون(٤) ولم أكن ... لأهربَ عما ليس منه محيدُ
فلو كنت ذا مالٍ لقُرِّب مجلسى ... وقيل إذا أخطأت أنت رشيدُ
فدعنى أجول الأرض عمرى لعله ... يُسرَّ صديقٌ أو يُغاظ حَسودُ

وقال رسول الله ﷺ: « **عَلَيكُمْ بِالدُّلْجَةِ فَإِنَّ الْأَرْضَ تُطْوَى بِاللَّيلِ ، وَلَا تُطْوَى بِالنَّهَارِ** »(٥) . وقال كعب بن مالك ﷺ كان رسول الله ﷺ يكره أن يسافر الرجلُ فى غير رفقة(٦) . وقال ﷺ « **الرَّاكِبُ شَيطَانٌ ، والرَّاكِبَانِ شَيطَانَانِ ، والثَّلاثَةُ رَكْبٌ** »(٧) وقال ﷺ : « **إذا خرج ثلاثة فى ركب فليؤمروا أحدهم** »(٨) . وقيل : أغار حذيفة بن بدر على هجان النعمان بن المنذر بن ماء السماء ، وسار فى ليلة مسافة ثمانى ليال فضرب به المثل ، وقال قيس بن الخطيم :

هممنا بالإقامة ثم سرنا ... مسير حذيفة الخير بن بدر

وسار ذَكوان مولى عمر ﷺ من مكة إلى المدينة فى يوم وليلة ، وقال المأمون : لا شىء ألذ من السفر فى كفاية وعافية ، لأنك تحل كل يوم فى محلة لم تحل فيها ، وتعاشر قوماً لم تعرفهم .

ومما قيل فى ترك الإقامة بدار الهوان : قال الفرزدق :

وفى الأرض عن دار القِلَى متحولُ ... وكل بلاد أوطنتك بلادُ(٩)

وقال آخر :

وما هى إلا بلدة مثل بلدتى ... خيارهما ما كان عوناً على دهرى

وقال آخر :

وإذا البلاد تغيرت عن حالها ... فدع المقامَ وبادر التحويلا
ليس المقام عليك فرضا واجبا ... فى بلدة تدع العزيز ذليلا

وقال الصفى الحلى :

---

(١) « سافروا تغنموا » . ضعيف : أخرجه أحمد [٢/ ٢٨٠] ، من حديث أبى هريرة . وفيه دراج ضعيف ، ورواه الخطيب فى « تاريخ بغداد » . [١٠/ ٣٨٧] ، عن ابن عمر ، وسنده ضعيف .

(٢) لم أهتد إلى من خرجه. (٣) الكَلُّ: الثقيل لا خير فيه. (٤) المَنُون: الموت.

(٥) صحيح : أخرجه أبو داود [٢٥٧١] ، والحاكم [٢/ ١١٤] ، والبيهقى [٥/ ١٥٦]، والدلجة : سير الليل كله . اللسان مادة [دلج] .

(٦) « كان رسول الله ﷺ يكره . . . » . إلخ . لم أهتد إليه .

(٧) « الراكب شيطان . . . » . إلخ . حسن : أخرجه أبو داود [٢٦٠٧] ، والترمذى [١٦٧٤] ، وأحمد [٢/ ١٨٦] ، والحاكم [٢/ ١٠٢] ، والبيهقى [٥/ ٢٦٧] .

(٨) أورده المتقى الهندى فى كنز العمال [١٧٤٩٩] . (٩) القِلَى : الكراهية .

تنقل فَلَذات الهوى فى التنقل ... ورد كلّ صاف لا تقفْ عند منهل
ففى الأرض أحبابٌ وفيها منازل ... فلا تبك من ذكرى حبيب ومنزل !
ولا تستمع قول امرئ القيس إنه ... مُضِلّ ومن ذا يهتدى بمضلل ؟!

وقال عبد الله الجعدى :

فإن تَجْفُ عَنى أو تُزرِنى إهانةً ... أجد عنك فى الأرض العريضة مذهبا

ومما قيل فى الوداع والفراق والشوق والبكاء : قال جرير :

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم ... يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل !

وقيل لعمارة بن عقيل بن بلال بن جرير : ما كان جدك صانعاً فى قوله : فعلت ما لم أفعل ؟! قال : كان يقلع عينيه حتى لا يرى مظغن أحبابه ، ثم أنشد يقول :

وما وَجْدُ مغلول بصنعاء موثَقٍ ... بساقيه من ماء الحديد كبولُ
قليل الموالى مسلم بجزيرة ... له بعد نومات العيون أليلُ[1]
يقول له الحداد : أنت معذب ... غداة غد أو مسلم فقتيل
بأكبرَ منى لوعةً يوم راعنى ... فراقُ حبيبى ما إليه سبيل !

وقال الشاعر :

وما أم خِشفٍ طولَ يوم وليلة ... ببلقعةٍ بيداءَ ظمآن صادياً[2]
تهيمُ ولا تدرى إلى أين تبتغى ؟ ... مولهةً[3] حُزْنَا تجوز الفيافيا[4]
أضرّبها حَرُّ الهجير فلم تجد ... لغلتها من بارد الماء شافيا
إذا بعدت عن خِشفها انعطفت له ... فألفته ملهوف الجوانح طاويا
بأوجعَ منى يوم شَدّوا حمُولَهم ... ونادى منادى البين أن لا تلاقيا

وقال عبد العزيز الماجشون ، وهو من فقهاء المدينة قال لى المهدى: يا ماجشون ، ما قلت حين فارقت أحبابك ؟ قال : قلت ياأمير المؤمنين :

للهِ باكٍ على أحبابه جَزَعاً ... قد كنتُ أحذرُ هذا قبلَ أن يقعا
ما كان والله شُؤم الدهرِ يتركنى ... حتى يُجَرّعنى من بعدهم جُرَعَا
إن الزمان رأى إلفَ السرور لنا ... فدب بالبين فيما بيننا وسعى
فليصنع الدهرُ بى ما شاء مجتهداً ... فلا زيادة شىء فوق ما صنعا

فقال والله لأعينك، فأعطاه عشرة آلاف دينار . (وقال آخر) :

وقفت يَوم النوى منهم على بُعد ... ولم أودعهم وَجْدًا وإشفاقاً
إنى خشيت على الإظعان من نفسى ... ومن دموعى إحراقاً وإغراقاً

وقال عمر بن أحمد :

أتى الرحيل فحين جد ترحلت ... مهج النفوس له عن الأجساد
من لم يبت والبين يصدع قلبه ... لم يدر كيف تفتتُ الأكباد

وحكى بعضهم قال : دخلنا إلى دير هرقل ، فنظرنا إلى مجنون فى شباك وهو ينشد شعراً فقلنا له : أحسنت فأوما

---

(١) أليلُ: أنين.
(٢) الخِشف : ولد الظبية أول ما يولد يطلق على الذكر والأنثى .
(٣) مُولهَة: يقال: ناقة أو امرأة مولهةك لا ينبى لها ولدٌ، بل يموت صغيرًا.
(٤) الفيافي: جمع فيفاء، والفيفاء والفيف بمعنى الصحراء الواسعة، والطريق بين جبلين.

بيده إلى حجر يرمينا به ، وقال المثلى يقال: أحسنت ؟ ففررنا منه ، فقال : أقسمت عليكم إلا ما رجعتم حتى أنشدكم فإن أنا أحسنت فقولوا أحسنت ، وإن أنا أسأت فقولوا أسأت ، فرجعنا إليه فأنشد يقول :

لما أناخوا قُبيلَ الصبح عيسهمو ... وحَمّلُوها وسارتْ بالدُمَى الإبلِ
وقلبت بخلالِ السّجف ناظرها ... يرنو إلىّ ودمع العين ينهملُ
وودعت ببنان زانه عنم ... ناديتُ لا حَملت رِجلاك ياجملُ !
ياحادىَ العيس [1] عَرِّج كى أوَدّعَهُم ... ياحادَى العيس فى ترحالك الأجل
إنّى على العهد لم أنقض مودتهم ... ياليت شعرى لطول البعد ما فعلوا ؟!

فقلنا له : ماتوا فقال : والله وأنا أموت ، ثم شهق شهقة فإذا هو ميت رحمه الله تعالى .

وقال آخر :

لما علمتُ بأن القومَ قد رحلوا ... وراهبُ الدير بالناقوس مُشتغلُ
شبكت عَشرى على رأسى وقلتُ له ... ياراهبَ الدير هل مرت بك الإبل ؟
فحنّ لى وبكى بل رَق لى ورَثَى ... وقال لى : يافتى ضاقت بك الحيل ؟!
إن الخيام التى قد جئت تطلبهم ... بالأمس كانوا هنا والآن قد رحلوا

وقال الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى رحمه الله تعالى :

ما رحلوا يوم ساروا البُزّل [2] العيسَا ... إلا وقد حملوا فيها الطواويسا [3]
من كل فاتكةِ الألحاظ مالكةٍ ... تخالها فوق عرشِ الدر بَلقيسا
إذا تمشت على صرح الزجاج ترى ... شمسًا على فلك فى حِجْر إدريسا
أسقفة من بناتِ الروم عاطلة ... ترى عليها من الأنوار ناموسا
وحشية مالها أنس قد اتخذت ... فى بيت خلوتها للذكر ناوسا
أن أومأت تطلب الإنجيل تحسبهم ... قساقسا أو بطاريقا شماميسا
ناديتُ إذ رحلوا للبين ناقتها ... يا حادىَ العيس لا تحدو بها العيسا
غيبت أجناد صبرى يوم بينهم ... على الطريق كراديسا كراديسَا [4]
ساروا وأصبحت أنعى الربع بعدهمو ... والوجد فى القلب لا ينفَكّ مغروساً

وقال آخر :

ولما تبدّت للرحيل جِمالنا ... وجدّ بنا سيرٌ وفاضت مدامعُ
تبدت لنا مذعورةً من خِبائها ... وناظرها باللؤلؤ الرطبِ دامعُ
أشارت بأطرافِ البنانِ وودّعت ... وأومت بعينيها ، متى أنت راجع ؟!
فقلت لها : والله مامِن مسافر ... يسير ويدرى مابهِ الله صانع
فشالت نقابَ الحسن من فوقِ وجهها ... فسالت من الطرف الكحيل مدامعُ
وقالت : إلهى كن عليه خليفةً ... فيارب ما خابت لديك الودائع

وقال آخر :

---

(١) العِيس: بكسر العين، جمع الأعْيس، وهو من الإبل الذي يخالط بياضه شقرة.

(٢) البُزّل : جمع بازل والبازل البعير طلع نابه وذلك فى السنة الثامنة أو التاسعة ، يقال بُزّل للجمال وبوازل للنوق .

(٣) الطواويس جمع طاووس، وهو غير الطائر المعروف، الجميل من الناس ونحوهم.

(٤) الكراديس: جمع كُردوسة، وهي طائفة عظيمة من الخيل والجيش.

يـاراحـلاً وجـمـيـلُ الـصـبـر يـتـبـعـه ... هـل مـن سـبـيـل إلـى لـقـيـاك يـتـفـق
مـا أنـصـفـتْـك دمـوعـى وهـى دامـيـة ... ولا وَفَـى لـك قـلـبـى وهـو يـحـتـرق

وقال البغدادى :

قـالـت : وقـد نـالـهـا لـلـبـيـن أوجَـعُـه ... والـبـيـن صـعـبٌ عـلـى الأحـبـاب مـوقـعـه
اجـعـل يـديـك عـلـى قـلـبـى فـقـد ضـعـفـت ... قُـواه عـن حـمـل مـا فـيـه وأضـلُـعـه
واعـطـف عـلـىّ الـمـطـايـا سـاعـة فـعـسـى ... مـن شـت شـمـل الـهـوى بـالـبـيـن يـجـمـعُـه
كـأنـنـى يـوم ولـت حـسـرةً وأسـى ... غـريـقُ بـحـرٍ يـرى الـشـاطـى ويُـمـنـعُـه

وقال ابن البديرى :

قِـفَـا حـادِيـى لـيـلـى فـإنـى وامـقُ ... ولا تـعـجـلا يـومـاً عـلـى مـن يـفـارقُ
وزُمـا مـطـايـاهـا قـبـيـلَ مـسـيـرِهـا ... لـيـلـتـذَّ مـنـهـا بـالـتـزود عـاشـقُ
ولا تـزجـروا بـالـسـوق أظـعـانَ عـيـسـهـا ... فـإن حـبـيـبـى لـلـظـعـائـن سـائـق
ولـمـا الـتـقـيـنـا والـغـرام يـذيـبـنـا ... ونـحـن كـلانـا فـى الـتـفـكـر غـارق
وقـفـنـا ودمـع الـعـيـن يـحـجُـبُ بـيـنـنـا ... تـسـارقُـنـى فـى نـظـرة وأسـارقُ
فـلا تـسـألا مـا حـلّ بـالـبـيـن بـيـنـنـا ... ولا تـعـجَـبـا أنّـا مـشـوقٌ وشـائـق

وقال أيضاً :

تـذكـرتُ لـيـلـى حـيـن شـطَّ مـزارُهـا (١) ... وعـادت مـنـازلـهـا خـلـيـات بـلـقـعُ (٢)
بـكـيـت عـلـيـهـا والـقـنـا (٣) يـقـرعُ الـقـنـا ... وسُـمـرُ الـعـوالـى لـلـمـنـايـا تـشـرعُ
وخـالـفـت لـوّامـى عـلـيـهـا وعـذلـى ... وحـالـفـتُ سُـهـدى والـخـلـيـون هـجّـعُ
ولـم أسـتـطـع يـوم الـنـوى رَدّ عـبـرة ... فـؤادى أسـىً مـن حَـرهـا يـتـقـطـع
فـقـال خـلـيـلـى إذ رأى الـدمـعَ دائـمـاً ... يـفـيـضُ دمًـا مـن مـقـلـتـى لـيـس يُـدْفـع
لـئـن كـان هـذا الـدمـع يـجـرى صـبـابـةً ... عـلـى غـيـر لـيـلـى فـهـو دمـع مـضـيّـعُ

وقال آخر :

مـددت إلـى الـتـوديـع كـفـا ضـعـيـفـة ... وأخـرى عـلـى الـرمـضـاء فـوق فـؤادى
فـلا كـان هـذا آخـر الـعـهـد مـنـكـمـو ... ولا كـان ذا الـتـوديـع آخـر زادى

وقال آخر :

ولـمـا وقـفـنـا لـلـوداع عـشـيـةً ... وطـرفـى وقـلـبـى دامـعٌ وخَـفُـوقُ
بـكـيـتُ فـأضـحـكـتُ الـوشـاة شـمـاتـةً ... كـأنـى سـحـابٌ والـوشـاة بـروق

ولمؤلفه رحمه الله تعالى :

يـا سـادةً فـى سُـوَيـد الـقـلـب مـسـكـنـهـم ... وفـى مَـنـامِـى أرى أنـى أُعـانِـقُـهـم
أوحـشـتـمـونـا وعـز الـصـبـرُ بـعـدكـمـو ... يـا مَـن يَـعَـزّ عـلـيـنـا أن نـفـارقـهـم

وقال ابن الوردى :

دهـرنـا أضـحـى ضـنـيـنـا ... بـالـلُّـقـا حـتـى ضَـنـيـنـا
يـالـيـالـى الـوصـلِ عُـودى ... اجـمـعـيـنـا اجـمـعـيـنـا

---

(١) شط مزارها : بعد .
(٢) البَلْقع : الخالي من كل شيء.
(٣) القَنَا : الرُّمح الأجوف.

وقال آخر عند ذلك :

قالوا : أترقُد إذ غبنا ؟ فقلت لهم : نعم وأشفق من دمعى على بصرى !
ما حقُّ طرفٍ هدانى نحوَ حُسْنِكمُو أنى أعذبه بالدمع والسهر !

وقال الموصلى :

فَسَدَتْ لطولِ بعادكم أحلامُنا وعقولُنا وجفا الجفونَ مَنامُ
والطيفُ قد وعَدَ الجفونَ بزَوْرَةٍ ياحبّذا إن صحت الأحلام

وقال آخر :

ارحم رُحِمتَ للوعتى وابعث خيالك فى الكرى
ودموع عينى لا تسل عن حالها يا ماجرى !

وقال آخر :

إن عينى مذ غاب شخصُك عنها يأمر السهدُ[1] فى كرَاها[2] ويَنهىٰ
بدموع كأنهن الغوادى لا تسَلْ ما جرى على الخدّ منها

وقال آخر :

ياقلبُ صبراً على الفِراقِ ولو رُوعت ممن تحب بالبين
وأنت يا دمعُ إن ظهرتَ بما أخفيه من قلبى سقطتَ من عينى

وقال آخر :

خاض العواذلُ فى حديثِ مدامعى لما غدا كالبحر سرعةُ سيرِه
فحبسته لأصونَ سرّ هواكمو حتى يخوضوا فى حديثِ غيره

وقال ابن المواز :

رحتُ يوم الفراق أُجرى دموعى حسرة إذ قضى الفراق ببينى
قيل : كم ذا تجرى دموعك تُعمى أوقف الدمع قلت : من بعد عينى ؟!

وقال آخر :

لما لبست لبعده ثوب الضَّنىٰ وغدوتُ من ثوب اصطبارى عاريا
أجريت وقفَ مدامعى من بعده وجعلتُه وقفًا عليه جاريا

وقال آخر :

ولم أر مثلى غار من طولِ ليله عليه كأن الليلَ يَعشقُه معى
وما زلت أبكى فى دُجى الليل صَبْوةً من الوجد حتى ابيضّ من فيضِ أدمعى

وقال الموصلى :

عين أفاضت دموعى لطول صَدّ وبَينِ
ووجنة الخدّ قالت رأيت غُسلى بعينى

وقال آخر :

وما فارقتُ ليلى من مراد ولكن شِقوةٌ بلغتْ مَداها
بكيتُ نعم بكيتُ وكلّ إلف إذا ماتت حبيبتُه بكاها

---

(١) السُّهد : الأرَق.

(٢) الكَرى : النُّعاس والنوم.

وفى بعض الكتب السماوية : إن مما عاقبت به عبادى أن ابتليتهم بفراق الأحبة .

ومما جاء فى الحنين إلى الوطن : أما محبة الوطن فمستولية على الطباع ، مستدعية أشد الشوق إليها، روى أن أبان قدم على النبى ﷺ فقال : « ياأبان كيف تركت مكة ؟ » قال : تركت الإذخر[١] ، وقد أعذق[٢] ، والثمام[٣] وقد أورق ، فاغرورقت عينا رسول الله ﷺ[٤] . وقال بلال رضي الله عنه :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بواد وحولى إذخر وجليل

وهل أردَن يوماً مياه مَجَنّةٍ ... وهل يَبْدُوَنْ لى شامةٌ وطفيل

وقيل : من علامة الرشد أن تكون النفس إلى بلدها تواقة ، وإلى مسقط رأسها مشتاقة .

ومن حب الوطن : ما حكى أن سيدنا يوسف عليه السلام أوصى بأن يحمل تابوته إلى مقابر آبائه ، فمنع أهلُ مصر أولياءه من ذلك ، فلما بعث موسى عليه السلام وأهلك الله تعالى فرعون - لعنه الله - حمله موسى إلى مقابر آبائه ، فقبره بالأرض المقدسة . وأوصى الإسكندر أن تحمل رمته فى تابوت من ذهب إلى بلاد الروم حباً لوطنه .

واعتلّ سابور ذُو الأكتاف - وكان أسيراً ببلاد الروم - فقالت له بنت الملك - وكانت قد عشقته - ما تشتهى ؟ قال : شربة من ماء دجلة ، وشمة من تراب اصطخر ، فأتته بعد أيام بشربة من ماء ، وقبضة من تراب وقالت له : هذا من ماء دجلة ، ومن تربة أرضك ، فشرب واشتم بالوهم فنفعه من علته ! وقال الجاحظ : كان النفر فى زمن البرامكة إذا سافر أحدهم أخذ معه من تربة أرضه فى جراب يتداوى به ! وما أحسن ما قال بعضهم :

بلاد ألفناها على كلّ حالة ... وقد يؤلف الشىء الذى ليس بالحسَنِ !

ونستعذب الأرض التى لا هواء بها ... ولا ماؤها عذب ، ولكنها وطنُ

ووصف بعضهم بلاد الهند فقال : بحرها دُر ، وجبالها ياقوت ، وشجرها عود ، وورقها عطر . وقال عبد الله بن سليمان فى نَهاوند أرضها مسك ، وترابها الزعفران ، وثمارها الفاكهة . وحيطانها الشهد . وقال الحجاج لعامله على أصبهان : وقد وليتك على بلدة حجرها الكحل وذبابها النحل ، وحشيشها الزعفران . وكان يقال : البصرة خزانة العرب ، وقبة الإسلام لانتقال قبائل العرب إليها ، واتخاذ المسلمين بها وطناً ومركزًا ، وكان أبو إسحاق الزجاج يقول : بغداد حاضرة الدنيا وما سواها بادية ، وأنا أقول : مصر كنانة الله فى أرضه ، والسلام . ومما جاء فى ذم السفر : قيل لرجل : السفر قطعة من العذاب ، فقال : بل العذاب قطعة من السفر ، وقال بعضهم :

كل العذاب قطعة من السفر ... يارب فاردُدْنا على خير الحضر

وقيل لأعرابى : ما الغبطة ؟ قال : الكفاية مع لزوم الأوطان .

ومرّ إياس بن معاوية بمكان ، فقال : أسمع صوتَ كلب غريب ، فقيل له : بم عرفت ذلك ، قال بخضوع صوته ، وشدة نُباح غيرِه . وأراد أعرابى السفر فقال لامرأته :

عدّى السنينَ لغيبتى وتَصَبَّرى ... وذَرى الشهورَ فإنهن قصار

فأجابته :

فاذكر صبابتَنا إليك وشوقَنا ... وارحم بناتِك إنهن صغار

فأقام وترك السفر .

ويقال : رب ملازم لمهنته فاز ببغيته

وقال ابن الهيثم :

---

(١) الإذْخَر : نبتٌ .

(٢) أي قُطع .

(٣) الثُّمام : عشب من الفصيلة النجيلية يسمو إلى مائة وخمسين سنتيمترًا، فروعه مزدحمة .

(٤) روى أن أبان قدم على النبى ﷺ فقال : يا أبان ، كيف تركت مكة ؟ .. إلخ . أشار إليه ابن الأثير نقلا عن الهروى فقال : ومنه حديث مكة : «وأعذق إذخرها» . أى صارت له عذوق وشعب ، أو أزهر .

لعمرُك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيقُ

وفيما ذكرته كفاية . وأسأل الله تعالى التوفيق والهداية ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الحادى والخمسون

فى ذكر الغنى ، وحب المال ، والافتخار بجمعه

قال الله تعالى : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف:٤٦]. وقيل : الفقر رأس كل بلاء ، وداعية إلى مقتِ الناس ، وهو مع ذلك مَسلبة للمروءة ، مذهبة للحياء ، فمتى نزل الفقر بالرجل لم يجد بدا من ترك الحياء ، ومن فقد حياءه فقد مروءته ، ومن فقد مروءته مقت ، ومن مقت ازدرى به ، ومن صار كذلك كان كلامه عليه لا له وقال رسول الله ﷺ : « **إنَّكَ أنْ تَذَرَ وَرَثَتَك أغْنِيَاء خَيرٌ مِنْ أنْ تَذَرهُمْ عَالَةً يَتكَفَّفُونَ النَّاسَ** »(١) . وفى الحديث : « **لا خير فيمن لا يحب المال ليصل به رَحِمَه ويؤدى به أمانته ، ويستغنى به عن خَلْق ربه** »(٢) . وقال على رضي الله عنه الفقر الموت الأكبر ، وقد استعاذ رسول الله ﷺ : « **من الكفر ، والفقر ، وعذاب القبر** »(٣) . وقيل : من حفظ دنياه ، حفظ الأكرمين : دينه وعرضه . قال الشاعر :

لا تَلُمنى إذا وقيت الأواقى بالأواقى لماء وجهى واقى

وقال لقمان لابنه : يابنى : أكلتُ الحنظل ، وذقتُ الصبر ، فلم أر شيئاً أمرّ من الفقر ، فإن افتقرت فلا تحدّث به الناس ، كيلا يتقصوك ، ولكن اسأل الله تعالى من فضله ، فمن ذا الذى سأل الله فلم يعطه أو دعاه فلم يجبه ، أو تضرع إليه ، فلم يكشف ما به ؟! وكان العباس رضي الله عنه يقول : الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس ، وهو عندهم أعذب من الماء ، وأرفع من السماء ، وأحلى من الشهد ، وأزكى من الورد ، خطؤه صواب ، وسيئاته حسنات ، وقوله مقبول ، يُرفع مجلسه ، ولا يملُ حديثه . والمفلس عند الناس أكذب من لمعان السراب ، وأثقل من الرصاص ، لا يُسلَّم عليه إن قدم ، ولا يُسأل عنه إن غاب . إن حضر ازدروه ، وإن غاب شتموه ، وإن غضب صفعوه ، مصافحته تنقض الوضوء ، وقراءته تقطع الصلاة .

وقال بعضهم : طلبت الراحة لنفسى ، فلم أجد لها أروح من ترك مالا يعنيها ، وتوحشت فى البرية فلم أر وحشة أقر من قرين السوء ، وشهدت الزحوف وغالبت الأقران ، فلم أر قريناً أغلبَ للرجل من المرأة السوء ، ونظرت إلى كل ما يذل القوى ويكسره ، فلم أر شيئاً أذل له ، ولا أكسر من الفاقة . قال الشاعر :

وكُل مُقِلٍّ حين يغدو لحاجةٍ إلى كل ما يلقى من الناس مُذْنبُ
وكانت بنو عمى يقولون مرحباً فلما رأونى مُعْدمًا مات مرحبُ

وقال آخر :

المال يرفع سقفاً لا عماد له والفقر يهدم بيت العز والشرف

وقال آخر :

جروح الليالى ما لهن طبيبُ وعيشُ الفتى بالفقرِ ليس يَطيبُ
وحسبك أن المرءَ فى حال فقره تُحَمقه الأقوامُ وهو لبيب

---

(١) ، (٢) « إنك أن تَذَرَ ورثتك أغنياء . . » . إلخ . أخرجه أبو نعيم فى « حلية الأولياء » [٢/ ١٧٣] ، عن سعيد ابن المسيب .

(٣) « وقد استعاذ الرسول ﷺ من الكفر . . » إلخ . ثبت هذا فى غير ما حديث ، وانظر : « قرة العين بالمسرة بوفاء الدين » . للحافظ العراقى ، تحقيق الأستاذ / مسعد السعدنى وإصدار مكتبة القرآن .

ومن يغترر بالحادثاتِ وصَرْفِها ... يَبِتْ وهو مغلوبُ الفؤاد سليبُ
وما ضرنى أن قال أخطأتَ جاهلٌ ... إذا قال كل الناس أنت مُصيبُ

وقال آخر :

الفقر يُزرِى بأقوامٍ ذوى حَسَبٍ ... وقد يُسَود غيرَ السَّيدِ المالُ

وقال آخر :

لعَمْرك إن المالَ قد يجعلُ الفتى ... سَنيًا[1] وإنّ الفقرَ بالمرء قد يزرِى
وما رفع النفسَ الدنيةَ كالغنى ... ولا وضعَ النفسَ النفيسة كالفَقْر

وقال آخر :

إذا قَلَّ مال المرء لانت قناتُه ... وهانَ على الأدنى فكيف الأباعدُ

وقال ابن الأحنف :

يمشى الفقيرُ وكلّ شىء ضدّه ... والناس تُغلِقُ دونَه أبوابَها
وتراه مبغوضاً وليس بمُذنب ... ويَرَى العداوةَ لا يرى أسبابَها
حتى الكلاب إذا رأت ذا ثروةٍ ... خضعت لَدَيْه وحركت أذنابها
وإذا رأت يوماً فقيراً عابراً ... نبحَتْ عليه وكشّرت أنيابَها

وقال آخر :

فقر الفتى يُذهب أنوارَه ... مثلَ اصفرارِ الشمس عندَ المغيب
والله ما الإنسانُ فى قومه ... إذا بُلى بالفقر إلا غريب

وقال آخر :

إن الدراهم فى المواطن كلها ... تكسُو الرجالَ مهابةً وجمالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحةً ... وهى السلاحُ لمن أراد قتالا

وقال آخر :

ما الناسُ إلا مع الدّنيا وصاحبها ... فكلما انقلبتْ يوماً به انقلبوا
يُعظّمون أخَا الدنيا فإن وثبت ... يوماً عليه بما لا يشتهى وثبوا

وقال بعض الفرس : من زعم أنه لا يحب المال فهو عندى كذاب ! .

وقال الكنانى :

أصبحت الدنيا لنا عبرةً ... فالحمد لله على ذَلِكَا
قد أجمعَ الناسُ على ذَمّها ... وما أرى منهم لها تاركا !

وقال الزمخشرى :

وإذا رأيت صعوبةً فى مَطلب ... فاحمل صعوبتَه على الدينار !
وابعثه فيما تشتهيه فإنه ... حجرٌ يُلينُ قوةَ الأحجار

قال الثورى - رحمه الله تعالى - : لأن أخلّف عشرة آلاف درهم يحاسبنى الله عليها أحب إلىّ من أن أحتاج إلى لئيم : وفى هذا المعنى قال الشاعر :

احفظ عُرَى مالِكَ تحظى به ... ولا تفرّط فيه تبقى ذليل

---

(١) سنيًا : أي صار ذا سناءٍ ورِفعة وقدْرٍ.

وإن يـقـولـوا : بـاخـلٌ بـالـعَـطـا فـالـبـخـلُ خـيـر مـن سُـؤَال الـبـخـيـل !
واحـفـظْ عـلـى نـفـسِـك مِـن زَلّـة يُـرى عـزيـز الـقـوم فـيـهـا ذلـيـل

وأما ما جاء فى الاحتراز على الأموال : فقد قالوا ينبغى لصاحب المال أن يحترز ، ويحتفظ عليه من المطمعين، والمبرطحين ، والمحترفين الموهمين ، والمتنمسين .

فأما المطمعون : فهم الذين يتلقون أصحاب الأموال بالبشر والإكرام ، والتحية والإعظام ، إلى أن يأنسوا بهم ، ويعرفوهم بالمشاهدة ، وربما قضوا ما قدروا عليه من حوائجهم ، إلى أن يألفوهم ، ويحصل بينهم سبب الصداقة ، ثم إن أحدهم يذكر لصاحب المال ، فى معرض المقال ، أنه كسب فائدة كثيرة فى معيشته ، ثم يمشى معه فى الحديث إلى أن يقول : إنى فكرت فيما عليك من المؤن والنفقات ، وهذا أمر يعود ضرره فى المستقبل إن لم تساعد بالمكاسب ، وغرضى التقرب إليك ، ونصحك وخدمتك ، وأريد أن أوجه إليك فائدة من المتجر ، بشرط أن لا أضع يدى لك على مال ، بل يكون مالك تحت يدك ، أو تحت يد أحد من جهتك ، ويخرج له فى صفة الناصحين المشفقين ، فإذا أجابه إلى ذلك كان أمره معه على قسمين : إن ائتمنه وجعل المال بيده ، أعطاه اليسير منه على صفة أنه من الربح ، وطاول به الأوقات ، ودفع إليه فى المدة الطويلة الشىء اليسير ، من ماله ، ثم يحتج عليه ببعض الآفات ، ويدعى الخسارة ، فإن لزمه صاحب المال قابحه ، وبرطل[1] من جملة المال صاحب جاه ، فيدفعه ، ويقول : هذا رابانى ، فإن روعى صاحب المال ، وفق بينهما على أن يكتب عليه ببقية المال وثيقة فلا يستوفى ما فيها إلا فى الآخرة ، وإن هو لم يأتمنه وعوّل أن يكون القبض بيده ، والمتاع مخزوناً لديه ، واطأ عليه البائعين والمشترين ، وحصل لنفسه ، وعمل ما يقول به ، فإن حصل لصاحب المال أدنى ربح أوهمه أن مفاتيح الأرزاق بيده ، وإن كسد المشترى أو رخص أحال الأمر على الأقدار ، وقال : ليس لى علم بالغيب . ومن أشد المطمعين المتعرضون لصنعة الكيمياء ، وهم الطماعون المطمعون فى عمل الذهب والفضة من غير معدنهما ، فيجب أن يحذر التقرب منهم ، والاستماع لهم فى شىء من حديثهم ، فإن كذبهم ظاهر ، وذلك أنهم يوهمون الغير أنهم ينيلونهم خيراً ، ويطلعونهم على صنعتهم ابتداء منهم ، لا لحاجة ، وهذا يستحيل ، ويحتجون بأن ما يلجئهم إلى ذلك إلا عدم الإمكان ، وتعذر المكان ، فمنهم من يكون شوقه إلى أن يدخل إلى مكان ويترك عنده عدة لها قيمة ، فيأخذها ويتسحب ، ومنهم من يشترط أن عمله لا ينتهى إلى مدة فيقنع فى تلك المدة بالأكل غدوة وعشية ، وسبيله بعد ذلك إن كان معروفاً قال : فسد على العمل من جهة كيت وكيت ، ويقول للذى ينفق عليه : هل لك فى المعاودة ؟ فإن حمله الطمع ووافقه كان هذا له أتم غرض ، ثم يحتال آخر المدة على الفراق بأى سبب كان ، وإن كان منكوراً غافل صاحب المكان ، وخرج هارباً . ومن المطمعين قوم يجعلون فى الجبال أمارات من ردم وحجر ، ويأتون إلى أصحاب الأموال ويقولون : إنا نعرف علم كنز فيه من الأمارات كيت وكيت ، ثم يوقفونهم على ورقة متصنعة ، ويقولون : نريد أن تأخذ لنا عدّة ، وتنفق علينا ، ومهما حصل من فضل الله تعالى لنا ولك ، فيوافقهم على ذلك ، ويوطن نفسه على أن المدّة تكون قريبة ، فيعملون يوماً أو يومين ، فيظهر لهم أكثر الأمارات ، فيزداد طمعاً ، ويعتقد الصحة ، ثم يدرجونه إلى أن ينفق عليهم ما شاء الله تعالى ، ويكون آخر أمرهم كصاحب الكيمياء ، وإن كانوا منكورين ورغبتهم الطمعة فى قماشه ، أو فى العدة التى معه ، فربما قتلوه هناك لأجل ذلك ، ومضوا فهذا أمر المطمعين .

وأما المبرطحون : فهم من الخونة والناس بهم أكثر غرراً ، وذلك أنهم إذا ندب صاحب المال أحداً منهم لشراء حاجة ، سارع فيها ، واحتاط فى جودتها وتوفير كيلها أو وزنها أو ذرعها ، ووضع من أصل ثمنها شيئاً وزنه من عنده سرا ، حتى يبيض وجهه عند صاحب المال ، ويعتقد نصحه وأمانته ، ونُجْح مساعيه ، وكذلك إن ندبه لشىء يبيعه استظهر واستجاد النقد ، ولا يزال هكذا دأبه حتى يلقى مقاليد أموره إليه فيستعطفه ، ويفوز به ثم يغير الحال الأول فى الباطن ، فينبغى لصاحب المال أن لا يغفل عنه .

وأما المحترفون الموهمون : فهم الذين يتعرضون لذوى الأموال فيظهرون لهم الغنى والكفاية ، ويباسطونهم مباسطة

---

(١) بَرْطَل : يقال برطلَ فلانًا، أي: رشاه، والبِرْطيل: الرّشوة.

الأصدقاء ، ويعتمدون جودة اللباس ، ويستعملون كثيراً من الطيب ، ثم إن أحدهم يذكر أنه يربح الأرباح العظيمة ، فيما يعانيه ويذكر ذلك مع الغير ، ولا يزال كذلك ، حتى يثبت ويستقر فى ذهن صاحب المال أنه يكتسب فى كل سنة الجمل الكثيرة من المال ، وأنه لا يبالى إذا أنفق أو أكل أو شرب ، فتَشْرُهُ نفس صاحب المال لذلك ، فيقول له - على سبيل المداعبة - يا فلان ، تريد الدنيا كلها لنفسك لم لا تشركنا فى متاجرك هذه وأرباحك ؟ فيقول له : أنت جبان يعز عليك إخراج الدينار ، وتظن أنك إن أظهرته خُطف منك ، ولا تدرى أنه مثل البازى[1] إن أرسلته أكل ، وأطعمك ، وإن أمسكته لم يَصِدْ شيئاً واحتجت إلى أن تطعمه وإلا مات ، وأنا والله لو كان عندى علم أنك تنبسط لهذا كنت فعلت معك خيراً كثيراً ، ولكن ما كان إلا هكذا ، وما كان لا كلام فيه ، والعمل فى المستأنف ، فيشكره صاحب المال ، ويسأله أخذ المال فيمطله بتسليمه ، فيزداد فيه رغبة إلى أن يسلمه إليه ، فيكون حاله كحال المطمع إذا صار المال تحت يده ! .

وأما المتنمسون : فهم أهل الرياء المظهرون التعفف والنسك ، ومجانبة الحرام ، ومواظبة الصلاة والصيام ، لكى يشتهر ذكرهم عند الخاص والعام ، ثم يلقون ذوى الأموال بالبشر والإكرام ، والتلطف فى المقال ، ويمشون إلى أبواب الملوك على صفة التهانى بالأعياد ، وربما يأتى معه بأحد الأولاد ، ويظهرون النزاهة والغنى ، ويجعلون الدين سلما إلى الدنيا ، وأكثر أغراضهم أن تودع عندهم الأموال ، وتفوّض إليهم الوصايا ، ويجلهم العوام ، وتقبل شهادتهم الحكام ، وتندبهم الملوك إلى الوصايا والأموال ، وهؤلاء أشر من اللصوص والقطاع ، وذلك أن شهرة اللصوص والقطاع ، تدعو إلى الاحتراز منهم ، وتشبُّه هؤلاء بأهل الخير يحمل الناس على الاغترار بهم ، قال الشاعر :

صَلّى وصام لأمرٍ كان أمَّلَه ... حتى حواه فما صلّى ولا صاما

وقيل : لا فقيرَ أفقر من غنىّ يأمن الفقر ، قال الشاعر :

ألم تر أن الفقرَ يُرجَى له الغنى ... وأن الغِنَى يُخشى عليه من الفقر

وأوصى بعض الحكماء ولده فقال : يابنى عليك بطلب العلم ، وجمع المال فإن الناس طائفتان : خاصة وعامة ، فالخاصة تكرمك للعلم ، والعامة تكرمك للمال . وقال بعض الحكماء ، إذ افتقر الرجلُ اتهمه من كان به واثقاً ، وأساء به الظن من كان ظنه به حسنا، ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بدا من ترك الحياء ، ومن ذهب حياؤه ، ذهب بهاؤه ، وما مِن خَلّة هى للغنىّ مدح إلا وهى للفقير عيبٌ، فإن كان شجاعاً سمى أهوج ، وإن كان مؤثراً سمى مفسداً ، وإن كان حليماً سمى ضعيفاً ، وإن كان وقوراً سمى بليداً ، وإن كان لسناً سمى مهذاراً ، وإن كان صموتاً سمى عَيِيًّا قال ابن كثير :

الناسُ أتباع من دامت له نعم ... والويلُ للمرء إن زلّت به القدَمُ
المال زينٌ ومن قلت دراهمُه ... حىّ كمن مات إلا أنه صَنَمُ
لما رأيت أخلائى وخالصتى ... والكل مستتر عنى ومحتشمُ
أبدوا جفاءً وإعراضاً فقلت لهم : ... أذنبتُ ذنباً؟! فقالوا : ذنبُك العدمُ

وكان « ابن مقلة » وزيراً لبعض الخلفاء ، فزور عنه يهودى كتاباً إلى بلاد الكفار ، وضمنه أموراً من أسرار الدولة ، ثم تحيل اليهودى إلى أن أوصل الكتاب إلى الخليفة ، فوقف عليه ، وكان عند ابن مقلة حظية هويت هذا اليهودى ، فأعطته درجاً بخطه ، فلم يزل يجتهد حتى حاكى خطُّه ذلك الخط الذى كان فى الدرج ، فلما قرأ الخليفة الكتاب ، أمر بقطع يد ابن مقلة وكان ذلك يوم عرفة وقد لبس خلعة العيد ، ومضى إلى داره وفى موكبه كل من فى الدولة ، فلما قطعت يدُه ، وأصبح يوم العيد لم يأت أحدٌ إليه ولا توجع له ، ثم اتضحت القضية فى أثناء النهار للخليفة أنها من جهة اليهودى والجارية ، فقتلهما شر قتلة ، ثم أرسل إلى ابن مقلة أموالاً كثيرة ، وخلعاً سنية ، وندم على فعله ، واعتذر إليه ، فكتب ابن مقلة على باب داره يقول :

---

(١) البَازي: جنس من الصقور الصغيرة أو المتوسطة الحجم، تميلُ أجنحتها إلى القِصَر وتميل أرجلها وأذنابها إلى الطول.

تحالف الناسُ والزمانُ ... فحيثُ كانَ الزمانُ كانوا
عادانى الدهرُ نصفَ يوم ... فانكشف الناسُ لى وبانوا
يأيها المعرضون عنى ... عودُوا فقد عاد لىَ الزمانُ

ثم أقام بقية عمره يكتب بيده اليسرى . قال بعضهم :

إنما قوة الظهور النقودُ ... وبها يكمل الفتى ويسودُ
كم كريم أزرى به الدهرُ يوماً ... ولئيم تسعى إليه الوفودُ

والأطباء يعلمون أمراضاً من علاجها اللعب بالدينار، وشرب الأدوية والمساليق التى يغلى فيها الذهب، قال الشاعر :

احرص على الدرهم والعَينِ ... تسلم من العَيلَة والدّين
فقوة العين بإنسانِها ... وقوّة الإنسان بالعَين

واعلم : أن القلب عمود البدن فإذا قَوى القلب قوى سائر البدن وليس له قوة أشد من المال ، وبالضدّ إذا ضعف من الفقر ضعف له البدن .

وحكى : أن ملكاً رأى شيخاً قد وثب وثبة عظيمة على نهر فتخطاه ، والشاب يعجز عن ذلك ، فعجب منه فاستحضره فحادثه فى ذلك ، فأراه ألفَ دينار مربوطة على وسطه .

وقال لقمان لابنه : يابنى شيئان إذا أنت حفظتهما لا تبالى بما صنعت بعدهما : دينك لمعادك ، ودرهمك لمعاشك ، والكلام فى هذا المعنى كثير ، وقد اقتصرت منه على النزر اليسير ، وقد كان فى الناس من يتظاهر بالغنى ويراه مروءة وفخراً . فمن ذلك : ما حكى عن أحمد بن طولون : أنه دخل يوماً بعض بساتينه فرأى النرجس ، وقد تفتح زهره ، فاستحسنه فدعا بغدائه ، فتغدى ، ثم دعا بشرابه فشرب ، فلما انتشى قال : على بألف مثقال من المسك فنثره على أوراق النرجس ! ولنذكر الآن نبذة من الذخائر والتحف .

حكى الرشيد بن الزبير فى كتابه الملقب بالعجائب والطرف : أن أبا الوليد ذكر فى كتابه المعروف بأخبار مكة أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة عام الفتح فى سنة ثمان من الهجرة وجد فى الجب الذى كان فى الكعبة سبعين ألف أوقية من الذهب ، مما كان يُهدى للبيت قيمتُها ألف ألف ، وتسعمائة ألف ، وتسعون ألف دينار .

وباع زهرة التميمى يوم القادسية منطقة كان قتل صاحبها بثمانين ألف دينار ولبس سلبه ، وقيمته خمسمائة ألف وخمسون ألفاً . وأصاب رجل يوم القادسية راية كسرى فعوّض عنها ثلاثين ألف دينار ، وكانت قيمتها ألف ألف دينار ومائتى ألف . ووجد المستورد بن ربيعة يوم القادسية إبريق ذهب مرصعاً بالجوهر فلم يدر أحد ما قيمته ، فقال رجل من الفرس : أنا آخذه بعشرة آلاف دينار ولم يعرف قيمته فذهب به إلى سعد بن أبى وقاص فأعطاه إياه . وقال : لا تبعه إلا بعشرة آلاف دينار ، فباعه سعد بمائة ألف دينار ، ولما أتت الترك إلى عبد الله بن زياد ببخارى فى سنة أربع وخمسين كان مع ملكهم امرأته خاتون فلما هزمهم الله تعالى أعجلوها عن لبس خفها ، فلبست إحدى فردتيه ونسيت الأخرى فأصابها المسلمون ، فقومت بمائتى ألف دينار . ولما فتح قتيبة بن مسلم بخارى فى سنة تسع وثمانين وجد فيها قدور ذهب ينزل إليها بسلالم . ودفع مصعب بن الزبير حين أحس بالقتل إلى زياد مولاه فصّا من ياقوت أحمر وقال له : انج به ، وكان قد قوم ذلك الفص بألف ألف درهم فأخذه زياد ورضه بين حجرين . قال : والله لا ينتفع به أحد بعد مصعب . وذكر مصعب بن الزبير أن بعض عمال خراسان فى ولايته ظهر على كنز فوجد فيه حلة كانت لبعض الأكاسرة مصوغة من الذهب ، مرصعة بالدر والجوهر والياقوت الأحمر والأصفر والزبرجد ، فحملها إلى مصعب بن الزبير فخرج من قوّمها فبلغت قيمتها ألفى ألف دينار فقال : إلى من أدفعها ؟ فقيل : إلى نسائك وأهلك فقال : لا بل إلى رجل قدم عندنا يداً وأولانا جميلاً ادع لى عبد الله بن أبى دريد فدفعها إليه .

ولما صار موجود عماد الدولة فى قبضة أمير الجيوش وجد فى جملته دملج[1] ذهب فيه جوهرة حمراء كالبيضة ،

(١) الدّملج : سوار يحيط بالعضد .

وزنها سبعة عشر مثقالاً فأنفذها أمير الجيوش إلى المستنصر ، فقومت بتسعين ألف دينار . ووجد فى بستان العباس بن الحسن الوزير مما أعد له آلة الشرب يوم قتل سبعمائة صينية من ذهب وفضة ، ووجد له مائة ألف مثقال عنبر . وترك هشام بن عبد الملك بعد موته اثنى عشر ألف قميص وشى ، وعشرة آلاف تكة حرير ، وحملت كسوته لما حج على سبعمائة جمل ، وترك بعد وفاته أحد عشر ألف ألف دينار ، ولم تأت دولة بنى العباس إلا وجميع أولاده فقراء لا مال لواحد منهم ، وبين الدولة العباسية ووفاة هشام سبع سنين .

ولما قتل الأفضل بن أمير الجيوش فى شهر رمضان سنة خمسة عشرة وخمسمائة خلف بعده مائة ألف ألف دينار ، ومن الدراهم مائة وخمسين اردباً [illegible] وسبعين ألف ثوب ديباج ، ودواة من الذهب قوّم ما عليها من الجواهر واليواقيت بمائتى ألف دينار ، وعشرة بيوت فى كل بيت منها مسمار ذهب قيمته مائة دينار ، على كل مسمار عمامة لوناً ، وخلف كعبة عنبر يجعل عليه ثيابه إذا نزعها ، وخلف عشرة صناديق مملوءة من الجوهر الفائق الذى لا يوجد مثله ، وخلف خمسمائة صندوق كبار لكسوة حشمه ، وخلف من الزبادى الصينى ، والبلور المحكم وسق مائة جمل ، وخلف عشرة آلاف ملعقة فضة وثلاث آلاف ملعقة ذهب ، وعشرة آلاف زبدية فضة كبار وصغار ، وأربع قدور ذهباً كل قدر وزنها مائة رطل ، وسبعمائة جام ذهباً بفصوص زمرد ، وألف خريطة مملوءة دراهم خارجاً عن الأرادب فى كل خريطة عشرة آلاف درهم ، وخلف من الخدم والرقيق والخيل والبغال والجمال وحلى النساء ما لا يحصى عدَده إلا الله تعالى ، وخلف ألف حسكة ذهباً ، وألفى حسكة فضة ، وثلاثة آلاف نرجسة ذهب ، وخمسة آلاف نرجسة فضة ، وألف صورة ذهباً ، وألف صورة فضة منقوشة عمل المغرب ، وثلاثمائة تور ذهباً ، وأربعة آلاف تور فضة ، وخلف من البسط الرومية والأندلسية ما ملأ به خزائن الإيوان ، وداخل قصر الزمرد ، وخلف من البقر والجاموس والأغنام ما يباع لبنه فى كل سنة بثلاثين ألف دينار ، وخلف من الحواصل المملوءة من الحبوب مالا يحصى .

ولما احتوى الناصر على ذخائر قصر العاضد ، وجد فيه طبلا كان بالقرب من موضع العاضد محتفظاً به ، فلما رأوه سخروا منه ، فضرب عليه إنسان فضرط ، فضحكوا منه ، ثم أمسكه آخر وضربه فضرط فضحكوا عليه ، فكسروه استهزاء وسخرية ولم يدروا خاصيته ، وكانت الفائدة فيه أنه : وضع للقولنج فلما أخبروا بخاصيته ندموا على كسره . وقد جمعت الملوك من الأموال والذخائر والتحف كنوزاً لا تحصى ، وبعد ذلك ماتوا ونفدت ذخائرهم ، وفنيت أموالهم ، فسبحان من يدوم ملكه وبقاؤه قال بعضهم :

هبِ الدنيا تقاد إليك عفوا ... أليس مصيرُ ذلك للزوال ؟

فضمنت أنا هذا البيت وقلت :

أيا من عاش فى الدنيا طويلا ... وأفنى العمر فى قيل وقال !
وأتعب نفسه فيما سيفنى ... وجمّع من حرام أو حلال
هب الدنيا تقاد إليك عفوا ... أليس مصير ذلك للزوال ؟!

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثانى والخمسون

فى ذكر الفقر ومدحه

قد دل قوله تعالى : ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٦-٧] على ذم الغنى إن كان سبب الطغيان ، وسئل أبو حنيفة - رحمه الله تعالى - عن الغنى والفقر فقال : وهل طغى من طغى من خلق الله - عز وجل - إلا بالغنى ، وتلا هذه الآية المتقدمة . والمحققون يرون الغنى والفقر من قبَل النفس لا فى المال ، وكان الصحابة ﷺ يرون الفقر فضيلة ، وحدث الحسن ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « **يَدْخُلُ فُقَرَاءُ أُمَّتِى الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِياءِ بِأَرْبَعِينَ عَامًا** » (١) . فقال جليس للحسن : أمن الأغنياء أنا أم من الفقراء ؟ فقال : هل تغديت اليوم ؟ قال : نعم . قال فهل عندك ما تتعشى به ؟ قال : نعم . قال فإذًا أنت من الأغنياء ؟ وقال ابن عباس رضي الله عنهما كان النبى ﷺ : « **يَبِيتُ طَاوِيًا لَيَالِى مَا لَهُ وَلَا لِأَهْلِهِ عَشَاءٌ ، وَكَانَ عَامَّةُ طَعَامِهِ الشَّعِيرَ ، وَكَانَ يَعْصِبُ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِهِ مِنَ الْجُوعِ** » (٢) . وكان ﷺ : « **يأكلُ خُبزَ الشَّعير غير مَنْخُولٍ** » (٣) . هذا وقد عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض ، فأبى أن يقبلها صلوات الله وسلامه عليه . وكان يقول : « **اللهم توفَّنى فقيراً ولا تتوفنى غنياً واحشرنى فى زمرة المساكين** » (٤) . وقال جابر ﷺ : دخل النبى ﷺ على ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها وهى تطحن بالرحى ، وعليها كساء من وبر الإبل فبكى ، وقال : « **تجرعى يافاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة** » (٥) قال الله تعالى : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥] . وقال ﷺ : « **الفقر موهبة من مواهب الآخرة وهبها الله تعالى لمن اختاره ، ولا يختاره إلا أولياء الله تعالى** » (٦) . وفى الخبر : إذا كان يوم القيامة يقول الله - عز وجل - لملائكته : « **أدنوا إلىَّ أحبائى ، فتقول الملائكة: ومَنْ أحباؤك يا إله العالمين ؟ فيقول : فقراء المؤمنين أحبائى ، فيُدنونهم منه ، فيقول : ياعبادى الصالحين ، إنى ما زويتُ الدنيا عنكم لهوانكم علىّ ، ولكن لكرامتكم ، تمتعوا بالنظر إلىّ وتمنوا ما شئتم ، فيقولون: وعزتك وجلالك لقد أحسنت إلينا بما زويت عنا منها ، ولقد أحسنت بما صرفت عنا ، فيأمر بهم فيكرمون، ويُخبرون ، ويزفون إلى أعلى مراتب الجنان** » (٧) . وقال ﷺ : « **هَلْ تُنْصَرُونَ إِلَّا بِفُقَرَائِكُمْ وَضُعَفَائِكُمْ ، وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ ، لَيَدْخُلَنَّ فُقَرَاءُ أُمَّتِى الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهَا بِخُمْسمِائَةِ عَامٍ ، وَالْأَغْنِيَاءُ يُحَاسَبُونَ عَلَى زَكَاتِهِمْ** » (٨) . وقال ﷺ : « **رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِى طِمْرَيْنِ (٩) لَا يُؤْبَهُ بِهِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى لَأَبَرَّهُ** » (١٠) . أى : لو قال : اللهم إنى أسألك الجنة لأعطاه الجنة ، ولم يعطه من الدنيا شيئاً . وقال ﷺ : « **إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه به ، الذين إذا استأذنوا على الأمير لا يؤذن لهم ، وإن خطبوا النساء لم ينكحوا ، وإذا قالوا لم ينصت لهم ، حوائج أحدهم تتلجلج فى صدره ، لو قسم نوره على الناس يوم القيامة لوسعهم** » (١١) . وروى عن خالد بن

---

(١) « يدخل فُقَراء أمتى . . » إلخ صحيح : أخرجه مسلم [٢٩٧٩] ، وفيه : « بأربعين خريفا » عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما . ورواه ابن حبان [٦٧٧] ، بلفظ : « أربعين عاما » .

(٢) « وقال ابن عباس . . كان النبى ﷺ . . » إلخ حسن : أخرجه بنحوه الترمذى [٢٣٦٠ ، ٣٤٤٧] ، وفى الشمائل برقم [١٤٦] ، وأحمد [١/ ٢٥٥، ٣٧٤] ، وأبو الشيخ فى « أخلاق النبى ﷺ » [ص ٢٦٣] .

(٣) الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزى . صفة خبزه ﷺ.

(٤) « وقد عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض » إلخ ضعيف : أخرجه ابن عدى [٣/ ٨٨٤] ، والبيهقى فى « شعيب الإيمان » برقم [٥٤٩٩] ، وفيه خالد بن يزيد بن أبى مالك ، ضعيف .

(٥) « وقال جابر . . » إلخ لم أهتد إليه .

(٦) وقال ﷺ « الفقر موهبة . . » إلخ لم أهتد إليه .

(٧) حديث وفى الخبر - إذا كان يوم القيامة يقول الله - عز وجل - عزاه الهندى فى « كنز العمال » [١٦٦٣٠] ، لأبى الشيخ عن أنس .

(٨) قال ﷺ : « هل تنصرون إلا بفقرائكم » . . إلخ ثبت فى « صحيح البخارى » [٢٨٩٦] ، عن سعد ، مرفوعا بلفظ . « إنما تنصر هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم » .

(٩) طِمْرَيْن : مثنى طِمْر ، وهو الثوب البالي.

(١٠) « رب أشعث أغبر » . . إلخ قال العجلونى : رواه أحمد ومسلم عن أبى هريرة بلفظ « رب أشعث أغبر مَدْفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره » وفى النجم عن أنس رب أشعث أغبر ذى طمرين مصفح عن أبواب الناس لو أقسم على الله لأبره .

(١١) « إن أهل الجنة » . . إلخ لم أهتد إليه .

عبد العزيز أنه قال : كان حيوة بن شريح من البكائين ، وكان ضيق الحال جدا ، فجلست إليه ذات يوم وهو جالس وحده ، يدعو فقلت له : يرحمك الله ، لو دعوت الله تعالى ليوسّع عليك فى معيشتك قال : فالتفت يميناً وشمالاً فلم ير أحدًا فأخذ حصاة من الأرض وقال : اللهم اجعلها ذهباً ، فإذا هى تبرة[1] فى كفه ، ما رأيت أحسن منها قال : فرمى بها إلىّ وقال : هو أعلم بما يُصلح عباده ، فقلت : ما أصنع بهذه ؟ قال : أنفقها على عيالك فهبته والله أن أردها عليه ! وقال عون بن عبد الله صحبت الأغنياء فلم أجد فيهم أحداً أكثر منى هَمّا، لأنى كنت أرى ثياباً أحسن من ثيابى ، ودابة أحسن من دابتى ، ثم صحبت الفقراء بعد ذلك فاسترحت قال بعضهم :

وقد يُهلك الإنسانَ كثرةُ ماله ... كما يُذبَح الطاووسُ من أجل ريشه

وقال عبد الله بن طاهر :

ألم تر أن الدهر يهدِمُ ما بنى ... ويأخذ ما أعطى ويُفسد ما أسْدَى ؟!
فمن سره أن لا يرى ما يَسُوءُه ... فلا يتخذ شيئًا ينال به فقدا

وكان من دعاء السلف ﷺ : اللهم إنى أعوذ بك من ذُل الفقر ، وبطر الغِنى . وقيل : مكتوب على باب مدينة الرقة : ويل لمن جمع المال من غير حقه ، وويلان لمن وَرَّثه لمن لا يحمده ، وقَدِمَ على مَنْ لا يعذرهُ .

ولما فتحت بلخ فى زمن عمر ﷺ وجد على بابها صخرة مكتوب فيها إنما يتبين الفقير من الغنى بعد الانصراف من بين يدى الله تعالى : أى بعد العَرض قال الشاعر :

ومن يطلب الأعلى من العيش لم يَزلْ ... حزيناً على الدينار رهين غُبُونها
إذا شئت أن تحيا سعيداً فلا تكن ... على حالةٍ إلا رضيتَ بدونها

وقال آخر :

ولا ترهبنّ الفقر ما عشت فى غدٍ ... لكل غدٍ رزقٌ من الله واردُ

وقال هارون بن جعفر الطالبى :

بُوعدت همتى وقُوربَ مالى ... ففِعالى مقصرٌ عن مقالى
ما اكتسى الناسُ مثلَ ثوبَ اقتناع ... وهو من بين ما اكتسوا سربالى
ولقد تعلم الحوادث أنى ... ذو اصطبار على صُروف الليالى

وقال أعرابى : من ولد فى الفقر ، أبطره الغنى ، ومن ولد فى الغنى ، لم يزده إلا تواضعاً ، فما أحسن الفقر وأكثر ثوابه وأعظم أجر من رضى به ، وصبر عليه اللهم اجعلنا من الصابرين برحمتك ، ياأرحم الراحمين ، يارب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الباب الثالث والخمسون

فى التلطف فى السؤال وذكر من سئل فجاد

روى الإمام مالك فى الموطأ عن زيد بن أسلم ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « **أعطوا السائل ولو جاء على فرس** »[2] .

---

(١) التِّبْرة : واحدة التِّبر وهو فتات الذهب والفضة قبل أن يصاغا .

(٢) قال العجلونى : رواه مالك فى الموطأ مرسلا عن زيد بن أسلم . ثم قال : قال ابن حجر فى خطبة اللآلئ المنثورة : وهو أحد الأحاديث الخمسة التى قال فيها على بن المدينى : خمسة أحاديث يرونها عن رسول الله ﷺ ولا أصل لها عنه . وهو أحد الأحاديث الأربعة التى تدور على الألسنة فى الأسواق عن رسول الله ﷺ وليس لها أصل على ما نقل ابن الصلاح عن الإمام أحمد . لكن ناقش الحافظ ابن حجر فى ثبوت ذلك عن أحمد بالنسبة لحديث السائل .

وما سئل عليه السلام شيئاً قط فقال : « لا » [١] . وأتى أعرابى علىّ عليه السلام فسأله شيئاً فقال : والله ما أصبح فى بيتى شئ فضل عن قوتى ، فولى الأعرابى وهو يقول : والله ليسألنك الله عن موقفى بين يديك يوم القيامة ، فبكى على عليه السلام بكاء شديداً وأمر برده ، وقال : ياقنبر ، ائتنى بدرعى الفلانية ، فدفعها إلى الأعرابى وقال : لا تُخْدَعَن عنها فطالما كشفت بها الكروب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قنبر : ياأمير المؤمنين كان يجزيه عشرون درهماً ، فقال : ياقنبر ، والله ما يسرنى أن لى زنة الدنيا ذهباً وفضة فتصدقت به ، وقبل الله منى ذلك ، وأنه يسألنى عن موقف هذا بين يدى . وقال على عليه السلام: إن لكل شىء ثمرة ، وثمرة المعروف تعجيل السراح . وقال مسلمة لنصيب : سلنى ؛ فقال : كفك بالعطية أبسط من لسانى بالمسألة ، فقال لحاجبه : ادفع إليه ألف دينار .

وسأل رجل الحسن عليه السلام فقال له : ما وسيلتك ؟ قال : وسيلتى أنى أتيتك عام أول فبررتنى ، فقال : مرحباً بمن توسل إلينا بنا ثم وصله وأكرمه . ويقال : الكريم إذا سئل ارتاح ، واللئيم إذا سئل ارتاع .

ولما وفد المهدى من الرَّى إلى العراق امتدحه الشعراء ، فقال أبو دلامة :

إنى نذرتُ لئن رأيتُك قادماً ... أرضَ العراق وأنت ذُو وقْر [٢]

لتُصلين على النبى محمدٍ ... ولتملأنّ دراهمًا حجرى

فقال المهدى صلى الله على محمد ، فقال أبو دلامة : ما أسرعك للأولى ، وأبطأك عن الثانية ! فضحك ، وأمرَ بِبَدْرة فصبت فى حجره .

وسمع الرشيد أعرابية بمكة تقول :

طحَنَتنا كلاكِل [٣] الأعوام ... وبرتنا طوارق [٤] الأيام

فأتيناكمو نمُدّ أكُفًّا ... لالتقام من زادكم والطعام

فاطلبوا الأجرَ والمثوبة فينا ... أيها الزائرون بيتَ حرام

فبكى الرشيد وقال لمن معه : سألتكم بالله تعالى إلا ما دفعتم إليها صدقاتكم ، فألقوا عليها الثياب حتى وارتها كثرة ، وملئوا حجرَها دراهم ودنانير وسأل أعرابى بمكة وأحسن فى سؤاله ، فقال أخ فى الله ، وجار فى بلد الله ، وطالب خير من عند الله فهل من أخ يواسينى فى الله ؟ قال الشاعر :

ليس فى كلّ هلةٍ وأوانِ ... تتهيأُ صنائع الإحسان

فإذا أمكنت فبادر إليها ... حذرًا من تعذر الإمكان

وقال البصرى :

أضحت حوائجنا إليكَ مناخةً ... معقولة برحابك الوصّال

أطلق - فديتك - بالنجاح عقالها ... حتى تثور بنا بغير عقال

وعن على عليه السلام قال : يا كميل : مُرْ أهلك أن يَرُوحوا فى كسب المكارم ، ويُدْلجوا [٥] فى حاجة من هو نائم ، فوالذى وسع سمعُه الأصوات ، ما من أحد أودَعَ قلبًا سروراً إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفًا فإذا نائبةٌ جرى إليها ، كالماء فى انحداره ، حتى يطردها عنه ، كما تطرد غريبة الإبل وقال لجابر بن عبد الله : يا جابر من كثرت نعم الله تعالى عليه كثرت حوائج الناس إليه ، فإذا قام بما يجبَ فيها فقد عرضها للدوام والبقاء ، ومن لم يقم بما يجب فيها عرض نعمه لزوالها . وكان لبيد - رحمه الله تعالى - آلى على نفسه كلما هبت الصّبا [٦] أن ينحر ويُطعم وربما

---

(١) حديث « ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شىء » .. إلخ . تقدم تخريجه .

(٢) الوِقر : الحِملُ الثقيل .

(٣) كَلاكِل : جمع كِلْكِلَة، وهي الجماعة.

(٤) طوارق : مفردها طارقة، وهي عشيرة الرجل، والضاربة بالحصى التكهُّن.

(٥) الرّواح : السعى آخر النهار، والإدلاج : المشى بليل .

(٦) الصَّبا : ريح الشمال وهى باردة منعشة بما تحمله معها من روائح الزهر والمحبين .

ذبح العَناق[١] إذا ضاق الخِناق ! فخطب الوليد بن عتبة يوماً فقال : قد علمتم ما جعل أبو عقيل على نفسه فأعينوه على مروءته ، ثم بعث إليه بخمس من الإبل وبهذه الأبيات :

أرى الجزارَ يَشْحَذُ مُدْيَتَيْه ... إذا هبت رياحُ بنى عقيلِ
طويل الباع أبلج جعفرى ... كريم الجد كالسيف الصقيلِ
وَفَّى ابن الجعبرىّ بما نواه ... على العِلات[٢] بالمال القليلِ

فدعا لبيد بنتاً له خماسية[٣] وقال : يابنية إنى تركت قول الشعر فأجيبى الأمير عنى ، فقالت :

إذا هَبّتْ رياح بنى عقيل ... تداعينا لهَبتها الوليدا
طويلُ الباع أبلج عبشمى ... أعان على مروءته لبيدا
بأمثال الهضاب كأن رعيبا[٤] ... عليها من بنى حام قعودا
أبا وهب جزاك الله خيراً ... نحرناها وأطعمنا الثريدا
فعُذ إن الكريم له مَعاد ... وظنى فى ابن عتبة أن يعودا

فقال : لقد أحسنت والله يابنية لولا أنك سألت ، وقلت : عد ، فقالت : يأبت إن الملوك لا يُستحيا منهم فى المسألة . فقال : والله لأنت فى هذا أشعر منى ؟ . ووفد رجل من بنى ضبة على عبد الملك فأنشده :

والله ما ندرى إذا ما فاتنا ... طلبٌ إليك من الذى نتطلبُ ؟
ولقد ضربنا فى البلاد فلم نجد ... أحدا سِواك إلى المكارم يُنسَبُ
فاصبر لعادتك التى عوّدْتَنا ... أوْ لا فأرشدنا إلى من نذهب ؟!

فأمر له بألف دينار ، فعاد إليه من قابل ، وقال : ياأمير المؤمنين إن الرِوىّ لينازعنى[٥] ، وإن الحياء يمنعنى ، فأمر له بألف دينار وقال : والله لو قلت حتى تنفد بيوت الأموال لأعطيتك . وقيل إن رجلاً عرض للمنصور فسأله حاجة ، فلم يقضها ، فعرض له بعد ذلك ، فقال له المنصور : أليس قد كلمتنى مرة قبل هذه ؟! قال : نعم ياأمير المؤمنين ، ولكن بعض الأوقات أسعد من بعض ، وبعض البقاع أعز من بعض ، فقال : صدقت ، وقضى حاجته ، وأحسن إليه ، وروى : أن أبا دُلامة الشاعر كان واقفاً بين يدى السفاح فى بعض الأيام فقال له : سلنى حاجتك ، فقال : كلب صيد ، فقال : أعطوه إياه ، فقال : ودابة أصيد عليها ، فقال : أعطوه دابة ، فقال : وغلاماً يقود الكلب ، ويصيد به ، قال : أعطوه غلاماً . قال وجارية تُصلح لنا الصيد وتطعمنا منه ، قال : أعطوه جارية ، فقال هؤلاء ياأمير المؤمنين عيال ، ولابد لهم من دار يسكنونها ، قال : أعطوه داراً تجمعهم ، قال : فإن لم يكن لهم ضيعة ، فمن أين يعيشون ؟ قال : قد أقطعته عشر ضياع عامرة وعشر ضياع غامرة ، فقال : ما الغامرة ياأمير المؤمنين ؟ قال : ما لا نبات فيها ، قال : قد أقطعتك ياأمير المؤمنين مائة ضيعة غامرة من فيافى بنى أسد ! فضحك ، وقال : اجعلوها كلها عامرة ، فانظر إلى حِذقه بالمسألة ، ولطفه فيها ، كيف ابتدأ بكلب صيد ، فسهل القضية ، وجعل يأتى بمسألة بعد مسألة على ترتيب وفكاهة ، حتى سأل ما سأله ولو سأل ذلك بديهة لما وصل إليه .

وحكى عن المأمون أنه قال ليحيى بن أكثم يوماً : سر بنا نتفرج ، فسارا ، فبينما هما فى الطريق ، وإذا بمقصبة[٦] خرج منها رجل بقصبة للمأمون ، يتظلم له ، فنفرت دابته ، فألقته على الأرض صريعا ، فأمر بضرب ذلك الرجل فقال : ياأمير المؤمنين إن المضطر يرتكب الصعب من الأمور ، وهو عالم به ، ويتجاوز حد الأدب ، وهو كاره لتجاوزه ، ولو أحسنت الأيام مطالبتى لأحسنت مطالبتك ، ولأنت على رد ما لم تفعل أقدر من رد ما قد فعلت ! قال : فبكى المأمون وقال : بالله أعد علىّ ما قلت ، فأعاده فالتفت المأمون إلى يحيى بن أكثم وقال : أما تنظر إلى مخاطبة

---

(١) العناق : الأنثى من أولاد المعز والغنم من حين الولادة إلى تمام حول . (٢) على العِلات : على رغم الظروف والفقر .
(٣) الخماسى من الغلمان : ما طوله خمسة أشبار .
(٤) الرَّعيب : يقال هو رعيب العين : أي جبان لا ينظر شيئًا إلَّا فزع منه ، والسِّمين والقصير ، يقال : سنام رعيب : أي ممتلئ سمين .
(٥) الرّوىّ : الشعر .
(٦) مقصبة : مكان للقصب ، وأرض يزرع فيها .

هذا الرجل بأصغريه[١] والنبى ﷺ يقول : « المرء بأصغريه قلبه ولسانه »[٢] والله لا وقفت لك إلا وأنا قائم على قدمى ، فوقف وأمر له بصلة جزيلة ، واعتذر إليه ، فلما هم المأمون بالانصراف قال الرجل : ياأمير المؤمنين ، بيتان قد حضرانى ، ثم أنشد يقول :

ما جاد بالوفر إلا وهو معتذر ... ولا عفا قطّ إلا وهو مقتدرُ
وكلما قصدوه زاد نائلُه ... كالنار يؤخذ منها وهى تستعرُ

وقيل : إن بعض الحكماء لزم باب كسرى فى حاجة دهراً فلم يوصل إليه ، فكتب أربعة أسطر فى ورقة ، ودفعها للحاجب ، فكان فى السطر الأول : العديم لا يكون معه صبر على المطالبة ، وفى السطر الثانى : الضرورة والأمل أقدمانى عليك ، وفى السطر الثالث : الانصراف من غير فائدة شماتة الأعداء ، وفى السطر الرابع : أما نَعَمْ ، فمثمرة ، وأما لا فمريحة ! فلما قرأها كسرى دفع له فى كل سطر ألف دينار .

وحكى : أن رجلاً كان جاراً لابن عبيد الله ، فأصاب الناسَ قحطٌ بالعراق حتى رحل أكثر الناس عنه ، فعزم جار ابن عبيد الله على الخروج من البلاد ، فى طلب المعيشة ، وكانت له زوجة لا تقدر على السفر ، فلما رأت زوجها تهيأ للسفر قالت له : إذا سافرت مَن ينفقُ علينا قال : إن لى على ابن عبيد الله دَينًا ومعى به إشهاد عليه شرعى ، فخذى الإشهاد وقدميه إليه فإذا قرأه أنفق عليك مما عنده حتى أحضر ، ثم ناولها رقعة كتب فيها هذه الأبيات يقول :

قالت : وقد رأت الأحمال محدجة ... والبينَ قد جمع المشكوّ والشاكى
من لى إذا غبت فى ذا المحل قلت لها : ... الله وابن عبيد الله مولاكى

فمضت إليه المرأة ، وحكت له ما قال زوجها ، وأخبرته بسفره ، وناولته الرقعة ، فقرأها وقال : صدق زوجك ، وما زال ينفق عليها ، ويواصلها بالبر والإحسان إلى أن قدم زوجها ، فشكره على فضله وإحسانه ! .

وحكى : أن مطيع بن إياس مدح معن بن زائدة بقصيدة حسنة ثم أنشدها بين يديه ، فلما فرغ من إنشاده أراد معن أن يباسطه فقال : يا مطيع ، إن شئت أعطيناك ، وإن شئت مدحناك كما مدحتنا فاستحيا مطيع من اختيار الثواب ، وكره اختيار المدح ، وهو محتاج ، فلما خرج من عند معن أرسل إليه بهذين البيتين :

ثناءٌ من أميرٍ خيرُ كسْبٍ ... لصاحب نعمةٍ وأخى ثراءِ
ولكنّ الزمانَ بَرى عظامى ... وما لى كالدراهم من دواء !

فلما قرأها معن ضحك ، وقال : ما مثل الدراهم من دواء ! وأمر له بصلة جزيلة ، ومال كثير ! قال الشاعر :

هززتُك لا أنى جعلتُك ناسيًا ... لأمرى ولا أنى أردت التقاضيا
ولكن رأيتُ السيفَ من بعد سَلّه ... إلى الهز محتاجاً وإن كان ماضيا

وقال آخر :

ماذا أقول إذا رجعتُ وقيل لى : ... ماذا لقيت من الجواد الأفضل ؟!
إن قلت : أعطانى كذبتُ وإن أقل ... بَخِلَ الجوادُ بماله لم يَجْمُل
فاختر لنفسك ما أقول فإننى ... لابدّ أخبرهم وإن لم أُسأل

وقال آخر :

لنوائب الدنيا خَبأتك فانتبه ... يانائماً من جملة النّوام
أعلَى الصراط تُزيل لوعة كُربتى ... أم فى المعادِ تجود بالإنعام ؟!

ومما يستحسن إلحاقه بهذا الباب ذكر شىء مما جاء فى ذم السؤال والنهى عنه : روى عن عبد الرحمٰن بن عوف بن مالك الأشجعى ﷺ قال : كنا عند رسول الله ﷺ تسعة ، أو ثمانية ، أو سبعة ، فقال : « ألا تبايعون رسول الله ﷺ » فبسطنا أيدينا ،

---

(١) أصغريه : قلبه ولسانه .

(٢) انظر مجمع الأمثال للميدانى ولم يشر إلى أنه حديث .

وكنا حديثى عهد بالمبايعة ، فقلنا قد بايعناك يا رسول الله ، فعلام يا رسول الله نبايعك قال : « أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَتُقِيمُوا الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ ، وتُطِيعُوا اللَّهَ ، وأَسَرّ كلمةً خفية وهى : وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوطُ أحدهم ، فما يسأل أحداً يناوله إياه »[1] رواه مسلم . وقال رجل لابنه : إياك أن تريق ماءَ وجهك عند من لاماء فى وجهه ! وكان لقمان يقول لولده : يابنى إياك والسؤال فإنهُ يذهب ماء الحياء من الوجه ، وأعظم من هذا استخفاف الناس بك ، وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام لأن تدخل يدك فى فم التنين إلى المرفق ، خير لك من أن تبسطها إلى غنى قد نشأ فى الفقر . وقيل لأعرابى : ما السقم الذى لا يبرأ ، والجرح الذى لا يندمل ؟ قال : حاجة الكريم إلى اللئيم : وقال أبو محلم السعدى :

إذا ما رماك الدهرُ فى الضيق فانتجع ... قديمَ الغنى فى الناس إنك حامد
ولا تطلبن الخيرَ ممن أفاده ... حديثًا ومن لا يورث المجدَ والدُه

وقال رسول الله ﷺ : « مسألة الناس من الفواحش ما أحل من الفواحش غيره »[2] وقال ﷺ : « لِأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يأْتِى رَجُلاً فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ »[3] . قال الشاعر :

ما اعتاض باذلُ وجهه بسؤاله ... عوضًا ولو نال الغِنَى بسؤال
وإذا السؤال مع النوال وزنتَه ... رجح السؤالُ وخفّ كل نوال

وقال أحمد الأنبارى :

لموت الفتى خير من البخلِ للغنى ... ولَلْبُخلُ خيرٌ من سؤال بخيل
لعمرك ما شىء كوجهك قيمة ... فلا تلقَ إنساناً بوجه ذليل

وقال سلم الخاسر :

إذا أذن الله فى حاجة ... أتاك النجاحُ على رسله
فلا تسأل الناسَ من فضلهم ... ولكن سَلِ اللهَ مِنْ فضله

ويقال : أحب الناس إلى الله من سأله ، وأبغض الناس إلى الناس من احتاج إليهم وسألهم ، وفى هذا المعنى قيل :

لا تسألنّ بُنَىَّ آدَم حاجةً ... وسَلِ الذى أبوابهُ لا تُحْجَبُ
اللهُ يغضبُ إن تركت سؤاله ... وبنى آدمَ حين يسأل يغضب

وقال محمود الوراق :

شاد الملوك قصورهم وتحصنوا ... من كل طالب حاجة أو راغب
فارغب إلى ملك الملوك ولا تكن ... ياذا الضراعة طالبًا من طالب

وقال ابن دقيق العيد :

وقائلة مات الكرام فمن لنا ... إذا عضنا الدهر الشديد بنابه ؟!
فقلت لها من كان غاية قصده ... سؤالاً لمخلوق فليس بنابه
إذا مات مَن يُرجَى فمقصودُنا الذى ... ترجينه باقٍ فلوذى ببابه

وقال بعض أهل الفضل :

لما افتقرتُ لصحبى ما وجدتهمُ ... لجأت لله لبّانى وأغنانى
واهاً على بذل وجهى للورى سفهًا ... فلو بذلتُ إلى مولاى والانى

---

(١) روى عن عبد الرحمن بن عوف . . إلخ . هو كما ذكره الغزالى فى الأحياء : لعوف بن مالك الأشجعى . وقال العراقى : حديث عوف بن مالك « كنا عند رسول الله ﷺ » . أخرجه مسلم من حديثه ولم يقل : « فقال قائل » . وهى عند أبى داود وابن ماجه كما ذكرها المصنف .

(٢) « مسألة الناس من الفواحش » . . إلخ . انظر : « إتحاف السادة المتقين » . للزبيدى [٩/ ٣٠٤] ، والحاوى فى الفتاوى [٢/ ٨٨] .

(٣) « لأن يأخذ أحدكم حبله » . . إلخ . رواه مسلم باب كراهية المسألة للناس عن أبى هريرة بلفظ « لأن يغدو أحدكم يحتطب على ظهره فيتصدق به، ويستغنى به عن الناس خير له أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه ذلك » . . إلخ .

وسأل رجل رجلا حاجة فلم يقضها ، فقال : سألت فلانا حاجة أقلّ من قيمته ، فردني ردا أقبح من خلقته ! وسأل عروة مُصْعَبًا حاجةً فلم يقضِها ، فقال : علم الله تعالى أن لكل قوم شيخا يفزعون إليه ، وأنا أفزع منك ، ويقال : لا شيء أوجع للأخيار من الوقوف بباب الأشرار ! وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى :

بلوتُ بني الدنيا فلم أرَ فيهمُ ... سِوَى مَن غدا والبخلُ ملءُ إهابه
فجَردّت من غِمد القناعةِ صارماً ... قطعت رجائي منهمُ بذُبابه
فلا ذا يراني واقفا في طريقه ... ولا ذا يراني قاعداً عند بابه
غنىً بلا مال عن الناسِ كلهم ... وليس الغنى إلا عن الشيء لا به
إذا ظالم يستحسن الظلم مذهبا ... ولج عتوًا في قبيح اكتسابه
فكِلْه إلى صَرف الليالي فإنها ... ستُبدي له مالم يكن في حسابه
فكم قد رأينا ظالما متمردا ... يرَى النجمَ تيها تحتَ ظلّ رِكابه
فعمّا قليلٍ وهو في غفلاته ... أناخت صروفُ الحادثاتِ ببابه
فأصبح لا مالٌ ولا جاهَ يرتجى ... ولا حسنات تلتقى في كتابه
وجُوزِيَ بالأمر الذي كان فاعلا ... وصبّ عليه الله سوطَ عذابه

وقال آخر :

لا تسألنّ إلى صديق حاجة ... فيحولَ عنك كما الزمانُ يحولُ
واستغن بالشيء القليل فإنه ... ما صان عرضكَ لا يقالُ قليلُ
من عفّ خفّ على الصديق لقاؤه ... وأخو الحوائج وجهُه ممطول
وأخوك من وفرّت ما في كفه ... ومتى علقت به فأنت ثقيل

وقال آخر :

ليس جودًا أعطيتهَ بسؤال ... قد يهزّ السؤالُ غير جَوَادِ
إنما الجود ما أتاك ابتداءً ... لم تذق فيه ذِلة التّرداد

وقال آخر :

لا تحسبن الموت موتَ البلا ... إنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ، ولكنّ ذا ... أخف من ذاك لذُلّ السؤال !

وقال الشافعي رحمه الله:

قَنَعْتُ بالقوت من زماني ... وصُنْت نفسي عن الهوان
خوفا من الناسِ أن يقولوا : ... فضلُ فلان على فلانِ
من كنت عن ماله غنيا ... فلا أبالي إذا جفاني
ومن رآني بعين نقص ... رأيته بالتي رآني
ومن رآني بعين تمّ ... رأيته كامل المعاني

والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الرابع والخمسون

فى ذكر الهدايا والتحف ، وما أشبه ذلك

قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ . [النساء:٨٦] فسرّها بعضهم : بالهدية . وقال ﷺ : « تهادوا تحابوا فإنها تجلب المحبة وتذهب الشحناء »[١] . وقال ﷺ : « الهدية مشتركة »[٢] . وقال ﷺ : « من سألكم بالله فأعطوه ، ومن استعاذكم فأعيذوه ، ومن أهدى إليكم كُراعا[٣] فاقبلوه »[٤] . وكان ﷺ : « يقبلُ الهديةَ ويُثيبُ عليها ما هُو خيرٌ منها »[٥] . وفى الأثر : « الهدية تجلب المودة إلى القلب والسمع والبصر »[٦] . ومن الأمثال إذا قدمت من سفر فأهد لأهلك ولو حجرا . وقال الفضل بن سهل ما استُرضى الغضبان ، ولا استُعطف السلطان ، ولا سلبت السخائم[٧] ، ولا دفعت المغارم ، ولا استميل المحبوب ، ولا توقى المحذور بمثل الهدية .

وأتى فتح الموصلى بهدية وهى خمسون ديناراً ، فقال حدثنا عطاء عن النبى ﷺ أنه قال : « مَنْ أَتَاهُ اللَّهُ رِزْقًا مِنْ غَيرِ مَسْأَلَةٍ وَرَدَّهُ فَكَأَنَّمَا رَدَّهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى »[٨] . وأهدى رسول الله ﷺ هدية إلى عمر فردها فقال : « ياعمر ، لم رددت هديتى ؟ » فقال ﷺ إنى سمعتك تقول : « خيركم من لم يقبل شيئًا من الناس » . فقال : « ياعمر ، إنما ذاك ما كان عن ظهر مسألة فأما إذا أتاك من غير مسألة فإنما هو رزق ساقه الله إليك »[٩] . وقالت أم حكيم الخزاعية سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تهادوا فإنه يضاعف الحب ، ويذهب بغوائل الصدر »[١٠] . ويقال : فى نشر المهاداة ، طى المعاداة ! .

ذكر أنواع الهدايا للخلفاء وغيرهم ممن قصرت به قدرته ، فأهدى اليسير وكتب معه مكاتبة يعتذر بها

أهدى إلى سليمان بن داود عليه السلام ثمانية أشياء متباينة فى يوم واحد ، فيلة من ملك الهند ، وجارية من ملك الترك ، وفرس من ملك العرب ، وجوهرة من ملك الصين ، وإستبرق[١١] من ملك الروم ، ودرة من ملك البحر ، وجرادة من ملك النمل ، وذرة من ملك البعوض ! فتأملَ ذلكَ وقال : سبحان القادر على جمع الأضداد ! . وأهدى ملك الروم إلى المأمون هدية ، فقال المأمون . أهدوا له ما يكون ضعفها مائة مرة ! ليعلم عز الإسلام ، ونعمة الله تعالى علينا ، ففعلوا ذلك ، فلما عزموا على حملها قال : ما أعز الأشياء عندهم ؟ قالوا : المسك ، والسَّمُّور[١٢] . قال : وكم فى الهدية من ذلك ؟ قالوا : مائتا رطل مسكاً ، ومائتا فروة سمور .

---

(١) « تهادوا » . . إلخ . قال العجلونى فى الكشف [١٠٢٣/ ١] ، رواه الطبرانى فى الأوسط والحربى فى الهدايا ، والعسكرى فى الأمثال عن عائشة مرفوعا ، وأخرجه مالك فى الموطأ عن عطاء الخراسانى مرسلا رفعه بلفظ ، تصافحوا يذهب الغِل ، وتهادوا تحابوا ، وتذهب الشحناء . قال فى المقاصد : وهو حديث جيد .

(٢) أخرجه عبد بن حميد بإسناد ضعيف، وانظر :«فتح الباري». [٥/ ٢٦٩].

(٣) وقال ﷺ « من سألكم بالله فأعطوه ، ومن استعاذكم فأعيذوه » . . إلخ . أخرجه الطبرانى فى « الكبير » . [١٢/ ٤٠١] ، برقم [١٣٤٨٠].

(٤) الكُرَاع : من البقر والغنم: مستدق الساق العاري من اللحم.

(٥) وكان ﷺ « يقبل الهدية ويثيب عليها » . . إلخ . أخرجه البخارى برقم [٢٥٨٥] .

(٦) وفى الأثر : « الهدية تجلب المودة إلى القلب والسمع والبصر » . لم أهتد إليه .

(٧) السخائم : جمع سخيمة : الحقد والضغينة .

(٨) « من أتاه الله رزقا » . . إلخ . أخرج أحمد [٢/ ٢٩٢] ، قريبا منه بسند صحيح .

(٩) وأهدى رسول الله ﷺ هدية إلى عمر . . إلخ لم أقف عليه .

(١٠) وقالت أم حكيم الخزاعية . . إلخ ذكره العجلونى وقال : رواه الطبرانى فى الكبير والديلمى وأبو يعلى عن أم حكيم ابنة وداع مرفوعا . [الكشف : ١/ ١٠٢٣] .

(١١) الإستبرق : الديباج الغليظ .

(١٢) السَّمُّور : حيوان ثديى ليلى يتخذ من جلده فرو ثمين ويقطن شمالى آسية .

وأهدت : قطر الندى إلى المعتضد بالله فى يوم نيروز [١] فى سنة اثنتين وثمانين ومائتين هدية كان فيها عشرون صينية ذهب ، فى عشرة منها مشام عَنْبر ، وزنها أربعة وثمانون رطلاً ، وعشرون صينية فضة فى عشرة منها مشام صندل زنتها نيف وثلاثون رطلاً ، وخمس خلع وشى ، قيمتها خمسة آلاف دينار . وعملت شمامات [٢] ليوم النيروز بلغت النفقة عليها ثلاثة عشر ألف دينار . وأهدى يعقوب بن الليث الصفار إلى المعتمد على الله هدية فى بعض السنين ، من جملتها عشرة بازات ، منها باز أبلق [٣] لم ير مثله ، ومائة مهر ، وعشرون صندوقاً على عشر بغال ، فيها طرائف الصين وغرائبه ، ومسجد فضة بدرابزين يصلى فيه خمسة عشر إنساناً ، ومائة رطل من مسك ،ومائة رطل عود هندى ، وأربعة آلاف ألف درهم . وأهدت ثريا بنت الأوبارى ملكة أفرنجة وما والاها إلى المكتفى بالله فى سنة ثلاث وسبعين ومائتين خمسين سيفاً وخمسين رمحاً وعشرين ثوبا منسوجا بالذهب ، وعشرين خادماً صقلبيا ، وعشرين جارية صقلبية ، وعشرة كلاب كبار لا تطيقها السباع ، وستة بازات وسبع صقور ومضرب حرير متلون بجميع الألوان كلون قوس قزح ، يتلون فى كل ساعة من ساعات النهار ، وثلاثة أطيار من الأطيار الإفرنجية إذا نظرت إلى الطعام أو الشراب المسموم صاحت صياحاً منكراً وصفقت بأجنحتها حتى يعلم بذلك ، وخرزاً يجذب النصول [٤] بعد نبات اللحم عليها بغير وجع ، وحمارة وحشية عظيمة الخلقة فى قدر البغل ، وآذانها شبه آذان البغل ، وهى مخططة تخطيطاً عاماً لجميع خلقتها . وأهدى قسطنطين ملك الروم إلى المنتصر بالله فى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة هدية عظيمة اشتملت قيمتها على ثلاثين قنطاراً من الذهب الأحمر ، كل قنطار منها عشرة آلاف دينار عربية ، قيمة ذلك ثلاثمائة ألف دينار عربية .

وحكى : أن الخيزران جارية المهدى كانت أدية شاعرة ، فعزم المهدى على شرب دواء فأنفذت إليه جامَ بِلّور [٥] فيه شراب اختارته له وصيفة بكر بارعة الجمال وكتبت إليه تقول :

إذا خـــرج الإمـــام مـــن الـــدواء ... وأعـقـب بـالـسـلامـةِ والـشـفـاء
وأصـلـح حـالـه مـن بـعـد شُـربٍ ... بـهـذا الـجـام مـن هـذا الـطـلاء
فـيـنـعـم لـلـتـى قـد أنـفـذتـه ... إلـيـه بـزورة بـعـد الـعـشـاء

فسُر بذلك ، ووقعت الجارية منه أعظم موقع وزار الخيزران ، وأقام عندها يومين . وأهدى الصابى إلى عضد الدولة أسْطُرلابًا [٦] فى يوم المهرجان وكتب إليه يقول :

أهـدى إلـيـك بـنـو الأمـلاك واحـتـفـلـوا ... فـى مـهـرجـان جـديـد أنـت تُـبـلـيـه
لـكـنّ عـبـدك إبـراهـيـم حـيـن رأى ... سـمـوّ قـدرك عـن شـىء يـدانـيـه
لـم يـرضَ بـالأرض يـهـديـهـا إلـيـك وقـد ... أهـدى لـك الـفـلـك الأعـلـى بـمـا فـيـه

وأهدى رجل إلى المتوكل قارورة ذهب ، وكتب معها : إن الهدية إذا كانت من الصغير إلى الكبير ، فكلما لطفت ودقت كانت أبهى وأحسن ، وإذا كانت من الكبير إلى الصغير فكلما عظمت وجَلّت كانت أوقع وأنفع . وأهدى مرة أبو الهذيل إلى موسى بن عمران دجاجة ووصفها له بصفات جليلة ، ثم لم يزل يذكرها ، وكلما ذكر شىء بجمال أو سمن ، قال : هو أحسن أو أسمن من الدجاجة التى أهديتها إليكم . وإن ذكر حادث قال : ذلك قبل أن أهدى لكم الدجاجة بشهر ، وما كان بين ذلك وبين إهداء الدجاجة إلا أيام قلائل فصارت مثلا لمن يستعظم الهدية ، ويذكرها قال الشاعر :

وإن امـرأ أهـدى إلـىّ صـنـيـعـةً ... وذكّـرَنـيـهـا مـرةً لـلـئـيـم !

---

(١) النيروز أو النوروز : أول يوم من السنة الشمسية الإيرانية ، ويوافق اليوم الحادى والعشرين من مارس من السنة الميلادية .
(٢) الشَّمَّامات: ما يُتشمَّم من الروائح الطيبة.
(٣) الأَبْلَق: الفحل جاءت أولاده بِلَقًا، أي فيها سواد وبياض.
(٤) النصول : جمع نصل : حديدة الرمح والسهم والسكين ، أى له خاصية المغناطيس .
(٥) بِلّور: نوع من الزجاج، وحجر أبض شفاف .
(٦) الأسْطُرْلاب : جهاز استعمله المتقدمون فى تعيين ارتفاعات الأجرام السماوية ومعرفة الوقت والجهة الأصلية .

وقال سفيان الثورى : إذا أردت أن تتزوّج فأهد للأم . وكان سفيان يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما من أهديت إليه هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها فأهدى إليه صديق له ثياباً من ثياب مصر ، وعنده قوم فذكروا الخبر ، فقال : إنما ذلك فيما يؤكل ويشرب ، أما فى ثياب مصر فلا . وكتب الحمدونى إلى جارية اسمها « برهان » وقد حج مواليها فقال :

حجوا مواليك يابرهانُ واعتمروا ... وقد أتتك الهدايا من مواليك
فأطرفينى بما قد أطرفوك به ... ولا تكن طرفتى غير المساويك
ولست أقبل إلا ما جلوت به ... ثَنِيَّتَيْك وما رددتِ فى فيك

كتب بعضهم إلى صديقه وقد أهدى إليه هدية يسيرة ، يقول :

تفضل بالقبول علىَّ إنى ... بعثت بما يُقِلّ العبدَ عندك

وأهدى بعضهم إلى صديقه هدية فى يوم نيروز وكتب إليه يقول : هذا يوم جرت فيه العادة بألطاف العبيد للسادة ، وقدر الأمير يجل عما تحيط به المقدرة ، وفى سؤدده ما يوجب التفضل ببسط المعذرة ، وقد وجهت ما حضر علماً بأنه لا يستكثر ما جل ، ولا يستقل لعبده ما قل ، فإن رأى أن يتطول بقبول القليل ، كتطوّله بإهداء الجزيل فَعَلَ وجعل يقول :

رأيتُ كثيرَ ما يُهدى إليكم ... قليلاً فاقتصرت على الدعاء !

وبلغ الحسن بن عمارة أن الأعمش يقع فيه ، ويقول : ظالم وَلِىَ المظالم ، فأهدى إليه هدية فمدحه الأعمش بعد ذلك وقال : الحمدَ الذى وَلى علينا من يعرف حقوقنا ، فقيل له : كنت تذمه ، ثم الآن تمدحه ؟! فقال : حدثنى خيثمة عن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « **جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها** »[1] وقال عبد الملك بن مروان ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها : الكتاب يدل على عقل كاتبه ، والرسول يدل على عقل مرسله ، والهدية تدل على عقل مهديها ، والله سبحانه وتعالى أعلم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الخامس والخمسون

فى العمل والكسب والصناعات والحرف ، وما أشبه ذلك

أما العمل : فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « **أَفْضَلُ الْعَمَلِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ** »[2] . وقال على بن أبى طالب رضي الله عنه : قليل مدام عليه ، خير من كثير مملول . وفى التوراة : حرك يدك أفتح لك باب الرزق . وكان إبراهيم بن أدهم يسقى ، ويرعى ، ويعمل بالكِراء[3] ، ويحفظ البساتين والمزارع ، ويحصد بالنهار ، ويصلى بالليل . وعن على رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ما ينفى عنى حجة العام ؟ قال : « **العمل** »[4] . وعنه ﷺ أنه قال : « **الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ**

---

(١) « جبلت القلوب على من أحسن إليها » . . إلخ قال السيوطى فى الدرر المنثورة : أخرجه البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود مرفوعا وموقوفا . قال : وهو المحفوظ . قال ابن عدى وهو المعروف . وأورده السيوطى فى الصغير وضعفه . والكبير وعزاه لأبى نعيم فى الحلية عن ابن مسعود ، والعسكرى فى الأمثال عن ابن عمر .

(٢) أفضل العمل أدومه . . إلخ أخرجه مسلم برقم [٢١٨ - الإيمان] .

(٣) بالكِراء : أى بأجر .

(٤) عن على قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : ما ينفى عنى حجة العام ؟ إلخ لم أهتد إليه .

الْمَوْتِ ، والْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الأَمَانِيَّ »[١] . وقال الأوزاعى : إذا أراد الله بقوم سوءًا أعطاهم الجدل ، ومنعهم العمل . وأنشد يقول :

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ففى صالح الأعمال نفسك فاجعل

وقال بعض الحكماء : لا شىء أحسنُ من عقل زانه حلم ، ومن عمل زانه علم ، ومن حلم زانه صدق ، ودخل بعض الخواص على إبراهيم بن صالح وهو أمير فلسطين فقال له : عظنى ، فقال له الولى : بلغنى - رحمك الله - أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم الموتى ، فانظر ماذا تعرض على رسول الله ﷺ من عملك ؛ فبكى إبراهيم حتى سالت دموعه[٢]! . وقيل : من جَدّ وجَد وأنشدوا فى المعنى :

إنى رأيت وفى الأيام تجربة للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقلّ من جدّ فى أمر يحاولهُ واستصحب الصبرَ إلا فاز بالظفر !

وتقول العرب فلان وثاب على الفرص ، وقال بعضهم :

وإنى إذا باشرت أمراً أريدهُ تدانت أقاصيه وهان أَشُدُّه

وعن أنس ﷺ: يتبع الميت ثلاث : يرجع اثنان ، ويبقى واحد : يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ولا يرجع عمله[٣] . وقال بعضهم : العمل سعى الأركان إلى الله ، والنية سعى القلوب إلى الله ، والقلب ملك والأركان جنود ، ولا يحارب الملك إلا بالجنود ، ولا الجنود إلا بالملك . وقيل : الدنيا كلها ظلمات إلا موضع العلم ، والعلم كله هباء إلا موضع العمل ، والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص، هذا هو العمل .

وأما الكسب : فقد جاء فى تفسير قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء:٨٠] . أى دروع من الحديد ، وذلك أن داود عليه السلام كان يدور فى الصحارى فإذا رأى من لا يعرفه تحدث معه فى أمر داود ، فإذا سمعه عابه بشىء يُصلحه من نفسه ، فسمع يوماً من يقول : إنى لا أجد فى داود عيباً إلا أنه يأكل من غير كسبه ، فعند ذلك صلى داود عليه السلام فى محرابه ، وتضرع بين يدى الله تعالى ، وسأله أن يعلمه ما يستعين به على قُوته ، فعلمه الله تعالى صنعة الحديد وجعله فى يده كالشمع ، فاحترفها واستعان بها على أمره وصار يُحْكم منها الدروع .

وقال رسول الله ﷺ: « جُعل رزقى تحت رمحى »[٤] . فكانت حرفته الجهاد ، وقال رسول الله ﷺ: « إن الله يحب العبد المحترف »[٥] . وقال ﷺ: « إن الله تعالى يبغض العبد الصحيح الفارغ »[٦] . وقال ﷺ : « مَنِ اكْتَسَبَ قُوتَهُ ولَمْ يَسْأَلِ النَّاسَ لَمْ يُعَذِّبْهُ اللَّهُ تَعَالى يَوْمَ القِيَامَةِ ، ولَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مِنَ المَسْأَلَةِ لَمَا سَأَلَ رَجُلٌ رَجُلاً شَيئاً وهُو يَجِد قُوتَ يَوْمِهِ ، ولَيسَ عِنْدَ اللَّهِ أَحَبُّ مِنْ عَبْدٍ يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِ يَدِهِ ، إِنَّ اللَّهَ تَعالى يَبْغَضُ كُلَّ فَارِغٍ مِنْ أَعْمَالِ الدُّنْيا والآخِرَةِ »[٧] . وعن أنس ﷺ عن النبى ﷺ : « من بات كالًّا فى طلب الحلال أصبح مغفوراً له »[٨] . وعن الحسن - رحمه الله - كسب الدرهم الحلال أشد من لقاء الزحف . وقيل لمحمد بن مهران : إن هاهنا أقواماً يقولون : نجلس فى بيوتنا ، وتأتينا أرزاقنا فقال : هؤلاء قوم حمقى ! إن كان لهم مثل يقين إبراهيم خليل الرحمٰن فليفعلوا ، وقال عمر بن الخطاب ﷺ : لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقنى ،

---

(١) الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت . . إلخ كشف الخفاء [٢/ ٢٠٢٩] رواه أحمد وابن ماجه والحاكم والعسكرى والقضاعى والترمذى وقال : حسن عن شداد بن أوس مرفوعا ، وقال الحاكم صحيح على شرط البخارى .

(٢) بلغنى أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم . . إلخ روى الحكيم الترمذى عن والد عبد العزيز بلفظ « تعرض الأعمال يوم الإثنين والخميس على الله - تعالى -، وتعرض على الأنبياء وعلى الآباء والأمهات يوم الجمعة . فيفرحون بحسناتهم ، وتزداد وجوههم بياضا وإشراقا » إلخ .

(٣) وعن أنس ﷺ يتبع الميت ثلاث . . إلخ قال العجلونى : رواه أحمد والشيخان عن أنس .

(٤) « جعل رزقى تحت رمحى » حسن : أخرجه الطبرانى فى « الكبير » عن ابن عمر كذا فى « مجمع الزوائد » للحافظ الهيثمى [٥/ ٢٦٧] .

(٥) « إن الله يحب العبد » . . إلخ قال العجلونى : أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير والأوسط وابن عدى فى كامله عن ابن عمر مرفوعا بسند فيه ضعيف ومتروك .

(٦) إن الله يبغض العبد الصحيح الفارغ . . لم أجده بهذا اللفظ ، والمعنى وارد . انظر المقاصد ١٢٦ .

(٧) « من اكتسب قوته ولم يسأل » . . إلخ انظر : « سنن النسائى » [٥/ ٩٥] .

(٨) « من بات كالا فى طلب الحلال » . . إلخ عزاه الهندى فى « كنز العمال » برقم [٩٢١٥] ، لابن عساكر عن أنس .

فقد علمتم أن السماء لا تُمطر ذهباً ولا فضة . وقال أيضاً : إنى لأرى الرجل فيعجبنى ، فأقول : أله حرفة ؟ فإن قالوا : لا . سقط من عينى ! واشترى سليمان وسقا من طعام ، وهو ستون صاعاً ، فقيل له فى ذلك فقال : إن النفس إذا أحرزت رزقها اطمأنت . قال بعضهم فى السعى :

خاطر بنفسك كى تصيبَ غنيمة ... إن الجلوس مع العيال قبيحُ

وقيل : إن أول من صنع لسانَ الميزان عبد الله بن عامر ، وكان الناس إنما يزنون بالشاهينى[١] . وعن أنس ﷺ قال : غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله سَعِّرْ لنا . فقال : « **إِنَّ اللَّهَ الْخَالِقُ الْقَابِضُ الْمُسَعِّرُ الرَّازِقُ ، وإِنِّى لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى وَلَيْسَ أَحَدٌ يَطْلُبُنِى بِمَظْلَمَةٍ ظَلَمْتُهُ بِهَا فِى أَهْلٍ وَلَا مَالٍ** »[٢] .

وأما ما جاء فى العجز والتوانى : فقد روى عن على بن أبى طالب ﷺ أنه قال : من أطاع التوانى ضيع الحقوق ، ومن العجز طلب ما فات مِمَّا لا يمكن استدراكه ، وترك ما أمكن مما تحمده عواقبه ؛ قال الشاعر :

على المرء أن يسعى ويبذلَ جُهدَه ... ويقضى إلهَ الخلقِ ما كان قاضياً

ومثله قوله :

على المرء أن يسعَى لما فيه نفعُه ... وليس عليه أن يساعدَه الدهرُ

وقيل : احذر مجالسة العاجز فإنه من سكن إلى عاجز أعداه من عجزه ، وأمده من جزعه ، وعوده قلة الصبر ، ونَسّاه ما فى العواقب ، وليس للعجز ضد إلا الحزم . وقال بعض العلماء من الخذلان مسامرة الأمانى ، ومن التوفيق بغض التوانى ، وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **باكروا فى طلب الرزق والحوائج ، فإن الغدوّ بركة ونجاح** »[٣] . وقال الإمام الشافعى ﷺ : احرص على ما ينفعك ، ودع كلام الناس ، فإنه لا سبيل إلى السلامة من ألسنة الناس . وقال على ﷺ التوانى مفتاح البؤس ، وبالعجز والكسل تولدت الفاقة ونتجت الهلكة ومن لم يطلب لم يجد وأفضى إلى الفساد . وقال حكيم : مِن دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير ، وقال بعض الحكماء : الحركة بركة والتوانى هلكة ، والكسل شؤم ، وكلبٌ طائف خير من أسد رابض ، ومن لم يحترف لم يعتلف . وقيل : من العجز والتوانى تُنْتَج الفاقة قال هلال بن العلاء الرفاء هذين البيتين من جملة أبيات :

كأن التوانى أنكحَ العجز بنته ... وساق إليها حين زوّجها مَهرا
فراشاً وطيئاً ثم قال لها اتّكِى ... فإنكما لابدّ أن تلدا الفقرا

وقال آخر :

توكل على الرحمٰن فى الأمر كلّه ... ولا ترغبن فى العجز يوماً عن الطّلَبْ
ألم تر أن الله قال لمريم ... وهزى إليك الجذعَ يساقط الرطبْ
ولو شاء أن تجنيه من غير هزّه ... جَنَتْه ولكنْ كل رزق له سببْ

وسأل معاوية ﷺ سعيدَ بن العاص عن المروءة فقال : العفة والحرفة . وكان أيوب السختيانى يقول : يا فتيان ، احترفوا فإنى لآمَنُ عليكم أن تحتاجوا إلى القوم ، يعنى : الأمراء . وقال رجل للحسن : إنى أنشر مصحفى ، فأقرؤه بالنهار كله ، فقال : اقرأه بالغداة والعشى ويكون يومك فى صنعتك ، وما لابد منه . ومرّ - رحمه الله تعالى - بإسكاف[٤] فقال : يا هذا اعمل ، وكلْ فإن الله يحب من يعمل ويأكل ، ولا يحب من يأكل ولا يعمل ، وقال أبو تمام :

---

(١) الشَّاهين : عمود الميزان .

(٢) « غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ » . . إلخ صحيح : أخرجه أبو داود [٣٤٥١] ، والترمذى [١٣١٤] ، وابن ماجه [٢٢٠٠] ، وأحمد [٣/ ٢٨٦] ، والدارمى [٢/ ٢٤٩] ، والبيهقى [٦/ ٢٩] .

(٣) وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « باكروا فى طلب الرزق » . . إلخ ضعيف جدًّا : أخرجه الطبرانى ابن قيس بن سعد بن زيد بن ثابت ، متروك الحديث .

(٤) الإسكاف : الخراز ومصلح الأحذية وصانعها .

أعاذلتى ما أحسن الليل مركباً ... وأحسن منه فى الملمات راكبُه
ذرينى وأهوال الزمان أقاسها ... فأهوالهُ العظمى تليها رغائبُه
أرى عاجزاً يدعى جليداً لقسمة ... ولو كلف التقوى لكلّت مضاربه
وعفّا يسمى عاجزا بعفافه ... ولولا التقى ما أعجزته مذاهبُه
وليس بعجز المرء أخطأه الغنى ... ولا باحتيال أدرك المالَ كاسبُه

وقال آخر :

فلا تركن إلى كسل وعجز ... يُحيل على المقادر والقضاء

وقال أعرابى : العاجز هو الشاب القليل الحيلة ، الملازم للأمانى المستحيلة . ويقال : فلان يخدعه الشيطان عن الحزم ، فيمثل له التوانى فى صورة التوكل ، ويُريه الهوينا بإحالته على القدر . وقال لقمان لابنه : يابنى إياك والكسلَ والضجرَ فإنك إذا كسلت لم تؤد حقاً ، وإذا ضجرت لم تصبر على حق ! . قال أبو العتاهية :

إذا وضع الراعى على الأرض صدرَه ... فحق على المعزى بأن تَتَبَدّدا

فالتوانى هو الكسل ، وتضييع الحزم ، وعدم القيام على مصالح النفس ، وترك التسبب والاحتراف ، والإحالة على المقادير ، وهذا من أقبح الأفعال .

وأما التأنى : فإنه خلاف التوانى ، وهو الرفق ، ورفض العجلة ، والنظر فى العواقب . وقد قيل : من نظر فى عواقب الأمور سلم من آفات الدهور ، ومما جاء فى ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه:١١٤] . وقال رسول الله ﷺ: « **من أعطى حظه من الرفق أعطى حظه من الدنيا والآخرة** » [(١)] . وقال ﷺ لعائشة : « **عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ فَإِنَّ الرِّفْقَ لَا يُخَالِطُ شَيْئًا إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا يُفَارِقُ شَيْئًا إِلَّا شَانَهُ** » [(٢)] . وفى التوراة : الرفق رأس الحكمة . وقالوا : العقل أصله التثبت ، وثمرته السلامة . ووجد على سيف مكتوباً التأنى فيما لا يخاف فيه الفوت أفضل من العجلة فى إدراك الأمل ، وقال بعض الحكماء : إذا شككت فاجزم ، وإذا استوضحت فاعزم ، وقالوا : يد الرفق تجنى ثمرة السلامة ، ويد العجلة تغرس شجرة الندامة ، وأنشدوا فى ذلك :

قد يُدرِكُ المتأنى بعضَ حاجتِه ... وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقالوا : التأنى حصن السلامة ، والعجلة مفتاح الندامة ، وقالوا : إذا لم يدرَك الظفر بالرفق والتأنى ، فبماذا يدرك ؟ وقال المهلب : أناة فى عواقبها دَرْك[(٣)] ، خير من عجلة فى عواقبها فوت . وقالوا : من تأنى نال ما تمنى ، والرفق مفتاح النجاح ، وقال بعض الحكماء : إياك والعجلة فإنها تكنى أم الندامة ، لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم ، ويجيب قبل أن يفهم ، ويعزم قبل أن يفكر ، ويحمد قبل أن يجرب ، ولن تصحب هذه الصفة أحداً إلا صحب الندامة ، وجانب السلامة .

وأما الصناعات والحرف وما يتعلق بها : فقد روى عن سهل بن سعد ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « **عمل الأبرار من الرجال الخياطة ، وعمل الأبرار من النساء الغزل** » [(٤)] . وكان ﷺ: « **يَخِيطُ ثَوْبَهُ ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ ، وَيَحْلِبُ شَاتَهُ ، وَيَعْلِفُ نَاضِحَهُ** » [(٥)] . وقال سعيد بن المسيب : كان لقمان الحكيم خياطاً ، وقيل : كان إدريس عليه السلام خياطاً . ووقف على بن أبى طالب رضي الله عنه على خياط فقال له : ياخياط ثكلتك الثواكل ، صلب الخيط ، ودقق الدروز [(٦)] ، وقارب الغروز ، فإنى

---

(١) « من أعطى حظه من الرفق » . . إلخ رواه العسكرى والقضاعى عن عائشة مرفوعا كما قال العجلونى فى الكشف .

(٢) رواه مسلم عن عائشة مرفوعا . وعزاه فى اللآلىء لمسند أحمد عن عائشة ، وأخرجه البخارى فى الأدب المفرد .

(٣) الدَّرْك: التَّبِعة، وأسفل كل شيء ذي عُمق.

(٤) عمل الأبرار من الرجال الخياطة وعمل الأبرار من النساء الغزل . موضوع : أخرجه التمام فى « الفوائد » . برقم [١٢٥٠] ، وابن عدى [٣/١٠٩٨] ، وأبو نعيم فى « أخبار أصبهان » . [١/٣٠٣] ، والخطيب فى « تاريخ بغداد » . [٩/١٥] . وفى سنده أبو داود سليمان بن عمرو ، كذاب .

(٥) وكان ﷺ « يخيط ثوبة ويخصف نعله » . . إلخ . صحيح أخرجه أحمد [٦/١٢١ ، ١٦٧ ، ٢٤١ ، ٢٦٠] ، وأبو الشيخ فى « أخلاق النبى ﷺ » . (ص١٩/٢٠) .

(٦) الدّروز: جمع دَرْز، وهو موضع الخياطة.

سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **يحشر الله الخياط الخائن ، وعليه قميص ورداء مما خاط وخان فيه** » [١] . واحذر السقاطات فإن صاحب الثوب أحق بها ، ولا تتخذ بها الأيادى وتطلب المكافأة . وقال فيلسوف : إن من القبيح أن يتولى امتحان الصناع من ليس بصانع . وفى الحديث « **أكذب أمتى الصواغون والصباغون** » [٢] . وكذِبُ الدلال مَثَلٌ . وقالوا : لكل أحد رأس مال ، ورأس مال الدلال الكذب . وقال عبد الرحمٰن بن شبل : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **التجار هم الفجار** » . فقيل : أليس الله تعالى قد أحل البيع ؟ قال : « **نعم ولكن يحدثون فيكذبون ، ويحلفون فيحنثون** » [٣] . وقال الفضيل : بخس الموازين سواد فى الوجه يوم القيامة ، وإنما أهلكت القرون الأولى لأنهم أكلوا الربا وعطلوا الحدود ، ونقصوا الكيل والميزان . وقال مجاهد فى قوله تعالى : ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١] قيل : هم الحاكة والأساكفة [٤] . وقيل : إن حائكاً سأل إبراهيم الحربى : ما تقول فيمن صلى العيد ولم يشتر ناطفاً [٥] ؟ ما الذى يجب عليه ؟ فتبسم إبراهيم ثم قال : يتصدق بدرهمين ، فلما مضى قال : ما علينا أن نفرح المساكين من مال هذا الأحمق ! وقيل لرجل : هل فيكم حائك ؟ قال : لا . قيل . فمن ينسج لكم ثيابكم ؟ قال : كل منا ينسج لنفسه فى بيته . وكان أردشير بن بابك لا يرتضى لمنادمته ذا صناعة رديئة : كحائك وحجام ، ولو كان يعلم الغيب مثلا . وقال كعب : لا تستشيروا الحاكة فإن الله تعالى سلب عقولهم ، ونزع البركة من كسبهم ، لأن مريم - عليها السلام - مرت بجماعة من الحياكين فسألتهم عن الطريق ، فدلوها على غير الطريق ، فقالت : نزع الله البركة من كسبكم ! . قال أبو العتاهية :

ألا إنما التقوى هى العز والكرم ... وحبُك للدنيا هو الذل والسقم
وليس على عبد تقىّ نقيصةٌ ... إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم !

وهذا ما أردنا سياقه فى هذا الباب ، والله الموفق للصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب السادس والخمسون

فى شكوى الزمان وانقلابه بأهله ، والصبر على المكاره ، والتسلى عن نوائب الدهر وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول : فى شكوى الزمان وانقلابه بأهله

روى عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال : « **ما من يوم ولا ليلة ولا شهر ولا سنة إلا والذى قبله خير منه** » [٦] سمعت ذلك من نبيكم ﷺ . وكان معاوية ﷺ يقول : معروف زماننا منكر زمان قد مضى ، ومنكره معروف زمان لم يأت . وكانت ناقة رسول الله ﷺ العضباء لا تُسْبَق فجاء أعرابى فسبقها فشقّ ذلك على الصحابة ﷺ فقال ﷺ « **إنّ حَقًّا عَلَى اللّهِ أنْ لا**

---

(١) عن على ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الله الخياط » . . إلخ . موضوع : أخرجه الديلمى كما فى « تنزيه الشريعة » . [٢/ ٣٨٨] ، وقال ابن عراق : « وإسناده ظلمات ، فيه الأصبغ ابن نباتة ، وعنه سعد بن طريف ، وفيه إسماعيل بن عباد الأرسوفى ، منكر الحديث » .

(٢) « أكذب أمتى الصواغون والصباغون » . موضوع : أخرجه ابن ماجه [٢٢٥٢] وأحمد [٢/ ٢٩٢ ، ٣٢٤ ، ٣٤٥] ، وانظر : « السلسلة الضعيفة» . برقم [١٤٤] ، للشيخ محمد ناصر الدين الألبانى ، وطبعت فى « المكتب الإسلامى » .

(٣) « التجار هم الفجار فقيل » . . إلخ . أخرجه الحاكم [٢/ ٧] .

(٤) الحاكة : جمع حائك والأساكفة جمع إسكاف والأول الخياط ، والثانى مصلح أحذية كما سبق .

(٥) الناطف : السائل من المائعات ، وضرب من الحلوى يصنع من اللوز والفستق ، ويسمى القبيط ، قال أبو نُواس:
يقول والناطف فى كفه ... من يشترى الحلو من الحلو ؟!

(٦) « ما من يوم ولا ليلة » . . إلخ . لم أهتد إليه . وهو يلتقى مع الحديث الصحيح « خير الناس قرنى » . . إلخ . [البخارى ٣/ ١٥٠].

يَرْفَعَ شَيْئًا مِنْ هٰذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ » [١] . وحكى عن شيخ من همدان قال : بعثنى أهلى فى الجاهلية إلى ذى الكلاع الحميرى بهدايا فمكثت شهراً لا أصل إليه ، ثم بعد ذلك أشرف إشرافة من كُوّة له فخرّ له من حول القصر سجداً ، ثم رأيته بعد ذلك وقد هاجر إلى حمص ، واشترى بدرهم لحما . وسمطه خلف دابته ، وهو القائل هذه الأبيات :

أفّ للدنيا إذا كانت كذا ... أنا منها فى بلاءٍ وأذى
إن صفا عيشُ امرئ فى صُبْحِها ... جَرّعته ممسيَا كأسَ الردى
ولقد كنتُ إذا ما قيل من ... أنعمُ العالم عيشاً قيل : ذا !

وقال يونس بن ميسرة : لا يأتى علينا زمان إلا بكينا منه ، ولا يتولى عنا زمان إلا بكينا عليه ومن ذلك قوله :

رب يوم بكيتُ منه فلما ... صرتُ فى غيره بكيت عليه !

ومثله :

وما مرّ يوم أرتجى فيه راحة ... فأخبرُه إلا بكيت على أمسى !

ومن كلام ابن الأعرابى :

عن الأيام عُد فعن قليل ... ترى الأيام فى صور الليالى

وقال على ﷺ : ما قال الناس لشىء : طوبى إلا وقد خبأ له الدهر يوم سوء ، وقال الشاعر :

فما الناسُ بالناسِ الذين عهدتُهم ... ولا الدارُ بالدارِ التى كنت أعهَدُ

ودخل داود عليه السلام غاراً فوجد فيه رجلاً ميتاً ، وعندَ رأسه لوح مكتوب فيه : أنا فلان ابن فلان الملك ، عشتُ ألف عام ، وبنيت ألفَ مدينة ، وافتضضت ألف بكر ، وهزمت ألف جيش ، ثم صار أمرى إلى أن بعثت زنبيلاً من الدراهم فى رغيف ، فلم يوجد ، ثم بعثت زنبيلاً من الجوهر ، فلم يوجد ، فدققت الجواهر واستفيتها فمت مكانى ، فمن أصبح وله رغيف ، وهو يحسب أن على وجه الأرض أغنى منه أماته الله كإماتتى ! . وذكر أن عبد الرحمٰن بن زياد لما ولى خراسان ، حاز من الأموال ما قدر لنفسه أنه إن عاش مائة سنة ينفق فى كل يوم ألف درهم على نفسه ، أنه يكفيه فرؤى بعد مدة ، وقد احتاج إلى أن باع حلية مصحفه ، وأنفقها .

وقال هيثم بن خالد الطويل : دخلت على صالح مولى منارة فى يوم شات وهو جالس فى قبة مغشاة بالسمور ، وجميع فروشها سمور ، وبين يديه كانون فضة ، يبخر فيه بالعود ، ثم رأيته بعد ذلك فى رأس الجسر وهو يسأل الناس .

ولما قتل عامر بن إسماعيل مروان بن محمد ، ونزل فى داره وقعد على فرشه ، دخلت عليه عبدة بنت مروان فقالت : ياعامر ، إن دهرًا أنزل مروان عن فرشه ، وأقعدك عليه ، لقد أبلغ فى عظتك ! وقال مالك بن دينار : مررت بقصر تضرب فيه الجوارى بالدفوف ، ويقلن :

ألا يادارُ لا يدخلك حزن ... ولا يغدر بصاحبك الزمانُ
فنعم الدارُ تأوى كلَّ ضيف ... إذا ما ضاق بالضيف المكانُ

ثم مررت عليه بعد حين وهو خراب ، وبه عجوز ، فسألتها عما كنت رأيت وسمعت ، فقالت : ياعبدَ الله إن الله يغير ولا يتغير ، والموت غالب كل مخلوق ، قد - والله - دخل بها الحزن ، وذهب بأهلها الزمان . وقال أبو العتاهية :

لئن كنتَ فى الدنيا بصيراً فإنما ... بلاغك منها مثلُ زادِ المسافر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينَه ... فما فاته منها فليس بضائر !

وقال عبد الملك بن عمير : رأيت رأسَ الحسين ﷺ بين يدى ابن زياد فى قصر الكوفة ، ثم رأيت رأس ابن زياد بين يدى المختار ، ثم رأيت رأس المختار ، بين يدى مصعب ، ثم رأيت رأس مصعب بين يدى عبد الملك . قال سفيان فقلت له : كم كان بين أوّل الرءوس وآخرها ؟ قال : اثنتا عشرة سنة ، وقال الشاعر :

---

(١) « وكانت ناقة رسول الله ﷺ العضباء لا تسبق » ... إلخ . أخرجه البخارى [٢٨٧٢] .

إن للدهر صرعة فاحذرنها ... لا تبيتن قد أمنت الشرورا
قد يبيتُ الفتى مُعافىً فيردَى ... ولقد كان آمنا مسرورا

وكان محمد بن عبد الله بن طاهر فى قصره على الدجلة ينظر فإذا هو بحشيش فى وسط الماء ، وفى وسطه قصبة على رأسها رقعة ، فدعا بها فإذا فيها مكتوب شعراً ، وهو للشافعى ﷺ :

تاه الأعيرجُ واستحلى به البطر ... فقل له : خير ما استعملته الحذرُ
أحسنتَ ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخفْ سوء ما يأتى به القدرُ !
وسالمتكَ الليالى فاغتررت بها ... وعند صفوِ الليالى يحدثُ الكدرُ

قال : فما انتفع بنفسه مدة ! . وأعجب ما وجد فى السير خبرُ القاهر أحد الخلفاء ، وقلعه من الملك ، وخروجه إلى الجامع فى بطانة جُبة بغير ظهارة ، ومدّ يده يسأل الناس ، بعد أن كان ملكه لأقطار الأرض ، فتبارك الله ! يعز من يشاء ويذل من يشاء ! . وقيل : كان لمحمد المهلبى قبل اتصاله بالسلطان حال ضعيف ، فبينما هو فى بعض أسفاره مع رفيق له من أصحاب الحرث والمحراث إلا أنه من أهل الأدب إذ أنشده يقول :

ألا مَوتٌ يُباعُ فأشتريه ... فهذا العيشُ ما لاَ خيرَ فيه
ألاَ رحمَ المهيمنُ نفسَ حرّ ... تصدق بالوفاة على أخيه

قال: فرثى له رفيقه ، وأحضر له بدرهم ما سد به رمقه ، وحفظ الأبيات ، وتفرقا ثم ترقى المهلبى إلى الوزارة ، وأخنى الدهر على ذلك الرجل الذى كان رفيقه ، فتوصل إلى إيصال رقْعة إليه مكتوب فيها .

ألا قُلْ للوزير فَدَتْه نفسى ... مقالا مذكرا ما قد نسيه
أتذكر إذ تقول لضنكِ عيشٍ ... ألا موتٌ يُباعُ فأشتريه

فلما قرأها تذكر ، فأمر له بسبعمائة درهم ، ووقع تحت رقعته : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ . [البقرة:٢٦١] ثم قلده عملاً يرتزق منه .

ودخل مسلمة بن زيد بن وهب على عبد الملك بن مروان ، فقال له : أى الزمان أدركته أفضل ؟ وأى الملوك أكمل ؟ فقال : أما الملوك فلم أر إلا حامدا وذاما ، وأما الزمان فيرفع أقواماً ويضع آخرين ، وكلهم يذكر أنه يبلى جديدهم ، ويفرق عديدهم ، ويهرم صغيرهم ، ويهلك كبيرهم ، وقال حبيب بن أوس :

لم أبكِ من زمنٍ لم أرض خُلّته ... إلا بكيتُ عليه حين ينصرمُ !

وقال آخر :

يامعرضا عنى بوجهٍ مدبر ... ووجوه دنياه عليه مُقبله
هل بعد حالك هذه من حالة ... أو غاية إلا انحطاط المنزله ؟

وقال عبد الله بن عروة بن الزبير :

ذهب الذين إذا رأونى مقبلاً ... بَشُّوا إلىّ ورَحّبُوا بالمقبل
وبقيت فى خَلفٍ كأن حديثَهم ... ولغُ الكلابِ تهارشتْ[1] فى المنزلِ

وقال آخر فى معناه :

يامنزلاً عبثَ الزمانُ بأهله ... فأبادهم بتفرّق لا يجمع
أين الذين عهدتُهم بك مرة ... كان الزمانُ بهم يضرّ وينفع ؟
أيام لا يغشى لذكرك مربع ... إلا وفيه للمكارم مرتع
ذهب الذين يُعاش فى أكنافهم ... وبقىَ الذين حياتُهم لا تنفع

(١) تهاشرت الكلاب: أي تقاتلت.

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي :

وإني رأيت الدهر منذ صحبته ... محاسنه مقرونةٌ ومعايبه
إذا سرني في أول الأمر لم أزل ... على حذرٍ من أن تذم عواقبه

وقال بعضهم :

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم ... والمنكرون لكل أمر مُنكَر
وبقيتُ في خلفٍ يُزَين بعضه ... بعضًا ليدفعَ مُعْوِرٌ[1] عن مُعْوِرِ

وكان يقال: إذا أدبر الأمر أتى الشر من حيث يأتي الخير . وكان يقال : بتقلب الدهر تعرف جواهر الرجال . ويقال : زمام العافية بيد البلاء ، ورأس السلامة تحت جناح العطب . وقال بعضهم : نحن في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدبارا ، والشر إلا إقبالاً ، والشيطان في هلاك الناس إلا طمعاً اضرب بطرفك حيث شئت ، هل تنظر إلا فقيرا يكابد فقرا ، أو غنياً بدل نعمة الله كفراً أو بخيلاً اتخذ بحق الله وفراً ، أو متمرداً كأن بسمعه عن سماع المواعظ وقرا ؟! . وقال آخر : نحن في زمان إذا ذكرنا الموتى حييت القلوب ، وإذا ذكرنا الأحياء ماتت القلوب ، ويؤيد ذلك قوله ﷺ : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ أَخِيهِ فَيَقُولُ : يَالَيْتَنِي مَكَانَه »[2] . ويقال : لا يقاوم عز الولاية بذل العزل:

ما من مُسيءٍ وإن طالت إساءته ... إلا ويكفيك يوم من مساعيه

وقال الأمين :

يانفس قد حق الحذر ... أين المفر من القدر ؟!
كل امرئ مما يخا ... ف ويرتجيه على خطر
من يرتشف صَفو الزما ... نِ يُغصَّ يوماً بالكدر

وقال بعضهم :

وقائلة ما بال وجهك قد نضت ... محاسِنُه والجسمُ بان شحوبه ؟!
فقلت لها : هاتي من الناس واحداً ... صفا وقتهُ والنائبات تنوبه

وللأمير أبي علي بن منقذ :

أما والذي لا يملك الأمرَ غيرُه ... ومن هو بالسر المكتم أعلمُ
لئن كان كتمانُ المصائب مؤلما ... لإعلانها عندي أشد وأعظم
وبي كل ما يبكي العيون أقله ... وإن كنت منه دائماً أتبسم

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : وايمُ الله ما كان قوم قط في خفض عيش، فزال عنهم، إلا بذنوب اقترفوها لأن الله تعالى ليس بظلّام للعبيد ، ولو أن الناس حين ينزل بهم الفقر ، ويزول عنهم الغنى ، فزعوا إلى ربهم بصدق نياتهم لرد عليهم كل شارد ، وأصلح لهم كل فاسد . قال الشاعر :

يقولون : الزمان به فساد ... وهم فسدوا وما فسد الزمان !

وكفى بالقرآن واعظاً. قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١] . والله سبحانه وتعالى أعلم .

الفصل الثاني :في الصبر على المكاره ومدح التثبت وذم الجزع

قد مدح الله تعالى الصبر في كتابه العزيز في مواضع كثيرة ، وأمر به ، وجعل أكثر الخيرات مضافاً إلى الصبر ،

---

(١) المُعْوِر: من الرجال، أي القبيح السِّيرة.

(٢) « لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل » . . إلخ . أخرجه مالك [١/ ٢٣٩] ، والبخاري [١٣/ ٦٣] ، ومسلم [٨/ ١٨٢ - نووي] ، وأحمد [٢/ ٢٣٦، ٥٣٠] ، وغيرهم .

وأثنى على فاعله ، وأخبر أنه سبحانه وتعالى معه ، وحث على التثبت فى الأشياء ومجانبة الاستعجال فيها ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة:١٥٣] فبدأ بالصبر قبل الصلاة ثم جعل نفسه مع الصابرين دون المصلين ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر:١٠]. وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ﴾[السجدة:٢٤] . وقوله تعالى : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ﴾[الأعراف:١٣٧] . وبالجملة ، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى الصبر فى كتابه العزيز ، فى نيف وسبعين موضعاً ، وأمر نبيه ﷺ به فقال تعالى : ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ﴾ .[(١)] وقد روى عن النبى ﷺ فى ذلك أخبار كثيرة ؛ فمن ذلك قوله ﷺ: « **النصر فى الصبر** »[(٢)] وقوله ﷺ : « **بالصبر يتوقع الفرج** »[(٣)] . وقوله : « **الأناة من الله تعالى ، والعجلة من الشيطان** »[(٤)] . فمن هداه الله تعالى بنور توفيقه ألهمه الصبر فى مواطن طلباته ، والتثبت فى حركاته وسكناته ، وكثيراً ما أدرك الصابر مرامه أو كاد ، وفات المستعجل غرضه أو كاد . وقال الأشعث بن قيس: دخلت على أمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺفوجدته قد أثر فيه صبره على العبادة الشديدة ليلاً ونهاراً ، فقلت : ياأمير المؤمنين، إلى كم تصبر على مكابدة هذه الشدة؟ فما زادنى إلا أن قال :

اصبر على مضض الإدلاج فى السحر ... وفى الرواح إلى الطاعات فى البكر
إنى رأيتُ وفى الأيام تجربةٌ ... للصبر عاقبةٌ محمودةُ الأثر
وقل مَنْ جَدّ فى أمرٍ يؤمّلهُ ... واستصحب الصبرَ إلا فاز بالظَّفر

فحفظتها منه ، وألزمت نفسى الصبر فى الأمور ، فوجدت بركة ذلك ، وعن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضي الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال : « **مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ ، وَلَا أَذًى ، وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا حَطَّ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ** »[(٥)] . وعن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « **إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا ، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة** »[(٦)] . وقال ﷺ: « **إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ ، مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا ، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ** » رواه الترمذى . وقال : حديث حسن . وعن إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة عن أنس بن مالك قال : قال النبى ﷺ: « **الضرب على الفخذ عند المصيبة يحبط الأجر ، والصبر عند الصدمة الأولى ، وعظم الأجر على قدر المصيبة ، ومن استرجع بعد مصيبته جدد الله له أجرها كيوم أصيب بها** »[(٧)] . وروى عن على بن أبى طالب ﷺأنه قال : « **احفظوا عنى خمساً ، ثنتين ، وثنتين وواحدة لا يخافن أحدكم إلا ذنبه ، ولا يرجو إلا ربه ، ولا يستحيى أحد منكم إذا سئل عن شيء ، وهو لا يعلم ، أن يقول : لا أعلم ، واعلموا أن الصبر من الأمور بمنزلة الرأس من الجسد إذا فارق الرأس الجسد فسد الجسد ، وإذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور ، وأيما رجل حبسه السلطان ظلماً فمات فى حبسه مات شهيداً ، فإن ضربه فمات فهو شهيد** » . وروى فى الخبر لما نزل قوله تعالى : ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[النساء:١٢٣] . قال أبو بكر الصديق ﷺ يا رسول الله كيف الفرح بعد هذه الآية ؟ فقال رسول الله ﷺ: « **غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَاأَبَا بَكْرٍ ، أَلَيْسَ تَمْرَضُ ؟ أَلَيْسَ يُصِيبُكَ**

---

(١) الأحقاف : [٣٥] . وبالرجوع إلى المصحف المفهرس نجد أن « الصبر » جاء فى نيف وتسعين موضعاً وليس كما ذكر المصنف.

(٢) « النصر فى الصبر » ضعيف : أخرجه العقيلى [٣/ ٣٩٧- ٣٩٨] والطبرانى فى « المعجم الكبير » [١١/ ١٢٣] ، والحاكم [٣/ ٥٤٢] ضمن حديث طويل لابن عباس ،وفى سنده عيسى بن محمد ، ضعيف .

(٣) « بالصبر يتوقع الفرج » لم أقف عليه .

(٤) الأناة من الله - تعالى - . . . إلخ ذكره العجلونى فى كشف الخفاء برقم [٩٤٣/ ١] بلفظ التأنى . أخرجه البيهقى ورواه ابن أبى شيبة وأبو يعلى ، وله شواهد عند الترمذى ، وقال حسن غريب بلفظ « الأناة من الله والعجلة من الشيطان » والعسكرى عن سهل بن سعد رفعه لكن ضعفه بعضهم.

(٥) « ما يصيب المؤمن من نصب » . . . إلخ رواه مسلم باب ما يصيب المؤمن من العصب والحزن [مسلم ٨/ ١٦] بلفظ « مايصيب المؤمن من وصَب ولا نصب وسقم ولا حزن حتى الهم يهمه إلا كفر به من سيئاته » .

(٦) « إذا أراد الله بعبده الخير عجل له » . . . إلخ ضعيف : أخرجه الطبرانى فى « المعجم الكبير » [١١/ ٣١٣] برقم [١١٨٤٢] ، وقال الهيثمى فى «مجمع الزوائد » [١٠/ ١٩١-١٩٢] : « وفيه عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمى ، وهو ضعيف » .

(٧) « الضرب على الفخذ عند المصيبة » . . . إلخ لم أقف عليه .

الأذى ؟ أليس تحزن ؟ » قال : بلى يا رسول الله ! قال : « فهذا ما تجزون به »[١] يعنى : جميع ما يصيبك من سوء يكون كفارة لك وبهذا اتضح لك أن العبد لا يدرك منزلة الأخيار إلا بالصبر على الشدة والبلاء .

وروى عن ابن مسعود ﷺ أنه قال : بينما رسول الله ﷺ يصلى عند الكعبة ، وأبو جهل وأصحابه جلوس ، وقد نحرت جزور بالأمس ، فقال أبو جهل : - لعنه الله - أيكم يقوم إلى سَلا الجَزُورِ فيُلقيه على كتفى محمد إذا سجد ، فانبعث أشقى القوم ، فأخذه وأتى به فلما سجد ﷺ ، وضع بين كتفيه السلا[٢] ، والفرث ، والدم فضحكوا ساعة ، وأنا قائم أنظر ، فقلت : لو كان لى منعة لطرحته عن ظهر رسول الله ﷺ والنبى ﷺ ساجد ما يرفع رأسه ، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة رضي الله عنها فجاءت فطرحته عن ظهره ، ثم أقبلت عليهم فسبتهم ، فلما قضى ﷺ الصلاة رفع يديه ، فدعا عليهم فقال : « اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ » ثلاث مرات فلما سمع القوم صوته ودعاءه ، ذهب عنهم الضحك ، وخافوا دعوته ، فقال : « اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِى جَهْلٍ ، وَعُتْبَةَ ، وَشَيْبَةَ ، وَرَبِيعَةَ ، وَالْوَلِيدِ ، وَأُمَيَّةَ بنِ خَلَفٍ » . فقال على ﷺ : والذى بعث محمدًا بالحق ، رأيت الذين سماهم صرعى يوم بدر[٣] . وكان الصالحون يفرحون بالشدة لأجل غفران الذنوب ، لأن فيها كفارة السيئات ورفع الدرجات ، وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ثلاث مَنْ رُزِقَهُنَّ فقد رُزق خيرى الدنيا والآخرة : الرضا بالقضاء ، والصبر على البلاء ، والدعاء فى الرخاء »[٤] .

وحكى أن امرأة من بنى إسرائيل لم يكن لها إلا دجاجة ، فسرقها سارق ، فصبرت ، وردت أمرها إلى الله تعالى ، ولم تدع عليه ، فلما ذبحها السارق ، ونتف ريشها نبت جميعه فى وجهه ، فسعى فى إزالته ، فلم يقدر على ذلك إلى أن أتى حَبْراً من أحبار بنى إسرائيل ، فشكا له ، فقال : لا أجد لك دواء إلا أن تدعو عليك هذه المرأة ، فأرسل إليها من قال لها : أين دجاجتك ؟ فقالت : سرقت : فقال : لقد آذاك من سرقها ، قالت : قد فعل ، ولم تدع عليه ، قال : وقد فجعك فى بيضها ، قالت : هو كذلك ، فما زال بها حتى أثار الغضبَ منها فدعت عليه ، فتساقط الريش من وجهه ، فقيل لذلك الحبر : من أين علمت ذلك ؟ قال : لأنها لما صبرت ، ولم تدع عليه ، انتصر الله لها ، فلما انتصرت لنفسها ، ودعت عليه سقط الريش من وجهه ، فالواجب على العبد أن يصبر على ما يصيبه من الشدة ، ويحمد الله تعالى ، ويعلم أن النصر مع الصبر ، وأن مع العسر يسرا وأن المصائب والرزايا إذا توالت أعقبها الفرج ، والفرح عاجلا . ومن أحسن ما قيل فى ذلك المنظوم :

وإذا مسّك الزمانُ بضُرٍّ ... عظُمت دونه الخطوبُ وجلّت
وأتت بعده نوائبُ أخرى ... سئمت نفسُك الحياةَ وملّت
فاصطبر ، وانتظر بلوغ الأمانى ... فالرزايا إذا توالت تولت
وإذا أوهنتْ قُواك وجلّت ... كشفت عنك جملةً وتخلّت

ولمحمد بن بشر الخارجى :

إن الأمور إذا استدت مسالكها ... فالصبر يفتح منها كل ما رُتجا
لا تيأسن وإن طالت مطالبة ... إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

ولزهير بن أبى سلمى :

ثلاث يعز الصبر عند حلولها ... ويَذهل عنها عقلُ كلّ لبيب
خروجُ اضطرارٍ من بلاد يُحبها ... وفرقة إخوان ، وفقد حبيب !

وقال بعضهم :

عليك بإظهار التجلّد للعدا ... ولا تظهرنْ منك الذبولَ فتُحقرا

---

(١) روى فى الخبر ... إلخ أخرج بعضه مسلم [١٧٥] ، وأخرجه البيهقى فى « دلائل النبوة » [١/٢٦٦ برقم ٢٠٠] .

(٢) السَّلا: غِشاء رقيق يحيط بالجنين ويخرج معه من بطه أمّه.

(٣) بينما رسول الله ﷺ يصلى عند الكعبة ... إلخ رواه الشيخان : البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود .

(٤) « ثلاث من رزقهن » ... إلخ لم أهتد إليه .

أما تنظر الريحانَ يشمُم ناضرا ... ويُطرحُ في البَيْدَا إذا ما تغيرا

ولابن نباتة :

صبرًا على نُوب[1] الزما ... ن وإن أبى القلبُ الجريح
فلكل شيء آخر ... إما جميلٌ أو قبيح

وقال أبو الأسود وأجاد :

وإن امرأ قد جرّب الدهر لم يخف ... تقلب عصريه لَغيرُ لبيب
وما الدهر والأيام إلا كما ترى ... رزية مالٍ أو فراقُ حبيب

ومن كلام الحكماء : ما جوهد الهوى بمثل الرأى ، ولا استنبط الرأى بمثل المشورة ، ولاحفظت النعم بمثل المواساة ، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبر ، وما استنجحت الأمور بمثل الصبر ، وقال نهشل :

ويوم كأن المصطلين بحره ... وإن لم يكن نار قيام على الجمر
صبرنا له صبرًا جميلاً وإنما ... تفرج أبوابُ الكريهة بالصبر

وقال ابن طاهر :

حذرتني وذا الحذر ... ليس يُغني من القدر
ليس من يكتم الهوى ... مثلُ من باح واشتهر
إنما يَعرفُ الهوى ... مَن عَلى مُره صَبَر
نفس يا نفس فاصبري ... فاز بَالصبر مَنْ صَبَر

وكان يقال : من تبصر تصبر . وكان يقال : إن نوائب الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر وكان يقال : لا دواء لداء الدهر إلا بالصبر ، ولله در القائل :

الدهر أدّبني ، والصبر ربّاني ... والقوت أقنعني ، واليأس أغناني
وحنكتني من الأيام تجربة ... حتى نهيت الذى قد كان يَنْهانِي

وما أحسن ما قال محمود الوراق :

إني رأيت الصبر خيرَ مُعَوّل ... في النائبات لمن أراد مُعَوّلا
ورأيت أسباب القناعة أكدَتْ ... بعُرى الغنى فجعلتها لى معقلا
فإذا نبا بى منزل جاوزتُه ... وجعلت منه غيرَه لى منزلا
وإذا غلا شيء على تركته ... فيكون أرخصَ ما يكونُ إذا غلا

وقال بعضهم :

إذا ما أتاك الدهر يوماً بنكبة ... فأفرغ لها صبراً ووسع لها صَدْرا
فإن تصاريفَ الزمان عجيبةٌ ... فيومًا ترى يسرًا ويوماً ترى عُسْرا

وقال بعضهم :

وما مسني عسرٌ ففوّضت أمره ... إلى الملك الجبار إلا تيسرا

وما أحسن ما قيل :

الدهرُ لا يَبقَى على حالةٍ ... لابدّ أن يُقبِلَ أو يُدبر
فإن تلقاك بمكروهه ... فاصبر فإن الدهر لا يَصْبِر

---

(١) أي النازلة، أو المصيبة.

ونقل عن محمد بن الحسن - رحمه الله تعالى - قال : كنت معتقلاً بالكوفة فخرجت يوما من السجن مع بعض الرجال ، وقد زاد همى ، وكادت نفسى أن تزهق ، وضاقت على الأرض بما رحبت ، وإذا برجل عليه آثار العبادة قد أقبل على ، ورأى ما أنا فيه من الكآبة فقال : ما حالك ؟ فأخبرته القصة ، فقال : الصبرَ الصبرَ فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « الصبر ستر للكروب ، وعون على الخطوب »[١] . وروى عن ابن عمه على ﷺ أنه قال : الصبر مطية لا تُدْبر ، وسيف لا يكل ، وأنا أقول :

ما أحسنَ الصبرَ فى الدنيا وأجملَه ... عند الإله وأنجاهُ من الجزَعِ
من شد بالصّبر كفًا عند مُؤلمةٍ ... ألوتْ يَداه بحَبْل غير مُنقَطِعِ

فقلت له : بالله عليك زدنى ، فقد وجدت بك راحة ، فقال : ما يحضرنى شىء عن النبى ﷺ ، ولكنى أقول :

أما والذى لا يعلم الغيبَ غيرهُ ... ومن ليسَ فى كلّ الأمور له كُفْوُ
لئن كان بدءُ الصبرِ مرًا مذاقُه ... لقد يُجتَنى من بعده الثَّمَرُ الحُلْوُ

ثم ذهب فسألت عنه ، فما وجدت أحداً يعرفه ، ولا رآه أحد قبل ذلك فى الكوفة ، ثم أخرجت فى ذلك اليوم من السجن ، وقد حصل لى سرور عظيم بما سمعت منه ، وانتفعت به ووقع فى نفسى أنه من الأبدال[٢] الصالحين ، قيضه الله تعالى لى ، يوقظنى ، ويؤدبنى ، ويسلينى ، وقيل : إن رجلاً كان يضرب بالسياط ، ويجلد جَلْدًا بليغاً ولم يتكلم ، ويصبر ، ولم يتأوه ، فوقف عليه بعض مشايخ الطريقة فقال له : أما يؤلمك هذا الضرب الشديد ؟ فقال : بلى . قال : لم لا تصيح ؟ فقال : إن فى هؤلاء القوم الذين وقفوا على صديقًا لى يعتقد فىّ الشجاعة والجلادة ، وهو يرقبنى بعينه ، فأخشى أن صِحْت يذهب ماء وجهى عنده ويسوء ظنه بى ، فأنا أصبر على شدة الضرب ، وأحتمله لأجل ذلك . قال الشاعر :

على قدر فضلِ المرء تأتى خطوبُه[٣] ... ويُحمَد منه الصبرُ مما يُصيبه
فمن قلّ فيما يلتقيه اصطبارُه ... لقد قل فيما يرتجيه نصيبُه

وقال رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها : « ياعائشة إن الله تعالى لم يرضَ من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر ، ولم يكلفنى إلا ما كلفوا به فقال عز وجل : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ وإنى والله لأصبرن كما صبروا »[٤] . فإن النبى ﷺ لما صبر كما أمر ، أسفر وجه صبره عن ظفره ونصره ، وكذلك الرسل عليهم السلام الذين هم أولو العزم ، لما صبروا ظفروا وانتصروا ، وقد اختلف أهل العلم فيهم على أقوال كثيرة فقال مقاتل رحمه الله هم نوح ، وإبراهيم ، وإسحاق ، ويعقُوب ، ويونس ، وأيوب عليهم السلام . وقال قتادة : هم نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى عليهم السلام . ويقال : ما الذى صبروا عليه حتى سماهم الله تعالى أولى العزم ؟ فأقول : ذكر ما صبروا عليه . أما نوح عليه السلام : فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان نوح عليه السلام يُضرب ، ثم يلف فى لبد ، ويُلقى فى بيته يرون أنه قد مات ، ثم يعود ، ويخرج إلى قومه ، ويدعوهم إلى الله تعالى ، ولما أيس منهم ومن إيمانهم جاءه رجل كبير ، يتوكأ على عصاه ، ومعه ابنه فقال لابنه : يابنى انظر إلى هذا الشيخ واعرفه ، ولا يغرك ، فقال له ابنه : ياأبت مكنى من العصا فأخذها من أبيه ، وضرب بها نوحاً عليه السلام شَج بها رأسَه ، وسال الدم على وجهه ، فقال : « رب قد ترى ما يفعل بى عبادك ، فإن يكن لك فيهم حاجة فاهدهم ، وإلا فصبرنى إلى أن تحكم » . فأوحى الله تعالى إليه : ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ ﴾[٥] . قال : « يارب وما الفلك ؟ » . قال : « بيت من خشب يجرى على وجه الماء أنجى فيه أهل طاعتى ، وأغرق أهل معصيتى » . قال : « يارب وأين الماء ؟ » قال : « أنا على كل شىء

---

(١) « الصبر ستر للكروب ، وعون على الخطوب » لم أقف عليه .

(٢) الأبدال : الزّهاد عند الصوفية لقب يطلقونه على رجال الطبقة من مراتب السلوك عندهم وقال ابن القيم : أحاديث الأبدال والأقطاب والأغواث والنقباء ، والنجباء ، والأوتاد كلها باطلة على رسول الله ﷺ .

(٣) خطوب: جمع خَطْب، وهو الحال والشأن. قال تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [الحجر: ٥٧].

(٤) يا عائشة : إن الله - تعالى - لم يرض من أولى العزم إلخ أخرجه ابن أبى حاتم كما فى « الدر المنثور » للسيوطى [٦/ ٤٥] . والآية رقم [٣٥] من سورة الأحقاف .

(٥) ارجع إلى تفسير هذه الآية رقم [٣٦] وما بعدها من سورة هود فى ابن كثير والطبرى .

قدير » قال : « **يارب وأين الخشب ؟** » قال : « **اغرس الخشب** » فغرس الساج عشرين سنة ، وكف عن دعائهم ، وكفوا عن ضربه إلا أنهم كانوا يستهزئون به ، فلما أدرك الشجر ، أمره ربه فقطعها ، وجففها وقال : « **يارب كيف اتخذ هذا البيت ؟** » قال : « **اجعله على ثلاث صور** » وبعث الله له جبريل فعلمه ، وأوحى الله تعالى إليه أن عجل بعمل السفينة فقد اشتد غضبى على من عصانى ، فلما فرغت السفينة جاء أمر الله - سبحانه وتعالى - بانتصار نوح ونجاته ، وإهلاك قومه وعذابهم ، إلا من آمن معه ، وفار التنور ، وظهر الماء على وجه الأرض ، وقذفت السماء بأمطار كأفواه القرب ، حتى عظم الماء ، وصارت أمواجه كالجبال ، وعلا فوق أعلى جبل فى الأرض أربعين ذراعاً ، وانتقم الله - سبحانه وتعالى - من الكافرين ، ونصر نبيه نوحاً عليه السلام وفى تمام قصته وحديث السفينة كلام مبسوط لأهل التفسير ليس هذا موضع شرحه وبسطه ، فهذا زبدة صبر نوح عليه السلام وانتصاره على قومه .

وأما إبراهيم عليه السلام : فإنه لما كسر أصنام قومه التى كانوا يعبدونها لم يروا فى قتله ونصرة آلهتهم أبلغ من إحراقه ، فأخذوه وحبسوه ببيت ، ثم بنوا حائزا كالحوش ، طول جداره ستون ذراعاً ، إلى سفح جبل عال ، ونادى منادى ملكهم أن احتطبوا لإحراق إبراهيم ، ومن تخلف عن الاحتطاب أحرقه ، فلم يتخلف منهم أحد وفعلوا ذلك أربعين يوما ليلاً ونهاراً ، حتى كاد الحطب يساوى رءوس الجبال وسدوا أبواب ذلك الحائز ، وقذفوا فيه النار ، فارتفع لهبها حتى كان الطائر يمر بها فيحترق من شدة لهبها ثم بنوا بنيانا شامخاً ، وبنوا فوقه منجنيقاً[1] ثم رفعوا إبراهيم على رأس البنيان ، فرفع إبراهيم عليه السلام طرفه إلى السماء ودعا الله تعالى وقال : « **حسبى الله ونعم الوكيل** » . وقيل كان عمره يومئذ ستاً وعشرين سنة فنزل إليه جبريل عليه السلام وقال : « **ياإبراهيم ، ألك حاجة ؟** » **قال** : « **أما إليك فلا** » ، فقال جبريل : « **سل ربك** » ، فقال : « **حسبى من سؤالى علمه بحالى** » ، فقال الله تعالى : ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[2] . فلما قذفوه فيها نزل معه جبريل عليه السلام فجلس به على الأرض ، وأخرج الله له ماء عذباً ، قال كعب : ما أحرقت النار غير كتافه ، وأقام فى ذلك الموضع سبعة أيام ، وقيل : أكثر من ذلك ، ونجاه الله تعالى ، ثم أهلك نمروذ وقومه بأخس الأشياء ، وانتقم منهم ، وظفر إبراهيم عليه السلام بهم ، فهذه ثمرة صبره ، على مثل هذه الحالة العظمى ، ولم يجزع منها ، وصبر وفوّض أمره إلى الله تعالى فى ذلك ، وتوكل عليه ووثق به . ثم جاءته قصة ذبح ولده ، وأمره الله تعالى بذلك ، فقابل أمره بالتسليم والامتثال ، وسارع إلى ذبحه من غير إهمال ولا إمهال وقصته مشهورة . وتفاصيل القصة فى كتب التفسير مسطورة ، فلما ظهر صدقه ورضاه ، ومبادرته إلى طاعة مولاه ، وصبره على ما قدره وقضاه ، عوّضه الله تعالى عن ذبح ولده أن فداه ، واتخذه خليلاً من بين خلقه واجتباه .

وأما الذبيح صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه صبر على بلية الذبح . وتلخيصها : أن الله تعالى لما ابتلى إبراهيم عليه السلام بذبح ولده قال : إنى أريد أن أقرب قرباناً ، فأخذ ولده والسكين والحبل ، وانطلق فلما دخل بين الجبال قال ابنه : أين قربانك ياأبت ؟ قال : إن الله تعالى قد أمرنى بذبحك : ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] يا أبت أشدد وثاقى كى لا أضطرب ، واجمع ثيابك حتى لا يصل إليها رشاش الدم ، فتراه أمى ، فيشتد حزنها ، وأسْرِع إمرار السكين على حلقى ، ليكون أهون للموت على ، وإذا لقيت أمى فاقرأ السلام عليها ؛ فأقبل إبراهيم عليه السلام على ولده يُقَبّله ويَبْكى ويقول : نعم العون أنت يابنى ، على ما أمر الله تعالى ! قال مجاهد : لما أَمَرّ السكين على حلقه انقلبت السكين ، فقال : ياأبت اطعن بها طعنًا . وقال السدى : جعل الله حلقه كصفيحة من نحاس ، لا تعمل فيها السكين شيئاً فلما ظهر فيهما صدق التسليم ، نودى أن ياإبراهيم هذا فداء ابنك ، فأتاه جبريل عليه السلام بكبش أملح فأخذه ، وأطلق ولده ، وذبح الكبش ؛ فلا جرم أن جعل الذبيح نبياً بصبره وامتثاله لأمره ! .

وأما يعقوب عليه السلام : فإنه لما ابتلى بفراق ولده ، وذهاب بصره ، واشتداد حزنه قال : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ٨٣] وكذلك يوسف عليه السلام لما ابتلاه الله تعالى بإلقائه فى ظلمة الجب ، وبيعه كما تباع العبيد ، وفراقه لأبيه ، وإدخاله السجن ، وحبسه فيه بضع سنين ، وأنه تلقى ذلك كله بصبره ، وقبوله ، فلا جرم أورثهما صبرهما جمع شملهما ،

---

(١) المنجنيق : آلة من آلات الحصار قديماً . كانت ترمى بها حجارة ثقيلة على الأسوار فتهدمها [مؤنثة] .

(٢) الأنبياء : [٦٩] . ارجع إلى ابن كثير فى تفسير هذه الآية وما بعدها وإلى الدر المنثور للسيوطى .

واتساع القدرة بالملك فى الدنيا مع ملك النبوّة فى الآخرة . وأما أيوب عليه السلام : فإنه ابتلاه الله تعالى بهلاك أهله وماله ، وتتابع المرض المزمن ، والسقم المهلك حتى أفضى أمره إلى ما تضعف القوى البشرية عن حمله .

ولنذكر شيئاً مختصراً من ذلك ؛ وهو أن ملكاً من ملوك بنى إسرائيل كان يظلم الناس ، فنهاه جماعة من الأنبياء عن الظلم ، وسكت عنه أيوب عليه السلام فلم يكلمه ، ولم ينهه لأجل خيل كانت له فى مملكته ، فأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام تركت نهيه عن الظلم لأجل خيلك ؟! لأطيلن بلاءك ، فقال إبليس - لعنه الله - : يارب سلطنى على أولاده وماله ، فسلطه ، فبث إبليس مردته من الشياطين ، فبعث بعضهم إلى دوابه ورعاتها ، فاحتملوها جميعاً ، وقذفوها فى البحر ، وبعث بعضهم إلى زرعه وجنانه فأحرقوها ، وبعث بعضهم إلى منازله ، وفيها أولاده ، وكانوا ثلاثة عشر ولداً ، وخدمه وأهله ، فزلزلوها ، فهلكوا ، ثم جاء إبليس إلى أيوب عليه السلام وهو يصلى ، فتمثل له فى صورة رجل من غلمانه ، فقال : ياأيوب ، أنت تصلى ، ودوابك ، ورعاتك قد هبت عليها ريح عظيمة ، وقذفت الجميع فى البحر ، وأحرقت زرعك ، وهدمت منازلك على أولادك وأهلك ، فهلك الجميع ! ما هذه الصلاة ؟! فالتفت إليه ، وقال : الحمدلله الذى أعطانى ذلك كله ، ثم قبله منى ، ثم قام إلى صلاته فرجع إبليس ثانياً فقال : يارب ، سلطنى على جسده فسلطه فنفخ فى إبهام رجله ، فانتفخ ولا زال يسقط لحمه من شدة البلاء إلى أن بقى أمعاؤه تبين ، وهو مع ذلك كله صابر محتسب ، مفوض أمره إلى الله تعالى ، وكان الناس قد هجروه ، واستقذروه وألقوه خارجاً عن البيوت من نتن ريحه[1] وكانت زوجته رحمة بنت يوسف الصديق ، قد سلمت فترددت إليه متفقدة ، فجاءها إبليس يوماً فى صورة شيخ ومعه سخلة[2] ، وقال لها : يذبح أيوب هذه السخلة على اسمى فيبرأ ، فجاءته فأخبرته ، فقال لها : إن شفانى الله تعالى لأجلدنك مائة جلدة ، تأمرينى أن أذبح لغير الله تعالى ؟! فطردها عنه فذهبت وبقى ليس له من يقوم به ، فلما رأى أنه لا طعام له ، ولا شراب ، ولا أحد من الناس ، يتفقده خرّ ساجداً لله تعالى ، وقال : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣] . فلما علم الله تعالى منه ثباته على هذه البلوى ، طول هذه المدة ، وهى على ما قيل ثمان عشرة سنة ، وقيل : غير ذلك ، وإنه تلقى جميع ذلك بالقبول ، وما شكا إلى مخلوق ما نزل به عاد الله تعالى بألطافه عليه ، فقال تعالى : ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الأنبياء:٨٤] وأفاض عليه من نعمه ، ما أنساه به بلوى نقمه ، ومنحه من أقسام كرمه ، أن أفتاه فى يمينه تحلة قسمه ، ومدحه فى نص الكتاب ، فقال تعالى : ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤] . فلو لم يكن الصبر من أعلى المراتب . وأسنى المواهب لما أمر الله تعالى به رسله ذوى الحزم ، وسماهم بسبب صبرهم أولى العزم ، وفتح لهم بصبرهم أبواب مرادهم وسؤالهم ، ومنحهم من لدنه غاية أمرهم ومأمولهم ومرامهم ، فما أسعد من اهتدى بهداهم ، واقتدى بهم ، وإن قصر عن مداهم .

وقيل : العُسْر يعقبه اليسر ، والشدة يعقبها الرخاء ، والتعب يعقبه الراحة ، والضيق يعقبه السعة ، والصبر يعقبه الفرج ، وعند تناهى الشدة تنزل الرحمة ، والموفق من رزقه صبراً وأجرا ، والشقى من ساق القدر إليه جزعاً ووزراً . ومما شنف السمع من نجح هذه الإشارة ، وأتحف النفع فى نهج هذه العبارة ، ما روى عن الحسن البصرى رحمه الله قال : كنت بواسط فرأيت رجلاً كأنه قد نبش من قبر ، فقلت : مادهاك ياهذا ؟! فقال : اكتم على أمرى ! حبسنى الحجاج منذ ثلاث سنين ، فكنت فى أضيق حال ، وأسوأ عيش ، وأقبح مكان ، وأنا مع ذلك كله صابر لا أتكلم فلما كان بالأمس ، أخرجت جماعة كانوا معى ، فضربت رقابهم ، وتحدث بعض أعوان السجن أن غداً تضرب عنقى ، فأخذنى حزن شديد ، وبكاء مفرط ، وأجرى الله تعالى على لسانى ، فقلت : إلهى اشتد الضر ، وفقد الصبر ، وأنت المستعان ، ثم ذهب من الليل أكثره ، فأخذتنى غشية وأنا بين اليقظان والنائم ، إذ أتانى آت ، فقال لى : قم فصل ركعتين : وقل : يامن لا يشغله شىء عن شىء ، يامن أحاط علمه بما ذرأ وبرأ ، أنت عالم بخفيات الأمور ، ومحصى

---

(١) مثل هذا الكلام لا يناسب ما أحاط به الله أنبياءه من تكريم فهو رسول الله إلى الناس وللرسول هيبته وكرامته ! وارجع إلى تفسير ابن كثير والطبرى لتعرف وجه الصواب فيما يحكى من إسرائيليات وأساطير حول اختباره ومرضه .

(٢) السخلة : الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة ولد .

وساوس الصدور ، وأنت بالمنزل الأعلى ، وعلمك محيط بالمنزل الأدنى ، تعاليت علواً كبيراً ، يامغيث أغثنى وفك أسرى ، واكشف ضرى ، فقد نفد صبرى ، فقمت وتوضأت فى الحال ، وصليت ركعتين ، وتلوت ما سمعته منه ، ولم تختلف على منه كلمة واحدة ، فما تم القول حتى سقط القيد من رجلى ، ونظرت إلى أبواب السجن ، فرأيتها قد فتحت ، فقمت فخرجت ، ولم يعارضنى أحد ، فأنا والله طليق الرحمٰن ، وأعقبنى الله بصبرى فرجا ، وجعل لى من ذلك الضيق مخرجا ، ثم ودعنى وانصرف يقصد الحجاز . وفيما يروى عن الله تعالى أنه أوْحَى إلى داود عليه السلام « (١) ياداود، من صبر علينا وصل إلينا » . وقال بعض الرواة : دخلت مدينة يقال لها « دقار » فبينما أنا أطوف فى خرابها إذ رأيت مكتوباً بباب قصر خرب ، بماء الذهب واللازورد ، هذه الأبيات :

يامن ألح عليه الهمّ والفكرُ ... وغيرت حالَه الأيامُ والغِيَرُ
أمَا سمعتَ لما قد قِيلَ فى مثل ... عند الإياس فأين الله والقدر ؟!
ثم الخطوب إذا أحداثها طرقت ... فاصبر فقد فاز أقوام بما صبروا
وكل ضيق سيأتى بعده سعةٌ ... وكل فوتٍ وشيكٌ بعده الظفرُ

ولما حبس أبو أيوب فى السجن خمس عشرة سنة ضاقت حيلته ، وقل صبره فكتب إلى بعض إخوانه يشكو إليه طولَ حبسِه ، وقلّة صبره ، فرد عليه جواب رقعته : يقول :

صبرًا أبا أيوب صبر مبرّح ... وإذا عجزتَ عن الخطوب فمن لها ؟
إن الذى عقد الذى انعقدت به ... عقد المكاره فيك يملك حلها
صبراً فإن الصبر يعقبُ راحةً ... ولعلها أن تنجلى ولعلها

فأجابه أبو أيوب يقول :

صبّرتَنى ووعظتَنى وأنا لَها ... وستنجلى بل لا أقول : لعلها
ويحلها من كان صاحب عقدها ... كرمًا به إذ كان يملكُ حلَّها

فما لبث بعد ذلك أياماً حتى أُطلِقَ مُكَرّمًا وأنشدوا :

إذا ابتُليتَ فثِقْ بالله وارضَ به ... إن الذى يكشفُ البَلْوىٰ هو اللهُ
اليأس يقطعُ أحياناً بصاحبه ... لا تيأسَنّ فإن الصانعَ اللهُ
إذا قضى اللهُ فاستسلم لقدرتِه ... فما ترى حيلةً فيما قضى الله !

الفصل الثالث : من هذا الباب فى التأسّى فى الشدة والتسلى عن نوائب الدهر

قال الثورى - رحمه الله تعالى - لم يفقه عندنا من لم يعدّ البلاء نعمة ، والرخاء مصيبة . وقيل : الهموم التى تعرض للقلوب كفارات للذنوب . وسمع حكيم رجلاً يقول لآخر : لا أراك الله مكروها ، فقال : كأنك دعوت عليه بالموت ، فإن صاحبَ الدنيا لابد له أن يرى مكروهاً ! وتقول العرب : ويلٌ أهونُ من ويلين ! وقال ابن عيينة : الدنيا كلها غموم ، فما كان فيها من سرور فهو ربح ! وقال العتبى : إذا تناهى الغم ، انقطع الدمع ، بدليل أنك لا ترى مضروباً بالسياط ولا مقدماً لضرب العنق يبكى .

وقيل : تزوج مغن بنائحة ، فسمعها تقول : اللهم أوسع لنا فى الرزق ، فقال لها : ياهذه ، إنما الدنيا فرح وحزن ، وقد أخذنا بطرفى ذلك ، فإن كان فرح دَعَوْنى ، وإن كان حزن دعوك .

وقال وهب بن منبه : إذا سُلِكَ بك طريق البلاء ، سلك بك طريق الأنبياء ! وقال مطرف: ما نزل بى مكروه قط فاستعظمته إلا ذكرت ذنوبى فاستصغرته .

---

(١) وفيما يروى عن الله - تعالى - أنه أوحى إلى داود عليه السلام : « يا داود من صبر » .. إلخ . لم أهتد إليه .

وعن جابر بن عبد الله ﷺ يرفعه : « يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ لُحُومَهُمْ كَانَتْ تُقْرَضُ بِالْمَقَارِيضِ ، لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ثَوَابِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَهْلِ الْبَلاءِ »[١] . روى أبو عتبة عن النبى ﷺ قال : « إذا أحب الله عبداً ابتلاه ، فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه » قالوا : وما اقتناه ؟ قال : « لا يترك له مالاً ولا ولداً »[٢] .

ومر موسى ﷺ برجل كان يعرفه مطيعاً لله - عز وجل - قد مزقت السباع لحمه ، وأضلاعه وكبده ، ملقاة على الأرض فوقف متعجباً فقال : أى رب عبدك ابتليتَه بما أرى ، فأوحى الله تعالى إليه أنه سألنى درجة لم يبلغها بعمله ، فأحببت أن أبتليه لأبلغه تلك الدرجة[٣] .

وكان عروة بن الزبير صبوراً حين ابتلى ! حكى أنه خرج إلى الوليد بن يزيد فوطئ عظما ، فما بلغ إلى دمشق حتى بلغ به كل مذهب ، فجمع له الوليد الأطباء فأجمع رأيهم على قطع رجله فقالوا له : اشرب مُرْقِدًا[٤] . فقال : ما أحب أن أغفل عن ذكر الله تعالى ، فأحمى له المنشار وقطعت رجله ، فقال : ضعوها بين يدى ، ولم يتوجع ، ثم قال : لئن كنت ابتليت فى عضو ، فقد عوفيت فى أعضاء، فبينما هو كذلك إذ أتاه خبر ولده أنه اطلع من سطح على دواب الوليد فسقط بينها ، فمات ، فقال : الحمد لله على كل حال ، لئن أخذت واحدا لقد أبقيت جماعة وقدم على الوليد وفد من عبس فيهم شيخ ضرير ، فسأله عن حاله ، وسبب ذهاب بصره ، فقال : خرجت مع رفقة مسافرين ومعى مالى وعيالى ، ولا أعلم عبسياً يزيد ماله على مالى ، فعرّسنا[٥] فى بطن واد ، فطرقَنَا سيل ، فذهب ما كان لى من أهل ومال وولد غير صبى صغير ، وبعير، فشرد البعير ، فوضعت الصغير على الأرض ، ومضيت لأخذ البعير ، فسمعت صيحة الصغير ، فرجعت إليه فإذا رأس الذئب فى بطنه ، وهو يأكل فيه ، فرجعت إلى البعير فحطم وجهى برجليه ، فذهبت عيناى ، فأصبحت بلا عينين ، ولا ولد ، ولا مال ، ولا أهل ! فقال الوليد : اذهبوا به إلى عروة ليعلم أن فى الدنيا من هو أعظم مصيبة منه .

وقيل : الحوادث الممضة مكسبة لحظوظ جليلة : إما ثواب مدخر ، أو تطهير من ذنب ، أو تنبيه من غفلة ، أو تعريف لقدر النعمة ! قال البحترى ، يسلى محمد بن يوسف على حبسه :

وما هذه الأيام إلا منازل ... فمن منزل رحب إلى منزل ضنك
وقد دهمتك الحادثات وإنما ... صفا الذهبُ الإبريز قبلك بالسبك
أما فى نبى الله يوسف أسوة ... لمثلك محبوس على الظلم والإفك
أقام جميل الصبر فى السجن برهة ... فآل به الصبرُ الجميلُ إلى الملك

وقال على بن الجهم لما حبسه المتوكل :

قالوا حُبِسْتَ فقلت : ليس بضائرى ... حَبْسِى ، وأى مهنَّد لا يُغْمَدُ ؟[٦]
والشَّمس لولا أنها محجوبة ... عن ناظريك لما أضاء الفرقد
والنارُ فى أحجارها مخبوءة ... لا تصطلى إن لم تثرها الأزندُ
والحبس مالم تغشَه لدَنِيةٍ ... شنعاءَ نعمَ المنزلُ المتوددُ
بيتٌ يجدّد للكريم كرامةً ... ويُزَارُ فيه ولا يزورُ ويُحمَدُ
لو لم يكن فى الحبس إلا أنه ... لا تستذلك بالحجاب الأعبدُ
غُرَّ الليالى باديات عُوَّد ... والمال عاريةٌ يُعارُ وَيَنْفَدُ
ولكل حى معقب ولربما ... أجلى لك المكروه عما يُحمدُ
لا يؤيسنك من تفرج نكبة ... خطبٌ رماك به الزمانُ الأنكدُ

---

(١) عن جابر يرفعه : « يود أهل العافية » . حسن : أخرجه الترمذى [٢٤٠٢] .
(٢) « إذا أحب الله عبداً » . . إلخ . عزاه المتقى الهندى فى « كنز العمال » . للطبرانى وابن عساكر ، انظر كنز العمال برقم [٣٠٧٩٣].
(٣) « ومر موسى » . . . إلخ . لم أقف عليه .
(٤) مُرْقِدًا : مخدِّرًا .
(٥) عَرّسْنا : نزلنا آخر الليل للراحة .
(٦) مُهنَّد: السيف المصنوع من حديد الهند.

كم من عليل قد تخطاه الردى ... فنجا ومات طبيبُه والعودُ
صبراً فإن اليومَ يعقبُه غد ... ويد الخلافةِ لا تطاولُها يَدُ

قال وأنشد إسحاق الموصلى إبراهيم بن المهدى حين حبس :

هى المقادير تجرى فى أعِنّتِها ... فاصبر فليس لها صَبر على حال[١]
يوما تريك خسيس الأصل ترفعُه ... إلى العلاء ويوما تخفض العالى

فما أمسى حتى وردت عليه الخِلعُ السنية من المأمون ورضى عنه ، وقال إبراهيم بن عيسى الكاتب فى إبراهيم بن المدنى حين عزل :

ليَهنِ أبا إسحاق أسبابُ نعمة ... مجددةٍ بالعزِل والعزل أنبلُ[٢]
شهدتُ لقد مَنّوا عليك وأحسنوا ... لأنك يَوم العزل أعلى وأفضلُ

وقال آخر :

قد زاد ملكُ سليمانَ فعاودَه ... والشمس تنحط فى المجرى وترتفع

وقال أبو بكر الخوارزمى لمعزول : الحمدلله الذى ابتلى فى الصغير وهو المال ، وعافى فى الكبير وهو الحال :

ولا عار إن زالت عن الحرّ نعمةٌ ... ولكنّ عارًا أن يزولَ التَّجَمُّلُ[٣]

وقيل : المال حظ ينقص ثم يزيد ، وظل ينحسر ثم يعود .

وسئل بزرجمهر عن حاله فى نكبته فقال : عوّلت على أربعة أشياء : **أولها** : أنى قلت : القضاء والقدر لابد من جريانهما . **الثانى** : أنى قلت : إن لم أصبر فما أصنع ؟ **الثالث** : أنى قلت : قد كان يجوز أن يكون أعظم من هذا . **الرابع** : أنى قلت: لعل الفرج قريب ، والله تعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب السابع والخمسون

ما جاء فى اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة ، والفرح والسرور ونحو ذلك مما يتعلق بهذا الباب

فمما يليق بهذا الباب من كتاب الله عز وجل قوله تعالى : ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧] وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨] وقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ [يوسف:١١٠] ويروى ابن مسعود ﷺ عن النبى ﷺ قال : « **لو كان العسر فى جحر لدخل عليه اليسر حتى يخرجه** »[٤] . **وقال** ﷺ « عند تناهى الشدة يكون الفرج ، وعند تضايق البلاء يكون الرخاء »[٥] . وقال على ﷺ عن النبى ﷺ : « **أفضل عبادة أمتى انتظارها فرج الله تعالى** »[٦] . **وقال الحسن** :

---

(١) الأعِنّة : جمع عِنان وهو سير اللجام الذى تمسك به الدابة وهو طاقان مستويان .

(٢) ليَهنِ : هنيئاً له : وليسرك ما أنت فيه .

(٣) التجمُّل : تجمَّل : تكلَّف الحسن والجمال، وتجمَّل: ظهر بما يجمُل، وتجمَّل الفقيرُ: أكل الجميلَ.

(٤) « لو كان العسر فى جحر لدخل عليه » . . إلخ . ذكره ابن كثير فى سورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ . وقال: رواه أبو بكر البزار فى مسنده . ثم قال : لا نعلم من رواه عن أنس إلا عائذ بن شريح .

(٥) « عند تناهى الشدة يكون الفرج . . » إلخ . لم أقف عليه .

(٦) « أفضل عبادة أمتى . . » إلخ . ضعيف أخرجه ابن أبى الدنيا « فى الفرج بعد الشدة » . [ص ١٧] ، وضعّفه العراقى كما فى تعليقه على الإحياء [٤/ ٦٩] .

لما نزل قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح:٥-٦] . قال النبى ﷺ : « أبشروا فلن يغلب عسرٌ يسرين »(١) . ومن كلام الحكماء : إن تيقنت لم يبق هَمّ . وقال أبو حاتم :

إذا اشتملت على البؤس القلوب ... وضاق بما به الصدرُ الرحيب
وأوطنت المكارهُ اطمأنت ... وأرست فى مكامنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضرّ وجها ... ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوط منك غوثٌ ... يمنّ به اللطيف المستجيب

وقال آخر :

عَسَى الهمُّ الذى أمسيت فيه ... يكون وراءه فرجٌ قريبُ
فيأمن خائف ويُغاث عان ... ويأتى أهله النائى الغريبُ

وقال آخر :

تصبّر أيها العبدُ اللبيبُ ... لعلك بعد صبرك ما تخيب
وكل الحادثات إذا تناهت ... يكون وراءها فرجٌ قريب

وقال إبراهيم بن العباس :

ولُرُبّ نازلةٍ يضيق بها الفتى ... ذَرْعًا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حَلَقاتها ... فُرجت وكان يظنها لا تفرج

وقال آخر :

لئن صدَع البينُ المشتّتُ شملَنا ... فللبين حكمٌ فى الجموع صَدُوعُ
وللنجم من بعد الرجوع استقامة ... وللشمس من بعد الغروب طلوعُ
وإن نعمة زالت عن الحُرّ وانقضت ... فإن لها بعد الزوال رُجوعُ
فكن واثقا بالله واصبر لحُكمِه ... فإن زوالَ الشرّ عنك سَريعُ

ولنذكر نبذة ممن حصل له الفرج بعد الشدة :

روى أن الوليد بن عبد الملك كتب إلى صالح بن عبد الله عامله على المدينة المنوّرة أن أخرج الحسن بن الحسن بن على من السجن - وكان محبوساً - واضربه فى مسجد رسول الله ﷺ خمسمائة سوط ، فأخرجه إلى المسجد ، واجتمع الناس ، وصعد صالح يقرأ عليهم الكتاب ، ثم نزل يأمر بضربه ، فبينما هو يقرأ الكتاب إذا جاء على بن الحسين عليه السلام فأفرج له الناس حتى أتى إلى جنب الحسن ، فقال : يابن العم، ما لك ؟ ادع الله تعالى بدعاء الكرب يفرج الله عنك ، قال : ما هو يابن العم؟ فقال : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، لا إله إلا الله العلى العظيم ، سبحان رب السمٰوات السبع ورب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين ، ثم انصرف عنه ، وأقبل الحسن يكررها ، فلما فرغ صالح من قراءة الكتاب ، ونزل قال : أراه فى سجنه مظلوماً أخروه ، وأنا أراجع أميرَ المؤمنين فى أمره ، فأطلق بعد أيام ، وأتاه الفرج من عند الله تعالى . وقال الربيع لما حبس المهدى موسى بن جعفر ، رأى فى المنام عليًّا رضى الله عنه وهو يقول : يا محمد ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾ . [محمد:٢٢] قال الربيع : فأرسل المهدى إلىّ ليلاً فراعنى ذلك ، فجئته ، فإذا هو يقرأ هذه الآية ، وكان حسن الصوت ، فقص علىّ الرؤيا ثم قال : ائتنى بموسى بن جعفر ، فجئته به ، فعانقه ، وأجلسه إلى جانبه ، وقال : ياأبا الحسن رأيت أميرَ المؤمنين يقرأ علىّ كذا فعاهدنى ، أن لا تخرج علىّ ولا على أحد من ولدى فقال : والله ما ذاك من شأنى ، فقال : صدقت ثم

(١) « أبشروا فلن يغلب عسر يسرين » . ذكره ابن كثير فى تفسير هذه الآية نقلاً عن ابن جرير أن النبى ﷺ خرج يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك وهو يقول : « لن يغلب عسر يسرين .. لن يغلب عسر يسرين » .

قال : ياربيع ، أعطه ثلاثة آلاف دينار ، ورده إلى أهله بالمدينة ، قال الربيع : فأحكمت أمْرَه ليلاً فما أصبح إلا على الطريق ، وقال إسماعيل بن بشار :

وكل حُرٍّ وإن طالت بليتُه ... يومًا تفرج غمَّاه وتنكشف

وقال مسلم بن الوليد : كنت يوماً جالساً عند خياط بإزاء منزلى ، فمرّ بى إنسان أعرفه ، فقمت إليه ، وسلمت عليه ، وجئت به إلى منزلى لأضيفه ، وليس معى درهم بل كان عندى زوج أخفاف ، فأرسلتهما مع جاريتى لبعض معارفى ، فباعهما بتسعة دراهم ، واشترى بها ما قلته لها من الخبز واللحم ، فجلسنا نأكل وإذا بالباب يطرق ، فنظرت من شق الباب ، وإذا بإنسان يسأل هذا منزل فلان ، ففتحت الباب وخرجت ، فقال : أنت مسلم بن الوليد ؟ قلت : نعم واستشهدت له بالخياط على ذلك ، فأخرج لى كتاباً ، وقال : هذا من الأمير يزيد بن مزيد ، فإذا فيه قد بعثنا لك بعشرة آلاف درهم ، لتكون فى منزلك وثلاثة آلاف درهم تتجمل بها لقدومك علينا فأدخلته إلى دارى ، وزدت فى الطعام ، واشتريت فاكهة ، وجلسنا فأكلنا ثم وهبت لضيفى شيئاً يشترى به هدية لأهله ، وتوجهنا إلى باب يزيد بالرقة ، فوجدناه فى الحمام فلما خرج استؤذن لى عليه ، فدخلت فإذا هو جالس على كرسى ، وبيده مُشط يسرح به لحيته ، فسلمت عليه فرد أحسن رد ، وقال : ما الذى أقعدك عنا ؟ قلت : قلة ذاتِ اليد ، وأنشدته قصيدة مدحته بها ، قال : أتدرى لم أحضرتك ؟ قلت : لا أدرى ! قال : كنت عند الرشيد منذ ليال أحادثه ، فقال لى : يا يزيد ، من القائل فيك هذه الأبيات ؟

سلّ الخليفة سيفًا من بنى مضر ... يمضى فيخترقُ الأجسامَ والهامَا[1]

كالدهرِ لا ينثنى عما يهم به ... قد أوسع الناسَ إنعاماً وإرغاما

فقلت : والله لا أدرى ياأمير المؤمنين ، فقال : سبحان الله ! أيقال فيك مثل هذا ولا تدرى من قاله ؟! فسألت : فقيل لى : هو مسلم بن الوليد فأرسلت إليك فانهض بنا إلى الرشيد فسرنا إليه واستؤذن لنا فدخلنا عليه . فقبلت الأرض ، وسلمت فرَدَّ علىَّ السلام ، فأنشدته ما لى فيه من شعر فأمر لى بمائتى ألف درهم ، وأمر لى يزيد بمائة وتسعين ألف درهم ، وقال : ما ينبغى لى أن أساوى أمير المؤمنين فى العطاء ، فانظر إلى هذا التيسير الجسيم ، بعد العسر العظيم وما أحسن ما قيل ! .

الأمن والخوف أيامًا مداولة ... بين الأنام وبعد الضيق تتسع

ولما وجه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد إلى العراق ليطلق أهل السجون ، ويقسم الأموال ضيق على يزيد بن أبى مسلم فلما ولى يزيد بن عبد الملك الخلافة ، ولى يزيد بن أبى مسلم إفريقية ، وكان محمد بن يزيد والياً عليها ، فاستخفى محمد بن يزيد ، فطلبه يزيد بن أبى مسلم ، وشدد فى طلبه فأتى به إليه فى شهر رمضان عند المغرب ، وكان فى يد يزيد بن أبى مسلم عنقود عنب ، فقال لمحمد بن يزيد حين رآه يا محمد بن يزيد ، قال : نعم . قال : طالما سألت الله أن يمكننى منك ، فقال : وأنا والله طالما سألت الله أن يجيرنى منك ، فقال : والله ما أجارك ولا أعاذك ، وإن سبقنى ملك الموت إلى قبض روحك سبقته ، والله لا آكل هذه الحبة العنب حتى أقتلك ، ثم أمر به فكتف ، ووضع فى النطع ، وقام السياف فأقيمت الصلاة ، فوضع العنقود من يده ، وتقدم ليصلى ، وكان أهل إفريقية قد أجمعوا على قتله ، فلما رفع رأسه ضربه رجل بعمود على رأسه فقتله ، وقيل لمحمد بن يزيد اذهب حيث شئت ، فسبحان من قتل الأمير وفك الأسير ! .

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى : رأيت رسول الله ﷺ فى النوم وهو يقول : أطلق القاتل ، فارتعت لذلك ، ودعوت بالشموع ، ونظرت فى أوراق السجن ، وإذا ورقة إنسان ادّعى عليه بالقتل ، وأقر به ، فأمرت بإحضاره فلما رأيته ، وقد ارتاع ، فقلت له : إن صدقتنى أطلقتك ، فحدّثنى أنه كان هو وجماعة من أصحابه ، يرتكبون كل عظيمة وأن عجوزاً جاءت لهم بامرأة ، فلما صارت عندهم صاحت : الله الله ، وغشى عليها ، فلما أفاقت ، قالت : أنشدك

---

(١) الهَامُ: جمع هامَة، وهي الرأس، وهامة القوم: سيدهم ورئيسهم، وجماعة الناس، ويقال: بنات الهام: أي مُخُّ الدّماغ.

الله فى أمرى ، فإن هذه العجوز غرتنى ، وقالت : إن فى هذه الدار نساء صالحات ، وأنا شريفة جدى رسول الله ﷺ وأمى فاطمة ، وأبى الحسين بن على فاحفظوهم فى ، فقمت دونها وناضلت عنها فاشتد على واحد من الجماعة وقال : لابد منها ، وقاتلنى فقتلته ، وخلصت الجارية من يده ، فقالت : سترك الله كما سترتنى ، وسمع الجيران الصيحة فدخلوا علينا فوجدوا الرجل مقتولاً ، والسكين بيدى ، فأمسكونى وأتوا بى إليك ، وهذا أمرى ، فقال إسحاق : قد وهبتك لله ولرسوله فقال : وحق اللذين وهبتنى لهما لا أعود إلى معصية أبداً . وأمر الحجاج بإحضار رجل من السجن ، فلما حضر أمر بضرب عنقه ، فقال : أيها الأمير أخرنى إلى غد قال : وأى فرج لك فى تأخير يوم واحد ؟ ثم أمر برده إلى السجن ، فسمعه الحجاج وهو راجع إلى السجن يقول :

عسى فرج يأتى به الله إنه ... له كل يوم فى خليقته أمر

فقال الحجاج : والله ما أخذه إلا من كتاب الله ، وهو قوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن:٢٩] وأمر بإطلاقه . وقال بعض جلساء المعتمد : كنا بين يديه ليلة فخفق رأسه بالنعاس ، فقال : لا تبرحوا حتى أغفى سويعة ، فغفا ساعة ، ثم أفاق جزعاً مرعوباً ، وقال : امضوا إلى السجن ، وائتونى بمنصور الجمال فجاءوا به ، فقال له : كم لك فى السجن ؟ قال : سنة ونصف ، قال : على ماذا ؟ قال : أنا جمال من أهل الموصل ، وضاق على الكسب ببلدى ، فأخذت جملى وتوجهت إلى بلد غير بلدى ، لِأَعْمَلَ عليه ، فوجدت جماعة من الجند ، قد ظفروا بقوم غير مستقيمى الحال ، وهم مقدار عشرة أنفس وجدوهم يقطعون الطريق ، فدفع واحد منهم شيئاً للأعوان ، فأطلقوه وأمسكونى عوضه ، وأخذوا جملى فناشدتهم الله ، فأبوا وسجنت أنا والقوم ، فأطلق بعضهم ومات بعضهم ، وبقيت أنا فدفع له المعتمد خمسمائة دينار ، وأجرى له ثلاثين ديناراً فى كل شهر ، وقال : اجعلوه على جمالنا ، ثم قال : أتدرون ما سبب فعلى هذا ؟ قلنا : لا . قال : رأيت رسول الله ﷺ وهو يقول : أطلق منصور الجمال من السجن ، وأحسن إليه . وأخذ الطاعون أهل بيت ، فسد بابه ففضل فيه طفل يرضع لم يشعر به أحد ، ففتح الباب بعد شهر فوجدوا الطفل قد عطف الله عليه كلبة ترضعه ، مع جرو لها فسبحان القادر على كل شىء لا إله غيره ولا معبود سواه . قال الشاعر :

إذا تضايق أمر فانتظر فرجا ... فأضيق الأمر أدناه إلى الفرج

وقال آخر :

فلا تجزعن إن أظلم الدهر مرة ... فإن اعتكار[1] الليل يُؤذِنُ بالفجر

وقال آخر :

لعمرُكَ ما كل التعاطيل ضائرا ... ولا كل شغل فيه للمرء منفعه
إذا كانت الأرزاق فى القرب والنوى ... عليك سواء فاغتنم لذة الدعه
فإن ضقت فاصبر يفرج الله ما ترى ... ألا رب ضيق فى عواقبه سعه

وقال الرياشى : ما اعترانى هم فأنشدت قول أبى العتاهية حيث قال :

هى الأيامُ والغِيَر ... وأمرُ الله ينتظر
أتيأس أن ترى فرجا ... فأين الله والقدر ؟!

إلا سُرّى عنى ، وهبّت ريحُ الفرج . ويروى أن سلطان صقلية أرق ذات ليلة ، ومنع النوم فأرسل إلى قائد البحر ، وقال له : أنفذ الآن مركباً إلى إفريقية يأتونى بأخبارها فعمد القائد إلى مقدم مركب ، وأرسله فلما أصبحوا إذا بالمركب فى موضعه ، كأنه لم يبرح ، فقال الملك لقائد البحر : أليس قد فعلت ما أمرتك به ، قال : نعم قد امتثلت أمرك وأنفذت مركباً فرجع بعد ساعة ، وسيحدثك مقدم المركب ، فأمر بإحضاره فجاء ومعه رجل ، فقال له الملك : ما منعك أن تذهب حيث أمرت؟ قال : ذهبت بالمركب ، فبينما أنا فى جوف الليل ، والرجال يجدفون ، إذا بصوت

(١) اعْتِكَار الليل : اشتداد سواده .

يقول : يا الله يا الله ياغياث المستغيثين يكررها مراراً ، فلما استقر صوتُه فى أسماعنا ناديناه مراراً لبيك لبيك ، وهو ينادى ياالله ياالله ياغياث المستغيثين ، فجدفنا بالمركب نحو الصوت ، فلقينا هذا الرجل غريقاً فى آخر رمق من الحياة فطلعنا به المركب ، وسألناه عن حاله فقال : كنا مقلعين من إفريقية ، فغرقت سفينتنا منذ أيام ، وأشرفت على الموت وما زلت أصيح حتى أتانى الغوث من ناحيتكم فسبحان من أسهر سلطاناً ، وأرقه فى قصره لغريق فى البحر ، حتى استخرجه من تلك الظلمات الثلاث : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة الوحدة فسبحانه لا إلٰه غيره ، ولا معبود سواه ! .

وحكى سيدى أبو بكر الـ ـابه سراج الملوك قال : أخبرنى أبو الوليد الباجى عن أبى ذر قال : كنت أقرأ على الشيخ أبى حفص عمر بن أحمد بن شاهين ببغداد جزءًا من الحديث فى حانوت رجل عطار ، فبينما أنا جالس معه فى الحانوت ، إذ جاءه رجل من الطوافين ممن يبيع العطر فى طبق يحمله على يده ، فدفع إليه عشرة دراهم ، وقال له : أعطنى بها أشياء سمّاها له من العطر ، فأعطاه إياها فأخذها فى طبقه ، وأراد أن يمضى ، فسقط الطبق من يده ، فانكب جميع ما فيه ، فبكى الطوّاف ، وجزع حتى رحمناه ، فقال أبو حفص لصاحب الحانوت : لعلك تعينه على بعض هذه الأشياء : فقال : سمعاً وطاعة ، فنزل وجمع له ما قدر على جمعه منها ، ودفع له ما عدم منها ، وأقبل الشيخ على الطوّاف يصبره ويقول له : لا تجزع ، فأمر الدنيا أيسر من ذلك ، فقال الطوّاف : أيها الشيخ ليس جزعى لضياع ما ضاع ، لقد علم الله تعالى أنى كنت فى القافلة الفلانية ، فضاع لى همیان[1] فيه أربعة آلاف دينار ، ومعها فصوص قيمتها كذلك ، فما جزعت لضياعها ، حيث كان لى غيرها من المال ، ولكن ولد لى ولد فى هذه الليلة ، فاحتجنا لأمه ما تحتاج النفساء ، ولم يكن عندى غير هذه العشرة دراهم ، فخشيت أن أشترى بها حاجة النفساء ، فأبقى بلا رأس مال ، وأنا قد صرت شيخاً كبيراً لا أقدر على التكسب ، فقلت فى نفسى : أشترى بها شيئاً من العطر ، فأطوف به صدر النهار فعسى أستفضل شيئاً أسدّ به رمق أهلى ويبقى رأس المال ، أتكسب به ، واشتريت هذا العطر ، فحين انكب الطبق علمت أنه لم يبق لى إلا الفرار منهم ، فهذا الذى أوجب جزعى ! قال أبو حفص : وكان رجل من الجند جالساً إلى جانبى يستوعب الحديث فقال للشيخ أبى حفص : ياسيدى ، أريد أن تأتى بهذا الرجل إلى منزلى فظننا أنه يريد أن يعطيه شيئاً قال : فدخلنا إلى منزله ، فأقبل على الطواف ، وقال له : عجبت من جزعك فأعاد عليه القصة ، فقال له الجندى : وكنت فى تلك القافلة؟ قال : نعم وكان فيها فلان وفلان فعلم الجندى صحة قوله ، فقال : وما علامة الهِمْيان ؟ وفى أى موضع سقط منك ؟ فوصف له المكان والعلامة . قال الجندى : إذا رأيته تعرفه ؟ قال : نعم ، فأخرج الجندى له هِمْياناً ووضعه بين يديه ، فحين رآه صاح ، وقال : هذا هِمْيانى والله، وعلامة صحة قولى أن فيه من الفصوص ما هو كيت وكيت ، ففتح الهِميان فوجده كما ذكر ، فقال الجندى ! خذ مالك بارك الله لك فيه ، فقال الطواف : إن هذه الفصوص قيمتها مثل الدنانير وأكثر فخذها وأنت فى حل منها ونفسى طيبة بذلك ، فقال الجندى : ما كنت لآخذ على أمانتى مالا ، وأبى أن يأخذ شيئاً، ثم دفعها للطواف جميعها ، فأخذها ومضى ، ودخل الطواف وهو من الفقراء ، وخرج وهو من الأغنياء ، اللهم أغن فقرنا ، ويسر أمرنا برحمتك ياأرحم الراحمين .

وحكى أن الملك ناصر الدولة من آل حمدان كان يشكو وجع القولنج حتى أعيا الأطباء دواؤه ، ولم يجدوا له شفاء فدسوا على قتله ، وأرصدوا له رجلاً ، ومعه خنجر ، فلما كان فى بعض دهاليز القصر ، وثبَ عليه ذلك الرجل ، وضربه بالخنجر ، فجاءت الضربة أسفل خاصرته ، فلم تُخْطِ المعا الذى فيه القولنج ، فخرج ما فيه من الخلط فعافاه الله تعالى ، وبرئ أحسن ما كان .

وبضد هذا ما حكاه أبو بكر الطرطوشى قال : حدثنا القاضى أبو مروان الدارانى بطرطوشة قال : نزلت قافلة بقرية خربة من أعمال دانية فأووا إلى دار خربة هناك ، فاستكنوا فيها من الرياح والأمطار واستوقدوا نارهم ، وسوّوا معيشتهم ، وكان فى تلك الخربة حائط مائل قد أشرف على الوقوع ، فقال رجل منهم : ياهؤلاء لا تقعدوا تحت هذا الحائط ، ولا يدخلن أحد فى هذه البقعة، فأبوا إلا دخولها فاعتزلهم ذلك الرجل ، وبات خارجاً عنهم ، ولم يقرب

---

(١) الهميان : كيسٌ للنفقة يشد فى الوسط .

ذلك المكان فأصبحوا فى عافية ، وحملوا على دوابهم ، فبينما هم كذلك إذ دخل ذلك الرجل إلى الدار ليقضى حاجته ، فخر عليه الحائط فمات لوقته .

قال : وأخبرنى أبو القاسم بن حبيش بالموصل قال : لقد جرت فى هذه الدار ، وأشار إلى دار هناك قصة عجيبة قلت : وما هى ؟ قال : كان يسكن هذه الدار رجل من التجار ممن يسافر إلى الكوفة فى تجارة الخز، فاتفق أنه جعل جميع ما معه من الخزّ فى خرج وحمله على حماره ، وسار مع القافلة فلما نزلت القافلة أراد إنزال الخرج عن الحمار ، فثقل عليه فأمر إنساناً هناك فأعانه على إنزاله ، ثم جلس يأكل فاستدعى ذلك الرجل ليأكل معه فسأله عن أمره فأخبره أنه من أهل الكوفة ، وأنه خرج لحاجة عرضت له بغير نفقة ولا زاد ، فقال له الرجل : كن رفيقى آنس بك ، وتعيننى على سفرى ، ونفقتك ومؤنتك على ، فقال له الرجل : وأنا أيضاً أختار صحبتك ، وأرغب فى مرافقتك ، فسار معه فى سفره ، وخدمه أحسن خدمة إلى أن وصلا إلى تكريت ، فنزل الرفقة خارج المدينة ودخل الناس إلى قضاء حوائجهم ، فقال التاجر لذلك الرجل : احفظ حوائجنا حتى أدخل المدينة وأشترى ما نحتاج إليه ، ثم دخل المدينة ، وقضى جميع حوائجه ، ورجع فلم يجد القافلة ولا صاحبه ، ورحلت الرفقة ، ولم ير أحداً، فظن أنه لما رحلت الرفقة رحل ذلك الخادم معهم ، فلم يزل يسير ، ويجد السير فى المشى إلى أن أدرك القافلة بعد جهد عظيم ، وتعب شديد ، فسألهم عن صاحبه ، فقالوا : ما رأيناه ، ولا جاء معنا ، ولكنه ارتحل على أثرك فظننا أنك أمرته ، فكر الرجل راجعاً إلى تكريت ، وسأل عن الرجل فلم يجد له أثراً ولا سمع له خبراً فيئس منه ، ورجع إلى الموصل مسلوب المال ، فوصلها نهاراً فقيراً جائعاً عرياناً مجهوداً فاستحى أن يدخلها نهاراً فتشمت به الأعداء نعوذ بالله من شماتتهم ، وخشى أن يحزن الصديق إذا رآه على تلك الحالة ، فاستخفى إلى الليل ، ثم عاد إلى داره ، فطرق الباب فقيل له : من هذا ؟ قال : فلان يعنى نفسه ، فأظهروا له سروراً عظيماً ، وحاجة إليه ، وقالوا : الحمد لله الذى جاء بك فى هذا الوقت على ما نحن فيه من الضرورة والحاجة فإنك أخذت مالك معك ، وما تركت لنا نفقة كافية وأطلت سفرك ، واحتجنا ، وقد وضَعَتْ ، زوجتُك اليوم ، والله ما وجدنا ما نشترى به شيئاً للنفساء فأتنا بدقيق ودهن نسرج به علينا ، فلا سراج عندنا ، فلما سمع ذلك ازداد غمًّا على غمه ، وكره أن يخبرهم بحاله فيحزنهم بذلك ، فأخذ وعاء للدهن ، ووعاء للدقيق ، وخرج إلى حانوت أمام داره ، وكان فيه رجل يبيع الدقيق والزيت والعسل ، ونحو ذلك ، وكان البياع أطفأ سراجه ، وأغلق حانوته ، ونام فناداه فعرفه ، فأجابه وشكر الله على سلامته ، فقال له : افتح حانوتك ، وأعطنا ما نحتاج إليه من دقيق وعسل ودهن ، فنزل البياع إلى حانوته ، وأوقد المصباح ووقف يزن له ما طلب ، فبينما هو كذلك إذ حانت من التاجر التفاتة إلى قعر الحانوت ، فرأى خرجه الذى هرب به صاحبه فلم يملك نفسه ، أن وثب إليه والتزمه . وقال : ياعدوَّ الله ، ائتنى بمالى ، فقال له البياع : ما هذا يافلان ؟ والله ما علمتك متعديًا ، وأنا أبدًا ما جنيت عليك ، ولا على غيرك ، فما هذا الكلام ؟ قال : هذا خرجى هرب به خادم كان يخدمنى ، وأخذ حمارى وجميع مالى ، فقال البياع: والله ما لى علم غير أن رجلاً ورد على بعد العشاء ، واشترى منى عشاءه ، وأعطانى هذا الخرج فجعلته فى حانوتى وديعة إلى حين يصبح ، والحمار فى دار جارنا ، والرجل فى المسجد نائم ، قال له : احمل معى الخرج وامض بنا إلى الرجل ، فرفع الخرج على عاتقه ، ومضى معه إلى المسجد فإذا الرجل نائم فى المسجد ، فوكزه برجله ، فقام الرجل مرعوباً فقال : ما لك ؟ قال : أين مالى ياخائن ؟ قال : هاهو فى خرجك ، فوالله ما أخذت منه ذرة ؟ قال : فأين الحمار وآلته ؟ قال : هو عند ذاك الرجل الذى معك ، فعفا عنه ، وخلى سبيله ، ومضى بخرجه إلى داره ، فوجد متاعه سالما ، فوسع على أهله وأخبرهم بقصته ، فازداد سرورهم ، وفرحهم وتبركوا بذلك المولود ، فسبحان من لا يخيب من قصَدَه ولا ينسى من ذكره .

ولنلحق بهذا الباب ذكر شىء مما جاء فى التهنئة والبشائر : كتب بعضهم إلى أخيه - وقد أتاه خبر استبشر به - سمعت عنك خبراً سارًّا ، كتب فى الألواح وامتزج بالأرواح ، وعد فى جملة البشائر العظام ، وجرى فى العروق ، وتمشى فى العظام . وكان خالد بن عبد الله القسرى أخا هشام بن عبد الملك من الرضاع ، وكان يقول له : إنى لأرى فيك آثار الخلافة ، ولا تموت حتى تليها ، فقال له : إن أنا وليتها فلك العراق ، فلما ولى أتاه فقام بين الصفين ، وقال : ياأمير المؤمنين - أعزك الله بعزته - وأيدك بملائكته ، وبارك لك فيما ولاك ، ورعاك فيما استرعاك ، وجعل

ولايتك على أهل الإسلام نعمة ، وعلى أهل الشرك نقمة ، لقد كانت الولاية إليك أشوق منك إليها ، وأنت لها أزين منها لك ، وما مثلها ومثلك إلا كما قال الأحوص هذه الأبيات :

وإن الـــدر زاد حُـــســـنَ وجـــوهٍ ... كـان لـلـدرّ حـسـنُ وجـهـك زَيّـنـا
وتـزيـدن أطـيـبَ الـطـيـب طـيـبًـا ... إن تـمـسـسـه أيـن مـثـلـك أيـنـا

ودخل على المهدى أعرابى فقال له : فيم جئت ؟ قال : أتيتك برسالة ، قال : هاتها ، قال : أتانى آتٍ فى منامى فقال : ائت أمير المؤمنين ؟ فأبلغه هذه الأبيات :

لـكـم إرثُ الـخـلافـةِ مـن قـريـش ... تـزف إلـيـكـمـو أبـداً عـروسـا
إلـى هـارون تُـهـدى بَـعـد مـوسـى ... تـمـيـسُ[1] ومـا لـهـا أن لا تـمـيـسـا

فقال المهدى : ياغلام على بالجواهر فحَشَا فَاهُ حتى كاد ينشق ، ثم قال : اكتبوا هذه الأبيات واجعلوها فى بخانق[2] صبياننا وقال إبراهيم الموصلى فى تهنئة الرشيد بالخلافة .

ألـم تـر أن الـشـمـس كـانـت مـريـضـةً ... فـلـمـا أتـى هـٰـرون أشـرق نـورُهـا
تـلـبـسـت الـدنـيـا جـمـالاً بـمـلـكـه ... فـهـارون والـيـهـا ويَـحـيـى وزيـرُهـا

وغناه بهما من وراء الحجاب ، فوصله بمائة ألف دينار ، ويحيى بخمسين ألفا . ودخل عطاء بن أبى صيفى على يزيد بن معاوية وهو أول من جمع بين التهنئة والتعزية فقال : رزئتَ[3] خليفة الله ، وأعطيت خلافة الله ، قضى معاوية نحبه ، فغفر الله ذنبه ، ووليت الرياسة ، وكنت أحق بالسياسة ، فاحتسب عند الله أعظم الرزية ، واشكر الله على أعظم العطية . ومرّ عمر بن هبيرة بعد إطلاقه من السجن بالرقة فإذا امرأة من بنى سليم على سطح لها تحادث جارة لها ليلا وهى تقول : لا والذى أسأله أن يخلص عمر بن هبيرة مما هو فيه ما كان كذا ؛ فرمى إليها بصُرَّة فيها مائة دينار وقال : قد خلص الله عمر بن هبيرة ، فطيبى نفساً ، وقرّى عينا . والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثامن والخمسون

فى ذكر العبيد والإماء والخدم

❁ وفيه فصلان:

الفصل الأول :فى مدح العبيد والإماء والاستيصاء بهم خيرًا

عن على ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أوّل من يدخل الجنة شهيد ، وعبد أحسن عبادة ربه ، ونصح لسيده »[4] . وعن ابن عمر ﷺ رفعه : « إنَّ الْعَبْدَ إِذَا نَصَحَ لِسَيِّدِهِ ، وَأَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ ، فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ »[5] . وكان زيد بن حارثة خادماً لخديجة ﷺ اشترى لها بسوق عكاظ فوهبته لرسول الله ﷺ فجاءه أبوه يريد شراءه منه ، فقال رسول الله ﷺ : « إن رضى بذلك

---

(١) تميس : ماسَ فلان وتميَّس : أي تبختر واختال، فهو مائس وميَّاس.
(٢) البخانق : جمع بُخْنُق وهو البُرْنُس الصغير .
(٣) رُزِئت : رزأته زرية، أي أصابته مصيبة.
(٤) « أول من يدخل الجنة . . . » إلخ . عزاه المتقى الهندى فى « كنز العمال » . « ٢٥١٠٨ » ، للطبرانى فى الأوسط ، والخطيب فى تاريخه عن أبى هريرة .
(٥) « إن العبد إذا نصح لسيده . . » . أخرجه البخارى [٢٥٤٦] ، ومسلم « ١٦٦٤ » ، وأبو داود [٥١٦٩] .

فعلت » . فسئل زيد ؟ فقال : ذل الرق مع صحبة رسول الله ﷺ أحب إلىّ من عز الحرية مع مفارقته ! فقال رسول الله ﷺ : « إذا اخترناه اخترناه » فأعتقه وزوّجه أم أيمن ، وبعدها زينب بنت جحش[١] وعن على ﷺ قال : كان آخر كلام رسول الله ﷺ : « أوصيكُمْ بالصلاة ، واتقوا الله فيما مَلكَتْ أيمَانكُمْ »[٢] . وعن أبى هريرة ﷺ : « لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ : عَبْدِى وَأَمَتِى كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللَّهِ ، وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللَّهِ ، ولَكِنْ لِيَقُلْ : غُلَامِى وَجَارِيَتِى ، وَفَتَايَ وَفَتَاتِى »[٣] . وعن ابن مسعود الأنصارى قال : ضربت غلاماً لى فسمعت من خلفى صوتاً : اعلم أبا مسعود : « أن الله أقدر عليك منك عليه » ، فالتفت فإذا هو النبى ﷺ فقلت : يا رسول الله هو حر لوجه الله فقال : « أَمَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ »[٤] . وروى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، كم تعفو عن الخادم ؟ ثم أعاد عليه ، فصمت ، فلما كانت الثالثة قال له : « أَعْفُو عَنْهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً »[٥] . وعن أبى هريرة ﷺ قال : حدثنى أبو القاسم نبى التوبة ﷺ : « مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ وَهُوَ بَرِيءٌ مِمَّا قَالَ ، جُلِدَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ حَدًّا »[٦] . وقيل : أراد رجل بيع جاريته فبكت ، فقال لها : ما لكِ ؟ فقالت : لو ملكتُ منك ماملكتَ منى ما أخرجتُك من يدى ! فأعتقها وتزوجها . وقال أبو اليقظان : إن قريشاً لم تكن ترغب فى أمهات الأولاد ، حتى ولدن ثلاثة هم خير أهل زمانهم : على بن الحسين ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله ، وذلك أن عمر ﷺ أتى ببنات يزد جرد بن شهريار بن كسرى مسبيّات ، فأراد بيعَهُن ، فأعطاهن للدلال ، ينادى عليهن بالسوق ، فكشف عن وجه إحداهن فلطمته لطمة شديدة على وجهه ، فصاح واعمرَاه ، وشكا إليه فدعاهُن عمر ، وأراد أن يضربهن بالدّرة فقال على ﷺ يا أمير المؤمنين ، إن رسول الله ﷺ قال : « أكرموا عزيز قوم ذل ، وغنى قوم افتقر »[٧] . إن بنات الملوك لا يُبعن ولكن قوّموهن فقوّمهن وأعطاه أثمانهن وقسمهن بين الحسين بن على ، ومحمد بن أبى بكر ، وعبد الله بن عمر ، فولدن هؤلاء الثلاثة . وقيل : استبق بنو عبد الملك فسبقوا مسلمة ، وكان ابن أمة فتمثل عبد الملك بقول عمرو العبدى :

نهيتكمو أن تحملوا فوق خَيلكم ... هجينًا لكم يوم الرّهانِ فيُدرَك
فتعثر كفاه ، ويسقط سوطه ... ويخدر ساقاه ، فما يتحرك
وهل يستوى المرآن : هذا ابن حرة ... وهذا ابن أخرى ظهرها متشرك ؟!

فقال له مسلمة : يغفر الله لك ياأمير المؤمنين ليس هذا مثلى ، ولكن كما قال ابن المعمر هذه الأبيات :

فما أنكحونا طائعين بناتهم ... ولكن خطبناهم بأرماحنا قَسْرَا
فما زادنا فيها السّباءُ مذلةً ... ولا كُلّفت خبزًا ولا طبخت قدْرَا
وكم قد ترى فينا من ابن سبية ... إذا لقى الأبطال يطعنهُم شَزْرَا
ويأخذ ريان الطعانِ بكفه ... فيوردُها بيضًا ويُصدرها حُمراً

فقبل رأسَه وعينيه ، وقال : أحسنت يابنى ، ذاك والله أنت ، وأمر له بمائة ألف درهم مثل ما أخذ السابق والله أعلم .

الفصل الثانى : فى ذم العبيد والخدم

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « بئس المالُ فى آخر الزمان المماليك »[٨] . وقال مجاهد : إذا كثرت الخدم ، كثرت الشياطين وقال لقمان لابنه : لا تأمنن امرأة على سِرٍّ ، ولا تطأ خادمًا تريدها للخدمة . ووصف بعضهم عبداً فقال : يأكل فارهًا ، ويعمل كارها ، ويبغض قوما ، ويحب نوما . وقيل لبعضهم : ألك غلام ؟ فقال :

---

(١) « وكان زيد بن حارثة خادما لخديجة رضي الله عنها » - إلخ . أورده الهيثمى فى « مجمع الزوائد » . [٩/ ٢٧٤] بنحوه ، وقال : « رواه الطبرانى وإسناده حسن » .
(٢) وعن على ﷺ كان آخر كلام الرسول ﷺ .. إلخ . عزاه المتقى الهندى فى « كنز العمال » برقم [١٨٨٢٧] ، لابن عساكر .
(٣) لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى .. إلخ . أخرجه مسلم [٢٢٤٩] .
(٤) وعن أبى مسعود قال : ضربت غلاما لى .. إلخ . أخرجه مسلم برقم [١٦٥٩/ ٣٥] .
(٥) وروى عن ابن عمر قال : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ » .. إلخ . أخرجه أبو داود برقم [٥١٦٤] .
(٦) وعن أبى هريرة قال : حدثنى أبو القاسم ﷺ « من قذف مملوكه » .. إلخ . صحيح : وأخرجه قريبا من هذا اللفظ البخارى [٦٨٥٨]، ومسلم [١٦٦٠] ، وأبو داود [٥١٦٥] ، والترمذى [١٩٤٧] .
(٧) « أكرموا عزيز قوم ذلّ » .. إلخ . لم أهتد إليه .
(٨) لم أقف عليه .

ومالي غلام فأدعو به سوى من أبوه أخو عمتي !

وقال أكثم : الحر حر وإن مسه الضر ، والعبد عبد وإن ألبسته الدر . ودعا بعض أهل الكوفة إخوانه ، وله جارية ، فقصرت فيما ينبغي لهم من الخدمة ، فقال :

إذا لم يكن في منزل المرء حرة رأى خللا فيما تولى الولائد

فلا يتخذ منهن حرّ قعيدة فهن لعمرُ الله بئس القعائدُ

وكان لرجل غلام من أكسل الناس ، فأرسله يوماً يشترى له عنبا وتينا فأبْطَأ عليه حتى عيل صبرُه ، ثم جاء بأحدهما فضربه ، وقال : ينبغي لك إذا استقضيتك حاجة أن تقضى حاجتين ، فمرض الرجل ، فأمر الغلام أن يأتيه بطبيب ، فغاب ثم جاء بالطبيب ومعه رجل آخر ، فسأله عنه ، فقال أما ضربتني ، وأمرتني أن أقضى حاجتين في حاجة ؟! فجئتك بالطبيب ، فإن شفاك الله تعالى وإلا حفر لك هذا قبرك ، فهذا طبيب ، وهذا حفار ! وقيل : كان عمرو الأعجمي يلي حكم السند ، فكتب إلى موسى الهادى : إن رجلا من أشراف أهل الهند من آل المهلب بن أبي صفرة اشترى غلاماً أسود ، فرباه وتبناه ، فلما كبر وشب ، اشتد به هوى مولاته ، فراودها عن نفسها فأجابته ، فدخل مولاه يوما على غفلة منه من حيث لا يعلم ، فإذا هو على صدر مولاته ، فعمد إليه فجب ذكره ، وتركه يتشحط في دمه ، ثم أدركته عليه رقة وندم على ذلك ، فعالجه إلى أن برئ من عِلَّته ، فأقام الغلام بعدها مدة يطلب أن يأخذ ثأره من مولاه ، ويدبر عليها أمرا يكون فيه شفاء غليله ، وكان لمولاه ابنان أحدهما طفل ، والآخر يافع كأنهما الشمس والقمر ، فغاب الرجل يوماً عن منزله لبعض الأمور فأخذ الأسود الصبيين ، فصعد بهما على ذروة سطح عال فنصبهما هناك ، وجعل يعللهما بالمطعم مرة ، وباللعب أخرى إلى أن دخل مولاه ، فرفع رأسه فرأى ابنيه في شاهق مع الغلام، فقال : ويلك عرضت ابني للموت، قال : أجل والله الذى لا يحلف العبد بأعظم منه لئن لم تجب ذكرك مثل ما جبيتني لأرمين بهما، فقال : الله الله يا ولدى في تربيتي لك، قال : دع هذا عنك فوالله ما هي إلا نفسي ، وإني لا أسمح بها في شربة ماء ، فجعل يكرر عليه ، ويتضرع له وهو لا يقبل ذلك ، ويذهب الوالد يريد الصعود إليه فيدليهما من ذلك الشاهق ، فقال أبوهما : ويلك ، فاصبر حتى أخرج مدية وأفعل ما أردت ، ثم أسرع وأخذ مدية ، فجب نفسه وهو يراه فلما رأى الأسود ذلك ، رمى الصبيين من ذلك الشاهق فتقطعا، وقال : إن جبك لنفسك ثأرى ، وقتل أولادك زيادة فيه ، فأخذ الأسود وكتب بخبره لموسى الهادى ، فكتب موسى لصاحب السند عمرو الأعجمي بقتل الغلام ، وقال : ما سمعت بمثل هذا قط ، وأمر أن يخرج من مملكته كل أسود ، فما ترى أرداً من العبيد ، ولا أقل خيراً منهم ، وأكثرهم رداءةً المولدون ، لو أحسنت إلى أحدهم الدهر كله بكل ما تصل يدك إليه أنكره كأن لم ير منك شيئاً وكلما أحسنت إليه تمرد وإن أسأت إليه خضع وذل ، وقد جربت أنا ذلك كثيرا وما أحسن ما قيل :

إذا أنت أكرمتَ الكريم مَلكْتَه وإن أنت أكرمتَ اللئيم تمرَّدا

وقيل : إن العبد إذا شبع فسق ، وإن جاع سرق وكان جدّى لأمي يقول ، شر المال تربية العبيد ، والمولدون منهم ألأمُ من الزنوج ، وأردأ؛ لأن المولد لا يعرف له أباً وربما يعرف الزنجي أبويه ويقال في المولد : بغل لأنه مجنس ، والبغل تكون أمه فرساً وأبوه حمارًا وبالعكس ، فلا تثق بمولّد لأنه قل أن يكون فيه خير ، وإن كان فذاك نادر ، والنادر لا حكم له ، وأنا أستغفر الله العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب التاسع والخمسون

فى أخبار العرب الجاهلية وأوابدهم وذكر غرائب من عوائدهم وعجائب من أكاذيبهم

للعرب أوابد[١] وعوائد كانوا يرونها فضلا ، وقد دل على بعضها القرآن العظيم ، وأكذب الله دعاويهم فيها . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة:١٠٣] قال أهل اللغة : البَحيرة ناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن ، وكان الأخير ذكراً بحروا أذنها أى : شقوا أذنها ، وامتنعوا من ذكاتها ، ولا تمنع من ماء ولا مرعى . وكان الرجل إذا أعتق عبداً وقال : هو سائبة فلا عقد بينهما ولا ميراث .

وأما الوصيلة ففى الغنم كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهى لهم ، وإن ولدت ذكراً جعلوه لآلهتهم ، فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها فلا يذبح الذكر لآلهتهم .

وأما الحام فالذكر من الإبل كانت العرب إذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا : حمى ظهره فلا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى . وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٩٠] . فالخمر ما خامر العقل ، ومنه سميت الخمر خمراً ، والميسر القمار ، والأنصاب حجارة كانت لهم يعبدونها وهى الأوثان واحدها نُصُب ، والأزلام سهام كانت لهم مكتوب على بعضها أمرنى ربى ، وعلى بعضها نهانى ربى ، فإذا أراد الرجل سفراً أو أمراً يهتم به ضرب بتلك القداح ، فإذا خرج الأمر مضى لحاجته ، وإذا خرج النهى لم يمض .

ومن أوابدهم وأد البنات أى : دفنهن أحياء ، كانوا فى الجاهلية إذا رزق أحدهم أنثى وأدها ، وإذا بشر بها ضاق صدره ، وكظم وجهه وهو قوله تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل:٥٨] وقال تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء:٣١] وقد قيل : إنهم كانوا يقتلونهن خوف العار ، وبمكة جبل يقال له : أبو دلامة كانت قريش تئد فيه البنات . وقيل : إن صعصعة جد الفرزدق كان يشترى البنات ويفديهن من القتل كل بنت بناقتين عَشْرَاوين وجمل . وفاخر الفرزدق رجلا عند بعض خلفاء بنى أمية فقال : أنا ابن محيى الموتى ، فأنكر الرجل ذلك ، فقال : إن الله تعالى يقول : ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢] .

وأما الرفادة فى الحج : فكانت خَرْجاً تخرجه قريش فى كل موسم من أموالهم إلى قصى ، فيصنع به طعاماً للحاج ، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ، وذلك أن قصيا فرضه على قريش ، فقال لهم حين أمرهم به : يامعشر قريش ، إنكم جيران الله ، وأهل بيته ، وأهل الحرم ، وإن الحجاج ضيوف الله وزوّار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحاج ، حتى يصدروا عنكم ، ففعلوا وكانوا يخرجون ذلك كل عام من أموالهم ، فيدفعونه إليهم .

وقيل : أوّل من أقام الرفادة عبد المطلب ، وهو الذى حفر بئر زمزم ، وكانت مطمومة ، واستخرج منها الغزالين الذهب اللذين عليهما الدر والجوهر ، وغير ذلك من الحلى ، وسبعة أسياف ، وخمسة دروع سوابغ ، فضرب من الأسياف باب الكعبة ، وجعل أحد الغَزالين الذهب ، صفائح الذهب ، وجعل الآخر فى الكعبة .

واعلم : وفقنى الله وإياك أنه لم يسمع بعجب أعظم من عجب سعيد بن زرارة وعبد الله بن زياد التميمى ، وابن سماك الأسدى الذين ضرب بهم المثل . فأما سعيد بن زرارة . فقيل : إنه مرت به امرأة فقالت له : ياعبد الله ، كيف الطريق إلى مكان كذا ؟ فقال لها : ياهَنَتَاه[٢] مثلى يكون من عبيد الله . وأما عبد الله بن زياد التميمى فقيل : إنه خطب

---

[١] الأوابد : جمع آبدة ، والمراد بها هنا الأمر العجيب يستغرب له . وأوابد الكلام : غرائبه وعجائبه .

[٢] الهنَةُ : مؤنّث الهَن ، والهن : الشيء ، وكناية عن الشيء يُستقبح ذكره.

الناس بالبصرة ، فأحسن وأوجز ، فنودى من نواحى المسجد : كثر الله فينا مثلك ، فقال : لقد كلفتم الله شططا ! وأما ابن سماك فإنه أضل راحلته ، فالتمسها ، فلم توجد ، فقال : والله لئن لم يردّ راحلتى علىّ لاصلّيت له أبداً ! فوجدت وقد تعلق زمامها ببعض أغصان الشجر ، فقيل له : قد رد الله عليك راحلتك فصل فقال : إنما كانت يمينى يمينًا قصداً ! فانظر رحمك الله إلى هذا العجب كيف ذهب بهم حتى أفضى بهم إلى الكفر ، وصاروا حديثًا مستبشعًا ، ومثلا بين العالمين مستشنعا ، نعوذ بالله من الخذلان المؤدى إلى النيران ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

حكى : عن الحجاج بن يوسف الثقفى أنه قيل له : كيف وجدت منزلك بالعراق ؟ قال : خير منزل ، إن الله أظفرنى بأناس بلغنى الأمل فيهم ، وأعاننى على الانتقام منهم ، فكنت أتقرب إليه بدمائهم ، فقيل له من هم ؟ فذكر هؤلاء الثلاثة ، وذكر حديثهم ، ولا محالة أنها من محاسن الحجاج وإن قلت فى جنب سيئاته والله تعالى أعلم .

ذكر أديان العرب فى الجاهلية : كانت النصرانية فى ربيعة وغسان ، وبعض قضاعة ، وكانت اليهودية فى نمير ، وبنى كنانة ، وبنى الحارث بن كعب ، وكندة ، وكانت المجوسية فى بنى تميم ، منهم زرارة بن عدى ، وابنه على ، وكان تزوج ابنته ثم ندم ، ومنهم الأقرع بن حابس ، كان مجوسياً ، وكانت الزندقة فى قريش أخذوها من الجزيرة ، وكانت بنو حنيفة اتخذوا فى الجاهلية صنما من حَيْس [(١)] ، فعبدوه دهراً طويلاً ثم أدركتهم مجاعة فأكلوه ، وقد قيل : إن أوّل من غير الحنيفية عمرو بن لحى ، أبو خزاعة ، وهو أنه رحل إلى الشام ، فرأى العماليق ، يعبدون الأصنام ، فأعجبه ذلك ، فقال : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدونها ، قالوا : هذه أصنام نستمطرها [(٢)] فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال : أعطونى منها صنماً أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ، فأعطوه صنماً يقال له : هُبَل ، فقدم به مكة ، فنصبه ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

وقيل : إن أوّل ما كانت عبادة الأحجار فى بنى إسماعيل ، وسبب ذلك أنه كان لا يظعن [(٣)] من مكة ظاعن منهم حتى ضاقت عليهم ، وتفرقوا فى البلاد ، وما من أحد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه ، وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، وأفضى ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحسنوه من الحجارة ، ثم خلفت الخلوف ، ونسوا ما كانوا عليه من دين إسماعيل ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلال ، وكانت قريش قد اتخذت صنماً على بئر فى جوف الكعبة يقال له : هبل ، وأيضاً اتخذوا إسافاً ونائلة على موضع زمزم ، فينحرون عندها ، ويطعمون ، وكان إساف ، ونائلة رجلا وامرأة ، فوقع إساف على نائلة فى الكعبة فمسخهما الله حجرين ، واتخذ أهل كل دار فى دارهم صنماً يعبدونه فإذا أراد الرجل سفرا تمسح به حين يركب ، وكان ذلك آخر ما يصنع إذا توجه إلى سفره ، وإذا قدم من سفره بدأ به قبل أن يدخل إلى أهله ، واتخذت العرب الأصنام وانهمكوا على عبادتها ، وكانت لقريش وبنى كنانة العزى ، وكان حجابها بنى شيبة ، وكانت اللات لثقيف بالطائف ، وكان حجابها بنى مغيث من ثقيف ، وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم .

وأما يغوث ويعوق ونسر فقيل : إنهم كانوا أسماء أولاد آدم عليه السلام وكانوا أتقياء عُبّادًا فمات أحدهم ، فحزنوا عليه حُزْنًا شديداً فجاءهم الشيطان ، وحسّنَ لهم أن يصوروا صورتَه فى قِبلة مسجدهم ، ليذكروه إذا نظروه ، فكرهوا ذلك ، فقال : اجعلوه فى مؤخر المسجد ، ففعلوا وصوّروه من صُفر ورَصاص ثم مات آخر ، ففعلوا ذلك إلى أن ماتوا كلهم ، فصوروهم هناك ، وأقام من بعدهم على ذلك ، إلى أن تركوا الدين ، وحسّن لهم الشيطان عبادة شىء غير الله ، فقالوا له : من نعبد ؟ قال : آلهتكم المصورة فى مصلاكم ، فعبدوها إلى أن بعث الله نوحاً عليه السلام فنهاهم عن عبادتها ، فقالوا له : ما أخبر الله عنهم : ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ﴾ [نوح:٢٣] الآية . ولما عم الطوفان الأرض طمّها وعلا عليها التراب زماناً طويلاً فأخرجها الشيطان لمشركى العرب ، فعبدوها ، وذكر الواحدى فى الوسيط : أن هذه أسماء قوم صالحين ، كانوا بين آدم ونوح عليهما السلام فسوّل الشيطان لقومهم بعد موتهم ، أن يصوّروا صورهم ليكون أنشط لهم ، وأشوق للعبادة ، كما رأوهم ففعلوا ثم نشأ بعدهم قوم جهال بالأحوال، فحسن لهم

---

(١) الحيس : تمر وأقط وسمن تخلط وتعجن وتسوى كالثريد .

(٢) نستمطرها : نطلب منها أن تمطرنا .

(٣) يظعن : يسافر وينتقل.

عبادتها ، وإن من سبقهم من قومهم عبدوها ، فسموها بأسمائهم . وقال الواقدى : كان ود على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر . والله تعالى أعلم أى ذلك كان !! .

ذكر أوابدهم : الرتم : شجر معروف كانت العرب إذا خرج أحدهم إلى سفر عمد إلى شجرة منه ، فيعقد غصناً منها ، فإذا عاد من سفره ووجده قد انحل قال : قد خانتنى امرأتى ، وإن وجده على حالته قال : لم تخنى ! .

الرتيمة : ناقة كانت العرب إذا مات واحد منهم عقلوا ناقته عند قبره ، وسدوا عينيها حتى تموت ، يزعمون أنه إذا بعث من قبره ركبها .

التعمية والتفقئة : كان الرجل إذا بلغت إبله ألفاً قلع عين الفحل ، يقولون : إن ذلك يدفع عنها العين ، فإذا زادت على الألف فقأ عينه الأخرى .

العز : داء يصيب الإبل شبه الجرب كانوا يكوون السليمة ويزعمون أن ذلك يبرئ داء العرّ .

ضرب الثور عن البقر : كانت البقر إذا امتنعت عن الشرب ضربوا الثور ، يزعمون أن الجن يركبون الثيران ، فيصدون البقر عن الشرب .

الهامة : كانوا يزعمون أن الإنسان إذا قتل ولم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طائر ، يسمى الهامة ، وهو كالبومة فلا يزال يصيح على قبره ، اسقونى إلى أن يؤخذ بثأره . وكان للعرب مذاهب فى الجاهلية فى النفس ، وتنازع فى كيفياتها فمنهم من زعم أن النفس هى الدم ، وأن الروح الهواء الذى فى باطن جسم الإنسان الذى منه نفسه ، وقالوا : إن الميت لا يوجد فيه الدم ، وإنما يوجد فى الحياة مع الحرارة والرطوبة ، لأن كل حى فيه حرارة ورطوبة فإذا مات ذهبت حرارته ، وحل به اليبس والبرودة . وطائفة منهم يزعمون أن النفس طائر ينشط من جسم الإنسان إذا مات أو قتل ولا يزال متصوراً فى صورة الطائر ، يصرخ على قبره مستوحشاً له ، وفى ذلك يقول بعضهم :

سُلط الموت والمنونُ عليهم ... فلهم فى صدى المقابر هامُ

ثم جاء الإسلام ، والعرب ترى صحة أمر الهام ، حتى قال النبى ﷺ: « **لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَلَا صَفَرَ وَلَا هَامَ** »[١] . وزعموا أن هذا الطائر يكون صغيراً ويكبر ، حتى يصير كضرب من البوم ، ويتوحش ويصرخ ، ويوجد فى الديار المعطلة والنواويس[٢] ، ومصارع القتلى ، ويزعمون أن الهامة لا تزال عند ولد الميت لتعلم ما يكون من خبره ، فتخبر الميت .

الصفر : زعموا إن الإنسان إذا جاع عض على شرسوفه[٣] الصفر ، وهى حية تكون فى البطن .

تثنية الضربة : زعموا أن الحية تموت فى أوّل ضربة فإذا ثنيت عاشت .

الغيلان والتغول : للعرب فى الغيلان والتغول أخبار وأقاويل يزعمون أن الغول يتغول لهم فى الخلوات فى أنواع الصور ، فيخاطبونها وتخاطبهم ، وزعمت طائفة من الناس أن الغول حيوان مشئوم ، وأنه خرج منفردا لم يستأنس ، وتوحش وطلب القفار ، وهو يشبه الإنسان والبهيمة ، ويتراءى لبعض السُّفّار فى أوقات الخلوات ، وفى الليل . وحكى أن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ رآه فى سفره إلى الشام ، فضربه بالسيف .

وقال الجاحظ : الغول كل شى يتعرض للسيارة ، ويتلوّن فى ضروب من الصور والثياب ، وفيه خلاف ، وقالوا : إنه ذكر وأنثى ، إلا أن أكثر كلامهم أنه أنثى .

وأما القُطرب فى قولهم : فهو نوع من الأشخاص المتشيطنة يعرف بهذا الاسم ، فيظهر فى أكناف اليمن ، وصعيد مصر فى أعاليه ، وربما أنه يلحق الإنسان فينكحه ، فيدود دبره فيموت ، وربما نزا على الإنسان وأمسكه فيقول أهل تلك النواحى التى

---

(١) لا عدوى ولا طيرة إلخ . قال العجلونى : رواه الشيخان عن أنس وأبى هريرة .

(٢) النواويس : جمع ناووس ، وهو صندوق يضع فيه النصارى جثة الميت . ومقبرة النصارى .

(٣) الشُّرسوف : الطرف اللين من الضلع مما يلى البطن .

ذكرناها : أمنكوح هو أو مذعور ؟ فإن كان قد نكحه أيسوا منه ، وإن كان قد ذعر سكن روعه ، وشجع قلبه ، وإذا رآه الإنسان وقع مغشياً عليه ، ومنهم من يظهر له فلا يكترث به لشهامته وثبات قلبه .

ذكر الهواتف : أما الهواتف فقد كانت كثرت فى العرب ، وكان أكثرها أيام وُلِدَ سيدنا رسول الله ﷺ ، وأن من حكم الهواتف أن تهتف بصوت مسموع ، وجسم غير مرئى .

وأما بكاء المقتول : فكانت النساء لا يبكين المقتول حتى يؤخذ بثأره ، فإذا أخذ بثأره بكينه .

وأما رمى السن : فكانوا يزعمون أن الغلام إذا أثغر فرمى سنه فى عين الشمس بسبابته ، وإبهامه وقال : أبدلينى بأحسن منها فإنه يأمن على أسنانه العوج والفلج .

وأما خضاب النحر : فكانوا إذا أرسلوا الخيل على الصيد ، فسبق واحد منها خضبوا صدره بدم الصيد علامة .

وأما نصب الراية : فكانت العرب تنصب الرايات على أبواب بيوتها لتعرف بها .

وأما جز النواصى : فكانوا إذا أسروا رجلا ومنوا عليه ، وأطلقوه جزوا ناصيته .

وأما الالتفات : فكانوا يزعمون أن من خرج فى سفر ، والتفت وراءه لم يتم سفره ، فإن التفت تطيروا له .

وكانوا يقولون : من علق كعب الأرنب لم تصبه عين ولا سحر ، وذلك أن الجن تهرب من الأرنب لأنها تحيض ، وليست من مطايا الجن .

ويزعمون : أن المرأة إذا أحبت رجلا وأحبها ثم لم يشق عليها رداءه وتشق عليه برقعها فسد حبهما . ويزعمون أن الرجل إذا قدم قرية فخاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخلها ، ونهق كما تنهق الحمير لم يصبه وباؤها ، ويزعمون أن الحرقوص ، وهو دويبة أكبر من البرغوث ، تدخل فى فروج الأبكار فتفتضهن . ويزعمون أن الرجل إذا ضل فقلب ثيابه اهتدى . وكانوا يزعمون أن الناقة إذا نفرت وذكر اسم أمها فإنها تسكن . وكانت لهم خرزة يزعمون أن العاشق إذا حكها وشرب ما يخرج منها صبر وتسمى السُّلْوان . ونكاح المقت من سننهم وهو أن الرجل إذا مات قام ولده الأكبر فألقى ثوبه على امرأة أبيه ، فورث نكاحها فإن لم يكن له بها حاجة زوجها لبعض إخوته بمهر جديد ، فكانوا يرثون النكاح ، كما يرثون المال ، ولهم حكايات عجيبة ، وأحوال غريبة ، والله تعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الستون

فى الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة والنوم والرؤية وما أشبه ذلك

أما الكهانة [1] : فكانت فاشية فى الجاهلية حتى جاء الإسلام فلم يسمع فيه بكاهن ، وكان ذلك من معجزات النبوة وآياتها ، وللكهنة أخبار :

فمنهم سطيح ورد عليه عبد المسيح ، وهو يعالج الموت ، وأخبره على ما يزعمون بما جاء لأجله ، وذلك أن الموبذان ، رأى إبلا صعاباً تقود خيلا عرابًا ، قد قطعت دجلة ، وانتشرت فى بلادها ، فلما أصبح ، أعلم كسرى بذلك ، فتصبر كسرى تشجعاً ، ثم رأى أن لا يكتم ذلك عن وزرائه ، ورؤساء مملكته فلبس تاجه ، وقعد على سريره ، وجمع وزراءه ، ورؤساء

---

(١) الكهانة : الإخبار بالغيب ، والكاهن كل من يتعاطى علما دقيقا ، ومن العرب من كان يسمى المنجم والطبيب كاهنا . والكهانة : حرفة الكاهن . والكهنوت : وظيفة الكاهن .

مملكته ، فأخبرهم بالخبر ، فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران ، وارتجاس[١] الإيوان ، فازدادوا غما على غمهم ، فكتب كسرى كتابا إلى النعمان بن المنذر : أما بعد فوجه إلّى رجلا عالماً بما أريد أن أسأله عنه ، فوجه إليه عبد المسيح الغسانى فقال له كسرى : أعندك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟ قال : ليخبرنى الملك فإن كان عندى علم منه ، وإلا أخبرته بمن يعلمه به ، فأخبره بما رآه الموبذان ، فقال : علم ذلك عند كاهن يسكن مشارف الشام ، يقال له : سطيح قال : فأته فاسْأله عما سألتك ، وأتنى بالجواب ، فركب عبد المسيح ، وتوجه إلى سطيح ، فوجده قد أشرف على الضريح ، فسلم عليه وحياه ، ولم يخبره عبد المسيح بما جاء بسببه غير أنه أنشده شعرا يذكر فيه أنه جاء برسالة من قبل ملك العجم ، ولم يذكر له السبب ، فرفع رأسه وقال : عبد المسيح ، على جمل يسيح ، إلى سطيح ، بعثك ملك بنى ساسان ، لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان ، رأى إبلا صعاباً ، تقود خيلا عِرابا ، قد قطعت الدجلة ، وانتشرت فى بلادها ، يا عبد المسيح ، إذا كثرت التلاوة ، وفاض وادى سماوه ، وغاضت بحيرة ساوه ، وخمدت نار فارس ، فليس الشام لسطيح شاماً ، ولا العجم لعبد المسيح مقاماً ، يرتفع أمر العرب ، وأظن أن وقت ولادة محمد قد اقترب ، يملك منهم ملوك وملكات ، بعدد الشرفات ، وكل ما هو آت آت ، ثم قضى سطيح مكانه فسار عبد المسيح إلى راحلته ، وعاد فأخبر كسرى بذلك .

وحكى أن ربيعة بن مضر اللخمى رأى مناماً هاله ، فأراد تفسيره ، فقال له أهل مملكته : ما يفسره لك إلا شِقٌّ ، وسطيح فأحضرهما وقال لسطيح : إنى رأيت مناما هالنى فإن عرفته فقد أصبت تفسيره ، فقال : رأيت حممة خرجت من ظلمة فوقعت بأرض تهمة[٢] ، فأكلت منها كل ذات جمجمة، فقال له الملك : ما أخطأت شيئاً فما تفسيره ، قال : ليَهبطن بأرضك الحبش ، وتملك بين أبين إلى جرش . فقال الملك : إن هذا لغائظٌ موجع ، فمتى هو كائن ؟ أفى زمانى أم بعده ؟ قال : بل بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين ! تمضى من السنين ، ثم يقتتلون بها أجمعين ، ويخرجون منها هاربين ! قال : ومن ذا الذى يملك بعدهم ! قال أراه ذا يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فما يترك منهم أحدا باليمن ، قال الملك : فيدوم ذلك أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع ، قال : ومن يقطعه ؟ قال : نبى زكى ، يأتيه الوحى من العلى ، قال : وممن يكون هذا النبى ، قال : من ولد عدنان بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون فى قومه الملك إلى آخر الدهر ، قال : وهل للدهر من آخر ؟ قال : نعم يوم يجمع فيه الأوّلون والآخرون ، ويسعد فيه المحسنون ويشقى المسيئون ، قال : أوَ حق ما تخبر ، قال : والشفق والقمر إذا اتسق ، إن ما أنبأتك به لحق ، ثم دعا بشق فقال : مثل ما قال سطيح ! . ومن ذلك ما حكى أن أمية بن عبد شمس دعا هاشم بن عبد مناف إلى المفاخرة ، فقال له هاشم : أفاخرك على خمسين ناقة سود الحدق ، تنحر بمكة ، فرضى أمية بذلك ، وجعلا بينهما الخزاعى الكاهن حكما، فخبئوا له شيئاً ، وخرجا إليه ، ومعهما جماعة من قومهما ، فقالوا : قد خبأنا لك خبئاً فإن علمته تحاكمنا إليك ، وإن لم تعلمه تحاكمنا إلى غيرك فقال : لقد خبأتم لى كيت وكيت ، قالوا : صدقت ، احكم بين هاشم بن عبد مناف ، وبين أمية بن عبد شمس أيهما أشرف بيتا ونسباً ونفساً ، فقال : والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجوّ من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر ، ولأمية أواخر . فأخذ هاشم الإبل ونحرها ، وأطعمها من حضر ، وخرج أمية إلى الشام ، وأقام بها عشر سنين ، ويقال : إنها أوّل عداوة وقعت بين بنى هاشم وبنى أمية .

وحكى أن هند بنت عتبة بن ربيعة كانت تحت الفاكه بن المغيرة ، وكان الفاكه من فتيان قريش ، وكان له بيت ضيافة خارجاً عن البيوت تغشاه الناس من غير إذن ، فخلا البيت ذات يوم واضطجع فيه هو وهند ، ثم نهض لحاجة فأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه ، فلما رأى هنداً رجع هارباً فلما نظره الفاكه ، دخل عليها فضربها برجله ، وقال لها : من هذا الذى خرج من عندك ؟ قالت : ما رأيت أحدًا قط ، وما انتبهت حتى أنبهتنى ! قال : فارجعى إلى بيت أبيك ، وتكلم الناس فيها ، فقال أبوها : يابنية إن الناس قد أكثروا فيك الكلام ، فإن يكن الرجل صادقاً دسَسْت عليه من يقتله لينقطع كلام الناس ، وإن يك كاذباً حاكمته إلى بعض كهان اليمن ، فقالت له : لا والله ما هو على بصادق ، فقال له : يافاكه ، إنك قد رميت ابنتى بأمر عظيم ، فحاكمنى إلى بعض كهان اليمن ، فخرج الفاكه فى جماعة من بنى

---

(١) ارْتَجسَ الإيوان: أي رجف، وفي حديث سطيح «لمَّا وُلد ﷺ ارْتَجسَ إيوان كِسْرى».

(٢) أرض تَهمة: منخفضة متصوّبة إلى البحر.

مخزوم ، وخرج أبوها فى جماعة من بنى عبد مناف ، ومعهم هند ونسوة فلما شارفوا البلاد قالوا : غدا نَرِدُ على هذا الرجل ، فتغيرت حالة هند ، فقال لها أبوها إنى أرى حالك قد تغير ، وما هذا إلَّا لمكروه عندك ، فقالت : لا والله ، ولكن أعرف أنكم تأتون بشرا يخطئ ويصيب ، ولا آمنه أن يَسِمَنى بسيما تكون علىّ سُبة ، فقال لها : لا تخشى فسوف أختبره ، فصفر لفرسه حتى أذلى ، ثم أدخل فى إحليله حبة حنطة ، وربطه ، فلما أصبحوا قدموا على الرجل ، فأكرمهم ، ونحر لهم ، فلما تغدوا قال له عتبة : قد جئناك فى أمر ، وقد خبأنا لك خبيئة نختبرك بها ، قال خبأتم لى ثمرة فى كمرة ، قال : إنى أريد أبين مِن هذا ! قال : حبة بر ، فى إحليل مهر ، قال : فانظر فى أمر هؤلاء النسوة ، فجعل يأتى إلى كل واحدة منهن ، ويضرب بيده على كتفها ويقول لها : انهضى، حتى بلغ هنداً فقال : انهضى غير رسحاء[1] ولا زانية ! وستلدين ملكاً اسمه معاوية ، فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها فجذبت يدها من يده ، وقالت : إليك عنى ، فوالله إنى لأحرص أن يكون ذلك من غيرك ، فتزوجها أبو سفيان ، فولدت منه أمير المؤمنين معاوية ﷺ ! .

وأما القيافة : فهى على ضربين : قيافة البشر ، وقيافة الأثر ؛ فأما قيافة البشر ، فالاستدلال بصفات أعضاء الإنسان ، وتختص بقوم من العرب يقال لهم : بنو مُدْلج ، يعرض على أحدهم مولود فى عشرين نفرا فيُلحقه بأحدهم .

وحكى عن بعض أبناء التجار أنه كان فى بعض أسفاره راكبا على بعيره ، يقوده غلام أسود فمر بهؤلاء القبيلة ، فنظر إليه واحد منهم وقال : ما أشبه الراكب بالقائد ! قال ولد التاجر : فوقع فى نفسى من ذلك شىء ، فلما رجعت إلى أمى ذكرت لها القصة فقالت : ياولدى إن أباك كان شيخاً كبيراً ذا مال ، وليس له ولد ، فخشيت أن يفوتنا ماله ، فمكنت هذا الغلام من نفسى ، فحملت بك ، ولولا أن هذا شىء ستعلمه غداً فى الدار الآخرة ، لما أعلمتك به فى الدنيا .

وأما قيافة الأثر : فالاستدلال بالأقدام والحوافر والخِفاف ، وقد اختص به قوم من العرب أرضهم ذات رمل ، إذا هرب منهم هارب ، أو دخل عليهم سارق ، تتبعوا آثار قدمه حتى يظفروا به ، ومن العجب أنهم يعرفون قدم الشاب من الشيخ ، والمرأة من الرجل ، والبكر من الثيب ، والغريب من المستوطن ، ويذكر أن فى قطية ، وثغر البرلس أقوامًا بهذه الصفة ، وقد وقعت من قريش حين خرج النبى ﷺ وأبو بكر إلى الغار على صخر صلد ، وأحجار صم ، ولا طين ولا تراب تبين فيه الأقدام ، فحجبهم الله تعالى عن نبيه ﷺ ، بما كان من نسج العنكبوت ، وما لحق القائف من الحيرة ، وقوله : إلى هٰهنا انتهت الأقدام هذا ومعهم الجماعة من قريش ، وأبصارهم سليمة ، ولولا أن هناك لطيفة لا يتساوى الناس فيها يعنى فى علمها لما استأثر بعلم ذلك طائفة دون أخرى . وقيل : إن القيافة لبنى مدلج فى أحياء مضر ، واختلف رجلان من القافة فى أمر بعير وهما بين مكة ومنى ؛ فقال أحدهما : هو جمل ، وقال الآخر هى ناقة ؟ وقصدا يتبعان الأثر حتى دخلا شِعب بنى عامر ، فإذا بعير واقف فقال أحدهما لصاحبه أهو ذا ؟ قال : نعم . فوجداه خُنثى فأصابا جميعًا . ومنهم مَنْ كان يَخُطّ الرملَ فى الأرض ، ويقول ، فيوافق قوله ما يأتى بعد ، وقال رجل : شردت لى إبل فجئت إلى خراش ، فسألته عنها ، فأمر بنته أن تخط لى فى الأرض ، فخطت ، ثم قامت ، فضحك إلى خراش ، ثم قال : أتدرى قيامها لأى شىء قلت : لا . قال : قد علمت أنك تجد إبلك ، وتتزوجها ، فاستحيت ، ثم خرجتُ ، فوجدتُ إبلى ثم تزوجتُها .

وخرج عمرو بن عبد الله بن معمر ومعه مالك بن خراش الخزاعى غازيين ، فمرّا بامرأة وهى تخط للناس فى الأرض ، فضحك منها مالك هُزُوًا وقال : ما هذا؟، فقالت : أما والله لا تخرجن من سجستان حتى تموت ، ويتزوّج عمرو هذا زوجتك ، فكان كما ذكرت .

وأما الزجر والعيافة[2] : فأحسنه ما روى أن كسرى أبرويز بَعث إلى النبى[3] ﷺ حين بُعث زاجراً ومصوراً ، فقال للزاجر : انظر ما ترى فى طريقك وعنده ، وقال للمصور : ائتنى بصورته ، فلما عاد إليه أعطاه المصور صورته ﷺ ،

---

(١) الرَّسْحاء : المرأة الخفيفة العجُز .

(٢) الزجر والعيافة : يقال : زجَر الطير آثارها ليتيمن بسنوحها ، أو يتشاءم ببروحها . وكذلك العيافة كما جاء فى المعجم الوسيط . أما العِرَافة : فهى حرفة العَرّاف وهو المنجم وطبيب العرب والكاهن .

(٣) بعث كسرى إلى النبى ﷺ .. إلخ . لم أهتد إليه .

فوضعها كسرى على وسادته ثم قال للزاجر : ماذا رأيت ؟ قال : ما رأيت ما أزجر به إلا أنه سيعلو أمره عليك ، لأنك وضعت صورته على وسادتك .

وبعث صاحب الروم إلى النبى ﷺ رسولا[1] ، وقال له : انظر إليه ، ومل إلى جانبه ، وانظر إلى ما بين كتفيه ، حتى ترى الخاتم والشامة فقدم الرسول ، فرأ النبى ﷺ على نَشَزٍ عالٍ واضعاً قدميه فى الماء ، وعن يمينه علىّ ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ قال له : « تحوّل ، فانظر ما أمرت به » . فنظر الرسول ، فلما رجع إلى صاحبه ، أخبره الخبر فقال ليعلون أمره وليملكن ما تحت قدمى ، فتفاءل بالنشز العلو وبالماء الحياة وقال المدايني : وقع الطاعون بمصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان حين أتاها ، فخرج هارباً ونزل بقرية من قرى الصعيد ، فقدم عليه حين نزلها رسول لعبد الملك ابن مروان ، فقال للرسول : ما اسمك قال : طالب بن مدرك ، فقال : أواه ما أظن أنى أرجع إلى الفسطاط فمات ، ولم يرجع ! وكانت نائلة بنت عمار الكلبى تحت معاوية فقال لفاختة بنت قرظة : اذهبى فانظرى إليها فذهبت ونظرت فقالت : ما رأيت مثلها ، ولكنى رأيت تحت سرتها خالا ليوضعن معه رأسُ زوجها فى حجرها ، فطلقها معاوية ، وتزوجها بعده رجلان : حبيب بن مسلمة ، والنعمان بن بشير ، فقتل أحدهما ، ووضع رأسه فى حجرها ، وبينما مروان بن محمد جالس فى إيوانه يتفقد الأمور إذ تصدعت زجاجة من الإيوان ! فوقعت منها الشمس على منكب مروان ، وكان هناك عراف ، وقيل : قياف فقام فتبعه ثوبان مولى مروان ، فسأله فقال : صدع الزجاج ، صدع السلطان ! ستذهب الشمس بملك مروان ، بقوم من الترك أو خراسان ، ذلك عندى واضح البرهان[2] ، فما مضى غير شهرين حتى مضى ملك مروان .

وروى المدايني : أن علياً ﷺ بعث معقلا فى ثلاثة آلاف ليقيم بالرقة ، وذلك فى وقعة صفين ، فسار حتى نزل الحديبية ، فبينما هو ذات يوم جالس إذ نظر إلى كبشين ينتطحان ، فجاء رجلان فأخذ كل واحد منهما كبشاً فذهب به ، فقال شدّاد بن أبى ربيعة الخثعمى الزاجر : إنكم لتنصرفون من موجهكم هذا لا تغلبون ، ولا تُغلبون ، أما ترى الكبشين كيف انتطحا ، حتى حجز بينهما ، فتفرقا ، ولا فضل لأحدهما على الآخر .

وحكى أن الإسكندر ملك بعض البلاد فدخل فيها فوجد امرأة تنسج ثوباً ، فلما رأته قالت له : أيها الملك قد أعطيت ملكاً ذا طول وعرض ، ثم دخل عليها بعد ذلك فقالت : ستعزل من الملك ، فغضب عند ذلك ، فقالت له : لا تغضب فإنك فى المرة الأولى دخلت علىّ والشقة بيدى أدير طولها وعرضها ، ودخلت علىّ الآن والشقة فى يدى أريد قطعها لأنى قد فرغت من نسجها ، فلا تغضب فإن النفوس تعلم أشياء بعلامات ، قال الراوى : فكان كذلك ! وحكى أن سيف بن ذى يزن لما استنجد كسرى على قتال الحبشة ، بعث إليه بجيش عظيم ، فخرج إليهم ملك الحبشة ، وهو مسروق بن أبرهة فى مائة ألف من الحبشة ، وكان بين عينيه ياقوتة حمراء بعلاقة من الذهب ، على تاجه تضىء كالنور ، وهو على فيل عظيم ، قال : وكان فى عسكر ذى يزن رجل يقال له : زهير ، فتأمل ذلك منه ثم قال لأميره : اصبر لننظر ما يكون من أمره ، قال : فتحوّل مسروق من الفيل إلى جمل ، فقال : اصبر فتحوّل بعد ذلك إلى فرس ، ثم إلى بغل ثم إلى حمار ، وكأنه أَنِفَ من مقاتلتهم على شىء من ذلك إلا على حمار ، لما أنه استصغرهم ، واستحقرهم ، وتفرس ذلك الرجل فيه من الانتقال من أعلى إلى أدنى ، وقال : احملوا عليهم ، فإن ملكهم قد ذهب ، فإنه انتقل من كبير إلى صغير ، فحملوا عليهم ، فكسروهم ، وقتل الملك .

وحكى أنه كان عراف من الطرقيين ببغداد ، يخبر بما يسأل عنه فلم يخطىء فسأله رجل عن شخص محبوس : هل ينطلق ؟ قال : نعم ويخلع عليه ، قال : فقلت له : بأى شىء عرفت ذلك ؟ فقال : إنك لما سألتنى التفت يمينًا وشمالًا ، فوجدت رجلاً على ظهره قربة ماء ، ففرغها ثم حملها على كتفه ، فأوّلت الماء بالمحبوس ، وتفريغه بالانطلاق ، ووضعها على كتفه بالخلعة ، قال : وكان الأمر كذلك .

وأما الفال : فقد روى أن النبى ﷺ : « كَانَ يُحِبُّ الفَأْلَ الصَّالِحَ ، والاسْمَ الحَسَنَ »[3] . وروى أنه ﷺ لما نزل

---

(١) بعث صاحب الروم إلى النبى ﷺ إلخ . لم أهتد إليه .

(٢) لا يعلم الغيب إلا الله ، ولقد أثبتت التجارب كذب المنجمين ولو صدقوا .

(٣) روى أن النبى ﷺ كان يحب الفأل . . إلخ . صحيح : أخرجه أحمد [١/ ٢٥٧ ، ٣٠٤ ، ٣١٩] من حديث ابن عباس .

المدينة على كُلثوم دعا غلامين له يابشار ، وياسالم ، فقال ﷺ لأبى بكر ﷺ : « أبشر ياأبا بكر فقد سلمت لنا الدار »[١] . وقال الأصمعى : سألت ابن عون عن الفأل فقال : هو أن يكون مريض ، فيسمع : ياسالم ، أو طالب حاجة فيسمع ياواجد ، وما أشبه ذلك .

وأما الطِّيَرةُ : فقد كان ﷺ يحب الفأل ، ويكره الطيرة[٢] وقيل : ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال : « مَنْ عُرِضَ لَهُ مِنْ هَذِهِ الطِّيَرةِ شَيْءٌ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ لَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ ، وَلَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ العَلِيِّ العَظِيمِ »[٣] . وعنه ﷺ أنه قال : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ »[٤] . وعن ابن عباس ﷺ رفعه : « من اقتبس علماً من النجوم ، اقتبس شعبة من السحر »[٥] . وعن أبى هريرة ﷺ رفعه : « من أتى كاهناً فصدّقه فيما يقول أو أتى امرأته حائضًا ، أو أتى امرأته فى دُبرها ، فقد بَرئ ممَّا نزل على محمد »[٦] . وأنشد المبرد هذه الأبيات يقول :

لا يعلمُ المرءُ ليلاً ما يصَبّحهُ ... إلا كواذبَ ما يجرى به الفال
والفال والزجر والكهان كلهمُ ... مُضلّلون ودون الغيب أقفال

وقال لبيد :

لعمرىَ ما تدرى الطوارقُ بالحصَى ... ولا زاجراتُ الطيرِ ما الله صانعُ

وقال آخر :

تعلّم أنه لا طيرَ إلا ... على مُتَطيّرٍ وهو الثُّبور
بلى شىءٌ يوافق بعضَ شىءٍ ... أحايينًا وباطُله كثير

وكانت العرب تتطير بأشياء كثيرة : منها العطاس ، وسبب تطيرهم منه أن دابة يقال لها العاطوس كانوا يكرهونها ، وكانوا إذا أرادوا سفرًا خرجوا من الغلس ، والطير فى أوكارها على الشجر ، فيطيرونها فإن أخذت يميناً أخذوا يميناً وإن أخذت شمالاً أخذوا شمالاً ، ومنه قول امرىء القيس :

وقد أغتدى والطيرُ فى وُكناتها ... بمنجردٍ قيد الأوابد هَيْكَلِ
مِكرٍ مِفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معًا ... كجلمود صخر حطّه السيل من عَل

والعرب أعظم ما يتطيرون منه الغراب ، فالقول فيه أكثر من أن يطلب عليه شاهد ، ويسمونه حاتماً لأنه يحتم عندهم بالفراق ، ويسمونه الأعور على جهة التطير ، إذ كان أصح الطير بصرًا وفيه يقول بعضهم :

إذا ما غرابُ البين صاح فقل له : ... ترفّق رماكَ الله ياطيرُ بالبُعد
لأنت على العشاق أقبحُ منظر ... وأبشعُ فى الأبصار من رؤية اللحد
تصيح ببين ثم تعثرُ ماشيا ... وتَبْرز فى ثوب من الحزن مُسْوَد
متى صحتَ صح البين وانقطع الرجا ... كأنك من يوم الفراق على وعد

وأعرض بعضهم عن الغراب ، وتطير بالإبل ، وسبب ذلك لكونها تحمل أثقال من ارتحل ، وفى ذلك قال بعضهم مفرداً وأجاد :

---

(١) وروى أن ﷺ لما نزل المدينة .. إلخ . لم أهتد إليه .

(٢) كان ﷺ « يحب الفأل ويكره الطيرة » كما جاء فيما رواه الشيخان عن أنس قال ﷺ « لا عدوى ولا طيرة ويعجبنى الفأل الحسن » . والطيرة: التشاؤم وعكسها التفاؤل بالمحبوب .

(٣) ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال : .. إلخ .. أخرجه أحمد والطبرانى عن ابن عمر [التمييز ٢١٣] .

(٤) « ليس منا من تطير .. » إلخ . قال المنذرى : رواه البزار بإسناد جيد ، ورواه الطبرانى من حديث ابن عباس دون قوله « ومن أتى» . إلى آخره بإسناد حسن .

(٥) « من اقتبس علما من النجوم .. » إلخ . قال المنذرى رواه أبو داود وابن ماجه وغيرهم . والمنهى عنه من علم النجوم ما يدعيه أهله من معرفة الحوادث الآتية كمجىء المطر ، ووقوع الثلج وهبوب الريح وتغير الأسعار ، أما ما يدور عن طريق المشاهدة كجهة القبلة وغيرها فلا .

(٦) « من أتى كاهنا فصدقه ... » إلخ . قال المنذرى : رواه البزار بإسنادٍ جيد قوى . مقتصرا على الكاهن دون باقى فقرات الحديث .

زعموا بأن مَطِيّهم سببُ النوى والمؤذناتُ بفرقة الأحباب

وقالوا: من تطير من شيء وقع فيه ! وحكى : عن إبراهيم بن المهدى قال : أرسل إلى محمد بن زبيدة فى ليلة من ليالى الصيف مقمرة يقول : ياعمّ إنى مشتاق إليك فاحضر الآن عندنا ، فجئته وقد بُسط له على سطح زبيدة وعنده سليمان بن أبى جعفر ، وجاريته نعيم ، فقال لها غنينا شيئاً فقد سررت بعمومتى ، فغنت وهى تقول هذه الأبيات :

هُمُو قَتَلُوه كى يكونوا مكانه كما فعلت يوماً بكسرى مرازِبُه[1]
بنى هاشم كيف التواصل بيننا وجند أخيه سيفه ونجائبه[2]

قال : فغضب وتطير ، وقال لها: ما قصتك ويحك ؟ انتبهى وغنى ما يسرنى ، فغنت تقول :

كُلَيبٌ لعَمْرى كان أكثَر ناصرا وأكثر حَزْمًا منك ضرّج بالدم

فقال لها : ويحك ما هذا الغناء فى هذه الليلة ؟ غنى غير هذا ، فغنت تقول هذه الأبيات :

ما زال يعدو عليهم ريبُ دهرهم حتى تفانَوْا وريبُ الدهر عَدّاء
تبكى فراقهم عينى فأرقها إن التفرق للمشتاق بكاء !

قال فانتهرها وقال لها : قومى إلى لعنة الله فقالت : والله يا مولاى لم يجر لسانى غير هذا ، وما ظننت إلا أنك تحبه ، ثم إنها قامت من بين يديه ، وكان بين يديه قدح بلور كان أبوه يحبه ، فأصابه طرف ردائها فانكسر ، قال إبراهيم بن المهدى : فالتفت إلى وقال : ياعمى أرى أن هذا آخر أمرنا فقلت : كلا بل يبقيك الله ياأمير المؤمنين ، ويسرّك ، فسمعت هاتفاً يقول : قُضى الأمر الذى فيه تستفتيان ، فقال لى : أسمعت ما سمعت ياعم ؟! فقلت : ما سمعت شيئاً ، وما هذا إلا توهم ، فإذا الصوت قد علا ، فقال : ياعم اذهب إلى بيتك مُحال أن يكون بعد هذا اجتماع ! قال : فانصرفت من عنده ، وكان هذا آخر عهدى به .

وخرج أبو الشمقمق مع خالد بن يزيد بن مزيد وقد تقلد الموصل ، فلما أراد الدخول إليها اندق لواؤه فى أوّل درب منها ، فتطير لذلك ، فأنشده أبو الشمقمق يقول :

ما كان مُنْدَقُّ اللواء لريبة تُخشى ولا أمر يكونُ مبذلا
لكن هذا الرمحَ ضَعْفَ متنه صغرُ الولاية فاستقل الموصلا

فسر خالد ، وأمر لأبى الشمقمق بعشرة آلاف درهم .

ودخل الحجاج الكوفة متوجهاً إلى عبد الملك ، فصعد المنبر فانكسر تحت قدمه لوح ، فعلم أنهم قد تطيروا له بذلك ، فالتفت إلى الناس قبل أن يحمد الله تعالى فقال : شاهت الوجوه ، وتبّت الأيدى ، وبُؤتم بغضب من الله إذا انكسر عود جذع ضعيف تحت قدم أسد شديد ، تفاءلتم بالشؤم ، وإنى على أعداء الله تعالى لأنكد من الغراب الأبقع[3] ، وأشأم من يوم نحس مستمر ، وإنى لأعجب من لوط وقوله : ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] فأى ركن أشد من الله تعالى ؟ أو ما علمتم ما أنا عليه من التوجه إلى أمير المؤمنين ، وقد وليت عليكم أخى محمد بن يوسف وأمرته بخلاف ما أمر به رسول الله ﷺ معاذاً فى أهل اليمن فإنه أمره : « **أن يحسن إلى محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم** » . وقد أمرته أن يسىء إلى محسنكم ، وأن لا يتجاوز عن مسيئكم ، وأنا أعلم أنكم تقولون بعدى لا أحسن الله له الصحابة ، وأنا معجل لكم الجواب لا أحسن الله عليكم الخلافة ، أقول قولى هذا ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم . وخرج بعض ملوك الفرس إلى الصيد ، فأوّل من استقبله أعور فضربه ، وأمر بحبسه ثم ذهب للصيد فاصطاد صيداً كثيراً ، فلما عاد استدعى بالأعور ، فأمر له بمال ، فقال : لا حاجة لى به ، ولكن ائذن لى فى

---

(١) مَرَازِبة: جمع مَرْزُبان، وهو رئيس الفرس، أو الفارس الشجاع، وهو دون الملك في الرُّتبة.
(٢) النَّجائب: مفردها نجيبة، والنجيبة مؤنث النجيب، وهو الفاضل على مِثْله النفيس في نوعه.
(٣) الغُراب الأبْقَع: الذي خالط لونه لون آخر.

الكلام ، فقال : تكلم ، فقال : أيها الملك إنك تلقيتنى فضربتنى وحبستنى ، وتلقيتُك فصدتَ ، وسلمت فأينا أشأم صباحاً على صاحبه ، فضحك منه ، وأمر له بصلة ! .

وحكى :أيضاً أن صاحب قرطبة أصابه وجع ، فأمر بعض جواريه أن تغنيه ليلهوَ عن وجعه ، فقالت :

هَذِى اللَيالى علمنا أن ستطوينا فشعشعينا[1] بماءِ المزنِ واسقينا

قال فتطير من ذلك ، وأمرها بالانصراف ، ولم يقم بعد ذلك غير خمسة أيام ، ومات .

وحكى : أن نور الدين محموداً ، وهمام الدين ركبا فى يوم عيد ، وخرجا للتفرج ، فتجاولا فى الكلام ، ثم قال محمود : يامن درى ! هل نعيش إلى مثل هذا اليوم ؟ فقال له همام الدين قل : هل نعيش إلى آخر هذا الشهر ؟ فإن العام كثير قال : فأجرى الله على منطقهما ما كان مقدراً فى الأزل فمات أحدهما قبل تمام الشهر ، ومات الآخر قبل تمام العام ! .

وأما الفراسة : فقد قال الله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر:٧٥] . وقال رسول الله ﷺ : « **اتقوا فراسة المؤمن ؛ فإنه ينظر بنور الله** »[2] . وقال على ﷺ ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر فى فلتات لسانه ، وصفحات وجهه . وقيل : أشار ابن عباس رضي الله عنهما على علىّ ﷺ بشىء فلم يعمل به ، ثم ندم ، فقال : يرحم الله ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق ! .

وحكى : أبو سعيد الخراز أنه كان فى الحرم فقير ليس عليه إلا ما يستر عورته ، فأنفت نفسى منه ، فتفرس ذلك منى ، فقرأ : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة:٢٣٥] فندمتُ واستغفرتُ الله فى قلبى فتفرس ذلك أيضاً فقرأ : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ . [الشورى:٢٥]

وحكى : عن الشافعى ومحمد بن الحسن أنهما رأيا رجلا فقال أحدهما : إنه نجار ، وقال الآخر : إنه حداد ، فسألاه عن صنعته فقال : كنت حداداً وأنا الآن نجار ! .

وحكى : أن شخصاً من أهل القرآن سأل بعض العلماء مسألة فقال له : اجلس فإنى أشم من كلامك رائحة الكفر ، فاتفق بعد ذلك أنه سافر السائل ، فوصل إلى القسطنطينية ، فدخل فى دين النصرانية ، قال من رآه : ولقد رأيته متكئاً على دكة وبيده مروحة يروّح بها عليه ، فقلت : السلام عليك يافلان ، فسلم علىّ وتعارفنا ، ثم قلت له بعد ذلك : هل القرآن باق على حاله أم لا ؟ فقال له : لا أذكر منه إلا آية واحدة وهى قوله تعالى : ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر:٢] . قال : فبكيت عليه ؛ وتركته ، وانصرفت .

وكان الحسن بن السَّقاء من موالى بنى سليم ، ولم يكن فى الأرض أحرز منه ، كان ينظر إلى السفينة فيحرز ما فيها فلا يخطىء ، وكان حزره للمكيل والموزون والمعدود سواء ؛ كان يقول ، فى هذه الرمانة كذا وكذا حبة ، وزنتها كذا وكذا ، ويأخذ العود الآس فيقول : فيه كذا وكذا ورقة فلا يخطىء، وقالوا : إذا رأيت الرجل يخرج بالغداة ويقول لشىء : ما عند الله خير وأبقى ! فاعلم أن فى جواره وليمة ، ولم يدع إليها ، وإذا رأيت قوما يخرجون من عند قاضٍ وهم يقولون : ما شهدنا إلا بما علمنا فاعلم أن شهادتهم لم تقبل ! ، وإذا قيل للمتزوج صبيحة البناء على أهله كيف ما تقدّمت عليه ؟ فقال : الصلاح خير من كل شىء ، فاعلم أن امرأته قبيحة ! وإذا رأيت إنسانا يمشى ويلتفت ، فاعلم أنه يريد أن يحدث ! وإذا رأيت فقيراً يعدو ويهرول ، فاعلم أنه فى حاجة غنىّ ، وإذا رأيت رجلاً خارجاً من عند الوالى وهو يقول : يد الله فوق أيديهم ؛ فاعلم أنه صفع ! ويقال : عين المرء عنوان قلبه ، وكانوا يقولون : عِظَم الجبين يدل على البله ، وعَرْضُه يدل على قلة العقل ، وصغره يدل على لطف الحركة ، وإذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد ، والعين المتوسطة فى حجمها دليل الفطنة ، وحسن الخلق والمروءة ، والتى يطول تحديقها يدل على الحمق ، والتى يكسر طرفها تدل على خفة وطيش ، والشعر فى الأذن يدل على جودة السمع ، والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على

---

(١) شَعَّ الماءَ: أي صبَّه.

(٢) ذكره العجلونى فى الكشف : قال فى الدرر : رواه الطبرانى والترمذى من حديث أبى أمامة ، وأخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد. وقال فى التمييز : رواه الترمذى وقال : غريب .

حمق وهذيان ، وكانت الفرس تقول : إذا فشا الموت فى الوحوش دل على ضيقة ، وإذا فشا الفأر ، دل على الخصب وإذا نعق غراب فجاوبته دجاجة عمر الخراب ، وإذا قوّقت دجاجة فجاوبها غراب ، خرب العمار ، والله أعلم بكل شىء : ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن:٢٦] ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩] .

وأما النوم والسهر وما جاء فيهما : فقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال : « **أشراف أمتى حملة القرآن وأصحاب الليل** »(١) . وروى أن أم سليمان بن داود عليه السلام قالت له : يا بنىّ لا تكثر النوم بالليل ، فإن صاحب النوم يجىء يوم القيامة مفلساً ، وكان زمعة بن صالح يصلى ليلاً طويلاً ، فإذا أسحر نادى أهله :

يـأيـهـا الـركـب الـمُـعَـرّسـونـا(٢) أكُـلَّ هـذا الـلـيـل تـرقـدونـا ؟!

فيتواثبون بين باكٍ وداع ومتضرع ، فإذا أصبح نادى . عند الصباح يحمَدُ القومُ السُّرى ، وأنشدوا :

يـأيـهـا الـراقـدُ كـم تـرقـدُ قُـمْ ياحـبـيـبـى قـد دنـا الـمـوعـد
وخـذ مـن الـلـيـل وسـاعـاتـه حَـظّـا إذا مـا هـجـعَ الـرّقـد
مـن نـام حـتـى يـنـقـضـى لـيـلـهُ لـم يـبـلـغ الـمـنـزلَ أو يـجـهـدُ
قـل لـذوى الألـبـاب أهـل الـتـقـى : قـنـطـرة الـحـشـرِ لـكـم مـوعـد

وقيل : إن نومة الضحى تورث الغم ، والخوف ، ونومة العصر تورث الجنون وأنشد بعضهم :

ألا إن نـومـات الـضـحـى تـورث الـفَـتـى غـمـومًـا ونـومـاتِ الـعـصـيـر جـنُـون

وعن العباس بن عبد المطلب ، أنه مر يوماً بابنه وهو نائم نومة الضحى ، فوكزه برجله ، وقال له : قم لا أنام الله عينك ! أتنام فى ساعة يقسم الله تعالى فيها الرزق بين العباد ؟ أوَمَا سمعت ما قالت العرب ؟ إنها مكسلة مهزلة منسية للحاجة .

والنوم على ثلاثة أنواع : نومة الخرق ، ونومة الخلق ، ونومة الحمق ، فنومة الخرق : نومة الضحى ، ونومة الخلق : هى التى أمر النبى ﷺ بها أمته فقال : « **قيلوا فإن الشياطين لا تَقيل** »(٣) . ونومة الحمق : النومة بعد العصر لا ينامها إلا سكران أو مجنون . وكان هشام بن عبد الملك يقول لولده : لا تصطبح بالنوم فإنه شؤم ونكد ، وقال الثورى لطبيب : دلنى على شىء إذا أردت النوم جاءنى ، فقال : ادهن رأسك وأكثر من ذلك ، واتق الله . وكان طاوس يقول : لأن تختلف السباط على ظهرى أحب إلى من أن أنام يوم الجمعة والإمام يخطب ، وكان شداد بن أوس يتلوى على فراشه كالحبة على المقلى ، ويقول : اللهم إن النار منعتنى النوم ، وأنشدوا فى المعنى :

غـيـرتُ مَـوضِـعَ مَـرقـدى يـومـاً فـفـارقـنـى الـسـكـونْ
قـل لـى : فـأوّل لـيـلـتـى فـى حـفـرتـى أنـى أكـون ؟!

وأنشد أبو دلف :

أمَـالـكَـتـى رُدّى عـلـىّ رقُـادِيَـا ونَـومـى فـقـد شـرّدتِـه عـن وِسَـادِيَـا
أمـا تـتـقـيـن الـلـه فـى قـتـلِ عـاشـق أمتّ الـكـرى عَـنـه فـأحـيـا الـلـيـالـيـا ؟!

وأنشد أبو غانم الثقفى :

رقـدتُ رقـادَ الـهـيـم حـتـى لَـو انّـنـى يـكـون رُقـادى مَـغـنَـمًـا لَـغَـنِـيـتُ

فقيل : لمن هذا ؟ فقال : لرَقّادِبن رقاد العرب . وقيل : إن نوم عبود يضرب به المثل ، وكان عبود هذا عبداً أسود

---

(١) عن ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال : « أشراف أمتى . . » إلخ . موضوع : أخرجه الطبرانى فى « المعجم الكبير » . [١٢/١٢٥] ، برقم [١٢٦١٢] ، وفيه سعد بن سعيد الجرجانى ضعيف ، ونهشل بن سعيد متروك .

(٢) المُعرّسون: مَنْ نزل من المسافرين آخر الليل للراحة في مكان، وهذا المكان يُسمَّى المُعرَّس.

(٣) « قيلوا فإن الشياطين لا تقيل » . رواه البزار عن أنس مرفوعا كما قال العجلونى وأخرجه الطبرانى عن أنس .

قيل : إنه نام أسبوعا ، وقيل : إنه تماوت ، على أهله ، وقال : اندبونى ، لأعلم كيف تندبونى إذا أنا مت ، فسُجِّىَ ونام وندب فإذا هو قد مات ! .

وأما الرؤيا : فقد قيل فيها أقاويل : وهو أنهم قالوا إن النوم هو اجتماع الدم ، وانحداره إلى الكبد ، ومنهم من رأى أن ذلك هو سكون النفس ، وهدوّ الروح ، ومنهم من زعم أن ما يجده الإنسان فى نومه من الخواطر إنما هو من الأطعمة ، والأغذية والطبائع ، وذهب جمهور الأطباء إلى أن الأحلام من الأخلاط ، وأن ذلك بقدر مزاج كل واحد منها وقوّته . فالذى يغلب عليه الصفراء يرى بحورا ، وعيونًا ومياها كثيرة ، ويرى أنه يسبح ويصيد سمكاً . ومن غلبت على مزاجه السوداء رأى فى أجداث[١] أمواتاً ، مكفنين بسواد وبكاء وأشياء مفزعة . ومن غلب على مزاجه الدم ، رأى الرياحين ، والثياب المصبغة .

والذى يقع عليه التحقيق أن : « الرُّؤيا الصَّالحة - كما قد جاء - جزءٌ من ستين جزءًا من النبوّة »[٢] . وكان ﷺ : « **أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ مِنَ الْوَحْى الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ** »[٣] . والرؤيا على ضربين . فمنهم من يرى رؤيا فتجىء على حالها لا تزيد ولا تنقص ، ومنهم من يرى الرؤيا فى صورة مثل ضُرب له .

فمن ذلك ما حكى أن النبى ﷺ رأى فى الجنة غرفاً فقال : « **لمن هذه ؟** » . فقيل : لأبى جهل بن هشام ، فقال : « **ما لأبى جهل والجنة ؟! والله لا يدخلها أبداً** » . قال : فأتاه عكرمة ولده مسلماً فتأوّلها به[٤] وكذلك تأوّل فى قتل الحسين لما رأى أن كلباً أبقع يلغ فى دمه ، وكان ذلك بعد رؤياه ﷺ بخمسين عاماً[٥] . وكذلك حين قال لأبى بكر ﷺ: « **إنى رأيت كأنى رقيت أنا وأنت درجاً فى الجنة فسبقتك بدرجتين ونصف** » ، فقال أبو بكر رضى الله عنه يا رسول الله ، أقبض بعدك بسنتين ونصف فكان كذلك[٦] . ورأت عائشة ﷺ سقوط ثلاثة أقمار فى حجرتها فأوّلها أبوها بموته ، وموت النبى ﷺ، وموت عمر رضى الله عنه ودفنهم فى حجرتها فكان الأمر كذلك[٧] .

وحكى : أن أم الشافعى ﷺ لما حملت به رأت كأن المشترى خرج من فرجها ، وانقض بمصر ، ثم تفرق فى كل بلد قطعة ، فأوّل بعالم يكون بمصر ، وينتشر علمه بأكثر البلاد فكان كذلك .

وحكى **أيضاً** : أن عاملاً أتى عمر ﷺ فقال : رأيت الشمس والقمر اقتتلا، فقال له عمر : مع من كنت ؟ قال : مع القمر ، فقال : مع الآية الممحوة ! والله لا وليت لى عملا فعزله ، ثم اتفق أن علياً ﷺ وقع بينه وبين معاوية ما وقع فكان ذلك الرجل مع معاوية .

وأما : من مهر فى تعبير الرؤيا فهو ابن سيرين ، جاءه رجل فقال له : رأيت كأنى أسقى شجرة زيتون زيتا ، فاستوى جالساً فقال : ما التى تحتك ؟ قال : علجة اشتريتها ، وفى رواية جارية وأنا أطؤها فقال : أخاف أن تكون أمك ، فكشف عنها فوجدها أمه ! . وجاءه رجل فقال : رأيت كأن فى يدى خاتماً أختم به فروج النساء ، وأفواه الرجال ، فقال له : أنت مؤذن تؤذن بالليل ، فتمنع الرجال والنساء من الأكل والوطء . وجاءه رجل فقال : رأيت جارة لى قد ذبحت فى بيت من دارها ، فقال : هى امرأة نكحت فى ذلك البيت . وكانت امرأة لصديق ذلك الرجل ، فاغتم لذلك ، ثم بلغه أن الرجل قدم فى تلك الليلة ، وجامع زوجته فى ذلك البيت .

وجاءه رجل ومعه جراب ، فقال له : رأيت فى النوم كأنى أسد الزقاق سدا وثيقاً شديداً فقال له : أنت رأيت هذا ،

---

(١) الأجْداث: مفردها جدَث، وهو القبر.

(٢) « الرؤيا الصالحة جزء من ستين جزءا من النبوة » . الذى أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب التعبير « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » . قال الحافظ فى الفتح : وجاءت فى تلك روايات كثيرة أقلها جزء من ستة وعشرين وأكثرها من ستة وسبعين .

(٣) وكان النبى ﷺ « أول ما بدئ به الوحى . . . » إلخ . رواه الشيخان عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . . » .

(٤) « ما حكى أن النبى ﷺ رأى فى الجنة غرفاً . . . » إلخ . انظر الإصابة ترجمة عكرمة رقم [٥٦٤٢] .

(٥) « وكذلك تأول فى قتل الحسين » . عزاه الهندى فى « كنز العمال » . [٣٤٣٢٢] ، لابن عساكر عن الحسين بن على .

(٦) « وكذلك حين قال لأبى بكر . . . » . إلخ . ذكره السيوطى فى الخصائص الكبرى [٢/ ١١٥] ، وعزاه لابن سعد .

(٧) « ورأت عائشة . . » . إلخ . عزاه الهيثمى فى « مجمع الزوائد » . [٧/ ١٨٥] ، الطبرانى وقال « ورجاله رجال الصحيح » .

قال : نعم . فقال لمن حضره: ينبغى أن يكون هذا الرجل يخنق الصبيان ، وربما يكون فى جرابه آلة الخنق ، فوثبوا عليه ، وفتشوا الجراب فوجدوا فيه أوتاراً وحلقاً ، فسلموه إلى السلطان . وجاءته امرأة وهو يتغدى ، فقالت له : رأيت فى النوم كأن القمر دخل فى الثريا ، ونادى منادٍ من خلفى أن ائتى ابن سيرين ، فقصى عليه ، فتقلصت يده ، وقال : ويلك كيف رأيت هذا ، فأعادت عليه . فقال لأخته : هذه تزعم أنى أموت لسبعة أيام ، وأمسك يده على فؤاده ، وقام يتوجع ، ومات بعد سبعة أيام .

وجاءه رجل فقال : رأيت كأنى آخذ البيض وأقشره فآكل بياضه ، وألقى صفاره ، فقال : إن صدق منامك فأنت نباش الموتى فكان كذلك .

وحكى أن ابن سيرين رأى الجوزاء قد تقدمت على الثريا ، فجعل يوصى ، وقال : يموت الحسن ، وأموت بعده ، وهو أشرف منى ، فمات الحسن ، ومات بعده بمائة يوم .

وحكى أن رجلاً رأى عيسى عليه السلام فقال له : يانبى الله: صلبك حق ؟ قال : نعم، فعبره على بعضهم فقال : تكذب رؤياك بقوله تعالى : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧] . ولكن هو عائد على الرائى فكان كذلك .

وأتى ابنه مغيث آت فى المنام فقال لها :

لك البشرى بولد ... أشبه شىء بالأسد
إذا الرجال فى كبد ... تغالبوا على بلد
كان له حظ الأسد

فولدت المختار بن أبى عبيد ، وذلك فى عام الهجرة .

وقال رجل لسعيد بن المسيب رأيت كأنى بُلت خلف المقام أربع مرات . قال : كذبت لست صاحب هذه الرؤيا . قال : هو عبد الملك ؛ فقال : يلى أربعة من صلبه الخلافة .

وقال الشافعى رضى الله عنه رأيت عليا رضى الله عنه فى المنام فقال لى : ناولنى كتبك ، فناولته إياها فأخذها ، وبددها فأصبحت أخا كآبة ، فأتيت الجعد ، فأخبرته فقال : سيرفع الله شأنك ، وينشر علمك ، وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « **مَنْ رَآنِى فِى مَنَامِهِ فَقَدْ رَآنِى حَقًّا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِى** »(١) . وجاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : رأيت كأن رأسى قد قطع ، وأنا أنظر إليه فضحك رسول الله ﷺ وقال : « **بأىّ عين كنت تنظر إلى رأسك ؟!** »(٢) . فلم يلبث رسول الله ﷺ أن توفى ، وأوّلوا رأسه بنبيه ، ونظره إليه باتباع سنته . وقال رجل لعلىّ بن الحسين : رأيت كأنى أبول فى يدى ، فقال : تحتك مَحْرم فنظروا فإذا بينه وبين امرأته رضاع . وقال أبو حنيفة رضى الله عنه رأيت كأنى نبشت قبر رسول الله ﷺ : فضممت عظامه إلى صدرى فهالنى ذلك ، فسألت ابن سيرين فقال : ما ينبغى لأحد من أهل هذا الزمان أن يرى هذه الرؤيا قلت : أنا رأيتها ، قال : إن صدقت رؤياك لتحيين سنة نبيك ﷺ.

وقال النبى ﷺ : « **الرؤيا الصالحة بشارة للمؤمن بماله عند الله من الكرامة فى الدنيا والآخرة** »(٣) . وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : تضرعت إلى ربى سنة أن يرينى أبى فى النوم ، حتى رأيته ، وهو يمسح العرق عن جبينه ، فسألته فقال : لولا رحمة الله لهلك أبوك ، إنه سألنى عن عقال بعير للصدقة ، فسمع بذلك عمر بن عبد العزيز ، فصاح ، وضرب بيده على رأسه وقال : فعل هذا بالتقىّ الطاهر ؟ فكيف بالمقترف عمر بن عبد العزيز ؟! رضى الله عنه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) البخاري في صحيحه ١٢/ ٤٠٠ .

(٢) وجاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : « رأيت كأن رأسى . . » إلخ . لم أهتد إليه .

(٣) وقال النبى ﷺ « الرؤيا الصالحة بشارة . . » . إلخ عزاه الهيثمى فى « المجمع » . [٧/ ١٧٣] ، للطبرانى والبزار .

الباب الحادى والستون

فى الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد والتيقظ والتبصر

الحيلة من فوائد الآراء المحكمة ، وهى حسنة ما لم يستبح بها محظور ، وقد سئل بعض الفقهاء عن الحيل فى الفقه ، فقال : علمكم الله ذلك ، فإنه قال : ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤] . وكان ﷺ إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها ، وكان يقول : « **الحرب خدعة** »[١] . ولما أراد عمر ﷺ قتل الهرمزان استسقى ماء ، فأتوه بقدح فيه ماء ، فأمسكه فى يده ، واضطرب فقال له عمر ، لا بأسَ عليك حتى تشربه ، فألقى القدح من يده ، فأمر عمر بقتله ، فقال : أو لم تؤمّنى ؟! قال : كيف أمّنتك ؟! قال : قلت : لا بأسَ عليك حتى تشربه ! وقولك : لا بأس عليك أمان ، ولم أشربه ، فقال عمر : قاتلك الله أخذت منى أماناً ، ولم أشعر ! . وقيل : كان دهاةُ العرب أربعة كلهم ولدوا بالطائف : معاوية ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، والسائب بن الأقرع[٢] . وكان يقال : الحاجة تفتح أبواب الحيل . وكان يقال : ليس العاقل الذى يحتال للأمور إذا وقع فيها ، بل العاقل الذى يحتال للأمور أن لا يقع فيها . وقال الضحاك بن مزاحم لنصرانى : لو أسلمت ! فقال : ما زلتُ محبًّا للإسلام إلا أنه يمنعنى منه حبى للخمر ! فقال : أسلم واشربها ، فلما أسلم قال له : قد أسلمت فإن شربتها حدَدْناك وإن ارتددت قتلناك ، فاختر لنفسك ، فاختار الإسلام ، وحسن إسلامه فأخذه بالحيلة .

وقيل : دليت من السماء سلسلة فى أيام داود ﷺ عند الصخرة التى فى وسط بيت المقدس ، وكان الناس يتحاكمون عندها ، فمن مد يده إليها وهو صادق نالها ، ومن كان كذاباً لم ينلها ، إلى أن ظهرت فيهم الخديعة فارتفعت . وذلك أن رجلا أودع رجلاً جوهرة فخبأها فى مكانه فى عكازة ، ثم إن صاحبها طلبها من الذى أودعها عنده ، فأنكرها فتحاكما عند السلسلة ، فقال المدعى ، اللهم إن كنت صادقاً فلْتُدْنِ منى السلسلة ، فدنت منه فمسها فدفع المدعى عليه العكازة للمدعى ، وقال : اللهم إن كنت تعلم أنى رددت الجوهرة إليه فلتدن منى السلسلة فدنت منه ، فمسها فقال الناس : قد سوت السلسلة بين الظالم والمظلوم ، فارتفعت بشؤم الخديعة ، وأوحى الله تعالى إلى داود ﷺ أن احكم بين الناس بالبينة واليمين ، فبقى ذلك إلى قيام الساعة وكان المختار ابن أبى عبيد الثقفى من دهاة ثقيف ، وثقيف دهاة العرب ، قيل : إنه وجه إبراهيم بن الأشتر إلى حرب عبيد الله بن زياد ، ثم دعا برجل من خواصه فدفع إليه حمامة بيضاء ، وقال له : إن رأيت الأمر عليكم فأرسلها ، ثم قال للناس إنى لأجد فى محكم الكتاب ، وفى اليقين والصواب ، أن الله ممدكم بملائكة غضاب صعاب ، تأتى فى صور الحمام تحت السحاب . فلما كادت الدائرة تكون على أصحابه ، عمد ذلك الرجل إلى الحمامة فأرسلها ، فتصايح الناس الملائكة الملائكة ، وحملوا فانتصروا ، وقتلوا ابن ز د .

وعن أبى هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **خَرَجَتِ امْرَأَتَانِ وَمَعَهُمَا صَبِيَّانِ ، فَعَدَا الذِّئْبُ عَلَى صَبِيِّ إِحْدَاهُمَا فَأَكَلَهُ ، فَاخْتَصَمَتَا فِى الصَّبِيِّ الْبَاقِى إِلَى دَاوُدَ** ﷺ فَقَالَ كَيْفَ أَمْرُكُمَا ، فَقَصَّتَا عَلَيْهِ الْقِصَّةَ ، فَحَكَمَ بِهِ لِلْكُبْرَى مِنْهُمَا فَاخْتَصَمَتَا إِلَى سُلَيْمَانَ ﷺ فقال : ائْتُونِى بِسِكِّينٍ أَشُقُّ الْغُلَامَ نِصْفَيْنِ لِكُلٍّ مِنْهُمَا نِصْفٌ ، فَقَالَتِ الصُّغْرَى : أَتَشُقُّهُ يَانَبِىَّ اللَّهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَتْ : لَا تَفْعَلْ ونَصِيبِى فِيهِ لِلْكُبْرَى ، فقال : خُذِيهِ ، فَهُوَ ابْنُكِ ، وَقَضَى بِهِ لَهَا »[٣] . وجاء رجل إلى سليمان بن داود ﷺ وقال : يانبى الله إن لى جيرانا يسرقون إوَزّى فلا أعرف السارق ، فنادى : الصلاة جامعة ، ثم خطبهم ، وقال فى خطبته : وإن أحدكم ليسرق إوزّ جاره ، ثم يدخل المسجد والريش على رأسه ، فمسح الرجل رأسه ، فقال سليمان : خذوه فهو صاحبكم . وخطب المغيرة بن شعبة وفتى من العرب امرأة ، وكان شاباً جميلا ، فأرسلت إليهما أن يحضرا عندها ، فحضرا ، وجلست بحيث تراهما ، وتسمع كلامهما ، فلما رأى المغيرة ذلك الشاب ، وعاين جماله ، علم أنها تؤثره عليه ، فأقبل على

---

(١) مسلم في صحيحه ٣/ ١٧٣٨ .

(٢) هناك من عدوا رابع الدهاة زياد ابن أبيه وقد فصلت ذلك فى كتابى « دهاة العرب فى الإسلام » .

(٣) وعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خرجت امرأتان . . . » . إلخ أخرجه مسلم فى صحيحه - كتاب الأقضية - باب اختلاف المجتهدين [١٧٢٠] .

الفتى ، وقال : لقد أوتيت جمالاً فهل عندك غير هذا ؟ قال : نعم . فعدد محاسنه ، ثم سكت . فقال له المغيرة . كيف حسابك مع أهلك ؟ قال : ما يخفى علّى منه شيء ، وإنى لأستدرك منه أدق من الخردل ، فقال المغيرة ، لكنى أضع البَدْرة فى بيتى ، فينفقها أهلى على ما يريدون ، فلا أعلم بنفادها حتى يسألونى غيرها ، فقالت المرأة : والله، لهذا الشيخ الذى لا يحاسبنى أحب إلىّ من هذا الذى يحصى على مثقال الذرة ؛ فتزوجت المغيرة ! وبلغ عضد الدولة أن قوماً من الأكراد يقطعون الطريق ، ويقيمون فى جبال شامخة ، ولا يقدر عليهم ، فاستدعى بعض التجار ، ودفع إليه بغلا عليه صندوقان ، فيهما حلوى مسمومة ، كثيرة الطيب ، فى ظروف فاخرة ، ودنانير وافرة ، وأمره أن يسير مع القافلة ، ويظهر أن هذه هدية لإحدى نساء الأمراء ، ففعل التاجر ذلك ، وسار أمام القافلة ، فنزل القوم ، فأخذوا الأمتعة والأموال ، وانفرد أحدهم بالبغل ، وصعد به الجبل ، فوجد به الحلوى ، فقبح على نفسه أن ينفرد بها دون أصحابه ، فاستدعاهم ، فأكلوا على مجاعة ، فماتوا عن آخرهم ! وأخذ أرباب الأموال أموالهم . وأتى لبعض الولاة برجلين قد اتُّهِمَا بسرقة ، فأقامهما بين يديه ، ثم دعا بشربة ماء ، فجيء له بكوز فرماه بين يديه ، فارتاع أحدهما وثبت الآخر ، فقال للذى ارتاع : اذهب إلى حال سبيلك ، وقال للآخر : أنت أخذت المال ، وتلذذت به ، وتهدده ، فأقر ! فسئل عن ذلك ، فقال : إن اللص قوى القلب ، والبرىء يجزع ، ولو تحرك عصفور لفزع منه ! وقصد رجل الحج ، فاستودع إنساناً مالاً فلما عاد طلبه منه ، فجحده المستودع ، فأخبر بذلك القاضى إياساً فقال : أعلم بأنك جئتنى ؟ قال : لا قال : فعد إلى بعد يومين ، ثم إن القاضى إياساً بعث إلى ذلك الرجل ، فأحضره ، ثم قال له : اعلم أنه قد تحصلت عندى أموال كثيرة لأيتام وغيرهم ، وودائع للناس ، وإنى مسافر سفراً بعيداً وأريد أن أُودِعَها عندك لما بلغنى من دينك ، وتحصين منزلك ، فقال : حُبًّا وكرامة ، قال : فاذهب وهيّىء موضعاً للمال ، وقوماً يحملونه ، فذهب الرجل ، وجاء صاحب الوديعة ، فقال له القاضى إياس : امض إلى صاحبك ، وقل له : ادفع إلىّ مالى وإلا شكوتك للقاضى إياس ، فلما جاءه وقال له ذلك دفع إليه ماله ، واعتذر إليه ، فأخذه وأتى إلى القاضى إياس ، فأخبره ثم بعد ذلك أتى الرجل ، ومعه الحمالون لطلب الأموال التى ذكرها له القاضى ، فقال له القاضى بعد أن أخذ الرجل ماله منه : بدا لى ترك السفر ، امض لشأنك لا أكثر الله فى الناس مثلك ! . ولما أراد شيرويه قتل أبيه أبرويز قال أبرويز للداخل عليه ليقتله : إنى لأدلك على شيء فيه غناك لوجوب حقك على ، قال : وما هو ؟ قال : الصندوق الفلانى ، فلما قتله ذهب إلى شيرويه ، وأخبره الخبر ، فأخرج الصندوق ، فإذا فيه حق[1] فيه حَبّ ، ورقعة مكتوب فيها ، من تناول منه حَبّة واحدة افتض عشرة أبكار ، وكان لشيرويه غرام فى الباه ، فتناول منه حَبّة فهلك من ساعته ، فكان أبرويز أوّل مقتول أخذ بثأره من قاتله .

ولما بايع الرشيد لأولاده الثلاثة بولاية العهد تخلف رجل مذكور من الفقهاء ، فقال له الرشيد ، لم تخلفت ؟ فقال : عاقنى عائق ، فقال : اقرءوا عليه كتاب البيعة ، فقال : ياأمير المؤمنين ، هذه البيعة فى عنقى إلى قيام الساعة ، فلم يفهم الرشيد ما أراد ، وظن أنه إلى قيام الساعة يوم الحشر ، وما أراد الرجل إلا قيامه من المجلس .

وقال المغيرة بن شعبة لم يخدعنى غير غلام من بنى الحارث بن كعب ، فإنى ذكرت امرأة منهم لأتزوّجها فقال : أيها الأمير لا خير لك فيها ، فقلت : ولم ؟ قال : رأيت رجلا يقبلها ، فأعرض عنها فتزوّجها الفتى ، فلمته وقلت : ألم تخبرنى أنك رأيت رجلاً يقبلها ؟! قال : نعم . رأيت أباها يقبلها . وأتى رجل إلى الأحنف ، فلطمه ، فقال : ما حملك على هذا ؟ فقال : جُعِلَ لى جُعْل على أن ألطم سيد بنى تميم ، فقال : لست بسيدهم ، عليك بحارثة ابن قدامة ، فإنه سيدهم ، فمضى إليه فلطمه ، فقطعت يده . وقال الشعبى : وجهنى عبد الملك إلى ملك الروم ، فقال لى : مِن أهل بيت الخلافة أنت ؟ قلت : لا ! ولكنى رجل من العرب ، فكتب إلى عبد الملك رقعة ، ودفعها إلّى فلما قرأها عبد الملك قال لى أتدرى ما فيها ؟ قلت : لا . قال فيها العجب لقوم فيهم مثل هذا ، كيف يولون أمرهم غيره ؟! قال : أتدرى ما أراد بهذا ! قلت : لا . قال : حسدنى عليك ، فأراد أن أقتلك ! فقلت : إنما كبرت عنده ياأمير المؤمنين ، لأنه لم يرك ، ولم يترك شيئاً إلا سألنى عنه ، وأنا أجيبه ، فبلغ ملك الروم ما قاله عبد الملك للشعبى ، فقال :لله أبوه ! ما عدا ما فى نفسى ! .

ولما ولى عبد الملك بن مروان أخاه بِشْرًا الكوفة : وكان شاباً ظريفاً غزلا بعث معه روح ابن زنباع ، وكان شيخاً

---

(١) الحق: بضم الحاء وتشديد القاف: وعاء صغير ذو غطاء يُتَّخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما.

متورعاً فثقل على بشر مرافقته ، فذكر ذلك لندمائه ، فتوصل بعض ندمائه إلى أن دخل بيت روح بن زنباع ليلا فى خفية ، فكتب على حائط قريب من مجلسه هذه الأبيات :

يـاروحُ مـن لـبـنـيـاتِ وأرْمَـلَـةٍ ... إذا نـعـاك لأهـل الـمـغـرب الـنـاعـى ؟!
إن ابـن مـروان قـد حـانـت مـنـيـتـه ... فـاحـتـل بـنـفـسـك يـاروح بـن زنـبـاع

فتخوّف من ذلك ، وخرج من الكوفة ، فلما وصل إلى عبد الملك أخبره بذلك فاستلقى على قفاه من شدة الضحك ، وقال : ثقلت على بشر وأصحابه ، فاحتالوا لك ! .

ومن الحيل الظريفة : ما حكى أن النبى ﷺ لما فتح خيبر ، وأعرس بصفية ، وفرح المسلمون ، جاءه الحجاج بن عِلاط السلمى ، وكان أوّل ما أسلم فى تلك الأيام ، وشهد خيبر فقال : يا رسول الله إن لى بمكة مالاً عند صاحبتى أم شيبة ، ولى مال متفرق عند تجار مكة ، فأذن لى يا رسول الله فى العود إلى مكة ، عسى أسبق خبر إسلامى إليهم ، فإنى أخاف إن علموا بإسلامى أن يذهب جميع مالى بمكة ، فأذن لى لعلى أخلصه ، فأذن له رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إنى أحتاج أن أقول : فقال له رسول الله ﷺ : « **قل وأنت فى حل** » ، قال الحجاج : فخرجت فلما انتهيت إلى الثنية ثنية البيضاء ، وجدت بها رجالاً من قريش يتسمعون الأخبار ، وقد بلغهم أن رسول الله ﷺ سار إلى خيبر ، فلما أبصرونى قالوا هذا لعمر الله عنده الخبر ، أخبرنا ياحجاج فقد بلغنا أن القاطع - يعنون محمداً ﷺ قد سار إلى خيبر ، قال : قلت : إنه قد سار إلى خيبر ، وعندى من الخبر ما يسركم ، قال : فأحدقوا حول ناقتى يقولون : إيه ياحجاج ! قال : فقلت : هُزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط ، وأُسِر محمد ، وقالوا : لا نقتله ، حتى نبعث به إلى مكة فيقتلونه بين أظهرهم ، بمن كان أصَاب من رجالهم قال : فصاحوا بمكة ، قد جاءكم الخبر ، وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم ، قال : فقلت أعينونى على جمع مالى من غرمائى فإنى أريد أن أقدم خيبر ، فأغنم من ثقل محمد وأصحابه ، قبل أن يسبقنى التجار إلى هناك ، فقاموا معى فجمعوا لى مالى كأحسن ما أحب ، فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر ، أقبل علىّ حتى وقف إلى جانبى ، وأنا فى خيمة من خيام التجار فقال : ياحجاج ما هذا الخبر الذى جئت به ؟ قال : فقلت : وهل عندك حفظ لما أودعه عندك من السر ، فقال : نعم ، والله ، قال : قلت استأخر عنى حتى ألقاك على خَلاء ، فإنى فى جمع مالى كما ترى ، فانصرف عنى حتى إذا فرغتُ من جمع كل شىء كان لى بمكة ، وأجمعت على الخروج ، لقيت العباس ، فقلت له : احفظ علىّ حديثى ياأبا الفضل ، فإنى أخشى أن يتبعونى ، فاكتم علىّ ثلاثة أيام ، ثم قل ما شئت ، قال : لك علّى ذلك ، قال : قلت : والله ما تركت ابن أخيك إلا عروساً على ابنة ملكهم ، يعنى : صفية ، وقد افتتح خيبر وغنم ما فيها ، وصارت له ولأصحابه ، قال : أحق ما تقول ياحجاج ؟ قال : قلت : إى والله ، ولقد أسلمت ، وما جئت إلا مسلماً لآخذ مالى خوفاً من أن أغلب عليه ، فإذا مضت ثلاثة فأظهر أمرك فهو والله على ما تحب ، قال : فلما كان فى اليوم الرابع ، لبس العباس حلة له ، وتخلق بالطيب ، وأخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى الكعبة ، فطاف بها ، فلما رأوه قالوا : ياأبا الفضل ، هذا والله هو التجلّد لحر المصيبة ، قال : كلا والذى حلفتم به ، لقد افتتح محمد خيبر ، وترك عروساً على ابنة ملكهم ، وأحرز أموالهم وما فيها ، فأصبَحت له ولأصحابه . قالوا : من جاءك بهذا الخبر ؟ قال : الذى جاءكم بما جاءكم به ، ولقد دخل عليكم مُسْلِمًا ، وأخذ ماله ، وانطلق ليلحق محمدًا وأصحابه ، ليكون معهم ، قالوا : تفلت عدوّ الله ، أما والله لو علمنا به لكان لنا وله شأن ، قال : ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك ، فتوصل الحجاج بفطنته واحتياله إلى تخليصه ، وتحصيل[1] ماله .

ولما اجتمعت الأحزاب على حرب رسول الله ﷺ عام الخندق ، وقصدوا المدينة ، وتظاهروا وهم فى جمع كثير وجم غفير من قريش وغطفان ، وقبائل العرب ، وبنى النضير ، وبنى قريظة من اليهود ، ونازلوا رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين ، واشتد الأمر ، واضطرب المسلمون ، وعظم الخوف على ما وصفه الله تعالى فى قوله تعالى : ﴿إِذْ

---

(١) قصة إسلام الحجاج بن عِلاط السلمى وما قام به من حيلة لاسترداد أمواله من أهل مكة ذكرها ابن حجر فى ترجمته بالإصابة جزء ثان [رقم ١٦٢٤] ، وقال : الحديث بطوله رواه أحمد وأبو إسحاق عن عبد الرزاق ، ورواه النسائى عن إسحاق وأبى يعلى والطبرانى وابن منده من طريق عبد الرزاق .

جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١٠-١١] . فجاء نعيم بن مسعود بن عامر الغطفانى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنى قد أسلمت ، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى فمرنى بما شئت ؛ فقال له رسول الله ﷺ : « **خَذِّلْ عَنَّا إِنِ اسْتَطَعْتَ فَإِنَّ الحَرْبَ خِدْعَةٌ** » . فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة ، وكان نديماً لهم فى الجاهلية فقال : يابنى قريظة ، قد علمتم ودى إياكم وخاصة ما بينى وبينكم قالوا : صدقت لست عندنا بمتهم ، فقال لهم : إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، فإن البلد بلدكم وبه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تتحوّلوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وأموالهم وأولادهم ونساؤهم بغير بلدكم ، وليسوا مثلكم ، لأنهم إن رأوا فرصة اغتنموها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً قالوا : أشرت بالرأى ، ثم أتى قريشاً فقال لأبى سفيان بن حرب - وكان إذ ذاك قائد المشركين من قريش ، ومن معه من كبراء قريش - : قد علمتم ودى لكم ، وفراقى محمداً ، وأنه قد بلغنى أمر وأحببت أن أبلغكموه نصحاً لكم ، فاكتموه على . قالوا : نعم . قال : اعلموا أن معشر يهود بنى قريظة ، قد ندموا على ما فعلوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه يقولون : إنا قد ندمنا على نقض العهد الذى بيننا وبينك ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم ، فنسلمهم إليك فتضرب رقابهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم ، فنستأصلهم ؟! فأرسل يقول : نعم فإن بعث إليكم يهود يلتمسون منكم رهائن من رجالكم ، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً ، ثم خرج حتى أتى غطفان ، فقال لهم : مثل ما قال لقريش ، وحذرهم فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان ورءوس بنى غطفان إلى بنى قريظة يقولون لهم : إنا لسنا بدار مقام ، وقد هلك الخف والحافر فاعتدوا للقتال ، حتى نناجز محمدا ، ونفرغ فيما بيننا وبينه ، فأرسلوا يقولون لهم : إن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا ولسْنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً ، فإنا نخشى إن دهمتكم الحرب ، واشتد عليكم القتال أن تشمروا إلى بلادكم ، وتتركونا والرجل فى بلدنا ولا طاقة لنا به ، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان : والله إن الذى حدثكم به نعيم بن مسعود لحق ، فأرسلوا إلى بنى قريظة يقولون : إنا لا ندفع إليكم رجلًا واحدًا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا ، فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل : إن الكلام الذى ذكره نعيم بن مسعود لحق ، وما يريد القوم إلا أن تقاتلوا فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك شمروا إلى بلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم ، فأرسلوا إلى قريش وغطفان إنا لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً فأبوا عليهم ، فخذل الله تعالى بينهم ، وأرسل عليهم الريح ، فتفرقوا وارتحلوا ، وكان هذا من لطف الله تعالى أن ألهم نعيم بن مسعود هذه الفتنة ، وهداه إلى اليقظة التى عم نفعها ، وحسن[1] وقعها ! .

وأما ما جاء فى التيقظ والتبصر فى الأمور : فقد قالت الحكماء : من أيقظ نفسه ، وألبسها لباس التحفظ أيس عدوّه من كيده له ، وقطع عنه أطماع الماكرين به ، وقالوا : اليقظة حارس لا ينام ، وحافظ لا ينسام[2] ، وحاكم لا يرتشى ، فمن تدرع بها أمن من الاختلال والغدر ، والجور والكيد والمكر .

وقيل : إن كسرى أنوشروان كان أشد الناس تطلعاً فى خفايا الأمور ، وأعظم خلق الله تعالى فى زمانه تفحصاً وبحثاً عن أسرار الصدور ، وكان يبث العيون ، على الرعايا والجواسيس في البلاد ، ليقف على حقائق الأحوال ، ويطلع على غوامض القضايا ، فيعلم المفسد ، فيقابله بالتأديب ، والمصلح فيجازيه بالإحسان ، ويقول : متى غفل الملك عن تعرف ذلك ، فليس له من الملك إلا اسمه ، وسقطت من القلوب هيبته .

---

(١) نُعيم بن مسعود يكنى أبا سلمة الأشجعى صحابى مشهور ترجم له ابن حجر وقال : له ذكر فى البخارى أسلم ليالى الخندق وهو الذى أوقع الخلف بين الحيين : قريظة وغطفان فى وقعة الخندق فخالف بعضهم بعضا ورحلوا عن المدينة . أما الحديث : « الحرب خدعة » . فقد قال العجلونى: رواه ابن ماجه عن عائشة أنها قالت : إن نُعيم بن مسعود قال : « يا نبى الله أسلمتُ . . . » . إلخ ورواه العسكرى أيضا .

(٢) نسمَ الشيءُ: تغيَّر طعْمُه، وناسمَه، حادثَه وسارَّهُ.

وروى : عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال : خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ فى ليلة من الليالى يطوف يتفقد أحوال المسلمين ، فرأى بيتًا من الشَّعر مضروبًا ، لم يكن قد رآه بالأمس ، فدنا منه ، فسمع فيه أنين امرأة ، ورأى رجلاً قاعدًا ، فدنا منه وقال له : مَنِ الرجل ؟ فقال له : رجل من البادية ، قدمت إلى أمير المؤمنين لأصيب من فضله قال : فما هذا الأنين ؟ قال : امرأة تتمخض ! قد أخذها الطلق ! قال : فهل عندها أحد ؟ قال : لا . فانطلق عمر والرجل لا يعرفه ، فجاء إلى منزله فقال لامرأته أم كلثوم بنت على بن أبى طالب ، بنت فاطمة الزهراء رضى الله عنهم : هل لك فى أجر قد ساقه الله تعالى لك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : امرأة تتمخض ليس عندها أحد ، قالت : إن شئت ! قال : فخذى معك ما يصلح للمرأة من الخِرَق والدّهن ، وائتينى بقِدْر وشَحْم وحُبوب ، فجاءت به فحمل القدر ، ومشت خلفه ، حتى أتى البيت فقال : ادخلى إلى المرأة ثم قال للرجل : أوقد لى ناراً ففعل ، فجعل عمر ينفخ النار ، ويضرمها والدخان يخرج من خلال لحيته ، حتى أنضجها ، وولدت المرأة فقالت أم كلثوم رضى الله عنها بشّر صاحبك يا أميرَ المؤمنين بغلام ، فلما سمعها الرجل تقول : ياأمير المؤمنين ارتاع وخجل ، وقال : واخجلتاه منك ياأمير المؤمنين ، أهكذا تفعل بنفسك ؟ قال : ياأخا العرب من ولى شيئًا من أمور المسلمين ينبغى له أن يتطلع على صغير أمورهم وكبيره ، فإنه عنها مسئول ، ومتى غفل عنها خسر الدنيا والآخرة ، ثم قام عمر ﷺ وأخذ القِدر من على النار ، وحملها إلى باب البيت ، وأخذتها أم كلثوم وأطعمت المرأة ، فلما استقرت ، وسكنت طلعت أم كلثوم فقال عمر ﷺ للرجل : قم إلى بيتك وكل ما بقى فى البُرمة[1] ، وفى غَدٍ ائتِ إلينا فلما أصبح جاءه فجهزه بما أغناه به ، وانصرف . وكان ﷺ من شدة حرصه على تعرف الأحوال ، وإقامة قسطاس العدل ، وإزاحة أسباب الفساد ، وإصلاح الأمة يعس[2] بنفسه ، ويباشر أمور الرعية سراً فى كثير من الليالى ، حتى أنه فى ليلة مظلمة خرج بنفسه ، فرأى فى بعض البيوت ضوء سراج ، وسمع حديثاً ، فوقف على الباب يتجسس ، فرأى عبدا أسود قدامه إناء فيه مزر[3] ، وهو يشرب ومعه جماعة ، فهم بالدخول من الباب ، فلم يقدر من تحصين البيت ، فتسوّر على السطح ، ونزل إليهم من الدرجة ومعه الدّرة ، فلما رأوه قاموا وفتحوا الباب وانهزموا ، فمسك الأسود فقال له ، ياأمير المؤمنين ، قد أخطأت وإنى تائب فاقبل توبتى ، فقال : أريد أن أضربك على خطيئتك ، فقال : ياأمير المؤمنين ، إن كنت قد أخطأت فى واحدة ، فأنت قد أخطأت فى ثلاث : فإن الله تعالى قال : ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات:١٢] . وأنت تجسست ، وقال تعالى : ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة:١٨٩] وأنت أتيت من السطح ، وقال تعالى : ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور:٢٧] . وأنت دخلت ، وما سلمت ، فهب هذه لهذه ، وأنا تائب إلى الله تعالى على يدك أن لا أعود فاستتابه واستحسن كلامه ، وله ﷺ وقائع كثيرة مثل هذه .

وكان معاوية بن أبى سفيان ﷺ قد سلك طريق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ فى ذلك ، وكان زياد بن أبيه يسلك مسلك معاوية فى ذلك حتى نقل عنه أن رجلا كلمه فى حاجة له ، وجعل يتعرف إليه ويظن أن زيادًا لا يعرفه فقال : أنا فلان ابن فلان ، فتبسم زياد وقال له : أتتعرف إلى وأنا أعرف بك منك بنفسك ؟! والله إنى لأعرفك ، وأعرف أباك ، وأعرف أمك ، وأعرف جَدّك وجدتك ، وأعرف هذه البردة التى عليك ، وهى لفلان ، وقد أعارك إياها فبهت الرجل ! وارتعد حتى كاد يغشى عليه ، ثم جاء بعدهم من اقتدى بهم ، وهو عبد الملك بن مروان والحجاج ولم يسلك بعدهما ذلك الطريق ، واقتفى آثار ذلك الفريق إلا المنصور ثانى خلفاء بنى العباس ، ولى الخلافة بعد أخيه السفاح ، وهى فى غاية الاضطراب ، فنصب العيون ، وأقام المتطلعين ، وبث فى البلاد والنواحى من يكشف له حقائق الأمور والرعايا فاستقامت له الأمور ودانت له الجهات ، ولقد ابتلى فى خلافته بأقوام نازعوه ، وأرادوا خلعه ، وتمردوا عليه ، وتكاثروا فلولا أن الله تعالى أعانه بتيقظه وتبصره ، ماثبت له فى الخلافة قدم ، ولا رفع له مع قصد أولئك القاصدين علم ، لكنه بث العيون ، فعرف من انطوى على خلافه ، فعالجه بإتلافه ، واطلع على عزائم المعاندين فقطّ رءوس عنادهم بأسيافه ، وكان لكمال يقظته يتلقى المحذور بدفعه دون رفعه ، ويعاجل المخوف بتفريق شمله قبل جمعه ، فذلت له الرقاب ، ولانت لخلافته الصعاب ، وقرر قواعدها ، وأحكمها بأوثق الأسباب . فمن آثار يقظته وفطنته ما نقله

---

(١) البُرمة : بضم الباء القِدر من الحجارة . وجمعها بُرم وبرام .

(٢) يعسّ : يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة .

(٣) المِزْرُ - بكسر الميم - نبيذ الذرة خاصة .

عنه عقبة الأزدى قال : دخلت مع الجند على المنصور فارتابنى ، فلما خرج الجند أدنانى ، وقال لى : من أنت ؟ فقلت : رجل من الأزد وأنا من جند أمير المؤمنين قدمت الآن مع عمر ابن حفص ، فقال : إنى لأرى لك هيبة ، وفيك نجابة ، وإنى أريدك لأمر وأنا به معنى ، فإن كفيتنيه رفعتك فقلت : إنى لأرجو أن أصدق ظن أمير المؤمنين فى ، فقال أخفِ نفسَك ، واحضر فى يوم كذا قال : فغبت عنه إلى ذلك اليوم ، وحضرت فلم يترك عنده أحدا ثم قال لى : اعلم أن بنى عمنا هؤلاء قد أبَوْا إلا كيد ملكنا ، واغتياله ، ولهم شيعة بخراسان ، بقرية كذا يكاتبونهم ، ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم ، وألطاف بلادهم فخذ معك عينا من عندى ، وألطافا وكتبا ، واذهب حتى تأتى عبد الله بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب ، فاقدم عليه متخشعاً والكتب على ألسنة أهل تلك القرية ، والألطاف من عندهم إليه ، فإذا رآك فإنه سيردك ، ويقول : لا أعرف هؤلاء القوم ، فاصبر عليه ، وعاوده ، وقل له : قد سيرونى سرا ، وسيروا معى ألطافا وعينا وكلما جبهك ، وأنكر اصبر عليه وعاوده ، واكشف باطن أمره قال عقبة : فأخذت كتبه ، والعين ، والألطاف ، وتوجهت إلى جهة الحجاز حتى قدمت على عبد الله بن الحسن ، فلقيته بالكتب ، فأنكرها ، ونهرنى ، وقال : ما أعرف هؤلاء القوم ! قال عقبة فلم أنصرف ، وعاودته القول : وذكرت له اسم القرية ، وأسماء أولئك القوم ، وأن معى ألطافاً وعينا ، فأنس بى ، وأخذ الكتب ، وما كان معى، قال عقبة : فتركته ذلك اليوم ثم سألته الجواب ، فقال : أما كتاب فلا أكتب إلى أحد ، ولكن أنت كتابى إليهم ، فأقرئهم السلام ، وأخبرهم أن ابنى محمدًا وإبراهيم خارجان لهذا الأمر وقت كذا وكذا ، قال عقبة : فخرجت من عنده وسرت حتى قدمت على المنصور ، فأخبرته بذلك ، فقال لى المنصور : إنى أريد الحج ، فإذا صرت بمكان كذا وكذا ، وتلقانى بنو الحسن ، وفيهم عبد الله فإنى أعظمه وأكرمه وأرفعه ، وأحضر الطعام فإذا فرغ من أكله ، ونظرت إليه فتمثل بين يدى وقف قدامه ، فإنه سيصرف وجهه عنك ، فدر حتى تقف من ورائه واغمز ظهره بإبهام رجلك حتى يملأ عينيه منك ، ثم انصرف عنه ، وإياك أن يراك وهو يأكل ، ثم خرج المنصور يريد الحج حتى إذا قارب البلاد تلقاه بنو الحسن ، فأجلس عبد الله إلى جانبه ، وحادثه فطلب الطعام للغداء ، فأكلوا معه ، فلما فرغوا أمر برفعه ، فرفع ثم أقبل على عبد الله بن الحسن وقال : ياأبا محمد ، قد علمت أن مما أعطيتنى من العهود والمواثيق أنك لا تريدنى بسوء ، ولا تكيد لى سلطاناً ، قال : فأنا على ذلك ياأمير المؤمنين ، قال عقبة : فلحظنى المنصور بعينه ، فقمت حتى وقفت بين يدى عبد الله بن الحسن ، فأعرض عنى فدرت من خلفه ، وغمزت ظهره بإبهام رجلى ، فرفع رأسه وملأ عينيه منى ، ثم وثب حتى جثا بين يدى المنصور ، وقال : أقلنى ياأمير المؤمنين أقالك الله ، فقال له المنصور : لا أقالنى الله إن لم أقتلك ، وأمر بحبسه ، وجعل يتطلب ولديه : محمدًا وإبراهيم ، ويستعلم أخبارهما .

قال على الهاشمى ، صاحب غدائه ، دعانى المنصور يوما فإذا بين يديه جارية صفراء وقد دعاها بأنواع العذاب ، وهو يقول لها : ويلك اصدقينى ، فوالله ما أريد إلا الألفة ، ولئن صدقتينى لأصلن رحمه ، ولأتابعن البرّ إليه وإذا هو يسألها عن محمد بن عبد الله بن الحسن ابن على بن أبى طالب ، وهى تقول : لا أعرف له مكانا ، فأمر بتعذيبها ، فلما بلغ العذاب منها أغمى عليها فقال : كفوا عنها فلما رأى أن نفسها كادت تتلف قال : ما دواء مثلها ؟ قالوا : شم الطيب ، وصب الماء البارد على وجهها ، وأن تسقى السويق [1] ، ففعلوا بها ذلك ، وعالج المنصور بعضه بيده ، فلما أفاقت سألها عنه ، فقالت : لا أعلم ، فلما رأى إصرارها على الجحود قال لها : أتعرفين فلانة الحجامة ؟ فلما سمعت منه ذلك تغير وجهها وقالت : نعم ياأمير المؤمنين تلك فى بنى سليم ، قال : صدقت هى والله أمتى ابتعتها بمالى ، ورزقى يجرى عليها فى كل شهر ، وكسوة شتائها وصيفها من عندى ، سيرتها وأمرتها أن تدخل منازلكم ، وتحجمكم ، وتتعرف أحوالكم وأخباركم ، ثم قال لها : أتعرفين فلاناً البقال ؟ قالت : نعم ياأمير المؤمنين ، هو فى بنى فلان ، قال : صدقت هو والله غلامى ، دفعت إليه مالا وأمرته أن يبتاع به ما يحتاج إليه من الأمتعة ، وأخبرنى أن أمة لكم يوم كذا وكذا جاءت إليه بعد صلاة المغرب تسأله حناء وحوائج ، فقال لها : ما تصنعين بهذا ؟ قالت : كان محمد بن عبد الله بن الحسن فى بعض الضياع بناحية البقيع ، وهو يدخل الليلة وأردنا هذا ليتخذ النساء ما يحتجن إليه

---

(١) السَّويق: بفتح السين المشددة: طعامٌ يُتَّخذ من مدقوق الحنطة والشعير، سُمِّي بذلك لانسياقه في الحلق.

عند دخول أزواجهن من المغيب ، فلما سمعت الجارية هذا الكلام من المنصور ارتعدت من شدة الخوف ، وأذعنت له بالحديث ، وحدثته بكل ما أراد . والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثانى والستون

فى ذكر الدواب والوحوش والطير والهوامّ والحشرات ، وما أشبه ذلك مرتبا على حروف المعجم

حرف الهمزة

[الأسد] : من السباع والأنثى أسدة ، وله أسماء كثيرة : فمن أشهرها أسامة ، والحارث وقسور ، والغضنفر ، وحَيْدرة ، والليث ، والضرغام ، ومن كُناه : أبو الأبطال ، وأبو شبل ، وأبو العباس ، وهو أنواع : منها ما وجهه وجه إنسان ، وشكل جسده كالبقر ، وله قرون سود ، نحو شبر ، ومنها ما هو أحمر كالعُنّاب ، وغير ذلك ، وتلده أمه قطعة لحم ، وتستمر تحرسه ثلاثة أيام ، ثم يأتى أبوه فينفخ فيه ، فتنفرج أعضاؤه ، وتتشكل صورته ، ثم ترضعه وتستمر عيناه مغلقة سبعة أيام ، ثم تفتح ، ويقيم على تلك الحالة بين أبيه وأمه إلى ستة أشهر ، ثم يتكلف الكسب بعد ذلك ، وله صبر على الجوع والعطش ، وعنده شرف نفس يقال : إنه لا يعاود فريسته ، ولا يأكل من فريسة غيره ، ولا يشرب من ماء ولغ فيه كلب ، وفى ذلك يقول بعضهم :

سأترك حُبّكم مِنْ غيرِ بُغضٍ ... وذاك لكثرة الشركاءِ فيه
إذا وقع الذباب على طعامٍ ... رفعتُ يدى ونَفْسِى تشتهيه
وتجتنب الأسودُ وردَ ماءٍ ... إذا كان الكلاب يلغنَ فيه

وإذا أكل نهش نهشاً ، وريقه قليل جداً ، ولذلك يوصف بالبَخْر[1] ، وعنده شجاعة وجبن وكرم ، فمن شجاعته : الإقدام على الأمور ، وعدم الاكتراث بالغير ، ومن جبنه أنه يفر من صوت الديك ، والسِّنّور ، والطَّسْت ، ويتحيّر عند رؤية النار ، ومن كرمه أنه لا يقرب المرأة خصوصا إذا كانت حائضًا ، وقيل : أربع عيون تضىء بالليل : عين الأسد ، وعين النّمِر ، وعين السِّنّور ، وعين الأفعى .

وروى أنه لما تلا رسول الله ﷺ : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾[2] . قال عتبة بن أبى لهب : كفرتُ برب النّجم ، يعنى نفسه ، فقال رسول الله ﷺ : « **اللهم سلط عليه كلباً من كلابك ينهشه** » . فخرج مع أصحابه فى عِير إلى الشام حتى إذا كانوا بمكان يقال له : الزرقاء زأر الأسد ، فجعلت فرائصه ترتعد ، فقالوا له : من أى شىء ترتعد فرائصك ، فوالله ما نحن وأنت إلا سواء ؟ فقال : إن محمداً دعا علىّ ووالله ما أظلت السماء من ذى لهجة أصدقَ من محمد ، ثم وضعوا العشاء ، فلم يدخل يده فيه ثم جاء النوم فحاطوا أنفسهم بمتاعهم وجعلوه بينهم ، وناموا فجاء الأسد يتهمس ، وشمهم رجلا رجلاً حتى انتهى إليه فضغطه ضغطة كانت إياها فسُمع وهو بآخر رمق يقول : ألم أقل لكم إن محمدًا أصدق الناس ؟! ولبعضهم فى الأسد :

---

(١) البَخْر : بناتُ بخْرٍ : سحائب رقاق بيض يأتين قُبُل الصيف .

(٢) الآية الأولى من سورة النجم . وذكر القصة ابن كثير عن ابن عساكر فى ترجمة عتبة بن أبى لهب من طريق محمد بن إسحاق ، وساق الحديث «اللهم سلط عليه كلبا من كلابك» .

عبوسٌ شموسٌ [١] مُضلخِدٌ مكابدٌ ... جرى على الأقران للقِرن قاهِرُ
براثنُه شَثْنٌ [٢] وعيناه في الدُّجى ... كجمر الغَضَى في وجهه الشرّ ظاهر
بديل بأنياب حدادٍ كأنها ... إذا قلص الأشداق عنها خناجر

فائدة : قيل : إن بختنصر رأى فى نومه أن هلاكه يكون على يدى مولود ، فجعل يأمر بقتل الأطفال ، فخافت أم دانيال عليه فجاءت إلى بئر فألقته فيه ، فأرسل الله له أسداً يحرسه ! وقيل : إن بختنصر توهم ذلك فى دانيال فضرّى له أسدين ، وجعلهما فى الجب ، وألقاه عليهما فلم يؤذياه ، وصارا يبصبصان حوله ، ويلحسانه ، فأقام ما شاء الله تعالى أن يقيم ، ثم اشتهى الطعام والشراب ، فأوحى الله تعالى إلى أرمياء بالشام أن اذهب إلى أخيك دانيال بجب كذا بمكان كذا ، قال أرمياء : فسرت إلى ذلك الموضع ، فلما وقفت على رأس ذلك الجب ناديته ، فعرفنى فقال : من أرسلك إلىّ ؟ قلت : أرسلنى إليك ربك بطعام وشراب ، فقال : الحمدلله الذى لا ينسى من ذكره ، والحمدلله الذى لا يخيب من قصده ، والحمدلله الذى من وثق به لا يكله إلى غيره ، والحمدلله الذى يجزى بالإحسان إحساناً ، وبالصبر نجاة وغفرانا ، والحمدلله الذى يكشف ضرنا بعد كربنا ، والحمدلله الذى هو ثقتنا حين تسوء ظنوننا بأعمالنا ، والحمدلله الذى هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا ، قال : ثم صعد به أرمياء من الجب ، وأقام عنده مدة ثم فارقه ورجع [٣] .

وحكى أن يحيى بن زكريا عليهما السلام مرّ بقبر دانيال عليه السلام فسمع منه صوتا يقول : سبحان من تعزز بالقدرة ، وقهر العباد بالموت . قال بعض الصالحين : من قال هذه الكلمات استغفر له كل شىء .

وحكى أن إبراهيم بن أدهم كان فى سفره ، ومعه رفقة ، فخرج عليهم الأسد فقال لهم : قولوا: اللهم احرسنا بعينك التى لا تنام واحفظنا بُركنك الذى لا يرام ، وارحمنا بقدرتك علينا فلا نهلك ، وأنت رجاؤنا ياالله ياالله ياالله ، قال : فولى الأسد هارباً .

وقيل : لما حمل نوح عليه السلام فى سفينته من كلّ زوجين اثنين قال أصحابه : كيف نطمئن ومعنا الأسد ، فسلط الله عليه الحمى ، وهى أوّل حمى نزلت فى الأرض ، ثم شكوا إليه العذرة ، فأمر الله تعالى الخنزير فعطس ، فخرج منه الفأر ، فلما كثر وزاد ضرره ، شكوا ذلك لنوح عليه السلام فأمر الله - سبحانه وتعالى - الأسد فعطس ، فخرج منه الهر ، فحجب الفأر عنهم . ويحرم أكل السبع لنهيه ﷺ : « عَنْ أَكْلِ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ وَكُلِّ ذِي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ » [٤] .

خواصه : فمن خواصه أن صوته يقتل التماسيح ، وشحمه من طلى به بدنه لم يقربه سبع ، ومرارة الذكر منه تحل المعقود ، ولحمه ينفع من الفالج ، وإذا وضعت قطعة من جلده فى صندوق لم يقربه سوس ولا أرضة ، وإذا وضع على جلد غيره من السباع تساقط شعره ، وهو من الحيوان الذى يعيش ألف سنة على ما ذكر ، وعلامة ذلك كثرة سقوط أسنانه .

الإبل : ما خلق الله شيئاً من الدواب خيراً من الإبل ، إن حملت أثقلت وإن سارت أبعدت ، وإن حلبت أروت ، وإن نحرت أشبعت . وفى الحديث : « **الإبل عزٌّ لأهلها ، والغنم بركة ، والخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة** » [٥] . وهى من الحيوان العجيب ، وإن كان عجبه قد سقط لكثرة مخالطته الناس ، وقد أطاعها الله للآدمىّ وغيره حتى قيل إن قطاراً كان ببعض حبله دهن ، فمرت فأرة فجذبته فسار معها القطار بواسطة جذبها له ، وهى مراكب البر ولذلك قرنها الله تعالى بالسفن فقال تعالى : ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر:٨٠] . ولما كانت مراكب البر ، والبر فيه ما ماؤه قليل ، وما ماؤه كثير جعل الله تعالى له صبراً على العطش حتى قيل : إنه يرتفع ظمؤها إلى عشر وفى الحديث : « **لا تسبوا الإبل فإنها من نفس الله تعالى** » [٦] أى : مما يوسع به على الناس . والذى يعرف « لَا تَسُبُّوا

---

(١) الشَّمُوس: النَّفُور العَسِر الصحبة.

(٢) الشَّثْن: الغليظ الخَشِن.

(٣) كثيرة هى الحكايات التى تحكى من الإسرائيليات . وللأنبياء معجزات .

(٤) رواه مسلم عن ابن عباس .

(٥) « الإبل عز لأهلها . . » إلخ قوله : الإبل عز لأهلها . وقيل « الغنم بركة » . أخرجه الحارث بن أبى أسامة برقم [٤١٩ - زوائده/ ط دار الطلائع]، بسندٍ ضعيف جدًّا كما قال محققه . وأخرجه أيضا ابن ماجه [٢٣٠٥] ، وغيره عن عروة .

(٦) « لا تسبوا الإبل . . » . إلخ لم أهتد إليه . قال الدميرى : حكاه ابن سيده .

الرِّيح فإنَّها مِن نَفَسِ الرَّحْمَنِ »[١] . قال أصحاب الكلام فى طبائع الحيوان : ليس لشىء من الفحول مثل ما للجمل عند هيجانه فإنه يسوء خلقه ، فيظهر زبده ، ويقل رغاؤه فلو حمل عليه ثلاثة أضعاف عادته حمل ، ويقل أكله ، ويخرج له عند رغائه شقشقة[٢] لا تعرف من أى شىء هى من أجزائه ؟ وهو من الأحرار حتى قيل : إنه لا ينزو على أمه ، ولا على أخته ، حتى قيل : إن بعض العرب ستر ناقة بثوب ، ثم أرسل عليها ولدها ، فلما عرف ذلك عمد إلى إحليله فأكله ، ثم حقد على صاحبه حتى قتله ، وليس له مرارة ، ولذلك كثر صبره ، وقيل : يوجد على كبده شىء رقيق يشبه المرارة ، ينفع الغشاوة فى العين كحلاً ، وفى معدته قوة ، حتى إنها تهضم الشوك وتستطيبه ويحل أكله بالنص والإجماع . وأما تحريم يعقوب عليه السلام أكلها فباجتهاد منه ، وذلك أنه كان يسكن البوادى ، فاشتكى عِرقَ النَّسَا فلم يجد ما يلائمه إلا ترك أكل لحومها فلذلك حرمها . وأما انتقاضُ الوضوء بأكل لحمها ، فاختلف العلماء فى ذلك فذهب الأكثرون إلى أنه لا ينقض ، وعليه الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وأُبَىّ ، وابن عباس ، وأبو الدرداء ، وأبو طلحة ، وعامر بن ربيعة ، وأبو أمامة وجماهير التابعين ، وبه أخذ مالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابهم ، وخالف فى ذلك أحمد ، وإسحاق ، ويحيى بن يحيى ، وابن المنذر ، وابن خزيمة واختاره البيهقى ، وهو مذهب الشافعى القديم .

خواصه : قال ابن زهر وغيره : أكل لحمه يزيد فى الباه ، وفى الإنعاظ ، بعد الجماع ، وبوله يفيق السكران ، ووبره إذا أحرق وذرّ على دم سائل قطعه ، وقراده إذا ربط على كم عاشق يزول عشقه .

الأرضة : - بفتح الهمزة والراء - دويبة صغيرة ، كنصف العدسة ، تأكل الخشب والورق ، ولما كان فعلها فى الأرض أضيف اسمها إليها ، قال القزوينى : إذا أتى على الأرضة سنة نبت لها جناحان طويلان ، تطير بهما ، ويقال : إنها الدابة التى دلت الجن على موت سليمان عليه السلام ومن شأنها أنها تبنى لنفسها بيتاً من عيدان تجمعها مثل بيت العنكبوت منخرطاً من أسفله إلى أعلاه ، وله فى إحدى جهاته باب مربع ، ومنه تعلم الأوائل وضع النواويس لموتاهم ، والنمل عدوّها وهو أصغر منها فيأتى من خلفها ، ويحتملها ، ويمشى بها إلى جحره ، لأنه إذا أتاها مستقبلا لا يغلبها .

الأرنب : حيوان شبه العَناق ، قصير اليدين ، طويل الرجلين ، يطأ الأرض على مؤخر قدميه ، وهو اسم يطلق على الذكر والأنثى ، وله شدّة شبق ، وربما تسفد[٣] وهى حبلى ، ويكون عاماً ذكراً وعاما أنثى . ومن عجائبها أنها تنام وعيناها مفتوحتان ، فيأتى الصياد فيظنها مستيقظة ، قيل من رأى أرنباً عند خروجه من بيته أول ما يخرج ، أو رآه عند قيامه من نومه ، واصطبح به لم تقض له حاجة فى ذلك اليوم ، ومن عجيب أمره أن تحمل الأنثى منه باثنين وثلاثة وأربعة ، ولا تلد إلا تحت الأرض خوفا على أولادها من الإنسان ، وتحفر تحت الأرض الحفائر القوية ، حتى إنها تخرب الجدران ، وعند ولادتها ينتحل شعرها ، وهى تحضن الأولاد إلى عشرين يوما ، ومن طبعه أنه أبله ، وفيه قوّة وشدة وفى سفاده حالة نزوه يصرخ الذكر والأنثى كالسنانير ، فإذا وقع منه الإنزال وقع على الأرض قليل الحركة ، وعند سفاده تدير له وجهها فإذا ملكها بعد ذلك ، فإنها تجرى به وهو راكب عليها ويجرى معها .

فائدة : ذكر ابن الأثير فى الكامل : أن صديقا له اصطاد أرنباً وله أنثيان وذكر وفرج .

وقيل التقطت الأرنب تمرة فاختلسها الثعلب ، فأكلها فانطلقا يتخاصمان إلى الضب فقالت الأرنب : ياأبا حِسْل فقال : سميعاً دعوت ، قالت : أتيناك لنختصم ، قال : عادلا حكمتما ، قالت : فاخرج إلينا ، قال فى بيته يؤتى الحكم . قالت : إنى وجدت تمرة حلوة، قال : فكليها ، قالت : قد اختلسها الثعلب ، قال : لنفسه بغى الخير، قالت : فلطمته ، قال: بحقك أخذت ، قالت : فلطمنى ، قال : اقتص . قالت : فاقض بيننا ، قال : قد قضيت. فذهبت أقواله أمثالاً . ومن ذلك ما حكى أن عدى بن أرطأة أتى شريحاً القاضى فى مجلس حكمه ، فقال له : أين أنت ؟ قال : بينك وبين الحائط قال : فاسمع منى ، قال : للاستماع جلست ، قال : إنى تزوّجت امرأة ، قال : بالرفاء والبنين . قال : فشرط أهلها أن لا أخرجها من بينهم ، قال : أوف لهم بالشرط ، قال : فأنا أريد الخروج ،

---

(١) « لا تسبوا الريح فإنها . . » . إلخ [كشف الخفاء ٣٠٢٨/ ٢] ، قال العجلونى رواه أحمد وابن ماجه عن أبى هريرة بلفظ « لا تسبوا الريح فإنها من روح الله » .

(٢) شَقْشَقَ الجمل: هَدَر وهاجَ.

(٣) سَفِد: أي نزَا.

قال : الشرط أملك ، قال : أريد أن أذهب ، قال : فى حفظ الله . قال : فاقض بيننا ، قال : قد فعلت ، قال : فعلى من قضيت ؟ قال : على ابن أمك . قال : بشهادة من ؟ قال : بشهادة ابن أخت خالك .

الخواص : قال الجاحظ : من علق عليه كعب أرنب لم تضره عين ولا سحر ، وأكل دماغه يبرئ من الارتعاش العارض من البرد ، وإن شربت المرأة الحامل أنفحة الذكر ، ولدت ذكرا ، وإن شربت أنفحة الأنثى ولدت أنثى ، وإن علقت عليها زبلها لم تحمل ، والأرنب البحرى من السموم فلا يحل أكله .

سقنقور : دابة شكلها كالوزغة[١] ، إذا أخذت ، وسلخت وملحت ، وشرب منها مثقال زاد فى الباه ، وهو من الأشياء النفيسة عند أهل الهند يقال : إنه يهدى إليهم فيذبحونه بسكين من الذهب ، ويحشونه من ملح مصر ، فإذا وضعوا منه مثقالاً على لحم أو بيض نفع نفعاً عظيما .

الأفعى : الأنثى من الحيات والذكر أفعوان ، وهو يعيش ألف سنة على ما يقال ، ويعرف بالشجاع والأسود ، وهو أشر الحيات وأشرها حيات وأفاعى سجستان ، ومن أعجب ما يحكى عنها أنها لدغت إنساناً فى رجله فانصدعت جبهته . وحكى أنها نهشت ناقة وفصيلها يرتضع فمات قبل أمه ، وقيل : لما دخل شبيب بن شبة على المنصور قال له : يا شبيب أدخلت سجستان ؟ فقال له : نعم . قال : صف لى أفاعيَها ، قال : ياأمير المؤمنين ، هى دقاق الأعناق ، صغار الأذناب ، مقلصة الرءوس رُقْش[٢] برش ، كأنما كُسِينَ أعلام الحبرات ، كبارهن حُتوف ، وصغارهن سيوف . وقيل : إنها تندفن فى التراب أربعة أشهر فى البرد ، ثم تخرج وقد أظلمت عيناها ، فتمر بشجر الرازيانج وهو الشمر الأخضر ، فتحك عينها به ، فيرجع إليها بصرها ، فسبحان من ألهمها ذلك . وقال الزمخشرى : إذا عميت الأفعى بعد ألف سنة ، ألهمها الله تعالى أن تأتى البساتين وتلقى نفسها على هذه الشجرة ، وتحك عينيها بها ، فتبصر ، وقيل : إذا قطع ذنبها عاد كما كان ، وإذا قلع نابها عاد بعد ثلاثة أيام ، وهى أعدى عدوّ للإنسان .

وقال بعضهم : رأيت حية قد ابتلعت كبشًا عظيم القرنين ، فجعلت تضرب به الحجارة يميناً ويساراً حتى كسرت القرنين ، وابتلعته وقرنيه . والله تعالى أعلم . وقيل : إذا قطع ذنب الحية تعيش إن سلمت من الذر ، وقيل : إن بالحبشة حيات لها أجنحة تطير بها ، وقيل : إن جلدها ينسلخ عنها فى كل سنة مرة . وقيل : إن الجلد لا ينسلخ وإنما الذى ينسلخ قشر فوق الجلد ، وغلاف يخلق لها كل عام ، وهى تبيض على عدد أضلاعها أى ثلاثين بيضة فيجتمع عليها النمل ، فيفسدها بقدرة الله تعالى إلا نادراً . ومن عجيب أمرها أنها لا ترد الماء ، ولا تريده ، ولكنها إذا شمت رائحة الخمر فلا تكاد تصبر عنه ، مع أنه سبب هلاكها ، لأنها إذا شربت سكرت فتعرضت للقتل ، والذكر لا يقيم فى الموضع ، وإنما تقيم الأنثى لأجل فراخها حتى تكتسب قوة فإذا قويت أخذتهم وانسابت ، فأى جحر وجدته دخلت فيه ، وأخرجت صاحبه منه ، وعينها لا تدور ، وإذا قلعت عادت . ومن عجيب أمرها أنها تهرب من الرجل العريان ، وتفرح بالنار ، وتقرب منها وتحب اللبن حبا شديداً ، وإذا دخلت بصدرها فى جحر لا يستطيع أقوى الناس إخراجها منه ، ولو قطعت قطعا ، وليس لها قوائم ولا أظفار ، وإنما تقوى بظهرها لكثرة أضلاعها . وحكى عمر بن يحيى العلوى قال : كنا فى طريق مكة ، فأصاب رجلا منا استسقاء فاتفق أن العرب سرقوا منا قطار جمال على أحدها ذلك الرجل ، قال : ثم بعد أيام جمعتنا المقادير ، فوجدته قد برئ ، فسألناه عن حاله ، فقال : إن العرب لما أخذونى ، جعلونى فى أواخر بيوتهم ، فكنت فى حالة أتمنى فيها الموت ، وبينما أنا كذلك إذا أتوا يوما بأفاعى اصطادوها وقطعوا رءوسها وأذنابها وشووها بعد ذلك ، فقلت فى نفسى : هؤلاء اعتادوها فلا تضرهم ، فلعلى إن أكلت منها مت ، فاسترحت ، فاستطعمتهم ، فأطعمونى واحدة ، فلما استقرت فى بطنى أخذنى النوم ، فنمت نوماً ثقيلا ، ثم استيقظت ، وقد عرقت عرقاً شديداً ، واندفعت طبيعتى نحو مائة مرة فلما أصبحت وجدت بطنى قد ضمر ، وقد انقطع الألم فطلبت منهم مأكولاً فأكلت وأقمت عندهم أياماً ، فلما نشطت ، ووثقت من نفسى بالحركة ، أخذت فى الطريق مع بعضهم ، وأتيت الكوفة .

فائدة : قيل : إن الريحان الفارسى لم يكن قبل كسرى ، وإنما وجد فى زمانه ، وسببه أن كسرى كان ذات يوم

---

(١) الوزغة : سام أبرص .

(٢) أي فيه نقوش ونُقَط مختلفة الألوان.

جالسًا فى بعض متفرجاته ، إذ جاءته حية فانسابت بين يديه ، وتمرغت وصارت تتقلق مثل الذى يشتكى ، فأراد بعض الجند قتلها فمنعهم الملك ، ثم قال لهم : انظروا أمرها فلما سمعت ذلك انسابت بين يديه ، فأمرهم أن يتبعوها إلى المكان الذى تريده ، قال : فجاءت إلى بئر وصارت تنظر فيه ، قال : فنظروا فإذا فيه حية عظيمة ، وعلى ظهرها عقرب أسود ، فنخسها بعضهم برمح فقتلها وتركوها ، ورجعوا فأخبروا الملك بذلك ، فلما كان الغد جاءت الحية للملك وفى فمها بزر ، فنثرته بين يدى الملك ، وذهبت ، فقال الملك : إنها أرادت مكافأتنا اجعلوه فى الأرض لننظر ما يكون من أمره ، قال : ففعلوا ذلك فطلع منه الريحان ، قال : فلما انتهى أمره أتوا به إلى الملك قال : وكان به زكام فشمه فبرئ .

لطيفة : من غريب ما اتفق لعماد الدولة ، أنه لما ملك شيراز اجتمع عليه أصحابه ، وطلبوا منه مالا ، ولم يكن عنده ما يرضيهم به ، فاغتم لذلك ، ونام مستلقيا على قفاهُ مفكراً فى ذلك ، وإذا بحية عظيمة خرجت من سقف ذلك المجلس ، ودخلت فى سقف آخر ، قال : فطلب سُلّماً وصعد لينظر المكان الذى خرجت منه ، فلما رآه وجد كوة فنظر فى داخلها فإذا هى مطمورة ، فدخلها فوجد فيها صندوقا فيه خمسمائة ألف دينار فأمر بإخراجه وإنفاقه على عسكره . ومن ألطف ما اتفق له أيضاً : أنه كان بتلك البلد خياط أطروش [(١)] ، وكان الملك الذى قبله قد أودع وديعة مال ، قال : فطلبه عماد الدولة ليخيط له على عادته لأنه هو الذى يخيط للملوك ، قال : فتوهم الأطروش أنه غمز عليه بسبب الوديعة ، فلما حضر بين يدى عماد الدولة قال له : إن فلاناً الملك لم يدع عندى سوى اثنى عشر صندوقاً ، ولم أدر ما فيها ، فأمر بإحضارها ، فأحضرها فأخذها عماد الدولة ، ووسع بها على جنده ، وتعجب من هاتين القضيتين ، فكانت هذه الأسباب من دلائل السعادة له .

وأمر النبى ﷺ بقتل الحيات [(٢)] بعد أن تنذر ثلاث مرات ، وقيل : ثلاثة أيام ، وأما سكان البيوت فالإنذار لها متعيّن ، وفى الحديث : « **مَنْ قَتَلَ حَيَّةً فَكَأَنَّمَا قَتَلَ مُشْرِكًا ، وَمَنْ لَبِسَ خُفًّا فَلْيَنْفُضْهُ ، وَمَنْ أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْظُفْهُ** » [(٣)] .

الخواص : يقال : إن دمها يجلو البصر ، وقلبها إذا علق على إنسان لا يؤثر فيه السحر ، وضرسها إذا علق على من به وجع الضرس سكن ، الأيمن للأيمن ، والأيسر للأيسر ، ولحمها قال بقراط الحكيم : من أكله أمن من الأمراض الصعبة .

الأنيس : وتسميه الرماة الأنيسة لأنه من طيور الواجب عندهم ، وهو طير له لون حسن ، غذاؤه الفاكهة ، ومأواه الأنهار والبساتين والغياض ، وله صوت حسن كالقُمْرىّ .

الإوز : طير يحب السباحة ، وفراخه تخرج من البيضة تسبح .

الخواص : فى جوفه حصاة تنفع المبطون ، ودهنه ينفع من ذات الجنب ، وداء الثعلب إذا طلى به ، ولسانه ينفع لقطار البول ، وغذاؤه جَيّد إلا أنه بطىء الهضم .

الإيل : - بتشديد الياء المكسورة - ذكر الوعل ، وله أسماء باختلاف اللغات ، وهو يشبه بقر الوحش ، وإذا خاف من الصياد رمى بنفسه من رأس الجبل ، ولا يتضرر بذلك ، وإذا لسعته حية ذهب إلى البحر ، فأكل السرطان فيشفى .

خواصه : أن السمك يحب رؤيته ، وهو يحب ذلك ، ولذلك أكثر ما يكون بقرب البحر ، والصيادون يعرفون ذلك ، فيلبسون جلده ، ليراهم السمك فيأتى لهم ، وهو مولع بأكل الحيات ، وربما لسعته فتسيل دموعه تحت محاجر عينيه ، حتى تصير نقرتين من كثرة ذلك ، ثم تجمد تلك الدموع فتصير كالشمع ، فتؤخذ وتجعل دواء للسم ، وهو الذى يسمى بالبنزهير الحيوانى ، وأجوده الأصفر ، وأكثر ما يكون ببلاد الهند والسند وفارس ، وإذا وضع على لسعة الحيات أبرأها وإن وضعه الملسوع فى فيه نفعه ، وهذا الحيوان لا تنبت قرناه إلا بعد سنتين ، وينبتان فى أوّل الأمر مستقيمين ، ثم بعد ذلك يحصل فيهما التشعب ، ولا يزال يزيد إلى ست سنين ، فحينئذ يصيران كنخلتين ، ثم بعد ذلك يلقيهما فى كل سنة مرة ثم ينبتان ، قال أرسطو : وهذا النوع يصاد بالصّفير والأصوات المطربة ، فإنه يحب

---

(١) أُطروش : الأطرش ، الأصَمّ .

(٢) وأمر النبى ﷺ بقتل الحيات . انظر مسند أحمد [٣/ ٤٥٢] .

(٣) « من قتل حية . . » . إلخ انظر مسند أحمد [١/ ٣٩٥ ، ٤٢١] .

الطرب ، والصيادون يشغلونه بذلك ، ويأتونه من ورائه ، فإذا رأوه قد استرخت أذُناه ، وثبوا عليه ، وقرنه مصمت ، وإحليله من عصَب لاعظم فيه ، ولا لحم ، وهو من الحيوان الذى يزيد فى السمن ، فإذا حصل له ذلك فر من مكانه خوفا من الصيادين ، وحكمه : حل أكله .

الخواص : إذا بخر بقرنه البيت طرد الهوام التى فيه ، وإذا أحرق واستاك به الذى به صفرة الأسنان زال ذلك عنه ، ومن علق عليه شىء منه ذهب نومه ، ومن خواصه أن دمه يفتت الحصاة التى بالمثانة شُرْبا والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

[حرف الباء الموحدة]

باز : كنيته أبو الأشعث : وهو من أشد الحيوان تكبراً ، وأضيقها خُلُقا ، قال القزوينى . إنها لا تكون إلا أنثى وذكرها من غيرها إما من جنس الحدأة أو الشواهين ، ولأجل ذلك تختلف ألوانها : وهو أصناف : منها البازى ، والباشق ، والشاهين ، والبيدق ، والصقر ، والبازى أحرها مزاجاً لأنه لا يصبر على العطش ، فلذلك لا يفارق الماء والأشجار المتسعة ، والظل الظليل ، وهو خفيف الجناح ، سريع الطيران ، تكثر أمراضه من كثرة طيرانه ، لأنه كلما طار انحط لحمه ، وهزل ، وأحسن أنواعه ما قل ريشه ، واحمرت عيناه مع حدة فيهما . قال الشاعر :

لو استضاء المرءُ فى إدلاجه ... بعينه كَفَتْهُ عن سراجه

ودونه الأزرق الأحمر العينين ، والأصفر دونهما . ومن صفاته المحمودة أن يكون طويل العنق ، عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، شديد الانحطاط من الجوّ ، غليظ الذراعين مع قصر فيهما .

لطيفة : من عجيب أمره أن الرشيد خرج ذات يوم للصيد ، فأرسل بازا فغاب قليلا ، ثم أتى وفى فمه سمكة ، فأحضر الرشيد العلماء ، وسألهم عن ذلك ، فقال مقاتل : ياأمير المؤمنين ، روينا عن جدك ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إن الجو معمور بأمم مختلفة الخلق ، وفيه دواب تبيض وتفرخ على هيئة السمك ، لها أجنحة ليست بذوات ريش ، فأجاز مقاتلا على ذلك وأكرمه .

بالة : سمكة عظيمة . قال القزوينى : يقال : إن طولها يبلغ خمسمائة ذراع ، وقال غيره : خمسون ، ويقال لها : العنبر ، وهى تظهر فى بعض الأحايين لأصحاب المراكب ، فإذا رأوها طبلوا بالطبول ، حتى إنها تنفر لأن لها جناحين كالقناطر ، إذا نشرتهما أغرقتهم ، فإذا بغت على حيوان البحر ، وزاد شرها ، أرسل الله عليها سمكة نحو الذراع ، تلتصق بأذنها ولا خلاص لها منها ، فتنزل إلى قعر البحر ، وتضرب رأسها به حتى تموت ، ثم تطفو بعد ذلك ، فيقذفها الريح إلى الساحل ، فيأخذها أهله ، ويشقون جوفها ، ويستخرجون منها العنبر .

ببغاء : هى أصناف كثيرة منها الأخضر ، والرمادى والأصفر ، والأبيض ، يتخذها الملوك والرؤساء لحسن لونها وصوتها وفصاحتها . حكى أنه أهدى لمعز الدولة درة بيضاء ، سوداء الرجلين والمنقار ، ويقال : إن نوعاً منها يقرأ القرآن .

الخواص : من أكل لسانها تفصح ، وإذا جفف دمها ، وجعل بين الصديقين حصلت بينهما الخصومة ، وزبلها يخلط بماء الحصرم ، ويكتحل به ينفع من الرمد ، وظلمة البصر .

بجع : طائر أبيض اللون يميل إلى صفرة ، طويل المنقار كبير البطن ، أكثر أكله السمك .

بح : طائر لطيف ، يأوى أطراف الماء وهو خلقة شريفة لم يوجد غالباً إلا اثنين فقط .

براق : هو الدابة التى ركبها النبى ﷺ ، وهو دون البغل ، وفوق الحمار أبيض اللون .

برذون : نوع من الخيل ، دون الفرس العربى ، وفى الحديث « أن النبى ﷺ ركبه »[1] . وكذا عمر رضى الله عنه فلما ركبه عمر جعل

---

(١) وفى الحديث أن النبى ﷺ ركبه . جاء فى المواهب اللدنية أنه عليه السلام كان له من البغال : دُلْدُل ، وكانت شهباء ، وفضة ، وأخرى أهداها له صاحب أيلة ، وأخرى من دُومة الجندل ، وأخرى من عند النجاشى .

يتخلخل به ، فنزل عنه ، وضرب وجهه ، وقال : لا علّم الله من علمك هذه الخيلاء ، ولم يركب برذونا قبله ولا بعده ، وكنيته أبو الأخطل لطول ذنبه ، وأنشد السراج الوراق فى ذم البراذين يقول :

لصاحب الأحباس برذونة ... بعيدة العهد عن القرط
إذا رأت خيلا على مربط ... تقول : سبحانك يا معطى
تمشى إلى خلف إذا ما مشت ... كأنما تكتب بالقبطى

الخواص : إذا شربت امرأة دمه لم تحبل أبداً ، وزبله يخرج المشيمة والجنين الميت ، وإذا جفف وذرّ منه على من به الرعاف انقطع رُعافه وكذا الجرح .

برغوث : تفتح منه الباء وتضم وكنيته أبو طامر ، وأبو عدى ، وأبو وثاب ، وهو يثب إلى ورائه .

وحكى : أنه يعرض له الطيران كالنمل ، وهو يطيل السّفاد ، ويبيض ، ويفرخ ، وأصله أوّلا من التراب لاسيما فى الأماكن المظلمة ، وسلطانه فى أواخر الشتاء ، وأول فصل الربيع ، ويقال : إنه على صورة الفيل ، وله أنياب وخرطوم ، وقال بعضهم : دبيبها من تحتى أشد من عضها ، وليس ذلك بدبيب ، ولكن البرغوث خبيث ، يستلقى على ظهره ، ويرفع قوائمه ، فيزغزغ بها فيظن من لا علم له أنه يمشى تحت جنبيه ، وكان أبو هريرة ﷺ يفلى ثوبه فيلتقط البراغيث ، ويدع القمل ، فقال له أنس فى ذلك فقال : أبدأ بالفرسان ، وأكر على الرّجّالة وأنشد أعرابى :

ليلُ البراغيثِ أعيانى وأنصبَنى ... لا بارك اللهُ فى ليل البراغيث
كأنهن وجِلدى إذ خلون به ... قضاةُ سُوءٍ أغاروا فى المواريث

وقال أبو الرماح الأزدى :

تطاول بالفُسطاط ليلى ولم يكن ... بوادى الغَضَى[1] ليلى علىّ يطول
تؤرقنى حُدْبٌ[2] قصار أذلة ... وإن الذى يؤذينه لذليل
إذا جُلْتُ بعضَ الليل مِنهُنَّ جولةً ... تعلقن فى رجلىّ حيث أجول
إذا ما قتلناهن أضعفن كثرة ... علينا ولا ينعى لهن قتيل
ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... وليس لِبُرغوث علىّ سبيل ؟!

وقال ابن أيبك الصفدى :

أشكو إلى الرحمٰن ما نالنى ... من البراغيث الخِفاف الثّقال
تعصّبوا بالليل لما دروا ... أنى تقنعت بطيف الخيال

ولا يُسَب البرغوث لما ورد أن النبى ﷺ سمع رجلا يسب بُرغوثاً فقال : « **لا تسبه فإنه أيقظ نبيا إلى صلاة الفجر** »[3] .

فائدة : سئل مالك عن البرغوث ، من يقبض روحه ؟ فقال : أله نفس ؟ قيل : نعم. قال : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر:٤٢].

ولقد شكا عامل إفريقية إلى عمر بن عبد العزيز شر الهوام ، فكتب إليه إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليقرأ : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ﴾ [إبراهيم:١٢] الآية . وقال حنين بن إسحاق: الحيلة فى دفع البرغوث ، أن تأخذ شيئاً من الكبريت فتدخن به فى البيت فإنها تفر من ذلك . وقيل : يرش البيت بماء السّذاب ، وقيل : مشاق المراكب يحرق فى البيت مع قشور النارنج .

بعوض : قيل : إنه على خلقة الفيل ، إلا أنه أكثر أعضاء منه ، فإن للفيل أربعة أرجل ، وللبعوض ستة ، ويزيد

---

(١) الغَضَى: شجر من الأثل خشبُه من أصلب الخشب، وأهل الغَضى: أهل نجد لكثرته هناك.
(٢) حُدْبٌ: جمع أحْدَب، وحدب الرجلُ: ارتفع ظهرُه فصار ذا حَدَبة، وحدِب ظهرُه.
(٣) لما ورد أن النبى ﷺ « سمع رجلًا يسب برغوثا . . » . إلخ قال النجم : أخرجه الطبرانى فى الدعاء .

عليه بأربعة أجنحة ، وله خرطوم مجوّف نافذ فإذا طعن به جسد إنسان استقى الدم وقذف به إلى جوفه ، فهو له كالبلعوم والحلقوم ، ومما ألهمه الله تعالى أنه إذا جلس على عضو إنسان يتتبع مسام العروق ، فإنها أرق وأسرع له فى إخراج الدم ، وعنده شره فى مصه حتى قيل : إنه لا يمص شيئًا فيتركه باختياره ، إلى أن ينشق أو يطار . ومن عجيب أمره أنه ربما قتل البعير وغيره من ذوات الأربع ، فيتركه طريحاً . وقال الجاحظ : من علم البعوض أن وراء جلد الجاموس دماً ؟ وأن ذلك الدم غذاء لها ؟ وأنها إذا طعنت فى ذلك الجلد الغليظ نفذ فيه خرطومها مع ضعفه ، ولو أنك طعنت فيه بمسلات شديدة المتن رهيفة الحد لانكسرت فسبحان من رزقها على ضعفها بقوّته وقدرته ! قال بعضهم :

أقول لنازل البستان طوبى ... لعيشك لم تشك فيه البعوض
يُمَلملُهُ فليس له قرار ... ويثخنه فليس له نهوض
حماه قرصه وطنينه أن ... يبيت وعينه فيها غموض
كأنك حين تهدى بالأغانى ... تكرر فى مسامعك العروض

ومن الحكم التى أودعها الله تعالى إياه أن جعل الله فيها قوّة الحافظة والفكر ، وحاسة اللمس والبصر والشم ، ومنفذ الغذاء ، وجوفا ومخا ، وعروقاً وعظاماً ، فسبحان من قدّر فهدى ولم يترك شيئاً سدى ، وقال الزمخشرى فى تفسير سورة البقرة فى ذلك :

يامن يرى مد البعوض جناحها ... فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناطَ عروقها فى نحرها ... والمخ من تلك العظام النحّل
ويرى خريرَ الدم فى أوداجها ... متنقلاً من مَفْصل فى مفصِل
ويرى وصول غذا الجنين ببطنها ... فى ظلمة الأحشا بغير تمهل
ويرى مكان الوطء من أقدامها ... فى سيرها وحثيثها المستعجل
ويرى ويسمع حسن ما هو دونها ... فى قاع بحر مظلم متهوّل
امنن علىّ بتوبة تمحو بها ... ما كان منى فى الزمان الأوّل

بغل : معروف ، وكنيته أبو قموص ، وأبو حرون ، وله كنى غير ذلك كثيرة وهو مركب من الفرس والحمار ، ولذلك صار له صلابة الحمار ، وعظم الخيل ، وهو عقيم لا نسل له ، روى ابن عساكر فى تاريخ دمشق عن على رضي الله عنه أنها كانت تتناسل ، فدعا عليها إبراهيم الخليل لأنها كانت تسرع فى نقل الحطب لنار المنجنيق ، فقطع الله نسلها . وهو أشر الطباع لأنه تجاذبه الأعراق المتضادة ، والأخلاق المتباينة ، والعناصر المتباعدة ومن العجيب أن كل عضو فرضته منه كان بين الفرس والحمار .

الخواص : يقال : إن حافر البغلة السوداء ينفع لطرد الفأر إذا بخر به البيت ، وإذا سحق حافره بعد حرقه وخلط بدهن الآس ، وجعل على رأس الأقرع نبت شعره ، وزبله إذا شمه المزكوم زال زكامه على ما ذكر .

بقر : حيوان شديد القوة ، خلقه الله تعالى لمنفعة الإنسان ، وهو أنواع : منها الجواميس ، وهى أكثر ألبانا ، وكل حيوان إناثه أرق أصواتاً من ذكوره إلا البقر ، وأنثاه يضربها الفحل فى السنة مرة ، وإذا اشتد شبقها تركت المرعى ، وذهبت ، وإذا طلع عليها الفحل التوت تحته إذا أخطأ المجرى لشدة صلابة ذكره . قال المسعودى : رأيت بالرّىّ البقر تحمل كالبعير فتبرك على ركبتيها ثم تثور بالحمل .

عجيبة : حكى فى الإحياء أن شخصاً كان له بقرة ، وكان يشوب لبنها بالماء ، ويبيعه ، فجاء السيل فى بعض الأودية وهى واقفة ترعى ، فمر عليها فغرقها ، فجلس صاحبها يندبها ، فقال له بعض بنيه : ياأبت لا تندُبها فإن المياه التى كنا نخلطها بلبنها اجتمعت فغرقتها .

فائدة : ذكر ابن الفضل فى كتابه عن وهب بن منبه أنه قال : لما خلق الله تعالى الأرض ماجت واضطربت كالسفينة ، فخلق الله تعالى ملكا فى نهاية العظم والقوة ، وأمره أن يدخل تحتها ، ويجعلها على منكبيه ، فدخل وأخرج يداً من المشرق ، ويدا من المغرب ، وقبض على أطراف الأرض وأمسكها ، ثم لم يكن لقدميه قرار فخلق الله

تعالى صخرة من ياقوتة حمراء فى وسطها سبعة آلاف ثقب ، فخرج من كل ثقب بحر لا يعلم عظمه إلا الله تعالى ، ثم أمر الصخرة أن تدخل تحت قدمى الملك ، ثم لم يكن للصخرة قرار فخلق الله تعالى ثوراً عظيماً يقال له : كيوثاء له أربعة آلاف عين ، ومثلها أنوف وآذان وأفواه وألسنة وقوائم ، ما بين كل قائمتين منها مسيرة خمسمائة عام ، وأمر الله تعالى هذا الثور فدخل تحت الصخرة وحملها على ظهره وقرونه ، ثم لم يكن للثور قرار فخلق الله تعالى حوتا يقال له : يهموت ، ثم أمره الله تعالى أن يدخل تحته ، ثم جعل الحوت على ماء ، ثم جعل الماء على الهواء ، ثم جعل الهواء على ماء ، أيضاً ، ثم جعل الماء على الثرى ثم الثرى على الظلمة ، ثم انقطع علم الخلائق [١] .

الخواص : شحم البقر إذا حمر طرد العقارب ، وإذا طلى به إناء اجتمعت البراغيث إليه ، وإذا شرب لبنها زاد فى الإنعاظ [٢] ، وقرنها إذا سحق وجعل فى طعام صاحب الحمى فأكله زالت الحمى ! ومرارتها إذا خلطت بماء الكراث نفعت من البواسير طلاء وإذا طلى به على الأثر الأسود فى البدن أزاله ، وخصية الفحل إذا جففت وسحقت وجعلت فى عسل ، وأكلت فإنها تزيد فى الباه [٣] وشعرها إذا أحرق واستيك به نفع من وجع الأسنان ، وإذا خلط مع السكنجبين وشرب نفع من الطحال على ما ذكر .

بومة : وكنيتها أم الخراب ، وأم الصبيان ، ومن طبعها أن تدخل على كل طير فى وكره وتأكل أفراخه ، ولمعاداة الطيور لها يجعلها الصيادون فى أشراكهم حتى يقع عليها الطير ، ونقل المسعودى عن الجاحظ أن البومة لا تخرج بالنهار خوفاً من العين لأنها تظن أنها حسناء ، وهى أصناف وكلها تحب الخلو بنفسها .

الخواص : من خواصها أنها تنام بإحدى عينيها ، والأخرى مفتوحة ، فإذا أخذت المفتوحة ، وجعلت تحت فص خاتم فمن لبسه لم ينم ما دام فى يده ، وعكسها ، المغموضة ، وإذا أردت معرفة ذلك فألقهما فى الماء فالراسبة للنوم ، والطافية لليقظة ، وإذا أخذ قلب البومة وجعل على اليد اليسرى من المرأة وهى نائمة تحدثت بجميع ما فعلته فى نومها .

بوقير : طير أبيض يأتى منه فى كل سنة طائفة إلى جبل بالصعيد ، يقال له : جبل الطير فيه كوّة فتدخل من تلك الكوّة ، فيمسك منها شىء ، فإن أمسكت واحدة كان ذلك العام متوسط الخصب ، وإن أمسكت ثنتين كان كثير الخصب ، وإن لم تمسك شيئاً كانت السنة مجدبة ، وأهل تلك الناحية تعرف ذلك ، وهذا الجبل بالقرب من بلدة مارية أم إبراهيم ولد النبى ﷺ .

[حرف التاء]

تمساح : حيوان عجيب ، على صورة الضب ، له فم واسع ، وفيه ستون نابا ، وقيل : ثمانون وبين كل نابين سن صغيرة ، وهى أنثى فى ذكر ، إذا أطبق فمه على شىء لا يفلته حتى يخلعه من موضعه ، وله لسان طويل ، وظهر كالسلحفاة ، ولا يعمل الحديد فيه ، وله أربعة أرجل وذنب طويل ، وهو لا يوجد إلا بنيل مصر ، وقال المسافرون ، إنه يوجد ببحر الهند ، وطوله فى الغالب ستة أذرع ، إلى عشرة فى عرض ذراعين أو ذراع ، ويقيم فى البحر تحت الماء أربعة أشهر لا يظهر ، وذلك فى زمن الشتاء ، ويتغوّط من فيه فى الغالب ، ويحصل فى فيه الدود فيؤذيه ، فيلهمه الله تعالى فيخرج إلى بعض الجزائر ، ويفتح فاه فيرسل الله تعالى له طيراً يقال له : القطقاط فيدخل فى فيه فيأكل ما فيه من الدود ، فيحصل له راحة ، فعند ذلك يطبق فمه على الطير ليأكله فيضربه بريشتين خلقهما الله تعالى فى جناحيه ، كريشة الفصاد فيؤلمه ، فيفتح فاه ، فيخرج ، ولذلك يضرب به المثل ، فيقال : جازاه مجازاة التمساح ! وزعم بعض الباحثين عن أحوال التمساح أن له ستين نابا ، وستين عرقاً ، ويسفد ستين مرة ، ويبيض ستين بيضة ، ويحضن ذلك ستين يوماً ، ويعيش ستين سنة ، فإذا أفرخ فما صعد الجبل صار وَرَلاً [٤] ، وما نزل البحر صار تمساحاً ، فكه الأسفل

---

(١) علم ذلك عند ربى ، ومثل هذه الأخبار من الإسرائيليات التى لا أساس لها .

(٢) الإنعاظ : تحرك الشهوة فى قوة .

(٣) الباه : القدرة على الجماع .

(٤) الوَرَل : حيوان من الزّحافات، طويل الأنف والذَّنَب، دقيق الخَصْر، أطول من الضبّ وأقصر من التمساح يكون في البر والماء، يألك العقارب والحيّات .

لا يستطيع تحريكه لأن فيه عظماً متصلاً بصدره ، وإذا أراد السفاد أخذ أنثاه وطلع بها إلى البر وقلبها وجامعها فإذا قضى حاجته قلبها ثانياً لأنه لو تركها على تلك الحالة بقيت حتى تموت ، وما ذلك إلا أنها لا تستطيع الانقلاب ليبوسة ظهرها وصلابته ، وقد سلط الله تعالى عليه أضعف الحيوان ، وهو كلب الماء يقال : إنه يتلبط بالطين ويغافل التمساح ، ويقذف بنفسه فى فيه فيبتلعه لنعومته ، فإذا حصل فى جوفه ذاب ما عليه من سخونة بطنه فيعمد إلى أمعائه فيقطعها ويقطع مراق بطنه فيقتله .

الخواص : عينه تشدّ على من به رمد اليمنى لليمنى ، واليسرى لليسرى وشحمه إذا قطر فى أذن من به صمم نفعه .

تنين : ضرب من الحيات وهو طويل كالنخلة السحوق ، وجسده كالليل ، أحمر العينين لهما بريق . واسع الفم والجوف ، ويبتلع الحيوان ، وأوّل أمره يكون حية متمردة ، ثم تطغى وتتسلط على حيوان البر ، فيستغيث منها فيأمر الله تعالى ملكاً فيحملها ويلقيها فى البحر ، فتقيم فيه مدّة ثم تتسلط على حيوانه أيضاً ، فيستغيث منها إلى ربه فيأمر الله تعالى بإلقائها فى النار ، فيعذب بها الكافرين ، وقيل : يأمر الله تعالى بإلقائها ، على يأجوج ومأجوج ، وروى ابن أبى شيبة عن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **يُسَلِّطُ اللَّهُ عَلَى الكَافِرِ فِى قَبْرِهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ تِنِّينًا تَنْهَشُهُ وتَلْدَغُهُ ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ، وَلَوْ أَنَّ تِنِّينًا مِنها نَفَخَ عَلَى الْأَرْضِ مَا أَنْبَتَتْ فيها خَضْرَاءُ** »[1] .

[حرف الثاء]

ثعلب : وهو معروف ذو مكر وخديعة ، وله حيل فى طلب الرزق . فمن ذلك أنه يتماوت وينفخ بطنه ، ويرفع قوائمه حتى يظن أنه مات ، فإذا قرب منه حيوان وثب عليه وصاده ، وحيلته هذه لا تتم على كلب الصيد . ومن حيلته : أنه إذا تعرض للقنفذ نفش القنفذ شوكه فيسلح هو عليه ، فيلم شوكه فيقبض على مراق بطنه ، ويأكله ، وسلحه أمتن من سلح الحُبارى . ومن لطيف أمره أنه إذا تسلطت عليه البراغيث حملها وجاء إلى الماء وقطع قطعة من صوفه ، وجعلها فى فيه ونزل فى الماء والبراغيث تطير قليلا حتى تجتمع فى تلك الصوفة فيلقيها فى الماء ، ويخرج . وفروه أدفأ الفراء ، وفيه الأبيض ، والرمادى ، وغير ذلك . وذكر فى عجائب المخلوقات أنه أهدى إلى أبى منصور السمانى ثعلب له جناحان من ريش إذا قرب الإنسان منه نشرهما وإذا بعد ألصقهما .

لطيفة : ذكر ابن الجوزى فى آخر كتاب الأذكياء ، والحافظ أبو نعيم فى حلية الأولياء عن الشعبى أنه قال : مرض الأسد فعادته السباع والوحوش ، ما خلا الثعلب ، فنم عليه الذئب ، فقال الأسد ، إذا حضر فأعلمنى ، فلما حضر الثعلب أعلمه الذئب بذلك ، وكان قد أخبر بما قاله الذئب ، فقال الأسد : أين كنت يا أبا الفوارس ؟ قال : كنت أتطلب لك الدواء ! قال : وأى شىء أصبته ؟ قال : قيل لى خرزة فى عرقوب أبى جعد ! قال : فضرب الأسد بيده فى ساق الذئب فأدماه ، ولم يجد شيئًا فخرج ودمه يسيل على رجله ، وانسل الثعلب فمر به الذئب فناداه يا صاحب الخف الأحمر إذا قعدت عند الملوك فانظر ما يخرج منك فإن المجالس بالأمانات . وقيل : خرج الأسد والثعلب والذئب يتصيدون فاصطادوا حمار وحش ، وضَبًّا ، وغزالاً ، ثم جلسوا يقتسمون ، فقال الأسد للذئب : اقسم علينا فقال : حمار الوحش لى ، والغزال لأبى الحارث ، والضب للثعلب ، فضربه الأسد فى رأسه فرضخها فقال الثعلب : أنا أقسم حمار الوحش لأبى الحارث يتغدّى به ، والغزال لأبى الحارث يتعشى به ، والضب لأبى الحارث يتنقل به فيما بين ذلك . فقال له الأسد : لله درك من فَرْضِىّ ! ما أعلمك بالفرائض ، من علمك هذا ؟ قال : علمنى التاج الأحمر الذى ألبسته هذا وأشار إلى الذئب .

وحكى : أن الثعلب مر فى السحر بشجرة فرأى فوقها ديكاً فقال له : أما تنزل نصلى جماعة ؟! فقال : إن الإمام نائم خلف الشجرة فأيقظه فنظر الثعلب فرأى الكلب فضَرِطَ وولى هارباً فناداه أما تأتى لنصلى ؟! فقال : قد انتقض وضوئى ، فاصبر حتى أجدد لى وضوءًا وأرجع . ومن العجيب فى قسمة الأرزاق أن الذئب يصيد الثعلب فيأكله ، والثعلب يصيد القنفذ فيأكله ، والقنفذ يصيد الأفعى فيأكلها ، والأفعى تصيد العصفور ، والعصفور يصيد الجراد ،

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند [٣/٣٨] وعبد بن حميد والدارمى .

والجراد يصيد الزنابير ، والزنابير تصيد النحل ، والنحل تصيد الذباب ، والذباب يصيد البعوض ، والبعوض يصيد النمل ، والنمل يأكل كل ما تيسر من صغير وكبير ، فتبارك الله الذى أتقن ما صنع .

الخواص : رأسه إذا ترك فى برج حمام هرب الحمام منه ، ونابه يشد على الصبى يحسن خلقه ، ومرارته يجعل منها فى أنف المصروع يبرأ ، ولحمه ينفع من اللقوة[١] والجذام ، وخصيته تشد على الصبى تنبت أسنانه ، وفروه أنفع شىء للمربوط ، ودمه إذا جعل على رأس أقرع نبت شعره إذا كان دون بلوغ ، وطِحاله يشد على من به وجع الطحال يبرأ .

ثعبان : هو الكبير من الحيات ذكراً كان أو أنثى ، وهو عجيب الشأن فى هلاك بنى آدم ، يلتوى على ساق الإنسان ، فيكسرها ، وليس له عدو إلا النمس ، ولولا النموس لأكلت الثعابين أهل مصر .

لطيفة : قيل : إن عبد الله بن جدعان كان فى ابتداء أمره صعلوكاً ، وكان شريراً يفتك ، ويقتل ، وكان أبوه يعقل عنه ، فضجر من ذلك ، وأراد قتله ، فخرج هارباً على وجهه ، فتوصل لجبل فوجد فيه شقاً فدخل فيه فوجد فى صدره شيئاً كهيئة الثعبان ، فدنا منه وقال : لعله يثب علىّ فيقتلنى وأستريح ، قال : فدنا منه فوجده مصنوعاً من ذهب ، وعيناه ياقوتتان ، ثم وجد من داخله بيتاً فيه جثث طوال بالية على أسرة الذهب والفضة ، وعند رءوسهم لوح مكتوب فيه تاريخهم ، وإذا بهم رجال من جُرهم ، وفى وسط البيت كوم من الياقوت الأحمر والزمرد ، والذهب والفضة ، واللؤلؤ فأخذ منه قدر ما يحمل ، وعلم الشق وذهب إلى قومه فأغناهم ، ورجع فلم يدر مكان الشق ، قال رسول الله ﷺ : « **لقد كنت أستظل بجفنة عبد الله بن جدعان من الهجير** » قالت عائشة : يارسول الله ، هل ينفعه ذلك شيئًا ؟ قال : « **لا . لأنه لم يقل رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين** »[٢] .

[حرف الجيم]

جراد : حيوان معروف ، وليس له جهة مخصوصة ، وإنما يكون هائماً هارباً ، وإذا أراد أن يبيض ذهب إلى بعض الصخور ، فضربها بذنبه ، فتفرج له فيلقى بيضه فيها ، وله ستة أرجل ، وطرفا أرجله كالمنشار وهو ألوان عديدة ، وفيه خلقة عشرة من الجبابرة وجه فرس ، وعينا فيل ، وعنق ثور ، وقرنا أيل ، وصدر أسد ، وبطن عقرب ، وجناحا نسر ، وفخذا جمل ، ورجلا نعامة ، وذنب حية ، وهو من الحيوان الذى ينقاد إلى رئيسه كالعسكر إذا ظعن أميره تتابع خلفه وفى الحديث إن جرادة وقعت بين يدى رسول الله ﷺ فإذا مكتوب على جناحها بالعبرانية ، نحن جند الله الأكبر ، ولنا تسعة وتسعون بيضة ، ولو تمت لنا المائة لأكلنا الدنيا بما فيها ، فقال ﷺ: « **اللهم أهلك الجراد ، اللهم اقتل كبارها وأمِتْ صغارها ، وأفسد بيضها ، وسد أفواهها ، عن مزارع المسلمين ، وعن معايشهم إنك سميع الدعاء** » . قال : فجاء جبريل فقال : إنه قد استجيب لك فى بعضها[٣] . وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « **إن الله تعالى خلق ألف أمة ستمائة منها فى البحر ، وأربعمائة فى البر ، وإن أول هلاك هذه الأمة الجراد فإذا هلك الجراد تتابعت الأمم مثل الدر إذا قطع سلكه** »[٤] . قيل : كان طعام يحيى بن زكريا عليه السلام الجراد ، وقلوب الشجر ، وكان يقول : من أنعم منك يايحيى ؟! وقد أجمع المسلمون على أكل لحمه ، ومن خواصه أن الإنسان إذا تبخر به نفعه من عسر البول .

جرو : - بكسر الجيم وفتحها وضمها - وهو الصغير من أولاد الكلاب والسباع ، وقد كان ﷺ أمر بقتل الكلاب وسببه أن جبريل عليه السلام وعده ليأتيه ، فتأخر ، قال : فلقيه النبى ﷺ بعد ذلك فقال: « **مَا أَخَّرَكَ عَنْ وَعْدِكَ ؟** » فقال : ما تأخرت ولكن لا ندخل بيتًا فيه صورة ولا كلب ، فأمر بقتلها[٥] . وروى مسلم والطبرانى عن خولة بزيادة ولفظها : أن

---

(١) اللَّقْوة: داءٌ يعرض للوجه يعوجُّ منه الشِّدْق.

(٢) قال رسول الله ﷺ. « لقد كنت أستظل . . » كذا قاله السُّهيلى فى الروض الأنف كما ذكر الدميرى .

(٣) وفى الحديث « أن جرادة . . » . إلخ موضوع : أخرجه ابن ماجه [٣٢٢١] ، وفيه موسى بن محمد ، منكر الحديث .

(٤) وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق ألف أمة . . » . إلخ منكر : أخرجه ابن عدى فى « الكامل » . [٥/ ٣٥٢]، [٦/ ٢٤٥] ، والخطيب فى « تاريخ بغداد » . [١١/ ٢١٧-٢١٨]، وأبو الشيخ فى « العظمة » . برقم [٩٤٢ ، ١٣٠٨] ، وانظر تعليق محققه عليه .

(٥) « وقد كان ﷺ أمر بقتل الكلاب . . . » . إلخ انظر : « فتح البارى » . [١٠/ ٤٠٦ - ط السلفية] .

جروا دخل تحت سرير فى بيته ﷺ ، فمات فمكث النبى ﷺ أياماً لا يأتيه الوحى، قال : « لَعَلَّهُ حَدَثَ فِى الْبَيْتِ شَىْءٌ، فَخَرَجَ لِلْمَسْجِدِ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْىُ ». قالت خولة: فقممت البيت فوجدت الكلب تحت السرير .

عجيبة : حكى أن رجلاً لم يولد له ولد ، فكان يأخذ أولاد الناس فيقتلهم ، فنهته زوجته عن ذلك وقالت : يؤاخذك الله بذلك ، فقال : لو آخذ لفعل فى يوم كذا ، وصار يعدد أفعاله لها ، فقالت له : إن صاعك لم يمتلئ، ولو امتلأ آخذك . قال : فخرج ذات يوم وإذا بغلامين يلعبان ومعهما جرو فأخذهما الرجل ، ودخل البيت فقتلهما ، وطرد الجرو قال : فطلبهما أبوهما ، فلم يجدهما فانطلق إلى نبى لهم فأخبره بذلك ، فقال : ألهما لعبة كانا يلعبان بها ؟ قال : جرو كلب ، قال : ائتنى به ، فأتاه به ، فجعل خاتمه بين عينيه ، ثم قال له : اذهب خلفه فأى بيت دخله ادخل معه ، فإن أولادك فيه ، قال : فجعل الجرو يجوز الدروب والحارات حتى دخل بيت القاتل ، فدخل الناس خلفه وإذا بالغلامين متعفران بدمهما ، وهو قائم يحفر لهما مكاناً يدفنهما فيه ، فأمسكوه وأتوا به لنبيهم ، فأمر بصلبه ، فلما رأته زوجته على الخشبة قالت : ألم أحذرك هذا اليوم ؟! وتقول ما تقول ؟! الآن امتلأ صاعك ! وسيأتى الكلام على الكلب فى حرف الكاف إن شاء الله تعالى .

جُعَلُ! : دويبة معروفة تسمى أبا جعران والزعقوق . يَعَضّ البهائم فى وجهها فتهرب منه ، وهو أكبر من الخنفساء ، شديد السواد ، فى بطنه لون حمرة للذكر قرنان ، يوجد كثيراً فى مراح البقر والجاموس ، قيل : إنه يتولد من أخثائهما[1] ، ومن شأنه جمع الروث وادخاره ، ومن عجيب أمره أنه إذا شم الورد مات ، ويعيش بِعَوْدِه للروث ، وله جناحان لا يكادان يريان إلا إذا طار ، وله ستة أرجل وسنام مرتفع جداً ، وهو يمشى القهقرى ، ومن طبعه أنه يحرس النيام فإذا قام أحدهم يتغوط تبعه ليأكل من رجيعه ، وذلك من شدة شهوته للغائط .

[حرف الحاء]

حجل : طير فوق الحمامة ، أغبر اللون ، أحمر المنقار والرجلين ، يسمى دجاج البر ، وهو صنفان : نجدى ، وتهامى ؛ النجدى أغبر ، والتهامى أبيض ، وله شدة الطيران ، وإذا تقاتل ذكران تبعت الأنثى الغالب ، وله شدة شبق ، وأفراخه تخرج من البيض كاسية ، ويعمر فى الغالب عشرين سنة ، وإذا قوى على غيره أخذ بيضه فحضنه ، ومن سر الله تعالى أنه إذا أفرخ ذلك البيض تبع الفرخ أمه التى باضته ، ومن طبعه أنه يخدع غيره فى قرقرته ، ولذلك يتخذه الصيادون فى أشراكهم .

غريبة : قيل إن أبا نصر بن مروان أكل مع بعض مقدمى الأكراد فأتى على سماطه بحجلتين مشويتين ، فلما رآهما ضحك ، فقال : مم تضحك ؟ قال : كنت أقطع الطريق فى عنفوان شبابى فمرّ بى تاجر فأخذته ، فلما أردت قتله تضرع إلىّ فلم أقتله ، فلما علم أنه لابد لى من قتله التفت يميناً وشمالاً فرأى حَجَلَتين كانتا بقربنا ، فقال : اشهدا لىّ أنه قاتلى ظلما، فقتلته ، فلما رأيت هاتين الحجلتين تذكرت حمقه فى استشهاده بهما فقال أبو نصر : والله لقد شهدا عليك عند من أقادك بالرجل ، ثم أمر به فضربت عنقه .

الخواص : لحمها جيد معتدل الهضم ، ومرارتها تنفع الغشاوة فى العين ، وإذا سعط[2] بها إنسان فى كل شهر مرة جاد ذهنه ، وقل نسيانه وقوى بصره .

حدأة : - بكسر الحاء وفتح الدال مع همزة - أخس الطير ، وتبيض بيضتين ، وربما باضت ثلاثا ، وتحضن عشرين يوماً ومن ألوانها الأسود والرمادى ، وهى لا تصيد إلا خطفا ، وفى طبعها أنها تقف فى الطيران وهى أحسن الطير مجاورة لأنها إذا جاعت لا تأكل أفراخ جارها ، ويقال : إنها طرشاء ، وفى طبعها أنها لا تخطف من الجهة اليمنى ، لأنها عسراء وهى سنة ذكر ، وسنة أنثى ، كالأرنب .

عجيبة : روى الحافظ النسفى فى فضائل الأعمال : أن عاصم بن أبى النجود شيخ القرّاء فى زمانه قال : أصابتنى

---

(١) الأخثاء: جمع الخثي، وهو ما يرمى به البقرُ أو الفيلُ.

(٢) سَعَطهُ: أدخله في أنفه.

خصاصة[١] ، فجئت إلى بعض إخوانى فأخبرته بأمرى ، فرأيت فى وجهه الكراهة ، فخرجت من منزله إلى الجبانة ، فصليت ما شاء الله ، ثم وضعت رأسى على الأرض وقلت : يا مسبب الأسباب ، يافاتح الأبواب ، يا سامع الأصوات ، يا مجيب الدعوات ، ياقاضى الحاجات ، اكفنى بحلالك عن حرامك ، وأغننى بفضلك عمن سواك . قال: فوالله ما رفعت رأسى حتى سمعت وقعة بقربى ، فإذا بحدأة قد طرحت كيساً أحمر ، فقمت فأخذته فإذا فيه ثمانون ديناراً ، وجوهرة ملفوفة فى قطن ، قال : فاتجرت بذلك ، واشتريت لى عقاراً ، وتزوجت .

الخواص : مرارتها تجفف فى الظل ، وتنقع فى إناء زجاج فمن لسع قطر منها فى ذلك الموضع ، واكتحل مخالفاً لجهة اللسع ثلاثة أميال أبرأته ، ودسمها إذا خلط بقليل من المسك ، وماء الورد ، وشرب على الريق ، نفع من ضيق النفس ، وإذا وضع فى بيت لم تدخله حية ولا عقرب .

حرباء : دويبة صغيرة على هيئة السمك ، ورأسها تُشبه رأس العجل ، إذا رأت الإنسان انتفشت وكبرت ، ولها أربعة أرجل وسنام كهيئة الجمل ، ولها كنى كثيرة منها أم قرة ، ويقال لها : جمل اليهود ، وهى أبدا تطلب الشمس ، فمن أجل ذلك يقال : إنها مجوسية ، وتستقبلها بوجهها وتدور معها كيفما دارت ، فإذا غابت الشمس أخذت فى كسبها ومعاشها ، ويقال : إن لسانها طويل نحو ذراع ، وهو مطوى فى حلقها ، فلذلك تخطف به ما بعد عنها من الذباب ، وتبتلعه، والأنثى من هذا النوع تسمى أم حُبَين ، ويقال : إن الصبيان ينادونها : أم حبين انشرى برديك ، إن الأمير ناظر إليك . وضارب بسوطه جنبيك ، فإذا زادوا عليها نشرت جناحيها ، وانتصبت على رجليها ، فإذا زادوا عليها أيضاً نشرت أجنحة أحسن من تلك ملونة ، وإذا مشت تطأطئ برأسها ، وتتلون ألوانا ولذا يقال : يتلون كالحرباء .

حمار أهلى : معروف ليس فى الحيوان من ينزو على غير جنسه إلا هو والفرس ، ونزوه بعد تمام ثلاثين شهراً ، وكنيته أبو محمود ، وأبو جحش ، وغير ذلك وهو أنواع ، فمنه ما هو لين الأعطاف سريع الحركة ، ومنه ما هو بضد ذلك ، ويوصف بالهداية إلى سلوك الطريق .

لطيفة : فى الحديث عن النبى ﷺ : أنه لما فتح خيبر أصاب حماراً أسود فكلمه فقال : « **ما اسمك ؟** » . فقال : يزيد بن شهاب ، أخرج الله تعالى من نسل جدى ستين حماراً كلها لا يركبها إلا نبى ، ولم يبق من الأنبياء غيرك ، وكنت أتوقعك لتركبنى ، وأنا عند يهودى يجيع بطنى ، ويضرب ظهرى ، وكنت أعثر به عمداً ، فسماه النبى ﷺ يعفورًا ، وقال له : « **أتشتهى الإناث ؟** » . قال : لا . وكان ﷺ يركبه فى حوائجه ، وإذا أراد حاجة عند إنسان أرسله إليه فيدفع الباب برأسه فيخرج صاحب البيت فيعرفه ويقضى حاجته ، فلما مات النبى ﷺ ذهب إلى بئر كانت لأبى الهيثم فتردى فيها جزعًا على النبى ﷺ ، فكانت قبره وقيل هذا الحديث منكر ، وقد ذكره السهيلى فى التعريف والإعلام[٢] . وللناس فى ذمه ومدحه أقوال متباينة بحسب الأغراض . فمن مدحه أن أبا صفوان وجد راكباً على حمار فقيل له فى ذلك فقال : عَيْرٌ هنى ، من نسل الأكراد ، يحمل الرحل ! ويبلغ العقبة ، ويمنعنى أن أكون جباراً فى الأرض . وقال آخر: هو أقل الدواب مئونة وأكثرها معونة ، وأخفضها مهوى ، وأقربها مرتعاً . وكان حمار أبى يسارة مثلا فى الصحة والقوّة ، وهو حمار أسود حمل الناس عليه من منى إلى المزدلفة أربعين سنة . وكان خالد بن صفوان والفضل بن عيسى الرقاشى يختاران ركوب الحمار ، ويجعلان أبا يسارة قدوة لهما وحجة . ومن ذمه ما نقل عن عبد الحميد الكاتب أنه قال : لا تركبوا الحمار ؛ فإنه إن كان فارهاً أتعب يدك ، وإن كان بليداً أتعب رجلك . وقيل : ما ينبغى لمركب الدجال ، أن يكون مركباً للرجال ! وقال أعرابى : الحمار بئس المطية إن أوقفته أدلى ، وإن تركته ولى ، كثير الروث ، قليل الغوث ، سريع إلى الفرارة ، بطىء فى الغارة ، لا توقى به الدماء ، ولا تمهر به النساء ، ولا يحلب فى الإناء قال الزمخشرى :

إن الحمارَ ومَن فوقه حماران شرهما الراكب

ومن العرب من لا يركبه أبدا ، ولو بلغت به الحاجة والجهد، قيل : كان لرجل بالبادية حمار ، وكلب ، وديك ،

---

(١) الخصاصة : الفقر وسوء الحال .

(٢) قال الإمام الحافظ أبو موسى : هذا حديث منكر جدًا إسناداً ومتنا لا يحل لأحد أن يرويه إلا مع كلامى عليه .

فالديك يوقظه للصلاة ، والكلب يحرسه إذا نام، والحمار يحمل أثاثه إذا رحل قال فجاء الثعلب فأكل الديك ، فقال : عسى أن يكون خيراً ، ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، عسى أن يكون خيراً ، ثم جاء الذئب فبقر بطن الحمار فقال : عسى أن يكون خيرا . قال : ثم إن جيرانه من الحىّ أغير عليهم فأخذوا فأصبح ينظر إلى منازلهم وقد خلت فقيل له : إنما أخذوا بأصوات دوابهم، فقال : إنما كانت الخيرة فى هلاك ما عندى ! فمن عرف لطف الله رضى بفعله ! .

حمام : هو أنواع كثيرة والكلام فى الذى ألف البيوت وهو قسمان : أحدهما برى ، وهو الذى يوجد فى القرى، والآخر أهلى ، وهو أنواع وأشكال ، فمنه الرواعب ، والمراعيش ، والشداد ، والغلاب ، والمنسوب ، ومن طبعه أنه يطلب وكره ، ولو كان فى مسافة بعيدة ، ولأجل ذلك يحمل الأخبار ، ومنه ما يقطع عشرة فراسخ فى يوم واحد ، وربما صيد وغاب عن وطنه عشر سنين ، وهو على ثبات عقله ، وقوة حفظه ، حتى يجد فرصة ، فيطير ويعود إلى وطنه ، وسباع الطير تطلبه أشد الطلب ، وخوفه من الشاهين أشد من غيره ، وهو أطير منه ، لكن إذا أبصره يعتريه ما يعترى الحمار إذا رأى الأسد ، والشاة إذ رأت الذئب ، والفأر إذا رأى الهر ، ومن طبعه أنه لا يريد إلا ذكره ، إلى أن يهلك أو يفقد أحدهما ، ويحب الملاعبة والتقبيل ، ويسفد لتمام أربعة أشهر ، ويحمل أربعة عشر يوما ويبيض بيضتين ، ويحضن عشرين يوما ، ويخرج من إحدى البيضتين ذكر ، والأخرى أنثى ، واتخاذها فى البيوت لا بأس به غير أنه ، لا يجوز تطييرها ، والاشتغال بها ، والارتقاء بها على الأسطحة ، وعليه حمل أهل العلم قوله ﷺ : « **شيطان يتبع شيطانه** »[1] . حين رأى شخصاً يتبع حمامة فإن لم يحصل شىء مما ذكر جاز اتخاذها . قال رسول الله ﷺ: « **اتخذوا الحمام فى بيوتكم فإنها تلهى الجن عن صبيانكم ، واللعب بها من عمل قوم لوط** »[2] . وقال النخعى : من لعب بالحمام لم يمت حتى يذوق ألم الفقر ، ولم يوجد شىء أبله من الحمام ، فإنه تؤخذ أفراخه فتذبح فى مكان ، ثم يعود فى ذلك المكان ، ويبيض فيه ويفرخ ، وقال الجاحظ : وللحمام من الفضيلة والفخر أن الحمامة قد تباع بخمسمائة دينار ، ولم يبلغ ذلك القدر شىء من الطير غيره ، وهو الهادر الذى جاوز الغاية، قالوا : ولو دخلت بغداد والبصرة وجدت ذلك بلا معاناة ، ولو حدثت أن برذونا أو فرساً بيع بخمسمائة دينار لكان ذلك سمرا ، وقد تباع البيضة الواحدة من بيض ذلك الحمام بخمسة دنانير ، والفرخ بعشرين ، فمن كان له زوج منه قام فى الغلة مقام ضيعة ، وأصحابه يبنون من أثمانه الدور والحوانيت وهو مع ذلك مَلْهى عجيب ومنظر أنيق .

الخواص : دمه ينفع الجراحات العارضة للعين ، والغشاوة ، ويقطع الرعاف ، ويبرئ حرق النار إذا خلط بالزيت منه ، وزبل الأحمر ينفع للسع العقرب إذا وضع عليه ، وإذا شرب منه مقدار درهمين مع ثلاثة دراهم دار صينى نفع من الحصاة .

[حرف الخاء]

الخُطاف[3] : أنواع كثيرة ، فمنه نوع دون العصفور ، رمادى اللون ، يسكن ساحل البحر ، ومنه ما لونه أخضر ، وتسميه أهل مصر الخطار ، ونوع طويل الأجنحة رقيق يألف الجبال ، ونوع أصغر منه يألف المساجد يسميه الناس السنونو ، وزعم بعضهم أنه الطير الأبابيل ، ويقال : إن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض حصل له وحشة فخلق الله له هذا الطير يؤنسه ؛ فلأجل ذلك لا تجدها تفارق البيوت ، وهى تبنى بيتها فى أعلى مكان بالبيت ، وتحكم بنيانه ، وتطينه، فإن لم تجد الطين ذهبت إلى البحر فتمرغت فى التراب والماء وأتت فطينته وهى لا تزبل داخله ، بل على حافته أو خارجاً عنه ، وعنده ورع كثير ، لأنه وإن ألف البيوت لا يشارك أهلها فى أقواتهم ، ولا يلتمس منهم شيئًا ، ولقد أحسن واصفه حيث يقول :

---

(١) « شيطان يتبع شيطانه » . حين رأى شخصا يتبع حمامة أبو داود : كتاب الأدب باب [٦٥] ، وابن ماجه كتاب الأدب باب [٤٤] ، وأيضا البخارى فى الأدب المفرد ، والبيهقى فى السنن كما جاء فى المقاصد الحسنة نفس الموضع [كتاب المنهيات للترمذى] .

(٢) قال ﷺ « اتخذوا الحمام فى بيوتكم فإنها تلهى الجن . . » . إلخ موضوع : أخرجه ابن عدى [٦/ ١٢٤١] ، والخطيب فى « تاريخ بغداد » . [٥/ ٢٧٩] ، وفيه محمد بن زياد اليشكرى كذاب ووضاع للأحاديث .

(٣) الخُطّاف : [بضم الخاء] ، السّنونو ضرب من الطيور القواطع ، عريض المنقار ، دقيق الجناح طويله ، منتفش الذيل والجمع خطاطيف .

كـن زاهـداً فـيـمـا حـوتـه يـدُ الـورى تـبـقـى إلـى كـل الأنـام حـبـيـبـا
وانـظـر إلـى الـخـطـاف حـرّم زادهـم أضـحـى مـقـيـمـا فـى الـبـيـوت ربـيـبـا

ومن شأنه أنه لا يُفرخ فى عش عتيق ، بل يجدد له عشا ، وأصحاب اليرقان يلطخون أفراخه بالزعفران ، فيذهب ، فيأتى بحجر اليرقان ، ويلقيه فى عشه ، لتوهمه أن اليرقان حصل لأولاده ، وهو حجر صغير فيه خطوط يعرفه غالب الناس ، فعند ذلك يأخذه مَنْ به اليرقان ويحكه ، ويستعمله . ومن عجيب أمره أنه يكاد يموت من صوت الرعد ، وإذا عمى ذهب إلى شجرة يقال لها : عين شمس ، فيتمرغ فيها فيفيق من غشاوته ، ويفتح عينيه .

لطيفة : قيل : إن خُطافاً وقف على قبة سليمان ، وتكلم مع خطاته ، وراودها عن نفسها فامتنعت ، فقال لها تتمنعين منى ؟! ، ولو شئت قلبت هذه القبة ، قال : فسمع سليمان ، فدعاه وقال : ما حملك على ما قلت ؟ فقال : يانبى الله ، إن العشاق لا يؤاخذون بأقوالهم .

الخواص : مرارته تسود الشعر ، ولحمه يورث السهر ، وقلبه يهيج الباه إذا أكل جافا ، ودمه يسكن الصداع .

خفاش : طير يوجد فى الأماكن المظلمة وذلك بعد الغروب ، وقبل العشاء لأنه لا يبصر نهاراً ولا فى ضوء القمر ، وقوته البعوض ، وهذا الوقت هو الذى يخرج فيه البعوض أيضا لطلب رزقه ، فيأكله الخفاش ، فيتسلط طالب رزق على طالب رزق ، وهو من الحيوان الشديد الطيران ، قيل : إنه يطير الفرسخين[1] فى ساعة ، وهو يعمر مثل النسر ، وتعاديه الطيور فتقتله ، لأنه قيل : إن عيسى - عليه الصلاة والسلام - لما سأله النصارى فى طير لا عظم فيه، صنع لهم ذلك بإذن الله تعالى ، فهى تكرهه لأنه مباين لخلقتها ، ومن طبعه الحنوّ على ولده حتى قيل : إنه يرضعه وهو طائر .

خنزير : حيوان معروف ، وله كنى كثيرة ، ومنها أبو جهم ، وأبو زرعة ، وأبو دلف ، وهو مشترك بين البهيمة والسبع ، لأنه ذو ناب ، ويأكل العشب والعلف وهو كثير الشبق حتى قيل : إنه يجامع الأنثى وهى سائرة ، فيرى فى مشيها ستة أرجل فيتوهم الرائى أنه حيوان بستة أرجل ، وليس كذلك ، والذكر منها يطرد الذكر مثله ، فمن غلب استقل بالنزو على الأنثى ، وتحرك أذنابها فى زمن هيجانها ، وتطأطئ رأسها ، وتغير أصواتها ، وتحبل من نزوة واحدة وتحمل ستة أشهر ، وتضع عشرين ولدا ، وينزو الذكر إذا بلغ ستة أشهر ، وقيل أربعة باختلاف البلاد ، وقيل ثمانية ، وإذا بلغت الأنثى خمس عشرة سنة لا تحمل ، وهذا الجنس أفسد الحيوان ، والذكر أقوى الفحول ، وليس لذوات الأربع ما للخنزير فى نابه من القوة ، حتى قيل : إنه يضرب به السيف والرمح فينقطع مالاقاه ، وإذا التقى ناباه من الطول مات لأنهما حينئذ يمنعانه من الأكل ، ومن عجيب أمره أنه يأكل الحيات ، ولا يؤثر فيه سمها وإذ عض كلبا سقط شعره ، وإذا مرض وأطعم السرطان[2] يفيق ، ومن عجيب أمره أنه إذا ربط على ظهر حمار وبال الحمار وهو على ظهره مات ، ولا يسلخ جلده إلا بالقلع مع شىء من لحمه على ما ذكروا .

خنفساء : دويبة تتولد من عفونات الأرض ، وبينها وبين العقرب مودة ، وكنيتها أم فسو لأن كل من وضع يده عليها يشم رائحة كريهة .

فائدة : قيل : إن رجلا رأى خنفساء ، فقال : ما يصنع الله بهذه ؟ فابتلاه الله تعالى بقرحة عجز الأطباء فيها ، فبينما هو ذات يوم وإذا بطرقى يقول : من به وجع كذا إلى أن قال : من به قرحة ، فخرج إليه ذلك الرجل فلما رأى ما به قال : ائتونى بخنفساء ، فضحك منه الحاضرون ، فقال : ائتوه بالذى يطلب ، فأتوه بها فأخذها فأحرقها وأخذ رمادها ، وجعل منه على تلك القرحة ، فبرئت فعلم ذلك المقروح أن الله تعالى ما خلق شيئًا سدى ، وأن فى أخس المخلوقات أهم الأدوية ، فسبحان القادر على كل شىء ! .

الخواص: إذا قطعت رءوس الخنافس ، وجعلت فى برج الحمام كثر الحمام فى ذلك البرج والاكتحال بما فى

---

(١) الفرسخ : مقياس قديم من مقاييس الطول يقدر بثلاثة أميال . ويقدر الميل بأربعة آلاف ذراع . وهو برى وبحرى فالبرى يساوى [١٦٠٩] ، من الأمتار ، والبحرى يساوى [١٨٥٢] ، من الأمتار .

(٢) السرطان : حيوان بحرى من القشريات العشريات الأرجل .

جوفها من الرطوبة يحدّ البصر ، ويجلو الغشاوة والبياض ، وإذا بخر المكان بورق الدّلب[١] هربت منه الخنافس على ما ذكر .

خيل : جماعة الأفراس ، وسميت بذلك لأنها تختال فى مشيتها ، وهى من الحيوان المشرف ، ولقد مدحها الله تعالى ، ووصى بها النبى ﷺ فقال : « **الْخَيْرُ مَعْقُودٌ بِنَواصِى الْخَيلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيامة** »[٢] . وقال : « **عليكم بإناث الخيل فإن ظهورها عِزّ وبطونها كنز** »[٣] . وروى عن ابن عباس أو على ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « **لما أراد الله تعالى خلق الخيل ، أوحى إلى الريح الجنوب وقال : إنى خالق منك خلقاً فاجتمعى ، فاجتمعت ، فأتى جبريل فأخذ منها قبضة ، فخلق منها فرسا كميتاً وقال : خلقتك عربيًا وفضلتك على سائر البهائم ، فالرزق بناصيتك ، والغنائم تقاد على ظهرك ، وبصهيلك أرهب المشركين ، وأعز المؤمنين ، ثم وسمه بغرة وتحجيل ، فلما خلق الله تعالى آدم قال له : يا آدم، اختر أىّ الدابتين ، الفرس أو البراق فقال : الفرس يارب ، فقال الله تعالى : اخترت عزك ، وعز أولادك** »[٤] . وفى الحديث : « **مامن فرس إلا ويقول فى كل يوم : اللهم من جعلتنى له ، فاجعلنى أحب أهله إليه** »[٥] . وقيل : الخيل ثلاثة : فرس للرحمٰن ، وهى المغزو عليها ، وفرس لك ، وهى التى تسابق عليها ، وفرس للشيطان وهى التى جعلت للخيلاء وفى الحديث : « **إن الملائكة لا تحضر شيئًا من اللهو إلا فى مسابقة الخيل ، وملاعبة الرجل أهله** »[٦] . ولقد سابق النبى ﷺ على الخيل[٧] وقيل : إن الذكر من الخيل أقوى من الأنثى ، ولا يرد علينا ركوب جبريل فى قصة موسى وفرعون الأنثى ، لأن ذلك من حكمة الله تعالى حتى تبعتها أحصنتهم فأغرقوا لأن الحصان إذا رأى الأنثى تبعها ، وقيل : إن الله تعالى أمر نبيه موسى عليه السلام أن يعبر البحر فعبره وهم خلفه ، فأعمى أعينهم عن الماء ، فكانوا يرون بلقعا ، والخيل تراه ماء ، فلولا دخول جبريل البحر بفرسه ، لما دخلت خيلهم ، وهى أصناف : منها الصافنات ، وهى التى إذا ربطت فى مكان وقفت على إحدى رجليها ، وقلبت بعض الأخرى فى الوقوف ، وقيل : غير ذلك ، وكانت الصافنات ألف فرس لسليمان عليه السلام ، فعرضها يوما ، ففاتته الصلاة قيل : صلاة العصر فأمر بعقرها فعوضه الله عنها الريح ، فكانت فرسه ، وقيل : إنما عقرها على وجه القُربى كالهدى ، وقيل : إن الفرس لا يحب الماء الصافى ، ولا يضرب فيه بيده كما يضرب بها فى الماء الكدر ، فرحًا به فإنه يرى شخصه فى الماء الصافى ، فيفزعه ، ولا يراه فى الماء الكدر ، وقد قيل فى الحث على حب الخيل :

أحبوا الخيل واصطبروا عليها ... فإن العز فيها والجمالا
إذا ما الخيل ضَيعَها أناس ... ربطناها فأشركتِ العيالا
نُقاسمها المعيشة كل يوم ... وتكسبنا الأباعرَ[٨] والجمالا

[حرف الدال]

دابة : اسم لكل ما دب على الأرض ، وأما التى ذكرها الله تعالى فى سورة سبأ[٩] فقيل : الأرَضة ، وقيل : السوسة ، وسبب ذلك أن سليمان عليه السلام كان قد أمر الجن ببناء صرح ، فبنوه ، ودخل فيه ، وأراد أن يصفو له يوم واحد

---

(١) الدُّلْب : جنس شجر للتزيين ، وهو من الزهريات ، يحب الماء .

(٢) قال النجم : رواه أحمد والشيخان والنسائى وأبو داود وابن ماجه بلفظ « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة » .

(٣) « عليكم بإناث الخيل . . » . إلخ لم أهتد إليه .

(٤) « لما أراد الله خلق الخيل . . . » . إلخ موضوع : عزاه المتقى الهندى فى « كنز العمال » . [١١٣٨٢] ، للحاكم فى تاريخه ، والثعلبى فى تفسيره والديلمى ، عن على .

(٥) ما من فرس إلا ويقول فى كل يوم : « اللهم . . . » . إلخ لم أقف عليه .

(٦) وفى الحديث : « إن الملائكة . . . » . إلخ أورده المتقى الهندى فى « كنز العمال » . برقم [٤٠٦٣٣] ، للحاكم فى الكنى عن أبى أيوب .

(٧) ولقد سابق النبى ﷺ على الخيل . لم أهتد إليه . وفى النهاية قال ابن الأثير : « وفى الحديث أنه أمر بإجراء الخيل وسبّقها ثلاثة أعذق» وعزاه لأبى موسى .

(٨) الأباعر : جمع بعير، وهو الجمل، أو الناقة .

(٩) إشارة إلى ما جاء فى الآية الكريمة رقم [١٤] ، ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ . .﴾ . إلخ .

من دهره فدخل عليه شاب فقال له : كيف دخلت من غير استئذان ؟ فقال : أذن لى رب البيت ، فعلم سليمان أن رب البيت هو الله تعالى ، وأن الشاب ملك الموت أرسل ليقبضَ روحه ، فقال : سبحان الله ! هذا اليوم طلبت فيه الصفاء ، فقال : طلبت ما لم يخلق ، قال : وكان قد بقى من بناء المسجد الأقصى بقية ، فقال له : ياأخى ياعزرائيل أمهلنى حتى يفرغ ! قال : ليس فى أمر ربى مهلة ، قال : فقبض روحه ، وكان من عادته الانقطاع فى التعبد شهرين وثلاثة ، ثم يأتى فينظر ما صنعت الجن ، فلما قبض ، كان متوكئاً على عصاه ، واستمرّ ذلك مدة ، والجن تتوهم أنه مشرف عليها فتعمل كل يوم بقدر عشرة أيام ، حتى أراد الله ما أراد فسلط على العصا الأرضة ، فأكلتها فخر ميتًا فتفرقت الجن عنه ، وقيل : إن واحدًا منهم مر عليه ، فسلم فلم يجبه ، فدنا منه ، فلم يجد له نفساً ، فحركه ، فسقطت العصا فإذا هو ميت . قال وكان عمره ثلاثا وخمسين سنة ، والعصا التى اتكأ عليها من خَرنُوب . قال الله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾. [سبأ:١٤] قال : فشكرت الجن الأرضة حتى قيل : إنهم كانوا يأتونها بالماء حيث كانت .

وأمّا الدابة التى من أشراط الساعة[١] فاختلف فى أمرها فقيل : تخرج من الصفا ، وهو الصحيح ، وقيل : من الطائف ، وقيل : من الحجر ، وطولها ستون ذراعاً ذات قوائم وهى مختلفة الألوان ، وذلك فى ليلة يكون الناس مجتمعين بمنى ، أو سائرين إلى منى ، ومعها عصا موسى ، وخاتم سليمان ، لا يدركها طالب ، ولا يفوتها هارب ، تلحق المؤمن فتضربه بالعصا ، فتكتب فى وجهه مؤمن ، وتدرك الكافر فتسمه بالخاتم ، وتكتب فى وجهه كافر[٢] ، وروى أنها تخرج إذا انقطع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقَلّ الخير .

داجن : هو ما يربيه الناس فى البيوت من صغار الغنم والحمام والدجاج ، وغير ذلك ، وفى حديث الإفك : « **ما نعلم لها قضية غير أنها جارية حديثة السن ، تعجن ، وتنام فتأتى الداجن فتأكل العجين** » .

دب : من السباع وكنيته أبو جهينة ، وأبو جهل ، وغير ذلك ولا يخرج زمن الشتاء حتى يطيبَ الهواء ، وإذا جاع يمص يديه ورجليه ، فيندفع جوعه ، وهو كثير الشبق ، وينعزل بأنثاه ، وتضع جروا واحدا ، وتصعد به إلى أعلى شجرة خوفا عليه من النمل ، لأنها تضعه قطعة لحم ، ثم لا تزال تلحسه ، وترفعه فى الهواء أياما ، حتى تنفرج أعضاؤه وتخشن ، ويصير له جلد ، وفى ولادتها صعوبة ، وربما ماتت منها ، وقد تلده ناقص الخلق شوقاً منها للسفاد ، وهى من الحيوان الذى يدعو الإنسان للفعل به . وقيل : إن الدب يقيم أولاده تحت شجرة الجوز ، ثم يصعد فيرمى بالجوز إليها إلى أن تشبع ، وربما قطع من الشجرة الغصن العتل الضخم ، الذى لا يقطع إلا بالفأس والجهد ، ثم يشد به على الفارس ، فلا يضرب أحدًا إلا قتله .

دجاجة : وكنيتها أم ناصر الدين ، وأم الوليد ، وغير ذلك ، وإذا هرمت لم يبق لبيضها مح ، وتوصف بقلة النوم ، قيل : إن نومها بقدر ما تتنفس ، وعندها خوف فى الليل ، ولأجل ذلك تطلب وقت الغروب مكاناً عاليا ، وتخشى الثعلب ، قيل : إنها إذا رأته ألقت نفسها إليه من شدة الخوف ، ولا تخشى من بقية السباع ، وقيل : يعرف الذكر من الأنثى بإمساك منقاره ، فإن تحرك فذكر وإلا فأنثى ، ومن الدجاج ما يبيض فى اليوم مرتين وهو من أسباب موتها ويستكمل خلق البيضة فى بطن الدجاجة فى عشرة أيام ، وفى الحديث أن النبى ﷺ : « **أمر باتخاذ الغنم للأغنياء ، وباتخاذ الدجاج للفقراء** »[٣] . ومن العجيب فى صنعة الله تعالى أن خلق الفروج من البياض ، وجعل الصفار غذاء له ، كما خلق الطفل من المنّى ، وجعل دم الحيض[٤] غذاء له ، فتبارك الله أحسن الخالقين.

---

(١) جاء ذكرها فى سورة [النمل الآية رقم ٨٢] ، ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ . . ﴾ .

(٢) لم يصح فى أمرها إلا ما أورده القرآن .

(٣) وفى الحديث أن النبى ﷺ « أمر باتخاذ الغنم للأغنياء وباتخاذ . . » . إلخ رواه ابن ماجه فى سننه [٢ : ٧٣٣] ، وفى سنده ضعيفان : وقال ابن القيم : ليس فى أحاديث اتخاذ الدجاج حديث صحيح .

(٤) المراد : ما كان يتحول منه إلى دم حيض عند انفتاح الرحم .

الخواص : لحم الدجاج الفتى يزيد فى العقل ، ويصفى اللون ، ويزيد فى المنى ، ويقيم الباه والمداومة عليه تورث النقرس والبواسير على ماذكر .

دج : طير كبير أغبر يكون بساحل البحر كثيرا وبالقرب من الإسكندرية ، والناس يصطادونه ويأكلونه .

دود : اسم جنس ، ومنه دود القز ، ويقال لها الهندية ، ومن عجيب أمرها أنها تكون أوّلا مثل بزر التين ، ثم تصير دودا ، وذلك فى أوائل فصل الربيع ، ويكون عند خروجه مثل الذرّ فى قدره ولونه ، ويخرج فى الأماكن الدافئة إذا كان مصروراً فى حق ، وربما تأخر خروجه فتجعله النساء تحت ثديهن بصرته فيخرج ، وغذاؤه ورق التوت الأبيض، قال : ولا يزال يكبر حتى يصير بقدر أصبع ، وينتقل من السواد إلى البياض ، وكل ذلك فى مدة ستين يوما ، قال : ثم يأخذ فى النسج بما يخرجه من فيه ، إلى أن ينفد ما فى جوفه ، ثم يخرج شيئاً كهيئة الفراش له جناحان لا يسكنان من الاضطراب ، وعند خروجه يهيج إلى السفاد[١] ، ويلصق الذكر مؤخره إلى مؤخر الأنثى ويلتحمان مدة ، ثم يفترقان . قال : ويكون قد فرش لهما خرقة بيضاء ، فينشران البزر عليها ، ثم يموتان هذا إذا أريد منهما البزر . وإن أريد الحرير تركا فى الشمس بعد فراغهما من النسج ، فيموت ، وهو سريع العطب حتى إنه ليخشى عليه من صوت الرعد والعطاس ، ومس المرأة الحائض ، والرجل الجنب ، ورائحة الدخان والحر الشديد ، والبرد الشديد ، ونحو ذلك. قال أبو الفتح البستى :

ألم تر أن المرء طولَ حياته ... مُعَنًّى بأمر لا يزال يعالجه
كذلك دود القز ينسج دائماً ... ويهلك غما وسط ما هو ناسجه

وقال آخر :

يفنى الحريص بجمع المال مدتَه ... وللحوادث ما يبقى وما يَدَع
كدودة القز ما تبنيه يهلكها ... وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

ديك : وكنيته أبو حسان ، وأبو حماد ، وغير ذلك ، ويسمى الأنيس ، والمؤانس ، ومن طبعه لا يألف زوجة واحدة ، وهو أبله الطبيعة؛ لأنه إذا سقط من بيت أصحابه لا يهتدى إلى الرجوع إليه ، وفيه من الخصال الحميدة مالا يحصر ؛ منها أنه يساوى بين أزواجه فى الطعمة ويذكر الله تعالى فى الليل ، حتى قيل : إنه ليوقته ويقسمه ، وربما لا يخرم فى توقيته ، وفى الصحيح[٢] : « **إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيكِ فَاذْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى ، فَإِنَّهُ يَصِيحُ بِصِيَاحِ دِيكِ الْعَرْشِ** » . وروى الغزالى عن ميمون بن مهران « أن لله ملكاً تحت العرش على صورة الديك فإذا مضى ثلث الليل الأوّل ضرب بجناحيه وقال : ليقم المسلمون ، فإذا مضى الثلث الثانى ضرب بجناحيه وقال : ليقم الذاكرون ، فإذا كان السحر وطلع الفجر ضرب بجناحيه وقال : ليقم الغافلون ، وعليهم أوزارهم»[٣] . وفى الحديث أن النبى ﷺ قال : « **إن لله ديكاً أبيض له جناحان موشحان بالزبرجد والياقوت واللؤللؤ جناح بالمشرق ، وجناح بالمغرب ، ورأسه تحت العرش ، وقوائمه فى الهواء ، فإذا كان ثلث الليل الأول خفق بجناحيه وقال : سبحان الملك القدوس ، فإذا كان الثلث الثانى خفق بجناحيه وقال : قدّوس قدّوس ، فإذا كان الثلث الثالث خفق بجناحيه وقال : ربنا الرحمٰن الرحيم لا إله إلا هو** »[٤]. وروى الثعلبى بإسناده عن النبى ﷺ أنه قال : « **ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى : صوت الديك ، وصوت قارئ القرآن ، وصوت الاستغفار بالأسحار** »[٥] . وفى الحديث « **لَا تَسُبُّوا الدِّيكَ فَإِنَّهُ يُوَقِّتُ لِلصَّلَاةِ** »[٦] . وزعم أهل التجربة أن الرجل إذا ذبح الديك الأبيض الأفرق لم يزل ينكب فى أهله وماله .

---

(١) السفاد : اللقاء الجنسى والمعاشرة بين الحيوانات والطيور .

(٢) وفى الصحيح . . إلخ أخرجه بنحوه مسلم [٢٧٢٩] ، عن أبى هريرة . (٣) « وروى الغزالى . . . » . إلخ لم أهتد إليه .

(٤) « إن الله ديكا . . » . إلخ إسناده ضعيف . أورده السيوطى فى اللآلئ المصنوعة [١/ ٦٢] ، نقلا عن أبى الشيخ وأخرجه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان [٢/ ٣١٥] .

(٥) « ثلاثة أصوات . . » . إلخ عزاه المتقى الهندى برقم [٣٥٢٨٥ - كنز العمال] ، للديلمى عن أم سعد بنت زيد بن ثابت .

(٦) « لا تسبوا الديك . . . » . إلخ رواه أبو داود وابن ماجه بإسناد جيد بلفظ « فإنه يوقظ » . بدل « يؤقت » .

نادرة : قيل : كان لإبراهيم بن مزيد ديك ، وكان كريماً عليه ، فجاء العيد وليس عنده شىء يضحى عليه ، فأمر امرأته بذبحه ، واتخاذ طعام منه ، وخرج إلى المصلى فأرادت المرأة أن تمسكه ففرّ ، فتبعته ، فصار يخترق من سطح إلى سطح ، وهى تتبعه فسألها جيرانها وهم قوم هاشميون عن موجب ذبحه ، فذكرت لهم حال زوجها فقالوا : ما نرضى أن يبلغ الاضطرار بأبى إسحاق إلى هذا القدر ، فأرسل إليه هذا شاة ، وهذا شاتين ، وهذا بقرة ، وهذا كبشا حتى امتلأت الدار ، فلما جاء ورأى ذلك قال : ما هذه ؟ فقصت عليه زوجته القصة فقال : إن هذا الديك لكريم على الله فإن إسماعيل نبى الله فُدِىَ بكبش واحد ، وهذا فدى بما أرى ! .

[حرف الذال]

ذباب : وكنيته : أبو جعفر ، وهو أصناف كثيرة يتولد من العفونة ، ومن عجيب أمره أنه يلقى رجيعه على الأبيض يسود ، وعلى الأسود يبيض ، ولا يقعد على شجرة الدّباء ، وفى الحديث : « **إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِى إِنَاءِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ ، فَإِنَّ فِى إِحْدَى جَنَاحَيْهِ دَاء وَفِى الآخَرِ دَوَاء ، وإِنَّ مِنْ طَبْعِهِ أَنْ يَلْقِى نَفْسَهُ بِالجَنَاحِ الَّذِى فِيهِ الدَّاءُ** » [(١)] وحكى أن المنصور كان جالساً فألَحّ عليه الذباب حتى أضجره ، فقال : انظروا من بالباب من العلماء فقالوا : مقاتل بن سليمان، فدعا به ثم قال له : هل تعلم لأى حكمة خلق الله الذباب ؟ قال : ليُذِل به الجبابرة ! قال : صدقت ! ثم أجازه ! ومن خصائص النبى ﷺ أنه كان لا يقع عليه ذباب[(٢)] قط . وقال المأمون : قالوا : إن الذباب إذا دلك به موضع لسعة الزنبور سكن ألمه ، فلسعنى زنبور فحككت على موضعه أكثر من عشرين ذبابة فما سكن له ألم فقالوا : هذا كان حتفا قاضياً ، ولولا هذا العلاج لقتلك ! وقال الجاحظ: من منافع الذباب ، أنها تحرق ، وتخلط بالكحل ، فإذا اكتحلت المرأة كانت عينها أحسن ما يكون ، وقيل : إن المواشط تستعمله ، ويأمرن به العرائس ، وقيل : إن الذباب إذا مات وألقى عليه برادة الحديد عاش ، وإذا بخر البيت بورق القرع هرب منه الذباب .

ذئب : حيوان معروف ، وكنيته أبو جعدة ، وأبو جاعد ، وأبو ثمامة ، لونه رمادى ، وهو من الحيوان الذى ينام بإحدى عينيه ، ويحرس بالأخرى ، حتى تمل ، فيغمضها ، ويفتح الأخرى كما قال بعض واصفيه :

ينام بإحدى مقلتيه ويتقى ... بأخرى المنايا فهو يقظانُ هاجعُ

وإذا أراد السفاد اختفى ويطول فى سفاده كالكلب ، وإذا جاع عوى ، فتجتمع الذئاب حوله ، فمن هرب منها أكلوه ، وإذا خاف منه الإنسان طمع فيه ، وليس فى الأرض أسد يعض على عظم إلا ويسمع لتكسيره صوت بين لحييه إلا الذئب فإن لسانه يبرى العظم ، برى السيف ، ولا يسمع له صوت. وقيل : إذا أدماه الإنسان فشم الذئب رائحة الدم ، لا يكاد ينجو منه ؛ وإن كان أشد الناس قلبا ، وأتمهم سلاحا ، كما أن الحية إذا خدشت ، طلبها الذر فلا تكاد تنجو منه ، وكالكلب إذا عض الإنسان يطلبه الفأر ، فيبول عليه ، فيكون فى ذلك هلاكه ، فيحتال له بكل حيلة ، قيل : ولا يعرف الالتحام عند السفاد إلا فى الكلب ، والذئب ، وإذا هجم الصياد على الذئب والذئبة وهما يتسافدان قتلهما كيف شاء والله أعلم .

[حرف الراء]

رُخ : طير عظيم الخلقة ، يوجد بجزائر الصين، قال أبو حامد الأندلسى ، ذكر لى بعض المسافرين فى البحر أنهم أرسوا بجزيرة ، فلما أصبحوا ، وجدوا فى طرفها لمعانا وبريقاً ، فتقدموا إليه ، وإذا هم بشىء مثل القبة ، قال: فجعلوا يضربون فيه بالفئوس ، إلى أن كسروه فوجدوه كهيئة البيضة ، وفيه فرخ عظيم ، قال: فتعلقوا بريشه ، وجروه ، ونصبوا القدور ، وخرجوا يحتطبون من تلك الجزيرة حطبا يقال له حطب الشباب ، فلما أكلوا ذلك الطعام اسودّت لحية

---

(١) « إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم ... » . إلخ أخرجه البخارى فى كتاب بدء الخلق ، باب إذا وقع الذباب فى الشراب .

(٢) « ومن خصائص النبى ﷺ أنه ... » . إلخ لم أهتد إليه .

ولمة[١] كل ذى شيب . قال : فلما أصبحوا جاءهم الرخ فوجدهم قد صنعوا بفرخه ما صنعوا فذهب وأتى فى رجليه بحجر عظيم ، وتبعهم بعد ما ساروا فى البحر ، وألقاه على سفينتهم فسبقت السفينة ، وكانت مشرعة بتسعة قلوع ، ووقع الحجر فى البحر فنجاهم الله تعالى منه وكان ذلك من لطف الله تعالى بهم . قال : وقد كان بقى معهم أصل ريشة قيل : إنهم كانوا يجعلون فيها الماء فتسع مقدار قربة فسبحان الخالق الأكبر ! .

رَخَم : طير أغبر أصفر المنقار معروف ، وهو من أشر الطيور ، ويقال : إنها صماء ، وسبب ذلك ما قيل فى بعض الحكايات : إن موسى عليه السلام لما مات تكلمت بموته ، وكانت تعرف مكانه ، فأصمها الله تعالى حتى لا ترشد أحدًا إلى موضعه .

[حرف الزاى]

زرافة : حيوان غريب الخلقة ، ولما كان مأكولها ورق الشجر ، خلق الله تعالى يديها أطول من رجليها ، وهى ألوان عجيبة يقال : إنها متولدة من ثلاث حيوانات : الناقة الوحشية ، والبقرة الوحشية ، والضبع ، فينزو الضبع على الناقه تأتى بذكر ، فينزو ذلك الذكر على البقرة ، فتتولد منه الزرافة ، والصحيح أنها خلقة بذاتها ذكر وأنثى كبقية الحيوانات لأن الله تعالى لم يخلق شيئًا إلا بحكمة .

زنبور : حيوان فوق النحل له ألوان ، وقد أودعه الله حكمة فى بنيانه بيته ، وذلك أنه يبنيه مربعاً له أربعة أبواب ، كل باب مستقبل جهة من الرياح الأربع ، فإذا جاء الشتاء دخل تحت الأرض ، ويبقى إلى أيام الربيع ، فينفخ الله تعالى فيه الروح ، فيخرج ويطير ، وفى طبعه التهافت على الدم واللحم ، ومن خاصيته أنه إذا وضع فى الزيت مات ، وفى الخل عاش ، ولسعته تزال بعصارة الملوخية .

[حرف السين]

سِعْلاة : نوع من المتشيطنة ، قال السهيلى : هو حيوان يتراءى للناس بالنهار ، ويغول بالليل ، وأكثر ما يوجد بالغِياض[٢] ، وإذا انفردت السعلاة بإنسان وأمسكته صارت ترقصه ، وتلعب به كما يلعب القط بالفأر ، قال : وربما صادها الذئب ، وأكلها وهى حينئذ ترفع صوتها وتقول : أدركونى ، فقد أخذنى الذئب ، وربما قالت : من ينقذنى منه ، وله ألف دينار ؟ وأهل تلك الناحية يعرفون ذلك فلا يلتفتون إلى كلامها ! .

سَمَنْدَل : حيوان يوجد بأرض الصين ومن عجيب أمره أنه يبيض فى النار ، ويفرخ فيها ، ويؤخذ وبره فينسج ، ويجعل منه المناشف ، وهذه المناشف إذا اتسخت جعلت فى النار ، فتأكل النارَ وسخها ، ولا تحرقها ، حكى أن شخصاً بل واحدة ، من هذه المناشف بالزيت ، وجعلت فى النار ، وأوقدت ساعة ولم تحترق .

سنجاب : حيوان كهيئة الفأر يوجد فى بلاد الترك على قدر اليربوع، إذا أبصر الإنسان هرب منه ، وشعره كشعر الفأر ، وهو ناعم فيؤخذ ويسلخ جلده ، ويجعل فروا يلبس ، وطبعه موافق لكل طبع ، وأحسنه الأزرق .

سنور : حيوان متواضع ألوف ، خلقه الله تعالى لدفع الفأر والحشرات ، كناه وأسماؤه كثيرة .

حكى : أن أعرابياً صاد سنورًا فرآه شخص ، فقال : ما تصنع بهذا القط ؟ ولقيه آخر فقال : ما تصنع بهذا الخيدع ؟ ولقيه آخر : فقال ما تصنع بهذا الخيطل ؟ ولقيه آخر . فقال : ما تصنع بهذا الهرّ ؟ قال : أبيعه قال له : بكم؟، قال: بمائة درهم . فقال : إنه يساوى نصف درهم قال : فرمى به ، وقال : لعنه الله ما أكثر أسماءه وأقل قيمته ! وهذا الحيوان يهيج فى زمان الشتاء فى شهرين منه ، وتراهن يترددن صارخات فى طلب السفاد ، فكم من حرة خجلت ! وذى غَيرة هاجت حَميته ! وعزب تحركت شهوته ! وطيب فم السنور كطيب فم الكلب فى النكهة ، وقيل : إن الهرة تحمل

---

(١) اللِّمَّة : شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن.

(٢) الغياض : جمع غيضة وهى موضع الشجر الكثيف الملتف .

خمسين يوماً ، وهو يجمع بين العض بالناب ، والخمش بالمخلاب ، وليس كل سبع كذلك ، وهو يناسب الإنسان فى بعض الأحوال فيعطس ، ويتمطى ، ويغسل وجهه بلعابه ، ويلطخ وبر ولده بلعابه ، حتى يصير كأن الدهن يسرى فى جلده . وقيل : إذا بال الهّر شمّ بوله ودفنه ، قيل : لأجل الفأر فإذا شمه علم أن هناك هرا فلم يخرج ، وأما سنور الزباد فهو بأرض الهند ، ويوجد الزباد تحت إبطيه وفخذيه .

سوس : هو دُود الحبوب والفاكهة . ومن الفوائد التى تكتب فى الحبوب فلا تسوس أسماء الفقهاء السبعة الذين كانوا بالمدينة وقد نظمها بعضهم فقال :

ألا كل من لا يقتدى بأئمة ... فقِسْمَتُه ضيزى عن الحق خارجه
فخذهم عبيد الله عروة قاسم ... سعيد أبو بكر سليمان خارجه

[حرف الشين]

شادهوار : حيوان يوجد بأرض الترك يقال : إن له قرنا عليه اثنتان وسبعون شعبة مجوفة ، فإذا هبت الريح سمع لها تصويت عجيب يكاد يدهش ! وربما قيل : إن فيه شعبة يورث سماعها البكاء والحزن ، وأخرى تورث الفرح والضحك ، وإنه أهدى إلى بعض الملوك شىء من شعبها فرأى فيه ذلك . ويقال : إن من الحيوان شيئًا يوجد بالغياض فى قصبة أنفه اثنا عشر ثقباً إذا تنفس يسمع له صوت كصوت المزمار ، فتأتيه الحيوانات لتسمعه فتدهش ، فيغفل بعضها ، من الطرب ، فيثب عليه فيأخذه ويأكله ، وهى تعلم ذلك منه وتحترز فإذا لم يمسك منها شيئاً ضاق خلقه ، وصاح بها صيحة فتهرب ، وتتركه .

شاهين : طير يكون كهيئة الصقر إلا أنه عظيم الهامة ، واسع العينين ، ومزاجه أيبس من مزاج الصقر ، وحركته من العلو إلى أسفل أقوى ، ولذلك ينقض على الطير بشدة ، فربما يخطئه فيضرب نفسه بالأرض بشدة فيموت ، وقيل أوّل من صاد به قسطنطين ، وذلك أنه قد جعل له الحكماء الشواهين تظله من الشمس إذا سار، فاتفق فى بعض الأيام أنه ركب فدارت الشواهين عليه ، وسار ، قال : فطار واحد منها ، وانقض على صيد ، فأخذه ، فأعجب الملك ذلك وصار يتصيد به .

شُخْرُور : طير أسود فوق العصفور يصوت بأصوات عجيبة مطربة .

[حرف الصاد]

صُرَد : حيوان يسمى الصرصار على قدر الخنفساء ، له جناحان ، ويقال له الصوام لأنه أول طير صام يوم عاشوراء .

صعو : طير من صغار العصافير أحمر الرأس .

[حرف الضاد]

ضأن : نوع من الحيوانات ذوات الأربع وهو من الحيوانات المباركة ، تحمل الأنثى منه بواحد واثنين ، وفيها البركة ، وغيرها تحمل بالسبعة والتسعة ، وليس فيها بركة ، وإذا رعت زرعاً نبت عوضه ، وذلك لبركتها بخلاف ذوات الأربع ، ومن عجيب أمرها أنها إذا رأت الذئب تخور وتخاف منه ، ولا تخاف من سائر السباع ، قال بعض القصاص : مما أكرم الله تعالى به الكبش أن خلقه مستور العورة ، من قُبل ومن دُبر ، ومما أهان به التيس أن خلقه مهتوك الستر مكشوف العورة من قبل ودبر ، ويقال : الضأن من دواب الجنة ، وهى صفوة الله من البهائم ، ويقال فى المدح ، هو كبش من الكباش ، وفى الذم هو تيس من التيوس وأهدى بعضهم إلى صديقه شاة هزيلة فقال :

تقول لى الإخوان حين طبختها ... أتطبخ شطرنجا عظاماً بلا لحم ؟!

ومن العجب ، أنه يأتى غنم من الهند للكبش منها ألية فى صدره ، وأليات فى كتفيه ، وألية على ذنبه ، وربما تكبر

ألية الضأن حتى تمنعه من المشى ، ومن عجيب أمرها أنها إذا تسافدت وقت المطر لا تحمل ، وعند هبوب الريح إن كانت شمالية حملت ذكرا أو جنوبية حملت أنثى والله أعلم .

ومن خواصها : أن لحمها ينفع للسوداء ويزيد فى المنى والباه ، وإذا تحملت المرأة بصوفها قطع حبلها ، وإذا غطى إناء العسل بصوف الضأن الأبيض منع وصول النمل إليه ، وإذا دفن قرن كبش تحت شجرة ، كثر حملها على ما ذكر ، والله أعلم .

ضب : حيوان يجعل جحره فى الأرض الصلدة وعنده بلم [1] ، فربما لا يهتدى لجحره إذا خرج منه ، فلذلك لا يحفره إلا بقرب كودية أو إشارة ، وهو من الحيوان الذى يعمر : قيل : إنه يعيش سبعمائة سنة ، ومن طبعه أنه يصبر على الماء ، يقال : إنه لا يشرب ، فإنه يبول فى كل أربعين يوماً قطرة ، والأنثى تبيض سبعين بيضة وأكثر ، وتجعلها فى الأرض وتتعاهدها فى كل يوم إلى أربعين يوماً ، فيخرج . وبيضها قدر بيض الحمام ، وهذا الحيوان شديد الخوف من الآدمى ، ولذلك يجعل العقارب فى جحره ، حتى يمتنع بها ، ويخرج من جحره كليل البصر فيستقبل الشمس فيحصل له بذلك حدة فى بصره ، وإذا عطش تَنَشّق النسيم ، فيروى ، بينه وبين الأفاعى مناسبة ، وذلك أنه لا يخرج زمن الشتاء .

فائدة : قيل : إن أعرابياً أتى النبى ﷺ وفى كمه ضب قد صاده وقال : لولا أن تسمينى العرب عجولا لقتلتك ، وسررت الناس بقتلك ، فقال : عمر دعنى يا رسول الله أقتله ، فقال ﷺ : « **مهلاً ياعمر ، أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبيا** » [2] . قال : ثم أقبل الأعرابى على النبى ﷺ وقال : والله لا آمنت بك إلا يؤمن بك هذا الضب ، وأخرجه من كمه ، قال : فعند ذلك قال النبى ﷺ « **يا ضب** » ، فأجابه بلسان فصيح : لبيك وسعديك يا رسول رب العالمين ، فقال : « **من تعبد** » قال الذى فى السماء عرشه ، وفى الأرض سلطانه ، وفى البحر سبيله ، وفى الجنة رحمته ، وفى النار عذابه ، فقال : « **من أنا ياضب ؟** » قال: رسول رب العالمين ، قد أفلح من صدقك ، وخاب من كذبك ، قال : فقال الأعرابى عند ذلك ياويلاه ! ضب اصطدته بيدى من البرية يشهد لك بالرسالة ؟! أنا أولى منه بذلك ، هات يدك أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله حقاً ، ولقد أتيتك وما على وجه الأرض أحد أكثر بغضاً منى إليك ، ولقد صرت الآن أذهب من عندك وما على وجه الأرض أحد أكثر محبة منى إليك ، ولأنت الساعة أحب إلىّ من أهلى وولدى ، وما تملك يدى ، فقد آمن بك شَعرى وبشرى ، وداخلى ، وخارجى ، وسرى وعلانيتى ، فقال النبى ﷺ : « **الحمد لله الذى هداك لهذا الدين الذى يعلو ولا يُعْلى عليه ، ولكن لا يقبله الله إلا بصلاة ، ولا يقبل الصلاة إلا بقراءة** »، قال : فعلمنى يا حبيبى ، قال : فعلمه « سورة الفاتحة ، وسورة الإخلاص » . وقال : « **من قرأها ثلاث مرات فكأنما قرأ القرآن** » ، قال : « **إلهنا يقبل اليسير ، ويعفو عن الكثير** » ، ثم سأله : « **ألك مال ؟** » فقال : ياحبيبى ليس فى بنى سليم أفقر منى ، فقال : « **لأصحابه: « أعطوه» فأعطوه حتى أثقلوه** » ، فقال عبد الرحمٰن بن عوف : يا رسول الله عندى ناقة عشارية ، أعطيها له ، فقال : « **إن الله يعطيك ناقة فى الجنة من درة قوائمها من الزبرجد الأخضر ، وعيناها من الياقوت الأحمر ، وعليها هودج من السندس ، تخطفك من الصراط كالبرق** » ، قال : فخرج الأعرابى من عنده ، فتلقاه ألف فارس من المشركين ، كلهم يريدون قتل النبى ﷺ فأخبرهم بقصته ، فأسلموا عن آخرهم ، وأمَّر النبى ﷺ خالد بن الوليد عليهم ، وهذه القصة ذكرها الدارقطنى : بتمامها والبيهقى والحاكم ، وابن عدى .

الخَواص : قلبه يذهب الحزن والخفقان ، وشحمه يُطلى به الذكر يزيد فى الباه ، وكعبه يشد على وجع الضرس يبرأ ، وإذا جعل عليه وجه الفرس لا يسبقه شئ ، وبَعْرهُ البَرَص والكلف طلاء ، ومن أكل لحمه لا يعطش زماناً طويلا .

---

(١) أي غليظ الشفتين .

(٢) قال فى المواهب اللَّدُنية : ذكر الحديث القاضى عياض فى الشفاء ، وارجع إلى البداية والنهاية لابن كثير .

ضَبُع : حيوان معروف ، ومن كناه أم عامر ، ومن طبعه حب لحم الآدمى ، حتى قيل : إنه ينبش القبور ، وإذا مر بإنسان نائم حفر تحت رأسه ، ووثب عليه ، وبقر بطنه ، وشرب دمه .

الخواص : من شرب دمه ذهب وسواسه ، ومن علق عليه عينه أحبه الناس ، وإذا جعلها فى خل سبعة أيام ، ثم جعلها تحت فص الخاتم ، فكل من كان به سحر وجعل الخاتم فى قليل ماء وشربه زال سحره .

ضفدع : حيوان يتولد من المياه الضعيفة الجرى ، ومن العفونات ، وعقيب الأمطار ، وأوّل ما يظهر مثل الحب الأسود ، ثم ينمو ثم تتشكل له الأعضاء ، وإذا نق جعل فكه الأسفل فى الماء والأعلى من خارج ، وفى صوته حدة . قال سفيان : ليس من الحيوان أكثر ذكراًالله تعالى من الضفدع ، وفى الآثار أن داود عليه السلام قال لأسَبّحن الله تعالى بتسبيح ما سبحه أحد قبلى ، فنادته ضفدعة : ياداود تمنّ على الله تعالى بتسبيحك ، وأنا لى تسعون سنة ماجف لسانى عن ذكر الله تعالى ؟! قال : فما تقولين فى تسبيحك ؟! قالت : أقول سبحان من هو مُسَبَّح بكل لسان ، سبحان من هو مذكور بكل مكان ، فقال داود : وما عسى أن أقول ! وقال بعضهم : إنها كانت تأخذ الماء بفيها ، وتجعله على نار إبراهيم الخليل ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

[حرف الطاء]

طاوس : طير مليح ذو ألوان عجيبة ، وعنده الزهو فى نفسه ، والعجب ، ومن طبعه العفة ، وهو من الطير كالفرس من الحيوان ، والأنثى تبيض حين يمضى لها من العمر ثلاث سنين ، وفى ذلك الأوان يكمل ريش الذكر ، ويتم لونه وتبيض الأنثى مرة واحدة فى كل شهر ، ففى السنة اثنتا عشرة بيضة ، أو أقل أو أكثر ، ويسفد الذكر فى أيام الربيع ، ويرمى ريشه فى أيام الخريف ، كالشجر فإذا بدا طلوع الورق ، طلع ريشه ، ومدة حضنه ثلاثون يوما .

فائدة : قيل : إن آدم لما غرس الكرمة[1] ، جاء إبليس لعنه الله فذبح عليها طاوساً فشربت دمه ، فلما طلعت أوراقها ، ذبح عليها قرداً ، فشربت دمه ، فلما طلعت ثمرتها ، ذبح عليها أسدا فشربت دمه ، فلما انتهت ثمرتها ، ذبح عليه خنزيرا ، فشربت دمه ، فمن أجل ذلك تجد شارب الخمر أوّل مايشربها وتدب فيه يزهو بنفسه ، ويميس عجباً كالطاوس ، فإذا جاء مبادئ السكر لعب وصفق بيديه كالقرد ، فإذا قوى سكره قام وعربد كهيئة الأسد ، فإذا انتهى سكره انقبض كما ينقبض الخنزير ، ثم يطلب النوم والناس تتشاءم بإقامته بالدور ؛ قيل : لأنه كان سببا لدخول إبليس الجنة ، وخروج آدم منها والله على كل شىء قدير .

[حرف الظاء]

ظبى : واحد الغزلان ، وهو ثلاثة أصناف : الأول الأرام وهى ظِباء الرمل ، ولونها رمادى وهى سميته العنق ، والثانى العُفْر ولونها أحمر ، وهى قصيرة العنق ، والثالث الأدم وهى طويلة العنق ، وتوصف بحدة البصرة ، وقيل : إن الظبى يقضم الحنظل قضما ، ويمضغه مضغاً وماؤه يسيل من شدقيه ، ويرد الماء الملح فيشرب الأجاج ، ويغمس خرطومه فيه كما تغمس الشاة لحيتها فى الماء العذب ، فأى شىء أعجب من حيوان يستعذب ملوحة البحر ؟! ويستحلى مرارة الحنظل ؟! .

الخواص : لسانه يجفف ، ويطعم للمرأة السليطة تزول سلاطتها وبعره وجلده يحرقان ، ويسحقان ويجعلان فى طعام الصبى يزيد ذكاؤه ، ويصير فصيحاً ذلقاً حافظا .

ظَرِبَان : دويبة فوق جرو الكلب ، منتنة الريح ، تزعم العرب أن من صادها وفست فى ثوبه لا تزول الرائحة منه ، حتى يبلى الثوب . وحكى من شؤمها أنها تأتى بيتْ الظبى فتفسو فيه ثلاث مرات ، فتقتل ما فيه وتأكله بعد ذلك .

---

(١) أي شجرة العنب

[حرف العين]

عجل : حيوان معروف وهو ذكر البقر ، وسمى بذلك لاستعجال بنى إسرائيل بعبادته ، والسبب فى ذلك أن موسى عليه السلام وقت الله له ثلاثين ليلة ، ثم أتمها بعشر ، وكان فيهم شخص يسمى موسى بن ظفر السامرى ، فى قلبه من حب عبادة البقر شىء فابتلى الله به بنى إسرائيل ، فقال : ائتونى بحلى قال : فأتوه بجميع حليهم ، فصنع منه عجلا جسداً وألقى عليه قبضة من التراب الذى كان أخذه من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار له خوار كما أخبر الله تعالى[1] ، فعكفوا على عبادته من دون الله تعالى ، وكانوا يأتون إليه ويرقصون حوله ، ويتواجدون فيخرج منه تصويت كهيئة الكلام ، فيتعجبون من ذلك ، ويظنون أنه تكلم ، وإنما فعل ذلك بإغواء إبليس لعنه الله حتى يطغيهم ! .

فائدة : نقل القرطبى عن سيدى أبى بكر الطرطوشى - رحمهما الله - أنه سئل عن قوم يجتمعون فى مكان فيقرءون من القرآن ، ثم ينشد لهم الشعر فيرقصون ، ويطربون ، ثم يضرب لهم بعد ذلك بالدف والشبابة[2] ، هل الحضور معهم حلال أم حرام ؟ فقال : مذهب الصوفية أن هذه بطالة وجهالة . وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأما الرقص والتواجد ، فأول من أحدثه أصحابُ السامرى لما اتخذوا العجل ، فهذه الحالة هى حالة عباد العجل ، وإنما كان النبى ﷺ مع أصحابه فى جلوسهم ، كأنما على رءوسهم الطير ، مع الوقار والسكينة ، فينبغى لولاة الأمر وفقهاء الإسلام ، أن يمنعوهم من الحضور فى المساجد ، وغيرها ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ، ولا يعينهم على باطلهم ، هذا مذهب الشافعى ، وأبى حنيفة ، ومالك ، وأحمد بن حنبل - رحمهم الله تعالى - .

عقرب : هو من الحشرات قال الجاحظ : إنها تلد من فيها مرتين ، وتحمل أولادها على ظهرها ، وهم كهيئة القمل كثيرو العدد ، وقال غيره: إذا حملت تسلط عليها أولادها ، فأكلوا بطنها ، وخرجوا كهيئة الذر ، ثم يكبرون ويطوفون بالأرض ، ولها ثمانية أرجل ، ومن عجيب أمرها أنها لا تضرب النائم ، إلا إذا تحرك شىء منه ، والخنافس تأوى إليها ، وربما لسعت التنين العظيم فقتلته .

غريبة : قال ذو النون المصرى : بينما أنا فى بعض سياحتى إذ مررت بشاطىء البحر ، فرأيت عقرباً أسود قد أقبل إلى أن جاء شاطىء البحر ، فظننت أنه يشرب ، فقمت لأنظر فإذا بضفدع قد خرج من الماء ، وأتاه فحمله ، على ظهره ، وذهب به إلى ذلك الجانب . قال ذو النون : فاتزرت بمئزرى ، وعُمت خلفه حتى إذا صعد من ذلك الجانب ، صعدت ، وسرت وراءه ، فما زال حتى جاء إلى شجرة فوجدت تحتها غلاماً نائماً من شدة السكر ، قد أقبل عليه تنين عظيم ، قال فلصقت العقرب برأس التنين ، ولسعته فقتلته ، ثم رجعت إلى ظهر الضفدع ، فعبر بها إلى الماء وسار بها إلى المكان الذى جاءت منه ، قال ذو النون : فتعجبت من ذلك ، وأنشدت :

يـاراقـدا والـجـلـيـلُ يـحـفـظـه ... مـن كـل سـوء يـكـون فـى الـظُّـلَـم
كـيـف تـنـام الـعـيـون عـن مـلـك ... يـأتـيـك مـنـه فـوائـد الـنِّـعَـم ؟!

ثم أيقظت الغلام وأخبرته بذلك قال : فلما سمع ذلك قال : أشهدك علىّ أنى قد تبت عن هذه الخصلة ، ثم جرينا ذلك التنين ، ورميناه فى البحر ، ولبس ذلك الغلام مِسَحًا[3] ، وساح إلى أن مات - رحمة الله تعالى عليه - ، وما أحسن ما قال بعضهم :

إذا لـم يـسـالـمـك الـزمـانُ فـحـاربْ ... وبـاعـد إذا لـم تـنـتـفـع بـالأقـارب
ولا تـحـتـقـر كـيـدَ الـضـعـيـف فـربـمـا ... تـمـوت الأفـاعـى مـن سُـمُـوم الـعـقـارِبْ

---

(١) فى الآية رقم [١٤٨] ، من سورة الأعراف ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ .

(٢) الشّبّابة : نوع من المزمار وتسميها العامة « منجيرة » .

(٣) المِسْح كساء من شعر، وثوب الراهب.

فقد هدّ قِدْمًا عرشَ بلقيس هدهدٌ ... وخرّب فأر قبل ذا سدّ مأرب
إذا كان رأسُ المال عمرَك فاحترز ... عليه من التضييع فى غير واجب
فبين اختلاف الليل والصبح معرك ... يكر علينا جيشُه بالعجائب

فائدة : إذا لدغ أحد فاقرأ عليه هذه الكلمات وهى : سلام على نوح فى العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد فى المرسلين ، من حاملات السم أجمعين ، لا دابة بين السماء والأرض إلا ربى آخذ بناصيتها ، كذلك يجزى عباده المحسنين ، إن ربى على صراط مستقيم ، نوح قال لكم : من ذكرنى لا تلدغوه ، إن ربى بكل شىء عليم ، وصلى الله على سيدنا محمد الكريم .

وقال بعض العلماء : من قال عقدت زبان العقرب ، ولسان الحية ويد السارق بقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، أمن من العقرب ، والحية والسارق ، وفى البخارى : أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ وقال : يارسول الله ماذا لقيت من عقرب لدغتنى البارحة ؟ فقال له النبى ﷺ : « **أما إنَّك لَو قُلْت إذا أمْسَيْتَ ، أعوذُ بكلماتِ الله التَّامَّاتِ من شرّ ما خلق لم تَضُرَّك** » وروى الترمذى أن من قال حين يمسى : « **أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ** » ثلاث مرات ، ثم قال : « **سلام على نوح فى العالمين** » لم تضره الحية والعقرب . والسر فى ذكر نوح دون غيره هو أنه لما ركب فى السفينة سألته الحية والعقرب أن يحملهما معه ، فشرط عليهما أنهما لا يضران من ذكر اسمه بعد ذلك فشرطا له ذلك .

الخواص : من بخر البيت بزرنيخ أحمر ، وشحم بقر هربت منه العقارب ، ومن شرب مثقالين من حب الأترج أبرأه من سمها ، ومن علق عليه شىء من ورق الزيتون برئ أيضاً لوقته .

عَقْعَق : طير ذو لونين طويل الذنب قدر الحمامة على شكل الغراب ، وجناحاه أكبر من جناحى الحمامة ، وهو لا يأوى إلا الأماكن العالية ، وإذا باض جعل حول بيضه ورق الدلب[1] خوفاً عليه من الخفاش ، ولا يفسده .

الخواص : دمه إذا جعل على قطن وألصق على موضع النصل والشوكة الغائبة فى البدن أخرجه .

عَلَق : دود أحمر وأسود يكون بالماء يعلق بالخيل والآدمى ، فإذا علقت بك فرش عليها ماء وملحاً ، وإذا علقت بفرس فبخره بوبر الثعلب فإنها تنفصل من رائحة دخانه .

ومن خواصه : أن البيت إذا بخر به هرب ما فيه من البق ، والبعوض ، وإذا جفف وسحق قلع الشعر وطلى به مكانه منع نباته .

عنقاء : اختلف فيها فقال بعضهم : هو طائر عظيم الخلقة له وجه إنسان ، وفيه من كل حيوان لون ، وقال بعضهم هو طير غريب الشكل يبيض بيضا كالجبال ، ويبعد فى طيرانه ، وسميت بذلك لأنه كان فى عنقها طوق أبيض . قال القزوينى : إنها تخطف الفيلة لعظمها ، وكبر جثتها كما تخطف الحدأة الفأر . قال : وكانت فى قديم الزمان بين الناس إلى أن خطفت عروساً بحليها فذهب أهلها إلى نبى ذلك الزمان ، فشكوها إليه ، فدعا عليها فذهب بها إلى بعض الجزائر التى خلف خط الاستواء ، وهى جزيرة لا يصل إليها أحد ، وجعل لها فيها ما تقتات به من السباع ، كالفيل والكركند وغير ذلك ، وقال أصحاب التواريخ إن هذا الطير يعمّر حتى قيل : إنه يعيش ألفى سنة ، ويتزوج إذا مضى عليه خمسمائة .

وحكى : الزمخشرى فى ربيع الأبرار أن الله تعالى خلق فى زمن موسى عليه السلام طيراً يقال له : العنقاء ، له وجه كوجه الإنسان ، وأربعة أجنحة من كل جانب ، وخلق له أنثى مثله ، ثم أوحى الله تعالى إلى موسى : إنى خلقت خلقاً كهيئة الطير ، وجعلت رزقه الوحوش والطير التى حول بيت المقدس ، قال : فتناسلا وكثر نسلهما فلما توفى موسى عليه السلام انتقلت إلى نجد والعراق فلم تزل تأكل الوحوش ، وانقرضت .

---

(١) الدُّلْب: جنس شجر للتزيين، وهو من الزهريات.

عنكبوت : دُوَيبة لها ثمانية أرجل ، وستة عيون ، وهى من الحيوان الذى صيده الذباب ، وولده يخرج قوياً على النسج من غير تعليم ولا تلقين ، ويخرج أولاده دوداً صغيراً ثم يتغير ويصير عنكبوتاً ، وتكمل صورته .

فائدة : نسج العنكبوت على ثلاثة مواضع : على غار النبى ﷺ، وعلى غار عبد الله بن أنيس لما بعثه النبى ﷺ لخالد الهذلى فقتله ، وحمل رأسه ، - ودخل به فى غار - خوفاً من أهله ، ونسج على عورة زيد بن الحسين بن على بن أبى طالب ﷺ لما صلب عرياناً ، وقيل : إنها نسجت مرتين على داود حين كان جالوت يطلبه .

الخواص : نسجها إن وضع على الجراح الطرية يقطع دمها ، ويجلو الفضة إذا دلكت به ، والذى يوجد من نسجها فى بيت الخلاء ينفع المحموم إذا تبخر به .

ابنُ عِرْسٍ : حيوان معروف ، وهو بأرض مصر كثير ، ويسمى العرسة ، وهو عدوّ للفأر ، وعنده الحيل ، قيل : إنه عدا خلف فأر فصعد منه على شجرة ، فصعد خلفه ، وأمر أنثاه أن تقف تحت الشجرة ثم قطع الغصن الذى كان عليه الفأر ، فسقط فأخذته أنثاه . ومما يحكى عنه أنه يحب الذهب فيسرقه ، ويلد عليه .

عجيبة : قيل إن رجلاً صاد فرخًا من أولاده ، وحبسه تحت طاسة ، فجاء أبوه فوجده ، فذهب وأتى بدينار فوضعه ، فلم يفلته ، ثم ذهب وأتى بآخر ، وما زال كذلك حتى أتى بخمسة دنانير ، فلم يفلته ، ثم أتى بخرقة فلم يفلته ، فأراد ابن عرس أن يأخذ ما برطله[1] به ، فلما علم الرجل ذلك فهم أنه لم يبق عنده شىء فأفلته له .

[حرف الغين]

غراب : وكنيته أبو حاتم ، وله كنى غير ذلك ، وهو أنواع كثيرة : منها الأكحل ، وغراب الزرع والأزرق ، وهذا النوع يحكى جميع ما سمعه . والعرب تتفاءل بصياح الغراب فتقول : إذا صاح مرتين فَشر ، وإذا صاح ثلاثة فخير ، وهو كالإنسان عند الجماع ، وفى طبعه الاستتار عن الناس عند مجامعته ، والأنثى تبيض ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً ، وتحضن ذلك ، والأب يسعى فى طعمتها إلى أن تفرخ ، فإذا فرخت خرجت أفراخها قبيحة المنظر فتتفرق منها ، وتتركها وتغيب ، فيرسل الله لها البعوض فتتغذى به ، ثم لا تزال تتعاهدها حتى ينبت لها الريش فتأتيها ، ومنه قول الحريرى :

يـــارزَّاقَ الـــنَّـــعَّـــاب[2] فـــى عُـــشِّـــه وجـابـر الـعـظـم الـكـسـيـر الـمـهـيـض

ومن طبعه : أنه لا يتعاطى الصيد بل إن وجد رِمّة أكلَ منها ، ويقُمّ من الأرض ما وجد ، ويسمى بالفاسق ، لأنه لما أرسله نوح عليه السلام ليكشف عن الماء ، فوجد فى طريقه رمة ، فسقط عليها ، وترك ما أرسل إليه ، ويسمى بالبين ، لأنه إذا رحل العرب من مكان نزل فيه ، وزعق فى أثرهم . ومن الغرائب أن بين الغراب وبين الذئب ألفة ، وذلك أنه إذا رأى الذئب بقر بطن شاة سقط ، وأكل منها معه ، والذئب لا يضره .

الخواص : إذا غمس الغراب فى الخل ، ثم جفف وسحق ريشه ، وطلى به الشعر سوّده ، وإذا علق منقاره على إنسان زالت عنه العين ، وزبل الغراب الأبقع ينفع الخوانيق والخنازير طلاء ، وإن صرّ فى خرقة على من به السعال زال .

غِرْغِر : دجاج بنى إسرائيل ، يقال : إن فرقة من بنى إسرائيل كانت بتهامة ، فطغت وبغت ، وتجبرت وكفرت ، فعاقبهم الله تعالى بأن جعل رجالهم القردة ، وكلابهم الأسود وعنبهم الأراك ، وجرزهم المقل ، ودجاجهم الغرغر ، وهو دجاج الحبشة فلا ينفع لحمه ، لرائحته الكريهة ، وهذا مشاهد فى زماننا هذا الآن على ما نقل . والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(١) رطله ... دفعه ، ودفعه أشد ما يكون بالرشوة

(٢) النعاب ... وجابر العظم

[حرف الفاء]

فاختة : طير أغبر من ذوات الأطواق بقدر الحمام لها حسن الصوت ، يحكى أن الحيات تهرب من صوتها ، وفى طبعها الأنس ، فمن أجل ذلك تتخذ بيتها فى البيوت ، وهى من الحيوان الذى يعمر ، وقد ظهر منها ما عاش خمسا وعشرين سنة .

الخواص : دمها ينفع من الكمأة والعين من ضربة أو قرحة إذا قطر فيها .

فارة : وكنيتها أم خراب ، وعير دلك ، وتسمى بالفُوَيْسِقة ، وذلك أن النبى ﷺ انتبه ليلة فوجدها قد جذبت الفتيلة ، وأحرقت طرف سجادته ، فقتلها ، وأمر بقتلها[1] .. وهى التى قطعت حبل سفينة نوح ، وأذاها لا يكاد ينحصر ، ومنه : أنها تأتى إلى إناء الزيت فتشرب منه ، فإذا نقصت صارت تشرب بذنبها ، فإذا لم تصل إليه ذهبت ، وأتت فى فيها بماء وأفرغته فيه حتى يعلو لها الزيت فتشربه ، وربما وضعت فيه حجراً فكسرته ، ويقال : إنها من بقايا الممسوخين الذين كانوا يهودا ، ومن أراد أن يعلم ذلك فليضع لها لبن ناقة فى إناء ، فإن لم تشربه فهى منهم .

الخواص : عينه تشد على الماشى يسهل تعبه ، وإذا بخر البيت بزبل الذئب أو الكلب ذهب منه الفار .

فرس البحر : حيوان يوجد بالنيل ، أفطس الوجه ، ناصيته كالفرس ورجلاه كالبقر ، وذنبه قصير يشبه ذنب الخنزير ، وجلده غليظ ، ووجهه أوسع من وجه الفرس ، يصعد البر ، ويرعى الزرع ، وربما قتل الإنسان وغيره .

فهد : حيوان شرس الأخلاق ، قال أرسطو ، هو متولد من الأسد والنمر ، وفى طبعه مشابهة بطبع الكلب ، ونومه ثقيل ، وفى طبعه الحنوّ على أنثاه ، وقيل : أوّل من صاد به كليب بن وائل ، وأول من حمله على الخيل يزيد بن معاوية ، وأكثر من اشتهر باللعب به أبو مسلم الخراسانى .

فيل : حيوان يوجد بأرض الهند ، وكنيته أبو الحجاج ، والأنثى أم سبل ، وهو ينزو على أنثاه إذا بلغ من العمر خمس سنين ، وتحمل أنثاه سنتين ، ثم تضع ، ولا يقربها الذكر فى مدة حملها ، ولا بعده بثلاث سنين ، ولا يلقح إلا ببلاده ، وإذا أرادت الوضع دخلت النهر لأن رجليها لا يثنيان فتخاف عليه ، والذكر يحرسها خوفا على ولده من الحيات ، فإنها تأكله ، وهو عند شدّة غلمته[2] كالجمل ، ويهيج فى زمن الربيع ، وزعم أهل الهند أن لسانه مقلوب ، ولولا ذلك لكان يتكلم لشدة ذكائه ، وقيل : إن ثدييه فى صدره كالإنسان ، وهو أضخم الحيوان ، وأعظمه جرما ، وما ظنك بخلق ربما كان نابه أكثر من ثلاثمائة سن وهو مع ذلك أملح وأظرف من كل نحيف الجسم رشيق ، وربما مر الفيل مع عِظَم بدنه خلف القاعد ، فلا يشعر برجله ، ولا يحس بمروره لخفة همسه ، واحتمال بعض جسده لبعض ، وأهل الهند يزعمون أن أنياب الفيل قرناه يخرجان مستبطنين ، حتى يخرقان ، وخرطوم الفيل أنفه ويده ، وبه يتناول الطعام إلى جوفه ، وبه يقاتل ، وبه يصيح ، وصياحه ليس فى مقدار جرمه ، وقيل : إن الفيل جيد السباحة وإذا سبح رفع خرطومه ، كما يغيب الجاموس جميع بدنه إلا منخريه ، ويقوم خرطومه مقام عنقه ، والخرق الذى فى خرطومه لا ينفذ ، وإنما هو وعاء إذا ملأه من طعام أو ماء أولجه فى فيه ، لأنه قصير العنق لا ينال ماء ولا مرعى ، وأهل الهند تجعله فى القتال ، وهو أيضاً يقاتل مع جنسه ، فمن غلب دخلوا تحت أمره ، وقيل : جعل الله فى طبع الفيل الهرب من السنور .

حكى : عن هارون مولى الأزد ، أنه خبأ معه هِرًّا ، ومضى بسيف إلى الفيل ، فلما دنا منه ، رمى بالهر فى وجهه ، فأدبر هاربا ، وكبر المسلمون ، وظنوا أنه هرب منه قال أبو الشمقمق :

يـاقـوم إنـى رأيـت الـفـيـل بـعـدكـم ... تـبـارك الـلـه لـى فـى رؤيـة الـفـيـل

---

(١) « وذلك أن النبى ﷺ انتبه ليلة » الخ أخرجه ابن ماجه فى كتاب المناسك

(٢) غُلْمته : تأجج الشهوة عنده

رأيت بيتاً له شيء يحركه فكدت أفعل شيئاً فى السراويل !

وقيل : إذا اغتلم الفيل لم يكن لسواسه هم إلا الهرب بأنفسهم ويتركونه . ومن عجيب أمره أن سوطه الذى به يُحث ويُضرب محجن حديد أحد طرفيه فى جبهته ، والآخر فى يد راكبه ، فإذا أراد شيئًا غمزه به فى لحمه ، وأول شيء يؤدبون به الفيل يعلمونه السجود للملك .

قيل : خرج كسرى أبرويز لبعض الأعياد وقد صَفّوا له ألف فيل ، وأحدق به ثلاثون ألف فارس فلما رأته الفيلة سجدت له ، فما رفعت رءوسها حتى جذبت بالمحاجن[1] ، وراضتها الفيالون . وتزعم أهل الهند أن جبهة الفيل تعرق كل عام عرقا غليظاً سائلا أطيب من رائحة المسك ، ولا يعرض ذلك العرق إلا فى بلادها خاصة ، وإن عظام الفيل كلها عاج ، إلا أن جوهر نابه أكرم وأثمن ، ولولا شرف العاج وقدره لما فخر الأحنف بن قيس على أهل الكوفة فى قوله : نحن أكثر منك عاجاً وساجا ، وديباجا وخراجا ، وقيل : إن الفيلة لا تتسافد فى غير بلادها .

فائدة : من قرأ سورة الفيل ألف مرة فى كل يوم ، عشرة أيام متوالية ثم جلس على ماء جار : وقال اللهم أنت الحاضر ، المحيط بمكنونات الضمائر ، اللهم عَزّ الظالم ، وقلّ الناصر ، وأنت المطلع العالم ، اللهم إن فلانا ظلمنى وأساءنى ، ولا يشهد بذلك غيرك أنت مالكه فأهلكه . اللهم سربله سربال الهوان ، وقمصه قميص الردى ، اللهم اقصفه (ست مرات) اللهم اخفضه (مرتين) فأخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله واقٍ ، فإن الله يستجيب له ما لم يكن ظالماً .

الخواص : جلده إذا بخر به بيت هرب بقه ، وإذا سقى إنسان من وسخ أذنه نام نومة طويلة ، وإذا علق من نابه شيء على شجرة لم تثمر ، وإذا عمل من جلده ترس يكون أصلب من كل ترس .

[حرف القاف]

قَاقم : دُوَيْبة تشبه السنجاب إلا أنه أبرد منه مزاجا ، وهو أبيض يقق[2] ، وجلده أعز قيمة من السنجاب .

قَاوَنْد : طير يكون بساحل البحر يبيض فى الرمل ويحضن بيضه سبعة أيام ، ثم تخرج أفراخه بعد ذلك ، فيزقها بعد سبعة أيام ، ويقال : ما يمسك الله البحر فى هيجانه عن أن يفيض على الساحل إلا إكراماً له لأنه يقال : إنه بر والديه .

خواصه : أنه يقيم المقعد ، ويحلل البلاغم المزمنة ، وينفع الأمراض الباردة ، وأوجاع الأعصاب .

قرد : حيوان معروف ، وكنيته أبو خالد ، وغير ذلك ، وهو قبيح المنظر ، مليح الذكاء ، سريع الفهم يتعلم الصنائع ، قيل : إنه أهدى للمتوكل قرد خياط ، وآخر صائغ ، وأهل اليمن يعلمون القردة البيع والجلوس فى الدكاكين ، حتى قيل : إنه يخرز النعل ، ويصر القرطاس ، وهو ذو غيرة ، وعنده لواط حتى قيل : إنه يعدو خلف المليح من شدة المحبة ، والتفت ابن الرومى يوماً إلى أبى الحسن الأخفش وهو يحاكى مشية القرد فقال :

هنيئاً يا أبا الحسن المفدّى بلغت من الفضائل كل غاية
شركت القرد فى قبح وسخف وما قصّرت عنه فى الحكايه

قُنْفُذ : - بالذال المعجمة - وكنيته أبو سفيان ، ومن عجيب أمره أنه يصعد الكرم ، فيرمى العنقود ، ثم ينزل فيأكل منه ما أطاق فإن كان له أفراخ تمرغ فى الباقى ، فيتعلق بشوكه فيذهب به إلى أولاده ، وهو مولع بأكل الأفاعى فإذا لدغته لا يؤثر فيه سمها لدفع ذلك بشوكه ، وإذا تأذى منها ذهب فأكل السعتر البرى ، فيزول أذاها ، وهو من الحيوان الذى يسفد مباطنة كالرجل وله خمسة أرجل .

---

(١) المحاجن : جمع محجن وهو كل معوج الرأس كالصولجان .
(٢) يقق : أى شديد البياض ، ناصعه .

[حرف الكاف]

كركند[1] : حيوان يوجد ببلاد الهند والنوبة ، وهو دون الجاموس ، وله قرن واحد عظيم لا يستطيع رفع رأسه منه لثقله ، وهو مصمت قوى يقاتل به الفيل فيغلبه ، ولا تعمل ناباه شيئًا معه ، وعرض قرنه شبران ، وليس بطويل جداً ، وهو محدد الرأس شديد الملاسة ، وإذا نشر قرنه ظهرت فى معاطفه صور عجيبة كالطواويس والغزلان ، وأنواع الطير والشجر وبنى آدم ، ولذلك يتخذ منه صفائح الأسرة والمناطق للملوك ، ويتغالون فى ثمنها بحيث تبلغ المنطقة أربعة آلاف أو أكثر ، والأنثى تحمل ثلاث سنين ويخرج ولدها نابت الأسنان والقرون ، قوى الحافر ويقال : إنها إذا قاربت الوضع أخرج الولد رأسه من بطنها ، وصار يرعى أطراف الشجر ، فإذا شبع أدخل رأسه بطن أمه ، ويزعم أهل الهند أنه إذا كان ببلاد لم يدع فيها من الحيوان شيئًا حتى يكون بينها وبينه مائة فرسخ من جميع الجهات هيبة له ، وهربًا منه ، ويسمى الحمار الهندى ، وهو شديد العداوة للإنسان يتبعه إذا سمع صوته فيقتله ولا يأكل منه شيئًا .

كِزْوان : طير معروف لا ينام غالب الليل ، خصوصاً فى القمر ، وعنده ذكاء قيل : إنه يتكلم بجميع ما يبصره ، ولا يحتمل المغابنة .

كُزْكِن : طير محبوب للملوك ، وله مشتى ومصيف ، فمشتاه بأرض مصر ، ومصيفه بأرض العراق ، وهو من الحيوان الرئيس ، قيل : إنه إذا نزل بمكان اجتمع حلقة ونام ، وقام عليه واحد يحرسه ، وهو يصوّت تصويتاً لطيفاً حتى يفهم أنه يقظان ، فإذا تمت نوبته أيقظ غيره لنوبته . قال القزوينى : وإذا مشى وطئ الأرض بإحدى رجليه ، وبالأخرى قليلا خوفاً من أن يُحَسّ به ، وإذا طار سار سطراً يقدمه واحد كهيئة الدليل ، ثم تتبعه البقية .

كلب : معروف وهو نوعان : أهلى وسلوقى ، وهذان النوعان سواء إلا أن أنثى السلوقى أسرع فى التعلم من ذكره ، وهذا الحيوان حليم وعنده رياضة وفى طبعه إكرام الأجلاء من الناس .

حكى : أن رجلا عزم جماعة ، فتخلف شخص منهم فى منزله ، ودخل على زوجة صاحب المنزل ، فضاجعها فوثب الكلب عليهما فقتلهما ، فرجع صاحب المنزل فوجدهما قتيلين ، فأنشد يقول :

وما زال يرعى ذِمّتى ويحوطنى ... ويحفَظُ عهدى والخليل يخون
فواعجباً للخِلّ يهتك حرمتى ... وواعجبا للكلب كيف يصون ؟!

وحكى : أبو عبيدة قال : خرج رجل إلى الجبانة ، ومعه أخوه وجاره لينظروا إلى الناس ، فتبعه كلب له ، فضربه ورماه بحجر فلم يته ولم يرجع ، فلما قعد ربض الكلب بين يديه ، فجاء عدوّ له فى طلبه ، فلما رآه خاف على نفسه ، فإذا بئر هناك قريبة القعر فنزل فيها ، وأمر أخاه وجاره أن يهيلا عليه التراب ، ثم ذهب أخوه وجاره إلى سبيلهما وصار الكلب ينبح حوله ، فلما انصرف العدوّ أتاه الكلب ، فما زال يبحث فى التراب إلى أن كشفه عن رأسه ، فتنفس الرجل ، ومر به أناس فتناولوه ، وردوه إلى أهله ، فلما مات ذلك الكلب عمل له قبراً ودفنه فيه ، وجعل عليه قبة ، وسمى ذلك قبر الكلب ، وفى ذلك قيل :

تفرق عنه جاره ، وشقيقه ... وما حاد عنه كلبُه وهو ضاربه

ومن ذلك ما حكى أن رجلا قتل ودفن وكان معه كلب ، فصار يأتى كل يوم إلى الموضع الذى دفن فيه وينبح وينبش ، ويتعلق برجل هناك ، فقال الناس : إن لهذا الكلب شأنا ، فكشفوا عن ذلك ، وحفروا ذلك الموضع ، فوجدوا قتيلا ، فقبضوا على ذلك الرجل الذى ينبح عليه الكلب ، وضربوه فأقر بقتله ، فقتل . وهو من الحيوان الذى يعرف الحسنة ، وقيل : إن الأنثى تحيض فى كل شهر سبعة أيام ، وأكثر ما تضع اثنا عشر جروا ، وذلك فى النادر ، والغالب خمسة أو ستة ، وربما ولدت واحداً ، ويعيش الكلب فى الغالب عشر سنين ، وربما بلغ عشرين سنة . وصف

---

(١) قال صاحب الحيوان : وسماه الجاحظ : الكركدن .

للمتوكل كلب بأرمينية يفترس الأسد ، فأرسل من جاء به إليه فجوع أسداً وأطلقه عليه فتهارشا وتواثبا ، حتى وقعا ميتين . وقيل : كلب الصياد يشبه به الفقير المجاور للغنى ، لأنه يرى من نعمته وبؤس نفسه ما يفتت كبده ! وقيل : لرجل ما بال الكلب يرفع رجله إذا بال ؟ قال : يخاف أن يلوث ذراعيه ! قيل : أو للكلب ذراعان ؟ قال : هو يتوهم ذلك .

فائدة : حكى أن الإمام أحمد بن حنبل ﷺ سمع أن شخصاً من وراء النهر يروى أحاديث مثلثة فسار إليه ودخل عليه : فوجده يُطعم كلبا وهو مشتغل به، قال الإمام أحمد : فأخذت فى نفسى وأضمرت أن أرجع إذ لم يلتفت الرجل إلّى ثم قال حدثنى أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « **من قطع رجاء من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامة فلم يلج الجنة** »(١) . وإن أرضنا هذه ليست بأرض كلاب ، وقد قصدنى هذا الكلب فخشيت أن أقطع رجاءه قال : فقال الإمام أحمد – رحمه الله – هذا الحديث يكفينى ! ثم رجع قافلا إلى أهله ! . **فائدة أخرى** : قال الترمذى لما أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض ، سلط عليه إبليس السباع وكان أشدها الكلب ، قال : فنزل عليه جبريل عليه السلام وأمره أن يضع يده عليه ، ففعل واطمأن إليه ، وألفه وصار يحرسه ، وبقيت الألفة فيه لأولاده إلى يوم القيامة ، وقيل : إن أوّل من اتخذ الكلب بعد آدم نوح عليه السلام وذلك لأن قومه كانوا يعمدون بالليل فيفسدون ما صنعه فى السفينة بالنهار ، فأمره الله أن يتخذ كلباً حارساً ففعل ، قال : فكان الكلب إذا آتاه مفسد قام عليه فيتيقظ نوح عليه السلام فيدفعه . **فائدة أخرى** : قيل : كان كلب أهل الكهف أسمر ، واسمه قِطْمير ، وقيل : أصفر ، وقيل خلنجى اللون ، وليس فى الحيوان ما يدخل الجنة إلا هو ، وكبش إسماعيل ، وناقة صالح ، وحمار العزير ، وبراق النبى ﷺ. **فائدة أخرى** : إذا نبح عليك كلب ، وخفت منه فاقرأ : ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣] وقل بعد ذلك لا إله إلا الله ، فإنك تكفاه .

[حرف اللام]

لغلغ: طير معروف ، قيل : إنه من طيور الفواخت ، ويأتى إلى أرض مصر فى أيام الشتاء ، فيأكل ما قسم الله له من الرزق ، ويأكل منه من له فيه رزق ثم يرحل إلى بلاده .

[حرف الميم]

مالك الحزين : طير يوجد بالضحضاح(٢) ، غذاؤه السمك ، وسمى بذلك لأنه قيل : إنه لا يشرب حتى يروى خوفاً من أن ينقص الماء ، وإذا نشف الضحضاح حزن ، لأنه لا يستطيع العوم ، ونظيره دويبة بأرض فارس معروفة عندهم يقال : إن غذاءها التراب فإذا أكلت لا تشبع خوفاً من أن يفرغ .

[حرف النون]

نمل : قال ﷺ: « **ألا تنظرون إلى صغير ما خلق الله ، كيف أحكم خلقه ، وأتقن تركيبه ، وفلق له السمع والبصر ، وسوّى له العظم والبشر ؟! انظروا إلى النملة فى صغر جثتها ، ولطافة هيئتها لا تكاد تُنال بلحظ البصر ، ولا بمستدرك الفكر ، كيف دبت على الأرض ، وسعت فى مناكبها ، وطلبت رزقها ، تنقل الحبة إلى جحرها ، تجمع فى حرها لبردها وفى وردها لصدرها ، لا يغفل عنها المنان ، ولا يحرمها الديان ! ولو فكرت فى مجارى أكلها فى علوها وسفلها ، وما فى الجوف من شراسيف بطنها ، وما فى الرأس من عينها وأذنها لقضيت من خلقها عجباً ، وللقيت من**

---

(١) قال العجلونى فى الكشف [٢/ ٥٧٣] ، عزاه بعضهم لأحمد عن أبى هريرة مرفوعا ، لكن قال السخاوى : هو مختلق على الإمام أحمد ، وأقول: المشهور على الألسنة « استرجاه » . بدل « ارتجاه » .

(٢) الضَّحْضَاح: رمل أو صخر يتجمَّع قريبًا من سطح الماء في بحرٍ أو نهرٍ.

وصفها تعباً ، فتعالى الذى أقامها على قوائمها ، وبناها على دعائمها ، لم يشركه فى فطرتها فاطر ، ولم يعنه على خلقها قادر ، لا إله إلا هو ولا معبود سواه »[(١)] . وقيل : إذا خافت على حبها أن يعفن أخرجَتْه إلى ظهر الأرض ليجف ، وقيل : إنها تفلق الحبة نصفين خوفا من أن تنبت فتفسد إلا الكزبرة ، فإنها تفلقها أربعاً لأنها من دون الحب ينبت نصفها ، وليس كل أرباب الفلاحة يعرف هذا فسبحان من ألهمها ذلك ! وقيل : إنها تشم رائحة الشىء من بعيد ، ولو وضعته على أنفك لم تجد له رائحة ، وإذا عجزَت عن حمل شىء استعانت برفقتها ، فيحملونه جميعاً إلى باب جحرها ، وقيل : إذا انفتح باب قرية النمل ، فجعلت فيه زرنيخاً أو كبريتاً هجرتها والله أعلم .

نحل : حيوان ليس له نظر فى العواقب ، وله معرفة بفصول السنة وأوقاتها وأوقات المطر ، وفى طبعه الطاعة لأميره ، والانقياد له ، ومن شأنه فى تدبير معاشه أنه يبنى له بيتاً من الشمع شكلا مسدساً ، لا يوجد فيه اختلاف كالقطعة الواحدة ، وإذا طار ارتفع فى الهواء وحط على الأماكن النظيفة ، وأكل نوار الزهر والأشياء الحلوة ، وشرب من الماء الصافى ، وأتى فأخرج ذلك ، فأول ما يخرج الشمع ليكون كالوعاء ثم العسل ، وقيل : إنه يقسم الأعمال فبعضه يعمل البيوت ، وبعضه يعمل الشمع ، وبعضه يعمل العسل ، وفى طبعه النظافة فيجعل رجيعه خارج الخلية ، وما مات منه أخرجه ورماه وعنده الطرب ، فيحب الأصوات اللذيذة ، وله آفات تقطعه كالظلمة والغيم ، والريح ، والمطر ، والدخان ، والنار ، وكذلك المؤمن له آفات تقطعه منها ظلمة الغفلة ، وغيم الشك ، وريح الفتنة ، ودخان الحرام ، ونار الهوى .

فائدة : قيل : مرض شخص فقال : ائتونى بماء وعسل فأتوه بذلك ، فخلط الجميع وشربه فشفى ، وروى أن شخصًا شكا للنبى ﷺ بطن أخيه فأمره بشرب العسل ، فشربه ، ثم جاء ثانياً فأمره بشربه ، ثم جاء فى الثالثة ، فقال يارسول الله إن بطنه لم يزل ، فقال رسول الله ﷺ: « صَدَقَ اللَّهُ وكَذبَ بَطْنُ أَخِيكَ ، اسْقِهِ عَسَلاً فَسَقَاهُ الثَّالِثَةَ فَشُفِى »[(٢)] .

نادرة : قيل : إن بعضهم حضر مجلس المنصور ، فقال بعض الحاضرين : المراد من قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [النحل: ٦٩] . أهل البيت فإنهم النحل ، والشراب القرآن ، فقال له بعض من حضر من اللطفاء : جعل الله طعامك وشرابك ما يخرج من بطون بنى هاشم ! فضحك الحاضرون عليه وأبهته ! .

الخواص : إذا خلط العسل الخالص بمسك خالص ، واكتحل به ، نفع من نزول الماء فى العين ، والتلطخ به يقتل القمل ، ولعقه علاج لعضة الكلب ، والمطبوخ منه نافع للمسموم .

نَسْر : هو سيد الطيور ، ويعمر طويلاً قيل : إنه يعيش ألف سنة ، وله قوة على الطيران ، حتى قيل : إنه يقطع من المشرق إلى المغرب فى يوم ، وجثته عظيمة حتى قيل : إنه يحمل أولاد الفيلة ، وله قوة حاسة الشم حتى قيل : إنه يشم رائحة الجيفة من مسيرة أربعمائة فرسخ ، وإذا سقط على جيفة تباعدت عنها الطيور هيبة له حتى يفرغ من الأكل ، وعنده شره قيل : إنه يأكل حتى يضعف عن الحركة بحيث إن أضعف الناس لو أراد إمساكه فى تلك الحالة أمسكه ، وإذا باض ذهب وأتى بورق الدلب فجعله فى عشه خوفاً من الخفاش أن يفسد بيضه ، وهو لا يحضن البيض ، وإنما يبيض فى الأماكن العالية ، ويلقيه فى الشمس ، فتكون حرارتها له بمنزلة الحضن ، ومن طبعه إنه لو شم الطيب مات ، وعنده الحزن على فراق إلفه حتى قيل : إنه ليموت كمداً ويقال : للأنثى منه أم قشعم . وفى الحديث : أتانى جبريل عليه السلام فقال : « يامحمد، لكل شىء سيد ، فسيد البشر آدم ، وسيد ولد آدم أنت ، وسيد الروم صهيب ، وسيد فارس سلمان ، وسيد الحبش بلال ، وسيد الطيور النسر ، وسيد الشهور رمضان ، وسيد الأيام الجمعة ، وسيد الكلام العربى ، وسيد العربى القرآن ، وسيد القرآن سورة البقرة »[(٣)] .

---

(١) قال ﷺ : « ألا تنظرون إلى صغيرة ما خلق الله . . » . إلخ لم أقف عليه .

(٢) « وروى أن شخصا شكا للنبى ﷺ بطن أخيه . . » . إلخ رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما من رواية قتادة وذكره ابن كثير فى تفسير آية النحل .

(٣) وفى الحديث : « أتانى جبريل . . » . إلخ ذكره المتقى الهندى فى « كنز العمال » . [٣٥٣٤٤] ، عن على .

الخواص : إذا أخذ قلب النسر وجعل فى جلد ذئب ، وعلق على شخص كان مُهابًا عند الناس ، مقضى الحاجة ، وإذا عسر على المرأة الوضع، جعل تحتها من ريشه يسهل وضعها .

نعام : يذكر ويؤنث ،وتسمى الأنثى بأم البيض ، والذكر بالظليم ، ومن عجيب أمرها أنها تبيض بيضاً طوالاً متساوية القدر ، وتجعلها أثلاثاً : ثلثاً للحضن ، وثلثاً تأكله فى حضنها ، وثلثاً تكسره وتفتحه ، فيتعفن ويدود فيكون منه غذاء أولادها ، وعندها الحمق يقال : إنها تخرج من حضنها فتجد بيض غيرها ، فتحضنه وتترك بيض نفسها .

فائدة : روى كعب الأحبار ﷺ أن الله تعالى لما خلق القمح ، وأنزله على آدم ، كان على قدر بيض النعام ، وقال له : هذا رزقك ورزق أولادك ، قم فاحرث وازرع ، قال : ولم يزل الحب على ذلك مدة ثم نزل إلى بيض الدجاجة ، ثم الحمامة ، ثم النبق ، وكان فى زمن العزيز على قدر الحمص ، وقيل : كل حيوان إذا كسرت رجله مشى بالأخرى إلا النعام فإنه يبرك إلى أن يموت ، وخلق الله تعالى له قوة الشم البليغ حتى قيل : إنه يشم رائحة القناص من مسيرة نصف ميل ، وهى لا تشرب الماء كالضب ، ويقال : إن القناص إذا أدركها أدخلت رأسها فى شىء إما شعب أو جحر تظن أنها قد استترت منه ، ولها معدة قوية تقطع الحديد ، والصوّان ، والجمر ، وفى طبعها الأذى يقال : إنها تخطف الحلَق من أذن الصغير ، وقيل : إن الذئب لا يتعرض لبيض النعام وأفراخه ما دام الأبوان حاضرين ، لأنهما إذا رأياه ركضه الذكر إلى أن يُسَلمه إلى الأنثى فتركضه إلى أن تسلمه إلى الذكر ، ولا يزالان به حتى يقتلاه ، أو يعجزهما هربا . وقيل أشد ما يكون عدوها إذا استقبلت الريح ، وتقول العرب : صنفان من الحيوان أصمان لا يسمعان : النعام والأفاعى ، وسأل أبو عمرو الشيبانى بعض العرب عن الظليم : هل يسمع ؟ فقال : يعرف بعينيه وأنفه ، ولا يحتاج معهما إلى سمع .

نمر : حيوان أغبر وكنيته أبو الصعب ، وهو صِنفان : صنف عظيم الجثة صغير الذنب ، والآخر بالعكس . قال الجاحظ : وهو يحب الشراب ، وعنده شراسة فى خلقه ، ويقال : إن أنثاه لا تدع ولدها إلا مطوقا بحية ولا يضره نهشها ، وذلك لأجل الصياد حتى لا يظفر به ، وإذا مرض أكل الفأر فيبرأ ، وفى طبعه عداوة الأسد ، وعنده شرف فى نفسه يقال : إنه لا يأكل جيفة ولا يأكل من صيد غيره ، ولا يملك نفسه عند الغضب ، وأدنى وثبته عشرون ذراعاً ، وأكثرها أربعون .

الخواص : من حمل جلده شيئًا صار مُهاباً عند الناس ، ومن كان به بواسير فجلس على جلده زالت بواسيره .

[حرف الهاء]

هدهد : طير معروف ، وهو من رسل سليمان عليه السلام وعنده حدّة البصر حتى قيل : إنه يرى الماء تحت الأرض ، وسبب غيابه عن خدمة سليمان عليه السلام حين سأل عنه ولم يجده ، هو أن هدهداً من سبأ أخبره أن عرش بلقيس صفته كذا وكذا فذهب لينظره ، فدخلت الشمس من مكانه ، فرآها سليمان عليه السلام فتفقده ، وطلبه ، فلما حضر قال : يانبى الله ، إنى رأيت كيت وكيت ، وقص عليه القصة [1] ، ويقال : إنه قال لسليمان عليه السلام لما أراد تعذيبه ، يانبى الله اذكر وقوفك بين يدى الله تعالى ، فارتعد سليمان من هذا الكلام ، وأطلقه .

الخواص : إذا بخر البيت بريشه طرد الهوام عنه ، وعينه إذا علقت على صاحب النسيان ذكر ما نسيه ، وريشه إذا حمله إنسان وخاصم غلب خصمه ، وقضيت حاجته ، وظفر بما يريد ، ولحمه إذا أكل مطبوخاً نفع من القولنج ، وإن بخر بمخه برج حمام لم يقربه شىء يؤذيه ، ومن علق عليه لحيه الأسفل أحبه الناس . والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(١) جاءت قصته فى سورة النمل ابتداء من الآية رقم [٢٠] ، حتى الآية رقم [٤٤] .

[حرف الواو]

وَرْشان : طير يتولد بين الحمام والفاختة ، وهو حسن شديد الحنوّ، يقال : إنه يكاد يقتل نفسه إذا أمسك القناص أولاده من شدّة حنوّه . قال بعضهم : إنه يقول فى صياحه : لدوا[١] للموت ، وابنوا للخراب . والهدهد يقول : إذا نزل القضاء عمى البصر ، والفاختة تقول : ليت هذا الخلق ما خُلقوا ، وليتهم إذا خلقوا علموا لماذا خلقوا ، وليتهم عملوا لما علموا والخطاف يقول : قدموا خيرًا تجدوه عند ربكم ، والحمامة تقول : سبحان ربى الأعلى ، والبازى يقول : سبحان ربى وبحمده ، والسرطان يقول : سبحان المذكور بكل لسان . والدراج يقول : الرحمٰن على العرش استوى ، والعقاب يقول : البعد عن الناس رحمة ، ومن الطيور من يقرأ الفاتحة كالدرة ، ويمد صوته فى الضالين كالقارىء ! .

[حرف الياء]

يأجوج ومأجوج : سموا بذلك لكثرتهم ، وقيل : بل هو اسم أعجمى غير مشتق قال مقاتل :هم ولد يافث بن نوح عليه السلام وقول من قال : إن آدم نام ، فاحتلم فالتصق منيه بالتراب ، فتولد منه هذا الحيوان مردود بعدم احتلام الأنبياء عليهم السلام - وفى الحديث : « **يأجوج ومأجوج أمة عظيمة لا يموت أحدهم حتى يرى من صلبه ألف نسمة** » انتهى . وهم أصناف منهم ما طوله عشرون ذراعا ، وما طوله ذراع وأقل وأكثر ، وعن على بن أبى طالب رضي الله عنه أن لهم مخالب الطير ، وأنياب السباع ، وتداعى الحمام ، وتسافد البهائم ، ولهم شعور تقيهم الحر والبرد ، وإذا مشوا فى الأرض كان أولهم بالشام ، وآخرهم بخراسان ، يشربون مياه المشرق إلى بحيرة طبرية ، ويمنعهم الله تعالى من دخول مكة والمدينة ، وبيت المقدس ، ويأكلون كل شىء يمرون به ، ومن مات منهم أكلوه ، ويقال : إن صنفا منهم له أذنان : إحدهما صلدة ، والأخرى وبرة فهو يلتحف بإحداهما ، ويفترش الأخرى ، وفى الحديث أنه ﷺ سئل هل بلغتهم الدعوة ؟ فقال ﷺ : « **دعوتهم ليلة أسرى بى ، فلم يجيبوا فهم خلق النار** »[٢] . وفى الحديث أيضاً : أن الله - عز وجل- إذا كان يوم القيامة قال : « **ياآدم، أرسل بعث النار ، فيقول : يارب وما بعث النار فيقول الله تعالى : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون للنار ، وواحد للجنة** » ، قال : فاشتد الأمر على المسلمين فقال رسول الله ﷺ : « **أبشروا فإن مِنْ يأجوج ومأجوج ألفا ، ومنكم واحدًا** »[٣] . وفى الحديث أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فأخبره بالردم فقال : « **صفه** » فقال يارسول الله انطلقت إلى أرض ليس لأهلها إلا الحديد يعملونه ، فدخلت فى بيت ، فلما كان وقت الغروب سمعت ضجة عظيمة أفزعتنى ، فارتعدت منها : قال : فقال صاحب البيت ، لا بأس عليك إن هذه الضجة أصوات قوم يذهبون هذه الساعة من خلف هذا الردم ، أتريد أن تنظر إليه ؟ فإذا لبنه[٤] مثل الصخرة ، ومساميره مثل جذوع النخل ، كله من حديد كأنه البُرْد المحبر ، فقال رسول الله ﷺ : « **من سره أن ينظر إلى من رأى الردم ، فلينظر هذا الرجل** »[٥] قال المفسرون وهذا هو السد الذى بناه ذو القرنين ، وهذه الأمه خلفه ، تطلب المجىء إلى هذه الجهة تنقبه كل يوم ، فيعيده الله كما كان إلى أن يقضى الله أمره ، ثم يسلط الله عليهم بعد ذلك دودا يطلع فى حلاقيمهم ، فيهلكهم الله به ، والأخبار فى ذلك كثيرة .

---

(١) لَدَّ: اشتدت خصومته.

(٢) قال ابن كثير : وهذا قول غريب جدا لا دليل عليه لا من عقل ولا من نقل .

(٣) « يأجوج ومأجوج أمة . . . » . إلخ قال ابن كثير : هذا حديث غريب بل منكر ضعيف . وانظر : « مجمع الزوائد » . للهيثمى [٨/ ٦] .

(٤) اللَّبِن: المضروب من الطين يُبنى به.

(٥) وفى الحديث : « أنه ﷺ سئل هل بلغتهم . . . » . إلخ لم أهتد إليه .

يحمور : دابة وحشية لها قرنان طويلان كأنهما منشاران تنشر بهما الشجر ، وقيل : هو كالإيل يلقى قرنيه فى كل سنة ، وهما صامتان ، وقال الجوهرى : هو الحمار الوحشى .

نادرة : قيل : ترافق رجلان فى طريق ، فلما قربا من مدينة من المدن قال أحدهما للآخر : قد صار لى عليك حق ، وإنى رجل من الجان ، ولى إليك حاجة ، قال : وما هى ؟ قال : إذا وصلت إلى المكان الفلانى من هذه المدينة فهناك عجوز عندها ديك ، فاشتره منها واذبحه ، فقال له الآخر : وأنا أيضاً لى إليك حاجة ؟ قال : وما هى ؟ قال : إذا ركب الجنى إنساناً ما يعمل له ، قال : تشد إبهاميه بسير من جلد اليحمور وتقطر فى أذنيه من ماء السذاب فى اليمنى أربعا ، وفى اليسرى ثلاثاً ، فإن الراكب له يموت ، ثم تفرقا ودخل الإنسى ففعل ما أمره به الجنى ، من شراء الديك وذبحه ، فلم يشعر بعد أيام إلا وقد أحاط به أهل صبية من تلك البلدة ، وقالوا له : أنت ساحر ، ومن حين ذبحت الديك سلبت من صبية عندنا عقلها ، فلا نفلتك إلا إلى صاحب المدينة ، قال : فقلت لهم ائتونى بسير من جلد اليحمور ، وقليل من ماء السذاب ، ودخلت على الصبية فربطت إبهاميها ، وقطرت ماء السذاب فى أذنيها ، فسمعت صوتا يقول : آه علمتك على نفسى ، ثم مات من ساعته ، وشفى الله تلك الشابة .

[فصل فى خواص الطير والحيوان على الإجمال]

الضب والخنزير : لا يلقيان شيئًا من أسنانهما أبداً ، وكل حيوان يعوم بالطبع إلا الإنسان والقرد ، وكل ذى عين فإن أهداب عينه فى الجهة العليا فقط إلا الإنسان فإنه من الجهتين . والفرس لا طحال له ، والبعير لا مرارة له ، والظليم لا مخ لعظمه ، والحيات لا ألسنة لها ، والسمكة لا رئة لها لأنها تتنفس من كبدها ، وكل حيوان لا حافر له فله قرن ، وما لا قرن له فله حافر ، والحيوان المتهم باللواط القرد ، والخنزير ، والحمار ، والسنور ، والعيون التى تضىء بالليل عين الأسد ، والنمر ، والأفعى ، والسنور ، والذى يدّخر القوت من الحيوان الإنسان والفأر ، والغراب ، والنحل ، والنمل ، والذى يحيض من الحيوان الإنسان ، والفرس ، والكلب ، والأرنب ، والضبع ، والخفاش ، ويقال : أيضاً الرعاد من السمك ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، وهذا آخر ما قصدت إيراده فى هذا الباب ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

الباب الثالث والستون

فى ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم

ذكر المسعودى فى كتابه ، عن بعض العلماء : أن الله سبحانه وتعالى خلق فى الأرض قبل آدم ثمانيا وعشرين أمة ، على خلق مختلفة ، وهى أنواع : منها : ذوات أجنحة وكلامهم قرقعة ، ومنها : ماله أبدان كالأسود ورءوس كالطير ولهم شعور وأذناب ، وكلامهم دوى ، ومنها : ماله وجهان : واحد من قبله ، والآخر من خلفه ، وأرجل كثيرة ، ومنها : ما يشبه نصف الإنسان بيد ، ورجل وكلامهم مثل صياح الغرانيق . ومنها : ما وجهه كالآدمى ، وظهره كالسلحفاة ، وفى رأسه قرن ، وكلامهم مثل عواء الكلاب ، ومنها ماله شعر أبيض ، وذنب كالبقر ، ومنها : ماله أنياب بارزة كالخناجر ، وآذان طوال ، ويقال : إن هذه الأمم تناكحت ، وتناسلت ، حتى صارت مائة وعشرين أمة ، ولم يخلق الله تعالى أفضل ، ولا أحسن ولا أجمل من الإنسان ، وقال عمر بن الخطاب ﷺ خلق الله تعالى ألف أمة وعشرين أمة ، منها ستمائة فى البحر ، وأربعمائة وعشرون فى البر ، وفى الإنسان من كل خلق ، فلذلك سخر الله له جميع الخلق ، واستجمعت له جميع اللذات وعمل بيده جميع الآلات ، وله النطق والضحك والبكاء والفكرة والفطنة

واختراعات الأشياء ، واستنباط جميع العلوم ، واستخراج المعادن ، وعليه وقع الأمر والنهى والوعد والوعيد والنعيم والعذاب ، وإياه خاطب ، وله قرّب ، وخلق الله تعالى إسرافيل عليه السلام على صورة الإنسان وهو أقرب الملائكة إليه ، وفى الحديث : « **لا تضربوا الوجوه فإنها على صورة إسرافيل** »[1] وآيات الله تعالى فى البشر أكثر من أن تحصر فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقال الشيخ عبد الله صاحب كتاب تحفة الألباب : دخلت إلى باشقرد ، فرأيت قبور عاد ، فوجدت سن أحدهم طوله أربعة أشبار وعرضه شبران ، وكان عندى فى باشقرد نصف ثنية أخرجت لى من فك أحدهم الأسفل فكان نصف الثنية شبرين ووزنها ألفا ومائتى مثقال ، وكان دور فك ذلك العادى سبعة عشر ذراعاً ، وطول عظم عضد أحدهم ثمانية أذرع ، وعرض كل ضلع من أضلاعهم ثلاثة أشبار كلوح الرخام قال : ولقد رأيت فى بلغار سنة ثلاثين وخمسمائة من نسل عاد رجلا طويلا طوله أكثر من سبعة وعشرين ذراعاً كان يُسَمّى دنقى أو دبقى ، كان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الولد الصغير ، وكان من قوّته يكسر بيده ساق الفرس ، ويقطع جلده ، وأعضاؤه كما يقطع باقة البقل ، وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعاً تحمل على عجلة ، وبيضة عادية لرأسه كأنها قطعة من جبل ، وكان يأخذ فى يده شجرة من البلوط كالعصا لو ضرب بها الفيل لقتله ، وكان خيراً متواضعا كان إذا لقينى يسلم علىّ ، ويرحب بى ، ويكرمنى وكان رأسى لا يصل إلى ركبته - رحمة الله تعالى عليه - ولم يكن فى بلغار حمام يمكنه دخولها إلا حمام واحدة ، وكانت له أخت على طوله ، ورأيتها مرات فى بلغار ، وقال لى قاضى بلغار يعقوب بن النعمان : إن هذه المرأة العادية قتلت زوجها ، وكان اسمه آدم ، وكان أقوى أهل بلغار قيل : إنها ضمته إليها فكسرت أضلاعه فمات من ساعته .

وروى عن وهب بن منبه فى عوج بن عنق أنه كان من أحسن الناس وأجملهم إلا أنه كان لا يوصف طوله ، قيل : إنه كان يخوض فى الطوفان فلم يبلغ ركبتيه ، ويقال : إن الطوفان علا على رءوس الجبال أربعين ذراعاً ، وكان يجتاز بالمدينة فيتخطاها كما يتخطى أحدكم الجدول الصغير . وعمَّره الله دهرا طويلاً حتى أدرك موسى عليه السلام وكان جباراً فى أفعاله يسير فى الأرض برًّا وبحراً ، ويفسد ما شاء ، ويقال : إنه لما حصر بنو إسرائيل فى التيه ، ذهب فأتى بقطعة من جبل على قدرهم واحتملها على رأسه ليلقيها عليهم ، فبعث الله طيراً فى منقاره حجر مدوّر ، فوضعه على الحجر الذى على رأسه فانثقب من وسطه وانخرق فى عنقه ، وأخبر الله - عز وجل - نبيه موسى عليه السلام بذلك ، فخرج إليه وضربه بعصاه فقتله ، ويقال : إن موسى عليه السلام كان طوله عشرة أذرع ، وعصاه عشرة أذرع ، وقفز فى الهواء عشرة أذرع ، وضربه فلم يصل إلى عرقوبه ، فتبارك الله أحسن الخالقين ! . ومن ذلك ما قيل عن أمه عنق بنت آدم عليه السلام وكانت مفردة بغير أخ ، وكانت مشوّهة الخلقة لها رأسان ، وفى كل يد عشرة أصابع ، ولكل إصبع ظفران كالمنجلين . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : هى أوّل من بغى فى الأرض ، وعمل الفجور وجاهر بالمعاصى ، واستخدم الشياطين وصرفهم فى وجوه السحر ، وكان قد أنزل الله تعالى على آدم عليه السلام أسماء عظيمة تطيعها الشياطين ، وأمره أن يدفعها إلى حوّاء لتحترز بها ، فغافلتها عنق ، وسرقتها واستخدمت بها الشياطين ، وتكلمت بشىء من الكهانة ، فدعا عليها آدم وأمنت على ذلك حوّاء ، فأرسل الله عليها أسداً أعظم من الفيل ، فهجم عليها ، وقتلها ، وذلك بعد ولادتها عوجا[2] بسنتين . ومن ذلك ما حكى عن بعض فقهاء الموصل أنه شاهد ببلاد الأكراد المحمدية فى جبل من جبال الموصل إنساناً طوله تسعة أذرع ، وهو صبى لم يبلغ الحلم ، وكان يأخذ بيده الرجل القوى ، ويرميه خلف ظهره فأراد صاحب الموصل استخدامه ، فقيل له فى عقله خبل ، فتركه ! .

وروى عن الإمام الشافعى رضى الله عنه أنه قال : دخلت بلدة من بلاد اليمن ، فرأيت بها إنساناً من وسطه إلى أسفله بدن

---

(١) « لا تضربوا الوجوه . . . » . إلخ لم أهتد إليه بهذا اللفظ ، وانظر : « مسند أحمد » . [٤/ ٤٤٧ ، ٥/ ٥٠٣] ، والدر المنثور [١/ ٢٧٦] .

(٢) ذكر أبو الشيخ فى كتابه « العظمة » . قصة عوج بن عنق فى أكثر من حديث وكلها موضوعة الإسناد ، وقال ابن القيم من علامات بطلان الحديث قيام الشواهد الصحيحة على بطلانه كحديث عوج بن عنق .

واحد ، ومن وسطه إلى أعلاه بدنان مفترقان برأسين ، ووجهين ، وأربع أيد ، وهما يأكلان ، ويشربان ويتقاتلان ، ويتلاطمان ويصطلحان قال ثم غبت عنهما قليلا ، ورجعت فقيل لى : أحسن الله عزاءك فى أحد الشقين ! فقلت : وكيف صنع به ؟ فقيل : ربط فى أسفله حبل وثيق وترك حتى ذبل ، ثم قطع ، ورأيت الجسد الآخر بالسوق ذاهباً وراجعا . ومنه ما أرسله بطارقة الأرمن إلى ناصر الدولة ، وهو رجلان فى جسد واحد ، فأحضر الأطباء وسألهم عن انفصال أحدهما عن الآخر ، فسألوهما : هل تجوعان معاً ، وتعطشان معاً ؟ قالا : نعم . فقالوا له : لا يمكن فصلهما ، ويقال : إنه أحضر أباهما فسأله عن حالهما ، فأخبر أنهما يختصمان فى بعض الأحيان وأنه يصلح بينهما . ومن ذلك ما ذكر أنه أهدى إلى أبى منصور السامانى فرس له قرنان ، وثعلب له جناحان إذا قرب منه إنسان نشرهما ، وإذا بعد ألصقهما .

وذكر القاضى عياض - رحمة الله تعالى عليه - أنه ولد له مولود على أحد جنبيه مكتوب : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهذا لا يبعد فإنه يوجد كثيراً فى السنور الدبركى . وذكر أنه ولد بالقاهرة غلام له أربعة أرجل ، ومثلها أيد ، وذكر أنه كان لبعض ولاة مصر مملوك يدعى طقطو فولاه قوص من أعمال الصعيد ، فتزوّج بها ، وولد له ولد ، ثم انقلب امرأة فتزوّج بها ، وولدت ولدين . وأما كبش بأربعة قرون ودجاجة بأربعة أرجل ، وحيوان برأسين ، والمخرج واحد فكثير ، وعجائب الله تعالى فى مصنوعاته غير متناهية ، فلله الحمد على ما أنعم به علينا لا نحصى ثناء عليه . ومن ذلك : إنسان الماء ، وهو حيوان يشبه الآدمى ، وفى بعض الأوقات يطلع ببحر الشام شيخ بلحية بيضاء ، ويستبشر الناس برؤيته فى تلك السنة بالخصب .

ومن ذلك : بنات الماء وهم أمة ببحر الروم يشبهن النساء ، ذوات شعور وثدى وفروج ، وهن حسان ، ولهن كلام لا يفهم ، وضحك ولعب ولهن رجال من جنسهن ، ويقال : إن الصيادين يصطادونهن ويجامعونهن فيجدون لذة عظيمة لا توجد فى غيرهن من النساء ، ثم يعيدونهن إلى البحر ثانياً . ويقال : إن هذا الصنف يوجد بالبرلّس ورشيد[1] على ما ذكر .

وحكى عن الشيخ أبى العباس الحجازى ، قال : حدثنى بعض التجار أنه فى سنة من السنين ، خرجت إليه سمكة عظيمة فثقبوا أذنها وجعلوا فيها الحبال ، وأخرجوها ، ففتحت أذنها ، فخرجت جارية حسناء جميلة بيضاء ، سوداء الشعر : حمراء الخدين . كحلاء العينين ، من أحسن ما يكون من النساء ، ومن سرتها إلى نصف ساقيها شىء كالثوب يستر قبلها ودبرها ودائرها عليها كالإزار فأخذها الرجال إلى البر فصارت تلطم وجهها ، وتنتف شعرها وتعض يدها ، وتصيح ، كما تصيح النساء ، حتى ماتت فى أيديهم ، فألقوها فى البحر فتبارك الله أحسن الخالقين ! .

وحكى القزوينى عن بعض البحريين أن الريح ألقتهم على جزيرة ذات أشجار وأنهار فأقاموا بها مدّة وكانوا إذا جاء الليل يسمعون بها همهمة وأصواتاً وضحكاً ولعباً ، فخرج من المركب جماعة وكمنوا فى جانب البحر ، فلما جاء الليل خرج بنات الماء على عادتهن ، فوثبوا عليهن ، فأخذوا منهن ثنتين فتزوّج بهما شخصان ، فأما أحدهما فوثق بصاحبته فأطلقها فوثبت فى البحر ، وأما الآخر فبقى مع صاحبته زماناً وهو يحرسها حتى ولدت له ولداً ، كأنه القمر ، فلما طاب الهواء ، وركبوا البحر وثق بها ، فأطلقها ، فأغفلته وألقت نفسها فى البحر ، فتأسف عليها تأسفًا عظيماً فلما كان بعد أيام ظهرت من البحر ، ودنت من المركب ، وألقت لصاحبها صدفًا فيه درّ وجوهر ، فباعه وصار من التجار . ونظير هذه الحكاية ما ذكره ابن زولاق فى تاريخه : أن رجلا من الأندلس من الجزيرة الخضراء ، صاد جارية منهن حسناء الوجه ، سوداء الشعر ، حمراء الخدين ، نجلاء العينين ، كأنها البدر ليلة التمام ، كاملة الأوصاف ، فأقامت عنده سنين ، وأحبها حبًّا شديدًا ، وأولدها ولدا ذكرا ، وبلغ من العمر أربع سنين ، ثم إنه أراد السفر فاستصحبها معه ووثق بها ، فلما توسطت البحر أخذت ولدها ، وألقت نفسها فى البحر ، فكاد أن يلقى نفسه خلفها حسرة عليها ، فلم يمكنه

---

(١) لم نجد من صيادى عصرنا من أسعده الحظ بإحداهن ! فى قرننا العشرين وما أكثر ما يحكى !!

أهل المركب من ذلك ، فلما كان بعد ثلاثة أيام ظهرت له ، وألقت له صدفا كثيراً فيه درّ ، ثم سلمت عليه وتركته ، فكان ذلك آخر العهد بها ، فتبارك الله ما أكثر عجائب خلقه ! وما لم نشاهده ، ونسمع به أكثر ! فسبحان القادر على كل شىء لا إله إلا هو ، ولا معبود سواه ، فالعاقل يعرف الجائز والمستحيل ، ويعلم أن كل مقدور بالإضافة إلى قدرة الله تعالى قليل ، وإذا سمع عجباً جائزاً استحسنه ، ولم يكذب قائله ، والجاهل إذا سمع ما لم يشاهده قطع بتكذيب قائله ! وتزييف ناقله ، وذلك لقلة عقله ، وقد وصف الله تعالى الجاهل بعدم العقل بقوله تعالى : ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ [الفرقان: ٤٤] وقد أودع الله تعالى من عجائب المصنوعات ، فى الآفاق والسموات ، ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥] فلا تكن منكر العجائب، فكل الأشياء من آياته :

فياعجباً كيف يُعصى الإلـ ـه أم كيف يجحده الجاحد ؟!
وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

ومن شاهد حجرَ المغناطيس ، وجذبه للحديد ، وكذلك حجر الماس الذى يعجز عن كسره الحديد ، ويكسره الرصاص ، ويثقب الياقوت والفولاذ ، ولا يقدر على ثقب الرصاص ، يعلم أن الذى أودعه هذا السر قادر على كل شىء ، فلا تكن مكذباً بما لا تعلم وجه حكمته فإن الله تعالى قال : ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩] . قال صاحب « **تحفة الألباب** » : إن فى بلاد السودان أمة لا رءوسَ لهم وقد ذكرهم الشعبى فى كتاب « **سير الملوك** » وذكر أن فى بلاد المغرب أمة من ولد آدم كلهم نساء ، ولا يعيش فى أرضهم ذكر ، وأن هؤلاء النساء يدخلن فى ماء عندهن ، فيحبلن من ذلك الماء ، وتلد كل امرأة منهن بنتاً ولا يلدن ذكراناً أبداً ، وقيل : إن ولد تبع اليمانى وصل إليهم لما أراد أن يصل إلى الظلمات التى دخلها ذو القرنين ، وإن ولد تبع هذا كان اسمه افريقش ، وهو الذى بنى إفريقية ، وسماها باسمه وأنه وصل إلى وادى السبت ، وهو واد يجرى فيه الرمل ، كما يجرى السيل ، لا يمكن أن يدخل فيه حيوان إلا هلك ، فلما رآه استعجل الرجوع ، وذو القرنين لما وصل إليه أقام إلى يوم السبت ، فسكن جريانه فعبره إلى أن وصل إلى الظلمات فيما يقال ، والله سبحانه وتعالى أعلم . وتلك الأمة التى لا رءوس لهم أعينهم فى مناكبهم ، وأفواههم فى صدورهم ، وهم كثيرون كالبهائم يتناسلون ، ولا مضرة على أحد منهم . وأما الملك العظيم ، والعدل الكثير ، والنعم الجزيلة ، والسياسة الحسنة ، والرخاء والأمن الذى لا خوف معه ففى بلاد الهند ، وبلاد الصين وأهل الهند أعلم الناس بعلم الطب ، وعلم النجوم والهندسة والصناعات العجيبة التى لا يقدر أحد سواهم على أمثالها ، وفى بلادهم وجزائرهم ينبت العود ، وشجر الكافور ، وجميع أنواع الطيب كالقرنفل ، والسنبل ، والدارصينى ، والكبابة ، والبسباسة ، وأنواع العقاقير والأدوية وعندهم حيوان المسك ، وهو حيوان كالغزال ، يجتمع المسك فى سرته ، وعندهم حيوان الزبّاد وهو حيوان كالسِّنّور يخرج منه عرق كالقطران أسود ثخين ، يسيل من جسده ، وتزيد رائحته بالتغرب ، بحيث تكون أزكى من المسك الأذفر ، ويخرج من بلادهم أنواع اليواقيت ، وأكثرها فى جزيرة سرنديب ، وعلى جبلها نزل آدم عليه السلام من الجنة فيما يقال . وحكى أنه كان ببابل سبع مدائن ، كل مدينة فيها أعجوبة ، كان فى إحداها تمثال الأرض ، فإذا التوى على الملك بعض أهل مملكته ، وامتنعوا عن القيام بالخراج، خرق أنهارها عليهم فى التمثال ، فلا يطيق أهل تلك الناحية سد الماء حتى يعتدلوا ، وما لم يسدّ فى التمثال لا يسدّ فى ذلك البلد . وفى الثانية حوض إذا أراد الملك أن يجمعهم لطعامه أتى كل واحد بما أحب من الشراب ، فصبه فى ذلك الحوض فاختلطت الأشربة ، فكل من سقى من ذلك الحوض ، كان شرابه الذى جاء به . وفى الثالثة طبل إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب عن أهله قرعوه ، فإن كان حيا سمع له صوت وإن كان ميتاً لم يسمع له صوت . وفى الرابعة مرآة إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب نظروا فيها فأبصروه على أى حالة هو عليها كأنهم يشاهدونه ، وفى الخامسة إوزة من نحاس فإذا دخل فيها الغريب صوّتت الإوزة صوتا يسمعه أهل المدينة ، وفى السادسة قاضيان جالسان على الماء فيأتى الخصمان ، فيمشى المحق على الماء حتى يجلس مع القاضيين ، ويقع المبطل فى الماء . وفى السابعة شجرة ضخمة لا تظل إلا ساقها فإن جلس تحتها أحد أظلته إلى ألف شخص ، فإذا زادوا على الألف واحدا جلسوا فى

الشمس كلهم ، ولو بسطت المقال فى ذلك لاتسع المجال . وقد اقتصرت فى ذلك على ما ذكرت ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الرابع والستون

فى خلق الجان وصفاتهم

روى عن الشيخ عبد الله صاحب « تحفة الألباب » أنه قال : قرأت فى بعض الكتب المتقدمة المأثورة عن العلماء - رحمهم الله تعالى - أن الله تعالى لما أراد أن يخلق الجان ، خلق نار السموم ، وخلق من مارجها خلقاً سماه « جانًّا » كما قال الله تعالى : ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧] وقال تعالى فى موضع آخر : ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٥] وقيل : إن الله تعالى خلق الملائكة من نور النار ، والجان من لهبها ، والشياطين من دخانها . وقد جاء فى بعض الأخبار أن نوعاً من الجن فى قديم الزمان قبل خلق آدم عليه السلام كانوا سكاناً فى الأرض قد طبقوها براً وبحراً ، سهلاً وجبلا ، وكان فيهم الملك ، والنبوة ، والدين ، والشريعة ، وكانوا يطيرون إلى السماء ، ويسلمون على الملائكة ، ويستعلمون منهم خبر ما فى السماء ، وكثرت نعم الله عليهم إلى أن بغوا وطغَوْا وتركوا وصايا أنبيائهم ، فأرسل الله تعالى عليهم جنداً من الملائكة ، فحصل بينهم مقتلة عظيمة ، وغلبوا الجن ، وطردوهم إلى أطراف البحار ، وأسروا منهم أمما كثيرة . وذكر المسعودى أن الفرس واليونان قالوا : كان الجن بالأرض قبائل : منهم من يسترق السمع ، ومنهم من ينط مع لهب النار ، ومنهم من يطير ، ولكل قبيلة ملك ، وكان من جملتهم إبليس - لعنه الله - ثم بعد خمسة آلاف سنة افترقوا ، وملكوا عليهم ملوكاً ، وأقاموا على ذلك مدّة طويلة ، ثم تحاسدوا على الملك ، وأغار بعضهم على بعض وجرت بينهم وقائع وحروب . وكان إبليس - لعنه الله - يصعد إلى السماء ، ويختلط بالملائكة ، فبعثه الله تعالى بجيوش من الملائكة ، فَهزم الجن ، وقتلهم ، وتملك الأرض مدّة طويلة إلى أن خلق آدم عليه السلام واتفق له معه ما اتفق ، وأهبط آدم إلى الأرض ، وعظم شأنه ، فعند ذلك انتقل إبليس إلى البحر المحيط ، وسكن هناك ، ثم ألقى عليه قوة شهوة السفاد فهو لا يلد ، لكنه يلقح كالطير ، ويبيض ويفرخ ، قيل : إنه يخرج من كل بيضة ستون ألف شيطان ، فيسلطهم على الخلق وأقربهم إليه وأدناهم منه ومن مجلسه أكثرهم إيذاء للخلق ، وفى الحديث : « **أن إبليس - لعنه الله - قال : يارب ، أنزلتنى إلى الأرض ، وطردتنى ، وجعلتنى رجيماً ، فاجعل لى مسكناً ، قال : مسكنك الأسواق . قال : فاجعل لى طعاما ، قال : ما لم يذكر اسمى عليه ، قال: فاجعل لى شراباً قال : كل مسكر ، قال : فاجعل لى مؤذنا قال : المزامير ، قال : فاجعل لى صيداً أو قال : مصايد : قال النساء** » [(١)] .

[فصل فى مكايده -لعنه الله-]

منها : أنه كان فى بنى إسرائيل عابد يدعى برصيصاً ، وله جار له بنت ، فحصل لها مرض ، فقال له جيرانه : لو حملتها إلى جارك برصيصاً ليدعو لها قال : فجاء إبليس إلى العابد وقال : إن لجارك عليك حق الجوار ، وإن له بنتاً مريضة فما ضرك لو جعلتها عندك ، فى جانب البيت ، ودعوت الله لها عقب عبادتك ، فعسى أن تشفى من مرضها ؟! قال : فلما أتاه جاره بالبيت قال له العابد : دعها وانصرف ، قال : فتركها عنده مدّة حتى شفيت ، فجاء

---

(١) وفى الحديث : أن إبليس - لعنه الله - قال . ضعيف : أخرجه ابن أبى الدنيا فى « مكائد الشيطان » [برقم ٤٣ - تحقيق مجدى السيد] ، والطبرانى فى « الكبير » فى [٧٨٣٧] عن أبى أمامة . وانظر تعليق المحقق والكتاب مطبوع بمكتبة القرآن بمصر .

له إبليس ، ووسوس له حتى وطئها ، فحملت منه ، فلما حملت ، جاء له إبليس - لعنه الله - فقال له : اقتلها لئلا تفتضح ، قال : فقتلها ، ودفنها ، قال : فعند ذلك ذهب الشيطان إلى أهلها ، وأعلمهم بذلك ، فجاءوا إلى العابد وكشفوا عن قضيته ، ثم أخذوه ، ومضوا ليقتلوه ، فعارضه إبليس اللعين فى الطريق ، فقال له : إن سجدت لى خلصتك منهم ، فسجد له ، فعند ذلك تبرأ منه ، ومات الرجل كافراً ، اللهم اعصمنا من مكايد الشيطان برحمتك ياأرحم الراحمين .

ومن ذلك : ما اتفق أن بنى إسرائيل اتخذوا شجرة ، وكانوا يعبدونها ، فجاء بعض عبادهم بفأس ليقطعها فعارضه إبليس - لعنه الله - وقال له : تركت عبادتك ، وجئت لشىء لا يعود عليك نفعه ، ولم يزل به حتى تقاتل معه فصرعه العابد ، وجلس على صدره ، ثم رجع ، ولم يزل يعمل معه ذلك فى كل يوم إلى ثلاثة أيام ، فلما رآه لا يرجع قال له : اترك قطعها وأنا أجعل لك فى كل يوم دينارين تستعين بهما على نفقتك وعبادتك ، وعاهده على ذلك ، فرجع ، قال : فجعل له تحت وسادته دينارين ، ثم دينارين ، ثم دينارين ، ثم قطع ذلك عنه ، فأخذ العابد الفأس وذهب إلى قطع الشجرة ، فعارضه إبليس فى الطريق ،وتحاور معه ، وتجاذبا فصرعه إبليس وجلس على صدره ، وقال له : إن لم ترجع عن قطعها ، وإلا ذبحتك ، فقال له العابد : خل عنى ،وأخبرنى كيف غلبتنى ؟! فقال له : لما غضبت لله غلبتنى ، ولما غضبت لنفسك غلبتك .

ومنها أشياء كثيرة : ليس هذا محل استيفائها قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف : ٥٠] .

[فصل فى المتشيطنة وهم أنواع كثيرة]

منها : الولهان ، يوجد فى جزائر البحار على صورة الإنسان .

حكى بعض المسافرين أنه عرض لمركب وهو راكب على نعامة يريد أخذ المركب ، وصاح بهم صيحة عظيمة خروا منها على وجوههم ، وأخذ بعض من فى المركب .

ومنها : السعلاة يحكى أن صنفا منها يتزيا بزى النساء ويتراءى للرجال . وحكى أن بعضهم تزوج امرأة منهم ، وهو لا يعلم ، فأقامت معه مدّة ، وولدت منه أولاداً ذكوراً وإناثاً ، فلما كان ذات ليلة صعدت معه السطح ، فنظرت فرأت ناراً من بعد عند الجبانة فاضطربت ، وقالت : ألم تر نيران السعالى ؟ وتغير لونها : وقالت : بنوك ، وبناتك أوصيك بهم خيرًا ، ثم طارت ، ولم تعد إليه .

ومنها : نوع يقال له المذهب ، يخدم العُبّاد ومقصوده بذلك أن يعجبوا بأنفسهم ! حكى أن بعض العُبّاد نزل صومعة يتعبد فيها ، فأتاه شخص بسراج وطعام ، فتعجب العابد من ذلك ، فقال له شخص بالصومعة إنه المذهب يريد أن يخيل لك أن ذلك من كرامتى ، والله إنى لأعلم أنه شيطان ، وقال بعض الصوفية المذهب أصناف : منهم من يحمل الفانوس بين يدى الشيخ ، ومنهم من يأتيه بالطعام والشراب وغير ذلك ، ومنهم من ينشد الشعر .

وقال بعض المسافرين : أَبِقَ لى غلام[1] فخرجت فى أثره ، فإذا أنا بأربعة يتناشدون شعر الفرزدق وجرير ، قال : فدنوت منهم وسلمت عليهم فقالوا : ألك حاجة ؟ قلت : لا، فقال بعضهم تريد غلامك ؟ قلت : وما أعلمك بغلامى ؟ قال : كعلمى بجهلك ، قلت : أو جاهل أنا ؟ قال : نعم ، وأحمق ، قال : ثم غاب ، وأتانى بالغلام مقيداً فلما رأيته غشى على ، فلما أفقت قال : انفخ فى يده ، ففعلت ، فانفرج القيد عنه ، وصرت لا أنفخ فى شىء من ذلك ولا فى وجع من الأوجاع إلا برىء ، وخلص صاحبه .

ومنها نوع يقال له : العفريت يختطف النساء ، يقال : إن رجلاً اخْتُطِفَت ابنتُه فى زمن عمر بن الخطاب ﷺ .

---

(١) أبق : هرب.

وقال بعض المسافرين : بينما نحن سائرون ذات ليلة إذ عرض لى قضاء الحاجة ، فانفردت عن رفقتى ، وضللت عنهم ، فبينما أنا سائر فى أثرهم إذ رأيت ناراً عظيمة ، وخيمة ، فجئت إلى جانبها ، وإذا أنا بجارية جميلة جالسة فيها ، فسألتها عن حالها فقالت : أنا من فزارة ، اختطفنى عفريت يقال له : ظليم ، وجعلنى هاهنا ، فهو يغيب عنى بالليل ، ويأتينى بالنهار ، فقلت لها : امضى معى ، فقالت : أهلك أنا وأنت فإنه يتبعنا ، ويأتينا فيأخذنى ، ويقتلك ، فقلت لا يستطيع أخذك ولا قتلى ، وما زلت أرددها الحديث ، حتى رَضِيَتْ فأنخت لها ناقتى فركبتها ، وسرت بها ، حتى طلع الفجر ، فالتفت فإذا أنا بشخص عظيم مهول ، قد أقبل ورجلاه تخطان فى الأرض ، فقالت : هاهو قد أتانا فأنخت ناقتى ، وخططت حولها خطًا ، وقرأت آيات من القرآن وتعوّذت بالله العظيم ، فتقدم وأنشأ يقول :

يـاذا الـذى لـلـحـيـن يـدعـوه الـقـدر خـل عـن الـحـسـنـاء رسـلا ثـم سـر

وإن تـكـن ذا خـبـرة فـيـنـا اصـطـب

قال فأجبته :

يـاذا الـذى لـلـحـيـن يـدعـوه الـحـمـق خـلّ عـن الـحـسـنـاء رسـلاً وانـطـلـق

مـا أنـت فـى الـجـن بـأوّل مـن عَـشَـق

قال فتبدى لى فى سورة أسد ، وجاذبنى وجاذبته ساعة ، فلم يظفر أحد منا بصاحبه ، فلما أيس منى قال : هل لك فى جزّ ناصيتى ، أو أحد ثلاث خصال ؟ قلت : وما هن ؟ قال : مائتان من الإبل ، أو أخدمك أيام حياتى ، أو ألف دينار الساعة وخَلّ بينى وبين الجارية ، فقلت لا أبيع دينى بدنياى ، ولا حاجة لى بخدمتك ، فاذهب من حيث أتيت ! قال : فانطلق وهو يتكلم بكلام لا أفهمه ، وسرت بالجارية إلى أهلها ، وتزوّجت بها ، وجاءنى منها أولاد .

وقيل : لما سخر الله تعالى الجن لسليمان عليه السلام نادى جبريل عليه السلام أيها الجن والشياطين ، أجيبوا نبى الله سليمان بن داود بإذن الله تعالى ، قال : فخرجت الجن والشياطين من الجبال والكهوف والغِيران ، والأودية والفَلوَات والآجام ، وهم يقولون لبيك لبيك ، والملائكة تسوقهم سوق الراعى للغنم ، حتى حشرت بين يدى سليمان عليه السلام طائعة ذليلة ، وكانوا إذ ذاك أربعاً وعشرين فرقة فنظر إلى ألوانها فإذا هى سود ، وشقر ، ورقط وبيض ، وصفر ، وخضر ، وعلى صور جميع الحيوانات ، ومنهم من رأسه رأس الأسد ، وبدنه بدن الفيل ، ومنهم من له خرطوم وذنب ، ومنهم من له قرون وحوافر وغير ذلك من الأنواع ، قال : فعند ذلك تعجب نبى الله سليمان عليه السلام من هذه الأشكال ، وسجد شكرًا لله تعالى وقال : إلهى ألبسنى هيبة من عندك ، وجعل يسألهم عن طباعهم وعن طعامهم وشرابهم ، وهم يجيبونه ، ثم فرقهم فى الصنائع ، من قطع الصخور والأشجار والغوص فى البحار ، وأبنية الحصون ، وفى استخراج المعادن والجواهر ، قال الله تعالى : ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [ص:٣٩] ونكتفى من ذلك بهذا القدر اليسير والله المسئول فى تيسير كل عسير ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الخامس والستون

في ذكر البحار وما فيها من العجائب وذكر الأنهار والآبار وفيه فصول

الفصل الأول : في ذكر البحار

روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما أراد الله تعالى أن يخلق الماء خلق ياقوتة خضراء لا يعلم طولها وعرضها إلا الله - سبحانه وتعالى - ثم نظر إليها بعين الهيبة ، فذابت ، وصارت ماء فاضطرب الماء ، فخلق الريح ، ووضع عليها الماء ، ثم خلق العرش ، ووضعه على متن الماء ، وعليه قوله تعالى : ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]. واعلم : أن بحر الظلمات لا يدخله شمس ولا قمر ، وأن بحر الهند خليج منه ، وبحر اللاذقية خليج منه ،وبحر الصين خليج منه ، وبحر الروم خليج منه ، وبحر فارس خليج منه ، وكل هذه البحار التى ذكرتها أصلها من البحر الأسود الذى يقال له : البحر المحيط ، وأما بحر الخزر ، وبحر خوارزم ، وبحر أرمينية ، والبحر الذى عند مدينة النحاس ، وغير ذلك من البحار الصغار ، فهى منقطعة عن البحر الأسود ، ولذلك ليس فيها جزر ولا مد . وقيل : سئل النبى ﷺ عن الجزر والمد فقال : « **هو ملك عال قائم بين البحرين ، إن وضع رجله فى البحر ، حصل له المد ، وإذا رفعها حصل له الجزر** »[(١)] . وقيل : إنما سمى البحر الأسود لأن ماءه فى رأى العين كالحبر الأسود ، فإن أخذ منه الإنسان فى يده شيئاً رآه أبيض صافياً إلا أنه أمر من الصبر ، مالح شديد الملوحة ، فإذا صار ذلك الماء فى بحر الروم ، تراه أخضر كالزنجار[(٢)] والله تعالى يعلم لأى شىء ذلك . وكذلك يرى فى بحر الهند خليج أحمر كالدم ، وبحر أصفر كالذهب ، وخليج أبيض كاللبن ، تغير هذه الألوان فى هذه المواضع والماء فى نفسه أبيض صاف ، وقيل : إن تغير الماء بلون الأرض . وأما ما يخرج من البحر من السمك وغيره فقد روى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى ساحل البحر ، وأمرّ علينا أبا عبيدة رضي الله عنه نتلقى عيرَ قريش ، وزودّنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره ، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة نمصها ثم نشرب عليها الماء ، فتكفينا يومنا إلى الليل فأشرفنا على ساحل البحر ، فرأينا شيئاً كهيئة الكثيب الضخم ، فأتيناه فإذا هو دابة من دواب البحر تدعى العنبر ، فأقمنا شهراً نأكل منها ، ونحن ثلاثمائة ، حتى سمنا ، ولقد رأيتنا نغترف من الدهن الذى فى وقب عينيها بالقلال ، ونقطع منه القطعة كالتور ، ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلا فأقعدهم فى وقب[(٣)] عينها وأخذ ضلعاً من أضلاعها فأقامها ، ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحتها ، وتزوّدنا من لحمها ، فلما قدمنا المدينة ذكرنا لرسول الله ﷺ ذلك فقال : « **هو رزق أخرجه الله لكم فهل معكم شىء من لحمها فتطعمونا ؟!** » فأرسلنا له منه ، فأكله وقيل : « **يَخْرُجُ مِنَ الْبَحْرِ سَمَكَةٌ عَظِيمَةٌ ، فَتَتْبَعُهَا سَمَكَةٌ أُخْرَى أَعْظَمُ مِنْهَا لِتَأْكُلَهَا فَتَهْرَبُ مِنْهَا إِلَى مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ ، فَتَتْبَعُهَا فَيَضِيقُ عَلَيْهَا مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ لِعِظَمِهَا وَكِبَرِهَا ، فَتَرْجِعُ إِلَى الْبَحْرِ الأَسْوَدِ ، وَعَرْضُ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ مِائَةُ فَرْسَخٍ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** »[(٤)] . وقال صاحب تحفة الألباب : ركبت فى سفينة مع جماعة فدخلنا إلى مجمع البحرين ، فخرجت سمكة عظيمة مثل الجبل العظيم ، فصاحت صيحة عظيمة لم أسمع قط أهول منها ولا أقوى ، فكاد قلبى ينخلع ، وسقطت على وجهى أنا وغيرى ، ثم ألقت السمكة نفسها فى البحر ، فاضطرب البحر اضطراباً شديداً ، وعظمت أمواجه ، وخفنا الغرق ، فنجانا الله تعالى بفضله وسمعت الملاحين يقولون : هذه سمكة تعرف بالبغل . قال : ورأيت فى البحر سمكة كالجبل العظيم ، ومن رأسها إلى ذنبها

---

(١) وقيل : سئل النبى ﷺ عن الجزر والمد ... إلخ لم أهتد إليه .

(٢) الزّنجار : صدأ النحاس .

(٣) الوَقْب: نُقْرة في الصخرة يجتمع فيها الماء،أو هو نحو البئر.

(٤) ذكره ابن كثير فى تفسير الآية رقم [٩٦] . من سورة المائدة ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ وقال : رواه الإمام مالك ثم قال : وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين وله طرق عن جابر وهذه رواية مسلم من رواية أبى الزبير عن جابر .

عظام سود كأسنان المنشار ، كل عظم أطول من ذراعين ، وكان بيننا وبينها فى البحر أكثرمن فرسخ ، فسمعت الملاحين يقولون : هذه السمكة تعرف بالمنشار إذا صادفت أسفل السفينة قصمتها نصفين .

ولقد سمعت أنا من يقول : إن جماعة ركبوا سفينة فى البحر ، فأرسوا على جزيرة ، فخرجوا إلى تلك الجزيرة فغسلوا ثيابهم ، واستراحوا ثم أوقدوا ناراً ليطبخوا فتحركت الجزيرة ، وطلبت البحر وإذا بها سمكة ! فسبحان القادر على كل شىء لا إله إلا هو ، ولا معبود سواه !، وقيل : إن فى البحر سمكة تعرف بالمنارة لطولها ، يقال : إنها تخرج من البحر إلى جانب السفينة فتلقى نفسها عليها ، فتحطمها وتهلك من فيها ، فإذا أحس بها أهل السفينة صاحوا ، وكبروا ، وضجوا ، وضربوا الطبول ، ونقروا الطسوت والسطول[1] والأخشاب ، لأنها إذا سمعت تلك الأصوات ربما صرفها الله تعالى عنهم بفضله ورحمته ! وقال الشيخ عبد الله : صاحب تحفة الألباب كنت يوماً فى البحر على صخرة ، فإذا أنا بذنب حية صفراء ، منقطة بسواد ، طولها مقدار باع ، فطلبت أن تقبض على رجلى ، فتباعدت عنها ، فأخرجت رأسها كأنه رأس أرنب من تحت تلك الصخرة ، فسللت خنجراً كبيراً كان معى ، فطعنت به رأسها فغار فيه ، فلم أقدر على خلاصه منها ، فأمسكت نصابه بيدى جميعا ، وجعلت أجره حتى ألصقتها بباب الجحر ، فتركت الجحر ، وخرجت من تحت الصخرة فإذا هى خمس حيات فى رأس واحد ، فتعجبت من ذلك ، وسألت من كان هناك عن اسم هذه الحية ؟ فقال : هذه تعرف بأم الحيات ، وذكروا أنها تقبض على الآدمى فى الماء ، فتمسكه حتى يموت ، وتأكله ، وأنها تعظم حتى تكون كل حية أكثر من عشرين ذراعا ، وأنها تقلب الزوارق ، وتأكل من قدرت عليه من أصحابها ، وأن جلدها أرق من جلد البصل ، ولا يؤثر فيها الحديد شيئاً ، قال : ورأيت مرة فى البحر صخرة عليها شىء كثير من النارنج الأحمر الطرى الذى كأنه قطع من شجره ، فقلت فى نفسى : هذا قد وقع من بعض السفن ، فذهبت إليه ، فقبضت منه نارنجة فإذا هى ملتصقة بالحجر ، فجذبتها ، فإذا هى حيوان يتحرك ويضرب فى يدى ، فلففت يدى بكم ثوبى ، وقبضت عليه وعصرته فخرج من فيه مياه كثيرة ، وضمر فلم أقدر أن أقلعه من مكانه ، فتركته عجزاً عنه ، وهو من عجائب خلق الله تعالى ، وليس له عين ولا جارحة ، إلا الفم ، والله سبحانه وتعالى أعلم لأى شىء يصلح ذلك . قال : ولقد رأيت يوماً على جانب البحر عنقود عنب أسود كبير الحب ، أخضر العرجون ، كأنما قطف من كرمه ، فأخذته وكان ذلك فى أيام الشتاء ، وليس فى تلك الأرض التى كنت فيها عنب ، فرمت أن آكل منه ، فقبضت على حبة منه وجذبتها ، فلم أقدر أن أقلعها من العنقود حتى كأنها من الحديد قوّة وصلابة ، فجذبتها جذبة أقوى من الأولى فانقشرت قشرة من تلك الحبة كقشر العنب ، وفى داخلها عجم كعجم العنب ، فسألت عن ذلك فقيل لى : هذا من عنب البحر ، ورائحته كرائحة السمك ! وفى البحر أيضاً حيوان رأسه يشبه رأس العجل ، وله أنياب كأنياب السباع ، وجلده له شعر كشعر العجل ، وله عنق وصدر وبطن ، وله رجلان كرجلى الضفدع ، وليس له يدان يعرف بالسمك اليهودى ، وذلك أنه إذا غابت الشمس ليلة السبت يخرج من البحر ، ويلقى نفسه فى البر ولا يتحرك ولا يأكل ، ولو قتل ، ولا يدخل البحر حتى تغيب الشمس ليلة الأحد ، فحينئذ يدخل البحر ، ولا تلحقه السفن لخفته وقوته ، وجلده يتخذ منه نعل لصاحب النقرس ، فلا يجد له ألما ما دام ذلك الجلد عليه ، وهو من العجائب . وقيل إن فى بحر الروم سمكاً طويلاً طول السمكة مائة ذراع ، وأكثر ، وله أنياب كأنياب الفيل ، تؤخذ وتباع فى بلاد الروم ، وتحمل إلى سائر البلاد ، وهى أحسن وأقوى من أنياب الفيل ، وإذا شق الناب منها يظهر فيه نقوش عجيبة ، ويسمونه الجوهر ، ويتخذون منه نصلاً للسكاكين ، وهو مع قوته وحسن لونه ثقيل الوزن كالرصاص، وفى البحر أيضاً سمك يسمى الرعّاد إذا دخل فى شبكة فكل من جر تلك الشبكة أو وضع يده عليها أو على حبل من حبالها ، تأخذه الرعدة حتى لا يملك من نفسه شيئاً كما يرعد صاحب الحمى ، فإذا رفع يده زالت عنه الرعدة ، فإذا أعادها عادت إليه الرعدة ، وهذا أيضاً من العجائب ، فسبحان الله جلت قدرته . وقال صاحب تحفة الألباب ، حدثنى الشيخ أبو العباس الحجازى قال : حدثنى رجل يعرف بالهارونى من ولد هارون الرشيد : أنه ركب سفينة فى بحر الهند فرأى طاوساً قد خرج من البحر ، أحسن من طاوس البر وأجمل ألواناً قال : فكبرنا لحسنه ، فجعل يسبح ، وينظر لنفسه ، وينشر أجنحته ،

---

[1] السُّطول: جمع سَطْل، وهو إناء من معدن كالمِرْجل.

وينظر إلى ذنبه ساعة ثم غاص فى البحر ، وفى البحر دابة يقال لها الدرفين تنجى الغريق ، لأنها تدنو منه حتى يضع يده على ظهرها فيستعين بالاتكاء عليها ، ويتعلق بها ، فتسبح به حتى ينجيه الله بقدرته فسبحان من دبر هذا التدبير اللطيف ، وأحكم هذه الحكمة البالغة . وزعموا أن السمك يتجه نحو الغناء والصوت الحسن ، ويصبو لسماعه ، وربما قيل : إن بعض الصيادين يحفرون فى البحر حفائر ثم يجلسون فيضربون بالمعازف وآلات الطرب ، فيجتمع السمك ويقع فى تلك الحفائر ، وقيل : إن الدرفين وأنواع السمك إذا سمعت صوت الرعد هربت إلى قعر البحر ، وقيل : إن خيل البحر توجد بنيل مصر ، وهى صفة خيل البر ، وقيل : إنها تأكل التماسيح ، وربما خرجت فرعت الزرع ، وإذا رأى أهل مصر أثر حوافرها - يل ينتهى فى طلوعه إلى ذلك المكان . وقيل : إن فى البحر المحيط شيئاً يتراءى كالحصون فيرتفع على وجه الماء ، ويظهر منه صور كثيرة ويغيب ، ومن عجيب ما حكى أن فيه جزيرة فيها ثلاث مدن عامرة ، وهى كثيرة الأمطار ، وأهلها يحصدون زرعها قبل جفافه ، لقلة طلوع الشمس عندهم ، ويجعلونه فى بيت ويوقدون حوله النيران ، حتى يجف وعجائبه لا تحصى ولا يمكن حصرها . ويقال : إن الإسكندر لما سار إلى بحر الظلمات مَرّ بجزيرة بها أمة رءوسهم مثل رءوس الكلاب يخرج من أفواههم مثل لهب النار ، وخرجوا إلى مراكبه ، وحاربوه ، ثم تخلص منهم ، وسار فرأى صوراً متلوّنة بألوان شتى ، وسمكاً طوله مائة ذراع وأكثر ، وأقل ، فسبحان الله تعالى ما أكثر عجائب خلقه ! ، ويقال : إنه مر فى بعض الجزائر على قصر مصنوع من البلور على قلعة محكمة البناء ، وحولها قناديل لا تطفأ . ومن جزائر البحر جزيرة القمر يقال : إن بها شجراً طول الشجرة مائتا ذراع ، ودور ساقها مائة وعشرون ذراعاً ، وبها طوائف من السودان عرايا الأبدان ، يلتحفون بورق الشجر ، وهو ورق يشبه ورق الموز لكنه أسمك وأعرض وأنعم ، ويقال : إن هذه الجزيرة بالقرب من نيل مصر ، وإن هذه الأمة التى بها يتمذهبون بمذهب الإمام الشافعى ﷺ وهم فى غاية اللطافة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبالقرب منهم معدن الذهب والياقوت ، وبها الفيلة البيض ، وحيوانات مختلفة الأشكال من الوحوش وغيرها ، وبها العود القمارى ، والأبنوس ، والطواويس ، وبها مدن كثيرة ، ومنها جزيرة الواق خلف جبل يقال لها : اصطفيون داخل البحر الجنوبى ، ويقال : إن هذه الجزيرة كانت ملكتها امرأة ، وإن بعض المسافرين وصل إليها ودخلها ، ورأى هذا الملكة وهى جالسة على سرير ، وعلى رأسها تاج من ذهب ، وحولها أربعمائة وصيفة كلهن أبكار ، وفى هذه الجزيرة من العجائب شجر يشبه شجر الجوز ، وخيار الشنبر ، ويحمل حملا كهيئة الإنسان فإذا انتهى سمع له تصويت يفهم منه واق واق ، ثم يسقط ، وهذه الجزيرة كثيرة الذهب ، حتى قيل : إن سلاسل خيلهم ومقاود كلابهم ، وأطواقها من الذهب . ومنها جزيرة الصين يقال : إن بها ثلاثمائة مدينة ونيفا سوى القرى والأطراف ، وأبوابها اثنا عشر بابا ، وهى جبال فى البحر بين كل جبلين فرجة ، وهذه الجبال تمر بها المراكب مسيرة سبعة أيام ، وإذا جاوزت السفينة الأبواب سارت فى ماء عذب حتى تصل إلى الموضع الذى تريده ، وفيها من الأودية والأشجار والأنهار ما لا يمكن وصفه ، فتبارك الله رب العالمين . وقيل : إن الإسكندر لما فرغ من بناء سدّه حمد الله تعالى وأثنى عليه ، ثم نام وإذا بحيوان عظيم صعد من البحر إلى أن علا وسد الأفق فظن من حول الملك أنه يريد ابتلاعهم ، ففزعوا فانتبه ، فقال : مالكم ؟ فقالوا : انظر ما حل بنا . فقال : ما كان الله ليأخذ نفساً قبل انقضاء أجلها ، وقد منعنى من العدوّ فلا يسلط على حيواناً من البحر ، قال : فإذا بالحيوان قد دنا من الملك ، وقال : أيها الملك أنا حيوان من هذا البحر ، وقد رأيت هذا السد بنى وخرب سبع مرات ، ولم يزد على ذلك ، ثم غاب فى البحر ، فتبارك من له هذا الملك العظيم لا إله إلا هو العزيز الحكيم . وقيل : إن بجزيرة النسناس باليمن مدينة بين جبلين ، وليس لها ماء يدخل فيها إلا من المطر ، وطولها نحو ستة فراسخ ، وهى حصينة ذات كروم ونخيل وأشجار وغير ذلك ، وإذا أراد إنسان الدخول فيها حثى فى وجهه التراب ، فإن أبى إلا الدخول خنق أو صرع ، وقيل : إنها معمورة بالجان ، وقيل : بخلق من النسناس ، ويقال : إنهم من بقايا عاد الذين أهلكهم الله بالريح العقيم ، وكل واحد منهم شِقّ إنسان . ونقل عن بعض المسافرين أنه قال : بينما نحن سائرون إذا أقبل علينا الليل ، فبتنا بواد ، فلما أصبح الصباح سمعنا قائلا يقول من الشجرة : يا أبا بجير، الصبح قد أسفر ، والليل قد أدبر ، والقناص قد حضر ، فالحذر الحذر ! قال فلما ارتفع النهار ، أرسلنا كلبين كانا معنا نحو الشجرة ، فسمعت صوتاً يقول : ناشدتك ، قال : فقلت

لرفيقى دعهما . قال : فلما وثقا منا نزلا هاربين ، فتبعهما الكلبان وجدّا فى الجرى فأمسكا شخصاً منهما قال : فأدركناه وهو يقول :

الـويـل لـى مـمـا بـه دهـانـى ... دهـرى مـن الـهـمـوم والأحـزان
قـفـا قـلـيـلا أيـهـا الـكـلـبـان ... إلـى مـتـى إلـىّ تـجـريـان ؟!

قال: فأخذناه ورجعنا فذبحه رفيقى وسوّاه فعفته ولم آكل منه شيئاً فتبارك الله ما أكثر عجائب خلقه! لا إله إلا هو ولا معبود سواه ! .

الفصل الثانى : فى ذكر الأنهار والآبار والعيون

قال الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾. [الزمر:٢١] قال المفسرون : هو المطر ، ومعنى سلكه أدخله فى الأرض ، وجعله عيوناً ومسايل ، ومجارى كالعروق فى الجسد ، فمن الأنهار ما هو من الأمطار المجتمعة، ولهذا ينقطع عند فراغ مادته ، ومنها ما ينبع من الأرض، وأطول ما يكون من الأنهار ألف فرسخ وأقصره عشرة فراسخ إلى اثنين وثلاثة وبين ذلك ، وكلها تبتدئ من الجبال ، وتنتهى إلى البحار والبطائح [(١)]، وفى ممرها تسقى المدن والقرى ، وما فضل منها ينصب فى البحر الملح ، ويختلط به ولا يمكن استيفاء عددها لكنا نشير إلى بعضها فنقول :

النيل المبارك : ليس فى الأنهار أطول منه ، لأنه مسيرة شهرين فى بلاد الإسلام وشهرين فى بلاد النوبة ، وأربعة فى الخراب ، وقيل : إن مسافته من منبعه إلى أن ينصب فى البحر الرومى ألف وسبعمائة فرسخ وثمانية وأربعون فرسخاً ، قال ذلك صاحب : « مباهج الفكر ، ومناهج العبر » ، واختلف فى زيادته فقيل : إن الأنهار والعيون تمده فى الوقت الذى يريده الله تعالى ، وفى الحديث : « **أنه من أنهار الجنة** »[(٢)] . وقال أهل الأثر : إن الأنهار التى من الجنة تخرج من أصل واحد ، من قبة فى أرض الذهب ، ثم تمر بالبحر المحيط وتشق فيه ، قالوا : ولولا ذلك لكانت أحلى من العسل ، وأطيب رائحة من الكافور !

نهر الفرات : يوجد بأرض أرمينية ، فضائله كثيرة ، والنيل أصدق حلاوة منه ، وبه من السمك الأبيض ما تكون الواحدة قنطارا بالدمشقى ، وطول هذا النهر من حين يخرج من عند ملطية إلى أن تأتى إلى بغداد ستمائة وثلاثون فرسخاً وفى وسطه مدن وجزائر تعد من أعمال الفرات .

جيحون : نهر عظيم تتصل به أنهار كثيرة ، ويمر على مدن كثيرة ، حتى يصل إلى خوارزم ، ولا ينتفع به شى من البلاد سوى خوارزم ، لأنها متسفلة عنه ، ثم ينصب فى بحيرة بينها وبين خوارزم ستة أيام ، وهو يجمد فى الشتاء خمسة أشهر والماء يجرى من تحت الجمد فيحفر أهل خوارزم منه لهم أماكن ليستقوا منها ، وإذا اشتدّ جموده مروا عليه بالقوافل ، والعجل المحملة ، ولا يبقى بينه وبين الأرض فرق ، ويعلوه التراب ويبقى على ذلك شهرين .

سيحون : نهر عظيم قيل : إن مبدأه من حدود الترك ، ويجرى حتى يتصل ببلاد الفرغانة ، وربما يجتمع مع جيحون فى بعض الأماكن .

الدجلة : نهر بغداد وله أسماء غير ذلك ، وماؤه أعذب المياه بعد النيل ، وأكثرها نفعا ، قيل : مقداره ثلاثمائة فرسخ ، وفى بعض الأوقات يفيض حتى قيل : إنه يخشى على بغداد الغرق منه ، وهو نهر مبارك كثيرا ما ينجو غريقه . حكى أنه وجد به غريق فيه الروح فلما أفاق سألوه عن حاله فأخبرهم أنه لما غلب على نفسه رأى كأن أحدا يحمله

---

(١) أي الأماكن المتسعة، ومنه أبطح مكة.

(٢) وفى الحديث : « أنه من أنهار الجنة » ذكره أبو الشيخ فى العظمة باب صفة النيل وذكره السيوطى فى الجامع الصغير [١٨٠٦] وضعفه الألبانى وذكره المتقى الهندى فى كنز العمال [٣٥٣٣٦] .

ويصعد به ، وروى فى الأثر أن الله تعالى أمر دانيال عليه السلام أن يحفر لعباده ما يستقون منه وينتفعون به ، فكان كلما مر بأرض ناشده أهلها أن يحفر ذلك عندهم إلى أن حفر دجلة والفرات ، وأما الأنهار الصغار فكثيرة ، ولكنا نذكر منها طرفا فنقول :

نهر حصن المهدى : قال صاحب تحفة الألباب : إنه بين البصرة والأهواز ، وأنه يرتفع منه فى بعض الأوقات شىء يشبه صورة الفيل ، ولا يعرف أحد شأنه .

نهر أذربيجان : قيل : إن بالقرب منه نهرا يجرى فيه الماء سنة ، ثم ينقطع ثمان سنين ، ثم يعود فى التاسعة . وقيل : إنه ينعقد حجرا ، ويستعمل منه اللبن[١] ويبنى به ، وقيل : إن فى تلك الأرض بحيرة تجف ، فلا يوجد فيها ماء ولا سمك ولا طين سبع سنين ، ثم يعود الماء والسمك والطين فتبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ! .

نهر صقلاب : يجرى فيه الماء يوماً واحداً فى كل أسبوع ، ثم ينقطع ستة أيام .

نهر العاصى : بأرض حماة ، وقيل بحمص ، وهو نهر معروف وفيه يقول بعضهم :

مدينة حمص كعبة القصف أصبحت ... يطوف بها الدانى ، ويسعى لها القاصى
بها روضة من حسنها سندسية ... تعلق فى أكناف أذيالها العاصى

نهر العمود : بأرض الهند عليه شجرة نابتة من حديد ، وقيل : من نحاس ، وتحتها عمود من نحاس ، وقيل : من حديد ، طوله من فوق الماء نحو عشرة أذرع ، وعرضه ذراع ، وعلى رأسه ثلاث شعب مسنونة محدودة ، وعنده رجل يقرأ كتاب الله ، ويقول : يا عظيم البركة ، طوبى لمن صعد هذه الشجرة ، وألقى بنفسه على هذا العمود ، فيدخل الجنة ، وقال أهل تلك الناحية ، من يريد ذلك فيصعد على تلك الشجرة ، ويلقى نفسه فيتقطع .

نهر باليمن : قال صاحب تحفة الألباب : إنه عند طلوع الشمس يجرى من المشرق إلى المغرب ، وعند غروبها يجرى من المغرب إلى المشرق .

نهر ببلاد الحبشة والسودان : يجرى إلى المشرق يشبه النيل فى زيادته ونقصانه ، وأرضه بها الخصب والبركة ، وبها شجر كالأراك يحمل ثمراً كالبطيخ ، داخله شىء يشبه القند[٢] فى الحلاوة ، ولكن فيه بعض حموضة ، وهذا النهر يجرى فى بلادهم ثمانية أشهر ، ثم ينصب فى البحر المحيط ، فسبحان من دبر هذا التدبير ، وأحكم هذه الصنعة لا إله إلا هو الحكيم الخبير ! .

الفصل الثالث: فى ذكر الآبار

قال مجاهد : كنت أحب أن أرى كل شىء غريب ، فسمعت أن ببابل بئر هاروت وماروت فسرت إليها فلما وصلت إلى ذلك المكان وجدت عنده بيوتاً ، فدخلت فى بعضها فوجدت شخصاً فسلمت عليه ، فرحب بى ، وسألنى عن حاجتى فذكرت له غرضى ، فأمر يهودياً يذهب معى ، فيوقفنى على البئر ، ويطلعنى على الملكين ، قال : فسرنا إلى البئر ففتح سرداباً ، ونزلنا فأمرنى أن لا أذكر اسم الله تعالى ، قال : فلما رأيت الملكين رأيت شيئاً كالجبلين العظيمين منكسين ، على رءوسهما وعليهما الحديد من أعناقهما إلى ركبهما قال مجاهد : فلما رأيت ذلك ذكرت الله تعالى . قال : فاضطربا اضطراباً شديداً حتى كادا يقطعان السلاسل . قال : ففر اليهودى ، فتعلقت به ، فقال : أما أمرتك أن لا تذكر اسم الله تعالى ، كدنا - والله - نهلك ! .

---

(١) اللَّبِن: المضروب من الطين يُبنى به.
(٢) القَنْد: عسل قصب السكر إذا جمُد.

بئر برهوت : بقرب حضرموت ، وهى التى قال النبى ﷺ : « **إنها مجمع أرواح الكفار** »[١] . وقال على رضي الله عنه : أبغض البقاع إلى الله تعالى بئر برهوت ماؤها أسود منتن تأوى إليها أرواح الكفار ، والموكل بها ملك يسمى دومة .

بئر عسفان : ماؤها يستشفى به قيل : إن النبى ﷺ : تفل فيها ، قالت أسماء بنت أبى بكر الصديق رضي الله عنها كنا نغسل المريض منها فيعافى[٢] وقيل : إن النبى ﷺ توضأ منها .

بئر معروفة بأرض حلب : خاصيتها : أنها إذا شرب منها المكلوب زال كلبه ، ما لم يجاوز الأربعين . وبنيسابور آبار كثيرة وهى معادن الفيروزج ، وإنما يمنع الناس عنها لكثرة عقاربها ، وبأرض فارس بئر ينبع منها ماء فى وقت من السنة فيرتفع على وجه الأرض لمحة واحدة ، ويجرى ، فينتفع به فى سقى الزرع ، ثم يعود إلى ما كان ، وعجائب الله كثيرة لا تكاد تنحصر لا إله إلا هو ولا معبود سواه ! .

الباب السادس والستون

فى ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيان وفيه فصول

الفصل الأول : فى ذكر الأرض وما فيها من العمران والخراب

روى وهب بن منبه رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « **إن لله تعالى ثمانية عشر ألف عالم ، الدنيا منها عالم واحد ، وما العمران فى الخراب إلا كخردلة فى كف أحدكم** »[٣] . وقال رواة الأثر : إن لله - عز وجل - دابة فى مرج من مروجه ، فى غامض علمه ، رزقها فى كل يوم بقدر رزق العالم بأسره ، وجميع مدائن الدنيا أربعة آلاف مدينة ، وخمسمائة وست وخمسون مدينة ، وقيل : غير ذلك . وأقاليم الأرض سبعة : الإقليم الأوّل : الهند . الثانى : الحجاز ، الثالث : إقليم مصر . الرابع : إقليم بابل . الخامس : إقليم الروم والشام ، السادس : إقليم الترك . السابع : إقليم الصين . وأوسط الأقاليم إقليم بابل ، وهو أعمرها وفيه جزيرة العرب ، وفيه العراق الذى هو سرة الدنيا ، وبغداد فى وسط هذا الإقليم فلاعتداله اعتدلت ألوان أهله ، فسلموا من شقرة الروم ، وسواد الحبشة ، وغلظ الترك ، وجفاء أهل الجبال ، ودمامة أهل الصين . والممالك المشهورة التى ضبطت عدتها فى زمن المأمون ثلاثمائة وثلاث وأربعون مملكة ، أوسعها ثلاثة أشهر ، وأضيقها ثلاثة أيام . وقال أهل الهيئة : إنه يكون عند خط الاستواء ربيعان ، وصيفان ، وخريفان ، وشتاءان فى سنة واحدة ، وإنه يكون فى بعض البلاد ستة أشهر ليل ، وستة أشهر نهار ، وبعضها حر وبعضها برد ، فسبحان من خلق كل شىء فأتقنه ، لا إله إلا هو ولا معبود سواه .

---

(١) ذكر ابن الأثير عن أبى موسى فى حديث على « سر بئر فى الأرض برهوت » أخرجه الهروى عن على ، وأخرجه الطبرانى فى المعجم عن ابن عباس عن النبى ﷺ .

(٢) قال ابن الأثير ، وفى الحديث ذكر عسفان ، وهى قرية جامعة بين مكة والمدينة . والتفل : النفخ معه أدنى بزاق وقد تكرر ذكره فى الحديث ولم أهتد إلى هذا الحديث .

(٣) رواه أبو الشيخ فى العظمة [٩٥١] ذكره السيوطى فى الدر المنثور مختصرا وعزاه لأبى الشيخ فى العظمة وإسناده موضوع فيه عبد المنعم ووالده من الضعفاء .

الفصل الثانى :فى ذكر الجبال

قيل : إن الله تعالى لما خلق الأرض ماجت واضطربت ، فخلق الجبال ، وأرساها بها ، فاستقرت ، ومجموع ما عرف بالأقاليم السبعة من الجبال مائة وثمانية وتسعون جبلا ، فمنها ما طوله عشرون فرسخاً ، ومنها ما طوله مائة فرسخ إلى ألف فرسخ ، ولنذكر منها ما هو مشهور ومعروف بين الناس : فمن أعجبها :

جبل سرنديب : وطوله مائتان ونيف وستون ميلا ، وفيه أثر قدم آدم عليه السلام حين أهبط ، وحوله الياقوت ، وفى أوديته الماس الذى يقطع به الصخور ، ويثقب به اللؤلؤ ، وفيه العود والفلفل ، ودابة المسك ودابة الزباد .

جبل الروم : الذى فيه السد طوله سبعمائة فرسخ ، وينتهى إلى بحر الظلمات .

جبل أبى قبيس : سمى بذلك لأن آدم عليه السلام كناه بذلك حين اقتبس منه النار التى بين أيدى الناس ، وقيل : غير ذلك .

جبل القدس : جبل شريف مبارك فيه غار يضىء بالليل من غير سراج ، ويزوره الناس .

جبل أروند : بهمدان برأسه عين تخرج من صخرة أياماً معدودة فى السنة ، تقصد من كل وجه ، يستشفى بها .

جبل بالشام : لونه أسود كالفحم ، وترابه أبيض تبيض به الثياب .

جبل الأندلس : فيه غار إذا دهنت فتيلة وأدخلتها فيه أوقدت ، وبها جبل به عينان : إحداهما باردة ، والأخرى حارة ، والمسافة التى بينهما مقدار شبر ، وجبل به معدن الكبريت ، والزئبق ، والزنجفر .

جبل سمرقند : يقطر منه ماء فى الصيف يصير جلمداً ، وفى الشتاء يحرق من حرارته .

جبل الصور : بكرمان ، يكسر حجره ، فيخرج منه كصور الآدميين ، قائمين وقاعدين ، ومضطجعين ، وإذا سحق وطرح فى الماء يرى كذلك .

جبل الأزجان : بطبرستان ، يقطر منه ماء ، كل قطرة تصير حجراً مسدساً أو مثمنًا.

جبل هرمز : ينزل منه ماء إلى وهدة[1] ، فإن صاح إنسان صيحة وقف ، فإن ثنى جرى .

جبل الطير : بإقليم الصعيد ، يجتمع عنده الطير فى كل سنة مرة ، ويدخل فى كوّة هناك ، فتمسك الكوّة على واحدة ، وتطير البقية ، ويكون ذلك علامة الخصب فى تلك السنة ، ولنقتصر على ذلك ، ومن أراد الوقوف على جميعها فعليه بتاريخ مرآة الزمان .

الفصل الثالث :فى ذكر المبانى العظيمة وغرائبها وعجائبها

قال أهل التواريخ ، ونقلة الأخبار: إن أول بناء بنى على وجه الأرض الصرح الذى بناه نمروذ الأكبر بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام وبقعته بكوثى من أرض بابل ، وبه إلى عصرنا أثر ذلك البناء كأنه جبال شاهقات ، قالوا : وكان طوله خمسة آلاف ذراع ، بناه بالحجارة والرصاص والشمع واللبان ، ليمتنع هو وقومه من طوفان ثان ، فأخرب الله تعالى ذلك الصرح فى ليلة واحدة بصيحة ، فتبلبلت بها ألسنة الناس ، فسميت أرض بابل .

إرم ذات العماد : التى لم يخلق مثلها فى البلاد . حكى الشعبى فى كتاب سير الملوك : أن شداد بن عاد ملك جميع الدنيا ، وكان قومه قوم عاد الأولى ، زادهم الله بسطة فى الأجسام وقوة حتى قالوا : من أشدّ منا قوة ؟ قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥] وأن الله تعالى بعث إليهم هوداً نبيا عليه السلام فدعاهم إلى الله تعالى ، فقال له شداد : إن آمنت بإلهك فماذا لى عنده ؟ قال يعطيك فى الآخرة جنة مبنية من ذهب ويواقيت ولؤلؤ ، وجميع أنواع الجواهر ، قال شداد أنا أبنى مثل هذه الجنة ، ولا أحتاج إلى ما تعدنى به ، قال : فأمر شداد ألف أمير من

---

(١) الوَهْد: الأرض المنخفضة.

جبابرة قوم عاد ، أن يخرجوا ، ويطلبوا أرضاً واسعة كثيرة الماء ، طيّبة الهواء ، بعيدة من الجبال ، ليبنى فيها مدينة من ذهب . قال : فخرج أولئك الأمراء ، ومع كل أمير ألف رجل من خدمه وحشمه ، فساروا فى الأرض ، حتى وصلوا إلى جبل عدن ، فرأوا هناك أرضاً واسعة ، طيبة الهواء ، فأعجبتهم تلك الأرض ، فأمروا المهندسين والبنائين فخطوا مدينة مربعة الجانب ، دورها أربعون فرسخاً ، من كل جهة عشرة فراسخ فحفروا الأساس إلى الماء ، وبنوا الجدران بحجارة الجزع اليمانى ، حتى ظهر على وجه الأرض ثم أحاطوا به سوراً وارتفاعه خمسمائة ذراع ، وغشوه بصفائح الفضة المموهة بالذهب فلا يكاد يدركه البصر إذا أشرقت الشمس ، وكان شداد قد بعث إلى جميع معادن الدنيا ، فاستخرج منها الذهب ، واتخذه لبنا ، ولم يترك فى يد أحد من الناس فى جميع الدنيا شيئاً من الذهب إلا غصبه ، واستخرج الكنوز المدفونة ، ثم بنى داخل المدينة مائة ألف قصر بعدد رُؤساء مملكته كل قصر على عمد من أنواع الزبرجد واليواقيت معقودة بالذهب ، طول كل عمود مائة ذراع ، وأجرى فى وسطها أنهاراً ، وعمل منها جداول لتلك القصور والمنازل ، وجعل حصاها من الذهب ، والجواهر واليواقيت ، وحلّى قصورها بصفائح الذهب والفضة ، وجعل على حافات الأنهار أنواع الأشجار ، جذوعها من الذهب ، وأوراقها وثمرها من أنواع الزبرجد واليواقيت واللآلئ ، وطلى حيطانها بالمسك والعنبر ، وجعل فيها جنة مزخرفة له ، وجعل أشجارها الزمرد واليواقيت ، وسائر أنواع المعادن ، ونصب عليها أنواع الطيور المسموعة الصادح والمغرد وغير ذلك ، ثم بنى حول المدينة مائة ألف منارة برسم الحراس الذين يحرسون المدينة فلما كمل بناؤها أمر فى مشارق الأرض ومغاربها أن يتخذوا فى البلاد بسطاً وستوراً وفرشاً من أنواع الحرير لتلك القصور والغرف ، وأمر باتخاذ أوانى الذهب والفضة ، فاتخذوا جميع ما أمر به ، فلما فرغوا من ذلك جميعه خرج شدّاد من حضرموت فى أهل مملكته ، وقصد مدينة إرم ذات العماد ، فلما أشرف عليها ورآها قال : قد وصلت إلى ما كان هود يعدنى به بعد الموت ، وقد حصلت عليه فى الدنيا ، فلما أراد دخولها أمر الله تعالى ملكاً فصاح بهم صيحة الغضب ، وقبض ملك الموت أرواحهم فى طرفة عين ، فخروا على وجوههم صرعى ! قال الله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴾ [النجم:٥٠] . وذلك قبل هلاك عاد بالريح العقيم ، وأخفى الله تعالى تلك المدينة عن أعين الناس ، فكانوا يرون بالليل فى تلك البرية التى بنيت فيها معادن الذهب والفضة واليواقيت تضىء كالمصابيح ، فإذا وصلوا إليها لم يجدوا هناك شيئاً . وقد نقل أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له : عبد الله بن قلابة الأنصارى ، دخل إليها وذلك أنه ضلت له إبل فخرج فى طلبها ، فوصل إليها فلما رآها دهش وبهت ، ورأى ما أذهله وحيره ، وقال فى نفسه : هذه تشبه الجنة التى وعد الله بها عباده المتقين فى الآخرة ، فقصد بابا من أبوابها فلما وصل إليه أناخ راحلته ، ودخل المدينة فرأى تلك القصور والأنهار والأشجار ، ولم ير فى المدينة أحداً فقال : أرجع إلى معاوية ، وأخبره بهذه المدينة وما فيها ثم حمل معه شيئاً من تلك الجواهر واليواقيت فى وعاء ، وجعله على راحلته وعلم على المدينة علامة ، وقال : قربها من جبل عدن كذا ، ومن الجهة الفلانية كذا ، ثم انصرف عنها بعد ما ظفر بإبله ، ثم دخل على معاوية ﷺ بدمشق ، وأخبره بجميع ما رآه ، فقال له معاوية فى اليقظة رأيتها أم فى المنام ؟ قال : بل فى اليقظة ، وقد حملت معى من حصبائها، وأخرج له شيئاً مما حمله من الجواهر واليواقيت ، فتعجب معاوية من ذلك ، ثم أرسل إلى كعب الأحبار ﷺ فلما دخل عليه قال له معاوية: يا أبا إسحاق، هل بلغك أن فى الدنيا مدينة من ذهب ، قال : نعم ياأمير المؤمنين ، وقد ذكرها الله - عز وجل - فى القرآن لنبيه ﷺ بقوله - عز من قائل - : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ [الفجر:٦-٨] وقد أخفاها الله تعالى عن أعين الناس ، وسيدخلها رجل من هذه الأمة يقال له عبد الله بن قلابة الأنصارى ، ثم التفت فرأى عبد الله ابن قلابة فقال : هاهو ياأمير المؤمنين ، وصفته واسمه فى التوراة ، ولا يدخلها أحد بعده إلى يوم القيامة . وقيل : إن ذلك كان فى خلافة عمر بن الخطاب ﷺ وإن الرجل الذى دخلها حكى ذلك لعمر بن الخطاب فلم ينكره ، ولا من كان حاضرًا بل قال : إن النبى ﷺ قال : « **يدخلها بعض أمتى** »[1] . والله - سبحانه وتعالى - أعلم .

---

(١) قال : إن النبى ﷺ قال : « يدخلها بعض أمتى » ذكر ابن كثير فى تفسيره أن الثعلبى وغيره حكوا قصة عبد الله بن قلابة فى زمان معاوية . . وأن الناس ذهبوا ليروا ما رآه فلم يروا شيئا ، ثم قال وهذا ممّا يقطع بعدم صحته .

ومن المبانى العجيبة الخورنق : الذى بناه النعمان بن امرئ القيس ، وهوالنعمان الأكبر ، بناه فى عشرين سنة فلما انتهى أعجبه ، فخشى أن يبنى لغيره مثله فأمر أن يلقى بانيه من أعلاه فألقوه ، فتقطع ، واسم بانيه سِنِمّار فصارت العرب تضرب به المثل يقولون : جزاه جزاء سنمار قال الشاعر :

جـزى بـنـوه أبـا الـغـيـلان عـن كِـبَـر وحُـسـن فـعـل كـمـا يُـجـزى سـنـمـارُ

ومن المبانى العجيبة الأهرام : وهى بالجانب الغربى من مصر مُشَاهَدَةٌ فى زماننا هذا ، قيل : إن دور الهرم الأكبر من الثلاثة ألفا ذراع ، من كل جهة خمسمائة ذراع ، وعلوه خمسمائة ذراع ، وقد ذهب المأمون إلى مصر حتى شاهدها على ما ذكر ، وفتح منها هرماً ، وتعجب من بنيانها وصفتها ، قيل إن كل حجر من حجارتها ثلاثون ذراعاً فى عرض عشرة أذرع ، وقد أحكم إلصاقه ونحته وتسويته ، ولا يقدر النجار الصانع أن يتخذ من خشب صندوقاً صغيراً على إحكامه ، وهى من عجائب الدنيا ، قال بعضهم :

أيـن الـذى الـهـرمـان مـن بـنـيـانـه مـا قـومـه ؟ مـا يـومـه ؟ مـا الـمـصـرع ؟!
تـتـخـلـف الآثـار عـن سـكـانـهـا حـيـنـا ويـدركـهـا الـفـنـاء فـتُـضـرَع

وزعم قوم أن الأهرام الموجودة بمصر قبور لملوك عظام ، أرادوا أن يتميزوا بها عن الناس بعد مماتهم ، كما تميزوا عنهم فى حياتهم ، ورجوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور ، وتراخى العصور . ولما وصل المأمون إلى مصر أمر بنقبها فنقب أحدها بعد جهد شديد ، وعناء طويل فوجد داخله مزاليق ، ومهاوى يهول أمرها ، ويعسر السلوك فيها ، ووجد فى أعلاه بيت ، وفى وسطه حوض من رخام مطبق ، فلما كشف غطاؤه لم يوجد فيه إلا رمة بالية ، فعند ذلك أمر المأمون بالكف عما سواه ! ويقال : إن الذى بناها اسمه سوريد بن سهراق بن سرياق لرؤيا رآها ، وهى آفة تنزل من السماء ، وهى الطوفان ، فقالوا : إنه بناها فى ستة أشهر ، وقال : قل لمن يأتى بعدنا يهدمها فى ستمائة سنة ، والهدم أيسر من البنيان ، وكسوناها الديباج الملون فليكسها حصراً ، والحصر أهون من الديباج ، والأمر فيها عجيب جداً ، والله - سبحانه وتعالى - أعلم .

ومن المبانى العجيبة منارة الإسكندرية : التى بناها ذو القرنين ، قيل : إنها كانت مبنية بحجارة مهندمة ، مغموسة فى الرصاص ، فيها نحو من ثلاثمائة بيت ، تصعد الدابة بحملها إلى كلّ بيت ، وللبيوت طاقات ، تطل على البحر ، ويقال : إن طولها كان ألف ذراع ، وفى أعلاها تماثيل من نحاس ، منها تمثال رجل قد أشار بيده إلى البحر ، فإذا صار العدوّ على نحو ليلة منه سمع له تصويت يعلم به أهل المدينة مجىء العدوّ فيستعدون له ، ومنها تمثال كلما مضى من الليل ساعة صوت صوتاً مطربا ، ويقال : إنه كان بأعلاها مرآة من الحديد الصينى ، عرضها سبعة أذرع ، كانوا يرون فيها المراكب بجزيرة قبرص ، وقيل : كانوا يرون فيها من يخرج من البحر من جميع بلاد الروم ، فإن كانوا أعداء تركوهم ، حتى يقربوا من المدينة ، فإذا مالت الشمس للغروب أداروا المرآة مقابلة الشمس ، واستقبلوا بها السفن ، فيقع شعاعها بضوء الشمس على السفن ، فتحرق فى البحر ، ويهلك كل من فيها ، وكانت الروم تؤدى الخراج ليأمنوا بذلك من إحراق السفن ، ولم تزل كذلك إلى زمن الوليد بن عبد الملك . قال المسعودى قيل : إن ملكاً من الروم تحيل على الوليد ، وأظهر أنه يريد الإسلام ، وأرسل إليه تحفاً وهدايا ، وأظهر له بواسطة حكماء كانوا عنده ، أن ببلاده دفائن ، وأرسل له بذلك قسيسين من خواصه ، وأرسل معهم أموالاً قيل : إنهم حفروا بقرب المنارة ، ودفنوا تلك الأموال ، وقالوا للوليد : إن تحت المنارة كنوزاً لا تنفد وبإزائها خبية بها كذا وكذا ألف دينار ، فأمرهم باستخراج ما بالقرب من المنارة ، فإن كان ذلك حقا استخرجوا ما تحت المنارة بعد هدمها ، فحفروا واستخرجوا ما دفنوه بأيديهم ، فعند ذلك أمر الوليد بهدم المنارة ، واستخراج ما تحتها فهدموها ، فلم يجدوا تحتها شيئاً وهرب أولئك القسيسون ، فعلم الوليد أنها مكيدة عليه ، فندم على ذلك غاية الندم ، ثم أمر ببنائها بالآجر ، ولم يقدروا أن يرفعوا إليها تلك الحجارة ، فلما أتموها نصبوا عليها المرآة كما كانت فصدئت ، ولم يروا فيها شيئاً مثل ما

كانوا يرون أوّلاً وبطل إحراقها فندموا على ما فعلوا ، وفاتهم من جهلهم وطمعهم نفع عظيم ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلى العظيم . وقد عملت الجن لسليمان بن داود عليه السلام فى الإسكندرية مجلساً على أعمدة من الجزع اليمانى المصقول كالمرآة إذا نظر الإنسان إليها يرى من يمشى خلفه لصفائها ، وفى وسط ذلك المجلس عمود من الرخام طوله مائة وإحدى عشرة ذراعا ، وفى تلك الأعمدة عمود واحد يتحرك شرقاً وغرباً بطلوع الشمس وغروبها يشاهد الناس ذلك ولا يعلمون ما سببه . وفى مدينة حمص مدينة أخرى تحت المدينة المسكونة العليا فيها من عجائب البنيان والبيوت والغرف والماء الجارى ، فى كل طريق من طرقها ما لا يعلمه إلا الله تعالى . وعند حوران مدينة عظيمة يقال لها اللجأة فيها من البنيان ما يعجز عن وصفه ألسنة العقلاء كل دار منها مبنية من الصخر المنحوت ، ليس فى الدار خشبة واحدة ، بل أبوابها وغرفها وسقوفها وبيوتها من الصخر المنحوت ، الذى لا يستطيع أحد أن يعمله من الخشب ، وفى كل دار بئر وطاحون ، وكل دار مفردة لا يلاصقها دار أخرى ، وكل دار كالقلعة الحصينة إذا خاف أهل تلك النواحى من العدوّ دخلوا إلى تلك المدينة ، فينزل كل إنسان فى دار بجميع عياله وخيله وغنمه وبقره ويغلق بابه ويجعل خلف الباب حصاة فلا يقدر أحد على فتح ذلك الباب لإحكامه ، وفى هذه المدينة أكثر من مائتى ألف دار فيما يقال ، ولا يعلم أحد من بناها وسمتها العرب اللجأة لأنهم يلجئون إليها عند الخوف .

ومن المبانى العجيبة إيوان كسرى أنوشروان : بناه سابور ذو الأكتاف فى نيف وعشرين سنة ، وطوله مائة ذراع فى عرض خمسين ، بناه بالآجر والجص ، وجعل طول كل شرفة[1] من شراريفه خمس عشرة ذراعاً ، ولما ملك المسلمون المدائن أحرقوا هذا الإيوان ، فأخرجوا منه ألف ألف دينار ذهباً . وحكى أن المنصور لما أراد بناء بغداد عزم على هدمه وأن يجعل آلته فى بنائه ، فقيل له : إن نقضه يتكلف بقدر العمارة فلم يسمع ، وهدم شرافة وحسب ما أنفق عليها فوجد الأمر كذلك . وقيل : إن بعض رؤساء مملكته قال له لما أراد هدمه : هو آية الإسلام فلا تهدمه ! . والله سبحانه وتعالى أعلم وقد اقتصرت من ذلك على هذا القدر اليسير وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) الشُّرفة : أعلى الشيء، ومن البِناء: ما يوضَع في أعلاه يُحلَّى به.

الباب السابع والستون

فى ذكر المعادن والأحجار وخواصها

المعادن لا تكاد تحصى ، لكن منها ما يعرفه الناس ، ومنها ما لا يعرفونه ، وهى مقسومة إلى ما يذوب وإلى ما لا يذوب ، والذى اشتهر بين الناس من المعادن سبعة وهى: الذهب ، والفضة ، والنحاس ، والحديد ، والأسرب ، والخارصينى .

ولنبدأ أوّلا بذكر الذهب : فقيل : طبعه حار لطيف ، ولشدّة اختلاط أجزائه المائية بالترابية قيل : إن النار لا تقدر على تفريق أجزائه فلا يحترق ولا يبلى ، ولا يصدأ ، وهو لين براق ، حلو الطعم أصفر اللون ، فالصفرة من ناريته ، والليونة من دهنيته ، والبراقة من صفاء مائه .

خواصه : يقوّى القلب ، ويدفع الصرع تعليقاً ، ويمنع الفزع والخفقان ، ويقوّى العين كحلا ، ويجلوها إذا كان ميلا ، ويحسن نظرها وإذا ثقبت به الأذن ، لم تلتحم ، وإذا كوى به لم ينفط ، ويبرأ سريعاً ، وإمساكه فى الفم يزيل البخر .

الفضة : قريبة منه وتصدأ وتحترق ، وتبلى بالتراب، وإذا أصابتها رائحة الرصاص والزئبق تكسرت ، أو رائحة الكبريت اسودّت .

ومن خواصها : أنها تزيل البخر من الفم إذا وضعت فيه ، وإذا أذيبت مع الزئبق وطلى بها البدن نفع ذلك من الحكة ، والجرب وعسر البول .

النحاس : قريب منها لكنه أيبس وأغلظ فى الطبع ، ومن خواصه إذا صدىء وطلى بالحامض زال صدؤه ، والأكل فى آنيته يولد أمراضاً لا دواء لها .

الحديد : كثير الفائدة إذ ما من صنعة إلا وله فيها مدخل .

ومن خواصه : أنه يمنع غطيط النائم إذا علق عليه ، وحمله يقوّى القلب ، ويزيل الخوف ، والأفكار والأحلام الرديئة ، ويسر النفس وصدؤه ينفع أمراض العين كحلا ، والبواسير تحملا .

القصدير : صنف من الفضة دخل عليه آفات من الأرض ومن خواصه ، أنه إذا ألقى فى قدر لم ينضج ما فيها .

الأسرب : هو الرصاص ، ومن خواصه أنه يكسر الماس .

ومن خواص الماس : الدخول فى كل شىء وإذا شدّ من الرصاص قطعة على الخنازير ، والغدد أبرأتها .

الخارصينى : حجر لونه أسود يعطى حمرة .

ومن خواصه : إذا عمل منه مرآة ونظر فيها فى الظلمة نفعت للقوة وإذا نتف الشعر بملقاط منه لم ينبت .

الأحجار الجوهرية : أصل الجوهر - وهوالدر على ما قيل - أن حيواناً يصعد من البحر على ساحله وقت المطر ، ويفتح أذنه يلتقط بها المطر ، ويضمها ويرجع إلى البحر فينزل إلى قراره ، ولا يزال طابقاً أذنه على ما فيها خوفاً أن يختلط بأجزاء البحر ، حتى ينضج ما فيها ، ويصير درّا ، فإن كانت القطرة صغيرة ، كانت الدرة صغيرة ، وإن كانت كبيرة فكبيرة ، فإن كان فى بطن هذا الحيوان شىء من الماء المرّ ، كانت الدّرة كدرة ، وإن لم يكن كانت صافية . وقيل غير ذلك . والدرّ نوعان : كبير وصغير ، قيل : إنه تصل الواحدة إلى مثقال .

خواصه : أنه يفرّح القلب ، ويبسط النفس ، ويحسن الوجه ، ويصفى دم القلب ، وإذا خلط مع الكحل شدّ عصب العين .

الياقوت : سيد الأحجار ، وأصول ألوانه أربعة : الأحمر ، والأصفر ، والأزرق والأسمانجونى ، ويتولد منها ألوان كثيرة ، وأعدَلها الأحمر الخالص الرمانى الشبيه بحب الرمان الأحمر ، ودونه الأحمر المشرب ببياض ، ثم الوردى ، ثم الخمرى ثم العصفرى ، وأردؤه الأزرق الذى لونه يشبه زهر السوسن ، وأقله قيمة الأبيض .

خواصه : أنه لا يعمل فيه الفولاذ ، ولا حجر الماس ، و لاتدنسه النار ويورث لابسه مهابة ، ووقارا ، ويسهل قضاء الحوائج ، ويدر الريق فى الفم ، ويقطع العطش ، ويدفع السم ، ويقوّى القلب ، وجميعه ينفع للمصروع تعليقاً ، والأبيض منه يبسط النفس ، ويوجد من الأصفر ما وزنه ثلاثون مثقالاً على ما قيل .

البلخش : هو مقارب للياقوت فى القيمة ودونه فى الشرف .

ومن خواصه : أنه يورث قبض النفس ، وسوء الخلق والحزن ، وهو ألوان أحمر وأخضر وأصفر .

البنفش : أصناف : أحمر مفتوح اللون صاف ، وأحمر قوى الحمرة ، وأسود يعلوه حمرة مطوّسة بزرقة خفيفة ، ثم أصفر مفتوح اللون .

عين الهر : حجر يتكوّن من معدن الياقوت ، والغالب عليه البياض الناصع بإشراق مفرط ، ومائيته رقيقة شفافة ، وفى مائيته سِرٌّ إذا حرك يميناً تحركت يساراً وبالعكس .

ومن خواصه : إذا علق على العين أمن عليها من الجدرى على ما قيل .

الماس : يوجد بواد بالهند يقال : إنه مشحون بالحيات ، فيأتى من يريد استخراجه من ذلك الوادى ، فيضع فى الوادى مرآة كبيرة ، فتأتى الحيات فتنظر إلى خيالها فى المرآة فتفر من ذلك الجانب ، فينزل فيأخذ ماله فيه رزق . وقيل : إنهم ينحرون الجزر ويلقون لحمها فى ذلك الوادى فيلتصق الماس وغيره باللحم ، فتأتى الطير فتختطف اللحم وتصعد به إلى الجبال فتأكل اللحم ، وتترك الحجر، فيأخذه صاحب اللحم . وقيل : إن الحيات لها مشتى ستة أشهر فى مكان ، ومصيف ستة أشهر فى مكان آخر ، فإذا ذهبت إلى مشتاها ومصيفها أخذ الحجر فى غيبتها ، والله أعلم بصحة ذلك . ومن عجيب أمره أنه إذا أريد كسره جعل فى أنبوبة قصب ، وضرب فإنه يتفتت ، وكذا إذا جعل فى شمع أو قار وإذا جعل عليه دم تيس ، وقرّب من النار ذاب .

ومن خواصه : أن الملوك يتخذونه عندهم لشرفه ، وهو من السموم القاتلة القطعة الصغيرة منه إذا حصلت فى الجوف ، ولو بقدر السمسمة خرقت الأمعاء، ومن خواصه الجليلة أنه يعرق عند وجود السم أو الطعام المسموم .

الزمرد : ويسمى الزبرجد ، وهو ألوان : أخضر ، وزنجارى وصابونى ، ويكون الحجر منه خمسة مثاقيل ، وأقل .

ومن خواصه : أنه يدفع العين ، ويفرّح القلب ، ويقوى البصر ، ويصفى الذهن ، وينشط النفس .

الفيروزج : نوعان : إسحاقى وخلنجى ، وأجوده الإسحاقى الأزرق الصافى .

خواصه : النظر فيه يجلو البصر ويقوّيه ، وينشط النفس، وإذا مضى له بعد خروجه من معدنه عشرون سنة نقص لونه ، ولا يزال كذلك حتى ينطفىء .

العقيق : معدن بأرض صنعاء باليمن وهو ألوان ، ويوجد عليه غشاوة ، ويحمى عليه ببعر الإبل ، ثم يبرد ، ويكسر وقيل : يوجد بالهند ولكن اليمنى أجود ، خواصه التختم به وحمله يورث الحلم والإناة ، وتصويب الرأى ، ويسر النفس ويكسب حامله وقاراً وحسن خلق ، ويسكن الحدة عند الخصومة قال رسول الله ﷺ: « **من تختم بالعقيق لم يزل فى بركة** »[1] .

الجَزْعُ : هو حجر أيضاً يؤتى به من اليمن والصين وألوانه كثيرة ، ويثقل اللسان إذا سحق وشرب ماؤه .

---

(١) ذكر ابن القيم من الأحاديث الباطلة أحاديث التختم بالعقيق .

البلور : هو صنف من الزجاج ، يحكى أن ببلاد كيسان جبلين : أحدهما بلور ، وإذا أريد قطع البلور فى ذلك الموضع قطع فى الليل ، لأنه فى النهار يكون له شعاع عظيم .

خواصه : النظر فيه يشرح القلب ، ويبسط النفس ، ويسكن وجع الضرس .

المرجان : هو واسطة بين النبات والمعدن ، لأنه بتشجره يشبه النبات ، وبتحجره يشبه المعدن ، ولا يزال ليناً فى معدنه ، فإنه فارقه تحجر ويبس .

خواصه : النظر فيه يشرح الصدر ، ويبسط النفس ، ويفرح القلب ، ويذهب بالداء المحتبس فى العين ، ويسكن الرمد ، وسحاقته المخلوطة بالخل تجلو قلح الأسنان ، وإذا وضع على الجرح منعه من الانتفاخ ، وأنواعه كثيرة ، أحمر وأزرق وأبيض ، وأصله من البحر قيل : إنه شجر ينبت ، وقيل : إنه من حيوانه .

حجر الماطليس : هو حجر هندى لا يعمل فيه الحديد ، والبيت الذى يكون فيه لا يدخله السحر ، ولا الجن ولأجل ذلك كان الإسكندر يجعله فى عسكره .

الحجر الماهانى : من تختم به أمن من الروع والهم والحزن والغم ، ولونه أبيض وأصفر ويوجد بأرض خراسان .

الدهنج : خاصيته : أنه إذا سقى إنسان من محكة يفعل فعل السم ، وإذا سقى شارب السم منه نفعه وإذا مسح به موضع اللدغ سكن ، وينفع من خفقان القلب ، وإذا طلى بحكاكته بياض البرص أزاله ، وإن علق على إنسان غلب عليه الباه .

السَّبَج : خواصه : أنه يقوى النظر الضعيف من الكبر ، أو نزول الماء ، ولبسه ينفع عسر البول ، وإدمان النظر فيه يحد البصر ، وسحاقته تجلو البصر ، وإذا علق على من به صداع زال عنه .

المغناطيس : يوجد فى بحر الهند ، وهناك لا يتخذ فى السفن حديد ، ويوجد ببلاد الأندلس أيضاً ، وأجود أنواعه ما كان أسود يضرب إلى حمرة .

خواصه : الاكتحال بسحاقته يورث ألفة بين المكتحل وبين من يحبه ، ويسهل الولادة تعليقاً ، وإذا سحق وشرب من سحاقته من به سم بطل سمه ، وإذا أصابته رائحة الثوم بطلت خاصيته . وإذا غسل بالخل عاد إلى حالته ، وأجوده ما جذب نصف مثقال من الحديد .

حجر الخطاف : الخطاف يوجد فى عشه حجران : أحدهما أحمر ، والآخر أبيض ، فالأحمر إذا علق على من يفزع فى نومه زال فزعه ، والأبيض إذا علق على من به صرع زال عنه .

حجر الزاج : إذا دخن البيت بسحاقته هرب منه الفأر والذباب .

حجر الزنجفر : أصله من الزئبق واستحال .

وخاصيته : أنه يدمل الجراحات ، وينبت اللحم .

حجر الملح : هو أنواع وأجوده ما يوجد بأرض سدوم بالقرب من بحر لوط ، وقد جعله الله قواماً للدنيا ، ومن خاصيته أن يحسن الذهب ، ويزيد فى صفرته ، وعن النبى ﷺ أنه قال : « **ياعلى، ابدأ بالملح ،واختم به فإن فيه شفاء من سبعين داء** »[1] .

حجر النطرون : قال أرسطو ينفع للأرحام التى غلبت عليها الرطوبة ، ينشفها ويقوّيها وإذا ألقى فى العجين طيبه وبيضه ونشفه ، وهو نوعان : أبيض وأحمر .

حجر اللازورد : مشهور قال أرسطو من تختم به عظم فى أعين الناس ، وينفع من السهر والله أعلم . ومن أراد التعمق فى ذلك فعليه بالكتب الموضوعة له ، ولكن قد ذكرنا ما هو معروف ، والحمد لله على كل حال ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) يا على : ابدأ بالملح .. إلخ تقدم تخريجه .

الباب الثامن والستون

فى الأصوات والألحان وذكر الغناء واختلاف الناس فيه ، ومن كرهه ومن استحسنه

وما ذكرت ذلك إلا لأنى كرهت أن يكون كتابى هذا بعد اشتماله على فنون الأدب والتحف والنوادر والأمثال عاطلاً من هذه الصناعة التى هى مراد السمع ، ومرتع النفس وربيع القلب ، ومجال الهوى ، ومسلاة الكئيب ، وأنس الوحيد ، وزاد الراكب ، لعظم موقع الصوت الحسن من القلب وأخذه بمجامع النفس .

[فصل فى الصوت الحسن]

قال بعض أهل التفسير : فى قوله تعالى : ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ [فاطر:١] هو الصوت الحسن وعن النبى ﷺ أنه قال : « **أتدرون متى كان الحُداء ؟** » قالوا : لا بأبينا أنت وأمنا يا رسول الله . قال : « **إن أباكم مضر خرج فى طلب مال له ، فوجد غلاماً له قد تفرقت إبله ، فضربه على يده بالعصا ، فعدا الغلام فى الوادى ، وهو يصيح : وا يداه ! فسمعت الإبل صوته ، فعطفت عليه ! فقال مضر : لو اشتق من الكلام مثل هذا لكان كلاماً تجتمع عليه ، فاشتق الحداء** » [(١)] . وقال النبى ﷺ لأبى موسى الأشعرى ﷺ لما أعجبه حسن صوته : « **لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ** » [(٢)] . وقيل : إن داود عليه السلام كان يخرج إلى صحراء بيت المقدس يوماً فى الأسبوع ، وتجتمع عليه الخلق ، فيقرأ الزبور بتلك القراءة الرخيمة ، وكان له جاريتان موصوفتان بالقوّة والشدة فكانتا تضبطان جسده ضبطاً شديدا خيفة أن تتخلع أوصاله ، مما كان ينتحب ، وكانت الوحوش والطير تجتمع لاستماع قراءته . قال مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - بلغنا أن الله تعالى يقيم داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش ؛ فيقول : « **يا داود ، مجدنى اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم** » . وقال سلام الحادى للمنصور : - وكان يضرب المثل بحدائه - مر ياأمير المؤمنين بأن يظمئوا إبلاً ثم يوردوها الماء ، فإنى آخذ فى الحداء ، فترفع رءوسها وتترك الشرب ، وزعم أهل الطب أن الصوت الحسن يجرى فى الجسم مجرى الدم فى العروق ، فيصفو له الدم ، وتنمو له النفس ، ويرتاح له القلب ، وتهتز له الجوارح ، وتخف له الحركات ! ؛ ولهذا كرهوا للطفل أن ينام على إثر البكاء حتى يرقص ويطرب ، وزعمت الفلاسفة أن النغم فضل بقى من النطق ، لم يقدر اللسان على استخراجه فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع لا على التقطيع ، فلما ظهر عشقته النفس ، وحنت إليه الروح ، ألا ترى إلى أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ترنموا بالألحان ، واستراحت إليها أنفسهم ، وليس من أحد كائناً من كان إلا وهو يطرب من صوت نفسه ، ويعجبه طنين رأسه ، ولو لم يكن من فضل الصوت الحسن إلا أنه ليس فى الأرض لذة تكتسب من مأكل ولا مشرب ولا ملبس ولا نكاح ولا صيد إلا وفيها معاياة على البدن ، وتعب على الجوارح ، ما خلا السماع فإنه لا معاياة فيه على البدن ، ولا تعب على الجوارح ، وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خيرى الدنيا والآخرة ، فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف ، وصلة الأرحام ، والذّبّ عن الأعراض ، والتجاوز عن الذنوب ، وقد يبكى الرجل بها على خطيئته ، ويتذكر نعيم الملكوت ، ويمثله فى ضميره ، وكان أبو يوسف القاضى يحضر مجلس الرشيد وفيه الغناء ، فيجعل مكان السرور به بكاء ، كأنه يتذكر نعيم الآخرة ، وقد تحن القلوب إلى حسن الصوت حتى الطير والبهائم ، وكان صاحب الفلاحات يقول : إن النحل أطرب الحيوان كله على الغناء ، قال الشاعر :

والطير قد يسوقه للموت ... إصغاؤه إلى حنين الصوت

---

(١) أتدرون متى كان الحداء ؟ لم أقف عليه .

(٢) وقال الرسول ﷺ لأبى موسى : لقد أوتيت . . . إلخ متفق عليه من حديث أبى موسى - كما قال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء.

وزعموا أن فى البحر دواب ، ربما زمرت أصواتاً مطربة ولحوناً مستلذة ، يأخذ السامعين الغشى من حلاوتها فاعتنى بها وضعة الألحان بأن شبهوا بها أغانيهم ، فلم يبلغوا ، وربما يغشى على سامع الصوت الحسن للطافة وصوله إلى الدماغ ، ومما زجته للقلب ألا ترى إلى الأم كيف تناغى ولدها ؟! فيقبل بسمعه على مناغاتها ، ويتلهى عن البكاء ! والإبل تزداد فى نشاطها وقوّتها بالحداء ، فترفع آذانها ، وتلتفت يمنة ويسرة ، وتتبختر فى مشيتها ، وزعموا أن السماكين بنواحى العراق يبنون فى جوف الماء حفائر ، ثم يضربون عندها بأصوات شجية فيجتمع السمك فى الحفائر ، فيصيدونه ، وقد نبهت على ذلك فى باب ذكر البحار ، وما فيها من العجائب ، والراعى إذا رفع صوته ونفخ فى يراعته ، تلقته الغنم بآذانها ، وجدت فى رعيها ، والدابة تعاف الماء فإذا سمعت الصفير بالغت فى الشرب ، وليس شىء مما يستلذ به أخف مؤنة من السماع ، قال أفلاطون من حزن فليسمع الأصوات الحسنة فإن النفس إذا حزنت خمدت نارها فإذا سمعت ما يطربها ويسرها اشتعل منها ما خمد ، وما زالت ملوك فارس تلهى المحزون بالسماع ، وتعلل به المريض ، وتشغله عن التفكر ، ومنهم أخذت العرب ، حتى قال ابن غيلة الشيبانى :

وسماع مسمعة يُعلّلُنا ... حتى ننامَ تناومَ العجم

وحكى أن البعلبكىّ مؤذّن المنصور رجّع فى آذانه ليلة ، وجارية تَصب الماء على يد المنصور ، فارتعدت حتى وقع الإبريق من يدها ، فقال له المنصور : خذ هذه الجارية فهى لك ، ولا تعد ترجع هذ الترجيع ! وقال عبد الرحمٰن بن عبد الله بن أبى عمارة فى قينة :

ألم ترَهَا لا أبعدَ الله دارَها ... إذا رجّعت فى صوتها كيف تصنع ؟!
تدير نظام القول ثم ترده ... إلى صلصل من صوتها يترجّع

وبعد : فهل خلق الله شيئاً أوقعَ بالقلوب : وأشدّ اختلاساً للعقول من الصوت الحسن ؟! لا سيما إذا كان من وجه حسن كما قال الشاعر :

رب سماع حَسَنٍ ... سمعته من حَسَن
مقرب من فرح ... مُبَعّد من حزن
لا فارقانى أبدا ... فى صحةٍ من بدن

وهل على الأرض من جبان مستطار الفؤاد يغنى بقول جرير :

قل للجبان إذا تأخر سَرْجُه ... هل أنت من شرك المنية ناجى ؟!

إلا شاش ، وشجعت نفسه ، وقوى قلبه ؟! أم هل على الأرض من بخيل قد انقبضت أطرافه يوما يغنى بقول حاتم الطائى :

يرى البخيل سبيل المالِ واحدة ... إن الجواد يرى فى ماله سُبُلاً

إلا انبسطت أنامله ، ورشحت أطرافه ؟! .

واختلف الناس فى الغناء ، فأجازه عامة أهل الحجاز ، وكرهه عامة أهل العراق ، فمن حجة من أجازه ما روى : أن النبى ﷺ قال لحسان : « **شن الغطاريف على بنى عبد مناف ، فوالله لشعرك عليهم أشد من وَقْع السهام فى غلس الظلام** »[1] . واحتجوا فى إباحة الغناء واستحسانه بقول النبى ﷺ لعائشة رضى الله عنها : « **أهديتم الفتاة إلى بعلها ؟** » . قالت : نعم . قال : « **فبعثتم معها من يغنى ؟** » قالت : لم نفعل . قال : « **أَوَ مَا عَلِمْتِ أَنَّ الأَنْصَارَ قَوْمٌ يُعْجِبُهُمُ الْقَوْلُ ؟ أَلَا بَعَثْتُمْ مَعَهَا مَنْ يَقُولُ** »[2] :

---

(١) « شن الغطاريف » . . إلخ لم أهتد إليه ، وأخرج مسلم [٢٤٩٠] أن النبى ﷺ قال لحسان : « اهج قريشا ، فإنه أشد عليهم من رشق النبل » .

(٢) حديث عائشة رضى الله عنها رواه البخارى وأحمد وغيرهما « يا عائشة ما كان معكم لهو ؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو » وفى بعض الروايات : « فهل بعثتم معها جارية تضرب بالدف وتغنى ؟ قالت عائشة » . ماذا تقول ؟ قال : أتيناكم » . . إلخ [فقه السنة - السيد سابق] .

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الحبة السمرا ء لم نحلل بواديكم

ولا بأس بالغناء إذا لم يكن فيه أمر محرّم ، ولا يكره السماع عند العرس ، والوليمة ، والعقيقة ، وغيرها ، فإن فيه تحريكاً لزيادة سرور مباح ، أو مندوب ، ويدل عليه ما روى[١] من إنشاد النساء بالدف والألحان عند قدوم النبى ﷺ حيث قلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

ويدل عليه ما روى عائشة رضى الله عنها أنها قالت : رأيت النبى ﷺ يسترنى بردائه ، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد الحرام ، حتى أكون أنا التى أسأمه[٢] . ويدل عليه أيضاً ما روى فى الصحيحين من حديث عقيل ، عن الزهرى ، عن عروة عن عائشة رضى الله عنها أن أبا بكر دخل عليها ، وعندها جاريتان فى أيام منى ، يدففان ويضربان ، والنبى ﷺ متغش بثوبه ، فانتهرهما أبو بكر فكشف النبى ﷺ عن وجهه ، وقال : « دَعْهُمَا يَاأَبَا بَكْرٍ ، فَإِنَّهَا أَيَّامُ عِيدٍ » . وعن قرة بن خالد ابن عبد الله بن يحيى قال : قال عمر بن الخطاب ﷺ للنابغة الجعدى : أسمعنى بعض ما عفا الله لك عنه من هَنَاتِك ، فأسمعه كلمة ، فقال له : وإنك لقائلها ؟ قال : نعم . قال : طالما غنيت بها خلف جمال الخطاب . وعن عبد الله بن عوف قال : أتيت باب عمر بن الخطاب ﷺ فسمعته يغنى بالركابية يقول :

فكيف ثوائى[٣] بالمدينة بعد ما قضى وطراً منها جميلُ بن معمر ؟!

وكان جميل بن معمر من أخصاء عمر ، قال : فلما استأذنت عليه ، قال لى : أسمعت ما قلت ؟ قلت : نعم : إنا إذا خلونا قلنا ما يقول الناس فى بيوتهم . وقد أجازوا تحسين الصوت فى القراءة والأذان ، فإن كانت الألحان مكروهة ، فالقراءة والأذان أحق بالتنزيه عنها ، وإن كانت غير مكروهة ، فالشعر أحوج إليها لإقامة الوزن ، وما جعلت العرب الشعر موزونا إلا لمد الصوت ، والدندنة ، ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبر المنثور .

ومن حجة من كره الغناء أنه قال : إنه ينفر القلوب ، ويستفز العقول ، ويبعث على اللهو ، ويحض على الطرب ، وهذا باطل فى أصله . وتأوّلوا فى ذلك قوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ [لقمان:٦] . وأخطأ من أوّل هذا التأويل ، إنما نزلت هذه الآية فى قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السير والأحاديث القديمة ، ويضاهون بها القرآن ويقولون : إنها أفضل منه ، وليس من سمع الغناء يتخذ آيات الله هزوًا ، وقال رجل للحسن البصرى : ما تقول فى الغناء ياأبا سعيد ؛ فقال : نعم العون على طاعة الله تعالى ، يصل الرجل به رحمه ، ويواسى به صديقه . قال : ليس عن هذا أسألك ، قال : وعم سألتنى ؟ قال أن يغنى الرجل . قال : وكيف يغنى ؟ فجعل الرجل يلوى شدقيه ، ويفتح منخريه ، فقال الحسن والله يابن أخى ما ظننت أن عاقلاً يفعل بنفسه هذا أبداً فلم ينكر الحسن عليه إلا تشويه وجهه ، وتعويج فمه ! وسمع ابن المبارك سكران ، يغنى هذا البيت :

أذلّنى الهوى فأنا الذليلُ وليس إلى الذى أهوى سبيل !

قال : فأخرج دواة وقرطاساً وكتب البيت ، فقيل له : أتكتب بيت شعرٍ سمعته من رجل سكران ؟! فقال : أما سمعتم المثل : رب جوهرة فى مزبلة ! . وكان لأبى حنيفة جار من الكيالين مغرم بالشراب ، وكان يغني بقول العرجى :

---

(١) ما روى من إنشاد النساء بالدف والألحان . . إلخ حديث إنشاد النساء وعند قدوم رسول الله ﷺ : طلع البدر . . إلخ ضعيف : أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة معضلا وليس فيه ذكر للدف والألحان كما قال العراقى فى تخريج أحاديث الأحياء .

(٢) حديث عائشة رضى الله عنها : « رأيت النبى ﷺ يسترنى بردائه » . . إلخ قال العراقى : رواه مسلم .

(٣) ثوائي : ثوى بالمكان، أي أقام واستقرّ فيه. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص:٤٥].

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهةٍ وسداد ثغر

قال فأخذه العسس ليلة وحبسه ، ففقد أبو حنيفة صوته ، واستوحش له ، فقال لأهله : ما فعل جارنا الكيال ؟ قالوا : أخذه العسس ، وهو فى الحبس ، فلما أصبح أبو حنيفة ، توجه إلى عيسى بن موسى ، فاستأذن عليه ، فأسرع إذنه - وكان أبو حنيفة قليلاً ما يأتى أبواب الملوك - فأقبل عليه عيسى بن موسى ، وسأله عما جاء بسببه ، فقال : أصلح الله الأمير إن لى جاراً من الكيالين ، أخذه عسس الأمير ليلة كذا ، فوقع فى حبسه ، فأمر عيسى بن موسى بإطلاق كل من فى الحبس إكراماً لأبى حنيفة ، فأقبل الكيال على أبى حنيفة يتشكر له ، فلما رآه أبو حنيفة قال له : هل أضعناك يا فتى ؟! يعرض له بشعره الذى ينشده ! قال : لا والله ،ولكنك بررت وحفظت . وكان عروة بن أذينة ثقة فى الحديث روى عنه مالك ابن أنس ، وكان شاعراً مجيداً لبقاً غزلاً ، وكان يصوغ ألحان الغناء ، على شعره وينحلها للمغنين ؛ قيل : إنه وقفت عليه امرأة يوما ، وحولها التلامذة ، فقالت له : أنت الذى يقال فيك الرجل الصالح ؟! وأنت تقول :

إذا وجدتُ أوار الحب فى كبدى عمدتُ نحو سقاء القوم أبترد
هبنى بردت ببرد الماء ظاهره فمن لنار على الأحشاء تتقد ؟!

وكان « عبد الملك » الملقب بالقَسّ عند أهل مكة بمنزلة « عطاء بن أبى رباح » فى العبادة ، قيل إنه مرّ يوماً بسَلاّمة وهى تغنى ، فأقام يسمع غناءها فرآه مولاها ، فقال له : هل لك أن تدخل وتسمع ، فأبى ، فلم يزل به حتى دخل ، فغنته فأعجبته ، ولم يزل يسمعها ويلاحظها النظر حتى شُغِف بها فلما شعرت بلحظه إياها غنته :

رُبّ رسولين لنا بلّغا رسالةً من قبل أنْ نبرحَا
الطرف للطرف بعثناهما فقضيا حاجا وما صَرّحَا

قال: فأغمى عليه ، وكاد يهلك ، فقالت له : إنى والله أحبك . قال : وأنا والله أحبك ، قالت : وأحب أن أضع فمى على فمك ، قال : وأنا والله كذلك قالت : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : أخشى أن تكون صداقة ما بينى وبينك عداوة يوم القيامة ! أما سمعت قوله تعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ . [الزخرف:٦٧] ثم نهض ، وعاد إلى طريقته التى كان عليها وأنشأ يقول :

قد كنت أعذلُ فى السفاهة أهلَها فاعجب لما تأتى به الأيام !
فاليوم أعذرُهم وأعلم أنما سبل الضلالة والهدى أقسام

وقدم عبد الله بن جعفر على معاوية بالشام ، فأنزله فى دار عياله ، وأظهر من إكرامه ما يستحقه ، فغاظ ذلك فاخته بنت قرظة زوج معاوية ، فسمعت ذات ليلة غناء عند عبد الله بن جعفر ، فجاءت إلى معاوية فقالت : هلم فاسمع ما فى منزل الذى جعلته من لحمك ودمك ، وأنزلته بين حرمك ، فجاء معاوية فسمع شيئاً حركه وأطربه ، فقال : والله إنى لأسمع شيئاً تكاد الجبال أن تخرّ له ، ثم انصرف ، فلما كان فى آخر الليل سمع معاوية قراءة عبد الله بن جعفر ، وهو قائم يُصَلّى فنبه فاختة ، وقال لها اسمعى مكان ما أسمعتنى ! هؤلاء قومى ملوك بالنهار ، ورهبان بالليل ، ثم إن معاوية أرِقَ ذاتَ ليلة فقال لخادمه : اذهب ، فانظر مَن عند عبد الله بن جعفر ، وأخبره أنى قادم عليه ، فذهب وأخبره ، فأقام عبد الله كل من كان عنده ، فلما جاء معاوية لم يَر فى المجلس غير عبد الله ، فقال : مجلس من هذا ؟ قال عبد الله : هذا مجلس فلان يا أمير المؤمنين ، فقال معاوية مره فليرجع إلى مجلسه حتى لم يبق إلا مجلس رجل واحد ، قال : مجلس من هذا ؟ قال مجلس رجل يداوى الآذان ياأمير المؤمنين ، قال : إن أذنى عليلة فمره أن يرجع إلى مجلسه ، وكان مجلس بديح المغنى ، فأمره عبد الله بن جعفر فرجع إلى موضعه ، فقال له معاوية دَاوِ أذنى من علتها ، فتناول العود وغنى ، وقال :

وَدّعْ سعادَ فإن الركبَ مُرتحلُ وهل تطيقُ وداعًا أيها الرجل ؟

قال : فحرك عبد الله بن جعفر رأسه ، فقال له معاوية ، لم حركت رأسك يابن جعفر ؟! قال : أريحية أجدها

ياأمير المؤمنين ، لو لقيت لأبليت ، ولو سئلت لأعطيت ، وكان معاوية قد خضب قال : فقال ابن جعفر ، لبديح هات غير هذا ، وكان عند معاوية جارية أعز جواريه عليه وكانت تتولى خضابه ، فغنى بديح وقال :

أليس عندك شكر للتى جعلت ... ما ابيضّ من قادماتِ الرأس كالحمم ؟!
وجددت منك ما قد كان أخلقه ... صرفُ الزمان ، وطول الدهر والقدم !

فطرب معاوية طرباً شديداً ، وجعل يحرك رجله ، فقال له ابن جعفر : ياأمير المؤمنين إنك سألتنى عن تحريك رأسى فأجبتك وأخبرتك ، وأنا أسألك عن تحريك رجلك ، فقال : كل كريم طروب ، ثم قام وقال : لا يبرح أحد منكم حتى يأتى له إذنى ، ثم ذهب فبعث إلى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب من خاصة كسوته ، وإلى كل رجل منهم بألف دينار وعشرة أثواب . وحدث ابن الكلبى ، والهيثم بن عدى قالا : بينما عبد الله بن جعفر فى بعض أزقة المدينة إذ سمع غناء ، فأصغى إليه ، فإذا صوت رقيق لقَيْنة تغنى ، وتقول :

قل للكرامِ ببابنا يَلِجوا ... ما فى التصابى[1] على الفتى حرجُ !

فنزل عبد الله عن دابته ، ودخل على القوم بلا إذن ، فلما رأوه قاموا إجلالا له ، ورفعوا مجلسه ، فأقبل عليه صاحب المجلس ، وقال : يابنَ عم رسول الله ﷺ أتدخل مجلسنا بلا إذن ، وليس هذا من شأنك ؟! فقال عبد الله : لم أدخل إلا بإذن ، قال : ومن أذن لك ؟ قال : قَيْنَتك هذه سمعتها تقول :

قل للكرام ببابنا يَلِجوا

فوَلجنا فإن كنا كراما فقد أذن لنا ، وإن كنا لئاماً خرجنا مذمومين ، فقبّل صاحب المنزل يده ، وقال : جعلت فداك ! والله ما أنت إلا من أكرم الناس ! فبعث عبد الله إلى جارية من جواريه ، فحضرت ، ودعا بثياب وطيب فكسا القوم ، وطيّبهم ووهب الجارية ، لصاحب المنزل ، وقال : هذه أحذق بالغناء من جاريتك ! .

أصل الغناء ومعدنه : قال أبو المنذر هشام : الغناء على ثلاثة أوجه : النصْب ، والسِّناد ، والهَزج فأما النصب : فغناء الفتيان والركبان[2] . وأما السِّناد فالثقيل الترجيع ، والكثير النغمات . وأما الهَزج : فالخفيف كله ، وهو الذى يستفز القلوب ، ويُهيجُ الحليم . وقيل : كان أصل الغناء ومعدنه ، فى أمهات القرى فاشياً ظاهراً ، وهى المدينة ، والطائف وخيْبر ، وفدك ، ووادى القرى ، ودومة الجندل ، واليمامة ، وهذه القرى مجامع أسواق العرب . ويقال : إن أوّل من صنع العود لامك بن قابن بن آدم وبكى به على ولده ، ويقال : إن صانعه بطليموس صاحب الموسيقى ؛ وهو كتاب اللحون الثمانية . والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة ذلك . وحسبنا الله ونعم الوكيل . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) التَّصابي : تكلُّف الصَّبَا .

(٢) وهو نوع من الغناء رقيق .

الباب التاسع والستون

فى ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم ونوادر الجلساء ، فى مجالس الرؤساء

قيل إن أوّل من غنى [illegible]ان للنعمان ، يقال : لهما الجرادتان ، ومن غنائهما :

ألا ياقينُ ويحكم فهَينِمِ ... لعل الله يسقينا غماماً[1]

وإنما غنتا هذا حين حبس الله عنهم المطر .

وقيل : أول من غنى فى الإسلام الغناء الرقيق طويس ، وهو الذى علم ابن سريج والدلال نوبة الضحى ، وكان يكنى أبا عبد النعيم ، ومن غنائه - وهو أول صوت غنى به فى الإسلام - هذا البيت :

قد بَراني الشوق حتى ... كدت من وَجْدى أذوب !

ثم نجم بعد طويس « ابن طنبور » وأصله ، من اليمن ، وكان أهزج[2] الناس ، وأخفهم غناء . وكان لهارون الرشيد جماعة من المغنين منهم « إبراهيم الموصلى » وابن جامع السهمى وغيرهما وكان له زامر يقال له : برصوما ، وكان إبراهيم أشدهم تصرفا فى الغناء . وابن جامع أحلاهم نغمة ، فقال الرشيد يوماً لبرصوماً : ما تقول فى ابن جامع ؟ قال : ياأمير المؤمنين ، وما أقول فى العسل الذى من حيثما ذقته فهو طيب ؟! قال : فإبراهيم الموصلى ؟ قال : بستان فيه جميع الأزهار والرياحين ، وكان ابن محرز يغنى كل إنسان بما يشتهيه ، كأنه خلق من قلب كل إنسان . وغنى رجل بحضرة الرشيد بهذه الأبيات :

وأذكرُ أيام الحمى ثم أنثنى ... على كبدى من خشيةِ أن تَصَدَّعَا
فليست عشياتُ الحمى برواجع ... عليه ولكن خَلِّ عينيك تَدمعَا
بكت عينى اليسرى فلما نهيتُها ... عن الجهل بعد الحلم أسْبَلتَا مَعَا

قال فاستخف الرشيد الطرب ، فأمر له بمائة ألف درهم .

وحدث ابن الكلبى عن أبيه قال : كان ابن عائشة من أحسن الناس غناء ، وأنبههم فيه ، وكان من أضيق الناس خُلقاً إذا قيل له : غَنِّ قال : لمثلى يقال غن ؟! علىَّ عتق رقبة إن غنيت يومى ! فلما كان فى بعض الأيام سال وادى العقيق ، فلم يبق فى المدينة مُخبّأة ، ولا مخدّرَة ، ولا شاب ، و لاكهل إلا خرج يبصره ، وكان فيمن خرج ابن عائشة المغنى : وهو معتجر[3] بفضل ردائه ، فنظر إليه الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ﷺ وكان الحسن فيمن خرج إلى العقيق ، وبين يديه عبدان أسودان ، كأنهما ساريتان ، يمشيان أمام دابته فقال لهم : أقسم بالله إن لم تفعلا ما آمركما به لأنكلن بكما ، فقالا : يامولانا قل : ما تأمرنا به ، فلو أمرتنا أن نقتحم النار فعلنا ، قال : اذهبا إلى ذلك الرجل المعتجر بفضل ردائه ، فأمسكاه فإن لم يفعل ما آمره به ، وإلا فاقذفا به فى العقيق ، قال : فمضينا والحسن يقفوهما فلم يشعر ابن عائشة إلا وهما آخذان بمنكبيه ، فقال : من هذا ؟ فقال له الحسن : أنا هذا يابن عائشة ، فقال : لبيك وسعديك ، بأبى أنت وأمى ، قال : اسمع منى ما أقول لك ، واعلم أنك مأسور فى أيديهما ، وقد أقسمت إن لم تغن مائة صوت ليطرحانك فى العقيق ، قال : فصاح ابن عائشة واويلاه ! واعِظَم مصيبتاه ! فقال له الحسن : دعنا من صياحك ، وخذ فيما ينفعنا ، قال : اقترح ، وأقم من يحصى ، ثم أقبل يغنى ، فترك الناس العقيق ، وأقبلوا عليه ،

---

(١) هينم : قال كلاما لا يفهم ، والهينمة الصوت الخفى .

(٢) أهزج الناس : ينظم فى بحر الهزج ، أو فى صوته ترنم خفيف مطرب .

(٣) معتجر : يلف فضل ردائه على رأسه ، ويرد طرفه على وجهه .

فلما تمت أصواته مائة ، كبر الناس بلسان واحد تكبيرة ارتجّت لها أقطار الأرض ، وقالوا للحسن : صلى الله على جدك حيا وميتاً ، فما اجتمع لأحد من أهل المدينة سرور قط إلا بكم أهل البيت ! فقال له الحسن : ما فعلت هذا بك يابن عائشة إلا لأخلاقك الشرسة ! فقال ابن عائشة : والله ما مرّت بى شدة أعظم من هذه لقد بلغت أطراف أعضائى ، فكان ابن عائشة بعد ذلك إذا قيل له : ما أشد يوم مرّ عليك يقول : يوم العقيق .

وحدّث أبو جعفر البغدادى قال : حدثنى عبد الله بن محمد كاتب بغداد عن أبى عكرمة قال : خرجت يوما إلى المسجد الجامع ، فمررت بباب أبى عيسى بن المتوكل ، فإذا على بابه المشدود ، وهو أحذق خلق الله تعالى بالغناء ، فقال : أين تريد ياأبا عكرمة ؟ قلت : المسجد الجامع لعلى استفيد حكمة أكتبها ، فقال : ادخل بنا إلى أبى عيسى . قلت : أمثلُ أبى عيسى فى قدره وجلالته يدخل عليه بلا إذن ؟! فقال للحاجب : أعلم أمير المؤمنين بمكان أبى عكرمة ، فما لبث إلا ساعة حتى خرج الغلمان إلى ، فحملونى حملاً فدخلت إلى دارٍ ما رأيت أحسن منها بناء ولا أظرف منها هيئة ، فلما نظرت إلى أبى عيسى قال لى : ما يعيش من يحتشم ، اجلس ، فجلست ، فأتينا بطعام كثير ، فلما انقضى أتينا بشراب ، وقامت جارية تسقينا شراباً كالشعاع فى زجاجة كأنها كوكب درى ، فقلت : أصلح الله الأمير ، وأتم عليه نعمه ، ولا سلبه ما وهبه قال : فدعا أبو عيسى بالمغنين وهم : المشدود ، ودبيس ، ولم يكن فى ذلك الزمان أحذق من هؤلاء الثلاثة بالغناء ، فابتدأ المشدود وغنى ، يقول :

لما استقل بأردافٍ تجاذبُه ... واخضر فوق بياض الدّرّ شاربُه
وأشرق الوردُ من نسرينِ وجنتهِ ... واهتز أعلاهُ وارتجّت حقائبُه
كلمتُه بجفونٍ غيرِ ناطقةٍ ... فكان من رده ما قال حاجبه !

ثم سكت وغنى دبيس :

الحب حلو أمرّته عواقبه ... وصاحبُ الحبّ صبُّ القلب ذائبُه
أستودع الله مَن بالطَّرْف ودعنى ... يوم الفراق ودمع العين ساكبُه

ثم سكت وغنى رقيق :

بدر من الأنس حفته كواكبُه ... قد لاح عارضُه واخضرَّ شاربُه
إن يُوعد الوعد يومًا فهو مخلفُه ... أو ينطقُ القولَ يومًا فهو كاذبُه

ثم أقبل أبو عيسى على المشدود وقال له غن لى شعرى ، فغناه :

يا لُجةَ الدمع للغمض مرجوع ؟ ... أم الكرى من جفون العين ممنوع ؟
ما حيلتى وفؤادى هائم دَنِفٌ ... بعقربِ الصّدغ من مولاى ملسوع[1] ؟!
لا والذى تَلِفَت نفسى بفُرقته ... فالقلب من فرق الأحزان مصدوع
ما أرَقُ العين إلا حبّ مبتدع ... ثوبُ الجمال على خدَّيه مخلوع

قال أبو عكرمة ، فوالله لقد حضرت من المجالس مالا يحصى عدده إلا الله تعالى ، فما حضرت مثل ذلك المجلس ، ولولا أن أبا عيسى قطعهم ما انقطعوا . وحكى عن الرشيد أنه قال يوماً للفضل بن الربيع ، من بالباب من الندماء ؟ قال : جماعة فيهم هاشم بن سليمان مولى بنى أمية ، وأمير المؤمنين يشتهى سماعه ، قال : فأذن له وحده ، فدخل ، فقال : هات ياهاشم ، فغناه جميل حيث يقول :

إذا ما تراجعنا الذى كان بيننا ... جرى الدمعُ من عَينى بثينةَ بالكحلِ
فياويح نفسى حسبُ نفسى الذى بها ... وياويحَ عقلى ما أصبتُ به أهلى !

---

(١) الدّنِف : من أدنفه الحب وأسقمه ، وعقرب الصدغ الشعر الملتوى على الصدغ وعلى خدود الملاح ويسمى « واوات الأصداغ » .

خليلى فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حُبّ قاتله قبلى ؟!

قال : فطرب الرشيد طربا شديدا ، وقال : أحسنت ،له أبوك ! ثم قلده ! عقداً نفيساً فلما رآه هاشم ترقرقت عيناه بالدموع ، فقال له الرشيد : ما يبكيك ياهاشم ؟ فقال : ياأمير المؤمنين ، إن لهذا العقد حديثاً عجيباً إن أذن لى أمير المؤمنين حدثته به ، قال : قد أذنت لك قال : ياأمير المؤمنين قدمت يوماً على الوليد ، وهو على بحيرة طبرية ، ومعه قَيْنتان لم ير مثلهما جمالا وحسناً ، فلما وقعت عينه على قال ! هذا أعرابى قد ظهر من البوادى ادعوا به ، فنسخر به ! فدعانى فصرت إليه ، ولم يعرفنى ، فغنت إحدى الجاريتين بصوت هو لى ، فأخطأته الجارية فقلت لها : أخطأت ياجارية فضحكت ثم قالت : ياأمير المؤمنين ، ألم تسمع ما يقول هذا الأعرابى ؟! يعيب علينا غناءنا ، فنظر إلىّ ، كالمنكر ، فقلت : ياأمير المؤمنين ، أنا أبيِّن لك الخطأ ، فلتصلح وتر كذا ، ووتر كذا ، ففعلت ، وغنت شيئاً ما سمع منها إلا فى هذا اليوم ، فقامت الجارية مكبة علىّ ، وقالت : أستاذى هاشم ورب الكعبة ؟ فقال الوليد : أهاشم بن سليمان أنت ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، وكشفت عن وجهى ، وأقمت معه بقية يومنا ، فأمر لى بثلاثين ألف درهم ، فقالت الجارية ، ياأمير المؤمنين ، أتأذن لى فى برّ أستاذى ؟ فقال الوليد : ذلك إليك ، فحلت ياأمير المؤمنين ، هذا العقد من عنقها ، ووضعته فى عنقى ، وقالت : هو لك ، ثم قربوا إليه السفينة ليرجع إلى موضعه ، فركب فى السفينة ، وطلعت معه إحدى الجاريتين ، واتبعتها صاحبتى فأرادت أن ترفع رجلها ، وتطلع السفينة فسقطت فى الماء ، فغرقت لوقتها ، وطُلبت فلم يقدر عليها ، فاشتد جزع الوليد عليها ، وبكى بكاء شديداً ، وبكيت أنا عليها أيضا بكاء شديداً ، فقال لى : يا هاشم ، ما نرجع عليك بما وهبناه لك ، ولكن نحب أن يكون هذا العقد عندنا نذكرها به ، فبعنى إياه فعوضنى عنه ثلاثين ألف درهم ، فلما وهبتنى العقد ياأمير المؤمنين تذكرت قضيته ، وهذا سبب بكائى ، فقال الرشيد ، لا تعجب فإن الله كما ورثنا مكانهم ورثنا أموالهم . وقال على بن سليمان النوفلى : غنَّى دحمان الأشقر عند الرشيد يوماً ، فأنشده :

إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا كفى لمطايانا برؤياكِ هادياً
ذكرتك بالدّيرين يومًا فأشرقت بنات الهوى حتى بلغن التراقيا
إذا ما طواك الدهر ياأمَّ مالك فشأن المنايا القاضيات وشانيا

قال : فطرب الرشيد طرباً شديداً ، واستعاده منه مرات ، ثم قال له : تمنَّ على ، قال : أتمنى الهنىء ، والمرىء ، وهما ضيعتان غلتهما أربعون ألف دينار فى كل سنة ، فأمر له بهما ، فقيل له : ياأمير المؤمنين ، إن هاتين الضيعتين من جلالتهما يجب أن لا يسمح بمثلهما ، فقال الرشيد لا سبيل إلى استرداد ما أعطيت ، ولكن احتالوا فى شرائهما منه ، فساوموه فيهما حتى وقفوا معه على مائة ألف دينار فرضى بذلك ، فقال الرشيد ، ادفعوها له ، فقالوا : ياأمير المؤمنين ، فى إخراج مائة ألف دينار من بيت المال طعن ، ولكن نقطعها له ، فكان يوصل بخمسة آلاف وثلاثة آلاف حتى استوفاها . ومن ذلك ما حكى إسحاق الموصلى قال : كان الواثق بن المعتصم أعلم الناس بالغناء ، وكان يضع الألحان العجيبة ، ويغنى بها شعره وشعر غيره ، فقال له يوما : ياأبا محمد ، لقد فقت أهل العصر فى كل شىء ؛ فغننى شعرًا أرتاح إليه وأطرب عليه يومى هذا قال إسحاق ، فغنيته هذه الأبيات :

ما كنتُ أعلمُ ما فى البَيْنِ من حُرَقٍ حتى تَنادَوْا بأنْ قد جىء بالسُّفن
قامت تودّعنى والدمع يغلبها فهَمهمتْ بعضَ ما قالت ولم تُبِنِ
وأعرضت ، ثم قالت وهى باكيةٌ ياليتَ مَعرفتى إياك لم تكن !

قال: فخلع على خلعةً كانت عليه ، وأمر لى بمائة ألف درهم ، قال وغنيته يوما :

قِفى وَدّعينا ياسُعادُ بنظرة فقد حان مِنا ياسعادُ رحيلُ
فياجنةَ الدنيا وياغايةَ المنى وياسؤل نفسى هل إليك سبيل ؟!
وكنت إذا ما جئتُ جئت لعلة فأفنيت عِلاتى فكيف أقول ؟!

فمـا كـل يـوم لـى بـأرضـك حـاجـةٌ ولا كـل يـوم لـى إلـيـك وصـول

فقال : والله لا سمعت يومى غيره ، وألقى علىّ خلعة من ثيابه ، وأمر لى بصلة ما أمر لى قبلها بمثلها .

ومن حكايات الخلفاء ومكارم أخلاقهم : ما حكى عن إبراهيم بن المهدى قال : قال جعفر بن يحيى يوماً لبعض ندمائه : إنى قد استأذنت أمير المؤمنين فى الخلوة غداً ، فهل من مساعد ؟ فقلت : جُعلت فداءك أنا أسعد بمساعدتك ، وأسر بمشاهدتك ؛ فقال: بكر بكور الغراب ، قال فأتيته عند الفجر ، فوجدت الشموع قد أوقدت بين يديه ، وهو ينتظرنى فى الميعاد ، فما زلنا فى أطيب عيش إلى وقت الضحى ، فقدمت إلينا موائد الأطعمة عليها من أفخر الطعام ، وأطيبه ، فأكلنا وغسلنا أيدينا ، ثم خلعت علينا ثياب المنادمة ، وضمخنا [1] بالخلوق وانتقلنا إلى مجلس الطرب ، ومدّت الستائر ، وغنت القينات فظللنا بأنعم يوم ، ثم إنه داخله الطرب ، فدعا بالحاجب ، وقال له : إذا أتى أحد يطلبنا فأذن له ، ولو كان عبد الملك بن صالح بنفسه ، فاتفق بالأمر المقدر أن عم الرشيد عبد الملك بن صالح قدم علينا فى ذلك الوقت ، وكان صاحب جلالة وهيبة ورفعة ، وعنده من الورَع والزهد والعبادة مالا مزيد عليه ، وكان الرشيد إذا جلس مجلس لهو لا يطلعه على ذلك لشدة ورعه ، فلما قدم دخل به الحاجب علينا ، فلما رأيناه رمينا ما فى أيدينا ، وقمنا إجلالا له ، نقبل يده وقد ارتعنا لذلك ، وخجلنا وزاد بنا الحياء ، فقال : لا بأس عليكم ، كونوا على ما أنتم عليه ، ثم صاح بغلام فدفع له ثيابه ، ثم أقبل علينا ، وقال : اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم قال : فما كان بأسرع من أن طرحت عليه ثياب خز معلم ، وقدمت إليه موائد الطعام والشراب ، فطعم وشرب الشراب لساعته ، ثم قال : خففوا عنى فإنه شىء والله ما فعلته قط ، قال : فتهلل وجه جعفر ، ثم التفت إلى عبد الملك فقال له : جُعلتُ فداءك قد علوت علينا ، وتفضلت ، فهل من حاجة تبلغها مقدرتى ، وتحيط بها نعمتى فأقضيها لك مكافأة لك على ما صنعت ، قال : بلى إن فى قلب أمير المؤمنين بعض تغير علىّ ، فتسأله الرضا عنى ، فقال جعفر : قد رضى عنك أمير المؤمنين ، قال : وعلىّ عشرة آلاف دينار ! فقال جعفر : هى حاضرة لك من مالى ، ولك من مال أمير المؤمنين مثلها قال : وأريد أن أشد ظهر ابنى إبراهيم بمصاهرة من أمير المؤمنين ، قال : قد زوجه أمير المؤمنين بابنته الغالية ، قال : وأحب أن تخفق الألوية على رأسي ، قال : وقد ولاه أمير المؤمنين مصر ، فانصرف عبد الملك بن صالح ، وبقيت متعجباً من إقدام جعفر على ذلك ، من غير استئذان ، وقلت : عسى أن يجيبه أمير المؤمنين إلى ما سأله من الولاية ، والمال ، والرضا عنه ، إلا المصاهرة قال : فلما كان من الغد بكرت إلى باب الرشيد ، لأنظر ما يكون من أمرهم ، فدخل جعفر فلم يلبث أن دعى بأبى يوسف القاضى ، ثم بإبراهيم بن عبد الملك بن صالح ، فخرج إبراهيم وقد عقد نكاحه بالغالية بنت الرشيد ، وعقد له على مصر ، والرايات والألوية تخفق على رأسه ، وخرج كل من فى القصر معه إلى بيت عبد الملك بن صالح ، قال : ثم بعد ذلك خرج إلينا جعفر وقال : أظن أن قلوبكم تعلقت بحديث عبدالملك بن صالح ، وأحببتم سماع ذلك . قلنا : هو كما ظننت ، قال : لما دخلت على أمير المؤمنين ، ومثلت بين يديه قال : كيف كان يومك يا جعفر بالأمس ؟ فقصصت عليه القصة ، حتى بلغت إلى دخول عبد الملك بن صالح ، فكان متكئاً فاستوى جالساً ، وقال :لله أبوك ! ما سألك ؟ قلت : سألنى رضاك عنه ياأمير المؤمنين ! قال : بم أجبته ؟ قلت : قد رضى عنك أمير المؤمنين ، قال : قد رضيت عنه ، ثم ماذا ؟ قلت : وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار ، قال : فبم أجبته ؟ قلت : قد قضاها عنك أمير المؤمنين ، قال : وقد قضيتها عنه ، ثم ماذا ؟ قلت : ورغب أن يشد أمير المؤمنين ظهر ولده إبراهيم بمصاهرة منه ، قال : فبم أجبته ؟ قلت : قد زوجه أمير المؤمنين بابنته الغالية قال : قد أجبته إلى ذلك ، ثم ماذا ؟ قلت : قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه ، قال : فبم أجبته ؟ قلت : قد ولاه أمير المؤمنين مصر ، قال : قد وليته إياها ، ثم نجز له جميع ذلك من ساعته . قال إبراهيم المهدى : فوالله ما أدرى أى الثلاثة أكرم وأعجب فعلا ؟! ما ابتدأه عبد الملك بن صالح من المنادمة ، ولم يكن فعل ذلك قط ، أم إقدام جعفر على الرشيد ؟ أم إمضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر ، فهكذا تكون مكارم الأخلاق . . وحكى أبو العباس عن

---

(١) وضمخنا بالخلوق : تعطرنا ، ووضعنا الروائح الطيبة على أجسامنا .

عمر الرازى قال : أقبلت من مكة أريد المدينة ، فجعلت أسير فى جمد من الأرض فسمعت غناء لم أسمع مثله ، فقلت : والله لأتوصلن إليه فإذا هو عبد أسود ، فقلت له : أعد علىَّ ما سمعت ، فقال : والله لو كان عندى قرىً أقريكه لفعلت ، ولكنى أجعله قِراك ، فإنى والله ربما غنيت بهذا الصوت ، وأنا جائع فأشبع ، وربما غنيته وأنا كسلان فأنشط ، أو عطشان فأروى ، ثم اندفع يغنى ويقول :

وكنت إذا ما جئت سُعدى أزورُها ... أرى الأرض تُطوى لى ويدنُو بعيدُها
من الخفِرات البيضِ ودّ جليسُها ... إذا ما انقضت أُحْدُوثَةٌ لو تُعيدها [1]

قال عمر : فحفظتهُ منه ثم تغنيت به على الحالات التى وصفها لى فإذا هى ، كما ذكر والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب والسبعون

فى ذكر العشق ، ومن بلى به ، والافتخار بالعفاف ، وأخبار من مات بالعشق ، وما معنى ذلك وفيه فصول

الفصل الأول : فى وصف العشق

قال الجاحظ : العشق اسم لما فضل عن المحبة ، كما أن السرَّف اسم لما جاوز الجود . وقال أعرابى : العشق خفى أن يرى ، وجلى أن يخفى ، فهو كامن ككمون النار فى الحجر ، إن قدحته أورى ، وإن تركته توارى . وقيل : أوّل العشق النظر ، وأوّل الحريق الشرر ، وقيل لأعرابى : ما بلغ من حبك لفلانة ؟ قال : إنى لأذكرها ، وبينى وبينها عقبة الطائف ، فأجد من ذكرها رائحة المسك . وقيل : رأى شبيب أخو بثينة جميلا عندها ، فوثب عليه وآذاه ، ثم إن شبيباً أتى مكة وجميل فيها فقيل لجميل : دونك شبيباً ، فخذ بثأرك منه ، فقال :

وقالوا : ياجميلُ أتى أخوها ... فقلت : أتى الحبيب أخو الحبيب

وأنشد الأخفش الحدّاد يقول :

مطارقُ الشوق منها فى الحَشَى [2] أثر ... يطرقن سندان قلب حشوهُ الفِكر
ونار كور الهوى فى الجسم موقدة ... ومِبْرَدُ الحب لا يُبقى ولا يذر

وفى « الجليس الأنيس » لأبى العالية الشامى قال : سأل أمير المؤمنين المأمون يحيى بن أكثم عن العشق ما هو ؟ فقال : هو سوانح تسنح للمرء فيهيم بها قلبه ، وتؤثرها نفسه، وقال ثمامة : العشق جليس مُمْتِع ، وأليف مؤنس ، وصاحب ملك مسالكه ضيقة ، ومذاهبه غامضة ، وأحكامه جائرة ، ملك الأبدان وأرواحها ، والقلوب وخواطرها ، والعيون ونواظرها ، والعقول وآراءها ، وأعطى عنان طاعتها ، وقوّة تصريفها ، توارى عن الأبصار مدخله ، وخفى فى القلوب مسلكه . وكان شيخ بخراسان ، له أدب وحسن معرفة بالأمور ، قال لسليمان بن عمرو ومن معه : أنتم أدباء ، وقد سمعتم الحكمة ، ولكم حُداء ونغم ، فهل فيكم عاشق ؟ قالوا : لا، قال : اعشقوا فإن العشق يُطلق اللسان ،

---

(١) الخفرات : الحَيّات .

(٢) الحَشَى : الخَصْر .

ويفتح جبلة البليد والبخيل ، ويبعث على التلطف ، وتحسين اللباس ، وتطيب المطعم ، ويدعو إلى الحركة والذكاء وتشريف الهمة ، وقال المجنون !

قالت : جننت على ذكرى فقلت لها : الحب أعظم مما بالمجانين
الحب ليس يفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون فى الحين

قال ذو الرياستين : إن بهرام جور كان له ابن ، وكان قد رشحه للأمر من بعده ، فنشأ الفتى ناقص الهمة ، ساقط المروءة، خامل النفس ، مسيء الأدب ، فغمه ذلك ، فوكل به المؤدبين والمنجمين والحكماء من يلازمه ويعلمه ، وكان يسألهم عنه ، فيحكون له ما يغمه من سوء فهمه ، وقلة أدبه، إلى أن سأل بعض مؤدبيه يوماً فقال له المؤدب ، قد كنا نخاف سوء أدبه ، فحدث من أمره ما صيرنا إلى الرجاء فى فلاحه ، قال : وما ذاك الذى حدث ؟ قال : رأى ابنة فلان المرزبان فعشقها ، فغلبت عليه فهو لا يهدأ إلا بها ، ولا يتشاغل إلا بها ، فقال بهرام : الآن رجوت فلاحه ، ثم دعا بأبى الجارية فقال له : إنى مسر إليك سراً فلا يعدوك ، فضمن له ستره ، فأعلمه أن ابنه قد عشق ابنته ، وأنه يريد أن ينكحها إياه ، وأمره أن يأمرها بإطماعه فى نفسها ومراسلته ، من غير أن يراها وتقع عينه عليها ، فإذا استحكم طمعه فيها تجتنبه وتهجره ، فإن استعلمها أعلمته أنها لا تصلح إلا لملك ، ثم لتعلمنى خبرها وخبره ، ولا تطلعهما على ما أسره إليك ، فقبل أبوها ذلك منه، وقال للمؤدب الموكل بأدبه : حضه وشجعه على مراسلة المرأة ، ففعل ذلك ، وفعلت المرأة كما أمرها أبوها فلما انتهت إلى التجنى عليه ، وعلم الفتى السبب الذى كرهته لأجله أخذ فى الأدب ، وطلب الحكمة ، والعلم ، والفروسية والرماية ، وضرب الصولجان حتى مهر فى ذلك ، ثم رفع إلى أبيه أنه محتاج إلى الدواب ، والآلات ، والمطاعم والملابس ، والندماء ، وما أشبه ذلك فسر الملك بذلك ، وأمر له بما طلب ، ثم دعا مؤدبه فقال له : إن الموضع الذى وضع به ابنى نفسه من خبر هذه المرأة لا يدرى به ، فتقدم إليه ومُرْهُ أن يرفع أمرها إلىَّ ، ويسألنى أن أزوِّجه إياها ، ففعل المؤدب ذلك ، فرفع الفتى ذلك لأبيه ، فدعا بأبيها وزوجه إياها ،وأمر بتعجيلها إليه ، وقال له : إذا اجتمعت أنت وهى فلا تحدث شيئاً حتى أصير إليك فلما اجتمعا صار إليه فقال : يابنى لا يضعَنّ قدرها عندك مراسلتها إياك ، وليست فى خبائك ، فإنى أمرتها بذلك ، وهى أعظم الناس منة عليك بما دعتك إليه ، من طلب الحكمة والتخلق بأخلاق الملوك ، حتى بلغت الحد الذى تصلح معه للملك من بعدى ، فزدها من التشريف والإكرام بقدر ما تستحق منك ، ففعل الفتى وعاش مسروراً بالجارية ، وعاش أبوه مسروراً به ، وأحسن ثواب أبيها ، ورفع منزلته لصيانة سره ، وأحسن جائزة المؤدب لامتثال ما أمره به ! وكان عبد الله بن عبيدة الريحانى يهوى جارية فزارته يوما ، فأقام يحدثها ويشكو إليها ألم الفراق ، فحان وقت الظهر ، فناداه إنسان : الصلاة يا أبا الحسن ! فقال : رويدك حتى تزولَ الشمس ! أى حتى تقوم الجارية . وقالت ليلى العامرية فى قيسها :

لم يكن المجنونُ فى حالة إلا وقد كنت كما كانا
لكنه باح بسر الهوى وإننى قد ذُبت كتمانا

وقال أحمد بن عثمان الكاتب :

وإنى ليرضينى الممرّ ببابها وأقنع منها بالشتيمة والزجر !

وقال الفتح بن خاقان صاحب المتوكل :

أيها العاشق المعذبُ صبرا فخطايا أخى الهوى مغفوره
زفرة فى الهوى أحطّ لذنب من غزاة وحجة مبروره

وقال عمر بن أبى ربيعة : كنت بين امرأتين : هذه تسارنى[١] ، وهذه تعضنى ، فما شعرت بعضة هذه من لذة هذه ! وأنشد شيبان العذرى يقول :

لو حُزَّ بالسيف رأسى فى محبتها ... لطار يَهْوِى سريعًا نحوها راسى

وقال يحيى بن معاذ الرازى : لو أمرنى الله أقسّم العذاب بين الخلق ما قسمت للعاشقين عذاباً ! .

الفصل الثانى : من هذا الباب فيمن عشق وعف والافتخار بالعفاف

روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **من عشق فعف فمات فهو شهيد** »[٢] . وقال ﷺ : « **عفوا تعف نساؤكم** »[٣] . وقال بعضهم : رأيت امرأة مستقبلة البيت فى غاية الضعف والنحافة رافعة يديها تدعو، فقلت لها : هل من حاجة ؟ فقالت : حاجتى أن تنادى فى الموقف بقولى :

تزوّد كلّ الناس زادا يقيهم ... وما لى زادٌ والسلامُ على نفسى !

فناديت كما أمرتنى ، وإذا بفتى نحيل الجسم قد أقبل إلى ، فقال : أنا الزاد، فمضيت به إليها فما زاد على النظر والبكاء ، ثم قالت له : انصرف بسلام ، فقلت : ما علمت أن لقاءكما يقتصر على هذا ! فقالت أمسك يا هذا ، أما علمت أن ركوب العار ، ودخول النار شديد ؟! قال إبراهيم بن محمد المهلبى :

كما قد ظفرتُ بِمَنْ أهوى فيمنعنى ... منه الحياء وخوف الله والحذر
وكم خلوت بمن أهوى فيقنعنى ... منه الفكاهة والتأنيس والنظر
أهوى الملاحَ وأهوى أن أجالسهم ... وليس لى فى حرامٍ منهمُ وطر
كذلك الحب لا إتيان معصية ... لا خير فى لذة من بعدها سقر

وقال بعض بنى كلب :

إن أكن طامح اللحاظ فإنى ... والذى يملك الفؤاد عفيف

ونحو ذلك قول القائل :

فقالت : بحق الله إلا أتيتنا ... إذا كان لون الليل شبه الطيالس[٤]
فجئت وما فى القوم يقظانُ غيرها ... وقد نام عنها كل واش وحارس
فبتنا بليل طيّبٍ نستلذه ... جميعاً ولم أقلب لها كف لامس

ونزل رجل على صديق له مستتراً خائفاً من عدوّ له ، فأنزله فى منزله وتركه فيه ، وسافر لبعض حوائجه ، وقال لامرأته أوصيك بضيفى هذا خيراً ، فلما عاد بعد شهر ، قال لها : كيف ضيفنا ؟ قالت : ما أشغله بالعمى عن كل شىء ، وكان الضيف قد أطبق عينيه ، فلم ينظر إلى امرأة صاحبه ، ولا إلى منزله إلى أن عاد من سفره ! وكان عمر بن أبى ربيعة عفيفاً ، يصف ويعفّ ويحوم ولا يرد . ودخلت بثينة على عبد الملك بن مروان فقال لها : يا بثينة ، ما أرى فيك شيئاً مما كان يقوله جميل ! فقالت : ياأمير المؤمنين إنه كان يرنو إلىّ بعينين ليستا فى رأسك ! قال : فكيف رأيته فى عشقه ! قالت : كان كما قال الشاعر :

---

(١) أي تناجيني.

(٢) « من عشق . . . » . إلخ قال ابن القيم فى المنار : موضوع على رسول الله ﷺ وقد توسع المؤلف فى بيان بطلان هذا الحديث أيما توسع فى كتبه : « زاد المعاد» . [٣: ٣٢٤ -٣٢٦] ، و « روضة المحبين ص ١٨٠ - ١٨٢ » والجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى [ص ٣٥٣ - ٣٥٤].

(٣) « عفوا تعف نساؤكم » . . . إلخ ذكره العجلونى فى الكشف برقم [١٧٣٨/ ٢] وقال : رواه الطبرانى عن جابر والديلمى من على مرفوعا .

(٤) الطيالس: جمع الطَّيْلَسان، وهو العَجَميّ.

لا والذى تسجدُ الجباهُ له ... ما لى بما تحت ذيلها خبرُ
ولا بفيها و لاهممتُ بها ... ما كان إلا الحديثُ والنظر

وقد قدمت هذين البيتين فى الجزء الأول فيما جاء فى الكتابة على سبيل الرمز . وعن أبى سهل الساعدى قال : دخلت على جميل وبوجهه آثار الموت فقال لى : ياأبا سهل ، إن رجلا يلقى الله ، ولم يسفك دما ، ولم يشرب خمراً ، ولم يأت فاحشة ، أفترجو له الجنة ؟ قلت : إى والله ، فمن هو ؟ قال : إنى لأرجو أن أكون ذلك ، فذكرت له بثينة ، فقال : إنى لفى آخر يوم من الدنيا ، وأول يوم من الآخرة، لا نالتنى شفاعة محمد ﷺ إن كنت حدثت نفسى بريبة قط ! . وعن عبد الله بن عبد المطلب أبى النبى ﷺ أنه دعته بغى إلى نفسها ، وبذلت له مالا ، وكانت تتكهن ، وتسمع بإتيان النبى ﷺ وكانت جميلة فأرادت أن تخدع عبد الله رجاء أن يكون النبى ﷺ منها للنور الذى رأته بين عينيه ، فأبى وقال :

أما الحرام فالحِمامُ [1] دونَه ... والحِلّ لا نأبى ونستدينَه
فكيف بالأمر الذى تبغينه ... يحمى الكريمُ عِرضَه ودينَه

وقال آخر :

وأحور مخضوبُ البنان محجّب ... دعانى فلم أعرف إلى ما دعا وجها
بخلت بنفسى عن مقام يشينها ... ولست مريدا ذاك طوعًا ولا كرها

وراود شاب ليلى الأخيلية عن نفسها فاشمأزت وقالت :

وذى حاجة قلنا له لا تبح بها ... فليس إليها ما حييتَ سبيل
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونَه ... وأنت لأخرى صاحب وخليل

وقال ابن ميادة :

موانعُ لا يُعطينَ حَبّةَ خردلٍ ... وهن دوانٍ [2] فى الحديث أوانس
ويكرهن أن يسمعن فى اللهو ريبةً ... كما كرهن صوت اللجام الشوامس

وقال آخر :

حور حرائر ما همن بريبة ... كظباء مكة صيدهُنّ حرام
يحسبن من لين الكلام فواسقا ... ويصدهن عن الخنى [3] الإسلام

وكان الأصمعى يستحسن بيتى العباس بن الأحنف :

أتأذنون لصبّ فى زيارتكم ... فعندكم شهواتُ السمع والبصر
لايُظهرُ الشوقَ إن طال الجلوس به ... عفُّ الضمير ولكن فاسقُ النظر !

واختفى إبراهيم بن المهدى فى هربه من المأمون عند عمته زينب بنت أبى جعفر ، فوكلت بخدمته جارية لها اسمها « ملك » وكانت واحدة زمانها فى الحسن والأدب ، طلبت منها بخمسمائة ألف درهم ، فَهوِيَها إبراهيم ، وكره أن يراودها عن نفسها فغنى يوماً وهى قائمة على رأسه :

يا غزالا لى إليه ... شافع من مقلتيه
أنا ضيفٌ وجزاءُ ... الضيف إحسان إليه !

---

(١) الحِمَام: قضاء الموت وقدره.
(٢) دَوانٍ: الدّن: الخسيس الحقير.
(٣) الخَنَى: الفُحش في الكلام.

ففهمت الجارية ما أراد ، فحكت ذلك لمولاتها ، فقالت : اذهبى إليه فأعلميه أنى قد وهبتك له ، فعادت إليه ، فلما رآها أعاد البيتين ، فأكبت عليه ، فقال لها : كفى فلست بخائن ، فقالت : قد وهبتنى لك مولاتى ، وأنا الرسول ، فقال : أما الآن فنعم ، وأنشد المبرد :

ما إن دعانى الهوى لفاحشةٍ ... إلا نهانى الحياء ، والكرمُ
فلا إلى فاحش مددتُ يدى ... ولا مشت بى لزلة قدمُ

وقال آخر :

يقولون : لا تنظر فذاك بلية ... بلى كل ذى عينين لابد ناظرُ
وهل باكتحال العين بالعين ريبةٌ ... إذا عف فيما بينهن السرائر

وكان بعض الخلفاء قد نذر على نفسه ، أن لا ينشد شعرا ، ومتى أنشد بيت شعر فعليه عتق رقبة ، قال : فبينما هو فى الطواف يوما ، إذ نظر إلى شاب يتحدث مع شابة جميلة الوجه ، فقال له : ياهذا اتق الله ، أفى مثل هذا المكان ؟ فقال : ياأمير المؤمنين والله ما ذاك الخنى ، ولكنها ابنة عمى ، وأعز الناس على ، وإن أباها منعنى من تزوّجها لفقرى وفاقتى ، وطلب منى مائة ناقة ، ومائة أوقية من الذهب ، ولم أقدر على ذلك ! قال : فطلب الخليفة أباها ، ودفع إليه ما اشترطه على ابن أخيه ، ولم يقم من مقامه حتى عقد له عليها ، ثم دخل الخليفة إلى بيته وهو يترنم ببيت من الشعر ، فقالت له جارية من حظاياه أراك اليوم يا مولاى تنشد الشعر ! أفنسيت ما نذرت ، أم نراك قد هويت ؟! فأنشد هذه الأبيات يقول :

تقول وليدتى لما رأتنى ... طربتَ وكنت قد أسليت حينا
أراك اليوم قد أحدثتَ عهدًا ... وأورثك الهوى داءَ دفينا
بحقك هل سمعتَ لها حديثًا ... فشاقك أو رأيت لها جبينا ؟!
فقلت : شكا إلىَّ أخ محبّ ... كمثل زماننا إذ تعلمينا
وذو الشجو القديم وإن تعزَّى ... محبّ حين يلقى العاشقينا

ثم عد الأبيات فإذا هى خمسة أبيات ، فأعتق خمس رقاب ، ثم قال : لله درك من خمسة أعتقت خمسا ، وجمعت بين رأسين فى الحلال . وروى عن عثمان الضحاك قال : خرجت أريد الحج ، فنزلت بخيمة بالأبواء فإذا بجارية جالسة على باب الخيمة ، فأعجبنى حسنها ، فتمثلت بقول نصيب :

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركبُ ... وقل : لا تملينا فما ملك القلب

فقالت : يا هذا، تعرف قائل هذا البيت ؟ قلت : بلى هو نُصَيْب ، فقالت : أتعرف زينبه ؟ قلت : لا . قالت : أنا زينبُه ، قلت . حياك الله وحباك ، قالت : أما والله إن اليوم موعده وعدنى العام الأوّل بالاجتماع فى هذا اليوم ، فلعلك أن لا تبرح حتى تراه ، قال : فبينما هى تكلمنى إذ أنا براكب ، قالت : ترى ذلك الراكب ؟ قلت : نعم . قالت : إنى لأحسبه إياه فأقبل ، فإذا هو نُصَيْب ، فنزل قريباً من الخيمة ، ثم أقبل فسلم ، ثم جلس قريباً منها ، فسألته أن ينشدها فأنشدها ، فقلت فى نفسى : محبان قد طال التنائى[1] بينهما ، فلابد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة ، فقمت إلى بعير لأشد عليه ، فقال : على رسلك إنى معك ، فجلست حتى نهض معى ، فسرنا ، وتسامرنا ، فقال لى : أقلت فى نفسك محبان التقيا بعد طول تناء فلابد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة ؟! قلت : نعم . قد كان ذلك ، قال : ورب هذا البيت منذ أحببتها ما جلست منها مجلساً هو أقرب من مجلسى هذا ، فتعجبت لذلك ، وقلت : والله هذه هى العفة فى المحبة ! وعن محمد بن يحيى المدنى قال : سمعت بعض المدنيين يقول : كان الرجل

(١) التَّنائي : البُعْد.

إذا أحب الفتاة يطوف حول دارها حَوْلا ، يفرح أن يرى من يراها ، فإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار ، واليوم هو يشير إليها وتشير إليه ، ويَعدُها وتعده ، فإن التقيا لم يتشاكيا حبا ، ولم يتناشدا شعرا ، بل يقوم إليها ويجلس بين شعبتيها ، كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة !

وقيل لرجل : وقد زفت عشيقته على ابن عم لها أيسرك أن تظفر بها الليلة قال : نعم . والذى أمتعنى بحبها ، وأشقانى بطلبها . قيل : فما كنت صانعاً بها ؟ قال : كنت أطيع الحب فى لثمها[1] ، وأعصى الشيطان فى إثمها ، ولا أفسد عشق عشرين سنة بما يبقى ذميم عاره ، وينشر قبيح أخباره ، إنى إذن للئيم ، لم يلدنى كريم . ومر سيدنا عمر ﷺ ليلة فى بعض سكك المدينة فسمع امرأة تقول :

ألا طال هذا الليل وازور[2] جانبه ... وليس إلى جنبى خليل ألاعبُه
فوالله لولا الله تخشَىٰ عواقبه ... لحرك من هذا السرير جوانبُه
مخافة ربى والحياء يعفنى ... وإكرام بعلى أن تنال مراتبه

قال : فسأل عمر ﷺ عنها فقيل له : إنها امرأة فلان ، وله فى الغزاة ثمانية أشهر ، فأمر عمر ﷺ أن لا يغيب الرجل عن امرأته أكثر من أربعة أشهر . ومن ذلك ما ذكره ابن الجوزى فى كتاب « تلقيح فهوم الأثر » عن محمد بن عثمان بن أبى خيثمة السلمى عن أبيه عن جدّه قال : بينما عمر بن الخطاب ﷺ يطوف ذات ليلة فى سكك المدينة إذ سمع امرأة تقول :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ... أم من سبيل إلى نصر بن حجاج
إلى فتى ماجد الأعراق مقتبل ... سهل المحيا كريم غير مِلجاج
تنميه أعراق صدق حين ننسبه ... أخى وفاء عن المكروب فراج

فقال عمر ﷺ لا أرى معى بالمدينة رجلا تهتف به العواتق فى خدورهن ، على بنصر بن حجاج ، فلما أصبح أتى بنصر بن حجاج ، فإذا هو من أحسن الناس وجهاً ، وأحسنهم شعرا ، فقال عمر : عزيمة من أمير المؤمنين لتأخذن من شعرك ، فأخذ من شعره ، فخرج من عنده وله وجنتان كأنهما شقتا قمر ، فقال له : اعتم فاعتم فافتتن الناس بعينه ، فقال له عمر : والله لا تساكننى فى بلدة أنا فيها ، فقال : ياأمير المؤمنين ، ما ذنبى ؟ قال : هو ما أقول لك ، ثم سيره إلى البصرة ، وخشيت المرأة التى سمع منها عمر ما سمع أن يبدر من عمر إليها شىء فدست إليه المرأة أبياتاً وهى :

قل للإمام الذى تُخشى بوادرُه ... مالى وللخمر أو نصر بن حجاج
لا تجعل الظن حقا أن تبينه ... إن السبيل سبيلُ الخائف الراجى
إن الهوى زُمّ بالتقوى فتحبسه ... حتى يَقَرّ بإلجام وإسراج

قال فبكى عمر ﷺ وقال : الحمد لله الذى زم الهوى بالتقوى ، قال : وطال مكث نصر بن حجاج بالبصرة ، فخرجت أمه يوماً بين الأذان والإقامة متعرضة لعمر ، فإذا هو قد خرج فى إزار ورداء وبيده الدرّة ، فقالت له : ياأمير المؤمنين ، والله لأقفن أنا وأنت بين يدى الله تعالى ، وليحاسبنك الله، أيبيتن عبد الله وعاصم إلى جنبيك ؟ وبينى وبين ابنى الفيافى والأودية ؟ فقال لها : إن ابنى لم تهتف بهما العواتق فى خدورهن[3] ، ثم أرسل عمر إلى البصرة بريداً إلى عتبة بن غزوان ، فأقام أياماً ثم نادى عتبة ، من أراد أن يكتب إلى أمير المؤمنين فليكتب فإن البريد خارج ، فكتب نصر بن حجاج : بسم الله الرحمٰن الرحيم سلام عليك ياأمير المؤمنين أما بعد فاسمع منى هذه الأبيات :

لعَمْرى لئن سيرتنى أو حَرَمْتَنى ... وما نلتَ من عِرضى عليك حرامُ

---

(١) لَثَمَ فم المرأة لثْمًا: قبَّله.
(٢) ازْوَرَّ: مَالَ وانْحرفَ.
(٣) العواتق : الكرائم .

فأصبحت منفيًا على غير ريبة ... وقد كان لى بالمكّتين مقام
لئن غنّت الذلفاء [1] يوماً بمنية ... وبعضُ أمانى النساء غَرامُ
ظننتَ بى الظنّ الذى ليس بعدَه ... بقاء ومالى جرمة فألام !!
فيمنعنى ما تقول تكرّمى ... وآباء صدقٍ سالفون كرام
ويمنعها مما تقول صلاتُها ... وحالٌ لها فى قومها وصيام
فهاتان حالانا فهل أنت راجعى ... فقد جُب منى كاهل وسنام ؟

قال : فلما قرأ عمر هذه الأبيات قال : أما ولى السلطان فلا ، وأقطعه دارا بالبصرة فى سوقها ، فلما مات عمر ركب راحلته وتوجه نحو المدينة والله سبحانه وتعالى أعلم .

الفصل الثالث : من هذا الباب فى ذكر من مات بالحب والعشق

حدث أبو القاسم بن إسماعيل بن عبد الله المأمون قال : حدثنى أبى قال : كانت بالمدينة قَيْنَة من أحسن الناس وجها ، وأكملهم عقلا ، وأكثرهم أدبا ، قد قرأت القرآن ، وروت الأشعار ، وتعلمت العربية ، فوقعت عند يزيد بن عبد الملك ، فأخذت بمجامع قلبه ، فقال لها ذات يوم : ويحكِ أما لك قرابة أو أحد تحبين أن أضيفه ، وأسدى إليه معروفاً ؟! قالت : ياأمير المؤمنين ، أما قرابة فلا ، ولكن بالمدينة ثلاثة نفر كانوا أصدقاء لمولاى ، وأحب أن ينالهم خير مما صرت إليه ، فكتب إلى عامله بالمدينة فى إحضارهم إليه ، وأن يدفع إلى كل واحد منهم عشرة آلاف درهم ، فلما وصلوا إلى باب يزيد استؤذن لهم فى الدخول عليه ، فأذن لهم ، وأكرمهم غاية الإكرام ، وسألهم عن حوائجهم ، فأما اثنان منهم فذكرا حوائجهما فقضاها ، وأما الثالث فسأله عن حاجته ، فقال : ياأمير المؤمنين مالى حاجة ، قال : ويحك أولست أقدر على حوائجك ؟! قال : بلى ياأمير المؤمنين ، ولكن حاجتى ما أظنك تقضيها فقال : ويحك فاسألنى فإنك لا تسألنى حاجة أقدر عليها إلا قضيتها قال : فلى الأمان ياأمير المؤمنين ، قال : نعم . قال : إن رأيت ياأمير المؤمنين أن تأمر جاريتك فلانة التى أكرمتنا بسببها أن تغنى ثلاثة أصوات أشرب عليها ثلاثة أرطال ، فافعل . قال : فتغير وجه يزيد ، ثم قام من مجلسه ، فدخل على الجارية ، فأعلمها فقالت : وما عليك ياأمير المؤمنين ، فأمر بالفتى فأحضر ، وأمر بثلاثة كراسى من ذهب ، فنصبت ، فقعد يزيد على أحدها ، والجارية على الآخر ، والفتى على الثالث ، ثم دعا بصنوف الرياحين والطيب ، فوضعت ثم أمر بثلاثة أرطال ، فملئت ثم قال للفتى ، سل حاجتك فقال : تأمرها ياأمير المؤمنين أن تغنى بهذا الشعر :

لا أستطيعُ سُلوّا عن مودتِها ... أو يصنع الحب بى فوق الذى صنعا
أدعو إلى هجرها قلبى فيسعدنى ... حتى إذا قلت ، هذا صادق نزعا

فأمرها فغنت ، وشرب يزيد ، وشرب الفتى ، وشربت الجارية ، ثم أمر بالأرطال فملئت ، وقال للفتى : سل حاجتك فقال : ياأمير المؤمنين مرها أن تغنى بهذا الشعر :

تخيرت من نعمان عودَ أراكة ... لهند ولكن من يبلغه هندا ؟!
ألا عَرّجا بى - بارك الله فيكما ... وإن لم تكن هند لأرضكما قصدا

فأمرها ، فغنت وشرب يزيد وشرب الفتى ، وشربت الجارية ، ثم أمر بالأرطال فملئت ، ثم قال للفتى : سل حاجتك ، قال : تأمرها ياأمير المؤمنين أن تغنى بهذا الشعر :

منى الوصال ومنكم الهجر ... حتى يُفرّق بيننا الدهر
والله لا أسلوكمو أبدا ... ما لاح بدر أو بدا فجر

---

(١) الذَّلْفاء: ذلِف، أي صَغُر ودقَّ، وغلُظ، فهو أذلف وهي ذلفاء، والجمع ذُلف.

فأمرها فغنت ، قال : فلم تتم الأبيات حتى خر الفتى مغشياً عليه ، فقال يزيد للجارية : قومى انظرى ما حاله ، فقامت إليه فحركته فإذا هو ميت فقال لها يزيد : ابكيه ، فقالت : لا أبكيه ياأمير المؤمنين وأنت حىّ ، فقال لها : ابكيه فوالله لوعاش ما انصرف إلا بك ، فبكت الجارية وبكى أمير المؤمنين ، وأمر بالفتى فجهز ودفن وأما الجارية فلم تمكث بعده إلا أياماً قلائل ، وماتت ! وحكى عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه أنه قدم على عبد الملك بن مروان فجلس ذات ليلة يسامره ، فتذاكر الغناء والجوارى المغنيات ، والعشق ، فقال عبد الملك لعبد الله : حدثنى بأمر ما مر لك فى هذه الأغانى ، وما رأيت من الجوارى ، قال : نعم ياأمير المؤمنين ، اشتريت جارية مولدة بعشرة آلاف درهم ، وكانت حاذقة مطبوعة ، فوصفت ليزيد بن معاوية ، فكتب إلى فى شأنها، فكتبت إليه: والله لا تخرج منى ببيع ، ولا هبة فأمسك عنى ، فكانت عندى على تلك الحالة لا أزداد فيها إلا حبا ، فبينما أنا ذات ليلة إذ أتتنى عجوز من عجائزنا فذكرت لى أن بعض أعراب المدينة يحبها وتحبه ، ويراها وتراه ، وأنه يجىء كل ليلة متنكراً فيقف بالباب ، فيسمع غناءها ، ويبكى شغفا وحباً فراعيت ذلك الوقت الذى قالت عليه العجوز ، فإذا به قد أقبل مقنعاً رأسه ، وقعد مستخفياً فلم أدع بها فى تلك الليلة ،وجعلت أتأمل موضعها ، وموضعه ، فإذا بها تكلمه ويكلمها ، ولم أر بينهما إلا عتبا ، ولم يزالا كذلك حتى ابيض الصبح ، فدعوت بها ، وقلت لقيمة الجوارى ، أصلحى فلانة بما يمكنك ، فأصلحتها وزينتها ، فلما جاءت بها قبضت على يديها ، وفتحت الباب ، وخرجت فجئت إلى الفتى فحركته فانتبه مذعوراً فقلت لا بأس عليك ، ولا خوف ، هى هبة منى إليك ، فدهش الفتى ولم يجبنى ، فدنوت إلى أذنه ، وقلت قد أظفرك الله تعالى ببغيتك . فقم وانصرف بها إلى منزلك ، فلم يرد جواباً فحركته ، فإذا هو ميت ، فلم أر شيئاً قط كان أعجب من أمره قال عبد الملك : لقد حدثتنى بعجب ، فما صنعت الجارية ؟ قلت ماتت والله بعده بأيام بعد نحول عظيم ، وتعليل وماتت كمداً ووجدًا على الغلام . وذكر محمد بن واسع الهيتى أن عبد الملك بن مروان بعث كتاباً إلى الحجاج بن يوسف الثقفى يقول فيه : بسم الله الرحمٰن الرحيم ، من عند عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف ، أما بعد : إذا ورد عليك كتابى هذا وقرأته ، فسير لى ثلاث جوار مولدات أبكاراً يكون إليهن المنتهى فى الجمال ، واكتب لى بصفة كل جارية منهن ، ومبلغ ثمنها من المال ، فلما ورد الكتاب على الحجاج ، دعا بالنخاسين وأمرهم بما أمره به أمير المؤمنين ، وأمرهم أن يسيروا إلى أقصى البلاد حتى يقعوا بالغرض ، وأعطاهم المال وكتب لهم كتباً إلى كل الجهات فساروا يطلبون ما أراد أمير المؤمنين ، فلم يزالوا من بلد إلى بلد ، ومن إقليم إلى إقليم حتى وقعوا بالغرض ، ورجعوا إلى الحجاج بثلاث جوار مولدات ، ليس لهن مثيل . قال : وكان الحجاج فصيحاً ، فجعل ينظر إلى كل واحدة منهن ، ومبلغ ثمنها فوجدهن لا يقام لهن بقيمة ، وإن ثمنهن ثمن واحدة منهن ، ثم كتب كتاباً إلى عبد الملك بن مروان يقول فيه: بعد الثناء الجميل وصلنى كتاب أمير المؤمنين ، أمتعنى الله تعالى ببقائه ، يذكر فيه أنى أشترى له ثلاث جوار مولدات أبكاراً وأن أكتب له صفة كل واحدة منهن وثمنها ، فأما الجارية الأولى – أطال الله تعالى بقاء أمير المؤمنين – فإنها جارية عيطاء السوالف ، عظيمة الروادف كحلاء العينين ، حمراء الوجنتين ، قد انهدت نهداها ، والتفت فخذاها ، كأنها ذهب شيب بفضة وهى كما قيل :

بيضاء فيها إذا استقبلتها دعج[1] كأنها فضة قد شابها ذهب

وثمنها ياأمير المؤمنين ثلاثون ألف درهم ، وأما الثانية فإنها جارية فائقة الجمال ، معتدلة القد والكمال ، تشفى السقيم بكلامها الرخيم ، وثمنها ياأمير المؤمنين ستون ألف درهم . وأما الثالثة فإنها جارية فاترة الطرف ، لطيفة الكف ، عميمة الردف ، شاكرة للقليل، مساعدة للخليل ، بديعة الجمال ، كأنها خِشف الغزال ، وثمنها ياأمير المؤمنين ثمانون ألف درهم ، ثم أطنب فى الشكر والثناء على أمير المؤمنين ، وطوى الكتاب ، وختمه ، ودعا النخاسين فقال لهم : تجهزوا للسفر بهؤلاء الجوارى إلى أمير المؤمنين ، فقال أحد النخاسين : أيد الله الأمير إنى رجل كبير ضعيف عن السفر ، ولى ولد ينوب عنى أفتأذن لى فى ذلك ؟ قال : نعم ، فتجهزوا وخرجوا ففى بعض مسيرهم

---

(١) دعجت العين: اشتد سوادها وبياضها واتسعت، ودعِجت المرأة فهي دَعْجاء.

نزلوا يوما ليستريحوا فى بعض الأماكن ، فنامت الجوارى ، فهبت الريح فانكشف بطن إحداهن وهى الكوفية فبان نور ساطع ، وكان اسمها مكتوم ، فنظر إليها ابن النخاس ، وكان شابا جميلاً ففتن بها لساعته ، فأتاها على غفلة من أصحابه وجعل يقول :

أمكتومُ عينى لا تمل من البكا ... وقلبى بأسهام الأسى يترشق
أمكتومُ كم من عاشق قتل الهوى ... وقلبى رهين كيف لا أتعشق ؟!

فأجابته تقول :

لوكان حقًّا ما تقول لزرتنا ... ليلاً إذا هجعَت عيونُ الحسّد

قال فلما جن الليل انتضى الفتى ابن النخاس سيفه ، وأتى نحو الجارية ، فوجدها قائمة تنتظر قدومه ، فأخذها ، وأراد أن يهرب ففطن به أصحابه ، فأخذوه وكتفوه وأوثقوه بالحديد ، ولم يزل مأسوراً معهم إلى أن قدموا على عبد الملك بن مروان ، فلما مثلوا بالجوارى بين يديه ، أخذ الكتاب ففتحه وقرأه فوجد الصفة وافقت اثنتين من الجوارى ، ولم توافق الثالثة ورأى فى وجهها صفرة وهى الجارية الكوفية ، فقال للنخاسين ما بال هذه الجارية لم توافق حليتها التى ذكرها الحجاج فى كتابه ؟ وما هذا الاصفرار الذى بها والانتحال ؟ فقالوا : ياأمير المؤمنين ، نقول ولنا الأمان ؟ قال : إن صدقتم أمنتم ، وإن كذبتم هلكتم، فخرج أحد النخاسين وأتى بالفتى ، وهو مصفد بالحديد ، فلما قدموه بين أيدى أمير المؤمنين بكى بكاء شديداً ، وأيقن بالعذاب ثم أنشأ يقول :

أميرَ المؤمنين أتيت رغما ... وقد شدت إلى عنقى يديا
مقرًّا بالقبيح وسوء فعلى ... ولست بما رميت ، به بَريا
فإن تقتل ففوق القتل ذنبى ... وإن تعفو فمن جود عليًّا

فقال عبد الملك : يا فتى ما حملك على ما صنعت ، أستخفاف بنا ، أم هوى الجارية ؟ قال : وحق رأسك ياأمير المؤمنين ، وعظم قدرك ما هو إلا هوى الجارية . فقال : هى لك بما أعددته لها ، فأخذها الغلام بكل ما أعده لها أمير المؤمنين من الحلى والحلل ، وسار بها فرحا مسروراً إلى نحو أهله حتى إذا كانا ببعض الطريق نزلا بمرحلة ليلا فتعانقا وناما ، فلما أصبح الصباح وأراد الناس السير نبهوهما ، فوجدوهما ميتين ، فبكوا عليهما ، ودفنوهما بالطريق ، ووصل خبرهما إلى عبد الملك فبكى عليهما ، وتعجب من ذلك !

ومن ذلك ما روى عن النبى ﷺ أنه أخرج خالد بن الوليد المخزومى رضي الله عنه إلى مشركى خزاعة قال خالد : فأخرجنى إليهم رسول الله ﷺ فى عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والبأس . قال : فجد بنا المسير إليهم فسبق إليهم الخبر ، فخرجوا إلينا فقاتلناهم قتالا شديداً ، حتى تعالى النهار ، وطار الشرار ، وهاجت الفرسان ، وتلاحمت الأقران ، فلولا أن الله تعالى أيدنا بنصره ، لكادت الدائرة أن تكون علينا ، ولكن تداركنا الله برحمة منه ، فهزمناهم ، وقتلناهم قتلا ذريعا ، ولم ندع لهم فارسا إلا قتلناه ، ثم طلبنا البيوت فنهبنا وسبينا ، فلما هدأ القتال والنهب ، أمرت أصحابى بجمع السبايا لنقدم بهن على النبى ﷺ ، فلما خرجنا وأحصيناهم ، خرج منهم غلام لم يراهق الحلم ، ولم يجر عليه القلم ، وهو تماسك بشابة جميلة ، فقلنا له : ياغلام ، انعزل عن النساء ، فصاح صيحة مزعجة ، وهجم علينا ، فوالله لقد قتل منا فى بقية نهارنا مائة رجل ، قال خالد : فرأيت أصحابى قد كرهوا قتاله ، وتأخروا عنه ، فملك منهم جوادًا ، وعلا على ظهره ، ونادى البراز ياخالد ، قال : فبرزت إليه بنفسى بعد أن أنشدت شعراً : فوالله لم يمهلنى ، حتى أتمّ شعرى ، بل حمل على ، فتطاعنا حتى تكسرت القنا ، وتضاربنا بالسيوف حتى تفللت ، فوالله لقد اقتحمت الأهوال ، ومارست الأبطال فما رأيت أشد من حملاته ! ولا أسرع من هجماته ! فبينما نحن نعترك إذ كبا به فرسُه فصار بين قوائمه ، فوثبت عليه وعلوت على صدره ، وقلت له : افْدِ نفسك بقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأنا أردك من حيث جئت ! قال : ياخالد ما أنصفتنى ! اتركنى حتى أجد من نفسى القوّة ، قال خالد : فتركته ، وقلت : لعله أن يسلم ثم شددته وثاقا ، وصفدته بالحديد ، وأنا أبكى إشفاقا على حسن شبابه ، ثم أوثقته على بعير لى

فلما علم أن لا خلاص له قال : يا خالد سألتك بحق إلهك إلا ما شددت ابنة عمى على ناقة أخرى إلى جانبى، قال خالد : فأخذتها وشددتها على ناقة أخرى إلى جانبه، ووكلت بهما جماعة من أشد القوم بالقواضب والرماح ، وسرنا فلما استقامت مطاياهما جعل الغلام والجارية يتناشدان الأشعار ، ويبكيان إلى آخر الليل ، فسمعته يذكر قصيدة يسب فيها الإسلام ويذكر أن لا يسلم أبداً فأخذت السيف وضربته فرميت رأسه ، فصاحت الجارية ، وأكبت صارخة فحركتها فوجدتها ميتة ، فأبركنا الأباعر ، وحفرنا ودفناهما ، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أقبلنا نحدثه بعجيب ما رأينا مع الغلام ، فقال : لا تحدثونى شيئاً أنا أحدّثكم به ، فقلنا من أعلمك به يا رسول الله ؟ قال : أخبرنى جبريل عليه السلام ، وتعجب رسول الله ﷺ من موافقتهما ، وموافقة أجلهما[1] ! . ومن ذلك : ما حكاه الثورى قال : حدثنى جبلة بن الأسود - وما رأيت شيخاً أصبح ولا أوضح منه - قال : خرجت فى طلب إبل لى ضلت، فما زلت فى طلبها إلى أن أظلم الظلام ، وخفيت الطريق ، فصرت أطوف وأطلب الجادة فلا أجدها ، فبينما أنا كذلك إذ سمعت صوتاً حسناً بعيداً ، وبكاء شديداً فشجانى ، حتى كدت أسقط عن فرسى ، فقلت : لأطلبن الصوت ، ولو تلفت نفسى ، فما زلت أقرب إليه إلى أن هبطت وادياً فإذا راع قد ضم غنماً له إلى شجرة ، وهو ينشد ويترنم :

وكنت إذا ما جئت سُعدى أزورُها ... أرى الأرضَ تُطوى لى ويدنو بعيدُها
من الخَفِرَاتِ البيضِ وَدّ جليسها ... إذا ما انقضت أحدوثة لو تُعيدها

قال : فدنوت منه ، وسلمت عليه ، فرد على السلام وقال : من الرجل ؟ فقلت : منقطع به المسالك ، أتاك يستجير بك ، ويستعينك قال : مرحباً وأهلاً انزل على الرحب والسعة ، فعندى وطاء وطىء ، وطعام غير بطىء ، فنزلت فنزع شملته وبسطها تحتى ، ثم أتانى بتمر وزبد ولبن وخبز ، ثم قال : اعذرنى فى هذا الوقت ، فقلت : والله إن هذا لخير كثير ، فمال إلى فرسى فربطه وسقاه وعلفه ، فلما أكلت ، توضأت وصليت واتكأت ، فإنى لبين النائم واليقظان إذ سمعت حس شىء وإذا بجارية قد أقبلت من كبد الوادى ، فضحت الشمس حسنا ، فوثب قائماً إليها وما زال يقبل الأرض حتى وصل إليها ، وجعلا يتحادثان فقلت : هذا رجل عربى ، ولعلها حرمة له ، فتناومت وما بى نوم ، فما زالا فى أحسن حديث ولذة مع شكوى وزفرات ، إلا أنهما لا يهم أحدهما لصاحبه بقبيح ، فلما طلع الفجر عانقها ، وتنفسا الصعداء ، وبكى وبكت ، ثم قال لها : يابنة العم ، سألتك بالله لا تبطئى عنى ، كما أبطأت الليلة ، قالت : يابن العم أما علمت أنى أنتظر الواشين والرقباء حتى يناموا، ثم ودعته ، وسارت وكل واحد منهما يلتفت نحو الآخر ويبكى ، فبكيت رحمة لهما ، وقلت فى نفسى : والله لا أنصرف حتى أستضيفه الليلة ، وأنظر ما يكون من أمرهما ، فلما أصبحنا قلت له : جعلنى الله فداءك « **الأعمال بخواتيمها** »[2] وقد نالنى أمس تعب شديد ، فأحب الراحة عندك اليوم ، فقال : على الرحب والسعة ، لو أقمت عندى بقية عمرك ما وجدتنى إلا كما تحب ، ثم عمد إلى شاة فذبحها ، وقام إلى نار فأججها وشواها وقدمها إلىّ ، فأكلت وأكل معى، إلا أنه أكل أكْل من لا يريد الأكل ، فلم أزل معه نهارى ذلك، ولم أر أشفق منه على غنمه ، ولا ألين جانباً ولا أحلى كلاماً إلا أنه كالولهان ، ولم أعلمه بشىء مما رأيت ، فلما أقبل الليل ، وطأت وطائى فصليت ، وأعلمته أنى أريد الهجوع لما مر بى من التعب بالأمس ، فقال لى : نم هنيئاً فأظهرت النوم ولم أنم فأقام ينتظرها إلى هنيهة من الليل ، فأبطأت عليه فلما حان وقت مجيئها قلق قلقاً شديداً وزاد عليه الأمر ، فبكى، ثم جاء نحوى فحركنى ، فأوهمته أنى كنت نائما ، فقال : يا أخى هل رأيت الجارية التى كانت تتعهدنى وجاءتنى البارحة ؟! قلت : قد رأيتها . قال : فتلك ابنة عمى ، وأعز الناس على ، وإنى لها محب ، ولها عاشق ، وهى أيضاً محبة لى أكثر من محبتى لها ، وقد منعنى أبوها من تزويجها لى لفقرى وفاقتى ، وتكبر على، فصرت راعياً بسببها ، فكانت تزورنى فى كل ليلة وقد حان وقتها الذى تأتى فيه ، واشتغل قلبى عليها ، وتحدّثنى نفسى أن الأسد قد افترسها ثم أنشأ يقول :

---

(١) قصة خالد بن الوليد حين خرج إلى مشركى خزاعة وما حدث للجارية والغلام وإخبار جبريل النبى بما حدث . . إلخ لم أهتد إليها .

(٢) أخرجه الطبرانى عن على فى حديث ، ورواه أحمد وابن منيع وأبو يعلى فى مسانيدهم والترمذى وصححه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم عن أنس مرفوعا .

ما بال مية لا تأتى كعادتها ... أعاقها طربٌ أم صدها شُغل
نفسى فداؤك قد أحللت بى سقما ... تكاد من حره الأعضاء تنفصل

قال : ثم انطلق فغاب عنى ساعة ، وأتى بشىء فطرحه بين يدى ، فإذا هى الجارية قد قتلها الأسد وأكل أعضاءها وشوه خلقتها ثم أخذ السيف فأبطأ هنيهة وأتى ومعه رأس الأسد فطرحه ثم أنشأ يقول :

ألا أيها الليث المدل بنفسه ... هلكت لقد جريت حقا لك الشرا
وخلفتنى فرداً وقد كنت آنسا ... وقد عادت الأيام من بعدها غبرا

ثم قال بالله ياأخى إلا ما قبلت ما أقول لك ، فإنى أعلم أن المنية قد حضرت لا محالة ، فإذا أنا مت فخذ عباءتى هذه فكفنى فيها ، وضم هذا الجسد الذى بقى منها معى ، وادفنا فى قبر واحد ، وخذ شويهاتى هذه ، وجعل يشير إليها فسوف تأتيك امرأة عجوز هى والدتى فأعطها عصاى هذه وثيابى وشويهاتى ، وقل لها: مات ولدك كمداً بالحب ، فإنها تموت عند ذلك ، فادفنها إلى جانب قبرنا ، وعلى الدنيا منى السلام ، قال : فوالله ما كان إلا قليل حتى صاح صيحة ، ووضع يده على صدره ، ومات لساعته ، فقلت : والله لأصنعن له ما أوصانى به فغسلته ، وكفنته فى عباءته ، وصليت عليه ، ودفنته ، ودفنت باقى جسدها ، إلى جانبه وبت تلك الليلة باكياً حزينا ، فلما كان الصباح ، أقبلت امرأة عجوز ، وهى كالولهانة ، فقالت لى : هل رأيت شاباً يرعى غنماً ؟ فقلت لها : نعم ، وجعلت أتلطف بها ثم حدثتها بحديثه ، وما كان من خبره فأخذت تصيح وتبكى ، وأنا ألاطفها إلى أن أقبل الليل ، وما زالت تبكى بحرقة إلى أن مضى من الليل برهة فقصدت نحوها فإذا هى مكبة على وجهها وليس لها نفس يصعد ولا جارحة تتحرك ، فحركتها فإذا هى ميتة فغسلتها وصليت عليها ودفنتها إلى جانب قبر ولدها وبت الليلة الرابعة ، فلما كان الفجر قمت فشددت فرسى ، وجمعت الغنم وسقتها فإذا أنا بصوت هاتف يقول :

كنا على ظهرها والدَّهرُ يَجمعُنا ... والشملُ مجتمعٌ والدارُ والوطنُ
فمزق الدهرُ بالتفريق ألفتنا ... وصار يجمعنا فى بطنها الكفنُ

قال: فأخذت الغنم ، ومضيت إلى الحى لبنى عمهم ، فأعطيتهم الغنم ، وذكرت لهم القصة ، فبكى عليهم أهل الحى بكاء شديدا ، ثم مضيت إلى أهلى ، وأنا متعجب مما رأيت فى طريقى . ومن ذلك ما حكى أن زوج عزة أراد أن يحج بها فسمع كثيّر الخبر ، فقال : والله لأحجن لعلى أفوز من عزة بنظرة ، قال فبينما الناس فى الطواف إذ نظر كثير لعزة ، وقد مضت إلى جمله فحيته ، ومسحت بين عينيه ، وقالت له : حييت ياجمل ، فبادر ليلحقها ففاتته ، فوقف على الجمل ، وقال :

حَيتك عزة بعد الحَجّ وانصرفت ... فحىّ ويحَك من حيَّاك ياجمل
لو كنت حييتها ما كنت ذا سرَف ... عندى ولامسَّك الإدلاج والعمل

قال : فسمعه الفرزدق فتبسم : وقال له : من تكون يرحمك الله ؟ قال : أنا كثير عزة ، فمن أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا الفرزدق بن غالب التميمى ، قال : أنت القائل :

رحلت جمالُهم بكل أسيلة ... تركت فؤادى هائمًا مخبولا
لو كنتُ أملكهم إذا لم يرحلوا ... حتى أودّع قلبَى المتْبُولا [1]
ساروا بقلبى فى الحدوج وغادروا ... جسمى يُعالج زفرةً وعويلا

فقال الفرزدق : نعم . فقال كثير : والله لولا أنى بالبيت الحرام لأصيحن صيحة أفزع هشام بن عبد الملك ، وهو على سرير ملكه ، فقال الفرزدق : والله لأعرفن بذلك هشاماً ، ثم توادعا وافترقا ، فلما وصل الفرزدق إلى دمشق ، دخل إلى هشام بن عبد الملك ، فعرفه بما اتفق له مع كثير ، فقال له : اكتب إليه بالحضور عندنا لنطلق عزة من زوجها

(١) المتْبول: تَبله الحبّ، أي أسقمه وذهب بعقله، فهو متبول.

ونزوّجه إياها ، فكتب إليه بذلك فخرج كثير يريد دمشق ، فلما خرج من حيه ، وسار قليلاً رأى غراباً على بانة[1] ، وهو يفلى نفسه وريشه يتساقط ، فاصفر لونه ، وارتاع من ذلك ، وجَدَّ فى السير ، ثم إنه مال ليسقى راحلته من حى بنى فهد ، وهم زجرة الطير فبصر به شيخ من الحى ، فقال : يابن أخى أرأيت فى طريقك شيئاً فراعك ؟! قال : نعم ياعم ، رأيت غراباً على بانة يتفلى ، وينتف ريشه ، فقال له الشيخ : أما الغراب فإنه اغتراب ، والبانة بين ، والتفلى فرقة فازداد كثير حزناً على حزنه ، لما سمع من الشيخ هذا الكلام ، وجد فى السير إلى أن وصل إلى دمشق ، ودخل من أحد أبوابها فرأى الناس يصلون على جنازة فنزل وصلى معهم ، فلما قضيت الصلاة صاح صائح لا إله إلا الله ما أغفلك يا كثير عن هذا اليوم ! فقال : ما هذا اليوم يا سيدى ؟! فقال : إن هذه عزة قد ماتت ، وهذه جنازتها ، فخر مغشياً عليه ، فلما أفاق أنشأ يقول :

فما أعرفَ الفهدىَ لا دَرّ درُّه ... وأزجرَه للطير لا عزَّ ناصره
رأيت غراباً قد علا فوق بانةٍ ... ينتفُ أعلى ريشِه ويُطايره
فقال : غراب اغتراب من النوى ... وبانة بين من حبيب تعاشره

ثم شهق شهقة فارقت روحه الدنيا ، ومات من ساعته ، ودفن مع عزة فى يوم واحد .

وحكى : الأصمعى قال : بينما أنا أسير فى البادية إذ مررت بحجر مكتوب عليه هذا البيت :

أيا معشَر العشاقِ بالله خَبرُوا ... إذا حل عشق بالفتى كيف يصنع ؟

فكتبتُ تحته :

يُداري هواهُ ثم يكتمُ سرّه ... ويخشعُ فى كل الأمور ويخضع !

ثم عدت فى اليوم الثانى فوجدت مكتوباً تحته :

فكيف يُداري والهوى قاتلُ الفتى ... وفى كل يوم قلبه يتقطع ؟!

فكتبت تحته :

إذا لم يجد صبرًا لكتمان سرّه ... فليس له شىء سوى الموت أنفع !

ثم عُدت فى اليوم الثالث فوجدتُ شاباً مُلْقىً تحت ذلك الحجر ميتاً ، فقلت : لا حول ولا قوّة إلا بالله العلى العظيم ، وقد كتب قبل موته :

سمعنا أطعنا ثم متنا فبلغوا ... سلامى على من كان للوصل يمنع !

وحكى أيضاً عن الأصمعى - رحمه الله تعالى - أنه قال بينما أنا نائم فى بعض مقابر البصرة إذ رأيت جارية على قبر تندب وتقول :

بروحى فتى أوْفَى البريةِ كلها ... وأقواهمُ فى الحب صبراً على الحُب ..

قال : فقلت لها : ياجارية بم كان أوفى البرية ؟ وبم كان أقواها ؟ فقالت : يا هذا إنه ابن عمى هوينى فهويته ، فكان إن باح عنفوه ، وإن كتم لاموه ، فأنشد بيتى شعر ، وما زال يكررهما إلى أن مات ، والله لأندبنه حتى أصير مثله فى قبر إلى جانبه ، فقلت لها : يا جارية ؛ فما البيتان ؟ قالت :

يقولون لى : إن بحتُ قد غرك الهوى ... وإن لم أبُحْ بالحب قالوا تصبرا
فما لامرئ يهوى ويكتم أمره ... من الحب إلا أن يموت فيعذرا

ثم إنها شهقت شهقة فارقت روحها الدنيا - رحمة الله تعالى عليها - والحكايات فى ذلك كثيرة وفى الكتب مشهورة ، ولولا الإطالة والخوف من الملالة ، لجمعنا فى هذا المعنى أشياء كثيرة ، ولكن اقتصرنا على هذه النبذة اليسيرة ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) البَانة: ضرْبٌ من الشجر، ليِّن، ورقه كورق الصفصاف، يشبَّه به الحِسَان في الطول واللِّين.

الباب الحادي والسبعون

فى ذكر رقائق الشعر والمواليا والدوبيت وكان وكان والموشحات والزجل والحماق والقومة والألغاز ومدح الأسماء والصفات وما أشبه ذلك

❁ وفيه فصول:

الفصل الأول : فى الشعر

قد قسم الناس الشعر خمسة أقسام : مُرْقِص كقول أبى جعفر طلحة وزير سلطان الأندلس .

والشمس لا تشربُ خمر الندى ... فى الروض إلا من كئوس الشقيق

ومطرب : كقول زهير :

تراه إذا ما جئته متهلّلا ... كأنك تعطيه الذى أنت سائله

ومقبول : كقول طرفة بن العبد :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبار ما لم تزوّد

ومسموع : ما يقام به الوزن دون أن يمجه الطبع كقول ابن المعتز :

سقى المطيرة ذاتَ الظل والشجر ... ودِيرَ عبدون هطالٌ من المطر

ومتروك : وهو ما كان كلاّ على السمع والطبع كقول الشاعر :

تقلقلت بالهم الذى قلقل الحشى ... قلاقلُ هم كلّهن قلاقِلُ

وقد قسم الناس فنون الشعر إلى عشرة أبواب ، حسبما بوّب أبو تمام فى الحماسة ، وقال عبد العزيز بن أبى الإصبع : الذى وقع لى أن فنون الشعر ثمانية عشر فنا وهى : غزل ، ووصف ، وفخر ، ومدح ، وهجاء ، وعتاب ، واعتذار ، وأدب ، وزهد ، وخمريات ، ومراثٍ ، وبشارة ، وتهانى ، ووعيد ، وتحذير ، وتحريض ، ومُلح ، وباب مفرد للسؤال والجواب . ولنذكر إن شاء الله تعالى من ذلك ما تيسر على سبيل الاختصار ولنبدأ من ذلك بذكر الغزل المذكر :

ابن نباتة :

أأغصانُ بانٍ ما أرى أم شمائلُ ... وأقمارُ تِمٍّ ما تضمُّ الغلائلُ

وبيضٌ رقاق أم جفون فواتر ... وسمر دقاق أم قدود قواتل

وتلك نبال أم لحاظ رواشق ... لها هدف منى الحشى والمقاتل

بروحى أفدى شادنًا قد ألفته ... غدوتُ وبى شغل من الوجد شاغل

أميرُ جمالٍ والملاح جنودُه ... يجور علينا قدّه وهو عادل

له حاجب عن مقلتى حجبَ الكرى ... وناظره الفتانُ فى القلب عامل

رفعت إليه قصةَ الدمع شاكيا ... فوقّع يجرى فهو فى الخد سائل

شكوت فما ألوَى ، وقلت فما صغى ... وجدّ بقلبى حبُّه وهو هازل

طويل التوانى دلّه متواتر ... مديدُ التجنى وافرُ الحسن كاملُ

أطارحه بالنحو يوماً تعللا ... فيبدو وللإعراب فيه دلائل

وَيرفع وصلى وهو مفعول فى الهوى ... وينصب هجرى عامداً وهو فاعل

تفقهت في عشقي له مثل ما غدا ... خبيراً بأحكام الخلاف يجادل
فيامالكي ما ضر لو كنت شافعي ... بوصلك فافعل بي كما أنت فاعل
فإني حنيفي الهوى متحنبل ... بعشقك لا أصغي وإن قال قائل

كمال الدين بن النبيه :

الله أكبر كلُّ الحسن في العرب ... كم تحت لِمَّةِ[1] ذا التركيّ من عجَب !
صُبْحُ الجبينِ بليلِ الشَّعرِ منعقد ... والخد يجمع بين الماء واللهب
تنفَّستْ عن عبير الراح ريقتُه ... وافتر مبسمه الشهدي عن حبب
لا في العذيب ولا في بارق غزلي ... بل في جنى فمه أو ريقه الشَّنب
كأنه حين يرمي عن حنيته ... بدرٌ رمى عن هلال الأفق بالشهب
ياجاذبَ القوس تقريبًا لوجنته ... والهائم الصبِّ منها غير مقترب
أليس من نكد الأيام يُحرمُهَا ... فمي ويلثمها[2] سهم من الخشب
من لي بأغيد[3] قاسي القلب مبتسم ... لا عن رضا معرض عني بلا غضب
فكم له في وجود الذنب من سبب ... وليس لي في قيام العذر من سبب

البهاء زهير :

يعاهدني لا خانني ثم ينكثُ ... وأحلف لا كلمتُه ثم أحنث
وذلك دأبي لا يزال ودأبُه ... فيامعشرَ العشاق عنا تحدثوا
أقول له : صِلني يقول : نعم غدا ... ويكسر جَفْنَا هازئًا بي ويعبث
وما ضر بعض الناس لو كان زارني ... وكنا خلونا ساعة نتحدث
أمولاي إني في هواك معذب ... وحتام أبقى في الغرام وأمكث ؟!
فخذ مرة رُوحي تُرِخني ولا أرى ... أموت مراراً في النهار وأبعث
فإني لهذا الضيم منك لحامل ... ومنتظر لطفاً من الله يحدث
أعيذك من هذا الجفاء الذي بدا ... خلائقك الحسنى أرق وأدمث
تردد ظن الناس فيّ فأكثروا ... أحاديثَ فيها ما يطيبُ ويخبث
وقد كَرُمت في الحب مني شمائلٌ ... ويسأل عني من أراد ويبحث

النابلسي :

ما كنت أعلمُ والضمائر تصدق ... أن المَسَامِعَ كالنَّواظر تَغْشَقُ
حتى سمعتُ بذكركم فهويتكم ... وكذاك أسباب المحبة تعلقُ
ولقد قنعت من اللقاء بساعة ... إن لم يكن لي للدوام تطرقُ
قد ينعِشُ العطشانَ بلة رِيقه ... ويَغَصُّ بالماء الكثير ويَشْرَقُ
فعسى عيوني أن ترى لك سيدى ... وجها يكاد الحسن فيه ينطق

أبو الحسن الجزار :

---

(١) اللِّمَّة : شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن .
(٢) لثم فم المرأة : قبّلهُ .
(٣) الأغيد : المائل العنق المتثني في نعومة .

فى خده من بقايا اللثم تخميشُ[1] وبى لتشويش ذاك الصدغ تشويش
ظبى من الترك أغنته لواحظه عما حوته من النبل التراكيش
إذا تثنى فقلب الغصن منكسر وإن تبدى فطرف البدر مدهوش
ياعاذلى إن تكن عن حسن صورته أعمى فإنى عما قلت أطروش
والغيث كالجيش يرتج الوجود له والبرق رايته ، والرعد جاويش
فى مَجْلِسٍ ضحكت أرجاؤه طربا لأنه ببديع الزهر مفروش

القاضى مجد الدين بن مكانس :

أهْدَى تحيتَه وجاد بوعدِه أفديه من قمر بدا سَعْدِهِ
بدر جرى ماءُ الحياة بَثغرِه وترددت فضلاتهُ فى خدّه
أسكنتُه قلبى فأعدتَ خده نيرانُ أحشائى عليه ووجدِه
من لى به حُلو الشمائل أهيف روتِ العوالى عن مثقف قدّه
يا عاذلى فى حبه لو أبصرَت عيناكَ فوق الرّدف مُسْبَلَ جَعْدِه
لعذرتَ كلّ متيم فى حُبهِ وعلمتَ أن ضلالَه فى رُشده
فوحقّ موتى فى هواهُ صبابةَ وحياة مَبسمه الشّهى وبَرْدِه
ما جاد غيث الدمع إلا مِن هَوى خلع القلوبَ ببرقه وبِرَعْده
قم يارسول ، وأبلغ العشاقَ ما ألقاهُ من جَوْر الحبيب وبُعده
وإذا سألتك أن تؤدى فى الهوى خبرى فصف فعل الغَرامِ وأيده

عز الدين الموصلى :

نفس عن الحب ما أغفت وما غفلت بأى ذنب - وقاك الله - قد قُتلَتْ ؟!
دعها ومدمعها الجارى لقد لقيت ما قدمت من أسى قلبى وما علمت
أفديك من ناشط الأجفان فى تلفى والسحر يوهم طرفى أنها كسلت
وأوضح الحسن لو شاءت ذوائبُه فى الأفق وصل دجا الظلماء لاتصلت
معسل بنعاس فى لواحظه أما تراها إلى كل القلوب حلت
من لى بألحاظِ ظبى يدّعى كسلا وكم ثيابِ ضنى حاكت وكم غزلت !
وحمرة فوق خديه ومرشفه هذى محاسنها تزهو وذى ذبلت
أما كفانى تكحيل الجفون أسى حتى المراشف منه باللمى كحلت
أستودع الله أعطافًا شوَتْ كبدى وكلما رمتُ تجديد الوصال قلت
ومهجة لى كم ألقت بمسمعها إلى الملام ولا والله ما قبلت

غيره للفاضل :

شرخ الشباب بحبكم أفنيته والعمر فى كلف بكم قضيتُه
وأنا الذى لو مر بى من نحوكم داع وكنت بحفرتى لبَّيتُه
كيف التعرض للسلو وحبكم حب بأيام الشباب شربتُه
لله داءٌ فى الفؤاد أجنه يزداد نُكسا كلما داويتُه

(١) تَخميش: جرح بالبشرة.

قالوا : حبيبك فى التجنى مُسرف ... قاس على العشاق قلت : فديته
أأروم من كلفى عليه تخلصا ... لا والذى بطحاء مكة بيته
ولو استطعت بكل اسم فى الورى ... من لذة الذكرى به سميته

للشيخ بدر الدين الدماميني :

سلّ سيفًا من الجفون صقيلا ... مُذ تصدى جِلاه رحت قتيلا
صَحَّ عن جفنه حديث فتور ... وهو ما زال من قديم عليلا
مر أبدى لنا من الخصر ردفا ... فأرانا مع الخفيف ثقيلا
ذو قَوام كأنه الغصنُ لكن ... بالهوى نحو وصلنا لن يميلاَ
كاملُ الحسن وافرُ ظل وجدى ... فيه عاذلى مديدا طويلا
فاتك الجفن ذو جمال كثير ... أتلف العاشقين إلا قليلا
قلت إذ لاح طرفه ولماه ... فاتر اللحظ بكرة وأصيلا
كيف حالى ؟ وهل لصب إليه ... من سبيل ؟ فقال لى سل سبيلا

وقال آخر :

لو أن قلبك لى يَرِقّ ويرحمُ ... ما بتّ من ألم الجوى أتألم
ومن العجائب أننى لا سهم لى ... من ناظريك وفى فؤادى أسهم
ياجامعَ الضدين فى وجناته ... ماء يرق عليه نار تضرم
عجبى لطرفك وهو ماض لم يزل ... فعلام يكسر عندما تتكلم
ومن المروءة أن تواصل مدنفًا ... والدهر سمح والحوادث نوّم

وقال آخر :

تصدّق بوعد إن دمعى سائل ... وزوّد فؤادى نظرة فهو راحل
فخدّك موجود به التبر دائما ... وحسنُك معدومٌ لديه المماثل
أيا قمراً من شمس طلعةِ وجهه ... وظلّ عِذاريه الدّجا والأصائل
تنقلتُ من طرف لقلب مع الهوى ... وهاتيك للبدر المنير منازل
جعلتك للتمييز نصباً لخاطرى ... فهلا رفعت الهجرَ والهجرُ فاعل

وقال ابن صابر :

قبّلتُ وجنتَه فألفت جيده ... خجلاً ومال بعطفه المتياس[1]
فانهلّ من خدّيه فوق عِذاره ... عرق يحاكى الطلَّ فوق الآس
فكأننى استقطرت وردَ خُدُودِه ... بتصاعد الزفراتِ من أنفاسى

وقال آخر :

وغزالٍ كلّ من شبّهه ... بهلالٍ أو ببدر ظلَمه
قال : إذا قَبّلتُ وهما فمه ... قد تعديتَ وأسرفتَ فمه ؟!

وقال آخر :

---

(١) الميّاس: المبختر في مشيته.

بأبي غلام لست غيرَ غلامه ... مُذْ جادلي بسلامه وكلامِه
ذو حاجب ما إن رأيتُ كنونه ... أبدًا وصدغ ما رأيتُ كلامه

وقال جمال الدين بن مطروح :

ذكرَ الحمى فَصَبَا وكان قد ارعوى [1] ... صبٌّ على عرشِ الغرام قد استوى
تجرى مدامعه ويخفِقُ قلبُه ... مهما جرى ذكرُ العقيقِ مع اللوى
وإذا تألق بارقٌ من بارقٍ ... فهناك ينشرُ مِن هَواه ما انطوى
وبمهجتي رشأ أطالت عُذْلي ... فيه الملام وقد حوى ما قد حوى
قالوا : أفيه سوى رشاقة قده ... وفتور عينيه وهل موتي سوى ؟!
ما أَبْصَرَتْه الشمسُ إلا واكتسب ... خجلا ولا غصن النقا إلا التوى
يروى الأراك محاسنا عن ثغره ... يَاطيبَ ما نقل الأراك وما روى

وقال آخر :

عبثَ النسيم بقدِّه فتأوَّدا ... وسرى الحياء بخدِّه فتوردا
رشأ تفرد فيه قلبي بالهوى ... لما غدا بجماله متفردا
قاسوه بالغصن الرطيب جهالةً ... تاللهِ قد ظلم المشبّه واعتدى
ياحَسَنًا مالك لم تُحِسنْ ... إلى قلوب في الهوى مُتْعبه
رقمت بالورد وبالسوسن ... صفحة خدٍّ بالسَّنَا مذهبه
وقد أبى خدك أن أجتني ... منه وقد ألسعني عَقْرَبه
ياحُسنَه إذ قال : ما أحسني ؟ ... وبالذَاكَ اللفظ ما أعذَبه
قلت له : كلك عندي سنا ... وكل ألفاظك مستعذبه
ففوق السهم ولم يَخْطُنِي ... ومذ رآني ميتاً أعجبه
وقال : كم من عاشق حبني ... وحبه إياي قد أتعبه
يرحمه الله على أنني ... قتلي له لم أدر ما أوجبه

وقال آخر :

مليح يغار الغصن عند اهتزازه ... ويخجل بَدرُ التّم عند شروقه
فما فيه معنى ناقصٌ غير خصره ... وما فيه شيء بارد غيرُ ريقه

وقال يحيى بن أكثم :

دَنا هاجري نحوي بمقلته الكحلا ... فلما رأى ذلي ثَنَى عِطفه دَلاّ
فتيمني شوقاً وأنحلني أسىً ... وأفقدني صبرًا وأعدمني عقلا
شكوتُ فما ألوى وولّى وما لوى ... وأعرض مُزْوَرًّا فَسَلّ الحشى سلًّا
إذا ما دعاه فرط سقمي لزورة ... يناديه فرطُ العجب من عِطفه كلا

وقال أيضاً :

بأبي غزالاً غازلتُه مُقْلتي ... بين العذيب وبين شَطّنَ بارق
وسألت منه زورة تَشفي الجوى ... فأجابني عنها بوعدِ صادق

---

(١) ارْعَوى: كفَّ وارْتدع.

بتنا ونحن من الدجا في خَيمة ... ومن النجوم الزهر تحت سُرادق
لما رأيتُ الليل آخر عمره ... قد شاب في لِمم له ومفارق
ودعت من أهوى وقلت : تأسفا ... صعب على بأن أراك مُفارقي !

وقال ابن نباتة :

بدا ورنَتْ لواحظُه دلالا ... فما أبهى الغزالة والغزالاَ
وأسفر عن سَنَا قمرٍ منيرٍ ... ولكن قد وجدتُ به الضلالا
صقيل الخد أبصر من رآه ... سوادَ العين فيه فخالَ خالا
وممنوع الوصال إذا تبدّى ... وجدت له من الألفاظ لالا
عجبت لثغره البسام أبدى ... لنا دُرًا وقد سكن الزلالا
شهدت بشهد ريقته لأني ... رأيت على سوالفه نمالا[1]
فياعجبا لحسن قد حواه ... وقد أهدى إلى قلبي الوبالا
سأشكو الحسن ما بقيت حياتي ... وأشكر من صنائعه الجمالا

القاضي فخر الدين بن مكانس :

يا غصنا في الرياض مالا ... حملتني في هواك مالا
يارائحا بعد أن سباني ... حسبك رب السما تعالى

وله أيضاً :

أجارك الله قد رثت لي ... مما ألاقي عدا وحسد
وعاذلي مذ رأى ضلوعي ... تعد سقما بكى وعدّد

ابن رفاعة :

يقولون : هل مَنّ الحبيب بزورة ... ومناكم المطلوب قلنا لهم : منا
فقالوا لنا : غوصوا على قدّه وما ... يحاكى إذا ما اهتز قلنا لهم : غصنا

الشيخ برهان الدين القيراطي :

وَوَرْدِيّ خذ نرجسي لواحظ ... مشايخ علم السحر عن لحظه رووا
وواوات صُدغيه حكنِ عقاربا ... من المسك فوق الجلنار[2] قد التووا
ووجنته الحمرا تلوح كجمرة ... عليها قلوب العاشقين قد اكتووا
وودي له باق ولست بسامع ... لقول حسود والعواذل إذ عووا
ووالله ما أسلو ولو صرت رمة ... فكيف وأحشائي على حبه انطووا

وللشيخ برهان الدين القيراطي أيضا :

شبه السيف والسنان لعيني ... من لقتلي بين الأنام استحلا
فأبى السيف والسنان وقالا ... حدنا دون ذاك حاشى وكلا

وقال أيضا :

بأبي أهيف المعاطف لدن ... حسد الأسمر المثقف قدّه

---

(١) النّمال: جمع النّملة، الحشرة المعروفة، وجمعها أيضًا نَمْل كما نعلم.
(٢) الجُلّنار: زهر الرمان.

ذو جفون مذ رمت منها كلاما ... كلمتنى سيوفهن محده

وقال آخر :

تملك رقى شادن قد هويته ... من الهند معسول اللمى أهيف القد

أقول لصحبى حين يرنو بطرفه ... خذو حذركم قد سل صارمه الهندى[1]

ومما قيل فى الغزل المؤنث للشيخ شمس الدين بن البديرى :

خيال سلمى عن الأجفان لم يغب ... وطيفها عن عيانى غير محتجب

وذكرها أنس روحى وهى نائية ... والقلبُ ما زال عنها غير منقلب

لم أصغ فيها لِلاَحٍ راح يعذلنى ... ولا لواشٍ خلىً بات يلعب بى

عذابها فى الهوى عذب ألذ به ... ومرُّ هجرانها أحلى من الضرب

فإن نأت أو دنت وجدى كما علمت ... تشيب فيه الليالى وهو لم يشب

دعها فأمر هوى المحبوب مُتَبَعٌ ... وغير طاعته فى الحب لم يجب

وقال عفا الله عنه :

سقى طللا حلته سلمى معاهد ... وحياهُ من دمعى مذاب وجامد

فربعٌ به سلمى مصيفٌ ومَرْبَع ... وأرض نأت عنها قفار جلامد

وحيث ثوت أرضا فأعذب مورد ... ولو كدرت منها على الموارد

رعى الله دهرا سالمتنى صروفه ... وظلت لياليه بسلمى تساعد

وقد غفل الواشون عنى ولم أزل ... ويقظان طرف البين عنى راقد

وأيامنا بالقرب بيض أزاهر ... وأوقاتنا بالوصل خضر أمالد

وأرواحنا ممزوجة وقلوبنا ... ونحن كأنا فى الحقيقة واحد

وكم قد مرجنا فى مروج صبابة ... ولم يطرد فينا من البين طارد

تجر ذيول اللهو فى قمص الهوى ... تلوح علينا للغرام شواهد

ولم يخطر التفريق منا بخاطر ... ولم نحسب الأيام فينا تعاند

فهل أنت يا سلمى وقد حكم الهوى ... كما كنت لى أم حاد بالقلب حائد ؟

وهل ودنا باق وإلا تغيرت ... على عادة الأيام منك العوائد

وهل محيت آثار رسم حديثنا ... وأنساك حفظ الود هذا التباعد

وهل تذكرين العهد إذ نحن باللوى ... وقولك لا عاش الخئون المعاهد

وهل أنت غيرت الذى أنا حافظ ؟ ... وهل أنت أحللت الذى أنا عاقد ؟

وهل بدلت منك المودة بالجفا ... وفيك يقينى بالوفا منك شاهد ؟

وإنى ما بدلت عهدك فى الهوى ... ولا اختلفت فيما عملت العوائد

ولا بت مسرورا وعيشك ليلة ... وكيف سلوى والحبيب مباعد ؟

فإن كنت حبل الود صرّمت[2] طرفه ... فودى طريف فى هواك وتالد[3]

---

(١) أي سيف مصنوع من حديد الهند.

(٢) صرَّمت: قطَعْتَ.

(٣) التَّالِد: المقيم.

وإن قلت : إن الحب غيره النوى ... لعمرى وجدى بالحشاشة راقد
وإن أوردوا يوما صبابة عاشق ... فبى يضرب الأمثال من هو وارد
فما شئت كونى إننى بك مدنف ... صبور على البلوى شكور وحامد
ومنك تساوى عندى الوصل والجفا ... وفيك لقد هانت على الشدائد
ولو رمت ألوى عن هواك أعِنَّتى ... لقاد زمامى نحو حبك قائد
نصبت شراك الحب صدت حشاشتى ... فكيف خلاصى والهوى منك صائد ؟!
بعدت وقلت : البين يسلى أخا الهوى ... وهل يسلى ذا الأشجان هذا التباعد ؟!
وما غير التفريق ما تعهدينه ... وسوق سلوى فى المحبين كاسد
وجل منای القرب منك وإنما ... إذا عظم المطلوب قل المساعد

وقال عفا الله عنه :

تُهَدِّدُنى بتبريح وبين ... وتُوعدنى بتفريقٍ وصدّ
وتحلف لى لتلبسَنى سقامًا ... تَهِى جَلَدى به وتُذِيب جلدى
وترمينى بنَبْل من جفون ... فتُضنينى وتُصمينى وتُردِى
وتحرقنى بنار الصدّ حتى ... تُذيبَ حشاشتى كمَدًا وكبدى
فقلت لها : ودمعى فى انسكاب ... يفيض دما على صفحات خدى
ومن لى أن يقال قتيلُ وجدٍ ... وأُذكَر فى هواك ولو بصَدّ

وقال عفا الله عنه :

سلوى عنك شىء ليس يروى ... وحبى فيك صار مع الركاب
ولم يمرر سواك على ضميرى ... ووجدى فيك أيسره عذابى
ومالك عن سواد العين يوما ... وما لسواد قلبى من حجاب
وما اخضرت دواعى الشوق إلا ... هززت إليك أجنحة التصابى

وقال عفا الله عنه :

قفا نبك بدار شط عنا مزارها ... وأنحلنا بعد البعاد اذكارها
وعوجا بأطلال محتها يد النوى ... فأظلم بالنای المشت نهارها
فقدنا بها ريما من الإنس إن رنت ... بمقلتها يصمى القلوب احورارها
تصيد قلوب العاشقين أنيسة ... ويحسن منها صدها ونفارها
ويهزأ بالأغصان لين قوامها ... إذا مال فوق الغصن منها خمارها
وليس لبدر التم قامة قدها ... وما هو إلا حجلها[1] وسوارها
منازلها منى الفؤاد وإن نأى ... عن العين مثواها ففى القلب دارها
يمثلها بالوهم فكرى لناظرى ... وأكثر ما يضنى النفوس افتكارها
وهيج دمعى حر نار صبابتى ... وما خمدت بالدمع منى نارها
وساعدنى بالأيك ليلا حمائم ... تهاتف شجوا لا يقر قرارها
بكين ولم تسفح لهن مدامع ... وعينى فاضت بالدموع بحارها

(١) الحجل: بفتح الحاء وكسرها، هو القَيْد، والخَلْخال.

ولمؤلفه - رحمه الله تعالى - وهو قول ضعيف على قدر حاله لكنه يسأل الواقف عليه من أفضاله ستر ما يراه من عيوبه وأن يدعو له بمغفرة ذنوبه .

نسيم الصبا بلغ سليمى رسائلى ... بلطف وقل عن حال صبك سائلى
فقد صار بالأسقام صبا معذبا ... قريح جفون من دموع هوامل
صبورا على حر الغرام وبرده ... حليف الضنى لم يصغ يوما لعاذل
يبيت على جمر الغضى[1] متقلبا ... يئن غراما فارحميه وواصلى
ألا يا سليمى قد أضر بى الهوى ... وهاجت بتبريح الغرام بلابلى
رميت بسهم من لحاظك قاتل ... فلم يخط قلبى والحشى ومقاتلى
كتمت غرامى فى هواك ولم أبح ... بسر فباحت أدمعى برسائلى
سليمى سلى ما قد جرى لى من النوى ... فقد عاد لى حال له رق عاذلى
لعل تجودى للكئيب وتسمحى ... بوعد وبعد الوعد إن شئت ماطلى
عسى تنطفى بالوعد نارى وأشتفى ... فبالسقم أعضائى وهت ومفاصلى
خفيت عن العوّاد لولا تأوّهى ... وعظم أنينى لا يرانى مسائلى
فرقى فقد رقت عداى لذلتى ... وفاضت على حالى عيون عواذلى
قطعت زمانى فى عسى ولعلها ... وما فزت فى الأيام منك بطائل
فما آن أن ترضى علىّ وترحمى ... ضنى جسدى فالوجد لاشك قاتلى
توسلت بالمختار فى جمع شملنا ... نبى له فضل على كل فاضل

وله رحمه الله - تعالى - :

يا ربة الحسن من بالصد أوصاكى ... حتى قتلت بفرط الهجر مضناكى
ويافتاة بفتان القوام سبت ... من فى الورى يا ترى بالقتل أفتاكى
لقد جننت غراما مذ رأى نظرى ... فى النوم طيفَ خيالٍ من مُحيّاكى
ومذ رآه جفا طيبَ المنام وقد ... أضحى عليلا حزينا لم يزل باكى
عذبتنى بالتجنى وهو يعذب لى ... فهل ترى تسمحى يوما برؤياكى
إن كنتِ لم تذكرينا بعد فرقتنا ... فالله يعلم أنا ما نسيناكى
ما آن أن تعطفى جودا علىّ فقد ... أضحى فؤادى أسيراً لحظ عيناكى
ما كنت أحسَب أن العشق فيه ضنى ... ولا عذاب نفوس قبل أهواكى
حتى تولع قلبى بالغرام فما ... أمسى أسيراً سوى فى حسن معناكى
رِقّى لعبدك جودا واعطفى وذرى ... ولا تُطيلى بحق الله جفواكى
يا هندُ رفقًا بقلب ذاب فيك أسىً ... ومهجة تلفت يا هند ما أقساكى
رق العذول لحالى فى الهوى ورثى ... وأنت يا هند لا ترثى لمضناكى
والله لو مت ما أسلاك يا أملى ... ولو فنيت غراما لست أنساكى

قال آخر :

---

(١) الغضى: شجر من الأثل، خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقى زمنًا طويلًا لا ينطفئ، واحدته غضاة، وأهل الغضى: أهل نجد، لكثرته هناك.

كأن فؤادى يوم سرت دليل ... يسير أمام العيس[١] وهو ذليل
فصرت عقيب الظاعنين[٢] لكى أرى ... فؤادى سرى فى الركب وهو عجول
وقائلة لى كيف حالك بعدنا ... لتعلم ما هذا إليه يئول
فقلت لها : قدمت قبل ترحلى ... فمن باب أولىٰ أن يجد رحيل
وقلت : فليلى طال هما فأنشدت ... وما زال ليل العاشقين طويل
فقلت : وجسمى لم يزل مترجفا ... فقالت : وجسم العاشقين نحيل
فقلت لها : لو كنت أدرى فراقنا ... بيوم وداع ما إليه سبيل
قلعت عينى فى هواك بأصبعى ... لكى لا أرى يوما علىّ ثقيل

وقال الوأواء الدمشقى عفا الله عنه :

يا من نفت عنى لذيذ رُقادى ... مالى ومالك قد أطلتِ سُهادى[٣]
فبأى ذنب أم بأية حالة ... أبعدتنى ولقد سكنتِ فؤادى
وصددت عنى حين قد ملك الهوى ... روحى وقلبى والحشىٰ وقيادى
ملكت لحاظك مهجتى حتى غدا ... قلبى أسيرا ما له من فادى
لا غروَ أن قتلت عيونك مغرما ... فلكم صرعت بها من الآساد[٤]
يا من حوت كل المحاسن فى الورى ... والحسن منها عاكف فى بادى
رفقا بمن أسرت عيونُك قلبه ... ودَعِى السيوفَ تَقرّ فى الأغماد
ماتت - أطال الله عمرك - سلوتى ... ولقد فنى صبرى وعاش سُهادى
ومن المنى لو دام لى فيك الضنىٰ ... يا حبذا لأراك من عُوّادى
واجيل منك نواظرى فى ناضر ... من خدك المترقرق الوقاد
وأقول : ما شئتِ اصنعى يا مُنيتى ... مالى سواك ولو حرمتُ مُرادى
إلا مديح المصطفى وهو عمدتى ... وبه سألقى الله يوم معادى

وقال البهاء زهير :

إذا جن ليلى هام قلبى بذكركم ... أنوح كما ناح الحمامُ المطَوّق
وفوقى سحاب يمطر الهم والأسى ... وتحتى بحارٌ بالجوى تتدفق
سلوا أمّ عمرو كيف بات أسيرُها ... تُفَك الأسارى دونه وهو مُوثَق
فلا أنا مقتول ففى القتل راحة ... ولا أنا ممنون عليه فيُعْتَقُ

مجنون ليلى :

وقد خبرونى أن تيماء منزل ... لليلى إذا ما الليل ألقى المراسيا[٥]
فهذى شهور الصيف عنا ستنقضى ... فما للنوى[٦] يرمى بليلى المراميا
أعد الليالى ليلة بعد ليلة ... وقد عشت دهرا لا أعد اللياليا
وأخرج من بين البيوت لعلنى ... أحدث عنك النفس بالليل خاليا

---

(١) العيس : الجمال .
(٢) الظاعنين : ظعَنَ ظعْنًا أي سار واتجل.
(٣) السهاد : السهر .
(٤) لا غرو : لا عجب .
(٥) ألقى المراسيا : حَلّ على الكون بظلامه .
(٦) النوى : البعد .

ألا أيها الركب اليمانون عَرّجوا ... علينا فقد أمسى هوانا يمانيا [١]
يمينا إذا كانت يمينا فإن تكن ... شمالا ينازعنى الهوى عن شماليا
خليلى لا والله لا أملك الهوى ... إذا علم من أرض ليلى بداليا
خليلى لا والله لا أملك الذى ... قضى الله فى ليلى ولا ما قضى ليا
قضاها لغيرى وابتلانى بحبها ... فهلا بشىء غير ليلى ابتلانيا ؟!
ولو أن واشٍ باليمامة داره ... وداري بأعلى حضرموت اهتدى ليا
وددت على حبى الحياة لو انه ... يزاد لها فى عمرها من حياتيا
على أننى راض بأن أحمل الهوى ... وأخلص منه لا علىّ ولا ليا
إذا ما شكوت الحب فقالت : كذبتنى ... فما لى أرى الأعضاء منك كواسيا [٢] ؟!
فلا حب حتى يلصق الجلد بالحشى ... وتخرس حتى لا تجيب المناديا

وقال آخر :

قالت لطيف خيال زارنى ومضى ... بالله صفه ولا تنقص ولا تزد
فقال : خلفته لو مات من ظمأ ... وقلت : قف عن ورود الماء لم يَرِدِ
قالت : عهدت الوفا والصدق شيمته ... يابرد ذاك الذى قالت على كبدى !

كمال الدين بن النبيه :

أما وبياض مبسمك النقى ... وسمرة مسكة اللعس الشهىّ [٣]
لقد أسقمت بالهجران جسمى ... وأعطشتنى وصالك بعد ريى
إلى كم أكتم البلوى ودمعى ... يبوح بمضمر السر الخفى
وكم أشكو للاهية غرامى ... فويل للشجى من الخلى [٤]

صفى الدين الحلّى :

أبتِ الوصالَ مخافةَ الرُّقباء ... وأتتك تحت مَدارع الظَّلْماءِ
أصْفَتْك من بعد الصدود مودةً ... وكذا الدواء يكون بعدَ الداء
أحيت بزَوْرتها النفوسَ وطالما ... ضنت بها فقضت على الأحياء
أمّت بليل والنجوم كأنها ... دُرَر بباطن خيمة زرقاء
آبت إلى جسدى لتنظر ما انتهت ... من بعدها فيه يَدُ البُرَحاء
ألفت به وقعَ الصِّفاح فراعها ... جزعا وما نظرت جراح حشائى
أمصيبة مِنّا بنَبْل لِحاظِها ... ما أخطأته أسنة الأعداء ؟!
أعجبت مما قد رأيت وفى الحشا ... أضعاف ما عاينت فى الأعضاء ؟!
أمسى ولست بسالم من طعنة ... نجلاء أو من مقلة نجلاء

وله رحمه الله - تعالى - :

قِفى وَدّعينا قبل وشك التفرق ... فما أنا مَنْ يحيا إلى حين نلتقى

---

(١) عَرّجوا علينا : انزلوا بأرضنا .
(٢) أى لم يظهر عليه أثر الحب من نحول وغيره ، فما زالت أعضاؤه يكسوها اللحم!
(٣) اللّعس: سواد مستحسن فى باطن الشفة .
(٤) الشّجِى : من شجاه الهمّ ونحوه ، والخلّى فارغ البال من الهم ، وقد ضمن الشاعر بيته المثل القائل : « ويل للشّجِى من الخلّى » .

قضيت وما أودى الحِمامُ[١] بمهجتى ... وشبتُ وما حلّ البياض بمَفرقى
قنعت أنا بالذل فى مذهب الهوى ... ولم تفرقى بين المنعم والشقى
قرنت الرضا بالسخط والقرب بالنوى ... ومزقتِ شملَ الوصل كل مُمزَق
قبلت وصايا الهجر من غير ناصح ... وأحببت قول الهجر من غير مشفق
قطعت زمانى بالصدود وزرتنى ... عشية زُمّت[٢] للترحل أينقى[٣]
قضى الدهرُ بالتفريق فاصطبرى له ... ولا تذممى أفعاله وترفقى

وقال عفا الله عنه :

جاءت لتنظر ما أبقت من المهج ... فعطرت سائر الأرجاء بالأرج[٤]
جَلّتْ علينا مُحَيّا لَوْ جَلتْه لنا ... فى ظلمة الليل أغنتنا عن السُرج[٥]
جورية الخد تحمى ورد وجنتها ... بحارس من نبال الغُنج والدّعج
جَزَت إساءةَ أفعالى بمغفرة ... فكان غفرانها يغنى عن الحجج
جادت لعرفانها أنى المريض بها ... فما علىّ إذا أذنبت من حرج
جست يدى لترى ما بى فقلت لها ... كفى فذاك جوى لولاك لم يهج
جفوتنى فرأيت الصبر أجمل بى ... والصمت فى الحب أولى بى من اللهَج
جارت لحاظك فينا غير راحمة ... ولذة الحب جور الناظر الغِنج[٦]

وقال ابن نباتة :

رقت لنا حين هم السَّفر[٧] بالسفر ... وأقبلت فى الدجى تسعى على حَذَرِ
راض الهوى قلبها القاسى فجادَلنا ... وكان أبخل من تموزَ بالمطر
رأت غداة النوى نار الكليم وقد ... شبت فلم تبق من قلبى ولم تذر
رشيقة لو تراها عندما سفرت ... والبدر ساه إليها سهو معتذر
رأيت بدرين : من وجه ومن قمر ... فى ظل جنحين من ليل ومن شعر
راق العتاب وأبدت لى سرائرها ... فى ليلة الوصل بل فى غرة القمر

وقال آخر :

بكت للفراق وقد راعها ... بكاء المحب لبعد الديار
كأن الدموع على خدّها ... بقية طلّ على جلنار

الوأواء الدمشقى (تضمين) :

قالت : متى الظعن[٨] ياهذا ؟ فقلت لها ... إما غدا زعموا أو لا فبعد غد
فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت ... وردا وعضّت على العُناب[٩] بالبَرَدِ

---

(١) الحمام: بكسر الحاء وفتح الميم: قضاء الموت وقدرُه.
(٢) زُمّت: زمَّمَ الجملَ، أي شدَّ عليه الزِّمام.
(٣) الأيْنُق : النُّوق .
(٤) الأرجاء : النواحى جمع رَجًا ، أما الأرج فهو الرائحة العطرة .
(٥) السُّرُج : جمع سراج .
(٦) الغِنَج : ذى الدلال والرقة .
(٧) السَّفْر : المسافرون .
(٨) الظَّعْن: الارتحال.
(٩) العُناب: بفتح النون المخفّفة هو الجبل الطويل المستدير، وبتشديد النون المفتوحة شجر شائك من الفصيلة السّدرية، ويُطلق على ثمره أيضًا، وهو أحمر حلو لذيذ الطعم.

لابن نباتة :

عَذُولى لستُ أسمع منه قولاً ... على غيداء مثل البدر تمّا
له طرف ضرير عن سناها ... ولى أذن عن الفحشاء صمّا

وقال آخر :

ورب ليال فى هواها سهرتُها ... أراعى نجومَ الليل فيها إلى الفجر
حديثى عال فى السهاد لأننى ... رويت أحاديث السهاد عن الزهر (١)

السراج الوراق :

يالائمى فى هواها أسرفت فى اللوم جهلا ... ما يعلم الشوق إلا ولا الصبابة إلا

وقال آخر :

وعدت أن تزور ليلا فألوت ... وأتت فى النهار تسحب ذيلا
قلت هلا صدقت فى الوعد قالت ... كيف صدقت أن ترى الشمس ليلا

لعز الدين الموصلى :

قد سلونا عن الغزال بخود (٢) ... ذات وجه بها الجمال تفتن
ورجعنا عن التهتك فيه ... ودفعنا بالتى هى أحسن (٣)

وقال آخر :

قالت - وناولتُها سواكا ... ساد بفيها على الأراك
سواى ماذاق طعم ريقى ... قلت لها : ذاقه سواكى

وقال آخر :

سألتها أن تُعيدَ لفظا ... قالت : محب دعوه يعذر
حديثها سكر شهىّ ... وأحسن السكر المكرّر

ابن نباتة :

وملومة فى الحب لما أن رأت ... أثر السقام بجسمى المنهاض
قالت : تغيرنا فقلت لها نعم ... أنا بالسقام وأنت بالإعراض

وقال أبو الطيب المتنبى :

بأبى الشموسُ الجانحاتُ غواربا ... اللابساتُ من الحرير جلاببا (٤)
المنهباتِ عيونَنا وقلوبنا ... وجناتِهن الناهباتِ الناهبا (٥)
الناعماتِ القاتلاتِ المحييا ... تُ المبدياتُ من الدلال غرائبا
حاولن تفديتى وخفن مُراقبًا ... فوضعن أيديَهن فوق ترائبا
وبَسَمنَ عن بَرَدٍ خشيتُ أُذيبُه ... من حر أنفاسى فكنتُ الذائبا

---

(١) إذا كان الحديث مروياً عن فقيه كمحمد بن شهاب الزهرى وسفيان الثورى ومالك بن أنس كان عالياً ، وفى البيت تورية وتضمين .

(٢) الخَوْد : الشابّة الناعمة الحسنة الخَلْق ، والجمع خُودٌ وخَوْدات .

(٣) ضمن البيت لفظا الآية الكريمة ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ . [المؤمنون : ٩٦] .

(٤) قال هذه القصيدة يمدح على بن منصور الحاجب وكنى بالشموس عن النساء ، وكنى بالغروب عن بعدهن ! وقال أبو الفتح : غبن عنك فى الخدور .

(٥) يقول : أنهبتنا وجناتهن ، فلو نظرن إلينا نهين عقولنا وقلوبنا . ثم وصف الوجنات بأنها تنهب الناهب ، أى الرجل الشجاع المغوار .

يا حبذا المتجملون وحبذا ... وادٍ لثمت به الغزالة كاعبا [١]
كيف الرجاء من الخطوب تخلصا ... من بعد أن أنشبن فى مخالبا

وله أيضا من جملة قصيدة :

ولما التقينا والنوى ورقيبنا ... غفولان عنا ظلت أبكى وتبسم
فلم أر بدرًا ضاحكا قبل وجهها ... ولم تر قبلى ميتا يتكلم

الشريف الرضى :

وتميسُ بين مُزعْفَرٍ ومُعَصْفَرٍ ... ومُعنْبَرٍ ومُمَسّكٍ ومُصَنْدَلِ [٢]
وإذا سألتُ الوصل قال جمالها ... جودى وقال دلالها : لا تفعلى

ابن إسرائيل :

وتخال بين البدر منها والنقا ... غصنا يميس به النسيم مهفهف
يابانةً قد أطلعت أغصانها ... وردا جَنيًا باللواحظ يُقْطَف
وغزالة يحكى الغزالةَ وجهُها ... ويعير ناظرها الحسام الأوطف
ما تأمرين لمغرم تسطو به ... أجفانك المرضى ولا تستعطف

ولنذكر إن شاء الله - تعالى - فى هذا الباب نبذة من ملح النظم ورقائق الشعر من غير تبويب ولا ترتيب :

للشيخ شمس الدين بن البديوى :

ولما نأت سلمى وشط بها النوى ... وأيقنت أنى بالغرام أذوب
علقت بأخرى غيرها متلاهيا ... ليُطفئ ضِرامٌ فى الحشا ولهيب
وكان هيامى والهوى وصبابتى ... لمن هو فى الأولى إلىّ حبيب

وله فى المعنى :

تلاهيت عنها فى الغرام بغيرها ... وقلت لقلبى : هذه هى زينب
وقبلت فاها مبردا لصبابتى ... فأضرمت نارا فى الحشا تتلهب
فكنت كمن أضحى غريقا بلجة ... تمسّك بالموج الذى يتقلب

وقال أيضا :

سألت القلب هل ميل لليلى ... وهل عند الفؤاد لها التفات ؟!
فقال : الآن لا لكن تأنى ... فقلت : الحب فيه تقلبات
فإن الحب يهجم بعد يأس ... ويعتاد المحب تغيرات
فلا تظهر لها يوما سُلُوًّا ... فتفضحك التصابى الواردات
وتُزمَىٰ بالصدود وبالتجنى ... وتنحلك ، الوعود الكاذبات
فكن جلدا ولا تك ذا لجاج [٣] ... فما يغنيك إن فات الفوات

وقال البيطار :

---

(١) الغزالة من أسماء الشمس ، يريد أنه لثمها فى حال ما كانت كاعباً .
(٢) تميس فى أثوابها التى صبغت بألوان زاهية ، وطيبت بألوان الطيب .
(٣) لَجاج: لجَّ، أي تمادى في الخصومة.

يقولون : هذى أم عمرو قريبة ... دنت بك أرض نحوها وسماء
إلا إنما قرب الحبيب وبعده ... إذا هو لم يوصل إليه سواء

وقال غيره :

وقالوا بع حبيبك وابغ عنه ... حبيبًا آخر تحيا سعيدا
إذا كان القديم هو المصافى ... وخان فكيف آتمنُ الجديدا ؟!

وقال آخر :

لم أنس إذ قلت من وجدى لها غلطا ... ووجهها مشرق فى حندس الظلم[1]
سلوت عنك فقالت وهى ضاحكة ... لتقرعن على السن من ندم

وقال آخر :

أمن المروءة أن أبيت مسهدا ... قلقا أبل ملابسى بدموعى
وتبيت ريان الجفون من الكرى ... وأبيت منك بليلة الملسُوع

وقال آخر :

إلى الله أشكو جَوْرَ أهيفَ شادنٍ ... وقعت فما لى من يديه خلاصُ[2]
جرحت بعينى خده وهو جارح ... بعينيه قلبى والجروح قصاص

وقال آخر :

قد كنت أسمع بالهوى فأُكَذب ... وأرى المحبَّ وما يقول فأَعْجبُ
حتى رُميتُ بحلوه وبمره ! ... من كان يتهم الهوى فيجرب

وقال آخر :

يا من سقامى من سقام جفونه ... وسواد حظّى من سواد عيونه
قد كنتُ لا أرضى الوصال وفوقه ... واليوم أقنع بالخيال ودونه

وقال آخر :

صبحته عند المساء فقال لى ... تهزى بقدرى أو تريد مزاحا ؟
فأجبته إشراق وجهك غرنى ... حتى توهمت المساء صباحا

أبو عبد الله الغواص :

مَن عَذيرى من عَذول فى رشا ... قامر القلب هواه فقمر[3]
قمر لم يُبْقِ مِنّى حُسْنه ... وهواه غيرَ مقلوب قمر

وقال آخر :

جاذبتها والريح تجذب بُرْقُعًا ... من فوق خد مثل قلب العقرب
وطفقت ألثم ثغرها فتحجبت ... وتسترت عنى بقلب العقرب

وقال آخر :

لو مت من كثرة الأشواق وانبدلت ... مدامعى بدم من كثرة السهر

---

(١) الجندس : بكسر الحاء . الليل الشديد الظلمة ، وأسود جندس : شديد السواد .
(٢) الجوْر : الظلم . والأهيف : دقيق الخصر ضامر البطن . والشادن : ولد الظبية إذا ترعرع واستغنى عن أمه .
(٣) عذيرى : عاذرى وناصرى . والرشا : ولد الظبية إذا قوى وتحرك ومشى مع أمه وأصله « رشأ » .

ما اخترت عنك سلوًا لا ولا نظرت ... عيني لغير محيا وجهك القمر

إبراهيم بن العباس :

تمر الصَّبا صفحا بساكن ذى الغضى ... ويُصْرَع قلبى إذ يهب هبوبُها
قريبة عهد بالحبيب وإنما ... هوى كل نفس أين حلّ حبيبُها

وقال النوفلى :

إذا اختلجت عينى رأت من تحبه ... فدام لعينى ما حييتُ اختلاجُهَا [١]

وقال آخر رحمه الله - تعالى :

يا ذا الذى زار وما زارا ... كأنه مقتبس نارا
قام بباب الدار من تيهه ... ما ضره لو دخل الدارا

وقال آخر :

ولقد جعلتُك فى الفؤاد محدّثى ... وأبحتُ منى ظاهرى لجليسى
فالكل منى للجليس مؤانس ... وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

أمين الدين بن أبى الوفاء :

يا نازلا منى فؤادا راحلا ... ومن العجائب نازلا فى راحل
أضرمتَ قلبَ متيم أهلكته ... وسكنته والنار مثوى القاتل

وقال آخر :

يا عَاذلى فى هواه إذا بدا كيف أسلو ... يمر بى كل وقت وكلما مر يحلو

الحاجبى :

ملأتُ فؤادى من محبة فاتن ... أميل إليه وهو كالظبى رائغُ [٢]
وقلت لقلبى : قم لتعشق شادنا ... سواه فقال القلب : ما أنا فارغ

وقال ديك الجن [٣] :

ولى كبدٌ حرّى ونفس كأنها ... بكف عدّو ما يريد سَراحهَا
كأن على قلبى قطاة [٤] تذكرت ... على ظمأ وردًا فهزت جناحهَا

وقال عبد الله بن طاهر :

أقام ببلدة ورحلت عنه ... كلانا بعد صاحبه غريب
أقل الناس فى الدنيا سرورا ... محب قد نأى عنه الحبيب

وقال آخر :

ما اخترت ترك وداعكم يوم النوى ... واللهِ لا مللا ولا لتجنب
لكن خَشيتُ بأن أموت صبابة ... فيقال : أنت قتلته فتقاد بى [٥]

---

(١) خلج الشيء : بمعنى تحرك واضطرب .
(٢) رائغ : زائغ .
(٣) ديك الجن : اسمه عبد السلام بن رغبان [٧٧٧-٨٤٩م] ، ولد فى حِمص وهو من الشعراء المجيدين .
(٤) القَطَاة : واحدة القَطَا، وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء، ويطير جماعات ويقطع مسافات شاسعة.
(٥) فتقاد بى : أى فيقتص منك لى . ويسمى « القَوَد » .

وقال ابن المعتز :

هب لعيني رقادها ... وانف عنها سهادها
وارحم المقلة التي ... كنت فيها سوادها
كنت صلاحاً لها كما ... كنت دهراً فسادها

وقال آخر :

وقالوا : دع مراقبة الثريا ... ونم فالليل مُسودُّ الجناح
فقلت : وهل أفاق القلب حتى ... أفرق بين ليلى والصباح ؟!

وقال آخر :

ولي فؤاد إذا طال النزاع به ... طار اشتياقاً إلى لُقيا مُعَذّبه
يفديك بالنفس صبٌّ لو يكون له ... أعز من نفسه شيء فداك به

وقال آخر :

وما هجرتكِ النفسُ يا مَنَ أنها ... قَلَتْكِ ولا أن قلَّ منك نصيبُها
ولكنهم يا أحسنَ الناس أولعوا ... بقول إذا ما جئتُ : هذا حبيبها

وقال المحاربي :

إذا أنت لم توقن بما صنع الهوى ... بأهل الهوى فافقد حبيبا وجَرِّب
ترى حرقات يلدغ القلبَ حرُّها ... بأنضجَ من كى الغضىٰ المتلهب[1]

وقال الأقرع بن معاذ :

أقول لِمفْتِ ذات يوم لقيتُه ... بمكة والأنضاء ملقى رحالُها
بحقك أخبرني أما تأثم التي ... أضر بجسمي منذ مر خيالها ؟
فقال : بلى والله أو سيصيبها ... من الله بلوى في الزمان تنالها
فقلت : ولم أملك سوابق عبرة ... سريع على جيب القميص انهمالها
عفا الله عنها كل ذنب ولقيت ... مناها وإن كانت قليلا نوالها

وقال آخر :

بالله ربكما عوجا على سكني ... وعاتباه لعل العتب يعطفه
وعرضا بي وقولا في حديثكما ... ما ضر لو بوصال منك تسعفه ؟
فإن تبسم قولا عن ملاطفة ... ما بال عبدك بالهجران تتلفه ؟
وإن بدا لكما من سيدي غضبٌ ... فغالطاه وقولا ليس نعرفه

وقال عبد الله بن أبي الشيص :

ومعرضة تظن الهجر فرضا ... تخالُ لِحاظها للضعف مَرْضَى
كأني قد قتلتُ لها قتيلا ... فما مني بغير الهجر ترضَى

وقال الحسين بن الضحاك :

---

(١) الغضى : شجر شديد الاشتعال ولذا يقال : جمر الغَضَىٰ .

بعضى بنار الهجر مات حريقا ... والبعض أضحى بالدموع غريقا
لم يشك عشقًا عاشقٌ فسمعته ... إلا ظننتك ذلك المعشوقا

وقال آخر :

وأجيل فكرى فى هوا ... ك بلا لسان ناطق
أدعو عليك بحرقة ... من غير قلب صادق

وقال آخر :

يا ويح من خبل الأحبة قلبه ... حتى إذا ظفروا به قتلوه
عزوا ومال به الهوى فأذله ... إن العزيز على الذليل يتيه
انظر إلى جسد أضرّ به الهوى ... لولا تقلّبُ طرفِه دفنوه
من كان خلْوا من تباريح الهوى ... فأنا الهوى وحليفه وأخوه

وقال أحمد بن طاهر :

تقول العاذلاتُ تَسَلَّ عنها ... وداوِ عليل صبرك بالسُّلُوّ
فكيف ونظرة منها اختلاسا ... ألذّ من الشماتة بالعدّو

وقال إسحاق مولى المهلب :

هبينى يا معذبتى أسأتُ ... وبالهجران قبلكم بدأتُ
فأين الفضل منك فدتك نفسى ... عَلَىّ إذا أسأتِ كما أسأتُ

وقال أبو العتاهية :

يقول أناس لو نعتّ لنا الهوى ... ووالله ما أدرى لهم كيف أنعت ؟!
سقام على جسمى كثير مُوَسّع ... ونوم على عينى قليل مفوّت
إذا اشتد ما بى كان أفضل حيلتى ... له وضع كفى فوق خدى وأسكت

وقال بشار :

يا قرة العين إنى لا أسميكى ... أكنى بأخرى أُسَميها وأعنيك
أخشى عليك من الجارات حاسدةً ... أو سَهمَ غيران يرمينى ويرميك
لولا الرقيبان إذ ودعت غادية ... قبلت فاك وقلت : النفس تفديك
ياأطيبَ الناس ريقًا غير مُختبَرٍ ... إلا شهادة أطراف المساويك
قد زرتنا مرةً فى الدهر واحدةً ... بالله لا تجعليها بيضةَ الديكَ[1]

وقال آخر :

ألم تعلمى يا أحسن الناس أننى ... أحبك حبا مستكنا وباديا
أحبك ما لو كان بين قبائل ... من الناس أعداء لجر التصافيا

وقال آخر :

سقى الله رَبعًا كنتُ أخلو بوجهكم ... وثغر الهنا فى روضة الحسن ضاحك
أقمنا زمانا والعيون قريرة ... وأصبحت يوماً والجفون سوافك

(١) يضرب المثل ببيضة الديك فى الندرة .

وقال آخر :

ألم تعلمى يا عذبة الماء أننى ... أظل إذا لم أُسْقَ ماءك صاديا ؟
وما زلت بى يا بَيْنُ حتى لو أنّنى ... من الوجد أستبكى الحمام بكى ليا

أبو العباس الشهير بالنفيس :

يا راحلا وجميلُ الصبر يتبعه ... هل من سبيل إلى لقياك يتفق
ما أنصفتك جفونى وهى دامية ... ولا وفى لك قلبى وهو يحترق

الوزير ظهير الدين الملقب بأبى شجاع :

لأعذبن العين غير مفكر ... فيها بكت بالدمع أو فاضت دَمَا
ولأهجرن من الرقاد لذيذه ... حتى يعود على الجفون محرّما
هى أوقعتنى فى حبائلِ فتنةٍ ... لَوْ لَمْ تكن نظرت لكنت مسلما
سفكت دمى فلأسفحن دموعها ... وهى التى بدأت فكانت أظلما

وقال العتبى :

أضحت بخدى للدموع رسوم ... أسفا عليك وفى الفؤاد كلوم
والصبر يُحمد فى المواطن كلها ... إلا عليك فإنه مذموم

الرفاء الأندلسى :

ومهفهف كالغصن إلا أنه ... تتحير الألباب عند لقائه
أضحى ينام وقد تكلل خدُّه ... عرقا فقلت : الورد رش بمائه

وقال آخر :

أخضر وأصفر لاعتلال ... فصار كالنرجس المضعف
كأن نسرين وجنتيه ... بشعر أصداغه مغلَّف
يرشح منه الجبين ماء ... كأنه لؤلؤ منصّف

وقال آخر :

وقام يخطرُ والأرداف تُقعده ... طورا وحاول أن يسعى فلم يُطِق
فعائل فعلت فعل الشَّمول[1] به ... فعل النسيم بغصن البانة الورق

وقال آخر :

بأركان هذا البيت إنى لطائف ... وفى الكون أسرار وفيه لطائف
رعى الله أيامًا وناسًا عهدتُهم ... جيادًا ولكنَّ الليالى صيارفُ[2]
وبى ذهبىّ اللون صيغ لمحنتى ... يرى امتحاناتى وما أنا زائف
يذيب فؤادا وهو لا غش عنده ... فيا ذهبىَّ اللون إنك حائف[3]

ومما قيل فى الرقباء :

---

(١) الشَّمُول : الخَمْر .

(٢) صيارف : جمع صَيْرف ، والصيرفي هو الذي يعد النقود ويتاجر في العملة .

(٣) حائف : من الحيف وهو الظلم .

لو أن في الحب أمرا نافذا ... وملكت بسط الأمر في التعذيب
لقطعت ألسنة العواذل كلها ... ولكنت أقلع كل عين رقيب

وقال أعرابي :

بسهم الحب كَلْم في فؤادي ... ولا كالكلم من عين الرقيب [1]
تمكن ناظراه به وأضحى ... مكان الكاتبين من الذنوب
ومن حذر الرقيب إذا التقينا ... نسلم كالغريب على الغريب
ولولاه تشاكينا جميعا ... كما يشكو المحب إلى الحبيب

وقال آخر :

من عاش في الدنيا بغير حبيب ... فحياته فيها حياة غريب
عين الرقيب غرقت في بحر العمى ... لا أنت لا بل عين كل رقيب

وقال أحمد بن أبي سلمة :

يعذلني فيه جميع الورى ... كأنني جئت بأمر عجيب
أظن نفسي لو تعشقتها ... بليت فيها بملام الرقيب
وأنا الغريب فلا ألام على البكا ... إن البكا حسن بكل غريب

وقال آخر :

وما فارقت سُعدَىٰ عن قِلاها ... ولكن شقوة بلغت مداها [2]
بكيت نعم بكيت وكل إلف ... إذ بانت حبيبته بكاها

وقال آخر :

وقائلة ما بال دمعك أبيض ؟ ... فقلت لها : ياعلو هذا الذي بَقي
ألم تعلمي أن البكا طال عمره ... فشابت دموعي عندما شاب مَفرقي
وعما قليل لا دموع ولا دما ... ولم يبق إلا لوعتي وتحرقي

وقال آخر :

يا نازحَ الطيف من نومي يعاوني ... فقد بكيت لفرط النازحين دما
أوجبت غسلا على عيني بأدمعها ... فكيف وهي التي لم تبلغ الحُلُما

وقال آخر :

ارحم رحمت للوعتي ... وابعث خيالك في الكرى
ودموعي عيني لا تسل ... عن حالها ياما جرى !

وقال آخر :

أملت أن تتعطفوا بوصالكم ... فرأيت من هجرانكم ما لا أرى
وعلمت أن فراقكم لابد أن ... يجري به دمعي دما وكذا جرى

وقال آخر :

إن عيني مذ غاب شخصك عنها ... يأمر السهد في كراها وينهى

---

(١) الكَلْم : الجُرح .
(٢) القِلي : الكراهية .

بدموع كأنهن الغوادى ... لا تسل ما جرى على الخدّ منها

وقال آخر :

يقولون لى والدمع قرح مقلتى ... بنار أسى من حبة القلب تقدح
أدمعك جمر قلت : لا تتعجبوا ... فكل وعاء بالذى فيه ينضح

وقال البدر الذهبى :

قالوا : تباكى بالدموع وما بكى ... بدم على عيش تصرّم وانقضى
فأجبتهم هو من دمى لكنه ... لما تصاعد صار يقطر أبيضا

وقال ابن مطروح فى الغيرة :

ولو أمسى على تلفى مصرا ... لقلت : معذبى بالله زدنى
ولا تسمح بوصلك لى فإنى ... أغار عليك منك فكيف منى ؟!

وقال آخر :

أغار عليك من نظرى ومنى ... ومنك ومن مكانك والزمان
ولو أنى خبأتك فى جفونى ... إلى يوم القيامة ما كفانى

وقال آخر :

قالوا أترقدُ مُذْ غِبنا ؟ فقلت لهم : ... نعم وأشفق من دمعى على بصرى
ما حَقُّ طرف هدانى نحو حسنكم ... أنى أعذبه بالدمع والسهر !

عز الدين الموصلى :

فسَدَتْ لطول بعادكم أحلامُنا ... وعقولنا وجفا الجفونَ مَنامُ
والطيف قد وعد الجفون بزورةٍ ... يا حبذا إن صحت الأحلام

ومما قيل فى السهر وطول الليل ونحو ذلك : قال الشاعر :

ورب ليل سهرناه وقد طلعت ... بقية البدر فى أولى تسايره
كأنما أدهم الظلماءِ حين نجا ... من أشهب الصبح ألقى نعل حافره

وقال آخر :

ليلُ المحبين مطويٌّ جوانبُه ... مشمر الذيل منسوب إلى القصر
ما ذاك إلا لأن الصبح نمّ بنا ... فأطلع الشمس من غيظ على القمر

وقال غيره :

فلم أر مثل ليل ذوى التصابى ... وكل يشتكيه بكل حال
فيشكو طولَه أهلُ التجافى ... ويشكو قصرَه أهلُ الوِصال

وقال آخر :

لَيلِى ولَيلَى سواء فى اختلافهما ... قد صيرانى جميعا فى الهوى مثلا
يجود بالطول ليلِى كلما بخلت ... بالطول ليلى وإن جادت به بخلا

وقال آخر :

إن الليالى للأنام مناهل ... تُطوى وتُنشرُ بينها الأعمارُ
فقِصارهن مع الهموم طويلةٌ ... وطِوالهن مع السّرور قِصارُ

وقال غيره :

رب ليلٍ لم أذقْ فيه الكرى ... حظ عينى فيه دمعٌ وسهر
كلما هيج ليلى حرقى ... صحت يا ليلى أما فيك سحر[1] ؟!

وقال آخر :

يا ليل طل أو لا تطل ... لابد لى من سهرك
لو بات عندى قمرى ... ما بت أرعى قمرك[2]

وقال بشار بن برد :

خليلى ما بال الدجى لا يزحزح ... وما بال ضوء الصبح لا يتوضح ؟
أضل إليها المستنير طريقه ... أم الدهر ليل كله ليس يبرح ؟

وقال آخر :

كأن الثريا راحة تشبر الدجى ... ليعلم طال الليل أم قد تعرضا[3]
فليل تراه بين شرق ومغرب ... يقاس بشبر كيف يرجى له انقضا ؟

وقال ابن منقذ :

لما رأيت النجم ساهٍ طرفه ... والقطبُ قد ألقى عليه سُباتا[4]
وبنات نعش فى الحداد سوافر ... أيقنت أن صباحهم قد ماتا[5]

وقال آخر فى ليلة ممطرة :

أقول والليل فى امتداد ... وأدمع الغيث فى انسفاح
أظن ليلى - بغير شك - ... قد بات يبكى على الصباح

ومما قيل فى فانوس لابن تميم :

انظر إلى الفانوس تلق متيما ... ذُرفتْ على فقد الحبيب دموعُه
يبدو تلهبُ جسْمه لنحوله ... وتُعَدّ من تحت القميص ضلوعُه

فيه لابن قزل :

وكأنما الفانوس فى غسَق الدُّجَىٰ ... دَنِفٌ براه شوقُه وسُهادُه
أضلاعُه خُفِيتْ ورقّ أديمُه[6] ... وجرت مدامعه وذاب فؤادُه

ولبعضهم فى شمعة :

حكتنى وقد أوْدَى بى السقم شمعة ... وإن كنت صبًّا دونها متوجعا
ضنىً وسُهادًا واصفِرَارًا ورقةً ... وصبرا وصمتا واحتراقا وأدمعا

ومما قيل فى الربيع والرياض والبساتين والمياه والنواعير[7] ونحو ذلك : قال الشاعر :

هذا الربيع وهذه أزهاره ... متجاوب فى أيكه أطياره

---

(١) السَّحَر : آخر الليل، ويريد : أما لهذا الليل من آخر؟
(٢) أرعى قمرك : يستهر القمر والنجوم، والكواكب، وكأنه يرعاها.
(٣) الراحة : باطن الكف، وتشبر : تقيسه بالشبر لتعلم طوله من قصره.
(٤) السُّبات : النوم.
(٥) بنات نعش : سبعة كواكب تشاهد جهة القطب الشمالي، شبهت بحملة النعش.
(٦) الأديم : أديم كل شيء : ظاهره، والأديم : الجلد، ويقال : أديم الليل أي ظلمته.
(٧) النواعير : جمع ناعورة : الساقية.

وبدا البَنفسجُ والشقائق مُونقٌ ... والورد يضحك بينها وبهارُه

وقال غيره :

غدونا على الروض الذى طلَّه الندى ... سُحَيْرًا وأوداجُ الأباريق تُسْفَكُ
فلم نر شيئاً كان أحسن منظرا ... من النَّورِ [1] يجرى دمعه وهو يضحك

وقال آخر :

أما ترى الأرض قد أعطتك زهرتها ... بخضرة واكتسى بالنَّوْرِ عاريها
فللسماء بكاء فى جوانبها ... وللربيع ابتسام فى نواحيها

غيره :

إن السماء إذا لم تبك مقلتُها ... لم تضحك الأرض عن شىء من الزهر
والأرض لا تنجلى أنوارُها أبدا ... إلا إذا رمدت من شدة المطر

وقال ابن قرناص :

أيا حسنَها من رياضِ غدا ... جنونى فنونًا بأفنانها
مشى الماء فيها على رأسه ... لتقبيل أقدام أغصانها

وقال ابن تميم :

وحديقة ينساب فيها جدولٌ ... طرْفى برَوْنَقِ حُسْنِها مَذْهُوشُ
يبدو خيال غصونها فى مائه ... فكأنما هوَ مِغْصَمٌ مَنْقُوشُ

وقال أيضا عفا الله عنه :

لم لا أهيم إلى الرياض وحسنها ... وأظلّ منها تحت ظلّ ضافى ؟
والزهر حيّانى بثغر باسم ... والماء وافانى بقلبٍ صافى

وقال آخر :

قد سعينا نبغى زيارة دَوْحٍ [2] ... قد حبانا باللطف والإكرام
ناولتنا أيدى الغصون ثمارًا ... أخرجتها لنا من الأكمام

ومما قيل فى الأزهار والثمار قال بعضهم فى الورد :

ياراقدا ونسيم الصبح منتبه ... فى روضة القصف والأطيارُ تنتحب [3]

وقال بعضهم :

ولقد رأيت الورد يلطم خدّه ... ويقول : وهو على البنفسج يحنق
لا تقربوه وإن تضوّع نشره ... من بينكم فهو العدوّ الأزرق

ومما قيل فى البنفسج : وقال ابن المعتز :

ولازَوَرْدية وافت بِزَوْرتها ... بين الرياض على زُرق اليواقيت
كأنها فوق طاقات صففن بها ... أوائل النار فى أطراف كِبريت

ولبعضهم فى الورد :

---

(١) النوْر: الزهر والنوار يتساقط منه الندى وقد تفتح فبدا كضاحك يتساقط دمعه!
(٢) دَوْحٌ: جمع دَوْحة، وهي الشجرة العظيمة المتعشبة ذات الفروع الممتدة. والمظلَّة العظيمة.
(٣) القصف: اللهو واللعب والافتنان في الطعام والشراب، وتنتحب: تعلن البكاء.

للورد فضل على زهر الربيع سوى ... أن البنفسج أزكى منه فى المهج
كأنه وعيون الناس ترمقه ... آثارُ قرْصِ يَدٍ فى خَدّ ذى غَنَج[1]

وقال آخر :

يامُهديا لى بنفسجًا أرجًا[2] ... يرتاح صدرى له وينشرح
بشّرَنى عاجلا مصحفهُ[3] ... بأن ضيق الأمور ينفسح

وقال غيره فى النرجس :

وقضب زمردٍ تعلو عليها ... عيونٌ لم تذق طعم الغِماض[4]
توهمت الغمامَ لها رقيبا ... فنكست الرءوس إلى الرياض

وقال آخر :

أنت يا نرجس روض ... لزهور الأرض ست
ودليل القول فيك ... أن أوراقك ست

وقال آخر :

أقول وطرف النرجس الغَضّ شاخص ... إلىّ وللنمام حولى إلمام
أيا رب حتى فى الحدائق أعين ... علينا وحتى فى الرياحين نَمّامُ

وقال أيضا فيه :

لما تمادى الورد فى زهره ... وراح من إعجابه يرأس
تلون المنثور مما به ... واصفر من غيظ به النرجس

ومما قيل فى اللينوفر[5] لابن المعز المصرى :

وبركة تزهو باللينوفر ... نسيمُه يشبه نشرَ الحبيب
مفتح الأجفان فى نومه ... حتى إذا الشمس دنت للمغيب
أطبق جفنيه على خده ... وغاص فى البركة خوف الرقيب

وقال تميم بن المعز المصرى :

رأيت فى البركة لينوفرًا ... فقلت : ما شأنك وسط البرك ؟
فقال لى : غرقت فى أدمعى ... وصادنى ظبى الفلا بالشَّرَك
فقلت ما بال اصفرار بدا ... فيك وما هذا الذى غيرك ؟
فقال لى : ألوانُ أهل الهوى ... صُفرٌ ولو ذقت الهوى صفرك

ومما قيل فى البان :

قد أقبل الصيف وولى الشتا ... وعن قليل تسأم الحَرّا
أما ترى البان بأغصانه ... قد قلب الفَرْوَ إلى بَرّا

وقال آخر فيه :

---

(١) ذي غَنَج: ذي دلال.
(٢) أرجًا: أي طيب الرائحة.
(٣) مُصحفه: مجموع من الصحف في مجلد واحد.
(٤) الغماض: غمصت العين، كان بها غَمص، وهو ما سال من العين من وسخ أبيض جامد يجتمع في موق العين.
(٥) اللينوفر: نوع من أنواع الزهور.

أما ترى الْبانَ الذى يزهو على ... كل الغصون بقدّه المياس
وافى يبشر بالربيع وقربه ... يختال فى السنجاب والبرطاس

وقال فى الشقيق :

حييته بشقائق فى مجلس ... ورأى الرقيب فشق ذاك عليه
فاحمر من خجل فأنبت خده ... أضعاف ما حملت يداى إليه

وقال آخر :

لو لم أعانق من أحب بروضة ... أحداق نرجسها إلينا تنظر
ماانشق جيب شقيقها حسدا ولا ... بات النسيم بذيله يتعثر

وقيل : إن ابن الرومىّ الشاعر زار قبر أخيه يوما فوجد الشقائق قد نبتت على قبره فأنشد يقول :

قالت شقائق قبره ... ولرب أخرسَ ناطقِ
فارقتُه ولزمتُه ... فأنا الشقيق الصادق

ومما قيل فى المنثور :

تخال منثورها فى الدَّوْحِ منتثرا ... كأنما صيغ من دُرٍّ وعِقيَان
والطيرُ ينشد فى أغصانه سحرا ... هذا هو العيش إلا أنه فانى

وقال آخر :

قد أقبَل المنثور يا سيدى ... كالدُّر والياقوت فى نظمه
ثناك لازال كأنفاسه ... ومخ من يثناك مثل اسمه

ولبعضهم فيه :

ولقد خلوت مع الأحبة مرة ... فى روضة للزهر فيها معرك
ما بين منثور أقام ونرجس ... مع أقحوان وصفه لا يدرك
هذا يشير بأصبع وعيون ذا ... ترنو إليه وثغر هذا يضحك

ومما قيل فى الياسمين :

والأرض تبسم عن ثغور رياضها ... والأفق يُسْفر تارةً ويُقطب
وكأن مخضرَّ الرياض مُلاءةٌ ... والياسَمين لها طراز مذهب

وقال آخر :

رأيت الفأل بشرنى بخير ... وقد أهدى إلىّ الياسمين
فلا تحزن فإن الحزن شَين[1] ... ولا تيأس فإن اليأس مَين[2]

ومما قيل فى السوسن للأخطل الأهوازى :

سَقْيًا لأرضٍ إذا ما نمت نبهنى ... بعد الهدوّ بها قرعُ النواقيس
كأن سوسَنها فى كل شارقة ... على الميادين أذنابُ الطواويس

ومما قيل فى الأقحوان لعبد القادر بن مهنا المغربى :

---

(١) الشَّين: العيب والقبح.
(٢) المَين: الكذِب.

أفدى الذى زارنى سرًا فأتحفنى ... بأقحوان يحاكى ثغر ملتسم
فبت من فرحى أفنى مُقبَّله ... لثما وأرشف من ريقٍ له شبم[1]

ولبعضهم فيه :

إن فاه ثغر الأقاحى[2] فى تشبهه ... بثغر حبك واستولى به الطرب
فقل له عندما يحكيه مبتسما ... لقد حكيت ولكن فاتك الشَّنَبُ[3]

ومما قيل فى الجُلّنار :

وجلنار مشرق على أعالى شجره ... كأنه فى غصنه أحمره وأصفره
قراضة من ذهب ... فى خرقة معصفرة

ومما قيل فى الآسِ :

أهديتُ مُشبه قَدّك المياس ... غصنًا نضيرا ناعما من آس
فكأنما يحكيك فى حركاته ... وكأنما تحكيه فى الأنفاس

ومما قيل فى الريحان :

وغصن من الريحان أخضرَ ناضرٍ ... نما بين غصنى نرجس وشقائقِ
يُريك إذْ أكف الصَّبَا عبثت به ... شمائلَ مَعْشُوقٍ وذِلّةَ عاشِق

وقال آخر :

قضيب من الريحان شاكل لونه ... إذا ما بدا للعين لون الزبرجد
فشبهته لما بدا متجعدا ... عِذارًا تبدّى فى سوالِف أغْيَدِ

ومما قيل فى الفواكه والثمار على اختلافهما : فى الأترج قال ابن الرومى :

كل الخلال التى فيكم محاسنكم ... تشابهت منكم الأخلاق والخلق
كأنكم شجر الأترج طاب معا ... حملا ونشراً وطاب العود والورق[4]

ولبعضهم فيه :

حياك من تهوى بأترجه ... ناعمة مقدودة غضه
فجلدها من ذهب أصفر ... وجسمها الناعم من فضه

وقال آخر :

يا حبذا أترجة تحدث للنفس الطرب ... كأنها كافورة لها غشاء من ذهب

فى الليمون قول أبى الحسن رئيس الرؤساء :

يا حسن ليمونة حَيَّا بها قمر ... حلو المقبَّل ألْمَى باردُ الشَّنب
كأنها أكرة من فضة خرطت ... واستودعوها غلافا صيغَ من ذهب

فى النارَنج لعبد الله بن المعتز :

---

(١) شَبِم: بارد.

(٢) الأقاحي: مفردها أُقْحُوان، وهو نبت زهرة، ورقه مؤلَّل كأسنان المنشار.

(٣) الشَّنَب: جمال الثغر، وصفاء الأسنان.

(٤) الأترج: شجر ثمره كالليمون الكبار وهو ذهبي اللون ذكي الرائحة حامض الماء.

نظرت إلى نارنجة في يمينه ... كجمرة نار وهي باردة اللمس
فقرّبها من خده فتألفت ... فشبهتها المريخ في دارة الشمس

وقال آخر :

ونارنجة بين الرياض نظرتها ... على غصن رطب كقامة أغيد
إذا ميلتها الريح مالت كأكرة ... بدت ذهبا في صولجان زبرجد

وقال آخر :

ونارنج يلوح على غصون ... ومنه ما نرى كالصولجان
أشبهها ثُدِيًّا ناهدات ... غلائلها صُبغْنَ بزعفران

وقال آخر :

وأشجار نارنج كأن ثمارها ... حِقاق عقيقٍ قد مُلئن من الدر
نطالعها بين الغصون كأنها ... قدود عذارى في ملاحفها الخضر
أتت كل مشتاق بَريًّا حبيبه ... فهاجت له الأشجان من حيث لا يدرى

وقال آخر في تفاحة :

وتفاحة من سندس صيغ نصفها ... ومن جُلّنارٍ نصفُها وشقائق
كأن الهوى قد ضم من بعد فرقة ... بها خد معشوق إلى خد عاشق

وفيه أيضا :

أهدى لنا التفاحَ من كفه ... من لم يزل يجنيه من خدّه
وخط بالمسك على بعضها ... قد عطف المولى على عبده

وقيل في السفرجل :

سفرجَلةٌ صفراءُ تحكي بلونها ... محيا شجاه للحبيب فراق
إذا شمها المشتاق شبه ريحها ... بريح حبيب لذّ منه عناق
وطيبة عند المذاق فطعمها ... كريق حبيب طاب منه مذاق

وقيل في الكُمَّثْرى :

وكمثرى لذيذُ الطعم حلو ... شهى جاء من دوح الجنان
مناقير الطيور إذا اقتتلنا ... مغبرة بلون الزعفران

ابن برغش متغزلا :

وكمثرى سباني منه طعم ... كطعم الشهد شيب بماء ورد
لذيذ خلقه لما أتانا ... نهود السمر في معنى وقدّ

ومما قيل في المشمش :

بدا مُشمش الأشجار يذكو شهابُه ... على غض أغصان من الروض مُيَّدِ[1]
حكى وحكت أشجاره في اخضراره ... جلاجل تبر في قباب زبرجد

ما قيل في الإجاص :

(١) أي: تمايل.

انظر إلى شجر الإجّاصِ قد حملت ... أغصانه ثمرا ناهيك من ثمر
تراه في أخضر الأوراق مستترا ... كما اختبى الزَّنج في خُضرٍ من الأزرِ[1]

ما قيل في الخوخ :

أهدى إلىّ الصديق خوخا ... منظره منظر أنيق
من كل مخصوصة بحسن ... معناه في مثلها دقيق
حمراء صفراء مستعير ... بهجتها التبرُ والعقيق
كوجنة مسّها خَلوقٌ ... فزال عن بعضها الخلوق

ما قيل في الفستق :

تفكرت في معنى الثمار فلم أجد ... لها ثمرا يبدو بحسن مجردِ
سوى الفستق الرطب الجنّى فإنه ... زها بمعان زينت بتجرد
غِلالة مَرجان على جسم فضة ... وأحشاء ياقوتٍ وقلب زبَرْجَدِ

ومما قيل في النبق :

وسدرة كل يوم من حسنها في فنون ... كأنما النبق فيها وقد حَلا في العيون
جلاجل من نضار ... قد علقت في الغصون

في العنب لبعضهم :

هدية شرفتنا من أخ ثقة ... نعم الهدية إذ وافتك من يده
نوعان من عنب جاءا على طبق ... كأن طيبهما من طيب محتده
فأبيض العين يحكى لون أبيضه ... وأسود العين يحكى لون أسوده

في قصب السكر :

ورماح لغير طعن وضرب ... بل لأكلٍ ومَصّ لُبٍّ ورَشْفِ
كملت في استوائها واستقامت ... باعتدال وحسن قَدّ ولُطف

ومما قيل في البطيخ الأصفر :

أتانا غلام فاق حسنا على الورى ... ببطيخة صفراء في لون عاشق
فشبهته بدرا يقد أهلة ... من الشمس ما بين النجوم ببارق

وقال آخر :

وبطيخة وافى بها فوق كفه ... إلينا غلام فاق كل غلام
فخيل لى شمس الأصيل أهلة ... يقطعها بالبرق بدر تمام

ومما قيل في البطيخ الأخضر :

وظبى أتى في الكف منه بمدية ... وقد لاح في خديه شبه شقيق
فمال إلى بطيخة ثم شقها ... وفرقها ما بين كل صديق
صفائحَ بلّور بدت في زبرجد ... مرصعةً فيها فصوص عقيق

وقال آخر :

---

(١) الأَرز: شجر عظيم صلب دائم الخضرة، تُصنع منه السفن، وأشهر أنواعه أرز لبنان.

وبطيخة خضراء في كف أغيدِ ... أتانا بها فارتاح ذو الهم وابتهج
وأقبل يفريها بمديته وقد ... فرى طرفه الساجي القلوب مع المهج

ومما قيل في القثاء :

انظر إليها أنابيبًا منضدة ... من الزمرد خضرا ما لها ورق
إذا قلبت اسمها بانت ملاحتها ... وصار في عكسه إني بكم أثق

ومما قيل في الباذنجان :

وكأنما الأبذنج سود حمائم ... أوكاره خمل الربيع المبكر
نقرت مناقره الزمردَ سمسما ... فاستودعته حواصلا من عنبر

ومما قيل في الأنهار والبرك والنواعير :

أما ترى البركة الغراء قد كُسِيَتْ ... نورا من الشمس في حافاتها طلعا
والنهر من فوقه يلهيك منظره ... شهب سماوية فارتجّ والتمعا
كأنه السيف مصقولا يقلبه ... كف الكمي إلى ضرب الكماة سعى

وقال آخر في بركة :

يا من يرى البركة الحسناءَ رؤيتُها ... والآنساتِ إذا لاحت معانيها
فلو تمر بها بلقيس عن عرضٍ ... قالت : هي الصرح تمثيلا وتشبيها
كأنما الفضة البيضاء سائلة ... من السبائك تجري في مجاريها
إذا علتها الصَّبا بدت لها حُبُكًا[1] ... مثل الجَواشِن[2] مَضقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها ... ورونق الغيث أحيانا يباكيها
إذا النجوم تراءت في جوانبها ... ليلا حسبت سماءَ ركبت فيها

وقال آخر :

وبركة للعيون تبدو ... في غاية الحسن والصفاء
كأنها إذ صفت وراقت ... في الأرض جزء من السماء

وقال محمد بن سارة المغربي :

النهر قد رقت غلالة صبغه ... وعليه من صبغ الأصيل طراز
تترقرق الأمواج فيه كأنها ... عكن[3] الخصور تهزها الأعجاز

وقال آخر :

يوم لِقًا بالنيل مختصر ... ولكل وقت مسرة قصر
فكأنما أمواجه عُكَنٌ ... وكأنما دارتْه سُرَرُ

وقال آخر في نهر يسبح فيه الغلمان :

خليج كالحسام له صقال ... ولكن فيه للرائي مسره
رأيت به المِلاح تجيد عوما ... كأنهم نجوم في مجرة

---

(١) حُبُك: مفردها حبيكة، وهي الطريقة في الرمل أو الماء، ومسر النجوم.
(٢) الجواشن: جمع جَوْشن، وهو الصدر، والدِّرْع.
(٣) عكن الشيء: تجمَّع بعضه فوق بعض وانثنى، والعُكْنة ما انطوى وتثنَّى من لحم البطن سِمَنًا.

وقال آخر فى النيل :

النيل قال وقوله ... إذ قال ملء مسامعى
فى غيظ من طلب العلا ... عم البلاد منافعى
وعيونهم بعد الوفا ... قلعتها بأصابعى

وقال آخر :

كأن النيل ذو فهم ولب ... لما يبدو لعين الناس منه
فيأتى عند حاجتهم إليه ... ويمضى حين يستغنون عنه

وقال آخر :

وفت أصابع نيلنا ... وطغت وطافت فى البلاد
وأتت بكل مسرة ... ما ذى أصابع ذى أيادى

وقال آخر :

سَدّ الخليج بكسره جبر الورى ... طرا فكل قد غدا مسرورا
والماء سلطان فكيف تواترت ... عنه البشائر إذ غدا مكسورا

وقال آخر :

ونهر خالف الأهواء حتى ... غدت طوعا له فى كل أمر
إذا عصفت على الأغصان ألقت ... إليه بها فيأخذها ويجرى

وقال آخر فى ناعورة :

وكريمة سقت الرياضَ بدرها ... فغدت تنوب عن الغمام الهامع[1]
بلسان محزون ومدمع عاشق ... ومسير مشتاق وأنة جازع

وقال آخر :

وناعورة قالت وقد حال لونها ... وأضلعها كادت تعد من السقم
أدور على قلبى لأنى فقدته ... وأما دموعى فهى تجرى على جسمى

وفيها أيضا :

وحنانة من غير شوق ولا وجد ... يفيض لها دمع كمنتثر العقد
أحن إذا حنت وأبكى إذا بكت ... فليس لنا من ذلك الفعل من بد
ولكنها تبكى بغير صبابة ... وأبكى بإفراط الصبابة والوجد
وأدمعها من جدول مستعارة ... ودمعى من عينى يفيض على خدى

وفيها أيضا قال الخطيرى :

رب ناعورة كأن حبيبًا ... فارقتُه فقد غدت لى تحكى
أبدا هكذا تئن بشجو ... وعلى إلفها تدور وتبكى

ابن تميم :

---

(١) أهْمَع الماء ونحوه: أي سال، وسحاب وهميع، أي ماطر.

تأمل إلى الدولاب والنهر إذ جرى ... ودمعهما بين الرياض غدير
كأن نسيم الجوّ قد ضاع منهما ... فأصبح ذا يجرى وذاك يدور

فصل فى ذكر أرباب الصنائع والحرف والأسماء وما أشبه ذلك

لابن عفيف فى قاض مليح :

ورب قاض لنا مليح ... يعرب عن منطق لذيذ
إذا رنا لى بسهم لحظ ... قلنا له : دائم النفوذ

وقال فى فقيه مليح :

وبمهجتى ظبيا غدا متفقها ... وهو المهذب فى الرشاقة والحَوَر
أمسى بسيط الشعر منه مطولا ... لكن وجيز الخصر منه المختصر

وقال فى محدث مليح :

علقته محدثا ... شرد عن جفنى الوسن[1]
حديثه ووجهه ... كلاهما عندى أحسن

وقال فى الإمام :

جاء يسعى إلى الصلاة بوجه ... يخجل البدر فى ليالى السعود
فتمنيت أن وجهى أرض ... حين يومى بوجهه للسجود

ابن الرومى وأجاد :

بى عروضى مليح ... موتتى فيه حياة
عازلاتى فى هواه ... فاعلات فاعلات

فى مؤذن مليح :

ومؤذن أضحى كريما وجهه ... لكنه بالوصل أى شحيح
أبدا أموت بهجره لكننى ... من بعد ذاك أعيش بالتسبيح

لابن عربى :

وبنفسى مؤذن قد سبانى ... لم يفدنى شكوى الغرام إليه
كيف يصغى لما يقول حبيب ... واضع أصبعيه فى أذنيه

وقال آخر فى مريد :

مراد قلبى مريد ... مخبأ فى الزوايا
وليس ذا بعجيب ... ففى الزوايا خبايا

وفى فقير مليح :

بى فقير يتغنى ... بسنا وجه منير
لا تلمنى فى افتضاحى ... فغرامى بالفقير

فى أمير شكار لابن دانيال :

---

(١) الوسن: وسِنَ وَسَنًا وسِنةً، أي أخذ في النُّعاس.

بى من أمير شكار ... وجد يذيب الجوارح
لما حكى الظبى حسنا ... حنت إليه الجوارح

فى مليح مغن :

أضحى يخر لوجهه قمر الدجا ... وغدا يلين لحسنه الجلمود
فإذا بدا فكأنما هو يوسف ... وإذا شدا فكأنه داود

فى مليح عواد :

غنى على العود ظبى سهم ناظره ... أمسى به قلبى المضنى على خطر
دنا إلىّ وجست كفه وتَراً ... فراحت الروح بين السهم والوتر

فى مليح كاتب :

بروحى كاتبا كالبدر حسنا ... بديعا ما رأينا منه أجمل
على ريحان عارضه المفدى ... بوجنته غدا دمعى مسلسل

غيره :

وراقنا ذا المفدى ... فيه تزايد عشقى
فلو يجود بوصل ... لكان مالك رقى

وفيه أيضا :

يا حُسنَ ورّاق أرى خدّه ... قد راق فى التقبيل عندى ورَق
تميل فى الدكان أعطافُه ... ما أحسنَ الأغصان بين الورق

للسيد الشريف صلاح الدين الأسيوطى فيه أيضا :

فديتك أيها الوراق قلبى ... لمطلك بالوصال يكاد يبلى
وقد طلب الوفاء وغير بدع ... محب يسأل الوراق وصلا

فى مليح صيرفى :

يا سائلا عن حالتى ما حال من ... أمسى بعيد الدار فاقد إلفه
بى صيرفى لا يرق لحالتى ... قد مِتُّ من جور الزمان وصرفه

فى مليح بخانقى :

تسلطن فى الملاح بخانقى ... ولا يرضى ببدر التم نائب
وقد صفت له الأتراك جندا ... وأصبح راكبا تحت العصائب[1]

فى مليح فراء :

قلت لفرا فَرَىٰ أديمى ... وزاد صدًّا وطالَ هجرا
قد فر نومى وفر صبرى ... فقال لما عشقت فرا

فى مليح قصاص :

أشكو إلى الله قصاصا يجرعنى ... بالهجر والصدّ أنواعا من الغُصَص
إن تحسن القَصّ يُمناه فمقلته ... أيضا تقص علينا أحسنَ القصص

(١) العصائب: مفردها عصابة وعِصاب، وهي الجماعة من الناس أو الخيل أو الطير، وبمعنى العمامة، والتاج.

فى مليح صياد :

ومولع بفخاخ ... يمدُّها وشراك
قالت له العين : ماذا ... تصيد ؟ قال : كراكى

فى مليح رامى بندق :

وأهيف القد ذى دلال ... طائر قلبى عليه واجب
كالشمس فى كفه هلال ... يرمى إلى البدر بالكواكب

القيراطى فى مليح طحان :

حُسْنُ طحان سبانى ... بلحاظ وبقامه
خاف من واشٍ فأضحى ... يجعل الغمز علامه

القاضى بدر الدين البلقينى فى تراب :

رب ترّاب مليح ... أورث القلب عذابا

وقال آخر فى مليح عوّام :

يا حسن عوّام كغصن النقا ... يبخل بالوصل لمن هاما

وله أيضا :

ومن عجب تدعى لِلُطْفكَ سنبلا ... و نشرك كافور وذكرك عنبر
وسعدك إقبال وحسنكَ مرشد ... وخلقك ريحان ولفظك جوهر

وقال آخر فيمن به صفرة :

قالوا : به صفرة شانت محاسِنَه ... فقلت : ما ذاك من عيب به نزلا
عيناه مطلوبة فى ثأر من قتلت ... فلست تلقاه إلا خائفا وجلا

للشيخ شهاب الدين بن حجر فى مليح اسمه زائد :

وزائر قال قلبى ... للطرف يا طرفُ شاهد
مدحته فتجنى ... تيهها علىّ بزائد

وقال آخر فى مليح أرمد :

شكا رمدًا فقلت : الآن كلّت ... لواحظه من الفتكات فينا
وقالوا : سيف مقلته تصدّى ... فقلت : نعم لقتل العاشقينا

لمجد الدين بن مكانس فيه :

تورمت مقلة المحبوب من رَمَدِ ... وبات يشكو لهيبَ القلب والألما
وبات يرمى محبيه بأسهمه ... فيا له من حبيب قد شكا ورما

لابن أبى حجلة فى أعور :

ما شان من أهواه عين أصبحت ... مقلوعة بمحاسن متزايدة
لولا استخف العالمين بأسرهم ... ما ظل ينظرهم بعين واحدة

القيراطى فى مليح اسمه بدر :

سَمُّوه بدرا وذاك لما ... أن فاق فى حسنه وتما
وأجمع الناس إذ رأوه ... بأنه اسم على مسمى

آخر فى مليح اسمه حمزة :

متى يبدو لحمزة ما بقلبى ... ويرث لى وينظر فى بلائى
وأشفى بالمبرّد من لماه ... وأجمع بين حمزة والكسائى

وقال آخر :

كلفت به ولم أبلغ مرادى ... غزال قد تحكم فى قيادى
فتصحيف اسمه فى وجنتيه ... وفى معسول فيه وفى فؤادى

فى مليح سروجى :

فتنت به سروجيا بديعا ... به قد ذبت وجدا من ضجيجى
إذا جذب الغرام له عنانى ... يلذ لى الركوب على السّروج

وقال آخر فى مليح محموم :

قالوا : حبيبك محموم فقلت لهم ... أنا الذى كنت فى حِمائه السببا
عانقته ولهيب النار فى كبدى ... فأثرت فيه تلك النار فالتهبا

وقال فى مليح خباز :

إن خبازنا المليح المفدى ... فى حشا الصبّ مِن جَفاه كُلوم
خلت دكانه البديعَ سماءً ... وهو بدر والخبز فيه نجوم

وقال فى مليح حائك :

وحائكٍ يا صاح أبصرتُه ... كالبدر فى كفيه ماسوره
فلم أرح إلا وروحى لما ... عاينت فى كفيه ماسوره

فى مليح خياط :

خياطنا الفاتن المفدّى ... بديعُ حسن فريدُ شكلِ
فصّل للجسم ثوبَ سُقْمٍ ... لما جفانى وكَفّ وَصْلى

الصفىّ الحلىّ فى مليح قلع ضرسه :

لحا الله الطبيب لقد تعدى ... وجاء لقلع ضرسك بالمحال
أعاق الظبى فى كلتا يديه ... وسلط كلبتين على غزال

وقال فى مليح سلم عليه :

تنبأ فيك قلبى فاسترابت ... به قوم وعمهم الضلال
وصدهم الهوى أن يؤمنوا بى ... وقالوا إن معجزه محال
ومذ سلمت سلمت البرايا ... إلىّ وقيل : كلمه الغزال

وقال فى مليح يرمى بالسهام :

وظبى بشعر فوق طرف مفوّق ... بقوس رمى فى النقع[1] وحشًا بأسهم
كبدر بأفق فوق برق بكفه ... هلال رمى فى الليل جنا بأنجم

---

(١) النَّقْع: الماء المجتمع في الغدير، ونَقْع البئر: الماء المجتمع فيها قبل السَّقْي، والغبار الساطع.

وقال فى مليح يضرب بالعود :

فتن الأنام بعوده وبشدوه ... شاد تجمعت المحاسن فيه
حتى كأن لسانه بيمينه ... وكأن ما بيمينه فى فيه

وقال أيضا فيه :

وأغنّ قد أبدى لنا من عوده ... نغما أصحّ به القلوبَ وأمرضا
بيد إذا سخطت على أوتاره ... نال الرفاقَ بسُخْطِها عينُ الرضا

وقال فى مليح مشبب :

يا نافخ الصور بل يا باعث الصور ... من رقدة السكر لا من رقدة الحُفَر
قرنت حسنك بالإحسان فيه لنا ... فكان فيك مراد السمع البصر
ضمنت للصحب إقبال السرور كما ... ضمنت نايك نای الهمّ والفِكرِ
صوت بسيط به أرواحنا انبسطت ... إذ جئت فى اللفظ والمعنى على قدر

وقال أيضا فى رسول مليح أتاه من عند من يحبه :

من كنت أنت رسوله ... كان الجواب قبوله
ياطلعة الشمس الذى ... جاء الصباح دليله
لم يبد وجهك قبله ... إلا ارتقت وصوله
فلذاك إذ واجهتنى ... بلّ الفؤادُ غليلَه

فى مليح قارئ :

نفسى الفداءُ لشادنٍ شاهدتُه ... يومَ الزيارة قارئًا فى المصحف
فتن الأنام ببهجة وبلهجة ... تسبى وتضنى كل صبٍّ مدْنَفِ
فتلا مَليا جُلّ سورة يوسف ... وحلا محيا مثل صورة يوسف

وقال آخر فى مليح مكتمل العذار :

وكامل العارض قبّلته ... فصدنى وازورّ من قبلتى
وقال كم أنهاك عن مثل ذا ... وأنت ما تفكر فى لحيتى ؟!

وقال آخر فى مليح حجام :

كلفت بحجام تحكم طرفه ... فغدا على سفك الدماء يواطى
أضحى كثير الاشتطاط ولم تكن ... منه اللحاظ كليلة المشراط

[فصل فى الألغاز]

[١] فى غزال :

اسم من قد هويته ... ظاهر فى حروفه
فإذا زال ربعه ... زال باقى حروفه ؟!

[٢] فى كوز فقاع :

ومحبوس بلا ذنب جناه ... له فى السجن ثوبٌ من رصاص
إذا أطلقته وثب ارتفاعا ... يقبل فاك من فرح الخلاص

[٣] فى زرموزة :

مطية فارسُها راجلُ ... تحمله وهو لها حامل
واقفة بالباب مزبولة ... لا تشرب الدهرَ ولا تأكل

[٤] وقال فى طاحون :

ومسرعة فى سيرها طول دهرها ... تراها مدى الأيام تمشى ولا تتعب
وفى سيرها ما تقطع الأكل ساعة ... وتأكل مع طول المدى وهى لا تشرب
وما قطعت فى السير خمسة أذرع ... ولا ثلث ثمن من ذراع ولا أقرب

[٥] فى دواة :

ومرضعة أولادها بعد ذبحهم ... لها لبنٌ ما لذّ قطّ لشارب
وفى بطنها السكين والثدى رأسها ... وأولادها مدخورة للنوائب

[٦] فى قلم :

وأهيف مذبوح على صدر غيره ... يترجم عن ذى منطق وهو أبكم
تراه قصيرا كلما طال عمره ... ويضحى بليغا وهو لا يتكلم

[٧] وفيه أيضا :

بصير بما يوحى إليه وماله ... لسان ولا قلب وهو سامع
كأن ضمير القلب باح بسره ... إليه إذا ما حركته الأصابع

[٨] وفيه أيضا :

وأصفر عار أنحل السقم جسمه ... يشتت شمل الخطب وهو جموع
حَمَىٰ الجيش مفطوما كما كان تحتمى ... به الأسد فى الغابات وهو رضيع

[٩] وفيه أيضا :

وذى نحول راكع ساجد ... أعمى بصير دمعه جارى
ملازم الخمس لأوقاتها ... مجتهد فى طاعة البارى

[١٠] فى مرملة[1] :

معشوقة لذوات العز قد صنعت ... حزينة ما تراها قط تبتسم
كأنها من صروف الدهر خائفة ... تبكى دماءً على ما سطر القلم

[١١] فى كتاب :

وذى أوجُه لكنّه غيرُ بائحٍ ... بسرٍّ وذو الوجهين للسر يظهر
تناجيك بالأسرار أسرار وجهه ... فتسمعها بالعين ما دمت تُبصِرُ

[١٢] فى سلطان حسن لابن أبى حجلة :

ما اسمُ محبَّبٌ للقلوب لأنه ... حسنُ الحروف يجود بالإحسان
تصحيفُه أمسى حبيبا كلما ... صَحفت أحرفه بحسن بيان
لو جاد لى يوم برؤية وجهه ... نلتُ المراد وعشتُ بالسلطان

(١) المَرْملة: ما يوضع فيه الرمل لتجفف به الكتابة.

[١٣] فى شبابة :

وما صفراءُ شاجيةٌ ولكن ... تزينها النضارة والشباب
مكتبة وليس لها بنان ... مُنقبة وليس لها نِقابُ
تصيحُ .. لها إذا قبّلْتُ فاها ... أحاديثُ تلَذّ وتُستطاب
ويحلو المدح والتشبيب فيها ... وليست لاسعادُ ولا الربابُ

[١٤] فى دملج [1] :

إلى النساء يلتجى ... وعندهن يوجدُ
الجسم منه فضة ... والقلب منه جُلْمُد

[١٥] فى خلخال :

أيا عجبا من صابر صامتٍ ولم ... يفُه بكلام قطّ فى ساعة الضرب
أقام ولم يبرح مكانا ثوى به ... على أنه أضحى يدورُ على الكعب

[١٦] فى شعر اللحية :

وذى عددٍ كالرمل سام محله ... جميلٌ على كُلّ الملاح له حَق
يحاذر من موسى ويرهب باسمه ... وفى قلب هارون له الهلك والمحق

[١٧] فى التين :

أى شىء لذّ طعما ناعم اللمس ولين ... كيف لا يبدو وضوحا

وهو فى التصحيف بين ؟!

[١٨] فى الموز :

ما اسم لشىء حسن شكلهُ ... تلقاه عند الناس مَوزونا
تراه معدودا فإن زدته ... واوا ونونا صار موزونا

[١٩] فى حمزة :

من لى بمعتد القَوام مهفهف ... أزرى بغصن البان لينةُ قدّه
فى فيه تصحيفُ اسمه وبخده ... وبقلب عاشقه لشدة صدّه

[٢٠] وفيه أيضا :

اسم الذى أنا أهواه وأعشقه ... وطول دهرى أخشى من تجنيه
تصحيفه فى فؤادى دائما أبدا ... يبدو وفى خده أيضا وفى فيه

[٢١] فى ساقيه :

وجارية لولا الحوافرُ ما جرت ... أشاهدها تجرى وليس لها رجلُ
وتُرضع أطفالا ولا هى أمهم ... وليس لها ثدى وليس لها بَغلُ

[٢٢] وفيها أيضا :

وجارية تبكى إذا الليل جَنّها ... بلا ألم فيها ولا ضَرب ضارب
عليها رجال شنقوا بعد حرقهم ... وما كان شنق القوم إلا بواجب

---

(١) الدُّمْلُج: سوار يحيط بالعضد والحجر الأملس.

[٢٣] فى راوية :

وسوداء تشربُ من رأسها ... وإن شئت تسقيك من فَرْدِ يد
ولونٌ لها مثلُ لون أختها ... وثنتاهما واحد فى العدد
وتحبل فى الوقت هى وأختها ... وفى ساعة يضعان الولد

[٢٤] فى فيل :

أيما اسم تركيبه من ثلاث ... وهو ذو أربع تعالى الإله
حيوان والقلب منه نبات ... لم يكن عند جوعه يرعاه
فيك تصحيفه ولكن إذا ما ... رمت عكسا يكون لى ثلثاه

[٢٥] فى بجع :

ما طائر فى قلبه ... يلوح للناس عجب
منقاره فى بطنه ... والعين منه فى الذنب

[٢٦] فى نار :

وما اسم ثلاثى به النفعُ والضرر ... له طلعة تغنى عن الشمس والقمر
وليس له وجه وليس له قفا ... وليس له سمع وليس له بصر
يمد لسانًا يختشى الرمحُ بأسَه ... ويهزأ يومَ الضرب بالصارم الذكر
يموت إذا ما قمت تسقيه عامدًا ... ويأكل ما يلقى من النبت والشجر
فيا قارئ الأبيات دونك شرحها ... وإلا فنم عنها ونَبِّه لها عمر

[٢٧] وفيها أيضا :

وآكلة بغير فم وبطن ... لها الأشجارُ والحيوان قوتُ
إذا أطعمتها انتعشت وعاشت ... وإن أسقيتها ماء تموت

[٢٨] فى يد الهاون :

قل لى فما شىء يرى ناعما ... منتصبَ القامة طولَ الزمان
أطولُ من شبر له حَزّة ... مُفَيْشَلُ الرأس قوىّ الجنان
يُسْمَع فى القعر له رنةٌ ... ويظهر الصفق بأعلى مكان

[٢٩] فيه أيضا :

خبرونى أى شىء ... أوسع ما فيه فمه
وابنه فى بطنه ... يرفسه ويلكمه
وقد علا صياحه ... ولم يجد من يرحمه !

[٣٠] فى كوز زير :

وذى أذن بلا سمع ... له قلب بلا لُبّ
إذا استولى على صبٍّ ... فقل ما شئت فى الصبّ

[٣١] فى اسم على :

اسم الذى أعشقه ... أوله فى ناظره
إن فاتنى أوّله ... فإن لى فى آخره

[٣٢] فى موسىٰ للصفدى :

وما شيءٌ له حدّ وخدّ ... يكلم من يلامسه بحقه
وكل حلقه من تحت رأسٍ ... وهذا الرأس صارت تحت حلقه

[٣٣] فى حلب لابن الفارض رحمه الله تعالى :

ما بلدة بالشام قلب اسمها ... تصحيفه أخرى بأرض العجم
وثلثه إن زال من قلبه ... وجدته طيرا شجىَ النغم

[٣٤] وقال فى سمرقند :

وما اسم سداسى إذا ما لمحته ... ترى فيه أجزاء تذم وتشكر
له ثلث يأتى به الموتُ فجأة ... وثلث مع الكتاب يطوى وينشر
وثلث رعاك الله يا صاحبى له ... على مدد الأيام نشر معطر
وفى نصفه لما تحرك بعضه ... حديث شهىَ فى الليالى يذكر
وفى نصفه الثانى إذا ما أعدته ... إلى النار للتحليل والعقد سكر
ففسر لنا ذا اللغز إن كنت ذا حجىَ ... فليس على ذى العقل لغز معسر

[٣٥] وقال فى كمون :

يأيها العطار أعرب لنا ... عن اسم شىء قلّ فى سومك
تراه بالعينين فى يقظة ... كما ترى بالقلب فى نومك

[٣٦] وقال فى قالب الطوب :

وما آكل فى قعدة ألف لقمة ... ولقمته أضعاف أضعاف وزنه
إذا نزل المأكول جنبيه لم يقم ... سوى لحظة أو لحظتين ببطنه

[٣٧] فى العين :

وباسطة بلا عصب جَنَاحَا ... وتسبقُ ما يطيرُ ولا تطير
إذا ألقمتها الحجرَ اطمأنت ... وتجزَعُ أن يباشرها الحريرُ

ويكفى من ذلك ما أشرت إليه ، وما نبهت من هذا الفن عليه ، وقد مضى القول من الفنون السبعة ، على فن الشعر القريض ، وما فيه من الفنون المتقدم ذكرها (ولنذكر) إن شاء الله - تعالى - بقية الفنون السبعة على وجه الاختصار ، والفنون المذكورة عند الناس هى : الشعر القريض ، والموشح ، والدوبيت ، والزجل ، والموّاليات ، والكان وكان ، والقوما ، ومنهم من جعل الحماق من السبعة ، وفى ذلك اختلاف وعند جميع المحققين أن هذه الفنون السبعة منها ثلاثة معربة أبدا لا يغتفر اللحن فيها ، وهى : الشعر القريض ، والموشح ، والدوبيت . ومنها ثلاثة ملحونة أبدا وهى : الزجل ، والكان وكان ، والقوما . ومنها واحد وهو البرزخ بينهما يحتمل الإعراب واللحن وهو الموّاليا ، وقيل : لا يكون البيت منه بعض ألفاظه معربة ، وبعضها ملحونة ، وإن هذا من أقبح العيوب التى لا تجوز وإنما يكون المعرب منه نوعا بمفرده ، ويكون الملحون فيه ملحونا لا يدخله الإعراب ، وقد أوضح قاعدة الجميع أو أمثلتها صفى الدين أبو المحاسن الحِلّى فى ديوانه ، وسماه بالعاطل الحالى ، والمرخص الغالى ، ولو بسطت المقال ، لاتسع المجال ، وكثر القال ، ولكن الاختصار يذهب الأوجال والحمدلله رب العالمين على كل حال .

[فصل فى بيان الفن الثانى وهو الموشح[١]]

لابن المبارك :

قد أنحل الجسمَ أسمر أكحل ... وأوحلَ القلبَ فيه مُذ حَلَّ

دور :

أميل له فلا يميل ... يحول وعنه لا أحول
أقول إذا زاد بى النحول ... أماحل عقد الصدود ينحل
ويرحل عن نجم المزحل

دور :

كم أبعد وكم أبيت مكمد[٢] ... ويعمد بهجره لأفقد
وأجهد لارتصاد من قد ... تحمل والحاسدون رحل
تمحل[٣] والوعد منه ما حل

دور :

متوّج بالحسن هذا الأبلج ... مدبج عِذاره البَنفسج
مفلّج وطرفه ذا الأدعج ... مكحّل وثغره منحل
مخلخل بعنبر معجل

دور :

برغمى من يستحل ظُلمى ... ويرمى بحربه لسلمى
وجسمى من التزام سقمى ... منحل وقد غدا مرحل
فمن حل سفك دمى وما حل

دور :

قلانى واشتط ذا الفلانى ... غزانى بطرفه اليمانى
ترانى أنشد لمن يرانى ... قد أنحل الجسمَ أسمر أكحل
وأوحل القلب بفيه مذ حل

دور : لابن سناء الملك

كَلِّلِى يا سُحْبُ تيجانَ الرُّبا بالحلى ... واجعلى سوارَك المنعطف الجدول

دور :

أزهرت ليلتنا بالوصل مذ أسفرت ... أصدرت بزورة المحبوب إذ بشرت

---

(١) الموشح : فن من فنون الشعر استحدث فى العصور المتأخرة . وقد تناوله الشعراء واستطرفوه ، ووجدوا النظم فيه أيسر وأهون من التزام طرق النظم القديمة، وقد كان من الممكن أن تعد الموشحات حدثا جديدا وثورة فى الشعر العربى لولا أن ما بها من جدة لا يعدو الوزن والقافية ، أما موضوعات الموشحات ومعانيها ، فتكاد تكون نفس المعانى والموضوعات التى طرقها الشعراء الأقدمون. [الدكتور إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر] .

(٢) مكمد: كمد الرجلُ، أي كتم حزنه، أو حزن حزنًا شديدًا.

(٣) تمحَّل: احتال. ويقال محَّل فلانًا، أي قوَّاه، وتماحَل المكان: تباعد.

أخرت فقلت للظلماء مذ قصرت طولى يا ليلة الوصل ولا تنجلى
وأسبلى سترك فالمحبوب فى منزلى

دور :

من ظلم فى دولة الحسن إذا ما حكم فالألم يجول فى باطنه والندم
والقلم يكتب فيه عن لسان الأمم من ولى فى دولة والحسن لم يعدل
يعزى لألحاظ الرشا الأكحل

وله أيضا :

ترى هل يشتفى منك الغليل ويشفى من صبابته العليل

دور :

لقد أسرفت فى هجرى وصدى بلا سبب سوى كلفى ووجدى
وماذا فى سلو عنك يجدى خضاب الوجد ليس له فصول
وأسياف الهوى فينا تصول

دور :

لئن شحيت عنى بالسلام وطيفك قد جفا لجفا المنام
فقد جادت بأربعة سجام[1] جفون بالبكا كادت تحول
على خد أسف به النحول

دور :

لقد أرسلت فى طى النسيم حديث هوى عن الوجد القديم
فعادت وهى عاطرة الشميم تخبر أن ظعنهم نزول
بدار لا يلم لها نزيل

دور :

تلقته الموالى والموالى بألحاظ وزرق من نصال
وأعطاف وسمر من عوالى فكم بطل هناك وكم قتيل
بسيف من لواحظه قتيل

وله أيضا :

شمس المحيا أم القمر أم بارق الثغر يا بشر
أم البها حفه الخفر بطرز خديك مستطر

سلسلة : قم تباها بما تباها ولا تلاها

قفلة :

فكل أحبابنا حضروا والعود يشجيك والوتر

الدور :

---

[1] سجم الدمع والمطر : سال قليلًا أو كثيرًا، وسجم العينُ الدمعَ : أسالته.

أفديك بالسمع والبصر يا أهيف وصلُه وطَرى
بدر بدا في دجى الشعر قد لذ في حبه سَهَرِى

سلسلة :

إذا تجلى وقد تَحلى عليك يجلى

قفلة :

تحير في وصفه الفكر والعقل والسمع والنظر

وقال رحمه الله تعالى :

وَانَسِيم السَّحَر هل لك خبر عن عريب[1] همو بالمنحنى
فارقوني ولم أقض الوطر من لقاهم ولا نلت المنى
قلت : يا قلب صبرًا ما صبر والنبي ما الهوى إلا عنا
ما كتمت الهوى إلا ظهر من شهود المدامع والضنى

دور :

لِيشْ تمنع وصَالك يا حبيب عن محبك ولا يعشق سواك
راقبِ اللهَ وارجع من قريب قبل يبلى جسمه في هواك
لست ألقى لدائى من طبيب غير رشفى حبيبى من لماك
لو رأى حالى العاذل عذر حينما ينظر جمالك والسنا

دور :

يا قمر فوق غصن من نقا[2] أثخنتنا مطالك والصدود
يا رعى الله لويلات اللقا ليتها ياخل يوما لى تعود
ليلة السعد ما فيها شقا كيف تشقى وطالعها سعود ؟!
صفوها لا يمازجه كدر بالمسرات وأوقات الهنا

غيره :

حملت مذ سارت الحمول وجدا مضى العمر وهو باقى

دور :

ساروا وسار الفؤاد لكن جسمى مقيم على المساكن
وعنى الحب صار ظاعن مالى إلى وصله وصول
لو سرت بالبرق والبراق

دور :

وغادة كالقضيب قدّا والورد والياسمين خدًّا
كأنها البدر إذ تبدّى وشعرها أسود طويل
كأنه ليلة الفراق

دور :

هونا أتتنا تميل ميلا سحابة كالسحاب ذيلا

---

(١) العريب: يقال ما بالدار عريب، أي ما بالدار أحد.

(٢) نَقِى الشيء: نَظُفَ، فهو نقيٌّ. أمَّا النَّقَا، فهو العظم ذو المخ، والكثيب من الرمل.

فقلت : شمس تزور ليلا وما درى كاشح عذول
فذاك من أعجب اتفاق

فصل فى الفن الثالث وهو الدّوبيت[1]

لسيدى شرف الدين بن الفارض رحمه الله تعالى :

أهوى قمرًا له المعانى رق من صُبْح جبينه أضاء الشرق
تدرى بالله ما يقول البرق ما بين ثناياه وبينى فرق

وقال أيضا :

أهوى رَشا كل الأسى لى بعثا مذ عاينه تصبُّرى ما لَبِثَا
باديت وقد فكرت فى خِلقته سبحانك ما خلقت هذا عبثا

وقال أيضا :

عرّج بطُوَيلع فلى ثَمّ هوىَ واذكر خبرَ الغرام واسنده إلىَ
واقصص قصصى عليهم وابك علىَ قل مات ولم يحظ من الوصل بشى

وقال أيضا :

روحى لك يا زائرًا فى الليل فِدَا يا مؤنسَ وَحدتى إذا الليل هَدَا
إن كان فراقُنا مع الصبح بَدَا لا أسفر بعد ذاك صبحٌ أبَدَا

وقال آخر :

يا شمسَ ضُحىَ جبينُه وضاحُ ساعاتُ وصالك كلُّها أفراحُ
عُشَّاقك لو فعلت ما شئت بهم ماتوا كمدا وبالهوى ما باحوا

وقال آخر :

أهواهُ مُهَفْهَفًا ثقيلَ الرِّدف كالبدر يجلّ حسنُه عن وصفِ
ما أحسنَ واوَ صُدغهِ حين بدت يا رَبَّ عسى تكون واو العطف

وقال التلعفرى :

قلبى ذهبتْ لبُغدِكُمْ راحته ما الصبرُ على بعادكم عادَتُه
بنتم فرثى لما به شامُته لا كان فراقكم ولا ساعتُه

وقال المنشد :

إحسانُك طولَ الدهر لا أنساه لا أذكر بعد خالقى إلا هو
إن أبعدك الزمان عنى حَسَدًا مولاى خليفتى عليك الله

وقال الآخر :

إن جئت رُبَا الحمى ولاحت نجدُ فاذكر ولَهى وما جَنَاهُ البُعْدُ
قد كنت أقاسى الصدّ حتى رحلوا يالَيتَهم عادُوا وعادَ الصَّدّ

---

(١) الدّوبيت : هذا وزن يكاد الرواة يجمعون على أنه ... صالح لنظم اللغة الفارسية ، واستعاره بعض الناظمين باللغة العربية الفصيحة فى النادر من الأحيان ، ولهذا النظم خصائص بعضها يتعلق بالوزن والبعض بالقافية ، وقد وصف العروضيون وزنه بأنه : فَعْلن متفاعلن فعولن فَعِلُن وقد جاءت التفعلية الأخيرة كالأولى فى بعض الأحيان .

فصل فى الفن الرابع وهو الزجل[1]

دور للغبارى :

قل لغزلان وادى مصر والشام ... يقصروا ذا النفار
لهم أجعل حشاشتى ... مرعى وفؤادى قفار

دور :

مصر والشام فيها ملاح أقمار ... بالمحاسن تسود
ذا أبيض وذا أحمر وذا مليح أسمر ... لو عيون نجل سود
وذا غزال صار يفوق على الغزلان ... ويصيد الأسود
وذا غصن بان أهيف قوام قدّ ... وقدّ الأغصان جهار
وذا بدر الكمال قد ظهر فى الليل ... وذا شمس النهار

دور :

تدر بالله أيش قالت مليح الشام ... بعد ذاك الصدود
قد سمينا بصحة الأبدان ... واعتدال القدود
وتخضب تفاحنا الأحمر ... فوق بياض الخدود
وأنتم يا عشاق لكم قلنا ... والحسود راح بنار
أنتم التفاح وما نقصد ... منكم إلا الخيار

دور :

وملاح مصر قالت احنا أصحا ... ب الوجوه الملاح
والحلاوة وطيبة الأخلاق ... فى الخلائق مباح
احنا أقمار واحنا بدور الليل ... وشموس الصباح
وفى الألفاظ والظرف والمعنى ... ليس لنا حد صار
وورثنا الحسن من يوسف ... واكتسبنا الفخار

دور :

حسن حبى الفرارجى فرحه بدر ... فى السعد لاح
فرخ ناجب خرج من القشرة ... فاق ملاح الملاح
كلما اعمل على رضاه يفسد ... بجفاه الصلاح
ومن البيضة قد خرج ... نافر رد جفنى بنار
وجفانى وخد بياض ... جسمى خلطوا بالصفار

دور :

فهو عطار عندُو شراب ... هندى وبرانى جفاه

---

(١) يرى ابن خلدون فى مقدمته كيف انتقل النظم من الموشحات إلى الأزجال فيقول: « ولما شاع فن التوشيح فى أهل الأندلس ، وأخذ به الجمهور لسلاسته ، وتنسيق كلامه ، وترصيع أجزائه ، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ، ونظموا فى طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعرابا واستحدثوا فنا سموه بالزجل ، ومن هذا نرى أن الزجل شعر نظم بلغة العامة ولهجة كلامهم لا يراعى فيه قواعد الإعراب ، ولا الصيغ الصحيحة للكلمات » .

كل من مص من لسانو ريقو ... يلتقى فيه شفاه
وردُ خدّو وحبتو سودا ... شبه خال فى صفاه
جبل آس عارضوا أسر ... قلبى والكبار والصغار
فى المحبًا غاروا على حسنو ... وكل من حب غار

دور :

دوّرونى الملاح على كعبى ... ونصوا نصوص
بلا دعوى التف لف اليسير ... فى هواهم خصوص
وعليا صار نقشهم قاعد ... مثل نقش الفصوص
والبساط انطوى وحين ما رأوا ... خلف له همه ولو اصطبار
قمرونى فى عشق هذا القمر ... والمحبة قمار

دور :

لحبيبى ثغر من جوهر ... والشفيفات عقيق
وعوارض ما ضرهم عارض ... غير نبات الشقيق
وخدود ورد من غير نمش ... ووصفنا عن حقيق
يحرس الورد خال عنبر ... تحت أهداب غزار
فى صفاء وجهو أنزه طرفى ... عند خلع العذار

دور :

فى رياض صفوف من الأزهار ... قابلتها صفوف
كيف لا ترقص والنسيم بها ... موصول وورقها دفوف
وأعجب من النهر إذ صفق ... لو من الموج كفوف
والغيوم نقطت وحين جا النسيم ... طار أعلى مطار
باختلاف الألحان سحر فى الروض ... صاح على عود وطار

دور :

أشرف الخلق بَيّن الإسلام ... والهدى والضلال
والشرايع والحق والباطل ... والحرام والحلال
نبى من بين أصابعه ... تحقيق نبع الماء الزلال
ولو أن النبات جميعه أقلام ... والمداد البحار
والخلايق تكتب مَدِيحُو تاه ... كل كاتب وحار

دور :

خلف أستاذ فى الفن ما ينطاق ... ذاق عداه المنون
ما يعيبو فى الفن غير ناقص ... عقل زايد جنون
شيخ مصدر لبيب قيم ... فى جميع الفنون
باتضاعو مع الصغار مرفوع ... فوق رءوس الكبار
وأهل الفنون تجرى وما تلحق ... للغبارى غبار

غيره لناصر الغيطى :

كنز روضي طالبو يسعد ... يا خليع قم في دجى الأسحار
تلتقي در الندى يرهج ... فوق فصوص غرائب النّوار

دور :

الفراق نار والوصال جنة ... والخلائق بعضهم يعشق
دا حبيب قلبو عليه راضى ... ودا محبوبو عليه يشفق
ولهيب الهجر يتوقد ... والوصال من الملاح يشتق
والمليح عندى وأنا مطمن ... وسط روضا زهرها معطار
في نعيم مع حور ومع ولدان ... والعذول مسكين صبح في نار

دور :

وعمل في الروض سماع باكر ... بين الأغصان والزهور انقام
والنسيم شبب والغدير صفق ... والخليع من كتر وجدو هام
والنخيل باكمامها ترقص ... وأقبل الريحان بحال أعجام
والعصافير شيخهم زقزق ... لو طريق بين الأزاهر طار
والبلبل بالغنا يشجى ... فكأنو نای أو مزمار

دور ناصر الغيطى :

يا خلايا صحبت إنسان ... أنكر الصحبة وعادانى
وبغضنى حين بقيت مسمى ... والإله بالفضل أسمانى
في بلاد قبلى وأرض الشام ... يشكرونى ساير أقرانى
والشجيه الشاطر المذكور ... في جميع الأرض لو تذكار
والبلِط يوقع لو تعلق ... ما يحصل شيء مع الشطار

للغبارى :

جار حبيبى فقلت ذا الحجاج ... حايجور أو يزيد
لو عدل عشت بو مسرور ... ويكون الرشيد

دور :

اقلع القلب في هوى العشاق ... والدموع في انحدار
وبحور الهوى إذا هاجت ... ليس لها من قرار
كنت أحسب قلبى معُو رَيّس ... غَرّتو ذى البحار
صحت لما وحلت يا محبوب ... بحر عشقك يزيد
خفت فيه الغرق فقال افرح ... من غرق مات شهيد

دور :

أنا يوم في الغبوق باتفرج ... على شط الغدير
إذ رأيت عالشطّ واحد واقف ... شب صياد صغير
نظرت مقلتى إلى منظر ... ما لحسنو نظير
قلت : يا عين إن غرك الصياد ... بالجمال المصيد
يوقعك في فخاخ شباك عشقو ... وكراكى يصيد

دور :

لك عوارض في الخد مرقومه ... ليس لها من مثال
وجفاك صار حماق وباب وصلك ... كان وكان يا غزال
وانت دوبيت موشح القاما ... يا عزيز الدلال
ولك ألفاظ صارت موالي ... بالزجل والنشيد
وبشعرك متوج القاما ... وأنت بيت القصيد

دور :

عن محرم شرابنا صمنا ... ونفطر بالثمار
حين وجدنا سفرجل البستان ... يذهب الاصفرار
وغنا الطير به الجماد يطرب ... وكذا الجلنار
في ربيع حين رأى الثمر قاعد ... فيه تعاليق عقيد
حسب الروض النص من شعبان ... صار يقيد فيه وقيد

دور :

من لهيب مدمعي جرى الطوفان ... للهيب ما طفى
وانا هو الغباري في العشاق ... ما جرى لي كفى
حين عليّا بالصد والهجران ... والبعاد والجفا
جار حبيبي فقلت ذا الحجاج ... جا يجور أو يزيد
لو عدل عشت بو مسرور ... ويكون الرشيد

غيره :

حين سكنت القلب يا عيسى ... أمسى من بعدك الحزين فرحان
وتقدس بك ولكنو ... ما جرت فيه يابن عين سلوان

دور :

عارضو لما عشق خدو ... غرت من وجدي بقيت حاير
جيت إلى طرفو وناديت لو ... أحرسو وكون عليه ناظر
بعد حين نظرت في خدو ... النقي العارض وهو داير
وعليه قد دب بالسرقة ... جيت لطرفو قلت : يا كسلان
هكذا في عادة الحراس ... قال لي : اعذرني أنا نعسان

دور :

بدر شعبان منيتي لما ... في بروج السعد لاح نجمو
قلت لو اقضي بفيض دمعي ... اطلقو واجراه على رسمو
قلت لو دام الله اطلاقك ... فالحزين قلبو المشوم قسمو
أيش قد أذنب حين قطرتو ... دايمغلط قول بالهتان
قال لي : صوم عن الوصال ناديت ... ليش أصوم يا بدر في شعبان

دور :

حين تدبج احمرار خدو ... باخضرار العارض اسباني

ضحك فابيض واتبسم ... واسوداد شعرى وأبكانى
وحين أضحيت باصفرار لونى ... أشعث أغبر فى هواه عانى
قال لى : لونك قد صبح حايل ... وقد أبصر مدمعى طوفان
ذقت تبريح الغرام ناديت ... فى هواك ذقت الهوان ألوان

دور :

قلت : لو حين عنى تخلف ... لله كن لى يا رشيد مهدى
قد تلون دمعى من بعدك ... وتجرى اليوم على خدى
دار إلى إنسان مقلتى قال : لو ... أنت ما عندك نظر بعدى
ما ترى ما قد جرى منك ... على الخدود قال لو أيافتان
جرى الما تحت من بعدك ... راقب الله فيّا يا إنسان

للصفى الحلى :

أنت يا قبلة الكرام ... زينة المال والبنين
الله يعطيك فوق ذا المقام ... ويعيدك على السنين

دور :

أنت يا شاما بين الأنام ... الله يحرس شمايلك
ويزيدك بالدوام كى ... نعيش فى فواضلك
ما ينطوى ذكر الكرام ... لما تنشر فضايلك
ونهنيك لكل عام ... والخلائق تقول آمين
قد بقينا بك فى أمان ... الله يحييك طول السنين

دور :

ما رأينا تحت ذا الفلك ... من ندى كفك أعمّ
كل من جا ليسألك ليس ... تقول له : سوى نعم
أملك أنت أو ملك ... ضاعف الله لك النعم
أنت فى الجود كالغمام ... وسماك فوق ماردين
در غيثك فى انسجام ... عم كل السائلين

دور :

لا عدمنا كل صوم ... ذا السحور فيك والهنا
كل ليلة وكل يوم ... ينشر الذكر والثنا
الله يحييك من خير قوم ... بالغ القصد والمنى

دور :

حتى تقضى ذا الصيام ... ويليه باقى السنين
وتعيش يا ذا الهمام ... بين ولدان وعين

غيره :

خالُ عبدِ الرحيم نقطة حِبْرٍ ... من غير قاف ولام وميم
ثغر معشوقى الفتان ... نون وعين وميم

شالُ السعد فوق راسو ... عين ولام وميم
دالي قد هواه قلبي ... صاد وبا ويا
مليح ما رأيت مثله ... ظا وبا ويا
ما احلاه عندما يلبس ... قاف وبا ويا
ذقت من صدود حبي ... غين وصاد وصاد
لما رأيت صبري ... نون وقاف وصاد
النوم من جفن عيني ... خاء ولام وصاد
وأصبحت وجود فكري ... عين ودال وميم
قلت يومًا لمن كان لي ... سين ونون ودال
اعدل في الذي صبرو ... نون وفا ودال
ولا تهجر العشاق ... با وعين ودال
ما أفلح قط يا ناس ... مَن ظا ولام وميم

جمل في الألغاز

المطلع في العين :

وما طير أكلو الحجر يا كرام ... وجوهر حبابه يفسد أهل الصلاح
ولمس الحرير يؤذيه وريش النعام ... يصول بين جناحين سود كبيض الصّفاح

دور في السراج :

وما بحر ما هُوَما وفي الليل يزيد ... وينقص ولا هو خوض ولا هو غريق
وفيه شيء صفات حيه بلا وكر استفيد ... لها جوهرة في فمها يا رفيق
بلا شك ينظره القريب والبعيد ... ويخفي ويظهر كل يوم عن حقيق
يغيب في النهر لكن إذا جاء الظلام ... تشوفو يضيء بين الوجوه الصباح
ويسهر بحال عاشق حليف الغرام ... قتيل الهوى بين الرُبا والبطاح

دور في جوزة الكنافة :

وما هي التي تركب على ستين ألف ... وما مثل ذاك فسر لنا يا خبير
مليحة وقصيفه وتلبس ترف ... وتحمل وتوضع كل يوم في السعير
لها عشرة أعوان حالهم مختلف ... يشيلو أودها الكبير والصغير
لها فحل يخدمها - عليه السلام ... يحادي سراها في المجي والرواح
وأكثر تعبها في ليالي الصيام ... وذا للغز قلتو من غير مزاح

دور في الغربال :

وما هو الذي يا سعد كله عيون ... ولا يعتلم ضوء الظلام والضيا
وهو بين خشب مصلوب لتلك النون ... رميت وهو يحيى أصول الحيا
إذا غاب عن أهله فرد يوم ما يهون ... ولا حد يعوض موضعه لو عيا
وكم من رقيص في صنعته باهتمام ... مكابد عجاجه في المسا والصباح
ويحتاج له الناس كل يوم في الدوام ... على شان فنه نه [illegible]

الفن الخامس فى المواليا وله وزن واحد وأربع قوافٍ[1]

فمن تلك الأربعة واحدة لصفى الدين الحلى :

يا طاعن الخيل والأبطال قد غارت ... والمخصب الربع والأمواه قد غارت
هواطل السحب من كفيك قد غارت ... والشهب مذ شاهدت أضواك قد غارت

وقال أيضاً :

سل مقلتيك الكحال عمن سلاسلها ... ومرشفيك من رشف منها سلاسلها
وعارضيك التى مدت سلاسلها ... كم من أسود ضوارى فى سلاسلها

وقال آخر :

قد أوعدونا الغضابا أننا نخلو ... فى ظل بستان حافف بالتمر نخلو
والطل من فوقنا قد بلّنا نخلو ... ومن كلام الأعادى قط ما نخلو

وقال :

البارحة ريت بعينى فى الدجا جيين ... اثنين مثل البدوره فى الدجى جيين
ناديتهم فين كنتم يا خفا جيين ... قالوا لمن قد وعدنا فى الخفا جيين

وقال :

قد زدت هجرك فجد بالعفو عن صبك ... وارحم خضوعى وخف فى قتلتى ربك
يكيفك تهجر تكدر قلب من حبك ... ما ظن فى الناس أقسى قلب من قلبك

غيره حربى :

لك يا إمام الوغا فى كل موقع حرب ... سماع يطرب له السامع وينفى الكرب
هذا ولك كلما دارت رحاة الحرب ... سيوف تفنى وكفك لا يمل الضرب

الصفى الحلى فى المدح :

أغنت وأقنت كفوفك فى الندى والحرب ... فى القرب والبعد من فى شرقها والغرب
وفيض جودك وسيفك بالعطا والضرب ... ذا الكرب فرج وهذا قد رمى فى الكرب

وقال أيضا :

من قال جودة كفوفك والحيا مثلين ... أخطا القياس وفى قوله جمع ضدّين
ما جدت إلا وثغرك مبتسم يا زين ... وذاك ما جاد إلا وهو باكى العين

وقال فى التهنئة :

رأيت ذا العيد أوّل يوم فى عصرك ... وريت ذا اليوم مع ذا الشهر فى نصرك
وريت ذا الشهر مع ذا العام طوع أمرك ... والكل بالكل أوّل مبتدا عمرك

فى المعاتبة :

عنى تسليت وأسياف الجفا سليت ... ومذ توليت عن طرق الوفا وليت
لما تمليت بالأعمال لى مليت ... إذا تخليت تعرف قدر من خليت

---

(١) وقد ذكروا فى سبب نشأة هذا الفن أن الرشيد حين نكب البرامكة أمر ألا يذكرهم شاعر فى شعره ، فرثتهم جارية لهم بهذا الوزن ، وجعلت تنشد وتقول يا مواليا ، يكون فى ذلك منجاة لهم من الرشيد ، لأنها لا ترثيهم بالشعر المنهى عنه ، ويظهر أن ما سموه بالمواليا هو نفس النوع المعروف فى الشعر العامى بالموال لأن أمثلته قد جاءت مزيجا بين ألفاظ معربة ، وأخرى غير معربة .

وقال أيضا :

يا قلب إن غدروا فـ ـدر وإن خانوا ... فخن وإن هم قسوا فاقسا وإن لانوا
فلِنْ وإن قربوا فاقرب وإن بانوا ... فبن وكن لى معاهم كيفما كانوا

وقال آخر :

حلف عَلَيّا حكاره أن يقاطعنى ... وصد عنى وأقسم ما يطاوعنى
كم ذا يصدّ وكم يرجع يُصَدّعنى ... إن كنت أنا المطلق لا يراجعنى

وقال آخر هجوا :

قطع قفا ابن اخت خالك وابن اخو عمك ... والحق يصفع أبو بنتك أو ابن أمك
وإن تكلمت تصفع بل يسيل دمك ... وإن كنت تسكت يبول الكلب فى فمك

وقال آخر :

إن ردت تسلم بطول الدهر ما تبرح ... لا تيأسَنْ ولا تقنط ولا تمرح
واستعمل الصبر لا تحزن ولا تفرح ... وإن ضاق صدرك ففكر فى ألم نشرح

وقال آخر :

إن كنت عاقل وربك بالتقىَ برك ... ادفع أذاك وهات خيرك ودع شرك
وإن تعدى حسودك والحسد ضرّك ... ناديه يأيها الإنسان ما غرك

وقال آخر :

يا قلب إن خانك المحبوب لا تدبر ... عنو وعن قصة السلوان لا تخبر
واستعمل الصبر دائم للعِدا تقهر ... فإن والله ما خابَ الذى يصبر

الفن السادس كان وكان[1]

وله وزن واحد قافية واحدة ولكن الشطر الأوّل من البيت أطول من الثانى فمنه هذه الوعظيات :

يا قاسى القلب مالك تسمع وما عندك خبر ومن حرارة وعظى ... قد لانت الأحجار
أفنيت مالك وحالك فى كل مالا ينفعك ليتك على ذى الحاله ... تقلع عن الإصرار
تحضر ولكن قلبك غائب وذهنك مشتغل فكيف يا متخلف ... تحسب من الحضار[2]
ويحك تنبه فتىً وافهم مقالى واستمع ففى المجالس محاسن ... تحجب عن الأبصار
يحصى دقائق فعلك وغمز لحظك يعلمه وكيف تعزب عنه ... غوامض الأسرار
تلوت قولى ونصحى لمن تدبر واستمع ما فى النصيحة فضيحة ... كلا ولا إنكار

الصفىّ الحلى :

شاهدت فى الليل طيرى ... وقمت حتى أنصب شرك
ما كل صيد يحصل ... يفرح الصياد
طيرى الذى كان إلفى ... لو ردت مثله ما حصل

---

(١) هذا نظم لو قدر له أن يرقى إلى مستوى الأوزان القديمة لصح أن يسمى تطورا فى الأوزان الشعرية ولكنه - كما يقول مؤرخو الأدب - قد اتخذ قالبا لنظم الحكايات والخرافات ، ولم يطرقه من الشعراء المشهورين أحد ، وإنما كان ميزان الأدب الشعبى ، وقد ارتقى حين نظمت منه الحكم والمواعظ فى القرن السادس والسابع الهجرى .

(٢) الحُضَّار: جمع حاضِر، وهو المقيم في الحضَر.

وهو على معوّد ... وأنا عليه معتاد
قد كان شرطى وخلقى ... لبرج غيرى ما عرف
كأننا فى الصحبه ... جينا على ميعاد
من قبل ما أبصبص له ... يجىء ويدخل مصورى
وأنا أرصده فى مطاره ... خائف عليه ينصاد

وقال آخر :

ما ذقت عمرى جرعة أمر من طعم الهوى الله يصبر قلبى ... على الذى يهواه
الناس تعلم منى حال الجلادة والقوى وما أطيق التجلد ... على أليم جفاه
لى حب مثل الخوخة لها لون وطعم وريحه ما أكثر مغابن حبيبى ... وما أقل وفاه
أنا عرفتو حظى وكل ما أحسن لو يسىء لو كنت أعشق ظلى ... ما كنت قط أراه

وله فى الفراقيات :

يا سادة هجرونى وهم نزول بخاطرى لا أوحش الله منكم ... فى سائر الأوقات
أو حشتم العين منى وأنسكم فى خاطرى والقلب فى النور منكم ... والعين فى ظلمات
قد انتهى الصبر منى وما بقى فيا رمق هيهات أنى أحيا ... ممن بعدكم هيهات
لم يبق غير خيالى يلوح كالشبح الخفى أعد بين الأحيا ... وأنا مع الأموات
ودعتمونى وسرتم والقلب يتبع ركبكم أيش ضر لو كان جسمى ... من جملة التبعات
ما مر ماريت[1] ضدّى يقول لى من فرحته هنا تشق المرايز ... وتسكب العبرات
لو لم أسلى روحى وأرض نفسى بالمنى لكان قلبى تقطع ... من بعدكم حسرات
وقفت لما رحلتم حيران بين أظعانكم أخفض جناح المذلة ... وارفع الأصوات
طول الليالى أساهر كى أريد الكيميا أقطر الدمع منى ... وأصعد الزفرات
ما أطول ليالى جفاكم ساعاتها مثل السنة وما أقصر أيام وصلى ... كأنها ساعات
مالى أرى حسنات بالسيئات تبدلت وسيئات الأعادى ... اتبدلت حسنات
خالفتمونى وعمرى ما زلت أتبع أمركم كذا العبيد تتابع ... أوامر السادات
أسكت وأصبر عنكمو ويفعل الله ما يشاء والدهر من عاداته ... يقلب الحالات

الفن السابع فن القوما[2]

قيل : أول من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر ، والصحيح أنه مخترع من قبله ، وكان الناصر يطرب له ، وكان لابن نقطة ولد صغير ماهر فى نظم القوما ، فلما مات أبوه أراد أن يعرف الخليفة بموت أبيه ليجريه على مفروضه فتعذر عليه ذلك ، فصبر إلى دخول شهر رمضان ثم أخذ اتباع والده من المسحرين ، ووقف أوّل ليلة من الشهر تحت الطيارة ، وغنى القوما بصوت رقيق ، فأصغى الخليفة إليه وطرب له ، فكان أول ما قاله قوله :

يا سيد السيادات ... لك بالكرم عاداتك

---

(١) المرايز : مخفّف المرائر ، وهي جمع المرير بمعنى الأرض التي لا شيء فيها ، وما لطُف وطال واشتد فتله من الحبال ، وبمعنى العزيمة ، ورجل مرير أي قوي ذو عزم ، وهي جمع المريرة أيضًا بمعنى عزّة النفس .

(٢) هذا نظم غير معرب ، ولا تراعى فيه قواعد اللغة كما وصفها النحاة ، وقد وصف مؤرخو الأدب هذا الوزن فقالوا : إنه «مستفعلن» . ولو قد تحركت النون فعلان لأصبح الوزن مجزوء الرجز ، ولهذا نرجع أن هذا الوزن لا يعدو أن يكون مجزوء الرجز تغيرت فيه «مستفعلن» الثانية إلى «مستفعل» . ثم سكن آخره لينسجم مع ما شاع فى هذه العصور من التخلص من حركات الإعراب .

أنا ابن ابن نقطه تعيش أبويا مات

فأعجب الخليفة منه هذا الاختصار فاستحضره ، وخلع عليه ، وفرض له ضعفي ما كان لأبيه . ومنها للصفي الحلي :

من كان يهوى البدور ووصل بيض الخدور
بالبيض والصفر يسخو وقد جلس في الصدور
مَن حبَّ بيضَ الخدور ورام لزوم الصدور
يسمح وإلا فيبقى من بينهم مهدور
كم بين سجف[1] الخدور من عاشق مصدور
يرعى الكواكب لعلو يرى جمال البدور
بين الحلل والخدور وجوه مثل البدور
إشراقها في المعاجز وغربها في الصدور
قد كنت فوق الصدور بين الظبا والبدور
فصرت أحسد من أبصر خيامهم والخدور
نوائب المقدور مثل الكواكب تدور
من بعد طيب الخواطر يقضي بضيق الصدور
غيري يلازم الصدور وأنا عليكم أدور
واصطلى الصد وانا من بينهم مهدور

وقال أيضا :

حال الهوى مخبور يريد جَلْد صبور
يصون سِرّه وإلا يبقى من أهل القبور
من كان هواه مستور يحظى برفع الستور
ومن هتك سر حبو يمحى من الدستور
أبذل لبيض النحور أموال مثل البحور
إن ردت تملك وتظفر ولدانهم والحور
قم فابذل المدخور وفي العطا لا تجور
تريد هذي المحبة قلوب مثل الصخور
كم حول تلك الحدود من عاشق مغدور
مثل الدوالي تجري دموعها وتدور
من يركب المحذور هو في الهوى معذور
يظفر بحبه ويبلغ قصده ويوفى النذور
كن بالهوى مسرور ولا تبيت مغرور
واجعل تراب أعتابهم لأجفان عينك درور
طرق المحبة وعور كم بينها مذعور
من فتك بيض السوالف على سواد الشعور

---

(١) السجف: بفتح السين المشددة وكسرها وسكون الجيم: أحدُ الستْرين المقرونين بينهما فُرْجة.

كم عاشق مذعور ... فى حب بيض الثغور
يغار قلبه ولكن ... مدامعه ما تغور
كم بينهم يعفور ... كالظبى آنس نفور
من أهل بدر فديته ... أيش ما عمل مغفور

ومن ذلك ما نظمه بعضهم ليسحّر بعض الخلفاء فى رمضان :

لا زال سعدك جديد ... دائم وجدك سعيد
ولا برحت مهنى ... بكل صوم وعيد
فى الدهر أنت الفريد ... وفى صفاتك وحيد
والخَلقُ شِعرٌ منقح ... وأنتَ بيتُ القصيد
يا من جنابُه شديد ... ولطفُ رأيه سديد
ومن يلاقى الشدائد ... بقلب مثل الحديد
لا زلت فى تأييد ... فى الصوم والتعييد
ولا برحت مهنى ... بكل عام جديد
نحن لذكرك نشيد ... بقولنا والنشيد
ونبعث أوصاف مدحك ... على خيول البريد
ظلك علينا مديد ... ما فوق جودك مزيد
وكم غمرت بفضلك ... قريبنا والبعيد
لا زلت فى كل عيد ... تحظى بمجد سعيد
عمرك طويل وقدرك ... وافر وظلك مديد
لا زال قدرك مجيد ... وظل جودك مديد
ولا برحت موقى ... كما يوقى الوليد
ما زال برّك يزيد ... على أقل العبيد
وما برح جود كفك ... منا كحبل الوريد
لا زال برك مزيد ... دائم وبأسك شديد
ولا عَدِمْنَا نوالَك ... فى صوم فطر وعيد

ومما قيل فى فن الحماق :

أنا ما عبورى الحمام ... لجسمى لكى ينظف
إلا لدمع جارى ... على الما ولا يوقف
وديك المجارى تجرى ... ودمعى يسابقها
تقول الأنام فى الحمام ... له أحباب فارقها

وقال آخر :

ترى كل من نعشقو ... علينا يقيم أنفه
فاسلاه واترك هواه ... وسدّ الطريق خلفه
وإن زاد على عشقو ... وزاد بى الهوى والذل
تركتو ولو كان يحيى ... لأهل القبور الكل

وقد انتهى الكلام فيما أشرت إليه من الفنون السبعة وذكرت منها ما تبتهج به النفوس ، وتقر به العيون ، واختصرت ذلك إلى الغاية ، فجاء بتوفيق الله فى الحسن نهاية وأسأل الله التوفيق بمنه وكرمه ، والمزيد من بره ونعمه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثالث والسبعون

فى ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن وطلاقهن وما يحمد ويذم من عشرتهن وفيه فصول

الفصل الأول : فى النكاح وفضله والترغيب فيه

قال الله تعالى : ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء:٣] . الآية ، وقال تعالى : ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور:٣٢] ، وقال تعالى : ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٥] الآية . وقال رسول الله ﷺ : « يا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ » (١) . وقال رسول الله ﷺ : « اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّهُنَّ عَوَانٍ عِنْدَكُمْ » (٢) . وقال رسول الله ﷺ : « تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٣) . وقال ﷺ : « سوداء ولود خير من حسناء عقيم » (٤) . وقال رسول الله ﷺ : « أحسن النساء بركة أحسنهن وجهاً وأرخصهن مهراً » (٥) . فينبغى للرجل إذا أراد أن يتزوج أن يرغب فى ذات الدين ، وأن يختار الشرف والحسب ، كما حكى أن نوحًا ابن مريم قاضى مرو ، أراد أن يزوج ابنته فاستشار جارا له مجوسيًّا، فقال : سبحان الله! الناس يستفتونك ، وأنت تستفتينى ؟! قال : لابدّ أن تشير على ، قال : إن رئيسنا كسرى كان يختار المال ، وقيصر الروم كان يختار الحسب والنسب ، ورئيسكم محمد كان يختار الدين ، فانظر أنت بأيهم تقتدى ؟! وقال رجل للحسن : إن لى ابنة فمن ترى أن أزوجها له ؟! قال : زوجها ممن يتقى الله عز وجل ، فإن أحبها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها ، وقيل لرجل من الحكماء ، فلان يخطب فلانة ، فقال : أموسر من عقل ودين ؟ فقالوا : نعم . قال : فزوّجوه إياها . ويستحب أن يختار البكر لقوله ﷺ : « عَلَيْكُمْ بِالأَبْكَارِ فَإِنَّهُنَّ أَطْيَبُ أَفْوَاهًا وَأَنْتَقُ أَرْحَامًا » (٦) . وقالوا : أشهى المطى ما لم يركب ، وأحب اللآلىء ما لم يثقب ، وأنشد بعضهم :

قالوا : نكحت صغيرة فأجبتهم ... أشهى المطىّ إلىَّ ما لم يركب
كم بين حبة لؤلؤ مثقوبة ... نُظِمَت وحبة لؤلؤ لم تثقب

فأجابته امرأة :

---

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٢) إلخ رواه البخارى فى كتاب النكاح باب الوصية بالنساء فتح البارى [٥١٨٥] ، ومسلم فى كتاب الرضاع باب الوصية .

(٣) أخرجه النسائى كتاب النكاح باب كراهية تزويج العقيم .

(٤) ذكر العجلونى بلفظ « خير من حسناء لا تلد » . وقال : ذكره الغزالى فى الإحياء . وقال العراقى : أخرجه ابن حبان فى الضعفاء ولا يصح، وذكره ابن الأثير فى النهاية بهذا اللفظ ورفعه الأزهرى ، وأخرجه غيره عن عمر موقوفا .

(٥) لم أقف عليه . إلخ .

(٦) إلخ رواه ابن ماجه بنحوه فى كتاب النكاح باب تزوج الأبكار حديث رقم [١٨٦١] ، وابن الجوزى فى غريب الحديث [١/ ٣٨٩] ، والبيهقى فى السنن [٧/ ٨٠] ، وجاء فى النهاية : أنتق أرحاما أى أكثر أولاداً ، يقال للمرأة الكثيرة الولد : ناتق لأنها ترمى بالأولاد رميا .

إن المطية لا يَلَذُّ ركوبها ... حتى تذلّلَ بالزمام وتُركبا
والدرُّ ليس بنافع أربابَه ... حتى يؤلّفَ بالنظام ويُثقبا

قال خالد بن صفوان :

عليك إذا ما كنت فى الناس ناكحا ... بذات الثّنايا الغُرّ والأعين النجل[1]

وقيل : استشار رجل داود عليه السلام فى التزويج ، فقال له : سل سليمان ، وأخبرنى بجوابه ، فصادفه ابن سبع سنين - وهو يلعب مع الصبيان راكباً قصبة - فسأله ، فقال : عليك بالذهب الأحمر ، أو الفضة البيضاء ، واحذر الفرس لا يضربك ، فلم يفهم الرجل ذلك ، فقال له داود عليه السلام الذهب الأحمر : البكر ، والفضة البيضاء الثيب الشابة ، ومَنْ وراءهما كالفرس الجموح ! وقال ﷺ: « تخيَّروا لِنُطَفِكُم »[2] . وقال ﷺ: « انظر فى أى شىء تضع ولدك ؟ فإن العِرْقَ دسَّاس »[3] . وقال ﷺ: « إياكم وخضراء الدّمن ! » . قالوا : وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : « المرأة الحسناء فى المنبت السوء »[4] . وأنشدوا فيه :

إذا تزوجت فكن حاذقا ... واسأل عن الغصن وعن مَنْبتِه

وقال بعضهم :

وأول خبثِ الماءِ خبثُ ترابه ... وأول خبثِ القوم خبثُ المناكح

وعن على رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « لا تسترضعوا الحمقاء ، ولا العمشاء ؛ فإن اللبن يُعدى »[5] . وقيل : إن جعفر بن سليمان بن على عاب يوما على أولاده ، وأنهم ليسوا كما يحب ، فقال له ولده أحمد بن جعفر : إنك عمدت إلى فاسقات مكة والمدينة ، وإماء الحجاز فأوعيت فيهن نطفك ، ثم تريد أن ينجبن ، وإنما نحن كصاحبات الحجاز ! هلا فعلت فى ولدك ما فعل أبوك فيك ، حين اختار لك عقيلة قومها فتزوجها لك ؟! وأنشدوا :

صفاتُ من يستحبُّ الشرعُ خطبتَها ... جَلَوتُها لأولى الألباب مُختصرا
صَبيّة ذاتُ دين زانه أدبٌ ... بكر ولودٌ حكت فى نفسها القمرا
غريبة لم تكن من أهلِ خاطبها ... تلك الصفاتُ التى أجلو لمن نظرا
فيها أحاديث جاءت وهى ثابتة ... أحاط علما بها من فى العلوم قَرا

وقال آخر :

مطياتُ السرورِ فُوَيقَ عشرٍ ... إلى العشرين ثم قِفِ المطايا
فإن جزت المسير فسِر قليلاً ... وبنت الأربعين من الرزايا

وقال آخر :

فإياك إياك العجوزَ ووطأها ... فما هو إلا مثل سُمّ الأراقم

واعلم أن العيش كله مقصور على الحليلة الصالحة ، والبلاء كله موكل بالقرينة السوء التى لا تسْكنُ النفس إلى عِشرتها ، ولا تقر العيون برؤيتها . وفى حكمة سليمان بن داود عليهما السلام المرأة العاقلة تعمر بيت زوجها ، والمرأة السفيهة تهدمه ! . وروى أنه لما حضر أبو طالب نكاح رسول الله ﷺ على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ومعه بنو هاشم ، ورؤساء

---

(١) نجِلَ نَجَلًا: اتَّسعت عينه وحسُنت، فهو أنْجَل، وهي نَجْلاء، والجمع نُجْل.

(٢) إلخ أخرجه الدارقطنى فى سننه كتاب النكاح باب المهر حديث [١٩٨] ، وابن ماجه فى سننه كتاب النكاح باب الأكفاء حديث [١٩٦٨] ، والحاكم فى المستدرك [٢/ ١٦٣] ، وصححه . وتعقبه الذهبى بقوله : الحارث متهم ، وعكرمة ضعفوه ، وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر [٣/ ٣٧٧] .

(٣) لم أهتد إليه .

(٤) رواه الدارقطنى ، والرامهرزى فى الأمثال . قال الدارقطنى تفرد به الواقدى حديث رقم [٢٧١] .

(٥) ضعيف : عزاه الهيثمى فى « مجمع الزوائد » . [٤/ ٢٦٢] ، للطبرانى فى الصغير والبزار وقال : « وإسنادهما ضعيف » . أهـ .

مضر ، خطب فقال : الحمدلله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسواس حَرَمه ، وجعل لنا بيتا محجوجًا ، وحرَمًا آمنا ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم أن محمدًا بن عبد الله ، ابن أخى ، من لا يوزن به رجل من قريش إلا رجح به برًّا وفضلا ، وكرما ومجداً ونبلا ، فإن كان فى المال قُل ، فالمال ظِلّ زائل ، ورزق حائل ، وقد خطب خديجة بنتَ خويلد ، وبذل لها من الصداق ما عاجله وآجله من مالى كذا وكذا ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم ، وخطر جليل . ولما خطب عمرو بن حجر الكندى إلى عوف بن محلم الشيبانى ابنته أم إياس ، وأجابه إلى ذلك أقبلت عليها أمها ليلة دخوله بها توصيها ، فكان مما أوصتها به أن قالت : أى بنية ، إنك مفارقة بيتك الذى منه خرجت ، وعشك الذى منه درجت ، إلى رجل لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكونى له أمة يكن لك عبداً ، واحفظى له خصالاً عشراً ، يكن لك ذخراً ؛ فأما الأولى ، والثانية : فالرضا بالقناعة ، وحسن السمع له والطاعة ، وأما الثالثة ، والرابعة ، فالتفقد لمواقع عينيه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم أنفُه منك إلا أطيب الريح ، وأما الخامسة ، والسادسة ، فالتفقد لوقت طعامه ومنامه ، فإن شدّة الجوع ملهبة ، وتنغيص - النوم - مغضبة ، وأما السابعة ، والثامنة فالإحراز لماله ، والإرعاء على حشمه وعياله ، وأما التاسعة ، والعاشرة ، فلا تعصى له أمرا ، ولا تفشى له سراً ، فإنك إن خالفت أمره ، أوغرت صدره ، وإن أفشيت سره ، لم تأمنى غدره ! وإياك ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً ، والكآبة لديه إذا كان فرحا ، فقبلت وصية أمها فأنجبت ، وولدت له الحارث بن عمرو جدّ امرئ القيس ، الملك الشاعر . وعن الهيثم بن عدى الطائى ، عن الشعبى قال : لقينى شُرَيْح فقال لى : ياشعبى ، عليك بنساء بنى تميم ، فإنى رأيت لهن عقولاً ، فقلت : وما رأيت من عقولهن ، قال : أقبلت من جنازة ظهراً فمررت بدورهن ، وإذا أنا بعجوز على باب دار ، وإلى جانبها جارية كأحسن ما رأيت من الجوارى ! ، فعدلت إليها ، واستسقيت ، وما بى عطش ! فقالت لى : أى الشراب أحب إليك ؟ قلت : ما تيسر ، قالت : ويحك يا جارية ائتيه بلبن فإنى أظن الرجل غريباً ، فقلت للعجوز : ومن تكون هذه الجارية منك ؟ قالت : هى زينب بنت جرير إحدى نساء بنى حنظلة ، قلت : هى فارغة أم مشغولة ؟ قالت : بل فارغة ، قلت : أتزوجينيها ؟ قالت : إن كنت كفاءً ولم تقل كفؤا وهى لغة بنى تميم فتركتها ، ومضيت إلى منزلى لأقيل فيه ، فامتنعت منى القائلة[1] ، فلما صليت الظهر ، أخذت بيد إخوانى من العرب الأشراف علقمة ، والأسود ، والمسيب ، ومضيت أريد عمها ، فاستقبلنا وقال : ما شأنك أبا أمية ؟! قلت : زينب ابنة أخيك ، قال : ما بها عنك رغبة ، فزوجنيها ، فلما صارت فى حبالى ندمت ، وقلت : أى شىء صنعت بنساء بنى تميم ؟! وذكرتُ غِلظَ قلوبهن ، فقلت : أطلقها ثم قلت لا ، ولكن أدخل بها فإن رأيت ما أحب ، وإلا كان ذلك ، فلو شهدتنى ياشعبى وقد أقبلت نساؤها يهدينها ، حتى أدخلت على ، فقلت : إن من السنة : « إذا دَخَلَتِ المَرأةُ عَلى زوجِها أنْ يقُومَ ويُصلّى رَكْعَتَيْنِ ويَسألَ اللهَ تعالى من خَيرِها ويتعوّذ من شَرّها »[2] . فتوضأت فإذا هى تتوضأ بوضوئى ، وصليت فإذا هى تصلى بصلاتى ، فلما قضيت صلاتى أتتنى جواريها فأخذن ثيابى ، وألبسننى ملحفة قد صبغت بالزعفران ، فلما خلا البيت دنوت منها ، فمددت يدى إلى ناصيتها فقالت : على رسلك أبا أمية ، ثم قالت : الحمد لله أحمده وأستعينه وأصلى على محمد وآله ، أما بعد ، فإنى امرأة غريبة ، لا علم لى بأخلاقك فبين لى ما تحب فآتيه ، وما تكره فأجتنبه ، فإنه قد كان لك منكح فى قومك ، ولى فى قومى مثل ذلك ، ولكن إذا قضى الله أمراً كان مفعولا ، وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله تعالى به ، إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . أقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولك ولجميع المسلمين . قال : فأحوجتنى والله ياشعبى إلى الخطبة فى ذلك الموضع ، فقلت : الحمدلله أحمده وأستعينه ، وأصلى على محمد وآله أما بعد ، فإنك قد قلت كلاماً إن ثبتّ عليه يكن ذلك حظًّا لى ، وإن تدعيه يكن حجة عليك . أحب كذا ، وأكره كذا ، وما رأيتِ من حسنة فابثثيها ، وما رأيت من سيئة فاستريها . فقالت : كيف محبتك لزيارة الأهل ؟ قلت : ما أحب أن يملنى أصهارى . قالت : فمن تحب من جيرانك يدخل دارك آذن له ، ومن تكرهه أكرهه ؟ قلت : بنو فلان قوم صالحون ، وبنو فلان قوم سوء ، قال : فبت معها ياشعبى بأنعم ليلة ، ومكثت معى حولا لا أرى منها إلا ما أحب ، فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء ، وإذا

---

(١) القائلة : وقت القيلولة حيث يستريح الناس بعيدا عن حر الشمس ، وامتنعت منى : لم أنم ولم أهدأ .

(٢) هذا صحيح ، وتثبت هذا كما فى المصنف لابن أبى شيبة وانظر : « آداب الزفاف » . للشيخ الألبانى [ص٨ - ١٠] .

أنا بعجوز فى الدار تأمر وتنهى ، قلت : من هذه ؟ قالوا : فلانة أم حليلتك ، قلت : مرحباً وأهلا وسهلاً ، فلما جلست أقبلت العجوز فقالت : السلام عليك ياأبا أمية ، فقلت : وعليك السلام ومرحباً بك وأهلاً . قالت : كيف رأيت زوجتك ؟ قلت : خير زوجة ، وأوفق قرينة ، لقد أدّبتِ فأحسنتِ الأدب ، وريضتِ فأحسنت الرياضة ، فجزاك الله خيراً ؛ فقالت : أباأمية إن المرأة لا يرى أسوأ حالا منها فى حالتين ؛ قلت : وما هما ؟ قالت : إذا ولدت غلاماً أو حظيت عند زوجها ، فإن رابك مريب ، فعليك بالسوط ، فوالله ما حاز الرجال فى بيوتهم أشرّ من الروعاء[1] المدللة ، فقلت : والله لقد أدّبتِ فأحسنتِ الأدب ، وريضت فأحسنت الرياضة . قالت : كيف تحب أن يزورك أصهارك ؟ قلت : ما شاءوا فكانت تأتينى فى رأس كل حول ، فتوصينى بتلك الوصية ، فمكثت معى ياشعبى عشرين سنة لم أعب عليها شيئاً وكان لى جار من كندة يفزع امرأته ، ويضربها فقلت فى ذلك :

رأيت رجالاً يضربون نساءهم ... فشُلّت يمينى يوم تُضرَب زينبُ
أأضربها من غير ذنب أتت به ... فما العدل منى ضرب من ليس يُذنب
فزينب شمسٌ والنساء كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وخطب الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على ألفى ألف فى السِّر وخمسمائة ألف فى العلانية ، فأجابه إلى ذلك ، وحملها إلى العراق ، فأقامت عنده ثمانية أشهر ، فلما خرج عبد الله بن جعفر إلى عبد الملك بن مروان وافداً نزل بدمشق ، فأتاه الوليد بن عبد الملك على بغلة ، ومعه الناس ، فاستقبله ابن جعفر بالترحيب فقال له الوليد : لكنك أنت لا مرحبا بك ولا أهلاً . قال : مهلا يابن أخى ، فلست أهلا لهذه المقالة منك ، قال : بلى والله ، وبشرّ منها . قال : وفيم ذلك ؟ قال : لأنك عمدت إلى عقيلة نساء العرب ، وسيدة نساء بنى عبد مَناف فعرّضتها لعبد ثقيف يتفخذها ! قال : وفى هذا عتبت على يابن أخى ؟ قال : نعم . فقال عبد الله ! والله ما أحق الناس أن لا يلومنى فى هذا إلا أنت وأبوك ؛ لأن من كان قبلكم من الولاة يصلون رحمى ، ويعرفون حقى ، وإنك وأباك منعتمانى رفدكما ، حتى ركبنى الدين، أما والله لو أن عبداً حبشيًّا مجدّعاً[2] أعطانى بها ما أعطانى عبد ثقيف لزوّجتها منه ، إنما فديت بها رقبتى ، فما راجعه كلمة حتى عطف عنانه ، ومضى حتى دخل على عبد الملك فقال : مالك ياأبا العباس قال : إنك سلطت عبد ثقيف ، وملكته حتى يفخّذ نساء بنى عبد مناف ، فأدركت عبد الملك غيرة ، فكتب إلى الحجاج يقسم عليه أن لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ففعل . قال : ولم يكن يقطع الحجاج عنها رزقاً ولا كرامة يجريها عليها حتى خرجت من الدنيا ، وما زال واصلا لعبد الله بن جعفر حتى مات ، وما كان يأتى عليه حول إلا وعنده عير مقبلة من عند الحجاج عليها أموال وكسوة وتحف . وحكى أن المغيرة بن شعبة لما ولى الكوفة ، سار إلى دير هند بنت النعمان ، وهى فيه عمياء مترهبة ، فاستأذن عليها فقالت : من أنت ؟ قال : المغيرة بن شعبة الثقفى ، قالت : ما حاجتك ؟ قال : جئت خاطباً، قالت : إنك لم تكن جئتنى لجمال ولا مال ، ولكنك أردت أن تتشرف فى محافل العرب فتقول : تزوجت بنت النعمان بن المنذر ، وإلا فأى خير فى اجتماع عمياء وأعور ؟ وكان عبد الرحمٰن بن أبى بكر الصديق رضي الله عنهما قد تزوج عاتكة بنت عمرو بن نفيل ، وكانت من أجمل نساء قريش ، وكان عبد الرحمٰن من أحسن الناس وجهاً ، وأبرّهم بوالديه ، فلما دخل بها غلبت على عقله ، وأحبها حباً شديداً فثقل ذلك على أبيه ، فمر به أبو بكر يوماً وهو فى غرفة له ، فقال : يابنى ، إنى أرى هذه المرأة قد أذهلت رأيك ، وغلبت على عقلك ، فطلقها، قال : لست أقدر على ذلك فقال : أقسمت عليك إلا ما طلقتها ، فلم يقدر على مخالفة أبيه ، فطلقها فجزع عليها جزعاً شديداً وامتنع من الطعام والشراب ، فقيل لأبى بكر : أهلكت عبد الرحمٰن ، فمر به يوما وعبد الرحمٰن لا يراه وهو مضطجع فى الشمس ، ويقول هذه الأبيات :

فوالله ما أنساكِ ما ذرّ شارق ... وما ناح قمرى الحمام المطوّق
فلم أر مثلى طلق اليومَ مثلَها ... ولا مثلها فى غير شىء يُطَلّق

---

(١) أي الجميلة، يقال: راعني جماله، فهو رائع، وهي رائعة.

(٢) مُجدَّعًا: جَدَع جَدَعًا، أي قُطع طرف من أطرافه، فهو أجدع، وهي جدعاء. وفي المثل: «أنفُك منك وإن كان أجدعَ».

لـهـا خـلـق عَـفٌ ودِيـن ومـحـتـد وخـلـق سـوى فـى الـحـيـاء ومـنـطـق

فسمعه أبوه ، فرق له ، وقال له : راجعها يابنى فراجعها ، وأقامت عنده حتى قتل عنها يوم الطائف مع رسول الله ﷺ، أصابه سهم فقتله ، فجزعت عليه جزعاً شديداً وقالت ترثيه :

فـآلـيـت لا تـنـفـكُ نـفـسـى حـزيـنـةً عـلـيـك ولا يـنـفـكُ جـلـدى أغـبـرا

فـتـى طـول عـمـرى مـا أرى مـثـلـه فـتـى أكَـرّ وأحـمـى فـى الـهـيـاج وأصـبـرا

إذا شـرعـت فـيـه الأسـنـة خـاضـهـا إلى الـقِـرْن[1] حـتـى يـتـرك الـرمـح أحـمـرا

ثم تزوجها بعده عمر بن الخطاب ﷺ فى خلافته ودعا الناس إلى وليمته ، فأتوه فلما فرغ من الطعام ، وخرج الناس ، قال له على بن أبى طالب ﷺ ياأمير المؤمنين ائذن لى فى كلام عاتكة ، حتى أهنيها ، وأدعو لها بالبركة ، فذكر عمر ذلك لعاتكة فقالت : إن أبا الحسن فيه مزاح ، فائذن له ياأمير المؤمنين فأذن له فرفع جانب الخدر فنظر إليها فإذا ما بدا من جسدها مضمخ بالخلوق[2] ، فقال لها ياعاتكة ألست القائلة :

فـآلـيـت لا تـنـفـك نـفـسـى حـزيـنـة عـلـيـك ولا يـنـفـك جـلـدى أغـبـرا ؟!

وقيل : إن عمر لما قتل عنها جزعت عليه جزعاً شديداً ، وتزوّجت بعده الزبير بن العوّام ، وكان رجلا غَيُورًا ، وكانت تخرج إلى المسجد كعادتها مع أزواجها ، فشق ذلك عليه ، وكان يكره أن ينهاها عن الخروج إلى الصلاة لحديث رسول الله ﷺ: « **لا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ** »[3] . فعرض لها ليلة فى ظهر المسجد ، وهى لا تعرفه ، فضرب بيده عجيزتها ، ثم انصرف ، فقعدت بعد ذلك عن الخروج إلى المسجد ، وكان يقول لها : ألا تخرجين ياعاتكة ؟! فتقول : كنا نخرج إذا الناس ناس ، وما بهم من باس ، وأما الآن فلا . ثم قُتِلَ عنها الزبير قتله عمرو بن جرموز بوادى السباع ، وهو نائم ، ثم تزوّجها بعده محمد بن أبى بكر ، فقتل عنها بمصر ، فقالت ، لا أتزوج بعده أبدا إنى لأحسبنى أنى لو تزوجت جميع أهل الأرض لقتلوا عن آخرهم ! .

وحكى : عن الحارث بن عوف بن أبى حارثة أنه قال لخارجة بن سنان : أترى أنى أخطب إلى أحد فيردّنى ؟ قال : نعم . قال : ومن هو ؟ قال أوس بن حارثة بن لام الطائى . قال : اركب بنا إليه ، فركبنا إليه حتى أتينا أوس بن حارثة فى بلاده ، فوجدناه فى فناء منزله ، فلما رأى الحارث بن عوف ، قال : مرحباً بك ياحارث ، ثم قال : ما جاء بك ؟ قال : جئت خاطبا . قال : لست هناك فانصرف ولم يكلمه ، فدخل أوس على امرأته مُغْضَبا فقالت له : من الرجل الذى سلم عليك ؟ فلم تطل معه الوقوف ، ولم تكلمه ؟ فقال : ذلك سيد العرب الحارث بن عوف ، فقالت : مالك لا تستنزله ؟ قال : إنه استهجننى ، قالت : وكيف ؟ قال : لأنه جاءنى خاطباً قالت : ألست تزعم أنه سيد العرب ؟ قال : نعم . قالت : إذا لم تزوّج سيد العرب فى زمانه فمن تزوّج ؟! قال : قد كان ذلك . قالت : فتدارك ما كان منك . قال : فبماذا ؟ قالت : بأن تلحقه فترده ، قال : وكيف وقد فرط منى إليه ما فرط ؟ قالت : تقول له : إنك لقيتنى وأنا مغضب لأمر فلك المعذرة فيما فرط منى ، فارجع ولك عندى كل ما طلبت قال : فركب فى أثرهما . قال خارجة بن سنان ؟ فوالله إنا لنسير إذ حانت منى التفاتة فرأيته فقلت للحارث - وهو ما يكلمنى - هذا أوس فى أثرنا فقال : ما أصنع به ؟ فلما رآنا لا نقف قال : يا حارث ، أربع علىّ ، فوقفنا له ، وكلمه بذلك الكلام ، فرجع مسرورا . قال خارجة بن سنان : فبلغنى أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته : ادعى لى فلانة أكبر بناته فأتته ، فقال لها أى بنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب ، جاءنى خاطباً ، وقد أردت أن أزوجك منه ، فما تقولين ؟ قالت : لا تفعل . قال : ولم ؟ قالت : لأن فى خلقى رداءة ، وفى لسانى حدة ، ولست بابنة عمه فيراعى رحمى ، ولا هو بجار لك فى البلد فيستحى منك ، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى ! فيكون على بذلك مَسَبّة، قال لها : قومى، بارك الله فيك ، ثم دعا بنته الأخرى فقال لها مثل قوله لأختها ، فأجابته بمثل جوابها ، فقال لها : قومى بارك

---

(١) القِرْن: القِرن للإنسان مثله في الشجاعة والشدة والعلم والقتال. . ويقال: هي قِرْن أيضًا، والجمع أقران.

(٢) الخُلُوق، والخلاق: ضربٌ من الطِّيب، أعظم أجزائه الزعفران.

(٣) « لا تمنعوا إماء الله . . . » إلخ أخرجه مسلم [١٣٦ - كتاب الصلاة] .

الله فيك ، ثم دعا بالثالثة - وكانت أصغرهن سنا - فقال لها مثل ما قال لأختيها فقالت له : أنت وذاك ، فقال لها . إنى عرضت ذلك على أختيك فأبتاه ، ولم يذكر لها مقالتهما ، فقالت له : والله إنى الجميلة وجها ، الرفيعة خلقاً ، الحسنة رأياً ، فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه فقال لها : بارك الله فيك ، ثم خرج إليه فقال : زوجتك يا حارث بابنتى هنيسة ، قال : قد قبلت نكاحها وأمر أمها أن تهيئها له ، وتصلح شأنها ثم أمر ببيت فضرب له ، وأنزله إياه ثم بعثها إليه ، فلما دخلت عليه لبث هنيهة ثم خرج إلى فقلت له : أفرغت من شأنك ؟ قال : لا والله ، قلت : وكيف ذلك ؟ قال : لما مددت يدى إليها قالت : مه أعند أبى وإخوتى هذا ؟ والله لا يكون ، ثم أمر بالرحلة فارتحلنا بها معنا وسرنا ما شاء الله ، ثم قال لى : تقدّم فتقدمت ، فعدل عن الطريق فما لبث أن لحقنى فقلت : أفرغت منه شأنك ؟ قال : لا والله ، قلت : ولم ؟ قال : قالت تفعل بى كما يفعل بالأمة السبية الأخيذة ؟! لا والله حتى تنحر الجزر والغنم ، وتدعو العرب ، وتعمل ما يعمل مثلك لمثلى ، فقلت : والله ، إنى لأرى همة وعقلا ، فقال : صدقت قال : وأرجو الله أن تكون المرأة النجيبة ، فوردنا إلى بلادنا فأحضر الإبل والغنم ونحر وأولم ، ثم دخل عليها وخرج إلى فقلت أفرغت من شأنك ؟ قال : لا والله . قلت : ولم ذاك ؟ قال : دخلت عليها أريدها فقلت لها : قد أحضرت من المال ما تريدين قالت : والله لقد ذكرت من الشرف بما ليس فيك ، قلت : ولم ذاك ، قالت : أتستفرغ لنكاح النساء والعرب يقتل بعضها بعضاً ؟! وكان ذلك فى أيام حرب عبس وذبيان ، قلت : فماذا تقولين ؟ قالت : اخرج إلى القوم فأصلح بينهم ، ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك ما تريد ، فقلت : والله إنى لأرى عقلا ورأيا سديداً ، قال : فاخرج بنا فخرجنا حتى أتينا القوم ، فمشينا بينهم بالصلح فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى ، ثم تؤخذ الدية ، فحملنا عنهم الديات ، فكانت ثلاث آلاف بعير ، فانصرفنا بأجمل ذكر ، ثم دخل عليها فقالت له : أما الآن فنعم ، فأقامت عنده فى ألذ عيش ، وأطيبه ، وولدت له بنين وبنات ، وكان من أمرهما ما كان . والله أعلم بالصواب .

وحكى الفضل أبو محمد الطيبى قال : حدثنا بعض أصحابنا أن رجلا من بنى سعد مرت به جارية لأمية بن خالد بن عبد الله بن أسد ذات ظرف وجمال ، وكان شجاعاً فارسا فلما رآها قال : طوبى لمن كان له امرأة مثلك ، ثم أتبعها رسولا يسألها ألها زوج ؟! ويذكره لها ، وكان جميلا فقالت للرسول : وما حرفته ؟ فأبلغه الرسول ذلك فقال : ارجع إليها وقل لها :

وسائلة ما حرفتى ؟ قلت : حرفتى ... مقارعة الأبطال فى كل شارق
إذا عرضت خيل لخيل رأيتنى ... أمام رعيل الخيل أحمى حقائقى
أصبر نفسى حين لم أر صابراً ... على ألم البيض الرقاق البوارق

فلحقها الرسول : فأنشدها ما قال ، فقالت له : ارجع إليه وقل له : أنت أسد ، فاطلب لك لبؤة فلست من نسائك ، وأنشدته تقول :

ألا إنما أبغى جوادًا بماله ... كريمًا محياه كثيرَ الصدائق
فتى همّه - مذ كان - خودٌ خريدة[1] ... يعانقها فى الليل فوق النمارق

وحدث يحيى بن عبد العزيز ، عن محمد بن عبد الحكم ، عن الإمام الشافعى ﷺ قال تزوج رجل امرأة جديدة على امرأة قديمة فكانت جارية الجديدة تمر على بيت القديمة فتقول :

وما يستوى الرّجلان : رجلٌ صحيحةٌ ... وأخرى رمى فيها الزمان فشُلّت

ثم تعود وتقول :

وما يستوى الثوبان ثوب به البلى ... وثوب بأيدى البائعين جديد

فمرت جارية القديمة على باب الجديدة يوما وقالت :

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأوّل

(١) الخريدة: المرأة الحيّة، والمرأة لم تُمسّ.

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدًا لأول منزل

وقال عمرو بن العلاء ، وكان أعلم الناس بالنساء :

فإن تسألوني بالنساء فإنني ... بصير بأدواء النساء طبيب

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله ... فليس له في ودهن نصيب

وسئل المغيرة بن شعبة عن صفة النساء ، فقال : بنات العم أحسن مواساة ، والغرائب أنجب ، وما ضرب رءوس الأقران مثل ابن السوداء . وقال عبد الملك بن مروان : من أراد أن يتخذ جارية للمتعة ، فليتخذها بربرية ، ومن أراد أن يتخذها للولد ، فليتخذها فارسية ، ومن أراد أن يتخذها للخدمة فليتخذها رومية . قال الشاعر :

لا تشتمن امرأ ممن يكون له ... أمّ من الروم أو سوداء عجماء

فإنما أمهات القوم أوعية ... مستودعات وللأنساب آباء

وقال الأصمعي : أتاني رجل من قريش يستشيرني في امرأة يتزوجها . فقلت : يابن أخي ، أقصيرة النسب أم طويلته ؟ فلم يفهم عني ! فقلت : يابن أخي أما القصيرة النسب ، فالتي إذا ذكرت أباها اكتفت به ، والطويلة النسب فهي التي لا تعرف حتى تطيل في نسبها ، فإياك أن تقع مع قوم قد أصابوا كثيراً من الدنيا مع دناءة فيهم ، فتضيع نسبك فيهم . وخرج رجل من أهل الكوفة في غزاة فكسب جارية وفرساً وكان مملكاً على ابنة عمه فكتب إليها يغيرها ويقول :

ألا بلغوا أم البنين بأننا ... غنينا وأغنتنا الغطارفة النُّجد[1]

بعيد مناط المنكبين إذا جرى ... وبيضاء كالتمثال زيّنها العقد

فهذا لأيام العدوّ وهذه ... لحاجة نفسي حين ينصرف الجند

فلما ورد عليها كتابه ، وقرأته قالت : ياغلام ، هات الدواة ، وكتبت جوابه تقول :

ألا فاقره مني السلام وقل له ... غنينا وأغنتنا غطارفة المرد

إذا شئت أغناني غلام مرجل ... ونازعته في ماء معُتصَر الورد

وإن شاء منهم ناشيء مد كفه ... إلى عكنٍ ملساء ، أو كفَلٍ نهد

فما كنتم تقضون حاجة أهلكم ... شهودا فتقضوها على النأى والبعد

فعجل إلينا بالسراح فإنه ... منانا ولا ندعو لك الله بالرد

فلا قَفَلَ الجندُ الذى أنت فيهم ... وزادك ربّ الناسِ بعدا على بعد

فلما ورد عليه كتابها لم يزد على أن ركب الفرس ، وأردف الجارية خلفه ، ولحق بابنة عمه ، فكان أول شيء بدأها به بعد السلام أن قال لها : بالله عليك هل كنت فاعلة ذلك ؟! فقالت له : الله في قلبي أعظم وأجل ، وأنت في عيني أذل وأحقر من أن أعصي الله فيك ! فكيف ذقت طعم الغيرة ؟ فوهب لها الجارية وانصرف إلى الغزاة والله تعالى أعلم بالصواب .

الفصل الثاني : في صفات النساء المحمودة

كتب الحجاج إلى الحكم بن أيوب أن اخطب لعبد الملك بن مروان امرأة جميلة من بعيد ، مليحة من قريب ، شريفة في قومها ، ذليلة في نفسها ، مؤاتية لبعلها ، فكتب إليه قد أصبتها لولا عظم ثدييها ! فكتب إليه لا يكمل حسن المرأة حتى يعظم ثدياها ، فتدفيء الضجيع ، وتروى الرضيع . وقال عبد الملك بن مروان لرجل من غطفان صف لي أحسن النساء قال : خذها ياأمير المؤمنين ملساء القدمين ، ردماء الكعبين[2] ، ناعمة الساقين ، ضخماء الركبتين ، لفاء

(١) النُّجُدُ: جمع نجيد، وهو الأسد، والشجاع الماضي فيما يُعجز غيره، وجمع نجود، وهي المرأة العاقلة النبيلة، وناقة نجود، أي طويلة العنق مرتفعة.

(٢) أي لينة الكعبين.

الفخدين ، ضخمة الذراعين ، رخصة الكفين ، ناهدة الثديين ، حمراء الخدين ، كحلاء العينين ، زجاء[١] الحاجبين ، لمياء[٢] الشفتين ، بلجاء الجبين ، شماء العِرنين ، شنباء[٣] الثغر ، محلولكة[٤] الشعر ، غيداء العنق ، مكسرة البطن ، فقال : ويحك وأين توجد هذه ؟ قال : تجدها فى خالص العرب ، وفى خالص فارس ، وقال حكيم : عليكم بمن تربّت فى النعيم ، ثم أصابتها فاقة فأثر فيها الغنى ، وأدبها الفقر ، وقال رجل لخاطب : ابغ لى امرأة لا تؤنس جارا ، ولا توطن دارا ، يعنى لا تدخل على الجيران ولا تدخل الجيران عليها وفى مثل هذه قال الشاعر :

هيفاء فيها إذا استقبلتها صَلَفٌ ... عَيطاءُ غامضة الكعبين مِعطَارُ
خَوْد من الخَفِرات البيض لم يرها ... بساحة الدارِ لا بعلٌ ولا جار

وقال الأعشى :

لم تمشِ ميلاً ولم تركب على جمل ... ولم تر الشمسَ إلا دونها الكِلَلُ[٥]

وكانت امرأة عمران بن قحطان من أجمل الناس وجهاً ، وكان هو من أقبح الناس وجها فقال لها يوما : أنا وإياك فى الجنة إن شاء الله تعالى : فقالت له : وكيف ذلك ؟ فقال : لأنى أعطيت مثلك فشكرت ، وأعطيت مثلى فصبرت ، والصابر والشاكر فى الجنة . وقال بعضهم : رأيت فى طريق مكة أعرابية ما رأيت أحسن منها وجها ، فقعدت أنظر إليها ، وأتعجب من جمالها فجاء شيخ قصير ، فأخذ بردائها ، وسار بها ، ومضى ، فلقيتها مرة أخرى ، فقلت لها : من هذا الشيخ ؟ قالت : زوجى . قلت : كيف يرضى مثلك بمثله ؟ فأنشدت :

أياعجباً للخود يجرى وشاحُها ... تزف إلى شيخ بأقبح تمثال
دعانى إليه أنه ذو قرابة ... يعز علينا من بنى العم والخال

وسمع بعضهم قائلا يقول شعرا :

ومن لا يُردْ مدحى فإن مدائحى ... توافِقُ عند الأكرمين نَوامى[٦]
نوافقُ عند المشترى الحمدَ بالنَّدَى ... نفاقَ بنات الحارث بن هشام

فقال : يابن أخى ، ما بلغ من نفاق بنات الحارث بن هشام ؟ قال : كنّ من أجمل الناس وجوها ، وكان أبوهن إذا زوّجهن يسوقهن ومهورهن ، إلى بعولتهن ، فقال : يابن أخى لو فعل هذا إبليس ببناته لتنافست فيهن الملائكة المقربون . وقال عبد الملك لابن أبى الرقاع : كيف علمك بالنساء ؟ قال : أنا والله أعلم الناس بهن ، وجعل يقول :

قضاعيةُ الكعبين كندية الحشا ... خزاعيةُ الأطراف طائيةُ الفم
لها حكمُ لقمانَ وصورة يُوسف ... ومنطقُ داودَ وعِفةُ مريم

وقالوا : الوجه الحسن أحمر ، وقد تضرب فيه الصفرة مع طول المكث فى الكن ، والتضمخ بالطيب . وقالوا : إن الوجه الرقيق البشرة ، الصافى الأديم إذا خجل يحمر ، وإذا فرق يصفر ، ومنه قولهم : ديباج الوجه يريدون تلوّنه من رقته قال على بن زيد فى وصفه :

حمرة خلط صفرة فى بياض ... مثل ما حاك حائك ديباجا

وقال على بن عبدربه :

بيضاء يحمر خداها إذا خجلت ... كما جرى ذهب فى صفحتى وَرِقِ

وقالوا : إن الجارية الحسناء تتلوّن بتلوّن الشمس ، فهى بالضحى بيضاء ، وبالعشى صفراء ، وقال ذو الرمة :

بيضاء صفراءُ قد تنازعَها ... لونان من فضة ومن ذهب

---

(١) زجّ الحاجب : دقّ في طول وتقوّس .
(٢) شفة لمْياء : لطيفة قليلة الدم ، واللحم .
(٣) شنباء الثغر : دقّة الأسنان وبياضها .
(٤) محلولكة الشعر : شديدة سواد الشعر .
(٥) الكِلَل : جمع كِلة : بيت من نسيج كالستائر [الناموسية] .
(٦) نوافق : جمع نافقة : أى رائجة ومشهورة ونوامى : متنامية . جمع نامية .

قالوا : ليس المرأة الجميلة التى تأخذ ببصرك جملة على بعد ، فإذا دنت منك لم تكن كذلك بل، الجميلة التى كلما كررّت بصرك فيها زادتك حسنا . وقالوا : إن أردت أن ينجب ولدك فأغضبها ، ثم قع عليها ، قال الشاعر :

ممن حملن وهن عواقد حبك النطاق فعاش غير مُهَبَّل
حملت به فى ليلة مزورّة كرهاً وعقد نطاقها لم يُحْلل

الفصل الثالث : فى صفة المرأة السوء -نعوذ بالله تعالى منها

فى حكمة داود عليه السلام أن المرأة السوء ، مثل شرك الصياد لا ينجو منها إلا من رضى الله تعالى عنه . وقيل : المرأة السوء غُلّ يلقيه الله تعالى فى عنق من يشاء من عباده . وقيل لأعرابى كان ذا تجربة للنساء: صف لنا شرّ النساء، فقال : شرهن النحيفة الجسم ، القليلة اللحم ، المحياض[١] الممراض ، المصفرة الميشومة ، العسرة المبشومة[٢] ، السلطة البطرة ، النفرة السريعة الوثبة ، كأن لسانها حربة ، تضحك من غير عجب ، وتبكى من غير سبب ، وتدعو على زوجها بالحرب ، أنف فى السماء ، واست فى الماء ، عرقوبها حديد ، منتفخة الوريد ، كلامها وعيد ، وصوتها شديد ، تدفن الحسنات ، وتفشى السيئات ، تعين الزمان على بعلها ، ولا تعين بعلها على الزمان ، ليس فى قلبها عليه رأفة ، ولا عليها منه مخافة، إن دخل خرجت ، وإن خرج دخلت ، وإن ضحك بكت ، وإن بكى ضحكت ، كثيرة الدعاء ، قليلة الإرعاء[٣] ، تأكل لمًّا[٤] ، وتوسع ذما ، ضيقة الباع[٥] ، مهتوكة القناع ، صبيها مهزول ، وبيتها مزبول ، إذا حدّثت تشير بالأصابع ، وتبكى فى المجامع ، بادية من حجابها ، نباحة عند بابها ، وتبكى وهى ظالمة ، وتشهد وهى غائبة ، قد دلى لسانها بالزور ، وسال دمعها بالفجور ، ابتلاها الله بالويل والثبور ، وعظائم الأمور . ويقال : إن المرأة إذا كانت مبغضة لزوجها فإن علامة ذلك أن تكون عند قربها منه مرتدة الطرف عنه كأنها تنظر إلى إنسان غيره من ورائه ، وإن كانت محبة له لا تقلع عن النظر إليه قال بعضهم :

لقد كنت محتاجاً إلى موت زوجتى ولكن قرين السُّوء باقٍ معمر
فياليتها صارت إلى القبر عاجلاً وعذبها فيه نكير ومنكر

وقال داود ﷺ: المرأة السوء على بعلها كالحمل الثقيل على الشيخ الكبير ، والمرأة الصالحة كالتاج المرصع بالذهب ، كلما رآها قرت عينه ، برؤيتها ، والله أعلم .

الفصل الرابع : فى مكر النساء وغدرهن وذمهن ومخالفتهن

فى حكمة داود عليه السلام وجدت فى الرجال واحدًا فى ألف ، ولم أجد واحدة فى جميع النساء ! وقيل : إن عيسى عليه السلام لقى إبليس يسوق أربعة أحمرة ، عليها أحمال ، فسأله ، فقال : أحمل تجارة ، وأطلب مشترين ، فقال : ما أحدُها قال : الجَوْرُ قال : من يشتريه ؟ قال السلاطين . قال : فما الثانى ؟ قال الحسد ، قال : فمن يشتريه ؟ قال : العلماء قال : فما الثالث ؟ قال الخيانة . قال : فمن يشتريها ؟ قال : التجار . قال : فما الرابع ؟ قال : الكيد . قال : فمن يشتريه ؟ قال : النساء . وقال حكيم : النساء شرٌ كلهنَ وشر ما فيهن قلة الاستغناء عنهن ، وقالت الحكماء : لا تثق بامرأة ، ولا تغتر بمال ، وإن كثر، وقال : النساء حبائل الشيطان. قال الشاعر :

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن جَزُوعًا إذا بانت فسوف تبين
وخنها وإن كانت تفى لك إنها على قدم الأيام سوف تخون
وإن هى أعطتك اللين فإنها لغيرك من طلابها ستلين

---

(١) المحياض : كثير الحيض .
(٢) المبشومة : كثيرة الأكل حتى التخمة.
(٣) قليلة الإرعاء: قليلة الإصغاء والاستماع للكلام.
(٤) تأكل لمًا: أي تأكل إسرافًا.
(٥) الباعُ: مسافة ما بين الكفَّين إذا انبسطت الذراعان، وطويل الباع: طويل الجسم.

وإن حلفت أن ليس تنقض عهدها ... فليس لمخضوب البنان[1] يمين
وإن سكبت يوم الفراق دموعَها ... فليس لعمر الله ذاك يقين

وقال ابن بشار :

رأيت مواعيد النساء كأنها ... سراب لمرتاد المناهل حافل
ومنتظر الموعود منهن كالذى ... يؤمل يوما أن تلين الجنادل

وقال بعض الحكماء : لم تُنْهَ المرأة عن شىء قط إلا فعلته . وقال الغنوى :

إن النساء متى يُنْهين عن خُلق ... فإنه واقع لابد مفعول

وقال النخعى : من اقتراب الساعة طاعة النساء ، ويقال : من أطاع عرسه ، فقد أضاع نفسه . وقال على ﷺ إياك ومشاورة النساء ، فإن رأيهن إلى أفن[2] ، وعزمهن إلى وهن ، اكفف أبصارهن بالحجاب ، فإن شدّ الحجاب خير لهن من الارتياب ، وليس خروجهن بأضرّ من دخول من لا يوثق به عليهن ، فإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل . وقال السمعانى :

لا تأمنن على النساء ولو أخا ... ما فى الرجال على النساء أمين
إن الأمين وإن تحفظ جَهدَه ... لابد أن بنظرة سيخون !

وقال غيره :

لا تركنَنْ إلى النساء ولا تثق ... بعهودهن فرضاؤهن جميعُهن ... معلَّق بفروجهن !

وقال على ﷺ : لا تطلعوا النساء على حال ، ولا تأمنوهن على مال ، ولا تذروهن إلا لتدبير العيال ، إن تركن وما يردن أوردن المهالك ، وأفسدن الممالك ، ينسين الخير ويحفظن الشر ، يتهافتن فى البهتان ، ويتمادين فى الطغيان . وقال أبو بكر ﷺ ذل من أسند أمره إلى امرأة . وقيل إن صيادًا أتى أبرويز بسمكة فأعجبه حُسْنُها ، وسَمتُها فأمر له بأربعة آلاف درهم ، فخطأته سيرين زوجته فقال لها : ماذا أفعل ؟ فقالت له : إذا جاءك ، فقل له : أذكرا كانت أم أنثى ؟ فإن قال لك ذكر ، فاطلب منه الأنثى ، وإن قال لك أنثى ، فاطلب منه الذكر ، فلما أتاه سأله فقال : كانت أنثى ، فقال : ائتنى بذكرها فقال : - عمر الله الملك - كانت بكرا لم تتزوج ، فقال : زِدْ ، وأمر له بثمانية آلاف درهم ، وقال : اكتبوا فى الحكمة : الغدر ، ومطاوعة النساء يؤديان إلى الغُرْم الثقيل . وقال حكيم : اعص النساء وهواك ، وافعل ما شئت . وقال عمر ﷺ أكثروا لهُنّ من قول : لا فإن « نعم » تغريهن على المسألة وقال : استعيذوا بالله من شرار النساء ، وكونوا من خيارهن على حذر ! .

ومما قيل فى الباءة : ذُكِرَ الجماع عند الإمام مالك بن أنس ﷺ قال : هو نور وجهك ، ومخ ساقك ، فأقلل منه أو أكثر . وقال معاوية ﷺ ما رأيت نَهِمًا فى النساء إلا عرفت ذلك فى وجهه . وخلا تمام بجارية له فعجز عنها فقال : ما أوسع حَرِكِ فأنشأت تقول :

أنت الفداءُ لمن قد كان يملؤه ... ويشتكى الضيقَ منه حين يلقاه

وقال آخر :

شفاءُ الحب تقبيلٌ ولمس ... وسحبٌ بالبطون على البطون
ورهز تذرف العينان منه ... وأخذ بالمناكب والقرون

وقالت امرأة من أهل الكوفة : دخلت على عائشة بنت طلحة فسألت عنها ، فقيل : هى مع زوجها فى القيطون ،

---

(١) مخضوب البنان : كناية عن النساء هنا، ولسنا مع الشاعر فيما يدعو إليه .
(٢) الأفن : فساد " ! "

فسمعت شهيقاً وشخيرا لم أسمع مثله ، ثم خرجت إلى وجبينها يتصبب عرقا ، فقلت لها : ما ظننت حرة تفعل هذا بنفسها !! فقالت : إن الخيل تشرب بالصفير . وعاتبت امرأة زوجها على قلة إتيانها فأجابها يقول :

أنا شيخ ولي امرأة عجوزُ ... تراودني على مالا يجوزُ
وقالت : رق أيرك مُذ كبرنا ... فقلت : بلى قد اتسع القفيز !

وكان لرجل امرأة تخاصمه ، وكلما خاصمته قام إليها فواقعها ، فقالت : ويحك كلما تخاصمنى تأتينى بشفيع لا أقدر على رده ، وأتى رجل الى على بن أبى طالب ﷺ وقال : إن لى امرأة كلما غشيتها تقول : قتلتنى ! فقال : اقتلها بهذه القتلة وعلى إثمها ! وقال على جماعه فهو أصح بدنا ، وأنقى جلدا ، وأطول عمراً ، ويعتبر ذلك بذكور الحيوان ، وذلك أنه ليس فى الحيوان أطول أعماراً من البغال ، ولا أقصر أعماراً من العصافير ، وهى أكثر سفاداً[1] ، والله تعالى أعلم بالصواب .

الفصل الخامس : فى الطلاق وما جاء فيه

عن عبد الرحمٰن بن محمد ابن أخى الأصمعى قال : قال عمى للرشيد ، فى بعض حديثه ، يا أمير المؤمنين ، بلغنى أن رجلا من العرب ، طلق فى يوم واحد خمس نسوة ، قال : وكيف ذلك ، وإنما لا يجوز للرجل غير أربعة . قال : ياأمير المؤمنين ، كان متزوجاً بأربعة ، فدخل عليهن يوما فوجدهن متنازعات ، وكان شريراً ، فقال : إلى متى هذا النزاع ؟ ما أظن هذا إلا من قبلك يا فلانة لامرأة منهن ، اذهبى فأنت طالق ، فقالت له صاحبتها عجلت عليها بالطلاق ، ولو أدبتها بغير ذلك لكان أصلح ، فقال لها : وأنت أيضا طالق ، فقالت له الثالثة : قبحك الله ، فوالله لقد كانتا إليك محسنتين ، فقال لها : وأنت أيضاً أيتها المعددة أياديهما طالق ، فقالت الرابعة : وكانت هلالية ضاق صدرك إلا أن تؤدب نساءك بالطلاق ، فقال لها وأنت طالق أيضاً فسمعته جارة له ، فأشرفت عليه ، وقالت له : والله ما شهدت العرب عليك ، و لا على قومك بالضعف إلا لما بلوه منكم ووجدوه فيكم أبيت إلا طلاق نسائك فى ساعة واحدة ، فقال لها : وأنت أيتها المتكلمة فيما لا يعنيك طالق إن أجازنى بعلك ، فأجابه زوجها قد أجزت ذلك ، فعجب الرشيد من ذلك . وطلق رجل امرأته فلما أرادت الارتحال قال لها : اسمعى ، وليسمع من حضر أنى والله اعتمدتك برغبة ، وعاشرتك بمحبة ، ولم أجد منك زلة ، ولم يدخلنى عنك ملة ، ولكن القضاء كان غالبا ، فقالت المرأة جزيت من صاحب ومصحوب خيراً فما استقللت خيرَك ، ولا شكوتُ ضَيْرك ، ولا تمنيت غيرك ، ولا أجد لك فى الرجال شبيها ، وليس لقضاء الله مدفع ، ولا من حكمه علينا ممنع . وقال رجل لابن عباس رضي الله عنهما ما تقول فى رجل طلق امرأته عدد نجوم السماء ؟ فقال : يكيفه من ذلك عدد نجوم الجوزاء[2] .

ذكر من طلق امرأته فتبعتها نفسه : قال الهيثم بن عدى كانت تحت ابن الغربان بن الأسود بنت عم له ، فطلقها فتبعتها نفسه ، فكتب إليها يعرض لها بالرجوع فكتبت إليه تقول :

إن كنت ذا حاجة فاطلب لها بدلا ... إن الغزال الذى ضيعت مشغول !

فكتب إليها يقول :

إن كان ذا شغل فالله يكلؤه ... فقد لهونا به والحبل موصول
وقد قضينا من استظرافه وطرا[3] ... وفى الليالى وفى أيامها طول

وطلق الوليد بن يزيد زوجته سُعدى ، فلما تزوجت اشتد ذلك عليه وندم على ما كان منه ، فدخل عليه أشعب فقال له : هل لك أن تبلغ سعدى عنى رسالة ، ولك عشرة آلاف درهم ؟! قال أقبضنيها فأمر له بها ، فلما قبضها قال له هات رسالتك قال : ائتها فأنشدها :

---

(١) سَفادًا : معاشرة جنسية ونزوًا .
(٢) الجوزاء : برج من بروج السماء .
(٣) وطراً : حاجةً .

أسعدى هل إليك لنا سبيل ولا حتى القيامة من تلاق
بلى ولعل دهرا أن يؤاتى بموت من خليلك أو فراق

قال : فأتاها أشعب ، فاستأذن عليها . فأذنت له . فدخل فقالت له : ما بدا لك فى زيارتنا يا أشعب ؟ فقال : يا سيدتى أرسلنى إليك الوليد برسالة ، ثم أنشدها الشعر فقالت : لجواريها : عليكن بهذا الخبيث ، فقال : يا سيدتى إنه دفع إلىّ عشرة آلاف درهم ، فهى لك وأعتقينى لوجه الله ، فقالت : والله لا أعتقك أو تبلغ إليه ما أقول لك ، قال : يا سيدتى فاجعلى لى جُعلا [1] . فقالت : لك بساطى هذا ، قال : قومى عنه ، فقامت فأخذه وألقاه على ظهره : وقال : هاتى رسالتك فقالت :

أتبكى على سُعْدَى وأنت تركتها فقد ذهبت سعدى فما أنت صانع ؟!

فلما بلغه الرسالة ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وأخذته كظمة فقال لأشعب : اختر منى إحدى ثلاث : إما أن أقتلك وإما أن أطرحك من هذا القصر ، وإما أن ألقيك إلى هذه السباع ، فتفترسك ، فتحير أشعب وأطرق مَلِيًّا ، ثم قال : يا سيدى ، ما كنت لتعذب عينا ، نظرت إلى سعدى ، فتبسم وخلّى سبيله . وممن طلق امرأته ، فتبعتها نفسه الفرزدق الشاعر طلق النوار ، ثم ندم على طلاقها وقال :

ندمت ندامة الكُسَعِىّ لما غدت منى مُطَلَّقَةً نوارُ
فأصبحتُ الغداةَ ألومُ نفسى بأمر ليس لى فيه اختيار
وكانت جنتى فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضرار
ولو أنى ملكتُ بها يمينى لكان على للقدر الخيار

وممن طلق امرأته فتبعتها نفسُه فندم قيس بن ذريح ، وكان أبوه أمره بطلاقها ، فطلقها وندم على ذلك فأنشد يقول :

فنى صبرى وعاودنى رداعى وكان فراق لبنى كالخداع
تكنفنى الوشاة فأزعجونى فيالله للناس للواشى المطاع !
فأصبحتُ الغداةَ ألومُ نفسى على أمر وليس بمستطاع
كمغبون يعضّ على يديه تبين غبنُه عند البياع

وحدث العتبى قال : جاء رجل بامرأة كأنها برج من فضة إلى عبد الرحمن بن الحكم ، وهو على الكوفة ، فقال : إن امرأتى هذه شجتنى [2] فسألها عبد الرحمن ، فقالت : نعم يا مولاى غير متعمدة لذلك ، كنت أعالج طِيبًا فوقع الفِهْر من يدى على رأسه ، وليس عندى علم ، ولا يقوى بدنى على القصاص ، فقال للرجل : علام تمسكها ، وقد فعلت بك ما أرى ؟! فقال : يا مولاى إن صداقها على أربعة آلاف درهم ، ولا تطيب نفسى بفراقها ، قال : فإن أعطيتك الأربعة آلاف درهم تفارقها قال : نعم . قال : هى لك ، قال : فهى إذن طالق : فقال لها عبد الرحمن احبسى علينا نفسك ، وأنشأ يقول :

يا شيخُ يا شيخُ من دلّاك بالغزل قد كنتَ يا شيخ عن هذا بمعتزل
رُضتَ الصعابَ فلم تُحسِنْ رياضتها فاعمَد لنفسك نحو القرح الذّلل

والله سبحانه وتعالى أعلم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) جُعْلاً : مقدار من المال مقابل ما أقوم به .
(٢) شجّه : شقّ جلد رأسه أو وجهه .

الباب الرابع والسبعون

فى تحريم الخمر ، وذمها والنهى عنها

وقد أنزل الله تعالى فى الخمر ثلاث آيات[١] : الأولى قوله تعالى : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:٢١٩] الآية فكان من المسلمين من شارب ، ومن تارك إلى أن شرب رجل فدخل فى الصلاة فهجر ، فنزل قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣] فشربها من شربها من المسلمين ، وتركها من تركها حتى شربها عمر ﷺ فأخذ بلحى بعير ، وشج به رأس عبد الرحمن بن عوف ، ثم قعد ينوح على قتلى بدر ، بشعر الأسود بن يعفر يقول :

وكائن بالقليب قليب[٢] بدرٍ ... من الفتيان والعرب الكرام
أيوعدنى ابنُ كبشة أن سنحيا ... وكيف حياةُ أصداءٍ وهام
ألا من مُبلغُ الرحمن عنى ... بأنى تاركٌ شهر الصيام
فقل لله يمنعنى شرابى ... وقل : يمنعنى طعامى

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج مُغضَباً يجر رداءه ، فرفع شيئاً كان فى يده فضربه به ، فقال : أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله فأنزل الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١][٣] فقال عمر ﷺ انتهينا انتهينا ، ومن الأخبار المتفق عليها فى تحريمها ، قول سيدنا رسول الله ﷺ « لا يدخل الجنة مدمن خمرٍ »[٤] وقوله ﷺ : « أول ما نهانى ربى بعد عبادة الأوثان عن شرب الخمر ، وملاحاة الرجال »[٥] ، وممن تركها فى الجاهلية عبد الله بن جُدعان ، وكان جوادا من سادات قريش ، وذلك أنه شرب مع أمية بن أبى الصلت الثقفى ، فضربه على عينه ، فأصبحت عين أمية مخضرة ، يخاف عليها الذهاب ، فقال له عبد الله : ما بال عينك ؟ فسكت ، فألح عليه ، فقال : ألست ضاربها بالأمس ؟! فقال : أوبلغ منى الشراب ما أبلغ معه إلى هذا ؟ لا أشربها بعد اليوم ! ثم دفع له عشرة آلاف درهم ، وقال : الخمر علّى حرام ، لا أذوقها بعد اليوم أبدا ! وممن حرمها فى الجاهلية أيضا قيس بن عاصم ، وذلك أنه سكر ذات ليلة فقام لابنته أو لأخته ، فهربت منه ، فلما أصبح سأل عنها ، فقيل له : أو ما علمت ما صنعت البارحة ؟! فأخبر بالقصة ، فحرم الخمر على نفسه . وممن حرمها فى الجاهلية أيضا العباس ابن مِرداس ، وقيس بن عاصم ، وذلك أن قيسا شرب ذات ليلة ، فجعل يتناول القمر ، ويقول والله لا أبرح حتى أنزله ، ثم يثب الوثبة بعد الوثبة ، ويقع على وجهه ، فلما أصبح وفاق قال : مالى هكذا ؟ فأخبروه بالقصة ، فقال : والله لا أشربها أبدا ! وقيل للعباس بن مرداس : لم تركت الشراب ، وهو يزيد فى سماحتك ؟ فقال أكره أن أصبح سيد قومى ، وأمسى سفيههُم ، ودخل نُصيب على عبد الملك بن مروان ، فأنشده ، فأعجبه إنشاده وشعره ، ووصله ، ثم دعا بالطعام ، فطعم منه ، فقال له عبد الملك : يا نصيب ! هل لك فيما ينادم عليه ؟! قال : ياأمير المؤمنين جلدى أسود ، وخلقى مشوه ، ووجهى قبيح ، وتكفينى مجالستُك ومؤاكلتُك ، ولم يوصلنى إلى ذلك إلا عقلى ، وأنا أكره أن يدخل عليه ما ينقصه ، فأعجبه كلامُه ، ووصله . وقال الوليد بن عبد الملك للحجاج فى وفدة وفدها عليه : هل لك فى الشراب ؟! فقال : ياأمير المؤمنين ، لا خلاف لما أمرت ، ولكن أنا أمنع أهل عملى منه ، وأكره أن أمنعهم عن شىء ، ولا أمتنع منه ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود:٨٨] وقال تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤] .

---

(١) كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود الطيالسى فى مسنده عن ابن عمر ، « نزل فى الخمر ثلاث آيات . . . » . إلخ .
(٢) القليب : البئر .
(٣) وانظر أسباب النزول للسيوطى والنيسابورى . والدر المنثور .
(٤) رواه ابن ماجه عن أبى الدرداء كما جاء فى الجزء التاسع « المنتخب من السنة » .
(٥) أخرجه ابن أبى شيبة فى « المصنف » . [٨/ ٤ ، ١٤/ ١٠٣] ، والبيهقى فى « السنن الكبرى » . [١٠/ ١٩٤] .

وقيل لأعرابى : لم لا تشرب النبيذ ؟ فقال : لا أشرب ما يشرب عقلى ! وقال الضحاك ابن مزاحم لرجل : ما تصنع بشرب النبيذ ، قال يهضم طعامى ، قال : أما إنه يهضم من دينك وعقلك أكثر ! وقال ابن أبى أوفى لقومه حين نهوا عن الخمر :

ألا يالقومى ليس فى الخمر رفعةٌ ... فلا تقربوا منها فلستُ بفاعلِ
فإنى رأيت الخمرَ شينا ولم يزل ... أخو الخمر دَخَّالاً لشَرّ المنازلِ

وقال الحسن : لو كان العقل يُشترى لتغالى الناس فى ثمنه ، فالعجب ممن يشترى بماله ما يفسده ! وقال عيسى ابن مريم عليه السلام : « حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والنساء حبائل الشيطان ، والخمر داعية إلى كل شر »[1] وقال بعضهم :

بلوتُ نبيذَ الخمر فى كلّ بلدة ... فليس لإخوان النبيذِ حِفاظُ
إذا دارت الأرطال أرضوك بالمنى ... وإن فقدوها فالوجوهُ غِلاظُ

وقال حكيم : إياك وإخوانَ النبيذ ، فبينا أنت متوّج عندهم مخدوم مكرم معظم ، إذ زلت بك القدم ، فجروك على شوك السلم ، فاحفظ قول القائل فيه :

وكل أناس يحفظون حريمهم ... وليس لأصحاب النبيذ حَريم
فإن قلتُ هذا لم أقل عن جهالة ... ولكننى بالفاسقين عليم

(وللأعرج الطائى) :

تركت الشعرَ واستبدلت منه ... إذا داعى صلاة الصبح قاما
كتابُ الله ليس له شريك ... وودعت المدامة والندامى

(وقال الصفدى) :

دعِ الخمر فالراحات فى ترك راحِها ... وفى كاسها للمرء كسوةُ عار
وكم ألبستْ نفس الفتى بعد نورها ... مدارع فارٍ فى مدار عُقارِ

(نكتة) : اجتمع نصرانى ومحدّث فى سفينة ، فصب النصرانى خمراً من زق كان معه فى شربة ، وشرب ثم صب فيها ، وعرض على المحدّث فتناولها من غير فكر ولا مبالاة ، فقال النصرانى : جُعلتُ فداك إنما هى خمر . قال : من أين علمت أنها خمر ؟ قال : اشتراها غلامى من يهودى ، وحلف أنها خمر ، فشربها المحدث عن عَجَل ، وقال للنصرانى : يا أحمقُ، نحن أصحابَ الحديث نُضعَّفُ مثل سُفيان بن عيينة ، ويزيد بن هارون ، أفنصدق نصرانيا عن غلامه ، عن يهُودى والله ما شربتُها إلا لضَعْف الإسناد[2] ، ومن المجون فى ذلك ما حكى أن سكراناً استلقى على طريق ، فجاء كلب فلحس شفتيه ، فقال : خدمك بنوك ، ولا عدموك ، فبال على وجهه ، فقال : وماءَ حارا أيضا بارك الله فيك ! وقيل : حالة السكارى ثلاثة قرد حرك رأسه فرقص ، وكلب هارش[3] فنبح ، وحية زويت فنامت . ومر عقال الناسك بمرداس بن خدام الأسدى ، فاستسقاه لبنا ، فصب له خمرا ، وعلاه بلبن فشربه ، وسكر ، ولم يتحرك ثلاثة أيام ، فقال :

سقيت عقالا بالعشية شربةً ... فمالت بعقل الكاهلى عقالى
قرعتُ بأم الخلّ حبة قلبه ... فلم ينتعش منها ثلاث ليال

---

(١) رواه البيهقى فى الشعب بإسناد حسن إلى الحسن البصرى رفعه مرسلا ، وذكره الديلمى فى الفردوس ، وتبعه ولده بلا سند عن على رفعه . وقال ابن الغرس : الحديث ضعيف ، ورواه البيهقى أيضا فى الزهد ، وأبو نعيم من قول عيسى ابن مريم وفى رواية لوالد أحمد بلفظ « رأس الخطيئة حب الدنيا والنساء حُبالة الشيطان ، والخمر مفتاح كل شر » . قاله العجلونى . وهذه هى الرواية التى ذكرها المصنف .

(٢) فى مثل هذه « النكتة » سخرية لاذعة من أصحاب الحديث ، وفيهم من سما قدره ، وعلا شأنه واتصف بالصدق والعدالة ، أما الوضاعون والكذبة فليسوا من أصحاب الحديث ، ولا يعد كلامهم حديثا .

(٣) هارش الكلبُ الكلبَ : قاتله ، وتهارشت الكلاب : تقاتلت .

ويقال : الخمر مصباح السرور ، ولكنها مفتاح الشرور . اللهم تب علينا وعلى العصاة والمذنبين . برحمتك يا أرحم الراحمين آمين .

الباب الخامس والسبعون

فى المزح والنهى عنه وما جاء فى الترخيص فيه والبسط والتنعم وفيه فصول

الفصل الأول : فى النهى عن المزاح

قال رسول الله ﷺ « **المزاح استدراج من الشيطان ، واختلاع من الهوى** »[1] . وعن على : ما مزح أحد مزحة إلا مج الله من عقله مجة . وعنه : إياك أن تذكر من الكلام ما يكون مضحكا ، وإن حكيت ذلك عن غيرك . وكتب عمر ﷺ إلى عماله : امنعوا الناس من المزاح ، فإنه يذهب بالمروءة ، ويوغر الصدور ، وقال بعض الحكماء : تجنب سوء المزح ، ونكد الهزل ، فإنهما بابان إذا فتحا لم يغلقا إلا بعد غم . وقال آخر : لكل شىء بذر ، وبذر العداوة المزاح . وعن محمد بن المنكدر قال : قالت لى أمى : لا تمازح الصبيان تهن عندهم . وخرج أعرابى بالليل ، فإذا بجارية جميلة ، فراودها ، فقالت : أما لك زاجر من عقلك ، إذا لم يكن لك واعظ من دينك ؟ فقال : والله ما يرانا إلا الكواكب ، فقالت له : يا هذا ، وأين مكوكبها ؟ فأخجله كلامها ، فقال لها : إنما كنت مازحا ، فقالت :

فإياك إياك المزاح فإنه ... يجرّى عليك الطفلَ والرجلَ النَّذلا
ويذهب ماءَ الوجه بعد بهائه ... ويورثُ بعد العزّ صاحبَه ذُلا

وقال الأحنف : كثرة الضحك تذهب الهيبة ، وكثرة المزاح تذهب المروءة ، ومن لزم شيئا عرف به . ومما روى عن الصحابة ﷺ أنهم كانوا يتحادثون ، ويتناشدون الأشعار فإذا جاء ذكر الله انقلبت حماليقهم ، كأنهم لم يعرفوا أحدا .

الفصل الثانى : فيما جاء فى الترخيص فى المزاح والبسط والتنعم

لا بأس بالمزح ، ما لم يكن سفها ، والله تعالى وعد فى اللمم بالتجاوز والعفو فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ [النجم: ٣٢]، وقيل : إن يحيى بن زكريا لقى عيسى عليهما السلام فقال : ما لى أراك لاهيًا كأنك آمن ؟! فقال له عيسى : مالى أراك عابسا كأنك آيس ؟! فقال : لا تبرح حتى ينزل علينا الوحى فأوحى الله إليهما : « **إنّ أحبكما إلىّ أحسنكما ظنًا بى** » **ويروى « إن أحبكما إلىّ الطَّلق البسام** »[2] . وقال عمر بن الخطاب ﷺ لجارية : خلقنى خالق الخير ، وخلقك خالق الشر ، فبكت الجارية ، فقال ، لا بأس عليك فإن الله خالق الخير والشر قال الشاعر :

إن الصديق يريد بسطك مازحا ... فإذا رأى منك الملالة يقصر
وترى العدوّ إذا تيقن أنه ... يؤذيك بالمزح العنيف يكثر

وكان رسول الله ﷺ « **يمزح ولا يقول إلا حقا** »[3] . فمن مزحه ﷺ : « أنه جاء رجل فقال : يا رسول الله احملنى على جمل ، فقال ﷺ « **لا أحملك إلا على ولد الناقة** » فقال : يا رسول الله إنه لا يطيقنى ، فقال له الناس : **ويحك وهل الجمل إلا ولد**

---

(١) إلخ لم أهتد إليه

(٢) لم أهتد إليه .

(٣) جاء فى الشمائل لأبى عيسى الترمذى بروايته قال : يا رسول الله ، إنك تداعبنا ، قال : « إنى لا أقول إلا حقا » . الشمائل لأبى عيسى الترمذى «باب مزاح رسول الله ﷺ» .

الناقة ؟ وقال رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار « **الحقى زوجك ففى عينيه بياض** » ، فسعت إلى زوجها مرعوبة ، فقال لها : ما دهاك قالت : إن النبى ﷺ قال لى : **إن فى عينيك بياضا** ، فقال : **نعم** . والله [١] وسواداً وأنته أيضا عجوز أنصارية فقالت : يا رسول الله : ادع الله أن يدخلنى الجنة ، فقال لها : **يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز** ، **فولت المرأة تبكى** ، **فتبسم** ﷺ وقال لها : **أما قرأت قوله تعالى** : ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [٢] وقالت عائشة رضى الله عنها : سابقت رسول الله ﷺ فسبقته ، فلما كثر لحمى سابقته ، فسبقنى ، فضرب بكتفى وقال : « **هذه بتلك** » [٣] ، وعنها أيضا قالت : « **كان رسول الله** ﷺ يدخل وأنا ألعب مع صويحباتى ولا يعيب علىّ » [٤] . وسئل النخعى : هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون ؟ قال نعم والإيمان فى قلوبهم مثل الجبال الرواسى ، . وكان نعيمان الصحابى من أولع الناس بالمزاح والضحك ، قيل : إنه يدخل الجنة ، وهو يضحك ، فمن مزحه أنه مرّ يوما بمخرمة بن نوفل الزهرى ، وهو ضرير ، فقال له : قُدْنى حتى أبول ، فأخذ بيده حتى أتى به إلى المسجد فأجلسه فى مؤخره ، فصاح به الناس : إنك فى المسجد ، فقال : من قادنى ؟ قالوا : نعيمان ، قال : لله على نذر أن أضربه بعصاى هذه إن وجدته ، فبلغ ذلك نعيمان ، فجاء إليه وقال له : يا أبا المسور ، هل لك فى نعيمان ؟ قال : نعم . قال : ها هو قائم يصلى ، وأخذ بيده ، وجاء به إلى عثمان بن عفان وهو يصلى ، قال : هذا نعيمان فعلاه بعصاه ، فصاح الناس ، أمير المؤمنين ، فقال : من قادنى ؟ قالوا : نعيمان ، فقال والله لا تعرضت له بسوء بعدها . وقال عطاء بن السائب : كان سعيد بن جبير يقص علينا حتى يبكينا ، وربما لم يقم حتى يضحكنا ! وكان رجل يسمى تاج الوعظ يعظ الناس ، ويقص عليهم حتى يبكيهم ، ثم لم يقم حتى يضحكهم ، ويبسط آمالهم ، فمن لطائفه : أنه حكى يوما بعدما فرغ من ميعاده قال : سمعت الناس يتكلمون فى التصحيف ، وكنت لا أعرفه ، فوقع فى قلبى أن أتعلمه ، فدخلت فى سوق الكتبية ، واشتريت كتابا فى التصحيف فأوّل ما تصفحته وجدت فيه سكباج [٥] تصحيفه شك تاج ، فرميت الكتاب من يدى وحلفت أنى لا أشتغل به أبدا فضحك الناس ، حتى غشى عليهم . ودخل عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان ، فوجده يتأوّه ، فقال : ياأمير المؤمنين ، لو أدخلت عليك من يؤنسك بأحاديث العرب ، ويباسطك استرحت ، فقال لست بصاحب لهو ، فقال : ما الذى تشكوه ياأمير المؤمنين ؟ قال : هاج بى عرق النَّسا فى ليلتى هذه فبلغ منى ما ترى ، فقال : إن بديحا مولاى أَرْقى الخلق منه ، فأمر بإحضاره ، فلما مثل بين يديه ، قال له عبد الملك : يا بديح ارق رجلى ، فقال يا مولاى : أنا أرقى الناس لها ، ثم وضع يده عليها ، وجعل يقول مالا يسمع ، فقال عبد الملك : قد وجدت راحة بهذه الرقية ، أين فلانة ائتونى بها تكتبها لئلا يهيج بى الوجع بالليل ، فقال بديح ، الطلاق يلزمه ما أكتبها إلا بتعجيل جائزتى ، فأمر له بأربعة آلاف درهم ، فقال ياأمير المؤمنين ، الطلاق يلزمه ما أكتبها حتى تحمل جائزتى إلى بيتى ، قال : تحمل ، فحملت ، فقال ياأمير المؤمنين ، الطلاق يلزمه : ما رقيت رجلك إلا مباسطة بقول نصيب حيث قال :

ألا إن ليلى العامرية أصبحت ... على البُعد منّى ذنبَ غيرى تنقمُ

فقال : ويلك ، ما تقول ؟ فقال : الطلاق يلزمه ما رقيتك إلا بها ، فقال : اكتمها على ، فقال : كيف وقد سارت بها الركبان إلى أخيك بمصر ، فضحك حتى فحص برجليه ، وأعجبه هذا البسط . وروى أن ابن سيرين كان ينشد قول الشاعر :

أنبئت أن فتاة كنت أخطبها ... عرقوبها مثل شهر الصوم فى الطول !

ثم يضحك حتى يسيل لعابه .

(**ومما جاء فى الشطرنج واللعب به والنهى عنه والترخيص فيه**) : أما النهى عنه فقد قيل : إن عليا رضى الله عنه مر بقوم

---

(١) رواه أبو حاتم وغيره من حديث عبد الله بن سهم الفهرى . وقد ذكره القاضى عياض فى الشفاء بغير إسناد .

(٢) الواقعة : [٣٥ -٣٧] ، وقد روى القصة أبو عيسى الترمذى فى الشمائل .

(٣) أخرجه النسائى فى كتاب عشرة النساء ، وأخرجه ابن ماجه فى سننه : النكاح ، باب حسن معاشرة النساء . بلفظ « هذه بتلك » . [١٩٧٩] .

(٤) رواه النسائى فى كتاب عشرة النساء « باب إباحة الرجل اللعب لزوجته بالبنات » . بلفظ كنت ألعب بالبنات ، فربما دخل على رسول الله ﷺ وصويحباتى عندى ، فإذا رأين رسول الله ﷺ فررن ، فيقول رسول الله ﷺ « كما أنت وكما أنتن » . وفى حديث آخر : وكان رسول الله ﷺ يسربهن إلى فيلعبن معى .

(٥) السِّكْباج : طعام يعمل من اللحم والخل مع توابل ، والقطعة منه سكباجة .

يلعبون بالشطرنج ، فقال لهم : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟! وكان أبو القاسم الكسروى يقول : لا ترى شطرنجيا غنيا إلا بخيلا ، ولا فقيرا إلا طفيليا ، ولا تسمع نادرة باردة إلا على الشطرنج ، واحتُضِرَ شِطْرَنْجِيٌّ[١] . فصار يقول : « شاه مات شاه مات » مكان الشهادتين حتى مات ! وأما الترخيص فيه فقد سئل الشعبى عن اللعب بالشطرنج ؟ فقال : لا بأس به إذا لم يكن هناك تقامر ، وتبادل ، وقال بعضهم : كنا فى السجن مع ابن سيرين ، فكان يرانا ونحن نلعب بالشطرنج ، فيقوم فيأتى ويقول : ارفع الفرس : ارفع كذا ، افعل كذا ، ولا يعيب علينا ! وعن سعيد بن المسيب قال : كنت ألعب بالشطرنج مع صديقى فى بيته ، حين خفت[٢] الحجاج . ومما قيل لعلى بن الجهم فى الشطرنج ، وقيل للمأمون :

أرض مربعة حمراء من أدم ... ما بين حرين معروفين بالكرم
تذكرا الحرب فاحتالا لها فطنا ... من غير أن يأثما فيها بسفك دم
هذا يُغير على هذا وذاك على ... هذا يغير وعين الحزم لم تنم
فانظر إلى همم جاشت بمعركة ... فى عسكرين بلا طبل ولا علم

قالوا : إن سبب وضع الشطرنج أن ملوك الهند ما كانوا يرون بقتال ، فإذا تنازع ملكان فى كورة أو مملكة تلاعبا بالشطرنج ، فيأخذها الغالب من غير قتال ، وقيل : إنه كان لبعض ملوك الفرس شطرنج من ياقوت أحمر وأصفر القطعة منه بثلاثة آلاف دينار .

(**ومما جاء فى لعب الغلمان**) : ما حكى أن غلمانا من أهل البحرين خرجوا يلعبون بالصوالجة[٣] ، وأسقف البحرين قاعد ، فوقعت الأكرة على صدره ، فأخذها فجعلوا يطلبونها منه ، فأبى ، فقال غلام منهم سألتك بحق محمد ﷺ إلا رددتها علينا ، فأبى - لعنه الله - وسب رسول الله ﷺ ، فأقبلوا عليه بصوالجهم ، فما زالوا يخبطونه حتى مات - لعنة الله عليه - فرفع ذلك إلى عمر ﷺ فوالله ما فرح بفتح ولا غنيمة كفرحته بقتل الغلمان لذلك الأسقف ، وقال : الآن عز الإسلام إن أطفالا صغارا شُتم نَبِيُّهم فغضبوا له ، وانتصروا وأهدر دم الأسقف والله سبحانه وتعالى أعلم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب السادس والسبعون

فى النوادر وفيه فصول

الفصل الأول : من هذا الباب فى نوادر العرب

خرج المهدىُّ يتصيّد فغار به فرسه حتى وقع فى خباء أعرابى ، فقال : ياأعرابى ؟ هل من قِرًى[٤] فأخرج له قرص شعير ، فأكله ، ثم أخرج له فضلة من لبن ، فسقاه ، ثم أتاه بنبيذ فى رَكوة فسقاه ، فلما شرب ، قال : أتدرى من أنا ؟ قال : لا . قال : أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة ؟ قال : بارك الله لك فى موضعك ، ثم سقاه مرة أخرى ، فشرب ، فقال : ياأعرابى ، أتدرى من أنا ؟ قال : زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة ، قال : لا أنا من قواد

---

(١) احْتُضِر : حضرته الوفاة .

(٢) خَفتَ : سكنَ وسكتَ ، وبمعنى مات فجأة .

(٣) الصوالجة : جمع صولجان وهو مضرب كالعصا معقوف طرفها يضرب بها الفارس الكرة ، قال الشاعر :
* كرة ضُربَتْ بصوالجةٍ فتلقفها رجل رجُل*

(٤) هل من قِرى : هل من طعام يقدم للضيف ؟!.

أمير المؤمنين ، قال : رحُبَت بلادك وطاب مرادُك ، ثم سقاه الثالثة ، فلما فرغ ، قال : ياأعرابى أتدرى من أنا ؟ قال : زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين ، قال : لا . ولكنى أميرُ المؤمنين ، قال : فأخذ الأعرابى الرّكوة[١] فوكاها وقال : إليك عنى ، فوالله لو شربت الرابعة لادعيت أنك رسول الله ! فضحك المهدى حتى غشى عليه ، ثم أحاطت به الخيل ، ونزلت إليه الملوك والأشراف ، فطار قلب الأعرابى ، فقال له : لا بأس عليك ، ولا خوف ، ثم أمر له بكسوة ومال جزيل . ووجد أعرابى يأكل ، ويتغوط ، ويفلى ثوبه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أخرج عتيقا[٢] ، وأدخل جديدا ، وأقتل عدوا . وقيل لبعض الأعراب : إن شهر رمضان قدم ، فقال : والله لأبدّدن شمله بالأسفار[٣] ، وسمع أعرابى قارئا يقرأ القرآن حتى أتى على قوله تعالى : ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ . [التوبة:٩٧] فقال : لقد هجانا ثم بعد ذلك سمعه يقرأ : ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة:٩٩] . فقال : لا بأس هجا ، ومدح هذا كما قال شاعرنا :

هجوتُ زهيراً ثم إنى مدحته ... وما زالت الأشرافُ تُهجَى وتمدحُ

وحضر أعرابى على مائدة يزيد بن مزيد فقال لأصحابه : افرجوا لأخيكم ، فقال الأعرابى : لا حاجة لى بإفراجكم، إن أطنابى[٤] طوال (يعنى سواعده) فلما مد يده ضرط فضحك يزيد فقال يا أخا العرب أظن أن طنبا من أطنابك قد انقطع . ورؤى أعرابى يغطس فى البحر ، ومعه خيط ، وكلما غطس غطسة عقد عقدة فقيل له : ما هذا !؟ قال : جنابات الشتاء أقضيها فى الصيف .

وسرق أعرابى غاشيةً من على سرج ، ثم دخل المسجد يصلى ، فقرأ الإمام : ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية:١]. [٥] فقال : يافقيه ، لا تدخل فى الفضول [٦] ، فلما قرأ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ [الغاشية:٢] قال : خذوا غاشيتَكم ولا يخشع وجهى ، لا بارك الله لكم فيها ، ثم رماها من يده وخرج ! وحضر أعرابى مجلس قوم فتذاكروا قيامَ الليل ، فقيل له ، يا أبا أمامة ، أتقوم الليل ؟ فقال : نعم . قالوا : ما تصنع ؟ قال : أبول ، وأرجع أنام . وسرق أعرابى صرة فيها دراهم ، ثم دخل المسجد يصلى ، وكان اسمه موسى ، فقرأ الإمام : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:١٧] [٧] فقال الأعرابى : والله إنك لساحر ! ثم رمى الصرة وخرج .

(وحكى) : الأصمعى قال : ضلت لى إبل فخرجت فى طلبها ، وكان البرد شديدا فالتجأت إلى حى من أحياء العرب ، وإذا بجماعة يصلون ، وبقربهم شيخ ملتف بكساء وهو يرتعد من البرد وينشد :

أيا رب إن البرد أصبح كالحَا ... وأنت بحالى يا إلهى أعلمُ
فإن كنتَ يوما فى جهنم مُدْخِلى ... ففى مثل هذا اليوم طابت جهنمُ

قال الأصمعى : فتعجبت من فصاحته ، وقلت له : يا شيخ أما تستحى تقطع الصلاة وأنت شيخ كبير ؟! فأنشد يقول :

أيطمع ربى أن أصلىَ عارياً ... ويكسو غيرى كُسوة البرد والحر ؟!
فوالله لا صليتُ ما عشت عارياً ... عِشاءً ولا وقتَ المغيب ولا الوترِ
ولا الصبحَ إلا يوم شمس دفيئةٍ ... وإن غَيمت فالويل للظهر والعصرِ !
وإن يكسنى ربى قميصا وجُبةً ... أُصلِّى له مهما أعيشُ من العمر !

---

(١) الركوة : إناء صغير من الجلد يشرب فيه ، فوكاها : فسدّها وغطاها بغطائها .

(٢) العتيق : القديم.

(٣) بالأسفار جمع سفر . وقد رخص للمسافر بالفطر .

(٤) الأطناب : جمع طُنُب : حبل يشد به الخباء والسرادق ونحوهما ، وعصب الجسد الذى يتصل بالمفاصل ويشدها [على التشبيه] . والمراد يداه وساعداه .

(٥) غاشية الفرس : الغطاء أما الغاشية فى الآية فيراد بها يوم القيامة .

(٦) فيما ليس من شأنك . .

(٧) ومثل هذه النوادر القرآنية مما لا ينبغى ترداده تأدبا حتى ولو كانت قد حدثت .

قال فأعجبنى شعره وفصاحته ، فنزعت قميصاً وجبة كانا علىّ ، ودفعتهما إليه وقلت له : البسهما ، وقم فصل ، فاستقبل القبلة ، وصلى جالسا وجعل يقول :

إليك اعتذارى من صلاتى جالسا ... على غير طهر مومياً نحو قبلتى
فما لى ببرد الماء يا ربّ طاقةٌ ... ورجلاى لا تقوى على ثنى ركبتى
ولكننى أستغفر الله شاتياً ... وأقضيكها يا رب فى وجه صَيْفَتى
وإن أنا لم أفعل فأنت محكم ... بما شئت من صفعى ومن نتف لحيتى !

قال : فعجبت من فصاحته وضحكت عليه وانصرفت وكان لسابور ملك فارس نديم مضحك ، يسمى مرزبان ، فظهر له من الملك جفوة ، فلما زاد ذلك عليه ، تعلم نُباح الكلاب ، وعُوَاء الذئاب ، ونهيق الحمير : وصهيل الخيل ، وصوت البغال ، ثم احتال حتى دخل موضعا بقرب خلوة الملك ، وأخفى أمره فلما خلا الملك بنفسه ، نبح نباح الكلاب ، فلم يشك الملك فى أنه كلب فقال : انظروا ما هذا فعوى عُواء الذئاب ، فنزل الملك عن سريره فنهق نهيق الحمير ، فمضى الملك هاربا ، ومضت الغلمان يتبعون الصوت ، فلما دنوا منه صهل صهيل الخيل ، فاقتحموا عليه ، وأخرجوه عريانا ، فلما وصلوا به إلى الملك ورآه مرزبان ضحك الملك ضحكا شديدا ، وقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : إن الله عز وجل مسخنى كلبا ، وذئبا ، وحمارا ، وفرسا ، لما غضب علّى الملك ، قال : فأمر الملك أن يخلع عليه ، وأن يرد إلى مرتبته الأولى .

الفصل الثانى : فى نوادر القراء والفقهاء

عن محمد بن عبد الله قال : كنا فى دهليز عثمان بن شيبة ، فخرج إلينا فقال : ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ ﴾ . [القلم:١] فى أى سورة ؟ ومر بعضهم بقارئ يقرأ ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الروم١-٣] . فقال له : « الروم » فقال له : كلهم أعداؤنا قاتلهم الله ! وكان جماعة يجلسون إلى أبى العيناء وفيهم رجل لا يتكلم ، فقيل له يوما : كيف علمك بكتاب الله ؟ قال : أنا عالم به ، فقيل له : هذه الآية فى أى سورة ؟ « الحمد لله لا شريك له » . فقال له : فى سورة الحمد فضحكوا عليه . وجاء رجل إلى فقيه فقال : أفطرت يوما فى رمضان ، فقال : اقض يوما مكانه ، قال : قضيت ، وأتيت أهلى ، وقد عملوا مأمونية فسبقتنى يدى إليها فأكلت منها ، فقال : اقض يوما آخر مكانه قال : قضيت ، وأتيت أهلى ، وقد عملوا هريسة ، فسبقتنى يدى إليها ، فقال : أرى أن لا تصوم إلا ويدك مغلولة إلى عنقك . وجاء رجل إلى بعض الفقهاء فقال له : أنا أعبد الله على مذهب ابن حنبل ، وإنى توضأت ، وصليت فبينما أنا فى الصلاة ، إذا أحسست ببلل فى سراويلى يتلزق ، فشممته فإذا رائحته كريهة خبيثة ، قال الفقيه ، عافاك الله خريت بإجماع المذاهب ! وجاء رجل إلى فقيه قال : أنا رجل أفسو فى ثيابى حتى تفوح روائحى ، فهل يجوز لى أن أصلى فى ثيابى ؟! قال : نعم . لكن، لاكَثَّر الله فى المسلمين مثلك ، ووقع بين الأعمش وبين امرأته وحشة ، فسأل بعض أصحابه من الفقهاء أن يرضيها ويصلح بينهما ، فدخل إليها وقال : إن أبا محمد شيخ كبير ، فلا يزهدنك فيه عمش عينيه ، ودقة ساقيه ، وضعف ركبتيه ، ونتن إبطيه ، وبَخر فيه ، وجمود كفيه ، فقال له الأعمش ، قم قبحك الله فقد أريتها من عيوبى ما لم تكن تعرفه . وسكن بعض الفقهاء فى بيت سقفه يقرقع فى كل وقت ، فجاءه صاحب البيت يطلب الأجرة فقال له : أصلح السقف فإنه يقرقع ، قال : لا تخف فإنه يسبح الله تعالى ، قال : أخشى أن تدركه رقة فيسجد !

الفصل الثالث : فى نوادر القضاة

كان لبعض القضاة بغلة ، فقرأ يوما فى المصحف : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود:٦] . فقال لغلامه : أطلق البغلة ورزقها على الله ، فصارت البغلة تدور الأسواق والأزقة وتأكل قشور الباذنجان ، وقشور الرمان ، وقشور البطيخ ، وقمامات الطريق ، فماتت ، فأمر الغلام بإحضار المشاعلية ليحملوها لظاهر المدينة ، فأحضرهم

فطلبوا من القاضى عشرة دراهم أجرة حملها ، وقالوا : ليس لنا شىء نرتزق منه إلا من مثل هذا ، وسيدنا رجل غنى ، وله أشياء كثيرة العدالة ، والتزويج ، والعقود ، والوراقة ، والسجن ، والإطلاق وجامكية الحكم ، وأجرة اليمين ، والتدريس ، والأوقاف . فقال القاضى ، ألمثلى يقال هذا ، وأنتم لكم اثنا عشر بابا من المنافع : منها الوسخ ، والهلع ، وبيت النبذة ، وشركة النفوس ، وجباية الأسواق ، وحرق النار ، وسَلَبُ الشطار ، ولكم الصياح ، وثمن الإصلاح ، وما تروحوا من هذه البغلة بلا شىء جلدها للدباغين ، وذنبها للغرابلية ، ومَعْرَفتها للشعار ، وتطبيقتها للبيطار ؟! قال : فتقدم أحدهم إليه ، وقال : بحق من تاب عليك ، وردّ عاقبتك إلى خير ، وأراحك من هذا المعاش ، تصدق علينا بشىء ولا تدعنا نروح بلاش ، تفسير هذه الألفاظ : والوسخ المراحيض ، والهلع جباية الأسواق ، وبيت النبذة محل المزر ، وشركة النفوس كل من حمل ميتا ولحقوه قبل أن يخرج من باب البلد كانوا شركاءه وسلَب الشطار كل من شنقوه لهم سَلَبُه . وولى يحيى بن أكثم قاضيا على أهل جبلة ، فبلغه أن الرشيد انحدر إلى البصرة فقال لأهل جبلة : إذا اجتاز الرشيد فاذكرونى عنده بخير ، فوعدوه بذلك فلما جاء الرشيد تقاعدوا عنه ، فسرح القاضى لحيته ، وكبر عمته ، وخرج فرأى الرشيد فى الحراقة ، ومعه أبو يوسف القاضى فقال : ياأمير المؤمنين نعم القاضى قاضى جبلة ، عدل فينا وفعل كذا وكذا ، وجعل يثنى على نفسه ، فلما رآه أبو يوسف عرفه فضحك فقال له الرشيد : مم تضحك ؟ فقال : ياأمير المؤمنين المثنى على القاضى هو القاضى ، فضحك الرشيد حتى فحص برجله الأرض ، ثم أمر بعزله فعزل . وتحاكم الرشيد وزبيدة إلى أبى يوسف القاضى فى الفالوذج ، واللوزينج ، أيهما أطيب ؟ فقال أبو يوسف : أنا لا أحكم على غائب ، فأمر الرشيد بإحضارهما ، وقدما بين يدى أبى يوسف ، فجعل يأكل من هذا مرة ، ومن هذا مرة ، حتى نصف الجامين ، ثم قال : ياأمير المؤمنين ، ما رأيت أعدل منهما ؛ كلما أردت أن أحكم لأحدهما أتى الآخر بحجته . وادعى رجل عند قاض على امرأة حسناء بدين ، فجعل القاضى يميل إليها بالحكم ، فقال الرجل : أصلح الله القاضى ! حجتى أوضح من هذا النهار ، فقال له القاضى : اسكت يا عدوّ الله فإن الشمس أوضح من النهار ، قم لا حق لك عليها ، فقالت المرأة : جزاك الله عن ضعفى خيرا ، فقد قويته ، فقال الرجل : لا جزاك الله عن قوتى خيرا فقد أهويتها ! ورفعت امرأة زوجها إلى القاضى تبغى الفرقة ، وزعمت أنه يبول فى الفراش كل ليلة ، فقال الرجل للقاضى : يا سيدى لا تعجل علىّ حتى أقص عليك قصتى ! إنى أرى فى منامى كأنى فى جزيرة فى البحر ، وفيها قصر عال ، وفوق القصر قبة عالية ، وفوق القبة جمل ، وأنا على ظهر الجمل ، وأن الجمل يطأطئ برأسه ليشرب من البحر ، فإذا رأيت ذلك بلت من شدة الخوف ، فلما سمع القاضى ذلك بال فى فراشه وثيابه ، وقال : يا هذه أنا قد أخذنى البول من هول حديثه ، فكيف بمن يرى الأمر عيانا ؟!

الفصل الرابع : فى نوادر النحاة

وقف نحوى على بيّاع يبيع أرزا بعسل ، وبقلا بخلّ ، فقال : بكم الأرز بالأعسل ، والأخلل بالأبقل ؟ فقال : بالأصفع فى الأرؤس ، والأضرط فى الأذقن ، ووقع نحوى فى كنيف[1] فجاءه كناس ليخرجه ، فصاح به الكناس ليعلم أهو حى أم لا ؟ فقال له النحوى : اطلب لى حبلا دقيقا وشدّنى شدّا وثيقا ، واجذبنى جذبا رفيقا ، فقال الكناس : امرأته طالق إن أخرجك منه ، ثم تركه وانصرف . وكان لبعضهم ولد نحوى يتقعر فى كلامه فاعتل[2] أبوه علة شديدة أشرف منها على الموت ، فاجتمع عليه أولاده وقالوا له : ندعو لك فلانا أخانا ، قال : لا إن جاءنى قتلنى ، فقالوا : نحن نوصيه أن لا يتكلم ، فدعوه ، فلما دخل عليه وقال له : يا أبت قل لا إله إلا الله تدخل بها الجنة ، وتفوز من النار ، يا أبت والله ما أشغلنى عنك إلا فلان فإنه دعانى بالأمس فأهرس ، وأعدس ، واستبذج ، وسكبج ، وطهبج ، وأفرج ، ودجج وأبصل ، وأمضر ولوزج ، وافلوذج ، فصاح أبوه : غمضونى فقد سبق ابن الزانية ملك الموت إلى قبض روحى ! وجاء نحوى يعود مريضا فطرق بابه ، فخرج إليه ولده فقال : كيف وجدت أباك ؟ قال : ياعم ورمت رجليه ، قال : لا تلحن . قل : رجلاه ، ثم ماذا ؟ قال : وصل الورم إلى ركبتاه ، قال : لا تلحن : قل إلى ركبتيه ، ثم ماذا ؟ قال : مات وأدخله الله فى بظر[3] عيالك وعيال سيبويه ، ونفطويه ،

---

(١) كنيف : محل قضاء الحاجة . . المرحاض .

(٢) اعتلّ : مرض وأصابته علة .

(٣) البَظْر : نتوء في وسط الشفة العليا.

وجحشويه . ودعا بعضهم نحويا فقال : ما الذى تشكوه ؟ قال : حمىّ جاسية ، نارها حامية منها الأعضاء واهية ، والعظام بالية ، فقال له : لا شفاك الله بعافية ، ياليتها كانت القاضية .

الفصل الخامس : فى نوادر المعلمين

قال الجاحظ : مررتُ بمعلم صبيان وعنده عصاً طويلة وعصاً قصيرة ، وصولجان ، وكرة ، وطبل ، وبوق ، فقلت : ما هذه ؟ فقال : عندى صغار أوباش [١] ، فأقول لأحدهم اقرأ لوحَك ، فيصفر لى بضرطة ، فأضربه بالعصا القصيرة ، فيتأخر فأضربه بالعصا الطويلة ، فيفر من بين يدى ، فأضع الكرة فى الصولجان ، وأضربه فأشجه [٢] ، فتقوم إلى الصغار كلهم بالألواح ، فأجعل الطبل فى عنقى ، والبوق فى فمى ، وأضرب الطبل ، وأنفخ فى البوق ، فيسمع أهل الدرب ذلك ، فيسارعون إلىّ ويخلصونى منهم !

(وحكى) الجاحظ أيضا قال : مررت على خَرِبَةٍ فإذا بها معلم ، وهو ينبح نُباح الكلاب ، فوقفت أنظر إليه وإذا بصبى قد خرج من دار فقبض عليه المعلم ، وجعل يلطمه ويسبه ، فقلت : عرّفنى خبره . قال : هذا صبى لئيم ، يكره التعليم ، ويهرب ، ويدخل الدار ولا يخرج ، وله كلب يلعب به ، فإذا سمع صوتى ظن أنه صوت الكلب ، فيخرج فأمسكه . وقال الجاحظ رأيت معلّما فى الكتاب وحده ، فسألته فقال : الصغار داخل الدرب يتصارعون ، فقلت : أحب أن أراهم ، فقال : ما أشير عليك بذلك ، فقلت : لابد ، قال : فإذا جئت إلى رأس الدرب ، اكشف رأسك لئلا يعتقدوك المعلم فيصفعونك ، حتى تعمى ! وقال بعضهم : رأيت معلما وقد جاء صغيران يتماسكان ، فقال أحدهما : هذا عض أذنى ، فقال الآخر : لا والله يا سيدنا هو الذى عض أذن نفسه ، فقال المعلم : يابن الزانية ، هو كان جملاً يعض أذن نفسه ؟! وقال بعضهم : رأيت معلما ، وهو يصلى العصر فلما ركع أدخل رأسه بين رجليه ونظر إلى الصغار وهم يلعبون ، وقال : يابن البقال قد رأيت الذى عملت وسوف أكافئك إذا فرغت من الصلاة .

(وحكى) عن الجاحظ أنه قال : ألفت كتابا فى نوادر المعلمين ، وما هم عليه من التغفل ، ثم رجعت عن ذلك ، وعزمت على تقطيع ذلك الكتاب ، فدخلت يوما مدينة ، فوجدت فيها معلما فى هيئة حسنة ، فسلمت عليه ، فرد علّى أحسن رد ، ورحب بى فجلست عنده وباحثته فى القرآن فإذا هو ماهر فيه، ثم فاتحته فى الفقه ، والنحو ، وعلم المعقول ، وأشعار العرب ، فإذا هو كامل الآداب ، فقلت : هذا والله مما يقوى عزمى على تقطيع الكتاب ، قال : فكنت أختلف إليه وأزوره ، فجئت يوما لزيارته فإذا بالكتاب مغلق ، ولم أجده ، فسألت عنه فقيل : مات له ميت فحزن عليه ، وجلس فى بيته للعزاء ، فذهبت إلى بيته ، وطرقت الباب ، فخرجت إلىّ جارية وقالت : ما تريد؟ قلت : سيدك ، فدخلت وخرجت ، وقالت باسم الله فدخلت إليه ؟ وإذا به جالس ، فقلت : عظم الله أجرك ، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب:٢١] . ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء:٥٧] . فعليك بالصبر ، ثم قلت له : هذا الذى توفى ولدك ؟ قال : لا، قلت فوالدك ، قال : لا قلت : فأخوك ؟ قال : لا قلت فزوجتك ؟ قال : لا . فقلت : وما هو منك ؟ قال : حبيبتى ! فقلت فى نفسى : هذه أول المناحس ، فقلت : سبحان الله ، النساء كثير ، وستجد غيرها ، فقال : أتظن أنى رأيتها ؟! قلت : وهذه منحسة ثانية ، ثم قلت : وكيف عشقت من لم تر ؟ فقال : اعلم أنى كنت جالسا فى هذا المكان ، وأنا أنظر من الطاق إذ رأيت رجلا عليه بُرد وهو يقول :

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ... ردّى على فؤادى أينما كانا
لا تأخذين فؤادى تلعبين به ... فكيف يلعب بالإنسان إنسانا

فقلت فى نفسى : لولا أن أم عمرو هذه ما فى الدنيا أحسن منها ، وما قيل فيها هذا الشعر . فعشقتها ، فلما كان منذ يومين ، مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول :

لقد ذهب الحمار بأم عمرو ... فلا رجعت ولا رجع الحمار !

---

(١) الأوباش : الأخلاط والسّفلة من الناس جمع وبش بسكون الباء أو بفتحها .
(٢) أشجه : أصيبه فى رأسه بجرح .

فعلمت أنها ماتت فحزنت عليها ، وأغلقت المكتب ، وجلست فى الدار ، فقلت : يا هذا إنى كنت ألفت كتابا فى نوادركم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبتك ، عزمت على تقطيعه ، والآن قد قوّيت عزمى على إبقائه وأوّل ما أبدأ أبدأ بك إن شاء الله تعالى !

الفصل السادس : فى نوادر المتنبئين

ادَّعى رجل النبوَّة فى أيام الرشيد ، فلما مثل بين يديه قال له : ما الذى يقال عنك ؟ قال : إنى نبى كريم ، قال : فأى شىء يدل على صدق دعواك ، قال : سل عما شئت ، قال : أريد أن تجعل هذه المماليك المرد[1] لقيام الساعة بلحى ، فأطرق ساعة ، ثم رفع رأسه ، وقال : كيف يحل أن أجعل هؤلاء المرد بلحى ، وأغير هذه الصور الحسنة ، وإنما أجعل أصحاب هذه اللحى مردا فى لحظة واحدة ! فضحك منه الرشيد ، وعفا عنه ، وأمر له بصلة . وتنبأ إنسان ، فطالبوه بحضرة المأمون بمعجزة ، فقال : أطرح لكم حصاة فى الماء فتذوب ، قالوا : رضينا ، فأخرج حصاة معه ، وطرحها فى الماء فذابت ، فقالوا : هذه حيلة ولكن نعطيك حصاة من عندنا ودعها تذوب ، فقال : لستم أجل من فرعون ، ولا أنا أعظم حكمة من موسى ، ولم يقل فرعون لموسى : لم أرض بما تفعله بعصاك حتى أعطيك عصا من عندى ، تجعلها ثعبانا ، فضحك المأمون ، وأجازه . وتنبأ رجل فى أيام المعتصم ، فلما حضر بين يديه ، قال : أنت نبى ؟! قال : نعم . قال : وإلى من بعثت ؟ قال : إليك . قال : أشهد أنك لسفيه أحمق ، قال : إنما يبعث إلى كل قوم مثلهم ، فضحك المعتصم وأمر له بشىء .

وتنبأ رجل فى أيام المأمون ، وادعى أنه إبراهيم الخليل ، فقال له المأمون : إن إبراهيم عليه السلام كانت له معجزات وبراهين ، قال : وما براهينه ؟ قال أضرمت له نار ، وألقى فيها ، فصارت عليه بردا وسلاما ، ونحن نوقد لك نارا ، ونطرحك فيها فإن كانت عليك كما كانت عليه آمنا بك ، قال : أريد واحدة أخف من هذه ، قال : فبراهين موسى ، قال : وما براهينه ؟ قال : ألقى عصاه فإذا هى حية تسعى ، وضرب بها البحر فانفلق ، وأدخل يده فى جيبه فأخرجها بيضاء قال : وهذه على أصعب من الأولى . قال : فبراهين عيسى قال : وما هى ؟ قال إحياء الموتى ، قال : مكانك قد وصلت أنا أضرب رقبة القاضى يحيى بن أكثم ، وأحييه لكم الساعة ، فقال: يحيى أنا أوّل من آمن بك وصدق . وتنبأ آخر فى زمن المأمون ، فقال المأمون : أريد منك بطيخا فى هذه الساعة ، قال ؛ أمهلنى ثلاثة أيام ، قال : ما أريده إلا الساعة ، قال : ما أنصفتنى ياأمير المؤمنين إذا كان الله تعالى الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ما يخرجه إلا فى ثلاثة أشهر ، فما تصبر أنت على ثلاثة أيام ؟! فضحك منه ووصله . وتنبأ آخر فى زمن المأمون فلما مثل بين يديه قال له : من أنت ؟ قال : أنا أحمدُ النبى قال : لقد ادعيت زورا ، فلما رأى الأعوان قد أحاطت به ، وهو ذاهب معهم ، قال : ياأمير المؤمنين ، أنا أحَمدُ النبىَّ فهل تذمه أنت ؟ فضحك المأمون منه ، وخلى سبيله ، وتنبأ آخر فى زمن المتوكل ، فلما حضر بين يديه قال له : أنت نبى ؟ قال : نعم قال : فما الدليل على صحة نبوتك ؟ قال : القرآن العزيز ، يشهد بنبّوتى فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ . [النصر : ١] وأنا أسمَّى نصر الله . قال فما معجزتك ؟ قال ائتونى بامرأة عاقر أنكحها تحبل بولد يتكلم فى الساعة ، ويؤمن بى ، فقال المتوكل لوزيره الحسن بن عيسى ، أعطه زوجتك حتى تبصر كرامته ، فقال الوزير : أما أنا فاشهد أنه نبى الله ، وإنما يعطى زوجته من لا يؤمن به ، فضحك المتوكل ، وأطلقه . وادعى رجل النبوة فى زمن خالد بن عبد الله القَسرى ، وعارض القرآن ، فأتى به إلى خالد ، فقال له : ما تقول ؟ قال : عارضت القرآن ، قال : بماذا ؟ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر : ١] الآية وقلت : إنا أعطيناك الجماهر فصل لربك وجاهر ، ولا تطع كل ساحر ، فأمر به خالد فضرب عنقه ، وصلب فمر به خلف بن خليفة الشاعر ، فضرب بيده على الخشبة ، وقال : إنا أعطيناك العود ، فصل لربك من قعود وأنا ضامن لك أن لا تعود . وأتى المأمون برجل ادعى النبوة فقال له : ألك علامة ؟ قال : علامتى أنى أعلم ما فى نفسك . قال : وما فى نفسى ؟ قال فى نفسك أنى كاذب قال : صدقت ، ثم أمر به إلى السجن فأقام فيه أياما ، ثم

---

(١) المُرْد : جمع أمرد : من لا لحية له .

أخرجه ، فقال : هل أوحى إليك بشىء ؟ قال : لا . قال : ولم ؟ قال : لأن الملائكة لا تدخل الحبوس[١] ، فضحك منه ، وخلى سبيله . وأتى بامرأة تنبأت فى أيام المتوكل ، فقال لها : أنت نبية ؟ قالت : نعم . قال : أتؤمنين بمحمد ؟ قالت : نعم . قال : فإنه ﷺ قال : « لا نَبِىَّ بَعْدِى »[٢] قالت : فهل قال لا نبية بعدى ؟ فضحك المتوكل ، وأطلقها . وتنبأ رجل يسمى نوحا ، وكان له صديق نهاه ، فلم يقبل ، فأمر السلطان بقتله ، فصلب ، فمر به صديقه ، فقال له : يا نوح ما حصلت من السفينة إلا على الصارى[٣] !

الفصل السابع : فى نوادر السؤّال[٤]

وقف أعرابى بباب يسأل ، فقال له صغير من باب الدار : بورك فيك ، فقال : قبح الله هذا الفم ، لقد تعلمت الشر صغيرا ، ووقف سائل على باب فقال : يا أصحاب المنزل ، فبادر صاحب الدار قبل أن يتم كلامه وقال : فتح الله عليك ، فقال السائل : يا قرنان[٥] ، كنت تصبر لعلى جئت أدعوك إلى وليمة . وقال أبو عثمان الجاحظ : وقف سائل بقوم فقال : إنى جائع ، فقالوا له : كذبت ، فقال : جربونى برطلين من الخبز ، ورطلين من اللحم . ووقف سائل على باب فقالوا : يفتح الله لك ، فقال : كسرة ، فقالوا : ما نقدر عليها ، قال : فقليل من برّ أو فول أو شعير ، قالوا : لا نقدر عليه ، قال : فقطعة دُهن ، أو قليل زيت ، أو لبن ، قالوا : لا نجده ، قال : فشربة ماء ، قالوا : وليس عندنا ماء ، قال : فما جلوسكم ههنا ؟ قوموا فاسألوا ، فأنتم أحق منى بالسؤال .

الفصل الثامن : فى نوادر المؤذنين

قيل لمؤذن[٦] : ما نسمع أذانك ، فلو رفعت صوتك ، فقال : إنى أسمع صوتى من مسيرة ميل . وقال بعضهم : رأيت مؤذنا أذن ثم غدا يهرول ، فقلت له : إلى أين ؟ فقال : أحب أن أسمع أذانى أين بلغ .

الفصل التاسع : فى نوادر النواتية

حكى أن بعض النواتية[٧] تولى أحد الكراسى السلطانية ، لما ساعده الزمان ، فبينما هو جالس فى داره إذ سمع صوتا ، وراء الباب ، فقال لزوجته : إنى أسمع غاغة فى البرّ حِلّى قلوعى ، واعملى اسفيرتى على جامورى[٨] ، وقدمى إلىّ اسقالة الرجل ، وقيمينى بمدرة[٩] ، فامتثلت كلامه فنزل وجلس على مصطبته ، وقد علت مرتبته ، واصطفت المقدمون بين يديه ، ووقفت الحبرتية حواليه ، وإذا بشيخ قد أقبل وثيابه مقطعة ، وعمامته فى حلقه ، والدم نازل من أنفه ، وهو يصيح بصوت عالى : أنا بالله[١٠] وبالوالى ، فقال له : تعالَ يا شيخ ، ما لى أرى أرطمونك فى حلقك ؟! وشابورتك مكسورة ، وأنت بتزلع ماء متغير ، وتقيم الهليلا فى الساحل دخل عليك شرد غربى ، وإلا دخلت على بواجى . فقال الشيخ ، والله ياسيدى بعض نواتية البحر عمل بى هذا ! فقال : يا أولاد جيبوا غريمو بخنسوا عدته ، وقشطوا ظهره ، وجروه على مقدمه ، فامتثلوا كلام الأمير ، وجاءوا بالغريم ، فلما مثل بين يديه قال له : ويلك هو أنت بغنوس بسفر البحر ، أنت الذى قطعت القلس ، وخرجت فى الشعب حتى لقيت هذا الرجل ، نطحت مخطمته ، وكسرت إسقالته ، لو انصلح كنت عملتك فى بدراوة ، وعلقتك فى الصارى ، فلما سمع الرجل كلام الوالى علم أنه من أولاد المعيشة ، فقال له بهمترة النواتية : والله ياخوند هو كارزنى فى معاشى ، اجصطن على

---

(١) الحُبوس : جمع حَبْس وهو السجن . (٢) قوله : « لا نبى بعدى » . من حديث طويل تفرّد به الإمام أحمد .

(٣) الصارى يقصد الخشبة التى صلب عليها فهى بصارى السفينة أشبه .

(٤) السؤّال : جمع سائل وهو من يسأل الناس أعطوه أم تركوه .

(٥) القَرْنان : نعت سوء للرجل الذى ليس لديه غيرة على أهله .

(٦) صحيح أن المؤذن بشر غير معصوم ولكن المؤذنين يرفعون كلمة الله عالية فى الفضاء ولهم منزلتهم عند رب الأرض والسماء فلا ينبغى النيل منهم!

(٧) النواتية : الملاحين الذين يديرون السفن والواحد نوتى ، والجمع نواتية .

(٨) الجامور : القبر ، والرأس . (٩) المَدَرَة : القرية المبنية بالطين واللَّبِن . (١٠) أى أنا مستجير بالله وبالوالى .

الوحسة ، وأنا عايم فى الليل ، إلا وشرد جانى من الشرق كابس هز أطرافى ، وكسر شابورتى ، وقطع لبانى ، وها هو بحمد الله على بر السلامة ، وإن كان انصلح فيه شيء فأنا بمرسوم الأمير أجيب له القلفاط أسد فتحه ، وأعيد له وسقه ، وأخليه يروح فى طريقه ، فقال له الوالى : أنت بتقدف فى وجهى ، وتطرح مقاديفك حتى تعبر على الحجر ، يا رجالة الصارى سلسلوا أطرافه ، وعروا مقاديفه ، وبلوا شيبنة اللبان ، وانزلوا عليه ، وأوسقوه الجنبين والظهر ، حتى تلعب الميه على بطونسته ، هيا قوامك ، خلوا جنب برا ، وجنب جوا قدّام الخن ، وراء الصارى ، فأكل علقة من كعبه إلى أذنه ، فقالت النواتية يا خوندا هوّ خنفست عليه الطمية البحرية قال : مدارتين وقيموه ، فلما أقاموه باس يد الأمير وقال : ياخوند سألتك بهبوب الرياح ، وطيب النسيم الرب لا يبليك بجر اللبان فى الحلافى ، وأنت حافى ، فى الصيافى ، ويكفيك شر الأربعينات ، قال : فرق عليه قلب الأمير ، وقال له : وحق من ضرب القلع باللبان الحلفا ، عند بخنسة الريح ، وفروغ الزاد ، بعيد من البلاد ، وعياط الركاب عند قيام الموجة ، وبعد البر فى أيام النيل ، لولا شفاعة الركاب ، لكنت أهدّ أسقالتك ، وأقعد فى زوايدك ، حتى أخلى ظهرك جيفة ، فقال له : والله ياخوند ما بقى جنبى يحمل هذا الوسق العظيم ، ولكن إن عدت أعبر لهذا الوجه اخسف من أضلاعى لوح ، وغرقنى بالقايم ، فقال له الأمير : احمد الله على السلامة ، واخرج فى دى الطيابة ، وكتب له مرسوم ، وعلم عليه علامة الرياسة البحرية للنواتية : الله لك الله لى يا عملات على أبوس .

الفصل العاشر : فى نوادر جامعة

سمعت امرأة فى الحديث « أَنَّ صَوْمَ يَوْمِ عَاشُورَاء كَفَّارَةُ سَنَةٍ »[١] ، فصامت إلى الظهر ثم أفطرت وقالت : يكفينى كفارة ستة أشهر منها شهر رمضان ، وأسلم مجوسى فى شهر رمضان فثقل عليه الصيام ، فنزل إلى سرداب وقعد يأكل ، فسمع ابنه حسه فقال : من هذا ؟ فقال أبوك الشقىّ يأكل خبز نفسه ، ويفزع من الناس . وسئل بعض القصاص عن نصرانىّ قال : لا إله إلا الله لا غير ، إذا مات أين يدفن ؟ بين مقابر المسلمين والنصارى ، ليكون مذبذباً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . وأهدى إلى سالم القصاص خاتم بلا فص ، فقال : إن صاحب هذا الخاتم يعطى فى الجنة غرفة بلا سقف . وبنى بعض المغفلين نصف الدار ، وبنى رجل آخر النصف الآخر فقال المغفل يوما : قد عَوّلْت على بيع النصف الذى لى ، وأشترى به النصف الآخر لتكمل لى الدار كلها . وسئل جامع الصيدلانى عن عمر ابنته فقال : لا أدرى إلا أن أمها ذكرت أنها ولدتها فى أيام البراغيث . وقيل لطفيلى ، أى سورة تعجبك فى القرآن ؟ قال : المائدة ، قال : فأى آية ؟ قال : ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ [الحجر:٣] ، قيل ثم ماذا ، قال : ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ [الكهف:٦٢] ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر:٤٦]، وقيل : ثم ماذا ؟ قال : ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨][٢] . وقيل لعثمان بن دراج الطفيلى يوما . كيف تصنع بدار العرس ، إذا لم يدخلك أصحابها ؟ قال : أنوح على بابهم فيتطيرون من ذلك فيدخلونى ، وقيل له : أتعرف بستان فلان ؟ قال : أى والله إنه الجنة الحاضرة فى الدنيا ، وقيل : لم لا تدخله ، وتأكل من ثماره ، وتستظل بأشجاره ، وتسبح فى أنهاره ؟ قال : لأن فيه كلبا لا يتمضمض إلا بدماء عراقيب الرجال ! وقيل له يوما : ما هذه الصفرة التى فى لونك ؟ قال : من الفترة بين الصحنين[٣] . وقال : مرت بنا جنازة يوما ومعى ابنى ، ومع الجنازة امرأة تبكى . وتقول : الآن يذهبون بك إلى بيت لا فراش فيه ، ولا غطاء ، ولا وطاء . ولا خبز ولا ماء ! فقال ابنى : يا أبت إلى بيتنا والله يذهبون !

(وحكى) عن هارون الرشيد أنه أرق ذات ليلة أرقا شديدا ، فقال لوزيره جعفر بن يحيى البرمكى : إنى أرقت فى هذه الليلة ، وضاق صدرى ، ولم أعرف ما أصنع ، وكان خادمه مسرور واقفا أمامه فضحك فقال له : ما يضحكك ؟ أستهزاء بى ، أم استخفافا ؟ فقال : وقرابتك من سيد المرسلين ﷺ ما فعلت ذلك عمدا ولكن خرجت بالأمس أتمشى

---

(١) « أن صوم عاشوراء كفارة سنة » . [مسلم ٨/ ٥١] ولفظه « يكفر السنة الماضية » .

(٢) الحجر : بعض الآية رقم [٤٨] ، هذا ومثل النوادر مما ينبغى علينا - نحن المسلمين - أن نكون عنها بمنأى .

(٣) عندما ينتهى صحن ، ويؤخذ ليؤتى بغيره مكانه .

بظاهر القصر إلى أن جئت إلى جانب الدجلة ، فوجدت الناس مجتمعين ، فوقفت فرأيت رجلا واقفا ، يضحك الناس ، يقال له : ابن المغازلى ، فتفكرت الآن فى شىء من حديثه ، وكلامه ، فضحكت ، والعفو ياأمير المؤمنين ، فقال له الرشيد : ائتنى الساعة به ، فخرج مسرور مسرعا إلى أن جاء إلى ابن المغازلى ، فقال له : أجب أمير المؤمنين ، فقال : سمعا وطاعة ، فقال له : بشرط أنه إذا أنعم عليك بشىء يكون لك منه الربع ، والبقية لى ، فقال له ، بل اجعل لى النصف ولك النصف ، فأبى فقال : الثلث لى ولك الثلثان ، فأجابه إلى ذلك بعد جهد عظيم ، فلما دخل على الرشيد سلم ، فأبلغ وترجم فأحسن ، ووقف بين يديه ، فقال له أمير المؤمنين : إن أنت أضحكتنى أعطيتك خمسمائة دينار وإن لم تضحكنى أضربك بهذا الجراب ثلاث ضربات ، فقال ابن المغازلى فى نفسه وما عسى أن تكون ثلاث ضربات بهذا الجراب ، وظن فى نفسه أن الجراب فارغ فوقف يتكلم ويتمسخر ، وفعل أفعالا عجيبة تضحك الجُلْمُود ، فلم يضحك الرشيد ، ولم يتبسم ، فتعجب ابن المغازلى ، وضجر وخاف فقال له الرشيد : الآن استحققت الضرب ، ثم إنه أخذ الجراب ولفه وكان فيه أربع زلطات كل واحدة وزنها رطلان ، فضربه ضربة ، فلما وقعت الضربة فى رقبته صرخ صرخة عظيمة ، وافتكر الشرط الذى شرطه عليه مسرور ، فقال : العفو يا أمير المؤمنين اسمع منى كلمتين . قال : قل ما بدا لك قال : إن مسرورًا شرط علىَّ شرطا ، واتفقت أنا وإياه على مصلحة ، وهو أن ما حصل من الصدقات يكون له فيه الثلثان ، ولى فيه الثلث ، وما أجابنى إلى ذلك إلا بعد جهد عظيم ، وقد شرط علىَّ أمير المؤمنين ثلاث ضربات فنصيبى منها واحدة ، ونصيبه منها اثنتان ، وقد أخذت نصيبى ، وبقى نصيبه ، قال : فضحك الرشيد ، ودعا مسرورا ، فضربه ، فصاح وقال : يا أمير المؤمنين ، قد وهبت له ما بقى ، فضحك الرشيد ، وأمر لهما بألف دينار ، فأخذ كل واحد منهما خمسمائة ، ورجع ابن المغازلى شاكرا والله سبحانه وتعالى أعلم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب السابع والسبعون

فى الدعاء وآدابه وشروطه وفيه فصول

الفصل الأول : فى الدعاء وآدابه

قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦] ، اختلف فى سبب نزولها[(١)] : فقال مقاتل : إن عمر بن الخطاب ﷺ واقع امرأته بعد ما صلى العشاء فى رمضان ، فندم على ذلك ، وبكى ، وجاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك ، ورجع مغتمًّا ، وكان ذلك قبل الرخصة ، فنزلت هذه الآية : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ . وروى الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس قال : قالت اليهود كيف يسمع ربنا دعاءنا ، وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام ، وغلظ كل سماء مثل ذلك ؟! فنزلت هذه الآية ، وقال الحسن : إن قوما قالوا للنبى ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟! فنزلت هذه الآية . قوله تعالى : ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ . أى أقبل عبادة من عبدنى ، فالدعاء بمعنى العبادة . والإجابة بمعنى القبول . وقال قوم : إن الله تعالى يجيب كل الدعاء ، فإما أن يعجل الإجابة فى الدنيا ، وإما أن يكفر عن الداعى ، وإما أن يدخر له فى الآخرة لما رواه أبو سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ : إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَ لَهُ ثَوَابَهَا ، وَإِمَّا أَنْ يَكُفَّ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ بِمِثْلِهَا »[(٢)] .

---

(١) ارجع إلى أسباب النزول للسيوطى والنيسابورى . وما أورده ابن كثير والسيوطى فى الدر المنثور حول سبب النزول .

(٢) إلخ أخرجه أحمد والبزار وأبو يعلى عن أبى سعيد ﷺ وأخرجه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

وروى أنه « إذا كان يوم القيامة ، واستقر أهل الجنة فى الجنة ، فبينما العبد المؤمن فى قصره ، وإذا ملائكة من عند ربه يأتونه بتحف من عند الله ، فيقول : ما هذا أليس الله قد أنعم علىّ وأكرمنى »؟! فيقولون : « ألست كنت تدعو الله فى الدنيا ؟! هذا دعاؤك الذى كنت تدعوه . قد ادّخره لك » [١] . (واعلم) أن إجابة الدعاء لابد لها من شروط ، فشرط الداعى أن يكون عالما بأن لا قادر إلا الله ، وأن الوسائط فى قبضته ، ومسخرة بتسخيره وأن يدعو بنية صادقة ، وحضور قلب ، فإن الله تعالى لا يستجيب دعاءً من قلب لاه ، وأن يكون متجنبا لأكل الحرام ، ولا يمل من الدعاء ، ومن شروط المدعو فيه : أن يكون من الأمور الجائزة الطلب ، والفعل شرعا ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ » [٢] . فيدخل فى الإثم كل ما يؤثم به من الذنوب ، ويدخل فى الرحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم . قال ابن عطاء الله إن للدعاء أركانا ، وأجنحة ، وأسبابا ، وأوقاتا ، فإن وافق أركانه قوى ، وإن وافق أجنحته طار إلى السماء ، وإن وافق مواقيته فاز ، وإن وافق أسبابه نجح ، فأركانه حضور القلب ، والخشوع ، وأجنحته الصدق ، ومواقيته الأسحار ، وأسبابه الصلاة على النبى ﷺ ومن شروط الدعاء : أن يكون سليما من اللحن كما قال بعضهم :

يُنادى ربَّه باللحن ليث ... كذاك إذا دعاهُ لا يجاب

وقيل : إن الله تعالى لا يستجيب دعاء عريف ، ولا شرطى ، ولا جاب ، ولا عشار ولا صاحب عرطبة وهى الطنبور ، ولا صاحب كوبة وهى الطبل الكبير الضيق الوسط . ومن آداب الدعاء أن يدعو الداعى مستقبل القبلة ، ويرفع يديه لما روى عن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كَرِيمٌ ، يَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ ، إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا » [٣] ، وأن يمسح بهما وجهه بعد الدعاء ، لما روى عن عمر قال : كان رسول الله ﷺ « إذا مد يديه فى الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه » [٤] ، وأن لا يرفع بصره إلى السماء لقوله ﷺ : « لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ رَفْعِ أَبْصَارِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ عِنْدَ الدُّعَاءِ أَوْ لَيَخْطَفَنَّ اللَّهُ أَبْصَارَهُمْ » [٥] . وأن يخفض الداعى صوته بالدعاء لقوله تعالى : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[الأعراف:٥٥] . وعن أبى عبد الرحمن الهمدانى قال : صليت مع أبى إسحاق الغداة ، فسمع رجلا يجهر فى الدعاء فقال : كن كزكريّا إذ نادى ربه نداء خفيا [٦] . وينبغى للداعى أن لا يتكلف ، وأن يأتى بالكلام المطبوع ، غير المسجوع ، لقوله ﷺ « إياكم والسجع فى الدعاء بحسْبِ أحدِكم أن يقول : اللهم إنى أسألك الجنة ، وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل » [٧] . وقيل : ادعوا بلسان الذلة والاحتقار ، ولا تدعوا بلسان الفصاحة والانطلاق . وكانوا لا يزيدون فى الدعاء على سبع كلمات فما دونها ، كما فى آخر سورة البقر ، وعن سفيان بن عيينة لا يمنعن أحدَكم من الدعاء ما يعلم من نفسه ، فقد أجاب الله دعاء شر الخلق إبليس ، إذ قال : ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[ص:٧٩] [٨] . وعن النبى ﷺ « إذا سأل أحدكم مسألة فتعرف الإجابة فليقل : الحمدلله الذى بنعمته تتم الصالحات ، ومن أبطأ عليه من ذلك شىء فليقل : الحمد لله على كل حال » [٩] . وعن سلمة بن الأكوع قال : ما سمعت رسول الله ﷺ يستفتح الدعاء إلا قال : « سبحان ربى الأعلى الوهاب » [١٠] . وعن أبى سليمان الدارانى : « من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على رسول الله ﷺ » [١١] . وينبغى للمؤمن أن يجتهدَ فى

---

(١) لم أهتد إليه . (٢) رواه مسلم من حديث أبى هريرة . (٣) رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين .

(٤) أخرجه الترمذى ، وقال : غريب ، والحاكم فى المستدرك وسكت عليه ، وهو ضعيف .

(٥) قال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء . أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وقال : « عند الدعاء فى الصلاة » .

(٦) إشارة إلى ما ورد فى الآية الثانية والثالثة من سورة مريم : ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ .

(٧) ذكره الغزالى فى آداب الدعاء وفضله . قال العراقى : غريب بهذا السياق . وللبخارى عن ابن عباس . « وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه » .

(٨) وردت كلمة أنظرنى فى القرآن ثلاث مرات إحداها غير مقترنة بالفاء ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ . [الأعراف : ١٤] أما الثانية والثالثة فهما مقترنتان بالفاء مع ذكر كلمة ﴿رَبِّ﴾ . ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ . [الحجر : ٣٦] . ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ . [ص : ٧٩] .

(٩) قال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء : أخرجه البيهقى فى الدعوات من حديث أبى هريرة وللحاكم نحوه من حديث عائشة مختصرا بإسناد ضعيف .

(١٠) أخرجه أحمد والحاكم [illegible] العراقى : قلت : فيه عمر ابن راشد اليمانى ضعفه الجمهور .

(١١) ذكره الغزالى فى الإحياء ، وساق بعده خبرا عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا سألتم الله - عز وجل - حاجة فابتدئوا بالصلاة على فإن الله أكرم من أن يسأل حاجتين فيقضى إحداهما ويرد الأخرى » وقال العراقى : « لم أجده مرفوعا وإنما هو موقوف على أبى الدرداء » .

الدعاء ، وأن يكون على رجاء من الإجابة ، ولا يقنط من رحمة الله لأنه يدعو كريما ، وللدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الإجابة . وذلك وقت السحر ووقت الفطر ، وما بين الأذان والإقامة وعند جلسة الخطيب بين الخطبتين إلى أن يسلم من الصلاة ، وعند نزول الغيث ، وعند التقاء الجيش فى الجهاد فى سبيل الله تعالى ، وفى الثلث الأخير من الليل ، لما جاء فى الحديث « **إِنَّ فِى اللَّيْلِ سَاعَةً لا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ ، يَسْأَلُ اللَّهَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ** »[١] . وفى حالة السجود لقوله عليه الصلاة والسلام : « **أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ** »[٢] . وما بين الظهر والعصر فى يوم الأربعاء وأوقات الاضطرار ، وحالة السفر والمرض هذا كله جاءت به الآثار قال جابر بن عبد الله ﷺ « دعا رسول الله ﷺ فى مسـ يام يوم الاثنين ، ويوم الثلاثاء ، واستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين ، فعرفت السرور فى وجهه »[٣] . قال جابر : ما نزل بى أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة ، فأدعو فيها فأعرف الإجابة ، وفى بعض الكتب المنزلة ، يا عبدى ، إذا سألت فاسألنى ، فإنى غنى ، وإذا طلبت النصرة فاطلبها منى فإنى قوى ، وإذا أفشيت سرك ، فافشه إلىَّ وفىّ ، وإذا أقرضت فأقرضنى فإنى ملىٌّ[٤] ، وإذا دعوت فادعنى فإنى خفى . وعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « **يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَخِيرِ فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِى فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟! مَنْ يَسْأَلُنِى فَأُعْطِيَهُ ؟! مَنْ يَسْتَغْفِرُنِى فَأَغْفِرَ لَهُ** »[٥] ؟! وقال وهب بن منبه بلغنى أن موسى عليه السلام مر برجل قائم يبكى ويتضرع طويلا ، فقال موسى : يارب ، أما تستجيب لعبدك ؟! فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى ، لو أنه بكى حتى تَلِفَتْ نفسُه ، ورفع يديه حتى بلغ عنان السماء ما استجبت له ! قال : يارب لم ذلك ؟ قال : لأن فى بطنه الحرام . ومر إبراهيم بن أدهم بسوق البصرة ، فاجتمع الناس إليه وقالوا : يا أبا إسحاق ، مالنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟! قال : لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء : الأول : أنكم عرفتم الله فلم تؤدوا حقه ، الثانى : زعمتم أنكم تحبون رسول الله ﷺ ثم تركتم سنته ، الثالث : قرأتم القرآن ولم تعملوا به ، الرابع : أكلتم نعمة الله ، ولم تؤدوا شكرها ! الخامس : قلتم : إن الشيطان عدوّكم ووافقتموه . السادس : قلتم ، إن الجنة حق فلم تعملوا لها . السابع : قلتم ، إن النار حق ولم تهربوا منها . الثامن : قلتم إن الموت حق فلم تستعدوا له . التاسع : انتبهتم من النوم واشتغلتم بعيوب الناس ، وتركتم عيوبكم . العاشر : دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم . وكان يحيى بن معاذ يقول : من أقر لله إساءته ، جاد الله عليه بمغفرته ، ومن لم يمن على الله بطاعته أوصله إلى جنته ، ومن أخلص لله فى دعوته ، من الله عليه بإجابته . وقال على ﷺ ارفعوا أفواج البلايا بالدعاء ! وعن أنس ﷺ يرفعه : « **لا تعجزوا عن الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد** »[٦] .

الفصل الثانى :فى الأدعية وما جاء فيها

كان من دعاء شريح - رحمه الله - : اللهم إنى أسألك الجنة بلا عمل عملته ، وأعوذ بك من النار بلا ذنب تركته ! ودعت أعرابية عند البيت فقالت : إلهى لك أذل ، وعليك أدل ، وكان من دعاء بعض الصالحين : اللهم إن كنا عصيناك ، فقد تركنا من معاصيك أبغضها إليك ، وهو الإشراك ، وإن كنا قصرنا عن بعض طاعتك ، فقد تمسكنا بأحبها إليك ، وهو شهادة أن لا إله إلا أنت ، وأن رسلك جاءت بالحق من عندك . ومن دعاء سلام بن مطيع : اللهم إن كنت بلغتَ أحدا من عبادك الصالحين درجة ببلاء فبلّغنيها بالعافية ! وقيل لفتح الموصلى : ادع الله لنا فقال اللهم هَبْنَا عطاءك ، ولا تكشف عنا غطاءك . وكان من دعاء بعض السلف : اللهم لا تحرمنى خيرَ ما عندك لشر ما عندى ! فإن لم

---

(١) ذكره العلاّمة المناوى فى فتح القدير برقم [٢٣٣١] ورمز له بالصحة وعزاه لأحمد فى مسنده عن جابر ، ومسلم فى صحيحه .

(٢) أخرجه مسلم وفى رواية « فادعوا ربكم فى سجودكم » .

(٣) لم أهتد إليه .

(٤) المَلِىُّ : الزمان الطويل .

(٥) فى الصحيحين وغيرهما ، ونزول الرب - سبحانه وتعالى - لا يعلمه إلا هو ، لا نزول حلول ولا تجسيم ، فليس كمثله شىء .

(٦) ضعيف جدًا : أخرجه ابن حبان برقم [٢٣٩٨ - موارد] . وأبو نعيم فى « أخبار أصبهان » . [٢/ ٢٣٢] ، والحاكم فى «المستدرك» . [١/ ٤٩٣ - ٤٩٤] ، وانظر : السلسلة الضعيفة « للشيخ الألبانى » . برقم [٨٤٣] .

تقبل تعبى ونصبى ، فلا تحرمنى أجر المصاب على مصيبته ! اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا ، ولا إلى الناس فنضيع . وقال الحسن : من دخل المقابر فقال : اللهم ربّ الأرواح الفانية ، والأجساد البالية ، والعظام النخرة ، التى خرجت من الدنيا ، وهى بك مؤمنة أدخل عليها روحا من عندك ، وسلاما منى كتب الله له بعدد من مات من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة حسنات !

(وحكى) عن معروف القاضى : أن الحجيج كانوا يجتهدون فى الدعاء ، وفيهم رجل من التركمان ساكت ، لا يحسن أن يدعو ، فخشع قلبه ، وبكى فقال بلغته : اللهم إنك تعلم أنى لا أحسن شيئًا من الدعاء فأسألك ما يطلبون منك ، بما دعوا ، فرأى بعض الصالحين فى منامه أن الله قبل حج الناس بدعوة ذلك التركمانى لما نظر إلى نفسه بالفقر والفاقة ! وقال الأصمعى : حسدتُ عبد الملك على كلمة تكلم بها عند الموت وهى : اللهم إن ذنوبى وإن كثرت وجلّت عن الصفة ، فإنها صغيرة فى جنب عفوك ، فاعف عنى ، وركب إبراهيم ابن أدهم فى سفينة ، فهاجت الريح ، وبكى الناس ، وأيقنوا بالهلاك ، وكان إبراهيم نائما فى كساء ، فاستوى جالسا وقال : أريتنا قدرتَك فأرِنا عفوك ؛ فذهب الريح وسكن البحر ! وقال الثورى : كان من دعاء السلف : اللهم زهدنا فى الدنيا ، ووسّع علينا فيها ، ولا تَزْوِهَا عنا ، ولا ترغبنا فيها . وكان بعض الأعراب إذا أوى إلى فراشه قال : اللهم إنى أكفر بكل ما كفر به محمد ، وأومن بكل ما آمن به ، ثم يضع رأسه . وسمعت بدوية تقول فى دعائها : يا صبّاح ، يا مناح ، يا مطعم ، يا عريض الجفنة [١] ، ياأبا المكارم ، فزجرها رجل فقالت : دعنى أصف ربى ، وأمجد إلهى بما تستحسنه العرب ! وقال الزمخشرى فى كتابه ربيع الأبرار : سمعت أنا من يدعو من العرب عند الركن اليمانى : ياأبا المكارم ، يا أبيض الوجه ! وهذا ونحوه منهم إنما يقصدون به الثناء على الله تعالى بالكرم ، والنزاهة عن القبيح ، على طريق الاستعارة ، لأنه لا فرق عندهم بين الكريم وأبى المكارم ، ولا بين الجواد والعريض الجفنة ، ولا بين المنزه والأبيض الوجه ! وقيل : لأعرابى : أتحسن أن تدعو ربك ؟ قال ﷺ نعم . ثم قال : اللهم إنك أعطيتنا الإسلام من غير أن نسألك ، فلا تحرمنا الجنة ، ونحن نسألك . وذكر لعبد السلام بن مطيع أن الرجل تُصيبه البلوى ، فيدعو فتبطىء عنه الإجابة ، فقال : بلغنى أن الله تعالى فيقول : كيف أرحمه من شىء به أرحمه [٢] ؟! وقال طاوس : بينما أنا فى الحجر ذات ليلة إذ دخل عَلَىّ عَلِى بن الحسين فقلت : رجل صالح من أهل بيت الخير لأسمعن دعاءه ، فسمعته يقول : عُبَيْدُك بفنائك ، مسكينك بفنائك ، فقيرك بفنائك ، فما دعوت بها فى كرب إلا فرج عنى ! ودعا أعرابى فقال : اللهم إنا نبات نعمتك ! وقال ابن المسيب : سمعت من يدعو بين القبر والمنبر : اللهم إنى أسألك عملا باراً ، ورزقا دارًا [٣] ، وعيشا قارًا [٤] ، فدعوت به فما وجدت إلا خيرا . ودعت أعرابية بالموقف فقالت : أسألك سترك الذى لا تزيله الرياح ، ولا تخرقه الرماح . وقيل : اتقوا مجانيق الضعفاء ، أى : دعواتهم . ودعا أعرابى فقال : اللهم امح ما فى قلبى من كذب وخيانة ، واجعل مكانه صدقا وأمانة ! وصلى رجل إلى جنب عبد الله بن المبارك ، وبادر القيام ، فجذب ثوبه وقال : أما لك إلى ربك حاجة ؟! وقال سفيان الثورى : سمعت أعرابيا يقول : اللهم إن كان رزقى فى السماء ، فأنزله ، وإن كان فى الأرض فأخرجه ، وإن كان بعيدا فقربه ، وإن كان قريبا فيسره ، وإن كان قليلا فكثره وإن كان كثيرًا فبارك لى فيه ، (وقال أبو نواس) :

أحببتُ من شِعْرِ بشارٍ وكلمته ... بيتًا لهِجْتُ [٥] به من شِعرِ بَشّار

يا رحمة الله حلى فى منازلنا ... وجاورينا فدتك النفسُ من جار

وكان بشار يعنى بذلك جارية بصرية ، كان يحبها ويتغزل فيها ، ونعنى بها هنا رحمة الله ، التى وسعت كل شىء . وسمع علىّ بن أبى طالب ﷺ رجلا يقول - وهو متعلق بأستار الكعبة - يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه المسائل ، ولا يبرمه إلحاح الملحين ، أذقنى برد عفوك ، وحلاوة مغفرتك ، فقال علىّ : والذى نفسى بيده ، لو

---

(١) الجفنة . وعاء الطعام والثريد ، وعرضها كناية عن سعتها وكثرة ما تضمُّه من طعام ورزق حلال . مما يدل على الكرم .

(٢) لم أهتد إلى ه .

(٣) رِزْقًا دارًا : أي دائم لا ينقطع .

(٤) عيشًا قارًا : أي مستقرًا .

(٥) لهجتُ به : أُولعت به .

قلتها ، وعليك ملء السموات والأرض من الذنوب لغفر لك ، ومن دعائه ﷺ اللهم صُنْ وجهى باليسار ، ولا تبدل جاهى بالإقتار فأسترزق طامعا رزقك من غيرك ، وأستعطف شرار خلقك ، وأبتلى بحمد من أعطانى ، وأفتتن بذم من منعنى ، وأنت من وراء ذلك كله ولّى الإجابة والمنع ! وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « **ما انتهيت إلى الركن اليمانى قط ، إلا وجدت جبريل قد سبقنى إليه يقول : قل يا محمد : اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر والفاقة** »[١] . وهى من مواقف الخزى وهبط جبريل على يعقوب فقال : يايعقوب ، إن الله تعالى يقول لك : قل : « **يا كثير الخير ، يا دائم المعروف ، رد علىّ ابنىّ** » . فقالها : فأوحى الله تعالى إليه : « **وعزتى لو كانا ميتين لنشرتهما لك** »[٢] . وكان أبو مسلم الخراسانى إذا نابه أمر قال : يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين . وقال جعفر بن محمد : ما المبتَلَى الذى اشتد بلاؤه ، بأحق بالدعاء من المعافى الذى لا يأمن وقوع البلاء ! وكان الزهرى يدعو بعد الحديث بدعاء جامع فيقول : اللهم إنى أسألك من خير ما أحاط به علمك فى الدنيا والآخرة ، وأعوذ بك من شر ما أحاط به علمك فى الدنيا والآخرة ، وعن عقبة بن عبد الغافر ، دعوة فى السر أفضل من سبعين دعوة فى العلانية . واعلم أن التوحيد والدعاء عند نوازل الملمات ، هو سفينة النجاة من الحوادث المهلكات . وعن أبى الدرداء قال : صلى بنا رسول الله ﷺ العصر ، فمر بنا كلب ، فما بلغت يده رجله حتى وقع ميتا ، فلما انصرف رسول الله ﷺ من صلاته قال : « **من الداعى على الكلب آنفا** » قال رجل من القوم : أنا يا رسول الله قال : « **لقد دعوت الله باسمه الذى إذا دعى به أجاب**[٣] ، **وإذا سئل به أعطى ، كيف دعوت الله ؟** قال : قلت : **اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان ، بديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام** ». وقيل : إنه دخلت أذن رجل من أهل البصرة حصاة ، فعالجها الأطباء فلم يقدروا عليها ، حتى وصلت إلى صماخه ، فأتى إلى رجل من أصحاب الحسن ، فشكا له ما أصابه من الحصاة ، فدعا له بدعاء العلاء بن الحضرمى وهو : يا على يا عظيم ، يا حليم يا عليم . قال الراوى : فما برحنا حتى خرجت الحصاة من أذنه ، ولها طنين حتى ضربت الحائط ، وعن أنس : « **إذا قال العبد : يارب يارب يارب يقول الله - عزوجل - : لبيك عبدى** »[٤] . وعنه قال : مر رسول الله ﷺ برجل وهو يقول : يا أرحم الراحمين ، فقال له رسول الله ﷺ « **سل حاجتكَ فقد نظر الله إليك** »[٥] . وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **إذا فتح الله على عبد الدعاء ، فليكثر فإن الله يستجيب له** »[٦] ، وروى عن على بن أبى زفر عن أخ له - وكان فاضلا صالحا - فقال : دعوت الله أن يرينى الاسم الأعظم الذى إذا دعى به أجاب فقمت ليلة أصلى ، فسمعت قعقعة فى سقف البيت ثم هبط نور ، حتى صار تلقاء وجهى ، وإذا مكتوب بالنور فقرأته يا أالله ، يا رحمن ، يا ذا الجلال والإكرام . ومن دعاء الكرب ما روى عن وهب أن ابن عباس رضي الله عنهما قال له : هل تجد فيما تقرأ من الكتب دعاء تدعو به عند الكرب ؟ قال : نعم اللهم إنى أسألك يامن يملك حوائج السائلين ، ويعلم ضمير الصامتين ، فإن لكل مسألة منك سمعا حاضرا ، وجوابا عتيدا ، ولكل صامت منك علما ناطقا محيطا أسألك بمواعيدك الصادقة ، وأياديك الفاضلة ، ورحمتك الواسعة ، أن تفعل بى كذا وكذا ، فقال ابن عباس : هذا دعاء عُلّمتُه فى النوم ما كنت أرى أن أحدا يُحسنه ! وعن وهب أيضا قال : لما أهبط الله تعالى آدم من الجنة إلى الأرض استوحش لفقد أصوات الملائكة ، فهبط إليه جبريل وقال : يا آدم هل أعلمك شيئًا تنتفع به فى الدنيا والآخرة ؟ قال : بلى قال : قل : اللهم أتمم النعمة حتى تهنينى المعيشة ، اللهم اختم لى بخير حتى لا تضرنى ذنوبى ! اللهم اكفنى مئونة الدنيا وكل هول فى القيامة حتى تدخلنى الجنة معافى[٧] . وعن معروف الكرخى قال : اجتمعت اليهود - أخزاهم الله - على قتل عيسى عليه السلام بزعمهم ، وأهبط الله تعالى عليه جبريل ، وفى باطن جناحيه مكتوب : اللهم إنى أدعوك باسمك الأجل الأعز ، وأدعوك اللهم باسمك الأحد الصمد ،

---

(١) ضعيف : أخرجه أبو حنيفة فى « مسنده » . [ص ٨٨] .

(٢) أورده السيوطى فى « الدر المنثور » . [٤/ ٣٢] ، وعزاه للطبرانى وابن راهويه .

(٣) إلخ لم أقف عليه .

(٤) ذكره المناوى فى فتح القدير [برقم ٧٧٧] ، ابن أبى الدنيا فى الدعاء عن عائشة . ضعيف .

(٥) إلخ لم أهتد إليه .

(٦) ذكره المناوى فى فتح القدير [برقم ٧٠٣] ، والترمذى عن ابن عمر . قال المناوى وفيه عبد الرحمن بن أبى مليكة . قال فى الكشف : ضعيف .

(٧) أخرج بنحو منه أبو نعيم فى « الحلية » . [٥/ ٣٨٢] .

وأدعوك اللهم باسمك العظيم الوتر ، وأدعوك اللهم باسمك الكبير المتعالى الذى ملأ الأركان كلها ، أن تكشف عنى ضر ما أصبحت وأمسيت فيه ، فأوحى الله - عز وجل - إلى جبريل أن ارفع عبدى إلىّ ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « **عليكم بهذا الدعاء ولا تستبطئوا الإجابة فإن ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون** »[(١)] . إسناد هذا متصل إلى معروف الكرخى ثم هو منقطع .

ولو لم يكن فيه من البركة إلا رواية معروف لكان كافيا فى قبوله والعمل به . حدث عبد الله بن أبان الثقفى ﷺ قال : وجهنى الحجاج بن يوسف فى طلب أنس ابن مالك ، فظننت أنه يتوارى عنى ، فأتيت بخيلى ورجلى فإذا هو جالس على باب داره ، مادًّا رجليه ، فقلت له : أجب الأمير فقال : أى الأمراء ؟! فقلت : أبو محمد الحجاج ، فقال غير مكترث به : قد أذله الله ، ما أرانى أعزه لأن العزيز من عَزّ بطاعة الله ، والذليل من ذل بمعصية الله ، وصاحبك قد بغى وطغى واعتدى ، وخالف كتاب الله والسنة ، والله لينتقم الله منه ، فقلت له: أقصر عن الكلام ، وأجب الأمير ، فقام معنا حتى حضر بين يدى الحجاج ، فقال له : أنت أنس بن مالك ؟ قال : نعم . قال : أنت الذى تدعو علينا وتسبنا ؟! قال : نعم . قال : ومما ذاك ؟ قال : لأنك عاص لربك ، مخالف لسنة نبيك ، تُعز أعداء الله ، وتُذل أولياء الله ، فقال له : أتدرى ما أريد أن أفعل بك ؟ قال : لا . قال : أريد أن أقتلك شر قتلة ! قال أنس : لو علمت أن ذلك بيدك . لعبدتك من دون الله ! قال الحجاج : ولم ذاك قال : لأن رسول الله ﷺ علمنى دعاء وقال : « **من دعا به فى كل صباح لم يكن لأحد عليه سبيل** » . وقد دعوت به فى صباحى هذا فقال الحجاج : علمنيه ، فقال : معاذ الله أن أعلمه لأحد ، ما دمت أنت فى الحياة ، فقال الحجاج . خلوا سبيله ! فقال الحاجب : أيها الأمير لنا فى طلبه كذا وكذا يوما ، حتى أخذناه ، فكيف نخلى سبيله ؟! قال : رأيت على عاتقه أسدين عظيمين فاتحين أفواههما ! ثم إن أنسا ﷺ لما حضرته الوفاة علم الدعاء لإخوانه وهو : « **بسم الله الرحمن الرحيم ، باسم الله خير الأسماء ، باسم الله الذى لا يضر مع اسمه أذى ، باسم الله الكافى ، باسم الله المعافى ، باسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وهو السميع العليم ، باسم الله على نفسى ودينى ، باسم الله على أهلى ومالى، باسم الله على كل شىء أعطانيه ربى ، الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، أعوذ بالله مما أخاف وأحذر ، الله ربى ولا أشرك به شيئا، عَزَّ جارك ، وجل ثناؤك ، وتقدست أسماؤك ، ولا إله غيرك ، اللهم إنى أعوذ بك من شر كل جبار عنيد ، وشيطان مريد، ومن شر قضاء السوء ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم** »[(٢)] . وهذا دعاء مشهور الإجابة ، وله شرح طويل تركناه لطوله وهو : اللهم كما لطفت فى عظمتك دون اللطفاء ، وعلوت بعظمتك على العظماء ، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك ، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك ، وعلانية القول كالسر فى علمك ، وانقاد كل شىء لعظمتك ، وخضع كل ذى سلطان لسلطانك ، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك ، لا بيد غيرك اجعل لى من كل هم وغم أصبحت أو أمسيت فيه فرجًا ومخرجا ، إنك على كل شىء قدير ، اللهم إن عفوك عن ذنوبى وتجاوزك عن خطيئتى ، وسترك على قبيح عملى ، أطمعنى أن أسألك مالا أستوجبه منك مما قضيته لى ، أدعوك آمنا ، وأسألك مستأنسا لا خائفا ، ولا وجلاً لأنك أنت المحسن إلىّ ، وأنا المسىء إلى نفسى ، فيما بينى وبينك ، تتودد إلىّ بالنعم ، مع غناك عنى ، وأتبغض إليك بالمعاصى ، مع فقرى إليك ، فلم أر مولى كريماً أعطف منك على عبد لئيم مثلى ، لكن الثقة بك حملتنى على الجراءة على الذنوب ، فأسألك بجودك وكرمك وإحسانك وطولك أن تصلى على محمد وآله ، وأن تفتح لى باب الفرج بطولك وتحبس عنى باب الهم بقدرتك ، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، فأعجز ، ولا إلى الناس فأضيع برحمتك يا أرحم الراحمين . وروى الحافظ النسفى بإسناده عن الزهرى عن أبى مسلمة عن أبى هريرة قال : مرّ رسول الله ﷺ برجل ساجد وهو يقول فى سجوده : اللهم إنى أستغفرك ، وأتوب إليك من مظالم كثيرة لعبادك قبلى فأيما عبد من عبادك أو أمة من إمائك كانت له قِبَلى مظلمة ظلمتُها إياه فى مال أو بدن أو عرض ، علمتُها أو لم أعلمها ، ولم أستطع أن أتحلّلها فأسألك أن ترضيه عنى بما شئت وكيف شئت ، ثم تهبها لى من لدنك إنك واسع المغفرة ، ولديك الخير كله ، يا رب ما تصنع بعذابى ورحمتك وسعت كل

---

(١) إشارة إلى الآية الكريمة رقم [٣٦] ، من سورة الشورى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ .

(٢) لم أقف عليه .

شيء ؟! فلتسعنى رحمتُك ، فإنى لا شيء ، وأسألك يا رب أن تكرمنى برحمتك ، ولا تهنى بذنوبى ، وما عليك أن تعطينى الذى سألتك يا رب ، يا الله ، فقال له رسول الله ﷺ : « **ارفع رأسك ، فقد غفر الله لك ، إن هذا دعاء أخى شعيب عليه السلام** » . وقال صالح المرى : قال لى قائل فى منامى : إذا أحببت أن يستجاب لك فقل : « اللهم إنى أسألك باسمك المخزون ، المكنون ، المبارك ، الطيب ، الطاهر ، المطهر ، المقدس » فما دعوت بها فى شيء إلا تعرفت الإجابة .

(**وقيل**) : إن هذا الدعاء فيه اسم الله الأعظم وهو : بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم إنى أسألك بالعزة التى لا ترام ، والملك الذى لا يضام ، والعين التى لا تنام ، والنور الذى لا يطفأ ، وبالوجه الذى لا يبلى ، وبالديمومية التى لا تفنى ، وبالحياة التى لا تموت ، وبالصمدية التى لا تقهر ، وبالربوبية التى لا تستذل أن تجعل لنا فى أمورنا فرجا ومخرجا ، حتى لا نرجو غيرك يا أرحم الراحمين ! وقال سعيد بن المسيب : دخلت المسجد فى ليلة مقمرة ، وأظن أنى قد أصبحت ، وإذا الليل على حاله ، فقمت أصلى ، وجلست أدعو ، وإذا بهاتف يهتف من خلفى : يا عبد الله ، قل : قلت : ما أقول ؟ قال : قل : اللهم إنى أسألك بأنك ملك ، وأنت على كل شيء قدير ، وما تشاء من أمر يكون . قال سعيد : فما دعوت به قط فى شيء إلا رأيت نُجحه . وعن الشيخ كمال الدين الدميرى قال : روينا عن قاضى القضاة عز الدين بن جماعة قال : أنبأنا الشيخ شرف الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مناع الفزارى خطيب دمشق قال : أنبأنا الشيخ زين الدين أبو البقاء خالد بن يوسف النابلسى بقراءتى عليه قال : أنبأنا الحافظ بهاء الدين ناصر السنة محمد بن الإمام أبى محمد ابن الحافظ أبى القاسم على ابن الحسين بن هبة الله بن عساكر قراءة عليه ، وأنا أسمع ، قال : رويت بالإسناد وذكر إسناده إلى الإمام الحجة التابعى الجليل محمد بن سيرين قال : نزلنا بنهر تيرا فأتانا أهل ذلك المنزل ، فقالوا لنا ارحلوا فإنه لم ينزل هذا المنزل أحد إلا أخذ متاعه ، فرحل أصحابى وتخلفت فلما أمسينا قرأت آيات فما تمت ، حتى رأيت أقواما قد أقبلوا وجاءوا إلى جهتى أكثر من ثلاثين نفرا ، وقد جردوا سيوفهم فلم يصلوا إلىّ ، فلما أصبحت رحلت ، فلقينى شيخ على فرس ، ومعه قوس عربية ، فقال لى : يا هذا إنسى أنت أم جنى ؟ فقلت : بل أنا من بنى آدم . قال : فما بالك لقد أتيناك فى هذه الليلة أكثر من سبعين مرة ، وفى كل ذلك يحال بيننا وبينك بسور من حديد قلت : حدثنى ابن عمر رضى الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **من قرأ فى ليلة ثلاثا وثلاثين آية لم يضره فى تلك الليلة لص طار ، ولا سبع ضار ، وعوفى فى نفسه وأهله وماله حتى يصبح** »(١) ، فنزل عن فرسه ، وكسر قوسه ، وأعطى الله تعالى عهدا أن لا يعود لهذا الأمر وهذه الآيات وهى : أن تقرأ بعد الفاتحة ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ إلى قوله : ﴿ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [البقرة:١-٥] ، وآية الكرسى ، إلى قوله : ﴿ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٢٥٥] ، و﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾ [البقرة:٢٨٥] ، إلى آخر السورة و﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى ﴾ ، إلى قوله : ﴿ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الأعراف:٥٤-٥٦] ، و﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ ﴾ [الإسراء:١١٠] ، إلى آخر السورة ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ﴾ [الصافات:١] ، إلى قوله تعالى : ﴿ لَّٰزِبِۭ ﴾ ، و﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ [الرحمن:٣٣] ، إلى قوله : ﴿ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ ، و﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا ﴾ [الحشر:٢٤] ، إلى آخرها ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ ، إلى قوله ﴿ شَطَطٗا ﴾ [الجن:٣-٤] زاد البونى إلى قوله : ﴿ شِهَابٗا رَّصَدٗا ﴾(٢) ، ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴾ [البروج:٢٠] ، إلى قوله : ﴿ مَّحۡفُوظِۭ ﴾ ، قال محمد بن سيرين فذكرت الحديث لشعيب بن حرب فقال كنا نسميها آيات الحرز ، ويقال : إن فيها شفاء من مائة داء ، وعدوا منها الجذام وغير ذلك . قال محمد بن على قرأتها على شيخ لنا قد أفلج فأذهب الله تعالى عنه ذلك الفالج ، قال البونى هذه الآيات شرفها مشهور ، وفضلها مذكور ، لا ينكرها ، إلا غبى أو غيور ، وقد جربها المشايخ ، وعرف سرها من له فى العلم قدم راسخ ، وقدر شامخ ، وهى على ما رويناه بل ما رأيناه أوّلها الفاتحة ، ثم أوّل البقرة إلى آخر الآيات .

وقال أبو العباس أحمد القسطلانى ، سمعت الشيخ أبا عبد الله القرشى يقول : سمعت أبا زيد القرطبى يقول فى بعض الآثار : من قال لا إله إلا الله سبعين ألف مرة ، كانت فداءه من النار ، فعملت ذلك رجاء بركة الوعد ، ففعلت منها لأهلى ، وعملت أعمالا ادخرتها لنفسى ، وكان إذ ذاك يبيت معنا شاب يكاشف بالجنة والنار ، وكانت الجماعة

---

(١) عزاه المتقى الهندى فى « كنز العمال » . [٢٤١٢] ، للديلمى عن ابن عمر .

(٢) من الآية رقم [٣] ، من سورة الجن إلى الآية رقم [٤] ، على الرأى الأول ، وحتى نهاية الآية رقم [٩] ، على القول الثانى .

ترى له فضلا على صغر سنه ، وكان فى قلبى منه شىء فاتفق أن استدعانا بعض الإخوان إلى منزله فنحن نتناول الطعام والشاب معنا إذ صاح صيحة منكرة ، واجتمع فى نفسه وهو يقول : يا عم هذه أمى فى النار ، ويصيح بصياح عظيم لا يشك من سمعه أنه عن أمر ، فلما رأيت ما به من الانزعاج قلت : اليوم أجرب صدقه ، فألهمنى الله -تعالى- السبعين ألفاً ، ولم يطلع على ذلك إلا الله تعالى ، فقلت فى نفسى : الأثر حق ، والذين رووه لنا صادقون ، اللهم إن هذه السبعين ألفاً فداء أم هذا الشاب من النار ، فما استتمت هذا الخاطر فى نفسى أن قال يا عم هذه أمى أخرجت من النار ، والحمدَ فحصل عندى فائدتان : امتحانى لصدق الأثر وسلامتى من الشاب ، وعلمى بصدقه ، ومن خاف إنساناً فليصل ركعتين بعد صلاة المغرب ، ثم يضع جبهته على التراب ويقول يا شديد المحال ، يا عزيز أذللت بعزتك جميع من خلقت ، صلِّ على محمد وآله واكفنى فلاناً بما شئت - كفاه الله تعالى شره . وروى الثقفى- رحمه الله تعالى- بإسناده إلى محمد بن على بن الحسين رضى الله عنه أنه كان يقول لولده : يا بنى من أصابته مصيبة فى الدنيا أو نزلت به نازلة فليتوضأ ، وليحسن الوضوء ، وليصل أربع ركعات ، أو ركعتين ، فإذا انصرف من صلاته يقول : يا موضع كل شكوى ، ويا سامع كل نجوى ، ويا شاهد كل بلوى ، ويا منجى موسى والمصطفى محمد ، والخليل إبراهيم عليهم السلام ، أدعوك دعاء من اشتدت فاقتُه ، وضعفت حركته ، وقلت حيلته ، دعاء الغريب الغريق الفقير الذى لا يجد لكشف ما هو فيه إلا أنت يا أرحم الراحمين ، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، قال على بن الحسين رضى الله عنهما : لا يدعو به مبتلى إلا فرج الله عنه . وقيل الاسم الأعظم هو بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم إنى أسألك يا مؤنس كل وحيد ، يا قريباً غير بعيد ، يا شاهدًا غير غائب ، يا غالباً غير مغلوب ، يا حى يا قيوم ، يا بديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام ، أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم الحى القيوم ، الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، وأسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم الذى عنت له الوجوه ، وخشعت له الأصوات ، ووجلت له القلوب أن تصلى على محمد وعلى آله ، وأن تعطينى كذا وكذا إنك على كل شىء قدير ، وهذه أبيات الفرج لأحمد بن حمزة البونى قيل : إن فيها اسم الله الأعظم وهى هذه :

إنى لأرجو عطفة الله ولا ... أقول : إن قيل : مَتَى ذاك متى ؟!
لابد أن ينشر ما كان طوَى ... جودا وأن يُمطر ما كان خوى[1]
وربما ينشر ما كان زوى ... ورُبّما قدّر ما كان لوى[2]
وكل شىء ينتهى إلى مدى ... والشىء يرجى كشفُه إذا انتهى
لطائف الله وإن طال المدى ... كلمحة الطرف إذا الطرف رمى
كم فرج بعد إياس قد أتى ... وكم سرور قد أتى بعد الأسى
من لاذ بالله نجا فيمن نجا ... من كل ما يخشى ونال ما رجا
سبحان من نهفو ويعفو دائما ... ولم يزل مهما هفا العبد عفا
يعطى الذى يخطى ولا يمنعه ... جلاله من العطا لذى الخطا

ومن المنظوم أيضا :

يا من يرى ما فى الضمير ويسمعُ ... أنت المعدّ لكل ما يُتَوَقَّعُ
يا من يُرَجّى للشدائد كلها ... يا من إليه المشتكى والمفزَعُ
يا من خزائنُ رزقه فى قولِ كُنْ ... امنن فإن الخير عندك أجمعُ
مالى سوى فقرى إليك وسيلة ... فبالافتقار إليك فقرى أدفع
مالى سوى قرعى لبابك حيلة ... فلئن رددتُ فأى باب أقرع

---

(١) خَوَى : خلا ممَّا كان فيه.

(٢) لوى : لوى عليه انتظر، ويقال: مرَّ لا يلوى على أحد، أي لا يقيم عليه ولا ينتظره.

ومن الذى أدعو وأهتف باسمه ... إن كان فضلك عن فقيرك يمنعُ
حاشا لجودك أن تقنط عاصيًا ... الفضل أجزلُ والمواهب أوسعُ
ثم الصلاة على النبى وآله ... خير الأنام ومن به يتشفع

وقال آخر :

يا خالق الخلقِ يا ربَّ العباد ومن ... قد قال فى محكم التنزيل : ادعونى
إنى دعوتك مضطرا فخذ بيدى ... يا جاعل الأمر بين الكافُ والنون
نجيتَ أيوبَ من بلواه حين دعا ... بصبر أيوب ياذا اللطف نجينى
واطلق سراحى وامنن بالخلاص كما ... نجيت من ظلمات البحر ذا النون

ثم يقرأ : ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]، قال بعضهم :

يا رب ما زال لطف منك يشملُنى ... وقد تجدَّد بى ما أنت تعلمه
فاصرفه عنى كما عوّدتنى كرما ... فمن سواك لهذا العبد يرحمه ؟!

وقال آخر :

يا من تُحَلُّ بذكره ... عُقد النوائب والشدائد
يا من إليه المشتكى ... وإليه أمر الخلق عائد
يا حى يا قَيُوم يا ... صمد تنزه عن مضادد
أنت الرقيب على العبا ... د وأنت فى الملكوت واحد
أنت المعز لمن أطا ... عك والمذل لكل جاحد
إنى دعوتك والهمو ... م جيوشها نحوى تطارد
فافرج بحولك كربتى ... يا من له حسن العوائد
فخفى لطفك يستعا ... ن به على الزمن المعاند
أنت الميسر والمسبب ... والمسهل والمساعد
يسر لنا فرجا قريبا ... يا إلهى لا تباعد
كن راحمى فلقد يئست ... من الأقارب والأباعد
ثم الصلاة على النبى ... وآله الغر الأماجد
وعلى الصحابة كلهم ... ما خر للرحمن ساجد

(**دعاء عظيم مأثور**) : « اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى ، أو إلى قوىٍّ ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن يحل بى غضبك أو ينزل بى سخطك ، فلك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك يا رب العالمين »[(١)] .

(**ومما جاء فى أدعية الناس بعضهم لبعض**) : دعا رجل لآخر فقال : سرك الله بما ساءك ولا ساءك فيما سرك . ودعا رجل لآخر فقال : لا أخلاك الله تعالى من ثناء صادق باق ، ودعاء صالح واق . ودعا أعرابى لآخر فقال : رَحُبَ واديك ، وعزّ ناديك ، ولا ألَمّ بك ألَمٌ ، ولا طاف بك عدم ، وسلمك الله ولا أسلمك ، وسمعت بعض العرب يدعو لرجل ويقول : سلمك الله تعالى من الرّهق والوهَق ، وعافاك الله تعالى من الوحل والزحل ، وسلمك الله من

(١) فيض القدير [رقم ١٤٨٣] ، الطبرانى عن عبد الله بن جعفر ويسمى دعاء الطائف . وقد رمز له المصنف بالحسن ، وهو ضعيف .

الشاردات والواردات ، وسلمك الله بين الأعنة والأسنة[١] ، ودعا أعرابى لعبد الله بن جعفر ﷺ فقال : لا ابتلاك الله تعالى ببلاء يعجز عنه صبرك ، وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك ، وأبقاك ما تعاقب الليل والنهار ، وتناسخت الظلم والأنوار . ودعا بعضهم لآخر فقال : زوّدك الله تعالى الأمن فى مسيرك ، والسعد فى مصيرك ولا أخلاك من شهر تستجده ، وخير من الله تعالى تستمده . وعزى شبيب بن شبة يهوديا فقال : أعطاك الله على مصيبتك أفضل ما أعطى أحدا من أهل ملتك .

(**ومما جاء فى الدعاء على الأعداء والظلمة ونحوهم**) : دعا أعرابى على ظالم فقال : لا ترك الله لك شفرا ، ولا ظفرا أى : عينا ولا يدا . ومن دعاء العرب فته الله فتا ، وحته حتا ، وجعل أمره شتى . وخرج أعرابى إلى سفر - وكانت له امرأة تكرهه - فأتبعته نواة وقالت : شط نواك ، ونأى سفرك ، ثم أتبعته روثة وقالت : رثتك أهلك ، وورث خيرك ، ثم أتبعته حصاة وقالت : حاص رزقك ، وحص أثرك . ودعا أعرابى على آخر فقال : أطفأ الله ناره ، وخلع نعليه ، أى : جعله أعمى مقعدا . ودعا أعرابى على آخر فقال : سقاه الله دم جوفه ، أى : قتل ابنه وأخذ ديته فشرب لبنها . ودعا أعرابى على آخر فقال : بعث الله عليه سنة قاشورة ، تحلقه كما يحلق الشعر بالنورة[٢] . ودعا رجل على أمير فقال :

أزال الله دولته سريعا ... فقد ثقلت على عُنُق الليالى

(وقالت امرأة من بنى ضبة فى زوجها) :

وما دعوتُ عليه حين ألعنه ... إلا وآخر يتلوه بآمين

فليتَه كان أرض الروم منزله ... وليتنى قبله قد صرتُ للصين

وقال رسول الله ﷺ فى خطبته يوم الأحزاب : « **اللهم أكِلْ سلاحهم ، واضرب وجوههم ، ومزقهم فى البلاد تمزيق الريح للجراد** »[٣] . ودعا رجل فقال : اللهم اكفنا أعداءنا ، ومن أرادنا بسوء فلتحط به ذلك السوء ، إحاطة القلائد بترائب الولائد ، ثم أرسخه على هامته كرسوخ السجيل على هام أصحاب الفيل . وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولنختم هذا الباب بهذا الدعاء المبارك وهو : اللهم إنك عرّفتنا بربوبيتك ، وغرّقتنا فى بحار نعمتك ، ودعوتنا إلى دار قدسك ، ونعمتنا بذكرك وأنسك . إلهى إن ظلمة ظلمنا لنفوسنا قد عَمّتْ وبحار الغفلة على قلوبنا قد طمت ، والعجز شامل ، والحصر حاصل ، والتسليم أسلم ، وأنت بالحال أعلم . إلهى ما عصيتك جهلا بعقابك ، ولا تعرضا لعذابك ، ولكن سوّلتها نفوسنا ، وأعانتنا شِقوتنا ، وغرنا سترك علينا ، وأطمعنا فى عفوك برك بنا ، فالآن من عذابك من ينقذنا ، وبحبل من نعتصم إن قطعت حبلك عنا ! واخجلتاه غدا من الوقوف بين يديك ، وافضيحتاه إن عرضت فعالنا القبيحة عليك ! اللهم اغفر ما علمت ولا تهتك ما سترت . إلهى إن كنا عصيناك بجهل فقد دعوناك بعقل ، حيث علمنا أن لنا ربا يغفر لنا ولا يبالى . إلهى أتحرق بالنار وجها كان لك مصليا ، ولسانا كان لك ذاكرا وداعيا ، لا بالذى دلنا عليك ، وأمرنا بالخشوع بين يديك ، وهو محمد ﷺ خاتم أنبيائك ، وسيد أصفيائك ، فإن حقه علينا أعظم الحقوق بعد حقك ، كما أن منزلته لديك أشرف المنازل ، سيد خلقك ، ومعدن أسرارك ، صَلِّ يا رب على محمد وآله وأصحابه ، وارحم عبادا غرهم طول إمهالك ، وأطمعهم كثرة إفضالك ، فقد ذلوا لعزك وجلالك ، ومدوا أكفهم لطلب نوالك ولولا ذلك لم يصلوا إلى ذلك ، اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين أجمعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) بين الأعنة والأسنة : أى فى ميادين القتال . والأعنة جمع عنان وهو مقود الفرس ، والأسنة جمع سنان وهى للرماح والسيوف .

(٢) النورة : مزيل للشعر كان يستخدم قديما .

(٣) كانت هذه الخطبة فى شوال سنة خمس هجرية وفبراير سنة [٦٢٧م] ، وأكِلّ سلاحهم أى اجعله غير قاطع وقد جاءت هذه الفقرة ضمن خطبة طويلة من كتاب « خطب المصطفى » . [ومصدرها مفتاح الأفكار ص ٥٩] .

الباب الثامن والسبعون

فى القضاء والقدر وأحكامه والتوكل على الله عز وجل

اعلم أن كل ما يجرى فى العالم من حركة وسكون ، وخير وشرّ ، ونفع وضرّ ، وإيمان وكفر ، وطاعة ومعصية ، فكل بقضاء الله وقدره ، وكذلك فلا طائر يطير بجناحيه ، ولا حيوان يدب على بطنه ورجليه ، ولا تطن بعوضة ولا تسقط ورقة إلا بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته ، كما لا يجرى شىء من ذلك إلا وقد سبق علمه به ، واعلم أن كل ما قضاه الله تعالى وقدره فهو كائن لا محالة ، كما أن ما فى علم الله تعالى يكون ، فهو كائن قريب ، وما قدّر الله وصوله إليك بعد الطلب ، فهو لا يصل إليك إلا بالطلب، والطلب أيضا من القدر ، فإن تعسر شىء فبتقديره ، وإن اتفق شىء فبتيسيره ، فمن رام أمرا من الأمور ، ليس الطريق فى تحصيله أنه يغلق بابه عليه ، ويفوّض أمره لربه ، وينتظر حصول ذلك الأمر ، بل الطريق أن يشرع فى طلبه على الوجه الذى شرعه له فيه ، وقد ظاهر النبى ﷺ بين درعين ، واتخذ خندقا حول المدينة حين تحزبت عليه الأحزاب ، يحترس به من العدوّ ، وأقام الرماة يوم أحد ليحفظوه من خالد بن الوليد ، وكان يلبس لأمة[(١)] الحرب ، ويهيىء الجيوش ، ويأمرهم وينهاهم لما فيه من مصالحهم ، واسترقى ، وأمر بالرقية ، وتداوى وأمر بالمداواة ، وقال : « **الذى أنزل الداء أنزل الدواء** »[(٢)] . **فإن قيل : قد روى أن النبى ﷺ** قال : « **مَنِ اسْتَرْقَى ، أَوِ اكْتَوَى فَهُوَ بَرِيءٌ مِنَ التَّوَكُّلِ** »[(٣)] . قلنا : أليس قد قال : « **اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ** »[(٤)] . فإن قيل : فما الجمع بين ذلك ؟ قلنا : معناه من استرقى أو اكتوى متكلا على الرقية أو الكى ، وأن البرء من قبلهما خاصة ، فهذا يخرجه عن التوكل ، وإنما يفعله كافر يضيف الحوادث إلى غير الله ، وقد أمرنا بالكسب والتسبب ، ألا ترى أن الله قال لمريم - عليها السلام - ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [مريم:٢٥] فهلا أمرها بالسكون ، وحمل الرطب إلى فمها وأنشدوا فى ذلك :

ألم تر أن الله قال لمريم ... وهزى إليك الجذع يساقط الرُطَبُ

ولو شاء أن تجنيه من غير هزها ... جنته ولكن كل شيء له سبب

وقد تقدم هذا الشعر فى باب الكسب والتسبب ، ولهذا قال رسول الله ﷺ « **لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا ، وَتَرُوحُ بِطَانًا** »[(٥)] ، فلم يحمل أرزاقها إليها فى أوكارها بل ألهمها طلبه بالغدوّ والرواح ، وقد جمعوا بين الطلب والقدر فقالوا : إنهما كالعدلين على ظهر الدابة إن حمل فى واحد منهما أرجح مما فى الآخر سقط حمله ، وتعب ظهره ، وثقل عليه سفره ، وإن عادل بينهما سلم ظهره ، ونجح سفره ، وتمت بغيته ، وضربوا فيه مثالا عجيبا فقالوا إن أعمى ومقعدا كان فى قرية بفقر وضر ، لا قائد للأعمى ، ولا حامل للمقعد ، وكان فى القرية رجل يطعمهما قوتهما فى كل يوم احتسابا لله تعالى ، فلم يزالا بنعمة إلى أن هلك ذلك الرجل فلبثا بعده أياما ، واشتد جوعهما ، وبلغ الضر منهما جهده ، فأجمع رأيهما على أن الأعمى يحمل المقعد ، فيدله المقعد على الطريق ببصره ، فاشتغل الأعمى بحمل المقعد ، ويدور به ويرشده إلى الطريق ، وأهل القرية يتصدقون عليهما ، فنجح أمرهما ، ولولا ذلك لهلكا ، فكذلك القدر سببه الطلب ، والطلب سببه القدر ، وكل واحد منهما معين لصاحبه ، ألا ترى أن من طلب الرزق والولد ، ثم قعد فى بيته لم يطأ زوجته ، ولم يبذر أرضه ، معتمدا فى ذلك على الله واثقا به أن تلد امرأته من غير مواقعة ، وأن ينبت الزرع من غير بذر كان عن المعقول خارجا ، ولأمر الله كارها .

---

(١) ذكره صاحب الكشف [برقم ٦٩١] ، بلفظ تداوَوْا فإن الذى أنزل الداء أنزل الدواء !! وقال: رواه القضاعى عن أبى هريرة رفعه ، ورواه أحمد والأربعة وابن حبان والحاكم بلفظ آخر .

(٢) اللأمة: أداة الحرب كلها من: رمح ومِغْفَر وسيف ودرع، والجمع لأَمٌ، ولُؤَم.

(٣) عزاه العراقى للترمذى ولفظه « من اكتوى أو استرقى . . » . إلخ وقال النسائى « ما توكل من اكتوى أو استرقى » .

(٤) قال فى الكشف : رواه الترمذى عن أنس وقال : غريب ونقل يحيى بن القطان أنه منكر ، ورواه الطبرانى « قيدها وتوكل » .

(٥) أخرجه أحمد فى المسند [٥٢/١] ، ولفظه « لو أنكم توكلتم . . » . وقال الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله - إسناده صحيح .

قال الغزالى : أما المعْيل فلا يخرج عن حد التوكل ، بادخار قوت سنة لعياله جبرا لضعفهم ، وتسكينا لقلوبهم ، وقد ادخر رسول الله ﷺ قوتَ سنة ، ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئًا . وقال : « **أنفق يا بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالا** »[1] .

وقال عبد الله بن الفرج اطلعت على إبراهيم بن أدهم ، وهو فى بستان بالشام ، فوجدته مستلقيا على قفاه ، وإذا بحية فى فمها باقة نرجس ، فما زالت تذب عنه حتى انتبه ، فحسبك توكل يؤدى إلى هذا . وعن عبد الله الهروى قال : كنا مع الفضيل بن عياض على جبل أبى قبيس ، فقال : لو أن رجلا صدق فى توكله على الله ، ثم قال لهذا الجبل : اهتز لاهتز ، فوالله لقد رأيت الجبل اهتز وتحرك ، فقال له الفضيل - رحمه الله - لم أعْنِكَ رحمك الله فسكن . وفى الإسرائيليات : أن رجلا احتاج إل أن يقترض ألف دينار ، فجاء إلى رجل من المتموّلين ، فسأله فى ذلك ، وقال له : تمهل علىّ بدينِك إلى أن أسافر إلى البلد الفلانى ، فإنى لى مالا آتيك به ، وأوفيك منه ، وتكون مدة الأجل بينى وبينك كذا وكذا ، فقال له : هذا غرر فأنا ما أعطيك مالى إلا أن تجعل لى كفيلا إن لم تحضر طلبته منه ، فقال الرجل : الله كفيل بمالك ، وشاهد على أن لا أغفل عن وفائك ، فإن رضيت فافعل ، فداخل الرجل خشية الله تعالى ، وحمله التوكل على أن دفع المال للرجل فأخذه ، ومضى إلى البلد الذى ذكره ، فلما قرب الأجل الذى بينه وبين صاحبه جهز المال ، وقصد السفر فى البحر ، فعسر عليه وجود مركب ، ومضت المدة وبعدها أيام ، وهو لا يجد مركبا ، فاغتم لذلك وأخذ الألف دينار ، وجعلها فى خشبة ، وسمر عليها ، ثم قال : اللهم إنى جعلتك كفيلا بإيصال هذه إلى صاحبها ، وقد تعذر علىّ وجود مركب ، وعزمت على طرحها فى البحر ، وتوكلت عليك فى إيصالها إليه ، ثم نقش على الخشبة رسالة إلى صاحبها بصورة الحال ، وطرحها فى البحر بيده ، وأقام فى البلد مدة بعد ذلك إلى أن جاءت مركب فسافر فيها إلى صاحب المال ، فابتدأه ، وقال : أنت سيرت الألف دينار فى خشبة صفتها كيت وكيت ، وعليها منقوش كذا وكذا ، قال : نعم قال : قد أوصلها الله تعالى إلىّ ، والله نعم الكفيل ! فقال : فكيف وصلت إليك ! قال : لما مضى الأجل المقدر بينى وبينك بقيت أتردد إلى البحر لأجدك أو أجد من يخبرنى عنك ؟ فوقفت ذات يوم إلى الشط وإذا بالخشبة قد استندت إلى ، ولم أر لها طالبا ، فأخذها الغلام ليجعلها حطبا ، فلما كسرها وجد ما فيها ، فأخبرنى بذلك ، فقرأت ما عليها ، فعلمت أن الله تعالى حقق أملك ، لما توكلت عليه حق التوكل . وقيل : إن سبب بداية ذى النون المصرى - رحمه الله - أنه رأى طيرا أعمى بعيدا عن الماء ، والمرعى ، فبينما هو يتفكر فى أمر ذلك الطائر فإذا هو بسُكُرّجَتَيْن برزتا من الأرض : إحداهما ذهب ، والأخرى فضة هذه فيها ماء والأخرى فيها قمح ، فلقط القمح ، وشرب الماء ثم غابا بعد ذلك ، فذهل ذوالنون ، وانقطع إلى الله تعالى من ذلك الوقت .

(**وحكى**) أن رجلا من أبناء الناس كانت له يد فى صناعة الصياغة ، وكان أوحد أهل زمانه ، فساء حالُه ، وافتقر بعد غناه ، فكره الإقامة فى بلده ، فانتقل إلى بلد آخر ، فسأل عن سوق الصاغة ، فوجد دكانا لمعلم السلطنة ، وتحت يده صناع كثيرة ، يعملون الأشغال للسلطنة ، وله سعادة ظاهرة ، ما بين مماليك وخدم وقماش ، وغير ذلك ، فتوصل الصائغ الغريب إلى أن بقى من أحد الصناع الذين فى دكان هذا المعلم ، وأقام يعمل عنده مدة ، وكلما فرغ النهار دفع له درهمين من فضة ، وتكون أجرة عمله تساوى عشرة دراهم ، فيكسب عليه ثمانية دراهم فى كل يوم ، فاتفق أن الملك طلب المعلم ، وناوله فردة سوار من ذهب مرصعة بفصوص فى غاية من الحسن ، قد عملت فى غير بلاده كانت فى يد إحدى محاظيه فانكسرت ، فقال له : الحمها فأخذها المعلم ، وقد اضطرب عليه فى عملها ، فلما أخذها وأراها للصناع الذين عنده وعند غيره ، فما قال له أحد : إنه يقدر على عملها ، فازداد المعلم لذلك غما ، ومضت مدة وهى عنده لا يعلم ما يصنع ، فاشتد الملك على إحضارها وقال : هذا المعلم نال من جهتنا هذه النعمة العظيمة ، ولا يحسن أن يلحم سوارا ، فلما رأى الصانع الغريب شدة ما نال المعلم قال فى نفسه : هذا وقت المروءة أعملها ولا أؤاخذه ببخله علىّ ، وعدم إنصافه ولعله يحسن إلّى بعد ذلك ، فحط يده فى درج المعلم ، وأخذها وفك جواهرها وسبكها ، ثم صاغها كما كانت ، ونظم عليها جواهرها ، فعادت أحسن ما كانت ، فلما رآها المعلم فرح فرحا شديدا ، ثم مضى بها إلى الملك فلما رآها استحسنها ، وادعى المعلم أنها صنعته فأحسن إليه ، وخلع عليه خلعة سنية ، فجاء وجلس

---

[1] رواه البزار من حديث ابن مسعود وأبى هريرة وبلال ، قال العراقى : وكلها ضعيفة ، وذكره بلفظ : أنفق بلالا .

مكانه فبقى الصانع يرجو مكافأته عما عامله به ، فما التفت إليه المعلم ، ولما كان النهار ما زاده على الدرهمين شيئًا فما مضت إلا أيام قلائل ، وإذا الملك اختار أن يعمل زوجين أساور على تلك الصورة ، فطلب المعلم ورسم له بكل ما يحتاج إليه ، وأكد عليه فى تحسين الصنعة وسرعة العمل ، فجاء إلى الصانع وأخبره بما قال الملك ، فامتثل مرسومه ، ولم يزل منتصبا إلى أن عمل الزوجين ، وهو لا يزيده شيئاً على الدرهمين فى كل يوم ، ولا يشكره ولا يعده بخير ، ولا يتجمل معه ، فرأى المصلحة أن ينقش على زوج منهما أبياتا يشرح فيها حاله ليقف عليها الملك ، فنقش فى باطن أحدهما هذه الآبيات نقشا خفيا يقول :

مصائبُ الدهر كُفِّى ... إن لم تكفى فعِفِّى
خرجت أطلبُ رزقى ... وجدت رزقى تُوفِّى
فلا برزقى أحظَى ... ولا بصنعةِ كَفِّى
كم جاهل فى الثريا ... وعالم متخَفِّى !

قال : وعزم الصانع على أنه إن ظهرت الأبيات للمعلم شرح له ما عنده ، وإن غم عليه ، ولم يرها كان ذلك سبب توصله إلى الملك ، ثم لفهما فى قطن ، وناولهما للمعلم فرأى ظاهرهما ولم ير باطنهما لجهله بالصنعة ، ولما سبق له فى القضاء ، فأخذهما المعلم ، ومضى بهما فرحا إلى الملك ، وقدمهما إليه فلم يشك الملك فى أنهما صنعته ، فخلع عليه وشكره ، ثم جاء فجلس مكانه ، ولم يلتفت إلى الصانع وما زاده فى آخر النهار شيئاً على الدرهمين ، فلما كان اليوم الثانى خلا خاطر الملك ، فاستحضر الحظية التى عمل لها السوارين الذهب ، فحضرت وهما فى يديها ، فأخذهما ليعيد نظره فيهما ، وفى حسن صنعتهما ، فقرأ الأبيات فتعجب ! وقال : هذا شرح حال صانعهما ، والمعلم يكذب ، فغضب عند ذلك : وأمر بإحضار المعلم ، فلما حضر قال له : من عمل هذين السوارين ؟ قال : أنا أيها الملك ، قال : فما سبب نقش هذه الأبيات : قال : لم يكن عليهما أبيات . قال : كذبت . ثم أراه النقش وقال : إن لم تصدقنى الحق لأضربن عنقك فأصدقه الحق ، فأمر الملك بإحضار الصانع ، فلما حضر سأله عن حاله ، فحكى له قصته ، وما جرى له مع المعلم ، فرسم الملك بعزل المعلم ، وأن تسلب نعمته ، وتعطى للصانع ، وأن يكون عوضا عنه فى الخدمة ، ثم خلع عليه خلعة سنية ، وصار مقدما سعيدا ، فلما نال هذه الدرجة وتمكن عند الملك تلطف به ، حتى رضى عن المعلم الأوّل ، وصارا شريكين ، ومكثا على ذلك إلى آخر العمر ، ورحم الله من قال :

إذا كان سعدُ المرء فى الدهر مقبلاً ... تدانت له الأشياء من كل جانب

وقال آخر :

ما سلم الله هو السالم ... ليس كما يزعمه الزاعم
تجرى المقادير التى قدرت ... وأنف من لا يرتضى راغم

وقال كعب بن زهير :

لو كنت أعجب من شىء لأعجبنى ... سَعْى الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لأمور ليس يدركها ... والنفس واحدة والهم منتشر
والمرء ما عاش ممدود لهِ أمل ... لا ينتهى ذاك حتى ينتهى العمر

روى فى الإسرائيليات : أن نبيا من الأنبياء عليه السلام مرّ بفخ منصوب وإذا بطائر قريب منه ، فقال له الطائر : يا نبىّ الله ! هل رأيت أقل عقلا ممن نصب هذا الفخ ليصيدنى به وأنا أنظر إليه ؟! قال : فذهب عنه ذلك النبى عليه السلام ، ثم رجع وإذا بالطائر فى الفخ ، فقال له : عجبا لك ! ألست القائل : كذا وكذا آنفا ؟! فقال : يا نبى الله إذا جاء الحَيْن ، لم يبق أذن ولا عين . ويُروى أن رجلا قال لبزرجمهر : تعالى نتناظر فى القَدَر . قال : وما تصنع بالمناظرة ؟ قال : رأيت شيئا ظاهراً استدللت به على الباطن ، رأيت جاهلا مبرورا ، وعالما محروما ، فعلمت أن التدبير ليس للعباد . ولما قدم موسى بن نصير بعد فتح الأندلس على سليمان بن عبد الملك ، قال له يزيد بن المهلب : أنت أدهى الناس ، وأعلمهم ، فكيف طرحت نفسك فى يد سليمان ؟! فقال : إن الهدهد ينظر إلى الماء فى الأرض على ألف قامة ،

ويبصر القريب منه ، والبعيد على بعد فى التخوم ، ثم ينصب له الصبى الفخ بالدودة أو الحبة ، فلا يبصره حتى يقع فيه ! وأنشدوا فى ذلك :

وإذا خشيت من الأمور مقدرًا ... وفررتَ منه فنحوه تتوجّه

وقال آخر :

أقام على المسير وقد أُنيخت ... مطاياه وغرّد حادياها[1]

وقال : أخاف عادية الليالى ... على نفسى وأن ألقى رَداها

مشيناها خُطًا كتبت علينا ... ومن كتبت عليه خُطًا مشاها

ومن كانت منيتُه بأرضٍ ... فليس يموت فى أرضٍ سواها

(ولما) قتل كسرى بزرجمهر ، وجد فى منطقته كتاب فيه : إذا كان القضاء حَقًا فالحرص باطل ، وإذا كان الغدر فى الناس طباعا ، فالثقة بكل أحد عجز ، وإذا كان الموت بكل أحد نازلا فالطمأنينة إلى الدنيا حق . وقال ابن عباس ، وجعفر بن محمد رضي الله عنهم فى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ [الكهف:٨٢]، إنما كان الكنز لوحا من ذهب مكتوب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . « عجبت لمن يوقن بالقدر كيف يحزن ؟! وعجبت لمن يوقن بالرزق كيف ينصب ؟! وعجبت لم يوقن الموت ، كيف يفرح ؟! وعجبت لمن يوقن بالحساب كيف يغفل ؟! وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ؟! لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

(وحكى)الطرطوشى - رحمه الله تعالى - فى كتابه « **سراج الملوك** » قال : من عجيب ما اتفق بالإسكندرية أن رجلا من خدم نائب الإسكندرية ، غاب عن خدمته أياما ، ففى بعض الأيام قبض عليه صاحب الشرطة ، وحمله إلى دار النائب ، فانفلت فى بعض الطرق ، وترامى فى بئر ، والمدينة إذ ذاك مسردبة بسرداب يمشى الماشى فيه قائما ، فما زال الرجل يمشى إلا أن لاحت له بئر مضيئة ، فطلع منها فإذا البئر فى دار النائب ، فلما طلع أمسكه النائب وأدبه ، فكان فيه المثل السائر ، الفار من القضاء الغالب كالمنقلب فى يد الطالب . وأنشدوا فيه :

قالوا تقيم وقد أحا ... ط بك العدوّ ولا تفرّ

لا نلتُ خيراً إن بقيت ... ولا عدانى الدهر شرّ

إن كنت أعلم أن غيرَ ... الله ينفعُ أو يضرّ

الباب التاسع والسبعون

فى التوبة والاستغفار

قد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة ، وأمر الله تعالى بالتوبة فقال : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور:٣١] ووعد بالقبول فقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [الشورى:٢٥]، وفتح باب الرجاء فقال : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣] ، وروى فى الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « **يأيها النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَإِنِّى أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِى الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ** »[2] ، وروى أحمد بن عبد الرحمن البيلمانى قال : اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ فقال أحدهم : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الله تعالى يقبل التوبة**

(١) الحادي: الذي يسوق الإبل بالغناء.

(٢) صحيح مسلم عن أبى بردة عن الأغر عن ابن عمر .

من عبده قبل أن يموت بيوم » . فقال الثانى : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال : وأنا سمعته يقول : « إن الله تعالى يقبل توبته قبل أن يموت بنصف يوم » . فقال الثالث : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال : وأنا سمعته يقول : « إن الله تعالى يقبل توبة العبد قبل موته بضحوة » أو قال بضجعة ، فقال الرابع أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال : وأنا سمعته يقول : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »[١] . وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : «لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِه مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ بِأَرْضٍ دَوِيَّةٍ مُهْلِكَةٍ ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ ، فَنَامَ واسْتَيْقَظَ ، وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ ، فَطَلَبَهَا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ قَالَ : أَرْجِعُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِى ضَلَلْتُهَا فِيهِ ، وَأَمُوتُ ، فَأَتَى مَكَانَهُ ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ ، فَاسْتَيْقَظَ وإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ فِيهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، وَزَادُهُ ومَا يُصْلِحُهُ ، فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ »[٢] . وعن أبى هريرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « واللَّهِ إِنِّى لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِى الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً »[٣] ، رواه البخارى . وعن أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعرى ﷺ عن النبى ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا »[٤] ، رواه مسلم . وعن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ »[٥] ، رواه مسلم . وعن أبى سعيد الخدرى ﷺ أن نبى الله ﷺ قال : « كَانَ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وتِسْعِينَ نَفْسًا ، فَسَأَلَ عَنْ أَعْبَدِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ ، فَأَتَاهُ ، فَقَالَ : إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وتِسْعِينَ نَفْسًا ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ قَالَ : لَا ، فَقَتَلَهُ وَكَمَّلَ بِهِ المائَةَ ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ ، فَأَتَاهُ وَقَالَ لَهُ : إِنَّهُ قَدْ قَتَلَ مائَةَ نَفْسٍ ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ . ومَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وكَذَا ، فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ تَعَالَى فَاعْبُدِ اللَّهَ تَعَالَى مَعَهُمْ ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ ، فَانْطَلَقَ حَتَّى كَانَ نِصْفَ الطَّرِيقِ ، أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ العَذَابِ ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ : جَاءَنَا تَائِبًا مُقْبِلا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ العَذَابِ : إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِى صُورَةِ آدَمِىٍّ ، فَحَكَّمُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ : قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ أَقْرَبُ لَهَا ، فَقَاسُوه فَوَجَدُوه أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِى أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ ؟! » متفق عليه ، وفى الصحيحين : « فَكَانَ أَدْنَى إِلَى أَرْضِ التَّوْبَةِ الصَّالِحَةِ بِشِبْرٍ ، فَجُعِلَ مِنْ أَهْلِهَا »[٦] ، وعن أبى نُجيد - بضم النون وفتح الجيم - عمران بن الحصين الخزاعى ﷺ « أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهِىَ حُبْلَى مِنَ الزِّنَا فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَىَّ ، فَدَعَا نَبِىُّ اللَّهِ ﷺ ، فَشُدَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا ، ثُمَّ أَمَرَ بِها فرُجِمَتْ ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا ، فَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، تُصَلِّى عَلَيْهَا وَقَدْ زَنَتْ ؟! قَالَ : لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِّمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ ، وَهَلْ وَجَدْتَ أَفْضَلَ مِمَّنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ »[٧] ، رواه مسلم . وعن أبى نضرة قال : لقيت مولى لأبى بكر ﷺ فقلت له ، سمعت من أبى بكر شيئًا قال : نعم . سمعتهُ يقول : قال رسول الله ﷺ « ما أصرّ من استغفر ولو عاد إلى الذنب فى اليوم سبعين مرة »[٨] .

(وحكى) : أن نبهان التمار ، وكنيته أبو مقبل ، أتته امرأة حسناء ، تشترى تمرا ، فقال لها : هذا التمر ليس بجيد ، وفى البيت أجود منه ، فذهب بها إلى بيته ، وضمها إلى نفسه ، وقبلها ، فقالت له اتق الله ، فتركها وندم على ذلك فأتى النبى ﷺ فذكر له ذلك فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ﴾ [آل عمران: ١٣٥][٩] إلى آخر الآية . وعن أسماء بن الحكم الفزارى قال : سمعت عليّا يقول : إنى كنت رجلا إذا سمعت من رسول الله حديثاً ينفعنى الله منه بما

---

(١) ذكره ابن أبى الدنيا فى كتاب التوبة رقم [١٥٠] . إسناده ضعيف ، وأخرجه أحمد [٣/ ٤٢٥] .

(٢) فى الصحيحين عن ابن مسعود ، وقال ابن تيمية هذا حديث متواتر عن النبى ﷺ فى كتاب الدعوات باب التوبة . ومسلم فى كتاب التوبة باب الحض على التوبة والفرح بها ، وأحمد فى مسنده حديث رقم.[٣٦٢٧] ، طبعة المعارف .

(٣) رواه البخارى فى كتاب الدعوات باب استغفار النبى ﷺ فى اليوم والليلة .

(٤) رواه مسلم : كتاب التوبة .

(٥) رواه مسلم عن أبى هريرة كتاب الذكر والدعاء باب استحباب الاستغفار .

(٦) ذكره المنذرى بتمامه فى الترغيب فى التوبة وقال : رواه البخارى ومسلم وابن ماجه بنحوه .

(٧) ذكره المنذرى فى الترغيب فى التوبة وقال : رواه مسلم .

(٨) ضعيف : أخرجه الترمذى [٣٦٣٠] ، وقال : « هذا حديث غريب ، إنما نعرفه من حديث أبى نصيرة ، وليس إسناده بالقوى » .

(٩) وقد ذكر النيسابورى فى أسباب النزول قصة نبهان التمار وذهابه إلى رسول الله ﷺ ثم ذكر رواية ابن عباس ، ورواية الكلبى .

شاء ينفعنى ، وإذا حدثنى أحد من أصحابه استحلفته فإذا حلف لى صدقته ، وإنه حدثنى أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله يقول : « مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا ، فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ، وَيُصَلِّى ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِلَّا غُفِرَ لَهُ » (١) ، وروى فى الصحيح عن أبى هريرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا فَقَالَ ، يَارَبِّ، أَذْنَبْتُ ذَنْبًا ، فَاغْفِرْهُ لِى ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : عَلِمَ عَبْدِى أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِهِ فَغَفَرَ لَهُ ، ثُمَّ إِذَا مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَأَصَابَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ : يَارَبِّ، أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لِى ، قَالَ رَبُّهُ : عَلِمَ عَبْدِى أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِهِ ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِى فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ » (٢) . وكان قتادة ﷺ يقول : القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم ، أما دواؤكم : فالاستغفار ، وأما داؤكم فالذنوب . وكان علىّ ﷺ يقول : العجب لمن هلك ومعه كلمة النجاة قيل : وما هى ؟ قال : الاستغفار ، وقال رسول الله ﷺ « من قال عشرا حين يصبح ، وحين يمسى : أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ، وأسأله التوبة والمغفرة من جميع الذنوب ، غفرت ذنوبه ، ولو كانت مثل رمل عالج ، ومن قال : سبحانك ظلمت نفسى ، وعملت سوءا فاغفر لى ذنوبى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت غفرت ذنوبه ، ولو كان مثل دبيب النمل » (٣) . وقال أبو عبد الله الوراق : لو كان عليك من الذنوب مثل عدد القطر ، وزبد البحر محيت عنك إذا استغفرت بهذا الاستغفار وهو هذا : اللهم إنى أسألك ، وأستغفرك من كل ذنب ، تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك من كل ما وعدتك ، من نفسى ، ثم لم أوف لك به ، وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك ، وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها علىّ فاستعنت بها على معصيتك . يقول الله - عز وجل - لملائكته : ويح ابن آدم يذنب الذنب ، ثم يستغفرنى ، فأغفر له ، ثم يذنب الذنب فيستغفرنى فأغفر له ، لا هو يترك الذنب من مخافتى ولا ييأس من مغفرتى ، أشهدكم يا ملائكتى أنى قد غفرت له . وقال بشر الحافى : بلغنى أن العبد إذا عمل الخطيئة أوحى الله تعالى إلى الملائكة الموكلين : ترفقوا عليه سبع ساعات ، فإن استغفرنى فلا تكتبوها ، وإن لم يستغفرنى فاكتبوها . (نكتة) ، قيل : انقطع الغيث عن بنى إسرائيل فى زمن موسى عليه السلام حتى احترق النبات ، وهلك الحيوان ، فخرج موسى عليه السلام فى بنى إسرائيل ، وكانوا سبعين رجلا من نسل الأنبياء مستغيثين إلى الله تعالى ، قد بسطوا أيدى صدقهم وخضوعهم ، وقربوا قربان تذللهم وخشوعهم ، ودُمُوعهم تجرى على خدودهم ثلاثة أيام ، فلم تمطر لهم ، فقال موسى : اللهم أنت القائل : ادعونى أستجب لكم ، وقد دعوتك ، وعبادك على ما ترى من الفاقة والحاجة والذل ، فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى : إن فيهم من غذاؤه حرام ، وفيهم من يبسط لسانه بالغيبة والنميمة ، وهؤلاء استحقوا أن أنزل عليهم غضبى ، وأنت تطلب لهم الرحمة ، كيف يجتمع موضع الرحمة ، وموضع العذاب ؟! فقال موسى : ومن هم يا رب حتى نخرجهم من بيننا ؟! فقال الله تعالى : يا موسى ، لستُ بهتاك ولا نمام ، ولكن يا موسى توبوا كلكم بقلوب خالصة فعساهم يتوبون معكم ، فأجود بإنعامى عليكم ، فنادى منادى موسى فى بنى إسرائيل أن اجتمعوا ، فاجتمعوا ، فأعلمهم موسى عليه السلام بما أوحى إليه ، والعصاة يسمعون ، فذرفت أعينهم ، ورفعوا مع بنى إسرائيل أيديهم إلى الله عز وجل وقالوا : إلٰهنا جئناك من أوزارنا هاربين ، ورجعنا إلى بابك طالبين ، فارحمنا يا أرحم الراحمين ، فما زالوا كذلك حتى سُقوا بتوبتهم إلى الله تعالى : اللهم تب علينا ، وعلى سائر العصاة والمذنبين يا رب العالمين . أوحى الله إلى داود عليه السلام يا داود ، لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ، ورفقى بهم ، وشوقى إلى ترك معاصيهم ، لماتوا شوقا إلىّ ، وتقطعت أوصالهم من محبتى . يا داود ، هذه إرادتى فى المدبرين عنى ، فكيف إرادتى بالمقبلين علىّ ؟! ولقد أحسن من قال :

أُسِيءُ فَيَجزى بالإساءة إفضالا ... وأَعْصِى فيُولينى برًّا وإمهالا
فحتى متى أجفوه وهو يبرنى ... وأبعد عنه وهو يبدل إيصالا ؟!
وكم مرة قد زغت عن نهج طاعة ... ولا حال عن ستر القبيح ولا زالا

وهذا آخر ما يسّره الله تعالى فى هذا الباب ، والله أعلم بالصواب .

---

(١) أخرجه أحمد [١/ ١٠] .

(٢) قال العراقى : متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ « إن عبداً أصاب ذنبا فقال : أى ربّ أذنبت ذنبا فاغفر لى . . الحديث » . وفى رواية « أذنب عبد ذنبا فقال : . . الحديث » .

(٣) لم أقف عليه .

الباب الثمانون

فيما جاء فى ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء وما جاء فى السنة من العيادة وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: فى الأمراض والعلل ، وما جاء فى ذلك من الأجر والثواب

روى عن عبد الله بن أنيس ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال : « أيكم يحب أن يصحّ جسمُه فلا يسقم ؟ فقالوا : كلنا يا رسول الله ، قال : أتحبون أن تكونوا كالحمير الصوّالة ؟ ألا تحبون أن تكونوا أصحاب بلايا ، وأصحاب كفّارات ، والذى بعثنى بالحق نبيا إن الرجل لتكونن له الدرجة فى الجنة ، فلا يبلغها بشىء من عمله ، فيبتليه الله تعالى ليبلغ درجة لا يبلغها بعمله »[١] . وقال ﷺ: « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمْرَضُ مَرَضًا إِلَّا حَطَّ اللَّهُ مِنْ خَطَايَاهُ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا »[٢] . وكان يقول : « لا تزال الأوصاب[٣] ، والمصائب بالعبد ، حتى تتركه كالفضة البيضاء النقية المصفاة »[٤] ، وقيل : إن الناس قد حُمّوا فى فتح خيبر فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال : « أيها الناس إن الحمى رائدُ الموت ، وسجن الله فى الأرض ، وقطعة من النار ، فإذا وجدتم ذلك فبردوا لها الماء فى الشنان ، ثم صبوا عليكم بين المغرب والعشاء ، ففعلوا ذلك فزالت عنهم[٥] ، عن أنس ﷺ قال : « دخل رسول الله ﷺ على شاب وهو فى الموت ، فقال له : كيف تجدك ؟ فقال : أرجو الله ، وأخاف ذنوبى ، فقال ﷺ، هما لا يجتمعان فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف »[٦] . وعن عفيرة بنت الوليد البصرية العابدة الزاهدة - رحمها الله تعالى - أنها سمعت رجلا يقول : ما أشد العمى على من كان بصيرا ! فقالت له : يا عبد الله عمى القلب عن الله أشد من عمى العين عن الدنيا ، والله لوددت أن الله وهب لى كنه معرفته ، ولم يبق منى جارحة إلا أخذها ! وكتب مبارك لأخيه سفيان الثورى يشكو إليه ذهاب بصره ، فكتب إليه أما بعد : فقد فهمت كتابك فيه شكاية ربك ، فاذكر الموت يهن عليك ذهابُ بصرك والسلام . وقيل لعطاء فى مرضه : ما تشتهى ؟ قال : ما ترك خوف جهنم فى قلبى موضعا للشهوة . وأصاب ابن أدهم داء بطن ، فتوضأ فى ليلة سبعين مرة ، وقيل : لأعرابى فى مرضه ما تشتهى ؟ قال : الجنة ، فقيل : أفلا ندعو لك طبيبا ؟ قال: طبيبى هو الذى أمرضنى !

الفصل الثانى: من هذا الباب فى ذكر العلل كالبخر والعرج والعمى والصمم والرمد والفالج وغير ذلك نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدنيا والآخرة

قيل : تسارر أبخر وأصم ، فقال له : الأصم ، قد فهمت ، ثم فارقه فسأله رجل ، فقال : والله لا أدرى ! غير أنه فسا فى أذنى . وقيل : إن عبد الملك بن مروان كان أبخر ، فعض يوما على تفاحة ، ورمى بها إلى زوجته ، فدعت بسكين ، فقال ما تصنعين بها ؟ قالت : أميط الأذى عنها ، فشق عليه ذلك منها ، فطلقها . وسارر أبو الأسود الدؤلى سليمان بن عبد الملك ، وكان أبو الأسود أبخر ، فستر سليمان ، أنفه بكمه ، فعَبَر أبو الأسود وهو يقول : لا يصلح للخلافة من لا يقدر على مناجاة الشيوخ البخر ! وقيل : طول انطباق الفم يورث البخر ، وكل رطب الفم سائل اللعاب سالم منه . وقيل : إن الزّنج أطيب الناس

---

(١) إلخ لم أهتد إليه .
(٢) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد برقم [٥٠٨] . وانظر : « مجمع الزوائد » . للهيثمى [٢/ ٣٠٠] .
(٣) الأوصاب: الأوجاع .
(٤) لم أهتد إليه .
(٥) ضعيف : أخرجه الطبرانى كما فى « مجمع الزوائد » . للهيثمى كتاب الطب ، باب ما جاء فى الحمى وإبرادها بالماء [٥/ ٩٥] ، وقال : « وفيه المحبر بن هارون ، ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات » .
(٦) قال العراقى : رواه الترمذى ، وقال : غريب . والنسائى فى الكبرى ، وابن ماجه من حديث أنس . وقال النووى : إسناده جيد .

أفواها ، والسباع موصوفة بالبخر ، والمثل مضروب بالأسد والصقر فى البخر ، والكلب من بينهما طيب الفم ، وليس فى البهائم أطيب أفواها من الظّباء .

(وحكى) : أن أبخر تزوج بامرأة ، فلما ضاجعها عافته ، وتولت عنه بوجهها ، ثم أنشدت تقول :

يا حبّ والرحمنِ إن فاكا ... أهلكنى فولّنى قفاكا
إذا غدوت فاتخذ مسواكا ... من عَرْفطٍ إن لم تجد أراكا
لا تَقْرَبَنّى بالذى سواكا ... إنى أراك ماضغا خراكا

وفى ديوان المنثور : كم من ذى عرج فى درج المعالى عرج ، وكم من صحيح قدم ليس له فى الخير قدم . وقيل : إن من الصم من يسمع السر ، فإذا رفعت إليه الصوت لم يسمعه ! ورأيت من العمش من لا ينظر صورة الإنسان من قريب ، ولكن يقرأ الخط الرقيق الحواشى . وقيل : إن طريفا الشاعر مدح عمرو بن هداب ، وكان أبرص ، فلما انتهى إلى قوله :

أبرص فياض اليدين مهذب

صاح به الناس وقالوا : قطع الله لسانك ، فقال عمرو : مَهْ إن البرص مما تتفاخر به العرب ، أما سمعتم قول سهل حيث قال :

أيشتمنى زيد بأن كنت أبرصا ... وكل كريم لا أبا لك أبرصُ

وقال :

كفى حزنا أنى أعاشر معشراً ... يخوضون فى بعض الحديث وأمسكُ
وما ذاك من عِىٍّ ولا من جهالة ... ولكنه ما فى للصوت مسلك
فإن سُدّ منى السمع فالله قادر ... على فتحه والله للعبد أملك

(ومما جاء فى العمى) : روى عن النبى ﷺ أنه قال : « من عدم إحدى كريمتيه ضمنت له على الله الجنة »[1] وكان أبو عبد الرحمن بن حرث بن هشام يطعم الطعام ، وكان أعور فجعل أعرابى يطيل النظر إليه حابسا نفسه عن طعامه ، فكلمه المغيرة فى ذلك ، فقال له : والله إنى ليعجبنى طعامك ، وترينى عينك ، قال : فما يريبك من عينى ؟ قال : أعور وأراك تطعم الطعام ، وهذه صفة الدجال ! فقيل له : إن عينه أصيبت فى فتح الروم ، فقال : إن الدجال لا تصاب عينه فى سبيل الله ! وعن أنس ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال : « من قاد أعمى أربعين خطوة لم تمسه النار »[2] وقال على ﷺ : ربما أخطأ البصير قصده ، وأصاب الأعمى رشده ! وقال أبو على البصير :

لئن كان يهدينى الغلام لوجهتى ... ويقتادنى فى السير إذ أنا راكب
لقد يستضىء القوم بى فى وجوههم ... ويخبو ضياءُ العين والقلبُ ثاقب

وقال :

إذا عدمت طلابة العلم مالها ... من العلم إلا ما تسطر فى الكتب
غدوتُ بتشمير وجد عليهم ... ومحبرتى سمعى وهَا دَفترى قلبى

وقال :

إن يأخذ اللهُ من عينى نورهما ... ففى لسانى وسمعى منهما نور
فهمى ذكى ، وقلبى غير ذى غفل ... وفى فمى صارم كالسيف مشهور

---

(١) ضعيف : رواه أبو يعلى ، وفيه سعيد بن سليم الضبى ، ضعفه الأزدى ، وذكره ابن حبان فى الثقات وقال : يخطئ ، كذا فى « مجمع الزوائد » . للهيثمى [٢/ ٣١٠ - كتاب الجنائز] .

(٢) ضعيف : أخرجه أبو نعيم فى « الحلية » . [٣/ ١٥٨] ، وانظر : « كنز العمال » . برقم [٤٣١٣٥] .

وقال :

عـزاءك أيـهـا الـعـيـن الـسـكـوبُ ... وحـقـكِ أنـهـا نـوب تـنـوبُ
وكـنـتِ كـريـمـتـى وسـراجَ وجـهـى ... وكـانـت لـى بـك الـدنـيـا تـطـيـبُ
عـلـى الـدنـيـا الـسـلام فـمـا لـشـيـخ ... ضـريـر الـعـيـن فـى الـدنـيـا نـصـيـب !
يـمـوت الـمـرء وهـو يُـعَـدّ حـيّـا ... ويـخـلـف ظَـنَّـه الأمـلُ الـكـذوب
إذا مـا مـات بـعـ ـك ... ك بـعـضـاً ... فـإن الـبـعـض مـن بـعـض قـريـب !

(وحكى) : أن ربيعة ر... ... ارسل إلى امرأة كان يحبها ثم أنشد يقول :

عـيـنـا ربـيـعـةَ رَمْـداوانِ فـاحـتـسـبـى ... بـنـظـرةٍ مـنـك تـشـفـيـه مـن الـرمـد
إن تـكـتـحـل بـك عـيـنـاهُ فـلا رمـد ... عـلـى ربـيـعـةَ يُـخـشـى آخـر الأمـد

وعن عبد الرحمن بن قيس عن النبى ﷺ أنه قال : « داء الأنبياء الفالج ، واللّقوة »(١) ، قال الجاحظ : ومن المفاليج سيدنا إدريس عليه السلام وأكثر ما يعترى المتوسطين من الناس ، لأن الشاب كثير الحرارة ، والشيخ كثير اليبس ، وقيل : إن أبان بن عثمان كان أفلج ، حتى صار مثلا ، فكانت الناس تقول : لا رماك الله بفالج ابن عثمان ! وكان معاوية ألوق ، وعبد الملك بن مروان أبخر ، وحسان أعمى ، وابن سيرين أصم ، وممن فلج ابن أبى دواد قاضى قضاة المعتصم ، كان من الشرف والكرم بمنزلة عظيمة ، قد ضرب المثل بفالجه . قال الشاعر فى رجل ضرب غلامه :

أتـضـرب مـثـلـه بـالـسـوط عـشـرا ... ضُـرِبْـتَ بـفـالـج ابـن أبـى دُوَادِ ؟!

وشجّة عبد الحميد كانت مثلا فى الحسن ، وهو عبد الحميد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان بارعا فى الحسن والجمال ، فزادته حسنا إلى حسنه حتى إن النساء كن يخططن فى وجوههن شجة عبد الحميد ، وكان يقال لعمر بن عبد العزيز : أشج بنى أمية ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : إن من ولدى رجلا بوجهه أثر فى جبهته ، قال أصبغ : الله أكبر هذا أشج بنى أمية يملأ الأرض عدلا . وقال أعور لأبى الأسود : ما الشىء ونصف الشىء ولا شىء فقال : أما الشىء فالبصير كأنا ، وأما لا شىء فالأعمى وأما نصف الشىء فأنت يا أعور . اللهم اكفنا شر العاهات برحمتك ومنك وكرمك آمين .

الفصل الثالث : من هذا الباب فى التداوى من الأمراض والطب

قال رسول الله ﷺ : « تَدَاوَوْا فَإِنَّ الَّذِى أَنْزَلَ الدَّاءَ أَنْزَلَ الدَّوَاءَ »(٢) ، وقال ﷺ « مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا وَلَهُ دَوَاءٌ عَرَفَهُ مَنْ عَرَفَهُ ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ »(٣) ، وسئل رسول الله ﷺ عن الدواء والرقى هل يردان شيئًا من قضاء الله تعالى ؟ قال : « هُمَا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ تَعَالَى »(٤) ، وقال عبد الله بن عكرمة عجبت لمن يحتمى من الطعام خوف الداء ، ولا يحتمى من الذنوب خوف النار ، وقيل إن الربيع بن خيثم لما مرض ، قالوا له : ألا ندعو لك طبيبا ؟ فقال لهم : إن مرضى من الطبيب ، وإنه متى أراد عافانى ، ولا حاجة لى بطبيبكم وأنشد :

فـأصـبـحـت لا أدعـو طـبـيـبـا لِـطِـبّـه ... ولـكـنـنـى أدعـوك يـا مُـنـزِل الـقـطـرِ

وعاد الفرزدق مريضا فقال :

يـا طـالـبَ الـطـبِّ مـن داء تَـخـوفُـهُ ... إن الـطـبـيـب الـذى أبـلاك بـالـداء
فـهـو الـطـبـيـبُ الـذى يُـرجـى لـعـافـيـة ... لا مـن يـذيـب لـك الـتـريـاق بـالـمـاء

---

(١) موضوع : أخرجه سعيد بن منصور عن أبى هريرة كما فى « الطب النبوى للسيوطى » . [ص ٣٣٠ -٣٣١] .
(٢) ذكره ابن القيم فى زاد المعاد وعزاه لمسند أحمد من حديث زياد بن علاثة عن أسامة بن شريك .
(٣) زاد المعاد كما فى الصحيحين عن عطاء عن أبى هريرة .
(٤) زاد المعاد كما فى المسند والسنن عن أبى خزامة .

قال : ولما مرض بشر الحافى - رحمه الله تعالى - قالوا : ندعو لك طبيبا ؟! فقال : إنى بعين الطبيب ؛ يفعل بى ما يُريد ، فألح عليه أهله ، وقالوا : لابد أن ندفع ماءك إلى الطبيب ؛ فقال لأخته : ادفعى إليهم الماء فى قارورة ، وكان بالقرب منهم رجل ذمى ، وكان حاذقا فى الطب ، فأتوه بمائه فى القارورة ، فلما رآه قال : حركوه فحركوه ، ثم قال ضعوه ، ثم قال : ارفعوه : فقالوا له : ما بهذا وصفت لنا ؟ قال : وبم وصفت لكم ؟ قالوا : بالحذق والمعرفة ، قال : هو كما تقولون ، غير أن هذا الماء إن كان ماء نصرانى فهو راهب ، قد فتت كبده العبادة ، وإن كان مسلما فهو ماء بشر الحافى فإنه أوحد أهل زمانه فى السلوك مع الله تعالى ، فقالوا : هو ماء بشر الحافى ، فأسلم النصرانى ، وقطع زِنَّارَه ، فلما رجعوا إلى بشر قال لهم : أسلم الطبيب ، قالوا ومن أعلمك ؟ قال : لما خرجتم من عندى هتف بى هاتف ، وقال : يا بشر ببركة مائك أسلم الطبيب ، وصار من أهل الجنة . وفلج الربيع بن خيثم فقيل له : هلا تداويت . فقال : قد عرفت أن الدواء حق ، ولكن عاد وثمود وقرون بين ذلك كثيرا كانت فيهم الأوجاع كثيرة ، والأطباء أكثر ، فلم يبقَ المداوى ، ولا المداوَى ، وقد أبادهم الموت ثم قال هذا المفرد :

هلك المداوِى والمداوى والذى ... جلب الدواء وباعه والمشترى

وقيل لجالينوس حين نهكته العلة : أما تتعالج ؟ فقال : إذا كان الداء من السماء ، بطل الدواء من الأرض ، وإذا نزل قضاء الرب بطل حذر المربوب . ومرّ قوم بماء من مياه العرب فوصف لهم ثلاث بنات متطببات ، وهن من أجمل الناس ، فأحبوا أن يروهن ، فحكوا ساق أحدهم حتى أدموها ، ثم قصدوهن فقالوا : هذا جريح مريض ، فهل من طبيب ؟ فخرجت صغراهن ، وهى كأنها الشمس الطالعة ، فلما رأت جرحه ، قالت : ليس هو بمريض ، بل خدشه عود ، بالت عليه حية ! فإذا طلعت الشمس مات ، فكان الأمر كما قالت . وقيل : دواء كل مريض بعقاقير أرضه ، فإن الطبيعة تتطلع لهوائها . وقالوا : من قدم إلى أرض غير أرضه ، وأخذ من ترابها ، وجعله فى مائها ، وشربه لم يمرض فيها ، وعوفى من وبائها . واحتمى أحمد بن المعدل لعلة أصابته ، فبرىء فقال : الحمية طالع الصحة لأهل الدنيا ، تبرئهم من المرض ، ولأهل الآخرة تبرئهم من النار . وقيل : إن الأبدان المعتادة بالحمية ، آفتها التخليط والمعتادة بالتخليط آفتها الحمية لأن الحكماء تقول : عوّدوا كل جسد بما اعتاد . وكان كسرى أنوشروان يمسك عما تميل إليه شهواته ، ولا ينهمك عليه ، ويقول : تركنا ما نحبه ، لنستغنى عن العلاج ، بما نكرهه ! وقال لقمان : لا تطيلوا الجلوس على الخلاء ، فإنه يورث الباسور ، وكانت هذه الحكمة مكتوبة على أبواب الحُشوش ، أى : الكُنُف . وقيل : كفى بالمرء عارا أن يكون صريعَ مأكله ، وقتيل أنامله :

فكم أكلةٍ أكلت نفس حُرّ ... وكم أكلة جَلَبت كلَّ ضُرّ

وقيل : من غرس الطعام أثمره الأسقام ، وعن بعض أهل البيت النبوى ﷺ أنه كان إذا أصابته علة جمع بين ماء زمزم ، والعسل ، واستوهب من مهر أهله شيئاً ، وكان يقول : قال الله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾ [ق:٩]، وقال تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [النحل:٦٩]، وقال ﷺ « مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ »(١)، وقال تعالى : ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ [النساء:٤] ، فمن جمع بين ما بورك فيه ، وبين ما فيه شفاء ، وبين الهنىء المرىء ، يوشك أن يلقى العافية . وقيل : خمسة من المهلكات : دخول الحمام على الشبع ، والمجامعة على الشبع ، وأكل القديد(٢) ، وشرب الماء البارد على الريق ، ومجامعة المرأة العجوز ! وقالوا : لا تنكح العجوز ، ولا تخرج الدم وأنت مستغن عن إخراجه ! وقال الإمام على ﷺ :

توقى مدى الأيام إدخال مطعم ... على مطعم من قبل هَضْم المطاعم
وكل طعام يُعجز السّن مضغُه ... فلا تقربنه فهو شرّ لِطَاعم
ووفّر على الجسم الدماء فإنها ... لقوة جسم المرء خيرُ الدعائم
وإياك أن تنكح طواعن سنهم ... فإن لها سُمّا كسم الأراقم(٣)

---

(١) قال العجلونى : رواه ابن ماجه بسند جيد ، وكذا ابن أبى شيبة والبيهقى عن جابر ورواه أحمد « . . لما شرب منه » .

(٢) القديد: من اللحم ما قصع.

(٣) الأراقم: جمع الأرقم، وهو ذكر الحيّات، أو أخبثُها.

وفى كل أسبوع عليك بقيئةٍ تكن آمنا من شر كل البلاغم

ومما يورث الهزال : النوم على غير وطاء ، وكثرة الكلام برفع الصوت . وقال النظام : -رحمه الله تعالى- ثلاثة تخرب العقل : طول النظر فى المرآة : وكثرة الضحك ، والنظر إلى النجوم . وفى الحديث « احْتَجَمَ رَسُول اللَّهِ ﷺ فِى أم مُغِيثٍ » وهى وسط الرأس « وَكَانَ ﷺ يَحْتَجِم فِى الْأَخْدَعَيْنِ »[(١)] ، « ونهى عن الحجامةِ فى نقرة القفا فإنها تورث النسيان »[(٢)] ، « وأمر بالاستنجاء بالماء البارد فإنه أمان من الباسور »[(٣)] ، وخطب المأمون بمسجد مروان فوجد غالب أهل المسجد يشكو من السعال ، فقال فى آخر خطبته : من كان يشكو سعالا فليتداوَ بالخلّ ففعلوا فعافاهم الله ، وقال بعض الحكماء : إياك أن تطيل النظر فى عين أرمد ، وإياك أن تسجد على حصير جديدة قبل أن تمسها بيدك ، فرب شظية حقيرة قلعت عينا خطيرة . وقيل : كانت الأدوية تنبت فى محراب سليمان عليه السلام ويقول كل دواء : يا نبى الله ، أنا دواء لكذا وكذا . وقال جالينوس ، البطنة تقتل الرجال وتورث الفالج والإسهال الذريع ، والإقعاد ، وصنفا من الجذام يقال له : الفهد لا يسمع صاحبه ، ولا يبصر ، نسأل الله العفو والعافية . وقيل البطنة تورث الصداع ، والكمنة فى العينين ، والضَّربان فى الأذنين ، والقولنج فى البطن . فعليك أيها الإنسان بالطريقة الوسطى ، واتق الليل وطعامه جُهدك ، وقال جالينوس : الغم المفرط يُميت القلب ، ويجمد الدم فى العروق ، فيهلك صاحبه ، والسرور المفرط يلهب حرارة الدم ، حتى يغلب الحرارة الغريزية فيهلك صاحبه ، وقيل : إنه وضع على مائدة المأمون فى يوم عيد أكثر من ثلاثين لونا ، فكان يصف وهى على المائدة منفعة كل لون ومضرته ، فقال يحيى بن أكثم : ياأمير المؤمنين ، إن خضنا فى الطب ، فأنت جالينوس فى معرفته ، أو فى النجوم فأنت هرمس فى صناعته ، أو فى الفقه فأنت على بن أبى طالب ﷺ فى علمه ، أو فى السخاء فأنت حاتم فى كرمه ، أو فى الحديث فأنت أبو ذر فى صدق لهجته ، أو فى الوفاء فأنت السموأل بن عادياء فى وفائه . فسرّ بكلامه ، وقال : يا أبا محمد ، إنما فضل الإنسان على غيره بالعقل ، ولولا ذاك لكانت الناس والبهائم سواء ، وقال طبيب الهند : إن منفعة الحقنة للجسد كمنفعة الماء للشجر ، وقال سفيان بن عيينة : أجمع أطباء فارس على أن الداء إدخال الطعام على الطعام . وقالوا : إدخال اللحم على اللحم يقتل السباع فى البر ، وقيل : الشرب فى آنية الرصاص أمان من القولنج[(٤)] . وعرض رجل على طبيب قارورته فقال له : ما هى قارورتك ؟ لأنه ماء ميت ، وأنت حى تكلمنى فما فرغ من كلامه ، حتى خر الرجل ميتا . وقيل : إن ملكا من الملوك حصل عنده صداع فى رأسه ، فأحضر الطبيب ، فأمره أن يضع قدميه فى الماء الحار ، وكان عنده خَصِىّ فقال : أين القدمان من الرأس ؟ فقال له الطبيب : وأين وجهك من خصيتيك نزعتا فذهبت لحيتك ؟! وقيل : إن المأمون حصل له صداع بطرسوس فأحضر طبيبا كان عنده فلم ينفعه علاجه ، فبلغ قيصر ، فأرسل إليه قلنسوة وكتب له : بلغنى صداعُك فضعها على رأسك ، يزل ما بك ، فخاف أن تكون مسمومة ، فوضعها على رأس القاصد فلم يصبه شىء ، ثم إنه أحضر رجلا به صداع فوضعها على رأسه فزال ما به فتعجب المأمون ! ثم إنه فتحها فوجد فيها رقعة مكتوبة فيها « بسم الله الرحمن الرحيم كم من نعمة لله تعالى فى عرق ساكن ، وغير ساكن ، حمعسق لا يصدعون عنها ولا ينزفون . من كلام الرحمن . خمدت النيران ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » . وقال على ﷺ : ادّهنوا بالبنفسج فإنه حار فى الشتاء ، بارد فى الصيف . وقال أيضا ﷺ عليكم بالزيت فإنه يذهب البلغم ، ويشد العصب ،ويحسن الخلق ، ويطيب النفس ، ويذهب الغم . وعنه ﷺ : إن لم يكن فى شىء شفاء ففى شرطة حاجم ، أو شربة من عسل . وقال الحجاج لطبيبه ، أخبرنا بجوامع الطب فقال : لا تنكح إلا فتاة ، ولا تأكل من اللحم إلا فتيا ، وإذا تغديت فنم ، وإذا تعشيت فامش ، ولو على الشوك ، ولا تدخلن بطنك طعامًا حتى تستمرئ ما فيه ولا تأو إلى فراشك حتى تدخل الخلاء . وكُل الفاكهة فى إقبالها ، وذَرْها فى إدبارها . وأوصى حكيم خليفته وصية ووعده أنه إذا لازمها لا يمرض إلا

---

(١) قال ابن القيم فى زاد المعاد : وفى الصحيحين عن أنس « كان رسول الله ﷺ يحتجم ثلاثا : واحدة على كاهله ، واثنتين على الأخدعين » وفى الصحيح أنه احتجم وهو محرم فى رأسه لصداع كان به ، (وأم مغيث هى الرأس) .

(٢) موضوع : أخرجه الديلمى عن أنس ، وانظر : المقاصد الحسنة [ص ٤٤٢] ، والفوائد المجموعة للشوكانى [ص ٢٣١] .

(٣) موضوع : أخرجه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه عمار بن هارون ، وهو متروك . انظر : « مجمع الزوائد » للحافظ الهيثمى [٥/ ١٠٠ - كتاب الطب] .

(٤) القُولَنْجُ : مرض مِعَويّ مؤلف يصعب معه خروج البراز والريح، وسببه التهاب القولون.

مرض الموت فقال : إياك أن تدخل طعامًا على طعام ، ولا تمشِ حتى تعيا ، ولا تجامع عجوزا ، ولا تدخل حماما على شبع ، وإذا جامعت فكن على حال وسط من الغذاء ، وعليك فى كل أسبوع بقيئة ، ولا تأكل الفاكهة إلا فى أوان نضجها ، ولا تأكل القديد من اللحم ، وإذا تغديت فنم ، وإذا تعشيت فامش أربعين خطوة ، ونم على يسارك لتقع الكبد على المعدة فينهضم ما فيها ، وتستريح الكبد من حرارة المعدة ، ولا تنم على يمينك فيبطىء الهضم ، ولا تأكل بشهوة عينيك بعد الشبع ، ولا تنم ليلا حتى تعرض نفسك على الخلاء إن احتجت إلى ذلك أو لم تحتج ، واقعد على الطعام وأنت تشتهيه ، وقم عنه وأنت تشتهيه ، وقال بعضهم :

شره النفوس على الجسوم بلية ... فتعوَّذوا من كل نفس تشره
ما من فتى شرهت له نفس وإن ... نال الغنى إلا رأى ما يكره

وقال أبو الفيض القضاعى يمدح الفضل وقد فصد :

أرقت دماً لو تسكب المزنُ[1] مثله ... لأصبح وجه الأرض أخضر زاهيا
دماً طيبا لو يُطلق الشرعُ شربَه ... لكان من الأسقام للناس شافيا

الفصل الرابع : فيما جاء فى العيادة وفضلها

قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة فى ظل العرش : عائد المريض ، ومشيع الموتى ، وطائع والديه »[2] ، وفى رواية « ومعزّى الثكلى » . ومن السنة تخفيف الجلوس فى العيادة . مرض بكر بن عبد الله المزنى فعاده أصحابه فأطالوا الجلوس عنده ، فقال : المريض يُعَاد ، والصحيح يزار قال الشاعر :

يَعُدْنَ مريضاً هن هيجن داءه ... ألا إنما بعض العوائد دائيا

وقيل : إذا دخل العُوّاد على الملك ، فحقهم أن لا يسلموا عليه ، فيحوجوه إلى رد السلام ، ويتعبوه ! فإذا علموا أنه لاحظهم دعوا له وانصرفوا . قيل . مرض إنسان فكتب إليه بعض أصدقائه : كشف الله عنك ما بك من السقم ، وطهرك بالعلة من الخطايا ، ومتعك بأنس العافية ، وأعقبك دوام الصحة . ومرض إنسان فكتب إليه صديقه :

بإخوانك الأدنين لابك كل ما ... شكوتُ إلىّ اليوم من ألم الورد
فكل امرئ منهم بقدر احتماله ... وإن عجزوا عنه تحملتُه وحدى

وقال الآخر :

بى السوء والمكروه لا بك كلما ... أراداك كانا بى وكان لك الأجر

وقال عبد الله بن مصعب :

ما لى مرضتُ فلم يعدنى عائدٌ ... منكم ويمرض كلبُكم فأعودُ

فسمى بعد ذلك عائدَ الكلاب . وعاد مالك بن أنس رضي الله عنه بعض المرضى فقال :

عادنى مالك فلست أبالى ... بعدُ من عادنى ومن لم يعدنى

وقال علّى بن الجهم :

أراقد الليل مسرورا عدمت إذاً ... عيشى وأحمد يرعى ليله وصَبَا
الله يعلم أنى قد نذرت له ... صيام شهر إذا ما أحمد ركبا

وقال آخر :

---

(١) المُزْن : السحاب يحمل الماء ، قال تعالى : ﴿أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة : ٦٩] والواحدة مُزْنة ، وحَبُّ المُزْن : البَرَد .

(٢) لم أقف عليه . هذا وللثلاثة أجرهم عند ربهم .

إذا مرضتم أتيناكم نعودكمو ... وتُذنبون فنأتيكم ونعتذر

وقال آخر :

أعاذكَ اللهُ من أشياءَ أربعة : ... الموت والعشق والإفلاس والجربُ

وقيل إن حق العيادة يوم بعد يوم أو يوم بعد يومين وعلى الأوّل قول الشاعر :

قالت : مرضتُ فعدتُها فتبرمت ... فهى الصحيحةُ والعليل العائذُ
والله لو أن القلوب كقلبها ... ما رقّ للولد الصغير الوالدُ

وعلى الثانى قول بعضهم :

حق العيادة يوم بعد يومين ... وجلسة مثلُ خَلْسِ اللّحظ بالعين
لا تُبرمَنّ عليلا فى مُساءلة ... يكفيك من ذاك تسآل بحرفين

وفضل العيادة مشهورة ، وشرفها مذكور ، وبها تعظم الأجور ، وهذا ما انتهى إلينا من هذا الباب ، والله الموفق للصواب .

الباب الحادى والثمانون

فى ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله

روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا مات لأحدكم ميت فأحسنوا كفنه ، وعجلوا إنجاز وصيته ، وأعمقوا له فى قبره ، وجنبوه جار السوء** . وقيل : يا رسول الله ، وهل ينفع الجار الصالح فى الآخرة ؟ قال : « **هل ينفع فى الدنيا ؟ قالوا : نعم . قال : كذلك فى الآخرة** »[1] ، ومن وصية على رضي الله عنه لأبى ذر : زُرِ القبورَ تذكر بها الآخرة ، ولا تزرها بالليل ، وغسّل الموتى يتحرك قلبك ، وصلّ على الجنائز لعل ذلك يحزنك ، فإن الحزين فى ظل الله تعالى . ويقال : جزعك فى مصيبة صديقك ، أحسن من صبرك ، وصبرك فى مصيبتك أحسن من جزعك . ونظر فيلسوف إلى ميت يُحمل إلى قبره فقال : حبيب تحمله أهلهُ إلى حبس الأبد ! ودخل عمرو بن العاص رضي الله عنه على معاوية فى مرضة مرضها ، فقال له : أعائد أنت أم شامت ؟! فقال له عمرو : لم تقول هذا ؟! والله ما كلفتنى رهَقًا ، ولا أصعدتنى زلقا ، ولا جرعتنى علقا ، فلم أستطل حياتك ، ولم أستبطىء وفاتك ، فأنشد معاوية يقول :

فهل من خالدين إذا هلكنا ... وهل فى الموت بين الناس عار ؟!

ولما مرض معاوية رضي الله عنه مرضه الذى مات فيه وفد إليه الناس يعودونه ؟! فقال لأهله : مهدوا لى فراشا وأسندونى ، وأوسعوا رأسى دهانا ، ثم أكحلوا عينى بالإثمد ، ثم ائذنوا للناس يدخلوا ويسلموا على قيامًا ، ولا تُجلسوا عندى أحدا ، ففعلوا ذلك ، فلما خرجوا من عنده أنشد يقول :

وتجلّدى للشامتين أُريهمُ ... أنى لريب الدهر لا أتضعضع !
وإذا المنية أنشبت أظفارَها ... ألفيتَ كلّ تميمة لا تنفع !

وقيل : لما دنا منه الموت تمثل بهذا البيت :

هو الموت لا منجى من الموت والذى ... نُحاذر بعد الموت أدهى وأفظع !

---

(١) موضوع : أورده السيوطى فى « اللآلىء المصنوعة » [٢/٤٣٩] ، وعزاه للمالينى فى المؤتلف والمختلف عن ابن عباس .

قال : ثم رفع يديه وقال : اللهم أقل العثرة ، واعف عن الزلة ، وعُد بحلْمك على من لم يرجُ غيرك ، ولا يثق إلا بك ، فإنك واسع المغفرة ، وليس لذى خطيئة منك مهرب ، ومات رحمه الله تعالى . وذكر أبو العباس الشيبانى : قال : وفد على أبى دُلَف عشرة من أولاد على ابن أبى طالب ﷺ فى العلة التى مات فيها ، فأقاموا ببابه شهرا لا يؤذن لهم ، لشدة العلة التى أصيب بها ، ثم أفاق فقال لخادمه بشر : إن قلبى يحدثنى أن بالباب قوما لهم إلينا حوائج ، فافتح الباب ، ولا تمنعن أحدا ، قال فكان أوّل من دخل آل على ﷺ فسلموا عليه ، ثم ابتدأ الكلام رجل منهم من ولد جعفر الطيار فقال : أصلحك الله ، أنا من أهل بيت رسول الله ﷺ، وفينا مِن ولده ، وقد حطمتنا المصائب ، وأجحفت بنا النوائب ، فإن رأيت أن تَجبر كسيرا ، وتغنى فقيرا لا يملك قطميرا فافعل ، فقال لخادمه ، خذ بيدى وأجلسنى ، ثم أقبل معتذرًا إليهم ، ودعا بدواة وقرطاس ، وقال ليكتب كل منكم بيده أنه قبض منى ألف دينار ، قالوا : فبقينا - والله - متحيرين ، فلما أن كتبنا الرّقاع ، ووضعناها بين يديه قال لخادمه : علّى بالمال ، فوزن لكل واحد منا ألف دينار ، ثم قال لخادمه : يا بشر إذا أنا مت فادرج هذه الرقاع فى كفنى ، فإذا لقيت محمداً ﷺ فى القيامة كانت حجة لى أنى قد أغنيت عشرة من ولده ، ثم قال : يا غلام ادفع لكل واحد منهم ألف درهم ينفقها فى طريقه ، حتى لا ينفق من الألف دينار شيئًا حتى يصل إلى موضعه ، قال : فأخذناها ودعونا له ، وانصرفنا ثم مات رحمه الله . وقيل لما دفن عمر بن عبد العزيز نزل عند دفنه مطر من السماء ، فوجدوا بَرَدة مكتوبا فيها بالنور : بسم الله الرحمن الرحيم أمان لعمر بن عبد العزيز من النار . وقيل لأعرابى : إنك تموت ! قال : وإلى أين أذهب ؟ قالوا : إلى الله تعالى . قال : لا أكره أن أذهب إلى من لا أرى الخير إلا منه . وبكى الخولانى عند موته فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : أبكى لطول السفر ، وقلة الزاد ، وقد سلكت عقبة ، ولا أدرى إلى أين أهبط ؟ وإلى أى مكان أسقط ؟ ودخل ملك الموت على داود عليه السلام فقال له : من أنت ؟ قال : أنا الذى لا يهاب الملوك ، ولا تمنع منه القصور ، ولا يقبل الرُّشَا ، فقال : إذن أنت ملك الموت ، وإنى لم أستعد بعد ! فقال له : يا داودُ أين فلان جارك ؟ أين فلان قريبك ؟ قال : ماتا . قال : أما كان لك فى موت هؤلاء عبرة لتستعد بها ؟ ثم قبضه عليه السلام[1] . وفى الخبر من حديث حميد الطويل عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : « **إن الملائكة تكتنف العبد ، تحتبسه ، ولولا ذلك لكان يعدو فى الصحراء والبرارى ، من شدة سكرات الموت** »[2] . وقد أجمعت الأمة على أن الموت ليس له زمن معلوم ، فليكن المرء على أهبة من ذلك . وقيل : بينما حسان جالس ، وفى حجره صبى يطعمه الزبد بالعسل ، إذ شرق الصبى فمات ، فقال :

اعمل وأنت صحيح مطلق فرح ... ما دمت ويحك يا مغرور فى مَهَلِ
يرجو الحياةَ صحيحٌ ربما كمنت ... له المنية بين الزُّبدِ والعسلِ

وقيل : إن المأمون لما قربت وفاته ، دخل عليه بعض أصدقائه ، فوجده قد فرش له جلد دابة ، وبسط عليه الرماد ، وهو يتمرغ فيه ويقول : يا من لا يزول ملكه ؛ ارحم من زال ملكه ! (**ولما**) : احتُضر عمرو بن العاص دعا بغُلّ وقيد وقال : ألبسونى إياهما فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن التوبة مقبولة ما لم يغرغر ابن آدم بنفسه ، ثم استقبل القبلة وقال : اللهم إنك أمرتنا فعصينا ، ونهيتنا فارتكبنا ، وهذا مقام العائذ بك ، فإن تعف فأنت أهل العفو ، وإن تعاقب فبما قدمت يداى ، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ثم مات ، وهو مغلول مقيد ، فبلغ ذلك الحسن بن على بن أبى طالب رضي الله عنهما فقال : استسلم الشيخ ، ولعلها تنفعه ! (**ولما**): احتضر المعتصم ، جعلوا يهوّنون عليه ، فقال : هان على النظارة ما يمرّ بظهر المجلود . وسمع أبو الدرداء رجلا فى جنازة يقول : من هذا ؟! فقال : أنت ، فإن كرهت فأنا . وقيل : مات عِكرمة مولى ابن عباس ﷺ وكثيّر عزة فى يوم واحد ، فقال الرجل : اللهم كما جمعتهما فى زيارة القبور ، فلا تفرق بينهما يوم النشور ، فما بقى فى المدينة أحد إلا استحسن كلامه ! (**ولما**): احتضر إبراهيم الخليل عليه السلام قال : هل رأيت خليلا يقبض روح خليله ؟! فأوحى الله إليه : هل رأيت خليلا يكره لقاء خليله ؟ قال : فاقبض روحى الساعة . وقيل : إذا قضى الله لرجل أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة فيسيره إليها . وقال بعضهم :

---

(١) ، (٢) لم أهتد إليه .

إذا ما حِمامُ[(١)] المرء كان ببلدةٍ دعته إليها حاجةٌ فيطير

(وحكى) : أن شابا تقيا من بنى إسرائيل ، كان يجتمع مع سليمان عليه السلام ويحضر مجالسه ، فبينا هو عند سليمان فى مجلسه ، إذ دخل ملك الموت عليه ، فلما رآه الشاب اصفر لونه ، وارتعدت فرائصه ، وقال : يا نبى الله ، إنى خفت من هذا الرجل ! فمر الريح أن تذهب بى إلى الهند ، فأمر سليمان الريح ، فذهبت به ، فما كان إلا قليل ، حتى دخل ملك الموت على سليمان ، وهو متعجب ! فقال له سليمان : مم تعجب ؟ قال : أعجب أنى أمرت بقبض روح الشاب الذى كان عندك بأرض الهند ، ودخلت عليك فوجدته عندك ، فصرت متعجبا ، ثم توجهت إلى الهند فرأيته هناك ، وقبضت روحه ، فهذا عجبى ! فقال له سليمان : إنه لما رآك خاف وانزعج ، وطلب منى أن تحمله الريح إلى الهند ، فأمرتها فحملته ، وفى ذلك المعنى قال محمد بن الحسن :

ومتعب الروح مرتاح إلى بلد والموت يطلبه فى ذلك البلد

وقيل : إن الإنسان يحصل له عند الموت قوّة حركة ، نحو ما يحصل للسراج عند انطفائه ، من حركة سريعة ، وضياء ساطع ، وتسميها الأطباء « النعشة الأخيرة » والله أعلم .

وقيل : إن الرشيد ماتت له جارية ، وكانت من خواص محاظية ، فجزع عليها جزعا شديدا . فقال لبعض أصدقائه : أما ترى ما بليت به ؟! ما أحببت أحدا إلا مات ! فقال : ياأمير المؤمنين أحببنى ، فقال : ويحك ! إن الحب ليس هو شىء يصنع ، إنما هو شىء يقع فى القلب تسوقه الأسباب ، فقال : قل : أنا أحبك ، قال : نعم أنا أحبك ، قال : فحُمّ من وقته ومات . وفى الحديث المرفوع « كَسْرُ عَظْمِ الْمَيِّتِ كَكَسْرِهِ فِى حَيَاتِهِ »[(٢)] ، وقال يزيد بن أسلم : لقد كان يمضى فى الزمن الأوّل أربعمائة سنة ما يسمع فيها بجنازة . وعن ميمون بن مهران قال : شهدت جنازة ابن عباس رضي الله عنهما بالطائف فلما وضع ليصلى عليه ، جاء طائر أبيض حتى وقف على أكفانه ، ثم دخل فيها ، فالتمسناه ، فلم نجده ولما سوينا عليه التراب سمعنا من يسمع صوته ، ولا يرى شخصه ، يقول : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ [الفجر:٢٧-٢٨] ، الآية وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إن قبر آدم عليه السلام بمسجد الخيف بمنى . وقال عطاء : بلغنى أن قبره تحت المنارة التى وسط الخيف . وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى مالا يبكيه عند ذكر الجنة والنار ، فقيل له فى ذلك ؛ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الْقَبْرُ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ فَإِنْ نَجَا الْعَبْدُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ »[(٣)] . وعن معاذ بن رفاعة الزرقى قال : أخبرنى رجل من رجال قومى : « أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ فى جوف الليل معتجرا بعمامة من استبرق ، فقال : يا محمد من هذا الميت الذى فتحت له أبواب السماء ، واهتز له العرش ؟ فقام رسول الله ﷺ يجرّ ثوبه مبادرا إلى سعد بن معاذ رضي الله عنه فوجده قد قبض »[(٤)] ، وقال الحسن رضي الله عنه ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح وجوه الناس خمس مرات ، فمن رآه على لهو ولعب أو معصية أو ضاحكا حرك رأسه ، وقال له : مسكين هذا العبد ، غافل عما يراد به ، ثم يقول له : اعمل ما شئت فإن لى فيك غمزة أقطع بها وتينك[(٥)] ! وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لرجاء بن حيوة : يا رجاء ، إذا وُضعت فى لحدى ، فاكشف الثوب عن وجهى ، فإن رأيت خيرا فاحمد الله ، وإن رأيت غير ذلك ، فاعلم أن عمر قد هلك : قال رجاء : فلما دفناه كشفت عن وجهه ، فرأيت نورا ساطعا ، فحمدت الله تعالى أن قد صار إلى خير . وقال أيضا : دخلت على عمر بن عبد العزيز وهو محتضر ، فقال : يا رجاء ، إنى أرى وجوها كراما ليست بوجوه إنس ولا جان ، وهو يقلب طرفه يمينا وشمالا ، ثم رفع يده فقال : اللهم أنت ربى أمرتنى ، فقصرت ، ونهيتنى فعصيت ، فإن غفرت فقد مننت ، وإن عاقبت فما ظلمت . ألا إنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدُك ورسولك المصطفى ، ونبيك المرتضى ، بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة فعليه السلام والرحمة ، ثم قضى نحبه - رحمه الله - وعن أسماء بنت عميس

---

(١) الحمام: بكسر الحاء وفتح الميم: قضاء الموت وقدره.

(٢) صحيح : أخرجه أبو داود [٣٢٠٧] ، وابن ماجه [١٦١٦] ، وأحمد [٦/٥٨ ، ١٦٨] .

(٣) حسن : أخرجه الترمذى [٢٣٠٩] ، وابن ماجه [٤٢٦٧] .

(٤) وعن معاذ بن رفاعة . . إلخ اهتزاز العرش لموت سعد بن معاذ ثابت وصحيح ، وانظر : « الإصابة » لابن حجر ترجمة سعد بن معاذ.

(٥) وتينك: الوتين هو: الشّريان الرئيسي الذي يغذّى جسم الإنسان بالدم النقي الخارج من القلب.

قالت : كنت عند أمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ بعدما ضربه ابن ملجم ، إذ شهق شهقة بعد أن أغمى عليه ، ثم أفاق ، وقال : مرحبا « **الحمدلله الذى صدقنا وعده . وأورثنا الأرض نتبوّأ من الجنة حيث نشاء** » (١) ، فقيل له : ما ترى ؟ قال : هذا رسول الله ﷺ، وهذا أخى جعفر ، وعمى حمزة وأبواب السماء مفتحة ، والملائكة ينزلون علىّ يبشروننى بالجنة ، وهذه فاطمة قد أحاط بها وصائفها الحور العين ، وهذه منازلى لمثل هذا فليعمل العاملون ! (**ولما**): احتضر عبد الملك بن مروان قال لابنه الوليد : إذا أنا مت إياك أن تجلس ، وتعصر عينيك كالمرأة الوكعاء ، لكن ائتزر وشمر والبس جلد النمر ، وضعنى فى حفرتى ، وخلنى وشأنى ، وعليك شأنك ، وادع الناس إلى بيعتك . فمن قال برأسه هكذا ، فقل له بسيفك هكذا ، ثم بعث إلى محمد وخالد ابنى يزيد بن معاوية ، فقال : هل عندكما ندامة فى بيعة الوليد ؟ فقالوا : لا نعرف أحداً أحق منه بالخلافة ، فقال : أما إنكما لو قلتما غير هذا لضربت الذى فيه أعينكما ، ثم رفع كنار فراشه ، فإذا تحته سيف مسلول تحت يمينه ، كل هذا وروحه تتردد فى حنجرته وهو يقول : الحمدَ الذى لا يبالى أصغيراً أخذ أم كبيرا لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ثم بعد ساعة نفدت روحه ، فدخل عليه الوليد ومعه بناته يبكون فتمثل بقول الشاعر :

ومستخبر عنّا يُريد بنا الرَّدى ... ومستخبراتٍ والعيونُ سواكب

وقال محمد بن هارون :

كأنى بإخوانى على جنب حفرتى ... يهيلون فوقى والعيون دما تجرى

فيأيها المذرى علىّ دموعه ... ستعرض فى يومين عنى وعن ذكرى

وكان يزيد الرقاشى يقول : من كان الموت موعده ، والقبر بيته ، والثرى مسكنه ، والدود أنيسه ، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف تكون حالته ؟ ثم يبكى حتى يغشى عليه ؟ فيجب على العاقل أن يحاسبَ نفسه بنفسه على ما فرط من عمره ، ويستعد لعاقبة أمره بصالح العمل ، ولا يغتر بالأمل فإن من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، نسأل الله أن يلهمنا رشدنا ، ويوفقنا لاتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، وأن يجعل الموت خير غائب ننتظره وأن يختم لنا بالخير ، وأن يتغمدنا برحمته إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثاني والثمانون

فى الصبر والتأسى والتعازى والمراثى ونحو ذلك وفيه فصول

الفصل الأول : فى الصبر

قال الله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦]، وقال ﷺ « **مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصَابُ بِمُصِيبَةٍ وَإِنْ قَلَّ عَهْدُهَا فَأَحْدَثَ اسْتِرْجَاعًا ، إِلَّا أَحْدَثَ اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ ، وَأَعْطَاهُ مِثْلَ أَجْرِهِ ذَلِكَ يَوْمَ أُصِيبَ بِهَا** » (٢) . وعن أنس ابن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ « **من أصبح حزينا أصبح ساخطا على ربه ، ومن أصبح يشكو مصيبة فكأنما يشكو الله ، ومن تواضع لغنى سأله ما فى يده ، أحبط الله ثلثى عمله ، ومن أعطى القرآن ولم يعمل به وتهاون به حتى دخل النار ، أبعده الله عن رحمته لأنه هو الذى فعل ذلك بنفسه، حيث لم يعرف حرمة**

---

(١) سورة الزمر: بعض الآية رقم [٧٤] وأولها: ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ . ﴾ .

(٢) ما من مسلم يصاب بحصيبة - وإن قل عهدها - فأحدث استرجاعا . . . . إلخ أخرجه ابن ماجه برقم [١٦٠٠] .

القرآن »[١] ، وروى عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال: « مَنْ مَاتَ لَهُ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ لَمْ يَلِجِ النَّارَ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ »[٢] ، يعنى قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] وعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: « مَنْ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَقَالَ - كَمَا أَمَرَ اللَّهُ - ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ اللهم اؤجُرنى فى مصيبتى، وأعقبنى خيرا منها ، إلا فعل الله به ذلك »[٣] . وروى « أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَمْ تَنْهَ عَنِ الْبُكَاءِ ؟ قَالَ: إِنَّمَا نُهِيتُ عَنِ الْغِنَاءِ والصَّوْتَيْنِ الْأَحْمَقَيْنِ، والنَّدْبِ ، وَلَكِنْ هِذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِنَا وَمَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ، فَإِنَّ الْقَلْبَ يَخْشَعُ والْعَيْنَ تَدْمَعُ وإِنَّا بِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي اللَّهَ رَبَّنَا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ »[٤] . وقال ابن عباس رضي الله عنهما «أوّل شىء كتبه الله فى اللوح المحفوظ: إننى أنا الله لا إله إلا أنا، محمد عبدى ورسولى، من استسلم لقضائى، وصبر على بلائى ،وشكر نعمائى، كتبته صدّيقا، وبعثته مع الصديقين، ومن لم يستسلم لقضائى، ولم يصبر على بلائى، ولم يشكر نعمائى فليتخذ ربًّا سواى»[٥] . وقال ابن المبارك إن المصيبة واحدة ، فإذا جزع صاحبُها فهما اثنتان ، لأن إحداهما المصيبة بعينها، والثانية ذهاب أجره، وهو أعظم من المصيبة! وعن العلاء بن عبد الرحمن « أن النبى ﷺ لما حضرته الوفاة ، بكت فاطمة، فقال: لا تبكى يا بنتاه، قولى إذا مت: إنالله وإنا إليه راجعون، فإن لكل إنسان مصيبة معوّضة قالت: ومنك يا رسول الله ؟ قال: ومنى »[٦] ، وعن عطاء بن رباح قال: قال رسول الله ﷺ: « من أصابته مصيبة فليذكر مصيبته بى فإنها أعظم المصائب »[٧] . وعن أبى هريرة ﷺ أنه قال: « من أُخذت حبيبتاه - يعنى عينيه - فصبر واحتسب أدخله الله الجنة »[٨] . وقيل: إن امرأة أيوب عليه السلام قالت له: « لو دعوت الله تعالى أن يشفيك، فقال: لها ، ويحك كنا فى النعماء سبعين عاما، أفلا نصبر على الضراء مثلها ؟! فلم يلبث إلا يسيرا أن عوفى »[٩] . وقيل: الصبر مفتاح الظفر، والتوكل على الله تعالى رسول النجاح. وقيل: من لم يلق نوائب الدهر بالصبر، طال عتبه عليه، وقيل: إن معاوية ﷺ خرج يوما ومعه عبد العزيز بن زرارة الكلبى وكان ذا منصب وشرف وعقل وأدب ، فقال له معاوية: يا عبد العزيز، أتانى نعى سيد شباب العرب، فقال له: ابنى أو ابنك؟. قال: بل ابنك، قال: للموت تلد الوالدة. ومما قيل: اصبر لحكم من لا تجد معوّلا إلا عليه ، ولا مفزعا إلا إليه . وقال سويد السدوسى :

فأوصيكما يا ابنى سدوس كلاكما ... بتقوى الذى أعطاكما وبراكما
بشكر إذا ما أحدث الله نعمة ... وصبر لأمر الله فيما ابتلاكما

وقال :

أيا صاحبى إن رمت أن تكسب العلا ... وترقى إلى العلياء غير مزاحم
عليك بحسن الصبر فى كل حالة ... فما صابر فيما يروم بنادم

وقال آخر :

هو الدهر قد جربته وبلوته ... فصبرا على مكروهه وتجلّدا

وحدث الزبير قال: قامت عائشة بعد ما دفن أبوها أبو بكر الصديق ﷺ فقالت: نضّر اللهُ وجْهك، وشكر صالحَ سعيك، فقد كنت للدنيا مذلّا بإدبارك عنها وللآخرة معذّا بإقبالك عليها، ولئن كان رزؤك[١٠] أعظم المصائب بعد رسول الله ﷺ، وأكبر الأحداث بعده ، فإن كتاب الله تعالى قد وعدنا بالثواب على الصبر فى المصيبة، وأنا تابعة له فى الصبر

---

(١) ضعيف جدًّا : أورده الهيثمى فى « مجمع الزوائد » [١٠/ ٢٤٨] وقال : « رواه الطبرانى فى الصغير ، وفيه وهب بن راشد البصرى ، صاحب ثابت ، وهو متروك » .

(٢) صحيح : رواه أحمد [٢/ ٢٧٦] .

(٣) قال المنذرى رواه مسلم وأبو داود والترمذى . ورواه ابن ماجه بنحو الترمذى والآية رقم [١٥٦] من سورة البقرة .

(٤) صحيح : أخرجه مسلم كتاب الفضائل - باب - رحمته ﷺ بالصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك [٦٢] . وأحمد [٣/ ١٩٤] .

(٥) لم أهتد إليه .

(٦) لم أهتد إليه .

(٧) ضعيف : أورده المتقى الهندى فى « كنز العمال » [ج ٣ برقم ٦٦٥٣] ، وعزاه لابن السنى فى عمل اليوم والليلة عن عطاء بن رباح مرسلاً .

(٨) تقدم .

(٩) لم أهتد إليه.

(١٠) الرُّزْء: المصيبة.

فأقول: إنالله وإنا إليه راجعون، ومستعيضة بأكثر الاستغفار لك، فسلام الله عليك، توديع غير قالية لحياتك، ولا رازئة على القضاء فيك ! (ولما): مات ذرّ الهمدانى ، جاء أبوه فوجده ميتا ، وكان موته فجأة ، وعياله يبكون عليه، فقال: مالكم والله، ما ظلمناه، ولا قهرناه، ولا ذهب لنا بحق، ولا أصابنا فيه ما أخطأ من كان قبلنا فى مثله، ولما وضعه فى حفرته قال: رحمك الله يا بنى، وجعل أجرى فيك لك، والله ما بكيت عليك، وإنما بكيت لك، فوالله لقد كنت بى بارّا، ولى نافعا، وكنت لك محبا، وما بى إليك من وحشة، وما بى إلى أحد غير الله من فاقة، وما ذهبت لنا بعزة، وما أبقيت لنا من ذل، ولقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك. ياذرّ لولا هول المطلع لتمنيت ما صرتَ إليه، فليت شعرى ماذا قلت؟ وماذا قيل لك؟ ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إنك وعدت الصابرين على المصيبة ثوابك ورحمتك، اللهم وقد وهبت ما جعلت لى من الأجر إلى ذر صلة منى له، فلا تحرمنى، ولا تعرفه قبيحا، وتجاوز عنه فإنك رحيم بى وبه، اللهم قد وهبت لك إساءته لى، فهب لى إساءته إليك، فإنك أجود منى وأكرم. اللهم إنك قد جعلت لك عليه حقا، وجعلت لى عليه حقا قرنته بحقك فقلت: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ . [لقمان:١٤] اللهم إنّى قد غفرت له ما قصر فيه من حقى، فاغفر له ما قصر فيه من حقك، فإنك أولى بالجود والكرم. فلما أراد الانصراف قال: ياذرّ قد انصرفنا، وتركناك ، ولو أقمنا عندك ما نفعناك! وفى الحديث « إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ: مَاذَا قَالَ عَبْدِى عِنْدَ قَبْضِ رُوحِ وَلَدِهِ، وَثَمَرَةِ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: إِلٰهَنَا، حَمِدَكَ، وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَشْهِدُكُم يَا مَلَائِكَتِى، أَنِّى بَنَيْتُ لَهُ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ، وَسَمَّيْتُهُ بَيْتَ الْحَمْدِ » [(١)] . وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه دفن ابنا له، وضحك عند قبره، فقيل له: أتضحك عند القبر؟ قال: أردت أن أرغم أنف الشيطان، فينبغى للعبد أن يتفكر فى ثواب المصيبة، فتسهل عليه، فإذا أحسن الصبر استقبله يوم القيامة ثوابها، حتى يودّ لو أن أولاده وأهله وأقاربه ماتوا قبله، لينال ثواب المصيبة، وقد وعد الله تعالى فى المصيبة ثوابا عظيما إذا صبر صاحبها، واحتسب وقال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [محمد:٣١] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٥] الآية اللهم رَضِّنَا بقضائك، وصَبِّرنا على بلائك، واغفر لنا، ولوالدينا، ولكل المسلمين يا رب العالمين .

الفصل الثانى : من هذا الباب فى التعازى والتأسى

روى الترمذى فى كتاب السنن للبيهقى عن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال: « مَنْ عَزَّى مُصَابًا فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ » وروينا فى كتاب الترمذى أيضا بسند متصل إلى رسول الله ﷺ قال: « مَنْ عَزَّى ثَكْلَى كُسِىَ بِرِدَاءٍ فِى الْجَنَّةِ » وروينا فى سنن ابن ماجه والبيهقى بإسناد حسن عن عمرو بن حزم عن النبى ﷺ قال: « مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَزِّى أَخَاهُ بِمُصِيبَتِهِ إِلَّا كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ حُلَلِ الْكَرَامَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (واعلم): أن التعزية هى التصبير، وذكر ما يسلى صاحب الميت، ويخفف حزنه، ويهوّن مصيبته، وهى مستحبة، فإنها مشتملة على الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وهى أيضا داخلة فى قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة:٢]، وهى من أحسن ما يستدل به فى التعزية، وثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ قال: « وَاللَّهُ فِى عَوْنِ الْعَبْدِ مَا دَامَ الْعَبْدُ فِى عَوْنِ أَخِيهِ » ، واعلم أن التعزية مستحبة قبل الدفن، وبعده، وتكره بعد ثلاثة أيام، لأن التعزية لتسكين قلب المصاب، والغالب سكونه بعد ثلاثة أيام، فلا يجدّد الحزن، هكذا قال الجماهير من أصحاب الشافعى رضي الله عنه وقيل: إنها لا تفعل بعد ثلاثة أيام إلا فى صورتين: وهما إذا كان المعزّى أو صاحب المصيبة غائبا حال الدفن، فاتفق رجوعه بعد الثلاثة وأما لفظ التعزية فلا حجر فيه، فبأى لفظ عزاه حصلت، واستحب أصحاب الشافعى أن يقول فى تعزية المسلم بالمسلم: عظم الله أجرك، وأحسن عزاءك، وغفر لميتك. وفى المسلم بالكافر: أعظم الله أجرك وأحسن عزاءك. وفى الكافر بالكافر أخلف الله عليك، ولا نقص لك عدد. روى « أن النبى ﷺ فقد بعض أصحابه فسأل عنه، فقالوا : يا رسول الله ، بنيه الذى رأيته هلك ، فلقيه النبى ﷺ فسأل عن بنيه، فقال: يا رسول الله هلك، فعزاه فيه، ثم قال: يا فلان ، أيما كان أحب إليك ؟ أن تتمتع به عمرك، أو لا تأتى غدا بابا من أبواب الجنة

[(١)] قال المنذرى : رواه الترمذى وحسّنه ، وابن حِبّان فى صحيحه .

إلا وجدته وقد سبقك إليه فيفتحه لك؟ فقال: يا رسول الله سَبْقُه إلى باب الجنة أحب إلىّ من التمتع به فى دار الدنيا . قال : ذلك لك »[١] . وروى البيهقى بإسناده فى مناقب الشافعى - رحمهما الله- أن الشافعى قد بلغه أن عبد الرحمن ابن مهدى مات له ابن، فجزع عليه جزعا شديدا، فبعث إليه الشافعى - رحمه الله- يقول: يا أخى، عزِّ نفسك بما تعزى به غَيرك، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، واعلم أن أمض المصائب، فقد سرور وحرمان أجر، فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب وزر؟! ألهمك الله عند المصائب صبرا، وأجزل لنا ولك بالصبر أجرا. وروى عن ابن المبارك قال: مات لى ابن فمر بى مجوسى، وقال: ينبغى للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام، فقال: اكتبوها منه. وعن معاذ بن جبل أنه قال: « **مات لى ابن فكتب إلىّ رسول الله** ﷺ من محمد ﷺ إلى معاذ بن جبل: سلام عليكم فإنى أحمد الله الملك الذى لا إله إلا هو أما بعد: فعظم الله لك الأجر، وألهمك الصبر، ورزقنا وإياك الشكر . ثم اعلم أن أنفسنا وأموالنا وأهلنا وأولادنا من مواهب الله تعالى الهنيّة، وعواريه المستودعة، يمتعنا بها إلى أجل معدود، ويقبضها لوقت معلوم ، ثم فرض الله تعالى علينا الشكر إذا أعطى، والصبر إذا ابتلى، وكان ابنك من مواهب الله الهنية، وعواريه المستودعة، متعك الله به فى غبطة وسرور، وقبضه بأجر كبير إن صبرت واحتسبت، فاصبر واحتسب، واعلم أن الجزع لَا يَرُدُّ مَيتًا، وَلَا يَطْرُدُ حُزْنًا »[٢] . وروى أن أبا بكر ﷺ كان إذا عزى مُرَزَّأً قال : ليس مع العزاء مصيبة ، ولا مع الجزع فائدة ، والموت أشد مما قبله ، وأهون مما بعده ، فاذكر مصيبتك برسول الله ﷺ تهن عليك مصيبتك . وعزى الإمام الشافعى ﷺ صديقا له فقال :

إنّا نعزيك لا أنّا على ثقة ... من الحياة ، ولكن سنة الدين
فما المعزّى بباق بعد ميّته ... ولا المعزّى ولو عاشا إلى حين

وكتب بعضهم إلى أخ له يُعزِّيه : أنت يا أخى - أعزك الله - عالم بالدنيا وما خلقت له من الفناء ، وأنها لم تعط إلا أخذت ، ولم تسر إلا أحزنت ، وإن الموت سبيل محتوم على الأوّلين والآخرين ، لا دافع عنه ، ولا مؤخر لما قضى الله - عز وجل - منه ، وإنالله وإنا إليه راجعون . وعزى رجل بعض الخلفاء بابن له فكتب إليه يقول :

تعزّ أميرَ المؤمنين فإنه ... لما قد ترى يغدو الصغير ويولد
هل الابن إلا من سلالة آدم ... لكل على حوض المنية مورد

وكتب بعضهم إلى صديق له ، وقد ماتت ابنته فقال :

الموت أخفى سوأة للبنات ... ودفنها يُروى من المكْرُمات
أما رأيت اللهَ سبحانه ... قد وضع النعش بجنب البنات !

وكتب بعضهم إلى صديق له يعزيه بأخيه، ويسليه: ما تصنع يا أخى ، والقضاء نازل ، والموت حكم شامل ، وإن لم تلذ بالصبر ، فقد اعترضت على مالك الأمر ، وأنت تعلم أن نوائب الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر ، فاجعل بين هذه اللوعة الغالبة ، والدمعة الساكبة ، حاجبا من فضلك ، وحاجزا من عقلك ، ودافعا من دينك ، ومانعا من يقينك ، فإن المحن إذا لم تعالج بالصبر ، كانت كالمنح إذا لم تقابل بالشكر ، فصبر صبرا ، ففحول الرجال لا تستفزها الأيام بخطوبها ، كما أن متون الجبال لا تهزها العواصف بهبوبها ، فعزيز علىّ أن أخاطب مولاى معزيا وأكاتبه مسليا ، عن كبير أو صغير ، مما يتعلق بخدمته ، أو ينتمى إلى جملته ، فكيف بالصنو[٣] الأكرم ، والذخر الأعظم ، والركن الأشد ، والسهم الأسد ، والشهاب الأسطع ، والحسام الأقطع ، لكن التعزية سير سائرة ، وسنة ماضية غابرة ، وقدر الله هو المقدر ، وأجلُ الله إذا جاء لا يؤخر ، ولولا أن الذكرى تنفع ، والتعزية يستوى فيها الأشرف والأوضع ، لأجللت مولاى أن أفاتحه معزيا ، وأخاطبه مسليا ، ولكن بحمد الله العالم لا يعلم ، والسابق لا يتقدم ، فبمولاى يُقتدى فى الصبر على النوائب ، وبنوره يُهتدى فى مشكلات المذاهب ، وكل ما كان من الرزء أوجع ، كان الأجر عليه أوسع ، وجعل الله مولاى من الصابرين على المصيبة ، وأعظم أجره وجعل الجنة نصيبه . وعزى رجل فتى عن أبيه

---

(١) لم أهتد إليه . (٢) أخرجه الحاكم وابن مردويه . (٣) الصِّنو: النَّظير والمِثْل.

فلم يجده كما أحب ، فقال : يابُنَىّ سوء الخلف أضرُّ علينا من فقد السلف . ومات لبعض ملوك كندة ابنة فوضع بين يديه بَدْرَة من المال وقال : من بالغ فى تعزيته ، فهى له : فدخل عليه أعرابى وقال : عظم الله أجر الملك ، كُفيتَ المؤنة ، وسترت العورة ، ونعم الصهر القبر ، فقال : قد أبلغت وأوجزت ! ثم دفعها له . وعزت أعرابية قوما فقالت : جافى الله عن ميتكم الثرى ، وأعانه على طول البلى ، وآجركم ورَحِمه ! وكان لعلى بن الحسين جليس مات له ابن ، فجزع عليه جزعا شديدا ، فعزاه على بن الحسين - رحمه الله - ووعظه فقال : يابن رسول الله ، إن ابنى كان مسرفا على نفسه ، فقال : لا تجزع فإن من ورائه ثلاث خلال : أوّلهن شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن سيدنا محمد رسول الله ، والثانية : شفاعة جدى ﷺ ، والثالثة : رحمة الله التى وسعت كل شىء ، فأين يخرج ابنك عن واحدة من هذه الخلال ؟! وقال سليمان بن عبد الملك عند موت ابنه لعمر بن عبد العزيز ، ورجاء بن حيوة : إن فى كبدى جمرة لا يطفئها إلا عبرة فقال عمر : اذكر الله ياأمير المؤمنين ، وعليك بالصبر ، فنظر إلى رجاء كالمستريح بمشورته ، فقال رجاء : أفضها ياأمير المؤمنين فما بذلك من بأس ، لقد دمعت عينا رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم ، وقال : « **إِنَّ العَيْنَ لَتدْمَعُ وإِنَّ الْقَلْبَ لَيَخْشَعُ ، وَلَا نَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبّ ، وإِنَّا بِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ** »[1] ، فأرسل سليمان بن عيينة حتى قضى أربه ، ثم أقبل عليهم ، وقال : لولا نزفت هذه العبرة لانصدع كبدى ، ثم إنه لم يبك بعدها . وكتب الإسكندر إلى أمه قبل وفاته بقليل : إذا وصل إليك كتابى هذا فاجمعى أهلَ بلدك ، وأعدى لهم طعاما ، ووكلى بالأبواب من يمنع من أصابته مصيبة فى أم أو أب أو أخ أو أخت أو ولد ففعلت : فلم يدخل إليها أحد ، فعلمت أن الإسكندر عزاها فى نفسه . ولما قتل الفضل بن سهل ، دخل المأمون على أمه يعزيها فيه ، فقال لها : يا أماه ، لا تحزنى على الفضل ، فأنا خلف منه ، فقالت : كيف لا أحزن على ولد عوّضنى عنه خليفة مثلك ؟! فعجب المأمون من جوابها ، وكان يقول : ما سمعت قط أحسن منه ، ولا أجلب للقلوب ، فقال لها : عليك بالصبر ، فإن فيه مزيد الأجر . وممن جزع على ولده جعفر بن علية ، لما قتله الحارث قام نساء الحى يبكين عليه ، وقام أبوه إلى ولد كل شاة وناقة فذبحه وألقاها بين أيديها ، وقال لها ابكين معى على جعفر ، فما زالت النوق ترغو والشياه تيعر ، والنساء يصرخن ويبكين ، وهو يبكى معهن ، فلم ير مأتم كان أوجع منه ! وقال يحيى بن خالد التعزية بعد ثلاثة أيام تجدّد الحزن ، والتهنئة بعد سنة تجدد الفرح !

(**ومما قيل فى التأسى والتسلى بالخلف عن السلف**) : قيل عزى بعض الشعراء يزيد بن معاوية فى والده فقال :

اصبر يزيدُ فقد فارقت ذا ثقة[2] ... واشكر إلهك من بالملك حاباكا
لارُزء أصبح فى الأيام نعرفه ... كما رزئت ولا عقبى كعقباكا

وقال الآخر :

لابُدَّ من فقد ومن فاقِد ... هيهات ما فى الناس من خالد !

وقال آخر :

تبصّر فلو أن البُكا رَدّ هالكا ... على أحد فأكثر بكاك على عمر !

وكتب بعضهم إلى أولاد صديقه يعزيهم ويسليهم فى والدهم فقال :

فلو كان فيض الدمع ينفع باكيا ... لعلّمت غرب الدمع كيف يسيل
فإن غاب بدر فالنجوم طوالع ... ثوابت لا يقضى لهن أفول
يُغاث بها فى ظلمة الليل حائر ... ويَسْرِى عليها بالرفاق دليل

(ودخل) : عبد الملك بن صالح على الرشيد ، وقد مات له ولد وولد له فى تلك الليلة ولد ، فقال : سرك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك ، ولا ساءك فيما سرك ، وجمع لك بين أجر الصابر وثواب الشاكر . وقال بعضهم :

ألَيس لهذا صار آخر أمرنا ... فلا كانت الدنيا القليلُ سرورها ؟!

---

(١) سبق تخريجه فى نفس هذا الباب .

(٢) ويروى « ذامِقَة » . و « جِباءَ الذى » بدلا من « إلهك من » .

فلا تعجبى يا نفسُ مما ترينه ... فكلُّ أمور الناس هذا مصيرها !

وسئل الأصمعى عن قول الخنساء فى نعيها صخرا حين مات ، ونعته فقالت :

يذكرنى طلوعُ الشمس صخراً ... وأندبُه لكلّ غروبِ شمس

فقالوا له : لماذا أنها خصت الشمس دون القمر والكواكب ؟ فقال : لكونه كان يركب عند طلوع الشمس ، يشن الغارات ، وعند غروبها يجلس مع الضيفان فذكرتْه بهذا مَدْحًا لأنه كان يُغير على أعدائه ، ويتقيد بضيفه ، وقَدْ رثته بعد البيت الأوّل بأبيات منها :

ألا يا نفسُ لا تنسيه حتى ... أفارقَ عيشتى وأزورَ رَمسى[1]

ولولا كثرةُ الباكين حولى ... على أمواتِهم لقتلتُ نفسى

وما يبكون مثل أخى ولكن ... أسَلِّى النفس عنه بالتأسّى

وقال آخر :

ولولا الأسى ما عشتُ فى الناس ساعةً ... ولكن إذا ناديتُ جاوبَنى مثلى

وقال آخر :

وهوّن وجدى عن خليلى أننى ... إذا شئتُ لاقيتُ الذى أنا صاحبه

وقال آخر :

ومما يؤدينى إلى الصبر والعَزا ... تردُدُ فكرى فى عموم المصائب !

الفصل الثالث : فى المراثى

لما توفى رسول الله ﷺ رثاه جماعة من أصحابه ، وآله بمراثٍ كثيرة ، منها ما روى عن أبى بكر الصديق ﷺ فإنه كان أقرب الناس إليه ، وهو أوّل من رثاه فقال :

لما رأيت نبيَّنا متجندلا[2] ... ضاقت علىَ بعرضِهنَّ الدورُ

فارتاع قلبى عند ذاك لموته ... والعظمُ منى ما حييتُ كسيرُ

أعتيقُ ويحك إنّ خِلك قد ثوى ... والصبرُ عندك ما بقيتُ يسير[3]

يا ليتنى من قبل مَهلكِ صاحبى ... غيبت فى لحدٍ عليه صخور

فلتحدثن بدائع من بعده ... تعيا بهن جوانح وصدور

وقال :

فقدَت أرضُنا هناك نبيّا ... كان يغدو به النباتُ زكيا

خلقا عاليا ودينا كريماً ... وصراطا يَهدى الأنام سَوِيا

وسراجا يجلو الظلامَ منيراً ... ونبيا مؤيَّداً عربيّا

حازمًا عالمًا حليمًا كريمًا ... عائدا بالنّوال بَرًّا تقيا

إنّ يوما أتى عليك ليومٌ ... كُوّرت شمسُه وكان خَليّا

فعليك السلامُ منا جميعا ... دائم الدهر بُكرةً وعَشِيّا

ورثاه صلى الله عليه وسلم أبو سفيان بن الحارث فقال :

أرقتُ فبات ليلى لا يزولُ ... وليلُ أخِى المصيبةِ فيه طولُ

---

(١) الرَّمْس : القبر مستويًا مع وجه الأرض.

(٢) الصواب : مجدلا . يقال : جدّله : أى صرعه .

(٣) أعتيق : ينادى نفسه فهذا هو اسمه .

وأسعدَني البكاءُ وذاك فيما ... أصيبَ المسلمون به قليلُ
لقد عظُمت مصيبتنا وجلّت ... عشيةَ قيل : قد قُبض الرسولُ
وأضحت أرضُنا مما عراها ... تكادُ بنا جوانبُها تميل
فقدنا الوحي والتنزيلَ فينا ... يروحُ به ويغدو جَبْرئيل
وذاك أحقّ ما سالت عليه ... نفوسُ الناسِ أو كادتْ تسيل
نبيّ كان يجلو الشكّ عنّا ... بما يوحَى إليه وما يقول
ويهدينا فلا نخشى ملامًا ... علينا والرسول لنا دليل !
أفاطمُ إن جَزِعتِ فذاك عذر ... وإن لم تجزعى فذاك السبيل
فقبر أبيك سيدُ كلّ قبر ... وفيه سيدُ الناسِ الرسولُ

(ولما) : مات أبو بكر الصديق ﷺ رثاه عمر بن الخطاب ﷺ بهذه الأبيات حين رجع من دفنه فقال :

ذهب الذين أحبهم ... فعليك يا دنيا السلامُ
لا تذكرين العيش لى ... فالعيش بعدهمُ حرامُ
إنى رضيعُ وصالهم ... والطفلُ يؤلمه الفِطامُ

ورثى بعضهم محمد بن يحيى بعد موته فقال :

سألت الندى والجودَ ما لى أراكما ... تبدلتُما عِزّا بذل مؤبد ؟
وما بال ركن المجد أمسى مهدّما ... فقالا : أصبنا بابن يحيى محمد
فقلت : فهلا متما بعد موته ... وقد كنتما عبديه فى كل مشهد ؟!
فقالا أقمنا كى نعزى بفقده ... مسافة يوم ثم نتلوه فى غد

وقال آخر :

ولا أرتجى فى الموت بعدك طائلا ... ولا أتقى للدهر بعدك من خَطْبِ

وفى المعنى لبعضهم :

لقد آمنت نفسى المصائبَ بعده ... فأصبحتُ منها آمنا أن أروّعا
فما أتقى للدهر بعدك نكبة ... ولا أرتجى للعيش بعدك مرتعا !

ورثى أشجع السلمى عبد الله بن سعيد فقال :

مضى ابن سعيد حيث لم يبق مَشرقٌ ... ولا مغرب إلا له فيه مادح
وما كنت أدرى ما فواضل كفه ... على الناس حتى غيبته الصفائحُ
وأصبح فى لحد من الأرض مَيتًا ... وكان به حيا تضيق الصحاصح
سأبكيك ما فاضت دموعى فإن تفض ... فحسبك منى ما تُكِنّ الجوانح
وما أنا من رُزء وإن جل جازع ... ولا بسرور بعد فقدك فارح
لئن حسنت فيك المراثى بذكرها ... فقد حسنت من قبلُ فيك المدائح

وقال آخر :

إلى الله أشكو لا إلى الناس أننى ... أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب
أخلاى لو غيرُ الحمام أصابكم ... عتبتُ ولكن ما على الدهر مَعْتِبُ

وقال العباس بن الأحنف :

إذا ما دعوت الصبرَ بعدك والبكا ... أجاب البُكا طوعًا ولم يُجب الصبرُ

فإن ينقطع منك الرجاءُ فإنه ... سيبقى عليك الحزن ما بقى الدهر

وقال آخر يرثى صديقه :

خليلى ما أزداد إلا صبابة ... إليك وما تزداد إلا تنائيا
خليلى لو نفسٌ فدت نفسَ ميّت ... فديتُك مسرورا بنفسى وماليا
وقد كنت أرجو أن تعيشَ وأن أمت ... فحالَ قضاءُ الله دون رجائيا
ألا فليمت من شاء بعدَك إنما ... عليك من الأقدار كان حِذاريا

أخذها بعضهم فقال :

كنتَ السواد لمقلتى ... يبكى عليك الناظرُ
من شاء بعدك فليمتْ ... فعليك كنت أحاذر

وقال آخر يرثى بعض أولاده :

وقاسمنى دهرى بنىّ مُشاطِراً ... فلما تقضى شطره عاد فى شَطْرى
ألا ليت أمى لم تلدنى وليتنى ... سبقتك إذ كنا إلى غاية نجرى
وقد كنتُ ذا نابٍ وظُفر على العِدا ... فأصبحت لا يَخْشَوْن نابى ولا ظفرى

وقال عمر بن الخطاب ﷺ للخنساء : أخبرينى بأفضل بيت قلتِه فى أخيك ، فقالت :

وكنت أُعِيرُ الدمعَ قبلك مَن بكى ... فأنت على من مات بعدك شاغله

لأبى المحاسن الشوّاء فى صديق له مات ، وسقط الثلج عقيب موته :

لم أنسه وبنو الملوك أمامه ... يُدمون للأسف الأكفّ عِضاضا
والثلج قد غطى الرّبا فكأنها ... من حزنها لَبِسَتْ عليه بَياضا

وقال آخر :

وليس صرير النعشِ ما تسمعونه ... ولكنه أصلابُ قوم تقصفوا
وليس نسيم المسك ريّا حنوطُه ... ولكنه ذاك الثناء المخلف

وقال مقاتل بن عطية يرثى الوزير نظام الملك :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة ... يتيمةَ صاغها الرحمن من شَرفِ
عزّت ولم تعرف الأيامُ قيمتها ... فردها عند ما عزت إلى الصدف

وقال آخر :

وقبرتُ وجهك وانصرفت مودّعا ... بأبى وأمى وجهك المقبورُ
وأرى ديارك بعد وجهك قفرة[1] ... والقبر منك مشيد معمور
فالناس كلهم لفقدك واجدٌ ... فى كل بيت رنة وزفيرُ
عجبا لأربع أذرع فى خمسة ... فى جوفها جَبَلٌ أشمّ كبير

وكان رجل توفى ولده فى يوم عيد فقال :

لبس الرجال جديدَهم فى عيدهم ... ولبستُ حزنَ أبى الحسين جديدا
أيسرنى عيدٌ ولم أرَ وجهه ... فيه ألا بُعْداً لذلك عيدا
فارقتُه وبقيت أخلد بعده ... لا كان ذاك بقا ولا تخليدا

(١) القَفْر: القَفْر من الأرض، وهو الخلاء من الأرض لا ماء فيه ولا ناس ولا كلأ، ودار قفر، أي خالية.

من لم يمت جزعا لفقد حبيبه ... فهو الخئون مودة وعهودا
مِتْ مَعْ حبيبك إن قدرت ولا تعِشْ ... من بعده ذا لوعةٍ مكمودا[1]
ما أمُّ خِشْف قد ملا أحشاءها ... حذرا عليه وجفنها تسهيدا
إن نام لم تهجع ، وطافت حوله ... فيبيت مكلوءًا بها مرصودا
مِنّى بأوجَعَ إذ رأيت نوائحا ... لأبى الحسين وقد لطمن خدودا
ولقد عدمتُ أبا الحسين جَلادتى ... لما رأيت جمالك المفقودا
كنت الجليدَ على الرَّزَايَا كلها ... وعلى فراقك لم أجد تجليدا
ولئن بقيت وما هلكت فإن لى ... أجلا وإن لم أحصه معدودا
لا موتَ لى إلا إذا الأجلُ انقضى ... فهناك لا أتجاوز المحدودا
حزنى عليك بقدر حبك لا أرى ... يوما على هذا وذاك مزيدا
ماهُدّ ركنى بالسنين وإنما ... أصبحت بعدك بالأسى مهدودا
ياليت أنى لم أكن لك والداً ... وكذاك أنك لم تكن مولودا
فلقد شقيت وربما شقى الفتى ... بفراق من يهوى وكان سعيدا
من ذم جفنا باخلاً بدموعه ... فعليك جَفنى لم يزل محمُودا
فلأنظمنّ مراثيًا مشهورة ... تُنسى الأنامَ كُثيّراً ولَبيدا
وجميع من نظم القريض[2] مفارقٌ ... ولدا له أو صاحبا مفقودا

وقال الفقيه منصور بن إسماعيل المصرى :

سألت رسوم القبر عمن ثوى به ... لأعلمَ ما لاقى فقالت جوانبه
أتسأل عمن عاش بعد وفاته ... بإحسانه إخوانهُ وأقاربُه

وقال الإمام السبكى - رحمه الله تعالى - يرثى فضل الله العالم :

مصابٌ ليس يُشبهُ مُصابُ ... لذى الألباب إذْ فُقد الشهابُ
إمامٌ قد حوى من كلّ علم ... كنوزاً نحوها يسعى الرّكابُ
لِيبكى كلُّ ذى علم عليه ... فكم عِلم له ضمّ الترابُ
وكم كلم موانع قد أتته ... ثناها وهى عاصية صعابُ
فسلطان البلاغ بغير شك ... شهابُ الدين ما فيه ارتيابُ
سقى اللهُ الكريم سراه صَوْباً ... له من كل رِضوان رُضابُ[3]

وقال الصدفى :

يا غائبًا فى الثرى تَبْلَى محاسنُه ... اللهُ يوليك غُفرانا وإحسانا
إن كنت جُرِّعْتَ كأس الموت واحدة ... فى كل يوم أذوق الموت ألوانا

وقال محمد بن عبد الله العتبى يرثى ابنا له :

أضحَتْ بخدّى للدموع رسُوم ... أسفا عليك وفى الفؤاد كُلوم
والصبرُ يحمدُ فى المواطن كلّها ... إلا عليك فإنه مذموم

وكتب أحمد بن يوسف إلى عمر بن سعيد يرثى بنتا له فقال :

---

(١) مكمودًا: كمد الرجل: حزن حزنًا شديدًا، أو كتم حزنه.
(٢) القريض: الشّعر.
(٣) الرُّضاب: الرِّيق، والبَرَد، وفُتات المسك، ويقال: ماء رُضاب، أي عَذْب.

عجبا للمنون كيف أتتها ... وتخطت عبد الحميد أخاكا
شملتنا مصيبتان جميعا ... فقدنا هذه ورؤية ذاكا !

وله يرثى الأمير يلبغا :

ألا إنما الدنيا غرور وباطل ... فطوبى لمن كفاهُ منها تفرغا
وما عجبى إلا لمن بات واثقا ... بأيام دهرٍ ما رَعى حقّ يَلْبُغا

وقال آخر :

إلى الله أشكو ... من الناس قد أفنى الجِمامُ خيارَها

وقال رجل يرثى صديقا له توفى وكان من الكرماء :

ما درى نعشهُ ولا حاملوه ... ما على النعش من عَفافٍ وجُود

ولبعض الكتاب فى ابن مقلة :

استشعر الكتابُ فقدك سالفا ... وقضت بصحة ذلك الأيام
فلذاك سوّدت الدواة كآبة ... أسفا عليك وشقت الأقلام

وقال الحسن بن مطير الأسدى يرثى معن بن زائدة رحمه الله تعالى :

هلما إلى معن وقولا لقبره ... سقتك الغوادى مَرْبَعًا ثم مَربعَا
فياقبرَ معن كنتَ أوّل حُفرة ... من الأرض خطّت للسماحة مضجعا
ويا قبرَ معن كيف واريتَ جُودَه ... وقد كان منه البَرّ والبحرُ مترعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميت ... ولو كان حيا ضقتَ حتى تصدعا
فتى عاش فى معروفه بعد موته ... أناسٌ لهم بالبرّ قد كان أوسعا
ولما مضى معنٌ مضى الجودُ كلّه ... وأصبح عرنين المكارم أجدعا

وقال آخر :

عجبت لصبرى بعده وهو ميت ... وقد كنت أبكيه دمًا وهو غائب

وقال آخر :

فديتك لم أصبر ولى فيك حيلةٌ ... ولكن دعانى اليأسُ منك إلى الصبر

وقالت ريطة بنت عاصم :

وقفت فأبكتنى ديار عشيرتى ... على رُزئهن الباكياتُ الحواسر
غدوا كسيوف الهند وُرّادَ حومةٍ ... من الموت أعيا وِرْدَهن المصادر
فوارسُ حاموا عن حريمى وحافظوا ... بدار المنايا والقنا متشاجر
ولو أن سَلْمَى نالها مثلُ رُزئنا ... لهُدّت ولكن محمل الرزء عامر

ولما قتل إبراهيم بن عبد الله بن الحسين ، وحُمل رأسه ، إلى المنصور ، وأنفذها المنصور مع الربيع إلى عميه إدريس ومحمد ، وكانا فى حبسه ، وكان أبوه قائما يصلى ، فقال له محمد ، أوجز فأوجز ، وسلم ، فلما أتاه ، وضع الرأس فى حجره ، فقال : أهلا وسهلا يا أبا القاسم ، تالله لقد كنت من الناس الذين قال الله تعالى فى حقهم : ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ [الرعد:٢٠]، ثم قبله بين عينيه وأنشد يقول :

فتى كان يحميه من العار سيفُه ... ويكفيه سوآت الأمور اجتنابُها

ثم قال للربيع : قل لصاحبك المنصور : قد مضى من بؤسنا أيام ، ومن نعمتك أيام ، والملتقى غدا بين يدى الله تعالى : فكان ذلك فألًا على المنصور ، ولم ير بعد ذلك اليوم راحة ، وقيل لحسان ما بالك لم ترث رسول الله ﷺ ؟

قال : لم أر شيئًا إلا رأيته يقصر عنه ! والله أعلم بالصواب . وإليه المرجع والمآب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثالث والثمانون

فى ذكر الدنيا وأحوالها وتقلُّبها بأهلها والزهد فيها

قال الله تعالى : ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧]، فوصف سبحانه تعالى جميع الدنيا بأنها متاع قليل ، وأنت أيها الإنسان تعلم أنك ما أوتيت من القليل إلا قليلا ، ثم إن القليل إن تمتعت به فهو لعب ولهو لقوله تعالى : ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ [الحديد:٢٠]، وقال تعالى : ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤]، فلا تبغ أيها العاقل حياة قليلة ، تفنى ، بحياة كثيرة تبقى ، كما قال ابن عياض : لو كانت الدنيا ذهبًا يفنى ، والآخرة خزفا يبقى لوجب علينا أن نختار ما يبقى على ما يفنى ! ثم تأمل بعقلك هل آتاك الله من الدنيا مثل ما أوتى سليمان عليه السلام حيث ملكه الله تعالى جميع الدنيا . من إنس وجن ، وسخر له الريح والطير والوحوش ، ثم زاده الله تعالى أحسن منها حيث قال : ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص:٣٩]، فوالله ما عدها نعمة مثل ما عددتموها ، ولا حسبها رفعة مثل ما حسبتموها ، بل خاف أن يكون استدراجا من حيث لا يعلم ، فقال : ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠]، وهذا فصل الخطاب لمن تدبر هذا ، وقد قال لك ولجميع أهل الدنيا : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣]، وقال تعالى : ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ** » (١) . وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : « قال لى رسول الله ﷺ: **ألا أريك الدنيا بما فيها ؟** قلت : بلى يا رسول الله ، فأخذ بيدى وأتى إلى واد من أودية المدينة ، فإذا مزبلة فيها رءوس الناس ، وعذرات وخرق بالية ، وعظام البهائم ، فقال : **يا أبا هريرة ، هذه الرءوس كانت تحرص حرصكم ، وتأمل آمالكم ، وهى اليوم صارت عظاما بلا جلد ، ثم هى صائرة عظما رميما ، وهذه العذرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبتموها فى الدنيا ، فأصبحت والناس يتحامونها ، وهذه الخرق البالية رِياشُهم أصبحت والرياح تصفقها ، وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد ، فمن كان باكيا على الدنيا فليبك** قال : فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا » (٢) . وروى « أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على النبى ﷺ وهو على سرير من الليف وقد أثر الشريط فى جنبه ، فبكى عمر رضي الله عنه فقال رسول الله ﷺ: **ما يبكيك يا عمر** ؟ فقال : تذكرت كسرى وقيصر ، وما كانا فيه من سعة الدنيا وأنت رسول الله ، وقد أثر الشريط بجنبك فقال ﷺ: «**هَؤُلَاءِ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِى حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا ، وَنَحْنُ قَوْمٌ أُخِّرَتْ لَنَا طَيِّبَاتُنَا فِى الْآخِرَةِ** » (٣) ، وروى عن الضحاك قال : لما أهبط الله آدم وحوّاء إلى الأرض ، ووجدا ريح الدنيا ، وفقدا ريح الجنة ، غشى عليهما أربعين يوما من نتن الدنيا (٤) ! وعن ابن معاذ قال : الحكمة تهوى من السماء إلى القلوب ، فلا تسكن فى قلب فيه أربع خصال : ركون إلى الدنيا ، وهم عدوّ ، وحسد أخ ، وحب شرف . وعن النبى ﷺ أنه قال لعلى : « **يا علىّ أربع خصال من الشقاء : جمود العين ، وقسوة القلب ، وبعد الأمل ، وحب الدنيا** » (٥) . وروى ابن عباس رضي الله عنهما

---

(١) ذكره العجلونى وعزاه إلى أبى نعيم عن ابن عباس بلفظ « لو وزنت الدنيا عند الله » . . إلخ . ورواه الترمذى والطبرانى وأبو نعيم عن سهل بن سعد يرفعه وقال الترمذى صحيح غريب .

(٢) قال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء . هذا الحديث لم أجد له أصلا .

(٣) حسن : أخرجه أحمد [١/ ٣٠١] ، وابن ماجه [٤١٥٣] ، والحاكم [٤/ ١٠٤] .

(٤) ، (٥) لم أهتد إليه .

أنه قال : يؤتى بالدنيا يوم القيامة على صورة عجوز شمطاء ، زرقاء ، العينين ، أنيابها بادية ، مشوهة الخلق ، لا يراها أحد إلا هرب منها ، فتشرف على الخلائق أجمعين ، فيقال لهم : أتعرفون هذه ؟ فيقولون : لا . نعوذ بالله من معرفة هذه : فيقال : هذه الدنيا التى تفاخرتم بها ، وتقاتلتم عليها[1] وعن الفضيل بن عياض أنه قال : جعل الخير كله فى بيت واحد ، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا ، وجعل الشر كله فى بيت واحد وجعل مفتاحه حب الدنيا . وقيل : إن الدنيا مثل ظل الإنسان إن طلبته فر ، وإن تركته تبعك . وفيه قال بعضهم :

إنما الرزق الذى تطلبه ... يُشبه الظلّ الذى يمشى معك
أنت لا تُدركه متبعا ... وهو إن وليت عنه تبعك

وقد شبهها بعضهم بخيال الظل فقال :

رأيت خيال الظل أعظم عبرة ... لمن كان فى علم الحقائق راقى
شخوصا وأصواتا يخالف بعضُها ... لبعض وأشكالا بغير وفاق
تجىء وتمضى بابة بعد بابة ... وتفنى جميعا والمحرك باقى

وما أحسن ما قال سليمان بن الضحاك :

ما أنعم الله على عبده ... بنعمة أوفى من العافيه
وكل من عوفى فى جسمه ... فإنه فى عيشة راضيه
والمال حلو حسنٌ جيد ... على الفتى لكنه عاريه
ما أحسنَ الدنيا ولكنها ... مع حُسْنها غدّارة فانيه

وتوفى رجل من كندة فكتب على قبره هذه الأبيات :

يا واقفين ألم تكونوا تعلموا ... أن الحمام بكم علينا قادمُ
لو تنزلون بشِعْبنا لعَرفتُمو ... أن المفرّط فى التزوّد نادمُ
لا تستعزوا بالحياة فإنكم ... تبنون والموت المفرّق هادِمُ
ساوِى الرَّدى ما بيننا فى حفرة ... حيث المخدّم واحد والخادم

وقال آخر :

عن قليل أصير كومَ تراب ... وتقول الرفاقُ : هذا فلان
صار تحت التراب عظما رميما ... وجفاه الأصحاب والخلان

وما أحسن ما قال عبد الله بن طاهر :

أليس إلى ذا صار آخر أمرنا ... فلا كانت الدنيا القليل سرورها
فلا تعجبى يا نفسُ مما ترينه ... فكل أمور الناس هذا مصيرها

وقال شرف الدين بن أسد :

يا من تملك ملكا لا بقاء له ... حملت نفسك آثاما وأوزارا
هل الحياة بذى الدنيا وإن عذبت ... إلا كطيف خيال فى الكرى زارا

وقال بعضهم :

وغاية هذى الدار لذةُ ساعةٍ ... ويعقبها الأحزان والهمّ والندمُ
وهاتيك دارُ الأمن والعزّ والتُّقى ... ورحمة رب الناس والجود والكرمُ

---

[1] لم أهتد إليه .

وقال غيره :

حسنتَ ظنّك بالأيام إذ حَسُنَتْ ... ولم تخَفْ سوءَ ما يأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررتَ بها ... وعند صفو الليالى يحدثُ الكدر

وقال آخر :

فإن كنت لا تدرى متى الموت فاعلمن ... بأنك لا تبقى إلى آخر الدهر

ابن آدم ، أين الأوّلون والآخرون ؟! أين نوح شيخ المرسلين ؟! أين إدريس رفيع رب العالمين ؟! أين إبراهيم خليل الرحمن ؟! أين موسى الكليم من بين سائر النبيّين ؟! أين عيسى روح الله وكلمته رأسُ الزاهدين ، وإمام السائحين ؟ أين محمد خاتم النبيين ؟! أين أصحابه الأبرار ؟ أين الأمم الماضية ؟ أين الملوك السالفة ؟ أين القرون الخالية ؟ أين الذين نصبت على مفارقهم التيجان ؟ أين الذين قهروا الأبطال والشجعان ؟ أين الذين دانت لهم المشارق والمغارب ؟ أين الذين تمتعوا باللذات والمشارب ؟ أين الذين تاهوا على الخلائق كبرا وعتيا ؟ أين الذين راحوا فى الحلل بكرة وعشيا ؟ أين الذين اغتروا بالأجناد ؟ أين أصحاب الوزراء والقواد ؟ أين أصحاب السطوة والأعوان ؟ أين أصحاب الإمرة والسلطان ؟ أين أصحاب الأعمال والولايات ؟ أين الذين خفقت على رءوسهم الألوية والرايات ؟ أين الذين قادوا الجيوش والعساكر ؟ أين الذين عمروا القصور والدساكر[1] ؟ أين الذين أعطوا النصر فى مواطن الحروب والمواقف ؟ أين الذين أمنوا بسطوتهم كل خائف ؟ أين الذين ملئوا ما بين الخافقين[2] فخرا وعزا ؟ أين الذين فرشوا القصور حريرا وقزا ؟ أين الذين تضعضعت لهم الأرض هيبة وعزا ؟ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟! أفناهم اللهُ مفنى الأمم ، وأبادهم مُبيد الرمم ! وأخرجهم من سعة القصور إلى ضيق القبور ، تحت الجنادل والصخور ، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ، لم ينفعهم ما جمعوا ، ولا أغنى عنهم ما اكتسبوا ، أسلمهم الأحباء والأولياء ، وهجرهم الإخوان والأصفياء ونسيهم الأقرباء والبعداء ، لو نطقوا لأنشدوا :

مُقيمٌ بالحجون رهينُ رمسٍ ... وأهلى راحلون بكلّ وادِ
كأنى لم أكن لهمو حبيباً ... ولا كانوا الأحبة فى السواد
فعوجوا بالسلام فإن أبيتم ... فأوموا بالسلام على البعاد

وقالوا : لافخر فيما يزول ، ولا غنى فيما لا يبقى ، وهل الدنيا إلا كما قال بعض الحكماء المتقدمين ، قذر يغلى ، وكنيفٌ يُملى ؟! وفى هذا المعنى قال الشاعر :

ولقد سألت الدارَ عن أخبارهم ... فتبسمتْ عجباً ولم تبدى !
حتى مررتُ على الكنيف فقال لى : ... أموالُهم ونوالُهم عندى !

ولقد أصاب ابن السماك حيث قال للرشيد : لما قال له عِظْنى ، وكان بيده شربة ماء ، فقال له : ياأمير المؤمنين، لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك ؟ قال : نعم . قال : ياأمير المؤمنين ، لو شربتها ، وحبست عن الخروج ، أكنت تفديها بملكك ؟ قال : نعم . فقال له : لا خير فى ملك لا يساوى شربة ولا بولة !! وقال ابن شبرمة : إذا كان البدن سقيما ، لم ينفعه الطعام ، وإذا كان القلب مغرما لم تنفعه الموعظة له . وروى أن أبا العتاهية مَرّ بِدُكّان وراق ، وإذا بكتاب فيه :

لا ترجع الأنفس عن غيّها ... ما لم يكن منها لها زاجر

فقال : لِمَن هذا البيت ؟ فقيل : لأبى نواس ، وقاله للخليفة هارون الرشيد حين نهاه عن حب الجمال وعشق الملاح ، فقال : وددت أنه لى بنصف شعرى ! (وممن): استبصر من أبناء الملوك فرأى عيب الدنيا ، وتقضّيها ، وزوالها إبراهيم بن أدهم بن منصور كان من أبناء ملوك خراسان من كورة بلخ ، لما زهد الدنيا زهد فى ثمانين سريرا ،

---

(١) الدَّساكر: جمع دَسْكرة، وهي الأرض المستوية، وبناء كالقصر حول بيوت للأعاجم فيها الشراب والملاهي يكون للملوك، والقرية العظيمة.
(٢) الخافقان: المشرق والمغرب.

قال ابن بشار : سألت إبراهيم بن أدهم كيف كان بدء أمرك ؛ حتى صرت إلى هذا ؟ فقال : كان أبى من ملوك خُراسان ، وكان قد حبب إلىّ الصيد ، فبينا أنا راكب فرسى وكلبى معى ، إذ رأيت ثعلبا أو أرنبا ، فحركت ، فرسى نحوه فسمعت نداء من ورائى : يا إبراهيم ، ما لهذا خلقت ، ولا بهذا أمرت! فوقفت أنظر يمنةً ويسرة فلم أر شيئا ، فقلت : لعن الله الشيطان ، ثم حركت فرسى ، فسمعت نداء أعلى من الأوّل ، ياإبراهيم ما لهذا خلقت! ولا بهذا أمرت ! فوقفت أنظر يمنة ، ويسرة فلم أر شيئا ؛ فقلت : لعن الله الشيطان ، ثم حركت فرسى ، فسمعت النداء من قربوس سرجى ، ياإبراهيم ، ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت ! فوقفت وقلت : هيهات جاءنى النذير من رب العالمين ، والله لا عَصَيْتُ ربى ما عصمنى ، بعد يومى هذا ، فتوجهت إلى أهلى ، وخلفت فرسى وجئت إلى بعض رُعاة أبى فأخذتُ جبّته ، وكِساءه ، وألقيت إليه ثيابى ، فلم أزل أرض تُقِلّنى ، وأرض تضعنى حتى صرتُ إلى العراق ، فعملت بها أياما ، فلم يصفُ لى شىء من الحَلال ، فسألت بعضَ المشايخ عن الحلال فقال : عليك بالشام ، قال : فانصرفت إلى بلد يقال لها : المنصورية ، فعملت بها أياما ، فلم يصف لى شىء من الحلال ، فسألت بعض المشايخ ، فقال : إن أردت الحلال ، فعليك بطرسوُس فإن المباحات بها ، والعمل فيها كثير ، فانصرفت إليها قال : فبينما أنا قاعد على باب البحر إذ جاءنى رجل ، فاكترانى أنظر له بستانا ، فتوجهت معه فأقمت فى البستان أياما ، كثيرة ، فإذا خادم له قد أقبل ، ومعه أصحاب له ، ولو علمت أن البستان بخادم ما نظرته ، فقعد فى مجلسه ، ثم قال : ياناطورنا[1] فأجبته ، قال : اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه ، وأطيبه فأتيته برمان ، فكسر الخادم واحدة ، فوجدها حامضة ، فقال : يا ناطورنا أنت منذ كذا وكذا فى بستاننا تأكل من فاكهتنا ، ورماننا ، و لاتعرف الحلو من الحامض فقلت : والله ما أكلت من فاكهتكم شيئاً ولا أعرف الحلو من الحامض ، قال : فغمز الخادم أصحابه ، وقال : ألا تعجبون من هذا ؟! ثم قال لى : لو كنت إبراهيم بن أدهم ما كنت بهذه الصفة . قال : ثم تحدث الناس بذلك ، وجاءوا إلى البستان ، فلما رأيت كثرة الناس ، اختفيت ، والناس داخلون ، وأنا هارب منهم . وكان يأكل من كسب يده ، وكان يحصد ، ويحفظ البساتين ، ويعمل فى الطين ، فبينما هو يوما يحرس كرما إذ مر به جندى ، فقال : أعطنا من هذا العنب ، فقال له : إن صاحبه لم يأذن لى ، فضربه بالسوط ، فطأطأ رأسه ، وقال : اضرب رأساً طالما عصى الله يا سيدى الجندى ، فاستحى الرجلُ وتركه ومضى ! وروى أن داود عليه السلام بينما هو يسيح فى الجبال إذ مر على غار فيه رجل عظيم الخلقة ، من بنى آدم ، مُلْقًى على ظهره ، وعند رأسه حجر محفور مكتوب فيه : أنا دوسيم الملك ، تملكت ألف عام ، وفتحت ألف مدينة ، وهزمت ألف جيش ، وافتضضت ألف بكر من بنات الملوك ، ثم صرت إلى ما ترى ، التراب فراشى ، والحجر وسادى ، فمن رآنى فلا تغره الدنيا كما غرتنى ، وقال وهب بن مُنبه : خرج عيسى عليه السلام ذات يوم مع أصحابه ، فلما ارتفع النهار ، مروا بزرع قد أفرك ، فقالوا : يا نبى الله ، إنا جياع ، فأوحى الله تعالى إليه ، أن ائذن لهم فى قوتهم ، فأذن لهم ، فتفرقوا فى الزرع يفركون[2] ، ويأكلون ، فبينما هم كذلك إذ جاء صاحب الزرع يقول : زرعى وأرضى ، ورثتها من أبى وجَدى ، فبإذن من تأكلون يا هؤلاء ؟ قال فدعا عيسى ربه ، أن يبعث جميع من ملكها من لدن آدم إلى تلك الساعة ، فإذا عند كل سنبلة ما شاء الله من رجل وامرأة ، يقولون : أرضنا ورثناها عن آبائنا وأجدادنا ، ففر الرجل منهم ، وكان قد بلغه أمر عيسى ، ولكن لا يعرفه ، فلما عرفه قال : معذرة إليك يا نبى الله ، إنى لم أعرفك ، زرعى ومالى حلال لك ، فبكى عيسى عليه السلام وقال : ويحك هؤلاء كلهم ورثوها وعمروها ، ثم ارتحلوا عنها ، وأنت مرتحل عنها ، ولاحق بهم ، ليس لك أرض ولا مال ، ولما مات إسكندر قال أرسطاطاليس : أيها الملك لقد حركتنا بسكونك ، وقال بعض الحكماء من أصحابه : لقد كان الملك أمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس ، أخذه أبو العتاهية فقال :

كفى حزنا بدفنك ثم إنى ... نفضتُ ترابَ قبرِك من يدَيَّا
وكانت فى حياتِك لى عظات ... وأنت اليومَ أوعظُ منك حيا

(١) النَّاطور: النَّاطر، وهو حافظ الكَرْم (العنب) ونحوه.
(٢) فَرَك الشيء: حكّه، يقال: فرك الحمّص: حكّه ليزيل ما عليه من الشقر.

وقال عبد الله بن المعتز :

نسير إلى الآجال فى كل ساعة ... فأيامنا تُطوى وهُنَّ مراحل
ولم أر مثلَ الموت حتى كأنه ... إذا ما تخطته الأمانى باطل
وما أقبحَ التفريط فى زمن الصِّبا ... فكيف به والشيب فى الرأس شاعل ؟!
ترحَّل من الدنيا بزاد من التقى ... فعمرك أيام تعدّ قلائلُ

(وقال) : عبد الله بن المعلم : خرجنا من المدينة حجاجا فإذا أنا برجل من بنى هاشم من بنى العباس بن عبد المطلب قد رفض الدنيا وأقبل على الآخرة ، فجمعتنى وإياه الطريق ، فأنست به ، وقلت له : هل لك أن تعادلنى ؟! فإن معى فضلا من راحلتى ، فجزانى خيرا ، وقال : لو أردت هذا لكان سهلا ، ثم أنس إلىَّ فجعل يحدثنى ، فقال : أنا رجل من ولد العباس كنت أسكن البصرة وكنت ذا كبر شديد ونعمة طائلة ومال كثير وبذخ زائد ، فأمرت يوما خادما لى أن يحشو لى فراشا من حرير ، ومخدة بوردٍ نثير ، ففعل فإنى لنائم إذا بقمع وردة قد نسيه الخادم ، فقمت إليه فأوجعته ضربا ، ثم عدت إلى مضجعى بعد إخراج القمع من المخدة فأتانى آت فى منامى فى صورة فظيعة ، فهزنى ، وقال : أفق من غشيتك ، وانتبه من رقدتك ، ثم أنشأ يقول :

يا خِل إنك إن توسد لينا ... وُسّدت بعدَ اليوم صُمَّ الجندل
فامْهَدْ لنفسك صالحاً تَسْعَدْ به ... فلتندمَنّ غداً إذا لم تفعل

فانتبهت مرعوبا وخرجت من ساعتى هاربا إلى ربى ، كما ترانى ثم أنشأ يقول :

من كان يعلم أن الموتَ يُدركه ... والقبرُ مَسْكَنه والبعث يُخرجه
وأنه بين جناتٍ مُزَخرَفةٍ ... يومَ القيامِة أو نارٍ ستنضجه
فكلّ شىء سِوَى التقوى به سَمَجُ ... ومن أقام عليه مِنه أسمجُه
ترى الذى اتخذ الدنيا له وطنا ... لم يدر أن المنايا سوفَ تزعجه

قال وهب بن منبه : وجدت على قصر غِمدانَ وهو قصرُ سيف بن ذى يزن بأرضِ صنعاءِ اليمن وكان من الملوك الأجلة مكتوبًا بالقلم المسندى ، فترجم بالعربى فإذا هى أبيات جليلة وموعظة عظيمة جميلة : وهى هذه الأبيات :

باتوا على قُلل الأجبال تحرسُهم ... غلب الرجالِ فلم تنفعْهم القُلَلُ
واستنزلوا من أعالى عِزّ معقلهم ... فأسكنوا حُفرَةً يا بئسَ ما نزلوا
ناداهُموا صارخٌ من بعدِ ما دُفنوا ... أين الأسرة والتيجانُ والحُلَلُ
أين الوجوهُ التى كانت محجّبة ... وكان من دونها الأستار والكِلَلُ
فأفصح القبرُ عنهمْ حين ساءلَهُم ... تلك الوجوهُ عليها الدودُ يقتتل
قد طالما أكلوا دهرا وما شربوا ... فأصبحوا بعد ذاك الأكلِ قد أكلوا

وروى أن عيسى عليه السلام كان معه صاحب فى بعض سياحاته ، فأصابهما الجوع وقد انتهيا إلى قرية ، فقال عيسى عليه السلام لصاحبه : انطلق فاطلب لنا طعاما من هذه القرية ، وأعطاه ما يشترى به ، فذهب الرجل ، وقام عيسى عليه السلام يصلى فجاء الرجل بثلاثة أرغفة ، فقعد ينتظر انصراف عيسى من الصلاة ، فأبطأ عليه ، فأكل رغيفا ، وكان عيسى عليه السلام رآه حين جاء ، ورأى الأرغفة ثلاثة فلما انصرف من صلاته ، لم يجد إلا رغيفين فقال له أين الرغيف الثالث ؟ فقال الرجل : ما كانا إلا رغيفين ، فأكلاهما ، ثم مرا على وجوههما ، حتى آتيا على ظباء ترعى فدعا عيسى عليه السلام واحدًا منها فجاءه ، فذكاه ، وأكلا منه ، فقال له عيسى : بالذى أراك هذه الآية ، منَ أكل الرغيف الثالث ؟ فقال : ما كانا إلا اثنين ، ثم مرا على وجوههما حتى جاءا قرية فدعا عيسى ربه أن يُنطق له من يخبره عن حال هذه القرية ، فأنطق الله له لَبِنَةً فسألها عيسى ؛ فأخبرته بكل ما أراد ، وصاحبه يتعجب مما رأى ، فقال له عيسى : بحق من أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث ؟ فقال : ما كان إلا اثنين ، فمرا على وجوههما حتى انتهيا إلى نهر عجاج ، فأخذ عيسى صلوات الله عليه بيد الرجل ، ومشى به على الماء حتى جاوز النهر ، فقال الرجل : سبحان الله : فقال عيسى عليه السلام: بالذى أراك

هذه الآية مَنْ صاحبُ الرغيف الثالث ؟ فقال : ما كانا إلا اثنين ، فمرا على وجوههما ، حتى أتيا قرية ، عظيمة خربة ، وإذا قريب منها ثلاثة لبنات عظام ، وقيل : ثلاثة أكوام من الرمل ، فقال لها : كونى ذهبا بإذن الله فكانت ، فلما رآها الرجل قال : هذا مال ، فقال عيسى : نعم واحدة لى ، وواحدة لك ، وواحدة لصاحب الرغيف الثالث ، فقال الرجل : أنا صاحب الرغيف الثالث ! فقال عليه السلام هى لك كلها ، ثم فارقه عيسى ، وأقام الرجل ليس معه ما يحملها عليه ، فمر ثلاثة نفر ، فقتلوه ، فقال : اثنان منهما للثالث : انطلق إلى القرية ، فأتنا بطعام فانطلق ، فلما غاب قال أحدهما للآخر : إذا جاء قتلناه ، واقتسمنا المال بيننا ، فقال الآخر : نعم ، وأما الذى ذهب ليشترى الطعام فإنه أضمر لصاحبيه السوء وقال : أجعل لهما فى الطعام سما ، فإذا أكلاه ماتا ، وآخذ المال لنفسى فوضع السم ، فى الطعام ، وجاء فقاما إليه فقتلاه وأكلا الطعام فماتا ، فمر بهم عيسى عليه السلام وهم مصرعون حولها ، فقال : هكذا الدنيا تفعل بأهلها ! وقال الهيثم بن عدى : وجد غار فى جبل لبنان زمن الوليد بن عبد الملك وفيه رجل مُسَجًّى على سرير من الذهب ، وعند رأسه لَوح من الذهب أيضا مكتوب فيه بالرومية أنا سبأ بن نُوَاس ، خدمت عيص بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرب ، الأكبر ، وعشت بعده دهرا طويلا ، ورأيت عجبا كثيرا ، ولم أر فيما رأيت أعجب من غافل عن الموت ، وهو يرى مصارع آبائه ، ويقف على قبور أحبائه ، ويعلم أنه صائر إليهم ، ثم لا يتوب ، وقد علمت أن الأجلاف الجُفاة يستنزلوننى عن سريرى ، ويتولونه ، وذلك حين يتغير الزمان ، ويكثر الهذيان ، ويترأس الصبيان ، فمن أدرك هذا الزمان عاش قليلا ، ومات ذليلا . وعن عمرو بن ميمون أنه قال : افتتحنا مدينة بفارس ، فدُلِلْنا على مغارة فيها بيت فيه سرير من الذهب ، عليه رجل عند رأسه لوح مكتوب فيه : أنا بهرام ملك فارس كنت أعتاهم بطشا ، وأقساهم قلبا ، وأطولهم أملا ، وأحرصهم على الدنيا ، قد ملكت البلاد ، وقتلت الملوك ، وهزمت الجيوش ، وأذللت الجبابرة ، وجمعت من الأموال ما لم يجمعه أحد قبلى ، ولم أستطع أن أفتدى به من الموت إذ نزل بى .

ويروى فى الإسرائيليات : أن عيسى عليه السلام بينا هو فى سياحته إذ مر بجمجمة نخرة ، فسأل الله فى أن تتكلم ، فأنطقها الله له ، فقالت : يا نبى الله أنا بلوان بن حفص ، ملك اليمن ، عشت ألف سنة ، ورزقت ألف ولد ، وافتضضت ألف بكر ، وهزمت ألف جيش ، وفتحت ألف مدينة ، فما كان كل ذلك إلا كحلم النائم ، فمن سمع قصتى فلا يغتر بالدنيا ، فبكى عيسى عليه السلام بكاء شديدا حتى غشى عليه ! ووجد مكتوبا على قصر قد خربت أركانه ، وبادت أهله ، وأظلمت نواحيه هذه الأبيات :

هذِى منازلُ أقوام عهدتُهُمُ ... يُوفون بالعهد مُذ بالعهد كانوا وبالذِّمم

تبكى عليهم ديار كان يُطربها ... ترنُّم المجدِ بَينَ الجودِ والكرم

وقيل فى المعنى :

بالله ربِّك كم قصر مررتَ به ... قد كان أعمر باللذات والطرب

نادى غرابُ المنايا فى جوانبه ... وصاح من بعده بالويل والحرب

وفيه :

أيها الرافعُ البناءَ رُوَيداً ... لا يردُّ المنونَ عنك البناءُ

(وحكى): أن رجلين تنازعا فى أرض، فأنطق الله تعالى لبنةً من جدار تلك الأرض: فقالت: إنى كنت ملكا من الملوك، ملكت الدنيا ألف سنة، ثم صرت رميما ألف سنة، ثم أخذنى خزاف، وعملنى إناء فاستعملت ألف سنة، حتى تكسرت وصرت ترابا، فأخذنى طوّاب وعملنى لَبِنًا، وأنا فى هذا الجدار كذا وكذا سنة فلم تتنازعان فى هذه الأرض، وأنتم عنها زائلون؟! وإلى غيرها منقلبون، والله سبحانه وتعالى أعلم. وروى أن ملكا بنى قصرا وقال: انظروا إن كان فيه عيب فأصلحوه، فقال رجل: أرى فيه عيبين فقالوا له: وما هما؟ قال: يموت الملك، ويخرب القصر قال: صدقت، ثم أقبل على الله وترك القصر، والدنيا؟ وقيل سئل الخضر عليه السلام عن أعجب شىء رآه فى الدنيا: مع طول سياحته وقطعه للقفار والفلوات، فقال: أعجب شىء رأيته أنى مررت بمدينة لم أر على وجه الأرض أحسن منها فسألت بعض أهلها: متى بنيت هذه المدينة؟ فقالوا: سبحان الله ! لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا متى بنيت؟ وما زالت كذلك من عهد الطوفان، ثم غبت عنها خمسمائة سنة، ومررت بها فإذا هى خاوية على عروشها، ولم أر أحدًا أسأله، وإذا رعاة غنم فدنوت منهم،

فقلت: أين المدينة التى هاهنا؟ فقالوا: سبحان الله ! لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنه كان هاهنا مدينة، ثم غبت خمسمائة سنة ومررت بها، وإذا موضع تلك المدينة بحر، وإذا غواصون يُخرجون منه شبه الحلية فقلت للغوّاصين: منذ كم هذا البحر هاهنا؟ فقالوا: سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذا البحر من عهد الطوفان؟ فغبت خمسمائة سنة، وجئت فإذا البحر قد غاض ماؤه، وإذا مكانه غَيْضَة، وصيادون يصيدون فيها السمك فى زوارق صغار، فقلت لبعضهم: أين البحر الذى كان هاهنا؟ فقالوا سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنه كان هاهنا بحر فغبت خمسمائة عام، ثم جئت إلى ذلك فإذا هو مدينة على الحالة الأولى، والحصون والقصور، والأسواق قائمة فقلت: لبعضهم أين الغيضة التى كانت هاهنا؟ ومتى بنيت هذه المدينة؟ فقالوا: سبحان الله ! لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذه المدينة على حالها من عهد الطوفان ، فغبت عنها نحو خمسمائة سنة ، ثم أتيت إليها فإذا عاليها سافلها وهى تدخن بدخان شديد ، فلم أر أحدًا أسأله ، ثم أتيت راعيًا فسألته أين المدينة ؟ قال : سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذا المكان هكذا منذ كان . فهذا أعجب شىء رأيته فى سياحتى ! فسبحان مبيد العباد ، ومفنى البلاد ، ووارث الأرض ومن عليها ، وباعث من خلق منها بعد رده إليها (ولبعضهم) :

قف بالديار فهذه آثارهم ... تبكى الأحبة حسرة وتشوقا
كم قد وقفت بها أسائل أهلها ... عن حالها مترحّما أو مشفقا
فأجابنى داعى الهوى فى رسمها ... فارقت من تهوى وعز الملتقى

ولبعضهم :

أيها الربع الذى قد دثرا ... كان عينا ثم أضحى أثرا
أين سكانك ماذا فعلوا ... خبرن عنهم سقيت المطرا
فلقد نادى منادى دارهم ... رَحَلُوا واستودعونى عبرا

وقال عيسى عليه السلام أوحى الله إلى الدنيا مَن خَدَمنى فاخدميه ، ومن خدمك فاستخدميه ، يا دنيا مرى على أوليائى ، ولا تحلى لهم فتفتنيهم . وقال بعض الحكماء : الدنيا كالماء المالح ، كلما ازداد صاحبها شربا ازداد عطشا ، أو كالكأس من عسل وفى أسفله سم ، فللذائق منه حلاوة عاجلة ، وفى أسفله الموت ، أو كحلم النائم يفرح فى منامه ، فإذا استيقظ زال فرحه ، أو كالبرق يضىء قليلا ثم يذهب . ولما بنى المأمون قصره الذى ضرب به المثل نام فيهِ فسمع قائلا يقول :

أتبنى بناءَ الخالدين وإنما ... بقاؤك فيها إن عقلت قليلُ
لقد كان فى ظل الأراك كفاية ... لمن كل يوم يقتضيه رحيلُ

قال : فلم يلبث بعدها إلا قليلا ومات ، وقال :

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابضٍ ... على الماء خانته فروجُ الأصابع

ووجد مكتوبا على قصر بادَ أهلُه :

هذى منازلُ أقوام عهدتُهم ... فى خفضِ عيشٍ نفيسٍ ماله خَطَرُ
صاحت بهم نائباتُ الدهر فانقلبوا ... إلى القبور فلا عين ولا أثر

ولو قيل للدنيا : صفى نفسك ما عدّت ما وصفها به أبو نواس بقوله :

وما الناسُ إلا هالك وابنُ هالكٍ ... وذو نسبٍ فى الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفت ... له عن عدوّ فى ثياب صديق

وروى أن علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه لما رجع من صِفين ، ودخل أوائل الكوفة رأى قبرا فقال : قبر من هذا ؟ فقالوا : قبر خباب بن الأرت ، فوقف عليه ، وقال : رحم الله خبابا أسلم راغبا ، وهاجر طائعا ، وعاش مجاهدا ، وابتلى فى جسمه آخراً ، ألا وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ثم مشى فإذا هو بقبور ، فجاء حتى وقف عليها وقال : السلام عليكم أهل الديار الموحشة ، والمحالّ المقفرة ، أنتم لنا سلف ، ونحن لكم تبع ، وبكم عما قليل لاحقون ،

اللهم اغفر لنا ولهم ، وتجاوز عنا وعنهم ، طوبى لمن ذكر المعاد وعمل ليوم الحساب ، وقنع بالكفاف ، ورضى عن الله تعالى ، ثم قال : يا أهل القبور أما الأزواج فقد نكحت ، وأما الديار فقد سُكنت ، وأما الأموال فقد قُسّمت ، وهذا ما عندنا فما عندكم ؟ ثم التفت إلى أصحابه وقال : أما إنهم لو تكلموا لقالوا : وجدنا خير الزاد التقوى ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

الباب الرابع والثمانون

فيما جاء فى فضل الصلاة على رسول الله ﷺ وهو آخر الأبواب ، وبه يختم الكتاب

ولنذكر أربعين حديثا فى فضل الصلاة على النبى ﷺ

(الحديث الأوّل) : عن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ «من صلى علىّ صلت عليه الملائكة ، ومن صلّت عليه الملائكة صلى الله عليه ، ومن صلى الله عليه ، لم يبق شىء فى السموات ولا فى الأرض إلا صلى عليه » [(١)] .

(الحديث الثانى) : قال رسول الله ﷺ « مَنْ صَلَّى علىّ صلاة واحدة أمر الله حافظيه أن لا يكتبا عليه ذنبا ثلاثة أيام » [(٢)] .

(الحديث الثالث) : قال رسول الله ﷺ «من صلى علىّ مرة خلق الله من قوله ملكا له جناحان : جناح بالمشرق وجناح بالمغرب رأسه وعنقه تحت العرش ، وهو يقول : اللهم صلّ على عبدك مادام يصلى على نبيك » [(٣)] .

(الحديث الرابع) : قال رسول الله ﷺ «من صلى علىّ مرة صلى الله عليه بها عشرا ، ومن صلى علىّ عشراً صلى الله عليه بها مائة . ومن صلى علىّ مائة صلى الله عليه بها ألفا ، ومن صلى علىّ ألفًا لم يعذبه الله بالنار » [(٤)] .

(الحديث الخامس) : قال رسول الله ﷺ « مَنْ صَلَّى عَلَىَّ مَرَّةً كَتَبَ اللّٰهُ لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ ، وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ ، وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ » [(٥)] .

(الحديث السادس) : قال رسول الله ﷺ « أتانى جبريل يوما وقال : يا محمد جئتك ببشارة لم آت بها أحدا قبلك وهى : أن الله تعالى يقول لك : من صلى عليك من أمتك ثلاث مرات ، غفر الله له إن كان قائما قبل أن يقعد ، وإن كان قاعدا غفر له قبل أن يقوم ، فعند ذلك خر ساجدا لله شاكرا » [(٦)] .

(الحديث السابع) : قال رسول الله ﷺ « من صلى علىّ فى صباحِ عشرا مُحيت عنه ذنوب أربعين سنة » [(٧)] .

(الحديث الثامن) : قال رسول الله ﷺ « من صلى علىّ ليلة الجمعة ، أو يوم الجمعة مائة مرة غفر الله له خطيئة ثمانين سنة » [(٨)] .

(الحديث التاسع) : قال رسول الله ﷺ « من صلى علىّ ليلة الجمعة أو يوم الجمعة مائة قضى الله له مائة حاجة ، ووكل الله به ملكا حين يدفن فى قبره ، يبشره كما يدخل أحدكم على أخيه بالهدية » [(٩)] .

---

(١) الحديث الأول : لم أهتد إليه .
(٢) الحديث الثانى : لم أهتد إليه .
(٣) الحديث الثالث : أورده السخاوى فى القول البديع : « وهو حديث منكر . . » .
(٤) الحديث الرابع : لم أهتد إليه .
(٥) الحديث الخامس : رواه الإمام أحمد فى المسند عن أبى نعيم ورواه ابن حبان فى صحيحه والحاكم فى المستدرك .
(٦) الحديث السادس : لم أهتد إليه .
(٧) الحديث السابع : لم أهتد إليه .
(٨) الحديث الثامن : موضوع وانظر : « القول البديع » . للسخاوى [ص ١٩٧] .
(٩) الحديث التاسع : انظر المرجع السابق .

(الحديث العاشر): قال رسول الله ﷺ: «من صلى علىّ فى يوم مائة مرة، قضيت له فى ذلك اليوم مائة حاجة» [١].

(الحديث الحادى عشر): قال رسول الله ﷺ: «أقربكم منى مجلسا أكثركم علىّ صلاة» [٢].

(الحديث الثانى عشر): قال رسول الله ﷺ: «من صلى علىّ ألف مرة بشر بالجنة قبل موته» [٣].

(الحديث الثالث عشر): قال رسول الله ﷺ: «جاءنى جبريل عليه السلام وقال لى: يا رسول الله، لا يصلى عليك أحد إلا ويصلى عليه سبعون ألفا من الملائكة» [٤].

(الحديث الرابع عشر): قال رسول الله ﷺ: «الدعاء بعد الصلاة علىّ لا يرد» [٥].

(الحديث الخامس عشر): قال رسول الله ﷺ: «الصلاة علىّ نور على الصراط»، وقال ﷺ «لا يلج النار من يصلى علىّ» [٦].

(الحديث السادس عشر): قال رسول الله ﷺ: «من جعل عبادته الصلاة علىّ قضى الله له حاجة الدنيا والآخرة» [٧].

(الحديث السابع عشر): قال رسول الله ﷺ: «من نسى الصلاة علىّ أخطأ طريق الجنة» [٨].

(الحديث الثامن عشر): قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة فى الهواء بأيديهم قراطيس من نور لا يكتبون إلا الصلاة علىّ، وعلى أهل بيتى» [٩].

(الحديث التاسع عشر): قال رسول الله ﷺ: «لو أن عبدا جاء يوم القيامة بحسنات أهل الدنيا، ولم تكن فيها الصلاة علىّ ردت عليه ولم تقبل منه» [١٠].

(الحديث العشرون): قال رسول الله ﷺ: «أولى الناس بى أكثرهم علىّ صلاة» [١١].

(الحديث الحادى والعشرون): قال رسول الله ﷺ: «من صلى علىّ فى كتاب لم تزل الملائكة تصلى عليه مالم يندرس اسمى من ذلك الكتاب» [١٢].

(الحديث الثانى والعشرون): قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغونى الصلاة علىّ من أمتى فأستغفر لهم» [١٣].

(الحديث الثالث والعشرون): قال رسول الله ﷺ: «من صلى علىّ كنت شفيعه يوم القيامة، ومن لم يصل علىّ فأنا برىء منه» [١٤].

(الحديث الرابع والعشرون): قال رسول الله ﷺ: «يؤمر بقوم إلى الجنة فيخطئون الطريق قالوا: يا رسول الله، ولم ذاك؟ قال: سمعوا اسمى ولم يصلوا علىّ» [١٥].

(الحديث الخامس والعشرون): قال رسول الله ﷺ: «يؤمر برجل إلى النار فأقول: ردوه إلى الميزان، فأضع له شيئا كالأنملة معى فى ميزانه وهو الصلاة علىّ فترجح ميزانه، وينادى: سعد فلان» [١٦].

---

(١) الحديث العاشر: موضوع: انظر المرجع السابق.
(٢) الحديث الحادى عشر: لم أهتد إليه.
(٣) الحديث الثانى عشر: لم أهتد إليه.
(٤) الحديث الثالث عشر: لم أهتد إليه.
(٥) الحديث الرابع عشر: لم أهتد إليه.
(٦) الحديث الخامس عشر: لم أهتد إليه.
(٧) الحديث السادس عشر: لم أهتد إليه.
(٨) الحديث السابع عشر: رواه الطبرانى فى معجمه، ورواه ابن ماجه فى سننه عن جبارة بن مغلس، قال البخارى: مضطرب الحديث، وهذا الحديث من مناكيره.
(٩) الحديث الثامن عشر: لم أهتد إليه.
(١٠) الحديث التاسع عشر: لم هتد إليه.
(١١) الحديث العشرون: أخرجه الترمذى من حديث ابن مسعود، وقال حسن غريب.
(١٢) الحديث الحادى والعشرون: أخرجه الطبرانى فى الأوسط وأبو الشيخ فى الثواب، والمستغفرى فى الدعوات، بسند ضعيف.
(١٣) الحديث الثانى والعشرون: قال ابن القيم فى جلاء الأفهام رواه النسائى وهذا بإسناد صحيح، ورواه ابن حاتم بن حبان فى صحيحه.
(١٤) الحديث الثالث والعشرون: لم أهتد إليه.
(١٥) الحديث الرابع والعشرون: لم أهتد إليه.
(١٦) الحديث الخامس والعشرون: لم أهتد إليه.

(الحديث السادس والعشرون) : قال رسول الله ﷺ : « ما اجتمع قوم فى مجلس ، ولم يصلّ على فيه إلا تفرقوا كقوم تفرقوا عن ميت ولم يغسلوه » (١) .

(الحديث السابع والعشرون) : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى وكل بقبرى مَلَكاً أعطاه أسماء الخلائق كلها ، فلا يصلى على أحد إلى يوم القيامة إلَّا بلغنى اسمه وقال : يا رسول الله إن فلان ابن فلانة صلى عليك » (٢) .

(الحديث الثامن والعشرون) : عن أبى بكر الصديق ﷺ أنه قال : «الصلاة على النبى ﷺ أمحى للذنوب من الماء لسواد اللوح » (٣) .

(الحديث التاسع والعشرون) : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام إن أردت أن أكون إليك أقرب من كلامك إلى لسانك ، ومن روحك لجسدك ، فأكثر الصلاة على النبى الأمى ﷺ » (٤) .

(الحديث الثلاثون) : قال رسول الله ﷺ : « إن ملكا أمره الله تعالى باقتلاع مدينة غضب عليها ، فرحمها ذلك الملك ولم يبادر إلى اقتلاعها ، فغضب الله عليه وكسر أجنحته ، فمر به جبريل عليه السلام فشكا له حاله ، فسأل الله فيه ، فأمره أن يصلى على النبى ﷺ ، فصلى عليه ، فغفر الله له ، ورد عليه أجنحته ببركة الصلاة على النبى ﷺ » (٥) .

(الحديث الحادى والثلاثون) : عن عائشة رضى الله عنها قالت : « من صلى على رسول الله ﷺ عشر مرات ، وصلى ركعتين ، ودعا الله تعالى تقبل صلاته ، وتقضى حاجته ، ودعاؤه مقبول غير مردود » (٦) .

(الحديث الثانى والثلاثون) : عن زيد بن حارثة قال : « سألت رسول الله ﷺ عن الصلاة عليه فقال ﷺ : « صلوا علىّ ، واجتهدوا فى الدعاء وقولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد » (٧) .

(الحديث الثالث والثلاثون) : عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « صَلُّوا علىّ فإن صلاتكم علىّ زكاة لكم ، واسألوا الله لى الوسيلة » (٨) .

(الحديث الرابع والثلاثون) : عن سهل بن سعد الساعدى أن النبى ﷺ قال : « لا صلاة لمن لم يصل على نبيه ﷺ » (٩) .

(الحديث الخامس والثلاثون) : عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علىّ » (١٠) .

(الحديث السادس والثلاثون) : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال : جزى الله عنا محمدا خيرا ، وجزى الله نبينا محمدا بما هو أهله ، فقد أتعب كاتبيه » (١١) .

(الحديث السابع والثلاثون) : عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم » (١٢) .

(الحديث الثامن والثلاثون) : عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ أَحَدٍ يُصَلِّى عَلَىَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَىَّ رُوحِى حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ » (١٣) .

---

(١) الحديث السادس والعشرون : لم أهتد إليه .
(٢) الحديث السبع والعشرون : لم أهتد إليه .
(٣) الحديث الثامن والعشرون : لم أهتد إليه .
(٤) الحديث التاسع والعشرون : لم أهتد إليه .
(٥) الحديث الثلاثون : لم أهتد إليه .
(٦) الحديث الحادى والثلاثون : لم أهتد إليه .
(٧) الحديث الثانى والثلاثون : لم أهتد إليه .
(٨) الحديث الثالث والثلاثون : ضعيف : أخرجه القاضى إسماعيل فى فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم [٤٦] . والحارث بن أبى أسامة برقم [١٠٦٨- زوائده] . وانظر تعليق الأستاذ / مسعد السعدنى على زوائد الحارث - ط . مكتبة دار الطلائع بمصر .
(٩) الحديث الرابع والثلاثون : لم أهتد إليه .
(١٠) الحديث الخامس والثلاثون : رواه الترمذى وقال : وفى الباب عن جابر وأنس ، وهذا حديث حسن غريب . والجزء المذكور مقدمة الحديث .
(١١) الحديث السادس والثلاثون : لم أهتد إليه .
(١٢) الحديث السابع والثلاثون : رواه أبو يعلى فى مسنده .
(١٣) الحديث الثامن والثلاثون : صحيح : أخرجه إسماعيل القاضى فى « فضل الصلاة على النبى ﷺ » . برقم [٢٠] .

(الحديث التاسع والثلاثون) : قال رسول الله ﷺ : « أقربكم منى منزلا يوم القيامة أكثركم على صلاة »[١] .

(الحديث الأربعون) : نقل الشيخ كمال الدين الدميرى رحمه الله تعالى عن شفاء الصدور لابن سبع أن النبى ﷺ قال : « من سره أن يلقى الله وهو عليه راض فليكثر من الصلاة علىّ فإنه مَنْ صلى علىّ فى كل يوم خمسمائة مرة لم يفتقر أبدا ، وهدمت ذنوبه ، ومحيت خطاياه ، ودام سروره ، واستجيب دعاؤه ، وأعطى أمله ، وأعين على عدوه ، وعلى أسباب الخير ، وكان ممن يرافق نبيه فى الجنان »[٢] ، اللهم صلِّ على سيد المرسلين وخاتم النبيين ، ورسول رب العالمين ، الذى أنزل عليه فى محكم الكتاب العزيز تعظيما له وتوقيرا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٧]، فهذا خطاب خاص الخاص ولم يخاطب الله أحدا من المرسلين ولا من الأنبياء بالرسالة ولا بالنبوّة إلا سيد خلقه محمدا ﷺ ، فإن الله تعالى نادى أبا البشر يا آدم ﴿ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ [الأعراف:١٩]، ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا ﴾ [هود:٤٨]، ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآ ﴾ [هود:٧٦]، و﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [ص:٢٦]، ﴿ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي ﴾ [المائدة:١١٠]، وقال لمحمد ﷺ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ ﴾ [المائدة:٦٧]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ﴾ [المائدة:٤١]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنفال:٦٤]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِ ﴾ [الأنفال:٦٥]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴾ [التحريم:٩]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ [الطلاق:١]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ [التحريم:١]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب:١]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦]، وما ذكره باسمه ﷺ كغيره إلا فى أربعة مواضع : اقتضت الحكمة أن يذكر هناك باسمه محمد ﷺ .

الأول : قوله - عز وجل - : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ ﴾ [آل عمران:١٤٤]، لأن سبب إنزالها أن الشيطان صاح يوم أحد : قد قتل محمد ، وكان ما كان ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ولو قال : وما رسولى لقال الأعداء ليس هو محمدا فذكره ، باسمه لأنهم ما كانوا ينكرون أن اسمه محمد .

الثانى : قوله - عز وجل - : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ ﴾ [الأحزاب:٤٠].

الثالث : قوله - عزوجل - : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ ﴾ [محمد:١-٢]، فلو قال : وآمنوا بما نزل على رسولى لقال الأعداء : ليس هو ، فعرفه باسمه محمد ﷺ .

الرابع : قوله - عز وجل - : ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ ﴾ [الفتح:٢٩]، والحكمة فى ذكره هنا باسمه أنه سبحانه وتعالى قال قبلها : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [الصف:٩]، فكان من الأعداء من يقول من هو رسوله الذى أرسله ؟ فعرفه باسمه فقال : محمد رسول الله ، وسماه تعالى باسمه أحمد فى موضع واحد ، وله حكمته ، وهى : أن الله تعالى لما أرسل عيسى ابن مريم عليه السلام قال لقومه من بنى إسرائيل : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ ﴾ [الصف:٦]، التى أنزلت على موسى ﴿ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ ﴾ [الصف:٦]، لأنهم كانوا يعرفونه فى التوراة أحمد ، فما ناداه سبحانه وتعالى باسمه محمد ، ولا أحمد ، وإنما ذكر ذلك إعلاما به ، وتعريفا له ، وما ناداه إلا بالنبوّة والرسالة ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦]، أى : شاهدا بالإيمان للمؤمنين ، ومبشراً لأهل التمجيد ، ونذيرا لأهل التجحيد وقيل : شاهداً لأهل القرآن ، ومبشرا لهم بالغفران ، ونذيراً لأهل الكفر والعصيان ، وقيل : شاهدا لأمتك ومبشرا بشفاعتك ؟ ونذيرا لمن ارتكب مخالفتك ، وقيل : شاهداً بالمنة ، ومبشراً بالجنة ، وقوله : وداعيا إلى الله بإذنه ، أى يدعو الناس ، بأمر الله تعالى إلى لا إله إلا الله قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ ﴾ [الجن:١٩]، وسمى رسول الله ﷺ

---

(١) الحديث التاسع والثلاثون : منكر وأخرج البيهقى فى « حياة الأنبياء » . برقم [١٤] . حديثاً قريباً منه . وانظر الخير الكثير فى الصلاة على البشير النذير لزين الدين الشافعى ، تحقيق الأستاذ / طارق الطنطاوى ، وطبع مكتبة القرآن .

(٢) الحديث الأربعون : لم أهتد إليه .

نفسه داعيا فقال : « أنا الدّاعى إلى الله »[1] ، وقوله تعالى : ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب:٤٦]، أى : يهتدى به كما يهتدى بالسراج فى ظلمة الليل ، فإن قلت ما الحكمة فى قوله تعالى وسراجا منيرا ؟ ولم يقل قمرا منيرا ، فالجواب عن ذلك أن السراج أعم من القمر ، لأن المراد بالسراج هنا الشمس ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح:١٦]، والشمس أعم نفعا ونورا من القمر ، وقيل : المراد بقوله تعالى : ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ ، السراج الذى يقتبس منه ، لأنه القمر لا تصل إليه الأيدى حتى يقتبس منه ، والسراج إذا كان فى بلد يملأ ذلك البلد نورا ، لأن كل من جاء يقتبس منه ، والقمر ليس كذلك ، ولهذا كانت الدنيا قبل ولادته ﷺ ظلاما ، فلما ولد ظهر سراج دينه ، بمكة فكان أوّل من اقتبس من الرجال أبو بكر ، ومن النساء خديجة ، ومن الشباب علىّ ، ومن الموالى زيد ، ومن العبيد بلال ﷺ أجمعين ، وجاء سلمان من أرض فارس فاقتبس ، وصهيب من الروم ، وبلال من الحبشة ، ووفد الوفود واقتبسوا ، وأبو لهب إلى جانب البيت ، ولم يقتبس ، واقتبس الناس من مشارق الأرض ومغاربها ، حتى امتلأت الأرض من نور سراجه فهو ﷺ أعظم الأنبياء ، وأكرم المرسلين ، وسيد الخلق أجمعين ، لم يخلق الله أحسن ، ولا أجمل ، ولا أكمل ، ولا أفضل ، ولا أفصح ، ولا أرجح ، ولا أسمح ، ولا أصبح ، ولا أجل ، ولا أعظم ، ولا أسخى ، ولا أكرم ، ولا أبهى ، ولا أنصف ، ولا أعدل منه ﷺ ، فلو أن البحار مداد ، والنبات أقلام ، وجميع الخلق تكتب معجزاته ﷺ لعجزوا عن وصف نزر النزر من معجزاته ﷺ ، اللهم اجعلنا من خالص أمته ، واحشرنا فى زمرته ، وأمتنا على محبته ، ولا تخالف بنا عن ملته ، ولا عما جاء به برحمتك يا أرحم الراحمين آمين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى عدد ما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون .

(١) حديث « أنا الداعى إلى الله » . لم أقف عليه .

فهرس المحتويات

مقدمة التحقيق ٣

المؤلف وعصره وكتابه ٣

مقدمة المؤلف ٧

الباب الأول: فى مبانى الإسلام، وفيه خمسة فصول ١١

الفصل الأول: فى الإخلاص لله تعالى والثناء عليه ١١

الفصل الثانى: فى الصلاة وفضلها ١٢

فضل السواك والأذان ١٤

الفصل الثالث: فى الزكاة وفضلها ١٥

الفصل الرابع: فى الصوم وفضله وما أعد الله للصائم من الأجر والثواب ١٨

الفصل الخامس: فى الحج وفضله ١٩

الباب الثانى: فى العقل والذكاء، والحمق وذمه ، وغير ذلك ٢١

الباب الثالث: فى القرآن وفضله، وحرمته، وما أعد الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم، والأجر الجسيم ٢٥

الباب الرابع: فى العلم والأدب وفضل العالم والمتعلم ٢٨

الباب الخامس: فى الآداب والحكم وما أشبه ذلك ٣٥

الباب السادس: فى الأمثال السائرة وفيه فصول ٣٨

الفصل الأول: فيما جاء من ذلك فى القرآن العظيم، وأحاديث النبى الكريم ﷺ ٣٨

الفصل الثانى: فى أمثال العرب ٤٠

الفصل الثالث: فى أمثال العامة والمولدين ٤١

الفصل الرابع: فى الأمثال من الشعر المنظوم مرتبة على حروف المعجم ٤١

الفصل الخامس: فى الأمثال السائرة بين الرجال والنساء مرتبة على حروف المعجم ٤٧

أمثال النساء ٥٢

الباب السابع: فى البيان والبلاغة والفصاحة، وذكر الفصحاء من الرجال والنساء، وفيه فصول ٥٦

الفصل الأول: فى البيان والبلاغة ٥٦

الفصل الثانى: فى الفصاحة ٥٧

الفصل الثالث: فى ذكر الفصحاء من الرجال ٦٢

من حكايات الفصحاء ونوادر البلغاء ٦٧

ذكر فصحاء النساء وحكاياتهن ٧١
الباب الثامن: في الأجوبة المسكتة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك ٧٥
الباب التاسع: في ذكر الخطب والخطباء والشعر والشعراء وسرقاتهم، وكبوات الجياد، وهفوات الأمجاد ٧٩
فصل في ذكر الشعر والشعراء وسرقاتهم ٧٩
مما جاء في كبوات الجياد وهفوات الأمجاد ٨٤
الباب العاشر: التوكل على الله تعالى والرضا بما قسم، والقناعة وذم الحرص والطمع، وما أشبه ذلك وفيه فصول ٨٥
الفصل الأول: في التوكل على الله تعالى ٨٥
الفصل الثاني: في القناعة والرضا بما قسم الله ٨٨
الفصل الثالث: في ذم الحرص والطمع وطول الأمل ٩٢
مما جاء في الطمع وذمه ٩٣
الباب الحادي عشر: في المشورة والنصيحة والتجارب، والنظر في العواقب ٩٤
مما جاء في النصيحة ٩٨
الباب الثاني عشر: في الوصايا الحسنة، والمواعظ المستحسنة، وما أشبه ذلك ٩٩
الباب الثالث عشر: في الصمت، وصون اللسان، والنهي عن الغيبة، والسعي بالنميمة، ومدح العزلة، وذم الشهرة، وفيه فصول ١٠٤
الفصل الأول: في الصمت وصون اللسان ١٠٤
الفصل الثاني: في تحريم الغيبة ١٠٥
الفصل الثالث: في تحريم السعاية بالنميمة ١٠٦
الباب الرابع عشر: في الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام، وما يجب للسلطان على الرعية، وما يجب لهم عليه ١١٠
الباب الخامس عشر: فيما يجب على من صحب السلطان، والتحذير من صحبته ١١٢
الباب السادس عشر: في ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم، وما أشبه ذلك ١١٤
الباب السابع عشر: في ذكر الحجاب والولاية، وما فيها من الغرر والخطر ١١٥
الباب الثامن عشر: فيما جاء في القضاء، وذكر القضاة، وقبول الرشوة والهدية على الحكم، وما يتعلق بالديون، وذكر القصاص، والمتصوفة وفيه فصول ١٢٠
الفصل الأول: فيما جاء في القضاء وذكر القضاة وأحوالهم وما يجب عليهم ١٢٠
الفصل الثاني: في الرشوة والهدية على الحكم وما جاء في الديون ١٢٢
الفصل الثالث: في ذكر القصاص والمتصوفة وما جاء في الرياء ونحو ذلك ١٢٣
الباب التاسع عشر: في العدل والإحسان والإنصاف وغير ذلك ١٢٤
الباب العشرون: في الظلم وشؤمه، وسوء عواقبه، وذكر الظلمة وأحوالهم، وغير ذلك ١٢٧

الباب الحادى والعشرون: فى بيان الشروط التى تؤخذ على العمال، وسيرة السلطان فى استجباء الخراج، وأحكام أهل الذمة وفيه فصلان ١٣٢
الفصل الأول: فى سيرة السلطان فى استجباء الخراج والإنفاق من بيت المال وسيرة العمال ١٣٢
الفصل الثانى: فى أحكام أهل الذمة ١٣٥
الباب الثانى والعشرون: فى اصطناع المعروف، وإغاثة الملهوف، وقضاء الحوائج للمسلمين وإدخال السرور عليهم ١٣٧
الباب الثالث والعشرون: فى محاسن الأخلاق ومساويها ١٣٩
الباب الرابع والعشرون: فى حسن المعاشرة والمودة، والأخوة، والزيارة وما أشبه ذلك ١٤٣
الباب الخامس والعشرون: فى الشفقة على خلق الله تعالى، والرحمة بهم، وفضل الشفاعة، وإصلاح ذات البين، وفيه فصلان ١٥١
الفصل الأول: فى الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم ١٥١
الفصل الثانى: فى الشفاعة وإصلاح ذات البين ١٥١
الباب السادس والعشرون: فى الحياء والتواضع ولين الجانب، وخفض الجناح، وفيه فصلان . ١٥٣
الفصل الأول: فى الحياء ١٥٣
الفصل الثانى: فى التواضع، ولين الجانب، وخفض الجناح ١٥٣
الباب السابع والعشرون: فى العجب والكبر والخيلاء وما أشبه ذلك ١٥٤
الباب الثامن والعشرون: فى الفخر والمفاخرة، والتفاضل والتفاوت ١٥٥
الباب التاسع والعشرون: فى الشرف والسؤدد وعلو الهمة ١٦٢
الباب الثلاثون: فى الخير والصلاح، وذكر السادة الصحابة وذكر الأولياء والصالحين ١٦٤
الباب الحادى والثلاثون: فى مناقب الصالحين وكرامات الأولياء ١٧٣
الباب الثانى والثلاثون: فى ذكر الأشرار والفجار وما يرتكبون من الفواحش، والوقاحة والسفاهة ١٨١
الباب الثالث والثلاثون: فى الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق، واصطناع المعوف وذكر الأمجاد، وأحاديث الأجواد ١٨٣
الباب الرابع والثلاثون: فى البخل والشح، وذكر البخلاء وأخبارهم وما جاء عنهم ١٩٨
الباب الخامس والثلاثون: فى الطعام وآدابه، والضيافة وآداب المضيف والضيف، وأخبار الأكلة، وما جاء عنهم ، وغير ذلك ٢٠٥
الباب السادس والثلاثون: فى العفو، والحلم، والصفح، وكظم الغيظ، والاعتذار وقبول المعذرة والعتاب وما أشبه ذلك ٢١٧
الباب السابع والثلاثون: فى الوفاء بالوعد، وحفظ العهد، ورعاية الذمم ٢٢٨
الباب الثامن والثلاثون: فى كتمان السر وتحصينه، وذم إفشائه ٢٣٦
الباب التاسع والثلاثون: فى الغدر والخيانة، والسرقة والعداوة والبغضاء، والحسد وفيه فصول ٢٣٨
الفصل الأول: فى الغدر والخيانة ٢٣٨

الفصل الثانى: فى السرقة والسراق ٢٤١
الفصل الثالث: فيما جاء فى العداوة والبغضاء ٢٤١
الفصل الرابع: فى الحسد ٢٤٤
الباب الأربعون: فى الشجاعة وثمرتها، والحروب وتدبيرها، وفضل الجهاد وشدة البأس، والتحريض على القتال وفيه فصلان ٢٤٦
الفصل الأول: فى فضل الجهاد فى سبيل الله وشدة البأس ٢٤٦
الفصل الثانى: فى الشجاعة وثمرتها، والحروب وتدبيرها ٢٤٧
الباب الحادى والأربعون: فى ذكر أسماء الشجعان، وذكر الأبطال وطبقاتهم أخبارهم، وذكر الجبناء وأخبارهم، وذم الجبن ٢٥١
الطبقة الأولى الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ٢٥١
الطبقة الثانية ٢٥٤
الطبقة الثالثة ٢٥٦
الباب الثانى والأربعون: فى المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة وفيه فصول ٢٦١
الفصل الأول: فى المدح والثناء ٢٦١
الفصل الثانى: فى شكر النعمة ٢٦٨
الفصل الثالث: فى المكافأة ٢٧١
الباب الثالث والأربعون: فى الهجاء ومقدماته ٢٧٦
الباب الرابع والأربعون: فى الصدق والكذب وفيه فصلان ٢٨٢
الفصل الأول: فى الصدق ٢٨٢
الفصل الثانى: فى الكذب وما جاء فيه ٢٨٣
الباب الخامس والأربعون: فى بر الوالدين، وذم العقوق، وذكر الأولاد، وما يجب لهم وعليهم وصلة الرحم والقرابات وذكر الأنساب وفيه فصول ٢٨٥
الفصل الأول: فى بر الوالدين وذم العقوق ٢٨٥
الفصل الثانى: فى الأولاد وحقوقهم، وذكر النجباء والأذكياء والبلداء والأشقياء ٢٨٦
الفصل الثالث: فى ذكر الأنساب والأقارب والعشيرة ٢٨٨
الباب السادس والأربعون: فى الخلق وصفاتهم وأحوالهم، وذكر الحسن والقبيح، والطول والقصر، والألوان والثياب، وما أشبه ذلك وفيه فصول ٢٨٩
الفصل الأول: فى الحسن ومحاسن الأخلاق ٢٨٩
الباب السابع والأربعون: فى التختم والحلى والمصوغ، والطيب والتطيب، وما أشبه ذلك ٣٠٨
الباب الثامن والأربعون: فى الشباب والصحة والعافية وأخبار المعمرين، وما أشبه ذلك وفيه فصول ٣١٠
الفصل الأول: فى الشباب وفضله ٣١٠

الفصل الثانى: فى الشيب وفضله ٣١٠
الفصل الثالث: فى العافية والصحة ٣١٣
الفصل الرابع: فى أخبار المعمرين فى الجاهلية والإسلام ٣١٤
الباب التاسع والأربعون: فى الأسماء والكُنى والألقاب وما استحسن منها ٣١٥
الباب الخمسون: فيما جاء فى الأسفار والاغتراب، وما قيل فيالوداع والفراق والحث على ترك الإقامة بدار الهوان وحب الوطن والحنين إليه ٣٢٠
الباب الحادى والخمسون: فى ذكر الغنى ، وحب المال، والافتخار بجمعه ٣٢٦
الباب الثانى والخمسون: فى ذكر الفقر ومدحه ٣٣٢
الباب الثالث والخمسون: فى التلطف فى السؤال وذكر من سئل فجاد ٣٣٣
الباب الرابع والخمسون: فى ذكر الهدايا والتحف، وما أشبه ذلك ٣٣٩
ذكر أنواع الهدايا للخلفاء وغيرهم ممن قصرت به قدرته، فأهدى اليسير وكتب معه مكاتبة يعتذر بها .. ٣٣٩
الباب الخامس والخمسون: فى العمل والكسب والصناعات والحرف، وما أشبه ذلك ٣٤١
الباب السادس والخمسون: فى شكوى الزمان وانقلابه بأهله، والصبر على المكاره، والتسلى عن نوائب الدهر وفيه ثلاثة فصول ٣٤٥
الفصل الأول: فى شكوى الزمان وانقلابه بأهله ٣٤٥
الفصل الثانى: فى الصبر على المكاره ومدح التثبت وذم الجزع ٣٤٨
الفصل الثالث: فى التأسى فى الشدة والتسلى عن نوائب الدهر ٣٥٥
الباب السابع والخمسون: ما جاء فيا ليسر بعدالعسر والفرج بعد الشدة، والفرح والسرور ونحو ذلك ٣٥٧
الباب الثامن والخمسون: فى ذكر العبيد والإماء والخدم وفيه فصلان ٣٦٣
الفصل الأول: فى مدح العبيد والإماء والاستيصاء بهم خيرًا ٣٦٣
الفصل الثانى: فى ذم العبيد والخدم ٣٦٤
الباب التاسع والخمسون: فى أخبار العرب الجاهلية وأوابدهم وذكر غرائب من عوائدهم وعجائب من أكاذيبهم ٣٦٦
الباب الستون: فى الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة والنوم والرؤية وما أشبه ذلك ٣٦٩
الباب الحادى والستون: فى الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد والتيقظ والتبصر ٣٧٩
الباب الثانى والستون: فى ذكر الدواب والوحوش والطير والهوام والحشرات، وما أشبه ذلك مرتبًا على حروف المعجم ٣٨٥
فصل فى خواص الطير والحيوان على الإجمال ٤١٨
الباب الثالث والستون: فى ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم ٤١٨
الباب الرابع والستون: فى خلق الجان وصفاتهم ٤٢٢
فصل فى مكايده- لعنه الله ٤٢٢

فصل فى المتشيطنة وهم أنواع كثيرة ٤٢٣
الباب الخامس والستون فى ذكر البحار وما فيها من العجائب وذكر الأنهار والآبار وفيه فصول ٤٢٥
الفصل الأول: فى ذكر البحار ٤٢٥
الفصل الثانى: فى ذكر الأنهار والآبار والعيون ٤٢٨
الفصل الثالث: فى ذكر الآبار ٤٢٩
الباب السادس والستون فى ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيان وفيه فصول ٤٣٠
الفصل الأول: فى ذكر الأرض وما فيها من العمران والخراب ٤٣٠
الفصل الثانى: فى ذكر الجبال ٤٣١
الفصل الثالث: فى ذكر المبانى العظيمة وغرائبها وعجائبها ٤٣١
الباب السابع والستون فى ذكر المعادن والأحجار وخواصها ٤٣٥
الباب الثامن والستون فى الأصوات والألحان وذكر الغناء واختلاف الناس فيه، ومن كرهه ومن استحسنه ٤٣٨
فصل فى الصوت الحسن ٤٣٨
الباب التاسع والستون فى ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم ونوادر الجلساء، فى مجالس الرؤساء ٤٤٣
الباب السبعون فى ذكر العشق، ومن بلى به، والافتخار بالعفاف، وأخبار من مات بالعشق، وما معنى ذلك وفيه فصول ٤٤٧
الفصل الأول: فى وصف العشق ٤٤٧
الفصل الثانى: فيمن عشق وعف والافتخار بالعفاف ٤٤٩
الفصل الثالث: فى ذكر من مات بالحب والعشق ٤٥٣
الباب الحادى والسبعون فى ذكر رقائق الشعر والمواليا والدوبيت وكان وكان والموشحات والزجل والحماق والقومة والألغاز ومدح الأسماء والصفات وما أشبه ذلك وفيه فصول ٤٥٩
الفصل الأول: فى الشعر ٤٥٩
فصل فى ذكر أرباب الصنائع والحرف والأسماء وما أشبه ذلك ٤٨٩
فصل فى الألغاز ٤٨٩
فصل فى بيان الفن الثانى وهو الموشح ٤٩٣
فصل فى الفن الثالث وهو الدوبيت ٥٠١
فصل فى الفن الرابع وهو الزجل ٥٠٢
الفن الخامس فى المواليا وله وزن واحد وأربع قوافٍ ٥٠٨
الفن السادس كان وكان ٥٠٩

الفن السابع فن القوما ٥١٠
الباب الثالث والسبعون في ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن وطلاقهن وما يحمد ويذم من عشرتهن وفيه فصول ٥١٣
الفصل الأول: في النكاح وفضله والترغيب فيه ٥١٣
الفصل الثاني: في صفات النساء المحمودة ٥١٩
الفصل الثالث: في صفة المرأةالسود نعوذ بالله تعالى منها ٥٢١
الفصل الرابع: في مكر النساء وغدرهن وذمهن ومخالفتهن ٥٢١
الفصل الخامس: في الطلاق وما جاء فيه ٥٢٣
الباب الرابع والسبعون في تحريم الخمر، وذمها والنهي عنها ٥٢٥
الباب الخامس والسبعون في المزح والنهي عنه وما جاء في الترخيص فيه والبسط والتنعم وفيه فصول ٥٢٧
الفصل الأول: في النهي عن المزاح ٥٢٧
الفصل الثاني: فيما جاء في الترخيص فيا لمزاح والبسط والتنعم ٥٢٧
الباب السادس والسبعون في النوادر وفيه فصول ٥٢٩
الفصل الأول: في نوادر العرب ٥٢٩
الفصل الثاني: في نوادر القراء والفقهاء ٥٣١
الفصل الثالث: في نوادر القضاة ٥٣١
الفصل الرابع: في نوادر النحاة ٥٣٢
الفصل الخامس: في نوادر المعلمين ٥٣٣
الفصل السادس: في نوادر المتنبئين ٥٣٤
الفصل السابع: في نوادر السؤال ٥٣٥
الفصل الثامن: في نوادر المؤذنين ٥٣٥
الفصل التاسع: في نوادر النواتية ٥٣٥
الفصل العاشر: في نوادر جامعة ٥٣٦
الباب السابع والسبعون في الدعاء وآدابه وشروطه وفيه فصول ٥٣٧
الفصل الأول: في الدعاء وآدابه ٥٣٧
الفصل الثاني: في الأدعية وما جاء فيها ٥٣٩
الباب الثامن والسبعون في القضاء والقدر وأحكامه والتوكل على الله عز وجل ٥٤٧
الباب التاسع والسبعون في التوبة والاستغفار ٥٥٠
الباب الثمانون فيما جاء في ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء وما جاء في السنة من العيادة وما أشبه ذلك وفيه فصول ٥٥٣

الفصل الأول: فى الأمراض والعلل، وما جاء فى ذلك من الأجر والثواب ٥٥٣
الفصل الثانى: فى ذكر العلل كالبخر والعرج والعمى والصمم والرمد والفالج وغير ذلك نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدنيا والآخرة ٥٥٣
الفصل الثالث: فى التداوى من الأمراض والطب ٥٥٥
الفصل الرابع: فيما جاء فى العيادة وفضلها ٥٥٨
الباب الحادى والثمانون: فى ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله ٥٥٩
الباب الثانى والثمانون: فى الصبر والتأسى والتعازى والمراثى ونحو ذلك وفيه فصول ٥٦٢
الفصل الأول: فى الصبر ٥٦٢
الفصل الثانى فى التعازى والتأسى ٥٦٤
الفصل الثالث: فى المراثى ٥٦٧
الباب الثالث والثمانون: فى ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها ٥٧٢
الباب الرابع والثمانون: فيما جاء فى فضل الصلاة على رسول الله ﷺ وهو آخر الأبواب وبه يختم الكتاب ٥٧٢